مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

أحمد الشقيري

الأعمال الكاملة

المذكّرات (٢)

المجلد الثاني

أحمد الشقيري

الأعمال الكاملة

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الشقيري، أحمد

أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة/ أحمد الشقيري؛ تقديم أنيس صايغ؛ تحرير خيرية قاسمية.

٦ مج.

محتويات: مج ٢. المذكرات (٢).

في رأس صفحة العنوان: لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري.

ISBN 9953-82-066-X (vol. 2)

ISBN 9953-82-063-5 (Set)

١. الشقيري، أحمد. ٢. مؤلفات كاملة. أ. العنوان. ب. صايغ، أنيس (مقدّم). ج. قاسمية، خيرية (محرّر).

923.25694

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز
الطبعة الأولى
بيروت، نيسان/ أبريل ٢٠٠٦

المحتويـــــــــــات(*)

من القمة إلى الهزيمة . . مع الملوك والرؤساء ٩٧١

على طريق الهزيمـة مع الملوك والرؤساء ١٢١٧

الهزيمة الكبرى مع الملوك والرؤساء، الجزء الأول ١٤٩٣

الهزيمة الكبرى مع الملوك والرؤساء، الجزء الثاني ١٧٢٩

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

من القمة إلى الهزيمة..
مع الملوك والرؤساء

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

من القمة إلى الهزيمة..
مع الملوك والرؤساء

أحمد الشقيري

(*) صدر هذا الكتاب في بيروت: دار العودة، ١٩٧١.

المحتويـــــــات(*)

الملوك والرؤساء . . . لو أنهم يقرأون!	٧
طردت من الأمم المتحدة ودخلت الجامعة العربية	١٥
مؤتمر القمة الأول من فندق هيلتون . . إلى بيت عبد الناصر	٣١
الملك حسين كتب . . والشقيري خطب	٥٣
المعسكر أولاً . . والكيان ثانياً	٦٥
الكيان الفلسطيني عند ثلاثة : الشعب والملوك وغروميكو	٧٩
حوار مع الأمير فيصل . . في الإسكندرية	٩٥
من الإسكندرية إلى دمشق . . بغداد . . الكويت	١٢٣
أنا لا أقرأ الفاتحة لأني لست رجعياً!!	١٤١
صداقتي وعداوتي مع بورقيبة	١٦١
أيام مع زعيم ملهم ورئيس مقدام وشعب عملاق	١٧٥
المصائب والمصاعب في العواصم العربية	٢١٥

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

الملوك والرؤساء...
لو أنهم يقرأون!

هذا هو الكتاب الذي أضعه بين يدي الأمة العربية بجماهيرها المعاصرة والوافدة، ليقرأه المواطن العربي الذي شهد الكوارث الثلاث: قيام إسرائيل في عام ١٩٤٨ والعدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ وحرب حزيران/يونيو في عام ١٩٦٧، وليقرأه المواطن العربي من جيل الثورة والتحرير سواء من يدبُّ اليوم على الأرض العربية رضيعاً، أو من تختزنه الأصلاب، وتحمله البطون.. الآن وفي كل زمان.

يتناول هذا الكتاب، ولست أعدو الحقيقة في ما أزعم، أخطر مرحلة مرّت في تاريخ الأمة العربية على الإطلاق، منذ أن أصبح لها تاريخ يقرأه الناس بين الآثار والأحجار والأسفار.

وإني أقولها «أخطر مرحلة على الإطلاق» واعياً مدركاً لما أقول، وأنا أستذكر الدراسات المستفيضة التي استنفدت كثيراً من وقتي وجهدي أيام غرقت بين المراجع العربية والأجنبية التي أسهبت الكلام في تفصيل الغزوات الصليبية والمغولية التي اجتاحت الوطن العربي في فترات متقاربة في القرون وأنزلت فيه الدمار، وأفشت فيه التقتيل والترويع والنار، وأزالت كثيراً من معالم حضارته وعمرانه، وكادت تقضي على وجوده بالاندثار.

ولست أريد أن أخوض في المقارنة بين تلك الغزوات السابقة والغزوة الإسرائيلية التي تدعمها الصهيونية والإمبريالية العالمية. وذلك موضوع دراسة مستقلة بذاتها. ولكني أريد أن أؤكد على التوكيد بما لا يقبل مزيداً من التوكيد، ولست أعتذر عن هذا التشديد، أن خطر الغزوة الإسرائيلية، إذا ما بقي الحكم

العربي الحاضر على حاله الحاضر، سيهدّد الأمة العربية في صميم وجودها وبقائها.. ولكن..؟

ولكن الأمة العربية، كما أثبت تاريخها الحافل بآيات الصمود، الغنيُّ بإرادة الحياة وعزيمة البقاء، لا يمكن أن تأذن بزوال شخصيتها القومية وانقراض كيانها وفناء وجودها.

ومن هنا، فإني أعود إلى توكيد التوكيد بأن الغزوة الإسرائيلية التي تهدّد وجودنا سيزول وجودها بالذات، طال الزمن أو قصر. ولا مندوحة أن تنفجر في الأمة العربية الثورة العربية الكبرى في إطار الثورة الأم، لتجتاح الوطن العربي بأسره من المحيط إلى الخليج، وتقتلع من طريقها كل أسباب الهزيمة وكل عوامل الوهن، وفي مقدمة ذلك كل حكم عربي جائر، جمهورياً كان أو ملكياً.

ويومئذ لا «قبلئذ»، تعود إلى فلسطين عروبتها، وتعود فلسطين إلى العروبة، ويتيسر للأمة العربية أن تبني حياتها القومية على خير ما تتمنى، وتؤدي دورها مع الأسرة الدولية في بناء عالم يسوده العدل والإخاء والسلام.

ويقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء متكاملة، ويسرد المسيرة العربية على مدى أربعة أعوام (١٩٦٣-١٩٦٧) في عهد الملوك والرؤساء، من مات منهم، ومن خُلع، ومن بقي على قيد الحياة.

ويتناول الجزء الأول مؤتمرَي القمة في القاهرة والإسكندرية (١٩٦٣-١٩٦٤) وما تخلّلهما من مناورات ومداورات وقرارات، وما يتصل بإنشاء القيادة العربية الموحدة والكيان الفلسطيني، وهيئة تحويل الروافد العربية.

ويسرد الجزء الثاني تفاصيل اجتماعات رؤساء الحكومات العربية، ومؤتمر القمة الثالث في الدار البيضاء (أيلول/سبتمبر ١٩٦٥) وما سبقه من اجتماعات الوزراء والسفراء وكبار العسكريين، من كان منهم في الثكنات أو في سدّة الحكم!!

ويتضمّن الجزء الثالث الأحداث العربية والدولية التي أفضت إلى حرب حزيران/يونيو والكارثة الكبرى التي حلّت بالأمة العربية، وتفاصيل مؤتمر الخرطوم والأسباب التي أدّت إلى انسحابي من ذلك المؤتمر، والظروف العربية والدولية التي أدت بعد ذلك إلى استقالتي من رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية.

وليس هذا الكتاب «تأريخاً» لمؤتمرات القمة في القاهرة والإسكندرية والدار

البيضاء والخرطوم. ولكنه سجلّ يتضمّن ذكرياتي عن تلك الحقبة بقدر ما رأيت وسمعت وساهمت، منذ أن شاء الحظ العاثر أن أكون رفيقاً للملوك والرؤساء في تلك المسيرة الخطيرة التي أنزلت بالأمة العار والشنار.

وها قد مرت عدة سنوات على تلك الحقبة، ونحن اليوم في صيف ١٩٧١ ندخل العام الرابع من النكسة، وأنا أحاول جهدي أن أحبس كل جوارح الحزن والغضب التي تعتمل في نفسي وتعتصر فؤادي، شأني في ذلك شأن الأمة العربية جمعاء.

ومن حق كل عربي، بل من واجبه، أن يحزن ويغضب وأن تذهب نفسه حسرات. إن الأمة العربية ترزح اليوم تحت كارثتين: احتلال إسرائيلي لا حدَّ لطغيانه وعدوانه، وحكم عربي لم يستطع أن يوحّد الصفوف، ويعبّئ القدرات، ويحشد الطاقات. ولعل الكارثة الثانية أدهى من الأولى وأمرّ.

وأنّى للحكم العربي المعاصر، وأعني بالتحديد الحكم العربي الذي قام في الوطن العربي منذ نشوء إسرائيل إلى يومنا هذا، أن يقوم بهذه المسؤوليات الوطنية الكبرى، وهو مشغول بنفسه، هُمُّه في ليله ونهاره أن يثبت وجوده ويدعم بقاءه، بمختلف الأسباب، وفي مقدمتها مصادرة الحريات الأساسية وسلب الشعب حقوقه المدنية وإهدار كرامة المواطن الفرد.

وفي صيف هذا العام بالذات، والأمة العربية غارقة في الحزن على وطنها المحتل، راحت تبكي على حرياتها السليبة وهي تسمع وكالات الأنباء تذيع عن ألد أعدائنا كيف تمارس الديمقراطية وكيف تُصان الحريات العامة. وأعني بألدّ الأعداء بريطانيا وأمريكا اللّتين كانتا ـ ولا تزالان ـ خلال الخمسين عاماً الماضية السبب المباشر في ما حلَّ بنا من كوارث وويلات.

ففي بريطانيا نشب حوار عنيف في مجلس العموم البريطاني حول ميزانية «صاحبة الجلالة الملكة» التي تبلغ نصف مليون جنيه بالسنة!! وخاضت الصحف البريطانية في تفاصيل النفقات دون ما حرج، ومن دون خوف من «حصانة الملكة». لقد استمعت الأمة العربية إلى هذا الحوار العنيف وهي تتساءل: كيف يصرف الأربعة عشر ملكاً ورئيساً الملايين والملايين من الجنيهات من دون قيود ولا حساب؟

ثم جاءت بعد ذلك أزمة السوق الأوروبية المشتركة وكيف انضمّت بريطانيا إلى عضويتها، وكيف حملت المعارضة على الحكومة حملة صارخة، متهمة إياها بالتفريط

في حقوق الوطن، وتضليل الشعب، وتزييف الحقائق. لقد استمعَت الأمة العربية إلى هذا كله ومن الإذاعة البريطانية بالذات. وراحت تتساءل أين المعارضة في الوطن العربي في ملكياته وجمهورياته؟ بل أين الإذاعة العربية التي تستطيع أن تخرج من «الأثير المغلق» لتذيع على الشعب آراء «معارضة» للحكومة، منددّة بسياستها كاشفة عن أخطائها؟

أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة، العدو الألدّ، فقد جاء الدرس أقسى وأشد. وكان أروع مثل تتلقاه أمتنا من عدو لدود عنود. ذلك المثل يتمثّل في إقدام الصحف الأمريكية على نشر أخطر أسرار، حول أخطر قضية. تلك هي قضية فييتنام.

وكما روت إذاعة صوت أمريكا، لقد أصيب البيت الأبيض بالذهول المروع وهو يرى الصحف الأمريكية تنشر وثائق سرية خطيرة تسرّبت إليها من وزارة الدفاع الأمريكية بصدد التدخل العسكري الأمريكي في فييتنام. وأعلن الرئيس الأمريكي «نيكسون» أن نشر هذه الوثائق «يعرّض المصلحة العليا والأمن القومي لأفدح الأخطار، ويسيء إلى علاقات الولايات المتحدة بالدول الحليفة والصديقة». وهذا أخطر ما يتسلّح به أي رئيس توكيداً لرأيه.

ولكن الرئيس نيكسون لم يصادر الصحف الأمريكية ولم يأمر بوقفها ولا باعتقال أصحابها ومحرّريها، لأنه لا يستطيع ذلك. وهو لا يستطيع ذلك لأن حرية الصحافة مصونة بالدستور. ولا يستطيع انتهاك الدستور، لأن الدستور ليس عبارات تكتب ولا كلمات تخطب. ولكنه حقوق أساسية مقدسة تمارس وتطبق.

ولم يكن أمام الرئيس الأمريكي إلا أن يقاضي الصحافة الأمريكية أمام المحكمة الاتحادية العليا. وهكذا فعل. واستمرّت المحاكمة قرابة أسبوعين ترافع فيها ممثلو الحكومة ومحامو الصحافة. وصدر القرار بالنهاية ليعلن «أن الحكومة قد عجزت عن إثبات دعواها وأن المصلحة العليا والأمن القومي يفرضان أن يطلع الشعب على الحقيقة وأن حرية الصحافة مصونة بالدستور..».

واستمرّت الصحافة الأمريكية في نشر الوثائق السرية عن أخطر قضيّة في عالمنا المعاصر، والتزام الرئيس الأمريكي بقرار المحكمة، من دون أن يلجأ إلى أية إجراءات أخرى يعرفها المواطن العربي عن تجربة واختبار!!

أجل إن الرئيس نيكسون لم يصدر أمراً بتأليف «محكمة أمن الدولة» لتحكم له

بما يريد. . . إنه لم يصدر أمراً بإلحاق الصحافة بوزارة الإعلام، لتنشر ما يريد البيت الأبيض وتحجب ما لا يريد.

إنه لم يعطّل أحكام الدستور ويصدر الدستور المؤقت «حفاظاً على مصلحة البلاد العليا والأمن الوطني ودرءاً لأهداف العدو الإجرامية. .».

إنه لم يعزل قضاة المحكمة العليا، أو يصدر أمراً بإحالتهم على التقاعد ليرهب سائر القضاة ويجعلهم رهن مشيئته ليصدروا الحكم بما يهوى.

إنه لم يفعل ذلك وغير ذلك لسبب بسيط جداً، كبير جداً. . ذلك السبب هو قدسية الدستور وحرية الصحافة واستقلال القضاء. كل ذلك يُطبق في نزاهة وشجاعة.

هذه هي المثل الرائعة التي هزت الأمة العربية، ثم راحت بعدها تنتحب، تنتحب على وطنها السليب الذي اغتصبه العدو الغادر. وتنتحب على حريتها التي صادرها الحكم العربي المعاصر. والكارثة الثانية كانت السبب في الكارثة الأولى.

وقد دأب الإعلام العربي بأجهزته المختلفة، منذ وقعت حرب حزيران/ يونيو يعدد ويعيد في أسباب الهزيمة، متنقلاً من الأسباب التكنولوجية إلى الأسباب الحضارية، إلى الأسباب العسكرية. . ويا شقاء الجندي العربي من الحكم العربي. ولكنه تجنّب أن يذكر رأس الأسباب.

إن رأس الأسباب هو الحكم العربي في أسلوبه، والحاكم العربي في أخلاقه.

ولقد أفجعني الحظ، ولا أقول أسعدني أني عرفت الحكم والحاكم. عرفتهما في مؤتمرات القمة حتى يوم الهزيمة. وفي هذا الكتاب صور نابضة عن الحكم والحاكم.

ولا بد للقارئ العربي المعاصر والوافد، أن ينتابه الذهول المرير وهو يقرأ هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة، فإن الحقبة التي يسجلها قد تغيرت معالمها ومعانيها. تغيّرت كثيراً.

أجل لقد تغيّرت المعالم. وأنا أكثر رجال «القمة» فجيعة وتوجعاً. لقد كان الملوك والرؤساء يعيشون أيامهم ولياليهم في قصورهم بعيدين عن تلك المعالم. ولكني كنت في ساحتها ومع ناسها، أعيش آلام الشعب وأحزانه.

في تلك الحقبة كنت أتردد على الضفة الغربية أجوس خلال مدنها وقراها ألتقي مع العمال والفلاحين واللاجئين والطلاب والشباب والنساء، نتبادل الشكوى والنجوى، وعلى مرمى البصر منا نرى وطننا السليب في حيفا ويافا وعكا وصفد وبيسان وطبريا واللد والرملة والناصرة، وما يربط بين هذه المدائن الكريمة من جبال شامخة ووهاد هانئة وزروع سندسية وخمائل فاتنة. . وها أنا أكتب اليوم هذه المقدمة الحزينة الغاضبة، والضفة الغربية التي كنا نرجوها منطلقاً للتحرير قد سقطت تحت الاحتلال الإسرائيلي، لا تستطيع حراكاً ولا مقاومة، فإن نظام الحكم الذي كان يحتويها قد سلبها كل مقومات الكفاح، الروحية والمادية على السواء.

ولست أنسى أيامي في بيت المقدس، حين كنت أطل بقلبي عبر أسوارها على ربوعنا المحتلة، المنحدرة حتى ساحلنا الخصيب. وها أنا أكتب هذه الكلمات الراجفات وبيت المقدس يضجّ تحت أقدام إسرائيل ويئن معه المسجد الأقصى، والحفائر تتسلل إلى قواعده بعد أن أحرقت بعض جدرانه، وفشت في ساحاته الكريمة ألوان الفجور والمجون.

أجل، أكتب هذه الكلمات الراجفات عن القبلة الأولى، وثالث الحرمين ومسرى الرسول ومعراجه، وملوك العرب والمسلمين لا تتحرّك. فهم ألسنة متلعثمة. والبترول العربي الإسلامي يعبر من الخليج إلى الخليج، من الخليج العربي إلى خليج العقبة ـ إلى ميناء إيلات، إلى جوف الطائرات الإسرائيلية، لتقصف أغوار الأردن وأجواء دمشق وصعيد مصر. ويصيح الزمان بملء فيه: قليلاً من الحياء والوفاء، يا ملوك العرب والمسلمين. ومع الضفة الغربية، كم وكم ترددت على قطاع غزة وعشت مع شعبنا البطل في أحلامه وآلامه. وبنينا معاً جيش التحرير وقوات المقاومة الشعبية في غزة وخان يونس ورفح. وقضيت أحلى أيام عمري وأنا أغدو وأروح بين مدن القطاع وقراه، أتنفس حين يتنفس الفجر نسمات الشمال تحمل إلينا أريج أرضنا المحتلة وشذاها. وما أحلى ذلك الشذى وذاك الأريج. وأنا اليوم أتابع مع الجماهير العربية أخبار النضال الباسل الذي يخوضه شعبنا الصامد الصابر في قطاع غزة، والحكم العربي الرسمي يغمره بالكثير من الإعجاب والتقدير، والقليل من المال والسلاح والعتاد!!

وفوق هذا وذاك فإن العدو المحتل آخذ في الهدم والبناء. إنه يهدم القرى العربية بالعشرات ويقيم على أنقاضها المستعمرات، ولو اتّسع وقت الملوك والرؤساء لقراءة التاريخ العربي لتعلموا أن هذه القرى الزكية تضم رفات الصحابة والمجاهدين. ولتعلموا كذلك أن حطّين التي سجّل فيها صلاح الدين واحدة من المعارك العالمية

الفاصلة تتململ تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي. ويا ويح حطّين مما دهاها في عهد حكام العرب المعاصرين.

تلك هي بعض المعالم التي تتغير كل يوم، بل وفي كل ساعة. ولكن المعاني هي التي تغيرت، فيا للهول، كيف تغيرت!!

لقد أصبح الحكم العربي الرسمي، بين صامت وناطق، ينادي بتحرير الأرض العربية بديلاً عن تحرير فلسطين. تماماً كمن يساوم عن ولد بولد، ولا يدري أنه سيخسر الاثنين معاً.

وأصبح الحكم العربي الرسمي يدعو إلى حل «سلمي شريف». وأين الشرف في حل يقوم على الاعتراف بإسرائيل وإقامة حدود آمنة لها وإباحة المرور لها في خليج العقبة وقناة السويس وإنهاء حالة الحرب معها. ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾[1]!!

وأصبح الحكم العربي الرسمي يتحدّث على المنابر العربية عن معركة المصير والحرب الحتمية.. في حين يتحدث على المنابر الدولية عن الصلح مع إسرائيل والحفاظ على سيادة إسرائيل. وهو هازل في الأولى، وجاد في الثانية.

وأصبح الحكم العربي الرسمي يداور ويناور في مواجهة المجزرة العربية في عمان يوم تقاتل الجيش والشعب والمقاومة في معركة خسرها الجميع وربحتها إسرائيل. ولو أننا قاتلنا في بيت المقدس كما تقاتلنا في شوارع عمان، ما كان لإسرائيل أن تعلن بيت المقدس عاصمتها الخالدة. بل ما كان لامرأة اسمها غولدا ماير، أن تتحدّى أربعة عشر رجلاً، اسمهم الملوك والرؤساء. ولو أن عربياً من الذين ماتوا قبل حرب حزيران/ يونيو، قد بعث من مرقده إلى الحياة، وسمع ما يقوله الحكم العربي في هذه الأيام، لآثر العودة إلى التراب مرة ثانية فلا يرى ما نرى، ولا يسمع ما نسمع.

ولكن الرجاء الأعظم والعزاء الأكبر، أن الأمة العربية في وادٍ، والحكم العربي في وادٍ.. وحين أتحدث عن الحكم العربي المعاصر فإنني لا أعني جميع الجميع، إن الأمة العربية ترفض الهزيمة وتأبى أن تستسلم لها. وما إسرائيل والحكم العربي المعاصر إلا أعراض لمرض عابر، ولا بد أن تتعافى الأمة العربية منهما معاً، وهذا هو اليقين. ﴿**ولتعلمن نبأه بعد حين**﴾[2].

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، «سورة ص،» الآية ٨٨.

وبعد، فهذا هو الجزء الأول من مذكراتي «من القمة إلى الهزيمة» سيقرأه المواطن العربي، جهاراً في بعض البلاد العربية، وسراً في البعض الآخر[٣].

ولكن، فليعلم الحكام الذين يمنعونه عن شعوبهم، أن من يقرأه سراً سيكون أكثر استمتاعاً وانتفاعاً. . بل، إن من يقرأه سراً، سيكون أكبر خطراً. فهل أنتم متّعظون؟

أحمد الشقيري

تموز/ يوليو سنة ١٩٧١

(٣) منعت بعض الدول العربية كتابين للمؤلف: **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**، و**حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** وهما متضمنان في هذه المجموعة.

طـردت مـن الأمـم المتحـدة
ودخلـت الجامعـة العربيـة

أجل، طردت من الأمم المتحدة بعد أن قضيت فيها زهرة شبابي. وسلخت فيها من عمري خمسة عشر عاماً، نصفها رئيساً للوفد السوري، ونصفها الآخر رئيساً للوفد السعودي. وها قد جاء أوان تصفية الحساب.

كان ذلك في آب/أغسطس من عام ١٩٦٣، حينما دخل عليَّ أحد مراسلي السفارة السعودية في بيروت، يحمل مظروفاً مختوماً بالشمع الأحمر.. وكان المراسل بادي القلق، وراح يتفرّس في وجهي، وأنا أفضّ خاتم الشمع وأفتح المظروف الكبير لأقرأ ما فيه.. وكان كل ما فيه ورقة صغيرة، وصغيرة جداً، فيها البرقية الآتية:

السيد أحمد الشقيري

بأمر من صاحب السمو الملكي الأمير فيصل تقرّر إنهاء عملكم.

«الخارجية»

وأعدت الورقة الصغيرة، والصغيرة جداً، إلى المظروف الكبير، والمراسل لا يزال يتفرّس في وجهي وهو يقول لي:

«يا سيدي لا تزعلْ، إن جزاءك عند الله، الله يوفقك».

قلت: «إن كلماتك يا أخي، أعظم عندي من هذه البرقية».

قال: «وهل يمكن أن تذهب إلى الأمم المتحدة بعد هذه البرقية؟ نحن نريدك أن تذهب إلى أمريكا لتدافع عن قضية فلسطين. إنها قضيتنا جميعاً».

قلت: «لقد قضيت في الأمم المتحدة خمسة عشر عاماً من عمري، وليس لي فيها رجاء. ويقيني أن الله قد اختار لي الخير. وإنها لكارثة أن أقضي بقية عمري في المحافل الدولية. لعل الله يريد لي أمراً. ومن يدري؟».

وانصرف المراسل، وأنا أُكْبِر فيه أريحية الأمة العربية. ومن أراد أن يستبين الأصالة العربية الشعبية فليقعدْ بين يدي هذا المواطن الصغير الكبير، الغني الفقير.

ووضعت البرقية في الملف الخاص برسائل «الأمير» فيصل (الملك فيصل)، وضممتها إلى الرسائل الكثيرة التي تبادلتها مع الأمير فيصل لمدة خمسة وعشرين عاماً، أثناء عملي في الجامعة العربية وبعدها.

ومن هذه الرسائل، واحدة للشكر على دفاعي عن قضية البريمي في الأمم المتحدة، وواحدة يطلب مني تقريراً عن اجتماعي بالجنرال فرانكو والبابا عام ١٩٥٢، وواحدة يثني فيها على تقرير كنت بعثته إلى الحكومات العربية بشأن تردّي الأوضاع في العراق في عهد عبد الكريم قاسم، ومنها.. ومنها.. ومعظم هذه الرسائل كانت بيني وبين الأمير فيصل، حين كنت أميناً مساعداً في الجامعة العربية، أو رئيس الوفد السوري في الأمم المتحدة، قبل أن أصبح وزير الدولة السعودي لشؤون الأمم المتحدة.

والواقع أن صداقتي بالأمير فيصل قد سبقت معرفتي بالملك سعود بزمن طويل. حتى إنني يوم قررت الموافقة على تكليف الملك سعود لي بالعمل في المملكة العربية السعودية وزيراً لشؤون الأمم المتحدة[١]، رأيت في صلتي القديمة بالأمير فيصل مدعاة للاطمئنان وحافزاً على القبول. لقد أُعجبت بالأمير فيصل عبر السنين لما كنت أرى فيه مما وهبه الله من معطيات الجزيرة العربية متمثلاً في ذكائه وصمته، ورباطة جأشه وهدوئه، وشاء القدر أن يكون التحاقي بالعمل عن طريق الملك سعود الذي لا أعرفه.. وأن يكون فصلي من العمل عن طريق الأمير فيصل الذي أعرفه، وما أكثر ما أعرفه!!

وأحسب أن الأمير فيصل كان على حق في إنهاء عملي، من وجهة نظره، كما كنت على حق في سيرتي ومسيرتي مع المملكة العربية السعودية. من وجهة نظري.

---

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وتبدأ الحكاية في صيف ١٩٦٢ حينما نشبت أزمة اليمن بين المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية المتحدة بسبب قيام الثورة في اليمن وإلغاء النظام الملكي وإعلان الجمهورية اليمنية.

وأخذ الصراع بين الرياض والقاهرة يشقّ طريقه إلى الأمم المتحدة. لقد بدأت تصلني برقيات من الخارجية السعودية عن «اعتداءات» القوات المصرية واليمنية على حدود المملكة العربية السعودية، لإبلاغها إلى مجلس الأمن كوثائق رسمية. فأبرقت إلى الخارجية السعودية بعدم جدوى الشكوى إلى الأمم المتحدة، وأنه من الخير أن تعرض الخلافات العربية على الجامعة العربية، وأن تبحث في نطاق الأسرة الواحدة. ولم تلتفت وزارة الخارجية السعودية إلى رأيي. واستمرّت ترسل إليَّ برقيات الشكوى وتطالبني بتعميمها على الدول الأعضاء في الأمم المتحدة. وعدت من جانبي أؤكد رأيي.

وجاءتني على أثر ذلك برقية موقعة من الأمير فيصل بنفسه، توكيداً للأهمية، بأن «وظيفتي أن أنفّذ التعليمات، لا أن أفسّرها». ولكني بقيت عند رأيي. وأبرقت إلى الأمير فيصل قائلاً: «لو كنت ممثلاً للرئيس عبد الناصر في الأمم المتحدة، وطلب إليَّ أن أقدم الشكوى على الأمير فيصل لما فعلت». ولجأت الخارجية السعودية إلى وسيلة أخرى. لقد أخذت ترسل الشكاوي إلى القنصلية السعودية في نيويورك، وهذه راحت تتولى توزيعها بالبريد العادي على وفود الأمم المتحدة.

وشاع أمر الخلاف بيني وبين الأمير فيصل في أروقة الأمم المتحدة. ورأت **النيويورك تايمز** و**الهرالد تريبيون**، وهما أكبر صحيفتين في أمريكا، الفرصة للشماتة بي. وراحتا تنشران أنباء هذا الخلاف وتشيران إلى أن الأمير فيصل «سيطرد الوزير السعودي أحمد الشقيري، المعروف بولائه للشيوعية، ولصداقته مع الرئيس المصري عبد الناصر».

وكانت دورة الأمم المتحدة تقترب من نهايتها وعدت إلى الوطن. فاعتصم الأمير فيصل بسكينته ورباطته ولم يتخذ إجراء. وتولى مكتب الوفد السعودي الدائم في غيابي إبلاغ بيانات الخارجية السعودية بصدد اليمن بكل انتظام. حتى إذا جاء الصيف التالي، وصلتني البرقية نفسها بإنهاء عملي من المملكة العربية السعودية، وهكذا «بيَّت» الأمير فيصل الموضوع معي عاماً كاملاً.

وكان هذا الإجراء أمراً طبيعياً من ناحية الأمير فيصل كما كان موقفي أمراً طبيعياً من جانبي. لقد كان الأمير فيصل يفكّر في مصير المملكة العربية وإلى جانبها

تقوم جمهورية اليمن بكل ما تنطوي عليها من معانٍ. وكنت من جانبي أفكر في المسيرة العربية في تطلّعها نحو حياة جديدة. وهكذا كان الأمير فيصل يفكّر في «الحكم السعودي»، وأنا أفكر في الأمة العربية. ومن هنا كان الخلاف بيننا!!

وكائنة ما كانت الأسباب، فقد حرصت ألا أثير ضجة حول الموضوع، في وقت كانت فيه معارك الخلاف على أشدها بين القاهرة والرياض. وانهال علي مراسلو الصحف الأجنبية يلحّون بأن أتحدث إليهم. ولكني لزمت الصمت وفاء لذكرياتي في المملكة ومع رجالها، بعد أعوام طويلة من الخدمة، وتعففاً عن مهاجمة الحكومة السعودية لأنها فصلتني من الوظيفة.

وتقاطرت عليّ الوفود الفلسطينية في بيتي في لبنان، والجميع يطلبون أن أتولّى قيادة الحركة الفلسطينية على الصعيد الشعبي، بعد أن انتهت صلتي بالعمل الرسمي. وبدأت أعرف ما لم أكن أعرفه في الماضي بسبب أسفاري الكثيرة وعملي في الأمم المتحدة، عن المنظمات الفلسطينية المتعدّدة.

وكان ممن زارني في تلك الفترة، ياسر عرفات، فقد تحدّث إلي عن منظمة فلسطينية تعدّ نفسها للنضال، وطلب مني أن أتولّى قيادتها السياسية. واعتذرت وشكرت. لقد كان كل همي أن أعمل مع الشعب بكل جماهيره لا مع إحدى منظماته.

وكنت أستمع إلى الوفود الفلسطينية باهتمام وعناية من دون أن أعد بشيء. لقد كنت أعرف مصاعب القضية الفلسطينية، كما عرفت أثناء عملي على الصعيد الرسمي جوانب الضعف في الحكم العربي في مجموعه.

وفي الأسبوع الأول من شهر أيلول/سبتمبر من عام ١٩٦٣، اتصلت بي السفارة العراقية في بيروت وأبلغتني برقية من عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية، يرجو فيها أن أسافر فوراً إلى القاهرة. وفي مساء اليوم نفسه زارني سفير الجمهورية العربية المتحدة عبد الحميد غالب، ونقل إلي برقية الجامعة العربية، وأضاف إليها رسالة شفوية من الرئيس جمال عبد الناصر، بأنه نظراً إلى خلو منصب ممثل فلسطين لدى الجامعة العربية بوفاة أحمد حلمي باشا رئيس حكومة عموم فلسطين، فإن المصلحة العربية تقضي بترشيحي لهذا المنصب، وإنه يأمل ألا أتردّد في قبول هذه المهمة من أجل قضية فلسطين، وإنه مستعدّ لبذل كل دعم وتأييد.

لقد كان هذا التكليف مفاجأة لي. لقد كنت أعلم أن الجامعة العربية في وادٍ والقضية الفلسطينية في وادٍ؛ وإن كانت قضية فلسطين هي التي كانت في رأس الأسباب التي ساهمت في إنشاء الجامعة العربية. وقلت للسفير العربي:

«أرجو أن تبرق للرئيس عبد الناصر شاكراً له رغبته وثقته، وإني معتذر عن قبول هذا المنصب».

قال: «يا أخي، لم أكن أتوقّع منك الاعتذار، لقد قضيت حياتك في خدمة القضية الفلسطينية، وهل تتخلّف الآن»؟

قلت: «إني لا أتخلّف عن خدمة بلادي ولكني أعرف الدول العربية جيداً وأعرف الجامعة العربية جيداً، لقد واكبت العمل العربي الرسمي خمسة عشر عاماً، وإن خبرتي الماضية لا تشجّعني على قبول هذه المهمة».

قال: «إنني أعرف ما تعني، ولكن الظروف تغيّرت كثيراً. صحيح أن المهمّة صعبة وشاقة، ولكنك ستجد التأييد الكامل من الدول العربية. وإن الجمهورية العربية المتحدة ستضع كل إمكاناتها لتيسر عملك. والدول العربية الأخرى لن تتردّد كذلك.. وبخاصة أن علاقتك حسنة مع جميع الدول العربية. لقد تولّيت الدفاع عن القضايا العربية بأسرها في الأمم المتحدة، وفي مقدمتها قضايا ليبيا وتونس والمغرب والجزائر».

قلت: «صحيح أن علاقتي حسنة مع الجميع بحمد الله. ولكني أخشى على علاقتي الحسنة من قضية فلسطين إذا كنت أميناً ومخلصاً لها. ولا أستبعد أن تصبح العلاقة الحسنة خشنة»!!

قال: «ليس هنا مكان البحث في هذه الأمور. أرجو أن تذهب إلى القاهرة. إن مجلس الجامعة مجتمع. تستطيع أن تضع شروطك: جرّبْ ولو لعام واحد. تستطيع أن تستقيل إذا لم يستجب لمطالبك. إن مهمتي عندك مختصرة: أنا مكلّف من قبل الرئيس عبد الناصر أن أطلب إليك السفر إلى القاهرة. ولن أخرج من بيتك قبل أن أسمع منك كلمة القبول».

كان السفير العربي يتحدّث، وكنت أفكر وأفكر.. لقد ترجّح عندي القبول لأني أردت أن أجرّب الدول العربية للمرة الأخيرة في حياتي. وأضمرت في نفسي العزم على الاستقالة، إذا وجدت الأمر مظهراً لا جوهراً. قلت للسفير غالب:

«على بركة الله. أرجو أن تبرق للجامعة بموافقتي، وأن تشكر الرئيس عبد الناصر. وإني أسأل الله العون، ولا أسأل سواه. ولكن. .».

قال: «ولكن. . ماذا»؟

قلت: «جواز سفري السعودي أرسلته إلى الخارجية السعودية لأجدّده. ليس عندي وثيقة سفر».

قال: «وهل هذه صعوبة؟ ستجد رجال الخارجية العربية والجامعة العربية بانتظارك في المطار»!!

انصرف السفير غالب من منزلي. وبدأت أحاسب نفسي. لماذا قبلت؟ ومضيت أستعرض، كما لو كنت أمام فيلم سينمائي، الأحداث العربية الهزيلة بشأن قضية فلسطين منذ أن أنشئت الجامعة العربية. وقضيت ليلتي وأنا أتقلّب على فراشي لا أدري ماذا أصنع.

ونهضت في الصباح على أجراس التلفون من الإخوان الفلسطينيين من القدس وعمان وبيروت يناشدوني القبول. وأنا أجيبهم بالشكر والتحية، ولقد سمعوا من الإذاعات أن الجامعة العربية ترشحني ممثلاً لفلسطين في مجلس الجامعة. ولكني عزمت في دخيلة نفسي أن أبرق إلى القاهرة معتذراً وشاكراً. وحدث في ذلك اليوم أن جاءني وفد من اللاجئين من مخيم «شاتيلا» في بيروت، ليعربوا عن سرورهم بتعييني لهذه «الوظيفة». ولم أكتم عن الوفد ترددي وحيرتي. فإذا برئيس الوفد، وهو شيخ كبير أخذ يشهق بالبكاء، وهو يصيح في وجهي:

«يا حاج أحمد، أحلّفك بالنبي الذي زرته ألا ترفض. نحن نريد منك أن تبني الكيان الفلسطيني».

لقد كان كلام هذا «الشيخ» هو الذي ثبتني على القبول. لقد أقنعتْني دموعه أكثر مما أقنعني وعد الرئيس عبد الناصر، ومعه الحكومات العربية مجتمعة.

واستخرت الله وحدّدت موعد سفري. وأخبرت السفارتين العراقية والمصرية. وخرجت من مطار بيروت من دون جواز سفر ومدير المطار يقول لي باللهجة اللبنانية المرحة:

«أنت ممثّل فلسطين في الجامعة العربية. لقد أذاعت النبأ محطة بيروت. وهل أنت تحتاج إلى جواز سفر؟!»

امتطيت الطائرة وأنا أرى في عاطفة الأخ مدير مطار بيروت، عواطف الجماهير

العربية في كل دنيا العرب. وليست لي شكوى على الأمة العربية، فإن قضية فلسطين هي في سويداء قلبها. ولكن شكواي هي من الحكم العربي كما خبرته إلى ذلك العهد.

ورحت في الطائرة، وأنا أقرب إلى الله، أدعوه أن يكون الحكم العربي الذي عرفته قد تغيّر أو أنه سيتغيّر. وعجبت للقدر، كيف أنني طردت من الأمم المتحدة، كما عبّر عن ذلك راديو لندن يوم انتهت خدمتي من المملكة العربية السعودية لأدخل الجامعة العربية!

ووصلت مطار القاهرة. ولم أجد أحداً من رجال الخارجية المصرية، ولا من الجامعة العربية، كما ذكر السفير غالب. وحفظتها في نفسي وأنا أقول هذا هو أول الطريق وهذه أول الصغيرات. قدمت نفسي إلى مدير المطار وذكرت له سبب مجيئي إلى القاهرة. وانتظرت بعض الوقت. ثم جاء وسلمَّني ورقة تثبت دخولي المطار. وانصرفت بحقائبي إلى منزلي، ومنه اتصلت بالجامعة العربية وأبلغتهم وصولي.

وفي صبيحة اليوم التالي، زرت عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية في مكتبه، وجرى الحديث طويلاً بيننا. وهو يؤكد لي أن الدول العربية، باستثناء المملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية ولأسباب «شكلية»، ترى أن تسند إليّ منصب ممثل فلسطين في الجامعة العربية. وأنها فرصة لخدمة القضية الفلسطينية في الظروف الراهنة وأنه أخذ وعداً من وفدَي الأردن والسعودية بالموافقة في ما بعد.

وكدت أعتذر بعد أن علمت بموقف الدولتين المخالفتين. وقلت في نفسي هذه صعوبة في أول الطريق. ولكن ترجّح عندي القبول في النهاية.

وانعقد مجلس الجامعة العربية في ١٩ أيلول/ سبتمبر لبحث موضوع تمثيل فلسطين في «مجلس الجامعة». فتكلّم رؤساء الوفود بشأن ترشيحي لهذا المنصب، باستثناء وفدَي الأردن والسعودية. لقد سجّلا عدم موافقة حكومتيْهما على الترشيح، وطلبا إثبات ذلك في محضر الجلسة. ولم يكن هذا الموقف من الوفدين مفاجأة لي. لقد كان طبيعياً للأمير فيصل ألا يوافق وهو الذي أنهى خدمتي بالأمس من المملكة العربية السعودية. ولعلّه رأى فيها تحدياً له في ذاك الجو المغبر الذي يسود العلاقات العربية. وكان طبيعياً كذلك للملك حسين أن يتّخذ موقف الرفض وكنت قبل ثلاثة أعوام قد ألغيت موعدي معه في نيويورك، بسبب خطابه في الأمم المتحدة، على نحو ما ذكرت[٢].

(٢) المصدر نفسه.

كل ذلك كان مفهوماً عندي. ولكن موقفاً لم أفهمه يومئذ، وهو موقف الوفد العراقي برئاسة د. ناصر الحاني، إذ تحدث طويلاً عن «قيام ظروف ديمقراطية تمكن الشعب الفلسطيني من اختيار ممثله في مجلس الجامعة، فلا يختاره مجلس الجامعة، وانفضت الجلسة للاستراحة. وخرجنا إلى الصالة وقلت لحسّونة: «أرجو أن نعتبر أنفسنا في جلسة رسمية في هذه الصالة، أريد أن أعلن أمامكم أنني لم أطلب هذا المنصب، وأني أعتبره مهمة وطنية. ولا أريد عليها راتباً. وإني أصر أن يذكر في القرار أنه نافذ إلى أن يتيسر للشعب الفلسطيني أن يختار ممثله لدى مجلس الجامعة، فإني أريد أن يكون هذا هو حق الشعب الفلسطيني. ولكني أريد أن أوجه ملاحظة إلى د. ناصر الحاني رئيس وفد العراق، أن الحياة الديمقراطية لم تكن في العراق في زمن العهد البائد، في أيام نوري السعيد وانتخابات نوري السعيد، وأتساءل الآن: هل يتمتع شعب العراق بحكم ديمقراطي بعد مصرع نوري السعيد، وهو مستقر في وطنه، وعلى رأسه حكومة وطنية، وليس شعباً لاجئاً كالشعب الفلسطيني؟[٣].

قلت هذا وقد اكفهرّ جو الاجتماع. وانتحى بي حسونة جانباً يهدئ من روعي، وانتحى رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة بالدكتور الحاني يناشده ألا يثير شيئاً حول ملاحظاتي.

وهكذا كان. لقد عدنا إلى الصالة الكبرى في الجامعة العربية. وفتحت الأبواب للصحافيين والمصوّرين. وتلا الأمين العام للجامعة القرار باختيار «السيد أحمد الشقيري مندوباً لفلسطين لدى مجلس جامعة الدول العربية، وذلك طبقاً لملحق ميثاق الجامعة الخاص بفلسطين، وإلى أن يتمكن الشعب الفلسطيني من اختيار ممثليه».

وكان هذا الشطر الأخير، عن حق الشعب الفلسطيني في اختيار ممثليه، بناء على إصراري. ولقد اعتبرته نصراً لشخصية الشعب الفلسطيني وعدم تبعيته للجامعة ووصايتها على شؤونه. وتطلّعت إلى ذلك اليوم الذي يستطيع فيه الشعب الفلسطيني أن ينتخب قيادته الوطنية، رغماً عن تشرّده وتشتته، في حين أنني عشت كل عمري أبحث في الوطن العربي عن النظم الديمقراطية الصحيحة وعن مكانها في الحكم العربي، وذلك منذ أن انتقلنا من الاحتلال الأجنبي إلى الاستقلال الوطني.

(٣) مثّل د. ناصر الحاني العراق في عهد عبد الكريم قاسم.

واغتنمت فرصة اجتماع مجلس الجامعة في جلسة علنية، وعلى مسمع من الصحافيين ومشهد من المصوّرين طلبت الكلمة. وكان الظن عند الجميع، أنها ستكون كلمة شكر وتحية، ولكني أردتها غير ذلك.

أردتها أن تكون كلمة صريحة مسهبة، تنزل في محاضر مجلس الجامعة، أحدد فيها سياستي وموقفي من الدول العربية ولأصارح الشعب الفلسطيني والأمة العربية، بكل آمالي وآرائي. وليحكم التاريخ بعد ذلك، عليَّ أو على الدول العربية.

وأعربت في صدر حديثي عن تمنياتي فقلت: «كم كنت أتمنى من كل جوارحي أن يتم اختياري بصورة إجماعية، لا بالنسبة إلى شخصي، ولكن بالنسبة إلى القضية المقدّسة التي هي قضية العرب جميعاً. غير أنني سأبذل قصارى جهدي بعد انفضاض المجلس لأنتزع الثقة التي حجبت عني أثناء انعقاد المجلس، وسأنتهز أول فرصة لأتصل بالرياض وعمان لتحقيق هذه الغاية».

وأردت أن أؤكّد طبيعة مهمتي ومنصبي أمام مجلس الجامعة في عبارات صريحة، فقلت: «يهمني قبل كل شيء أن أؤكد لمجلسكم الموقر أنني لا أرى في منصبي هذا عملاً روتينياً يقتصر على المشاركة في أعمال المجلس مرتين كل عام. إن القضية الفلسطينية تتمثل فيها نكبة مروّعة أصابت شعباً برمته في أقدس ما يملك، وهي لذلك تأبى بطبيعتها وجوهرها أن تحتمل الروتين من قريب أو من بعيد. ولست أرى كذلك في منصبي عملاً دبلوماسياً، ففلسطين ليست دولة مستقلة تأخذ بالأعراف الدبلوماسية. هذا فضلاً عن أن الدول المستقلة نفسها قد عزفت أخيراً عن كثير من الأساليب التقليدية وأخذت بأساليب التفكير الثوري. وإنني أقبل منصبي هذا من دون راتب، وكل ما يستحق لي من مكافآت فإنني أحيله من الآن إلى صندوق فلسطين من أجل تحرير فلسطين. وعلى هذا فإني أعتبر منصبي الذي عُهد إليّ بأنه منصب نضالي، تملكه أمة تريد أن تناضل من أجل تحرير الوطن».

وكان كلامي هذا يتجاوب في الصالة الكبرى للجامعة العربية، ولم يكن لفلسطين في الجامعة العربية إلى ذلك العهد صوت يسمع. ومنذ أن وقعت الكارثة قي ١٩٤٨ أصبح تمثيل فلسطين رمزياً أو شكلياً. ولقد مرت الأعوام تلو الأعوام ولم يكن لحكومة «عموم فلسطين» وهي التي كانت تمثل فلسطين، أي وجود. .

ولكن مجلس الجامعة، قد أحس بصدمة المفاجأة، وهو يسمع لأول مرة صوت فلسطين في تحديد واضح لمعالم القضية الفلسطينية. ومضيت أقول للمجلس بكل صراحة ووضوح: «ولقد أحسست، ولم أتولَّ العمل بعد، أن الصعوبات قد

بدأت تتراكم أمامي، ولم يكن هذا مفاجأة لي فقد عشنا هذه الصعوبات وتمرّسنا بها منذ أن نزلت بنا هذه النكبة. وليست أولى هذه الصعوبات تحالف الاستعمار والصهيونية، فإن أصعب الصعوبات، هو حال القضية الفلسطينية على الصعيد العربي. إن قضية فلسطين محاطة الآن بجو ثقيل مشحون بالأحداث العربية المؤلمة. . وإن على الجامعة العربية أن تجعل من قضية فلسطين عامل وحدة تحل محل الخلاف والفرقة. وإنني ما دمت في منصبي هذا لن أكون طرفاً في أي نزاع عربي، ولن أكون مع دولة عربية ضد دولة عربية أخرى؛ إن ولائي من أعماق ضميري سيكون لقضية فلسطين». .

وتابعت حديثي قائلاً: «أما الصعوبة الثانية التي أجدها في طريقي الآن، فهي ما ثار من شكوك ومخاوف بصدد الكيان الفلسطيني، فلقد قيل إن الكيان الفلسطيني يهدف إلى غرضين: أولهما سلخ الضفة الغربية وإقامة حكومة فلسطينية، وثانيهما أن تتخلى الدول العربية عن قضية فلسطين وكلا الأمرين باطل من أساسه. إن أهل فلسطين قد أصبحوا قوة غير عاملة في الحقل العربي منذ ١٥ عاماً، ويهدف الكيان الفلسطيني إلى أن يصبح أهل فلسطين قوة وطنية عاملة تسهم في تحرير فلسطين. . يريد الكيان الفلسطيني أن يمكن للقادرين على حمل السلاح من أبناء فلسطين، أن يحملوا السلاح لتحرير فلسطين. . إن للجندي الفلسطيني تفوقاً على غيره في ميدان البطولة والبسالة بسبب معرفته بوطنه. . وبسبب العاطفة الجارفة التي تعيش في صدره».

ولقد كان هذا الكلام جديداً على مجلس الجامعة، فإن الحديث عن تحرير فلسطين، وتجنيد الشعب الفلسطيني حديث التمنيّات البعيدة المنال. ولكن مجلس الجامعة أصابه الوجوم والذهول وأنا أوجّه إليه ما يشبه الإدانة القاسية، حين قلت: «أما الصعوبة الثالثة، فإنها تكمن في الظروف التي تحيط بقضية فلسطين في جامعة الدول العربية، وأنا هنا أتكلم عن معرفة بشؤون الجامعة. . إن مهمتي ليست حضور هذه المناقشات أو الاشتراك في القرارات. . إن واجبي أن أحمل قراراتكم إلى وزارات الخارجية لألحّ على تنفيذها. . لست هنا في منصب دبلوماسي. . إن قضيتنا نضالية. . وإن أبواب وزارات الخارجية في كل بلد عربي يجب أن تكون مفتوحة لخدمة هذه القضية. . لقد بلغت قرارات الجامعة العربية منذ إنشائها، عن قضية فلسطين، ٥٨٩ قراراً. . وهذا العدد الكبير ليس دليل الصحة والعافية ولكنه يدل على خلل كبير. لقد جرحت الجامعة العربية جرحاً عميقاً بسبب قضية فلسطين». .

ثم أشرت بعد ذلك إلى القرار الذي أصدره المجلس بتكليفي بتأليف وفد فلسطين للسفر إلى الأمم المتحدة لعرض القضية الفلسطينية. وصارحت المجلس بقولي: «إن الأمم المتحدة ليست خاتمة المطاف في قضية فلسطين، أقول هذا عن خبرة متواضعة في شؤون الأمم المتحدة.. إنه لا حل لهذه القضية في الأمم المتحدة.. إن الحلّ يجب أن نلتمسه في الوطن العربي وفي الوحدة العربية»(٤).

ثم ختمت حديثي بقولي: «وسأبذل كل جهدي لنقل القضية من الجمود الذي تعانيه إلى النشاط الذي نريده ونصبو إليه.. وسأسير في هذا الطريق إلى نهايته بكل صبر وبكل عزيمة، فإذا أفلحت فذلك ما أرجوه وإلا فسأعيد هذه الأمانة إليكم.. وسأظل من جانبي أعمل لفلسطين، ما حييت منتهجاً كل طريق أجده أمامي مفتوحاً..».

وبشكل عام، فقد اغتنمت تلك الفرصة وأفرغت فيها آلامي الماضية من الحكم العربي، وأنا أتطلّع إلى حاضر أكرم ومستقبل أعظم.. وأقبل علي رؤساء الوفود بكلمات التهنئة، وكل واحد منهم يقول: «هذه نبرة جديدة.. هذا هو الكلام الصحيح.. يجب على الجامعة العربية أن تسير في طريق الجد والعزيمة». وكنت بدوري أردّ على كلمات التحية والتهنئة وأنا أقول: «أنتم الذين تملكون طريق الجد والعزيمة.. وأنتم الجامعة وليست غيركم. ولا تتمنوا شيئاً على سواكم».

وانهال علي الصحافيون العرب والأجانب، بخاصة المصريون منهم، يطلبون النص الكامل لذلك الخطاب «الجديد» في ذلك العهد «الجديد».. لقد اهتمت به الصحافة، خارج القاهرة، اهتماماً بالغاً.. وأهملته صحف القاهرة إهمالاً ظاهراً.

وزارني في اليوم الثاني، وفود عربية وفلسطينية كلهم يشيدون بخطابي في الجامعة، وكلهم يعلّلون إهمال صحف القاهرة له، بآراء وآراء..

كان هنالك رأي يقول بأن القاهرة لم ترد أن تبدو متحمسة للكيان الفلسطيني ولا للشقيري، حتى لا تتّهم بأن لها غرضاً معيّناً وراء ذلك.

---

(٤) أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وقال رأي آخر، إن القاهرة لا تريد أن تستعجل الأمور أكثر مما ينبغي، وقد تجاوز خطاب الشقيري الحد اللازم.

وقال رأي ثالث، بل إن القاهرة لم تجد في الخطاب مادة تصلح أن تكون وقوداً للحرب التي كانت دائرة بين المعسكر الثوري والمعسكر «الرجعي» في العالم العربي.

كنت أستمع إلى هذه الآراء وأنا صامت لا أعلق بقليل أو كثير، مكتفياً بالقول بأنني ـ أيها الإخوة الفلسطينيون ـ سأمضي في طريقي. وليكن موقف القاهرة ما يكون، فإن الزمن سيكشف كل شيء وسيفصل في ما شجر بينكم.

وكان أول الواجبات أمامي، ونحن على أبواب دورة الأمم المتحدة، تأليف الوفد الفلسطيني، وكان ذلك أوّل صعوباتي.

وجوهر هذه الصعوبة مردّه أن الشخصية الفلسطينية قد احتجبت في الأمم المتحدة، لمدة خمسة عشر عاماً. لقد كانت الهيئة العربية العليا تمثّل فلسطين في المحافل الدولية إلى أن وقعت الهزيمة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وتهاوت القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة وأصبحت مشكلة لاجئين. ونشط خلال ذلك د. عزة طنوس (القدس)، فافتتح مكتباً في نيويورك للدفاع عن قضية فلسطين، بمعاونة الحكومة العراقية، وراح يشرح قضية اللاجئين أمام اللجنة السياسية الخاصة التابعة للأمم المتحدة. ولكن الحاجة كانت ماسة إلى وفد فلسطيني يمثل الشعب الفلسطيني ويطرح قضية فلسطين كقضية قومية تحريرية. وهذا بطبيعة الحال يتطلّب أن يكون للشعب الفلسطيني قيادة وطنية في إطار تنظيم وطني أو كيان فلسطيني كما اصطلح عليه في السنين الأخيرة.

وحين توليت عملي، في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦٣، ممثلاً لفلسطين في الجامعة العربية، لم يكن للشعب الفلسطيني كيان وطني ولا قيادة وطنية. ولهذا كان علي أن أؤلف وفداً فلسطينياً يمثل شعب فلسطين، قبل الكيان الفلسطيني وقبل القيادة الفلسطينية. وهنا تكمن الصعوبة النظرية والواقعية. ولكن كيف؟

كانت الصعوبة الواقعية الأولى: أن الشعب الفلسطيني لم يعد متجمّعاً كما كان قبل نكبة ١٩٤٨. إنه يعيش في تجمّعات كبرى: في المملكة الأردنية الهاشمية وفي قطاع غزة وفي سوريا وفي لبنان. لقد فرض هذا التمزق على تفكيري أن أؤلف الوفد الفلسطيني من هذه التجمعات، وأن أحاول ما أمكن أن أحافظ على النسبة العددية

بين هذه التجمعات، وأن أضم إلى الوفد عدداً من الشخصيات الفلسطينية المعروفة بمكانتها لدى الشعب الفلسطيني، بالإضافة إلى الكفاءات الفلسطينية؛ ذلك أن تمثيل الشعب الفلسطيني يفرض مثل هذه الشخصيات المرموقة. وليست بيدي سلطة أفرض فيها وفداً معيناً. وليس للشعب الفلسطيني كيان يمكن من خلاله اختيار الوفد، ولم نكن في غمرة ثورة شعبية تستطيع أن تفرض كلمتها.

وانطلاقاً من هذا التفكير «الصحيح» بالنسبة إلى واقع الشعب الفلسطيني وظروفه، والتفكير «العليل» بالنسبة إلى ما يجب أن يكون، بدأت زيارة سريعة إلى الأردن وسوريا ولبنان وقطاع غزة، لأقوم باتصالات مع الحكومات العربية والتجمعات الفلسطينية.

وإني أعترف الآن بأني «استرضيت» الحكومات العربية في اختيار أشخاص هذا الوفد، واسترضيت ما استطعت التجمّعات الفلسطينية. وكان استرضاء الحكومات العربية أمراً لا مفر منه في تلك المرحلة، فإن الوفود العربية في الأمم المتحدة هي التي ستعتمد الوفد الفلسطيني في الأمم المتحدة. والحكومات العربية هي التي تتولى تسهيل أسباب السفر من الجوازات إلى تصاريح السفر ونفقات السفر. لقد كان سفر الفلسطيني من بلد إلى بلد، ولا يزال، مشكلة وأي مشكلة!!

وإني أذكر النفقات بكل أسف ومرارة. ولم يكن عندي صندوق فلسطيني أنفق منه، ولم تضع الجامعة العربية تحت تصرفي أي مبلغ من المال. ولقد عينتُ ممثلاً لفلسطين لأصنع المعجزات من براثن المستحيلات!!

وكانت أول زياراتي الرسمية للملك حسين في عمان. وتحدثت إليه طويلاً عن تأليف الوفد الفلسطيني ومزايا إبراز الشخصية الفلسطينية في الأمم المتحدة وضرورة إعادة بناء الكيان الفلسطيني حرصاً على بقاء الشخصية الفلسطينية حية على الصعيدين العربي والدولي.

ولكن الملك حسين كان متجهّماً وعابساً لا يستريح إلى الكيان الفلسطيني ولا إلى الشخصية الفلسطينية. وكل منطقه: نحن فلسطين ونحن القضية الفلسطينية، وأن الأردن دولة وجيشاً وشعباً يتكفّل بالقضية الفلسطينية ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من ذلك!!

وقضيت بضعة أيام في الحوار مع الملك حسين من دون جدوى. وكنت أقضي الليالي في فندق «الأردن» أفكر في هذه المصيبة الكبرى التي اسمها «قضية فلسطين»، وكيف رضيت أن أحملها من الحكومات العربية وأنا خالي الوفاض من كل شيء.. إلا

من ورقة صغيرة فيها قرار تعييني ممثلاً لفلسطين في الجامعة، كما كان سلفي أحمد باشا، لا حول ولا طول.

وكان رجال المباحث الأردنية يملأون ردهات الفندق يسألون عمّن يزورني، كما كانت سيارتهم العسكرية محيطة بالفندق وعلى أهبة الاستعداد. . وأصبحت سجين الفندق. ولم يجرؤ على زيارتي إلا الشجعان من أصدقائي ومعارفي، ذلك أن الكيان الفلسطيني، ولم يكن قد ولد بعد، جريمة كبرى في نظر الأردن. وكل من يقترب مني فإنما هو موافق على هذه الجناية الكبرى أو الخيانة العظمى.

ولجأت، حين أوشكت على اليأس، إلى المناورة والتهديد؛ فقد تحدثت «سراً» إلى من أعرف صلتهم بالملك حسين. حدثتهم بأني سأغادر عمان قريباً، وسأعلن تأليف الوفد الفلسطيني ممن أختارهم. وسيسافر الوفد إلى نيويورك كأمر واقع. وانطلى هذا «المكر» على الملك حسين، أعانني على ذلك خشيته أن أكشف إلى الرأي العام الموقف السلبي للأردن. وأصدر أمره «السامي» إلى وزارة الخارجية بالاتفاق معي على اختيار الأردنيين من الوفد من أبناء فلسطين.

وبدأت المفاوضات والمساومات بيني وبين الخارجية الأردنية. وتم اختيار عدد من الفلسطينيين «الأردنيين» في الوفد الفلسطيني، وتعهدت الحكومة الأردنية بنفقاتهم وجميع التسهيلات اللازمة. وخرجت من عمان إلى دمشق بعد أول أزمة مع الملك حسين، انتصرت فيها الشخصية الفلسطينية، وهي أول ما تحبو على وجه الأرض.

وقضيت ليلتين في دمشق وأنا في حوار مع قادة البعث، لأحملهم على اختيار اثنين من الفلسطينيين في سوريا. وامتد الحوار وامتد، ولم استطع يومئذ أن أصل إلى نتيجة، ولا إلى معرفة السبب. وخرجت من دمشق التي عشت فيها أعز أيامي في الكفاح السياسي، فاشلاً خائباً لأسباب سأشرحها في سياق مذكراتي.

ومن دمشق، امتطيت الطائرة إلى القاهرة ومنها إلى قطاع غزة. وقضيت ثلاث ليال في أخذ وردّ مع مجموعات الشعب الفلسطيني، والحاكم الإداري للقطاع الفريق يوسف العجرودي. وتنفّس الفجر في اليوم الرابع فتنفّست الصعداء. لقد وفّقت في اختيار مندوبي قطاع غزة في الوفد، وأن تتحمل الإدارة نفقات الوفد.

وكان الحاج أمين الحسيني صعوبة أخرى في تأليف الوفد، فقد كان يصر أن يكون له عشرة أعضاء في الوفد. لقد اجتمعت به غير مرة في بيروت وأمطرني بعدد من رسله يؤكدون حق «سماحته» في أكبر عدد من أعضاء الوفد. وبعد جدال وافقت أن أضم إلى الوفد الفلسطيني خمسة من مرشحيه تمثيلاً للهيئة العربية العليا التي لم يبق منها إلا سماحته، رئيساً على غير مرؤوسين. ولقد رضيت بهذا الترقيع، لأن الشعب

الفلسطيني كان ممزقاً. وما كنت أريد أن يفاجئني سماحته في الأمم المتحدة بوفد يمثل الهيئة العربية التي لا تمثّل من الشعب الفلسطيني أحداً[٥].

ولم تكن هذه الخشية في غير محلّها. ولقد أرسل الحاج أمين الحسيني في دورة لاحقة وفداً خاصاً يمثل الهيئة العربية لينافس وفد منظمة التحرير الفلسطينية.

كان ذلك في خريف عام ١٩٦٥ حينما فوجئَت الأمم المتحدة وهي تستمع إلى بيانات وفد منظمة التحرير، بطلب تقدم به وفد يمثل سماحته لإلقاء خطاب باسم الشعب الفلسطيني، باعتبار أن الهيئة العربية العليا هي «الممثل الوحيد» للشعب الفلسطيني.

وهكذا تم تأليف الوفد الفلسطيني في عام ١٩٦٣، من ثمانية عشر شخصاً، بينهم سيدتان هما وديعة الخرطبيل رئيسة الاتحاد النسائي الفلسطيني في بيروت، والآنسة يسرى البربري من غزة. ولم أكد أعلن أسماء الوفد، حتى بدأ القيل والقال، والجدال والسؤال..

ـ لماذا يكون الوفد مؤلفاً من ثمانية عشر، هذه نفقات لا لزوم لها؟

ـ لماذا لم تمثل التجمعات الفلسطينية الأخرى، أليسوا فلسطينيين؟

ـ لماذا الوجهاء، وهل الأمم المتحدة في حاجة إلى وجهاء؟

ـ لماذا لا يكون في الوفد عدد أكبر من السيدات؟

ـ لماذا السيدات؟ وهل في الوفود العربية سيدات؟

هذه الأسئلة وعشرات مثلها كانت تدور على الألسنة، لا بين جماهير الشعب التي لا تهوى الجدال، ولكن في حلقات بعض المثقفين، وبعض كبار الموظفين وبعض كبار التجار ممن يريدون تحرير فلسطين وهم ناعمون في بيوتهم، والقضية عندهم سمر وسهر، في ليالي القمر.

ولقد صبرت على الجدل والمجادلين، وكان عزائي أن الشعب الفلسطيني في وادٍ، وهؤلاء في وادٍ. وسافرنا إلى الأمم المتحدة، وفداً متوحّد الكلمة، حسن التصرف وأدّى كل واحد واجبه نحو وطنه..

وعرضت القضية الفلسطينية عرضاً شاملاً في ثلاث خطب رئيسية نشرتها منظمة التحرير الفلسطينية في ما بعد في كتاب مستقل: **فلسطين على منبر الأمم**

(٥) انظر الدور القيادي لأمين الحسيني في: الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية.**

المتحدة رددت فيها على حجج إسرائيل منذ قامت إسرائيل. وسيظل هذا الكتاب، بكل تواضع، مرجعاً لكل عربي يريد أن يتصدى لإسرائيل في المحافل الدولية[٦].

وعدت من الأمم المتحدة في أواخر ١٩٦٣ مجهداً مكدوداً يشد من عزمي أن الشخصية الفلسطينية قد أكدت وجودها في الأمم المتحدة لأول مرة بعد عام ١٩٤٨.

كان ذلك أول انتصار سياسي لقضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي: على الصعيد العربي لأن الشخصية الفلسطينية قد فرضت وجودها، وعلى الصعيد الدولي لأن الشخصية الفلسطينية قد رفعت صوتها، صوت الوطن، وقالت كلمتها، كلمة الشعب، وأعلنت مطلبها، مطلب التحرير.

وأمام هذا الانتصار، تهاوت على الأرض مجادلات المجادلين وسخريات الساخرين. وحمدت الله أنهم أقل من قليل، في شعبنا البطل، وأمتنا المجيدة.

وعدت إلى الوطن وقد اجتزت صعوباتي في الجامعة العربية، لأواجه صعوبات أضخم في مؤتمر القمة الأول.. مؤتمر الملوك والرؤساء..

وما أشقى الفلسطيني اللاجئي مثلي حينما يصبح رفيقاً للملوك والرؤساء.

أجل إنها رفاقة يضلُ فيها المرء ويشقى.. ولكن ﴿**فمن اتبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى**﴾[٧] صدق الله العظيم.

---

(٦) انظر خطب المؤلف في: أحمد الشقيري، **فلسطين على منبر الأمم المتحدة** ([بيروت]: منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٥).

(٧) **القرآن الكريم**، «سورة طه،» الآية ١٢٣.

مؤتمـــر القمـــة الأول
من فنـدق هيلتـون.. إلى بيت عبد الناصر

لم أكد أعود إلى القاهرة من دورة الأمم المتحدة في نيويورك في أواخر عام ١٩٦٣، حتى وجدتني أمام رحلة جديدة. وهذه المرة إلى شمال أفريقيا.

وكانت المناسبة جلاء القوات الفرنسية عن بنزرت في تونس. لقد تلقيت الدعوة من الرئيس الحبيب بورقيبة بوصفي ممثلاً لفلسطين في الجامعة العربية، وكانت الدعوات قد صدرت إلى ملوك العرب ورؤسائهم. ورأيت فيها فرصة لتجسيد الشخصية الفلسطينية ومشاركة الشعب الفلسطيني في ما تشارك فيه الشعوب الأخرى.

وبادرت إلى قبول الدعوة يحفزني إليها أنها مناسبة عربية كبرى للاتصال والحديث عن قضية فلسطين. وتفضلت الحكومة التونسية بتحمل نفقات السفر والإقامة. ولم يكن لفلسطين صندوق ننفق منه، لا قليلاً ولا كثيراً!! ووصلت تونس مع عدد من الوفود العربية، لنجد الشعب التونسي يملأ الشوارع والميادين العامة وهو يعرب عن فرحته الكبرى بجلاء القوات الفرنسية عن أرض الوطن. وتقاطرت الوفود الصديقة من كل أرجاء العالم لتحتفل مع الشعب التونسي في هذا اليوم المجيد. وكان الرئيس عبد الناصر والرئيس بن بللا في طليعة الوفود العربية.

وكان البرنامج حافلاً بالنشاط والحركة، من مصنع إلى مصنع، ومن مزرعة إلى مزرعة، ومن مشروع إلى مشروع. والرئيس بورقيبة يزهو بما حقّق لشعبه من البناء والإنشاء في مرحلة الاستقلال، وهو على حق في زهوه وخيلائه في ما حقق لتونس، لا في موقفه بالنسبة إلى فلسطين.

وأقيم احتفال شعبي كبير خطب فيه الرئيس بورقيبة عن إنجازات تونس حكومة وشعباً، كما خطب عدد من الوفود العربية والصديقة. وكانت حماسة الجماهير دافقة ملتهبة، وكلها تهتف لفلسطين وتحرير فلسطين، حتى بدا الاجتماع وكأنما تنادى له

شعب تونس من أجل تحرير فلسطين لا ابتهاجاً بتحرير بنزرت. وتلك هي عاطفة الأمة العربية في كل دنيا العرب، وفي جميع أيامها القومية.

واستقبلني الرئيس بورقيبة في القصر الجمهوري. وتحدّثنا ساعة من الزمن أشاد فيها بلقائنا في فلسطين قبل ثلاثين عاماً، وبمناصرتي للقضية التونسية في الأمم المتحدة[1]. وشرحت له الظروف التي تمرّ بها القضية الفلسطينية والمصاعب التي يلقاها أبناء فلسطين في الوطن العربي مما يحدّ من نشاطهم القومي في سبيل قيام كيان فلسطيني يجمع شتاتهم ويوحد كلمتهم ويكون منطلقاً لنضالهم الوطني. ثم أشار إلى «الأخطاء» العربية في عدم التزام الواقعية في قضية فلسطين ورفض التسويات المتعددة التي عرضت في الماضي مما أفضى إلى كارثة فلسطين. وأخذت أشرح له الفروق الكبيرة بين قضية فلسطين والقضايا العربية الأخرى بخاصة قضية تونس، وأن سياسة المراحل على الصعيد الدولي، لا تصلح للقضية الفلسطينية، لأن الشعب كان يواجه غزوة استعمارية استيطانية تستهدف إقامة وطن على أنقاض وطن، وإحلال شعب على جذور شعب. وطال الحديث من دون أن أستطيع الوصول مع الرئيس بورقيبة إلى نتيجة. وهو يقول لي: «سندعوك إلى تونس لندوة في الحزب لنبحث في الموضوع ملياً». وقلت «حباً وكرامة، ويسعدني أن ألبّي هذه الدعوة». وجاءت الأيام على غير ما نشتهي. ولم تصلني الدعوة، وتطوّرت أفكار الرئيس بورقيبة على نحو آخر مما حملني على المطالبة بفصل الحكومة التونسية من الجامعة العربية، كما سأعرضه في ما بعد.

واجتمعت بالرفاق القدامى، الوزراء التونسيين: الباهي الأدغم، والحبيب بورقيبة الابن والمنجي سليم. وكانت بيننا صلات وذكريات لمناسبة دفاعي عن القضية التونسية في مؤتمر باندونغ وفي الأمم المتحدة. وطمعت أن يبادلوني حماستي لقضية تونس، بحماسة لقضية فلسطين. ولكني وجدت فتوراً وتحفظاً. ولم أدرِ السبب في ذلك. أهو الحكم ومسؤولياته وظروفه، أم التفكير البورقيبي في قضية فلسطين. وما أبعد الشقة بين ما سمعت في الشارع من الجماهير التونسية، وما سمعت من المسؤولين التونسيين في مكاتب الوزارات!!

وتهيأت لي فرصة للتجوال في المدن التونسية، خارج العاصمة. ولقيت أبناء فلسطين يعملون في المدارس التونسية. وكانت لي معهم ندوات واجتماعات. وكلهم في حماسة بالغة يتطلّعون إلى قيام تنظيم فلسطيني يعبر عن إرادتهم ويقودهم إلى النضال. وزرت المعاهد والمدارس التونسية. وتحدّثت إلى الطلاب التونسيين حيثما ذهبت.

---

(١) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وشرحت لهم القضية الفلسطينية في مختلف أدوارها. وأحسست بالعزيمة الصادقة والوعي السليم في الجيل العربي الذي يتبوّأ مكانه في مقاعد الدراسة، وينتظر دوره الكبير في حاضر الأمة العربية ومستقبلها. وانزاح عن صدري كابوس الحكم العربي المعاصر، وكان جاثماً على صدري منذ عهد الاستقلال إلى يومنا هذا. ولكم تمنيت أن أضع له كتاباً مستقلاً لأكشف الحكم العربي وأفضحه أمام الأمة العربية.

وفي ختام زيارتي لتونس، عقدت مؤتمراً صحافياً حضره عدد كبير من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء العالمية الذين توافدوا على تونس لهذه المناسبة القومية الكبيرة. وأسهبت في شرح القضية الفلسطينية مشيراً إلى تحفّز الشعب الفلسطيني للقيام بدوره في تنظيم صفوفه والعمل لتحرير وطنه.

ومن تونس امتطيت الطائرة إلى الجزائر. ولم أكن قد عرفت هذا القطر المجاهد إلا من خلال كفاحه الطويل. وحين وصلت المطار كدت أهوي على أرضه ساجداً أقبّل الثرى الطاهر بعد أن رواه دم الشهداء عبر السنين والأجيال، لولا أني رأيت نفسي أمام استقبال رسمي فيه كل مظاهر الحفاوة والتكريم. وكان بين المستقبلين عدد من الوزراء الجزائريين بينهم عبد العزيز بوتفليقة وزير الخارجية وتوفيق المدني وزير الأوقاف والسفراء العرب وجمع من أبناء فلسطين. ولم تترك حماسة الفلسطينيين مكاناً للبروتوكول والمراسيم، فقد اقتحموا كل التقاليد ليروا ممثل فلسطين ويهتفوا لفلسطين. وانطلقت بنا السيارات وأمامنا الدراجات النارية تخترق الشوارع التي شهدت أعنف معارك الكفاح. وأبصرت على الأرصفة بقايا الجالية الفرنسية يمدون أبصارهم بغير استعلاء وطغيان إلى هذا الفلسطيني الوافد، الذي هتك بالأمس القريب سيرة فرنسا على منبر الأمم المتحدة[٢]!!

وأقبل الليل وذهبت إلى قصر الشعب لوليمة عشاء أقامها الرئيس أحمد بن بللا ولم يدع إليها إلا الوزراء. وقال الرئيس في تعليل ذلك إنها وليمة جزائرية خاصة للحفاوة بالجزائري الأخ الشقيري ممثل فلسطين. وشكرت له هذه الإشارة اللطيفة. وكانت قضية فلسطين هي حديثنا على المائدة. ولم أكن في حاجة أن أسهب في الحديث، فقد قطع الرئيس الجزائري ووزراؤه الطريق علي وقالوا: «نحن نضع كل إمكاناتنا تحت تصرف فلسطين، ونحن نعتبر استقلالنا ناقصاً حتى يتم تحرير فلسطين». . وصحبني الرئيس بن بللا إلى دار الضيافة في سيارته، ومال إليّ ونحن في الطريق، يهمس في أذني: «نحن نعرف مصاعب الكفاح. . لقد مرت بنا أيام

(٢) انظر: أحمد الشقيري، **قصة الثورة الجزائرية من الاحتلال إلى الاستقلال** (بيروت: دار العودة، [د. ت.]).

قاسية.. سأرسل إليك عن طريق سفارتنا في القاهرة شيكاً بعشرة آلاف جنيه إسترليني، نفقات خاصة لك.. وسندفع ما يترتب علينا لقضية فلسطين عن طريق الجامعة». قلت: «أشكر للأخ الرئيس هذه العاطفة الكريمة، وحينما ننشئ الصندوق القومي الفلسطيني سأطلب من الجزائر كل ما نحتاج إليه».. ووصلنا دار الضيافة وأنا أناشده ألا يرسل لي شيئاً خاصاً.

وفي اليوم الثاني زرت جامعة الجزائر، وإذا بالطلاب الفلسطينيين قد ملأوا القاعة من الجدار إلى الجدار، وأصبحنا وكأننا على أرض فلسطين، حديثاً وسؤالاً وجواباً، ونشيداً وهتافاً. وكلهم لهفة على الكيان الفلسطيني يتطلّعون إلى بزوغ فجره، بعد أن طال عليه الليل. وانصرفتُ وأنا أشق طريقي بين صفوفهم المتراصة، وتكاد نفسي تذهب حسرات على هذه الطاقات التي بقيتْ مهدورة خمسة عشر عاماً طوالاً.

ولم استطع البقاء طويلاً في الجزائر، فلم أحتمل ذلك التقدير الذي أسبغه عليّ الشعب والحكومة في ما أديت من واجب قومي إزاء القضية الجزائرية، أيام تولّيْت الدفاع عنها في الأمم المتحدة[٣]. وسارعت إلى المغرب الشقيق لأجد العواطف نفسها. وكانت لقاءاتي الرسمية والشعبية والفلسطينية غاية في التجاوب والتقدير.

وصادف يوم وصولي إلى المغرب، أن خطب الرئيس عبد الناصر خطابه الشهير في بور سعيد (٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٣) ودعا فيه إلى مؤتمر القمة العربي الأول، لبحث موضوع تحويل إسرائيل مجرى نهر الأردن. وصادف وقت وصولي إلى الفندق، أن كان نزلاؤه متجمعين حول الراديو، يستمعون إلى الرئيس عبد الناصر، وهو يتحدث إلى الشعب المصري وإلى الأمة العربية من مدينة بور سعيد الباسلة. وراح الرئيس عبد الناصر يخطب بأسلوبه العامي المثير عن الشؤون الداخلية والعربية والدولية. وجلستُ إلى جوار الراديو أستمع مع المستمعين، ومشاعر السرور الصامت والتقدير المكبوت تلمع بها عيون المستمعين. لقد كان الخلاف على أشدّه بين المغرب والجزائر بسبب النزاع على الحدود، وكانت مصر تؤيّد موقف الجزائر بالسلاح وبالرجال. وحمل الرئيس عبد الناصر على «الرجعية السعودية التي لم ترض لشعب اليمن أن يحيا، وتصدّت لثورة اليمن، وأن التحالف قائم بين الملك سعود وبريطانيا ضد مصر وضد اليمن».. ثم انتقل الرئيس عبد الناصر إلى مهاجمة البعث في دمشق فقال إن «حزب البعث يعاني سكرات الموت.. حزب البعث الانتهازي لم يحسن استخدام الصفحة الجديدة التي فتحت له للتعاون مع العناصر القومية».

(٣) الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**.

ولم تكن هذه المعاني جديدة عليَّ أو على الجماهير العربية فقد سبق للرئيس عبد الناصر أن «جرّد» حملات كبرى على السعودية والبعث في آن واحد.

ولكن الجديد في ذلك المساء التاريخي كانت معالجته قضية تحويل مياه الأردن التي كتب لها في ما بعد أن تحوّل مجرى التاريخ العربي. لقد تحدّث الرئيس عبد الناصر عن مشاريع إسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن واستعرض «الجهود» العربية التي قامت بها الجامعة العربية، فأعلن أن اجتماع رؤساء الأركان العرب لا يجدي، وأن اجتماع مجلس الدفاع العربي لا يجدي وأنه لا بدّ أن يتم اجتماع للملوك والرؤساء العرب في أسرع وقت.. «وبصرف النظر عن الخناق والخصام والمتخاصمين معاهم، إحنا مستعدّين نقعد معاهم.. عشان فلسطين.. إحنا مستعدّين نقعد معاهم.. نقعد نتكلم في الاجتماع كلام جدّ.. وبعدين مش عيب نطلع ونقول، والله إحنا النهار ده منقدرش نستخدم القوة.. ولكن مش حانقول كلام في الأودة ونطلع نقول لكم كلام تاني.. أنا عن نفسي الكلام اللي حيتقال في الأودة حاطلع أقوله كله بره.. نحن مستعدّين نتناسى كل البلاوي والقرف اللي شفناه في الكام سنة اللي فاتت».

وما كاد الرئيس عبد الناصر ينتهي من خطابه، حتى جاءني الوزير المغربي أحمد رضا قديرة، مرحّباً بقدومي؛ والسؤال الكبير ينطلق من لسانه:

«هل سمعت خطاب الرئيس عبد الناصر»؟

قلت: «نعم.. لقد سمعته هنا في المغرب. وفي الفندق».

قال: «إنه مفاجأة كبرى.. أليس كذلك.. وهل يلبّي الملوك والرؤساء؟»

قلت: «بلا شك. ومن الذي يجرؤ على التخلّف. لقد وضع الرئيس عبد الناصر الملوك والرؤساء وجهاً لوجه أمام الأمة العربية. وفوق ذلك أنه يهدّد بالتشهير».

وانصرف الوزير المغربي وهو بادي الذهول لا يدري ما يقول. وبعد أن سار بضع خطوات عاد إليّ مسرعاً وهو يقول «لقد نسيت أن أخبرك.. أن جلالة مولانا يستقبلك غداً صباحاً».

واستقبلني الملك الحسن الثاني في مكتبه في الموعد المحدّد. ولبثت معه ساعتينْ وأنا أحدّثه عن الشؤون العربية وقضية فلسطين وضرورة تكاتف الجهود العربية لإنقاذ القضية الفلسطينية من وهدة الجمود التي تهاوت إليها. لقد لاحظت أن ملك المغرب، متردّد بعض الشيء في حضوره شخصياً إلى مؤتمر القمة. وأخذت أناشده الحضور، وأنها فرصة عربية كبرى لإزالة الخلافات ودعم التضامن العربي. وكان وزراؤه ينظرون إلي مستزيدين من هذا الحديث. وقلت له في نهاية حديثي:

«سأفعل مع جلالتكم ما يفعله العرب في المشرق العربي».

قال: «وماذا يفعلون»؟

قلت: «أحلف لا أذوق طعامكم ولا أشرب ماءكم حتى تقبل رجائي، وتحضر مؤتمر القاهرة بشخصك».

قال: «أعدك أني سأبذل كل جهدي.. ألم تسمع خطاب الرئيس عبد الناصر وهو يعلن: «يوم ما جَتْ الرسالة من بن بللا، طالب قوات عشان تساعده في إيقاف العدوان عليه، بعد ٢٤ ساعة ردّينا عليه..». والإشارة هنا إلى معاونة عبد الناصر للجزائر في نزاعها مع المغرب.

قلت: «هذا إستعراض للماضي، والرئيس عبد الناصر يقصد أنه يريد أن يفتح صفحة جديدة».

قال: «إن شاء الله تكون صفحة جديدة، حقيقية».

وغادرت المغرب وأنا أتابع أخبار هذه الدعوة المثيرة التي وجهها الرئيس عبد الناصر إلى الملوك والرؤساء ليجتمعوا في أول مؤتمر على مستوى القمة، بعد المؤتمر الذي انعقد في زهراء انشاص في عهد فاروق قبل سبعة عشر عاماً.

وفي طريق عودتي إلى القاهرة، نزلت في طرابلس (ليبيا) استكمالاً لرحلتي في الشمال الأفريقي كله. وكانت ليبيا تحتفل بذكرى استقلالها. وكانت لي فرصة أخرى لقيت فيها الوفود العربية والصديقة للبحث في قضية فلسطين وتنظيم الشعب الفلسطيني. وطفت مع رئيس الوزراء بعض المدن الليبية، ودعاني أن أخطب في الجماهير. وحدّثتهم عن تاريخ القضية الفلسطينية، وكان حماس الجماهير بالغاً حتى لم يبق عليهم إلا أن يزحفوا إلى فلسطين مشياً على الأقدام. وأشهد أنهم لصادقون. وكنت كلما شهدت هذه المشاهد ازداد إيماني بالأمة العربية، وازددت تبرّماً بالحكم العربي الرسمي. وما هو إلا يوم وبعض يوم حتى عدت إلى القاهرة مسرعاً، لأرى الدنيا العربية مشدودة الأبصار إلى المؤتمر العتيد، والشعب الفلسطيني يرنو بأبصاره ليرى مكانه في هذا المؤتمر، ومصير قضيته في مناقشاته ومداولاته.

ولم يكن تحديد موعد المؤتمر أمراً سهلاً، والأمة العربية على رأسها ثلاثة عشر ملكاً ورئيساً، فلا بد من «التنقيب» في الروزنامة على موعد يلائم الجميع. وأخيراً تم الاتفاق على اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٦٤، ولقد وقع الاختيار على هذا الموعد، ليلائم الملك حسين الذي كان مشغولاً في استقبال قداسة البابا بولس السادس، وليوافق الرئيس الحبيب بورقيبة، وكان مشغولاً بدوره في الترحيب بضيفه رئيس وزراء الصين الشعبية شو ان لاي. وهكذا وضح من البداية

مدى ارتباط قضية فلسطين، بين نصرانية الدول الغربية «وإلحادية» الدول الاشتراكية ولو في تحديد موعد مؤتمر القمة على الأقل!!

ولكن الصعوبة الكبرى لم تكن في تحديد موعد المؤتمر، وإنما كمنت في الخلافات الحادة التي كانت تمزّق الدول العربية، حتى باتت في حاجة إلى وسيط دولي يقوم بالمساعي الحميدة بينها. ولقد كانت الحرب دائرة بين الجزائر والمغرب بشأن الحدود، ومصر طرف فيها تؤيد الجزائر، وفي حوزة هذه الدول الثلاث أسرى حرب من مواطنيهم. وكانت حرب اليمن تستنزف أموال السعودية، وأرواح المصريين ودماء اليمنيين. وكانت الصراعات الإذاعية بالغة ذروتها بين دمشق والقاهرة، وبغداد مع الجمهورية العربية المتحدة، وكان الخلاف مشتداً بين المغرب وتونس لأن الثانية اعترفت باستقلال موريتانيا، في حين يؤكد المغرب أنها جزء من التراب المغربي!!

ولم تكن القاهرة كما غادرتها قبل بضعة أسابيع، فالاستعدادات لمؤتمر القمة بالغة ذروتها، والجامعة العربية تجتاحها موجة من النشاط لم تشهدها منذ أنشئت. حرّرت الدعوات إلى الملوك والرؤساء في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، وفي ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر كانت عشر دول عربية قد بعثت بإجاباتها الرسمية. وكان العراق قد وافق قبل أن تصله الدعوة ووافق الملك حسين بالإذاعة على موجات الأثير في الليلة التي خطب فيها الرئيس عبد الناصر مقترحاً الدعوة إلى المؤتمر. وكانت السعودية آخر من استجاب، في ٥ كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٦٤.

وكانت الحرب في اليمن في ذروتها بين القاهرة وصنعاء والرياض، وكان الشجار بين دمشق والقاهرة على أشدّه، وكانت عمان على خلاف معهما، وكان النزاع بالغاً بين المغرب والجزائر، والقاهرة طرف فيه.

وكان الحافز لعقد المؤتمر موضوعاً ثانوياً على أهمية تحويل إسرائيل مجرى الأردن. ولكن الاستجابة لمؤتمر القمة كانت سريعة متلاحقة، لسبب واحد هو أن القومية العربية كانت داوية الكلمة ناشطة الحركة. وكان الرئيس جمال عبد الناصر إذا خطب، يهز الجماهير العربية ويهزّ معها العروش والتيجان. ومَنْ الذي يستطيع أن يرفض دعوته؟

كان ذلك قبل نكبة حزيران/ يونيو. أما بعدها فقد بحّ صوت الرئيس عبد الناصر وهو يدعو إلى مؤتمر قمة فلا سميع ولا مجيب. ولم ينعقد مؤتمر الرباط إلا في عام ١٩٦٩، ولقد انفرط غداة انعقاده. وانعقدت بعده وقبله مؤتمرات قمة صغيرة تحت اسم مؤتمر دول المواجهة، ولم يكن لها من «المواجهة» حظ قليل أو كثير. ذلك أن نكسة حزيران/ يونيو كانت نكسة للقومية العربية نفسها.

وغداة وصولي إلى القاهرة، وجدت خبراء الفقه الدستوري والعارفين بالمراسم الدولية مشغولين بأمري. هل يحضر ممثل فلسطين مؤتمر الملوك والرؤساء وهو ليس من الملوك والرؤساء؟ وخضت مع الخائضين في هذه الأبحاث القانونية، ولما لم أجد سنداً في «القانون» لجأت إلى الإنذار:

قلت: «إن هذا المؤتمر سيجتمع من أجل قضية فلسطين، وأنا ممثل فلسطين، وإذا لم يشترك ممثل فلسطين في هذا الاجتماع، فليس أمامي إلا أن أستقيل من هذا المنصب وأعلن ذلك على الشعب الفلسطيني..».

ولقد أفلح هذا الإنذار حيث لم يفلح القانون. وصدرت صحف القاهرة تعلن في اليوم التالي: سيشترك ممثل فلسطين في مؤتمر الملوك والرؤساء.

وجاءت بعد ذلك مشكلة جلوسي: أين أجلس؟ وأفتى خبراء البروتوكول بأن أجلس في طرف المائدة البيضاوية الشكل في الصالة الكبرى في الجامعة حيث سينعقد المؤتمر وأن أجلس على كرسي عادي، لا مزدوج كالمقاعد المخصصة للملوك والرؤساء، وأن يكون هذا الكرسي بعيداً بمقدار خطوتين إلى الوراء عن مقاعد الملوك والرؤساء. وقبلت الفتوى وبيّتّ في نفسي أمراً.

ولم تكد تذيع الصحف العربية العالمية نبأ اشتراكي في المؤتمر حتى انهالت عليَّ الاقتراحات والرسائل من تجمّعات الشعب الفلسطيني كافة، ولم يكونوا يعلمون أن اشتراكي وجلوسي في المؤتمر كان «كفاحاً» بنفسه وكان من بين هذه الاقتراحات.

- إنشاء جمهورية فلسطينية.
- تجنيد الشعب الفلسطيني لخوض معركة التحرير.
- المبادرة إلى إنشاء الكيان الفلسطيني.
- إجراءات انتخابات للشعب الفلسطيني لاختيار قيادته الوطنية.
- استقلال العمل الفلسطيني عن الجامعة العربية.

وغير هذه الاقتراحات كثير كثير.. ولم أبال بذلك كلّه لأني رأيت في تلك المرحلة أن أوجّه اهتمامي لأمريْن: الأوّل أن يكون مؤتمر القمة لقضية فلسطين برمّتها ولا يقتصر على تحويل الروافد. والثاني أن «أنتزع» من المؤتمر قراراً بإنشاء الكيان الفلسطيني، مهما كانت صيغته. وتحقيقاً لهاتين الغايتين انصرفت بكل جهودي واتصالاتي، مبتدئاً من مطار القاهرة الدولي، إلى فندق هيلتون حيث يلتقي الملوك والرؤساء ليلاً، إلى قاعات الجامعة العربية حيث يجتمعون نهاراً. لقد أعانني في هذه المرحلة أنني أعرف الملوك والرؤساء معرفة شخصية وتربطني بهم صداقات وذكريات بمناسبة دفاعي عن القضايا

العربية على الصعيدين العربي والدولي. وكان مقدّراً لهذه الصداقات وتلك الذكريات أن تتهاوى تحت وطأة القضية الفلسطينية ومتطلباتها الجسيمة.

وبدأت بالمطار. ورحت أستقبل الملوك والرؤساء، أجامل وأتودّد. وحرصت على مجاملة الملك حسين بصورة خاصة، فاحتضنته وقبّلته. ولا بدَّ للكيان الفلسطيني في بدايته من موافقة عمان، ورفعت قامتي وقبّلت جبهة سعود وأنفه، على الطريقة السعودية، فقد امتنعت السعودية عن تأييد ترشيحي ممثلاً لفلسطين في الجامعة. وفعلت مع القادة الآخرين ضروباً من التودّد، كأنني أريد أن أخطب واحدة من بناتهم إلى واحد من أولادي[٤].

غير أن كفاءاتي في التودّد لم تستطع أن تنتزع ابتسامة من اللواء أمين الحافظ رئيس مجلس الثورة السوري. ولقد نزل من سلّم الطائرة عابساً مقطباً. كشفتْ رياح المطار عن مسدّسه تحت «جاكتته». ومشى إلى منصة العرض مع الرئيس عبد الناصر، وكلاهما يدير كتفه إلى الآخر. ولقد كانت الحملات الإذاعية بين دمشق والقاهرة قد بلغت الذروة، والرئيسان يسيران فوق عتبات مؤتمر القمة!!

ولكن جو التجهّم الذي أسبغه الرئيس السوري على جنبات المطار قد تبدّل بصورة مفاجئة حين وصل الرئيس الجزائري أحمد بن بللا ونزل من طائرته وهو يحمل بجلبابه الجزائري الذي كان يلبسه، أمجاد الثورة الجزائرية وأريحياتها. وجاء من بعده الرئيس الحبيب بورقيبة صاحب الذكريات في حي سيدنا الحسين في القاهرة، أيام كان لاجئاً في عهد النضال التونسي. وركب سيارة جيب ودخل القاهرة دخول الفاتحين وهو يلوّح للجماهير بيديه. وجاء من بعدهما ملك المغرب الحسن الثاني. وأقبل على الرئيس عبد الناصر وهو يقول: لنبدأ صفحة جديدة. ثم التفت إليّ ليعلن باللهجة المغربية «ياسي أحمد: لقد جئنا إلى مؤتمر القمة». ثم مال إلى الرئيس عبد الناصر وقال له: «بعد بضع دقائق ستصل طائرة مغربية تحمل الإخوان الضباط الخمسة المصريين» (الأسرى الذين وقعوا في يد السلطات المغربية أثناء المناوشات العسكرية التي وقعت بين القوات المغربية والجزائرية بشأن الخلاف على الحدود).

واستمرت مواكب الملوك والرؤساء إلى فندق هيلتون طيلة النهار وبعض الليل. وفي فندق هيلتون، أقبلت على الملك حسين بكل جوارحي لأفتح قلبه للكيان الفلسطيني، ولقد أعانني في هذه المهمة بهجت التلهوني رئيس الوزراء، ورحت في

(٤) انظر: أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء العرب** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذه المجموعة.

صباح اليوم التالي أزوره في حجرته وأسأل المرافقين: «هل استيقظ «سيدنا»..؟»

وتحدثت طويلاً إلى «سيدنا» أبيّن له مزايا الكيان الفلسطيني، وأنه سند للكيان الأردني. وكان موضوع الكيان الفلسطيني مثار اهتمام الرأي العام الفلسطيني والعربي لأربع سنوات مضت. كما كانت هنالك فكرة تروّج في أوساط الجامعة بإحياء «حكومة عموم فلسطين». كل ذلك أعانني على انتزاع موافقة الملك حسين على الكيان الفلسطيني، بخاصة أني لمّحت له أن جميع الملوك والرؤساء سيوافقون على الاقتراح. وهذه هي محاسن الكذب الأبيض.

وواصلت اجتماعاتي بالملوك والرؤساء، أشرح لهم موضوع الكيان الفلسطيني. وأبلغتهم أن الملك حسين قد وافق على الكيان الفلسطيني. وإن أحداً من الملوك لا يريد أن يتصدى للملك حسين في أمر يعتبرونه مسألة «داخلية» بالنسبة إلى المملكة الأردنية.

ولم أكد أنتهي من الاتصالات التمهيدية حتى بلغت الساعة الخامسة من ظهر اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤، فغادرت فندق هيلتون مع موكب الملوك والرؤساء إلى قاعة الجامعة العربية. وتحت موجات من مصابيح المصوّرين الوافدين من كل أرجاء العالم سرت في خطى ثابتة إلى المائدة البيضاوية الشكل ودفعت بيدي الكرسي الصغير الذي كان قد أُعدّ لي خطوتين إلى الأمام حتى أصبحت كتفاً إلى كتف مع الملك الحسن الثاني على ميمنتي، ورجال البروتوكول يحملقون بي لهذه المخالفة الصارخة. ولم يجرؤ أحد أن يعيدني إلى الوراء على مشهد من الصحافة العربية والعالمية. وهكذا تقدّمت قضية فلسطين خطوة أخرى في زحفها المقدّس على طريق بناء شخصيتها وكيانها وإثبات وجودها في مؤتمر الملوك والرؤساء حتى قبل أن تصبح دولة وقبل أن يصبح لها رئيس.

وترأس المؤتمر الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف. وانتهت جلسة الافتتاح العلنية بالخطب المعتادة، ثم أُخرج الصحافيون والمصورون. وأغلقت الأبواب وابتدأ أخطر اجتماع عربي في العصر الحديث ضم ملوك العرب ورؤساءهم ومعهم ممثل فلسطين. وجلس المشير عبد السلام عارف الرئيس العراقي في منصّة الرئاسة وإلى جانبه الأمين العام للجامعة العربية عبد الخالق حسونة. وجلس حولهما الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية والرئيس الجزائري أحمد بن بللا والرئيس السوداني الفريق إبراهيم عبود والرئيس السوري أمين الحافظ، وأمير دولة الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح وولي عهد ليبيا الأمير حسن الرضا والرئيس التونسي الحبيب بورقيبة وملك المملكة العربية السعودية سعود آل سعود والملك الحسن الثاني ملك المغرب والرئيس اليمني المشير عبد الله السلال ورشيد كرامي رئيس وزراء لبنان نيابة

عن الرئيس فؤاد شهاب الذي اعتذر عن الحضور لمرضه «الرسمي»!

وكان وراء الملوك والرؤساء رؤساء حكوماتهم ووزراء الدفاع ووزراء الخارجية وطائفة من الخبراء والمستشارين. وبلغ مجموعهم مائتين وخمسين نسمة. وكان ذلك أبرز دليل على انعدام الوحدة العربية، فهذه الكثرة مظهر من مظاهر التجزئة والانفصال. وإنها لكثرة تكمن فيها كل عوامل الضعف والخذلان.

وشرح عبد الناصر السبب في الدعوة إلى الاجتماع مبيّناً الأخطار الناجمة عن مشروع إسرائيل تحويل مجرى الأردن. وتبعه في الكلام الملوك والرؤساء في عبارات موجزة مؤكدين ضرورة القيام بعمل عربي موحّد للوقوف في وجه المشروع الإسرائيلي.

واستأذنتُ في الكلام، فقال الرئيس عبد السلام عارف مازحاً وكانت بيننا صداقة: «نحن لسنا في الأمم المتحدة، أرجو الأخ أحمد أن يكون خطابه موجزاً»، فقلت للرئيس العراقي: «هذا مؤتمر من أجل فلسطين، وإذا لم تتكلم فلسطين بإسهاب فمن الذي يتكلم»؟ وقلت: «لقد بدأ هذا المؤتمر بداية رائعة في جوّ عظيم من التفاؤل والبشائر.. ولكن المهم أن ينتهي نهاية رائعة وبقرارات إيجابية.. وإنني لأرجو ألا يكون مصيره كمصير مؤتمر بلودان وأنشاص الذي عقده الملوك والرؤساء في عام ١٩٤٦. وأصدر بياناً ممتازاً تعجز عن صياغة مثله أبرع دواوين الإنشاء»[٥].

ودخلت بعد هذه المقدمة إلى صلب الموضوع وقلت: «إن الشعب الفلسطيني يحيي الرئيس عبد الناصر لأنه دعا إلى هذا المؤتمر، ونحييكم جميعاً لأنكم استجبتم.. وإننا نحيي نهر الأردن الذي تناديتم من أجله، والتقيتم أخيراً.. ولكن تحويل الروافد لا يمكن أن ينفصل عن القضية الأم وهي قضية فلسطين. يجب أن يكون هذا المؤتمر لقضية فلسطين وأن يسمّى مؤتمر فلسطين.. لقد قدّم إليكم الأمين العام تقريراً عن مشروع عربي لتحويل روافد الأردن.. ولكن الأهمّ أن تضعوا مشروعاً لتحويل روافد الفكر العربي بالنسبة إلى قضية فلسطين.. إن قضية فلسطين قد انحدرت على الصعيدين العربي والدولي وأصبحت قضية لاجئين.. لقد آن الأوان بعد خمسة عشر عاماً أن تعود لهذه القضية قداستها.. ولهذا فإني أقترح عليكم أن تولوا اهتمامكم إلى الأصل أولاً، ثم إلى الفرع ثانياً.. ليس عند الشعب الفلسطيني وفرة مالية ولا خبرة فنية ليشترك معكم في موضوع تحويل الروافد.. ولكن عندنا ما هو أعظم.. إن شبابنا الأبطال مستعدون أن يدمّروا المنشآت الإسرائيلية التي تعمل في تحويل مجرى الأردن. وكل ما يحتاجه الأمر أن تردّوا غارات إسرائيل الانتقامية وتصمدوا لها».

---

(٥) انظر: الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**.

قلت هذا الكلام، وكأنما صاعقة نزلت على قاعة الاجتماع، فقد كان البعض يحسب أن شباب فلسطين لا يقدرون على ذلك، وأن حديثي هو حديث حماسة غير مسؤولة. ورأى البعض الآخر في هذه المغامرة إقحاماً للدول العربية في معركة لا قبل لهم بها. وأشار إليّ الرئيس العراقي بحاجبيه وبيديه بأنني تجاوزت الحدّ. ولزمت الصمت في جو رهيب من الصمت.

وتحدّث بعدي الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، وألقى خطاباً ممتازاً عن مقومات الكفاح وإعداد الشعب الفلسطيني للمعركة. وقلت في نفسي بعد أن وقع في تلك السقطة الكبرى في ١٩٦٥ التي سأعرضها في سياق مذكراتي لو أن الرئيس بورقيبة قد مات بعد ذلك الخطاب المجيد، لمات شهيداً وفقيداً حميداً.

وتعاقب بعد ذلك الملوك والرؤساء يتحدّثون عن الوقوف صفاً واحداً في وجه إسرائيل وضرورة التصدي لمشروع إسرائيل بمشروع عربي مقابل. بعدها دعي المهندس محمد أحمد سليم الخبير المصري، فعلّق خرائطه على جدار القاعة وحمل عصاه الطويلة يشرح فيها «جغرافية» المشروع الإسرائيلي. وزوّد المؤتمر بأرقام وإحصاءات وافرة ووضع الخطوط العريضة لمشروع عربي يحرم إسرائيل من مقدار وافر من مياه النهر.

ولقد أسهب الخبير المصري في تفصيل المشروع الذي يقترحه بمرحلتيه: تقتصر الأولى على تحويل مجرى النهر، وتتضمّن الثانية مشروعات للتخزين وإقامة السدود وبناء الأحواض ومحطّات الكهرباء. كل ذلك في مدّة تتراوح بين ٨ إلى ١٢ عاماً وبكلفة قدرها بصورة مبدئية ٧٠ مليون جنيه إسترليني!!

سكت الجميع. وتجهّم الأغنياء من الملوك والرؤساء حينما كان المهندس المصري العملاق يلفظ بشفتيه الغليظتين: سبعين مليون جنيه إسترليني!!

ووجّه الرئيس الجزائري أحمد بن بللا كلامه إليَّ متسائلاً: «أنت خبيرنا في قضية فلسطين، فما رأيك في هذا المشروع»؟

قلتُ: «إن الكلام حول السبعين مليون جنية إسترليني لا يخصّني، وإني أترك فيه الكلام لغيري.. ولكني أتساءل هل ستبقى القضية الفلسطينية محصورة في تحويل الروافد اثني عشر عاماً؟ إني لست عسكرياً ولا أفهم في هذه المواضيع.. ولكني أعلم أن تدمير المشروع العربي لا يحتاج إلى أكثر من قنبلة إسرائيلية واحدة و..».

وهنا قاطعني المشير عبد السلام عارف وقال: «سوف يأتي بحث الجوانب العسكرية في ما بعد». وانفضّت الجلسة الأولى، وأعلن الرئيس العراقي أن جلسة الصباح الثانية ستقتصر على الملوك والرؤساء.

ولكن العمل لم ينته بعد انفضاض الجلسة فقد ابتدأت الجلسات الثنائية؛ كل ملك في بلواه، وكل رئيس في شكواه، بصدد الخلافات التي مزّقت الحكومات العربية إلى معسكرات. الخلاف العقائدي بين دمشق والقاهرة. وحرب اليمن يتساقط على جبالها الألوف من شباب العرب. والأزمة بين المغرب والجزائر من أجل الحدود. وشكوى الكثيرين من الحملات الإذاعية ونشاط اللاجئين السياسيين في هذه العاصمة أو تلك..

وكانت قضية اليمن، من دون شك، أشدّ القضايا العربية تأزّماً وأكثرها أثراً وخطراً على القضية العربية. وفي أحد الاجتماعات الجانبية ضمّ معظم الملوك والرؤساء، تحدّث الرئيس اليمني المشير عبد الله السلال حديثاً مؤثراً عن الحرب اليمنية ووجّه كلامه إلى الملك سعود قائلاً: «يا طويل العمر إن إخوانك في اليمن كانوا يعيشون في جحيم في عهد الإمام أحمد.. لقد تأخرنا طويلاً في الثورة.. وهل نُلام لأننا قمنا بالثورة.. نحن نناشدك الله أن تكفّ عن معاونة الملكيّين بالمال والسلاح.. وأنا مستعد أن أزوركم في الرياض وأن أجعلك حَكَماً بيننا وبين اليمنيين المخالفين..» ولكن الملك سعود لم يعقّب على هذا الحديث وبقي ساهماً واجماً لا يحرّك إلا عقاله يشدّه على رأسه. ونهض من الجلسة يتوكّأ على عصاه وكأن الأمر لا يعنيه.

وأخذ من بقي من الملوك والرؤساء يتداولون في أمر هذه الأزمة الخطيرة. واقترح الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف أن يتولّى الرئيس الجزائري أحمد بن بللا الاتصال بالأمير فيصل ليرجوه الحضور إلى القاهرة لبحث الموضوع. وانصرف الرئيس الجزائري إلى جناحه في الفندق وانفتحت له الخطوط التلفونية مع جدّة وتبادل التحية مع الأمير فيصل ثم انقطع الاتصال التلفوني. وعاد الرئيس الجزائري غاضباً حنِقاً، وانتهى الاجتماع الجانبي إلى غير نتيجة. ومشيت مع الرئيس الجزائري بضعة خطوات وأنا أقول له: «ربّ ضارة نافعة».

قال: «وماذا تعني»؟

قلت: «لعلّ الملوك والرؤساء يهتمون بالمواصلات السلكية واللاسلكية بين الدول العربية. إذ كيف سيخوضون معركة تحرير فلسطين، وهذا هو حال المواصلات في ما بينهم؟ إن المواصلات هي عصب الحرب في هذه الأيام. وإذا كان رئيس مجلس الثورة الجزائري لا يستطيع الاتصال تلفونياً بجدّة فما معنى العمل العربي الموحد»؟

وبقيت الخطوط التلفونية معطّلة مع جدّة طيلة انعقاد المؤتمر. وهكذا وقعت المشكلة اليمنية تحت رحمة التلفون، بأسلاك ومن دون أسلاك. ولم يكن أحد يدري إذا كانت الخطوط التلفونية قد تعطّلت لأسباب جوية أم جوانبية!!

ولقد راح الملوك والرؤساء كل منهم يسعى تلك الليلة في شأن من شؤونه، إلا

اللواء أمين الحافظ فقد كان لا يزور ولا يزار. وكان الوفد السوري في تلك الليالي في فندق هيلتون أمة وحدها، ورحتُ أنا أسعى في شأني ولا شأن لي سواه: قضية فلسطين وموضع الكيان الفلسطيني. ولقيت الرئيس عبد الناصر وبن بللا في معبر الطابق السابع في طريقهما إلى جناح الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف، فقال لي الرئيس عبد الناصر: «عندك إجازة غداً».

قلت: «لماذا»؟

قال: «الاجتماع قاصر على الملوك والرؤساء. وأنت تكلمت اليوم ما فيه الكفاية. ثم إن الموضوعات التي تبحث غداً ستكون قاصرة على الخلافات العربية».

قلت: «إن السودان ليس فريقاً في هذه الخلافات ولا داعي إذاً لحضور الوفد السوداني!! يتّصل الموضوع بالمبدأ. هل شعب فلسطين عضو أصيل معكم أم لا؟ وعلى كل حال إذا كانت هذه رغبة المؤتمر، فإني مسافر غداً إلى الجزائر لأكون لاجئاً عند الأخ الرئيس بن بللا».

قال الرئيس عبد الناصر: «إن مشكلتك ليست معي. إذا لم يعارض الملك حسين فنحن موافقون جميعاً على اشتراكك في جميع جلسات المؤتمر، سواء بحثت فيها قضية فلسطين أم لم تبحث»..

وذهبت من توّي إلى جناح الملك حسين، وكانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل ولم يكن عنده إلا شقيقه الأمير الحسن. قلت بعد المقدمة: «لقد طفت على الملوك والرؤساء جميعاً، وهم موافقون على حضوري الجلسة السرية غداً صباحاً، ولم يبق إلا سيّدنا».

تلعثم «سيدنا» واكفهرّ الأمير الحسن. وقال الملك سنبحث الأمر، والصباح رباح. وقفتُ وقلتُ في لهجة حازمة: «إذا لم أحضر اجتماع الغد، فسأنسحب من المؤتمر وسأستقل أول طائرة إلى القدس إلى المسجد الأقصى لأبلغ الشعب الفلسطيني أنه ليس له مكان في المؤتمر».. وهممت بالخروج من جناح الملك حسين، فحملق بي كمن يريد أن يساوم للمرة الأخيرة وقال: «إذا كان الإخوان الآخرون موافقين ومعهم الملك سعود، فأنا موافق». لقد أشار الملك حسين إلى الملك سعود في هذا الصدد لأن المملكتين الأردنية والسعودية كانتا في «معسكر» واحد بشأن موضوع الكيان الفلسطيني كما بدا واضحاً في اجتماع الجامعة العربية.

وخرجت من الفندق إلى منزلي لأقضي ما بقي من الليل في فراشي وأنا أفكّر ما أنا فاعل غداً.

وسارعت في الصباح إلى الجامعة العربية وتكامل المؤتمرون. وسار الملوك والرؤساء إلى الصالة الصغيرة المعدّة للاجتماع وسرت وراءهم. وجلسوا جميعهم في الأماكن المعدّة لهم وأمام كل منهم «لافتة» باسم بلده. ووجدتُ كرسيّاً فارغاً بجوار الرئيس الجزائري أحمد بن بللا فجلست بجواره ولم يكن على المائدة «لافتة» باسم فلسطين. قلت للرئيس الجزائري: «إني متفائل خيراً أن أجلس وأمامي لافتة الجزائر. وعلى كل حال فإن عدم وجود لافتة لفلسطين إنما يمثل الحقيقة القائمة، فإن فلسطين لا تزال شخصيتها محجبة وقضيتها مجمدة. ولكني أرجو ألا يثور جدال حول حضوري في هذا الاجتماع، الاجتماع القاصر على الملوك والرؤساء وحدهم».

قال الرئيس الجزائري: «لا يشغلك هذا الموضوع، فسأنسحب معك إذا انسحبت». وابتدأت جلسة العمل بعد جلسة التصوير، ولم يعترض أحد على حضوري وكانت لبنة أخرى في بناء الكيان الفلسطيني قبل أن يولد.

ونظر الملوك والرؤساء بعضهم إلى بعض، وكأنهم يتساءلون، ماذا يبحثون؟ ذلك أن القضايا التي كانت محور النزاع بين الدول العربية، كانت تبحث في فندق هيلتون في اجتماعات ثنائية، لا في الجامعة العربية في اجتماعات عامة. وإزاء ذلك لم يجد الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف بدّاً من أن يقول: «إذاً نبحث قضية فلسطين. ولنستمعْ إلى ممثل فلسطين ويستطيع الأخ أحمد أن يتحدّث بإسهاب». ورحّب الرئيس العراقي «بالإسهاب» هذه المرة، لأنه لم يكن عند الملوك والرؤساء ما يبحثونه في تلك الجلسة، فلم تكن قد نضجت الأبحاث الثنائية بعد!

تحدّثت عن قضية فلسطين بإسهاب ما بعده إسهاب، كما أراد الرئيس العراقي وزيادة، مستعرضاً القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها منذ حرب ١٩٤٨ حتى عدوان إسرائيل على مياه نهر الأردن. وتعرّضت للقضية في المحافل الدولية؛ في الأمم المتحدة ومؤتمر باندونغ ولجنة التوفيق الدولية ومواقف الدول العظمى. وانتهيت إلى القول بأن قضية فلسطين قد فقدت وجودها كقضية تحريرية وأن شعب فلسطين قد فقد وجوده كشعب يتطلّع إلى تحرير وطنه وأن الواجب القومي يفرض قيام كيان فلسطيني يوحّد الشعب الفلسطيني وينظّم صفوفه ويعبّئ طاقته العسكرية والسياسية للقيام بدوره في تحرير وطنه.

واستطردتُ بعد ذلك إلى القول بأن العمل من أجل قضية فلسطين يجب أن يكون «أصيلاً بذاته، عملاً متّصلاً ضمن خطة دائمة لا كردّ فعل على الأحداث والوقائع التي تصدر عن إسرائيل». لقد كنت قريباً من مؤتمر زهراء انشاص الذي عقده الملوك والرؤساء في ٢٨ أيار/ مايو ١٩٤٦، وحضره الملك فاروق ملك مصر

وشكري القوتلي رئيس سوريا والشيخ بشارة الخوري رئيس لبنان والأمير عبد الله أمير شرق الأردن والأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق والأمير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية والأمير عبد الله سيف الإسلام ولي عهد الإمام يحيى ملك اليمن. لقد عقد ذلك المؤتمر العتيد رداً على تقرير اللجنة الأنكلوأمريكية[٦]، وها إن مؤتمر القمة الحاضر ينعقد ردّاً على مشروعات إسرائيل لتحويل روافد الأردن. نريد أن تكون المؤتمرات العربية فعلاً . . لا رد فعل . . ».

وما إن فرغت من هذا الإسهاب حتى ساد الجلسة صمت طويل. وكان الكل ينظرون إلى الملك حسين يتفرّسون في وجهه ليروا انطباعاته بشأن الكيان الفلسطيني، فقال الملك حسين: «أرجو من الأخ الشقيري أن يشرح لنا مفهوم الكيان الفلسطيني». وعدت إلى الإسهاب مرة ثانية أتحدث عن الكيان الفلسطيني وكيف تصدّع بعد حرب ١٩٤٨، وتشرّد الشعب الفلسطيني ولم يعد له دور في قضيّة وطنه، وكيف أن الوفود الصديقة في المحافل الدولية تتساءل أين هو الشعب الفلسطيني، وأين قيادته، وما هي سياسته وخططه؟» ثم أنهيت بياني قائلاً: «أريد أن يكون واضحاً «لسيّدنا» أن الكيان الفلسطيني ليس حكومة ولا يمارس سيادة ولا يهدف إلى سلخ الضفة الغربية عن الكيان الأردني، وإنّما هو تنظيم للشعب الفلسطيني يتعاون مع جميع الدول العربية ويهدف إلى تعبئة طاقات الشعب الفلسطيني عسكرياً وسياسياً وإعلامياً في معركة فلسطين».

قلتُ هذا الكلام، فأومأ الملك حسين برأسه بالقبول وعاد إلى السؤال وقال: «وحكومة عموم فلسطين»؟ قلتُ: «يا سيّدنا، نحن لسنا طلاب حكم، نحن طلاب تحرير. لقد زالت الظروف التي أدّت إلى قيام حكومة عموم فلسطين وإنني لا أفكر في إحيائها». ثم قال الملك حسين: «وما هي الأسس لقيام الكيان الفلسطيني»؟

قلتُ: «سنتفاهم على ذلك بعد مؤتمر القمة مع جلالتكم ومع الدول العربية الأخرى ومع تجمّعات الشعب الفلسطيني».

وهنا استراح الملك حسين وقال: «حسناً نحن ننتظركم في عمان للتفاهم». وساد الاجتماع جو من الرضا. إن موضوع الكيان الفلسطيني قد اجتاز أكبر العقبات إلا أن الحوار قد فتح من جديد. لقد بدأه الرئيس السوري اللواء الحافظ وقال:

«وما فائدة الكيان بدون أرض. يجب إعطاء الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الكيان الفلسطيني». واكفهرّ وجه الملك حسين ونظر إليّ كمن يريد أن أنجده.

---

(٦) المصدر نفسه.

قلت: «نحن لا نريد ولا نقدر أن نمارس سيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة». ومضيت أشرح الأسباب العسكرية والمالية التي تحول دون ذلك.

ولم أكد انتهي من هذا الإيضاح حتى قال الملك سعود:

«نحن نريد من الأخ أحمد أن ينشئ حكومة فلسطين».

واكفهرّ وجه الملك حسين ونظر إليّ كمن يريد أن أنجده.. مرّة ثانية. قلت للملك سعود: «يا طويل العمر، إن تجربة حكومة عموم فلسطين التي اعترفت بها الدول العربية ومعها أفغانستان قد فشلت ولم يبقَ منها في النهاية إلا رئيسها أحمد حلمي باشا. لقد توفي إلى رحمة الله.. ولا جدوى أن نحيي العظام وهي رميم».

وسكت الملك سعود. لقد أسرَّ لي في مساء ذلك اليوم، أن هذه هي رغبة الأمير فيصل استجابة لرغبة الحاج أمين الحسيني. وكان الملك سعود قد فقد جميع سلطاته وأصبحت مقاليد الأمور في يد الأمير فيصل.

وبلغت الساعة الثانية ظهراً، وقضية فلسطين والكيان الفلسطيني قد استغرقت الجلسة كلها. وأعلن الرئيس العراقي تخصيص الجلسات الباقية للنواحي العسكرية والأمور الفنية المتصلة بالمشروع العربي لتحويل مياه الأردن. لقد تعاقبت الجلسات نهاراً في الجامعة لمعالجة الأمور المدرجة في السطور وليلاً لمعالجة الأمور المتغلغلة بين السطور والدفينة في الصدور!!

ولستُ أنسى ليلة السابع عشر من شهر كانون الثاني/ يناير إذ سهرناها حتى الفجر في حوار حول الموقف العربي بالنسبة إلى إسرائيل والدول المشايعة لها. لقد كان الرئيس السوري اللواء الحافظ قاسياً وعنيفاً في حديثه، ودخل مع الرئيس عبد الناصر في جدل خشيت معه أن ينفرط عقد المؤتمر.

وفي أعصاب باردة كبرودة الفولاذ وجّه الرئيس عبد الناصر حديثه إلي الرئيس السوري قائلاً: «والله يا أخ أمين إني أخاف على دمشق من إسرائيل إذا بقي البعث يحكم سوريا بروح المزايدة».. وما كان من الرئيس السوري إلا أن أجاب بقوله: «نحن نخاف على العواصم العربية كلها إذا استمرّ الوضع العربي على حاله الحاضر. أما بالنسبة إلى دمشق فإذا اقتربت إسرائيل فسيكون حائط المبكى الإسرائيلي لا بضعة أمتار كما هو الآن، بل سيمتد من دمشق إلى بيت المقدس»!!

وهنا تدخل المشير عبد السلام عارف ليلطف الموقف فقال:

«يا أبو عبده ـ وهي كنية اللواء أمين الحافظ ـ نحن لسنا هنا للمزايدات ولا للمناقصات، ولنسمع رأي الأخ الشقيري في حكاية حائط المبكى».

فقلت وأنا أجيل بصري إلى الملوك والرؤساء: «إذا كان حائط المبكى سيمتد في زمانكم من دمشق إلى بيت المقدس فمعنى هذا أن إسرائيل استطاعت ان تحقّق حلمها الكبير، من النيل إلى الفرات».

وعاد الرئيس السوري يركز على التشدد في معاداة الغرب واستعجال الدخول في معركة مع إسرائيل، مستخفّاً بموضوع تحويل مجرى الأردن. وكانت في حديثه إشارات لاذعة للرئيس عبد الناصر بلغت حد التهكّم والسخرية. ولم يجب الرئيس عبد الناصر بشيء، واكتفى بالقول: «ما كان لي أن أسكت لو كنا مجتمعين في غير القاهرة». وأشهد أن الرئيس عبد الناصر قد أظهر سيطرة هائلة على أعصابه في تلك الليلة المتشنّجة.

وبعد أن فرغ الملوك والرؤساء من بحث الأمور العسكرية والفنية، التقى وزراء الخارجية في جلسة عمل لوضع صيغة القرارات النهائية للمؤتمر. وبقينا إلى الصباح ونحن نكتب ونشطب، ثم نشطب ونكتب، إلى أن تم الاتفاق على البيان الذي يذاع وعلى القرارات التي لا تذاع.

واجتمع مؤتمر القمة في هيئته الكاملة، فأقرّ البيان والقرارات، ولكن القرارات التي كان مقرراً لها ألا تنشر قد نشرت قبل البيان الذي كان مقرّراً أن ينشر. وهذه هي مصيبة العمل العربي على مستوى الملوك والرؤساء وعلى مستوى الوزراء والسفراء منذ كان العمل العربي إلى يومنا هذا، وما بقي الحكم العربي على هذا المستوى، دون المستوى.

وكان من نتائج الاجتماعات الجانبية أن عادت العلاقات الدبلوماسية بين عدد من العواصم العربية، واختفت تحت السطح الخلافات بين الحكومات العربية إلا قضية اليمن، فقد كان صاحبها الأمير فيصل يراقب أعمال المؤتمر من الرياض. والملك سعود ليس له من الأمر شيء. ذلك أن الملك سعود قد كان في تلك الفترة يملك ولا يحكم، ولم يكن الملك فيصل قد فوّضه في البحث في قضية اليمن. وكان عمر السقاف وكيل الخارجية السعودية يجلس وراء الملك سعود أثناء اجتماعات المؤتمر ليهمس في أذنه ما يقول وما لا يقول.

وفي تضاعيف الاجتماعات الجانبية أمكن الوصول إلى تسوية في المشاكل الصغرى. لقد أطلق الحسن الثاني سراح خمسة من الطيارين المصريين كانوا قد أسروا في المغرب خلال الحرب المغربية الجزائرية. وكذلك فقد أعاد الرئيس عبد الناصر إلى الملك حسين طائرة أردنية كان قد فرّ قائدها بها لاجئاً إلى مصر أثناء الخلاف الحادّ بين القاهرة وعمان. ولقد «خجل» ميثاق التضامن العربي الذي وقّعه الملوك والرؤساء في ختام المؤتمر أن يشير إلى هذه الإنجازات الرائعة.

أما الاجتماعات الرسمية فقد أقرّت أن «الاستعداد العسكري العربي الجماعي

بعد استكماله هو الوسيلة الأخيرة العملية للقضاء على إسرائيل نهائياً، وأن قيام إسرائيل هو الخطر الأساسي الذي اجتمعت الأمة العربية بأسرها على دفعه».

أما من الناحية التنظيمية، فقد أقرّ المؤتمر إنشاء قيادة عربية موحدة يرأسها الفريق علي علي عامر وهيئة استغلال مياه نهر الأردن.

ومن الناحية المالية، فقد أقرّ اعتماد مبلغ ستة ملايين وربع مليون جنيه إسترليني لتمويل المشروعات العربية، واعتماد مبلغ ١٧٦ مليون جنيه إسترليني للتعزيزات العسكرية والإدامة المتكرّرة، يقسّط معظمها لعشر سنوات.

أما بشأن الكيان الفلسطيني فقد قرّر المؤتمر «أن يستمرّ السيد أحمد الشقيري ممثل فلسطين لدى جامعة الدول العربية في اتصالاته بالدول الأعضاء والشعب الفلسطيني بنيّة الوصول إلى إقامة القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره».

ولم يكن يدري الشعب الفلسطيني في مختلف تجمّعاته أن الوصول إلى هذه الصيغة كان كفاحاً بذاته. لقد أصرّ الملك حسين ألا تذكر في القرارات كلمة «الكيان الفلسطيني» وأن تأتي فقرة «تقرير مصيره» بعد فقرة «تحرير وطنه»، لأنه أصرّ أن تقرير المصير يأتي بعد مرحلة التحرير. وأوضح أنه يخشى منح الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير في الوقت الحاضر إذ إن النتيجة معروفة ولكنه يتركها إلى ما بعد التحرير. ويوم التحرير يخلق ما لا تعلمون. وليس سرّاً أن الشعب الفلسطيني كان يريد دوماً أن يقرّر مصيره في معزل عن الملك حسين!

ولقد رضيتُ في النهاية بهذه الصيغة «الهزيلة» لأني كنت أريد أن أضع قدميّ على أول الطريق وأن يبرز الكيان الفلسطيني كأمر واقع، ثم ينمو ويكبر بصورة ذاتية. ولكن الذي أقنعني في سريرة نفسي أني كنت أخشى أن أخرج من المؤتمر ممثلاً لفلسطين فقط من دون ذكر للكيان الفلسطيني والاقتصار على قرار يوصي الدول العربية «ببذل العون مادياً ومعنوياً». وهذا قرار ليس له معنى ولا مضمون بما أعرفه من خبرتي بالدول العربية وقراراتها، على مدى أعوام وأعوام.

وانتهى مؤتمر القمة الأول. وأجهزة الأعلام العربية تهدر بالتهليل والتكبير للمؤتمر وقراراته. واشتعلت آمال الأمة العربية، ومعها آمال الشعب الفلسطيني.

وعدت إلى المطار أودّع الملوك والرؤساء مجاملاً منحنياً، فالكيان الفلسطيني في حاجة إليهم، في حاجة أن أزورهم، وأن أجتمع بأبناء فلسطين في بلادهم. واحتضنت الملك حسين وقبّلته، وكلانا يتكلّم لغتين مختلفتين عن الكيان

الفلسطيني، وصعد إلى الطائرة وهو يقول نحن ننتظر الأخ أحمد في عمان.

وفي المطار، وآخر مراسم الوداع لآخر حاكم عربي قد انتهت، سرتُ مع الرئيس عبد الناصر بعض خطوات فقال لي:

«ما رأيك في النتائج»؟

قلت: «هذه تحتاج إلى جلسة طويلة».

قال: «نذهب إلى البيت، ونبدأ الجلسة الطويلة».

وتبعت الرئيس عبد الناصر في سيارتي إلى منزله في منشية البكري. وامتدّ الحديث بيننا قرابة ساعة وقلت ما ملخّصه: «إنني لا أعتبر المؤتمر فاشلاً، ولكنه حقق بعض إنجازات أرجو أن تكون مقدّمة لما هو أكبر. إن إنشاء القيادة العربية الموحدة هو نجاح كبير لم نستطع أن نفعل مثله خلال الخمسة عشر عاماً الماضية. وأرجو أن تلتزم الدول العربية بمطالب الفريق علي عامر، وكذلك فإن القرار الخاص بتنظيم الشعب الفلسطيني هو نجاح كبير لم نستطع أن نفعله في الماضي. وأرجو أن تيسّر الدول العربية طريقي في هذه المهمة الصعبة. أما في غير ذلك، فأرى أن المؤتمر قد فشل. كنت أتمنى أن يكرّس مؤتمر القمة كل جهوده لإقامة الوحدة بين الدول العربية، وحدة فدرالية، أو كونفدرالية على الأقل. ولو قامت هذه الوحدة لاستطاعت حكومة الوحدة أن تعالج قضية تحويل الروافد ومعها قضية فلسطين، وبين يديها كل الطاقات العربية».

وتابعتُ حديثي قائلاً للرئيس: «لا بد أن سيادتك قرأتَ تصريح الرئيس بورقيبة الذي نشر هذا الصباح تعقيباً على نتائج مؤتمر القمة، حين أعلن أن المؤتمر قد حقق وحدة كونفدرالية عربية.. ليت كان هذا صحيحاً. لم يبحث المؤتمر هذا الأمر إطلاقاً. لم ينجح المؤتمر في جميع الأمور التي بحثها فعلاً. وكيف بالأمور التي لم يبحثها أصلاً»؟

قال الرئيس عبد الناصر: «كيف ذلك، وبماذا»؟

قلت: «أنا لا أؤمن بمشروع تحويل الروافد: من الناحية الفنية إنه لا يعطّل المشروع الإسرائيلي ومن الناحية العسكرية تستطيع إسرائيل أن تدمّر مشروعنا من دون أن نستطيع حمايته. نحن قادرون على تدمير المشروع الإسرائيلي. وأنا أفضّل مشروعاً آخر وهو أن ندرّب الفلسطينيين للقيام بعملية التدمير وأن تدافع الدول العربية عن حدودها. أما الجانب المالي فهو فشل ذريع. الدول العربية ليست فقيرة، المبالغ المخصصة للتعزيزات العسكرية مقسّطة على عشر سنوات. وهل ستظل إسرائيل على حالها خلال هذه العشر سنوات.. وهل سيظل الوضع الدولي على حاله ومعه قضية فيتنام عشر سنوات أخرى.. وهل؟ وهل»؟

ورحت أتحدّث وأتحدّث، وكان الرئيس عبد الناصر في تلك الليلة يحب أن يستمع أكثر مما يحبّ أن يتكلم. لقد كان حريصاً أن يسمع انتقاد نتائج المؤتمر وسط الهالة الرائعة التي أحاطت بأخباره وقراراته. وعقّب الرئيس عبد الناصر شارحاً «التناقضات» القائمة في الوطن العربي والتي تحول دون العمل العربي الواحد، وقال: «ليس في الإمكان أبدع مما كان».

قلت: «لا، بل بالإمكان أبدع مما كان».

قال: «وكيف»؟

قلت: «لماذا تقسّط أموال التعزيزات العسكرية لعشر سنوات؟ يكفي عام واحد أو عامان.. لو أننا عشنا عيشة التقشّف عاماً أو عامين في الوطن العربي، كما كان يعيش آباؤنا، لاسترحنا من إسرائيل. إن بقاء إسرائيل سيكلّف الأمة العربية عشرة أضعاف المبالغ المقرّرة حالياً».

وأحسست أن الرئيس عبد الناصر قد بدتْ عليه علامات الجهد والإرهاق. ورأيت أن أُسري عنه فقلت له: «أظن أن السيّد عبد الخالق حسونة وهو خبر الحكومات العربية جيداً قد مازحهم مزاحاً مراً».

قال: «وكيف ذلك؟ إن حسونة لا يعرف كيف يمزح».

قلت: «ولا كيف يجدُّ»!!

قال: «ولكن كيف مزح معهم»؟

قلت: «لقد أقام مأدبة على شرف الملوك والرؤساء، وابتدع قائمة الطعام على صورة طريفة تناسب الموضوع».

قال: «وماذا تعني؟ إنني لم أنتبه إلى قائمة الطعام».

قلت: «كانت قائمة الطعام مذهّبة ومزركشة، وعلى رأسها شارة الجامعة العربية وكتبت فيها ألوان الطعام كما يلي:

رحيق نهر الأردن

عرائس طبرية

غزلان بيسان

لآلئ القدس

فلذات الغور

رقائق نابلس

جواهر أريحا

زهرة اليرموك.

وهذه الإشعارات تعبير عن ألوان اللحوم والأسماك والفطائر والخضار والفواكه» . .

قال: «(مقهقهاً) أصحيح ما تقول»؟

قلت: «لقد أكلنا أسماك الأردن، ولكن إسرائيل شربت النهر».

ونهضت لأنصرف. وسرنا إلى الباب والرئيس عبد الناصر يقول: و«شرّ البلية ما يضحك».

وعدت إلى منزلي وأنا أفكر في الأمانة الثقيلة التي ألقيت على كتفي، واسمها تنظيم الشعب الفلسطيني. لقد عاد الملوك والرؤساء إلى عواصمهم، يطلقون التصريحات الكبيرة، يتفاخرون بإنجازات المؤتمر. وبقيت أنا وحدي أفكر بالكيان الفلسطيني، كيف أبدأه من نقطة الصفر ومن العدم. . من الفراغ الرهيب. وكيف أبنيه مع حكومات عربيّة متفرّقة؟ ومع الشعب الفلسطيني الشريد الطريد؟ ولم يمنحني مؤتمر القمّة إلا قراراً من سطريْن؛ بأن «أتّصل بالدول العربية والشعب الفلسطيني بغية الوصول إلى إقامة القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني».

ذلك هو القرار الذي أصدره مؤتمر القمة، وخرجت من المؤتمر وليس في جيبي إلا هذا القرار.

ولم يكن في جيبي حتى نفقات سفري. ولكن كان في قلبي كل عزمات الشعب الفلسطيني وكل لهفاته لإنشاء الكيان الفلسطيني. وبهذه العزمات بدأت الطريق. وبهذه اللهفات بدأت أبني.

وما أصعب الطريق، وما أصعب البناء!

بل ما أصعب البناء على البنّائين. وما أسهله على المتفرّجين!

وهل يستوي البنّاؤون والمتفرّجون؟

﴿**قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث**﴾[٧].

صدق الله العظيم.

---

(٧) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ١٠٠.

الملك حسين كتب.. والشقيري خطب

قضيت ثلاثة أسابيع في القاهرة بعد انتهاء مؤتمر القمة العربي الأول، وأنا أفكّر وأقدر.. أفكّر كيف أبني كياناً فلسطينياً من سطريْن كتبهما الملوك والرؤساء بصدد التنظيم الفلسطيني، ثم عادوا إلى عواصمهم لينظروا في شؤونهم ولسان كل واحد منهم يقول: إذهبْ أنت وشعبك.. إننّا هنا متفرّجون.

وكان لا بد لي وأنا أعزم أن أبني للحاضر، أن استرجع الماضي وأستذكر حال الكيان الفلسطيني منذ كان. وحضرت الصورة في ذهني كاملة فقد عشتها صبياً وشاباً ورجلاً. وإني أذكر في أوائل العشرينيات كيف تأسّست الجمعيات «الإسلامية المسيحية» في مدن فلسطين لتكون بمثابة قيادات محلية لتتصدّى للحركة الصهيونية، فكانت النواة الأولى لقيام الكيان السياسي لشعب فلسطين في نضاله القومي لتحرير وطنه.

ثم انعقد المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول عام ١٩٢٠ من مندوبي هذه الجمعيات «الإسلامية المسيحية» وانبثقت عنه لجنة تنفيذية لقيادة الحركة الوطنية، وبهذا أخذ الكيان الفلسطيني طابعه القومي. وتوالت بعد ذلك المؤتمرات الوطنية السبعة حتى عام ١٩٢٨.

وجاء بعد ذلك قيام الأحزاب الفلسطينية الخمسة في أوائل الثلاثينيات في محاولة لتنظيم الحركة الوطنية بأسلوب شعبي. ووقعت الثورة الفلسطينية في عام ١٩٣٦، فتجمّعت الأحزاب الخمسة وأُنشئَت «الهيئة العربية العليا» برئاسة الحاج أمين الحسيني وقادت الحركة الوطنية حتى نهاية الانتداب في ١٩٤٨[١].

وفي أواخر عام ١٩٤٨، اجتمع في مدينة غزة مجلس وطني مؤلف من رجالات فلسطين المعروفين، وقرّر إقامة حكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد حلمي باشا،

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذا الكتاب.

واعترفت بها الحكومات العربية باستثناء الأردن. ولم تستطع هذه الحكومة أن تؤدي نشاطاً قومياً بسبب تقاعس الدول العربية عن مساندتها معنوياً ومادياً، فاستقال أعضاؤها، وبقي رئيسها لا يمارس أي عمل إلى أن وافته المنية في عام ١٩٦٣. وعاش الأعوام الأخيرة من رئاسته يصرف الدواء للمرضى، ويوزّع الكساء على المحتاجين.

ذلك كان حال الكيان الفلسطيني عبر خمسين عاماً منذ أن أصبحت فلسطين تحت الحكم البريطاني وانسلخت عن الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ولقد استذكرت كذلك حال الكيان الفلسطيني على صعيد الجامعة العربية. لقد نص ميثاق الجامعة العربية في الملحق الخاص بفلسطين بأن «يتولّ مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله، إلى أن يتمتع هذا القطر باستقلاله». واستناداً إلى هذا النص، فقد وافق مجلس الجامعة في دورات متعاقبة على اختيار كل من: موسى العلمي مندوباً عن الأحزاب الفلسطينية، والحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية، وأحمد حلمي باشا رئيس حكومة عموم فلسطين.

وفي أواخر الخمسينيات بدأ الرأي العام العربي والفلسطيني يتململ من التردّي الذي أصاب قضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي. لقد أصبحت حكومة عموم فلسطين جهازاً رمزياً وبات الشعب الفلسطيني معزولاً عن قضيته لا يبدي بشأنها حراكاً وعلى صعيد الأمم المتحدة تحولت قضية فلسطين إلى قضية روتينية تعالجها الوفود العربية من خلال تقرير وكالة غوث اللاجئين. وكان الله يحبّ المحسنين، ولقد أصبحت الأمم المتحدة من المحسنين!!

وحين كنت أميناً مساعداً للجامعة العربية حاولت كل جهدي أن أبعث الحياة في حكومة عموم فلسطين. ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح، فقد كان أحمد حلمي باشا وطنياً مخلصاً ولكن اعتلال صحته واعتلال الحياة العربية الرسمية قد تعاونا على إبقاء القضية الفلسطينية في بؤرة الركود.

واستجابة للصيحات العربية والفلسطينية، نظر مجلس الجامعة العربية في هذا الموضوع في دورة آذار/ مارس ١٩٥٩، بناءً على مبادرة من وفد الجمهورية العربية المتحدة وأصدر توصيتين مهمّتين:

الأولى: أن يعقد اجتماع على مستوى عالٍ لرسم سياسة عربية موحدة تلتزم بتنفيذها جميع الدول الأعضاء وتتناول وضع الحلول العملية لاسترجاع فلسطين.

الثانية: إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني وإبراز كيانه شعباً موحداً، يسمع العالم صوته في المجال القومي وعلى الصعيد الدولي بواسطة ممثّلين يختارهم الشعب الفلسطيني.

وانعقد مجلس الجامعة على مستوى وزراء الخارجية في الدار البيضاء في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩، ليبحث القضية الفلسطينية وتنظيم الشعب الفلسطيني. ولكن المجلس لم يستطع أن يبحث الأمر بصورة جدّية إذ إنه عارض الوفد الأردني برئاسة هزاع المجالي رئيس الوزراء موضوع التنظيم الفلسطيني. وكان في عداد الوفد الأردني بعض الفلسطينيين الذين جاؤوا إلى الدار البيضاء ليعارضوا كيان فلسطين خضوعاً لإرادة الملك حسين، وبقيت دورة المجلس مفتوحة لعلّ الأردن يوافق على تنظيم الشعب الفلسطيني.

واستأنف المجلس اجتماعه في شهر شباط/ فبراير عام ١٩٦٠ وانعقدت اللجنة السياسية برئاسة الحاج حسين العويني وزير الخارجية اللبنانية. ومثّل الجمهورية المتحدة الدكتور فريد زين الدين نائب وزير الخارجية في حين مثّل السعودية الأمير فهد بن عبد العزيز كما مثّل الدول العربية الأخرى سفراؤها في القاهرة ومثّل الأردن وزير خارجيته موسى ناصر(القدس) وكنت في الوفد السعودي، يومذاك.

وقضيت أسبوعين في فندق هيلتون حيث كانت تجتمع اللجنة السياسية في جناح رئيسها الحاج حسين العويني، ونحن نحاول أن نقنع الوزير الأردني الفلسطيني بموضوع تنظيم الشعب الفلسطيني. ولكن الوزير كان لا يخرج عن كلمة واحدة «إن جلالة الملك يعارض في التنظيم الفلسطيني. هذه تعليماتي ولا أوافق على غير ذلك». لقد حاولت كل الوفود العربية أن تجد للوزير الأردني مخرجاً، فلم تفلح. وبناءً على تكليف الوفود العربية، وضعتُ مشروع قرار يتضمّن خمسة مبادئ لتكون أساساً للسياسة العربية في معالجة قضية فلسطين. . وقضينا ثلاث ليال، ونحن في حوار مع الوزير الفلسطيني الأردني حول كل عبارة، بل كل كلمة يمكن أن تشتم منها رائحة الكيان الفلسطيني. وكانت عبارة «تقرير المصير للشعب الفلسطيني» قد أطلقت حواراً رهيباً ليلة بكاملها.

واقترح الوزير اللبناني الحاج حسين العويني ستراً لوجه الجامعة العربية أن يعهد إلى الأمين العام بتأليف لجنة من الخبراء بقضية فلسطين «لتضع المخططات لسير العمل العربي بشأن قضية فلسطين»، ووافق مجلس الجامعة على الاقتراح.

واجتمع مجلس الجامعة في شتورة لبنان في آب/ أغسطس ١٩٦٠، وعاد إلى بحث القضية الفلسطينية فقرّر:

أولاً: إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني وإبراز كيانه شعباً موحداً.

ثانياً: إنشاء جيش فلسطيني في الدول العربية المضيفة.

وكان هذا القرار انعكاساً لتصاعد نقمة الرأي العام العربي والفلسطيني لتقاعس الجامعة العربية بشأن قضية فلسطين، ولكن موقف الأردن الرسمي بقي سلبياً من الموضوع، يزداد مع الزمن عناداً وإصراراً.

ومضى عام بكامله من دون أن تستطيع الجامعة العربية إقناع الأردن بالرضوخ لقرارات المجلس. وكان أن اختار الأمين العام لجنة الخبراء مؤلفة من محمود رياض مدير مكتب رئيس الجمهورية العربية والدكتور فؤاد عمون الأمين العام لوزارة الخارجية اللبنانية. ولقد مثّل الأردن على التعاقب، الوزراء الأردنيون الفلسطينيون موسى ناصر والدكتور حازم نسيبة ورفيق الحسيني وعبد المنعم الرفاعي، وكنت ممثلاً للمملكة العربية السعودية.

واجتمعت لجنة الخبراء في مقر الجامعة في حزيران/ يونيو ١٩٦١ ورأت بدلاً من أن تنشئ كياناً فلسطينياً جديداً، أن توصي بدعم «حكومة عموم فلسطين مادياً وسياسياً». وبقي موقف الأردن سلبياً.

وواصلت لجنة الخبراء اجتماعاتها في صوفر وبحمدون وشتورة، في محاولات مستمرّة لإقناع الوفد الأردني بقبول الكيان الفلسطيني من حيث المبدأ. ولكن تلك الجهود كانت تصطدم بمعارضة قوية من الأردن. وكان الملك حسين يؤلف الوفد الأردني المتوجّه إلى الجامعة العربية برئاسة أحد «الأردنيين»، إلا حينما يكون الموضوع متعلقاً بالكيان الفلسطيني، فقد كان الوفد الأردني مؤلفاً في مجموعه من الفلسطينيين. وإن موقفي من هذه التعابير السخيفة السقيمة، «أردني وفلسطيني» سيبدو على حقيقته في سياق مذكراتي. ولكن هكذا كان تفكير الملك حسين وأسلوبه في معالجة الكيان الفلسطيني.

وفي شهر تموز/ يوليو ١٩٦٢ عرضت على لجنة الخبراء مشروعاً للكيان الفلسطيني يقوم على أساس الدعوة لمجلس وطني يمثّل التجمعات الفلسطينية، تنبثق عنه جبهة وطنية لقيادة الشعب الفلسطيني، تكون لها اختصاصات عسكرية وسياسية وتنظيمية وإعلامية ومالية، وتحدّد صلتها بالجامعة العربية.

ووافقت لجنة الخبراء على هذا المشروع بعد تعديلات طفيفة إلا الوفد الأردني، فقد بقي مصرّاً على رفضه الكيانَ الفلسطيني جملة وتفصيلاً. والواقع أن الوفد الأردني كان موافقاً ولكن «الفيتو» كان بيد الملك حسين!!

وبقي موضوع الكيان الفلسطيني يترنّح حتى انعقد مجلس الجامعة في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣، وهي الدورة التي انتخبت فيها ممثلاً لفلسطين في الجامعة العربية. وعاد إلى موضوع درس الكيان الفلسطيني، واتخذ قراراً روتينياً بإحالة جميع المقترحات

التي قدمت بشأن الكيان الفلسطيني من ١٩٥٩ إلى الحكومات العربية «لاستيفاء درسها بشمول». ولكن وفد الأردن قد رفض هذا القرار الشكلي، وسجّل في المحضر تحفّظاً يقول فيه إنه «بعد أن يتم تحرير أرض فلسطين من إسرائيل يقرّر أهل فلسطين مستقبلهم السياسي وفق إرادتهم ومشيئتهم». . تلك هي صورة الكيان الفلسطيني كما استرجعتها وأنا في منزلي في شهر شباط/ فبراير ١٩٦٤، بعد أن انفرط مؤتمر القمة العربي الأول، بل تلك هي التركة الثقيلة التي أخذت على نفسي حملها وأنا في أول الطريق لإنشاء الكيان الفلسطيني. ﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**﴾[٢].

وبدأت أول ما بدأت بأن أخذت أضع الكيان الفلسطيني على الورق، تماماً كما يفعل المهندس؛ يضع خارطة البناء، بأسسه وتفاصيله ومقاييسه. وكتبت وعدّلت وحذفت، وقدمت وأخّرت، إلى أن وضعت «الميثاق القومي» و«النظام الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية». ووضعت في ما كتبت كل خبراتي في القضية الفلسطينية على الصعيدين العربي والدولي مضافاً إلى ذلك ظروف الشعب الفلسطيني. وكنت أبيت غير مرة على كلمة أو عبارة ليلتين أو ثلاثاً، فأنا أمام أجيال فلسطينية تقرأ ما بين السطور أكثر مما تقرأ في السطور.

وأبرزت صورة الكيان الفلسطيني: في مجلس وطني يمثل التجمّعات الفلسطينية تنبثق عنه لجنة تنفيذية تقود النضال الفلسطيني وصندوق قومي لتمويل الحركة الفلسطينية ومكاتب في العواصم العربية وجهاز إعلامي للدعوة للقضية الفلسطينية. ذلك هو الهيكل العام للكيان الفلسطيني كما رسمته في الميثاق والنظام الأساسي.

واستعنتُ بأجهزة الجامعة العربية فطبعتُ من الميثاق عشرين نسخة. وأخذتُ أعدّ نفسي «للاتصال بالحكومات العربية والشعب الفلسطيني» كما نصّ قرار الملوك والرؤساء في مؤتمر القمة في القاهرة.

ولكن قرار الملوك لم يخوّلني إنشاء الكيان الفلسطيني إطلاقاً. كل ما خوّلني إياه «أن أتصل وأدرس بغية الوصول إلى إقامة القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني». لقد كانت مهمتي في الواقع الاتصال والدرس، ومن ثم تقديم تقرير إلى مؤتمر القمة الثاني المزمع عقده في الإسكندرية في شهر آب/ أغسطس ١٩٦٤.

ولكني خشيت أن أنفّذ هذا القرار كما نصّ القرار. ولقد كانت آراء الدول العربية متباينة بشأن كيفية تشكيل الكيان الفلسطيني واختصاصاته. وكانت آراء التجمّعات الفلسطينية متباينة كذلك حول كيف ينشأ الكيان الفلسطيني. وكان

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٧٢.

المفروض أن أبرز هذه التناقضات في تقرير أقدمه إلى الملوك والرؤساء في اجتماعهم في الإسكندرية. وأنا أعلم أن مصير هذا التقرير هو إحالة الموضوع إلى الحكومات العربية مرة أخرى لمزيد من الدرس، كما كان الحال لسنين عديدة مضت. وبهذا، تمرّ أعوام أخرى من دون كيان للشعب الفلسطيني.

وكانت كل هذه المحاذير والمخاوف تنتابني وأتساءل: كيف أقحمت نفسي بين حجري الرحى. ستكون النهاية نهايتي، من دون أن أكون قادراً على إنشاء الكيان الفلسطيني.

وعزمت أخيراً أن ألجأ إلى «الدكتاتورية» أفرضها على الملوك والرؤساء وعلى الشعب الفلسطيني. ولقد أغراني بنجاح «الدكتاتورية» وقبولها أنها أولاً هي الوسيلة الوحيدة أمامي، وثانياً أنها ستكون مقبولة لدى الجماهير العربية والفلسطينية على السواء.

ولهذا عزمت على أن أضع الحكومات العربية والشعب الفلسطيني أمام الأمر الواقع، فأدعو إلى مجلس وطني ينعقد في مدينة القدس لينظر في الميثاق والنظام الأساسي ويعلن قيام منظمة التحرير الفلسطينية وينتخب لجنة تنفيذية. وتشترك بعد ذلك في مؤتمر الملوك والرؤساء في الإسكندرية باسم «منظمة التحرير الفلسطينية» لا تحت اسم «ممثل فلسطين في الجامعة العربية».

وكانت أول اتصالاتي تحقيقاً لهذا الغرض بالرئيس جمال عبد الناصر. ولقد قدّمت إليه نسخة من مشروع الميثاق والنظام الأساسي ولخّصت له طريقة إنشاء «الكيان الفلسطيني»، وذكرت له أنني في سبيل الإعداد لمؤتمر فلسطيني يعقد في القدس «لإخراج» منظمة التحرير الفلسطينية. ووافق الرئيس عبد الناصر على الخطة. وأغلب ظني أنه لم يسأل نفسه عما إذا كنت مخوّلاً بإنشاء الكيان، أو بدرس موضوع إنشاء الكيان. وهكذا بدأت الخطوة العملية الأولى.

ولكن صعوبتي لم تكن في القاهرة. ولفقد كانت الجمهورية العربية المتحدة راغبة في إنشاء الكيان اليوم قبل الغد. وكانت صعوبتي الكبرى في عمّان. وعلى هذا فقد شددت الرحال إلى عمان في شباط/ فبراير ١٩٦٤ وفي حقيبتي ملف واحد كتب عليه: الكيان الفلسطيني، منظمة التحرير الفلسطينية.

وصلت إلى مطار عمان، ووجدت جمعاً من أبناء فلسطين في انتظاري، ومعهم عدد من الصحافيين ومراسلي وكالات الأنباء الأجنبية. وكان حديث وكان سؤال. وليس في الوطن العربي إلا حديث الكيان الفلسطيني. وقلت: «إنني أحمل في حقيبتي مشروعاً كاملاً عن الكيان الفلسطيني، سأنشره على الشعب الفلسطيني في حينه

ولكني أريد أن أعلن من الآن أن المشروع يتضمنّ نصاً صريحاً بأن «الكيان الفلسطيني لا يهدف إلى سلخ الضفة الغربية عن الأردن ولا أن يمارس سيادة إقليمية». لقد أردت بهذا التصريح أن أطمئن الملك حسين قبل أن ألتقي بالملك حسين، لأشق أمامي طريق الكيان. وما كان أكثر مصاعب الطريق!

ولم أكد أصلح من شأني في الجناح الذي خصّص لي في فندق الأردن، حتّى اتصل بي الديوان الملكي ليخبرني أن «سيّدنا» يريد أن يراني في الساعة الثانية ظهراً. وازدردتُ لقيمات عاجلة وانطلقت بي السيارة إلى رابية القصرين بسمان ورغدان. وكان عنده رئيس الوزراء بهجت التلهوني ورئيس الديوان الملكي الشريف حسين بن ناصر. وبعد حديث قصير، مضيت أشرح موضوع الكيان الفلسطيني كما أعددته. والتلهوني يستزيدني للملك حسين، والشريف حسين يستزيدني، بحثاً عن المساوئ وتخويفاً للملك حسين.

وقال الملك حسين في ختام الجلسة: «نستأنف اجتماعنا غداً، وسيدعى إلى الاجتماع رؤساء الوزراء السابقون وكبار رجال الدولة». ثم استدعى أحد رجال القصر وطلب إليه أن تطبع مطبعة الجيش خمسين نسخة من مشروع الكيان الفلسطيني تكون جاهزة في اليوم التالي. وانصرفت من القصر الملكي والملك حسين موزّع في ما أعتقد، بين موافقة التلهوني ومعارضة الشريف حسين.

ووصلت الفندق والوفود من أبناء فلسطين من الضفة الغربية محتشدة في المعابر والردهات، يريدون كلهم أن يقرأوا الأخبار في وجهي، ويوجهون كلهم إليَّ الدعوة لزيارة مدنهم وقراهم ومخيّماتهم لأشرح الكيان الفلسطيني. قلت لهم: «لن أغادر الأردن قبل أن أزوركم جميعاً وأتحدّث إليكم جميعاً. ذلك ما كلّفني به مؤتمر الملوك والرؤساء ومعهم جلالة الملك حسين». ودوّت القاعة بالتصفيق ودموع السرور تملأ العيون. ولم يكن يحلم الشعب الفلسطيني في الأردن أن يكون الكلام عن الكيان الفلسطيني مباحاً. وانصرف الجميع وكلّهم يأخذون العهد بأن أزورهم، فإن الجموع من ورائهم منتظرة.

وذهبت في اليوم الثاني إلى رابية القصرين بسمان ورغدان. وأنا مستبشر أن يعيش الكيان الفلسطيني بسمان ورغدان خارج بسمان ورغدان. ودخلت مكتب الملك حسين وكان فيه رجال الدولة، وفي أيديهم مشروع الكيان الفلسطيني يقرأونه. ودخل الملك حسين. وافتتح الاجتماع بتلخيص عن مؤتمر القمة وقراراته، وأن الأردن يعتبر نفسه مسؤولاً عن قضية فلسطين، ثم طلب مني أن أقرأ المشروع مادّة مادّة وأن أشرح ما ينبغي شرحه. وبدأت أقرأ وأشرح إلى أن انتهيت من «الميثاق» ومن

«النظام الأساسي». وكنت أجيب عن أسئلة الحاضرين. وكان الكثير من الأسئلة يُقصد منها الإحراج لا الإيضاح . .

ولست أنسى سخريات رئيس الديوان الشريف حسين حين قرأ المادّة التي تنصّ على «علم ونشيد» لفلسطين، فسأل هازئاً: «لماذا لم تذكر شيئاً عن إصدار النقد والطوابع باسم فلسطين»؟

فقابلت هزأه بهزء أشد، وقلت: «إنني موافق على اقتراحكم. أرجو أن توافقونا على إصدار أوراق نقدية وطوابع بريدية»، فضحك الجميع وتخلّل الجلسة جو من المرح.

ودارت مناقشة حامية حول مادة «الكتائب الفلسطينية». وتساءل حابس المجالي قائد الجيش الأردني وزملاؤه كيف يكون في الأردن جيشان؛ جيش أردني و«كتائب فلسطينية»؟ واشتد الحوار وانضم إلى رجال الجيش عدد من الحاضرين. وخشيت أن يرفض المشروع على هذه المسألة. واقترحت أن نضيف على تلك المادة عبارة «وذلك في أراضي الدولة التي توافق على ذلك»، فوافق الجميع. وكان هو التعديل الوحيد الذي أجري على المشروع.

وقلت للملك، إن الأمر لا يحتاج إلى السرعة، وإني أستأذنكم الاتصال بأبناء فلسطين لمدة بضعة أيام، وخلال ذلك تكونون قد تعمّقتم في دراسة المشروع، فوافق على ذلك. لقد أراد أمراً، وأردت أمراً آخر. أراد فرصة أطول للدرس والتفكير. وأردت فرصة لأتّصل بالشعب الفلسطيني مباشرة حتى يسمع صيحة الشعب. ولقد سمع صيحة الشعب فعلاً. وكانت أهدر من الهدير . .

وكان لقائي الأول مع أبناء فلسطين في معسكر الحسين، في أحد جبال عمان. ولقد تحدّثت إلى الجموع الحاشدة رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً، وكانت هتافاتهم تتجاوب أصداؤها بين جبال عمان حتى وصلت إلى رابية القصرين بسمان ورغدان. ووصلت تقارير المخابرات الأردنية إلى الملك حسين عن ذلك اللقاء مع أبناء فلسطين وهم يودّون لو استطاعوا، أن يبنوا الكيان الفلسطيني بحبّات قلوبهم.

وفي اليوم الثاني غادرت عمّان إلى أريحا، واحتشدت الجموع في الساحات والميادين للقاء هذا الإنسان الفلسطيني الذي يحمل إليهم بشرى «الكيان الفلسطيني». وتداوت صيحات المخيّمات من الألوف، والأفواه هاتفة بحياة الملوك والرؤساء وحياة الكيان الفلسطيني. ومن أريحا تصاعد بنا موكب السيارات إلى مدينة القدس، إلى مدرسة الرشيدية حيث كانت الجموع تملأ رحاب الساحات والميادين. وخطبت في الجماهير شارحاً موضوع الكيان الفلسطيني، وهتافات الشعب تتعالى وتتعالى وراء خطوط الهدنة

يسمعها الإسرائيليون في القدس الجديدة حيث أحياؤنا الفاتنة وأرضنا الطهور.

ووصلتُ إلى فندق أمباسادور في القدس وسط طوق كثيف من رجال الشرطة بين الجموع الزاخرة. وفي الليل عقدت ندوة ضمّت قادة الفكر في المدينة، وكان حواراً بنّاء حول الكيان الفلسطيني، كيف نبدأه.. وكان الجو عامراً بالحماسة والإيمان إلا ما خلا من بعض المتزمّتين الذين أطلقوا ألسنتهم في الجدل العقائدي.

وإني لأذكر أن واحداً منهم صاح في وجهي وهو يقول: «نحن نريد كياناً ثورياً.. ولا نريد كياناً تحت إشراف الجامعة العربية».. قلت له «نبني الكيان أولاً، ثم نبني الكيان الثوري ثانياً. أوَليس يكفي أيها الثوري أنّك أصبحتَ حراً تتحدث عن الكيان الفلسطيني، وكنتَ قبل ذلك لا تجرؤ أن تنطق بلفظة الكيان الفلسطيني؟». وثار الحاضرون وأسكتوا هذا الأخ «الثوري»!!

ونهضت في صباح اليوم الثاني إلى الجنوب، إلى بيت لحم وبيت جالا والخليل، فالتقيت بجموع الشعب، المقيمين واللاجئين، وخطبت في كل مدينة وفي كل قرية، وفي كل مخيم. وودت لو أني أخطب في كل بيت، فقد تفتحت قلوب الشعب الفلسطيني على آماله، وبات كل واحد مستعداً أن يحمل على أكتافه الأحجار والتراب، ليبني كيانه.

وقضيت ليلتي الثانية في القدس في ندوة أخرى مع شباب القدس وطلابها ولم يكن، بحمد الله، بينهم من يتكلّم «باللسان الثوري». لقد كانوا قبل زيارتي للبلاد، لا يستطيعون الحديث عن الكيان الفلسطيني إلا همساً أو غمزاً، خشية أن تتحدث آذان الجدران إلى بسمان ورغدان.

وخرجت في الصباح في موكب ضخم إلى الشمال، فلقيت أهالي رام الله والبيرة والقرى والمخيمات المجاورة وقد ملأوا دار السينما الوطنية وأسطحتها وساحاتها. وكان الحديث عن الكيان الفلسطيني والهتافات، والنداءات للمبادرة إلى تشكيله تشق أجواء الفضاء. وخرجت من الباب الخلفي للسينما في صعوبة بالغة.

وواصلت سيري إلى نابلس فكانت تعج بالخلائق، وتعالت الحناجر بالهتاف للكيان الفلسطيني. وكان الشباب والطلاب في حلقاتهم يصيحون «يا شقيري، هات سلاح وخذْ أرواح». وخطبت في الجماهير مستعرضاً قرارات مؤتمر القمة داعياً إلى وحدة الصفوف لإنشاء الكيان الفلسطيني فتعالت الهتافات «نبني الكيان بالأرواح، بالسلاح».

وأقبل المساء وأحسست أني في حاجة أن أنام أياماً بلياليها، ولكن أنّى يكون

النوم وتدفّقت الجماهير عليّ في الليل، وكل واحد عنده سؤال، ولكل سؤال جواب.. ولا بد أن يعقب الجواب سؤال وسؤال؟

وانطلقنا في صباح اليوم التالي، وتعاظم الموكب الذي يرافقني. ودخلنا مدينة جنين عند الضحى ولم أستطع الوصول إلى مكان الاجتماع إلا على ظهر سيارة شحن كبيرة، وتحدّثت في جنين كما تحدثت في غيرها. ولم يكن للشعب من حديث إلا الكيان، والكيان فقط. وراعني مشهد الطالبات وهن يجهشن بالبكاء فرحاً وسروراً، وإحداهن تهتف وعلم فلسطين بيدها «إبنوا الكيان وارفعوا العلم»، وردّدت الطالبات وراءها بالمئات..

وأفلتُّ من الجماهير من الطرق الفرعية إلى طولكرم. واجتزت شوارعها، وعدت بالذاكرة خمسين عاماً إلى الوراء حينما كنت طفلاً أدبّ على ساحاتها[٣]، وها أنا أعود إليها الآن رجلاً لأبني مع الشعب كيان الشعب وخطبت في الجماهير فإذا بها تصيح صيحة رجل واحد «نريد الكيان يا حسين».

ومن طولكرم ذهبت إلى قلقيلية لأرى الأبطال الصامدين على خط الهدنة يصنعون «أرضاً» من الصخور ليزرعوا الخضار ويغرسوا الأشجار. وفي ساحة المدينة تجمّع أهلها وأهل القرى المجاورة وحدّثتهم عن الكيان الفلسطيني، وكان القطار الإسرائيلي يمرّ على مقربة منا. وقلت صائحاً: «لقد تأخرنا في بناء الكيان ولكن ما فاتنا القطار». وتداوت صيحات الشعب للكيان الفلسطيني، تتجاوب في آذان المستعمرات الإسرائيلية، وهي على مرمى حجر منا.

وعدت إلى القدس بعد يومين حافلين ازددتُ فيهما إيماناً بأصالة شعبنا ووعيه وشجاعته، ووجدت الرسائل والبرقيات من أبناء فلسطين في الضفة الشرقية وهم يعاتبون: «ألسنا أبناء فلسطين، لماذا لا تزورنا»؟ وعالجتهم في اليوم الثاني بزيارة مفاجئة إلى إربد، فزحفت جموعهم من المخيمات المجاورة، وكان الكيان محور الحديث وصيحة الهتاف.

ومن إربد عدت إلى الزرقاء حيث تجمّعت الجماهير في فناء المدرسة، وتعلّق الشباب بالأسطحة والشرفات، وركبوا جذوع الشجر، وراحوا يستزيدونني في الكلام. وكلما هممت بالانصراف وهم يصيحون «الكيان، الكيان لا يعارض إلا الخوّان»، وخشيت أن تنطلق هتافات عدائية تنسف الجسور التي بنيتها مع الملك حسين، فسارعت في العودة إلى عمان.

---

(٣) الشقيري، المصدر نفسه.

وأحسست وأنا أدخل عمان أنني أدخلها دخول الفاتحين، ولكن من دون غرور ولا خيلاء. لقد أفلحت الخطة كما أردتها تماماً. كانت المخابرات الأردنية تزوّد الملك حسين ساعة بساعة بأنباء هذه الاجتماعات التي لم تشهد البلاد لها مثيلاً. وبهذا وضح للملك حسين أين عواطف الجماهير وما هي إرادتها. ولم يعد بوسعه أن يقف موقفاً سلبياً أمام الكيان كما فعل لخمس سنين خلت.

وزرت الملك حسين يوم وصولي إلى عمان، وقلت: «لقد أنهيت مهمتي في الأردن كما حدّدها لي مؤتمر القمة في القاهرة. لقد اتصلت بجلالتكم وحكومتكم والشعب. وإني لأرجو أن يصدر بلاغ رسمي بموافقة جلالتكم على إنشاء الكيان الفلسطيني».

سكت الملك لحظة وقال: «نحن مستعدون لعرض الأمر على مجلس الوزراء وأخذ موافقته.. ولكن».

قلت: «ولكن، ماذا يا سيدنا»؟

قال: «لقد حصل تشويش كبير في عمان بالنسبة إلى موضوع الكيان الأردني، ونحن لا نريد أن نخلق حساسية بين فلسطيني وأردني»..

قلت: «يا سيدنا، أنا أبعد الناس عن العصبية الإقليمية وإني اعتبر أن فلسطين هي الأردن، والأردن هي فلسطين، ولولا ظروف معينة لاقترحت أن يدخل «الأردنيون» في قيادة الكيان الفلسطيني فوراً. وإني أرجو أن يتم هذا في المستقبل».

قال: «أظن أن الأمر يحتاج إلى إيضاح، وخصوصاً أنك في خطبك لم تشر إلى أن الكيان الفلسطيني لا يعني سلخ الضفة الغربية عن الشرقية».

قلت: «أنا مستعد أن ألقي بياناً في الإذاعة الأردنية أؤكد فيه هذا المعنى. وإني أترك لجلالتكم أن تصوغوا البيان، وعليَّ إلقاؤه. وأنا لم أفعل مثل هذا في حياتي».

ورفع الملك سماعة التلفون، وطلب إلى الوزير صلاح أبو زيد أن يضع صيغة البيان. وجاء به ومعه جهاز التسجيل، فسجلت البيان بصوتي. واجتمع مجلس الوزراء بعد الظهر برئاسة الملك حسين وأصدر بلاغاً «بموافقة المملكة الأردنية الهاشمية على مشروع الكيان الفلسطيني كما وضعه أحمد الشقيري ممثل فلسطين في الجامعة، وفق الميثاق القومي والنظام الأساسي المقترحين».

وتدفقت الجماهير على الفندق حيث كنت أنزل، يهنئ بعضهم بعضاً بهذا النصر العظيم الذي تعلنه الإذاعة الأردنية بنفسها. ولقد كان الكيان الفلسطيني، إلى عهد قريب يدفع بقائله إلى عذاب السجون، أو الاعتقال في جوف الصحراء..

وحمدت الله أن تحقّق هذا النصر في خمسة أيام، بعد أن فشلت في الماضي جهود خمسة أعوام. ثم حمدت الله أنني في سبيل هذا النصر لم أفرّط بالقضية، ولا بالكيان لا قليلاً ولا كثيراً. كل الذي فعلته أنني تودّدت إلى الملك حسين وجاملته، وأنني ذكرت اسمه بالثناء حين كانت الجماهير تهتف للرئيس جمال عبد الناصر، ولم يكن يضايق الملك حسين أكثر من هذا الهتاف.

ومن ناحية موضوعية فقد أكّدت أمراً أؤمن به، هو أنني لا أريد فصل الضفة الغربية عن الضفة الشرقية، كما كنت لا أريد أن نمارس سيادة على الضفة الغربية ونحن لا وجود، ولا كيان، ولا مال، ولا جيش. ونحن يصحّ فينا قول الشاعر:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعف النطق إن لم يسعف الحال

ومن أجل ذلك رضيتُ، بما لم أرضَ بمثله في حياتي. رضيتُ أن يقال: الملك حسين كتب والشقيري خطب. رضيتُ بهذا، لأن الكيان الفلسطيني لا يقوم بغير الشعب الفلسطيني والشعب معظمه في الأردن، عند الملك حسين.

رضيتُ بهذا، لأني أردت أن ألزم الملك حسين بالكيان الفلسطيني، ووطن الكيان تحت سيادة الملك حسين. ولو لم أفعل هذا ما كان قد بني الكيان الفلسطيني، ولا كبر وترعرع، حتى أصبح الآن، كما هو سيكون في الغد، الإطار الذي يجمع الشعب الفلسطيني في نضاله لتحرير وطنه.

وخرجت من عمان، وحمدت الله أني أرسيت قواعد الكيان في وطن الكيان. وعزمت على السفر إلى بقية الوطن العربي لألتقي بالحكومات العربية والتجمعات الفلسطينية.

ومن عمان قصدت دمشق، حيث قادة حزب «البعث» وأنا أردّد قوله تعالى: ﴿**فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون**﴾[٤] صدق الله العظيم.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة الروم،» الآية ٥٦.

المعسكـر أولاً.. والكيـان ثانيـاً

وصلت إلى دمشق من عمّان استكمالاً لرحلتي في سبيل إنشاء الكيان الفلسطيني، واستقبلتني السلطات السورية على الحدود بكل مظاهر الحفاوة، ودعوت الله أن يكون ذلك حفاوة بالمشروع الذي أحمله عن كيان الشعب الفلسطيني وفي سوريا ١٥٠ ألفاً من أبناء فلسطين.

وكنت أتطلّع إلى كل التأييد الذي أطمع فيه. وفلسطين هي سوريا الجنوبية، فقد كان هذا هتافنا أيام كنا صغاراً ندبّ على أرض فلسطين[١]. ولي في سوريا صداقات كثيرة وذكريات أكثر، ومثّلتها في الأمم المتحدة سبع سنوات. وفي حزب البعث لي معرفة وطيدة بقادته: صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق ونور الدين الأتاسي والفريق أمين الحافظ ومنصور الأطرش وحسان مريود وابراهيم ماخوس وغيرهم.

ولكني فوجئت بما لم أكن أتوقع.. لقد اجتمعت برجال الدولة والحزب والجيش، وشرحت مهمتي ومشروعي، فوجدت فتوراً ثم تبرّماً وتململاً. وتعمّقت في الشرح والإيضاح واستعرضت دور سوريا في الحركة العربية وإيمانها العريق بقضية فلسطين وتضحياتها الغالية في حرب ١٩٤٨، ثم انتقلت إلى رسالة «البعث» وواجبه في معركة التحرير، وأن لا تحرير لفلسطين من دون شعب فلسطين، ولا شعب من دون تنظيم وكيان. ولكن بقي الفتور هو الفتور.

وعدت في اليوم الثاني إلى الحديث نفسه. وقلت: «أيها الإخوان إذا لم تكن لكم بي ثقة، فقولوها صريحة. أنا مستعد أن أستقيل ولكم أن تختاروا غيري لهذه المهمة فكان جوابهم لا، نحن نقدّر جهودك وليس لنا اعتراض على شخصك. ولكن الموضوع هو موضوع مبدإ وخطة».

---

(١) انظر: أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذا الكتاب.

قلت: «ما هو المبدأ، وما هي الخطة»؟

قالوا: «الكيان الفلسطيني لا يصلح من دون أرض. يجب على الملك حسين أن يسلّم بالضفة الغربية، وعلى الرئيس عبد الناصر أن يسلّم بقطاع غزة».

قلت: «هذا كلام رائع جداً، ولكن دون ذلك أهوال» . .

قالوا: «وما هي الأهوال»؟

قلت: «ومن يحمي الضفة الغربية وقطاع غزة من إسرائيل»؟

قالوا: «إبنوا جيشاً لفلسطين» . .

قلت: «ومن أين المال؟ أنتم تعرفون تكاليف بناء الجيش» . . .

قالوا: «يجب على الدول العربية أن تدفع».

قلت: «وإذا لم يدفعوا»؟

قالوا: «نجبرهم» . .

قلت: «وبماذا تجبرونهم؟ وإذا لم يخضعوا هل نبقى من دون كيان إلى يوم البعث!! وأنتم حزب البعث»!!

قالوا: «يجب على الملك حسين أن يتخلّى عن الضفة الغربية، ويجب على الرئيس عبد الناصر أن يتخلّى عن قطاع غزة».

قلت: « . . أقنعوا الملك حسين وعبد الناصر، وأنا موافق. ثم أقنعوا الدول العربية بأن يتحمّلوا نفقات جيش فلسطين وأنا موافق».

وانصرفت من القصر الجمهوري لنلتقي في اليوم الثاني.

وفي الموعد المحدّد، اجتمعنا في القصر الجمهوري، أنا وحدي من جانب، والبعث في الجانب الآخر دولة وحزباً وجيشاً. ودخلنا في الحوار نفسه. ولم أجد عندهم اقتراحاً عملياً سوى أن المهمة مهمتي، وعليَّ أن أسعى وهم يؤيدونني.

قلت: «أنا لا أستطيع، وإذا استطعتم أنتم، فأنا موافق».

وانتقل الحديث بعد ذلك إلى تفاصيل المشروع فوجدت نفسي في دوامة أخرى.

قالوا: «نحن لا نوافق على المشروع الذي أعدَدْته. لقد درسناه في الحزب، ونحن لا نوافق عليه».

قلت: «وما هي اعتراضاتكم على المشروع»؟

قالوا: «الكيان الفلسطيني يجب أن يقوم عن طريق الانتخاب».

قلت: «إن الشعب الفلسطيني مشتّت في الوطن العربي، والانتخابات في حاجة إلى سلطة وقانون وسجلّات ومحكمة طعون وأجهزة كثيرة. ولا يملك الشعب الفلسطيني شيئاً منها في الوقت الحاضر، ثم إني أوردت في النظام الأساسي نصّاً يشير إلى الانتخابات في أول فرصة تتيسّر أسبابها. ويكفي في المرحلة الحاضرة أن نختار لجنة في كل قطر لتختار ممثّلاً لذلك القطر للاشتراك في المجلس الوطني، الذي سنعقده في بيت المقدس».

قالوا: «هذه طريق قديمة بالية. وهي لا تختلف عن أسلوب الحاج أمين الحسيني في تشكيل الهيئة العربية العليا».

قلت: «الفرق شاسع بين المجلس الوطني المزمع تشكيله بموجب النظام الأساسي وبين الهيئة العربية العليا، أما الحاج أمين الحسيني فها أنتم تتعاونون معه. ولقد وافقتم أن يفتح مكتباً في دمشق باسم الهيئة العربية العليا، مع أن هذه الهيئة لم يبق منها إلا الحاج أمين الحسيني بشخصه، وخاتم الهيئة العربية العليا في جيبه»!!

وأخذ الحوار دوراً حاراً بعد هذه التفاصيل، وساد الجلسة جوّ من التحدّي والتوتر.

فقلت: «أريد أن أسألكم بكل أُخوّة وصراحة: هل الحكم الحاضر في دمشق قائم على أساس الانتخابات؟ وليس الشعب السوري في وطنه لاجئاً، وأنتم تملكون كل أسباب الانتخابات، فلماذا تريدون أن تفرضوا على إخوانكم اللاجئين ما لا تفرضونه على أنفسكم»؟

قالوا: «الحكم في سوريا هو في يد الحزب، والحزب له قواعد، والقواعد هي التي تنتخب القيادة».

قلت: «ولماذا لا تسمحون لأبناء فلسطين في سوريا أن يبنوا قواعدهم لينتخبوا قيادتهم»؟!

ومضى الحوار على هذا النهج طويلاً من دون جدوى. واستأذنت وخرجت من القصر الجمهوري، وأنا أعود في ذاكرتي عبر السنين. كم مرّة جئت إليه في عهد الرؤساء شكري القوتلي وهاشم الأتاسي وأديب الشيشكلي، ولم أطلب شيئاً لفلسطين وإلا ولقيت الاستجابة الكاملة.

ذلك على الصعيد السوري الرسمي، أما على الصعيد الفلسطيني فلقد لقيت تأييداً كاملاً لدى جماهير الشعب الفلسطيني. ولقد ازدحم الفندق بوفودهم، جاؤوني

من كل أنحاء سوريا وهم يعربون عن تأييدهم لإنشاء الكيان الفلسطيني. وكنت توّاقاً أن ألتقي الفلسطينيين في مخيّماتهم وأتحدّث إليهم كما فعلت في الأردن، ولكن حال دون ذلك الموقف السلبي الذي وقفته حكومة دمشق. وبهذا حرم عليَّ في دمشق ما رأيته حلالاً في عمان، ويا لسخرية الأقدار!!

ولم يقتصر أمر حكومة دمشق على الموقف السلبي، بل تجاوز ذلك إلى الغمز واللمز. ولقد أهملت الصحف والإذاعة مهمتي ومشروعي. ولم تخلُ من تلميح بأن الكيان الفلسطيني هزيل ورجعي. وراح الفلسطينيون الموالون للسلطة وهم أقلّ من القلّة، يتحدّثون في مجالسهم أن الكيان الفلسطيني لا يمكن أن يبنيه عملاء عبد الناصر وأجراء المخابرات المصرية!! والشقيري أحد هؤلاء العملاء.

وعزمتُ في اليوم الثاني على السفر، فتحاملتُ على نفسي وتوجّهتُ إلى ديوان الرئاسة لأودّع صلاح البيطار. وكان أقربهم إلى الاستماع وأهونهم في الحوار فقلت له:

«إني عازم على السير في إنشاء الكيان الفلسطيني، وسأدعو المجلس الوطني في القدس في شهر أيار/ مايو من هذا العام (١٩٦٤). وآمل أن تغيّروا موقفكم مني ومن الكيان. وإنني أؤكد لكم أن الشعب الفلسطيني قد ارتضى هذه المسيرة. وأنتَ تعرف جيّداً أنني لست عميلاً لعبد الناصر ولا لغيره. أنا زميل المناضلين ورفيق المكافحين حيثما كانوا في دنيا العرب». ورويتُ له ما يتّحدث به بعض البعثيين.

ولكن صلاح البيطار عبس وقطّب، وأقسم أن الحزب يكنّ لي كل احترام وتقدير، ولا يعدو الأمر خلافاً على الأسلوب فقط. وعدت إلى الفندق فحزمت حقائبي وغادرت دمشق حزيناً كاسف البال.

وجرى لي وداع رسمي على الحدود السورية اللبنانية، واجتزت المخفر اللبناني. وكان راديو السيارة مفتوحاً على إذاعة دمشق، وإذا بالتعليق يهاجمني ويهاجم الكيان والذين وراء الكيان، إلى آخر التعابير الحزبية العمياء، فأخذ السائق السوري يهوّن عليَّ وهو يقول:

«إن عيبك عند البعثيين أنك لست بعثياً»!

قلت: «الأمر هيّن.. هذه من مصاعب الطريق.. وهل إذا «انفجرت» عجلة السيارة معك في الطريق تتوقّف عن السير، أم تصلحها وتسير؟ وهذا هو حالي».

ووصلتُ بيروت. وواصلت سيري إلى المطار. ولقد كنتُ أعدَدْتُ العدّة للسفر إلى العراق استمراراً لمهمتي. وما هي إلا ساعتان حتى كنت في مطار بغداد، وفي استقبالي وزير خارجية العراق وزملاؤه وأبناء فلسطين قد ملأوا ساحة المطار. لقد

كانت مهمتي في العراق في غاية اليسرحيث كان المشير عبد السلام عارف ووزراؤه على استعداد كامل للموافقة على إنشاء الكيان الفلسطيني وتأييده، من دون أن يدخلوا في التفاصيل. وشرحت للرئيس العراقي الخطوط الرئيسية لمشروع الكيان الفلسطيني، فلم يناقش ولم يجادل وسألني عن موقف الملك حسين فذكرت له أنه وافق وبقرار رسمي من مجلس الوزراء، ثم سألني عن موقف دمشق فأوجزت له أن الموقف سلبي. ونظر إلى الوزراء الحاضرين وقال:

«هؤلاء في دمشق، كيت وكيت».. وانهال بالشتائم العراقية.. وقلت: «لعل الله يهديهم». وقال: «ومن أين يأتيهم الهدى، ﴿**ومَن يُضلِلِ الله فما له من هادٍ**﴾[٢] صدق الله العظيم». وقضيتُ يومين آخرين في زيارة للوزراء. وأصدرَتْ وزارة الخارجية العراقية بلاغاً رسمياً أعلنتْ فيه موافقتها على إنشاء الكيان الفلسطيني من دون «تعليقات»، كما يقول إخواننا العراقيون.

ثم جاء دور الشعب الفلسطيني، فعقدنا اجتماعاً في قاعة الخلد في بغداد، تزاحم فيه أبناء فلسطين في العراق، ونصبت مكبّرات الصوت خارج القاعة لتسمع الجماهير في الخارج. وكان الحشد في الخارج أكثر منه في الداخل. وتحدّثت عن الكيان ومراميه وطريقة إنشائه. وشرحت الميثاق والنظام الأساسي. وكان الحماس بالغاً، حتى أصبحت قاعة الخلد في بغداد، كأنها ساحة من ساحات بيت المقدس..

وما رأيته في بغداد أنساني ما رأيته في دمشق، لولا أنني لقيت «مسخرة» أخرى، ولو من نوع تافه صغير، ولكنه ينبئ عن «التيه» الذي ضلّ فيه بعض أبناء فلسطين.

وإيجاز ذلك، أنني نهضت من قيلولة صغيرة في الفندق على قرع شديد يدقّ باب غرفتي. وفتحت الباب، وإذا بخمسة من الشباب دخلوا الصالة قبل أن أقول لهم أهلاً وسهلاً.

ومن دون مقدمة ولا ديباجة، ناولني أحدهم منشوراً مطبوعاً على الآلة الكاتبة بتوقيع «جماعة التحرير الإسلامي»، خلاصته أن إنشاء الكيان الفلسطيني كفر وإلحاد، قلتُ:

«الكيان الفلسطيني يهدف إلى إعدادكم للجهاد في سبيل الله، والإسلام يدعو إلى الجهاد.. ألا تريدون أن تجاهدوا اليهود الذين أخرجوكم من دياركم؟؟»

قالوا: «إن الجهاد لا يعلنه إلا الإمام ـ خليفة المسلمين ـ.. ولا بدّ أن تقوم

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ٣٣.

الدولة الإسلامية أولاً. ثم نشرع في الجهاد، هذا هو حكم الإسلام».

قلتُ: «وإذا لم تقم الدولة الإسلامية ولم يظهر الإمام، هل نترك فلسطين لليهود يستبيحون ديارنا ومساجدنا. أهذا هو حكم الإسلام»؟

وهنا دخلت عليَّ وفود من أبناء فلسطين، فاشتدّ الحوار مع «جماعة التحرير الإسلامي». وبقيت أستمع إلى هذا الإلحاد، الذي يتّهم الكيان الفلسطيني بالإلحاد. وعبثاً حاولنا أن نقنع هؤلاء الشباب. وخرجوا وهم يرغون غضباً ويزبدون حنقاً. وأسفت أني منذ شرعت في بناء الكيان الفلسطيني إلى أن اعتزلت منظمة التحرير، لم يكن عندي سلطة لأسجن بموجبها هؤلاء المفتونين وأمثالهم، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وبكّرت في صباح اليوم الثاني إلى المطار لأسافر إلى الكويت، وفيها ما يقرب من مئة ألف فلسطيني. ولم تكنْ لي صعوبة مع الكويت، أميراً وحكومة وشعباً. وأعلنوا أنهم يوافقون على ما يوافق عليه أهل فلسطين، وأعربوا عن استعدادهم للعون والتأييد. وتحوّل قصر الضيافة إلى دار ندوة للشعب الفلسطيني، فتعاقبت الاجتماعات مع الفلسطينيين ليلاً ونهاراً، وأنا أجيب وهم يسألون. وفي الكويت صفوة الشعب الفلسطيني علماً وثقافة، وساهموا في بناء الكويت، كما يطيب لرجال الدولة في الكويت أن يعلنوا على الدوام.

وكان السؤال الحائر بين الفلسطينيين في الكويت، كيف يتم اختيار ممثليهم إلى المجلس الوطني. وتلك مهمة شاقة صعبة. وأردت أن أستريح منهم وألقيها على أكتافهم. وقلتُ:

«إذا كنتم تريدون الانتخابات فأنا موافق. وإن كنتمْ تريدون الاختيار في ما بينكم بالأسلوب الذي ترتضونه، فأنا موافق. أبلغوني حتى شهر أيار/ مايو أسماء وفدكم، وأنا مستعد لأن أرسل إليهم الدعوات لحضور المجلس الوطني».

وتداعى أبناء فلسطين إلى اجتماع شعبي ضخم في ثانوية الشويخ في الكويت، حضره عدد كبير من رجال الدولة وممثلو الصحافة والتلفزيون. ودخلت إلى ساحة الاجتماع. وكان النظام على أروع ما يثبت كفاءة الشعب الفلسطيني والحماسة على أعظم ما ينبئ عن أصالته وعراقته. ورحت في تلك العشية أتحدّث عن أيامنا في فلسطين وذكرياتنا في الكفاح، وغمرتنا نفحة صوفية أحسسنا معها أننا في فلسطين، أو قاب قوسين منها أو أدنى. وانهمرتِ الدموع شوقاً إلى الوطن وحنيناً إلى الديار وتعلّقاً بالكيان، حتى أصبح كل واحد من الخمسين ألفاً الذين شهدوا الاجتماع، كأنه هو الكيان وحده.

وأثنيت في نهاية خطابي على أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح وحكومته، لما يلقى أهل فلسطين من الرعاية، مؤكداً أن أبناء فلسطين في الكويت يعملون في وطنهم، وأن حالهم هو حال المهاجرين في المدينة المنوّرة مع إخوانهم الأنصار، وأن أمير الكويت هو أمير المهاجرين والأنصار على السواء. وقال لي أحد وزراء الكويت، «هذه العبارة قد فتحت الكويت أمام الكيان الفلسطيني، من القلوب إلى الجيوب».

وعدتُ إلى قصر الضيافة بعد ذلك الاجتماع الحاشد لأجد وفداً من قطر وآخر من البحرين من أبناء فلسطين، يحلفون ألا أغادر الكويت قبل أن أزورهم. قلت: «ومتى»؟

قالوا: «الطائرة غداً في الصباح الباكر». قلت: «على بركة الله».

وفي الصباح الباكر أقلّتني طائرة إلى البحرين وأبناء فلسطين لا يتجاوزون مائتين. وقلت في نفسي: «لا بدّ من الذهاب إليهم، أليسوا رقعة من فلسطين وبضعة من شعب فلسطين»؟

ولقيتُ الحفاوة العربية في مطار البحرين. واستقبلني الشيخ حمد عيسى آل خليفة حاكم البحرين عشية ذلك اليوم. وكانت الصالة تعجّ برجال الدولة وأعيان البلاد، فحدّثتهم عن مؤتمر الملوك والرؤساء وقراراته وعن قضية فلسطين.

ودعاني حاكم البحرين إلى مكتبه وقال بلهجة الاعتذار: «هذا شيك بعشرة آلاف جنيه تقدمة شخصيّة لك. لا بد أن عليك نفقات كثيرة في هذه الأيام. وحينما تؤسسون منظمة التحرير سنقوم بواجبنا»، فشكرته وقلتُ: «سأضع هذا المبلغ في البنك العربي في بيروت باسم صندوق فلسطين». وهو ثاني مبلغ أتسلّمه من دون طلب. وإن المبلغ الأول دفعه لي واحد من أبناء فلسطين هو حامد أبو ستة بقيمة خمسين ألف دولار. وخرجت من قصر الحاكم إلى الفندق حيث التقيت بأبناء فلسطين، وقضينا شطراً من الليل في حديث عن المولود الجديد، «الكيان الفلسطيني» الذي طال انتظاره. وأكبرتُ فيهم وطنيّتهم وانصرفوا لأنام ساعة أو بعض ساعة استعداداً للسفر إلى قطر.

ووصلت مطار قطر وكأنني، رغماً عن تقادم العهد، في مطار اللد في فلسطين، قبل الاحتلال الإسرائيلي. لقد كان المطار مزداناً بإعلام فلسطين. وكانت الساحات مكتظّة بأبناء فلسطين. انتظموا حلقات حلقات يهزجون ويهتفون، ومعهم شباب قطر، فرصّوا أنفسهم في صفوف إخوانهم الفلسطينيين. وراحت «الكوفيات» تتطاير في الهواء، ولم تعد تعرف، أقطري أم فلسطيني صاحبها.

وخرجنا من المطار في مظاهرة كبرى إلى قصر الضيافة. وحمل أبناء فلسطين حقائبي إلى غرفة النوم، وأخذوا يقدّمون الشراب والقهوة إلى الضيوف ويستقبلون الوافدين وينظّمون المقاعد والكراسي حتى أصبح أهل قطر يرحبون بأبناء قطر.

وزرت حاكم قطر الشيخ أحمد علي آل ثاني في مكتبه. وتحدّثت إليه عن قضية فلسطين وكيان فلسطين. واستوضح كثيراً من الأمور عن مؤتمر الملوك والرؤساء. وحين هممت بالانصراف قال: «هذا شيك بثلاثين ألف جنيه إسترليني تقدمة خاصة لك. وحينما تبدأون العمل سنقوم بما يجب علينا». فشكرت له هذه الأريحية وقلت: «سأضع هذا في حساب صندوق فلسطين في البنك العربي في بيروت، فإن القضية محتاجة أكثر مني».

وخرجت متوجهاً إلى قصر الضيافة وأنا أحمد الله أن نفقات تأسيس الكيان الفلسطيني التي لم «يفكّر» فيها الملوك والرؤساء في مؤتمرهم الأول في القاهرة، قد تيسّرت لي على أيدي حاكمَي البحرين وقطر.

وفي المساء شهدتُ اجتماعاً شعبياً كبيراً في الملعب الرياضي في العاصمة (الدوحة) اشترك فيه الآلاف من أبناء فلسطين وقطر. وكان حديثي إليهم عن الكيان الفلسطيني وما نعلّق عليه من آمال كبار في النضال لتحرير الوطن. وفي نهاية الحفل جاءني وفد من شباب قطر يلحّون علي أن أعقد لهم ندوة خاصة عن فلسطين. ووافقت على ذلك وتواعدنا في الليل وفي قصر الضيافة. وتوافدوا في الوقت المحدّد وأخذوا يوجّهون الأسئلة عن كل شاردة وواردة بشأن القضية الفلسطينية. ولم أجد ما أثني عليه خيراً من أن أقول لهم في ختام الندوة أنتم لم تسألوني عن حدود فلسطين. فلسطين يحدّها شرقاً الخليج وما قطر إلا منطقتها الشرقية. والواقع أنني لولا ما كنت في سبيله في إنشاء الكيان الفلسطيني لمكثت مع شباب قطر أياماً أخرى.

وأقلّتني الطائرة في اليوم التالي إلى بيروت، وبلغتُها في الضحى. ويا لروعة ما رأيت! لقد امتلأت ساحة المطار وشرفاته بأبناء فلسطين ويزيدون في لبنان عن مائتي ألف. وحاول رجال الشرطة أن يشقّوا طريقي بين الجماهير فلم يفلحوا، ومن وراء مكبرات المطار ناشد رجال الأمن «يا إخوان، افتحوا الطريق». ولكن هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح.

وخرجت بسيارة الشرطة من باب بعيد. وإذا بالطريق من المطار إلى المدينة مرصوص بصفوف أبناء فلسطين خرجوا من مخيماتهم في ذلك اليوم، وكأنما هم في الطريق إلى فلسطين، مستبشرين فرحين. وتوجّهت إلى فندق سان جورج، وإذا بوفود فلسطين قد سبقوني. جاؤوا من صيدا وطرابلس وبعلبك حيث مخيماتهم.

واجتمعت بالرئيس اللواء فؤاد شهاب، فأبدى ارتياحه لإنشاء الكيان الفلسطيني. وكان لبنان يمرّ في مرحلة انتخابية والجو متوتر، ولكن الحاج حسين العويني وزير الدفاع يسّر لي تجوالي على مخيمات اللاجئين.

فزرتُ مخيم نهر البارد (طرابلس) ولقيتُ أبناء فلسطين في الملعب البلدي. ولم أكد أبدأ حديثي عن الكيان الفلسطيني حتى انطلقت الحناجر تطالب بالإسراع في إنشائه وتدريب الشباب على حمل السلاح. وفي اليوم التالي زرت مخيّم عين الحلوة (صيدا) واندمج أبناء لبنان بأبناء فلسطين. وكان حفلاً شعبياً التهب بالحماس وأنا اختم خطابي قائلاً: «من هنا الطريق إلى فلسطين».

قضيتُ يومين آخريْن في بيروت ألتقي بأبناء فلسطين في خليّة الملك سعود، ليلاً ونهاراً أشرح ما كان وما يكون. . لقد حدث في أحد تلك الاجتماعات أن أرسل الحاج أمين الحسيني صاحب الهيئة العربية العليا ورئيسها عدداً من أعوانه إلى قاعة الاجتماع. وراحوا يشاغبون ويشوّشون، فانهال عليهم الجمهور ضرباً ولكماً. وتدخّلتُ لأنقذهم من غضبة الجمهور وولّوا الأدبار هاربين. .

والواقع المؤسف، أن الحاج أمين الحسيني، رغماً عن وطنيّته وإخلاصه، إلا أنه كان لا يرى القضية الفلسطينية إلا من خلال «سماحته». ومنذ أن اختارني مجلس الجامعة العربية ممثلاً لفلسطين، أخذ يهاجمني في مجلته ومجالسه قبل أن أخطو خطوة واحدة أو أفوه بكلمة واحدة. وحينما أصدر الملوك والرؤساء قرارهم بشأن التنظيم الفلسطيني، قام الحاج أمين بنشاط ضخم في تعطيل هذه المسيرة وإلقاء الأشواك في الطريق، فأبرق إلى الملوك والرؤساء يشجب قرارهم، وأن الهيئة العربية العليا هي الممثل الوحيد لشعب فلسطين ولا حاجة لكيان فلسطين. وغداة بداية جولتي على الدول العربية، تضاعف نشاطه في مقاومة الكيان الفلسطيني. وأطلعني الملك حسين على رسالة من الحاج أمين الحسيني يعرب فيها عن مخاوفه على الكيان الأردني من الكيان الفلسطيني!! وأطلعني الأمير عبد الله السالم الصباح على برقية مطوّلة من الحاج أمين يعارض فيها قيام الكيان الفلسطيني، وكل مضمونها باختصار، أنه هو الكيان الفلسطيني.

أما على الصعيد الفلسطيني، فقد كان موقف الحاج أمين الحسيني بالغ السوء. لقد كانت أموال القضية الفلسطينية بين يديه. وكانت آخر دفعة وصلت ليديه مليون دينار عراقي من الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم. وراح ينفق من دون حساب على مقاومة الكيان الفلسطيني، ولقد استكتب في سوريا ولبنان والأردن بعض الفلسطينيين عرائض إلى الجامعة العربية يعارضون فيها إنشاء الكيان الفلسطيني.

وجاءني عدد من أولئك الموقّعين معتذرين لما فعلوا، وهم يقولون: «لا تؤاخذنا.. حالتنا ضيقة، بدنا نعيش».

ورغماً عن ذلك، فقد حرصت أثناء مقامي في بيروت، أن أسترضي الحاج أمين الحسيني توحيداً للصف الفلسطيني، وإن كان الشعب الفلسطيني قد تخلّى عنه منذ زمن بعيد. وقلت لأصدقائه: «إني مستعد أن أزور الحاج أمين في بيته وأن أسعى لترشيحه رئيساً للمجلس الوطني. وإني أعدكم أن أستشيره في جميع الأمور التي نحن بصددها. وليس لي إلا شرط واحد، هو أن يكفّ عن مقاومة الكيان الفلسطيني ويعلن موافقته على الفكرة». وعاد إليَّ أصدقاؤه يقولون «إمضِ على بركة الله. أنت تعرف الحاج أمين». قلت: «نعم أنا أعرف الحاج أمين. إن الحاَج أمين لن يوافق على الكيان الفلسطيني إلا إذا كانت القيادة في منزله والأموال في جيبه».

ولم يكن الحاج أمين هو الصعوبة الوحيدة في موضوع الكيان الفلسطيني. لقد كانت هنالك مصاعب أخرى صغيرة اسمها الأحزاب والمنظمات الفلسطينية.

جاءني ممثلو الأحزاب والمنظمات الفلسطينية ليجتمعوا بي في بيروت «سرّاً» وأرادوا أن يفتحوا معي حواراً. وأعترف أن في نفسي عقدة قديمة منذ الأحزاب والحزبيين منذ كنا في فلسطين. ولكني أردت أن أفتح قلبي لهذا الحوار إذ يدعوني الواجب القومي لأستمع إلى هذه الأحزاب والمنظمات، وأعمل على توحيدها في إطار الكيان الفلسطيني، وعلى وجه التحديد داخل منظمة التحرير الفلسطينية.

وقضيتُ الليالي الطويلة في هذا الحوار معهم جميعاً: البعثيون، والقوميون العرب والشيوعيون والإخوان المسلمون «وجبهات تحرير فلسطين» ومنظمات أخرى. كان كل وجودها ممثلاً في حيازته آلة كاتبة لطباعة المنشورات ومهاجمة الكيان الفلسطيني.

وكان موقف هذه المنظمات يتراوح من المعارضة العنيدة إلى «راقبْ وانتظر». لقد كان البعثيون يرون الكيان الفلسطيني ألعوبة بيد عبد الناصر. وحاولت عبثاً أن أقنعهم بأنني لن أسمح لنفسي أو للكيان أن نكون ألعوبة بيد أي ملك أو رئيس. وكان موقف جماعة «فتح» موقف المراقبة. وكان الشيوعيون لا يهضمون «تحرير فلسطين»، يخاطبونني وألسنتهم ثابتة في حلق موسكو منطقاً وجدلاً وفلسفة. وكان الإخوان المسلمون لا يؤمنون بأية حركة يساهم فيها الرئيس عبد الناصر من قريب أو بعيد. وكان القوميون العرب يتحدّثون من خلال القومية العربية ولا يؤمنون بتجسيد الشخصية الفلسطينية. وكانت الجبهات والمنظمات الأخرى تسخر من كل عمل يتصل بالجامعة العربية بصورة أو بأخرى.

لقد خلوت بهؤلاء جميعاً في جلسات خاصة «سرية» وناشدت فيهم «فلسطينيتهم» وأن هذه فرصة العمر. ودعوْتُهم أن يساهموا معي في البناء لا أن يقفوا في الخارج والمعاول بأيديهم. ودعوتُهم للاشتراك في قيادة منظمة التحرير تحت شعار الوحدة الوطنية وأن يعملوا في أجهزتها المختلفة: من كان يريد القتال يشترك في النشاط العسكري، ومن كان يريد العمل السياسي يشترك في النشاط التنظيمي الإعلامي. وكنتُ كلما سددتُ عليهم باباً فتحوا لي عدة أبواب، شأن الحزبيين الذين عُرفوا بمهارات الحوار والجدال. ولكن قدسية القضية، كانت بالنهاية، فوق المهارات والمهاترات.

ولقد كان هؤلاء جميعاً وطنيين مخلصين، وقواعدهم أكثر منهم إخلاصاً ووطنية. ولكن كلاً من أولئك القادة كان حريصاً على كيانه الخاص ويخاف عليه من الكيان العام. ولم أستطع أن أقنعهم. وراحوا في أعقاب اجتماعاتي بهم يطبعون المنشورات، يهاجمون الكيان الفلسطيني بأنه كيان غير ثوري وأنه صنيعة الجامعة العربية وأن الكيان لا يبنى من فوق وإنما يبنى من تحت وأن الكيان الفلسطيني لا يفرض من قبل الملوك والرؤساء، وإنما يجب أن ينبع من إرادة الشعب.

كنت أقرأ هذه الشعارات في هذه المنشورات، فأشفق على هذه الوطنية الصغيرة. وقبل انصرافي من بيروت التقيت بهم وقلت: «نحن ما زلنا في أول الطريق ولم نضع حجراً واحداً بعد. تعالوا نبني معاً، تعالوا نضع الميثاق معاً، ونُقِم الكيان معاً..».

ومضوا في عنادهم وإصرارهم. وكتب واحد منهم في إحدى الصحف بأن الذي يريد أن يبني الكيان الفلسطيني يجب أن يقيم في مخيمات اللاجئين، لا في فندق سان جورج، في بيروت!!

ورغماً عن أن هذا الكلام هو مهاترة رخيصة، فقد قلت لهم: «سأدعوكم للاشتراك في المجلس الوطني في القدس، وإن قيادة المنظمة مفتوحة أمامكم، متاحة لكم.. والشعب يكفيني إذا أنتم تخلّفتم، فإن الشعب مع الكيان، والكيان عنوان كفاحه ورمز نضاله».

وغادرت مطار بيروت إلى القاهرة، وتركت ورائي حي رأس بيروت عامراً بالجدل. ولكن الكيان كان في طريقه إلى البناء.

لم أمكث طويلاً في القاهرة، فقد كان الشعب في قطاع غزة ينتظر أخبار الكيان. ووصلت بي الطائرة إلى مطار العريش لأجد ساحته مليئة بجماهير الفلسطينيين والمصريين. واجتزنا قطاع غزة من أدناه جنوباً إلى أقصاه شمالاً، في موكب طويل من السيارات؛ وأحسب أنه لم يبق رجل ولا امرأة ولا طفل في البيوت في ذلك اليوم.

لقد خرجت الجموع إلى الشوارع والساحات والميادين هاتفة هازجة. وكان الطريق العام على جانبيه مرصوصاً بالناس كتفاً إلى كتف، والأعلام الدينية خفاقة بالهواء، والطبول تقرع، والصنوج تضرب، وأناشيد الطلاب والشباب تتجاوب بين أشجار الليمون والكروم. وكان اجتياز خان يونس ورفح من بين الجماهير المتلاحمة رحمة من الله في ذلك اليوم. وما إن دخلنا غزة حتى تدفقت الجماهير وأقامت سداً بشرياً ضخماً في وجه الموكب يريدون أن يستمعوا إلى من يحمل لهم بشرى الكيان الفلسطيني. وأعانني الشباب ورجال الشرطة فامتطيت ظهر سيارة كبيرة وتحدّثت إلى الشعب، والشعب يصيح «ياشقيري بدنا سلاح» فأجبت: «افتحوا الطريق وأنا أعدكم بالسلاح». وهكذا انفتح الطريق وواصلنا سيرنا إلى مقر الحاكم الإداري الفريق يوسف العجرودي، فوجدناه غاصاً بالوفود من كل أرجاء القطاع.

وزرت بعد الظهر المجلس التشريعي في غزة، وشرحت الميثاق والنظام، ودعوت المجلس أن يتعاون مع باقي الهيئات في القطاع لاختيار ممثليه في المجلس الوطني.

وكان أهل القطاع قد ملّوا التجارب الماضية في تنظيم الشعب، كما ملّ الشعب الفلسطيني في مختلف تجمّعاته أن لم يكن له أي تنظيم إطلاقاً، ثم إنني سمعت في كل مكان هتاف الجماهير وهي تطالب بالسلاح، كما أحسست في جولتي مع الشعب الفلسطيني في الوطن العربي أنهم يخشون أن يكون الكيان جهازاً سياسياً إعلامياً وكفى، مع أني أكّدت الجانب العسكري في الميثاق والنظام. وفوق هذا وذاك، لقد كانت جماهير الشعب الفلسطيني يخامرها شك غير قليل في جدّية الحكومات العربية إزاء الكيان. وهل تسمح الدول العربية لأبناء فلسطين بحمل السلاح؟

وكاشفت الفريق يوسف العجرودي بهذه الخواطر فقال:

«ماذا تقترح؟ وإني أوافقك أن هذا شعور الجمهور». .

قلت: «أريد أن ننشئ معسكراً للتدريب على أرض القطاع، وليكنْ مفتوحاً أمام شباب فلسطين من حيثما جاؤوا».

قال: «يمكن البحث في هذا الموضوع بعد إنشاء الكيان الفلسطيني، ونحن مستعدّون للمعاونة».

قلت: «أريد إنشاء معسكر التدريب قبل إنشاء الكيان، حتى يوقن الشعب الفلسطيني أن الكفاح المسلح هو طريق الكيان وينعقد المجلس الوطني في القدس في جو الكفاح».

قال: «ما أظن أننا نستطيع أن نفعل ذلك قبل اجتماع المجلس الوطني ولم يبق على انعقاده إلا بضعة أسابيع (٢٨ أيار/ مايو ١٩٦٤)».

قلت: «الأمر بسيط. الأرض في قطاع غزة موجودة. والشباب موجودون. والقاهرة لا تضنّ علينا بالضباط المدربين، ولا السلاح».

قال: «والمال»؟

قلت: «هيِّن. إن عندي حساباً في البنك العربي في بيروت باسم صندوق فلسطين».

وخرجنا بالسيارة نبحث عن الموقع الملائم حتى وصلنا إلى «النصيرات». وهناك على هضبة مشرفة على سطح البحر وجدت ضالّتي. وقلت للفريق العجرودي: إ»قرأ الفاتحة، فقرأنا. وعدْنا على بركة الله إلى غزة وكأنما الأرض والسماوات مطويّات في يدي.

واستغفرت الله من هذا الغرور الشكور.

وما إن وصلت منزل الحاكم حتى تناولت دفتر الشيكات من حقيبتي، ووقعت للفريق العجرودي شيكاً بمبلغ خمسة آلاف جنيه إسترليني دفعة أولى للإنفاق على تأسيس معسكر النصيرات. وكان هو المبلغ الأول والأخير الذي وقّعته وحدي من أموال القضية الفلسطينية. لقد أصبح يوقع معي عبد الحميد شومان الذي اختارته منظمة التحرير في ما بعد رئيساً لمجلس إدارة الصندوق القومي.

وتناول الفريق العجرودي سماعة التلفون، فأصدر أمره إلى مختلف الدوائر بأن يسرعوا في خلال ثلاثة أيام إلى إعداد المعسكر أرضاً وخياماً وسلاحاً وشباباً. وسرى النبأ بين جموع الطلاب والشباب فسارعوا إلى التطوّع وسارعوا إلى المعسكر.

وفي اليوم المحدّد (٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٦٤)، انطلقنا من منزل الحاكم إلى معسكر النصيرات، وغدا القطاع في أفراح وأعياد لا تزيد عنها في روعتها وبهجتها إلا أيام التحرير. ودخلنا المعسكر. وكأنما قيل للمعسكر كنْ فيكون. وهذه الخيام وهذا السلاح وهؤلاء الضباط المدربون وأولئك الشباب المتطوعون وهذا علم فلسطين خفاقاً ورفرافاً على ساريته وأعضاء المجلس التشريعي وممثلو القطاع ومنظمات الشباب والطلاب، يحيّون علم فلسطين وينشدون نشيد فلسطين.

وخطبت في ذلك اليوم كما لم أخطب في حياتي وأنا أقول: «لقد أراد الله لنا أن نجلس في هذا المعسكر كما يجب أن نجلس. نجلس الآن ونحن نولي وجوهنا شطر حيفا ويافا وتل أبيب. قد يكون الطريق طويلاً. ولكن معسكر النصيرات هو أول

الطريق. وسأسير معكم وتسيرون معي ونسير معاً، فإن هلكتُ في الطريق فاحملوني أيها الرفاق إلى فلسطين الحبيبة حيث مثوى الآباء والأجداد».

وانتهى الحفل والشعب يهنئ بعضهم بعضاً والفتيات من حولي يسألن متى دورنا. وقلتُ: «دوركن قريب وكل آتٍ قريب». وكانت رياح البحر تحمل الأناشيد والهتافات شرقاً شرقاً إلى المستعمرات اليهودية على مرمى البصر. ومن معسكر النصيرات ذهبنا إلى المطار لأستقلّ الطائرة إلى القاهرة لأعلن إلى لجنة ممثلي الملوك والرؤساء أن اتصالاتي بالحكومات العربية والشعب الفلسطيني قد انتهت وأن الكيان الفلسطيني في طريقه إلى الوجود، ولأعلن للشعب الفلسطيني النبأ الكبير.

وكان النبأ الكبير أننا أنشأنا معسكر النصيرات قبل إنشاء الكيان وأن الكفاح المسلح هو طريق التحرير..

﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٦٠.

الكيان الفلسطيني عند ثلاثة: الشعب والملوك وغروميكو

مع شهر الربيع من عام ١٩٦٤ (نيسان/ أبريل)، أقبل ربيع آمالنا بعد انتظار طويل. ولقد أصبح الكيان الفلسطيني في متناول أيدينا ورهن عزائمنا. ترقّب الشعب الفلسطيني إنشاء كيانه لأنه رأى فيه رمزاً لنضاله وعنواناً لكفاحه.

ومثلت أمام لجنة المتابعة المؤلفة بموجب قرار مؤتمر القمة الأول لمواصلة تنفيذ قراراته، وعرضت على اللجنة نتائج رحلتي في الوطن العربي واتصالاتي بالحكومات العربية وبتجمّعات الشعب الفلسطيني.

واستوضح الأعضاء عن الإجراءات العملية التي اتخذتها بصدد إنشاء الكيان الفلسطيني، فأوجزت لهم أنه نتيجة اتصالاتي ومشاوراتي مع أبناء فلسطين في مختلف تجمعاتهم، قد تم إنشاء لجان تحضيرية لاختيار أعضاء المجلس الوطني المزمع عقده في ٢٨ أيار/ مايو سنة ١٩٦٤ في مدينة القدس، وأني رجوت الملوك والرؤساء الذين قابلتهم بأن يوفدوا نيابة عنهم وفوداً على مستوى عالٍ ليشهدوا حفلة افتتاح المؤتمر، وأنها مرحلة تاريخية يستأنف شعب فلسطين من خلالها كفاحه الوطني بعد أن شرّدته الكارثة تحت كل سماء وكوكب في الوطن العربي. والكيان عند الشعب الفلسطيني معناه بالحرف الواحد: «السلاح والكفاح ويصبح الكيان هزيلاً وضعيفاً غير جدير بثقة الشعب الفلسطيني والرأي العام العربي إذا لم تكن الناحية العسكرية الفلسطينية بارزة فيه بروزاً قوياً. ولهذا أرجو أن يكون واضحاً بصورة قاطعة أن استمراري شخصياً في العمل بالكيان الفلسطيني مرهون بالإمكانات العسكرية التي تتيسّر لهذا الكيان».

ولم أورد في تقريري أيّة إشارة إلى موقف المملكة العربية السعودية وبالتحديد موقف الأمير «الملك» فيصل وقد أصبحت مقاليد الأمور بيديه. ذلك أن الأمير فيصل

لم يأذن لي بزيارته والتحدث إليه بشأن الكيان الفلسطيني. وكنت خلال جولتي في الوطن العربي، أزور السفارات السعودية، عاصمة عاصمة، لأبرق إليه مستأذناً بالسفر إلى المملكة العربية السعودية، للاتصال به وبأبناء فلسطين في السعودية، ويبلغون فيها نحواً من ثلاثين ألفاً، ولكنني لم أتلقَّ جواباً واحداً على برقياتي التي أرسلتها إليه. ولم أدرِ لذلك سبباً، فأنا ما زلت في أول الطريق ولم تبدر مني أية بادرة تضايقه أو تضايق غيره من الملوك والرؤساء. وإن من يعمل في قضية فلسطين لا بد أن يكون عبئاً على الحاكمين مهما كان خفيفاً، لا في ظلّه وروحه، ولكن في مطالبه وآرائه!!

ومع هذا فقد كتمت أمري مع الأمير فيصل عن لجنة المتابعة، كما كتمته عن الرأي العام العربي. لقد كنت حريصاً ألا أجعل للأمير فيصل ما يشكو منه. وإن المملكة العربية السعودية تستطيع إذا أرادت، أن تلعب دوراً ضخماً في قضية فلسطين. ويكفي المؤتمر الإسلامي الكبير الذي ينعقد كل عام لمناسبة الحج إضافة إلى ثروتها النفطية وأثرها على السياسة الغربية.

ومضت مناقشات لجنة المتابعة هادئة وطبيعية، إلا في ما أثاره منصور الأطرش ممثل الرئيس السوري، إذ أعرب عن عدم رضاه عن طريقة إنشاء الكيان الفلسطيني. وكرّر رأي القيادة في دمشق في ضرورة القيام بإجراء انتخابات عامة بين الفلسطينيين حتى «تكون القيادة الفلسطينية معبّرة عن إرادة جماهير الشعب الفلسطيني».

وشرحت لمنصور الأطرش المصاعب العملية التي تحول دون الانتخابات. وكنت قد فصّلتها في لقاءاتي مع قادة حزب البعث، وأنني عقدت ما يقرب من ثلاثين مؤتمراً شعبياً فلسطينياً باستثناء الندوات والاجتماعات الأخرى، وأن «جماهير الشعب» التي يتحدّث عنها منصور الأطرش راضية عن هذه الطريقة.

وتكلّم المندوب السوري مرة ثانية مبدياً اعتراضه وتحفظاته. والواقع أني لم أطق صبراً على هذا الحوار بعد أن سلخت ليالي طويلة في متاهاته في دمشق. وقلت لمنصور الأطرش: «يا أخي، إن والدك سلطان باشا حينما قاد الثورة السورية لم ينطلق من معركة انتخابية، ولكنه انتخب نفسه لأداء واجب النضال. ولم تكن الحركة الوطنية في سوريا تحت وصاية أحد، وإن الشعب الفلسطيني يرفض أن يكون تابعاً لأحد، أو تحت وصاية أحد. نحن نقبل المشورة الأخوية، ولكن شعبنا هو الذي يقرر مصيره وهو الذي يبني كيانه. ونحن نعتبر موضوع الكيان الفلسطيني مسألة داخلية ليس لأحد أن يتدخل فيها، تماماً كما لا نتدخل في الأمور الداخلية لأي بلد عربي»!!

وسكت منصور الأطرش لا لأن لهجتي كانت حازمة ولا لأنه اقتنع بهذا المنطق

السديد، ولكن لأن أحداً من أعضاء لجنة المتابعة لم يؤيّد موقف الحكم في سوريا آنذاك. ورأى أن أعضاء اللجنة لا يريدون أن يستمعوا إلى «الأطرش»!!

وأعلنت في ختام حديثي إلى لجنة المتابعة أن المؤتمر الفلسطيني سينعقد في مدينة القدس في ٢٨ أيار/ مايو ١٩٦٤، كائنة ما كانت الظروف والمصاعب. وليغِبْ من يغيب، ويحضرْ من يحضر!! وأعلن الأعضاء استعداد حكوماتهم لتلبية الدعوة باستثناء الوفدين السعودي والسوري فقد التزما الصمت. وقال حسن صبري الخولي إنه سيمثل الرئيس عبد الناصر في حضور المؤتمر. ونظر الأعضاء بعضهم إلى بعض في عجب واستغراب. لقد كان الكيان الفلسطيني موضوع الساعة، وكان الرأي العام يتطلّع إلى أن تمثّل الحكومات العربية على أعلى مستوى. قلت: «إن الشعب الفلسطيني يقدّر جميع إخوانه من العرب ولكنه يتوقع أن يرى في مؤتمره الوطني الأول الذي ينعقد بعد خمسة عشر عاماً من الكارثة وفوداً على مستوى رفيع». وأضفت إلى ذلك أن الرئيس أحمد بن بللا قد أبلغني عن طريق سفارته في القاهرة أنه مستعدّ لحضور المؤتمر الفلسطيني بنفسه إذا علم أن رئيساً آخر يعتزم الحضور.

وخرجت مع حسن صبري الخولي ممثل الرئيس عبد الناصر بعد انفضاض الجلسة وأنا أعاتبه وأعاتب الجمهورية العربية المتحدة وقلت: «أرجو أن تبلغ الرئيس أني أتطلّع أن ينوب عنه نائب رئيس الجمهورية في المؤتمر الفلسطيني».

وعدت إلى منزلي وأنا في حيرة من أمري من موقف القاهرة من الكيان الفلسطيني. ولم تلاق جولتي الطويلة المضنية في الوطن العربي أي صدى في صحفها وإذاعتها، ولو حتى من ناحية إخبارية، مع أن الوطن العربي كله كان يعج بأخبار الكيان الفلسطيني. وها هو اليوم يأتي حسن صبري الخولي ليعلن أمام لجنة المتابعة أنه سيمثل الرئيس عبد الناصر في المؤتمر الفلسطيني. والواقع أني لم أستطع أن أجد تعليلاً لموقف القاهرة في تلك الفترة من الكيان الفلسطيني، أهو حماية للكيان الفلسطيني من أن تقول عنه الدول العربية إن القاهرة متحمّسة له، وإنها وراءه بكل طاقاتها، أو إن القاهرة تريد للكيان الفلسطيني في تلك المرحلة حجماً معيناً لا يتعدّاه.

وكائناً ما كان السبب، فقد أضفت هذا الموقف إلى مصاعبي الكثيرة، وحملت حقيبتي وسافرت إلى عمان لأكون في قلب الساحة حيث نريد أن نبني.

أجل.. أقول حيث نريد أن نبني، فإن إنشاء الكيان الفلسطيني كان عملية بناء بكل معنى الكلمة، سوى أن أبناء فلسطين هم الحجارة والحديد. ويقيني أنهم أقوى وأمضى، وأشدّ وأصلب.

غير أني وجدت عمان على غير ما تركتُها، لقد كانت الإشاعات تملأ المقاهي

والشوارع والبيوت. وتردّد الشائعات أن الملك حسين لا يريد أن يحضر المؤتمر الفلسطيني. وأنه سافر إلى العقبة ليكون بعيداً أثناء انعقاد المؤتمر، وسينوب عنه رئيس الوزراء بهجت التلهوني.

ولقد اتخذ الملك حسين هذا الموقف لأسباب متعدّدة: أولها أن السفارة الأمريكية في عمان قد حذّرت من إنشاء الكيان الفلسطيني إذ إنها رأت فيها «تعطيلاً للجهود السلمية التي بذلتها الولايات المتحدة عبر السنين لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي بصورة نهائية، وإنه إذا كان لا بد من إنشاء الكيان الفلسطيني فما معنى أن يتولى زعامته رجل مثل الشقيري باع نفسه للشيوعية أثناء عمله في الأمم المتحدة؟». تلك هي الترجمة الأمينة للمذكّرة الشفوية التي قدّمها السفير الأمريكي في عمان كما أملاها عليَّ صديق لي في الديوان الملكي في عمان. وثانيها أن الكيان الفلسطيني، كما أرجف عدد من الوزراء والمستوزرين الفلسطينيين والأردنيين، سيقضي على الكيان الأردني وعلى الوحدة بين الضفتين.

ومكثت بين عمان والقدس بضعة أيام وأنا أتشاور مع الإخوان الفلسطينيين في الإجراءات التحضيرية لعقد المؤتمر الوطني. وفي أوائل شهر أيار/ مايو (١٩٦٤)، أقلّتنا طائرة صغيرة من مطار عمان، رئيس الوزراء بهجت التلهوني وأنا، إلى العقبة للاجتماع بالملك حسين للتحدث إليه بأمر المجلس الوطني. وكان الملك حسين في استقبالنا في المطار. وركبنا سيارته إلى مكتبه في العقبة وسط الجماهير الحاشدة وهي تهتف للكيان الفلسطيني وللملوك والرؤساء. وكنت حريصاً ألا أردّ التحية على الكثيرين الذي كانوا يلوحون لي بأيديهم. ولقد تركت للملك حسين أن ينعم بهذه الحفاوة وحده. وأردت أن أدخل الطمأنينة إلى نفسه، وأنه ليس له ما يخشاه من الكيان الفلسطيني أو مني. وأشهد أني كنت صادقاً مخلصاً في عزمي هذا، وأن الأردن هو وطن القضية الفلسطينية، وشعبها هو شعب الأردن. ذلك كان إيماني على الدوام. ومن هذا الإيمان كنت انطلق في مجاراة الملك حسين ومجاملته إلى أن فجّر الأزمة مع المنظمة ومعي في خطابه «الشهير» في عجلون في حزيران/ يونيو عام ١٩٦٦، كما سيأتي ذكره في مذكراتي.

وقلت للملك حسين، بعد أن سألني عن «أخيه» الرئيس عبد الناصر: «لماذا سيتخلّف عن حضور المجلس الوطني في القدس»؟

قال: «إن الملوك والرؤساء سيرسلون وفوداً على مستوى وزراء الخارجية، وسينوب عني رئيس وزرائي».

قلت: «إن الأمر مختلف بالنسبة إلى جلالتكم. إن المؤتمر ينعقد في بيت المقدس،

في المملكة الأردنية. وأخشى أن يكون لغيابكم تفسيرات غير حسنة».

قال: «على كل حال، أنت تعرف الحساسيات في البلد. ولا نريد أن نفرّق الأسرة الأردنية إلى فلسطيني وأردني».

قلت: «بالعكس إن حضور جلالتكم يقطع دابر هذا الكلام وإن غيابكم سيعطي الفرصة للمرجفين أن يرجفوا. ومع هذا فإني سأتناول هذا الموضوع في خطابي بما يتفق مع المصلحة».

قال: «ثم إن هناك أزمة في البلد. لقد بلغني أن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني الفلسطيني قد قرّرت ألا توجّه الدعوة إلى الوزراء والنواب الفلسطينيين».

قلت: «هذا أمر بسيط فأنا مستعد أن أبحث هذا الأمر مع اللجنة التحضيرية وأن أرجوهم دعوة الوزراء والنواب».

قال: «وفوق هذا، فإن ضباط الجيش مستاؤون من موضوع إنشاء كتائب فلسطينية».

قلت: «هذا موضوع فرغنا منه في جلستنا في القصر الملكي، حيث كان كبار الضباط حاضرين. واتفقنا أن الكتائب الفلسطينية يتم إنشاؤها بموافقة الدول المعنية. . ومع هذا فإني مستعد أن أزور وحدات الجيش الأردني وأتحدث إليهم في الموضوع».

ولقد كان الملك حسين يصغي إلى أجوبتي باهتمام، إلا حين عرضت عليه أن أزور الجيش الأردني في وحداته. وأدركت أنه يحاورني ولم يبق أمامي إلا أن ألقي قنبلتي الأخيرة فقلت: «يبدو لي، وأرجو أن أكون مخطئاً في ظني، أن جلالتكم لا تريدون عقد المؤتمر الوطني في القدس. ولهذا فسأعلن تأجيله إلى الشهر القادم لنعقده في القاهرة». ولم أكد أكمل حديثي حتى قال: «لا أبداً، ليست هذه رغبتي. نحن نريد أن ينعقد المجلس الوطني في القدس. لقد أصدرت التعليمات إلى جميع الوزارات للسهر على راحة المؤتمرين، وتوفير كل الأسباب لنجاح المؤتمر». وهممت بالوقوف وأنا أقول: «أستأذن جلالتكم بالسفر إلى القاهرة غداً، وسنرحّب بوفد جلالتكم لحضور المجلس الوطني في القاهرة عند «أخيكم الرئيس عبد الناصر». وانتحى الملك حسين والرئيس التلهوني جانباً لبعض دقائق، قال بعدها الملك: «نحن نريد أن يكون الأخ أحمد راضياً، وسأحضر حفل الافتتاح بنفسي».

قلت: «سأكون في استقبالكم في بيت المقدس». وغادرنا مكتب الملك بسيارته إلى المطار وسط صفوف متراصّة من أبناء الشعب، وهم يهتفون: يعيش الحسين،

يعيش الشقيري. ومددت رأسي من النافذة وصحت بأعلى صوتي اهتفوا للحسين، واهتفوا لفلسطين.. وانفرجت أسارير الملك حسين لهذه البادرة.

ووصلنا عمّان وأنا أثني على موقف بهجت التلهوني «الأردني» في تأييده الكيان الفلسطيني. وقلت له مداعباً: ««أنت فلسطيني» من أبناء معان (وهي من منطقة الكرك). لقد زاركم الرحالة إبن جبير الأندلسي قبل سبعة قرون وأشار في كتابه عن الكرك بأنها أطيب أرض في فلسطين».

ومن المطار ذهب الرئيس التلهوني إلى رئاسة الوزارة، وذهبت إلى القدس لأواجه المصاعب الصغيرة التي تكمن وراءها المعاني الكبيرة.

وكانت الصعوبة الأولى هي مكان انعقاد المؤتمر. ولقد كنت راغباً أن ينعقد في المدينة القديمة من القدس لنضفي على المؤتمر جلال الماضي وقدسية الكفاح الذي خاضه البطل صلاح الدين لتحرير القدس. ولكن السلطات الأردنية مانعت في ذلك. لقد كان العديد من أجهزة الدولة معارضاً للكيان الفلسطيني ويعملون على تعطيله أو الإقلال من أهميته. وامتلأت الضفة الغربية يوم ذاك، بخاصة بيت المقدس، بالإشاعات بأن أعوان الحاج أمين الحسيني سيحدثون شغباً في البلاد يوم انعقاد المجلس الوطني، وأنهم سيضعون قنابل موقوتة في الاجتماع ليدمروا القاعة على من فيها.. وأنهم.. وأنهم.. واندسّ أعوان المخابرات الأمريكية في طول البلاد وعرضها ينشرون هذه الإشاعات في المقاهي والنوادي. ولم أكن أبالي بهذه التخرّصات لأني أعلم أن الشعب الفلسطيني أعمق إدراكاً وأوسع وعياً من أن تؤثر هذه الحرب الباردة في عزيمته.

ولكن هذه البلبلة المصطنعة قد خدمت السلطات الأردنية، إذ إنها اقترحت أن يعقد المؤتمر في عمان لا في القدس. والغرض ظاهر من هذا الاقتراح، ورفضت بكل إصرار. ثم جاء رجال المخابرات الأردنية يشيرون بعقده في فندق البحر الميت قريباً من أريحا. ووضح كذلك أنهم يريدون للكيان الفلسطيني أن يولد ميتاً. وتدخل روحي الخطيب أمين بلدية القدس واقترح أن يعقد المؤتمر في فندق إنتركونتنتال على جبل الزيتون في القدس فرضيت بهذا الاقتراح حلاً وسطاً. ويكفي أن هذا الجبل قد ساهم في حياة بيت المقدس في جميع حقب التاريخ. ويكفي كذلك أن المؤتمرين يستطيعون أن يشرفوا من هذا الجبل على مدينة القدس بشطريها القديم والجديد، بل إنه يكفي فوق هذا وذاك، أن الوفود العربية تستطيع أن تتعلم من هذا الجبل قضية فلسطين من خلال خطوط الهدنة على مرمى البصر وهي تفصلنا عن ديارنا وأحيائنا ومزارعنا.. حتى البحر.

ثم جاءت صعوبة أخرى بصدد بطاقات الدعوة للمؤتمر. لقد ألحّ رجال المخابرات الأردنية أن يذكر اسم المملكة الأردنية الهاشمية في بطاقة الدعوة إلى جانب كلمة «القدس». وكدت أحمل حقائبي وأعود إلى بيتي قرفاً واشمئزازاً من هذه البيزنطية التافهة لولا أنني كنت مصمّماً على إنشاء الكيان بأي ثمن إلا التضحية بالكيان. ولم تكن بيدي قوة «أقاتل» بها. والشعب غير منظّم وليست له قيادة، والإرهاب الأردني باسط ذراعيه، والسجون فاتحة أبوابها، «والثوريون» ينفثون حماسهم في وجهي وأبحث عنهم فلا أجدهم حينما أصطدم بالسلطة الأردنية. وتدخّل روحي الخطيب مرة ثانية واقترح أن يُكتب في ذيل البطاقة: القدس ـ الأردن، وهكذا كان.

ولم أكد أفرغ من عنعنات السلطات الأردنية حتى أطل الجدل الحزبي برأسه، بكل ثقله، وجاءني وفد منهم يحاور ويقول:

«لماذا دعوت النواب؟ هؤلاء رجال الملك حسين».

قلت: «نحن في مرحلة صعبة ولا داعي للجدل في الأمور الثانوية. ويجب ألا يضيع الهدف وسط دوامة الجدل. إن هؤلاء النواب فلسطينيون قبل أن يكونوا من رجال الملك. هذا إذا صحت عليهم هذه التهمة».

قالوا: «ولكن هؤلاء النواب قد جاؤوا نتيجة انتخابات مزورة».

قلت: «لست مسؤولاً عن ذلك ولماذا كنتم مختبئين في بيوتكم يوم عمل الملك على تزوير الانتخابات».

قالوا: «إن الكيان الفلسطيني يجب أن يكون جهازاً ثورياً لا مكان فيه للرجعيين والبرجوازيين».

قلت: «يهمني في هذه المرحلة إنشاء الكيان، ولست في صدد بناء المجتمع الفلسطيني برجوازياً كان أو اشتراكياً. هذه مرحلة أخرى أتركها لكم. إن أعظم عمل ثوري في الوقت الحاضر هو أن نتكاتف معاً ونبني الكيان معاً، وأنا أدعوكم إلى العمل لا إلى الجدل».

قالوا: «وهل ستدعى المنظمات الفلسطينية»؟

قلت: «نعم، إن الدعوة موجّهة إلى الجميع».

قالوا: «وما هي النسب؟ لا يجوز أن تمثّل هذه المنظمات بالتساوي فهي تتفاوت قوة وعدداً».

قلت: «وهذا لا يهمني أيضاً، حينما يتم تحرير فلسطين وتقوم حكومة فلسطين، ابحثوا عن النسبة العددية في مقاعد البرلمان وفي المناصب الوزارية، أما الآن فنحن في مرحلة إنشاء الكيان، وليس عندي إلا الكيان».

قالوا: «نحن نرفض الحضور إذا كانت النسبة متساوية».

قلت: «وسأبني الكيان بدونكم.. وأنتم أحرار في الحضور والغياب».

وانصرف هؤلاء الجدليون ليملأوا قاعات الفنادق جدلاً وحواراً. وراح الشعب يعدّ الأيام من شهر أيار/ مايو وهو ينتظر الثامن والعشرين، يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة. واتخذنا مكتباً لنا في فندق إنتركونتنتال للتحضير للمؤتمر. وتولى الدكتور عزة طنوس (القدس) ومعه نخبة من شباب وشابات القدس الإشراف على الأعمال التنظيمية. وبدأت تتوالى الرسائل والبرقيات والتلفونات حول شؤون المؤتمر، وعامل التلفون يتّصل بي ليقول:

«هالو، بيروت على الخط ـ اللجنة التحضيرية تتكلم».

قلت: «نعم ماذا تريدون»؟

بيروت: «نريد أن نوجه الدعوات إلى ممثلي المخيمات».

قلت: «موافق.. ما ترونه حسناً فهو حسن».

ثم يتصل عامل التلفون ويقول: «دمشق على الخط- اللجنة التحضيرية تتكلم»..

دمشق: «إن الحكومة تريد توجيه الدعوة إلى سبعة من الفلسطينيين البعثيين».

قلت: «موافق. نحن نرحب بالإخوان الفلسطينيين البعثيين، عسى أن ترضى قيادة البعث على الكيان الفلسطيني، وأن نؤمن بالمبادئ التي ولد من أجلها حزب البعث قبل أن يولد».

ويتصل عامل التلفون مرة أخرى ليقول: «القاهرة على الخط ـ اللجنة التحضيرية تتكلم».

القاهرة: «إن السفارة الأردنية رفضت إعطاء تاشيرة دخول لممثلي الطلاب لحضور المؤتمر».

قلت: «سأتصل بوزارة الداخلية في عمان».

ويعود عامل التلفون ليتّصل بي من مطار قلندية (في القدس) ليقول: «بعض

الصحافيين اللبنانيين على الخط. إنهم لا يحملون تأشيرة دخول إلى الأردن. وبعضهم ممنوع دخوله إلى الأردن».

قلت: «سأكلّم وزير الداخلية في عمان فوراً».

وهكذا مرّت الأيام بالمشاكل المتلاحقة إلى أن اقترب موعد انعقاد المؤتمر، فبدأت الوفود بالوصول إلى بيت المقدس من أرجاء الوطن العربي كافة، وبلغ عدد مندوبي الشعب الفلسطيني نحواً من ٤٥٠ عضواً، اختارتهم اللجان التحضيرية ليمثّلوا التجمعات الفلسطينية من المحيط إلى الخليج. وليس تعبير «من المحيط إلى الخليج» مجازاً ولكنه حقيقة واقعة. ولقد اشترك في المؤتمر الوطني الفلسطيني ممثلون عن الشعب الفلسطيني المشرّد من المغرب حتى قطر.

واشترك في الاجتماع وزراء خارجية الدول العربية جميعاً، إلا المملكة العربية السعودية فقد امتنعت عن الحضور، كما أنها لم تسمح لممثلي الفلسطينيين في المملكة بالاشتراك في المؤتمر. في حين تمثّل الوفد السوري في أعلى مستوى، إذ إنه كان مؤلفاً من كل من منصور الأطرش والدكتور حسان مريود وهما من أعضاء مجلس الرئاسة، كما كان وفد الجمهورية العربية المتحدة على غير المستوى الذي كنت أطمح فيه وعلى غير ما تأمل الأمة العربية في القاهرة، إذ مثّل الجمهورية وزير الثقافة الخارجية الدكتور حسين خلاف، ومعه الدكتور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر في لجنة المتابعة. لقد كان ألمي من القاهرة بقدر أملي فيها. وما أحببت، في ما بعد، أن أفاتح الرئيس عبد الناصر في الموضوع.

وبدت المملكة الأردنية بخاصة الضفة الغربية، على غير عادتها. لقد شهدت لأول مرة في تاريخها هذا الحشد الفلسطيني الرائع يضمّ رجالات فلسطين ونساءها وطلابها وعمالها، ومعهم وزراء الدول العربية، يتجمّعون في بيت المقدس.

وكان خلف هذا الحدث التاريخي قوّتان تتصارعان تحت سطح الماء. تمثّلت الأولى في الجماعات الوطنية على الصعيدين الفلسطيني والعربي وتعمل جاهدة لإنجاح المؤتمر، في حين تمثلت الثانية في المخابرات الأمريكية متحالفة مع بعض الأجهزة الأردنية الرسمية، وكلها تعمل على إحباط المؤتمر، وكان الملك حسين يمسك العصا من الوسط. وإنه في قرارة نفسه لا يريد الكيان الفلسطيني. ولكنه في الوقت نفسه غير قادر أن يتصدى له علناً أمام الرأي العام.

وتجلّى ذلك في ما يسمى «بتدابير الأمن العام» والأمن العام منها براء. لقد أصبح مكان انعقاد المؤتمر في فندق «إنتركونتنتال» أشبه بقلعة عسكرية. ولولا الأعلام

العربية التي كانت ترفرف على الفندق، لكانت كل الظواهر من حوله تنبئ أن الفندق أصبح مقر قيادة «العدو».

لقد عسكرت المصفّحات والدبابات الأردنية حول الطرق المؤدية إلى الفندق. وأقامت الشرطة العسكرية على المدخل الرئيسي للفندق لا تسمح إلا لحاملي البطاقات بالدخول. لقد انتظر عدد من وزراء الخارجية طويلاً حتى سمح لهم بالدخول. وانتظر عدد من الوفود الفلسطينية مدة أطول، لأنهم نسوا بطاقاتهم في فنادقهم. وتساءل الكثيرون «لماذا جاء بنا الشقيري إلى الأردن؟ ألم يكن من الأفضل أن يعقد المؤتمر في القاهرة أو دمشق أو أية عاصمة عربية أخرى»؟ وكنت أجيب عن السؤال بسؤال: «وهل تريدون الكيان الفلسطيني أن يولد غريباً بعيداً عن وطنه»؟

ولم تقتصر إجراءات الأمن العام على بيت المقدس، فقد احتلّت الدبابات الأردنية «مواقع استراتيجية» حول القدس لتحول دون توافد الجماهير من مختلف أنحاء الضفة الغربية. لقد وصل إلى علم المخابرات الأردنية أن جماهير الشعب ستزحف من كل أنحاء البلاد لتحية المؤتمر والوزراء العرب، وأن الشقيري سيتخذ من هذه المظاهرة الشعبية قوة يتحدى بها الملك حسين.

وسكت الشعب أمام هذه «الخزعبلات» إذ إنه رأى بوعيه الفطري السليم ألا يعطي السلطات الأردنية أية فرصة لتشويه جلال هذه المناسبة الجليلة.

وأزف ذلك الصباح الجميل (٢٨ أيار/ مايو) وتكاملت الوفود الفلسطينية والعربية. وانتشرت في ساحات الفندق جماعات جماعات، والكل يلقي بأبصاره على مدينتنا الخالدة والسيارات اليهودية تسير في أحيائنا الجديدة من بيت المقدس، والمخافر الإسرائيلية على مرمى البصر.

وكانت تلك الوقفة، الوقفة الأولى في العمر، للوفود العربية من دون استثناء، ولكثير من الأجيال الفلسطينية التي هاجرت من الوطن بعد عام ١٩٤٨.. وانطلقت الملاحظات الرهيبة والتساؤلات المذهلة، كيف تم كل ذلك؟ كيف احتل اليهود القدس الجديدة؟ كيف انتصرت القلّة الإسرائيلية على الكثرة العربية؟ وكنت أشرح لعدد من الوزراء العرب كثيراً من أسباب النكبة. وكانت تلك الوقفة محاضرة على الطبيعة عن النكبة وأسبابها.

ووصل الموكب الملكي، ووقفت على الباب الرئيسي أستقبل الملك حسين. وسرت معه إلى قاعة المؤتمر ورافقته إلى المنصة حيث جلسنا جميعاً ومعنا الوزراء العرب والأمين العام للجامعة العربية عبد الخالق حسونة.

وبدأت حفلة الافتتاح. وتكلم روحي الخطيب مرحباً بالوفود باسم بيت المقدس، ثم ألقى الملك حسين إحدى الخطب الإنشائية المعروفة التي يلقيها عادة الملوك والرؤساء في مناسبات القضية الفلسطينية. وجاء بعده عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة، فألقى كلمة باسم الوزراء العرب متمنياً للكيان الفلسطيني كل توفيق ونجاح. ثم جاء دوري للكلام، وكان الشعب الفلسطيني يريد أن يسمع مني ماذا يريد هو بالكيان الفلسطيني، وكان الملك حسين يريد أن يسمع مني ماذا يريد هو بالكيان الفلسطيني، وكان الوزراء العرب يريدون أن يسمعوا ما هو دورهم بالنسبة إلى الكيان الفلسطيني، وكذلك فقد كان العالم الدولي يريد أن يفهم ما هو هذا الكيان الفلسطيني الذي ملأ الشقيري الدنيا دويّاً بشأنه.

وكان أول كلامي موجهاً إلى الشعب الفلسطيني فهو الأول والآخر، وهو صاحب القضية فقلت: «لقد شهدت هذه المدينة الباسلة منذ أن دخلها سيدنا عمر بن الخطاب وهو يسوق جمله وعليه مولاه، شهدت أياماً فاصلة جليلة اقتحمت على التاريخ العربي طريقه فغيّرت مجراه، وصعدت به إلى ذروة الأمجاد الإنسانية. وما أيام صلاح الدين الأيوبي إلا واحدة منها. واليوم، تشهد هذه المدينة حدثاً تاريخياً سيقتحم على الحياة العربية طريقها، ليفجر مجراه فيعيد إلى الديار المقدّسة عروبتها وحريتها وأمنها وقدسيّتها. ونحن إذ نعقد هذا المؤتمر الوطني، تطالعنا هذه المعاني بارزة واضحة، وأكبر هذه المعاني أننا نتجمّع لأول مرة بعد ستة عشر عاماً من عمر النكبة. وهذه أكبر المعاني حقاً، فقد تألّبت على هذا الشعب الباسل قوى الصهيونية والاستعمار متجمعة متساندة، فأقامت إسرائيل على أرضنا، وتحالفت على إخراجنا من وطننا وتشريدنا تحت كل سماء وكوكب، ثم راحت ترهق اللاجئين عاماً بعد عام بالبؤس والحرمان، وهي تحسب أن هذا الشعب لن يتجمع أبداً. .

ولكن مؤتمرنا هذا، جاء يعلن للدنيا بأسرها، أننا نحن أهل فلسطين أصحابها الشرعيين قد التقينا، قد اجتمعنا، على تحرير فلسطين. . ونحن هنا وفود فلسطين، قد تنادينا إلى هذا المؤتمر العتيد على أرض فلسطين، على الخطوط الأمامية من فلسطين، نشهد أرضنا وديارنا، معابدنا ومرابعنا، مدننا وقرانا في الوطن السليب، ونحن هنا لا نمثل الفلسطينيين في سوريا ولبنان والعراق وقطاع غزة، ولكننا نحن هنا شعب واحد، ووطن واحد، وكفاح واحد. . بل إن معنا في هذا المؤتمر إخواناً لنا، نحن نمثلهم لأنهم لا يستطيعون الوصول إلينا، إخواناً لنا يصابرون جهد الطاقة الإنسانية في سبيل حماية عروبتهم وصون لغتهم، أولئك هم إخواننا الفلسطينيون في المنطقة المحتلة. إنهم معنا ونحن معهم، إنهم الآن يفتحون أجهزة الراديو، ويستمعون إلينا بقلوبهم وجوارحهم، ونحن معهم على عهد وموعد، وكل آت قريب. . وإننا

نشهد اليوم أول مؤتمر فلسطيني ينعقد على مقربة من خطوط الهدنة لنعلن على الملأ أن الشعب الفلسطيني مصمم تصميماً لا يلين، عازم عزماً لا ينثني، على تحرير وطنه مهما عظمت التضحيات ومهما طال الزمن. . وإني إذ أتحدث عن كيان فلسطين أجدني أمام حقيقة مفجعة. . إنه تعبير غريب على الحياة العربية والدولية. . ولم يعرف تاريخ الكفاح العربي شيئاً اسمه الكيان المصري أو السوري أو العراقي أو الجزائري، ولم تعرف آسيا الكيان الإندونيسي، ولا أفريقيا الكيان النيجيري، ولا عرفت أمريكا الكيان الكوبي. ولكن فلسطين فريدة الكارثة وحيدة الفاجعة. . وواضح أن السبب في ذلك أن كل الشعوب التي ابتليت بالاستعمار بقيت مستقرّة في وطنها آمنة في ديارها تكافح في أرضها، في جبالها ووهادها. ولكن شعب فلسطين قد اقتلع من وطنه وأخرج من دياره وهدم كيانه فأصبح لا بدّ له من أن يبني لنفسه كياناً لينهض بدوره الكامل في تحرير وطنه وتقرير مصيره.

لقد انتهى بنا الأمر بعد ستة عشر عاماً من الكارثة أننا أمام كارثة أخرى، نحن شعب من دون كيان وقضية من دون قيادة، وكان السؤال الرهيب أين شعب فلسطين؟ أين قيادته، أين تنظيماته؟ أين حركته النضالية؟ وإنني كواحد من هذا الشعب الباسل أعلن في مؤتمرنا هذا أنه يجب أن يجنّد القادرون منا على حمل السلاح، رجالاً ونساءً. وإذا خلا الكيان الفلسطيني من الناحية العسكرية كان كلاماً في كلام وكياناً من دون كيان. . وعلى هذا أصبح واجباً لزاماً علينا إن يهيّأ ابن فلسطين لتحرير فلسطين، أن يهيأ جندياً فدائياً، فحرام أن تظل طاقات الشعب الفلسطيني مهدورة. حرام أن يموت اللاجئون في الخيام بدلاً من أن يستشهدوا في ميدان الشرف». . ذلك كان بعض حديثي إلى الشعب الفلسطيني.

ووجهت إلى الملك حسين حديثاً مباشراً وغير مباشر فقلت: «كانت لي اجتماعات كبرى في ضفّتَي الأردن. لقد شهدت الفلسطيني أردنياً والأردني فلسطينياً. الكل سواء في الكفاح تجمعهم أخوّة المصير والسلاح. واستقرّ في ضميري أن أهل الكرك وعمان والسلط وإربد عازمون على تحرير فلسطين مع أهل عكا وحيفا ويافا لا جنباً إلى جنب، ولكن قلباً إلى قلب. إن انبثاق الكيان الفلسطيني في مدينة القدس لا يهدف إلى سلخ الضفة الغربية عن المملكة الأردنية الهاشمية، ولكننا نهدف إلى تحرير وطننا المغتصب غرب الضفة الغربية. ونحن لا نتعرّض للكيان الأردني من قريب أو بعيد، فقد كانت هذه الديار على مرّ التاريخ وطناً واحداً وشعباً واحداً، وما وضعه الاستعمار من حواجز على مدى ثلاثين عاماً أعجز من أن يفصم روابط السنين والأجيال. وإننا لن ننسى أبداً أن القرون الوسطى قد شهدت معارك فلسطين لا على أسوار عكا والقدس فحسب، ولكن على أسوار الكرك أيضاً. ونحن في عهد

الصواريخ أجدر أن نرفض التجزئة. ومن أجل ذلك فإن أي عون عسكري أو سياسي أو اقتصادي للمملكة الأردنية إنما هو عون عسكري لفلسطين. وإننا لندعو الأمة العربية بأسرها حكومات وشعوباً أن تعتبر أن الأردن هو المنطلق الكبير لتحرير فلسطين، فهنا الهضاب المشرفة، وهنا الجبال المطلّة. وفوق هذا وذاك هنا الشعب المتعطّش للثأر، المتلهّف إلى الجهاد والاستشهاد. وإننا إذ نجتمع اليوم لبناء الكيان الفلسطيني إنما نهدف إلى أن نضيف قوة جديدة في الساحة العربية عامة والأردنية بخاصة».

وتحدّثت إلى الوزراء العرب مخاطباً الملوك والرؤساء، فقلت: «إن الكيان الفلسطيني يبنيه الشعب الفلسطيني وإن دور الدول العربية هو التيسير والتسهيل قبل قيامه، والمعاونة والتأييد بعد قيامه. وإن الكيان الفلسطيني له شخصية حرة مستقلة، يتعاون مع الدول العربية جميعها، داخل نطاق الجامعة العربية وخارجها. إن الكيان الفلسطيني لا يبنيه الملوك والرؤساء ولا تبنيه الدول العربية ولا الجامعة العربية، إن كيان فلسطين يبنيه شعب فلسطين وهو قادر على بنائه. إن الكيان الفلسطيني فلسطيني وعربي. إنه فلسطيني البناء، ولكنه عربي الوسائل والإمكانات تقدّمها الدول العربية، فإذا كانت الوسائل هزيلة كان الكيان هزيلاً. وإذا كانت الوسائل قوية كان الكيان قوياً وثورياً. وإن مصير الكيان مرهون إلى حد بعيد بالدول العربية، فإن بذلت ويسّرت ودعمت، نهض الكيان بكل الأعباء. وإنني أعلن بصراحة أننا نحن أهل فلسطين سنرفض السير في أي طريق إلا طريق الكفاح والسلاح، فقد سئم شعب فلسطين ومعه الأمة العربية القرارات التي لا تنفذ والتصريحات التي لا تطبق. إن قضية فلسطين ليس لها حل سياسي أو دبلوماسي، وليس لها حل في الأمم المتحدة ولا في المحافل الدولية الأخرى. إن قضية فلسطين لا تحلّ إلا في فلسطين، ولا تحلّ في فلسطين إلا بالسلاح والكفاح، ولا تحلّ في فلسطين إلا بتعبئة الأمة العربية حكومات وشعوباً وفي مقدّمتها شعب فلسطين».

وتحدّثت إلى العالم الدولي وقلت: «إنا نعلم أن قضية فلسطين باعتبارها قضية تحريرية لا تحلّ إلا كما حلت جميع القضايا التحريرية في العالم، ولذلك نعلن من هذا المؤتمر أننا نأبى أنصاف الحلول. نحن نرفض التقسيم. نحن نرفض التدويل. نحن نرفض التوطين. . وإنني على يقين، ونحن اليوم على بداية الطريق، أننا لن نقف وحدنا، فإن معنا أولاً الدول العربية ونحن معها، ومعنا ثانياً الدول المتحررة في أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، بخاصة الدول الاشتراكية، ومعنا ثالثاً أحرار العقل والضمير في كل أرجاء العالم. وإنكم لترون أنني لم أشِرْ إلى الدول الغربية، فالسياسة الغربية هي التي أوجدت إسرائيل، وما تزال تمدّها بالسلاح والمال.

والسياسة الغربية هي التي ما فتئت تعلن أن إسرائيل وجدت لتبقى».

ولم أشأ أن أنهي خطابي في المؤتمر الفلسطيني وأنا أقف أمام التاريخ وجهاً لوجه، إلا أن أكشف بصورة هادئة وديعة الموقف السلبي الذي وقفه الأمير (الملك) فيصل من موضوع الكيان الفلسطيني. وقلت في سياق حديثي عن زياراتي للدول العربية: «ولو أتيح لي أن أزور الجزيرة العربية لرأيت فيها المشاعر العربية نفسها التي شهدتها أثناء تجوالي في الوطن العربي، وأنا على يقين أنها تتطلّع لتأييد فلسطين والكيان الفلسطيني».

وانتهى خطابي الذي وجّهته إلى الجميع، وبه انتهى حفل الافتتاح. وخرجنا نودّع الملك حسين، وبدا على أساريره الارتياح لأننا لا نريد سلخ الضفة الغربية وأن المملكة الأردنية بخير.

وعاد المؤتمر إلى الاجتماع فقرّر انتخابي رئيساً. وانتخب مكتب الرئاسة، فكان حكمت المصري (نابلس) وحيدر عبد الشافي (غزة) نائبين للرئيس، وانتخب نقولا الدرّ (شفا عمرو) أميناً للمؤتمر.

وانصرفنا إلى جلسات العمل، فانقسم المؤتمر إلى عدة لجان سياسية وعسكرية وإعلامية وتنظيمية ومالية. وتعاقبت الجلسات ليلاً ونهاراً وكان الأعضاء يعملون بحماس منقطع النظير، بروح مليئة بالعزم والتصميم. ولم تكن تخلو اللجان من بعض الجدليّين المولعين بفلق الذرة، ولا من اللغويين المغرمين بما سمع عن العرب وما لم يسمع. ولكن روح البناء كانت غالبة. فقدّمت اللجان تقارير قيّمة في الموضوعات التي أوكلت إليها. وفي الوقت الذي كانت فيه اللجان تعمل داخل المؤتمر، كنت مشغولاً في حجرتي والتلفون إلى جانب سريري، أدرأ عن الكيان الفلسطيني المؤامرات والإشاعات وما كان أكثرها.

وبلغنا اليوم الأخير في الاجتماعات، فانعقد المؤتمر بهيئاته الكاملة. وأقرّ الميثاق والنظام كما قدّمتهما إلى المؤتمر بعد إضافة ديباجة في مقدمته. وكنت في خطاب الافتتاح قلت بصدد الميثاق «إني أعرضه ولا أفرضه.. وإذا رأى غيري طريقاً آخر لبناء الكيان، فإني مستعدّ أن أسير وراءه». لقد أحسست بغبطة كبرى، بعد ما بذلت من جهد وقاسيت من عناء، أن المؤتمر لم يكتف بإقرار الميثاق فحسب، ولكنه قرّر اعتماد خطابي الافتتاحي كبيان إيضاحي لمفهوم الكيان الفلسطيني.

وناقش المؤتمر تقارير اللجان نقاشاً علمياً موضوعياً، فاعتمدها بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات. وكانت جلسات المؤتمر ولجانه غاية في النظام والاحترام، إلا حينما صاح أعضاء المؤتمر يريدون مني أن أكشف حقيقة موقف السعودية من الكيان

الفلسطيني، والسبب في عدم اشتراكها في حفل الافتتاح مع الحكومات العربية الأخرى. وكان جو المؤتمر غاضباً، فناشدت الأعضاء إيقاف البحث في الموضوع وأن يتركوا لي معالجة الأمر «بصورة أخوية» مع الحكومة السعودية. ونحن لا نريد «أن ندخل في خلاف مع أية حكومة عربية».

وفي الجلسة الختامية أعلن المؤتمر الوطني قيام «منظمة التحرير الفلسطينية» ممثلة للشعب الفلسطيني وقائدة لكفاحه من أجل تحرير وطنه، وانتخبني رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، مخوّلاً إياي بموجب النظام الأساسي أن أختار أعضاء اللجنة التنفيذية.

وكان ذلك اليوم ميلاد الكيان الفلسطيني، مؤذِناً بانبثاق الشخصية الفلسطينية يجسّدها قيادة فلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني والصندوق القومي الفلسطيني وأجهزة إعلامية وإدارية وتنظيمية. وجميع هذه المؤسسات القومية لم تكن موجودة خلال خمسة عشر عاماً، وهي الآن تولد من العدم وتبدأ من الصفر. وكل إمكاناتها عزم الشعب الفلسطيني على تحرير وطنه وإيمان من الأمة العربية بقضيتها المقدّسة.

ووقفت لأقول الكلمة الأخيرة في المؤتمر، وقد أُلقيت على أكتافي مسؤولية كبرى وأمانة عظمى في وجه مصاعب مضنية وتحديات عسيرة. وأخذتْني العزة بشعبنا، وقلت: «لقد جئتكم إلى هذا المؤتمر مختاراً من قبل الملوك والرؤساء، ولكنكم قلدتموني شرفاً أعظم، فأنا الآن مختار من قبل الشعب الفلسطيني. وإن أمامي مؤتمر القمة الثاني في الإسكندرية وإنه ليسعدني أن أحضره باسمكم وأن أتكلّم بلسانكم، وأن أجلس إلى جانب الملوك والرؤساء أحكّ كتفي بأكتافهم. وسأحمل أمانتكم إليهم وأفصح عنها بصيحتكم بل بغضبتكم.. ونحن على موعد مع النصر».

عدت إلى القاهرة وفي حقيبتي ملفّات المؤتمر، وكأنما جبال هملايا على أكتافي، فإن الذي يعرف مصاعب القضية الفلسطينية في مستوياتها الفلسطينية والعربية والدولية، يفهم ما أعني، ويفهم ما أقول.

ومن الذين يفهمون ما أعني وما أقول وزير الخارجية السوفياتية أندريه غروميكو فقد رافق القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٤٧. ولقد لقيته في مناسبات لاحقة بعد قيام منظمة التحرير فقال لي:

«لستُ أدري هل أُهنّيك أم أعزّيك.. إنها «جرأة كبرى» أن تعمل لتحرير فلسطين».. وكان يعني أنها «حماقة كبرى».

قلتُ: «نعم إنها حماقة كبرى. ولكنها يا صديقي قضية وطن، والحماقة الكبرى من أجل الوطن تصبح حكمة كبرى. إن الحب والعقل لا يجتمعان».

قال: «وماذا تعني؟ أنتم عاطفيون بلا حدود».

قلت: «حينما تعود إلى الاتحاد السوفياتي، أطلب من أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة موسكو أن يكتب لك ترجمة شعرية بالروسية لما قاله شاعر الحب الإلهي ابن الفارض حين قال:

هو الحب فاسلم بالحشا، ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل»

ووعدني أن يفعل..

ومضيت بدوري، ومن دون عقل، أستعذب كل عذاب في سبيل هذا الحب الإلهي. مضيتُ أبني منظمة التحرير الفلسطينية في الأشهر الأربعة الباقية أمامي، لأعلن أمام مؤتمر الملوك والرؤساء في الإسكندرية في شهر أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٦٤ «هذا هو الكيان الفلسطينيين هذه هي منظمة التحرير.. وما جئناكم لنقول لكم ﴿**فاذهبْ أنتَ وربّك فقاتلا إن ههنا قاعدون**﴾[١]. صدق الله العظيم

ولكننا جئنا نقول فاذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً**﴾[٢]. صدق الله العظيم

(١) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، «سورة الصف،» الآية ٤.

حوار مع الأمير فيصل.. في الإسكندرية

انتهى المجلس الوطني الفلسطيني في أوائل حزيران/يونيو عام ١٩٦٤، وابتدأت معه متاعبي. وكان عليَّ بادئ ذي بدء أن أختار قيادة المنظمة، ولم يكن هذا العمل سهلاً. وإن إنشاء حكومة لشعب مستقر في دياره، آمن في وطنه، هو أمر بالغ الصعوبة، فكيف الحال باختيار قيادة لشعب مشرّد ليس له سلطان على وطنه؟

ثم إنه كان عليَّ أن أبدأ من العدم فليس لدينا مؤسسات وطنية وليس بيدي سلطان ولا قانون وكل «السلطة» التي بيدي هي قداسة القضية الفلسطينية لدى الشعب الفلسطيني والأمة العربية، مضافاً إلى ذلك جهدي الطويل المتواضع في هذه القضية المقدسة.

وخلوتُ طويلاً إلى نفسي وأنا أفكّر في الأشخاص، أشخاص القيادة الفلسطينية، فلا بد من اختيار أناس يرضى عنهم الشعب الفلسطيني في مختلف تجمّعاته وترضى عنهم الحكومات العربية، أو على الأقل ألا يكونوا من الأشخاص «غير المرغوب فيهم». ووجه الصعوبة في هاتيْن القاعدتيْن أن الأشخاص غير المرغوب فيهم لدى الحكومات العربية هم الأشخاص الذين يرضى عنهم الشعب الفلسطيني، ومن هنا ينبع أوّل التناقضات «البسيطة» بين مشيئة الحكام العرب ومشيئة الشعب الفلسطيني.

وتجسّدت هذه الصعوبة أمامي بالنسبة إلى اختيار القادة الفلسطينيين من الأردن. . والوطنيون المرموقون من أبناء الضفة الغربية لا يرضي الملك حسين عن اختيارهم قادة لمنظمة فلسطينية قد أكرهَتْه الظروف على قبولها والاعتراف بها. هذا فضلاً أن الملك حسين كان حريصاً أن يكون قادة المنظمة من الفلسطينيين الذين يصدرون عن رغباته وينصاعون لمشيئته!!

ومثل هذه الصعوبة كانت واضحة، ولو بنسبة أقل، في قطاع غزة. وإن الإدارة

المصرية في القطاع لم تكن كما يريدها عدد من الفلسطينيين في جميع الأحوال. ونتج عن ذلك أن نشأت فئة من المثقفين الفلسطينيين، من أبناء غزة، يعزّ عليهم أن ينحنوا أمام الحاكم الإداري للقطاع.

أما بالنسبة إلى دمشق، فلم يكن لحكومتها آنذاك أي موقف بصدد اختيار القيادة الفلسطينية، لأنها نفضت يديها من البداية من منظمة التحرير الفلسطينية، فهذه أداة ناصرية والشقيري من رجال عبد الناصر. لقد وجدت لهم العذر في ذلك، لأنهم لا يعرفون مكاني في العمل السوري في ميدان الأمم المتحدة، مستقلاً بعيداً عن الولاء إلا للقضية العربية التي عشتُ لها كل عمري ولعلّ السبب أنني لم أكنْ حزبياً، وبالتالي لستُ وطنياً.

وإلى جانب هذه الصعوبات فقد قامتْ أمامي مشكلات فلسطينية صغيرة لم تكن جماهير الشعب الفلسطيني تأبه لها، وإنما كان يثيرها «الزعماء» الفلسطينيون الصغار، الطامعون بأن يكونوا في قيادة منظمة التحرير. لقد خرجت أصوات من الضفة الغربية بأن أكثرية اللجنة التنفيذية يجب أن تكون من أبناء فلسطين في الأردن، بحسب نسبتهم العددية، فتلك هي الديمقراطية، وإلا فإن المنظمة لا تمثّل الشعب الفلسطيني. وخرجت أصوات أخرى من قطاع غزة تقول إن القطاع متحرّر، ويجب أن يكون قاعدة النضال الفلسطيني حيث لا يسيطر الملك حسين. وخرجتْ أصوات أخرى من بقية التجمّعات الفلسطينية تنادي بأن القيادة الفلسطينية يجب أن تكون بحسب الكفاءة والثورية،من دون النظر إلى العوامل الإقليمية. لقد كنت أعرف مقاييس الكفاءة، ولكني كنت في تيه من مقاييس الثورية!!

ووقعت بين براثن هذه المصاعب والمشاكل. وبرز الموضوع على صفحات الصحف وبعضها ينهش في عظمي، ومن ورائها منشورات المنظّمات الحزبية، كما لم تتردّد صحف القاهرة عن خوض هذا المضمار، وكنت أدخرها لأن تساهم معي في البناء والإنشاء، لا في التشكيك والتنديد.

وفكّرت أن أقوم بجولة أخرى على التجمّعات الفلسطينية، للتشاور والتعاون. ولست أمام شعب في أرضه أستطيع أن اتصل به فوراً، ولكني أمام شعب متمزّق في أرجاء الوطن العربي، وعليَّ أن أسافر إلى البحرين مثلاً لألتقي بمئتي فلسطيني يرون أنهم بكفاءتهم أحقّ من غيرهم بالقيادة والمشورة.

وكانت جولتي نهارية ليلية؛ نهارية بالطائرات، وليلية بالندوات والاجتماعات. ووجدت العجب العجاب من التمزّق بين «القادة» الفلسطينيين. لا أكاد أجد اثنين

يتفقان على موقف واحد. وهؤلاء «القادة» يعدّون بالألوف، وتلك ظاهرة في الشعوب التي تصاب بكارثة قبل أن تستردّ نفسها ونضالها.

وكنت أجد في كل وطن من أوطان العرب، منظّمات فلسطينية، تجمع بعض الشباب تحت لوائها، وكلّ منها ومنهم يظنّ أن طريقه هو الطريق إلى فلسطين.

وعاودت الكرّة مع التنظيمات الفلسطينية، أطالبها بأن تقدم لي مرشحيها لأختارهم في القيادة الفلسطينية. ولكن هذه التنظيمات كانت ترى في تجربة إنشاء منظمة التحرير محرقة، وليحترق الشقيري وحده، ولتبقَ هذه المنظّمات بعيدة عن النار!!

وفي عمان أثار الملك حسين أعوانه وأنصاره يطلبون أن أختار «العقلاء والمعتدلين»، وفي نظرهم أنهم هم العقلاء والمعتدلون.

وفي نهاية المطاف وقع اختياري على القيادة الفلسطينية، من أبناء الضفة الغربية ومن قطاع غزة، ومن الفلسطينيين في سوريا ولبنان، وأحسب أني لم أكن مخطئاً في اختيارهم فإنهم مواطنون مخلصون. لقد استراح الشعب لهذا الاختيار لأنه كان على علم بمصاعبي مع الحكومات العربية ومع هذا الذي يسمى بالمنظمات الفلسطينية. . وأنا أعني جلّهم لا كلهم. .

وقد تعاقب على عضوية اللجنة التنفيذية في دوراتها المتعددة: عبد الرحمن السكسك (يافا)، وخالد الفاهوم (الناصرة)، وعبد الخالق يغمور (الخليل)، وبهجت أبو غربية (القدس)، ونمر المصري (الرملة)، وأحمد صدقي الدجاني (يافا)، وأحمد السعدي (طولكرم)، والدكتور أحمد سروري (نابلس)، والدكتور أسامة النقيب (صفد)، والدكتور حيدر عبد الشافي (غزة)، وشفيق الحوت (يافا)، وراجي صهيون (حيفا)، واللواء وجيه المدني (يافا)، ويوسف عبد الرحيم (صفد)، والدكتور وليد قمحاوي (نابلس)، ونقولا الدر (حيفا)، ومجدي أبو رمضان (غزة)، وفلاح الماضي (حيفا)، والدكتور داود الحسيني (القدس)، وحامد أبو ستة، وابراهيم أبو ستة (بئر السبع)، وعبد المجيد شومان (القدس)، ويحي حمودة (القدس)، وجمال الصوراني (غزة)، والدكتور قاسم الريماوي (رام الله)، وقصي العبادلة (غزة)، والدكتور فائز صايغ (طبريا)، وفاروق الحسيني (غزة) وسعيد العزة (الخليل).

ولا بدّ لي أن أعترف أنه لدى الشعب الفلسطيني وفرة من الكفاءات ولكن ماذا أصنع بهذه الكفاءات. منهم من لا يريد أن يترك منصبه الجامعي حيث الراتب الكبير

والوسط العلمي الوادع والترف الاجتماعي. ومنهم من لا يريد أن يترك عمله في البنك أو الشركة وهو أحد المؤسّسين ويخشى أن تنهار المؤسسة إذا تخلّى عنها. ومنهم من لا تسمح له قيادته بأن يترك حزبه ويدخل في منظمة أنشئت في إطار الجامعة العربية. وأخيراً هذا العقائدي الذي لا يؤمن بقيام المنظمة قياماً «فوقياً»، بل يريدها أن تنشأ نشوءاً «تحتياً» تعبر عن مشيئة الجماهير!! وهو يتجاهل أن منظّمته قامت قياماً «فوقيا» لا تحتياً.

ودعوت القيادة الفلسطينية التي اخترتُها إلى الاجتماع لأول مرة في بيت المقدس. وكنا قد استأجرنا مبنى مؤلفاً من أربعة طوابق مجاوراً لفندق أمباسادور. وعقدنا اجتماعنا في إحدى الغرف، ولم يكن في المبنى شيء من الأثاث، فاستعرنا من الفندق بعض الكراسي. ونصبنا الألواح إلى جانب بعضها بعضاً وجعلنا منها طاولة، وعقدنا الجلسة الأولى للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكنّا أشبه بواحة صغيرة في المملكة الأردنية الهاشمية. تمرّ «الباصات» والسيارات إلى جوارنا بين القدس ونابلس، والمسافرون ينظرون إلى علم فلسطين مثبتاً على سارية المبنى، وهم مشفقون على هذه الحفنة من الشباب الذين جاؤوا ليحاولوا رفع هذا «الحمل» الكبير الثقيل الذي سقط على الأرض، منذ عشرين عاماً. هذا الحمل الذي اسمه قضية فلسطين.

وقضينا أسبوعاً بكامله ونحن نتداول الرأي في شؤون منظمة التحرير؛ اختصاصها، وخططها، وتمويلها، وسائر أمورها.. وكان أول إنجازاتنا في تلك الجلسة إنشاء الصندوق القومي الفلسطيني على الورق، إذ إننا اخترنا أعضاء مجلس إدارة الصندوق من كبار أصحاب الأعمال والأموال الفلسطينيين يرأسهم عبد المجيد شومان المدير العام للبنك العربي.

ولم نكدْ نفرغ من أعمال تلك الدورة، حتى تعالت صيحات «العقائديين» الفلسطينيين بأن منظمة التحرير الفلسطينية هيئة برجوازية حشرت الأغنياء والموسرين في مجلس إدارة الصندوق القومي!!

وانصرفت إلى بيتي في لبنان، غير مبالٍ بهذه الصيحات، لأعدّ الخطة الشاملة المتكاملة لنشاطات منظمة التحرير في ضوء الخطوط العريضة التي اتفقنا عليها في اللجنة التنفيذية في اجتماعها الأول في مقرّها الدائم في بيت المقدس. وأصبح بيتي في كيفون (لبنان) خليّة نحل. الصحافيون العرب من كل الأقطار العربية، وكلهم يريدون حديثاً. حتى إذا تحدّثت قالت الصحف ذاتها إن الشقيري يحبّ الكلام. وإن

امتنعت عن الحديث قالوا إن الشقيري لا يقوم بواجب الدعوة والإعلام للقضية الفلسطينية!!

وتزاحم مندوبو الوكالات الأجنبية من كل أنحاء العالم. كلهم يريدون أن يتعرّفوا إلى هذا المولود الجديد الذي اسمه منظمة التحرير، وما هي أهدافه ونشاطاته، وهل يريد أن يحارب، أو يريد أن يسالم. ولم يكن لدينا يومئذ طاقات للحرب. وأنّى لنا أن نتحدّث عن السلام وشعبنا شريد ووطننا تحت الاحتلال؟ وكيف يأتي التحرير عن طريق السلام؟

وانصرفت أؤدي واجبي في هذا المجال الإعلامي معظم النهار، وأعقد ندوات التخطيط معظم الليل. وكان هذا التخطيط حاجة قصوى قي تلك الفترة من حياة المنظمة.. فلا يمكن أن يبدأ العمل من دون خطة. ثم إن مؤتمر الملوك والرؤساء يوشك أن يعقد في الإسكندرية، ويجب أن نضع خطة نتقدّم على أساسها بمطالبنا المالية والسياسية.

وأخذت أستعين بالخبراء الفلسطينيين في ما يتعلق بالشؤون الإعلامية والمالية: وعرضت رأيي بالنسبة إلى الجانب الإعلامي، وأننا في حاجة إلى إذاعة نتّصل عن طريقها بالشعب الفلسطيني والأمة العربية. لقد طال العهد على قضية فلسطين وهي بعيدة عن شعب فلسطين وعن الأمة العربية. واقترحتُ أن تكون لنا إذاعة خاصة بمنظمة التحرير الفلسطينية وأن تنشأ جريدة تكون مكرّسة لخدمة القضية الفلسطينية إضافة إلى إنشاء مكاتب للمنظمة في العواصم العربية ولدى الدول الصديقة، يكون من مهامها شرح القضية الفلسطينية. وهكذا أعددنا للناحية الإعلامية خطة كاملة.

وبالنسبة إلى الجانب المالي، فقد عقدت جلسات متعدّدة مع الخبراء المختصّين. وطرحت عليهم فكرة إنشاء «المؤسسة المالية لتحرير فلسطين» لتنظيم الجباية الشعبية من الأمة العربية عن طريق فرض ضريبة صغيرة على النفط والكحول والدخان وما إلى ذلك تنفق حصيلتها على ثلاث جهات: القيادة العربية الموحّدة والأردن لإنقاذه من المعونة الأجنبية وأخيراً منظمة التحرير الفلسطينية لمساعدتها في تنفيذ برامجها العسكرية. لقد خرجنا من هذه الدراسات بمشروع مفصّل شامل. وبلغت تقديرات الجباية الشعبية مبلغ مئة مليون جنيه إسترليني.

أما الجانب العسكري فقد أوليتُه كل اهتمامي وكرّستُ له معظم وقتي. وأخذتُ، كلّما لقيت أحد أصدقائي العسكريين من مصر وسوريا والعراق وغيرها، أدعوه إلى منزلي وأقضي معه الساعات الطوال بحثاً عن الخطة الملائمة

لإنشاء قوات عسكرية فلسطينية وإنشاء معسكرات لتدريب أبناء فلسطين على حمل السلاح.

وكان هذا الموضوع بالغ الصعوبة. لا تملك المنظمة أرضاً ولا سيادة والشعب مشرّد مشتّت. وليس من السهل أن ترضى الدول العربية بأن تكون على أراضيها قوّة فلسطينية مسلحة، إلا إذا كانت أمورها في قبضة يدها. ورحت أبحث عن فلسطيني له خبرة وثقافة عسكرية. وتبيّن لي أن الكثيرين من الضباط الفلسطينيين في دمشق قد تقلّبوا على الانقلابات العسكرية السورية. أما الضباط الفلسطينيون في قطاع غزة، فلم يكونوا قد بلغوا درجة عالية. وخطر على بالي أن أستعين بالزعيم شوكت شقير «رئيس أركان الجيش السوري سابقاً» وكنتُ عرفتُه عسكرياً مثقفاً مارس الشؤون العسكرية. ولقد عاد إلى لبنان بعد أن عصف به واحد من الانقلابات العقائدية، فدعوتُه إلى منزلي وتدارستُ معه الخطة العسكرية، وطلبتُ إليه أن يعدّ خطة في هذا الموضوع لأعرضها على مؤتمر الملوك والرؤساء. وانقضى أسبوعان وجاءني الزعيم شوكت شقير بمذكّرة وافية تتناول النواحي التنظيمية والإدارية والمالية لإنشاء كتائب فلسطينية خفيفة الحركة مسلّحة سلاحاً خفيفاً ومتوسّطاً تستطيع أن تقوم بمهمة حرب العصابات.

وبهذا تكاملت لديَّ خطة كاملة لعمل منظمة التحرير الفلسطينية تتناول النشاطات العسكرية والسياسية والإعلامية والمالية والتنظيمية. وضممتُ هذه الخطّة إلى ملفّ المجلس الوطني الذي انبثقتْ عنه منظّمة التحرير الفلسطينية. وبقيتُ أنتظر انعقاد مؤتمر الملوك والرؤساء في الإسكندرية، وأنا أطمع في الوصول إلى هدفيْن: الأول الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني، والثاني الموافقة على الخطّة الشاملة التي أعدَدْتُها، وتوفير الأموال اللازمة لها.

واقترب اليوم الخامس من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤ موعد انعقاد مؤتمر القمة في الإسكندرية. ونشطت خلال ذلك حركة التخريب على منظمة التحرير الفلسطينية. وتولّى قيادة هذه الحركة بعناد وصلابة ومثابرة الحاج أمين الحسيني. لقد جرّد من بقي له من أعوان في التجمّعات الفلسطينية ومخيمات اللاجئين، يستكتبهم العرائض إلى الملوك والرؤساء ليعترضوا على قيام منظمة التحرير الفلسطينية وأنها لا تمثل أحداً من الشعب الفلسطيني. وأعدّ الحاج أمين ملفاً زنكوغرافياً بهذه العرائض أرسله إلى الجامعة العربية ووزّع مثله على وزارات الخارجية العربية. وكانت هذه العرائض هزيلة بمضمونها وبتواقيعها. ونشطتْ إلى جانب ذلك الإذاعة الإسرائيلية ووكالات الأنباء الخاضعة للنفوذ الصهيوني وراحت تشنّع على قيام الكيان الفلسطيني، وأنه كيان الشقيري. ومن هنا انطلقت عبارة

«منظمة الشقيري» وتداولتْها بعد ذلك ألسنة المرجفين وأقلام المتخرّصين.

ولم تقف الولايات المتحدة مكتوفة اليدين أمام الحدث الكبير المتمثّل بقيام منظمة التحرير الفلسطينية، إذ إنها كانت توجس خيفة من انبثاق الكيان الفلسطيني، ذلك أنها كانت ترى أن القضية الفلسطينية، بعد هذه الأعوام الطوال، آخذة طريقها نحو التصفية، وأن الأمر قد استتب لإسرائيل. وما معنى قيام منظمة فلسطينية تعلن أن هدفها هو زوال إسرائيل وتحرير فلسطين.

لذلك كان بديهياً أن تقوم الولايات المتحدة بحملة دبلوماسية في العواصم العربية تحذّر من قيام منظمة التحرير الفلسطينية وترى فيها خطراً على الأمن في الشرق الأوسط، وعودة إلى القتال، بعد أن أيقنت أن الأمور في حسابها صائرة إلى التعايش مع إسرائيل وإقرار السلام مع الدول العربية، ولو بصورة غير معلنة، كالدستور البريطاني موجود، ولكنه غير مكتوب.

وكان موقف أمريكا هذا من المنظمة واضحاً معروفاً، ولكني كنت أتطلّع إلى الدليل المادي، ذلك أن بعض العرب كانوا لا يؤمنون إلا إذا أنزلتَ عليهم كتاباً يقرأونه. وحمداً لله فقد نزل الكتاب. وتلخيص ذلك أن أخاً كويتياً يشغل منصباً كبيراً في الدولة الكويتية، امتلأ قلبه بالعروبة، جاءني إلى بيتي وأنا أتهيّأ للسفر إلى مؤتمر الإسكندرية، ودفع إلي صورة فوتوغرافية عن مذكّرة «Aide Mémoire» موجّهة من السفارة الأمريكية في الكويت إلى الحكومة الكويتية تحذّر من قيام «الكيان الفلسطيني» و«صوت القدس» وإنشاء قوات فلسطينية، وأن «الولايات المتحدة تتطلّع إلى نجاح الجهود الدولية عن طريق الأمم المتحدة وخارجها للوصول بالقضية الفلسطينية إلى تسوية سلمية . . ».

وكانت هذه المذكّرة الأمريكية، متطابقة في نصها وروحها، مع المذكّرة الأمريكية التي قدّمها السفير الأمريكي إلى الديوان الملكي في عمان، كما أشرتُ سابقاً. وضممتُ هذه المذكرة إلى ملف المنظمة، وحملتُه مع آمالي ومخاوفي إلى الإسكندرية، إلى فندق فلسطين حيث يتوافد الملوك والرؤساء لعقد اجتماعهم التاريخي الثاني.

وسافرتُ إلى الإسكندرية ومعي أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ليكونوا على مقربة من اجتماع القمة. ودخلنا سراي المنتزه على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. وصعد بي رجال البروتوكول إلى الجناح المخصّص لي في الفندق. وكان العمال قد فرغوا منه قبل بضعة أيام، إذ كانوا يعملون ليلاً نهاراً ليهيّئوه للملوك والرؤساء، وكأنما كانت معاولهم تصيح مع آمالهم: هيّا إلى فلسطين من فندق فلسطين.

وبادرت إلى زيارة الملوك والرؤساء أجامل وأتودّد. وأشرح الخطوط العريضة لمخطّط منظمة التحرير الفلسطينية. وكانوا يستمعون باهتمام وعناية وعلى وجوههم تساؤلات كثيرة: ماذا يستطيع الشعب الفلسطيني أن يصنع؟ كيف تستطيع منظمة التحرير الفلسطينية أن تشق طريقها؟ وهل إنشاء قوات فلسطينية أمر معقول؟

وكانت لقاءاتي بالملوك والرؤساء تسودها روح المجاملة والانفتاح إلا مع اثنين: الأمير (الملك) فيصل والرئيس السوري الفريق أمين الحافظ. لقد زرتُ الأمير فيصل في جناحه ومعي أعضاء اللجنة التنفيذية. وشرحتُ وشرحتُ، ولكنه كان بذكائه ودهائه يدير الحديث إلى مواضيع أخرى فيتبسّط عن الأمم المتحدة ودورها في قضية فلسطين ثم يستشهد حيناً بعد حين «بالأخ» أحمد. كان مجاملاً متودّداً، مؤيداً لقضية فلسطين، لكنه حرص ألا تخرج من فمه كلمة التزام بالنسبة إلى منظمة التحرير. وخرج زملائي مسرورين منشرحين من هذه المقابلة وهم يسألونني رأيي، قلت: «لا بد أن تقضوا سنين طويلة مع الأمير فيصل حتى تعرفوه.. إن الأمير فيصل ابن الصحراء، وهو يعرف كيف يشرد كما تشرد غزلانها».

وانتقلنا بعد ذلك إلى جناح الوفد السوري، وتحدّثت إلى الرئيس أمين الحافظ وزملائه عن إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية وخططنا المقبلة. وخرجنا كما دخلنا، فإن الوفد السوري لم يتحدّث ولم يجامل. ولو أني استنطقت الجدران في تلك الساعة لنطقت، ولكن الوفد السوري لم ينبس ببنت شفة. إن المنظمة في نظرهم إلى ذلك العهد، جهاز من أجهزة الرئيس عبد الناصر، والشقيري أحد رجال عبد الناصر، ومؤتمر القمة في مجموعه دون مستوى الأحداث. وخرجت من جناح الوفد السوري وأنا أندب حظي مع دمشق وكنت أدخرها لتأييد المنظمة، ولو من ناحية فكرية على الأقل. ولم أدرِ إلا بعد حين أن القيادة القومية لحزب البعث آنذاك كانت قد قرّرت أن تقف من المنظمة موقفاً سلبياً لأسباب «موضوعية». والواقع أن السبب الموضوعي كان أني لست بعثياً، وأن المنظمة لن تكون مؤسسة بعثية، وأنها ربطت نفسها في عجلة الناصرية. ذلك كان منطق قادة البعث، وهو منطق يعوزه المنطق!

وعدت إلى جناحي لأجد رجال البروتوكول ومعهم رسالة من الرئيس اللبناني الأستاذ شارل حلو. إنه يريد أن يزورني، فاتّصلت به تلفونياً لأعرب له عن رغبتي بأن أبدأه بالزيارة فأصر على أن يزور «دولة الأخ أحمد». وما هي إلا دقائق حتى جاء الرئيس حلو ومعه أركان الوفد اللبناني، فابتدأ الحديث معرباً عن ارتياحه لقيام منظمة التحرير الفلسطينية، فإنها «على الأقل تنسّق مع السلطات اللبنانية الشؤون المتعلّقة باللاجئين الفلسطينيين في لبنان».

وعاد الرئيس حلو، في حديث حلو، عن ذكرياتنا المشتركة في الأمم المتحدة في قصر شايوه في باريس ١٩٥١، دفاعاً عن القضية الفلسطينية، وأخذ يسرد الوقائع والأحداث كأننا نعيش لساعتنا. والرئيس حلو واحد من حكام العرب القلائل الذين يقرأون ويكتبون، ولست أعني «يفكّون» الحرف. ثم تطرّق إلى مشروع تحويل الروافد وما يفرضه من التزامات مالية وعسكرية على لبنان، وختم حديثه يطلب النصيحة «من دولة الأخ أحمد، الذي يعرف مصاعب لبنان، وتذكرون أن الرئيس السابق الشيخ بشارة الخوري كان عرض عليكم الجنسية اللبنانية الفخرية لخدماتكم للبنان». قلت للرئيس حلو: «أشكركم على هذه التحيّة. ورحم الله الشيخ بشارة الخوري لقد اعتذرتُ إليه عن قبول الجنسية الفخرية، فأنا مواطن لبناني قانوناً ذلك لأني ولدت في قلعة تبنين (لبنان) حيث كان والدي رحمه الله معتقلاً في زمن الدولة العثمانية»[١].

قال الرئيس حلو: «وإني أطلب نصيحتك كمواطن لبناني، هل أعرض الأمر على مجلس الملوك والرؤساء؟ إن الموضوع خطير، وأنت تعرف ملابساته في لبنان. إن تحويل الروافد يتطلّب حماية عسكرية والجيش اللبناني لا يستطيع النهوض بهذا الواجب. ومن الصّعب إقناع البرلمان اللبناني بالموافقة على دخول جيوش أخرى».

قلتُ: «لستُ أكتم الرئيس حلو إني غير مؤمن بموضوع تحويل الروافد. وإن كان هذا الموضوع الذي اجتمع من أجله مؤتمر القمة العربي في القاهرة. وإذا كانت الدول العربية قادرة على حماية مشروع تحويل الروافد عسكرياً، فالأجدر أن يحموا حدودهم، وأن يطلقوا الشعب الفلسطيني إلى المعركة لتحرير وطنه».

قال الرئيس حلو: «وماذا تنصح بالنسبة إلى لبنان»؟

قلت: «ليس عندي إلا نصيحة جحا».

قال: «وما هي نصيحة جحا؟»

قلت: «يقول جحا: «اللي طلّع الحمار على المأذنة يقدر ينزله»».

قال: «وماذا تعني»؟

قلت: «عليك بالرئيس عبد الناصر، هو الذي فتح موضوع تحويل الروافد.

---

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

إشرحْ له مصاعب لبنان، وأعتقد أنه يستطيع أن يجد لك «الفتوى» إذا ما طرح الموضوع على بساط البحث».

فانصرف الرئيس حلو، وهو مبتهج لنصيحة جحا. لقد جاءت قرارات المؤتمر في ما بعد، وفيها صياغة ترضي لبنان.

وقضيت ليلتي وأنا أعدّ خطابي الذي سألقيه في المؤتمر. وعرضتُه على زملائي فقال بعضهم إنه متطرّف، وقال آخرون إنه معتدل. قلتُ لهم حين تجمعون على رأي سأستمع إليكم!!

وحملتُ أوراقي إلى قاعة المؤتمر، وقادني رجال البروتوكول إلى صالة الانتظار حيث يجتمع الملوك والرؤساء، يتصافحون ويتهامسون. ووقفتُ مع الرئيس عبد الناصر أهمس في أذنه خلاصة المذكّرة الأمريكية الموجهة إلى الحكومة الكويتية بشأن منظمة التحرير وأخرجت الصورة الفوتوغرافية من بين أوراقي وأعطيتها للرئيس عبد الناصر، فألقى عليها نظرة سريعة وطواها في جيبه. وقلت له: «أعتقد أن الحكومة الأمريكية قد وجهت مثل هذه المذكّرة إلى حكومات عربية أخرى، وهذه أولى المؤامرات على الطريق».

وعدنا، الرئيس عبد الناصر وأنا، كلّ إلى مقعده، والوفد السوري يحملق بي كأنما عثر على دليل الجريمة، فهذا الشقيري يهمس في أذن عبد الناصر ويسلمه ورقة. وأيّ دليل أكبر من ذلك على عمالة الشقيري! وما أحسب أني كنت مخطئاً في فراستي هذه، فقد كانت إذاعة أمين الحافظ تهاجم «منظمة الشقيري». ووجه المأساة أن دمشق هي موئل الحركة العربية الحديثة.

وعقد مؤتمر القمة جلسته الافتتاحية تحت ومضات متواثبة متتالية من أجهزة المصورين، وسبقتهم إلى القاعة فيوض من آمال الأمة العربية، وهي تتطلّع إلى ملوكها ورؤسائها، وما عساهم يفعلون.

وحضر المؤتمر الملوك والرؤساء الذين شهدوا مؤتمر القمة في القاهرة قبل بضعة شهور، إلا الرئيس بورقيبة فقد ناب عنه الباهي الأدغم، والأمير عبد الله نائباً عن الحسن الثاني، وشارل حلو الرئيس اللبناني والملك إدريس السنوسي، وكان قد تخلّف عن مؤتمر القاهرة بسبب مرضه، والأمير (الملك) فيصل بالأصالة عن نفسه ونائباً عن الملك سعود. وفي مؤتمر القاهرة كان سعود الملك نائباً عن ولي عهده الأمير فيصل!

وافتتح الأمير (الملك) فيصل المؤتمر بكلمة موجزة تضمّنت المعاني التقليدية،

بعبارتها المألوفة التي درج عليها قادة العرب منذ ألّحت عليهم قضية فلسطين بالإدلاء والتصريحات وإلقاء الخطب. . ثم أخليت القاعة من الصحافيّين والمصورين وعقدت جلسة سرية. وأقول سرية انسياقاً مع التعبير الدارج، ففي العشرين عاماً التي واكبت فيها العمل العربي منذ أنشئت الجامعة العربية إلى عهد مؤتمرات القمة، كانت المداولات «السرية» تنشر في الصحف العربية والصحف الأجنبية على السواء. والدول العربية كلها، من دون استثناء مسؤولة عن هذه اللامسؤولية. لقد كانت هذه الدولة أو تلك توحي بنشر الأخبار إظهاراً لوطنيتها أو انتقاصاً لوطنية غيرها، بل إن هذا الوحي بنشر الأخبار كان يحدث بعض الأحيان قبل الوقوع. تذاع الأقوال قبل أن تقال. وتنشر المقترحات قبل أن تقترح، حتى إذا أثير عتاب أو استنكار أو استيضاح عما نشر وكيف نشر، راح المسؤولون يحملون على الصحافيين، وكيف أنهم لا يقدّرون المسؤولية القومية تجاه وطنهم.

وتعاقبت جلسات المؤتمر سرّية في القاعة، علنيّة في الصحف، فجرى بحث تقرير القائد العام الفريق علي علي عامر وتقرير هيئة تحويل الروافد.

وعرض عبد الخالق حسونة تقريره التقليدي الذي يكتبه عادة الدكتور سيد نوفل الأمين العام المساعد، من الألف إلى الياء، فأسهب في شرح العلاقات بين الدول العربية ذاتها مشدّداً على ضرورة حلّ الأزمة اليمنية حتى تنصرف كل الطاقات العربية إلى مواجهة التحدي الإسرائيلي.

وعلى إثر ذلك استدرك الرئيس عبد الناصر معقباً على الموضوع، وقال: «ليست لدى الجمهورية العربية المتحدة أيّة موضوعات تتعلّق بسياستها الوطنية أو القومية أو الدولية ترغب في إقحامها عليكم». وأراد الرئيس عبد الناصر بهذه العبارة العابرة ألا يطرح قضية اليمن على مؤتمر القمة. وتهرّب الأمير (الملك) فيصل وهو رئيس الجلسة، من الموضوع، بقوله: «إن المملكة العربية السعودية تعتبر نفسها سنداً لكل عربي، وفي خدمة كل عربي». . والذين يعرفون تعابير الأمير (الملك) فيصل قد فهموا هذا الكلام على معناه، وهو أن الأمير (الملك) فيصل سيظل سنداً للملكيّين من اليمنيين وفي خدمتهم على الدوام. وانتهى موضوع اليمن الخطير عند هذا الحوار المفهوم وغير المفهوم.

وكانت حصيلة مؤتمر القمة بالنسبة إلى موضوع اليمن، أن الأمير (الملك) فيصل قد صافح المشير عبد الله السلال بطريق المصادفة. لقد دخل الأمير (الملك) فيصل على أحد الاجتماعات الجانبية، وكان في الصالة الرؤساء عبد الناصر والمشير عبد السلام عارف والمشير السلال، فنهضوا جميعاً لتحيته، فسلّم الأمير (الملك) فيصل وصافحهم

واحداً واحداً. وكانت هذه هي المصادفة الوحيدة، في جميع اجتماعات مؤتمر القمة بالنسبة إلى قضية اليمن!

ثم عرض الفريق عامر مطالبه العسكرية والمالية بصورة موضوعية دقيقة، وأوضح بصورة قاطعة أنه إذا لم تستجب هذه المطالب، فإنه لا يستطيع أن يتولى حماية المشروع العربي في تحويل الروافد من العدوان الإسرائيلي.

وتتلخص هذه المطالب بزيادة القوات الجوية العربية وإنشاء المطارات الصالحة وطائفة من الأمور الفنية المتعلقة بتحرّك القوات العربية.

وكان جلوسي إلى جوار الفريق علي عامر، وهكذا جلسنا معاً على الدوام في جميع مؤتمرات القمة، كأنما كانت مؤتمرات القمة تخبئ لنا أن نكون ضحاياها معاً. وراح الفريق عامر يحذر الملوك والرؤساء من المبالغة في تقدير القوة الإسرائيلية من الناحية العسكرية، المبالغة في تضخيمها، أو المبالغة في الاستهانة بها. وأعلن أن إسرائيل ستختار الوقت الذي يلائمها لتدمير الأعمال العربية لتحويل الروافد.. وأن.. وأن.. ثم أكد في نهاية حديثه «أن القوات العربية قادرة على مواجهة التحدي الإسرائيلي إذا أمكن تحقيق الوحدة العسكرية العربية بين الدول العربية».

وقف الفريق عامر عند هذه العبارة، واللواء «الفريق» عبد المنعم رياض من ورائه يتمتم في أذني: «أي نعم، إذا أمكن تحقيق الوحدة العسكرية»!!

قلت: «وفي صوت مسموع، إن كلمة «إذا» تقرأ «إذا» طرداً وعكساً تظل على حالها إذا قرئت من البداية أو النهاية على السواء»!!

فنظر إليَّ الملوك والرؤساء بين غاضب وعاتب وقرع الأمير (الملك) فيصل بمطرقته قرعاً خفيفاً ليقول: «نظام.نظام.. ننتقل إلى بحث تقرير الهيئة الفنية لتحويل الروافد».

ثم انتقل المؤتمر إلى بحث تقرير هيئة الروافد، وكان في مجموعه تقريراً فنياً عن مشروع التحويل وما يقتضي له من أقنية وسدود وجسور، بالإضافة إلى المخصّصات المالية التي يتطلّبها إنجاز المشروع في مختلف مراحله.

والواقع أنني لم أكن متحمّساً في الأصل لتحويل مشروع الروافد. أولاً، لأنه لا يقطع الماء بصورة كلّية عن إسرائيل.

وثانياً، لأنه لا يبعد كثيراً عن المشروع المعروف بمشروع جونسون الخبير الأمريكي ورفضتْه الدول العربية قبل سنوات، ثم جئنا اليوم في عام ١٩٦٤ ننفّذه بأموال عربية.

وثالثاً، لأن النفقات الضخمة التي يكلّفها المشروع العربي ستذهب حتماً سدىً، لأنه كائنة ما كانت قوتنا العسكرية، فإن إسرائيل قادرة على تدميره بأكثر من طريقة واحدة. ومن الأجدر أن ننفق هذه الأموال في زيادة تسليح الجيوش العربية.

ولكن من الذي يجرؤ أن يناقش في مؤتمرات القمة، فالملوك والرؤساء يجامل بعضهم بعضاً، ويخشى بعضهم بعضاً. والويل لمن تنهال عليه أجهزة الأعلام بأنه مخالف لمشروع تحويل الروافد العربي!!

وعاد البحث إلى رد الفعل العسكري الإسرائيلي في سياق الكلام عن مشروع تحويل الروافد، فأعلن الرئيس الجزائري أحمد بن بللا أنه مستعد أن يضع الجيش الجزائري تحت تصرّف القيادة العربية الموحدة لمواجهة أي تحرّك إسرائيلي، وجاراه في هذا الإعلان الباهي الأدغم بالنسبة إلى جيش تونس، والأمير عبد الله بالنسبة إلى الجيش المغربي، فالتفت إليَّ الفريق عامر ليقول ساخراً: «ليه ما نفتحْشْ مكاتب تطوّع كمان»!

قلت: «عاطفة كريمة وفكرة عقيمة. ألا تقول لهم، إن حربنا اليوم ليست كالحروب الصليبية تمتدّ عشرات السنين وتتوالى خلالها النجدات، نحن في زمن الحرب الخاطفة. إن جيوش الجزائر وتونس والمغرب يجب أن تكون في الميدان قبل المعركة بزمان، ولا فائدة منها أن تزحف عبر الشمال الأفريقي يوم المعركة.. و... و..».

قال علي علي عامر: «أقول ماذا، هم الرؤساء مش فاهمين معنى الكلام ده»؟

وجاء أخيراً موضوع الكيان الفلسطيني وعالجتْه تقارير ثلاثة: الأول، تقرير الأمين العام ولا يتعدّى سرداً موجزاً لاجتماع المجلس الوطني في القدس من دون ان يقترح شيئاً أو يوصي بشيء، فهذه تقاليد «الحياد» في الجامعة العربية. والثاني، تقرير القيادة العربية الموجودة، وهو يترك تحديد النشاط العسكري الفلسطيني للدول العربية المعنية، والقيادة العربية هيئة رسمية تستمدّ اختصاصها من الدول العربية وهي حريصة أن تبتعد عن عمل عسكري نابع من «الشعب» ويمتدّ نشاطه إلى أراضي الدول العربية. والثالث، تقرير منظّمة التحرير الفلسطينية. وهنا طلبتُ الكلمة. وأصبح مؤتمر القمة من هذه اللحظة مؤتمراً للقضية الفلسطينية.

وتصدّى الرئيس عبد الناصر إلى مقاطعتي في بداية حديثي، وهو يبدي رغبته في أن أكون موجزاً في حديثي، فسررْت لهذه البادرة قلت: «إنني سأتكلّم بقدر ما تتطلّبه القضية من وقت دون اعتبار للإيجاز ولا خشية من الإسهاب».. وكانت

واحدة من المناسبات الكثيرة، التي سأعرض لها في مذكراتي، لأثبت فيها استقلال منظمة التحرير الفلسطينية وعدم تبعيّتها للقاهرة أو لغير القاهرة. ولقد اعتبرتُ ملاحظة الرئيس عبد الناصر أنها واحدة من المحاولات الكثيرة التي كان يريد أن يثبت من ورائها أن المنظمة شيء والقاهرة شيء آخر. وألقى الأمير (الملك) فيصل كوفيّته خلف كتفه وهو على منصّة الرئاسة وقال: «الكلام الآن للأخ أحمد، تفضّلْ يا أخ أحمد».

وأدركتُ في مثل وميض البرق أن الأمير (الملك) فيصل لا يريد أن يدعوني «رئيس منظمة التحرير الفلسطينية»، واستعاض عن ذلك بتعبير كريم «الأخ أحمد»، فلم أدَعْ هذه البادرة تمرّ دون أن أجعلها مطلع حديثي. وقلت «إنه ليسعدني أن يدعوني سمو الأمير بالأخ أحمد، فالمؤمنون إخوة. لكن هذا الأخ هو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية هو الأخ، وأرجو أن يكون هذا التعبير الجميل الذي أطلقه سمو الأمير فاتحة كريمة تصبح منظمة التحرير الفلسطينية من خلالها أخاً لسموه».

ورحت أداعب الألفاظ وألاعب هذه المعاني حتى اضطر الأمير فيصل أن يبتسم، وتبتسم معه كل قسمات وجهه، وقلّ أن يفعل ذلك مختاراً.

ثم مضيتُ في حديثي معرباً عن سروري بأنني في هذا الاجتماع التاريخي في الإسكندرية «يسعدني أن يكون لي شرف المشاركة بوصفي رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، مختاراً من قبل الشعب الفلسطيني، بعد أن كنت في مطلع العام مشاركاً في مؤتمر القاهرة مختاراً من قبل الملوك والرؤساء».

وانتقلتُ، بعد أن شرحتُ المراحل التي مرّ فيها إنشاء الكيان الفلسطيني، أخاطب الملوك والرؤساء في «أن الحقيقة الأولى التي استلهمتُها في تنفيذ المهمة التي عهدتم بها إليَّ، هي أن الكيان الفلسطيني كيان لفلسطين وكيان لشعب فلسطين، يبنيه بنفسه، بعقله وإرادته. وأن دوركم أنتم بالنسبة إلى الكيان، لا بناؤه، ولا إنشاؤه بل التيسير والتسهيل قبل قيامه، والتأييد والتعضيد بعد قيامه. وأن الحقيقة الثانية أنه يجب أن تكون للكيان الفلسطيني شخصيّة مستقلة، متعاونة غير منعزلة، تشترك مع الأمة العربية في آمالها وآلامها وفي إرادتها الهادفة المصمّمة على الوحدة العربية الشاملة».

ولقد أحسستُ وأنا أؤكّد هاتين الحقيقتين أن الملوك والرؤساء يستمعون إلى صوت لا عهد لهم به، فالفلسطينيون مشرّدون ومشتّتون، وانهدمت شخصيتهم الوطنية بعد نكبة ١٩٤٨. ولعلّ بعضهم كان يتساءل في قرارة نفسه «ومن أين

تكون للكيان الفلسطيني شخصية مستقلّة وإرادة حرة، وهم يعيشون في مختلف تجمّعاتهم تحت ظروف مختلفة تحدّ من تحركهم وإرادتهم، وفي بعض الأحوال تأخذ بخناقهم؟».

وانتقلت بعد ذلك إلى تحديد هدفنا القومي في تحرير التراب الفلسطيني وإقامة دولة عربية في فلسطين، وأن هذا الهدف هو المبرر الوحيد لمشاركتنا في مؤتمر القمة، ونظر الملوك والرؤساء بعضهم إلى بعض وأنا أوجه إليهم حديثي بكل صراحة وصرامة، وأنا أقول: «إن الغاية التي نحن معكم من أجلها، هي أن تتيسر لنا جميع الأسباب المادية والمعنوية التي تمكن شعب فلسطين من القيام بدوره التاريخي الكبير في تحرير وطنه، وتحقيقاً لهذه الغاية المقدّسة وضعت منظمة التحرير الفلسطينية خطة عامة مفصّلة تتناول مختلف جوانب القضية الفلسطينية، العسكرية والسياسية والتنظيمية والمالية والإعلامية». وشخص الملوك والرؤساء أبصارهم وأنا أرفع صوتي قائلاً: «فمن الناحية العسكرية نحن نؤكد ضرورة المبادرة لإنشاء قوات فلسطينية مسلّحة ومعسكرات تدريبية شعبية، وتعزيز الأوضاع العسكرية في القرى الأمامية من فلسطين».

وازداد الملوك والرؤساء تحديقاً بهذا الفلسطيني الذي جاء يقول لهم بلهجة حازمة: «ولقد ذكرنا الناحية العسكرية أولاً: لأن مقترحاتنا بشأنها تؤلف الحد الأدنى لمطالب الشعب الفلسطيني الذي يستمع إليكم، ذلك لأن منظمة التحرير الفلسطينية من دون إنجاز لهذه المطالب تصبح جسداً من دون روح، وبالتالي يصبح وجود منظمة التحرير واستمرارها أمراً لا مبرر له..».

لقد كان هذا الكلام إنذاراً.. وكنت قد عزمت في نفسي أن أنسحب من المؤتمر، وأن أكاشف الشعب الفلسطيني بحقائق الموقف، إذا لم يستجب الملوك والرؤساء لمطالبنا العسكرية. لقد كنت أؤمن، ومعي الشعب الفلسطيني بأسره، أن منظمة التحرير الفلسطينية من دون نشاط عسكري «جسد من غير روح ولا داعي لوجودها واستمرارها».

ولم أكتف بالحديث عن قضية فلسطين في إطارها الفلسطيني، بل تجاوزت ذلك إلى الإطار العربي في أوسع حدوده. لقد أصبحت قضية فلسطين قضية قومية عربية بخاصة بعد كارثة ١٩٤٨، ووجب أن تكون القضية «اليومية» لكل عربي من المئة مليون عربي الذين يعيشون في الوطن العربي. وفي هذا السياق وضعت أمام الملوك والرؤساء خمس بديهيات أساسية:

الأولى: «إن شعب فلسطين ومعه الأمة العربية مصمّم تصميماً قاطعاً، لا

ينثني، على تحرير وطنه. وهو يعلن بين يديكم استعداده لبذل كل طاقاته الروحية والمادية تحقيقاً لهذه الغاية المقدسة».

الثانية: «إنها كائنة ما كانت احتمالات الخطة العربية لتحرير فلسطين، وقد استمعتُم إلى احتمالات متعدّدة من فم القائد العربي الفريق علي عامر، فإنه لا غنى عن شعب فلسطين في تحرير فلسطين. ولا بد من إعداد شعب فلسطين عسكرياً وروحياً».

الثالثة: «إن احتلال فلسطين على أيدي إسرائيل ومن ورائها الاستعمار، فضلاً عما فيه من أخطار مصيرية على الأمة العربية بأسرها. هو أكبر عار لحق الأمة العربية كلها منذ بدأ الإنسان الأول يستشعر معنى العار. لذا، فإن تحرير فلسطين تبعة قومية كبرى تقع على عاتق الأمة العربية بأسرها حكومات وشعوباً، ونحن مستعدّون أن نكون طليعتها».

الرابعة: «إن قضية فلسطين، من غير انتقاص للجهود السياسية والدعائية، ليس لها في نظرنا حل سياسي أو دبلوماسي لا داخل الأمم المتحدة ولا خارجها. وإنه لن يتمّ تحرير فلسطين إلا بالكفاح المسلح، وعلى أرض فلسطين..».

الخامسة: «إن كارثة فلسطين يجب أن تكون عامل وحدة بين الدول العربية، وحدة حقيقية عميقة الجذور، وحدة وجدان وضمير، لا وحدة شكل ومظهر. وتفرض هذه الوحدة عليكم أنتم المجتمعون حول هذه المائدة أن تبادروا إلى تعبئة طاقات الأمة العربية ومواردها المادية والروحية في معركة التحرير، وأن تخرجوا بقضية فلسطين بقرار إجماعي، فتسمو عن الاعتبارات الشكليّة والشخصية، كائنة ما كانت[٢]..».

واستمع الملوك والرؤساء إلى هذه البديهيات الخمس، وأنا أحدّثهم عنها، بلهجة النضال والكفاح، وكأنما أصبح «شخص» القضية الفلسطينية ملكاً فوق الملوك ورئيساً فوق الرؤساء. وتجاوزت «صلاحيتي» الفلسطينية ورحت أتحدّث باسم الأمة بأسرها وقلت «إن هذه البديهيات الأساسية تعبر تعبيراً عميقاً عن إرادة الأمة العربية جمعاء. وأنا لا أتحدّث عن إرادتها، عبثاً أو لهواً أو عفواً، وإنما أتحدث حديث العارف الواثق. لقد مارست بنفسي الشعار الحبيب من المحيط إلى الخليج، ما مارسته بالنداء والهتاف، ولكن مارسته بالتجوال والتطواف في الوطن العربي

(٢) انظر بصدد الوحدة العربية: أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذه المجموعة.

كله، خلال ثمانية أشهر قضيتها في الوطن العربي. وكان آخر مطافي الإسكندرية، ثغرنا العربي الكبير. وفي هذه اللحظة التاريخية تعيش معكم الأمة العربية، ويعيش معكم شعب فلسطين، وأجهزة الراديو في مضجعهم وتحت وسائدهم في الحواضر والبوادي والمخيّمات وفي جحيم فلسطين المحتلة، وهم يستمعون إليكم بلهفة إلى حمل السلاح وشوق الكفاح».

ثم أخذت بعد ذلك أشرح خطّة منظمة التحرير، بخاصة بالنسبة إلى الشؤون العسكرية مشدّداً على إنشاء «كتائب نظامية وفدائية» وأن الكيان الفلسطيني معناه عند الشعب الفلسطيني «السلاح والكفاح» وأن هذا الكيان «غير جدير بثقة الشعب الفلسطيني والرأي العام العربي إذا لم تكن الناحية العسكرية الفلسطينية بارزة فيه بروزاً قوياً. .».

ولقد كنت أتمنّى، وأنا أدلي بحديثي إلى الملوك والرؤساء أن يكون ورائي الجدليون الفلسطينيون ليروا أنني كنت أحمل ما هو أشدّ من آرائهم التي يتهامسون بها في مخادعهم، وأضعها أمام الملوك والرؤساء وجهاً لوجه.

وجال رئيس المؤتمر الأمير (الملك) فيصل بعينيه في وجوه الملوك والرؤساء ليرى من يريد أن يتكلم، ويناقش، ويستوضح. وتوقّف لحظة أمام وجوه الوفد السوري، اللواء أمين الحافظ ورفاقه. كان يستدرجهم إلى الحديث. وهو يعلم المواقف السلبية التي يقفها الوفد السوري من الكيان الفلسطيني. ولكن الوفد السوري قد لزم الصمت وكأنما لسان حاله يصيح في الأمير (الملك) فيصل: «ولماذا أنت لا تتكلّم؟ فالرجعية أولى أن تبدأ الحديث في هذا المقام من «الثورية». وكان الوفد السوري على حق في «فراسته» هذه، إذ إن الأمير فيصل لم يرسل أحداً من وزرائه إلى بيت المقدس للاشتراك في المجلس الوطني، كما رفض أن يستقبل «الشقيري» مرّات ومرّات. وفي اجتماع وزراء الخارجية التحضيري الذي انعقد قبيل مؤتمر الملوك والرؤساء، «تحفّظ» الوفد السعودي على قرار «بشكر أحمد الشقيري على جهوده الموفقة بإنشاء الكيان الفلسطيني وقيام منظمة التحرير الفلسطينية». ولِمَ لا يتكلّم الأمير (الملك) فيصل، إذاً؟

ولكن الأمير (الملك) فيصل «عاد» إليه وجهه، بعد أن جال به طويلاً على وجوه الملوك والرؤساء. ومدّ يده إلى ملف أمامه وفتحه وأخذ يقلب ما فيه من أوراق. وكان جلوسي على طرف المائدة، قريباً من كرسي الرئاسة، فرأيت العرائض الزنكوغرافية التي كان الحاج أمين الحسيني قد أعدّها للتنديد بالشقيري وبأسلوبه في إنشاء الكيان الفلسطيني.

وأخذ الأمير (الملك) فيصل يقول «إن المملكة تريد إنشاء كيان فلسطيني سليم، قوي، يمثل الشعب الفلسطيني، بطريقة ديمقراطية وبطريقة انتخابية. ولقد تلقيت عرائض كثيرة يحتجّ فيها «زعماء» فلسطين على قيام منظمة التحرير الفلسطينية، ويؤكّدون أن المجلس الوطني الذي انعقد في مدينة القدس لا يمثّل الشعب الفلسطيني. وعلى كل حال فإن الأخ أحمد قد تجاوز صلاحيته التي فوّضها به مؤتمر القمة في القاهرة. وإنّكم يا أصحاب الجلالة والفخامة والسمو قد عهدتم إلى أحمد الشقيري بدرس الوسائل لإنشاء الكيان الفلسطيني ولم تعهدوا إليه أن ينشئ الكيان الفلسطيني».

وراح الأمير (الملك) فيصل يسهب في الحديث عن هذه الجوانب القانونية، مع أني عرفت الأمير فيصل خلال خمس وعشرين سنة مضت موجزاً في حديثه إلى درجة الصمت. وأنه باستثناء كلمة الافتتاح القصيرة التي ألقاها في بداية المؤتمر لم يشترك في الأبحاث التي دارت في المؤتمر، لا بشأن تقرير القيادة العربية الموحدة، ولا بشأن تحويل الروافد، ولا بشأن ما هو أهم من كل شيء: تحرير فلسطين. ولم يتكلّم إلا حينما طرح موضوع إنشاء الكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية؛ هذه المنظمة التي أنشأها أحمد الشقيري بالذات.

ورفعت يدي أستأذن بالكلام لأردّ على الأمير (الملك) فيصل. والرئيس العراقي عبد السلام عارف يشير بيديه وحاجبيه أن يكون ردّي هادئاً. وبدأت جوابي بمقدّمة ساخرة هادئة قلت فيها: «كنت أتوقّع من سمو الأمير فيصل وهو الذي رافق القضية الفلسطينية منذ أعوام طويلة سواء في مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ حينما كان رئيساً للوفد السعودي، أو في الأمم المتحدة في دورات متعددة، أن يكون حديثه غير ما سمعت، بخاصة أن سموّه من أكثر قادة العرب معرفة بظروف الشعب الفلسطيني. ولم أكن أظن أنه يعتمد على عرائض الحاج أمين التي ابتاع تواقيعها بأموال «عربية» كان أولى أن تنفق على النضال بدلاً من أن تنفق على تمزيق الصفوف وتصديع الكيان الفلسطيني. وإذا كان لدى سموه ملف يحتوي توقيعات بعض الفلسطينيين، فإن لديَّ ملفاً يحتوي توقيعات بعض السعوديين. وإن أي ملك أو رئيس حول هذه المائدة له ناقدون وحاقدون في بلده. بعضهم تحت الأرض وبعضهم فوق الأرض. . ولكن ذلك لا ينتقص من «صلاحية» أي وفد عربي للاشتراك في هذا المؤتمر».

كنت أقول هذا، وأنا أمدّ يدي إلى ملف أمامي وفيه برقية من «آل الشوّاف» السعوديّين صادرة من دمشق، يشجبون فيها نظام الحكم في المملكة العربية السعودية. وبدأت أقول: «إن عندي كذلك برقيات من نوع العرائض التي أمام سمو الأمير

فيصل». والتفت إليَّ أمير الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح ليقول «لا داعي لذلك وأرجو ألا تخرج عن الموضوع».

قلتُ: «أنت تذكر يا سمو الأمير (الكويت) أنني زرتُكم في الكويت، وكذلك فقد زرت أصحاب الجلالة والفخامة، جميعاً في عواصمهم، باستثناء المملكة العربية السعودية، فإن الأمير فيصل قد رفض أن يأذن لي بزيارته.. لقد شرحتُ لكم جميعاً مشروع الميثاق القومي الفلسطيني والطريقة التي سأتّبعها في إنشاء الكيان الفلسطيني. وصدرتْ عن وزرائكم بلاغات رسمية تعلن تأييدها، ثم اشتركت وفودكم بعد ذلك في المجلس الوطني الفلسطيني في القدس. وشاهدوا بأم أعينهم حماسة الشعب الفلسطيني لقيام منظمة التحرير الفلسطينية.. ولم أجد في جميع هذه المراحل من يقول لي منكم إنني تجاوزت صلاحيّتي وإنني خالفت قراركم بإنشاء الكيان الفلسطيني».

وتوجّهت بعد ذلك بحديثي إلى الأمير (الملك) فيصل قائلاً «لقد كان المجلس الوطني الفلسطيني في القدس، يا سمو الأمير، أشبه بمؤتمر قمة لقضية فلسطين لم تشهد فلسطين له مثيلاً حتى الآن.. ولم يكن ينقصه إلا حضور أحد وزرائكم.. ولقد اشترك فيه ممثلو الشعب الفلسطيني من كل أرجاء الوطن العربي باستثناء الفلسطينيين المقيمين بالمملكة العربية السعودية. وإنني مع احترامي للمجالس البرلمانية أو الوطنية في الدول العربية فإن المجلس الوطني الفلسطيني لم يكن أبداً أقل مستوى من المجالس العربية. وتعالوا نفاضل بينهم، رجلاً برجل وامرأة بامرأة..».

وضحك الملوك والرؤساء، وضحك الأمير (الملك) فيصل كارهاً. وساد الجلسة جو من الهدوء والمرح. ورحتُ أواصل حديثي قائلاً «إني أعرف قراركم الذي أصدرتموه في القاهرة بشأن الكيان الفلسطيني. ولكني أعرف كذلك أنني لستُ موظّفاً عند مؤتمرات القمة. لقد أنشأتُ الكيان الفلسطيني مع الشعب الفلسطيني، وفق الظروف التي يعيشها الشعب الفلسطيني.. إن الكيان الفلسطيني هو لشعب فلسطين. وشعب فلسطين وحده هو الذي يبني كيانه تماماً كما بنتْ شعوبكم كياناتكم.. إن الكيان الفلسطيني لا يبنيه الملوك والرؤساء والاَّ أصبح كيان الملوك والرؤساء»..

واسترسلت طويلاً في هذه «المرافعة» القومية عن حق الشعب الفلسطيني. وتوجّهتُ بعد ذلك بكل جوارحي إلى الأمير (الملك) فيصل أحاوره «وما هذه الطريق الديمقراطية، الطريقة الانتخابية، التي يطلب من الشعب الفلسطيني أن يسير عليها لإنشاء كيانه؟ أريد أن أؤكّد لكم أن أعضاء المجلس الوطني الذين حضروا المؤتمر في

القدس يمثّلون الشعب أصدق تمثيل. . صحيح أن أصحاب التوقيعات المغمورة التي في ملفكم لم يحضروا المجلس الوطني. . ولكن الذين حضروه هم النواب والوزراء ورؤساء البلديات والمجالس المحلية والغرف التجارية ونقابات الأطباء والمحامين والمهندسين والعمال والطلاب والنساء، وكل هؤلاء منتخبون من قبل الشعب. . وإنني لأتساءل: لماذا تطلبون من منظمة التحرير، ما لا تطلبونه من عدد من الحكومات العربية، حيث لا انتخابات ولا مجالس ولا. . ولا. .؟».

وتكهرب جو الجلسة. وتطلع إليَّ الرئيس اللبناني شارل حلو مناشداً الهدوء والسكينة. وتساءلت: «ألأننا شعب من اللاجئين تنكرون علينا حقّنا في أن ننشئ كياننا كما نريد إنشاءه؟ لقد أنشأتمْ كياناتكم كما أردتمْ ولم يتدخّل أحد في شؤونكم. . ولماذا هذا التدخّل في شؤوننا؟ لقد رفضنا الانتداب والوصاية منذ زمان طويل. . وهل تفرض علينا الوصاية الآن لأننا أصبحنا لاجئين مشرّدين في الوطن العربي؟ إنني أحسب أن «للاجئ» حقوقاً ورعاية أكثر من المواطن الآمن في وطنه. وليس عاراً أن يكون المرء لاجئاً، ولكن العار كل العار أن ينتقص من حقوقه وسيادته. . ألم يكن عبد العزيز آل سعود لاجئاً في الكويت عند آل الصباح، ثم نهض نهضته المعروفة وأصبح سيّد الجزيرة؟».

وأدرك المؤتمرون أن نقطة الانفجار قد أصبحتْ في ثنايا حديثي. . ولا بد من «مقاطعتي» حتى لا ينفرط عقد المؤتمر وهو محمّل بأحمال من الخلافات العربية، وكل منها كافٍ لتصفية المؤتمر وتصفية وجوده. وتدخّل الرئيس الجزائري أحمد بن بللا وقال: «أرجو أن يسمح لي الأخ أحمد بأن أشرح الموضوع. نحن لنا تجربة قاسية مررْنا بها، أرجو من سمو الأمير فيصل أن يقنع بها. . إن الشعب الفلسطيني يعيش في ظروف أصعب من الظروف التي عاشها الشعب الجزائري. وفي بداية الحركة الجزائرية لم نستطع أن نجمع كل الناس. . كان عندنا خصوم ومعارضون. . ولكن الحركة بدأت واستمرت. . ثم انتصرنا. .ولا يزال عندنا خصوم ومعارضون. المهم أن تكون منظمة التحرير قادرة على جمع أكبر عدد ممكن من الشعب الفلسطيني وهذا يكفي في البداية. . الأخ بوتفليقة وزير الخارجية حضر المجلس الوطني في القدس في مايو الفائت، وعاد إلينا بتقرير يقول فيه إن الاجتماع كان ناجحاً للغاية، وإن المؤتمر انتخب الشقيري بالإجماع، وإن منظمة التحرير تمثل الشعب الفلسطيني. وإني أسأل سمو الأمير فيصل: ماذا نقول للشعب الفلسطيني وللأمة العربية إذا نحن لم نوافق على قيام منظمة التحرير الفلسطينية؟ وهل نحن الملوك والرؤساء نستطيع أن نقوم بانتخابات بين الشعب الفلسطيني؟ وهل تبدأ الحركات الوطنية بطريقة الانتخاب؟».

والتفت الرئيس الجزائري إلى الأمير (الملك) فيصل وهو يقول: «أعتقد يا سمو الرئيس أننا موافقون على نقطة واحدة وهي أن منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني. ولا داعي أن نقف طويلاً عند الأمور الإجرائية والشكلية. وإنني أقترح أن ننتقل إلى بحث مطالب منظمة التحرير واحداً واحداً». . .

وسكت الأمير (الملك) فيصل، وهو يرى موافقة الملوك والرؤساء، وفيهم الوفد السوري على اقتراح الرئيس الجزائري.

وواصلتُ حديثي وأنا أحاول استرضاء الأمير (الملك) فيصل وقلتُ: «إني أشكر سمو الرئيس على موافقته. وإني مستعد أن أعود معه بالطائرة وأن أجلس بين ركبتيه كما كان يفعل في حضرة أخيه جلالة الملك سعود لأشرح له كل ما يتصل بالكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية». وضحك الحاضرون وقال الرئيس عبد الناصر: «خلاص، طلعنا برّه». يعني بذلك إنني تصافيت مع الأمير فيصل. قلت: «على العكس، إن القضية الفلسطينية تطالبكم جميعاً أن تكونوا «جوّه»».

وسكت الأمير فيصل في موافقة صامتة، لأنه لم يرَ أحداً يشاركه في رأيه. ولم يشأ أن ينفرد بموقف ظاهر ضدّ منظمة التحرر الفلسطينية وقد تعلّقت بها آمال الشعب الفلسطيني. وآثر أن يترك «للظروف» العربية في المستقبل أن تهيّئ له فرصة أخرى. والعلاقات العربية «غنية» بالمفاجآت والملابسات.

وواصل الملوك والرؤساء بعد ذلك دراسة مطالب المنظمة العسكرية والمالية، فشرحتُ اقتراحنا بإنشاء قوات فلسطينية مسلحة. وكانت فرصة الوفد السوري حيث انبرى اللواء أمين الحافظ يؤكّد ضرورة إنشاء «جيش» لا مجرّد «قوات مسلحة»، وأنه يجب أن «يعطى الفلسطينيون أرضهم، وينشئوا عليها الجيش الفلسطيني ويستعدّوا لتحرير وطنهم». ولقد كان اللواء حافظ يتحدّث بحماس وعصبية. ولكنه كان في الواقع يتحدّث عن إيمان وإخلاص. ولم يرُقْ هذا الحديث للملك حسين إذ إنه لم يوافقْ على أن يكون لمنظمة التحرير جيش ولا أن تكون لها «أرض» تمارس عليها ومنها النضال القومي. واندفع الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف، منافساً حماسة الرئيس السوري، مؤيّداً ضرورة إنشاء جيش فلسطين يساهم مع الجيوش العربية في تحرير فلسطين. وتطلع الملك حسين إلى الرئيس عبد الناصر ليجد له مخرجاً من هذه «الورطة» التي هبطت على المؤتمر، فقال الرئيس عبد الناصر: «نحن موافقون على إنشاء جيش التحرير، ونضع سيناء وقطاع غزة تحت تصرف المنظمة لإنشاء الجيش». وقال الرئيس السوري اللواء أمين

الحافظ: «ونحن نوافق على إنشاء الجيش الفلسطيني على الأراضي السورية». ووثب الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف وصاح: «ونحن نضع العراق تحت تصرّف جيش التحرير». وقلت هنا للرئيس: «بل نحن نريد منطقة «H4» وهي منطقة قريبة من الأردن». لقد أردت بهذا أن استدرج الملك حسين «ليتبرّع» بأرض فلسطين لتكون تحت تصرف منظمة فلسطين وجيش فلسطين. ولكن الملك حسين قال: «أنتم تعرفون ما تثيره هذه المواضيع من حساسيّة في «الأسرة الأردنية، بخاصّة لدى الجيش الأردني». وهي العبارة المألوفة التي يعتصم الملك حسين في «خنادقها» كلما أراد أن يتّخذ موقفاً سلبياً من القضية الفلسطينية.

وهمس الدكتور محمود فوزي (وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة) ـ واحدة من همساته ـ في أذن الرئيس عبد الناصر. قال بعدها الرئيس: «أظن أن الأخ أحمد يتّفق معنا أن المنظمة يجب أن تقرّر أولاً إنشاء جيش التحرير الفلسطيني ثم نعتمد هذا القرار». وأدركتُ أن فوزي كعادته قد أراد أن يضفي على الموضوع «الكسوة» القانونية الدستورية. والتفتّ إلى أحد أعضاء المنظمة خلفي وقلتُ له: «إن القرار على طرف لساني وسأتلوه شفوياً وما عليك إلا أن تكتب». وأعلنتُ على الفور: «قرّرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قياماً بواجبها الوطني المقدس في تحرير فلسطين إنشاء جيش التحرير الفلسطيني ليؤدي دوره الطليعي، إلى جانب الجيوش العربية في تحرير فلسطين واسترداد الوطن السليب». وقال الرئيس العراقي: «نحن موافقون على هذا القرار، ولكن كلمة «الطليعي» غير ملائمة». وضحكتُ وقلت: «أنا أفهم لماذا يكره الرئيس العراقي لفظة «الطليعي» ولا مانع من حذفها، فالمهمّ أن يكون لنا دور «طليعي»، فضجّت القاعة بالضحك. ولم يكن الرئيس العراقي وحده هو الذي يكره هذا التعبير الذي ساد استعماله في الأدب الشيوعي سواء عند المقلّدين أو العريقين!!

ودار نقاش طويل بعد ذلك حول كيفية إنشاء جيش التحرير وعلاقته بالقيادة العامة ودوره في المعركة وتدريبه وتسليحه وتمويله وإدارته وكثير من التفاصيل الأخرى التي وجد الملك حسين من خلالها ملاذاً له يهرب فيها من إنشاء جيش التحرير على أرض الأردن وهي أرض فلسطين.

واشترك القائد العام علي عامر في المناقشة. وكان صادقاً أميناً مع اختصاصاته، حريصاً على علاقاته مع الدول العربية وهو مسؤول أمامها مباشرة. وكان من الطبيعي أن يتحدّث في الموضوع من ناحية «رسمية» لا من ناحية شعبية، فهو القائد العام للجيوش العربية، وليس قائد ثورة ولا قائد حرب شعبية.

فأعرب القائد العام أولاً، عن أن الأمر منوط بالدول العربية، فهي التي تقرّر هذا الموضوع سلباً أو إيجاباً. وأكد ثانياً، أنه لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن جيش فلسطيني قد يندفع إلى تصرّفات وتحركات لا تتّفق مع مسؤوليات الدول العربية أو خطط القيادة العامة.

واستراح الملك حسين لهذا الشرح الكلاسيكي الرسمي الذي طرحه القائد العام. وكان بداية لمنطق استراتيجي اعتمده الملك حسين طيلة السنوات الثلاث التالية، كلما اشتدّت عليه مطالب الشعب الفلسطيني العسكرية. وكان يفزع إلى الإذاعة الأردنية يتحدّث إلى «الأسرة الأردنية» بأنه ملتزم بخطط القائد علي عامر ولا يلتزم بغيرها. وستتحدث هذه المذكرات كيف أن الملك حسين تنكّر لمطالب القائد العام وتوصياته. وكيف راح يحاوره ويجادله بدلاً من أن يلتزم بآرائه.

وناقشت القائد العام رأيه في موضوع إنشاء الجيش الفلسطيني، ولكني لم أكن على أرض صلبة، بل إنني لم أكن على أية أرض. لقد كنت معلقاً في الهواء، إذ كان على هذا الجيش أن ينشأ على أرض عربية تقع تحت سيادة الدول العربية؛ فقطاع غزة وإن كان أرضاً فلسطينية فهو تحت السيادة الفعلية للجمهورية العربية المتحدة. ومن الناحية المالية، تعتمد نفقات إنشاء الجيش وإدامته على ميزانيات الدول العربية بشكل كامل. وفوق هذا وذاك فإن العمل الفلسطيني كله، السياسي والعسكري على السواء، هو جزء من خطة عربية عامة، ولا يمكن أن ينفرد عنها. وهكذا كانت الأمور في ظلال مؤتمرات القمة.

لذلك، كان طبيعياً، أن يكون الجيش الفلسطيني واقعاً تحت السيادة العربية منذ اللحظة الأولى التي يخرج فيها إلى حيّز الوجود. لقد حاولت كل جهدي أن يكون جيش فلسطين تابعاً لشعب فلسطين، لمنظمة التحرير الفلسطينية، شأنه في ذلك شأن أي جيش عربي تابع لحكومته.

صحيح أني لم أكن أطمح أن يكون هذا الجيش مستقلاّ عن الدول العربية استقلالاً ناجزاً فنحرّكه إلى المعركة كما نفكّر ونخطّط. ولكنني كنت أحاول أن أجعل لجيش التحرير وجوداً ذاتياً منذ البداية.

ولم أفلح في تحقيق هذا الهدف بصورة كاملة في مؤتمر الإسكندرية، ولا في المؤتمرات التالية ولا في الممارسة الفعلية، لأسباب سأعرض لها، وكان في رأسها أنه لم يكن أمامي إلا خيار واحد من اثنين: إما جيش تابع أو لا جيش على الإطلاق. ولقد اخترت أن يكون لنا جيش تابع. ومن يدري، لعلّنا نستطيع أن نتحرّر في يوم من الأيام. وكان ذلك حسابي وتقديري. لقد جاءت هزيمة حزيران/

يونيو عام ١٩٦٧ فأثبتتْ ما كنت أحسب وأقدر، وما كنت أفكّر وأدبر[٣].

وعلى هذا، وافق الملوك والرؤساء على إنشاء جيش التحرير الفلسطيني شرط أن «يخضع في العمليات الحربية للقيادة العربية الموحّدة، أو القيادة المحلية حسبما ترى القيادة العامة ذلك».

وكل المكاسب المحدّدة التي استطعت تسجيلها على «الورق» بين قرارات الملوك والرؤساء بالنسبة إلى قوات جيش التحرير أتت كما يلي:

١ ـ تختار المنظمة أفراد وضباط هذه القوات من أبناء فلسطين حيثما وجدوا.

٢ ـ يكون تشكيل هذه القوات وتسليحها وتدريبها وفق خطة تضعها القيادة العامة الموحدة بمشاركة منظمة التحرير الفلسطينية.

٣ ـ يكون مقرّ هذه القوات على أرض تختارها المنظمة بموافقة الدولة المعنية.

وانتقلنا بعد ذلك إلى بحث نفقات إنشاء الجيش، ولم أستطع أن أتكلّم في هذا الموضوع كثيراً أو قليلاً، فقد نشأت في نفسي عقدة بالنسبة إلى الأمور المالية لقضية فلسطين منذ أن كان الحاج أمين الحسيني تتجمّع بين يديه الأموال العامة، فلا يدري أحد بشأنها شيئاً.

وخيّم على المؤتمر جوّ من الصمت البارد، فالسباق على الكلام من شيمة المؤتمرات العربية. ولكن حين يُطلُّ «المال» برأسه، يكون السباق على الصمت لا على الكلام. ومضت برهة خشيتُ معها أن يكون قرار إنشاء الجيش قراراً إنشائياً، من دون مال. ولكن الرئيس العراقي قطع عقدة الأزمة وعقدة الصمت، وأعلن أنه يتبرع بمليون دينار. وأتى إعلانه هذا كقذيفة وقعت شظاياها في وجه الموسرين من الملوك. وهبَّ أمير دولة الكويت وتبرّع بمليون دينار. وانطلق الأمير (الملك) فيصل وراءهما ليعلن تبرّعه بمبلغ مليون دينار. ولحق الوفد الليبي بالقافلة فتبرّع بنصف مليون دينار. وهكذا، وفي أقل من ثلاث دقائق ونصف، تبرّع أربعة من قادة العرب بمبلغ ثلاثة ملايين دينار ونصف. وأفلحت قذيفة الرئيس العراقي مع الموسرين. أما المعسرين فلم يتبرّعوا بشيء. إلا من تبرّع منهم «بالأرض» لتكون مقرّاً لجيش التحرير. وهما الجمهوريّتان العربيتان في القاهرة ودمشق.

وأراد الرئيس العراقي أن يقوم بجولة ثانية، فألقى قنبلة ثانية، فأعلن تبرّعه بمليون دينار دفعة ثانية، فاندفع وراءه أمير الكويت بمليون دينار. ووقف التبرّع

(٣) سيأتي ذلك في كتاب لاحق تحت الإعداد (كذا ورد في الأصل).

عند هذا الحد، ليصبح في مجموعه خمسة ملايين دينار ونصف.

ومنذ أن رافقت العمل الفلسطيني والعربي، لم تنتزع القضية الفلسطينية مثل هذا المبلغ «الكبير». لقد أصبح العرب في عام ١٩٦٤ أغنى مما كانوا عليه في الماضي، وأصبحت القضية الفلسطينية أعمق أثراً لدى الأمة العربية. ولكن السبب المباشر هو ظاهرة معيّنة في «الأريحية» العربية، إذ وضع الرئيس العراقي «الموسرين» من قادة العرب أمام «الكرم» العربي وجهاً لوجه. ولست أدري ما كان يمكن أن يقرّره الملوك والرؤساء من أموال لجيش التحرير الفلسطيني لو لم يفتتح الرئيس العراقي باب التبرّع.

وقرّر المؤتمر بعد ذلك تخصيص مبلغ مليون دينار للميزانية المدنية، لمنظمة التحرير لتمكينها من القيام بنشاطها السياسي والإعلامي والتنظيمي، تدفعه الدول العربية بموجب أنصبتها في ميزانية الجامعة العربية . .

وفي هذا الجو المالي «الحارّ»، طرحت المشروع الذي كنت أعددته بشأن إنشاء «المؤسسة المالية لتحرير فلسطين»، وكنت متأثّراً في هذا المشروع بدراستي لطرق الجباية الشعبية التي تتبعها الحركة الصهيونية في تمويل مشروعاتها المتعددة في إسرائيل.

قلت للملوك والرؤساء، إن أسلوب «التبرّعات» لا يمكن أن يموّل معركة التحرير، بخاصة أن «التبرّعات «تؤلف بنداً صغيراً في ميزانية العدو . . وأنه آن الأوان أن نضع خطة «تمويلية» ثابتة تقوم على أساس الجباية الشعبية بحيث يشترك كل مواطن من المئة مليون عربي في المعركة بماله، بالإضافة إلى مشاركته العاطفية. وأوضحتُ أن حصيلة الجباية الشعبية كما قدّرتها في المشروع المقترح تبلغ مئة مليون دينار سنوياً، يوضع نصفها تحت تصرف القيادة العربية لتغطي نفقات الخطة العربية العامة، ويقسم الباقي بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وبالنسبة إلى الأردن، فقد نصّبتُ نفسي محامياً عن الأردن، والملك حسين لا يدري ما يقول. ولقد قلتُ إن الأردن يجب أن يحرّر من المعونة الأمريكية التي تبلغ نصف ميزانيته حتى يستطيع أن يحرّر سياسته وجيشه، فوق ما تحمّله الأردن من أعباء ضخمة بسبب خطوطه الطويلة مع إسرائيل، وبسبب كثرة اللاجئين.

وبدلاً من أن يقف الملك حسين معي في هذا المطلب القومي الذي يجعل لعباراته المألوفة معنىً حقيقياً في دعم ما كان يعلنه عن «خط الدفاع عن دنيا العرب» وتوفير أسباب «العزّة والمنعة في معركة الحشد العربي»، قال وكأنّما يتصبب العرق من وجهه، خجلاً واستحياءً: «نشكر الأخ أحمد على اهتمامه

بالأردن، غير أننا نعتبر الموضوع ماسّاً بكرامتنا، ونحن لا نوافق عليه». . ولم يدر أن المستقبل الواضح الفاضح كان يخبّئ له عاراً أكبر يوم سقطت الضفة الغربية ومعها بيت المقدس، وسقطت معها الكرامات واستبيحت الحرمات، الطارف والتليد.

ولم أبالِ بمعارضة الملك حسين، ومضيتُ أشرح أن المؤسسة المالية التي أقترحها هي مؤسّسة عربية لا فلسطينية تخفّف الأعباء العربية المالية، وترفع من الميزانيات الرسمية حيث تشكّل التبرعات التي تفرضها ضرورات العمل العربي الموحد من أجل القضية الفلسطينية. ولكن مؤتمرات القمة كانت مؤتمرات «موسمية» في تفكيرها. وهكذا قرّر الملوك والرؤساء «أن يتولّى الأمين العام للجامعة العربية تأليف لجنة برئاسته لدراسة مشروع المؤسسة المالية المقدم من منظمة التحرير الفلسطينية، وتقديم تقرير عنه إلى المجلس في دورته المقبلة».

ولا بأس عليَّ أن أقف هنا قليلاً لأقول إن هذا المشروع كان قد قُدّم إلى الحكومات العربية لدراسته قبل انعقاد مؤتمر القمة بزمن كافٍ. وكان المفروض أن يكون قد دُرِس من قبل الجهات ذات الاختصاص. ولكن أحداً لم يقرأ، وأحداً لم يدرس. . وهذا هو حال الاجتماعات العربية، من اجتماعات الملوك والرؤساء إلى اجتماعات الوزراء والسفراء. .

وقارب المؤتمر على انتهاء أعماله وعهد إلى الأمانة العامة للجامعة العربية أن تضع القرارات بصيغتها النهائية، ومعها البيان المشترك.

وعقد الملوك والرؤساء جلستهم الختامية وأقرّوا الصيغة الكاملة لقراراتهم فكان منها:

ـ الهدف العربي القومي النهائي في المجال العسكري هو تحرير فلسطين من الاستعمار والصهيونية.

ـ استكمال القوة العربية لتحقيق هذا الهدف، وحشد جميع الطاقات العربية العسكرية والاقتصادية والسياسية.

ـ أن تضع القيادة العامة الموحدة خطة تفصيلية لتنفيذ هذا الهدف، وما يستلزمه من قوات ومعدات وأموال ووقت.

ـ أن يضع القائد العام، خلال عام، خطة تفصيلية لتحرير فلسطين من الاستعمار الصهيوني على أساس القوات المتوفّرة حالياً، وأن تعرض على المجلس في دورته المقبلة.

ـ أن يتمّ حشد القوات المخصّصة من العراق وسورية والسعودية لنجدة الأردن ولبنان، لتنطلق إلى أهدافها في حال حصول أي اعتداء من إسرائيل أو احتمال حصول هذا الاعتداء، كما تلتزم سائر الدول العربية بأن تكون قواتها متأهبة لردّ العدوان فوراً.

ـ أن يمنح القائد العام حق التصريح المطلق بالتحرّكات العسكرية، على أن يراعى في تحرّك القوات من دولة إلى دولة أخرى، قبل وقوع القتال، الأحكام الدستورية والنظم المرعية في كل دولة. «وهو القرار الذي وضع لمراعاة ظروف لبنان».

ـ يكتفى الآن بالمبلغ المقرّر في دورة الاجتماع الأول وهو مبلغ مئة وخمسين مليون جنيه إسترليني لشراء الأسلحة والمعدّات وإقامة المنشآت الرئيسية.

ـ تعتبر كلمة الملوك والرؤساء هي الضمان الوحيد للوفاء بالالتزامات المالية.

ثم أقرّ المؤتمر توصيات محدّدة بصدد المشروع العربي لتحويل مجرى نهر الأردن، ولا أرى داعياً لذكرها أو تلخيصها. ولم أكن أؤمن أصلاً بهذا المشروع، ولم أكن أراه في البداية إلا تحويلاً للجهد العربي عن الأصل إلى الفرع.

ولقد انفضّ المؤتمر على «فرقعات» آلات التصوير العربية والعالمية، وتسابقت الصحف العربية في اليوم التالي، بعد أن «سمح» بأن تتسرّب إليها المقرّرات السرية الخطيرة، فنشرت أكثر مما جرى، وأكثر مما سيجري. وشحنت الأمّة العربية بالآمال الجسام، وعمّت العالم العربي موجة من الابتهاج والانفراج لا تعادلها إلا الفرحة الكبرى بتحرير فلسطين.

وتسابق الملوك والرؤساء وهم يعودون إلى عواصمهم في إطلاق «بطاريات» التصاريح الطنّانة من المدافع الكلامية الرنّانة، وكان أغرب هذه الأقوال ما أعلنه الملك الحسن الثاني من أن اختلاف النظم الداخلية بين الدول العربية لا يمنع قيام اتحاد فيدرالي بينها. وسألني الرئيس الجزائري أحمد بن بللا: «هل قرأت هذا التصريح؟». قلت: «نعم لقد قرأته هذا الصباح، إنه كالورود الاصطناعية، جميلة جميلة. ولكنها من غير رواء ولا رائحة، بل إنه كالشعر أعذبه أكذبه».

ولكن العذب حقاً والحلو صدقاً، من الملك حسين، لا من الملك الحسن. ولقد تذوّقه الملوك والرؤساء، وكان عذباً حقاً وحلواً صدقاً وتجلّى في أربعة وستين صندوقاً من عنب الخليل حملها الملك حسين من الأردن بطائرته، فيها بطاقة جميلة «هدية من

الملك حسين» وتقاسمها الملوك والرؤساء، وعقب عليها فم الزمان بحكمته المأثورة: تقاسموها وأنت عنها غائب.

وخرجت من المؤتمر أتأبّط ملف المؤتمر، وعقلي لا يجرؤ أن يكذب ما سمع، فقد أعلن الملوك والرؤساء، أن كلمتهم «تعتبر الضمان الوحيد للوفاء بالالتزامات».

وتركت مذكراتي تتحدث عن كلمة الملوك والرؤساء.. ولتروي للأمة العربية أن كلمة الملوك والرؤساء قد حنثت بكل كلمة من كلماتهم ونكثت بكل قرار من قراراتهم..

﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه**﴾[٤] صدق الله العظيم.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة الفتح،» الآية ١٠.

من الإسكندرية إلى دمشق.. بغداد.. الكويت

خرج ثلاثة رجال من مؤتمر القمة الثاني الذي انعقد في الإسكندرية حاملين القرارات التي أصدرها الملوك والرؤساء مذيّلة بعبارة: «كلمة الشرف» هي الضمان الأكيد للوفاء.

وهؤلاء الثلاثة هم الفريق أول علي عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة، والمهندس صبحي كحالة رئيس مجلس إدارة هيئة تحويل الروافد، وأحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وانصرفنا كلٌّ إلى دربه ليعمل على تنفيذ المهمة التي أوكلت إليه. وكان على القائد العام أن يضع الخطط العسكرية لحماية تحويل الروافد كهدف عاجل، ولتحرير فلسطين كهدف آجل. وكان على المهندس كحالة أن ينفّذ الخطط الفنية والإنشائية لتنفيذ المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن بحيث يحجب عن إسرائيل أكبر قدر من مياهه. وكان عليَّ بوصفي رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية أن أجعل الكيان الفلسطيني حقيقة حيّة، بخاصة في ما يتعلق بإنشاء جيش التحرير الفلسطيني. ولقد كان الكيان الفلسطيني حتى ذلك العهد، هو اللجان التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولم تكن لنا مؤسّسات قومية أخرى.

وتوجّهت إلى ما توجهت بكل جوارحي، نحو إنشاء جيش التحرير الفلسطيني، فلم يكن الشعب الفلسطيني، بعد تلك السنين الضائعة من حياته القومية، يرضى إلا بأن يصبح له جيش، وأن يبادر هذا الجيش إلى تحرير وطنه.

ولعلي كنت أكثر الفلسطينيين ميلاً إلى هذا الاتجاه، إذ أورثتني خبرتي الطويلة في المحافل الدولية ضجراً من العمل السياسي، وكفراً بالأمم المتحدة.

ولم أكد أخرج من اجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء حتى دعوت اللجنة التنفيذية إلى اجتماع عاجل لنختار قيادة جيش التحرير الفلسطيني، ونبادر إلى إنشاء الجيش،

قبل أن يجفّ الحبر على قرار الملوك والرؤساء. وكنت قد بلوت الكثير من التلكؤ والتباطؤ في تنفيذ القرارات العربية منذ أن عقد الملوك والرؤساء مؤتمرهم العتيد في زهراء أنشاص (القاهرة) في أواسط الأربعينيات[1] حتى مؤتمرات القمة الأخيرة في أواسط الستينيات.

وبدأت أستقصي عمّن يصلح ليكون في قيادة الجيش. وكانت مفارقة عجيبة أن نعيّن القيادة العامة لجيش التحرير الفلسطيني قبل أن ننشئ الجيش نفسه، ولكن هذه واحدة من الأوضاع «المقلوبة» للقضية الفلسطينية، وما أكثر هذه الأوضاع!

وأخذت أسأل عن الضباط الفلسطينيين الموجودين في قطاع غزة مع وحدات الجيش المصري، أو الموجودين في سوريا مع وحدات الجيش السوري، ولم تكن لي معرفة بأحد منهم، كما لم تكن لي بطبيعة الحال أية معرفة بالأمور العسكرية.

وقال القائلون إن ضباطنا الفلسطينيين في غزة متأثرون إلى حد بعيد بأوضاع الإدارة المصرية في غزة، ولهذا لن يكونوا قادرين على فرض «استقلالية» الجيش وعدم تبعيته. كما أن ضباطنا الفلسطينيين الموجودين في الجيش السوري، قد يكونون أكفأ من رفاقهم في قطاع غزة وأعلى رتبة. ولكن المشكلة فيهم أن هذا الضابط بعثي، وذاك شيوعي، وذلك لا يعصي للسلطة أمراً. وقالوا فوق هذا وذاك، إن أولئك الضباط قد تربوا في أحضان الانقلابات، فأصبحوا في مهب الرياح.

ولقد وقفت حائراً أمام هذا الموضوع، إذ إنني كنت منذ بداية اضطلاعي بمسؤولية إنشاء الكيان الفلسطيني حريصاً على تجميع طاقات الشعب الفلسطيني في وحدة وطنية. ولم أكن أريد أن أنشئ حزباً خاصاً أو تنظيماً معيناً له ولاء عقائدي محدّد. وأنا لم أكن حزبياً، ولا تمرّست بالمناورات والمجادلات الحزبية. كان كل همي ألا تكون المنظّمة للبعثيين أو القوميين العرب أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين أو غير ذلك من «الهويّات» والصفات، بل كنت أريدها للشعب الفلسطيني كله. ولا حرج عندي أن يتجمّع هؤلاء في إطار المنظمة، شرط أن يكون ولاؤهم الأول والأخير لمنظمة التحرير.

وانطلاقاً من هذا التفكير القومي، بدأت أبحث عن ضباط مستقلّين تتكوّن منهم قيادة جيش التحرير، ويكفي القيادة العسكرية ألا تكون خاضعة لهذا الحزب أو ذاك.

---

(١) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وحين كانت اللجنة التنفيذية منعقدة في القاهرة في الأسبوع الأول بعد انفضاض مؤتمر القمة الثاني، اقترح بعض الأعضاء تعيين عشرة من ضباطنا الفلسطينيين في غزة، وسوريا، والعراق، والكويت، ليكونوا قيادة للجيش. واسترحت إلى هذا الترشيح من غير تردد، لأنني كنت أريد السرعة، قبل أن «يبطل» الملوك والرؤساء ويضعوا العراقيل في طريق إنشاء جيش التحرير. وراقني أن تكون قيادة الجيش من ضباطنا في جميع البلاد العربية. وعارض بعض أعضاء اللجنة كون قيادة الجيش تفتقر إلى ضابط كبير يتمتع بثقافة عسكرية واسعة. . ولكني أجبت: «أن تحرير فلسطين سيكون مرهوناً بالكفاءة العسكرية العربية لا بالكفاءة العسكرية الفلسطينية وحدها. . ويكفينا الجدال. . . والقيل والقال».

وفي يوم واحد وافقت اللجنة التنفيذية على تعيين قيادة الجيش، واعتبار اليوم العاشر من أيلول/ سبتمبر من كل عام يوم الجيش. وكل ذلك قبل أن يكون لدى المنظمة جندي واحد أو بندقية واحدة أو خرطوشة واحدة. . ذلك كان طموحنا، ومعنا الشعب الفلسطيني في قمة طموحه.

وتألفت لجنة عسكرية من قيادة الجيش للاجتماع بالفريق علي عامر لوضع الخطة اللازمة لإنشاء جيش التحرير الفلسطيني، لتكون وحداته متمركزة في قطاع غزة وسوريا والعراق. لقد كان الأردن منذ البداية مقفلاً في وجه المنظمة. وكلما حدّثنا الملك حسين لإنشاء وحدات عسكرية فلسطينية في الأردن، كنا كأننا نقترب من «دمّل» فيصيح ويقول: «إن الجيش الأردني هو جيش فلسطيني، ولا حاجة لإنشاء جيش آخر».

واستمرّت اللجنة العسكرية تلتقي بالقيادة العربية الموحدة في مقرّها في مصر الجديدة شهراً كاملاً وهي تبحث التفاصيل: عدد الكتائب والمرتّبات والتجنيد والتمويل والتسليح والتدريب.

وانتهت الخطة بإنشاء جيش التحرير الفلسطيني، بما يقارب خمسة عشر ألف شاب ورجل، يكون تمويله من صندوق القيادة العربية الموحدة، وتنشئه القيادات العربية في مصر وسوريا والعراق، كل على أرضه، شرط أن يتم تسليمه إلى منظمة التحرير الفلسطينية بعد إتمام إنشائه. وكان هذا الشرط محور خلافنا مع القاهرة ودمشق وبغداد.

وكانت هذه النقطة، «تسليم وتسلّم» الجيش الفلسطيني أهم ما دار في الحوار بيني وبين الفريق أول علي عامر. ولم يكن في تصوّره ولا تصور الحكومات العربية نفسها، أن يكون للشعب الفلسطيني جيش يتسلّمه بعد عام أو عامين. كل شيء إلا

تسلّم جيش التحرير. كل شيء إلا أن يكون للشعب الفلسطيني قوات مسلّحة على الأرض العربية، مستقلّة عن السلطة العربية الرسمية!!

وكنت أجادل الفريق عامر بأن جيش التحرير الفلسطيني سيخضع للقيادة العربية الموحدة في ما يتعلّق «بالعمليات العسكرية»، أما في ما عدا ذلك، فيجب أن يكون مستقلاً كأي جيش آخر، وأن يكون تابعاً للشعب الفلسطيني الذي تمثله منظمة التحرير الفلسطينية، وشأنه في ذلك شأن الجيوش العربية، كل منها تابع لحكومته.

وتجاوز الفريق عامر «الكلاسيكيات» العسكرية المتصلة بالجيش النظامي والأوضاع الحكومية الرسمية. ووافق إلى حدّ بعيد على خطة إنشاء جيش التحرير، تاركاً للمنظمة أن تدخل في «مفاوضة مع رئاسة أركان حرب الجمهورية العربية المتحدة، وزميلتها في دمشق وبغداد لإنشاء كتائب جيش التحرير الفلسطيني في كل من غزة وسوريا . . والعراق». واتفقنا على هذا، واتّكلْنا على الله.

وأعلنت في مؤتمر صحافي للشعب الفلسطيني أننا قد انتهينا من وضع خطة لإنشاء جيش التحرير الفلسطيني بالتعاون مع القيادة العربية الموحدة. وكانت البشرى الكبرى للشعب الفلسطيني، ووصلتني البرقيات والرسائل بالتأييد أكياساً وأكداساً. وكان التساؤل يملأ الوجوه: أحقيقة سيكون لنا جيش؟ وسيكون له سلاح ودبابات ومصفحات؟ وهل سنرى الضابط الفلسطيني والجندي الفلسطيني يسيران في الشوارع؟ وهل سنرى مسدسهما في حزامهما والبندقية على كتفهما؟ أم إن الجندي الفلسطيني سيكون فلسطينياً لابساً الكاكي وكفى. ليس أكثر من «كشاف» أكبر سنّاً.

واجتمعت برئيس أركان الجمهورية العربية المتحدة الفريق محمد فوزي (في ما بعد وزير الحربية)، لأبحث معه الترتيبات اللازمة لإنشاء جيش التحرير في قطاع غزة، حيث يوجد أكبر تجمّع فلسطيني بعد الأردن. ووضعنا الخطوط الرئيسية للخطة.

وكان الفريق فوزي عسكرياً صارماً منذ البداية، إذ إنه أصرّ على أن يتولّى وحده إنشاء جيش التحرير الفلسطينية في غزّة، من دون تدخّل القيادة الفلسطينية، وإنه يسلّمنا الجيش بعد إتمام إنشائه في مدّة لا تتجاوز عامين. ولا يكون له بعدها أي سلطان على جيش التحرير.

قلت له: «وما نفعل بقيادة جيش التحرير الفلسطيني؟ إن الخطة التي وضعناها مع الفريق عامر تتضمن إنشاء قيادة فلسطينية ذات شعب متعددة: للتدريب

والعمليات والإمداد والتموين والتوجيه المعنوي والمخابرات والتنظيم والإدارة والأمور المالية. . ولها رئاسة أركان، وقائد عام» . .

قال: «يجب أن يكون الأمر واضحاً منذ البداية. هذه مسألة من اختصاصي وليست من اختصاص القيادة العربية الموحدة. إن قطاع غزة يقع تحت سلطتنا العسكرية، وأنا المسؤول عن إنشاء جيش التحرير في قطاع غزة. أنا حاضر للتعاون معك كرئيس منظمة، وحاضر لأن تبدأ قيادة جيش التحرير العمل شيئاً فشيئاً، ولكن أنا المسؤول الأوّل والأخير، وبعد انتهاء الإنشاء سأسلّمكم الجيش».

قلتُ له: «أنا أريد أن تشترك معك قيادة جيش التحرير الفلسطيني منذ البداية في إنشاء الجيش وفي مراحل بنائه وتدريبه وتسليحه» . .

قال: «لا أوافق على المشاركة. الأمور العسكرية تقع تحت سلطة واحدة، العسكرية ليس فيها مشاركة».

قلتُ: «ولكن هذا الجيش هو للشعب الفلسطيني وسينشأ على أرض فلسطينية. . وسيكون جنوده وضباطه من الفلسطينيين. . وعلى الأقل، أرى أن تمارس القيادة الفلسطينية أموراً إدارية مثل تعيين الضباط حتى يرتبط الجيش بقيادته».

قال: «أنت تنظر للموضوع من ناحية سياسية قومية. وأنا أنظر له من ناحية عسكرية. والأمور السياسية هي بيد الرئيس عبد الناصر. إتفقْ معه وأنا حاضر للتنفيذ. أنا رجل عسكري أتلقى الأوامر».

ولقيتُ محمود رياض وزير الخارجية، وهو عسكري سابق، فشكوتُ له من تصلّب الفريق فوزي.

فقال: «فوزي ناصح وله خبرة ممتازة. اتركْ الأمر بين يديه، وسترى جيشاً فلسطينياً ممتازاً وفي وقت قريب، كما أن كثيراً من الأمور سيقرّرها الفريق العجرودي الحاكم العام لقطاع غزة. ومن المفيد أن تسافر إلى غزة بنفسك لتعالج الأمور على «الطبيعة».

وراقتْ لي الفكرة، بخاصة أن الرئيس عبد الناصر كان قد وقّع قراراً جمهورياً (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٤) أضاف بموجبه مادّة إلى «النظام الدستوري لقطاع غزة» جاء فيها أن «تحرير فلسطين واجب مقدس على أبنائها وعلى كل عربي. وفي سبيل ذلك يعمل الفلسطينيون في قطاع غزة متلاقين مع إخوانهم أبناء فلسطين أينما كانوا في تشكيل تنظيم قومي «منظمة التحرير الفلسطينية» هدفه العمل المشترك على استرداد الأرض المغتصبة من فلسطين والمساهمة في رسالة القومية العربية».

وقدّرت للرئيس عبد الناصر، أن جعل تحرير فلسطين نصاً دستورياً، بعد أن أعلنه مؤتمر القمة العربي في القاهرة هدفاً قومياً.

وما هي إلا بضعة أيام حتى كنت في قطاع غزة مع ٤٠٠ ألف فلسطيني بين مواطن ولاجئ. . وهبطت في مطار العريش، لأرى جموع الشعب الفلسطيني يتقدمهم الفريق العجرودي وكبار موظفي القطاع.

وسرنا رتلاً طويلاً من السيارات. وعلى جانبَي الطريق حشود الشعب والطلاب والشباب يرقصون، والطالبات ينشدن، والفرق الدينية بأعلامها تضرب بصنوجها وطبولها ودفوفها، والجميع يهتف لفلسطين وتحرير فلسطين.

ولم نستطع أن نجتاز مدينة رفح وخان يونس، بين الجماهير الحاشدة، الهاتفة الصائحة، الدابكة الراقصة، إلا بمشقة بالغة. وكانت سياراتنا تخترق الصفوف المتراصة في كتل بشرية، فتساقط الشيوخ على الأرض، وتهاوى الأولاد على جنبات الميادين. ووصلنا إلى مدينة غزة لنجد الطرقات وقد انسدّت بالجماهير، والأشجار وقد تسلّق عليها الشباب، والأسطح والشرفات وقد تثاقلت بأحمال الأهلين، حتى لم يعدْ لنا سبيل للوصول إلى الطرف الآخر من المدينة حيث مقر العجرودي.

وهجم رجال الشرطة على سيارتي فأخرجوني من نافذتها وحملوني إلى سيارتهم، فقد كادت الجماهير تعصر سيارتي بالأكتاف والصدور، ومن أين النجاة من هذه العاطفة الهادرة؟ . .

وأخيراً وصلنا. . ولكن بمشيئة الله لا بسطوة الشرطة.

وأصيب عدد من الأهلين برضوض وجروح، وسقط أحد الشباب قتيلاً. وبادرت إلى أهله في اليوم الثاني معزياً، أعرض الدية، بحسب التقاليد العربية، فأبوا بشمم وأنفة، وهم يقولون: «هذا شهيد الوطن، ونحن لا نقبل دية ولا تعويضاً». . وأعظِمْ بهذا الشعب وأكرِمْ.

ولم يكن هذا الاستقبال الفريد الرائع لشخصي، ولكنه كان للملف الذي أحمله. لقد نشرت الصحف يومذاك أني أحمل معي مشروع قانون التجنيد الإجباري، لأعرضه على المجلس التشريعي في غزة، ونباشر بالتجنيد وإنشاء الجيش.

وهكذا كان ذلك الحشد العظيم، ولم يسبق له مثيل في القطاع، إلا يوم تم جلاء القوات الإسرائيلية عن قطاع غزة، بعد العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦.

واجتمع المجلس التشريعي في غزة (١٥ آذار/ مارس١٩٦٥). ومن القراءة الأولى، ومن دون حاجة إلى قراءة ثانية أو ثالثة، أقرّ المجلس بالإجماع مشروع قانون

التجنيد الإجباري الفلسطيني في قطاع غزة. ولم يكد المجلس ينتهي من تلاوة المشروع حتى دوّت القاعة بالتصفيق.

وخرجنا من قاعة المجلس، وإذا بسكان المدينة قد احتشدوا في الساحة المقابلة (ساحة الجندي المجهول) وأخذوا يطالبون بالمبادرة لفتح المعسكرات، من دون انتظار لقانون التجنيد الإجباري وإجراءاته ومراحله.

وخطبت في الجموع أزفّ إليهم البشرى، وصاح أحد الشباب:

«ولماذا «إجباري؟» إنه «اختياري» نحن نريد التجنيد من دون قانون «إجباري»». قلت: «قانون «إجباري» لنجبر الدول العربية على «تجنيدنا»، إنه اختياري لكم. ولكنه إجباري للدول العربية».

ولعلعتِ هتافات الجماهير في كل أنحاء الفضاء، حتى بلغت صيحاتهم المستعمرات اليهودية، وبعضها على مسمع الآذان منا، في حين أن بعضها الآخر على مرمى البصر. هذا هو شعبنا البطل المقدام. وهذه كلمات قليلة في شجاعته وبسالته.

وقضينا الليل إلى الصباح في مقر الفريق العجرودي، ومعه ضباطه ومعاونوه، ونحن نتداول في مراحل إنشاء جيش التحرير الفلسطيني، وأبناء القطاع وممثلو العمال والطلاب والنساء والتجار يتوافدون علينا وهم ينشدون.. البدار.. البدار..

وقضيتُ بضعة أيام في زيارات لأطراف القطاع نهاراً، وعمل متواصل ليلاً. وعدت إلى القاهرة تاركاً ورائي جموع الشباب يقفون صفوفاً طويلة أمام دائرة التجنيد، مصنع البطولة والرجولة، على طريق الشرف والشهادة والتحرير.

وقضيتُ بضعة أيام في مكتب المنظمة في القاهرة وإذا بالعرائض والبرقيات من جماهير الشعب الفلسطيني في سوريا والأردن والعراق ولبنان والكويت، يطالبون أصحابها بالانضمام إلى جيش التحرير الفلسطيني. ومن أين لي أن ألبّي هذه الطلبات؟ والأموال المرصودة لإنشاء جيش التحرير محدودة، هذا إذا دفعتها الدول العربية بكاملها وفي الوقت المحدد، ثم إن الملك حسين لا يوافق أصلاً على إنشاء كتائب فلسطينية في الأردن. ولبنان لا يرضى أن يكون على أرضه جيشان، الجيش اللبناني والجيش الفلسطيني. وزاد من حجّة لبنان أن عمان لا توافق على تجنيد الفلسطينيين في الضفة الغربية وهي أرض فلسطينية، فكيف يرضى لبنان بما لا ترضى به عمان!!

وسارعنا، ومعي القيادة العسكرية الفلسطينية، في أول طائرة إلى دمشق لإنشاء كتائب فلسطينية من أبناء فلسطين في سوريا، تكون تابعة لجيش التحرير الفلسطيني. واستقبلنا المسؤولون كما في مطار العريش يوم زيارتنا لقطاع غزة. وعرفت السبب حين وصلنا فندق أمية، فقد ذكر لي بعض الإخوان الفلسطينيين الذين كانوا ينتظرونني في الفندق أن «السلطة» تحرص على ألا يكون لنا اتصال مباشرة بالجماهير الفلسطينية..

ولم أبالِ بهذه البادرة، فقد كنتُ في تلك الزيارة منصرفاً إلى إنشاء قوات عسكرية فلسطينية على الأرض السورية وكفى، بخاصة أن الوفد السوري في مؤتمر القمة الثاني في الإسكندرية كان في طليعة المطالبين بإنشاء جيش التحرير الفلسطيني. وكان «لحماسته» فضل كبير في حمل الملوك والرؤساء على إقرار إنشاء الجيش.

وقضينا أسبوعاً في دمشق، عقدنا خلاله اجتماعات مع رئاسة أركان الجيش السوري وشرحنا لهم ما وصل إليه الأمر من إنشاء جيش التحرير في قطاع غزة. وتهيأنا لوضع خطّة مماثلة. وصدرت الأوامر «بفرز» الجنود الفلسطينيين الملحقين بالجيش السوري ليكونوا نواة جيش التحرير الفلسطيني، وضمّوا إليهم عدداً من الفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا يعملون في الجيش السوري. وهكذا تكوّنت النواة الأولى لجيش التحرير الفلسطيني في سوريا.

واستقبلتُ وفوداً عديدة من أبناء فلسطين، والبهجة تغمرهم كون تجنيد الفلسطينيين يجري على قدم وساق، والفلسطينيون في المخيمات يطالبون بفتح مكاتب التجنيد عندهم، وكون.. ولكن..

قالوا: «إن «السلطة» قد وضعت الأمر بين يدي الضباط الفلسطينيين البعثيين، ونحن نخشى أن يصبح جيشنا بعثياً. يقارب عددنا، نحن الفلسطينيين في سوريا، ١٥٠ ألفاً على الأرض السورية، وليس بيننا أكثر من ١٥٠ بعثياً. ونحن نريدك أن تزور المخيمات وتعقد الندوات. نريد أن يكون جيش التحرير لفلسطين، لا نريده حزبياً، ولا بعثياً لا شيوعياً ولا عقائدياً. نريد أن تكون عقيدته الوحيدة التحرير ولا شيء غير التحرير».

وقلت لهم: «كل الذي يهمّنا الآن أن يصبح المواطن الفلسطيني تحت السلاح، ولنتركْ قضية البعث جانباً. أما زيارتي للمخيمات فسأبحثها مع المسؤولين».

وفعلاً، لقد اتصلت بالمسؤولين في رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة ووزارة الخارجية لتسهيل زيارتي لأبناء فلسطين في مختلف المحافظات السورية، ولعقد مؤتمر فلسطيني كبير في الجامعة السورية في دمشق على غرار المؤتمرات الفلسطينية الشعبية

التي عُقِدَتْ في قطاع غزة. ولكن المسؤولين لم يستجيبوا، ووعدوا أن يتمّ ذلك في زيارات لاحقة. وكان عليّ أن أفهم أن «السلطة» لا تريدني أن أتّصل بالجماهير الفلسطينية في سوريا.

ولا بأس أن أقف هنا قليلاً لأوضّح الأسباب. كان الصراع السياسي في ذلك الوقت على أشدّه بين دمشق والقاهرة. وكانت الإذاعة والصحافة لكلا الطرفين تخوضان حرباً باردة بينهما، تتبادلان تهماً خطرة.. دمشق تتهم القاهرة بالخيانة أو ما شابه ذلك، والقاهرة تتهم دمشق بالمزايدة الكلامية والحماسة الجوفاء.

وكانت القيادة القومية لحزب البعث قد أصدرت بياناً (١٥ أيار/ مايو ١٩٦٥) أعلنت فيه صراحة: «أما بالنسبة إلى إنشاء الكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية، فإن هنالك تخوفاً من أن يحملا التناقضات التي يعيشها الواقع العربي الرسمي، باعتبار أنهما كانا وليديْ مؤتمرات القمة، ولا يمكن إخفاء القلق حول مستقبل الكيان والمنظمة ومدى جديتهما وفعاليتهما، كما أنه لا يزيل تخوّف الفلسطينيين من كون الكيان الفلسطيني ناقص الثورية والقدرة على مجابهة الأخطار وتنظيم عملية التحرير، ذلك لأن ظروف إنشاء الكيان وطريقة تشكيله والموافقة عليه تكاد تسجنه في حدود ضيقة».

وقلتُ لقادة حزب البعث، تعقيباً على هذا البيان: «هل تدلّونني على طريقة أخرى لإنشاء منظمة التحرير بعيداً عن الواقع العربي، تكون ثورية وقادرة من اليوم الأول لإنشائها»؟ ولم أجدْ إلا جواباً واحداً: «هذا شأنك. أنت المكلّف بإنشاء الكيان الفلسطيني». ولم أجدْ من جانبي إلا جواباً واحداً على هذا الجواب: «تعالوا نتعاون معاً على جعل المنظمة ثورية وقادرة». وينتهي الأمر بعد هذا الحوار المرير بالصمت، الغارق بالصمت.

وكان حزب البعث منذ البداية يرى أن الرئيس عبد الناصر يؤيد فكرة إنشاء الكيان الفلسطيني ليتخلى عن أعباء القضية الفلسطينية، ويلقي بها كلها على أكتاف الشعب الفلسطيني، وأن الرئيس عبد الناصر، إضافة إلى ذلك، يريد الكيان الفلسطيني جهازاً سياسياً إعلامياً، خالياً من المضمون الثوري.

وفوق هذا وذاك، دخل في روع حزب البعث، أو على الأصح أقنع نفسه بنفسه منذ البداية، أن الشقيري هو «عميل» لعبد الناصر، ويجب التعاون معه بحذر، وفي أضيق الحدود.

ولقد حرصت في لقاءاتي في القصر الجمهوري في دمشق، وفي رئاسة الوزارة، وفي دوائر الخارجية أن «أخلق» كل مناسبة لأقول بكل صراحة إن صلتي

بالقاهرة وبالرئيس عبد الناصر بالذات هي صلة قومية في مجال القضية الفلسطينية، وإنني حريص أن أكون على أحسن الصلات مع دمشق ومع قادة حزب البعث. وإنني لن أتعرض لأمورهم الداخلية، ولا لخلافهم مع الرئيس عبد الناصر.

ولكن هذه «التطمينات» والتأكيدات لم تكن لتقنع حزب البعث. ولم يتيسر لي أن أزور الفلسطينيين في سوريا، وكانوا في نظر الحكومة السورية ناصريين متحمسين، فكيف تتاح الفرصة للقائهم بالشقيري، «صديق عبد الناصر» الذي قد يلهب حماستهم في خطبه، ويثير علينا ثائرة الرأي العام، وينتقل هذا الحماس إلى الشعب السوري، ومعظمه شغوف بالناصرية، غير منسجم مع قادة البعث؟[٢].

كان هذا هو موقف البعث مني ومن منظمة التحرير الفلسطينية. ولكني رضيت من البعث أن يوافق على إنشاء جيش التحرير على الأرض السورية، تاركاً موضوع الاتصال بالجماهير الفلسطينية جانباً.

ومن دمشق، حملتْني الطائرة إلى بغداد لأواصل مهمتي في إنشاء جيش التحرير. وحين هبطت بنا الطائرة أرض المطار بدا لي الفرق واضحاً بين الحكم في دمشق والحكم في بغداد. لقد كان في استقبالي جمهور من أبناء الشعب الفلسطيني وهم يهتفون لفلسطين والعروبة ويعلنون انضمامهم إلى جيش التحرير. كما كان في الاستقبال الوزراء العراقيون، وسفراء الدول العربية، والصحافيون والمصوّرون.

كان الحكم في العراق، برئاسة المشير عبد السلام عارف، قومياً عربياً، بعيداً عن الحزبية وتعصّبها، بعد أن شهدت بغداد في عهد اللواء عبد الكريم قاسم مجازر الحزبية الشيوعية البغيضة التي أعادت إلى العراقيين ذكريات احتلال التتار لبغداد في القرون الوسطى، يوم أفشوا فيها الدمار والنار.

وقضيت بضعة أيام في بغداد، اجتمعت خلالها بالرئيس عبد السلام عارف ووزرائه وكبار ضباط الجيش العراقي، وكانت مهمتي في غاية اليسر. لقد وافقت رئاسة الأركان العراقية على تجنيد الفلسطينيين في العراق، وألحقت عدداً منهم في المعاهد العسكرية وكلية الضباط. وتوالت زيارتي لمعسكر الرشيد في ضاحية بغداد، حتى غدا معسكر الرشيد تحت تصرف الشعب الفلسطيني، أو كأنه قطعة من الأرض الفلسطينية.

---

(٢) القيادة السابقة للحزب.

والتقيت بالإخوان الفلسطينيين في كل مكان، في قاعة الخلد حيث خطبت فيهم عن جيش التحرير، وفي مسجد الإمام الأعظم حيث دعوت معهم دعاء النصر.

وذهبت إلى المشير عبد السلام عارف أودّعه وأشكره لما لقيت من يسر وحفاوة، ودار الحديث بيننا عن الأوضاع العربية وسأل:

«أين وصلت مهمتك في إنشاء جيش التحرير»؟

قلت: «أحمد الله لقد كانت بغداد خاتمة المطاف. لقد بدأنا إنشاء جيش التحرير الفلسطيني عملياً، وأنشأنا قوات «القادسية» في بغداد، وقوات «حطين» في سوريا وقوات «عين جالوت» في غزة. وهذه هي الأسماء التي أطلقناها على قوات جيش التحرير تيمّناً بتلك الذكريات الناصعة، لتلك المعارك العربية الرائعة»..

قال: «وهل وافق البعثيون في دمشق على إنشاء القوات الفلسطينية»؟

قلت: «نعم، يسير التجنيد بنشاط، وكذلك التدريب والتسليح، حتى إنهم بادروا بإخراج السلاح من مخازن الجيش السوري قبل أن تصلهم الأموال من القيادة العربية الموحدة».

قال: «أنت لا تعرف البعثيين يا أحمد، البعثيون «شُطَّار». جيش التحرير الفلسطيني في سوريا سيكون بعثياً. وستكون وظيفة المنظمة أن تقدّم الأموال لسوريا. ولن تستطيعوا أن تحرّكوا جندياً فلسطينياً واحداً».

قلتُ: «لا بأس. المهم في هذه المرحلة أن يكون لنا جيش فلسطيني وليكنْ بعثياً. ولكنه سيكون فلسطينياً على كل حال. أليس كذلك؟»

قال: «هذا كلام».

قلت: «وما العمل؟ هل تستطيع أن تدلني على طريقة أبني فيها جيشاً فلسطينياً في سوريا ولا يكون بعثياً»؟

قال: «لا أعلم».

قلت: «إذا كنت أنت رئيس الجمهورية العراقية لا تعلم، فماذا أصنع أنا، ونحن شعب فلسطين بلا وطن، وبلا إرادة حرة، وبلا تجمّع. ولولا موافقة الدول العربية في مؤتمر الإسكندرية ما استطعت أن أجنّد شاباً فلسطينياً واحداً، ولا أن أحوز على بندقية واحدة».

قال: «على كل حال، كن على حذر من البعث. أنت قضيتَ سنين طويلة في المحافل الدولية، ولم تتمرّس بالمناورات الحزبية، لقد بلوْنا منها القتل والسحل.. و.. و..».

قلت: «ولا أريد أن أتعلّم المناورات الحزبية ولا أن أمارسها. كل ما أريده أن أبني للشعب الفلسطيني كياناً وجيشاً، بأية وسيلة وبأية حيلة وليكن بعد ذلك ما يكون. أنا لا أستطيع أن أتصدّى للبعث ولا لأية حكومية عربية. أصبح الشعب الفلسطيني أسير الظروف العربية. وسأفعل ما أستطيع وفوق ما أستطيع، والتوفيق من الله».

وانتهى الحديث بيننا عند هذه النقطة (ترك الأمور لله). والمشير عبد السلام عارف مجادل عنيد صلب، ولا سبيل لإسكاته إلا بعبارة «دينية» تلجم لسانه.

وعدت إلى الفندق لأجد برقية من شباب الكويت، يلحون عليَّ أن «أزورهم وأنا قريب منهم. إنهم يريدون إنشاء معسكراً للتدريب على حمل السلاح».

وكان بوسعي أن أعتذر للشعب الفلسطيني عن أيّ طلب يريدونه إلا السلاح وحمل السلاح. وبادرتُ إلى أول طائرة ووصلتُ إلى الكويت إلى قصر الضيافة، قريباً من وزارة الخارجية الكويتية. وفي لحظات أصبح قصر الضيافة الكويتي داراً للشعب الفلسطيني. ولقد توافدتْ جموع الشباب والطلاب والعمال والموظفين، وهم يمثلون صفوة الشعب الفلسطيني، فغصّت بهم ردهات القصر وحدائقه ومعابره. وكان المفروض على الحرس الكويتي المرابط على أبواب القصر أن يمنع أحداً من الدخول إلا بموافقتي، أو بإذن من وزارة الخارجية. ولكن أنّى للشعب أن تصدّه هذه الإجراءات.

وجلست مع الإخوان الفلسطينيين في حديقة القصر، وكان معظمهم جالساً على العشب الأخضر.؛ وخيل إلينا أننا في ضواحي حيفا أو في مروج عكا أو سهل مرج بني عامر حيث السهول السندسية تتألّق في أيام الربيع، والزمان في فلسطين كله ربيع.

وسردتُ على الحاضرين خلاصة إنجازات منظمة التحرير بصدد إنشاء جيش التحرير الفلسطيني وما انتهى إليه الأمر في بناء وحداتنا العسكرية من قوات عين جالوت (قطاع غزة) وحطين (في سوريا) والقادسية (في العراق). وطبيعي أنني لم أكشف للإخوة الفلسطينيين عن متاعبي التي لقيتُها من القيادة العربية الموحدة ورئاسة الأركان في كل من دمشق والقاهرة، كما لم أكاشفهم بأن الملك حسين رفض أن يكون للمنظمة أي نشاط عسكري في الضفة الغربية مهما كانت صيغته وصفته. لقد

حرصت دائماً أن أتستّر على الحكومات العربية، وأن أحتفظ بأوجاعي في صدري وحدي.

وكانت معي مجموعات من الصور عن ضباطنا وجنودنا بملابسهم العسكرية وأسلحتهم، فتخاطفوها وهم لا يكادون يصدّقون أنه أصبحت لهم نواة جيش يتأهب لمعركة التحرير. وتعرّف الإخوة الفلسطينيون على بعض الضباط والجنود. وتصايحوا: «هذا ابن عمي، هذا ابن خالتي، هذا ابن حامولتي..» وعمّ السرور والفرح، إلاّ نفراً كانوا يجلسون متربّصين، لا يتجاوز عددهم الخمسة أو الستة..

لم يشارك هؤلاء الخمسة إخوانهم فرحتهم وسرورهم، فرأيت من واجبي أن أشرح صدرهم، وأحلّ عقدتهم، فسألت:

«مالي أراكم واجمين لا تشاركون إخوانكم سرورهم، وهل من فرحة أعز على قلوبنا من إنشاء جيشنا، إلا العودة الظافرة إلى الوطن؟».

قالوا: «نحن لا تخدعنا الشعارات والعبارات».

قلت: «إن الأمر قد تجاوز الشعارات والعبارات، لقد بنينا نواة جيش التحرير».

قالوا: «هذا جيش كلاسيكي ونريده جيشاً ثورياً».

قلت: «أدخلوا الجيش، واجعلوه جيشاً ثورياً».

قالوا: «نحن لا ندخل الجيش الكلاسيكي».

قلت: «هذا ما قدرت عليه، وإذا كنتم قادرين أن تبنوا جيشاً ثورياً، فما يمنعكم؟ وأنا مستعدّ أن أعاونكم».

قالوا: «أنت بارع في الجدال، ونحن لا نقدر عليك».

قلت: «أنا مستعدّ أن أتخلى عن العمل، إذا كان عملي لا يعجبكم. تفضّلوا أنتم واعملوا، وأنا أؤيّدكم».

قالوا: «نحن لا نؤمن بمؤتمرات القمة، ولا بأي عمل يصدر عن مؤتمرات القمة، وسيكون هذا الجيش خاضعاً لمؤتمرات القمة».

قلت: «أنا لا أزعم أنه ستكون لنا السلطة الكاملة على جيشنا، فإن جيشنا ليس على أرضنا. وماله وسلاحه من أموالنا وسلاحنا. أنا لا أخدعكم، إنني أحاول أن أصنع أحسن شيء من أسوأ شيء. وهذه هي ظروفي مع الملوك والرؤساء. ومن كان يستطيع أن يفعل خيراً من هذا فليتفضلْ، وأنا وراءه».

كان هذا الحوار يدور بيني وبين الشباب الخمسة على مسمع من جمهور الفلسطينيين، وقد ضجروا من هذا الجدل. وصاح أحدهم قائلاً: «هؤلاء حزبيون. لا يصلحون إلا للجدال. نحن دعوناك لتقنع حكومة الكويت لتسمح لنا بإنشاء معسكر للتدريب. وهذا كل ما نريده».

قلت لهم: «سألبي طلبكم، وعلى مسمع منكم».

ونهضت إلى التلفون، وطلبت الديوان الأميري، وتحدد موعدي مع الأمير عبدالله السالم في اليوم الثاني..

وفي الموعد المحدد (٦-١-١٩٦٥)، كنت أصعد باب القصر الأميري، أمرّ أمام حرس الشرف إذ اصطف لهذا «الفلسطيني اللاجئ» يستقبله كما يستقبل «رئيس دولة»، مع أنه من دون دولة ولا وطن، وشعبه مشرد في الآفاق.

دخلت على الأمير عبد الله السالم في مكتبه، وأنست بترحيبه، وقهوته العربية، وشرحت له ما أنجزنا بشأن جيش التحرر الفلسطيني، وشكرت للكويت حكومة وشعباً ما تلاقيه المنظمة من تأييد مادي ومعنوي. ورجوته أن يصدر أمره إلى وزراء الدفاع بإنشاء معسكر لتدريب أبناء فلسطين على حمل السلاح وليكن ذلك تحت إشراف الضباط الكويتيين.

قال: «وهل أنشأتم معسكرات تدريب في دول عربية أخرى؟»

قلت: «نعم، في قطاع غزة، وسوريا، والعراق».

قال: «الأردن ولبنان، حيث يوجد ألوف من الفلسطينيين؟»

قلت: «طال عمرك. أنت تعرف أمورنا في الأردن، وظروفنا في لبنان».

قال: «ونحن عندنا ظروفنا. الفلسطينيون عندنا كلهم موظفون وعمال، يعاونون أسرهم في الضفة الغربية».

قلت: «إنهم يريدون أن يتدربوا على حمل السلاح في أوقات فراغهم، بعد انتهاء العمل. لقد ألحوا عليَّ أن أنقل رغبتهم إليكم، وأنا على موعد معهم اليوم في قصر الضيافة لأبلغهم بقرار سموكم».

قال: «وماذا ستخبرهم؟»

قلت: «سأخبرهم أن طويل العمر قد وافق على رغبتهم. وأن حكومة الكويت ستهيئ مركز التدريب والضباط والسلاح والسيارات».

قال: «أنا موافق، شرط أن يبقى السلاح في المعسكر».

قلت: «يبقى السلاح في المعسكر. وليبقَ معه الفلسطينيون إذا شئتم»!! فضحك الأمير، وتناول التلفون وأصدر أمره إلى وزارة الدفاع بإعداد العدة لإنشاء معسكر التدريب.

وخرجت من القصر الأميري، والسيارة تسابق الرياح إلى قصر الضيافة، وهناك وجدت جموع الفلسطينيين بانتظاري. ومن دون مقدمة ولا ديباجة، قلت لهم إن سمو الأمير أصدر أمره إلى وزارة الدفاع بإنشاء المعسكر، والهمة الآن أصبحت همتكم. وتعالت أصواتهم بالهتاف للكويت، أميراً وحكومة وشعباً.. إلا الخمسة أنفسهم فقد كانوا واجمين، فجاء أحد المدرسين الفلسطينيين وجرَّهم من تلابيبهم وهو يقول: «أريد أن أشدكم من ملابسكم كما أفعل مع أبناء المدرسة.. اذهبوا إلى معسكر التدريب، إذا كنتم ثوريين حقيقيين».

واتصلت بدار الإذاعة الكويتية، وأمليت الخبر بنفسي بأن سمو الأمير قد وافق على إنشاء معسكر للتدريب لأبناء فلسطين. وأذيع الخبر في نشرة الإذاعة الكويتية عدة مرات. ولكني دفعت الثمن!!

دفعت الثمن.. لأن جموع الفلسطينيين قد أحاطوا بقصر الضيافة في عصر ذلك اليوم، في حين يشدّد الحرس على عدم الدخول. وكانت وزارة الداخلية قد بالغت في حراستي إذ وصلت إليها بعض التقارير السرية، أن أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا قد دبّر مؤامرة لاغتيالي في الكويت، بعد أخفقت مؤامرته في لبنان ـ والله أعلم.

وخرجت إلى باب القصر وطلبت إلى الحرس أن يفتحوا الأبواب وليدخل الجمهور، والحارس هو الله، وقال الضابط بلهجة كويتية: «عندنا أوامر مشدّدة ألا نسمح لأحد بالدخول».

ولكن الجمهور رآني أجادل الضابط، فدخل واقتحم. ولم يسع الضابط وجنوده إلا أن يفسحوا الطريق.

ورويتُ للإخوة الفلسطينيين ما دار بيني وبين الأمير. وكان سرورهم عظيماً، وانتظم كثير منهم في حلقات، فأخذوا يدبكون الدبكة الفلسطينية، كما لو كنا في إحدى قرانا الحبيبة في ساحاتها، أمام طوابينها وعلى مقربة من المسجد والمضافة، وما أعزها وأكرمها.

ولم يكد ينصرف أبناء فلسطين من قصر الضيافة حتى دخل علي الضابط المرافق

وهو يقول باللهجة الكويتية: «يا أستاذ، إن فلسطين ليست لكم وحدكم يا أبناء فلسطين. نحن شباب الكويت نريد أن نجاهد معكم في سبيل تحرير فلسطين. لقد استمعت إلى أسئلة الفلسطينيين، وكان بعضها وجيهاً وبعضها تافهاً. وأنا أريد أن أسأل: في أي عام تتوقعون تحرير فلسطين»؟

قلت: (وقد أغرقني هذا السؤال المثير في لجة ثقيلة من الحيرة) «يا أخي ليس الأمر منوطاً بالأعوام. إن تحرير فلسطين لا يحسب بالشهور والأعوام، ولكن له قياساً آخر».

قال: «وما هو هذا المقياس في رأيكم؟»

وعزمت أن أتهرّب من هذا الحديث، ولكن الضابط الكويتي ألحَّ وألح وأغرتني حماسته فقلت:

«إن تحرير فلسطين يحتاج أول ما يحتاج إلى تحرير الأمة العربية»!!

قال: (مذهولاً) «وماذا تعني بتحرير الأمة العربية»؟

قلت: «كنا في عهد الاحتلالات والانتدابات نطالب بالاستقلال والحرية. لقد ظفرنا بالاستقلال، وأصبحت لنا دول مستقلة. ولكننا لم نظفر بالحرية. بل إننا سلبنا كثيراً من الحريات التي كنا نمارسها في عهود الاحتلال والانتداب».

قال: «وماذا تعني»؟

قلت: «لقد عشنا عهد الانتداب، وكنا في الوطن العربي نمارس إلى حد غير قليل كثيراً من الحريات: حرية التظاهر، إنشاء الجمعيات والنوادي، حرية الصحافة وما إلى ذلك. ولما جاء عهد الاستقلال، قامت «السلطات» العربية بمصادرة الكثير من هذه الحريات».

قال: «وكيف ذلك»؟

قلت: «إن الصحافة وأجهزة الإعلام هي بيد الحكومات. المظاهرات والمسيرات الشعبية تقوم بها السلطة. ليس على الحكم العربي رقابة شعبية حقيقية. الملكيات «وراثية» والجمهوريات لا تستمد الحكم من إرادة الجماهير». ثم استطردت قائلاً: «لقد تلقيتم في الكويت تقريراً عن محاولة لاغتيالي. أنا لا أعلم مبلغ الصدق في هذا التقرير. ولكني لا أستغرب. إن الحكم العربي الحاضر، ولا أعني الجميع، قد مارس القتل والسحل، الاعتقال والاغتيال، الإرهاب الفكري، والعزل السياسي، وما إلى ذلك من المظالم. . يجب تحرير الإنسان العربي من هذا النوع من الحكم العربي قبل أن

ندخل معركة تحرير فلسطين. وهذا النوع من الحكم العربي ليس مؤهلاً لتحرير فلسطين».

قلت هذا وغير هذا. . ولست أدري كيف قلته للضابط الكويتي. ولكنها كانت لحظة تفجرت فيها نفسي ولم أسترح منها إلا حين انصرفت إلى غرفتي لأنام.

وقضيت أياماً في الكويت اجتمعت خلالها بأبناء الكويت، والشيوخ والشباب والطلاب والنواب والوزراء. وكان حماسهم للقضية الفلسطينية في غاية ما يكون إيماناً ورسوخاً.

وبهمة وعزيمة، بادر الشيخ سعد العبد الله وزير الدفاع الكويتي لإنشاء المعسكر، فما هو يوم أو اثنان إلا والمعسكر قائم ينتظر شباب فلسطين، وخرجت بنفسي لأرى. خرجت إلى سهل فسيح في ضاحية الكويت حيث المعسكر. ورأيت بعض الخيام وفيها الضباط الكويتيون وصناديق الأسلحة والعلمان الكويتي والفلسطيني يرفرفان فوق ساحة المعسكر، والسيارات الكبيرة تدخل أرض المعسكر لينزل منها الفلسطينيون. الشباب والعمال والأطباء والمهندسون والمدرسون وكبار الموظفين، كلهم ينتظمون في صفوف طويلة والبنادق على أكتافهم في المراحل الأولى من التدريب.

وقفت أتفرّج، والسرور يملأ جوانحي، ودقات قلبي تضرب في صدري، مع وقع خطواتهم، وهم يضربون الأرض، كأنما إسرائيل تحت أقدامهم. وانتهت ساعة التدريب. ووقفت أتحدّث إليهم عن بطولات الشعب الفلسطيني التي عشتها في وطننا كل عمري، وعن معاركنا مع القوات البريطانية والصهيونية على مدى ثلاثين عاماً في عهد الانتداب.

وقلت في ختام حديثي: «لقد قضيت خمسة عشر عاماً من عمري في الأمم المتحدة، ولكن ساعة معكم هنا في معسكركم هذا، أجمل عندي من تلك الأعوام كلها. بكم أيها الإخوان وبجيش التحرير الفلسطيني تبدأ حياة جديدة للشعب الفلسطيني ولقضية فلسطين. إنها حياة التحرير، شاقة وطويلة، كثيرة المنعطفات والمزالق والنكسات ولكن هذا هو طريق التحرير. وإذا هلكت في الطريق فاحملوني معكم إلى فلسطين. ذلك هو عهدي إليكم وليكن هذا عهدكم إليَّ».

وخرجت من المعسكر رأساً إلى المطار. وأعددت نفسي للسفر، والشباب معي مغبرّة أقدامهم من غبار المعسكر، معفّرة وجوههم من التدريب. وكان ذلك عندي أكرم وداع. أليس غبار النضال، وعفار الجهاد، أعز من أكاليل الورود وأقواس الرياحين.

ركبت الطائرة عائداً إلى بيتي في القاهرة بعد رحلة طويلة شاقة، شهدت خلالها جيش التحرير في مولده، وغبار الكويت وعفاره يتخلل ملابسي إلي جسدي، وبودي ألا أزيحه عني، لو أستطيع إلى ذلك سبيلاً.

إنه غبار المعسكر عفار التدريب.

ذلك الغبار، أكرم من أقواس النصر التي تنصب للملوك.

وذلك العفار، أجمل من أكاليل الغبار التي ترفع للرؤساء.

وماذا أقول اليوم في أقواس النصر التي تنصب للملوك بعد الهزيمة وفي أكاليل الغار التي ترفع للرؤساء، بعد الانكسار؟

ماذا أقول فيهم، وهم يمشون تحت ظلالها فرحاً ومرحاً؟

﴿**ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ٣٧.

أنـا لا أقـرأ الفاتحـة لأنـي لسـت رجعيـاً!!

كان عام ١٩٦٥ من بدايته إلى نهايته، بأيامه ولياليه عملاً متصلاً، ودعني أسمّه نضالاً لاهباً، لبناء الكيان الفلسطيني، بجميع مؤسساته السياسية والعسكرية والمالية والإعلامية والتنظيمية. وما أشق البناء بين الأنقاض والخرائب، ومع الحكومات العربية.

لقد تهدّم الكيان الفلسطيني بعد عام ١٩٤٨، وفقد الشعب الفلسطيني وجوده القومي، واندرستْ كل مؤسساته القومية التي كان يناضل من خلالها في عهد الانتداب البريطاني، وأصبحت الهيئة العربية العليا التي كان يرأسها أمين الحسيني اسماً من دون مسمى، فقد استقال من أعضائها من استقال، ومات من مات، وبقي الحاج أمين الحسيني يحمل أختامها وملفاتها، ليصدر بيانات إلى الصحف في المناسبات القومية، مثل ذكرى وعد بلفور أو قيام إسرائيل.

ثم جاءت حكومة عموم فلسطين فقامت بشيء من النشاط في بداية إنشائها، ولكن تخلف الدول العربية عن مساندتها، جعل منها في النهاية مكتباً صغيراً بين أسواق القاهرة، يقضي فيه رئيسها أحمد حلمي باشا بعض فراغه، وكل ما بين يديه ميزانية من الجامعة العربية في حدود أربعمائة جنيه مصري للشهر الواحد، هذا إذا وصلت المشاهرات في مواعيدها.

وحينما ولد الجديد ـ الكيان الفلسطيني ـ على فراش مؤتمر القمة الثاني في الإسكندرية في خريف ١٩٦٤، هبّ الشعب الفلسطيني، على آماله وأحلامه، وما أراد أن ينتظر دقيقة واحدة. إنه يريد الكيان الفلسطيني اليوم اليوم، ولا ساعة واحدة بعد اليوم.

ولم أكد أستريح بضعة أيام في القاهرة، بعد جولتي التي قمت بها في الدول العربية لإنشاء جيش التحرير، حتى أصبحت لا أذهب إلى عملي في الصباح إلا وأجد وفود الشعب الفلسطيني من كل مكان، وقد سبقوني إلى مكتبي في القاهرة،

وجميعهم يلحون ويلحون على استكمال بناء الكيان الفلسطيني.

ولا أكاد أفرغ من الاستماع إليهم، والاصطبار على جدليات بعضهم، حتى أبدأ بقراءة البريد أكداساً أكداساً، من جميع أرجاء الوطن والمهاجر. والفلسطينيون يصيحون في أذني للمبادرة إلى تنظيم الشعب الفلسطيني، وتعبئة طاقاته وقدراته.

وأحسست أن مطحنة قد أصبحت تطحن أعصابي، فقد انهال عليَّ الشعب الفلسطيني بمطالبه ومقترحاته وشكاواه وكأنها سياط لاهبة أصبحت تمزق ظهري. ووجدت نفسي أمام موقف رهيب خطير. رأيت نفسي أنني لا أحمل متاعب القضية الفلسطينية برمتها، وما أخطرها، ولكني أصبحت مسؤولاً أمام ثلاثة ملايين فلسطيني بمشاكلهم وما أكثرها: الإقامة والعمل، والتنقل، والوظائف، والرواتب، والطلاب، وكل ذي حاجة وشكوى!

وقلت في نفسي في لحظة من لحظات الإرهاق والتعب: «إن الملوك والرؤساء أذكياء حقاً. لقد خلعوا عن أكتافهم القضية الفلسطينية بكل متاعبها ومشاكلها وألقوها على أكتافي».

وإن أعظم دواعي سروري أن أقضي عمري في حمل هذه الأمانة، لو توافرت بيدي إمكانات العمل وقدراته المادية والمعنوية. ولكن أنَّى يكون لي ذلك!

لقد أعطاني الملوك والرؤساء المسؤولية كاملة، ولكنهم لم يضعوا بين يدي الإمكانات التي تتطلبها هذه المسؤولية الجسيمة. وأصبحت أحمل، بالإضافة إلى القضية الفلسطينية ومتاعبها، متاعبي مع الدول العربية.

وكان الخيار أمامي من البداية، وأنا أعلم بالخبرة والممارسة الطويلة تلكؤ وتخاذل الدول العربية، إما أن أعمل أو ألا أعمل. . واخترت أن أعمل. بكل ما في هذا الخيار من مغامرة وأي مغامرة!!

وكان أول عمل انصرفت إليه هو إنشاء إذاعة لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقد بدا هذا غريباً على كثير من الفلسطينيين ومن العرب على السواء.

وتطايرت الأسئلة بعضها بريء وبعضها حاقد. لماذا الإذاعة؟ ألا يحسن إنفاق أموال الإذاعة على القتال؟ أليس في الدول العربية ثلاث عشرة إذاعة كل منها مستعد أن يعطي منظمة التحرير ساعة في اليوم؟ ألم تشبع كلاماً وخطباً؟

وكان عليَّ أن أجيب عن هذه الأسئلة، في الصحف وفي اجتماعات الجامعة العربية وفي ندوات الشعب الفلسطيني. وكنت أصيح على الدوام في وجه السائلين بجواب واحد: «إذا كانت الإذاعة لازمة لشعب آمن في وطنه مستقر في دياره له

حكومته وحريته واستقلاله، فإنها للشعب الفلسطيني ألزم، وقد فقد وطنه وديارة، وتباعدت منازله، ولم يعد من وسيلة للاتصال به، أو الاجتماع إليه إلا عن طريق الإذاعة، بالتعبئة والتوجيه و. . و. .».

واجتمعت بالدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإرشاد القومي في القاهرة لأطلب إليه أن يعطينا ست ساعات من برامج إذاعة الشرق الأوسط، لتكون تحت تصرف منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد مداولات مع المهندسين والفنيين، وقفت أمام المفاجأة!!

وكانت مفاجأة حقاً، حين أبلغني الوزير حاتم بأن «الوزارة تريد أن تتقاضى مبلغ ١٥٠ ألف جنيه إسترليني من المنظمة أجراً عن الساعات الست المطلوبة، وأن هذا المبلغ هو استهلاك الكهرباء فقط و. . أن الأجر المعتاد أكثر من ذلك بكثير».

لقد كنت أطمع من الجمهورية العربية المتحدة، وهي التي تتحمل أعباء ضخمة في سبيل القضية الفلسطينية، أن تتبرع بهذه الساعات الست للشعب الفلسطيني. وعاودت السؤال عن تفاصيل هذا المبلغ، وأنا أطمع أن يراجع الدكتور حاتم نفسه ويتنازل عن الأجر كله أو معظمه أو بعضه. ولكنه كان يؤكد لي أن هذا المبلغ هو «تكلفة لا أجر، وأن المبلغ مطلوب بالإسترليني، لأن القاهرة تشتري الأدوات والأجهزة اللازمة من الخارج، وبالنقد النادر».

ولم يسعني إلا القبول بدفع المبلغ حتى ولو رفضت المنظمة الموافقة، حتى لو أدى ذلك أن أبيع مكتبتي وهي أعزّ ما أملك. لقد كان لا بد لنا من إذاعة تعبر عن مشاعر الشعب الفلسطيني وإرادته، وتلتقي عند موجاتها آماله في العودة الكريمة، والتحرير المؤزر.

واتصلت المنظمة بالفلسطينيين الإذاعيين في الوطن العربي، فاندفعوا إلى القاهرة، لا يسألون عن راتب أو شروط، ليضعوا كفاءتهم وخبراتهم تحت تصرّف شعبهم وطنهم. وبدأت الاستعدادات الفنية لافتتاح الإذاعة في مطلع شهر آذار/ مارس ١٩٦٥.

وفي اليوم المحدّد، وصلت إلى مقر إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية، وكان رجالها يروحون ويغدون في حركة دائبة، والبشر يعلو وجوههم، فهذا اليوم يومهم، بل يوم الشعب الفلسطيني كله.

وأخذ المسؤولون عن إذاعة الجمهورية العربية المتحدة، يتقدمهم الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإرشاد القومي، وعدد من الصحافيين العرب والأجانب

يفدون لشهود حفل الافتتاح. وكانت الوجوه طافحة بالسرور، والحضور يتبادلون التهنئة. وخيل إليَّ إن الحفل أشبه ما يكون باجتماع الأسرة احتفاء بمولود طال انتظاره. وكان هذا المولود حقاً هو «صوت» الشعب الفلسطيني بعد أن احتجب بضعة عشر عاماً.

ودخلت حجرة الإذاعة وجلست أمام المذياع. وأصبحت في الحجرة وحدي أنتظر إشارة البدء. وغمرتْني طائفة من الذكريات عن شعبنا في كفاحه الدامي الطويل وعن وطننا وما عاناه وقاساه. وخُيل إليَّ أن الشعب الفلسطيني قد أصبح كله معي في تلك الحجرة الصغيرة وأننا نجتمع بعد تشريد، وأني في واحد من لقاءاتنا الحبيبة مع شعبنا وفي وطننا. ولله ما أسعد الخيال في عزائه وسلوانه!

وفي غمرة هذا الفيض من الذكريات، انطلق جناني قبل لساني في حديث إلى أبناء فلسطين قلت فيه: «إذا كانت الإذاعة، أية إذاعة، حاجة قومية ملحّة في حياة الأمة المستقرّة في وطنها، الآمنة في ديارها، الرافلة في نعماء الحرية والسيادة والاستقلال، فإنها أدعى وأوجب، بل إنها أهم وألزم، لأهل فلسطين وقد تمزق جمعهم، وتشتت شملهم، وتباعدت ديارهم ومنازلهم. لهذا أصبح لا بد لأهل فلسطين من إذاعة تتلاقى أرواحهم حولها، وتتجمع أسماعهم على أخبارها وأحاديثها، وبهذا يلتقي الشعب دوماً على آماله، ويحيا مع وطنه، ويظل مشدوداً إليه بروحه ووجدانه، يعيشه بعقله وضميره، وقدماه على عتبات الكفاح. واعلموا يا أبناء فلسطين، أن إذاعتكم هذه ستكون إذاعة ثورية، جديرة بأمة ثورية، لها قضية ثورية:

«أخبارها. أولاً أخبار فلسطين وشعب فلسطين، دائماً وأبداً، حتى تظل قضيتنا المقدسة ملتهبة الحياة، مشتعلة الوجود، متوهّجة النضال.

«القصة فيها: سيرة شعب فلسطين في بطولات الفلاحين وبسالات العمال، وأمجاد الشهداء من الرجال والنساء، من الشباب والطلاب، لنجدّد هذه السيرة، ونحن أشد نظاماً وأقوى عزماً.

«أحاديثها: مجابهة الاستعمار وعميلته الصهيونية، والعصابة الدولة، وفضح مناوراته ودسائسه، وتعزيز الحق في كل ميدان، وتنديد للباطل في مجال.

«الشعر فيها: التغني بمرابع الوطن الفاتنة، وخمائله الرائعة، بأغواره وأنجاده، بوهاده وجباله، بشواطئه وأنهاره، بالكروم التي أنشأها الآباء، والحدائق التي غرسها الأجداد، بالمدن التي بنتها أكتاف الرجال، بالقرى التي أقامتها سواعد الشباب أجيالاً بعد أجيال.

«الرواية فيها: مسرحية التحرير، كما نريدها حقيقة حية نابضة، أبطالها رجالنا ونساؤنا وشبابنا، حوارها التوعية والتوجيه، وشاهدها التعبئة والتنظيم، وختامها ﴿**نصر من الله وفتح قريب**﴾[1].

«الغناء فيها: صيحات المجاهدين، وتكبيرات المناضلين، لا بكاء ولا رثاء، ولا ذل ولا انكسار، النغم عزم، والإيقاع اندفاع، واللحن هادر ثائر.

«هذه إذاعتكم يا أبناء فلسطين، لن تكون تسلية ولا لهواً ولا عبثاً ولا مجوناً، فذلك حرام علينا ونحن في غير فلسطين. وإن معركة التحرير متعددة الجبهات متنوعة الأسلحة، كثيرة المقاتل، وفي زماننا هذا لم يعد القتال فارساً لفارس، ولا حتى جيشاً لجيش، ولكن القتال اليوم، هو أمة بكاملها، بكل طاقاتها، أمام أمة بكاملها، بكل إمكاناتها، نقاتل بالكلمة المرسلة كما نقاتل بالقذيفة الموجهة.

«ولقد اخترع الإنسان أفتك الأسلحة وأشدها تدميراً. ولكن هذا الإنسان لم يستطع ولن يستطيع، أن يجد سلاحاً أمضى من الكلمة، وستظل الكلمة في قداستها وسحرها، وأثرها وخطرها، أقوى سلاح في الوجود، على مرّ العصور والأجيال.

«وهذه هي الرسالات المقدسة، والحروب الاستقلالية، والحركات التحريرية، كلها بدأت بالكلمة، وعلى ذلك فإن هذا المذياع الصغير أمامي، وذلك الراديو الصغير بين يديكم، يؤلفان قوة هائلة في معركة التحرير، فإن الكفاح لا بد فيه من الأرواح قبل السلاح، فكم من أمة في الحربين العالميتين الماضيتين قد استسلمت وهي كاملة السلاح والعتاد، وكم من أمة انتصرت وقد قاربت على النفاد في العتاد والسلاح».

وخرجت من حجرة الإذاعة إلى الصالة لأجد الإخوة الحاضرين المستمعين، وقد ارتسمت على جباههم كل مشاعر الشعب الفلسطيني، وكأنه يستقبل بذراعيه وجناحيه، مولوده الجديد النازل من السماء.

حقاً إنه المولود النازل من السماء. ولم يكد الشعب الفلسطيني، من بقي في وطنه ومهاجره، يستمع إلى إذاعته وهي تردّد غناءه وشعره وقصصه وتطلّعاته واهتماماته، حتى أصبح ساعي البريد في القاهرة، يحمل إلى مكتب المنظمة «حمولة» سيارة من الرسائل والعرائض والبرقيات، تعرب كلها عن الابتهاج بافتتاح إذاعة منظمة التحرير.

وكذلك كان الابتهاج على صعيد الجماهير العربية حينما وصل إليهم صوت

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الصف،» الآية ١٣.

المنظمة، فقد سمعت هي بدورها صوت فلسطين، حبيباً إلى قلبها، أثيراً على مسامعها.

إلا أن العربي الرسمي، كان على خلاف ذلك، بخاصة في أروقة الجامعة العربية، في اجتماعات الوزراء والسفراء، وفي لجان المتابعة التي انبثقت عن مؤتمرات القمة.

بدأ الحديث الرسمي في أروقة الجامعة العربية، ينتقد ويتململ، فيقول هذا الوزير لذلك الوزير، وهذا السفير لزميله السفير، لماذا إذاعة منظمة التحرير؟ في الدول العربية ثلاث عشرة إذاعة، أليس الأفضل والأوفر أن تطلب المنظمة من إذاعات الدول العربية تخصيص حصّة من الوقت لإذاعة منظمة التحرير؟ ثم لماذا تدفع المنظمة من أموال الدول العربية مئة وخمسين ألف جنيه إسترليني للقاهرة من أجل الإذاعة؟ ألم يكن واجب القاهرة أن تتبرّع لإذاعة المنظمة بالوقت الكافي، من دون أن تتقاضى هذا المبلغ الكبير؟ وهل.. وهل.. وغير ذلك من الأسئلة.

كان عدد من الوزراء والسفراء يطرحون عليَّ هذه الأسئلة، بريئة من بعضهم، وحاقدة من بعضهم الآخر. وكنت أقول لهم: «ليتكم تثيرون هذا الموضوع داخل الاجتماع، عسى أن تتنازل القاهرة عن الأجر المطلوب».

وندخل قاعة الاجتماع، وأنا أحسب أنهم سيثيرون هذا الموضوع بصورة أخوية مع وفد الجمهورية العربية المتحدة. وأمضي في تلاوة تقريري عن إنجازات المنظمة، ومن جملتها إذاعة منظمة التحرير. ويقرر الحاضرون توجيه الشكر إلى رئيس المنظمة على جهوده، وإلى المنظمة على إنجازاتها. ويسكتون عن موضوع الإذاعة وأجورها، وكأن شيئاً ما كان.

ولا يقتصر الأمر على سكوت الوزراء والسفراء، وإنما يتبارون في مناسبة وغير مناسبة في تقديم الشكر إلى القاهرة، «قاعدة النضال العربي ورائدة النضال العربي بزعامة البطل الملهم الرئيس عبد الناصر..». ثم يخرج بعض هؤلاء الفضلاء من الوزراء والسفراء ليقولوا «لقد أصبحت منظمة التحرير تابعة لوزارة الخارجية المصرية، وأصبح الشقيري عميلاً للرئيس عبد الناصر»!!

وكنت لا أبالي بهذا الكلام، لأني ألفتُ العمل العربي في الجامعة العربية وخارجها، وسبرت غور الخلق القومي في الحكم العربي زمناً طويلاً، ووطّنت نفسي أن أكون كالحمار يحمل ويُضرب، كل ذلك من أجل فلسطين التي يسميها الحكم العربي المعاصر «قضية العرب الأولى»!!

وانصرفتُ بعد ذلك إلى إنشاء مركز الأبحاث للقضية الفلسطينية. وفي وميض البرق تأسّس «المركز» وتجمّعت الكفاءات الفلسطينية لتضع الدراسات العلمية عن مختلف جوانب القضية الفلسطينية وتجعل العلم في خدمة قضيتنا المقدسة.

ولقد حرصتُ أن يكون مركز الأبحاث في مدينة بيروت لتوافر المراجع العلمية والاتصالات. ولسبب أخير، كنت أريد أن أثبت بصورة عملية أن المنظمة ليست دائرة من دوائر وزارة الخارجية المصرية. وهذا هو مركز الأبحاث في عاصمة الجمهورية اللبنانية.

ونشطت الدراسات.. وأصبحت وزارات الخارجية العربية تتلقى هذه الدراسات وتطالب المزيد من الكتب.. ولكن من دون أن تدفع الثمن أو نفقات البريد.. واستمر هذا «الدّلع» العربي حتى بعد أن توقّفت الحكومات العربية عن دفع التزاماتها المالية لمنظمة التحرير.. وإن على المنظمة أن تحقق حلم الكيمياء القديم، وتحول الحديد إلى ذهب!!

وجاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة: تأسيس مكاتب المنظمة في الوطن وفي الخارج.. ولم تخلُ هذه الخطوة الصغيرة من مصاعب كبيرة.

وكانت المكاتب في الدول العربية، ضرورة لا بد منها، إذ إن التجمّعات الفلسطينية في كل قطر عربي، لها مشاكل إفرادية وجماعية مع السلطات المحلية، فمن الذي يتولاها؟ والتوعية والتنظيم لأبناء فلسطين، من يقوم بهما؟ ومطاردة الحكومات العربية للوفاء بالتزاماتها التي لا تفي بها عن طريق المذكرات والبرقيات، من يأخذ بزمامها؟

كل ذلك وغيره كان يتطلّب إنشاء هذه المكاتب لأداء هذه الخدمات والواجبات. ومع ذلك فقد ثرثر الجدليون من الفلسطينيين والعرب: لم هذه المكاتب؟ هل الشقيري يريد أن يبني سفارات فلسطينية كما لو كان رئيس دولة؟ ومن هم هؤلاء المدراء الذين اختارهم الشقيري؟ إنهم لا يصلحون. إنهم يتقاضون رواتب كبيرة. إنهم.. إنهم.. ومضيت في طريقي في إنشاء هذه المكاتب البسيطة واختيار المديرين برواتبهم المحدودة، وأنا أردّد قوله تعالى، ﴿**فاصبر على ما يقولون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

وبما يشبه الأسلوب البرقي، تم كذلك إنشاء مكتب نيويورك ليكون ممثلاً للشعب الفلسطيني في الأمم المتحدة. وثار الجدال فلسطينياً وعربياً، لماذا تنفق

(٢) المصدر نفسه، «سورة طه،» الآية ١٣٠.

الأموال على غير طائل في الأمم المتحدة، خير لنا أن نشتري بها أسلحة، وغير ذلك من الهراء، ولكن المنظمة مضت في طريقها لا تبالي.

ولم يبق علينا إلا أن نفتح نافذة على العالم الإسلامي. وبطبيعة الحال هذه النافذة هي في الباكستان، باعتبارها أكبر دولة إسلامية. ولقد رأيتُ ذلك من أوّل واجبات المنظمة، إذ ليس من المعقول أن نجهد أنفسنا في طلب معونة دولة صغرى في أطراف أفريقيا ونهمل العالم الإسلامي بكل طاقاته وقدراته. ووقع الاختيار على الشيخ عبد الرحمن مراد (حيفا) ليكون مديراً لمكتب كراتشي. لقد أيقنتُ أن صداقتي مع المشير أيوب خان وزمالتي الطويلة لوزير خارجيته علي ذو الفقار بوطو، ستفتح لنا أبواب الباكستان على مصراعيها. وتردّدت على سفارة الباكستان في بيروت مرات، لطلب تأشيرة دخول والسماح بافتتاح مكتب المنظمة في كراتشي.

ومضت أشهر طويلة والتأشيرة لم تصدر، والشيخ عبد الرحمن مستقيل من عمله في القضاء الشرعي في دمشق. وأصبح الأمر عندي لغزاً كبيراً وخاب ظني في صداقتي العريقة مع الباكستان، ولولا الإسلام لم يكن هناك مبرّر لوجود الباكستان.

وتصيّدت صديقي القديم وزير الخارجية الباكستاني «ذو الفقار بوطو» في فندق هلتون في إحدى زيارته للقاهرة، وسألته في غضب ودود عن السبب. وأجاب «بوطو» بإيجاز: «ماذا أفعل، أنتم يضرب بعضكم بعضاً. أمين الحسيني بعث برسالة طويلة إلى المشير أيوب خان يقول فيها إن منظمة التحرير الفلسطينية تعمل على تصفية القضية الفلسطينية، وهي تسير في فلك القاهرة، وإن الشقيري يعمل على تحقيق هذه الأغراض الاستعمارية الصهيونية، بشعور أو غير شعور. لقد عجبت أن يصدر عن الحاج أمين مثل هذه الاتهامات بخاصة عليك، وأنت الذي كنت تسرد لي محاسنه ووطنيته». قلت: «نعم لقد كنت أسرد محاسنه، ولكني لم أكن أسرد لك مساوئه. وهو الآن في مرحلة أرذل العمر، حماني الله وإياك منها».

وخرجت من فندق هيلتون وأنا أقول: «ليت الحاج أمين وأمثاله من المشتغلين بالقضايا العامة يتعلّمون آداب الخصام السياسيّ من الإنكليز، من الأمريكيين، بل من الإسرائيليين، الأعداء الألداء».

تمّت هذه الإنجازات في ذلك العهد، عام ١٩٦٥ وشملت إنشاء جيش التحرير، وإذاعة المنظمة، وفتح مكاتبها، وإنشاء مركز الأبحاث، لتجابهني بعدها صعوبة الصعوبات ألا وهي المال. لقد كان نابليون يردّد أن عوامل النصر الثلاثة: الأول المال، والثاني المال، والثالث المال.

لقد بدأت الشكاوي تردني من عبد المجيد شومان رئيس مجلس إدارة الصندوق القومي بأن الحكومات العربية تتباطأ في الوفاء بالتزاماتها المالية التي أقرّها مؤتمر القمة الثاني في الإسكندرية. وهكذا وجب عليَّ أن أقوم بزيارة خاطفة إلى عدد من الدول العربية. وقلت في نفسي خير البر عاجله. واتصلت بالدكتور حسن صبري الخولي ممثل الرئيس جمال عبد الناصر وطلبت إليه أن يدعو الفريق يوسف العجرودي للاجتماع في مكتبه لنبحث موضوع فرض «ضريبة التحرير» على أبناء فلسطين في قطاع غزة. ولم أكد اشرح اقتراحي حتى قال: «إن الفريق العجرودي موجود الآن في مكتبي ونحن بانتظارك».

ووضعت سماعة التلفون وأخذت طريقي إلى مصر الجديدة إلى سراي الحكومة المركزية، حيث مكتب الدكتور الخولي.

وعرضت رأيي بشأن فرض «ضريبة التحرير» على سكان القطاع، وسردنا تفاصيلها في نسب معينة: على رواتب الموظفين، وعلى صناديق البرتقال التي تشحن للخارج، وعلى بيع الأموال غير المنقولة، وعلى الإرث، وعلى.. وتمت الموافقة على ذلك كله.

واتصل العجرودي بمكتبه في قطاع غزة، وأملى عليهم تفاصيل المشروع، وطلب إليهم أن توضع في صيغة قانون يعرض على المجلس التشريعي في غزة، في أقرب وقت.

وفي الواقع، لم تمض أيام حتى قدم مشروع القانون إلى المجلس التشريعي في غزة فأقرّه (في ١٥نيسان/ أبريل١٩٦٥)، واعتبره نافذ المفعول بصورة عاجلة. وكان التقدير الأولي أن حصيلة الضريبة السنوية ستصل إلى ٧٥٠ ألف جنيه مصري.

وأحسست أنه قد آن الأوان لأقوم بزيارة خاطفة للدول العربية، فإن بيدي هذه النتيجة الباهرة حيث سيقدم شعبنا في قطاع غزة، ومعظمه من اللاجئين، لمنظمة التحرير ثلاثة أرباع مليون جنيه. وحملت حقائبي «وهي معدة أبداً ودائماً» إلى مطار القاهرة، ومنها إلى مطار عمّان ومنه إلى فندق الأردن إلى الجناح الذي أنزل فيه دائماً. لقد كان موظفو الفندق يحرصون على راحتي بقدر «حبهم» للملك حسين!!

وتكاثر عليَّ الصحافيون يريدون مني أن أتكلّم بصراحة. عن مهمتي، وعن موقف الملك حسين من منظمة التحرير. وكانت سياستي إلى ذلك العهد أن أجامل الملك حسين إلى أبعد الحدود، وأن أستنفد معه كل وسائل الملاينة والملاطفة حتى أجعل لمنظمة التحرير موطئ قدم في وطنها، في الأردن. وأجبت الصحافيين أجوبة

عامة، مثنياً على «جلالة الملك حسين لتأييده منظمة التحرير الفلسطينية».

ومال عليَّ أحد الصحافيين هامساً: «والله ما فيه فايدة من مجاملة الملك. ونحن لا نعرفك دبلوماسياً. إذا ما خربت مش حتعمر».

قلت: «يا أخي هوِّن عليك». ولم أكد أنهي كلامي حتى دق جرس التلفون من الديوان الملكي بأن «سيدنا» سيستقبلني في تمام الساعة الواحدة ظهراً.

وكنت في الموعد المحدد أعبر بسيارتي بوابة القصور الملكية، إلى الديوان الملكي.

وجلست في صالة الاستقبال، وموظفو الديوان يسألون عن الجو في القاهرة. والقهوة العربية تدخل علينا المرة بعد المرة، و«سيدنا» لم يأت بعد. لقد عشت كل عمري حريصاً على المواعيد. ميعاد نومي ويقظتي، ووجبات الطعام، حتى إنني حين كنت الأمين المساعد للجامعة أذهب كل صباح إلى مكتبي في الساعة التاسعة، ويطل الموظفون من النوافذ يقول بعضهم لبعض: اضبطوا ساعاتكم.

ومن دون أن أُشعر أحداً بالغضب أو العتب، خرجت من الديوان الملكي وحملت بعضي إلى سيارتي ومنها إلى الفندق، إلى قاعة الطعام. لقد بلغت الساعة الثالثة والنصف لأعالج معدتي من هذه الفوضى «الملكية الهاشمية» التي وقعت فيها.

وفيما كنت أتناول الطعام، وخدم الفندق، يقدمون الأطباق بالحب والعطف إلى أخ لهم يرون في وجهه ما يعاني من أجل وطنهم ووطنه، إذا بالتلفون يدق من الديوان الملكي بأن «سيدنا» شرَّف، وأنه ينتظرني. وأجبت بأنني سأحضر بعد أن أنتهي من طعامي.

وغادرت قاعة الطعام، وأصدقائي وأحبائي، خدم الفندق يدعون: و«الله يوفقك وينصرك على كل ظالم» ولله شعبنا ما أكرم محتده.

ودخلت على الملك حسين في مكتبه، وهو يروح ويغدو بين أطباق الدخان. وكان سلام وتحية ثم سؤال عن صحة الأخ الرئيس عبد الناصر. وانتقلت بعد ذلك إلى الناحية المالية، وذكرت له أن الأردن لم يدفع نصيبه إلى منظمة التحرير، وأننا نريد أن نطبّق ضريبة التحرير على الإخوان الفلسطينيين في الأردن.

قال: «سأوعز إلى وزارة المالية أن تدفع حصتنا إلى المنظمة، مع أنك تعرف ظروفنا المالية الصعبة. أما بالنسبة إلى ضريبة التحرير على الفلسطينيين فأنت تعلم أننا نريد أن نتجنب الحساسيات في الأردن، ولا نريد أن نخلق فوارق بين فلسطيني وأردني، ونخلخل الوحدة بين الضفتين».

قلت: «إن المنظمة حريصة على هذه الوحدة، وحاشا لله أن تفرق بين فلسطيني وأردني، وإني أقترح أن نفرض الضريبة على «المواطنين»، وهذا اللفظ لا يشير إلى الفلسطينيين ولا إلى الأردنيين».

قال: «ولكن الأردنيين يشعرون بغضاضة إذا لم يساهموا في دفع الضريبة».

قلت: «إذن فلتكن الضريبة على «الأردنيين» عموماً وبهذا يدفع الفلسطينيون والأردنيون معاً، وعلى السواء، وهذا شرف للجميع، بل إنه واجب على الجميع».

قال: «لكنك تعرف أن الأردن بلد اللاجئين، والناس هنا في حالة مالية صعبة».

قلت: «أنا أعلم أن الأهالي يريدون أن يدفعوا الضريبة عن طيب خاطر، ثم إن قطاع غزة هو في حال أسوأ من الأردن، ومع هذا فقد طبقنا ضريبة التحرير في القطاع وتبلغ حصيلتها ثلاثة أرباع مليون جنيه. إن ثلاثة أرباع السكان في قطاع غزة هم من اللاجئين».

قال: «سنعرض الأمر على البرلمان، لأن الضريبة تحتاج إلى قانون».

قلت: «يا سيدنا لسنا في حاجة إلى قانون. . يكفيني أمر إداري من وزارة المالية، وأنا على يقين أن الأهالي، والموظفين بخاصة، سيقبلون على دفع الضريبة بكل سرور».

قال: «وهل علينا أن نرسل المبالغ المتحصّلة إلى القاهرة؟ ستأخذ القاهرة مبالغ الإسترليني، ثم تقيّدها لكم بالجنيه المصري».

قلت: «لنا حساب في البنك العربي في بيروت، لا داعي لإرسالها إلى القاهرة. وكن على ثقة بأن أموال المنظمة ستكون دائماً تحت تصرف المنظمة ولن يكون للقاهرة أي سلطان عليها».

وطال الأخذ والرد من دون أن نصل إلى نتيجة حاسمة. وانتهى الاجتماع على غير اتفاق. وخرجت من الديوان الملكي لأجد الصحافيين في انتظاري بالسؤال التقليدي:

«هل تم الاتفاق مع سيدنا»؟

قلت: «إن سيدنا لا يتأخّر عن تأييد منظمة التحرير، وكان اجتماعي به ودياً للغاية».

قلت هذا، وفي نفسي الصراع الذي ينتابني بعد مقابلتي لكل ملك ورئيس،

الصراع بين الكذب والصدق، أن أقول الحقيقة عما يجري بيني وبين الملوك والرؤساء. ولقد يكون الصدق هو الأسهل؛ أأقول الحقيقة وأكسر الجرة، وأنهي منظمة التحرير وأعود إلى بيتي بطل الحقيقة والصدق!! ولكني كنت أختار الكذب، ولقد احتملته من أجل قيام منظمة التحرير وبقائها. وأصبح «الكذب» من واجباتي الوطنية. هذا ما فرضه علي الملوك والرؤساء!!

كان ذلك أمري مع الصحافة في معظم الأحوال. أما في الداخل، في الغرف المقفلة فقد كان الصدق، الصدق الصارخ، هو ديدني. حتى إن أحد الوزراء العرب قال لي مرة: «ما أقساك على الملوك والرؤساء في الداخل، وما أهدأك في الخارج». وكان هذا الوزير جواد هاشم وزير الخارجية العراقية السابق الذي رمته الأقدار ليعمل اليوم في خدمة الأمم المتحدة، بدلاً من أن يكون في خدمة الأمة العربية!!

وقضيت بضعة أيام بين عمّان والقدس، في لقاءات متواصلة مع الإخوان الفلسطينيين. وكان بعضهم يرى الإبقاء على شعرة معاوية مع الملك حسين، والبعض الآخر يرى هدم الجسور، فلا فائدة من الملك حسين، ولا من الحكم الأردني بأسره.

ولقد اخترتُ في تلك الفترة ألا أكون ليناً فأُعصرْ، ولا صلباً فأُكسر. لقد كنت أعرف نقاط الضعف في الأوضاع الأردنية منذ أن أنشئت إمارة شرق الأردن، إلى أن ألحقت بها الضفة الغربية، إلى أن أصبحت المملكة الأردنية الهاشمية بعد الكارثة. . ولكني كنت أذكر نفسي دائماً بأن منظمة التحرير ولدت على فراش مؤتمرات القمة، ولا تزال ترضع من ثديها. ولنحرصْ على حياة هذا الرضيع، إلى أن يصبح وليداً قادراً ويقف على قدميه.

وأعددتُ نفسي للسفر إلى الرياض. لقد خُلع الملك سعود، وتولى الأمير فيصل المُلْك من بعده، ولأذهب إلى هذا الصديق القديم ولأنسَ ما جرى بيني وبينه أيام أزمة اليمن. وأنا الآن في صميم القضية الفلسطينية، ومن أجلها عليَّ أن أتجاوز كل شيء.

ووصلت الرياض، فلم أجدها كعهدي بها، إذ إنها كانت تعج بالخلائق من كل أنحاء المملكة، وبالوفود العربية والأجنبية من الخارج. كلها جاءت لتبايع الملك فيصل، أو لتهنئته في توليه أمور المملكة. وشهدت واحدة من جلسات المبايعة، فقد سبقتني أمثالها لأسابيع خلت، ويدخل العديدون في صفوف طويلة، قبيلة قبيلة، أو قرية قرية، أو مدينة مدينة، فيمرّون أمام الملك فيصل، يخلعون كتفه وهم يصافحونه بقوة وعزيمة، ليقولوا: «بايعناك على كتاب الله، وسنة رسول الله».

والواقع أن الذي يتولّى الحكم في المملكة العربية السعودية، يجب أن يوطن نفسه

أن يخلع كتفه، ويتصدّع رأسه، فإن مطالب الرعية كثيرة، وعلى الملك أن يلبيها. وفضلاً عن أهل الحضر، فإن أهل البادية يأتون بأنفسهم إلى الرياض ليقولوا: «يا طويل العمر، هلكت بقرتي في السيل أريد معاونة؛ هذا العام عندنا محل أريد مساعدة؛ الموتور انكسر نريد خلافه». . وهكذا. .

وإذا تململ طويل العمر أو اعتذر، صاح البدوي في وجهه، «أنت مسؤول عن الرعية، يا طويل العمر، والله ما نروح حتى تساعدنا. . ساعدك الله». . .

واختلست ساعة، ودخلت على الملك فيصل في مكتبه الخاص، ورجعتُ به إلى ذكرياتنا القديمة أيام لقيتُه لأول مرة في أمريكا ١٩٤٥[٣] بعد مؤتمر سان فرنسيسكو وقد حضره رئيساً للوفد السعودي، واستذكرنا لقاءاتنا المتلاحقة في الأمم المتحدة وفي الجامعة العربية، والرسائل الكثيرة التي تبادلناها مع الأعوام بشأن القضايا العربية والدولية قبل التحاقي بخدمة المملكة العربية السعودية، وبعدها. ثم وقفت عند موضوع أزمة اليمن شارحاً له وجهة نظري في أن مثل هذه الخلافات يجب أن تحلّ بين جدران الأسرة العربية. وقلت في النهاية «إذا كنت قد أخطأت معك فأرجو معذرتك. أنا الآن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وكل ما أرجوه منك أن تعاونني في حمل هذه الأمانة الضخمة. وأنت تعرف مصاعب هذه القضية وقد رافقتها من بدايتها».

قال: «أرجو من الأخ أحمد أن يعتبر أن موضوع اليمن قد انتهى. وأنا لا أحمل لك إلا التقدير. ونحن لا ننسى مواقفك في سبيل القضية. وسأعمل كل جهدي لمؤازرتك». .

قلت: «يا طويل العمر أرجو أولاً أن تأمر وزارة المالية بدفع جميع الالتزامات المترتبة على المملكة للقيادة العربية الموحدة وهيئة تحويل الروافد ومنظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير».

قال: «سيصدر الأمر اليوم، وآمل ألا تكون قد عدت إلى القاهرة إلا وتكون المبالغ المطلوبة قد تحوّلت».

قلت: «وأرجو كذلك أن تسمح لنا بفتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في الرياض، وأن تأذن لنا بأن يُستوفى من الموظفين الفلسطينيين مبلغ خمسة في المئة من رواتبهم تدفع للصندوق القومي الفلسطيني».

---

(٣) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

فأطلق الملك فيصل من فمه ابتسامة ذكية هادئة، وقال: «يا أخ أحمد، لا لزوم لأن تنشئوا مكتباً في الرياض وتتكلّفوا نفقات ورواتب موظفين. المملكة كلها مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية. واعتبرْ أن مكتبي هو مكتب المنظمة».

قلت: «وضريبة التحرير على الفلسطينيين»؟

قال: «الفلسطينيون عندنا موظفون أو عمال، جاؤوا ليعملوا هنا ليعولوا عائلاتهم. نحن لا نستطيع أن نجبرهم أن يدفعوا شيئاً».

قلت: «ليس في الأمر إجبار. أعتقد أنهم يرغبون في أن يتبرّعوا لمنظمة التحرير. نحن نريد من وزارة المالية أن تخصم الضريبة من رواتب الموظفين وتحولها إلى الصندوق القومي».

قال: «هذا الموضوع خارج عن اختصاص وزارة المالية. ولا تملك وزارة المالية أن تخصم من رواتب الموظفين شيئا».

وسكتّ برهة، وأنا لا أدري ماذا أقول وماذا أفعل. إني أعرف الملك فيصل جيداً، إنه يرفض أن يكون لمنظمة التحرير أية صلة بالفلسطينيين في المملكة. ولا فائدة من مجادلته ولا من التوسل إليه فإن عنده خزائن من الأجوبة عن كل الأسئلة، وعلى النحو الذي سردته. ولم أشأ كذلك أن أقطع الحبل معه، فقد كنت عزمت منذ توليت رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية أن أحتمل كل شيء، وأن أصبر على كل شيء من أجل فلسطين. ولولاها لكان أكرم لي أن أكون في بيتي مع كتبي، بعيداً عن أعتاب الملوك والرؤساء!!

وانتهى الحديث بيني وبين الملك فيصل، وأنا أردد وأعيد وأؤكد، بأن منظمة التحرير الفلسطينية ستكون مع الدول العربية جميعها لا لواحدة منها، وأنها فوق الخلافات العربية، وأنها لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية، وأنها.. وأنها..

ونهضت أودع جلالته وهو يقول: «سنضع كل إمكاناتنا من أجل القضية الفلسطينية». ولقيت الصحافيين على الباب فأمطروني بالأسئلة المعتادة. وأجبت إن «العاهل العربي العظيم قد أمر بدفع الالتزامات المالية، وسيساند منظمة التحرير والقضية الفلسطينية. وحيا الله السعودية ملكاً وحكومة وشعباً».

لقد كنت صادقاً في بعض ما قلت، وكاذباً في البعض الآخر. وهذا هو بلاء القضية الفلسطينية مع الدول العربية. وكان الملك فيصل نفسه هو الذي أثبت كذبي حين أثنيت على موقفه، فلم تمض بضعة أسابيع على زيارتي للرياض حتى سمح للهيئة

العربية العليا أن تفتح لها مكتبين: واحداً في الرياض والآخر في جدة، وأن تستوفي من الفلسطينيين في السعودية تبرّعات مالية، مع أن الهيئة العربية العليا قد انحلتْ بعد كارثة فلسطين عام ١٩٤٨ ولم يبق منها إلا أمين الحسيني، وخاتم قديم منقوش عليه «الهيئة العربية الفلسطينية».

ومن الرياض، ولّيت وجهي شطر الكويت عسى أن أكون أكثر حظاً، فإن برقيات الصندوق القومي كانت تلاحقني وتطالبني بجباية المال، من الدول العربية وأبناء فلسطين. وتذكرت القول المأثور: «إن الله قد أرسل محمداً هادياً وما أرسله جابياً». ولأكنْ ذلك الجابي.

ولم يكن الأمر عسيراً في الكويت. لقد اجتمعت، بعد وصولي، بالأمير عبد الله السالم الصباح، وبوزير الخارجية الشيخ صباح السالم (الأمير حالياً) وبالشيخ جابر الأحمد وزير المالية (رئيس الوزراء حالياً وولي العهد) وشرحت لهم مطالبي فوافقوا على إنشاء مكتب لمنظمة التحرير في الكويت.

ووافقوا على دفع الالتزامات المالية المقرّرة من قبل مؤتمر الإسكندرية. أما ضريبة التحرير ففيها نظر.

وكان الرأي أن أية ضريبة يجب أن يصدر بها قانون من قبل مجلس الأمة. هذا هو نص الدستور. وتملك الكويت دستوراً، خلافاً لما يجري عليه الحال في عدد من الدول العربية الأخرى. . وإنها مفارقة محزنة حقاً. وبعد تبادل الرأي، وافق الأمير ووزراؤه أن يتم خصم الضريبة من رواتب الموظفين الفلسطينيين من قبل وزارة المالية بصورة إدارية، على أن يكون لأي موظف الخيار في رفض الخصم إذا شاء.

وأعلنت هذا الاتفاق في مؤتمر صحافي أثنيت فيه على الكويت أميراً وحكومة وشعباً. وصادف قدومي أواخر الشهر، فلم يتخلّف فلسطيني واحد من السبعين ألف فلسطيني في الكويت عن الدفع، وتجاوزت الحصيلة خمسين ألف جنيه في الشهر الواحد. . وتنفّست الصعداء وحمدت الله، وأدركت الألم الكامن في القول الشهير: «كاد الفقر يكون كفراً». .

ومن الكويت أسرعت إلى بيروت ودمشق. ولا حرج عليَّ أن أقفز إلى النتيجة، لأقول إن مهمتي في كلتيهما كانت فاشلة وناجحة معاً. وفي بيروت أبلغني رئيس الجمهورية شارل حلو بعد حديث حافل بالمودة، أنه رئيس دستوري ولا يستطيع أن يتعدّى سلطات الحكومة. ولكنه سيبذل كل جهده. وأبلغني رئيس الوزراء الدكتور عبد الله اليافي أن الأمر من اختصاص مجلس الوزراء، وسيعرض عليه الأمر ولكنه سيبذل كل جهده. وأبلغني وزير المالية الحاج حسين العويني أنه لا

يستطيع أن يفرض ضريبة التحرير على الموظفين «اللبنانيين» الذين هم من أصل فلسطيني، فهؤلاء لبنانيون في نظر القانون. والقانون لا يخوّل الحكومة أن تفرض عليهم ضريبة لصالح منظمة التحرير الفلسطينية. أما بالنسبة إلى مكتب منظمة التحرير في بيروت فقد قال الحاج حسين العويني، وكان يومئذ قائماً بأعمال وزارة الخارجية، بأن لبنان موافق على ذلك وأنه سيمنح مكاتب المنظمة جميع الحصانات الدبلوماسية. وبهذا تجاوز لبنان معظم الحكومات العربية. ولم أغادر لبنان حتى أقرّت الحكومة كل التزاماتها لمنظمة التحرير الفلسطينية وللقيادة العربية الموحدة، وهيئة تحويل الروافد. وصدقوا جميعاً في ما وعدوا، كل في دائرة اختصاصه. إلا في موضوع ضريبة التحرير.

وبانتهاء مهمتي في بيروت سافرت إلى دمشق، فوجدت مفرزة من الجيش السوري في استقبالي، على الحدود. واستبشرت خيراً، فقد كنت حريصاً على تأييد سوريا لمنظمة التحرير لأني أعرف مقام سوريا في معركة التحرير.

واجتمعت بمجلس الرئاسة، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، وعدد من أعضاء القيادة القطرية . . شارحاً لهم ما وصلت إليه من إنجازات في الدول العربية إلى ذلك العهد، ولكني وجدت التجاوب فاتراً، متحفظاً، غامضاً.

وقد حاولت أن أستلّ من أفواههم وصدورهم سبب هذا الموقف، وسألت:

«هل في المنظمة خلل؟ أرجو أن تدلوني عليه، وأنا مستعد لإصلاحه. هل لديكم من ترشحونه من الإخوان البعثيين الفلسطينيين ليكون في قيادة المنظمة وفي مكاتبها، وفي أجهزتهاالإعلامية؟ وأنا حاضر لأنظر في أمر تعيينه. هل تريدون أن أستقيل من رئاسة المنظمة، ويختار الشعب الفلسطيني رئيساً مكاني»؟

كنت أطرح هذه الأسئلة وكثيراً مثلها، فلا أجد لها جواباً إلا انفراج الشفتين، لا عن جواب، ولكن عن ابتسامة لم أفهم معناها لأني ما تمرّست في حياتي «بترجمة» الابتسامات والتعرّف على أشكالها وألوانها.

وأخيراً اقترح مجلس الرئاسة السوري أن أجتمع بعبد الكريم الجندي المسؤول عن جهاز الأمن العام.

وفي ساعة من الثأر لكرامتي وعقلي، خطر في بالي أن أغادر دمشق، وأخرج الحكومة السورية من حسابي بالنسبة إلى منظمة التحرير.

ولكنها فلسطين، هي التي لجمتني عن هذا التصرف كما لجمتني في مواقف كثيرة مع الدول العربية.

وفي الموعد المحدد ذهبت إلى مكتب عبد الكريم الجندي فأعلمني أن مجلس الوزراء سيقرر في أول اجتماع له الوفاء بجميع الالتزامات المالية. أما المنظمة . .

قلت: «خيراً إن شاء الله . . ما هو موضوع المنظمة»؟

قال: «الحق أن المنظمة ليست ثورية».

قلت: «هل تسرد لي الأسباب»؟

قال: «الواقع، إننا تحدّثنا ملياً في موضوع المنظمة، وإن الحزب قد وصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الموضوع. المنظمة ليست ثورية».

قلت: «وكيف تريدون المنظمة لتكون ثورية»؟

قال: «مثلاً، أنت ماشي مع الدول الرجعية. في السعودية كنت تكيل المديح للملك فيصل. وفي الكويت لم تترك ثناء إلا وأسبغته على الأمير وحكومته».

قلت: «إن ظروف القضية الفلسطينية تفرض عليّ مجاملة جميع الدول العربية؛ ما لم أواجه خيانة، فأنا حاضر للقتال والنزال».

قال: «نترك هذا الموضوع جانباً. إن الحزب يرى تأليف جبهة وطنية تجمع كل المنظمات الفلسطينية».

قلت: «وما الداعي لإنشاء جبهة وطنية؟ إن منظمة التحرير قائمة، وقد اختارها المجلس الوطني، وفيه أعضاء يمثلون كل الاتجاهات الفلسطينية، حركة فتح، والقوميين العرب، والشيوعيين، والبعثيين والمستقلين . .».

قال: «نحن نرى تأليف جبهة فلسطينية، وأن تدخل المنظمة إلى هذه الجبهة».

قلت: «العكس هو الذي يجب أن يكون، المنظمة هي الأم. وإذا كان هنالك منظمات غير ممثلة في منظمة التحرير يمكننا أن نبحث أمر ضمّها». وطال الجدل حول هذا الموضوع قريباً من ثلاث ساعات لم أترك لعبد الكريم الجندي حجة إلا «أنهكتها»، وحسبت أنه اقتنع.

وقلت: «يبدو أننا اتفقنا، ولنقرأ الفاتحة تيمناً في هذا الاتفاق».

وكانت لحظة اهتزت لها دمشق عرين العروبة ومعقل الإسلام. لقد وقف عبد الكريم الجندي محملقاً وقد تورّمت أوداجه وهو يقول: «وهل أنا رجعي حتى أقرأ الفاتحة»؟!

وذهلت أمام هذه المفاجئة المذهلة . . واستشعرت أنه لم يعد لي مكان في ذلك الاجتماع وخرجت ولا تصدق أذناي ما سمعتا. وكان ذلك آخر اجتماع بعبد الكريم الجندي، وانتحر بعد ثلاثة أعوام. ومن عجب أن القيادة القطرية لحزب البعث قد نعته ببيان يتصدر بسورة الفاتحة نفسها، «بسم الله الرحمن الرحيم» فقلت في نفسي، لقد أبى رحمه الله أن يلفظها في حياته، فلحقته في مماته، غفر الله له، وبرّد مرقده.

والواقع أن هذا التحلّل الديني لم يكن قاصراً على عبد الكريم الجندي وحده، فقد كانت السلطة في دمشق آنذاك تفرض أن يكون القسم الرسمي مبتدئاً بعبارة «أقسم بشرفي ومعتقدي».

ولقد أثلج صدري، وأنا أراجع مذكراتي في صيف ١٩٧١، أن القيادة القطرية لحزب البعث في دمشق قد جنحت إلى الإيمان فأعلنت أن نص القسم الذي يؤديه رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس الشعب ورئيس الوزراء والوزراء يجب أن يبدأ بعبارة «أقسم بالله العظيم»، وبهذا انسابت السكينة إلى جوانح دمشق، واطمأنت إلى عروبتها وإسلامها، فإذا ضاع الإيمان ضاعت معه العروبة والإسلام.

وغادرت دمشق التي عاشت كل كفاحها من أجل القضية الفلسطينية، من أيام الدولة العثمانية، وقد أخفقتُ أن أظفر بمساندة حزب البعث بقيادته لمنظمة التحرير الفلسطينية، لسبب واحد دون سواه: لا لأني لست وطنياً مخلصاً لوطني، ولا لأن منظمة التحرير الفلسطينية لا تمثل الشعب الفلسطيني، ولكن لأني لست بعثياً، ولأن منظمة التحرير ليست بعثية. وهذه بلية الحزبية التي لا تؤمن إلا بنفسها ولو كانت كافرة، وتكفر بغيرها ولو كان مؤمناً. في حين أني ألتقي مع البعث في مبادئه، أنا أؤمن به وهو يكفر بي!!

وصلت القاهرة بعد هذه المرحلة المضنية، لأجد التقارير السارة أمامي بما يرد إلى الصندوق القومي من تبرعات الشعب الفلسطيني في كل مكان، سواء منهم الذين تحسم من رواتبهم «كضريبة» أو الذين يدفعونها تبرعاً وتطوعاً.

لقد كانت «تبرعات» الشعب الفلسطيني أهم عندي من «التزامات» الدول العربية، فإنها المورد الثابت الذي كنا نتكئ عليه عند الملمات، والأزمات.

وهذه الملمّات تجمّعت على المنظمة التحرير الفلسطينية، بعد العام الأول والثاني من قيامها. ولقد أخذت الدول العربية تفلت واحدة بعد الأخرى، من التزاماتها المالية لمنظمة التحرير ولجيش التحرير. ولم أحضر اجتماعاً من مستوى الملوك والرؤساء إلى مستوى الوزراء والسفراء إلا واستنجدت بالمروءات والنخوات لتفي الدول العربية بالتزاماتها.

ولقد كان الظن أن السبب في ذلك التلكؤ هو «الشقيري» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، فلما اعتزلت، وتولى غيري رئاسة المنظمة، حسبت أن الحكومات العربية ستدفع التزاماتها للمنظمة بعد أن غادرها رئيسها السابق الذي يريد أن يلقي اليهود بالبحر، ويا للهول!!

ورجعت إلى ملفاتي وأنا أكتب هذا الفصل فوجدت أنه في السنوات الثماني ما بين ١٩٦٤ ـ ١٩٧١:

الأردن: تخلّف ست سنوات عن دفع التزاماته للمنظمة ولجيش التحرير.

تونس: تخلّف سبع سنوات عن دفع التزاماته للمنظمة وخمس سنوات لجيش التحرير.

الجزائر: تخلّف ست سنوات عن دفع التزاماته للمنظمة ولجيش التحرير.

السودان: تخلّف سبع سنوات عن دفع التزاماته للمنظمة ولجيش التحريرّ

العراق: تخلّف سبع سنوات عن دفع التزاماته للمنظمة ولجيش التحرير.

السعودية: تخلّفت ست سنوات عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير.

سوريا: تخلّفت ست سنوات عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير.

الجمهورية العربية المتحدة: تخلّفت ست سنوات عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير.

اليمن: تخلّفت ثماني سنوات عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير.

الكويت: تخلّفت ثماني سنوات عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير.

لبنان: تخلّف أربع سنوات عن دفع التزاماته للمنظمة وسنتين لجيش التحرير.

ليبيا: تخلّفت ست سنوات عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير.

المغرب: تخلّفت ثماني سنوات عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير.

ولو سألت هذا الملك أو ذلك الرئيس لماذا تتخلّفون عن دفع التزاماتكم لمنظمة التحرير لقالوا: «نحن ندفع للجبهة الفلانية أو للمنظمة الفلانية». وبذلك، يعمل الملوك والرؤساء على تمزيق القيادات الفلسطينية عن طريق المال، بالإضافة إلى الوسائل الأخرى!!

ولقد عدت إلى أيام طلب العلم، حين كنت أدرس الحساب، فجمعت

وجمعت، وكانت النتيجة أن الدول العربية الثلاث عشرة مدينة حتى ١٩٧١ للمنظمة والجيش بمبلغ تسعة عشر مليوناً من الجنيهات، وهو مبلغ يجمعه اليهود في نيويورك في ولائم موسمية في هذا الفندق أو ذاك.

وإزاء هذا التخلّف العربي، كان على المنظمة في كثير من الأحيان أن تنفق على جيش التحرير الفلسطيني، في مصر وسوريا والعراق من تبرّعات الشعب الفلسطيني.

وقد ظننت في مؤتمر الإسكندرية، يوم حملت أمانة منظمة التحرير أن الدول العربية لن تخذلني ولن تخذل المنظمة، حين أعلن الملوك والرؤساء في قراراتهم السرية أن «كلمة الشرف من قبل الملوك والرؤساء هي الضمانة الوحيدة للوفاء بجميع الالتزامات المالية المترتبة للقيادة العربية الموحدة، لهيئة تحويل الروافد، ولمنظمة التحرير ولجيش التحرير . . ».

ولست أريد أن أعقب، أو أعلق على ذلك القرار في قليل أو كثير، ولا أن أتحدّث عن كلمة «الشرف» ومقامها عند «شرف» الملوك والرؤساء، فقد تحدث عنها ملك الملوك ورب الأرباب:

﴿**كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾[٤] صدق الله العظيم.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة الصف،» الآية ٣.

صداقتي وعداوتي مع بورقيبة

أول من عرفت في حياتي السياسية، من الملوك والرؤساء، الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة. ولم يكن يوم عرفته رئيساً، ولا كانت تونس جمهورية مستقلة.

كان ذلك قبل سبعة وثلاثين عاماً، وفي مدينة عكا وحين جاءنا المناضل التونسي حبيب بورقيبة ليدعو لقضية بلاده يوم كان تحرير تونس خيالاً أو محالاً.

ولقد طاف الحبيب بورقيبة المدن الرئيسية في فلسطين يشرح مظالم الاستعمار الفرنسي، ويحضّ على مؤازرة الشعب التونسي في كفاحه لتحرير وطنه. واحتفت الأوساط الوطنية بهذا النضال العرب إذ كنا نرزح تحت مظالم الاستعمار البريطاني. وكانت فرصة لفلسطين وتونس أن يتشاكيا، وأن ينشدا مع الشاعر: «تعالي أقاسمك الهموم تعالي». . .

ولم يقتصرْ أمرنا مع الحبيب بورقيبة، على «تقاسم الهموم»، فقد أسعفه الشعب الفلسطيني بما تيّسر عنده من المال، لا منّة ولا صدقة، ولكن نهوضاً بواجب النضال العربي. وقبل أن يرتفع شعار «العمل العربي الموحد» بزمان وزمان.

وغادرنا الحبيب بورقيبة، وقد تركت «عصبيّته» وحماسته وإيمانه بالقضية التونسية أعظم الأثر في نفوسنا، وأحسب أنه امتلأتْ نفسه إعجاباً ببسالة الشعب الفلسطيني واستمساكه بقضيته الوطنية، ومساندته للقضية التونسية.

واستمر الاتصال الروحي بيننا وبين بورقيبة في مراحل كفاحنا ضد الاستعمار الصهيوني. وكان بدوره لا يفتر عن الإدلاء بالتصريحات الصحافية في تأييد القضية الفلسطينية، بخاصة أيام لجوئه إلى القاهرة في الأربعينيات وما بعدها. .

وكان أن جاءت لجنة التحقيق الأنكلو ـ أمريكية في أوائل ١٩٤٦ إلى البلاد العربية لدراسة القضية الفلسطينية ووضع التوصيات بشأنها، وكنت يومها في المكتب العربي في القدس أشرف على إعداد الدراسات والمذكرات اللازمة لتقديمها إلى اللجنة

الأنكلو ـ أمريكية؛ وكان الحبيب بورقيبة، واحداً من زعماء العرب في القاهرة الذين أرسلنا إليهم هذه الدراسات.

والتقت اللجنة الأنكلو ـ أمريكية في القاهرة بعدد من زعماء العرب، وكان الحبيب بورقيبة في جملة من عرض عليها وجهة النظر العربية «باسم الأقطار العربية في شمال أفريقيا». وكانت شهادته «فلسطينية» حقاً بكل معنى الكلمة، استخدم خلالها الدراسة التي بعثناها إليه خير استخدام.

ولقيته غير مرة في القاهرة، في مكتب صديقه القديم، محمد علي الطاهر صاحب جريدة **الشورى** وصديق جميع المجاهدين والنازحين إلى مصر. وكنت أستشف من حواري معه، مبلغ فهمه للقضية الفلسطينية، وسبره غور الخطر الصهيوني على الوطن العربي بأسره.

وتوالت الأعوام تعقب الأعوام، إلى أن أصبحت مندوباً عربياً في الأمم المتحدة، وأصبح الحبيب بورقيبة شريداً مرة وسجيناً مرة أخرى تطارده السلطات الفرنسية، في كل مكان؛ فوقفت نفسي للدفاع عن القضية التونسية في قلب باريس أثناء انعقاد الأمم المتحدة فيها. ونشأت زمالة نضال بيني وبين الزعماء التونسيين الذين كانوا يترددون على الأمم المتحدة: الباهي الأدغم، وصالح بن يوسف، ومحمد بدرة، والمنجي سليم، والحبيب بورقيبة الابن[1].

وكان الحبيب بورقيبة يواصلني برسائله مليئة بالتقدير والود، وأن الشعب التونسي سيكافئني في قضية فلسطين بعد أن يأذن الله بتحرير تونس.

ولقد أذن الله، وأخذت تونس طريقها إلى التحرير، وعاد الحبيب بورقيبة إلى تونس ليقود شعبه في مرحلة الحرية والاستقلال وله في ذلك فضل كبير ووراءه تاريخ كبير.

وجاءت مرحلة الجلاء الفرنسي عن ميناء بنزرت، وكانت فرصة وطنية اغتنمها الرئيس بورقيبة فدعا الدول العربية والصديقة لشهود احتفالات الجلاء. وتذكر الرئيس بورقيبة الأصدقاء القدامى فجاءني سفيره في القاهرة، الصادق المقدم يحمل إلي الدعوة للاشتراك في الاحتفالات، وكنت يومها الأمين العام المساعد للجامعة العربية ورئيس الوفد السوري للأمم المتحدة.

---

(١) انظر التفاصيل في: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وكان سروري عظيماً يوم وصلت تونس الفاتنة بعد الاستقلال، ولا يعادله إلا سروري يوم العودة إلى بلدتي الجميلة، عكا، مدينة التاريخ، أو طروادة العصور الوسطى كما يقول عنها قصاصو الحروب الصليبية.

والحق أن تونس العاصمة الخضراء بأسرها، بشواطئها الخلابة من أجمل بلاد الله، وقد أخذت بدماثة أهلها ونظافة مدنها وقراها، وجزالة زيتونها وبرتقالها، وأندلسيات موشحاتها.

وكانت أياماً تاريخية لا تنسى تلك التي قضيناها في بنزرت، احتفالاً بالجلاء الفرنسي عنها. وكانت حشود الشعب التونسي تنساب في الميادين والشوارع مبتهجة بتحقيق آمالها العظام بعد سبعين عاماً من الاحتلال.

وفي الساحة الرئيسية تجمّع الشعب التونسي، واخترقت الوفود العربية والصديقة طريقها إلى المنصة الرئيسية، وجلس الرئيس بورقيبة في مقام الصدارة وقد تصدّرت على وجهه ومضات مشرقة من البهجة والسرور. وجلس من حوله الرئيس عبد الناصر، والرئيس بن بللا، وسائر رؤساء الوفود؛ وكان جلوسي معهم.

وخطب عبد الناصر وبن بللا يحيّيان جهاد الشعب التونسي في هذه الذكرى المجيدة ويندّدان بالاستعمار والصهيونية، ويذكران قضية فلسطين بالخير. ونهض من بعدهما الرئيس بورقيبة يتحدّث باللهجة التونسية تارة، وبالفصحى تارة أخرى، مستعرضاً تاريخ الكفاح التونسي، ومشيداً بالتضامن العربي، وشكر للوفود العربية والصديقة مشاركتها في هذه المناسبة العظيمة. ووجّه تحية خاصة إلى الشعب الفلسطيني قال في ختامها: «وهنا معنا الأخ الشقيري ابن فلسطين، الذي لا ننسى دفاعه عن قضية تونس والقضايا العربية الأخرى».

ولقد شملت برامج الاحتفالات، زيارة مقابر الشهداء، والمصانع والمنشآت العامة. وكانت أيام ماطرة، فعانى الرؤساء ساعات من الوحل والرذاذ في سبيل الجلاء. وكنا كلما نزلنا من السيارات عند المعالم التونسية، كان الرئيس عبد الناصر يقول لي: «أصبحنا نغار كثيراً من هذا الودّ بينك وبين الرئيس بورقيبة». وكان الرئيس بن بللا يجيب: «سي أحمد أخ لجميع المناضلين في المغرب». لقد عقد هذا الثناء لساني، ولم أملك جواباً.

ولقد أتاحت لي هذه الزيارات لقاءات مع الصحافة والطلاب والشباب في تونس وتحدّثت في الإذاعة التونسية مشيداً بكفاح الشعب التونسي، معرباً عن ابتهاج الأمة العربية وقد تحقّق الجلاء عن بنزرت هذا الثغر العربي الكبير على شواطئ المتوسط، وأن ميناء بنزرت يتطلّع إلى تحقيق الجلاء الصهيوني الاستعماري عن

شواطئنا في فلسطين وثغورنا العزيزة في عكا وحيفا ويافا . .

وانتهت الاحتفالات الشعبية والرسمية وغادرنا تونس، ونحن على عهد مع الرئيس بورقيبة بأن ينصر القضية الفلسطينية بكل ما أوتي من قوة.

وانعقد مؤتمر القمة العربي الأول في أواخر ١٩٦٣، وبعده مؤتمر الدول غير المنحازة، وكان موقف الرئيس بورقيبة مسانداً للقضية الفلسطينية، كما فصّلت ذلك في صدر مذكراتي.

وإلى هنا فقد كان كل شيء حسناً بين الرئيس بورقيبة والقضية الفلسطينية، إلى أن جاء شتاء عام ١٩٦٥ (١٧شباط/ فبراير ١٩٦٥) وجاء معه الرئيس بورقيبة لزيارة الجمهورية العربية المتحدة، في سلسلة زيارات أخرى لعدد من الدول العربية والأوروبية . . وبالغ الرئيس عبد الناصر بالحفاوة «بضيفه العظيم» الرئيس بورقيبة. وهتفتْ له جماهير القاهرة بكل جوارحها. ولقد عرفتُه لاجئاً إلى قهوة الفيشاوي في مصر في أيام الشدّة. وها هي اليوم تحيّيه في أيام الرخاء، إذْ أصبح رئيساً للجمهورية في قصر قرطاجة في تونس.

وألقى الرئيس بورقيبة في جامعة القاهرة خطاباً كانت بين سطوره إشارة ناعمة، كأنها تقول لعبد الناصر وللجمهورية العربية المتحدة «إلزموا حدودكم» . .

فقد كان الرئيس التونسي يأخذ على الرئيس عبد الناصر أنه يمسك بزمام المبادرة بالقضية العربية، من دون تشاور سابق مع الرؤساء العرب.

ولقد ضايقتْني هذه البادرة من الرئيس بورقيبة، ولكن قلت وما يعنينا؟ نحن تهمّنا قضية فلسطين.

وأقامت السفارة التونسية حفلة عشاء كبرى، ودخل الرئيس بورقيبة ومعه الرئيس عبد الناصر، والابتسامات العراض على وجهيْهما. وأخذني الرئيس بورقيبة بالحضن وهو يقول للرئيس عبد الناصر: «إني مستبشر خيراً. إن الأخ أحمد قد ترك الأمم المتحدة، ولقد أصبح الآن رئيس منظمة التحرير. ونحن لا ننسى جهاده في القضية التونسية، وقد آن الأوان أن نكافئه في قضية فلسطين».

قلت: «أستغفر الله، إني لم أفعلْ للقضية التونسية إلا ما هو واجبي. وأنا لا أستطيع أن أنهض بواجباتي في القضية الفلسطينية إلا بمعاونتكما وسائر ملوك العرب ورؤسائهم». وبعد انتهاء المباحثات بين عبد الناصر وبورقيبة صدر البلاغ المشترك (٢٣ شباط/ فبراير١٩٦٥) معلناً أن الرئيسين «يؤكدان تأييدهما لمنظمة التحرير الفلسطينية، ومساعدتهما على استرداد حقوق الشعب الفلسطيني كاملة».

وخرجت في اليوم التالي إلى المطار، وودّعنا الرئيس بورقيبة في سفره إلى البلاد العربية، وأوّلها الأردن. وإلى هنا، كان كل شيء مع الرئيس بورقيبة جميلاً كريماً. ومن هنا أصبح كل شيء مع الرئيس بورقيبة لا جميلاً ولا كريماً.

كان ذلك في الأسبوع الأول من شهر آذار/ مارس ١٩٦٥ حينما قام الرئيس بورقيبة بزيارة عدد من المدن الفلسطينية في الضفة الغربية ومخيمات اللاجئين، وراح يخطب في الشعب الفلسطيني خطباً، لم أصدّقْ أذنيّ وأنا أسمعها.

ففي مدينتَي أريحا ونابلس ومخيّم عقبة جبر، وقف الرئيس بورقيبة يرثي لحال اللاجئين ويندب سوء طالعهم، ويندّد بالسياسية التي أدّت إلى نزوح الفلسطينيين عن مدنهم وقراهم ليعيشوا في الخيام، تفتك بهم الأمراض والأوبئة ويقرصهم الشتاء القارص، ويلهبهم الحرّ اللاهب. وقال إنه لا سبيل للخلاص من هذا العناء والبلاء إلا بالاعتراف بالأمر الواقع، على أساس الاحترام المتبادل بين العرب وإسرائيل، وإن التعايش السلمي بين الدول العربية وإسرائيل هو الحل الوحيد لتسوية القضية الفلسطينية، وإن إسرائيل دولة عضو في الأمم المتحدة، وإن إزالتها منافية لميثاق الأمم المتحدة وللأخلاق الدولية.. إلى آخر هذا الكلام الواضح الصريح، الخالي من كل إبهام أو تلميح.

سمعتُ هذا الكلام في الإذاعات العربية والأجنبية على السواء. ولم أصدّق سمعي، فقد كان الرئيس بورقيبة قبل ليلة واحدة في القاهرة. ولم يتحدّث بمثل هذه الآراء، ولم يتحدّث معي على الأقل في هذه الأفكار، وإن كان بورقيبة قد زعم في أحاديثه الصحافية أنه كاشف الرئيس عبد الناصر بكل آرائه!

ولأوّل وهلة لم أصدّق فهمي لهذه التصريحات من رجل قضى كل عمره في الكفاح الوطني ولم يصلْ إلى سدّة الرئاسة إلا من السجون والمعتقلات. غير أن الأنباء بدأت تتوارد عن احتجاج الشعب الفلسطيني ونقمته، فأدركتُ أن سمعي وعقلي، هو تماماً مثل سمع الشعب الفلسطيني وعقله، سواء بسواء.

ثم جاءت غضبة الجماهير العربية في الوطن العربي بأسره تعلن استنكارها لتصريحات الرئيس بورقيبة.

ولم يكن حديث الرئيس بورقيبة فلتة لسان أو زلّة بيان، فقد راح يخطب بهذه المعاني في حضور مضيفه الملك حسين، وفي كل مكان في المملكة الأردنية الهاشمية. ولم يكتفِ بذلك بل عاد وأكّد هذه الآراء في المؤتمر الصحافي الذي عقده يوم انتهاء زياراته. وحملته وكالات الأنباء الأجنبية إلى كل أرجاء العالم.

وانقضَّت الصحافة والإذاعة العربية على الرئيس بورقيبة تندّد بموقفه، وتدينه بأنه خروج على الإجماع العربي وانتهاك صارخ للموقف العربي الذي اتّخذه مؤتمر القمة العربي بصدد تحرير فلسطين. ومع الصحافة العربية انطلقت التصريحات العربية الرسمية من الملوك والرؤساء تشجب تصريحات الرئيس بورقيبة، وتعتبرها خيانة عظمى بحق العروبة.

وصادف في ذلك الوقت أن كان الملك الحسن الثاني في زيارة للجمهورية العربية المتحدة، فشجب تصريحات الرئيس بورقيبة من دون أن يذكر اسمه. وخطب الرئيس عبد الناصر منددّاً بآراء الرئيس بورقيبة، وأن الزمن زمن نضال، و«ليس وقت فلسفة ومراحل على طريقة بورقيبة..».

كان الهياج والاحتجاج يعمّان العالم العربي بأسره، في حين انبرت إسرائيل للترحيب بتصريحات بورقيبة. لقد هلّلت له الأوساط الإسرائيلية، وأعلنت غولدا مايير في مأدبة غداء أقامها نادي الصحافة في تل أبيب، عن ابتهاجها بأنه «وُجد زعيم عربي لا يتحدّث عن الحرب وعن تصفية إسرائيل بل يدعو إلى السلام والتعايش مع إسرائيل». ونشرت جريدة **جروزلم بوست** برقية من رئيس بلدية عكا «العربي» يطلب فيها من الرئيس بورقيبة «أن يزور إسرائيل ليتحقّق بنفسه كيف يسود السلام والتعايش الأخوي بين اليهود والمسلمين والمسيحيين تحت علم إسرائيل».

وأعلنت الأوساط الغربية من جانبها في أمريكا وبريطانيا، تقديرها لشجاعة الرئيس بورقيبة وواقعيته، وأعربت عن تمنياتها أن يقوم الرئيس بورقيبة بدور قيادي في تسوية القضية الفلسطينية وإنهاء النزاع بين الدول العربية وإسرائيل.

وفي هذا الفلك المحموم، لم يجد الاتحاد السوفياتي مناصاً من أن يلقي بدلْوه، أو بثقله في تأييد سياسة الرئيس بورقيبة، فقد رحبت جريدة **أزفستيا** الناطق الرسمي بلسان الاتحاد السوفياتي «بالسياسة الواقعية» التي أعلنها الرئيس بورقيبة، ودعتْه إلى إجراء مفاوضات سلمية مع إسرائيل (٢٧ أيار/ مايو ١٩٦٥).

وكان في برنامج الرئيس بورقيبة أن يزور عدداً من الدول العربية، بعد الأردن، ولكن المظاهرات التي عمّت الوطن العربي لم تترك مجالاً لتحقيق هذا البرنامج. وإني أقول هذا البرنامج، إذ إن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الرئيس بورقيبة يريد أن يدعو إخوانه «الملوك والرؤساء» إلى تبنّي مقترحاته السلمية لتسوية القضية الفلسطينية.

وسافر الرئيس بورقيبة إلى لبنان، ليقضي فيه أياماً، وهو في طريقه إلى بقية الأقطار الأوروبية التي يعتزم زيارتها. وفي بيروت جرى حوار حاد بينه وبين الشخصيات العربية الرسمية والشعبية. ونشطت الصحافة اللبنانية في مهاجمته والتنديد

بآرائه. واكتظت الشوارع بالمظاهرات الصاخبة، وكاد حبل الأمن يخرج من يد السلطة. وتنفّست الحكومة اللبنانية الصعداء بملء الرئتين، يوم غادر «الضيف الكبير» بيروت في طريقه إلى تركيا.

وفي تركيا عاد الرئيس بورقيبة يردّد تصريحاته في عناد وإصرار، وهو يحسب أنه قد أصبح بعيداً عن العالم العربي. ولكنه فوجئ بمظاهرات الطلاب العرب في أنقرة وهم يصيحون ويستنكرون.

وازداد الرئيس بورقيبة ابتعاداً عن العالم العربي بعد أن غادر تركيا وسافر إلى يوغوسلافيا. وكرّر وأعاد موقفه وتصريحاته هناك، ووجد هناك الطلاب العرب أيضاً يتظاهرون صائحين ومستنكرين.

وانتهت زيارات الرئيس بورقيبة، وحطّ رحاله في تونس وقد أخذتْه «العزّة بالإثم»، فعقد مؤتمراً صحافياً حمل فيه على الملوك والرؤساء، وشنّع على الجيوش العربية، «وأن رفض الدول العربية وجود إسرائيل هو موقف لا يتماشى مع المنطق والحق والأخلاق، وأن ميثاق الأمم المتحدة لا يجيز انتزاع شبر واحد من دولة هي عضو في الأمم المتحدة»!!

وفي هذه الغمرة العارمة من التصريحات سافر الحبيب بورقيبة الابن، كاتب الدولة للشؤون الخارجية التونسية، إلى واشنطن ليبحث مع المسؤولين الأمريكيين تقديم مساعدات وقروض للحكومة التونسية!!

ولقد كنت مع رحلة بورقيبة وتصريحاته، بكل غضبي ونقمتي. ومنذ أن نطق الكلمة الأولى من العبارة الأولى بالصلح مع إسرائيل، أصبح صديقي الودود عدوّي اللّدود، فانبريْتُ للهجوم عليه، لا تهجّماً ولكن دفاعاً عن قضية بلدي. وأنا أحمل فيها المسؤولية الأولى أمام الشعب الفلسطيني. ولم يكن ممكناً أن أسكت أو أجامل.

وكان أول ما عملته أن عقدت مؤتمراً صحافياً (٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٦٥) دعوتُ إليه على التلفون، وأدليتُ ببيان شجبت فيه تصريحات بورقيبة وبيّنت فيها مواضع الخطر والخطأ، وأعلنت باسم الشعب الفلسطيني رفضها جملة وتفصيلاً ثم أخذت إذاعة منظمة التحرير تتولى قيادة الحملة على الرئيس بورقيبة.

وتوالت بعد ذلك خطبي وتصريحاتي إلى الصحافة العربية والعالمية، في التنديد بموقف الرئيس بورقيبة. وأشهد أني كنت قاسياً وعنيفاً. ولكني كنت على الدوام موضوعياً غير مبتذل. وما أظن الرئيس بورقيبة يكون أقلّ عنفاً وقسوة، لو أن أحداً قد تعرض للقضية التونسية بمثل ما تعرّض للقضية الفلسطينية.

وأعلنتُ بعد ذلك أني سأطلب في أول اجتماع عربي فصل الحكومة التونسية من الجامعة العربية وإسقاط عضويتها من مؤتمرات القمة العربية. وأعلنت الصحف العربية تأييدها لهذا الاقتراح، وتقدّمت جريدة **الأهرام** الصفوف وقالت «إن القاهرة لا يمكنها أن تجلس مع تونس في اجتماع عربي وتكشف لها عن خططها السياسية والعسكرية».

وعقد الاجتماع الدوري (٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٦٥) للجنة ممثلي الملوك والرؤساء التي انبثقت عن مؤتمر القمة لتتابع تنفيذ القرارات. ولم أكد أضع اقتراحي على جدول الأعمال حتى ساد الوجوم جو الاجتماع، واستشعر ممثلو الملوك والرؤساء أنه حان الحين للمقارنة بين التصريحات التي تعطى للصحف في الخارج والموقف الذي يتّخذ في الداخل.

وقدّمتُ إلى الوفود العربية ملفاً كاملاً عن رحلة الرئيس بورقيبة وتصريحاته منذ أن غادر القاهرة إلى أن عاد إلى تونس بعد زيارته للدول الأوروبية. لقد حرصتُ أن تكون معظم محتويات الملف مما نشرته الصحف التونسية ذاتها، وأذاعتْه الإذاعة التونسية نفسها.

وتكلّم رؤساء الوفود في الموضوع، من العنف السوري، إلى اللطف المغربي، وكلهم أعلنوا بلهجات متباينة أنهم لا يوافقون على تصريحات الرئيس بورقيبة ولا يقرّون الصلح مع إسرائيل، وأنهم عند عهدهم الذي قطعه الملوك والرؤساء لتحرير فلسطين في مؤتمر القمة في القاهرة والإسكندرية.

وقلتُ: «إن القانون العادي يسمّي هذا العمل من جانب الرئيس بورقيبة «خيانة عظمى» وإني لا أستطيع أن أجد لفظاً أرقّ وأرفق، ومنظمة التحرير تطالب بفصل تونس».

قالوا: «لا نستطيع أن نتعرّض لرئيس دولة».

قلت: «القضية الفلسطينية فوق الملوك والرؤساء».

قالوا: «نحن وزراء وسفراء، ولا نملك أن نحاسب رئيس دولة».

قلت: «أنتم ممثلون للملوك والرؤساء، ومن لم يكنْ عنده تفويض بالموضوع يستطيع أن يرجع إلى ملكه أو رئيسه».

قالوا: «هنالك أمور دبلوماسية وأصول بروتوكولية تحول دون البحث في تصريحات لرؤساء الدول».

قلت: «لا حصانة مع الخيانة، وإني آسف أن أقول مرة ثانية إن موقف الرئيس

بورقيبة هو خيانة للقضية الفلسطينية. ولو كان على أحد أن يجامل، فأنا أولى منكم جميعاً بذلك لأني أقدم صديق بينكم للرئيس بورقيبة، ولكن الوطن فوق الصداقات والمجاملات».

قالوا: «ولكن كلمة خيانة قاسية ونابية».

قلت: «أقولها وصفاً، لا تشهيراً ولا تنديداً. ولقد وردت «الخيانة» ومشتقاتها في عدّة آيات من القرآن، منها قوله ﴿**وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**﴾[٢] صدق الله العظيم. وأنا أطالب بنبذ الخائن».

قالوا: «إن طلب الفصل يجب أن يأتي من دولة عربية، وهذا ما نص عليه ميثاق الجامعة».

قلت: «إن الجامعة أُسّست أصلاً من أجل قضية فلسطين، وما معنى حضوري معكم، إني أرفض أن أكون مراقباً أو مستمعاً».

وامتدّ الحوار على هذا النحو من دون أن نصل إلى نتيجة، والواقع أن لجنة المتابعة التي تضمّ ممثلي الملوك والرؤساء كانت تبحث عن «مهرب» قانوني لمواجهة الموقف الخطير الذي وقفه الرئيس بورقيبة بصورة حاسمة وقاطعة. ووجد أصحاب «الفتاوى» صيغة توصية بإحالة الموضوع كلّه على اجتماع مجلس رؤساء الحكومات العربية المزمع عقده في ربيع ذلك العام. لقد ظنّت الأوساط العربية الرسمية أن الموضوع ستنطفئ حدته في الأسابيع القليلة المقبلة، وتنزاح الأزمة عن أكتاف الحكومات العربية. ولكن الرئيس بورقيبة مضى «بشجاعته» المعروفة يؤكّد مقترحاته بضرورة تسوية القضية الفلسطينية على أساس الأمر الواقع. وظل يعقد المؤتمرات الصحافية ويدعو الدول العربية للاعتراف بإسرائيل، والاعتراف بها كدولة في منطقة الشرق الأوسط. وظلّت وزارة الخارجية الأمريكية ترحّب بهذه المقترحات، ومعها الأوساط الغربية كلها، الرسمية والصحافية.

وفي تلك الأثناء زارني السفير التونسي محمد بدرة، في منزلي، وله بي معرفة سابقة منذ تولّيت الدفاع عن القضية التونسية في دورة الأمم المتحدة المنعقدة في باريس عام ١٩٥١[٣].

جاءني السفير بدرة يشكو أن الطلاب العرب في القاهرة قد هاجموا السفارة التونسية ورشقوها بالحجارة، وأن هذا العمل غير لائق.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال»، الآية ٥٨.

(٣) انظر التفاصيل في: الشقيري، المصدر نفسه.

قلت له: «إنه عمل غير لائق من دون شك. ولكن عمل الرئيس بورقيبة ليس عملاً غير لائق فحسب، وإنما هو خروج على الإجماع العربي. وأي العملين أشد وأنكى»؟

قال: «وهل من سبيل إلى التفاهم»؟

قلت: «الرجوع إلى الحق فضيلة، ويستطيع الرئيس بورقيبة أن يعلن بأنه يؤيد مطالب الشعب الفلسطيني».

قال: «ألا تؤمنون مع الرئيس بورقيبة بسياسة المراحل وهي التي طبقناها مع الفرنسيين في القضية التونسية»؟

قلت: «لستُ غريباً عن القضية التونسية، وقد واكبتُ جميع مراحلها في الأمم المتحدة، والقضية الفلسطينية لا بد لها من مراحل. ولكننا لا نستطيع أن نقبل «مرحلة» تصفّي القضية، نريد «مرحلة» تنقلنا إلى مرحلة أخرى، ولكن المرحلة التي تنتهي عندها القضية تكون هي البداية والنهاية. إن الرئيس بورقيبة يدعونا إلى الاعتراف بإسرائيل، والتصالح معها. هذه ليست «مرحلة» ولكنها نهاية القضية. إنها خاتمة المطاف، إنها آخر محطة في مسيرة القطار، القطار السائر إلى وادي العدم».

وخرج السفير بدرة من منزلي ولسانه مع الرئيس بورقيبة، ولكن قلبه معي ومع القضية الفلسطينية ومع الأمة العربية. وإني أرجو ألا أسلّط عليه غضب الرئيس بورقيبة بهذه الملاحظة العابرة.

وانعقد مجلس رؤساء الحكومات العربية (٢٦-٣٠ أيار/ مايو ١٩٦٥) في القاهرة وتصريحات الرئيس بورقيبة أهم موضوع على جدول الأعمال. ولقد حضر الاجتماع عدد من رؤساء الحكومات ووزراء الخارجية، كان بينهم: العقيد هواري بومدين (الجزائر) وزكريا محيي الدين (مصر) وطاهر يحيى (العراق) ونور الدين الأتاسي (سوريا) وحسين العويني (لبنان) والأمير فهد بن عبد العزيز (السعودية) ومحمد أحمد محجوب (السودان) ووصفي التل (الأردن) والطيب بن هيمة (المغرب).. وغيرهم من السفراء والخبراء..

وأسهبت في الحديث عن خطورة موقف الرئيس بورقيبة على القضية الفلسطينية، وخروجه على مؤتمرات القمة وعلى إجماع الأمة العربية، وأن الأمر لم يعد يتحمل تساهلاً ولا مجاملة، وأن منظمة التحرير الفلسطينية، مع تقديرها للشعب التونسي ونضاله، تطالب بفصل الحكومة التونسية من الجامعة العربية، وإسقاط عضويتها من مؤتمرات القمة.

وتأجل الاجتماع إلى اليوم التالي. وأفضى رؤساء الحكومات العربية إلى الصحافة

العربية بتصريحات «هائلة» يندّدون فيها بموقف الرئيس بورقيبة ويتّهمونه بالخيانة والعمالة. وقرأت هذه التصريحات في صحف الصباح، وأيقنتُ أن مهمّتي أصبحت يسيرة، وأن قرار «الفصل» سيصدر في ذلك اليوم.

وفي أروقة الجامعة، ومسكينة هذه الأورقة كم شهدت من المآسي والمهازل، بدأت الاتصالات الجانبية بين الرؤساء. وامتدت إليّ هذه الاتصالات يأتيني هذا الرئيس ليقول: «نحن موافقون على اقتراحك ولكن الجزائر لا تريد، إن لها مصالح مع تونس». ويأتي ذاك الرئيس ليقول: «نحن موافقون معك، ولكن القاهرة لا تريد، كل ما تريده القاهرة هو حملة إعلامية». ويأتي ذلك الرئيس ليقول: «نحن موافقون ولكن سوريا لا يهمها إلا المزايدة الكلامية». ثم يأتي هذا الرئيس ليقول.. ويقول..

وأيقنتُ أن الإجماع يكاد ينعقد على قبول مقترحات المنظمة، وندخل قاعة الاجتماع لأسمع رئيس الجلسة وهو يقول: «استجابة لمشاورات جرت بين الإخوان تقرَّر إرجاء موضوع الرئيس بورقيبة إلى نهاية الجلسات.

ونخرج من الاجتماع، وأنا أسأل الرؤساء: «لماذا التأجيل؟»، فيقول هذا الرئيس: «أنت تعلم نحن موافقون على رأيك، وكنا نريد حسم الأمر هذا الصباح، ولكن ما العمل، فالوفد اللبناني غير موافق». ويقول لي ذلك الرئيس: «نحن لا نريد التأجيل وكنا نريد أن يصدر القرار في هذا اليوم ولكن العراق غير موافق». ويقول لي ذلك الرئيس: «ماذا نفعل بالسعودية إنها لا توافق على فصل بورقيبة وكذلك الأردن فإنها من هذا الرأي»!!

وأمسكت أعصابي بيدي، ورأسي على كتفي، فقد أَلِفتُ هذه «الدوامات» في اجتماعات الجامعة العربية عبر السنين، وصبرتُ حتى الجلسة الختامية. وعدت إلى شرح الموضوع مرة ثانية وثالثة. ولكن رئيس الاجتماع زكريا محيي الدين بدأ يقرأ من ورقة أمامه. وأدركت أن الرؤساء قد «طبخوا» في ما بينهم مشروع قرار. و﴿**كفى الله المؤمنين القتال**﴾[٤] صدق الله العظيم. لقد نصّ القرار بعد الديباجة الغاضبة على ما يلي:

أولاً: الرّفض التام للمقترحات التي انفرد رئيس جمهورية تونس بإعلانها خروجاً على الإجماع العربي الحكومي والشعبي ونقضاً للالتزام القومي والرسمي بالعمل لتحرير الوطن العربي من الاستعمار الصهيوني في فلسطين.

ثانياً: التأكيد بتمسّك الدول العربية المشتركة في الاجتماع بمقرّرات مؤتمرَي

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب»، الآية ٢٥.

القمة الأول والثاني وتصميمها على تنفيذها تنفيذاً كاملاً.

وفرغ رئيس الجلسة من تلاوة هذا القرار. وبادرتُ إلى طلب الكلمة، وأعلنتُ أن منظمة التحرير لا توافق على هذا القرار، وأن لا سبيل أمامي إلا الانسحاب من الجلسة، استنكاراً لذلك القرار الهزيل. وخرجتُ من القاعة، وهرول الصحافيون من حولي يسألون عن السبب، فقلت لهم: «اسألوا رؤساء الحكومات العربية الذين يصرّحون لكم في الخارج على النقيض مما يقولون في الداخل». وهذه هي مصيبة العمل العربي إلى يومنا هذا، وإلى غدنا حتى يتبدّل الخُلق غير الخُلق والحُكم غير الحكم.

وما إن وصلت بيتي حتى لحق بي الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق. وجرى الحديث طويلاً بيننا، وهو يشرح أسباب هذا القرار «الضعيف» بحسب اللهجة العراقية. وناشدني أن أعود إلى الاجتماع صوناً للإجماع العربي. وقلت له: «إن الإجماع العربي كان دائماً هو الفتوى تبريراً للتراخي العربي.

فقال: «أنا أصبحت الآن في بيتك، وأريدك أن تأتي معي إلى الجامعة».

قلت: «أشكرك على هذه العاطفة الكريمة؛ أنا أسعى إليك ماشياً إلى بغداد. ولكني لا أعود إلى الاجتماع».

وعاد الفريق طاهر يحيى إلى الاجتماع وحده. وما إن وصل إلى الجامعة، حتى بادر زكريا محيي الدين رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة، ومحمد أحمد محجوب رئيس وفد السودان، بمطالبتي تلفونياً، لأعود إلى الاجتماع، والشاعر الناثر محمد أحمد محجوب ينشدُ على التلفون:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ وأيّ الناس تصفو مشاربه

وأنا أجيبه منشداً:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وانتهى اجتماع مجلس رؤساء الحكومات العربية عند هذا القرار، فاستقبلتْه الصحافة العربية بالغضب والاستنكار، وتابعهم في هذا المجال رؤساء الحكومات العربية أنفسهم. ومباشرة بعد ذلك، عقد المجلس الوطني الفلسطيني دورته الثانية في القاهرة (١٣ أيار/ مايو ١٩٦٥) وحضر الاجتماع ما يقرب من ٤٥٠ مندوباً يمثّلون جميع فئات الشعب الفلسطيني في جميع مواطنه ومهاجره.

وفي الجلسة الأولى قدّمت استقالتي لأفسح المجال أمام المجلس لتحديد الموقف الذي يراه ملائماً، بالنسبة إلى جميع الخطوات التي اتّخذتها إزاء الرئيس بورقيبة. ولقد

كانت اللجنة التنفيذية بعيدة عني إذ ذاك، مشتّتة تشتّت الشعب الفلسطيني وفعلتُ ما فعلت على مسؤوليتي الفردية.

وناقش المجلس الوطني أزمة الرئيس التونسي من جميع جوانبها، وقرّر في النهاية (٢ حزيران/ يونيو١٩٦٥) رفض استقالتي مع تسجيل التقدير «للموقف الوطني الحازم الرائع الذي وقفه رئيس منظمة التحرر حفاظاً على القضية الفلسطينية».

ورغماً عن ضعف القرار الذي أصدره مجلس رؤساء الحكومات العربية، أصبح الرئيس بورقيبة في شبه عزلة غير معلنة وفي قطيعة غير مقرّرة، حيث لا يتّصل به أحد من الحكومات العربية.

ولكن هذا الموقف قد أخذ يضعف شيئاً فشيئاً، لأن حرب الأعصاب بين الدول العربية قد جعلت حكاية بورقيبة في المقاعد الخلفية، وتصدّر الخلاف في المشرق العربي الصفوف الأمامية.

وكانت الإذاعات العربية متلاحمة مع بعضها. واستراح الرئيس بورقيبة بعض الشيء، بل لعلّه تنفس الصعداء، وهو يرى التراشق بين دمشق والقاهرة، قائماً على قدم وساق، وعلى كل شفة ولسان.

وأقبل العيد الثالث عشر للثورة المصرية (٢٣ تموز/ يوليو ١٩٦٥)، فخطب الرئيس عبد الناصربحسب عادته، مستعرضاً الأمور الداخلية والخارجية، والشؤون المصرية والعربية، وعرج على الرئيس بورقيبة مشيراً إليه أنه نكسة من النكسات العربية. وتلقّفتْها دمشق، فأعلن مصدر سوري رسمي «بأن الرئيس بورقيبة لم يفعلْ شيئاً لم يفعله الرئيس عبد الناصر». هكذا حذوك النعل بالنعل.. وبقيتْ تصريحات الرئيس بورقيبة تُذكر بالاستنكار، كلما جاءت مناسبة قومية، إلى أن جاءت حزيران/ يونيو في حرب الأيام الستة. وبين أشلاء الهزيمة وأنقاض الانكسار، غاضت تصريحات الرئيس بورقيبة، وطفت على السطح تصريحات عربيّة أشدّ هوْلاً، توافق على قرار مجلس الأمن الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧ وترضى بالاعتراف بإسرائيل وإقامة حدود آمنة مع إسرائيل وإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل، وكل ذلك يؤدّي إلى تصفية القضية الفلسطينية.

وكانت الهزيمة فرصة للرئيس بورقيبة ليعلن فيها «سداد» آرائه، «وصواب» تصريحاته. وراح يغتنم كل مناسبة لينقضّ على منظمة التحرير الفلسطينية، وينتقد تصريحات الشقيري «جنكيز خان» القرن العشرين الذي يريد أن يلقي اليهود في البحر، تماماً كما زوّرت الصهيونية وكذبت عن طريق أجهزتها الإعلامية.

وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٧، أكّد الرئيس عبد الناصر في خطاب ألقاه في مجلس الأمة الضرورة الملحّة لانعقاد مؤتمر القمة الخامس. وبدأت

الاتصالات بين الملوك والرؤساء لتحديد الزمان والمكان، وكتب الرئيس بورقيبة إلى القاهرة أنه لا يجلس مع الشقيري في أي مؤتمر قمة، كائنة ما كانت الظروف.

وفي أوائل عام ١٩٦٨، نشأت ظروف دولية وعربية سيأتي شرحها في حينه، حملتْني على الاستقالة من رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية[٥].

وبقدر ما انغمّ الشعب الفلسطيني فوق غمومه وهمومه، هلّلت الإذاعة التونسية وفرحتْ لاستقالتي. ثم عادتْ وأعلنتْ فرحتها يوم قامتْ، ما أسمتْه، «قيادة جديدة متحرّرة» للشعب الفلسطيني. وأعلنت الحكومة التونسية «اعترافها «بمنظمة التحرير الفلسطينية» في ظل قيادتها الجديدة» وأن فخامة الرئيس المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة يؤيّد منظمة التحرير الفلسطينية، وبحسب الرئيس بورقيبة أنه قد انتصر وانتصرت آراؤه ومقترحاته.

وما حَسِب أن الأمة العربية، والشعب التونسي في المقدّمة، هي مع الشقيري وآرائه في قضية فلسطين، وأقول ذلك بكل تواضع وتوادع. وفي أوائل عام ١٩٧٠ قدّم الشعب التونسي البطل الدليل القاطع. وكان ذلك في شهر شباط/ فبراير من ذلك العام حين وصل إلى تونس روجرز وزير الخارجة الأمريكية في زيارة رسمية يحمل بعض المقترحات بشأن القضية الفلسطينية، تصدّى له الشعب التونسي البطل وفي مقدمته الطلاب والشباب، بالاحتجاج والمظاهرات. ولم تستطع الحكومة التونسية حماية الوزير الأمريكي من غضبة الشعب وخرج من البلاد بعد أن اختزل كثيراً من برنامج زيارته للبلاد.

استمعت إلى هذه الأخبار الماجدة عن الشعب التونسي البطل، وأنا في بيتي في القاهرة أستكمل كتابة مذكراتي. وقلت في نفسي: «ما أعظم الأمة العربية، وما أعظم الشعب التونسي، وهو واحد من شعوبها».

وها قد أثبتت الأيام، حتى الهزيمة النكراء، أن الشعب التونسي هو مع «الفلسطيني اللاجئ» أحمد الشقيري، وليس مع «المجاهد الأكبر» فخامة الرئيس بورقيبة، بل قد أثبتت الأيام أيّنا المغرور.

﴿**فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرَّنكم بالله الغرور**﴾[٦] صدق الله العظيم.

---

(٥) سيأتي تفصيل ذلك في كتاب يجري إعداده. (كذا ورد في الأصل).

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة لقمان،» الآية ٣٣.

أيام مع زعيم ملهم ورئيس مقدام وشعب عملاق

عامان طويلان قضيتهما وأنا أدق أبواب موسكو (١٩٦٣ ـ ١٩٦٥)، حتى لكأني أصبحت هنري الرابع وقد وقف قبل سبعة قرون، على أبواب طانوسا، يطلب الغفران من البابا كما تروي القصة الشهيرة[١].

ولم أكن أطلب الغفران حين وقفت على أبواب موسكو، فلم يكن لي ذنب معها، ولكن كان لي رصيد كبير، ادّخرته لدى الاتحاد السوفياتي على مدى خمسة عشر عاماً، وجئت اليوم أطالب بالوفاء ولو قسطاً قسطاً.

وكان هذا الرصيد سيرتي ومسيرتي مع الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة، أو هو «حيلتي وفتيلتي» كما يقول المثل العامي. ومنذ اليوم الأول الذي وطئت فيه قدماي أرض هذه المنظمة العالمية في عام ١٩٤٨، بحثت عن الوفد السوفياتي قبل أن يبحثوا عني، وألقيتُ بنفسي في موكبهم ورحتُ أسير في ركابهم عبر الطريق الطويل، المحفوف بالمكاره والشدائد.

وكرّست وقتي كل وقتي، أقرأ وأستمع وأتعلّم في أروقة الأمم المتحدة، لأتعرّف إلى القضايا الدولية، بخاصة ما كان منها متّصلاً بالحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي على رأس الدول الاشتراكية والولايات المتحدة على رأس الدول الغربية.

وبدأت أدخل حلبة الصراع الدولي، أخطب وأناقش، وأحاور وأناور، إلى جانب الاتحاد السوفياتي، في كل المشاكل الدولية من قضية كوريا في أقصى آسيا، إلى قضية كوبا الرابضة بين الأمريكتين الشمالية والجنوبية.

وفي غمرة هذا الصراع، لم أتورّع عن التعريض برؤساء الدول الغربية بمناسبة

(١) وخلاصة القصة أن هنري الرابع ملك ألمانيا تزوج مثنى وثلاث، فأصدر البابا قراراً بحرمانه من الكنيسة، وذهب الملك إلى قصر البابا يطلب الغفران، ومكث ثلاثة أيام واقفاً على الباب تحت الثلوج.. إلى آخر القصة.

وفي غير مناسبة، فحملت على ترومان، وأيزنهاور، وكنيدي، وجونسون، من رؤساء الولايات المتحدة، وعلى مكميلان، وإيدن، وهيوم، وسلوين لويد من رؤساء بريطانيا ووزرائها؛ كل ذلك ثأراً لقضيتي الشهيدة، قضية فلسطين، والمعسكر الغربي يتحمّل المسؤولية الأولى في نشوئها وتطورها.

وبالإضافة إلى مشاعر الثأر، وهي المشاعر المتأصّلة في نفوسنا منذ حياتنا الأولى في البادية، . كنت أريد أن أبني، ولو لبنة بعد لبنة، صداقة مع الاتحاد السوفياتي «لأستثمرها» من أجل قضية فلسطين ولأدّخرها من أجل المستقبل.

ولقد كان موقفي هذا مبرّراً بعض الشيء حين كنتُ رئيساً للوفد السوري في الأمم المتحدة، ذلك أن سوريا قد خرجت من الحرب العالمية الثانية، دولة حرة مستقلة، غير مرتبطة بأية قيود أجنبية، وسارت في ركب الدول غير المنحازة، وفي الطليعة.

وكان موقفي مبرّراً أيضاً، حتى حين أسرفت في تأييد الاتحاد السوفياتي، على بياض، هكذا. وبدت الجمهورية العربية السورية في أروقة الأمم المتحدة، كأنها واحدة من جمهوريات الاتحاد السوفياتي. وأصبحت أنا بنفسي، بحسب تعبير الصحافة الأمريكية والبريطانية، «عميلاً» للاتحاد السوفياتي.

ولكن موقفي لم يعد مفهوماً ولا مبرّراً، حين أصبحت رئيساً للوفد السعودي لسبعة أعوام (١٩٥٧ ـ ١٩٦٣)، ولسبعة أعوام أمضيتُها في ركب الاتحاد السوفياتي أحارب حربهم ولا أسالم سلمهم. حتى انطلقت النكتة الدولية الشهيرة في أروقة الأمم المتحدة، في أن الشقيري لم يكن يمثّل الجمهورية السورية، ولا المملكة العربية السعودية، وإنما هو دولة بنفسه!!

ولم أبالِ بهذه النكتة، ولا بما جرّه عليّ استعداء المعسكر الغربي كله، في هذا العراك غير المتكافئ الذي لم أكن أملك فيه غير لساني، وقدسية القضية العربية التي كنت دائماً أعتصم في خنادقها، في جولاتي وصولاتي على منبر الأمم المتحدة.

وظلّ الاستعمار يتربّص بي الدوائر، إلى أن وقعت حرب اليمن؛ ولم أذعن «لأوامر» الملك فيصل، بعرض شكواه على الأمم المتحدة، وصدر القرار بفصلي من خدمة المملكة العربية السعودية. ووقع ما كان يخشاه «خروشوف» وقد حذّرني غير مرة، وهو يطلب إلي أن أجعل الأمر بيني وبين الأمريكيين كرّاً وفرّاً، فإنهم، بحسب تعبيره «قادرون في اللحظة المناسبة أن يعملوا على إخراجي من الأمم المتحدة» وصدقت نبوءة خروشوف. ولم أنتصح، ووقع ما وقع، ولستُ نادماً على ما وقع.

وتلقّفتني الأقدار، في ما بعد، فدعاني مؤتمر القمة العربي في القاهرة، إلى إنشاء الكيان الفلسطيني. وبدأت أبحث عن رصيدي في العالم الدولي. والبدوي إذا أفلس يبحث عن الدفاتر العتيقة، كما يقول المثل العامي.

ولم أكن في حاجة إلى حساب طويل، لأدرك للوهلة الأولى، أنه ليس لي رصيد في المعسكر الغربي، بل إن حسابي فيه هو حساب المدين، مسطّراً بالحبر الأحمر. فانصرف ذهني إلى رصيدي في الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي، وأنا أعلّل النفس بالآمال الجسام.

وعزمت أن أسحب من رصيدي هذا، فبدأت اتصالاتي بالاتحاد السوفياتي، عن طريق سفرائه في الوطن العربي كله. واستنفدت في هذا الطريق شعارنا الحبيب من المحيط إلى الخليج. ولم أترك للاتحاد السوفياتي سفارة ولا مفوضية إلا وطرقت بابها، أطلب العون للشعب الفلسطيني ممثلاً بمنظمة التحرير الفلسطينية، ولقد أصبحتْ لها شخصيتها المستقلة اعترفتْ بها، على الأقل، ثلاث عشرة دولة عربية.

وكانت السفارات السوفياتية تستقبلني بإكرام، وتودّعني بحفاوة، من دون أن أظفر بشيء من رصيدي الكبير في الاتحاد السوفياتي، ولو «روبل» واحد، وهو من العملات العالمية التي لا تداول لها في الأسواق.

وفي أسفاري الكثيرة خلال هذين العامين (١٩٦٣ ـ ١٩٦٥)، لقيتُ كبار رجال الدولة السوفيات كوسيغين وخروشوف وغروميكو وجاكوب مالك وغيرهم، وسردتُ مطالبي في تأييد منظمة التحرير: معاونة عسكرية ومساعدة اللاجئين الفلسطينيين وبعثات فلسطينية ثقافية وافتتاح مكتب للمنظمة في موسكو وغير ذلك من المطالب، طامعاً في الكثير، وراضياً بالقليل، حتى بمجرّد زياراتي لموسكو[٢].

وكان الجواب من هؤلاء جميعاً أن الاتحاد السوفياتي يقدّر جهودي في المنظمة الدولية وصداقتي للاتحاد السوفياتي، ولكن.. «ولكن الظروف الدولية في الوقت الحاضر.. ولكن موقفنا من قضية فلسطين.. ولكن موقفنا من إسرائيل.. كل ذلك يفرض علينا أن ندرس.. وأن سفاراتنا مفتوحة لك على الدوام لتنقل إلينا آراءك في القضية الفلسطينية وفي سائر الشؤون العربية والدولية.. وسنظلّ أصدقاء.. على الدوام..».

ولكن أنَّى لي أن أنتظر، وقد انتظرت عامينْ طويلينْ، والشعب الفلسطيني من

(٢) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

ورائي ينهش لحمي ويقضقض عظمي وهو يطلب السلاح، والشعار الصارخ يصيح في الشوارع «يا شقيري بدنا سلاح، يا شقيري هات سلاح وخذْ أرواح».

ولم أكن في هذه الفترة ناسياً أو غافلاً، أنني بنيتُ صداقة وطيدة مع جمهورية الصين الشعبية في شخص رئيس وزرائها «شو إن لاي» يوم اجتمعت به في مؤتمر باندونغ في ١٩٥٥، وكنت يومها نائباً لرئيس الوفد السوري[٣].

أجل لم أنسَ لقائي به ليلة كاملة حتى الفجر، وأنا أشرح له مختلف جوانب القضية الفلسطينية؛ لينهض في اليوم التالي، ويعلن تأييده لقضيتنا، أمام اللجنة السياسية لمؤتمر باندونغ في وجه معارضة مستترة من نهرو رئيس وزراء الهند، ومعارضة سافرة من قبل زملائه، رؤساء سيلان والفلبين.

لم أنسَ ذلك كله؛ وكنت قد أضمرت في قرارة نفسي أن أقرع أبواب بكين، أطلب العون والمدد. ولكني أضمرتُ كذلك أن أرجئ ذلك حتى أفرغ من اتصالاتي بموسكو، لأسباب وأسباب.

من هذه الأسباب أن موسكو أغنى وأقوى من بكين، على الأقل في هذه السنين من هذا القرن، ومنها أن موسكو عضو في الأمم المتحدة، ومنها أن موسكو هي الفريق الرئيسي في الصراع الدولي ضد المعسكر الغربي وعلى رأسه الولايات المتحدة، ومنها، أخيراً، أن «رصيدي» في موسكو أكبر وأكبر من رصيدي في بكين. والواقع أن رصيدي في بكين لم يكن أكثر من موقفي على الدوام، في الأمم المتحدة، مؤيداً انضمام الصين الحمراء إلى المنظمة العالمية، وذلك كل ما فعلت.

وعلى غير جدوى طال وقوفي على أبواب موسكو، أنتظرها أن تفتح أمامي. واشتدّت خلال ذلك سياط الشعب الفلسطيني تلهب ظهري، وهو يرفع شعار الكفاح والسلاح. وقرّرت وعزمت. وأخذت طريقي، إلى سفارة «جمهورية الصين الشعبية الديمقراطية» في القاهرة.

ودخلتُ إلى السفارة الصينية، لأول مرة، ولم تكن لي معرفة بالسفير. وفي حديث قصير أعربتُ له عن رغبتي في زيارة بكين، مشيراً إلى صداقتي مع شو إن لاي في مؤتمر باندونغ. وكان السفير لطيفاً ورقيقاً. ووعد أن يبرق فوراً.

ومضت أربعة أيام، ولا تزيد. وجاءني السفير الصيني إلى مكتبي في منظمة التحرير الفلسطينية ليقول لي، وصلني جواب البرقية: «إن الرفيق شو إن لاي يرحّب

(٣) المصدر نفسه.

بزيارتكم، وينتظر قدومكم في أقرب وقت، مع الوفد الذي تختارونه، وهذه الدعوة موجّهة إليكم شخصياً وبوصفكم «رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية». وشكرت وشكرت . . وفي إيجاز وبساطة، اتفقنا على الموعد، ومدة الزيارة، وأنواع الطعام، وأصناف الشراب، إلى آخر القائمة. وانصرف السفير إلى مكتبه ليبرق بالتفاصيل.

وبدأت اتصالاتي لاختيار أعضاء الوفد وحرصت أن أختارهم من أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة ومن أعضاء المجلس الوطني، لتمثيل «السلطتين» التنفيذية والتشريعية. وحرصتُ أن يكون جيش التحرير الفلسطيني ممثلاً، تطلّعاً إلى العون العسكري الذي كنت أطمع فيه. وتمّ تشكيل الوفد من اللواء وجيه المدني القائد العام لجيش التحرير الفلسطيني وعبد الرحمن السكسك، وعبد الخالق يغمور، وخالد الفاهوم، من أعضاء اللجنة التنفيذية، ورفعت النمر، وعبد المحسن قطان، والدكتور فاضل زيدان، وجميل بركات، وشفيق ترزي، وعبد الحميد طقش من أعضاء المجلس الوطني، والنقيب فخري شقورة الضابط في جيش التحرير الفلسطيني مرافقاً عسكرياً. وكنت قد عرضتُ على عدد من الشخصيات الفلسطينية أن ينضمّوا إلى الوفد ومن بينهم الدكتور جورج حبش من قادة حركة القوميين العرب. ولكنهم اعتذروا، بعضهم لمشاغله، وبعضهم لأن الصين شيوعية، والبعض الآخر، لأن بين أعضاء الوفد عدداً من كبار البورجوازيين!!

وفي مساء يوم الاثنين (١٥ آذار/ مارس١٩٦٥)، كان وفد منظمة التحرير الفلسطينية في مطار القاهرة الدولي، يصعد الطائرة، وعند السلم يقف سفير الصين ومعاونه في وداعنا، يتمنّى لنا رحلة موفقة. وأخذتْنا العزة أن الشعب الفلسطيني قد أصبحت له شخصية، وأن سفيراً يمثل سبعمائة مليون نسمة، قد خفّ لوداعنا في المطار، كما لو كنا دولة ذات سيادة واستقلال.

وأخذنا مقاعدنا في الطائرة، ومددت يدي إلى حقيبتي، وفيها مجموعة من الكتب عن الصين ونهضتها وثوراته. ورحت أتصفّح كتاباً بعد كتاب، وكان بينها **المقالات العسكرية للزعيم ماو تسي تونغ**. ولقد كنتُ حريصاً أن أصبح «صينياً» في معرفة تاريخ الصين وفلسفتها وثوراتها، وفي طليعة ذلك مسيرة قائدها العظيم ماوتسي تونغ. وفي عصر اليوم التالي وصلنا إلى «هونغ كونغ» المدينة الباذخة بتجارتها العالمية، والمرصّعة بأقذر الأكواخ، والرافلة بأجمل الشواطئ والخلجان.

وكان في استقبالنا بعض الموظفين الصينيين. ومن المطار ركبْنا السيارات إلى الحدود الصينية. وكنا نتمنى لو أن البرنامج سمح لنا بقضاء بضعة أيام في هذه المدينة الساحرة المتآمرة، إحدى مستعمرات التاج البريطاني، التي يزيد عدد سكانها على

سكان الجمهورية العربية الليبية، ودولة الكويت، وجمهورية اليمن الجنوبية، مجتمعين، وجميعاً مجتمعين.

وعلى الحدود الصينية وجدْنا قطاراً خاصاً ينتظرنا، ووفداً صينياً مؤلفاً من كبار رجال الدولة، والتراجمة ورجال البروتوكول. وتوزّع الأحد عشر عضواً من وفدنا على عربات القطار، كل واحد أو اثنين في عربة. ونعمنا بالراحة والفاكهة والشاي الصيني وألطاف المرافقين. وفوق هذا وذاك، داعبنا الخيلاء، أننا، بفضل أصدقائنا الصينيين، قد أصبحنا «دولة» نركب في قطار خاص، والصين العظيمة في خدمتنا.

وسار بنا القطار الخاص، قريباً من ثلاث ساعات، والمكارم الصينية تحفّ بنا، والموظفون والمرافقون لا يتحدّثون في شيء من الشؤون العامة أو السياسية أو الاجتماعية، وظيفتهم قاصرة على أمر واحد: راحتنا وسرورنا، ولا شيء غير ذلك إلا الابتسامات اللطاف، لا عيب فيها غير أنها ابتسامات تنفرج عنها شفاه الرجال.

وفي المساء وصلنا إلى مدينة كانتون. وكانت المحطة مزدانة بالأعلام، مكتظّة بكبار رجال الدولة، ومجموعات من الطلاب والشباب، تهتف وتنشد وتلوّح بالأيدي والعيون، واللافتات بالصينية والعربية «مرحباً بالضيوف»، «يعيش شعب فلسطين» و«تحيا الصداقة الآسيوية الأفريقية».

ومن المحطة، اخترق موكبنا الشوارع والساحات بين صفوف متراصّة من جماهير الشعب الصيني، يحيّون «الضيوف العظام» حتى بلغنا قصر الضيافة. قضينا بعض الوقت نصلح من شؤوننا في غرفنا، وانتقلنا بعدها إلى الصالة العامة. ولم نكن في حاجة إلى راحة كثيرة، فمنذ أن وطئت أقدامنا أرض الصين، والراحة تحفّ بنا من كل جانب.

وفي تلك القاعة الضخمة تناولنا العشاء مع حاكم المقاطعة وكبار الرجال العسكريين والمدنيين، وألوان الطعام الصيني تقدّم إلينا، طبقاً بعد طبق، أنواعاً كثيرة وكثيرة، في كميات قليلة. وكان مضيفنا الكبير يؤانسنا بالحديث عن مصانع المدينة وتجارتها، وأنها مدينة صغيرة لا يتجاوز سكانها المليونَي نسمة، كأنه يعتذر لنا عن هذه العدد القليل!!

وما إن فرغنا من الطعام حتى تراجع «الخدم» إلى الجدار، ووقفوا صفّاً واحداً، بقامتهم المنتصبة كأنهم ينتظرون أمراً عسكرياً. ووقف حاكم المدينة، يرحّب بنا باسم جمهورية الصين، شعباً وحزباً وحكومة، ويتمنّى لنا إقامة سعيدة، مشيداً بالروابط العديدة «القائمة بيننا وبين الشعوب العربية، راجين للشعب الفلسطيني النصر في معركته ضد الإمبريالية الأمريكية وربيبتها إسرائيل».

كان حاكم المدينة يقرأ من ورقة مكتوبة، وأنا أستمع إليه وهو يتحدث عن الإمبريالية الأمريكية وربيبتها إسرائيل، فأدركت أن جمهورية الصين قد أضاءت أمامنا «النور الأخضر» من اليوم الأول لوصولنا القارة الصينية.

وعرفتُ كيف أسير تحت هذا النور الأخضر، فوقفتُ أردّ على تحيّة الحاكم بأقوى منها، فحملتُ على الإمبريالية العالمية، الممثّلة في السياسة الأمريكية وأخذت أسرد مظالم الاستعمار الغربي في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وانتقلتُ بعد ذلك إلى شرح القضية الأمريكية في كوريا وفييتنام، واستأنفتُ القول بأنه «لا حاجة بنا أن نذهب بعيداً في الحديث عن مساوئ الاستعمار الغربي وجرائمه، ونحن في كانتون، في المدينة التي شهدت فظائع حملة الأفيون وكانت سبباً في الحرب الصينية ـ البريطانية، وفي هذه المدينة التي عانت الكثير بسبب الاحتلال البريطاني ـ الفرنسي، وفي هذه المدينة التي ابتليت بالاحتلال الياباني، وفي هذه المدينة التي تذكرنا بالبلايا التي وقعت في وطننا العربي في مشرقه ومغربه.. وإذا كنتم قد ابتُليتُم بالأفيون، فنحن كذلك قد ابتُلينا بالأفيون البشري، وأعني بذلك الهجرة اليهودية التي غزَتْ بلادنا على مدى ثلاثين عاماً تحت الحراب البريطانية و.. و..

واسترسلتُ في الحديث على هذا المنهج من المقارنات، لأكون أقرب إلى السامعين، ولأزيد حقائق القضية الفلسطينية رسوخاً في أذهانهم، وهم يستمعون إليّ بجوارحهم قبل آذانهم. وبعد حديث طويل امتزجتْ فيه الطرافة بالجدّ، ختمتُ كلامي قائلاً: «ولا يفوتني، وأنا أتحدّث إليكم، أن أذكّركم أن للعرب صلات قديمة بهذه المدينة العظيمة، فإن التّجار العرب قد وفدوا عليها منذ أن وجدوا سفناً تنقلهم في عباب البحر إليكم، فأقاموا أولى الروابط التجارية بين الأمة العربية والشعب الصيني العظيم. وها نحن نأتي إليكم، ونحن نتطلّع إلى قيام «الروابط الثورية» معكم والانتفاع بتجاربكم الرائدة الغنية في مقاومة الاستعمار، وحركة التحرير الوطني، وهذه هي التجارة الثورية التي جئنا من أجلها في هذه الزيارة.. و..»

فتهلّل وجه مضيفنا بالسرور، وانطلقتْ أكفّ الحاضرين بالتصفيق، ولم تقفْ إلا لترفع الأقداح على «نخب الصداقة العربية الصينية» و«الانتصار على الإمبريالية الأمريكية»، «وحياة الشعب الفلسطيني».. وبادلتهم الأنخاب بتحيّة «الشعب الصيني العظيم» و«قائد النضال الثوري الرئيس ماو».. وكانت أنخابهم بالشراب الصيني الثقيل، في حين كانت أنخابنا، بعصير الفواكه. لقد كانت هذه رغبتنا، وحافظوا عليها بكل دقة في جميع الولائم.

وقضيْنا شطراً من الليل في المؤانسة والملاطفة، كأننا على معرفة منذ زمن

طويل، نداعب الضباط، ونلاطف سائر المدعوين، حتى لم يكد يفصل بيننا إلا اللغة، ولولاها لكانوا «هم الضيوف ونحن رب المنزل».

وصعدنا إلى مخادعنا، تلاحقنا الهتافات والأنخاب، لنقضي ليلة ناعمة هادئة. واسترحت ليلة واحدة، بعد ليالٍ طويلة مديدة مع فرسان الجدل والحوار في الوطن العربي، والحمد لله!!

ونهضنا في الصباح إلى المطار لنستقلّ طائرة خاصة إلى بكين العاصمة. وكان الوداع حافلاً على طول الطريق، أروع من الاستقبال، ذلك بأن ليلة واحدة قضيناها في كانتون جعلتْنا نتعلّق بهم ويتعلّقون بنا، وكأنما رأوا فينا وجوه أسلافنا التجار العرب الذين وفدوا على أسلافهم في سالف العصر والأوان.

وانطلقتْ بنا الطائرة، وتعالى فوق هدير محرّكاتها، هدير الجماهير الهاتفة المنشدة، وقد غصّت بها جنبات المطار. ومددتُ يدي إلى حقيبتي أتناول هذا الكتاب وأتصفّح ذلك الكراس عن الصين، وأباطرتهم، وثوراتها: لا أنقطع عن القراءة إلا حين تتقدّم المضيفة، مؤدّبة محتشمة، تسألنا إذا كنا نريد شراباً.

وما أزف وقت الظهيرة، حتى أخذت الطائرة تحوم حول مطار بكين وأقبل التراجمة من حولنا، وهم يمدّون أصابعهم يشيرون إلى النافذة، لنرى ونبصر: ولقد رأينا عجباً.

كان المطار «حقلاً» من الأعلام رفعتْ بالمئات والآلاف، بكل الألوان التي عرفتْها صناعة الأصباغ. وكانت الجماهير بالألوف لا بالمئات، تقف في صفوف طويلة منتظمة مرصوص بعضها إلى بعض. وظننتُ بادئ ذي بدء أن وصولنا يصادف قدوم واحد من علماء الدول. وأن هذا الاستقبال الرائع الجامع قد أعدّ لغيرنا. ولكن سرعان ما أدركت إن هذه الحفاوة البالغة هي لنا، لا لسوانا.

ونزلنا من سلّم الطائرة، برزانة وتؤدة، كما كنتُ أرى كبار الضيوف يفعلون في مطاراتنا في الوطن. وتقدّم لمصافحتنا المارشال «شن يي» وزير الخارجية الصينية، ونائب رئيس مجلس الدولة، وأخذ يقدّم لنا كبار رجال الدولة من العسكريين والمدنيين، ثم مررنا على الطريق الطويل الذي وقف فيه رجال السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي. وفي نهاية هذا الصف، صافحنا ثلاثة من إخواننا الفلسطينيين، يعملون في القسم العربي للإذاعة الصينية، وبذلك أصبح الفلسطينيون العرب كاليهود منتشرين في أرجاء الدنيا كافة!!

وأخذنا طريقنا بعد ذلك، والمارشال «شن يي» بجانبنا، أمام الصفوف الطويلة

للطلاب والشباب، وممثلي العمال والفلاحين، والمنظمات القومية المتعدّدة، وبينهم شيوخ الجامع الإسلامي في بكين. ووقفتْ عند شفتي العبارة الشهيرة: الحمد لله، إن الإسلام بخير، ولكني حبستُها. وتذكّرتُ أنني في مطار بكين، لا في باحات الأزهر الشريف!!

وعبقتْ أجواء المطار بأكاليل الزهور التي كان يحملها الأطفال والصبيان والبنات، وهم ينشدون باسمين فرحين، ومن خلفهم الشباب والشابات يهتفون بحماسة دافقة، ومن وراء أولئك العمال والفلاحون يلوّحون بسواعدهم، وقد تشنّجت شرايينهم بالعزّة والقوة.

ولولا أن هذه الصيحات كانت توجّه إلينا، ولولا أن الأيدي كانت تمدّ حتى تكاد تلامس رؤوسنا، لأيقنتُ أن هذا الاستقبال العظيم العظيم، هو على وجه التأكيد لغيرنا. وهكذا تفعل الشعوب العظيمة لكسب الصداقات، وتوثيق الروابط والعلاقات.

ولقد أسرني فوق الاستقبال الرائع، ما رأيتُه من النظام والانضباط بين هذه الجماهير، وهي تمثّل قطاعات مختلفة من الشعب، وجميعهم يقفون في صف واحد كأنهم في «طابور»، والأعلام بأيديهم جميعاً مرفوعة باتجاه مستقيم وتكاد تكون خفقاتها واحدة، وهتافاتهم كأنها رجع اسطوانة واحدة، مسجلة بغاية العناية والدقة، وقسمات وجوههم في حركاتها وومضاتها تنمّ عن تعبيرات واحدة، وفيوض حماستهم تتدافع من ينابيع واحدة، وأحسب أن هذا الوصف دون الحقيقة بكثير، فالحقيقة أروع وأبدع.

ودخلنا بكين، والجماهير تملأ الساحات والميادين والأرصفة، تستقبلنا استقبال الفاتحين ونحن لم نفتح بعد أرضنا المحتلة، وكأنما هبطت نفسي إلى القاع، ونحن نمتطي قمة هذه الاستقبالات الفخمة.

وكان المارشال «شن يي» إلى جانبي في السيارة، يشرح لي بإنكليزيته الصينية، شيئاً عن معالم العاصمة، ونحن نخترق شوارعها الفسيحة. وأنا أستوضح وأستزيد، كما يفعل عظماء الضيوف، ونسيتُ في لحظة من الزمن، أنني بلا وطن ولا دولة، وأني واحد من الشعب اللاجئ والشريد الطريد.

وابتدرني المارشال قائلاً: «إن الشعب يرحّب بكم، ويؤيّد قضيّتكم، بخاصّة بعد إنشائكم منظمة التحرير الفلسطينية، لتبدأ النضال من أجل تحرير وطنكم من الإسرائيليين عملاء الإمبريالية الأمريكية».

وقلت: «نحن لا نلقي بالاً إلى الإمبريالية الأمريكية وعميلتها إسرائيل، ما

دامت الشعوب الحرّة تساندنا، وفي مقدّمتها شعب الصين العظيم، الذي ذاق مرارة العبودية، وحارب من أجل الحرية».

واستأنف المارشال حديثه قائلاً: «المهمّ أن تكون الأمة العربية متّحدة، فلا أمريكا ولا إسرائيل تستطيع أن تتغلّب عليكم إذا كنتم متحدين، على الدول العربية أن تتّحد».

قلتُ: «هذه حقيقة أساسية. لقد عقد الملوك والرؤساء العرب مؤتمَرَيْ قمة، الأول في القاهرة والثاني في الإسكندرية، وقد وحّدوا كلمتهم على محاربة الاستعمار والصهيونية».

قلتُ هذا الكلام، وأنا أتجنّب التشديد والتوكيد. ولا بد أن المارشال الوزير، يعرف عن حال الملوك والرؤساء العرب ما أعرف، إن لم يكن أكثر وأكثر.

ومضيْنا في الطريق الطويل بين أرجاء العاصمة، نتحدّث خليطاً من السياسة والمجاملة، حتى وصلنا قصر الضيافة وسط غابة كثيفة، مزهارة معطارة.

ودخل المارشال معنا بعض الوقت، مؤانساً ملاطفاً وتركنا في القصر في أيدٍ أمينة، مع المرافقين والتراجمة والخدم، وحاشية كبيرة من الحرس.

وهرول إلينا الخدم الصينيون يسألون عن راحتنا، وماذا نريد: طعاماً أو شراباً أو حماماً أو حلاقاً أو أدوات حلاقة أو كتباً أو سجائر..

وشكرتُ الخدم. لقد فطنتُ أن شعري طويل، وأنه مضى علي زمن من غير حلاقة، إذ إن فرسان الحوار والجدال في الوطن لم يتركوا لي فرصة وأنا أطوف العواصم العربية لأدخل على حلاق، فأنجو من حوارهم العليل، وأتخفّف من شعري الطويل.

وجاءني الحلاق، يعالج شعري الأشعث، بمقصّه الرتيب، وراح بعد ذلك يدلك جبيني، وعنقي، ومنابت الشعر في رأسي. وما إن فرغ من ذلك حتى أحسستُ أن النوم قد أخذ دبيبه إلى أوصالي، فسارعت إلى غرفتي قبل أن يهرب النوم من أجفاني، لا أسأل عن شراب أو طعام، فأمْرُ الطعام ميسور دائماً، دائماً أبداً. أما النومُ فإنه في مثل حالي وهمومي، عزيز المنال.

ونهضتُ في الصباح المبكر، وحواليّ من الهدوء، وسط هذه الغابة الفسيحة، والأطيار ترسل تغريداتها الحلوة، والأزهار تبعث عطورها الشذية، لا نسمع أبواق السيارات ولا أصوات الباعة. وجلستُ في الشرفة، وأحسست أن السكون قد طال وطال، «واستوحشت» إلى الضجيج والجلبة، ولم أستأنسْ إلا حين كان الحرس يمرّون من حول القصر بخطواتهم الرقيقة.

وبادرنا في الموعد المحدّد إلى صالة الطعام فأكلنا وتخمنا، وشربنا وامتلأنا. ولقد كان الفطور شهياً وغنياً، وهذا يوم بعيد عن المشاغل والمشاكل، فلَم لا نأكل ونشرب؟ إنها فرصة طيبة ومن يدري، متى نستطيب الطعام مرة أخرى.

وجاءني كبير «الياوران» يهمس في أذني، همسة صينية ناعمة، بأن رئيس الوزراء شو إن لاي قد حدّد لي موعداً خاصاً في الصباح وموعداً آخر بعد الظهر للاجتماع بالوفد بكامل هيئاته. وبهذا أصبح النهار كلّه ملكاً للشعب الفلسطيني. وأصبح رئيس الوزراء لأكبر شعب في العالم محجوزاً ذلك اليوم بكامله، لحساب القضية الفلسطينية.

وفي الموعد المحدّد، غادرتُ قصر الضيافة إلى مقرّ رئاسة الوزراء، في وسط المدينة، من دون حراسة ولا أيّ مظهر من مظاهر الحكم والسلطان. ودخلتُ الباب ومنه إلى المعابر الطويلة، لأجد شو إن لاي على باب غرفته في انتظاري. ويتقدّم إليَّ بقامته الممشوقة الشابة، تحمل السبعين عاماً من عمره وبوجهه الناعم القسمات، يحتوي عينيه النافذتين، فوقهما حاجبان غليظان مغوليان، تعلوهما جبهة عريضة، وراء عقل يختزن الدقائق والصغائر، مهما قلّ حجمها وخفّ وزنها.

وأخذني شو إن لاي بالذراعين، على طريقتنا العربية، في شوق ولهفة، وهو يقول: «لقد مضتْ عشر سنوات على لقائنا في باندونغ، أليس كذلك»؟

قلت: «لا، نحن لم نفترق أبداً، ولا عاماً واحداً؛ لقد كنتُ دائماً معكم، أتابع أخباركم ونضالكم».

ودخلنا مكتباً رحباً في مثل رحابة عقله، وهو يقول: «أنتم العرب معروفون بالفصاحة، ولا نستطيع أن نجاريكم».

قلت: «نحن نتطلّع أن نجاريكم في غير الفصاحة».

قال: «وهذه فصاحة أيضاً».

ودخلتْ كؤوس الشاي، وأُغلِقت الأبواب، وخرج الموظفون والتراجمة من الصالة، ورأيتُ نفسي أمام فرصتي التاريخية، مع شو إن لاي وجهاً لوجه وهو يقول: «ليس عندنا وقت محدّد، تكلّم ما تشاء، وقدر ما تشاء».

وبدأت الحديث عن لقائنا الأول في مؤتمر باندونغ، وعن جهوده الموفّقة في إنقاذ المؤتمر من هول التيارات التي كادت تعصف به من الداخل والخارج[٤] وأثنيتُ

(٤) المصدر نفسه.

على وقوفه إلى جانب القضية الفلسطينية، وإن الأمة العربية تحفظ له هذا الجميل. ثم انتقلتُ بعد ذلك إلى سرد الأحداث التي جرت على القضية الفلسطينية بعد مؤتمر باندونغ. وأسهبتُ في شرح ما انتهى إليه مؤتمرا القمة في القاهرة والإسكندرية. واسترسلتُ في تفصيل قيام الكيان الفلسطيني وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني.

ولخصتُ له قرارات الملوك والرؤساء. وختمتُ حديثي الطويل بحديث طويل عن تصميم الشعب الفلسطيني والجماهير العربية على تحرير فلسطين بالكفاح والسلاح مهما عظمت التضحيات، وما تعلّقه الأمة العربية على زيارتنا إلى هذا البلد العظيم، وما ستنتهي إليه من نتائج عظيمة.

كان شو إن لاي يستمع إليَّ بأذنيه وحاجبيه وعينيه ووجنتيْه، يستوعب حديثي بأعضائه هذه كلها، لا يتحرّك ولا يتثاءب ولا يلتفت، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا ساعداً فوق ساعد. كأنني أجلس أمام تمثال موسّد في هذا الكرسي، ولولا بريق الحياة يشع في عينيه، لحسبته كذلك يقيناً.

توقّفتُ عن الكلام، وأنا أعتذر عن الإطالة، إذ كنتُ تجاوزتُ الساعتين وأنا أتحدّث. قال: «لا داعي للاعتذار، وهل جئتَ من أقاصي الوطن العربي لنشرب الشاي معاً، ولتقول كلمتيْن وتنصرف؟ والآن، وقد شرحتَ ما شرحت، ما هي مطالبك. وبالتحديد؟»

قلتُ: «بالإضافة إلى التأييد السياسي. نريد معونةً عسكرية».

قال: «وماذا تريد بالتفصيل»؟

قلتُ: «نريد أسلحة خفيفة ومتوسّطة، ونريد كذلك أن نوفد بعثة من ضبّاطنا ليتدرّبوا على حرب العصابات. إنّ لكم خبرة غنية في هذا الموضوع».

قال: «أنت تعلم أننا مستعدون على الدوام لتأييد أية حركة تحرّرية في العالم، بقدر طاقاتنا. إنّ مسؤولياتنا تجاه شعبنا كبيرة، ونحن لسنا أغنياء. ولكننا نشعر أيضاً أنّ علينا مسؤوليات أمام الحركات التحرّرية في العالم لمساندة الشعوب المضطهدة ومقاومة الإمبريالية الأمريكية، ولن نتأخر عن مساعدتكم في حدود إمكاناتنا».

قلت: «إن مطالبنا ليست كبيرة، وإني أترك لكم تقديم العون الذي تستطيعونه».

قال: «نحن لسنا كغيرنا الذين يقدّمون مساعدات ويتقاضون ثمنها، ويتقاضون عليها فائدة، هذه أعمال مراباة سياسية. ليس هذا أسلوبنا».

قلت: «نحن لا نريد طائرات ولا دبابات، نريد من السلاح ما يصلح لحرب العصابات».

قال: «أين تريد أن يصل السلاح، هل اتّفقت مع أي من الحكومات العربية، هل تحدّثت مع الرئيس عبد الناصر في هذا الموضوع؟»

قلت: «الصحيح، أني لم أكلّم أحداً في هذا الموضوع. ولكني أعتقد أن القاهرة لا تعارض ذلك، ونحن نرجو أن تشحن الأسلحة إلى ميناء الإسكندرية».

قال: «نحن حاضرون لذلك، ويمكننا أن نرسل إليكم الأسلحة مجّاناً، وأن نشحنها على بواخرنا رأساً إلى الإسكندرية. ولا نأمن إرسالها على بواخر أخرى، فإن الأسطول الأمريكي واقف بالمرصاد. وأعلنوا ما شئتم فنحن لا نخاف من الأمريكيين، ولكنا نخاف عليكم من الأمريكيين».

قلت: «لا أستطيع أن أجد كلاماً أعبّر فيه عن شكري العظيم. وما دامتْ باخرتكم ستصل إلى الإسكندرية، فهل نستطيع أن نرسل عليها ضباطنا ليبدأوا دورة تدريبية عندكم على الفنون العسكرية المتّصلة بحرب العصابات».

قال: «بالطبع إن ذلك ممكن، ويحسن أن تظلّ على اتّصال دائم بسفارتنا في القاهرة لترتيب جميع الإجراءات اللازمة، سواء بالنسبة إلى الأسلحة أو الضباط». .

قلت: «لن ننسى لكم هذا الجميل و. .»

قال: (وهو يقاطعني) «هذا واجبنا. . لا داعي للشكر. . أنتم تريدون أن تحاربوا من أجل أرضكم، ولا يمكن أن نترككم وحدكم، ولا أن نترك الشعوب الآسيوية الأفريقية وحدها».

واستطرد شو إن لاي بعد ذلك، وقال: «وهل قدّم إليكم الروس شيئاً؟»

قلت: «لم يصلْنا شيء حتى الآن من موسكو».

قال: «وما هي المعاونات التي طلبتموها من الروس؟»

قلت: «طلبنا معاونات عسكرية وثقافية، ولكن لم يصلْنا شيء حتى الآن».

قال: «أنا أعلم أنك على صداقة متينة مع زعماء الاتحاد السوفياتي».

قلت: «الصداقة لا تزال قائمة، ولكن المعونة غير قائمة».

قال: (ضاحكاً) «أما نحن فصداقة ومعونة. ولكني أحب أن أؤكد لك أننا نكون مسرورين كثيراً لو أن الروس قدموا إليكم أية مساعدة. ونحن لا نريد أن تكون

صداقتنا معكم على حساب صداقتكم مع موسكو. وإذا قدّموا إليكم أية مساعدة فسنكون مسرورين جداً. نحن يهمنا أن تظفروا باستقلالكم وحريتكم».

قلت: «هذا هو الموقف الثوري الأصيل».

قال: «وإني لا أريد أن أدفعك إلى اليأس. واصلوا مساعيكم مع الاتحاد السوفياتي، وإن كنت أعتقد أنكم لن تحصلوا منهم على شيء، لا سياسي ولا ثقافي. إن موسكو معترفة بإسرائيل، وتقوم بينهما علاقات اقتصادية فضلاً عن أن الاتحاد السوفياتي وافق مع أمريكا على تقسيم فلسطين وقيام إسرائيل».

قلت: «هذا صحيح، وإن العالم العربي يذكر هذا الموقف. (ثم استدركتُ) وهل تسمحون لنا بفتح مكتب في بكين باسم المنظمة».

قال: «من الصباح الباكر، ونحن نقدّم لكم المبنى ونعترف بالمنظمة، ونمنح مكتبكم في بكين الحصانة الدبلوماسية، ونعاملها كما نعامل أية سفارة صديقة». ونهض شو إن لاي من مقعده، وهو يقول: «نحن معكم، ونحن حاضرون لكم ما نستطيع».

قلت: «لقد جئنا إلى بكين اثنا عشر فلسطينياً لنمثّل الشعب الفلسطيني ولكننا الآن أصبحنا بكم سبعمائة مليون، وهذه بداية النصر مهما طال الزمان».

وخرج شو إن لاي يودعني، فسار معي في الرواق الطويل، حتى الباب الخارجي، إلى أن دخلت السيارة، ورفع كلتا يديْه بالتحية، وأنا أقول في نفسي: «هكذا يقع الإنسان في أسر الإنسان».

وصلت قصر الضيافة، فوجدت رفاقي بانتظاري بعد أن عادوا من جولة في ضواحي العاصمة، وقد حجبت قسمات السرور عن وجهي وأقفلت عليها في نفسي وسرتُ معهم إلى قاعة الطعام، وهم يهمسون في أذني بتعبيرنا الفلسطيني: «قمحة أم شعيرة»؟

فقلت: «مازحاً، نحن هنا في الصين، لا قمحة ولا شعيرة. أمامنا أطباق شهية من الأرز الصيني». وبهذا الجواب، ما أنكرت ولا اعترفت. وتركت المكاشفة بين يدي المستقبل، ومن على المنابر حين يتطلّب الأمر، وبعد أن نصل إلى القاهرة.

وجلسنا إلى مائدة الطعام، والخدم الصينيون يطوفون علينا بأطباق الحساء وأصناف الأسماك وألوان اللحوم وأنواع الأعشاب والخضار. وإخواني يطلبون المزيد من هذا الصنف، ومن ذلك النوع، كأنهم في بيتهم وأعز، وعيوني معهم، ولكنْ أذناي لا تزالان تستمعان إلى شو إن لاي، في صوته الرنان، ثم يسرح خيالي مع الباخرة التي

ستحمل الأسلحة إلينا لتعود وعلى ظهرها ضباطنا الشجعان. وهكذا جلستُ إلى المائدة ونهضت، وأنا لا أعرف ماذا ازدردتُ من الطعام، وماذا احتسيتُ من الشراب.

ولم أكد أزدرد اللقمة الأخيرة حتى سارعتُ إلى سيارتي، وتوجّهت إلى سفارة الجمهورية العربية المتحدة، على غير موعد. واستقبلني السفير، وعلى طاولته كتبتُ إلى الرئيس عبد الناصر برقية لخّصتُ فيها حديثي مع شو إن لاي، وذكرتُ موافقته على شحن الأسلحة إلينا عن طريق ميناء الإسكندرية.

أمسك السفير العربي البرقية وهو يقول: «إنني لا أكاد أصدّق، هل سيقدّمون لكم السلاح؟ هل تم هذا بمثل هذه السرعة؟ وهل أخذت موافقة الرئيس عبد الناصر على هذا الموضوع؟ هذه خطوة عظيمة وخطيرة».

قلت: «لم أتحدث مع الرئيس عبد الناصر حول هذا الموضوع، ولسنا في حاجة إلى موافقة. مصر بلدنا، والإسكندرية ثغرنا. وهل نحن في حاجة أن نحصل على إذن من القاهرة في هذا الأمر؟ القاهرة قلب العروبة ومعقل الثورة العربية».

قال: «سأرسل البرقية فوراً. وأرجو أن تعلمني أول بأول بما يتم بينكم وبين المسؤولين، حتى تكون القاهرة على علم».

خرجت من السفارة إلى قصر الضيافة التماساً لبعض الراحة. ومن أين الراحة؟ وكأنني أقيم لا في قصر الضيافة، بل في الباخرة الصينية التي ستحمل إلينا البنادق والمدافع والقنابل، هديّة من شعب الصين، إلى شعب فلسطين.

وأزف موعدنا مع شو إن لاي، بعد أن استرحْنا قليلاً، وسرْنا في رتل من السيارات نخترق شوارع العاصمة، اثنا عشر فلسطينياً، يأخذون طريقهم إلى مقرّ رئاسة الوزراء ليجدوا شو إن لاي، كما رأيتُه في الصباح، واقفاً عند باب مكتبه، وحوله التراجمة ورجال مكتبه.

وبدأنا الجلسة الرسمية. وبدأ الرئيس شو إن لاي الحديث باللغة الصينية، ومن حوله السكرتارية يكتبون، والتراجمة يترجمون. وكنا في جلسة الصباح وحدنا، لا سكرتارية ولا تراجمة. والحديث بيننا باللغة الإنكليزية، تتخلّلها من حين إلى حين بعض العبارات بالفرنسية. لقد تعلّم شو إن لاي بعض الوقت في باريس.

واستفتح الرئيس شو إن لاي كلامه بالثناء على الشعب الفلسطيني في كفاحه البطولي من أجل وطنه، وندّد بإسرائيل مؤكداً أنها قاعدة للإمبريالية. وأعرب عن استعداد جمهورية الصين لمساندة الشعب الفلسطيني في نضاله الثوري لتحرير وطنه. ثم عاد بالذاكرة إلى مؤتمر باندونغ وما كان من اللقاء «بالأخ والصديق شقيري»

وعرض بعد ذلك موقف الرئيس الهندي نهرو، وكيف كان يساند موقف إسرائيل في المؤتمر. وختم حديثه قائلاً «أما الاتحاد السوفياتي فليس دولة آسيوية، ويجب ألا يكون له مكان في مؤتمر الشعوب آسيوية ـ الأفريقية، وحسناً فعل مؤتمر باندونغ أنه لم يوجه الدعوة إلى الاتحاد السوفياتي».

وشكرتُ لشو إن لاي الحفاوة البالغة التي لقيناها في بكين، والتفهّم الثوري الأصيل الذي تبديه جمهورية الصين تجاه القضية الفلسطينية. وتناولتُ بالتفصيل القضية الفلسطينية منذ نشوئها، مستعرضاً مراحل المؤامرة الاستعمارية لإنشاء الوطن القومي اليهودي، ومساندة الهجرة اليهودية، وإخراج العمال والفلاحين العرب من أراضيهم وقراهم، ثم إنشاء الدولة اليهودية بمساندة الولايات المتحدة. وقاطعني، هنا شو إن لاي قائلاً: «وكذلك بتأييد الاتحاد السوفياتي».

وقلت على الفور: «نعم وبتأييد الاتحاد السوفياتي، هذه حقيقة تاريخية..». ثم تحدّثت عن مؤتمرات القمة، وعن قيام منظمة التحرير الفلسطينية، مؤكّداً تصميم الشعب الفلسطيني على تحرير وطنه مسنوداً بجماهير الأمة العربية، ومعاونة جميع الشعوب المناضلة من أجل العدل والحق والحرية، وفي مقدمتها شعب الصين العظيم.

وانتقلت بعد ذلك إلى عقد المقارنة بين المشاكل العربية والصينية، وتحدّثت عن جزيرة «تايوان» فرموزا، مشيراً إلى أن الولايات المتحدة هي التي فصلتها عن الوطن الأم ـ الصين ـ وأن المقعد الذي تحتلّه في الأمم المتحدة إنما هو حق جمهورية الصين الشعبية.. وأن.. وأن..

وعرضت إلى قضايا فييتنام وكوريا ولاوس والكونغو، وموقف الإمبريالية الأمريكية من شعوب أمريكا اللاتينية.. ثم ختمت حديثي بالعودة إلى الكلام عن القضية الفلسطينية شارحاً بالتفصيل ما يعانيه اللاجئون في مخيماتهم من بؤس وشقاء وحرمان، في حين أن الولايات المتحدة تمدّ إسرائيل بالقروض والأسلحة، وقد بلغت المعونات الأمريكية المالية لإسرائيل ستة بلايين من الدولارات، وذلك أكثر مما قدمته أمريكا لشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية مجتمعة.

وانقضت ساعة، ونحن في هذه الجلسة الرسمية في إطار هذه الأحاديث وكأنما أصبحنا فريقاً واحداً لا فريقين، نتكلم من منطق واحد، ومن منطلق واحد. وخرجنا من الاجتماع، والإخوان أعضاء الوفد مبهورون بهذا اللقاء وهم يقولون: «هذه مبادئ، النظرية والسلوك عندها شيء واحد».

ووقف الرئيس شو إن لاي على الباب يودّعنا وهو يقول: «غداً سنلتقي على الغداء، و«الصديق الشقيري» سيجد مفاجأة سارة».

وعدنا إلى قصر الضيافة، والإخوان أعضاء الوفد يقولون: «يا أخي نحن لا نريد مفاجآت سارة في المطعم، نحن نريد سلاحاً. الشعب وراءنا ينتظر السلاح. أنت لم تتكلّم في موضوع السلاح. نرجو أن تختلي بالرئيس شو إن لاي وتحدّثه في الموضوع قبل أن نعود إلى الوطن».

قلت: «سأفعل ما تأمرون، أرجو أن تصبروا عليّ قليلاً».

قالوا: «نستغفر الله، الأمر أمرك. ونحن نرجو أن تصبر على إلحاحنا». قضينا ليلتنا في صالة الاستقبال نشاهد فيلماً سينمائياً عن حرب التحرير في الصين، والإخوة يتفرّجون بحماسة. وأنا أستعرض فيلماً سينمائياً آخر. في خيالي، أتخيّل الباخرة الصينية وهي تمخر البحر تحمل إلينا السلاح، وتعود، وعلى ظهرها ضباطنا الشجعان ليتدرّبوا على حرب التحرير. والفيلمان وإن اختلف فيهما الأبطال والقصة، يدوران في فلك واحد، معركة الإنسان من أجل كرامة الإنسان.

وفي ضحى اليوم التالي انشطر الوفد إلى شطرين، فقد ذهب «المدنيّون» إلى زيارة المصانع والمعاهد، وذهبنا نحن «العسكريّين» أنا، واللواء وجيه المدني، والنقيب فخري شقورة إلى وزارة الدفاع للبحث في الشؤون العسكرية للمنظمة.

وفي الموعد المحدّد، وصلنا إلى مبنى وزارة الدفاع، ولم يكن ما حوله يدل عليه، فلا جنود، ولا قعقعة سلاح، ولا مدافع أثرية عند المدخل. ولعلّ السبب في ذلك، أن الدولة والشعب كليهما تحت تعبئة عسكرية دائمة، فالجيش هو الشعب، والشعب هو الجيش. ولا فرق في المظاهر بين وزارة الدفاع ووزارة الفنون الجميلة.

والتقينا برئيس الأركان ومعاونيه في صالة رحبة وأنيقة، وعلى عجل، وسألني رئيس الأركان أن أطرح الجانب العسكري لقضية فلسطين، كأنما المعركة ستكون غداً وبعد غد.

وتقدّم أحد الضباط الصينيين وعلّق على جدار الحائط خارطة كبيرة لفلسطين، فتفرّست فيها، فوجدتُها من خرائط حكومة الانتداب البريطاني، مكتوبة باللغة الإنكليزية، مرسومة بمقياس كبير. وقلت في نفسي: «خارطة فلسطين، في الصين! إن الحكومات العربية ليس عندها خارطة فلسطين.. ومن كانت عنده واحدة، فهي في مخازن المهملات».

وأخذت أتحدّث عن جغرافية فلسطين وطوبوغرافيتها، وأنا أشير على الخريطة إلى المواقع والمواضع. ولم يكن الأمر عسيراً عليَّ، فأنا أعرف فلسطين لا «جغرافياً» ولكنني أعرفها لأني عشتها منذ طفولتي، وعرفت مدنها وقراها في شبابي، وفي

رجولتي واكبت الحياة في جبالها وسهولها ووديانها وعلى شواطئها.

وقضيت ساعة من الزمن، وكأنني في خلوة صوفية نقلتني إلى الوطن الحبيب، فتحدثت عن الخطط البعيدة التي وضعها اليهود لبناء قواتهم العسكرية، ومستعمراتهم، وكيف بني جيش الهاغاناه، والمنظّمات الإرهابية العسكرية. وأسهبت في الكلام عن إجراءات سلطة الانتداب البريطاني في تحقيق هدفيْ متوازييْن متكامليْن، تدريب اليهود على الحرب، وتجريد العرب من السلاح. ثم شرحت «حدود» إسرائيل، ومناطق التجمّعات العربية، وطبيعة طوبوغرافيتها. واستعرضت تاريخ الثورات الفلسطينية الخمس عشرة، منذ ١٩٢٠ حتى ١٩٤٠. وقفزت بعد ذلك إلى قيام منظمة التحرير الفلسطينية وإنشاء جيش التحرير الفلسطيني وإلى المواقع التي يتمركز فيها: قطاع غزة وسوريا والعراق.

وفي صعوبة محرجة متحشرجة أوجزت الأسباب التي امتنع فيها الملك حسين عن «وجود» جيش التحرير الفلسطيني في الضفة الغربية. وعند هذه النهاية من حديثي كانت بداية حديث رئيس الأركان الصيني.

قال أول ما قال: «إن وجود جيش التحرير الفلسطيني في الضفة الغربية هو أمر أساسي لمعركة التحرير. إن الضفة الغربية، إذا أحسن استخدامها، تملك مواقع استراتيجية قاتلة مدمرة لإسرائيل، ولذلك فنحن نفهم لماذا تقوم الإمبريالية الأمريكية بمنع جيشكم من التحشد في الضفة الغربية. معلوماتنا أن الجيش الأردني مدرّب تدريباً حسناً، وعناصره تتمتع بمزايا قتالية عالية، ولكن المشكلة في الجيش الأردني أن أمره ليس بيد الشعب، وما بقي في هذه الحالة فإنه لا يستطيع أن يؤدي دوره في معركة الشعب».

وحملق رئيس الأركان في الخارطة المعلّقة على الجدار، وقال: «إن حرب التحرير الفلسطينية يجب أن تكون لها قاعدة في داخل إسرائيل. إن الأعمال من الخارج، قد تزعج إسرائيل بعض الشيء، ولكنها لا تأتي بفائدة تذكر».

وأخذ رئيس الأركان عصاً صغيرة بيده وأشار إلى منطقة الجليل وقال: «يجب أن تكون هذه الجبال قاعدة لكم، إن لها مزية عسكرية كبرى. إنها قريبة من الأهداف الإسرائيلية الحيوية، وحولها سوريا ولبنان، حيث يمكن أن تكون قواعدكم الخلفية».

وتحدّث رئيس الأركان بعد ذلك، وقال: «إن التحرير ليس في حاجة إلى جيش كبير، وليكن جيشكم مؤلفاً من مجموعات صغيرة، مدرّبة تدريباً خاصاً، للقيام بأعمال خاطفة شجاعة، لإنزال ضربات موجعة بالعدو. تجنّبوا مواجهة العدو في معارك مكشوفة. السلاح الحقيقي هو الجندي المدَّرب الذي يعرف كيف ينتفع بقدراته

العسكرية أثناء المعركة»، إلى آخر ما هنالك من الأوامر والنواهي التي عرفت بها «العقيدة» الصينية في خوض معارك التحرير.

وفي ختام الجلسة جرى حديث بين رئيس الأركان، واللواء وجيه المدني، عن أنواع الأسلحة التي يستعملها جيش التحرير، وعن تشكيل الجيش ووحداته، ونظام تدريبه.

وانتهت الجلسة، وأخذنا طريقنا إلى السيارة، ورئيس الأركان يقول لي: «لقد كان لقاؤنا مفيداً جداً».

قلت: «لقد كان مفيداً لنا نحن، نحن الجانب الذي استفاد من هذه الجلسة، ونرجو أن نستفيد منه في المعركة. وكل ما نرجوه أن تقوم بيننا رفاقة السلاح».

قال رئيس الأركان وهو يلتزم حدوده: «إن أموركم كلها مع الرفيق شو إن لاي».

وقلت: (كمن لا يريد أن يذيع سراً): «لقد اتّفقنا مع الرفيق شو إن لاي على كل شيء، ونحن الآن ذاهبون إلى الغداء معه».

وحملتْنا سياراتنا من وزارة الدفاع، ونحن نحسب أنا أصبحنا خبراء في فنون القتال، ولم يعدْ أمامنا إلا أن نقول: كنْ فيكون.

ومررْنا بمقرّ رئاسة الوزراء، وذهبنا مع مضيفنا الكبير شو إن لاي، عبر الشوارع الرئيسية إلى الشوارع الفرعية، ولا حرس معنا ولا حولنا. وانتهى المطاف بنا إلى مطعم صغير أنيق، لا ينبئ مكانه ولا أثاثه، عن فخامة ولا عن عظمة!!

عدت بالذاكرة إلى المطاعم الفارهة في نيويورك، حيث بهرجة الديكور، وبذخ الزينة، وتجلّى لي الفارق بين الرأسمالية المبذّرة، والاشتراكية المقتّرة. تلك تبذّر مرضاة للأغنياء، وهذه تقتّر توفيراً للفقراء..

وبادرت الرئيس شو إن لاي بالسؤال: «وما هي المفاجأة السارة»؟

قال: «تذكّرْ وليمتنا للوفد السوري في باندونغ. لقد قدّمنا لكم كل الأطعمة الصينية التي حملناها معنا بالطائرة، إلا «أكلة البط» فإنها لا تؤكل إلا في الصين. ولقد وعدتُكم أن تأكلوها معنا في بكين، وها نحن هنا».

ودخل الخدم يحملون أطباق البط، لحماً من دون عظم. وما كان أشهاه وأزكاه! ولقد ازدادت زكاوته بالطرائف التي كان يرويها شو إن لاي أثناء الطعام، وهو المضيف الظريف، يعرف كيف يأسر سامعيه، في المطعم أو في المكتب، سواء بسواء.

ولقد بالغ شو إن لاي في اللطف، واللطف طبيعة الصينيين جميعاً، فصار يتناول بيديه شرائح البط من الأطباق ويقدمها إلى أعضاء الوفد واحداً واحداً، يؤانس الجميع ويتفكّه مع الجميع. وحسبنا أننا أمام «منسف» حيث تغوص الأيدي في طبخة من اللحم والأرز والسمن واللبن، ولو عرفها شو إن لاي، لأكلها براحتيه كما يأكلها العرب.

لقد أكلْنا من دون وعي في ذلك اليوم. وفي غمرة الحديث، كانت الأطباق تغافلنا، ترفع وتوضع، ونحن نأكل حتى تخمنا، وانتهينا.

وخرجنا من المطعم، كل إلى سيارته، وقال شوإن لاي: «إن وجبة البط في حاجة إلى راحة، إذهبوا واستريحوا».

قلت ضاحكاً: «إن وجبة البط في حاجة إلى صلاة».

قال: «وكيف ذلك»؟

قلت: «إن موعدنا بعد الظهر هو في معهد الشؤون الإسلامية. وسنذهب إلى الجامع ونصلي، وسيكون البط في جوفنا، ليصلّي معنا»!!

فقهقه الرئيس شو إن عالياً بكل فرح وسرور. ورفع الواقفون من الجمهور في الطرف الآخر من الشارع أيديهم بالتحية، وهم يعربون عن سرورهم بانتظام وانضباط، تماماً مثل تصرّف الجنود.

وهكذا كان. لقد ذهبنا رأساً إلى معهد الشؤون الإسلامية، لنعيش ساعة من الزمن في قلب بكين، تحت قباب الإسلام.

ووجدنا جمعاً من الوجوه المغولية عليها عمائم إسلامية، في انتظارنا عند باب المسجد وكان سلام، وكان عناق. وكان حديث باللغة العربية الأعجمية. ودخلنا وإذا نحن في مسجد لطيف أنيق، ووجدنا بعض الشباب يجلسون مقرفصين يتفرّسون في بعض الكتب الدينية مكتوبة باللغة الصينية. وانتقلنا إلى جناح المكتبة وأخذنا ننظر في المصاحف الإسلامية التي تعود إلى عصور مختلفة، فكانت ساعة عشنا معها في موكب التاريخ الإسلامي، عصراً بعد عصر، حتى أصبح المسلمون في الصين بالملايين.

وانتحيْنا جانباً إلى جناح الوضوء، وتوضّأْنا، ثم صلّيْنا العصر، إمام المسجد المغولي يؤمنا في الصلاة. وهذا هو الإسلام لا يفرّق بين الأسمر والأصفر، إلا بالعاقبة والتقوى.

وبعد الصلاة بدأنا «ندوة» إسلامية حول قضية فلسطين، وتحدّثت إلى الإمام وصحبه عن «فلسطين» باعتبارها وطناً إسلامياً، وأنها موطن الإسراء والمعراج، وأولى القبلتين وثالث الحرمين، وأن الجهاد في سبيل تحرير فلسطين هو فريضة على المسلمين. وهو انتصار للحق والحرية لغير المسلمين، وأن على المسلمين الصينيين أن يدعوا مواطنيهم في الصين لنصرة القضية الفلسطينية.

وردّ الإمام ببيان فضائل بيت المقدس، وواجب الجهاد. وأعلن أن شعب الصين بقيادة زعمائه لن يتردّد في مقاومة الصهيونية والإمبريالية، ولولا اللّكنة المغولية التي غلبت على لسان إمامنا المفضال، لحسبت أننا في قاعة من قاعات الأزهر الشريف، نتّحدث عن أحكام الدين الحنيف.

وعدْنا إلى قصر الضيافة بعد يوم حافل بالطعام مع شو إن لاي، عامر بالصلاة مع الإمام. ووجدنا رجال وزارة الخارجية في انتظارنا ليقرأوا لنا برنامج «الثلاثة أيام المقبلة» في زيارة المصانع والمزارع. وحمدنا الله أننا سنلتقي بالشعب، ليحدثنا ونتحدث إليه، ونرى كيف يعيش وبمَ يفكر، ذلك أن الشعب الصيني قد كتبتُ عنه مكتبة كاملة، وها نحن الآن نقرأه في حياته اليومية، على الطبيعة، ولو في بضعة سطور.

وفي مرحلة الأيام الثلاثة التي قضيناها مع الشعب الصيني، في مزارعه، ومصانعه ومدارسه وقراه رسمتُ لنفسي هدفاً منذ البداية. لقد أردتُ أن أتعرّف إلى العامل قبل المعامل، وإلى الصانع قبل المصانع، وإلى المُزارع قبل الزراعة، ذلك أن الإنسان هو أثمن من كل ذلك. ومن وجهة أخرى فإني لم أتوقّع أن أرى في الصين من المصانع والمعاهد ما رأيتُه في أوروبا وأمريكا، فإن الصين على عراقتها وعظمتها لا تزال في بداية تطوّرها الصناعي، وإن كان ينتظرها مستقبل عالمي هائل.

وبادئ ذي بدء، فإني أسجل هنا الأمور التي ما وجدتُها، قبل التي وجدتُها. وفي رحلتي كلها في الصين، في المدن والقرى، لم أجد على مدى خمسة عشر يوماً، حافياً ولا عارياً، ولا فقيراً يتسوّل بأعضائه المشوهة.

ولم أجد مواطناً متسكّعاً، أو عاطلاً.

ولم أجد فتاة أو امرأة على زينة فاحشة، أو تمشي بفتنة فاجرة.

ولم أجد فتى يخاصر فتاة مخاصرة داعرة، أو يقبلها قبلة عاهرة.

ولم أجد السائق يجادل بوليس المرور، ولا المشتري في حوار مع البائع.

ولم أجد أفلام الجنس، والقتل، والجاسوسية، وشذوذ المراهقين والمراهقات. ولكني وجدتُ الناس يعيشون عيشة واحدة، حتى الإمبراطور السابق، اعتذر عن خطاياه، فأصبح مواطناً عادياً، له وعليه، ما للمواطنين وعليهم، وقد فاتني أن أطلب زيارته.

وجدتُهم يلبسون الملابس الواحدة على طراز واحد: العمّال لهم زيّهم، وكذلك الفلاحون والطلاب والموظفون.

وجدتُهم يأكلون الطعام الواحد، في الوقت الواحد، وطبق الأرز وجبتهم الأولى.

وجدتُهم في نظام وانضباط، في المدرسة، والمعمل، والمزرعة، والشارع.

وجدتُهم في الاجتماعات العامة في غاية الاتّزان والهدوء والنظام، فلا هرج ولا مرج. يهتفون جماعة، وينصتون جماعة. يدخلون قاعة الاجتماع بالألوف ويخرجون بالألوف، ولا تحسّ كيف دخلوا وكيف خرجوا.

وجدتُهم في المزارع، يعمل الواحد منهم كأنه يملك أرض الصين بأسرها.

وجدتُهم في المصانع، ويعمل الصانع منهم كأن الوطن كله هو بيته.

وعلى الجملة وجدتُهم في المدارس والمعاهد والمؤسسات العامة ودور الحكومة يعملون بروح السباق مع الزمن، فهم يعرفون أنهم متخلّفون، ويعملون بروح الاعتماد على النفس.

«والاعتماد على النفس» في الصين، ليس كلمة أدبية أو عبارة إنشائية، إنه تعبير أطلقه الزعيم العظيم ماوتسي تونغ شعاراً عاماً للحياة في الصين. ولقد عرفتُ معنى هذا الشعار في المصانع، بصورة خاصة.

في زياراتنا للكثير من المصانع حدّثنا العمال عما فعله الاتحاد السوفياتي بهم، وبمصانعهم. قالوا: «إن «السوفيات المنحرفين» قد سحبوا خبراءهم من مصانعنا، لقد غادروا بلادنا وهم يبكون، لأن صداقة الشعوب لا يؤثر عليها القادة «المنحرفون». وامتثالاً لأوامر الزعيم ماو، بالاعتماد على النفس، مضيْنا في صناعاتنا بجهودنا وحدنا. وها نحن قد حقّقنا إنجازات عظيمة من دون الخبراء السوفيات، وسنصبح في طليعة الشعوب تقدّماً، وسنضع خبراءنا تحت تصرّف الشعوب الصديقة».

وليس المصنع وحده هو عالم العامل، العمال في الصين لا يعيشون في عزلة عن

العالم. ولقد تحدّثنا إليهم في المشاكل الدولية كافة فرأيناهم على معرفة حسنة. قالوا: «لقد زارنا زعيم العمال البريطاني «ويلسون» حين كان في جانب المعارضة، وذكرنا له يومئذ، أن حكومة المحافظين قد منعت تصدير بعض المواد التي نحتاج إليها في صناعاتنا، واستنكر ذلك على مسامعنا جميعاً. وبعد أن عاد إلى بلاده وأصبح رئيساً للحكومة، بقي الحظر على حاله. الاستعماريون استعماريون سواء كانوا في الحكم أو المعارضة. أليس كذلك أيها الصديق»؟

وانتقل الحديث إلى الشؤون الآسيوية الأفريقية، والقضية الصهيونية، والإمبريالية العالمية.. وتحدّثوا لا حديث العارف فحسب، ولكن حديث المؤيّد المساند.

قالوا: «نحن نؤيّد قضايا الشعوب المضطهدة، نحن نقاوم الإمبريالية الأمريكية. نحن معكم في نضالكم ضد الصهيونية، إسرائيل هي ركيزة أمريكا في بلادكم. وليس تأييدنا للشعوب الصديقة قاصراً على المواقف المعنوية، إن مصانعنا ومزارعنا تنتج لشعبنا، وكذلك نقدّم العون للشعوب الصديقة. إن مواردنا ليست لنا وحدنا، إن علينا واجباً إزاء الشعوب المناضلة لتحقيق حريتها، وكنا نتّمنى لو أن مواردنا أكبر لنقدّم أكثر».

وغير ذلك، وغير ذلك، مما سمعتُه ورأيتُ في هذه الأيّام الثلاثة في رحلتنا، في قصر الضيافة ليلاً، ومع الشعب نهاراً.

وأزف يوم الأحد (٢١ آذار/ مارس ١٩٦٥) وهو اليوم المحدّد للاجتماع الشعبي الكبير في بكين، وكان مقرّراً أن يكون في يوم الاثنين، غير أنه قُدِّم يوماً واحداً، لأن رئيس الوزراء شو إن لاي جدّ له سفر قصير خارج الصين، وأراد أن يشارك في هذا الاجتماع بنفسه.

ومكثتُ في غرفتي بعض الوقت مع التراجمة، وأنا أردّد وراءهم بعض العبارات والشعارات باللغة الصينية، يعيش الرئيس ماو.. يعيش شعب الصين العظيم.. لتسقط الإمبريالية الأمريكية.. لتسقط الصهيونية.. سنحارب حتى النصر..

ولم تكن هذه المهمة يسيرة، فاللغة الصينية صعبة في نطقها، وليس من السهل حفظ ألفاظها، ولكني بقيت مصرّاً على الحفظ والتعلّم. ورسولنا الكريم أوصانا «أطلبوا العلم ولو في الصين». وكان ذلك في أيام القوافل، فكيف اليوم في عصر الطائرات، ونحن الآن في قلب الصين.

خرجنا من قصر الضيافة، إلى قاعة المعارض الكبرى، حيث الاجتماع الشعبي الكبير. وغداة وصولنا حسبنا أننا أخطأنا الموعد، ذلك أنه لم نسمعْ أحداً ولا شيئاً. وأخذنا طريقنا إلى المنصّة ويا لهول ما رأينا.

رأينا القاعة مكتظّة بالألوف، في صمت تام، وفي نظام عام، ولولا الصدور التي تتحرّك بالأنفاس لأيقنّا أننا لا نرى إلا حشداً هائلاً من الدمى أو تماثيل الشمع. وتذكّرت القول العربي الفصيح «كأن على رؤوسهم الطير» والقول العربي العامي «ترمي الإبرة تسمع صوتها». جلسنا على المنصة الرئيسية محاطة بالزهور، ومن حولنا السفراء العرب وممثلو الدول الصديقة وكان إلى جانبي شو إن لاي، ورئيس البلدية، ووراءنا كبار رجال الدولة عسكريين ومدنيين. ونظرت في القاعة فلم أجد نهاية لها، لأن الأكتاف تراصّت بالأكتاف، واللافتات الحمراء الفاقعة تملأ الجدران باللغة الصينية والعربية: «نؤيد نضال الشعب الفلسطيني لتحرير وطنه» و«عاش التضامن بين الشعب الصيني والشعوب العربية في النضال ضد الاستعمار» إلى غيرها من اللافتات الضخمة. فكلّ شيء ضخم في الصين إلا مباسم الصينيات، وبراعم الزهور.

ووقف شو إن لاي يقدّمني إلى الجمهور، وارتفع صوته الرنان من مكبّرات الصوت، واشرأبّت إليه الأعناق ودوّت القاعة بالتصفيق، طويلاً وموقعاً، كأنما أمام الجمهور «نوتة أنغام». وقال: «لا أريد أن أتكلّم لقد جئتكم بأخي وصديقي السيد الشقيري ليتكلّم إليكم. سيتكلّم كفلسطيني عن فلسطين، وكعربي عن الأمة العربية، وكدولي عن الأمم المتحدة. هذا هو السيد شقيري ضيف الشعب الصيني». وعاد شو إن لاي إلى مكانه، وقد تصاعدت حماسة الجماهير بالتصفيق والهتاف، ولكن في نظام، يبدأ معاً وينتهي معاً.

ووقفت وراء المذياع، ووقف معي الجمهور، إلى أن أومأ لهم شو إن لاي بالجلوس وبدأت خطابي بترداد الشعارات التي حفظتها باللغة الصينية «يعيش الرئيس ماو» «يعيش الشعب الصيني العظيم» «لتسقط الإمبريالية الأمريكية». ولم أكد أنتهي من إلقاء العبارات الثلاث باللغة الصينية المعرّبة حتى وقفت الجماهير مرّة ثانية سروراً وابتهاجاً. ومضيتُ بعد ذلك لأقول: «إن شو إن لاي يملك ذاكرة حادّة، فلا تغيب عن ذهنه الأحداث مهما تقادم عهدها، لقد قال لكم إنني سأتكلم كفلسطيني وكعربي وكدولي. لقد نسي أن يقول لكم إنني سأتكلّم كعضو في مؤتمر باندونغ. وكان هذا نسياناً مقصوداً، ذلك أن شو إن لاي، له شخصية دولية متواضعة. إنه لا يريد أن أذكر لكم دوره في مؤتمر باندونغ». ومضيت أشرح الأزمات الخطيرة التي مرّت في مؤتمر باندونغ وكيف أن الفضل الكبير في إنقاذ المؤتمر يرجع إلى حصافة شو إن لاي.

وقلت: «إن شو إن لاي حمل روحكم الثورية إلى مؤتمر باندونغ، ومن أجل هذا تكلّل المؤتمر بالنجاح بعد أن كان على حافة الهاوية»[٥]. ومضيتُ بعد ذلك في شرح القضية الفلسطينية من بدايتها: وعد بلفور، والانتداب البريطاني، والهجرة اليهودية، وبيع الأراضي، والثورات الفلسطينية، وقيام إسرائيل، ونزوح اللاجئين، والكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية، ودور الإمبريالية الأمريكية، إلى آخر تطورات القضية الفلسطينية. وخلصت إلى القول إن شعبنا هو شعب من العمال والفلاحين والمثقفين، تآمرت عليه الإمبريالية الأمريكية، والرأسمالية الصهيونية، وإن معركتنا هي جزء من النضال العالمي للتحرر الوطني. ولا يحسبنّ أحد أننا شعب صغير فإن شرارة واحدة، كما قال الرئيس ماو: «تكفي لأن تشعل غابة كبيرة». ولم أكد أنهي هذا الاقتباس حتى أصبحت الجماهير في حماستها وابتهاجها كأنها في مسيرة عسكرية.

ولاحظت أمامي عدة صفوف من الطلاب والطالبات فقلت أخاطبهم: «أنتم تعرفون أن شكسبير، قد بدأ خطابه الشهير في رواية يوليوس قيصر منادياً «أيها الأصدقاء، أيها الرومان أيها المواطنون». . ولكني أقول لكم اليوم: «أيها الرفاق»، وهذا نداء أرفع وأعظم، لأننا نحن رفاق حقاً، لأننا رفاق في معركة واحدة، وإنكم لتعرفون أن الرئيس ماو، قال «نحن بارعون في هدم النظام القديم، ولكن يجب أن نكون أعظم براعة في بناء النظام الجديد». وعلينا، أيها الرفاق، أن نكون معاً في الميدان لنهدم النظام القديم، ولنبني النظام الجديد، نهدم النظام الإمبريالي الأمريكي، ونبني نظام الحرية والمساواة لجميع الشعوب.

وتطرّقت بعد ذلك إلى حديث طويل عن المشاكل الآسيوية الحبيبة إلى قلوب الشعب الصيني: جزيرة أوكاناوا التي تحشد فيها أمريكا الصواريخ النووية رغماً عن إرادة الشعب الياباني، وقضية كوريا وكيف مزّقتها الولايات المتحدة تحت أعلام الأمم المتحدة، وقضية فييتنام وكيف تقصف القاذفات الأمريكية مدنها وقراها، ثم وقفت وقفة طويلة عند جزيرة تايوان «فرموزا» وكيف أن الإمبريالية الأمريكية فصلتها عن الصين الوطن الأم، وأقامت فيها حكومة عميلة. واستدركت بالقول إنها ستعود إلى الوطن، وتصبح صينية كما أن بكين صينية.

وهلّلت الوجوه بقسمات السرور، وأخذت الأيدي بالتصفيق، وأصبح التعاطف والتفاعل بيني وبين الجماهير بالغاً القمة، حتى غدوْت صينياً، وغدا

(٥) المصدر نفسه.

الجمهور عربياً. وختمت خطابي بترديد الشعارات التي حفظتها باللغة الصينية، وحمدت الله أنني لم أنسَ في غمرة الحماسة العبارات الثلاث إياها. ولم أسقط في الامتحان.

وعدتُ إلى مكاني في المنصة، ليصافحني شو إن لاي في حرارة دافقة، مغمورة بالسرور والارتياح، ذلك أن ضيفه قد مرّغ وجه الإمبريالية الأمريكية في الوحل، وما كان أوحل ذلك اليوم على الأمريكيين.

ولم تمضِ على حديثنا دقيقة أو دقيقتان، حتى خلت القاعة الكبرى من آلاف الجماهير، فلَم أحس كيف خرجوا، ومتى، من دون أن نسمع قعقعة أو وقع الأقدام. هكذا خرجوا بكل وداعة وسكينة، وغادرنا القاعة إلى سياراتنا، فلم أجد أثراً للجماهير في الميدان. وعجبت أين ذهبوا، وقد صدق فيهم القول العامي الشهير، «فصّ ملح وداب».

وصلنا قصر الضيافة، لاستراحة قصيرة، فكان برنامجنا تلك الليلة أن نحضر مأدبة عشاء يقيمها السفراء العرب على شرف منظمة التحرير الفلسطينية، حفلة هادئة، ليس فيها خطب ولا خطباء. وحمدت الله. وصلنا الحفل في المكان وفي الزمان. وكانت القاعة مضاءة بالأزهار زاهرة بالأضواء في غاية البهجة والإيناس والموائد منثورة هنا وهناك والسفراء العرب وعقيلاتهم يستقبلون المدعوّين، وما أجملهم حينما يتفقون ولو على وليمة!!

وتوزّع أعضاء الوفد على الموائد، وحضر شو إن لاي وكبار رجال الدولة ووزّعوا أنفسهم كذلك على الموائد، وتوافدت أطباق الطعام العربي، فطعمنا بشوق ولهفة وقد بعدنا عنه أياماً. وإذا بالمفاجأة تقع على غير انتظار.

وقف شو إن لاي يخطب. كان مسروراً غاية السرور. وأحسب أن حفلة البلدية ذلك اليوم قد شحنتُه شحنة كبيرة. وتكلّم عن القضية العربية، وعن قضية فلسطين مؤيّداً ومسانداً. وتمنّى أن تكثر الزيارات العربية إلى الصين، «حتى يزداد الشعب الصيني فهماً للقضية العربية وتنمو بيننا الصداقة، لأن العدو واحد، والمعركة واحدة، والنصر واحد.. وإني أشكر أخي وصديقي السيد شقيري على خطابه الجامع الذي استمعنا إليه اليوم في قاعة البلدية.. لقد تعلّم شعبنا اليوم كثيراً من السيد شقيري، وإني أرجو من السفراء أن يطلبوا من حكوماتهم أن يوفدوه إلينا من حين إلى حين».

وحين جلس شو إن لاي، كان عليّ أن أقف. وبدأت قائلاً: «لا حاجة أن أزور الصين من حين إلى حين، وإن كان ذلك يسعدني فإن الرئيس شو إن لاي يعرف عن

القضية العربية ما أعرف وأكثر. والشعب الصيني العظيم لن يجد صعوبة في التعرّف إلى قضايانا، فإن الثوار يعرفون مشاكل الثوار، إن قضايانا متشابهة. لقد كانت الصين موزعة بين مناطق النفوذ الأجنبي، فناضلتم من أجل التحرير ثم ناضلتم من أجل الوحدة، ونحن نسير على الدرب نفسه، نناضل للتحرير والوحدة. إن النفوذ الأجنبي ينهزم الآن في الوطن العربي أمام الزحف الوطني المقدس؛ وآخر معاركنا هي تأميم قناة السويس، والمعركة مستمرّة وفلسطين ميدانها الكبير». وأسهبت في الحديث عن الوحدة العربية ومقوماتها، وقلتُ: «إن الأمة العربية تبلغ سبع سكان الصين، وأقل منها مساحة، وقد استطاع شعب الصين المناضل أن يقيم دولة واحدة، ونحن مصمّمون أن نسير على النهج نفسه لتحقيق وحدتنا، نحن أمة واحدة تحكمها ثلاث عشرة حكومة. واسمحوا لي أن اضرب مثلاً في نفسي دلالة على وحدة الأمة العربية. لقد عملت أميناً مساعداً في الجامعة العربية وهي للدول العربية كلها، ثم أصبحت رئيساً للوفد السوري في الأمم المتحدة، وبعد ذلك كنت وزير الدولة السعودية لشؤون الأمم المتحدة، وها أنا الآن معكم أمثل شعب فلسطين. هذا مثل صغير، ولكنْ له مدلول كبير في مفهوم الوحدة العربية. «ومضيتُ إلى آخر ما يمكن أن يتحدّث به عربي عن الوحدة العربية».

ورأيتُها فرصة حسنة لأوضّح السبب في أني كنت أخطب باللغة الإنكليزية في جميع مراحل هذه الرحلة فقلتُ: «أنا أخطب بالإنكليزية لسببين: الأول أن الإنكليزية لغة فقيرة بالنسبة إلى اللغة العربية ولذلك تسهل ترجمتها. والثاني أني أريد أن أهاجم الإمبريالية الأمريكية بلغتها، لا بلغتنا». وانتهى الحفل في هذا الجو المرح. وخرجت مع السفراء العرب إلى الباب الخارجي لأكون في وداع الرئيس شو إن لاي. وهو يقول لي: «موعدنا غداً الساعة التاسعة لتوقيع البيان المشترك».

ركب الرئيس شو إن لاي سيارته، وقال السفراء العرب: «بيان مشترك!! وهل سيكون بينكم وبين الصين بيان مشترك؟»

قلت: «نعم، وخلال اليومين الماضيين تبادلنا الآراء حول صيغته».

قالوا: «وهل يمكن أن نعرف مضمونه؟»

قلت: «إنه تأييد كامل للقضية الفلسطينية، تماماً كوجهة النظر العربية».

قالوا: «ومن سيوقّعه نيابة عن الطرف الصيني»؟

قلت: «الرئيس شو إن لاي سيوقّعه نيابة عن الصين».

قالوا: «الرئيس شو إن لاي نفسه»؟

قلت: «نعم، شو إن لاي، بيده وبخطه، وبتوقيعه الصيني.. لماذا أنتم مندهشون؟ (مازحاً) إن اعتراف الصين بمنظمة التحرير أقوى من اعتراف حكوماتكم». وافترقْنا على هذا المزاح الجارح، الذي لم يكن يخلو من الجد الموجع.

وفي صبيحة اليوم التالي(٢٢ آذار/ مارس ١٩٦٥) وهو يوم ليس للشعب الفلسطيني أن ينساه، كانت الصالة الكبرى في قصر الضيافة، تؤثّث من جديد لتصبح قاعة مؤتمر. وفي هذا اليوم سيوقع البيان المشترك بين شو إن لاي رئيس وزراء الصين، أكبر شعب في العالم، وأحمد الشقيري اللاجئ الفلسطيني، ممثل الشعب الشريد الطريد.

وفي التاسعة والنصف كنا، شو إن لاي وأنا، نجلس إلى المائدة، وأمامنا الصحافيون والمصورون، ليشهدوا حفل التوقيع. وقام رجال البروتوكول بالمراسم المعتادة، ووقّعنا صورتيْن عن البيان المشترك، مغلّفتين في جلد فاخر، وتصافحنا، وخرج الرئيس شو إن لاي من قصر الضيافة. وهو يقول: «أنا مسافر الآن، وستتمّ رحلتكم بحسب البرنامج. وسيستقبلكم الرئيس ماو في الوقت المناسب. وأرجو لكم إقامة سعيدة بيننا».

قلت: «أرجو أن نستقبلكم في الوطن العربي قريباً وسنرحّب بكم في قطاع غزة». وعدت إلى القاعة، لأبدأ مؤتمراً صحافياً ينقل إلى العالم ما جرى.

وقلت في بداية المؤتمر الصحفي: «إن ما جرى اليوم فريد حقاً في العلاقات الدولية. ونحن لسنا حكومة، لا في الوطن العربي ولا في المنفى، ومع ذلك، فهذا هو البيان المشترك بيننا وبين جمهورية الصين الشعبية الديمقراطية، أكبر جمهورية على وجه الأرض. إن هذا البيان هو نفسه حدث ثوري في عالم القانون الدولي. إن القانون قد نص على اعتراف رسمي، واعتراف واقعي، ولا يعرف نوعاً ثالثاً. ولكن الصين الثورة، قد أدخلت هذا النوع الثالث، وهو ما أسميه: الاعتراف الثوري. إنه اعتراف الثوار بالثوار».. ثم أخذت أتلو البيان المشترك وأشرح جوانبه الهامة. وغادر الصحافيون قصر الضيافة في سباق إلى مراكز البرق، ليبرقوا بهذا الحديث.

ومن أجل أنه فريد، ولأنه لا يمكن إيجازه ولا تلخيصه، بل من أجل الأمانة التاريخية، فإن هذا البيان المشترك يقحم نفسه على مذكراتي، قبل أن أصل إلى لقائنا مع الزعيم ماو، وإلى الأجيال العربية المعاصرة والمقبلة، نصه الكامل:

بيـان مشتـرك
بين منظمة التحرير الفلسطينية ـ وجمهورية الصين الشعبية
٢٢ آذار/ مارس ١٩٦٥

بناء على الدعوة الموجهة من معهد الشعب الصيني للشؤون الخارجية، قام وفد منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة سيادة أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بزيارة صداقة إلى الصين في شهر آذار/ مارس ١٩٦٥.

وقد رافق سيادة أحمد الشقيري في زيارته هذه اللواء وجيه المدني القائد العام لجيش التحرير الفلسطينية، عبد الرحمن السكسك نائب رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، عبد الخالق يغمور عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، خالد الفاهوم عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، رفعت النمر عضو مجلس إدارة الصندوق القومي لمنظمة التحرير الفلسطينية وعضو المجلس الوطني الفلسطيني، عبد المحسن قطان عضو مجلس إدارة الصندوق القومي لمنظمة التحرير الفلسطينية وعضو المجلس الوطني الفلسطيني، شفيق طرزي عضو المجلس الوطني الفلسطيني، الدكتور فاضل زيدان عضو المجلس الوطني الفلسطيني، النقيب فخري شقورة المرافق العسكري للقائد العام لجيش التحرير الفلسطيني.

وقد استقبل سيادة أحمد الشقيري وجميع أعضاء الوفد استقبالاً حاراً ووديا من قبل حكومة وشعب الصين، وقد عبر هذا بشكل واضح عن الصداقة الوطيدة المتبادلة بين الشعب الصيني والشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى.

وأثناء الزيارة استقبل الرئيس ليو شاوشي ورئيس مجلس الدولة شو إن لاي ونائب رئيس مجلس الدولة شن يي الوفد وأجروا محادثات ودّية مع سيادة احمد الشقيري وأعضاء الوفد.

وقد أجرى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري بشكل خاص مع الرئيس شو إن لاي مباحثات تفصيلية عن النواحي العامة والسياسية والنواحي الأخرى للقضية الفلسطينية، واشترك في هذه المباحثات نائب وزير الشؤون الخارجية شياوكوان هو، وبالإضافة إلى ذلك فقد أجرى الرئيس الشقيري يعاونه اللواء وجيه المدني القائد العام لجيش التحرير الفلسطيني محادثات مع اللواء هسياوهيسننج جنج مدير الدائرة العامة لوزارة الدفاع الوطني، وأثناء المباحثات أعرب الجانب الصيني عن إعجابه بالشعب العربي الفلسطيني في كفاحه البطولي

ضد الصهيونية وبالدور الذي لعبه قائد، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في مقاومة الإمبريالية الأمريكية والصهيونية سواء في الحقل الدولي أو في العالم العربي.

وقد تبادل الفريقان الآراء بصراحة وتوصّلا إلى تفاهم مشترك حول قضية فلسطين، وتأييد الشعب الصيني لكفاح الشعب العربي الفلسطيني، وتعزيز التضامن بين الشعب الصيني والشعوب العربية ضد الإمبريالية، وتنمية التضامن الآسيوي الأفريقي، والأمور الأخرى الهامة ذات المصلحة المشتركة.

كما اتّفق الفريقان على أن القضية الفلسطينية في جوهرها، هي من جهة عدوان سافر من قبل الصهيونية تدعمها الإمبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، على كفاح الشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى، ومن جهة أخرى، أن إسرائيل هي أداة للعدوان خلقتها الإمبريالية الأمريكية في فلسطين مستخدمة هيئة الأمم المتحدة أداة لذلك. وتهدّد الإمبريالية الأمريكية الدول العربية والبلدان الآسيوية الأفريقية الأخرى بواسطة إسرائيل.

وقد قامت الإمبريالية في الآونة الأخيرة بالتواطؤ مع العسكرية الألمانية الغربية بمضاعفة تسليح إسرائيل، كما أن الإمبريالية الأمريكية دعمت قرار ألمانيا الغربية بإنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. لقد أثار ذلك احتجاج وسخط الشعوب العربية. وإن الشعب الصيني يؤيد بحزم الشعوب العربية في كفاحها العادل ضد الثالوث غير المقدّس، الإمبريالية الأمريكية والعسكرية الألمانية والصهيونية.

وأشار كلا الفريقين إلى أن كفاح الشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى ضد إسرائيل، أداة الإمبريالية الأمريكية، لا علاقة له بالعنصرية أو الكراهية الدينية أو أي شكل من أشكال التفرقة الأخرى. وأن كفاحهم هو جزء لا يتجزأ من الكفاح العظيم لشعوب آسيا وأفريقيا ضد الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة.

وأشار كلا الفريقين إلى أن الاستعمار الأمريكي ليس العدو الرئيسي لشعب فلسطين العربي فحسب، بل وشعوب العالم قاطبة. وفي آسيا قامت الولايات المتحدة باحتلال جنوب كوريا وأوكيناوا التابعة لليابان وتايوان التابعة للصين. وهي تمارس العدوان في جنوب الفييتنام وتتدخل في لاوس وتهدد كمبوديا وتقصف جمهورية فييتنام وتعزز جهودها لتوسيع الحرب في الهند الصينية. ويؤيد الاستعمار الأمريكي الاستعمار البريطاني في قمع كفاح شعب عُمان والجنوب

اليمني. وإن جميع مظاهر التوتر في آسيا من دون استثناء هي نتيجة سياسات العدوان والحرب التي يقترفها الاستعمار وعلى رأسه الولايات المتحدة. وفي أفريقيا تقوم الولايات المتحدة متواطئة مع الاستعمار البلجيكي والبريطاني بتأييد نظام حكم تشومبي العميل وتواصل القمع الدموي لشعب الكونغو (ليوبولدفيل) وتهدد البلدان المجاورة له. وفي أوروبا تعكف الولايات المتحدة على إعطاء الأسلحة النووية لعسكريي ألمانيا الغربية مهدّدة بذلك أمن أوروبا. وفي كل مكان تحتفظ الولايات المتحدة بقواعد عسكرية، كما أنها تقترف جرائم العدوان في كل مكان. وهناك كفاح عادل يشنّ على الاستعمار الأمريكي في كل مكان. ويكرّر الجانب الصيني التأكيد بأن شعب الصين يؤيد بحزم الشعب العربي الفلسطيني في كفاحه العادل ضد إسرائيل، أداة الولايات المتحدة العدوانية، كما ويؤيده في مطلبه بالعودة إلى وطنه واستعادة حقوقه كاملة في فلسطين. وفي ما يتعلق بقضية فلسطين قدّمت الصين وستستمر في تقديم التأييد لشعب فلسطين العربي من دون تحفظ. وقد بيّن الجانب الصيني وجهة نظره في أن واجب الشعب الصيني الدولي يقتضي تأييده لكفاح الشعب العربي الفلسطيني وأن الكفاح العادل للشعب العربي الفلسطيني يعتبر بدوره تأييداً للشعب الصيني. وسيظل الشعب الصيني إلى الأبد الصديق الذي يعتمد عليه الشعب العربي الفلسطيني وجميع الشعوب العربية الأخرى في كفاحها العظيم ضد الإمبريالية والاستعمار القديم والجديد والصهيونية.

وقد اتّفق الفريقان على أن تنشئ منظمة التحرير الفلسطينية بعثة لها في بكين لتعزيز التعاون المتبادل. وسيبذل الشعب الصيني كل جهده في تأييد الشعب العربي الفلسطيني في كفاحه للعودة إلى وطنه بشتى الوسائل، سياسية كانت أم غير ذلك.

ويرى الفريقان أن شعوب العالم في نضالها ضد الإمبريالية والاستعمار القديم والجديد وعلى رأسه الولايات المتحدة، إنما يؤيد بعضها بعضاً. وأعرب الفريقان عن تأييدهما الحازم لشعوب الفييتنام والكونغو (ليوبولدفيل) وبقية العالم في الكفاح الثوري ضد الإمبريالية.

وأشار الفريقان إلى أن سياسة الأمم المتحدة إزاء مسألة فلسطين كانت خاطئة منذ البداية حتى إن الستة عشر قراراً التي أصدرتْها في ما يتعلق باللاجئين الفلسطينيين خلال الستة عشر عاماً الماضية قد عجزَتْ عن أن تمكّن لاجئاً عربياً واحداً من العودة إلى وطنه. وقد أثبتت الحقائق مرة أخرى بالنسبة إلى قضية فلسطين بأن الأمم المتحدة قد تحوّلت إلى أداة للإمبريالية الأمريكية وأعوانها لمتابعة سياسات العدوان والحرب.

ويرى الجانبان أنه ينبغي على الأمم المتحدة أن تصحّح أخطاءها بصورة كاملة وأن يعاد تنظيمها بصورة أساسية.

كما يرى الفريقان أن التعايش السلمي الحقيقي بين الشعوب يمكن قيامه فقط على أساس المبادئ التي تنصّ على احترام الوحدة والسيادة الإقليمية لبعضها البعض وعدم الاعتداء وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبعضها البعض وعلى أساس المساواة والمصلحة المشتركة. ولا يمكن قيام التعايش السلمي مع صنائع سياسة العدوان الإمبريالية. ومن أجل تحقيق تعايش سلمي بين الشعوب لا بد من النضال دون هوادة ضد سياسات العدوان والحرب التي ينتجها الإمبرياليون وعلى رأسهم الولايات المتحدة.

وأشار الطرفان إلى أن المهمة الملحّة التي تواجه الأمم والشعوب المضطهدة هي محاربة الإمبريالية والاستعمار القديم والجديد وعلى رأسه الولايات المتحدة وأن الشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية الأخرى مصممة على أن تزيد تضامنها في ما بينها ومع جميع الشعوب والأمم المضطهدة في العالم لتواصل إلى النهاية النضال ضد الإمبريالية والاستعمار القديم والجديد وعلى رأسه الولايات المتحدة. وفي الختام أعاد الفريقان إلى الأذهان المنجزات الكبيرة التي حققتها الشعوب الآسيوية والأفريقية منذ المؤتمر الآسيوي الأفريقي الأول الذي عقد في باندونغ وذلك في نضالها ضد الإمبريالية والاستعمار القديم والاستعمار الجديد ومن أجل إحراز الاستقلال الوطني والحفاظ عليه. لقد تعاهد الفريقان على الاستمرار في تعزيز روح باندونغ في الوحدة ضد الإمبريالية وبذل الجهود المشتركة لإنجاح المؤتمر الأفريقي الآسيوي الثاني المنوي عقده قريباً في الجزائر.

رئيس معهد الشعب الصيني للشؤون الخارجية	رئيس منظمة التحرير الفلسطينية	الرئيس الفخري لمعهد الشعب الصيني للشؤون الخارجية
شانغ شي	أحمد الشقيري	شو إن لاي

وفي صبيحة اليوم التالي (٢٣ آذار/مارس١٩٦٥) وقفنا على مدخل قصر الضيافة الذي احتوانا واحتوى آمالنا معنا عدة أيام. وأخذنا نتأهّب للسفر لنستأنف بقية الرحلة. ووقف من حولنا خدام القصر، تنطق عيونهم وقسمات وجوههم بالأخوة الصادقة العميقة. والإنسان أخو الإنسان. وانطلقت سياراتنا عبر الشوارع والميادين، والمواطنون الصينيون يلوحون بأيديهم حتى بلغنا المطار، فوجدناه كيوم وصلناه: كبار رجال الدولة والأعلام والجماهير والطلاب

والشباب والأناشيد والهتافات. ولحكمة تمارسها الشعوب الحكيمة، كان الوداع أروع من الاستقبال.

وحلّقت بنا الطائرة في سماء الصين، وسماؤها رحبة كأرضها. وقضينا أربع ساعات في الجو، لم ندرِ كيف مرّت. فقد آنسنا التراجمة والمرافقون بأحاديثهم، وأغرقت علينا المضيفات الصينيات برعايتهن، في ابتسامة عذبة، لا تحتجب إلا حين نعتذر عن الطعام أو الشراب!!

وعند الظهيرة بلغنا مدينة «أوهان» فكان الاستقبال رائعاً، والحفاوة بالغة. وقضينا بقيّة يومنا في قصر الضيافة نستريح من برامجنا الحاشدة التي كانت لنا في بكين. أقيمت لنا حفلة عشاء فاخرة، حضرها كبار رجال الدولة. وتحدّث فيها حاكم المقاطعة موجّهاً التحية إلى الأمة العربية وإلى الشعوب الآسيوية الأفريقية ورفع كأسه يشرب نخب «نضال الشعب الفلسطيني الثائر». وتحدّثت عن القضية الفلسطينية ورددْتُ التحيّة بأحسن منها، ورفعت كأسي أشرب «نخب جمهورية الصين الشعبية، رئيساً وحزباً وحكومة وجيشاً وشعباً، نخب الثوار للثوار». وكان مضيفنا في غاية الدقة، فقد كانت كؤوسنا ليموناً، في حين كانت كؤوسهم من الخمور الصينية من العيار الثقيل.

وعلى هذه الأنخاب الودية، قضيْنا ليلتنا في قصر الضيافة. وطلب إلينا المرافقون أن ننام مبكرين لأن علينا ان نصحو مبكرين، فإن برنامجاً هاماً ينتظرنا في اليوم التالي:

وليت المرافقين لم يلقوا علينا هذا التحذير، فإن «البرنامج الهام الذي ينتظرنا» بقي يؤرقني في فراشي، وأنا أسأل نفسي: «ما عسى أن يكون هذا البرنامج الهام؟ هل يكون مقابلة الرئيس ماو»؟ ولم أستطع أن أدفع عني هذا الأرق إلا بعد أن سللت من حقيبتي كتيباً في سيرة الرئيس ماو.

واستيقظتُ في اليوم التالي على قرع الباب، والمرافقون من خلفه يقولون: «الساعة السادسة والفطور جاهز». وقلتُ: «يبدو أن البرنامج الهام قد ابتدأ، فما عسى أن يكون؟». وأصلحتُ من شأني، وسارعتُ إلى غرفة الطعام لتناول وجبة الفطور. والمرافقون يروحون ويعودون «ليجرّوا» بقية أعضاء الوفد من حجراتهم.

وخرجتْ بنا السيارات إلى ضاحية المدينة، وإذا نحن في مباني الكلية العسكرية، فطاف بنا المدير وأعوانه في أقسامها، وانتقلْنا في الصفوف من واحد إلى واحد، ثم خرجنا إلى ساحة الرماية، لنشهد مناورة بالذخيرة الحية قام بها طلاب الكلية بمختلف

الأسلحة. ولأمر ما، ولعله بناء على أمر من وزارة الدفاع، تكرّرت الرماية بالمدافع المضادة للدروع. وفي كل مرة كانوا يزيدون سماكة الهدف لنشهد بأعيننا فعالية المدافع. وقدّرت في خاطري أن هذه المدافع ستشحن إلينا قريباً. أوَليس الصفقة الرابحة هي التي تتم بعد المعاينة!! كأننا سندفع الثمن وبالنقد النادر، كما يفعل الإنكليز والأمريكيون مع عدد من الدول العربية.

وعدنا إلى الفندق مسرعين وتناولنا الغداء في الساعة الحادية عشرة، على غير العادة في الصين. ولم أسألْ. ولم أفهم لذلك سبباً. ولكني قلتُ، هذا جزء من البرنامج الهام.

ولم نكدْ نفرغ من الطعام، وكان خفيفاً ورشيقاً، كأن المقصود ألا نتخم وننام حتى قال كبير المرافقين: «سنذهب الآن لمقابلة الرئيس ماو».

قال هذا وأساريره تتهلّل، كأنما يزفّ إلينا البشرى. وتهلّلت أساريرنا جميعاً لهذه المفاجأة. لقد طال انتظارنا لهذه المقابلة. وكنا نخشى أن تكون هنالك أسباب صحية تحول دون ذلك، ونعود إلى الوطن دون أن نقابل أكبر زعيم لأكبر ثورة في العالم.

وحملتْنا السيارات وحملتْ أشواقنا لهذا اللقاء. وطال السير وطال. هكذا شعرنا وإن كان لم يتجاوزْ نصف ساعة. والانتظار أطول من الزمان.

ووسط غابة كبيرة وقفت سياراتنا أمام فيلا صغيرة بسيطة عادية. وفي توقيت محسوب على الثانية، كان يقف على الباب الرئيس ماو، بوجهه المشرق، ومنكبيه العريضين، وذرعاه ممدودتان بالترحيب. من دون حرس ولا مرافقين، إلا شابة دقيقة الجسم صغيرة الحجم كانت تقف إلى جواره لتزيد هامته جسامة، وقامته ضخامة.

دخلنا صالة بسيطة. ودعانا الرئيس ماو أن نجلس حوله وجلس وراءه التراجمة. وقال «هذه أول مرة نجتمع معاً»، وفي خاطر خاطف، قلت: «أستأذنك يا سيدي الرئيس، أن أصحّح، ليست هذه أول مرة».

قال: «هل التقينا قبل الآن»؟

قلت: «التقينا مراراً وتكراراً».

فنظر إليّ من حوله بهدوء، ومن دون استغراب أو اندهاش، وقال: «ومتى التقينا»؟

قلت: «منذ قدمنا إلى الصين، رأيناك في الأنهار التي قطعتَها، وفي الجبال التي تسلّقتها، أثناء مسيرتك الطويلة الشهيرة (١٩٣٤-١٩٣٥) ورأيناك كذلك في المزارع التي أنشأتها، وفي المصانع التي أسستها، وفي.. وفي..»

وابتسم الرئيس ماو لهذه الإشارة الخاطفة وقال: «أنت متمرّس على الإجابات السريعة في الأمم المتحدة. أليس كذلك»؟

قلت: «إن إجابتي الآن هي من وحي الصين وزعيم الصين».

ودعا الرئيس ماو التراجمة أن يقتربوا منه. وراح يرحّب بنا ترحيباً حاراً، ثم مضى في حديث هادئ، كأنه بناء فخم تتجلى أمامك قوائمه وقواعده. وقال:

«أريد أن أوجّه إليكم سؤالاً. هل تخشون إسرائيل والإمبريالية الأمريكية؟ إن هؤلاء يجب أن يخافوا منكم. ولا تخافوا من الذين يجب أن يخافوكم.

«لقد دخلنا الحرب ضد الكونتانج واليابان، وعددنا لا يتجاوز خمسين ألفاً. ثم قمنا بالزحف الطويل.

«لقد ارتكبنا أخطاء عديدة، وكان خطأنا الأول هو أننا دخلنا المعركة غير واثقين من النصر، فقتل منا الكثير. واستسلم عدد آخر. والتجأ قسم ثالث إلى شانغ كاي شك. ولكننا لم نيأس. فقد أخذنا نبني أنفسنا من جديد وتمركزنا في مواقع جديدة.

«إن نظريّتي في الحرب تتلخّص في ما يلي:

أولاً: إضرب حينما تكون واثقاً من النصر، وانسحبْ حينما تكون ضعيفاً.

ثانياً: إضرب العدو على مراحل. أنت لا تستطيع أن تقطع يد خصمك بفمك، ولكنك تستطيع أن تقطع أصابعه واحداً واحداً.

ثالثاً: حاربْ على طريقتك وبحسب ظروفك، ولا تقلد تقليداً أعمى..

رابعاً: الكليات الحربية لا تخرّج ضبّاطاً كاملين. من الضروري أن توجد الكليات الحربية ليقضي فيها الطلاب ستة أشهر مثلاً، ليتعلّموا العلوم النظرية مثل الذرّة، ولكن الحرب هي أهم جامعة لتخريج الضباط الناجحين».

وانتقل الرئيس ماو إلى جانب آخر من الحديث فقال: «إن الصين دولة كبيرة بمساحتها وسكانها، ولكننا ما زلنا متخلّفين نسبياً. إن شعبنا لا يأكل الزبدة، ويأكل أقلّ من حاجته ولكنه قانع ومسرور، لأنه يوفر من قوته، وبذلك يساعد

حكومته على التنمية الاقتصادية وعلى تقديم المعونات للشعوب الصديقة المناضلة. نحن نقدّم العون المالي والسلاح إلى الشعوب المناضلة، من دون مقابل فائدة، وبلا شروط أو قيود» . .

وقفز الرئيس ماو إلى موضوع آخر، وهو يتحدث عن السلاح وقال: «نحن نقدّم السلاح حتى إلى الذين حاربونا. لقد تحرّشت بنا القوات الهندية على الحدود، واستطاع الجيش الصيني أن يأسر عدداً كبيراً من الجنود الهنود، ووقعت في أيدينا كميات من أسلحتهم الآلية. ولقد أكرمنا وفادة الأسرى الهنود، وأصلحنا المصفّحات الهندية حتى جعلناها جديدة، وأعدْناها إلى الهند مع الأسرى، جاهزة للقتال!! وهذا هو النصر الحقيقي، لأننا نريد أن يثق الشعب الهندي بصداقتنا ورغبتنا بالسلام».

وأراد الرئيس ماو أن يجعل خاتمة حديثه عهداً فقال «في عام ١٩٤٩، وبعد انتصار ثورتنا مباشرة، أرسلت إلينا إسرائيل تعرض علينا الاعتراف بنا، ولكننا رفضنا هذا العرض لأننا علمنا أن الأمة العربية كلها ضد إسرائيل. ونحن من جانبنا لا يمكن أن نعترف بإسرائيل لأنها قاعدة للإمبريالية الأمريكية والبريطانية والفرنسية وألمانيا الغربية».

وجاء دوري في الكلام، فأثنيتُ على موقف الجمهورية الصينية من إسرائيل وهو الموقف العربي بذاته، وأكّدتُ له أننا سنسترشد بنظرياته في الحرب، لأن الثورة الصينية هي مدرسة عسكرية كبرى قدّمت إلى العالم «عقيدة عسكرية» جديدة لم تكن معروفة من قبل. وعرضتُ بإيجاز إلى جوانب القضية الفلسطينية في ظروفها الحاضرة، وقيام منظمة التحرير وجيش التحرير، وتصميم الشعب الفلسطيني على تحرير وطنه، وأننا لن نقف وحدنا في هذه المعركة. ويسعدنا أن جمهورية الصين معنا تؤيدنا، وأننا نتطلّع إلى ذلك اليوم الذي تقوم فيه الشعوب المناضلة بتطويق الإمبريالية العالمية وتضربها في الشرق والغرب معاً.

ولمعت عينا الرئيس ماو، وبادر إلى القول: «نعم هذا صحيح، إن مدفعيّتنا قصفت جزيرة كيموى لإشغال الإمبرياليين إبان ثورة العراق والإنزال الأمريكي في لبنان، يجب إشغال العدو على كل الجبهات».

ودامت الجلسة ثلاث ساعات على هذا الحال، حديثا وتعقيباً، وسؤالاً وجواباً. وسار بنا الرئيس ماو إلى خارج الفيلا البسيطة يودعنا، وبين ذراعيْه عواطف شعبه العظيم.

عدْنا إلى قصر الضيافة في «أوهان» لنرى الشعب يصطف على جانبي الطريق محيّياً. وهذه المدينة صغيرة، سكانها مليونان ونصف فقط. وفي حساباتنا العربية هذه المدينة الصغيرة أكثر سكاناً من جمهورياتنا الثلاث: لبنان وليبيا واليمن الجنوبية مجتمعة متّحدة!!

وكان من حسن الاختيار، أننا بعد أن رأينا ماوتسي تونغ أعظم من في الشعب، أن نرى أروع ما في الوطن فقد غادرنا «أوهان» في صباح اليوم التالي (٢٥آذار/ مارس ١٩٦٥) إلى مدينة «هان شاو». وهي فردوس الصين الرائع. وكان من حسن التوقيت أننا وصلناها ظهراً والشمس في قبة السماء الصافية، ترسل أشعّتها على الغابات الفاتنة والبحيرات المتلألئة والروابي السندسية والوهاد الحانية على الغدران.

حملتنا أرواحنا قبل أقدامنا إلى قصر الضيافة، ووقفنا على شرفاته الرحبة لنطلّ على حدائق الأزهار، وغابات الأشجار، ومرابض الغزلان، ومسارح الطيور، وملاعب الأولاد، ومراعي القطعان، كل ذلك في تنسيق فاتن اشترك فيه الخالق والمخلوق.

وتنفّست الصعداء، وأنا أتمنى لو أن فلسطين محررة، لقضيت في هذا الفردوس عاماً أو عامين، أقرأ واكتب، وأمشي وأسبح، وآكل وأنام وأعيش كل أيامي مع أحلامي!!

وقضينا يوماً وليلة في هذا الفردوس، من دون مراسم ولا خطب، ولا حفل عشاء، كأنما أراد أصدقاؤنا الصينيون، أن تحتفي بنا الصين بأروع ما عندها، من جمال وجلال. وما أكرم هذا الكرم، وأحفى هذه الحفاوة!

ونمنا ليلتنا وادعة هانئة لنفيق في الصباح ونحن نشم الزهور ملء الأنوف وننعم بالأطيار ملء الآذان، ونحدّق بالأشجار والأنهار ملء العيون. فهذا يوم سفرنا إلى شنغهاي، وكر الدسائس العالمية، ومقر الجاسوسية الدولية مدينة المغامرات والمؤامرات. وهكذا كانت حتى عهد الثورة والاستقلال.

وصلنا شنغهاي ظهراً. واستقبلتْنا السماء بمطر مدرار، ولكن الأرض ظلت جافة. فقد كانت بين السماء والأرض حشود من الشعب تراصّت في ما بينها بمظلاتها وأعلامها، فأصبحت سقفاً من الرؤوس وبساطاً من الأكتاف.

واجتزنا ميادين المدينة وساحاتها وشوارعها، وبدت لنا كأنها مجموعة من المدن، لكلٍّ طابعها ونظامها، فقد كانت حتى عام ١٩٤٩ مقسّمة تحت سلطان

الإنكليز والفرنسيين واليابانيين والألمان والأمريكيين. وكل دولة تدير المنطقة التابعة لها بموجب قوانينها الخاصة، كأنها قطعة من أرضها.

وكان عمدة المدينة، ونحن في طوافنا وتجوالنا، يشير إلينا بيديه، هذا حي الألمان، وذاك حي الفرنسيين، وذاك حي اليابانيين، وتلك حدائق الإنكليز كتب على أبوابها «ممنوع دخول الكلاب والصينيين». وقلت ساخراً: «لو أنهم كتبوا «الصينيين أولاً والكلاب ثانياً»، قليلاً من الذوق أيها الإنكليز»!!

وقضينا يومنا نزور المؤسسات العامة والمصانع والمدارس. والمرافقون يروون لنا العجائب عمّا صنعه الاستعمار في مدينتهم الباسلة، ويسردون قصص البطولات في حرب الشوارع التي توّجت بطرد المستعمرين، وإعادة الوحدة والحرية إلى شنغهاي، لتصبح مع ضواحيها مدينة الأحد عشر مليوناً أي ما يعادل جمهوريتين عربيّتين متّحدتين: سوريا والعراق، ونحن نهتف تعيش الوحدة العربية.

وأقبل اليوم التالي، آخر أيامنا في الصين (٢٧ آذار/ مارس ١٩٦٥)، وكان ذروة رحلتنا، وسدرة المنتهى في لقاءاتنا. كان لقاءً فريداً مع الشعب في أكبر ميادين المدينة. ونصبت الأعلام والأقواس والمكبّرات في كل مكان حتى أصبحت المدينة كلها هي قاعة الاجتماع.

ووصلنا الميدان ومعنا عمدة المدينة وكبار رجال الدولة، والطلاب والشباب يهزجون وينشدون ويهتفون، وكأنهم يريدون أن يملأوا نفوسنا بأعظم شحنة عاطفية في يوم سفرنا لندّخرها في مواجهة مصائبنا ومصاعبنا التي تنتظرنا في الوطن.

وجلسنا على المنصة. وإذا بنا في بحر من البشر، ونحن نركب أعلى أمواجه. ونهض عمدة المدينة يتكلّم بنبرة حاسمة قاطعة فقال «إن شعب شنغهاي الذي قاسى الكثير من بلاء الاستعمار يؤيدكم. وإن شعب الصين بأجمعه يساندكم. لقد شرّدكم الاستعمار والصهيونية من وطنكم. ونحن معكم حتى النصر و. . و. .» إلى آخر هذه العبارات المليئة بالتقدير والتشجيع.

وفي هذا اللقاء الأخير مع الشعب الصيني وقفت لأفرّغ كل غضبتنا على الإمبريالية الأمريكية والاستعمار الصهيوني، في خطاب استغرق ثلاث ساعات كنت أستوحي خلالها تاريخ هذه المدينة مع الاستعمار.

وكان التجاوب الشعبي بالغاً ذروة الذروة، ذلك أني «طعّمت» القضية الفلسطينية بالأحداث الجسام التي نزلت بهذه المدينة الباسلة. قلت «لقد كانت

مدينتكم مجزّأة بين المستعمرين الإنكليز والفرنسيين واليابانيين، وقاتلتم قتالاً باسلاً فتوحّدت مدينتكم وتحرّرتم. وكذلك فإن وطننا العربي كان مجزّأً بين الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين. وقاتلنا قتالكم فتحرّرنا، ونحن مصمّمون أن نتوحّد. . وكانت الرأسمالية العالمية تستأثر بخيراتكم. وهذا حي ساسون اليهودي وهنا حي خاتون اليهودي هنا في شنغهاي. وقد ناضلتم نضالاً شريفاً فطهّرتم بلدكم من ساسون وخاتون. وكذلك فإن وطننا قد احتلّته الرأسمالية اليهودية وشرّدت شعبنا. ونحن الآن نعدّ أنفسنا لنناضل نضالكم، لنطهّر بلدنا من ساسون الكبير، من إسرائيل».

ومضيت في المقارنات بين ما جرى في شنغهاي في عهد الاستعمار، وما يجري في الوطن العربي وفلسطين في عهد الإمبريالية وإسرائيل. وانتهى الاجتماع في جو رائع من التعاطف والتأييد. ولولا الملامح المغولية والهتافات الصينية، لحسبنا أننا كنا نعيش يومنا ذلك مع جماهير عربية نتحدّث إليها بالوجدان قبل اللسان، وتستمع إلينا بالفؤاد قبل الآذان.

وسارعنا إلى قصر الضيافة نحزم حقائبنا، وإلى المطار نسبح في الأجواء عبر الأصقاع والأقطار.

ودسست يدي للمرة الأخيرة في حقيبة كتبي، لأكمل قراءة كتاب رائع عن الصين كتبه أحد الصحافيين الأمريكيين بعنوان **العملاق غير الصابر**. ومضيت في قراءته وأنا مبهور بالنهضة العظمى التي تقودها جمهورية الصين الشعبية. وأيقنت في نفسي أنه إذا قُدّر للأمور في الصين أن تسير سيرها الحاضر، فستصبح الصين هي عالم الغد، بل العالم كله. وتذكّرت قوله تعالى ﴿**لو شاء ربّك لجعل الناس أمة واحدة**﴾[٦] صدق الله العظيم. ومن يدري فقد يشاء حين يشاء.

وفرغت من قراءة الكتاب وأنا أقترب من سماء القاهرة. وامتلأت نفسي اعتزازاً وأنا أعود إلى الوطن العربي وأنا أحمل معي رأس كليْب، كما يقول الأعراب الأقدمون.

أجل، لقد كنت أحمل في حقائبي رأس كليْب. بل ما هو أكبر وأعظم. ألم أكن أحمل البيان المشترك، ولو كتبه عربي ما كتب أكمل منه ولا أفضل؟! ألم أكن أحمل اتفاقاً مع شو إن لاي بإمدادنا بالسلاح، وكان ذلك من أعز الأحلام؟!

---

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة هود،» الآية ١١٨.

وما دريت أن هذه الإنجازات التي أحملها ستكون في رأس المشكلات التي ستواجهني، لا مع الشعب الفلسطيني، ولا مع الأمة العربية، ولكنها مشكلات مع الملوك والرؤساء.

فالمشكلات، كانت قصتي معهم على الدوام، منذ أن زاملتهم إلى أن فارقتهم.

وكان فراقهم هو البشرى أو العيد. بكل ما في العيد من بهجة وفرحة. ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون**﴾[٧] صدق الله العظيم.

(٧) **القرآن الكريم**، «سورة الروم،» الآية ٤.

المصائـب والمصاعـب فـي العواصـم العربيـة

عدت من سفرة الصين إلى الوطن لأخوض في الوحل إلى الركبتين، بعد أن قضيت أسبوعينْ رائعينْ في بكين مع ماوتسي تونغ وشو إن لاي، ومع الشعب الصيني في مدنه وقراه، في مدارسه ومصانعه. وكأنما أصبحت الصين هي فلسطين مضروبة مليون مرة أو يزيد. . مساحة وسكاناً.

ولقد أنجزنا في الصين ما أنجزنا على نحو ما ذكرت. وها إني أحطُّ رحلي في القاهرة لأواجه المتاعب من كل جانب، وكأنّما قُدّر لمن يعمل في القضية الفلسطينية أن يتصدّى للمصاعب العربية أولاً، قبل المصائب الاستعمارية.

دعوتُ إلى مؤتمر صحافي في مكتب المنظمة، لأتحدّث عن رحلتنا إلى الصين. واحتشد عدد كبير من الصحافيين وممثّلي وكالات الأنباء، الأجانب أكثر من العرب، ليقفوا على ما وصلنا إليه في محادثاتنا مع قادة جمهورية الصين الشعبية الديمقراطية.

وتحدّثتُ طويلاً عن نجاح هذه الرحلة، وما حقّقتُ من مكاسب سياسية وعسكرية. وألمعتُ إلى موافقة الصين على إنشاء مكتب للمنظمة في بكين، وتقديم الأسلحة اللازمة وتدريب ضباطنا على حرب العصابات. ودار الحوار طويلاً مع الصحافيين الأجانب بخاصة.

قالوا: «لماذا سافر وفد المنظمة إلى الصين أولاً، وهل تعتزمون السفر إلى موسكو»؟

قلت: «إن المنظمة على اتصال دائم بالاتحاد السوفياتي عن طريق سفرائه في الدول العربية. وسنغتنم أول فرصة لزيارة موسكو. نحن نشكر للاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية تأييدها لقضية فلسطين، في الأمم المتحدة وخارجها».

قالوا: «وما هي الأسلحة التي ستقدّمها إليكم الصين»؟

قلت: «إنها أسلحة خفيفة ومتوسّطة. وستكون بالقدر الذي نحتاجه».

قالوا: «وهل ستأخذونها بأثمان مخفّضة، كما تفعل روسيا مع الجمهورية العربية المتحدة»؟

قلت: «إن جمهورية الصين تقدّمها إلى الشعب الفلسطيني مجاناً، بلا مقابل».

قالوا: «وبلا شروط»؟

قلت: «نعم هنالك شرط واحد».

قالوا: «وما هو الشرط الواحد»؟

قلت: «أن نخوض معركة التحرير».

قالوا: «ألا تعتزم المنظمة أن ترسل وفداً إلى لندن وواشنطن»؟

قلت: «إن أبواب لندن وواشنطن مقفلة في وجهنا. وإذا كنتم تستطيعون أن تفتحوا لنا الأبواب، فنحن مستعدّون أن نسافر من الغد».

قالوا: «ألا تخشون تغلغل النفوذ الصيني إلى منطقة الشرق الأوسط، كما تغلغل النفوذ الروسي»؟

قلت: «الأمة العربية حريصة على حريتها وسيادتها، وهي لا تريد أن تبدل سيّداً بسيّد».

قالوا: «وضباطكم الذين سيذهبون إلى الصين ليتدرّبوا على حرب العصابات، ألا تخشون أن يعودوا إليكم شيوعيين»؟

قلت: «إن العروبة في نفوس ضبّاطنا أمنع من سور الصين العظيم».

وكان سرور الصحافيين العرب بالغاً بما دار من الحوار بيني وبين الصحافيين الأجانب الذين كانوا يتربّصون بنا الدوائر، وتسابقوا إلى مكاتبهم من أجل ريبورتاج «عظيم» على حدّ تعبيرهم.

ودهشتُ في صباح اليوم الثاني، ذلك أني لم أسمع في إذاعات القاهرة أي شيء عن المؤتمر الصحافي. وما ورد عنه في الصحف لم يتجاوز سطرين أو ثلاثة.

واتصلت بالدكتور عبد القادر حاتم وزير الإرشاد القومي، أسأله عن السبب في هذا الإهمال. وقال:

«في الصحف زحمة موادّ شديدة هذه الأيام».

قلت: «ولكن جريدة **الأهرام** قد ملأت صفحتها الأولى عن «اللحم في

الأرجنتين» وإني أحسب أن مكاسبنا في الصين أهمّ من اللحم في الأرجنتين».

قال: «البركة في إذاعتكم. لقد سمعتها. لقد نشرت وقائع المؤتمر الصحافي بكامله».

قلت: «نريد هذا من إذاعة القاهرة. نحن حريصون أن تعرف الصين أن الأمة العربية معنا في كل شيء. والجمهورية العربية في المقدّمة. بصورة خاصة».

قال: «سنصدر التعليمات إلى الصحف والإذاعة بنشر كل شيء غداً، وستكون مسروراً».

ورحت أستعجل الساعات في انتظار الصباح.. ولم أسمعْ شيئاً، ولم أقرأْ شيئاً. وقلت في نفسي لا بأس هذه واحدة على طريق النضال، مع المسؤولين العرب.

وطلبتُ موعداً للاجتماع بالرئيس عبد الناصر، لأشرح له بالتفصيل محادثاتي مع ماوتسي تونغ وشو إن لاي. وكنت أبرق إليه عن طريق سفيره في بكين بموجز اتصالاتي يوماً بعد يوم.

وحسبتُ أن الرئيس سيستقبلني في اليوم نفسه، فإن المكاسب العظيمة التي حقّقناها في بكين جديرة بالمبادرة إلى هذا اللقاء.

ومضى اليوم الثاني وما بعده، وما بعده، من دون تحديد للموعد. وأنا أتصل تلفونياً بمكتب الرئيس لأسمع الجواب مرة بعد مرة: «مدير مكتب السيد الرئيس «مُشْ» على مكتبه».

وأدركتُ بعد هذه المحاولات المتعدّدة، أن الرئيس جمال عبد الناصر لا يريد أن يقابلني لسبب ما. ورحت أنقّب عن السبب في تلافيف نفسي وفي تجاويف ذاكرتي. وأنا أتساءل لماذا يرفض الرئيس عبد الناصر أن يستقبلني، وقد افترقنا قبل سفري إلى الصين على ودّ كامل وتفاهم شامل. وما أكثر ما كان يقول لي: «لا تتردّدْ أن تطلبَ مقابلتي ليلاً أو نهاراً». وكم اجتمعنا ليلاً، ومن دون خبر ولا صورة في الصحف ولا في التلفزيون.

ولجأتُ إلى أسلوب «الحذف» الذي كنا نتعلّمه في الرياضيات. ورحت «أحذف» كل الاحتمالات، الواحد بعد الآخر بحثاً عن السبب، إلى أن بقي الاحتمال الأخير. وهو سفرتي إلى الصين. وهي السفرة التي ظننتُ أنها ستزيدني تلاحماً مع الرئيس عبد الناصر.

وحين قلّبتُ الأمر على جميع وجوهه، أدركتُ أن سفرة الصين هي العقدة. وبدأتُ أستعرض الأسباب.

أدركتُ أولاً: أن الرئيس عبد الناصر كان يتصوّر أن أقصى نجاحنا في الصين سيقف عند حدود المكاسب السياسية، وأن موضوع المساعدات العسكرية غير وارد، فنحن لسنا حكومة. وأرض المعركة لم تتهيّأ بعد.

وأدركت ثانياً: أن نجاحنا في بكين سيزعج موسكو، وكان الخلاف بينهما على أشدّه.

وأدركتُ ثالثاً: أن موسكو عند عبد الناصر، أهم في موازين القوى العالمية من بكين. وأن صداقة الأولى أنفع له من الثانية.

وأدركتُ رابعاً: أن شحن الأسلحة الصينية إلى ميناء الإسكندرية، هكذا، ومن دون استئذان سابق من الرئيس عبد الناصر تجاوز للحدود.

والواقع أن الرئيس عبد الناصر على حق في هذه الأمور كلها. كما أنني على حق في هذه الأمور كلها.

لقد تصرّفتُ من دون شك تصرّفاً انفرادياً، وأصبحَتْ علاقتي بالصين خطراً على علاقة القاهرة بموسكو. ولكن ما ذنبي؟

لقد طرقتُ أبواب موسكو أولاً حتى قبل أن أفكّر في زيارة الصين. ولكن الاتحاد السوفياتي لا يوافق على تحرير فلسطين، ولا يريد أن يعترف بمنظمة التحرير[1].

والأسلحة الصينية، أين أذهب بها؟ ليس للشعب الفلسطيني أرض ولا مستودع، فلأرسلْها إلى ميناء الإسكندرية. أليست الجمهورية العربية المتحدة هي قاعدة النضال الثوري؟ أليست أرضها أرضنا، وموانيها موانينا، فلتذهبْ أسلحتنا إليها ومن دون إذنها ومن لنا غيرها؟ وهكذا كان تفكيري، بصوفية النضال، وصفاء الإخاء.

وكانت فراستي وحساباتي في محلّها. فقد كان موضوع زيارتي للصين هو سبب فتور الرئيس عبد الناصر. ولقد قال لي سامي شرف مدير مكتب الرئيس،

(١) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة

وأنا أُلحّ على التلفون طالباً مقابلة الرئيس:

«أرجوك ألا تزعل. إن الرئيس عبد الناصر يحبّك ويقدّرك. أتركْ لي الموضوع بعض الوقت حتى أعالجه. لقد تعجّلت الأمور في الصين. وكان الرئيس عبد الناصر يأمل أن تؤخر موضوع الأسلحة الصينية إلى أن تعود إلى القاهرة للتشاور في الأمر».

قلت: «لقد فعلتُ لأني خشيت أن تفلت الفرصة من يدي. وفوق هذا وذاك فإني أعتبر القاهرة كل شيء عندي. وإذا كانت مصر هي مستقرّ آمالنا، فمن باب أولى أن تكون مستودع أسلحتنا».

ثم استدركتُ مداعباً، وطلبتُ إلى سامي شرف أن يروي للرئيس عبد الناصر ما قاله الشاعر العربي:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيّعت أيامي

وانتهى الحديث التلفوني بيننا، وسامي شرف يكتب هذا البيت من الشعر ليرويه للرئيس عبد الناصر.

وكظمتُ ألمي أن الرئيس عبد الناصر لم يستقبلْني. وكتمتُ خبره عن رجال المنظمة. وإن كان الذكاء الفلسطيني بدأ يتساءل. لماذا لم نسمعْ عن اجتماع بين عبد الناصر والشقيري بعد رحلة الصين؟

وكنت أجيب، بعد الإلحاح والإصرار: «وهل من الضروري أن تنشر في الصحف كل مقابلاتي مع الرئيس عبد الناصر»؟ والإخوة من حولي بين مقتنع ومتململ. ولقد كان كلانا، الرئيس عبد الناصر وأنا، على حق في مواقفنا.. كما كان يتنازع كلينا ألم مرير. ولكنني أعترف أن الرئيس عبد الناصر كان لا بدّ يعاني ألماً أشدّ وأعمق؛ ذلك أنه، وهو قائد النضال العربي، قد وجد نفسه أمام اختيار قاسٍ كان يودّ أن يتجنّبه بكل جوارحه وقدراته. ولكن هذه هي القضية الفلسطينية بكلّ تعقيداتها، في شوكها وحريرها وما أقل الحرير! وأحسب أني لو كنت مكان الرئيس عبد الناصر لفعلت مع الشقيري ما فعل. فكثيراً ما «يصطدم» النضال القومي بشرور متعددة، لا بد أن يختار واحداً منها. أهونها وأيسرها، ولو كان مراً.

وحلّ شهر أيار/ مايو(١٩٦٥) ومعه الموعد السنوي لانعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في دورته العادية، وبدأت الترتيبات لعقده في القاهرة. ووجّهت الدعوة

إلى الرئيس عبد الناصر لحضور حفل الافتتاح. ووقع الامتحان المصير.

لقد جاء الجواب من رئاسة الجمهورية بأن الرئيس عبد الناصر قد أناب عنه الوزير كمال الدين رفعت لافتتاح المجلس الوطني. وانسابت الإشاعات والأقاويل بأن الرئيس عبد الناصر «زعلان» من الشقيري، وأنه لا يرغب أن يحضر المؤتمر.

وغصّت القاهرة بالعشرات من أعضاء المجلس الوطني. ولقد توافدوا من كل أرجاء الوطن العربي، وهذه الإشاعات تسبقهم إلى مطار القاهرة، قبل أن يصلوا إلى فنادقهم.

وكاشفني عدد من الإخوان الفلسطينيين بصدد هذه الإشاعات فقلت: «لا أعلم شيئاً عن هذه الإشاعات. وإذا كنتم ترون أن هذا يؤثر على علاقات المنظمة بالجمهورية العربية المتحدة فإني مستعدّ للاستقالة، لأن تأييد القاهرة للمنظمة هو عندي أثمن من بقائي رئيساً للمنظمة». فكان الجواب الذي أسمعه من الإخوة دائماً: «إن رئاسة المنظمة مسألة داخلية للشعب الفلسطيني ولا شأن للقاهرة فيها، ولا للعواصم العربية الأخرى».

وحان يوم افتتاح المجلس الوطني في جامعة القاهرة، والشائعات مستمرة بأن الرئيس عبد الناصر سيتخلّف عن حضور الاجتماع.

وقبل الموعد بساعة واحدة، اتّصل بي الدكتور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر بالتلفون ليخبرني بأنه «من المناسب وجودكم في الجامعة قبل الموعد بنصف ساعة لأمر يهمّكم، وسنلتقي هناك». ولم يكن عسيراً عليّ أن أفهم أن الرئيس عبد الناصر سيحضر الاجتماع بنفسه.

ووصلت في الوقت المناسب. وقدم الرئيس، وكنت في استقباله وجلسنا معاً في الصالة المجاورة ودخلنا القاعة معاً إلى المنصة الرئيسية، ومن خلفنا نواب الرئيس والوزراء.

وافتتح الحفل بتلاوة آي من الذكر الحكيم. ثم وقف الرئيس عبد الناصر يلقي كلمة الافتتاح وأمامه الملف المعتاد، يقرأ منه حيناً، ويتكلم من خاطره مرة أخرى.

وأعلن في بداية خطابه بأنه قرّر الحضور «في آخر لحظة». ولكنه لم يذكر سبباً لذلك. ثم تحدّث عن الكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير وجيش التحرير، وأن ذلك كله هو من إنجاز مؤتمر القمة. وتناول الشؤون العربية معرّجاً على الرجعية العربية،

وعلى الرئيس بورقيبة بالذات وكان مما قاله بعباراته المعروفة: «أنا أؤكّد لكم أن أكثر شيء أتعب الغرب وإسرائيل قيام الكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية. لهذا نجد أن منظمة التحرير تُهاجَم، الشقيري بيتكلّم ونازل كلام، طيّب حَيَعْمِلْ إيه الشقيري؟ في الأول ما هو بيتكلّم. في أول قيام المنظمة تكلّموا أن المنظمة مُشْ ثورية. قد تكون فيه مآخذ على المنظمة. ولكن بدّي أقول لكم حاجة، الكيان الفلسطيني قام. المنظمة قامت. وبعدين الهجوم على المنظمة مغرض. المنظمة بقى لها سنة واحدة. أرجو منكم ما تبقوش تشتكو منا. والقيادة بتاعتكم تشتكي منا، إذا حصلت منا حاجات. إحنا الحقيقة واخدين مسؤوليات كبيرة ما فيش داعي إن إحْنا نزعل لأن قرار الجامعة العربية «موضوع بورقيبة» طلع مش ثوري. ومفيش داعي إنه احنا نزعل.. ده اللي خلاني جيت النهارده..»

ومضى الرئيس عبد الناصر في خطابه على هذا المنهج، ومضيتُ في متابعة نظراته إليَّ مرة، وإلى الجمع الحاشد مرة أخرى. وأنا أرى أنه يدافع عني تارة، ويقرّعني تارة أخرى. يدافع عني أمام «الثوريين» الذين لا يدركون الواقع العربي ومصاعب القضية الفلسطينية، ويقرّعني لأني انسحبت من الجامعة العربية بصدد موضوع بورقيبة، ولأني أشكو من الجمهورية العربية المتحدة..

ولم يكن الرئيس عبد الناصر يشير إلى الخلافات الفلسطينية عن فراغ. فالشعب الفلسطيني بجماهيره كان متّحد الكلمة وراء المنظمة. ولكن المنظّمات الفلسطينية وهي تمثّل جانباً ضئيلاً من الشعب الفلسطيني رفعت علم الخلافات وراء راية الشعارات.

ذلك أن منظمة «فتح» قدمت مذكّرة تطالب فيها أن «تمارس قيادة جيش التحرير الفلسطيني مسؤولياتها بحرية» وأعلنت حركة القوميين العرب أن «يكون تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني من أربعمائة عضو، منهم مائتان وأربعون من الأردن، وتسعون من غزة، وثلاثون من لبنان، وأربعة عشرون من سوريا، وثمانية من الكويت، واثنان من العراق، وستة من المناطق الأخرى على أن تشكّل اللجنة التنفيذية من خمسة وعشرين عضواً ينتخبهم المجلس الوطني». أما التنظيم الفلسطيني البعثي فقد التزم الصمت انتظاراً لما تقرّره قيادة حزب البعث!!

تلك كانت الصورة التي كان يتحدّث عنها الرئيس عبد الناصر: الشعب وراء المنظمة، يمنح قيادتها كل ثقة، ومنظّمات تتصارع في ما بينها حول الشعارات والعقائديات!!

وبعد أن أنهى عبد الناصر خطابه، وقفت لأتكلّم. . وحدّق أعضاء المجلس الوطني بي، وفي عيونهم السؤال الكبير، ماذا عسى أن أتكلم؟؟!!

لقد استفتحتُ خطابي، على غير ما كنتُ قد أعددتُه في ذهني. وعزمتُ أن أردّ على الرئيس عبد الناصر، ولو بصورة غير مباشرة. فقد نسيتُ دفاعه عني، وعلق في نفسي تقريعه إيّاي، وهل أنا إلا إنسان؟ وكان الرئيس إلى ذلك العهد في ذروة مكانته. يتربّع قمة شامخة عند الجماهير العربية. ومن ذا الذي يستطيع أن يناقشه أو يجادله أو يعقب على كلامه، ولكني أحسستُ أن كرامتي قد جرحَتْ، فوق ما أعانيه من المتاعب. ورأيت ألا أسكت على «الإشاعات» وأن أقول كلمتي وأمشي. وأمشي إلى بيتي ومعي كرامتي.

والواقع أنني، كأي فلسطيني آخر، بل أشدّ، نشأت في نفسي عقدة «الكرامة» وأصبحت أثور لأقل سبب حتى لكأنني أصبحت مثل ثيران المصارعة الإسبانية تثور كلما رأت الرداء الأحمر. وحتى صدق فيَّ قول الشاعر:

خطرات النسيم تجرح خدّيه ولمس الحرير يدمي بنانه

وبدأت خطابي بإسداء الشكر إلى «سيادة الرئيس» لأنه قرّر الحضور في اللحظة الأخيرة وأنه قد ألهم الصواب والخير. والقضية العربية تدعو إلى ذلك. وتحرير فلسطين يدعو إلى ذلك. وما عسى أن تقول الجماهير العربية، وما عسى أن يقول الاستعمار وأعوان الاستعمار، إذا تخلف الرئيس عن هذا الاجتماع وهو يعقد في القاهرة قاعدة النضال وقلعة الكفاح. حقاً إن الرئيس قد ألهم الصواب والحق. والحق أحق أن يتبع. . ولم تفت هذه العبارات الواخزة على الرئيس عبد الناصر ولا على المجلس الوطني، وقد ساد الجو إحساس «بالتمني» بألا أسترسل أكثر من ذلك في هذا الحديث. . وهذه الجرعة كافية.

ولكني أردت أن أزيد هذه المعاني عمقاً، فانتهزت فرصة الحديث عن الرئيس بورقيبة. وقلت: «لقد كانت الإذاعة التونسية تعلّق في اليومين السابقين بأن منظمة التحرير أصبحت دائرة من دوائر وزارة الخارجية المصرية، وأن الشقيري قد أصبح عميلاً لعبد الناصر. وأريد أن أعلن من هذا المنبر، وعلى مسمع الرئيس عبد الناصر أن منظمة التحرير الفلسطينية ليست عميلة لأحد، ولا تابعة لأحد، إنها ملك الشعب الفلسطيني وحده. أما أنا، وإنني أرفض أن أكون عميلاً لأحد. ما أنا عميل أنا زميل. أنا زميل لعبد الناصر لقاء الثوار بالثوار، والأحرار بالأحرار».

ودوّت القاعة بالتصفيق. وكان الرئيس عبد الناصر بارعاً كعادته، فصفّق طويلاً وكان آخر من توقّف عن التصفيق.

وأحسست عندها، أن الفرصة مؤاتية لأثأر لكرامتي إلى درجة الإشباع فرميتُ بقفازي في ختام خطابي. وقلتُ: «غداً ستبدأ أولى جلسات العمل، وسأقف أمامكم للحساب. ومن شاء منكم أن يسألني من أين لك؟ فليتفضّل. ومن شاء أن يحجب ثقته عني، فليتفضّلْ. لقد قامت المنظمة وسط مصاعب جمّة. وستكون التقارير أمامكم، السياسية والعسكرية والمالية والإعلامية. ومن رأى اعوجاجاً فليقُلْه. إن الأمانة بلاء وعناء. والجبال أبين أن يحملنها. وأنا حاضر أن أردّ الأمانة إلى الشعب، فإنه وحده صاحبها»..

واسترسلت في هذا السياق من المعاني، وأعضاء المجلس الوطني يجدون في هذا الحديث شفاء «لعقدتهم» ولكنهم، في الوقت نفسه، تشير عيونهم: «إلى هنا وكفى»..

واكتفيتُ بما قلت، وعدت إلى مكاني على المنصة بجوار الرئيس وانتهى حفل الافتتاح. وعاد الرئيس إلى منزله ومشيتُ بضع خطوات في وداعه ولم يتعدَّ حديثنا كلام المجاملة العادية. ووجّهتُ في اليوم الثاني برقية بوصفي رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني، إلى الرئيس جمال عبد الناصر أشكره افتتاحه الاجتماع، وأشكر للجمهورية العربية المتحدة ما يلقى أعضاء المجلس الوطني من رعاية وحفاوة. وجاء الجواب في اليوم نفسه معنْوَناً إلى «أعضاء المجلس الوطني» يرحّب فيهم ويتمنّى للمجلس الوطني النجاح. وما أظنها «غفلة» أن يغفل «رئيس المجلس الوطني» في هذا الجواب. وكأن الرئيس لا يزال «متأثراً» بتصرّفاتي في الصين.

ولكن أموري في القاهرة لم تنتهِ عند هذا الحد. لقد وقعتْ لي أحداث «صغيرة» تجاوز عنها صبري. ولكنّ حادثيْن يلحان أن يكون لهما مكان في مذكراتي.

الأول: أن الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإرشاد القومي، قد اتّصل بي تلفونياً ليقول: «إن إذاعة منظمة التحرير قد بدأت تحمل على الأردن وقد طلب سيادة الرئيس وقف الحملة».

قلت: «ليست هنالك حملة إطلاقاً. إن الإذاعة تشرح مطالب المنظمة في الأردن: التجنيد الإجباري وتسليح القرى الأمامية والتدريب الشعبي وهذه مطالب

وطنية». وانتهت المكالمة وهو يلح على وقف «الحملة» وأنا «ألحّ» على شرح مطالبنا. وفي اليوم التالي اتّصل بي المسؤول عن الإذاعة ليقول لي: «إن مكتب الدكتور حاتم يطلب وقف «الحملة» على الأردن». وأجبتُه بأن يستمر في شرح مطالب المنظمة، والإذاعة تحت تصرّف المنظمة. نحن ندفع للقاهرة ١٥٠ ألف جنيه إسترليني سنوياً أجراً عن الإذاعة. قلْ له إن المثل العامي يقول: «الذي يدفع يركب». وانتهى الأمر بعد ذلك الحديث، بل بعد ذلك المثل.

أما الحادث الثاني فهو على نفس المنوال. كنت عازماً أن أسافر إلى غزة لمناسبة ذكرى ١٥ أيار/ مايو ـ قيام إسرائيل ـ وقد أعددتُ البرنامج الكامل لهذه الزيارة. وقبل موعدها بيومين اتّصل بي المشير عبد الحكيم عامر تلفونياً وهو يقول بصوت متهدج:

«هل يمكن تأجيل الزيارة»؟

قلتُ: «هذه مناسبة وطنية ـ وقد أعلنتُ عنها ـ والشعب في غزة ينتظر هذا اليوم».

قال: «الظروف الحاضرة تطلب تأجيل الزيارة، ربما يحدث هياج ضد الملك حسين في قطاع غزة».

قلت: «إذاعة صوت العرب وصحف القاهرة نهشت الملك حسين من الرأس حتى القدمين».

قال: «الرئيس عبد الناصر يرى تأجيل الزيارة. وأنت تعرف تأييد الرئيس للمنظمة وتقديره الشخصي لك».

وانتهت المحادثة التلفونية، وأنا ألقي اللوم على نفسي وحدي: «لماذا رضيتُ أن أتحمّل هذا البلاء؟ ماذا سيقول الشعب في قطاع غزة»؟

ولكن الله قد أراد أن يصون كرامة القاهرة من هذا العبث. وجاء الفرج عن طريق الغباء، غباء عمان، وحكام عمان.

وكان ما حدث، هو أن سفير الأردن في القاهرة أنور الخطيب أبرق إلى الملك حسين «يطمئنه» بأن زيارتي لقطاع غزة قد ألغيَتْ. ونشرت صحيفة **عمّان المساء** في اليوم التالي عنواناً ضخماً «الرئيس عبد الناصر يمنع الشقيري من زيارة قطاع غزة».

وكان الفرج الكبير في هذا العنوان الخطير. واهتزّت القاهرة للخبر، ويا للفضيحة! واتّصل بي الحاكم العام لقطاع غزة الفريق العجرودي تلفونياً ليقول لي من دون مقدمة ولا ديباجة، كأن شيئاً ما كان: «الطائرة ستكون تحت تصرّفك غداً لتنقلكم إلى العريش حيث نكون بانتظاركم مع الشعب، والاحتفالات ستجري بحسب البرنامج، وكلّ شيء تمام».

وفي اليوم الثاني كنت في مطار ألماظة في القاهرة «وقرَقولُ الشرف» من الضباط ينتظرني ليؤدّي التحية لأستقلّ الطائرة «الفاخرة»، طائرة المشير عبد الحكيم عامر. وكان كل شيء فخماً رائعاً: البرامج والاحتفالات والاستقبالات. والفضل من دون شك يعود إلى العنوان الفخم الذي نشرته جريدة **عمّان المساء**. وتذكرت القول المأثور «إن الله لينصر هذا الدين على أيدي رجال ليسوا من أهله».

تلك كانت بعض مصاعبي في القاهرة، وكلها من وزن الريشة. وإنها لمصاعب يسيرة لا بد أن يجدها السائرون في درب النضال، بل إني أغتفرها. ذلك أنه لولا الجمهورية العربية المتحدة ولولا الرئيس عبد الناصر بالذات، لما قامت منظمة التحرير الفلسطينية. أقول هذا من دون انتقاص للشعب الفلسطيني ولا للعون السياسي والمادي الذي لقيتْه المنظمة من عدد من الدول العربية الأخرى.

أما مصاعبي في الأردن فقد شهد عام ١٩٦٥ مولدها ونشوءها، وستروي مذكراتي كيف استفحلت في الأعوام التالية.

ومرة ثانية، كانت سفرة الصين بداية الخلاف مع عمان، تماماً كما كان الحال مع القاهرة، وإن تباينَتْ الأسباب.

لقد أشعلت سفرة الصين حماسة الشعب الفلسطيني في الأردن، وهو يستمع إلى إذاعة المنظمة عن استقبال وفد فلسطين في الصين، واللقاء مع ماوتسي تونغ وشو إن لاي والاحتفالات الشعبية الكبرى والاعتراف بمنظمة التحرير ممثلة للشعب الفلسطيني وتأييد الكفاح المسلح لتحرير فلسطين وتقديم السلاح إلى جيش التحرير وتدريب الضباط الفلسطينيين على حرب العصابات.

وكانت حكومة عمّان تستمع إلى هذه الأخبار، فترتعد فرائصها من «خطرها» الشيوعي، ومن تعلّق الشعب الفلسطيني بمنظمة التحرير. ولعبَتْ السفارتان الأمريكية والبريطانية دورهما في مضاعفة هذه المخاوف، الصحيحة منها والزائفة. والصحيح فيها أندر من الكبريت الأحمر كما يقولون!!

وتفتّحت قريحة السياسة الأردنية عن أسلوب «ذكي» في مواجهة هذا الموقف. لقد أعلن الملك حسين تأليف وزارة جديدة برئاسة وصفي التل لتحقيق برنامج «وطني» كبير في «دعم خط الدفاع الأول عن دنيا العرب وحشد طاقات الأمة للمعركة» وأمثال هذه العبارات الطافية على سطح البلاغة والفصاحة. وجاء في ختام البيان الوزاري:

«إنه لمن النقاط الرئيسية التي على الحكومة أن تلتزم بها في سياستها تجاه قضيتنا الأولى دعم منظمة التحرير الفلسطينية، والتعاون الوثيق معها، فنحن نقف إلى جانب المنظمة، ونؤيدها ونساند جهودها إلى أبعد الحدود».

واحتلّ البيان الوزاري صدر الصحف الأردنية تحت عناوين «شامخة» بألوان «صارخة». ودخل في روع الرأي العام أن الملك حسين قد اقتنع أخيراً بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأنه لا بد من مؤازرتها. وكاد عدد من الفلسطينيين المخلصين يدخلون تلك الوزارة على أساس ذلك البرنامج.

وركب الملك حسين ورئيس وزرائه متن هذا المدّ الإعلامي الضخم، وركبتُ بدوري الطائرة إلى عمان لأكتشف ما يريده الملك حسين من العبارة الفخمة «تأييد منظمة التحرير إلى أبعد الحدود..».

وصلتُ إلى عمان فوجدتُ الناس لا حديث لهم إلا البيان الوزاري الذي أعلنتْه حكومة وصفي التل حتى خامرني الظن أن «انقلاباً» قد حدث في الأردن، وأن الملك حسين هو بطل الانقلاب!!

واجتمعتُ بالملك حسين في قصر بسمان وشكرت له ما ورد في البيان الوزاري من تأييد عظيم لقضية فلسطين، ومساندة منظمة التحرير الفلسطينية. وقلتُ له: «لقد سمعتُ هذه الأخبار السارّة وأنا في القاهرة. ورأيتُ من واجبي أن أسافر فوراً إلى عمّان لوضع هذه السياسة موضع التطبيق. وإن المنظّمة من جانبها مستعدّة أن تبذل جهدها الصادق المخلص للتعاون مع الحكومة الأردنية في هذا السبيل».

وبعد حديث طويل ناشدتُ خلاله شباب الملك حسين وهاشميته ووطنيته وعروبته أن نتضافر على السير معاً في تقوية الجبهة الأردنية وحشد الطاقات جميعها في هذا الميدان، وأن المنظمة لا تطمع في سلطة أو حكم، وأن كل ما تتطلّع إليه أن تكون جهازاً شعبياً يعمل بالتعاون مع الأجهزة الأردنية الرسمية في سبيل إعداد الأمة روحياً وعسكرياً لمعركة التحرير.

وقال الملك: «وماذا تريد المنظمة على وجه التحديد»؟

قلتُ: «مطالبنا أربعة: التجنيد الإجباري وتسليح القرى الأمامية وتحصينها وإقامة معسكرات للتدريب وإنشاء فرق للدفاع المدني».

قال: «وما شأن المنظمة في هذه الأمور؟ هذه كلها من اختصاص الدولة».

قلتُ: «نريد أن نتعاون مع الدولة على تحقيقها. ونحن لا ننكر على الدولة اختصاصها، ونحن مستعدون أن نساهم مالياً ومعنوياً».

قال: «سيكون هنالك تضارب بين المنظمة والحكومة».

قلتُ: «أمامنا الوكالة اليهودية وإسرائيل يتعاونان من دون تضارب بينهما. هذا مثل واحد، وإن كنت أكره هذا التشبيه».

قال: «نحن لا نريد أن نفرّق بين أردني وفلسطيني، وبين الضفة الغربية والشرقية»..

قلت: «نحن طلاّب وحدة من المحيط إلى الخليج. فكيف نفرّق بين الضفتين؟ وكلتاهما وطن واحد اسمه فلسطين أو الأردن، ولا تفصل بينهما إلا ساقية صغيرة اسمها نهر الأردن».

وهنا دخل علينا وصفي التل رئيس الوزراء، فعاد النقاش من جديد. وكان من «رقّة» الرئيس التل أن حمي الحوار.

وقلت: «لقد ذكرتُم في البيان الوزاري أنكم تؤيّدون منظمة التحرير الفلسطينية إلى أبعد الحدود. هذا تعبير عظيم، ولكني أريد أن أفهم معناه ومداه».

قال الملك: «نظّموا الشعب الفلسطيني في سوريا ولبنان والكويت وقطاع غزة. أرسلوا وفوداً إلى الأمم المتحدة وإلى الدول الصديقة. إشتركوا في المؤتمرات الدولية لنصرة قضية فلسطين. ونحن مستعدّون أن نؤيدكم في جميع هذه المساعي. هذا هو مجال نشاط المنظمة».

قلتُ: «نحن نشكركم على ذلك. هذا تأييد للمنظمة ولكنه «خارج الحدود» وليس إلى «أبعد الحدود» في الأردن، كما جاء في البيان الوزاري».

قال: «نحن لا نوافق على الازدواجية».

وتدخل الرئيس وصفي التلّ وقال: «يا أخ أحمد لقد كنت رئيساً لي في المكتب العربي في القدس. وأنا لا أستطيع أن أجادلك. نحن الآن أمام ظروف صعبة،

إسرائيل تشنّ علينا غارات يومية» وأن سيّدنا «لا يوافق» على غارات «فتح»، هؤلاء مخرّبون. إنهم يعرّضوننا للاصطدام المسلح مع إسرائيل قبل الوقت الملائم، وإن سوريا تريد أن تفسد علينا خططنا، وهي التي تتبنى جماعة «فتح»، وما معنى نسف «عبَّارة» ووضع لغم في الطريق. نحن نستعد لمعركة كبرى. وهذا هو رأي «سيدنا» باختصار».

قلت: «هذا خروج عن الموضوع. أنا لا أبحث موضوع «فتح» ولا سوريا. وتستطيعون أن تكلّموهم مباشرة في هذا الموضوع. إني مهتم الآن بما ورد في البيان الوزاري. أريد أن أعرف كيف تؤيدون منظمة التحرير إلى «أبعد الحدود»...».

قال الملك: «هذا موضوع كبير سنتفاهم عليه مع الدول العربية في مؤتمر الدار البيضاء الذي سينعقد هذا الصيف (١٩٦٥). إن مؤتمر القمة الأول هو الذي أنشأ الكيان الفلسطيني. وسنطالب الملوك والرؤساء في مؤتمر الدار البيضاء بتحديد مهمات المنظمة ونشاطاتها. وانتهى النقاش على غير جدوى. وما أردت إلى ذلك العهد أن أصل في الحديث إلى درجة القطيعة، بل أحببتُ أن أبقي شعرة معاوية. وإن الأردن بلدنا، وشعبنا شعبها، ولا بد من الصبر على المكروه. المكروه الذي لا أراه من الشعب، ولكن من الملك ورئيس وزرائه.

وخرجتُ من الديوان الملكي إلى غرفتي نفسها «٣٠٤» في فندق الأردن، في عمان. وأقول نفسها إذ إن «المخابرات الأردنية» كانت تتخذ الترتيبات اللازمة مع إدارة الفندق لكي أنزل فيها. لقد اكتشفت في ما بعد أن في جدرانها أجهزة لاقطة وسامعة ومسجّلة. وحمداً لله فإن الأحاديث الهامة كانت تدور بيني وبين الإخوة الفلسطينيين على «الشرفة» خارج الغرفة. أما عبارات الثناء على «سيدنا» فكان يطلقها إخواننا الفلسطينيون داخل الغرفة. ﴿**ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين**﴾[٢] صدق الله العظيم.

غير أني في هذه الغرفة وردتْ على خاطري أفكار لم تستطع أجهزة المخابرات أن تسجّلها. ذلك أني كنت أفكر في أن انتزع السم من الأفعى في حكاية أردني وفلسطيني. وهي الحكاية التي كان الملك حسين يردّدها في خطبه وتصريحاته وأحاديثه.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ٥٤.

ورأيت أن خير وسيلة لذلك هي أن أضمّ إلى المنظمة نفراً من الإخوان «الأردنيين» وبهذا نقضي على «قميص عثمان» الذي يبكي عليه الملك حسين بمناسبة وغير مناسبة.

واتّصلت بكل من نجيب رشيدات واللواء علي الحياري وهما من أبناء شرق الأردن. وعرضتُ عليهما أن يدخلا المنظمة، الأول عضواً في اللجنة التنفيذية، والثاني مديراً للدائرة العسكرية. وقبل الأردنيان الفاضلان هذا العرض. وأعلنت ذلك في الصحف الأردنية. وسرعان ما تحرك الملك حسين وأجهزته لتهاجم هذه «العملية» الخاطفة. وأوحى الرئيس وصفي التل إلى بعض الفلسطينيين والأردنيين، كل على حدة، لمهاجمة هذه «الدسيسة الشقيرية».

فقال المأجورون الفلسطينيون: «إن الشقيري قد هدم الشخصية الفلسطينية. إن الكيان الفلسطيني يقوم على أبناء فلسطين. إن إسرائيل هي التي تقول إن حدود فلسطين تشمل شرق الأردن»، وقال المأجورون الأردنيون: «إن الشقيري يريد أن يبتلع «الشخصية الأردنية» وسيصبح الأردن دولة فلسطينية لأن أكثرية الأردن من الفلسطينيين».

وقال الملك حسين والرئيس التل: «نحن حريصون على بقاء الطابع الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية، فذلك أنفع في الأمم المتحدة»!!

وكان حوار. وكان جدال وصل إلى الصحف والبيوت والشوارع والمقاهي. واشتدّ الضغط على نجيب رشيدات واللواء الحياري. واضطرّا إلى الاستقالة كارهين. واستطاعت الحكومة الأردنية إفشال هذه التجربة الوحدوية الرائدة. ولو أفلحتْ هذه المحاولة لجنّبت النضال الفلسطيني كثيراً من المتاعب التي خاضها في ما بعد، ولا يزال غارقاً فيها إلى يومنا هذا، وسيظل، وسيظل..

وقبل انتهاء زيارتي للأردن، عقدتُ مؤتمراً صحافياً في مقرّ المنظمة في بيت المقدس، أعلنتُ فيه بصورة هادئة أن المنظمة ترحب بالبيان الوزاري الذي أعلنته حكومة وصفي التل وتتطلّع إلى تحقيقه، وأن تأييد المنظمة إلى أبعد الحدود ليس له إلا معنى واحد، وهو الاستجابة لمطالب المنظمة الأربعة: التجنيد والتدريب وتسليح القرى الأمامية والدفاع المدني.

وخرجتُ في اليوم الثاني إلى دمشق ومعي صحف الصباح، والمؤتمر الصحافي الذي عقدتُه، محشوراً في ثلاثة أسطر بين الإعلانات عن «أحذية باتا» و«بيرة

أمستل» . . ومسكينة أنت يا منظمة التحرير، ومسكينة أنت يا قضية فلسطين . .

وصلتُ دمشق وأنا أدعو الله أن تكون مصاعبي فيها أيسر مما لقيت في عمّان. وعلّلتُ نفسي بالدعاء إلى الله ألا ألقى فيها شراً، إذا لم أجد فيها خيراً.

ولكني وجدت الشر كل الشر. وكان أول ما لقيت كلاماً مبتذلاً في صحف دمشق عن «محاولة الشقيري تصفية المنظمة وتسليمها إلى الملك حسين». وتمّت لي لقاءات مع قادة حزب البعث[٣]. وسألتُ: «ما معنى هذا الكلام وما سببه»؟ فقالوا كلاما مغمغماً ومغلّفاً بالشعارات وثورية الكلمات!!

ولكني سمعتُ تلك الليلة ما هو أوضح من ذلك (١٥حزيران/ يونيو١٩٦٥). سمعتُ تعليقاً من إذاعة دمشق «بأن الشقيري عميل لعبد الناصر وأنه موظف في المخابرات المصرية وأنه يحاول أن يمدّ أصابعه إلى قوات «العاصفة» لإجهاضها تحت ستار المفاوضة للوصول إلى ما يسمى «بالوحدة الوطنية ومن ثمّ جرها إلى المواقع السلبية». واجتمعت باللواء أمين الحافظ والدكتور منيف الرزاز وغيرهما من زعماء البعث آنذاك، لأنفي عن نفسي هذه التهمة المضحكة وشرّ البلية ما يضحك.

قلت لهما: «إن لهذا الموضوع حكاية. أرى من واجبي أن أقصّها لكما . . حينما انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة في دورته الثانية (أيار/ مايو ١٩٦٥) ثارت ضجة كبرى بين الأعضاء بشأن العمل الفدائي. وكانت السلطات الإسرائيلية قد قبضتْ على المناضل الفلسطيني محمود بكر حجاز، وهو من رجال «فتح». وكان بين أعضاء المجلس بخاصة ممثلي الضفة الغربية ما يشبه الإجماع بأن العمل الفدائي سابق لأوانه وأنه يجب أن يكون أولاً، مدعوماً ومنسقاً مع الجيوش العربية حتى لا تتعرّض القرى الأمامية في الأردن لإرهاب القوات الأردنية. لقد عارضهم في الرأي أعضاء آخرون يمثّلون «فتح» أو يعطفون عليها. وثار جدال عنيف حول الموضوع. وصاح ممثلو الضفة الغربية في وجه ممثلي «فتح» وقالوا لهم: «تعالوا إلينا وعيشوا معنا في القرى الأمامية، لا أن ترسلوا الفدائيين وأنتم تعيشون في بيروت بعيدين عن الغارات الإسرائيلية».

وكاد يقع التلاحم بالأيدي بين الفريقين. وتدخّلت بوصفي رئيساً للمجلس الوطني، وأعلنت سرية الجلسة، وطلبت من الصحافيين مغادرة القاعة. وألقيتُ بياناً

(٣) القيادة السابقة.

مطولاً حول العمل الفدائي، أكّدتُ بطولته ومزاياه وأثنيتُ على محمود بكر حجاز، وأنه بطل فلسطيني قبل أن يكون من رجال «فتح». وأننا في المنظمة قد اخترنا المحامي الفرنسي «فرجس» ليتولى الدفاع عنه أمام المحكمة الإسرائيلية. وكان قد سبق له أن دافع عن الأبطال الجزائريين أثناء حرب التحرير الجزائرية. وقلتُ في النهاية إن العمل الفدائي له خطورته وسريّته، ولا يجوز أن يناقش في جلسة عامة، وأن علينا أن نمدّ الأبطال الفلسطينيين تحت أية راية سقطوا، وأن خير ما يتخذه المجلس الوطني من قرار في هذا الموضوع هو «تفويض رئيس المجلس الوطني بأن يقوم بالمساعي اللازمة لتوحيد المنظمات الفدائية». وما إن طرحت هذا الرأي حتى قابله المجلس الوطني بالتصفيق الإجماعي، وانتهت الأزمة عند هذا القرار.

واستأنفت حديثي إلى كل من الحافظ والرزاز متسائلاً: «وهل توحيد العمل الفدائي خيانة؟ وهل الوحدة الوطنية خيانة»؟

فقالا: «إن دخول العاصفة» وهي الجناح العسكري لمنظمة «فتح» إلى المنظمة من شأنه أن يجهض العمل الفدائي. المنظمة جهاز علني، والعمل الفدائي يجب أن تصان له سريته».

قلت: «هذا صحيح، ولكن يمكن أن يقوم تنسيق بين المنظمة والعاصفة، وبصورة سرية».

قالا: «وكيف ذلك»؟

قلت: «لقد سبقتْنا إسرائيل إلى ذلك في زمن الانتداب. كان هنالك تعاون كامل بين الوكالة اليهودية والمنظّمات الإرهابية اليهودية. ولِمَ لا نفعل مثل أعدائنا»؟

قالا: «إن المنظمة غير ثورية».

قلتُ: «وما هو تعريف الثورية؟ نحن لا نلعب ولا نعبث. لقد أنشأنا جيشاً، وبعض كتائبه عندكم. لقد أرسلنا بعض ضبّاطنا إلى الصين ليتدرّبوا على حرب العصابات. أليستْ هذه أعمالاً ثورية؟ إذا كانت الثورية خطباً فأنا أخطب منكم جميعاً. وإذا كانت جيشاً وسلاحاً فإن جيشَنا وسلاحنا عندكم».

وانتهى الحديث على غير اتفاق. وإن كانت الأمانة تقتضي أن أقول بأن اللواء الحافظ كان أكثر انفتاحاً على المنظمة ولم يكن أسير الشعارات والكلمات. وقد ازداد انفتاحه على المنظمة في فترات لاحقة، حتى أصبح سندها الوحيد في أوساط حزب

البعث. ولكن اللواء الحافظ كان يصارع من أجل سلطاته، وصارع في ما بعد بالسلاح من منزله بكل شجاعة. ولكن القوة غلبت الشجاعة وغُلِب الحافظ على أمره وخرج من البلاد!!

غير أن زيارتي لدمشق في تلك الفترة لم تكن حواراً فكرياً فحسب، فقد صادفتُ مصاعب عملية تتّصل بأعزّ ما عملتْ له منظمة التحرير الفلسطينية وأعني بذلك جيش التحرير.

زرتُ معسكراتِنا في درعا، لأتفقّد شؤون ضباطنا وجنودنا. وكنت كلّما وصلت إلى دمشق أبادر إلى زيارة قوات جيش التحرير، فأخطب فيهم، وآكل معهم، وأتناقش معهم. وكم كنت أتمنى لو تكون لي غرفة في معسكراتهم لأبيت عندهم بدلاً من أن أبيت في فندق أمية الجديد حيث أسمع الجدل العقائدي وما إلى ذلك من كلام لا يتطلّب جهداً إلا تحريك اللسان.

واختلى بي الضباط الفلسطينيون ليشكوا إليَّ من تدخل القيادة القومية لحزب البعث في شؤون جيش التحرير.

قالوا: «لقد طلبتْ رئاسة الأركان السورية فصل سبعة من ضباط جيش التحرير».

قلت: «وما هو السبب؟ هل هنالك تصرّف مسلكي شائن؟ هل هنالك تدخّل من جانبنا في الأمور الداخلية في سوريا؟ هل هنالك سبب معقول»؟

قالوا: «ليس هنالك أي سبب. إن ذنب هؤلاء الضباط السبعة أنهم غير بعثيين. وتريد رئاسة الأركان السورية أن تعيّن مكانهم سبعة من الضباط البعثيين».

قلت: «وهل لكم شكاوي أخرى»؟

قالوا لنا شكوى أخرى، نرجو أن تعالج قبل أن تغادر دمشق.

قلت: «ما هي؟ خيراً إن شاء الله. . أرجو أن أكون قادراً على معالجتها». .

قالوا: «رئاسة الأركان السورية قررت فصل اثنيْ عشر فلسطينياً التحقوا بكلية الضباط في حمص».

قلت: (ضاحكاً) «هل يفصلون لأنهم بعثيون»؟

قالوا: (وهم يقهقهون) «لا، بل إنهم من جماعة القوميين العرب، وإن بينهم فيصل ابن الشهيد عبد القادر الحسيني».

قلت: «إذا أرادتْ سوريا أن تفصلهم، فنرجو إبقاء «فيصل» من أجل خاطر والده البطل».

وخرجت من معسكر درعا وأنا لا أبصر طريقي. فقد تركتُ ورائي عمان وهي تريد أن تلقي المنظمة خارج الحدود، وها أنا الآن في دمشق عميل لعبد الناصر. ولا أدري كيف الخروج من هذه التناقضات. وأصبحتُ مثل ذلك العاشق الذي يقول:

جُنِنا بليلى وهي جُنّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وذهبت إلى رئاسة الأركان السورية، واجتمعت بكبار الضباط وبينهم اللواء أحمد سويداني. واستغرقنا في حديث طويل عن جيش التحرير الفلسطيني في درعا. وقال إن الجيش أصبح مجموعة منظمات وخلايا، وإن سوريا لا يمكن أن تقبل بهذا الوضع الذي قد يهدّد أمنها وسلامتها. وركّز بعض الضباط السوريين على أن عناصر معيّنة في جيش التحرير الفلسطيني تقوم بدعاية ناصرية وأن الدولة لا تستطيع أن ترضى بحكومة داخل حكومة.

وقلت من جانبي: «إن هذه المعلومات غير صحيحة إطلاقاً، وإن عناصر الجيش، ضباطاً وجنوداً، غير منتسبين إلى أحزاب، وإني حريص أن يكون الجيش بعيداً عن الحزبيات والعقائديات».

قالوا: «الحزبية ليس لها أن تتسرّب إلى الجيش، ولكن الجيش يجب أن يكون عقائدياً».

قلتُ: «لقد كنتُ كل حياتي عربياً حراً مستقلاً. وأريد جيشنا أن يكون كذلك. وأنا لا أوافق أن يكون الجيش عقائدياً في إطار المعاني الحزبية. الجيش يجب أن تكون له عقيدة واحدة. إيمانه بأمّته وعروبته وبمعركة التحرير، وكفى».

قالوا: «على كل حال، نحن نريد من المنظمة أن تفصل الضباط السبعة، فنحن لا نستطيع أن نتعاون معهم».

قلت: «وما ذنبهم»؟

قالوا: «إنهم يقومون بدعاية معادية للحزب والدولة».

قلت: «نشكّل هيئة تحقيق للنظر في الشكوى، فإن ثبتَتْ عليهم التهمة فصلناهم».

قالوا: «لا بل يجب فصلهم فوراً. وهل تستطيعون أن تفرضوا على مصر ضباطاً في جيش التحرير يقومون بدعاية ضد عبد الناصر»؟

قلت: «لو طلب مني عبد الناصر أن أفصل أحداً من ضبّاطنا، لقلتُ له يجب أن نحقّق أولاً».

قالوا: «إذن، سنعتقلهم».

قلت: «وسأعلن حلّ الجيش في سوريا»!!

وهنا تأزّم الموقف، وهممْتُ بالانصراف. ووقف بعض الضباط في وجهي، وهم يحاولون تهدئة الموقف.

واستأنفت حديثي وسألت: «وما هو موضوع الاثني عشر فلسطينياً الذين التحقوا بكلية الضباط في حمص، لماذا أخرجتموهم»؟

قالوا: «هؤلاء جميعاً ينتمون إلى القوميين العرب».

قلتُ: «إن القوميين العرب ليسوا على مودّة مع منظمة التحرير الفلسطينية. إنهم لا يتركون فرصة إلا ويحملون على المنظمة. ولكني مع ذلك أرحّب بكل من يريد منهم أن يكون ضابطاً أو يتدرّب على حمل السلاح. أريد أن أجعل ولاءهم للشعب قبل ولائهم للحزب».

قالوا: «إن موضوع هؤلاء الشباب قد انتهى. ولا سبيل إلى الرجوع فيه لأننا قد اتّخذنا قراراً بالإجماع في هذا الموضوع».

قلت: «وفيصل، ابن الشهيد عبد القادر الحسيني»؟؟

قالوا: «سنعيده إلى الكلية على مسؤوليتنا. ولكن نرجو أن تحذّره من القيام بأية دعوة عدائية ضد الحزب».

ورأيتُ أن مثلي لا يصحّ له أن يستمر في الحوار مع هؤلاء الضباط «العقائديين». ولا شك في وطنية هؤلاء الضباط وإخلاصهم، ولكن أكبر مساوئ هذا النوع من الحزبية أنها مغلقة على غيرها، ولا تريد أن تقنع، ولو استمرّ الحوار إلى يوم القيامة. بل لعلّ القيامة وحدها هي التي تريحنا من هذا الحوار.

وخرجت من رئاسة الأركان، وأنا نادم على ما أنفقت من الجهد والوقت وأنا أردّد قول المتنبي:

ومن البليّة عزل من لا يرعوي عن جهله وخطاب من لا يفهم

ورحم الله المتنبي رحمة واسعة. كم أسعفني حين كانت تضيق الدنيا في وجهي وأنا «أتعامل» مع الملوك والرؤساء.

وصلتُ إلى الفندق وأنا أكاد أتقيّأ من الحوار في رئاسة الأركان لأجد نفسي في حوار من نفس الطراز، ولكن في موضوع آخر.

وجدت ثلاثة شبان فلسطينيين في انتظاري. ولم أكن في حاجة إلى فراسة كبيرة لأدرك من تعابيرهم وألفاظهم أنهم جدليّون إلى الأذقان. وذكروا لي أسماءهم، ومن الخير أني نسيتُها ونسيتُهم.

بدأ الحوار حول ثورية المنظمة، فقالوا إنها يجب أن تمثل العناصر الثورية فقط، وإن المنظمة قد أصبحت بيد الملك حسين، وإن إدخال عناصر أردنية إلى قيادة المنظمة سيجعلها بيد الحكومة الأردنية.

وأخرج واحد منهم من جيبه، قصاصة من جريدة **البعث** في دمشق، وهي لسان حال الحزب. وقرأ منها خطاباً للدكتور منيف الرزاز الأمين العام لحزب البعث ألقاه في جامعة دمشق ودعا فيه «أن تكون منظمة التحرير منظمة ثورية لا منظمة تمثيل، مثل منظمة الشقيري».

ثم عاد هذا الشاب وأخرج من جيبه قصاصة أخرى من جريدة **الأحرار** في بيروت وهي لسان حال البعثيين في لبنان. وتقول القصاصة: «إن ضم نجيب ارشيدات واللواء الحياري إلى المنظمة هو محاولة رخيصة من جانب الشقيري للتقرّب من الملك حسين».

قلت: «لقد حرتُ في أمري معكم يا شباب البعث. أسمع منكم مرة أني عميل لعبد الناصر ومرة أخرى أني أريد أن أتقرّب من الملك حسين. هلاَّ استقام فكركم على واحدة. ثم إنكم تناقضون أنفسكم بأنفسكم».

قالوا: «كيف»؟

قلت: «إن رسالة البعث، أمة عربية، واحدة، وشعاركم الوحدة. وإني أعتبر نفسي بعثياً إيماناً بهذا الشعار. فمالي أراكم تعترضون على ضم أردنيين اثنين إلى منظمة التحرير. ولو أنكم تعرفون تاريخ بلادكم حقاً، لأدركْتم أن «إمارة شرق الأردن» قد صنعها تشرشل في أوائل العشرينيات»[٤].

(٤) أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قالوا: «نحن لا نبحث في التاريخ. نحن نتكلّم عن الحالة الحاضرة، عن الأمر الواقع».

قلت: «أمّة بلا تاريخ ليست لها حياة. وإذا كان الأمر الواقع هو مقياس تفكيركم، فهذه إسرائيل أمامكم. إنها تمثل الأمر الواقع».

ودخل علينا أحد موظفي مكتب المنظمة ليقول لي إن السيارة جاهزة، وإن موعد سفر الطائرة إلى بغداد قد أزف. وحمدت الله أن هذا الحوار قد بلغ منتهاه. ولا يحمد على المكروه سواه.

وكان سفري إلى بغداد لمعالجة المشاكل نفسها التي تتمرّس بها المنظمة في أرجاء الوطن العربي.

وقد دخلت إلى جناح مريح في فندق دجلة في بغداد، وأنا أحسب أنني قد أصبحت بعيداً عن دمشق وعن حوار الإخوة البعثيين. ولكني فوجئت تلك الليلة بغير ذلك. لقد «غزاني» البعث السوري وأنا على ضفاف دجلة، فقد فتحتُ إذاعة دمشق في موعدها على عادتي. واستمعتُ إلى اللواء أمين الحافظ، يخطب في مهرجان شعبي (٢حزيران/ يونيو١٩٦٥) يتحدّث عن مؤتمر القمة والإسكندرية. ويعرّض بالرئيس عبد الناصر «الذي يزعم أنه من رواد القومية العربية الذين أرادوا من مؤتمر القمة أن يستروا ضعفهم وتردّدهم وإهمالهم. ولكن فليعلمْ من يتصدّى للقيادة ومن يدّعي الثورية أنه يجب أن يكون أهلاً وإلا فعليه أن يتخلّى. لقد قلت للرئيس عبد الناصر إن لك صفات طيبة ولكن لك أخطاء. وبالنسبة إلى منظمة التحرير نحن نقف إلى جانبها. ناورَ على المنظمة من ناورَ بعد أن وجدتْ. قلنا للشقيري هذه المنظمة يجب أن تضمّ ما أمكن من الفئات الفلسطينية. .». ولقد استمعتُ إلى هذا الكلام الظالم وأنا على معدة فارغة. ولكنني لم أستطع أن احتمل الخطيب الذي جاء بعده، وهو منيف الرزاز أمين عام حزب البعث، وهو يعلن: «لو كان عبد الناصر يؤمن بجدوى الشقيري وزمرته بديلاً عن الجماهير العربية الثورية للشعب الفلسطيني لكان له العذر كل العذر. . لقد شكّك الحزب في ثورية منظمة التحرير وجدوى قيادتها».

استمعتُ إلى هذا الكلام، وأنا أستعجل الصباح. فقد بكرت إلى السفارة السورية في بغداد، وأبرقتُ إلى قيادة الحزب أطلب «برنامجاً تفصيلياً لأطبقه في جعل المنظمة ثورية». ولم يصلْني جواب على برقيتي يفضي بهذا الحوار إلى نهاية كريمة عاقلة.

ومن السفارة السورية ذهبت إلى القصر الجمهوري لأرى أية مشكلة تنتظرني.

ولكن مشكلتنا في العراق هذه المرة على يسرها وطرافتها فإنها لا تخلو من الغرابة البالغة.

اجتمعتُ برئيس الجمهورية المشير عبد السلام عارف ورئيس الوزراء الفريق طاهر يحيى ووزير الدفاع اللواء شكري. وكدْتُ أُبيح لنفسي أن أضحك ساخراً، كما سخر الماجنون والفاجرون في العراق أيام الخلفاء العباسيين، فقد سمعتُ أمراً عجيباً:

قالوا: «إن كتيبة القادسية، وهي قوات جيش التحرير الفلسطيني في العراق، قد أصدرنا إليها الأوامر بالانتقال إلى معسكر يبعد عن بغداد تسعين كيلومتراً، لمدّة ثلاثة أشهر، ريثما تتمّ إجراءات التحقيق».

قلت: «وما هي إجراءات التحقيق»؟

قالوا: «لقد وصلتْنا أنباء موثوقة من المخابرات العسكرية العراقية تفيد بأن عناصر بعثية مندسّة بين ضباط جيش التحرير الفلسطيني كانت تعتزم التحرّك في اتجاه بغداد للاشتراك في مؤامرة على الحكم في العراق».

قلت: «ما أشقى الشعب الفلسطيني وأتعسه! كنتُ في عمان فقالوا إن منظمة التحرير جهاز مصري. وسافرتّ إلى دمشق فقالوا إن الشقيري سلّم المنظمة للملك حسين. وها أنا في بغداد أسمع منكم أن جيش التحرير فيه عناصر بعثية تدبر خطة للقيام بانقلاب في العراق. ولم يبقَ أمامنا إلا أن نلقي بالشعب الفلسطيني في البحر، ليستريح وتستريحوا».

وذهبت في صحبة وزير الدفاع اللواء شاكر محمود شكري إلى شعبة المخابرات العراقية لنطّلع على التقارير السرية التي ألصقت هذه التهمة بجيش التحرير الفلسطيني.

وفتح مدير الشعبة الملفات، وأخذ يقرأ التقرير الوارد من دمشق ويشير بأن «حزب البعث يحاول أن يتصل بالضباط الفلسطينيين في دمشق، ليتّصلوا بزملائهم في بغداد ليدخلوا حزب البعث».

قلتُ: «يا أخي، ولنفرضْ أن هذا التقرير صحيح، فأين المؤامرة وأين محاولة الانقلاب؟ كل ما في هذا التقرير هو انضمام الفلسطينيين إلى حزب البعث، هذا إذا صدق الراوي».

فقال المدير: «آغاتي، بسلامتك، بوداعتك، هذه أخبار مظبوطة»، إلى آخر هذه العبارات العراقية.

وأحسّ وزير الدفاع اللواء شاكر أن مدير «المخابرات» تعوزه المخابرات الدقيقة فأنهى المناقشة. وذهبتُ معه إلى مكتبه في وزارة الدفاع، ذلك المكتب البلوري الحصين الذي كان أعدّه الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم لنفسه، ليعتصم فيه، يوم لا عاصم من أمر الله.

واستدعى اللواء شاكر مدير مكتبه، وأملى عليه أمراً عسكرياً بأن «تعود قوات القادسية الفلسطينية إلى ثكناتها في معسكر الرشيد فوراً». وانتهت الأزمة بلطف الله ورحمته!!

وخرجتُ من وزارة الدفاع بكل مظاهر الحفاوة، والحرس يرفعون بنادقهم على أكتافهم في حركة عصبية، يضربون الأرض بأحذيتهم العسكرية، ضربات قوية تتكسّر أصداؤها على جدران المداخل والمعابر.

وقضيتُ أياماً في الفندق أستقبل الإخوة العراقيين والفلسطينيين في الحديث الرتيب نفسه، عن تحرير فلسطين، كيف يكون، ومتى يكون؟

وفي صبيحة يوم تألّقتْ فيه شمس بغداد، وسطعتْ الزرقة الصافية في سمائها السامية، خرجتُ إلى معسكر الرشيد لأشهد المشهد الذي لا أنساه طيلة عمري، نسيني عمري لو أني نسيتُ ذلك المشهد الرفيع.

وصلتْ سياراتنا إلى أرض فضاء لنشهد النسور الفلسطينيين وهم يهبطون من الجو بالمظلات. وكانت هذه هي النواة الأولى لكتيبة المظليين الفلسطينيين. بدأ المدرّب العراقي يشرح لنا «العملية» بمراحلها المختلفة. كانت آذاننا معه، ولكن أبصارنا كانت مجذوبة إلى الفضاء ورؤوسنا مشدودة إلى السماء، ننتظر الطائرة التي تحمل جنودنا البواسل، أبناء فلسطين الأبطال.

وتقلّبتْ أبصارنا في كل اتجاه، وسمعنا أزيز الطائرة، ووثبتْ قلوبنا من صدورنا. ولم يكنْ مثل هذا المشهد غريباً عليَّ، فقد رأيتُه كثيراً في الاستعراضات العسكرية، ولكني أراه الآن فريداً منقطع النظير. إنهم الفلسطينيون اللاجئون المشرّدون، أولئك الذين كانت تظلّلهم الخيام، وهم الآن يتحزّمون بالمظلات ليهيّئوا أنفسهم لليوم الموعود، للهبوط فوق مدنهم وقراهم التي تحتلها إسرائيل.

سرتُ هذه الخواطر سريعة في ذهني، وبدأ المظلّيون الفلسطينيون يقفزون من الطائرة، ويتساقطون في الهواء، ثم ينشرون مظلاتهم، ويترنحون هابطين. ولقد أمسكنا أنفسنا، نودّ لو نرسل إليهم عزمنا وبأسنا، حتى يصلوا إلى الأرض سالمين.

واقترب نسورنا من الأرض، ونزلوا عليها برفق ودعة وراحوا ينهضون من تحت المظلات وحبالها. ورحتُ إليهم وقد سبقتْني ذراعاي أضمّهم وأقبلهم، وأبلّل جباههم بدموعي. وكأنني في يوم العودة، فرحتي في بكائي..

كانوا عشرة. وقفتُ معهم واحداً واحداً، وسألتُهم: «من أية مدينة، من أية قرية، من أية عائلة؟ متى نزحتَ، وكم كان عمرك يوم نزحتَ، وما هي ذكرياتك عن بلدك»؟

وجاء دورهم بالأسئلة. وقفتُ حائراً أمام السؤال الحائر: «متى نعود إلى فلسطين»؟ وأعادوا السؤال: «متى نعود إلى فلسطين»؟

فقلت: «نعود إلى فلسطين حينما تهبطون بمظلاتكم على فلسطين، ومن ورائكم كتائب التحرير. واختزلتُ الحديث عن هذا الجواب المختزل».

وشكرتُ الضبّاط العراقيين المدربين، وصافحتُ نسورنا البواسل. وانطلقتْ بي السيارة إلى بغداد، وقد ربطتُ على نواصيهم آمالي وآمال شعب بأسره.

ولكن فرحتي لم تدم طويلاً. لقد زارني وفد من أبناء فلسطين عشية ذلك اليوم ونقلوا إلي نبأً أزعجني إذ إنهم أخبروني بأنهم سمعوا الإذاعة السعودية عند الظهيرة تعلن على لسان متحدّث رسمي باسم وزارة الخارجية بأن المملكة العربية السعودية «ستتوقّف عن دفع التزاماتها للمنظمة ولجيش التحرير، لأن السيد أحمد الشقيري بعد زيارته للصين قد أرسل كتائب من الفلسطينيين إلى فييتنام ليحاربوا إلى جانب الفييتكونغ، بدلاً من أن يخوضوا معركة التحرير في الوطن..».

وقضيتُ الليلة أتقلّب ذات اليمين وذات الشمال على فراشي، لا كما تقضى ليالي بغداد في السرور والحبور. ونهضتُ في الصباح إلى حلاقتي وطعامي، ولا أعرف ماذا أكلتُ وكيف لبست.

وانطلقتْ بي السيارة إلى السفارة السعودية أقفز على درجاتها في جو عاطر من أريج القهوة السعودية. وفاجأتُ السفير الشيخ عبد العزيز الكحيمي مسلّماً محيّياً: «الله بالخير».

وقال: «أنا عاتب على الخارجية العراقية أنها لم تخبرْنا بموعد وصولك إلى بغداد لنكون في استقبالك. إن تكريمك هو تكريم الشعب الفلسطيني».

قلت: «إن تكريمي هو أن تبرق لي هذه الرسالة إلى جلالة الملك فيصل

«وتطرّزها» من عندك بالمقدمة والخاتمة». وكان نص البرقية «جلالة الملك فيصل حفظه الله، لا صحّة إطلاقاً لما ذكرته الإذاعة السعودية عن إرسال جنود من جيش التحرير إلى فييتنام، وأرجو أن تأذنوا لي بزيارتكم، ونحن نرضى بلجنة تحقيق تختارونها جلالتكم للتأكد من الأمر، وحاشا لله أن يموت أبناؤنا خارج وطنهم. وتقبّلوا فائق تحياتي».

تسلّم السفير السعودي مني البرقية، وهو يقول:

«أبشرْ، أبشرْ، يا شيخ أحمد، هذه خدمة بسيطة لفلسطين، ونحن لا ننسى مواقفك في الأمم المتحدة بالنيابة عن السعودية. اللاسلكي مفتوح اليوم مع الرياض. وسنرسل البرقية فوراً. وآمل أن نحصل على الجواب اليوم مساء أو غداً صباحاً. إن جلالة الملك فيصل سريع في الإجابة على برقياتنا. الله يطول عمره. والله ما يتأخر عن خدمة فلسطين وشعب فلسطين».

ونعمت بالقهوة السعودية وبدماثة السفير. وعدتُ إلى الفندق. وسألتُ الاستعلامات عن مواعيد الطيران للسعودية.. لقد كنتُ على مثل اليقين إني سأتلقى جواب الملك فيصل بين عشيّة وضحاها للترحيب بقدومي.

ومضى اليوم الأول والثاني من دون جواب. واتّصلتُ بالسفير السعودي ورجوتُه أن يرسل تأكيداً، فقال:

«التأكيد غير مناسب.. إن طويل العمر لا بدّ أن يكون خارج الرياض».

قلت: «أتظنّ أنه ذهب إلى القنص؟ فأنا أعرف أنه يحبه».

قال: «لا، جلالة الملك لم يعد يذهب إلى القنص بعد أن تولّى الملك».

قلت: «إذاً، ماذا تتصور أن يكون السبب؟ لقد طلبتُ زيارة جلالته وتقضي التقاليد العربية ألا يردّ سائلاً».

قال: «لا داعي للعجلة. وإذا جاءني جواب فسأتّصل بكم فوراً».

ومضى يومان آخران، فلم يتّصل بي السفير. ورأيت أن أصون ماء وجهي، وكم أرقت وجهي من أجل فلسطين، فلم أتصلْ به وما شئتُ أن أحرجه.

وطلبت من الاستعلامات في الفندق أن يحجزوا لي مكاناً في أول طائرة إلى القاهرة بدلاً من الرياض، وأنا أترحّم في نفسي على التقاليد العربية في الجزيرة العربية وطن المروءات والنخوات. وترحّمت على الملك عبد العزيز آل سعود الذي كان يبالغ بالحفاوة بأعدائه قبل أعوانه.

وصلتُ إلى القاهرة، ومن المطار اتّصلت بمدير إذاعة منظمة التحرير وطلبتُ إليه إن يوافيني إلى منزلي. ووصلناه معاً. وأمليتُ تصريحاً باسمي أنفي بشدة أن يكون لنا أي جنود في فييتنام وأننا نقبل بتحقيق من قبل الجامعة العربية أو أية دولة عربية بمفردها». وقال لي المدير: «ألا نشير إلى تعليق الإذاعة السعودية»؟

قلت: «لا تذكر السعودية من قريب أو بعيد، ولا الملك فيصل. أنا حريص ألا يقوم بيننا وبين السعودية أي حوار مهما كان هادئاً، حتى لا يظن أحد أني أريد أن أتحرّش بالملك فيصل بسبب خلافي معه على قضية اليمن يوم كنت أمثّل السعودية في الأمم المتحدة. وفوق هذا وذاك فأنا حريص على توطيد أحسن الصلات مع السعودية، فإنها تستطيع، إذا أرادت أن تؤدي خدمة كبرى للقضية الفلسطينية سياسياً ومادّياً ومعنوياً. ويكفي أن ننفذ إلى العالم الإسلامي عن طريق الحج إذا كان الملك فيصل راضياً عنا».

واستمرّت إذاعة منظمة التحرير تردّد هذا التصريح في نشراتها الثلاث على مدى ثلاثة أيام، وكانت الإذاعة المفضّلة لدى الجماهير العربية. وتأتي بعدها إذاعة صوت العرب والقاهرة. وهذا ما قاله لي الرئيس عبد الناصر غير مرة.

ولم نكتفِ بالإذاعة، بل أرسلْنا مذكرة من مكتب المنظمة إلى الجامعة العربية ووزارات الخارجية العربية بنص التصريح. وأضفتُ إليه أننا في الواقع قد أرسلنا عدداً من ضباطنا إلى الصين الشعبية لا إلى فييتنام، وذلك ليتدرّبوا على حرب العصابات.

ولكن ذلك كله لم يقنع الملك فيصل. لقد دأب في مجالسه يتحدث بهدوئه ووداعته المعروفين بأن «الأخ أحمد له خدمات في القضايا العربية. ولكنه مع الأسف يميل للشيوعيين. وفي زيارته الأخيرة للصين أعلن تضامنه مع المبادئ الشيوعية. وأخيراً أرسل جيش التحرير إلى فييتنام عوضاً عن أن يحارب في فلسطين». ذلك ما نقله إلي واحد من أصدقائي السعوديين الكبار لا أبيح لنفسي أن أذكر اسمه خشية أن تلفّه «الحرية» السعودية بذراعيها العطوفتين!!

تلك كانت بعض مصاعبي في مهدها، مع بعض العواصم العربية. وسأعود إليها في سياق مذكراتي، فقد تضاعفتْ هاتيك المصاعب مع دورة الزمن(٥).

(٥) سيأتي تفصيل ذلك في الجزء الثاني، الذي سيصدره قريباً. (كذا ورد في الأصل).

وكانت حصيلة كل ذلك، أني قضيت أيامي وأعوامي في منظمة التحرير، وفي عنقي ثلاثة عشر حبلاً، يمسكها ثلاثة عشر ملكاً ورئيساً.

وما أشدّ أن يقع المرء في حلبة الصراع حين يكون المتصارعون هم الملوك والرؤساء. وأنكى من ذلك كله أن تكون الضحية قضية فلسطين، وأن يبتلى شعب فلسطين بهذا البلاء.

﴿**إن هذا لهو البلاء المبين**﴾[٦] صدق الله العظيم.

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة الصّافّات،» الآية ١٠٦.

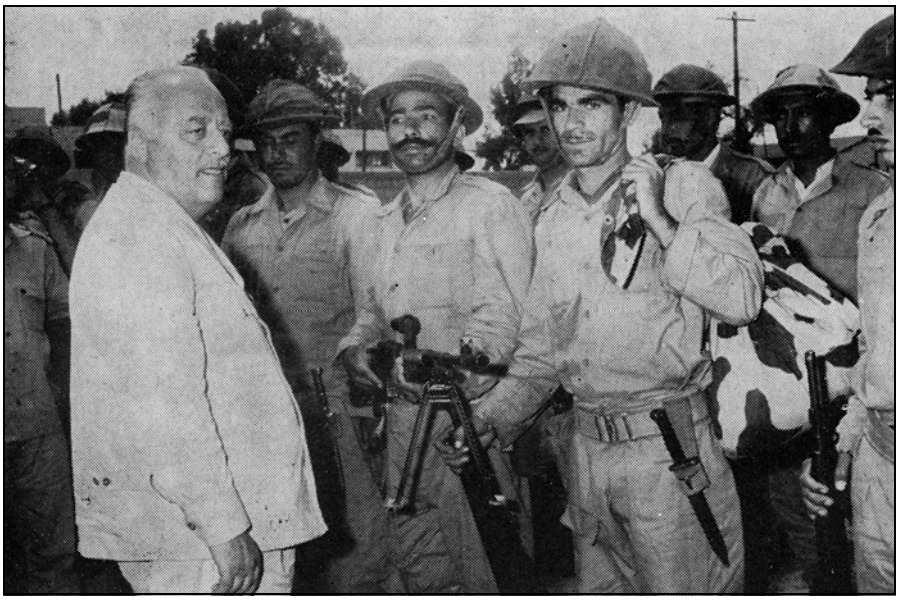

بعد إنشاء جيش التحرير الفلسطيني

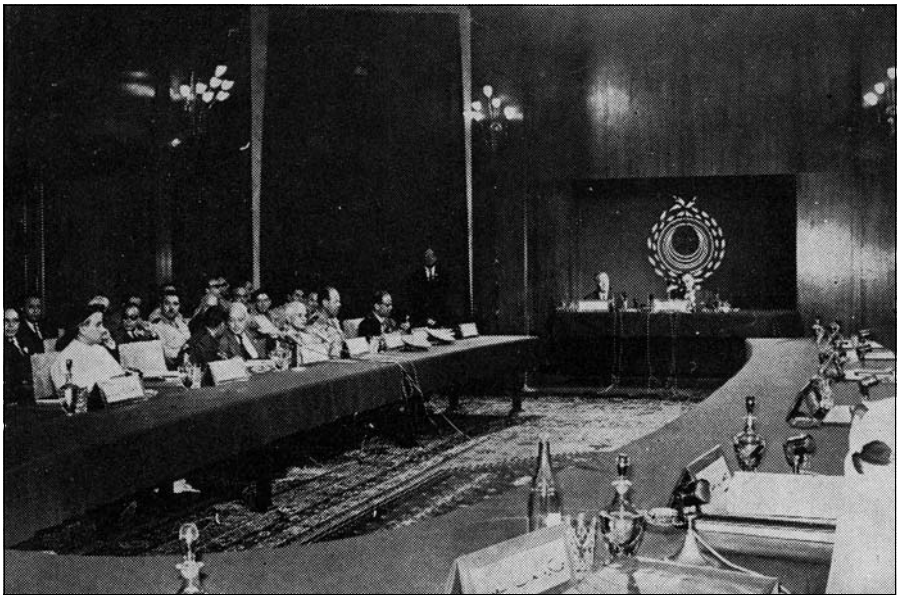

إحدى الجلسات السرية لمؤتمرات القمّة

مع الجماهير في قطاع غزة

في الطريق إلى اجتماع سري للقمة مع أمير الكويت، والرئيس اليمني السابق

مع الفريق أمين الحافظ وقادة الجيش السوري السابقين
في استعراض لجيش التحرير الفلسطيني في دمشق

الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وإلى جانبه الملك حسين
في الطريق إلى جلسة لأحد مؤتمرات القمّة

上，才有眞正的和平共处。同帝国主义侵略政策的产物沒有和平共处可言。为了实现国与国之间的和平共处，必须同以美国为首的帝国主义的侵略政策和战爭政策进行坚持不懈的斗爭。

双方指出，反对以美国为首的帝国主义和新老殖民主义的斗爭，是当前一切被压迫民族和被压迫人民的最迫切的任务。中国人民和巴勒斯坦阿拉伯人民以及阿拉伯各国人民决心进一步团結起来，幷且同全世界一切被压迫民族和被压迫人民进一步团結起来，为反对以美国为首的帝国主义和新老殖民主义而斗爭到底。

最后，双方回顾了在万隆召开的第一次亚非会議以来亚非各国人民在反对帝国主义和新老殖民主义、爭取和維护民族独立的斗爭中所取得的伟大成就。双方表示将继續发扬团結反帝的万隆精神，为开好即将在阿尔及尔举行的第二次亚非会議而共同努力。

中国人民外交学会会长　巴勒斯坦解放組織主席

中国人民外交学会名誉会长

الصفحة الأخيرة من الاتفاقية المعقود بين الصين الشعبية ومنظمة التحرير الفلسطينية وعليها توقيع رئيس وزراء الصين شو آن لاي ، ورئيس المنظمة أحمد الشقيري .

على طريق الهزيمة

مع الملوك والرؤساء

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

على طريق الهزيمة
مع الملوك والرؤساء

أحمد الشقيري

٣

٥ / ١٢١٥

(*) صدر هذا الكتاب في بيروت: دار العودة، ١٩٧٢.

المحتويـــــات(*)

مقدمـة ٧

الملوك والرؤساء يسقطون في الامتحان ١١

مسكينة أنت يا فلسطين! ٢٥

تمخض الرؤساء فولدوا قراراً ٣٧

بالله عليك.. أخبر الملوك والرؤساء بما رأيت ٥٥

حرب الأيام الستة كانت خطتنا! ٧١

الملوك والرؤساء مشوا على رؤوسهم ٩٣

اتفقنا في القاهرة.. واختلفنا في الأردن ١٠٥

عبد الناصر.. سعود.. فيصل.. من غير عنوان ١١٧

سبعون مليون جنيه دين على الملوك والرؤساء ١٣٣

أي جلالة وفخامة؟ وأي سمو وسيادة؟ ١٤٥

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

من الحسين الكبير . . إلى الحسين الصغير ١٥٥
قطعنا شعرة معاوية . . عبد الناصر وأنا ١٩٥
أشبعتهم شتماً . . وراحوا بالإبل ٢٠٥
تعال إلى المسجد الأقصى . . نتعاهد على كتاب الله ٢١٥
«قررنا أن نجتمع في تموز/ يوليو» . . و«انكسرنا في حزيران/ يونيو» ٢٣٥
فيصل وبورقيبة والحسين يتعاونون . . على ماذا؟ ٢٥٣

مقدمّـــــــة(*)

هذا هو كتابي الرابع في سلسلة مذكراتي أقدمه للأمة العربية، بل للتاريخ العربي المعاصر، وقد سبقته كتبي الثلاثة: **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية ـ حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء ـ من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء.**

ويسجل هذا الكتاب أهم الأحداث العربية التي وقعت في عامي ١٩٦٥ و١٩٦٦ حتّى ربيع عام ١٩٦٧، ليقف عند حرب الأيام الستة، وذلك هو الكتاب الأخير في سلسلة المذكرات.

وتدور أحداث هذا الكتاب حول مؤتمر القمة الثالث في الدار البيضاء في خريف عام ١٩٦٥، وما سبقه ولحقه من اجتماعات مجلس رؤساء الحكومات العربية، ووزراء الخارجية العرب، ومجلس الدفاع العربي المشترك، ولا تخلل ذلك من وقائع خطيرة ومواقف مهمة بالنسبة إلى القيادة العربية الموحدة، وقضية فلسطين بصورة خاصة.

ولن أحاول تلخيص مواضيع هذا الكتاب، فإنه بنفسه خلاصة وجيزة للمسيرة العربية التي انتهت بالكارثة الكبرى التي نزلت بالوطن العربي، ولا تزال الأمة العربية تعيش ذيولها الرهيبة إلى يومنا هذا، وأخشى أن أقول: إلى زمن غير قريب.

والآن، أكتب هذه المقدمة، والعدوان الإسرائيلي يدخل عامه السادس، والحكم العربي يتثاءب غارقاً في الضياع في تيه كتيه بني إسرائيل، وسيجد القارئ العربي نفسه وهو يقلب صفحات هذا الكتاب أنّه امام حكم عربي مهلهل هزيل، جاء بعده حكم عربي أكثر هلهلة وأشد هزالاً. وهذا الكلام الصارم العادل لا يخلو من استثناآت

(*) هذه المقدمة كتبها أحمد الشقيري لكتابه **على طريق الهزيمة** الصادر عن دار العودة عام ١٩٧٢، وتسلسل الكتب المذكور فيها مختلف عن التسلسل المعتمد في الأعمال الكاملة الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية.

محددة، من غير شكّ ولا ريب، وكان الظن كُلّ الظن، بل اليقين كُلّ اليقين، أن الحكم العربي سيخرج من الكارثة أكثر وحدة وأصالة، وأصدق إيماناً وأمضى عزماً، فخاب الظن وزال اليقين، وأصبح لا محالة من ميلاد ثورة عربية كبرى تمكّن الأمة العربية الماجدة من إنشاء الحكم العربي الفاضل المناضل والقيم الإنسانية للشعب وللوطن وللمواطن.

وليس من التجني في شيء أن ندين الحكم العربي المعاصر بالجور حيناً، والخيانة حيناً آخر، فإن وقائع هذا الكتاب تثبت بما لا يرقى إليه الشكّ أن الحكم العربي، لا الأمة العربية، هو المسؤول وحده عن الكارثة الرهيبة التي نزلت بالأمة العربية، وهو المسؤول وحده عن بقائها واستمرارها.

ويكفي أن أدعو المواطن العربي إلى أن يقرأ هذه الصفحات قراءة واعية عميقة، وأن يتابع معي مسيرة الملوك والرؤساء ليرى كيف «نجحت» السياسة العربية في قيادة الأمة العربية إلى الهزيمة، وأجهزة الإعلام العربية الرسمية تردد شعارات التحرير، وتلعلع بأناشيد النصر.

ويا ويح الأمة التي تصبح صحافتها وإذاعتها جهازاً من أجهزة الدولة، وأداة من أدوات السلطة. يا ويحها ثُمّ يا ويحها!

وحسبي أن أشير بصورة عابرة إلى بعض الوقائع والأحداث، كيف كانت وكيف صارت.

من هذه الوقائع، مؤتمر الدار البيضاء الذي وضع خطة حربية للانقضاض على إسرائيل وتدميرها في ستة أيام، وكيف أن خطة حرب الأيام الستة قد نفذت فعلاً، ولكن على يدي إسرائيل.

وفي هذه الوقائع، اجتماعات مجلس رؤساء الحكومات التي انعقدت لتنفيذ قرارات الملوك والرؤساء، وكانت حصيلة هذه الاجتماعات الفخيمة أن أصدرت الحكومات العربية قرارات تناشد الحكومات العربية بالتنفيذ. كأنما الحكومات العربية التي تخلفت غير الحكومات العربية التي قررت.

ومن هذه الوقائع، الخطط العامة والتفصيلية لتنفيذ المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن، فسقط المشروع حين سقطت الأرض العربية، وتولت إسرائيل تنفيذ المشروع نيابة عن الدول العربية.

ومن هذه الوقائع، القرارات الهائجة المائجة التي أصدرها وزراء الخارجية العرب بمقاطعة ألمانيا الغربية بسبب تقديمها المعونات الاقتصادية والعسكرية الضخمة

لإسرائيل. وما انتهى إليه الأمر في ربيع ١٩٧٢ من صدور قرار الجامعة العربية «بإطلاق الحرية لكُلّ دولة عربية بأن تعيد علاقاتها بألمانيا الغربية بالطريقة التي تراها مناسبة». قاطعوا جماعة وتراجعوا فرادى.

ومن هذه الوقائع، الاجتماعات الصاخبة التي عقدها مجلس الجامعة العربية للنظر في موضوع افتتاح إسرائيل مبنى الكنيست الجديد في القدس الجديدة. وكيف جاءت حرب الأيام الستة ليسقط بيت المقدس، ويسقط معه التاريخ والحضارة والتراث والكرامة. ولا نجد ما نصفه إلا أن نبكي. ولكن من غير حائط المبكى.

ومن هذه الوقائع، الضجيج العارم حول القيادة العربية الموحدة واختصاصاتها، وهل تدخل القوات العربية إلى الأردن أو لا تدخل؟ وكيف أصبحت الأمة العربية من غير قيادة لا موحدة ولا مبددة؟ . . . ولم يبق من المحيط إلى الخليج قيادة واحدة إلا القيادة الإسرائيلية التي تقود الجيش الإسرائيلي بضباطه وجنوده المهاجرين من إنكلترا وروسيا وفرنسا وأمريكا والهند والحبشة. ومن كُلّ الأجناس والألوان.

وغير هذه الوقائع كثير وكثير.

وكما جرى للكتب الثلاثة السابقة، فإن الكتاب الحاضر، سيمنع بلا ريب من عدد من الدول العربية، ولا غرابة في ذلك، فهذه طبيعة الحكم العربي المعاصر.

إن الحكم العربي المعاصر يخاف على وجوده من الحقّ. ويخاف أن تصل كلمة الحقّ إلى الشعب.

وكما جرى في الماضي كذلك، فإن هذا الكتاب سيصل إلى المواطن العربي في الوطن العربي بأسره، ورغماً عن الدول العربية نفسها، وسيتبادله المواطنون من بيت إلى بيت ليعرفوا الحكم العربي على ضآلته وضحالته.

ثُمّ إن الأجهزة العربية قد تفلح في منع هذا الكتاب عن هذا القطر أو ذاك، ولكن أحداً لن يستطيع أن يمنعه من أن يدخل محراب التاريخ، فإن صاحب هذا الكتاب لا يكتب على قارعة الطريق، ولكنه كان في موكب هذه الحقيقة التاريخية شاهد عيان وسامع آذان. وقد بلغ من العمر مرحلة لم يعد راهباً من شيء، ولا راغباً في شيء.

وإن أعتذر، فلست أعتذر إلا عن شيء واحد. والندم كُلّ الندم يملأ مجامع قلبي ومواقع جوارحي.

أعتذر، وكأنما أجلس على كرسي الاعتراف.

أعتذر عن أكبر خطأ ارتكبته في حياتي العامة عبر أربعين عاماً من عُمري كُلّه.

ذلك الخطأ الكبير هو أني سرت مع الملوك والرؤساء في مسيرة الأعوام الأربعة التي انتهت بحرب الأيام الستة.

ذلك الخطأ الكبير هو أني صدقت الملوك والرؤساء في عام ١٩٦٣ يوم انعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة، ثُمّ سرت في ركبهم في مؤتمر الإسكندرية، وبعده في مؤتمر الدار البيضاء، وأخيراً في مؤتمر الخرطوم. وحمدت الله أني انسحبت من هذا المؤتمر غير آسف ولا نادم.

ولو عادت بي عجلة الزمن إلى الوراء لآثرت أن أعمل مدرساً في «روضة الأطفال» بدلاً من أن أعمل مع الملوك والرؤساء. وإذاً لكان عملي أكثر جدوى، فإن رفقة الأطفال أنفع من رفقة أولئك «الأبطال». والآن، أحمد الله أني في هذه لم أعد رفيقاً للملوك الغابرين والرؤساء المعاصرين، فقد أصبحت رفيقاً للملوك من أمثال صلاح الدين. اجتمع بهم في مكتب لأعيش معهم في أحلى أيام النصر والبطولة، هرباً من العار القائم والهزيمة الماثلة.

ومع هذا، فإن إيماني بالأمة العربية وقدراتها وبسالتها وإيمانها لن يتزعزع. وستزول كُلّ عوامل الهزيمة والخور والفرقة، وسيزول معها الحكم العربي المعاصر لينبثق البعث العربي الجديد رافعاً رايات النصر من جبل الشيخ إلى شرم الشيخ. ومن نهر الأردن إلى ثغورنا في يافا وحيفا وعكا.

ذلكم هو إيمان المؤمنين الذين يؤمنون ويعملون ويتواصون بالحق والصبر.

﴿**والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[1]. صدق الله العظيم.

أحمد الشقيري

حزيران المشؤوم ١٩٧٢

(١) **القرآن الكريم**، «سورة العصر،» الآيات ١ ـ ٣.

الملـوك والرؤسـاء يسقطـون فـي الامتحـان

كان عام ١٩٦٤ هو عام القرارات الفخيمة التي أصدرها الملوك والرؤساء وسط أعظم حملة من الصحافة والإذاعة، والاجتماعات السرية، والمآدب الشهية.

ففي مطلع العام (كانون الثاني/ يناير) انعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة، وفي أخرياته (أيلول/ سبتمبر) انعقد مؤتمر القمة الثاني في الإسكندرية، وعادت بي الذاكرة بعيداً بعيداً. . . ثمانية عشر عاماً إلى الوراء، فتذكرت.

تذكرت أني كنت على مقربة من مؤتمر الملوك والرؤساء والأمراء في زهراء أنشاص (مصر) في أيار/ مايو . . . ١٩٤٦ وتجلّى أمامي الفارق بين العهدين.

كان مؤتمر أنشاص يضم سبعة ملوك وأمراء ورؤساء، كانوا كلهم فقراء في المال، جهلاء في وسائل الإعلام، وشعوبهم قد خرجت مثخنة بالجراح من معارك[١].

وفي مؤتمرات القمة الحديثة، أصبح الملوك والرؤساء ثلاثة عشر، استكملوا سيادتهم واستقلالهم، وكثرت ثرواتهم، واغتنوا في وسائل الدعاية، وتفتحت شعوبهم على قدر كبير من الوعي القومي.

وكان من سوء طالعي، ومعي جيلي الذي عاصرته، أني كنت في ركاب هذه المسيرة الطويلة، في موكب الحكم العربي، وأنا في حيرة من أمري، وفي أزمة كبرى أمام ضميري، أسائل نفسي: هل تقدمنا أم ما زلنا: مكانك راوح؟ كما يقول التعبير العسكري. وكنت أهمس بمخاوفي هذه في آذان من عرفت وصادقت، في مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة، والثاني في الإسكندرية.

وكان السؤال اللحوح اللجوج: هل يكون الملوك والرؤساء في الستينيات خيراً من الملوك والرؤساء في الأربعينيات؟ . . وهل يكون الحكم العربي المعاصر، أكثر جدية

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وصدقاً، من الحكم العربي الغابر، أم إن الحال هو الحال، والرجال هم الرجال.

لقد اشتركت في مؤتمر القمة في القاهرة، وكانت المظاهر بارعة رائعة في التصريحات اللاهبة، في الاستقبالات الحافلة، في النظام البديع، في البروتوكول الرفيع، في الوفود العسكرية، بأوسمتها اللامعة، وبأزيائها البهية، بالحشود الشعبية تلعلع من صفوفها الزغاريد وتنطلق الهتافات[٢].

عشت تلك الأيام وكنت في صميم تحركاتها، فأيقنت، أو على الأصح، جعلت نفسي أوقن. . . أن الحكم العربي قد تبدل، إلى الأحسن والأفضل، عما عرفته قبل عشرين عاماً.

وبعد مؤتمر القاهرة، جاء مؤتمر الإسكندرية، في خريفها الفاتن الجميل، فكانت المظاهر أجل إبداعاً وأسمى روعة، فقد أصبحت للملوك والرؤساء مهارة أكمل، وخبرة أعظم، في تعبئة الجماهير العربية، وخلع قلوبها من صدورها، واقتلاع عيونها من محاجرها، لتكون بين يدي الملوك والرؤساء، أطوع من بنان.

ولكن أصواتاً حرة في الأمة العربية، ومعهم رجال مؤمنون من الصفين الثاني والثالث ممن يجلسون وراء الملوك والرؤساء، كانوا يخافون من أن يكون العمل العربي الرسمي لا يزال في مثل حاله، منذُ أن أصبح للعرب ملوك وأمراء ورؤساء. وكنت في عداد أولئك الخائفين.

ولقد حاول مؤتمر القمة الأول في القاهرة أن يثبت للأمة العربية جدارته، ويؤكد جديته وقدرته، وأن حكام العرب البائدين الذين قامت إسرائيل في عهدهم قد ذهبوا وذهبت معهم مفاسدهم وخياناتهم، وأن هذا الزمان هو زمن العمل الجماعي الموحد، والتضامن العربي المؤكد، والخطط المدروسة المنسقة، والقرارات التي تنفذ من غير إبطاء، وفوق هذا وذاك، فإنه زمن المبادرة العربية الخاطفة لتدمير إسرائيل وتحرير فلسطين.

ومن هنا فقد قرر مؤتمر القمة في القاهرة والإسكندرية، وبصورة إجماعية لا يشوبها تردد أو تحفظ، إنشاء ثلاث مؤسسات عربية: «هيأة الروافد» لتنفيذ المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن، و«قيادة عربية موحدة» لتنسيق الخطط العسكرية العربية، و«منظمة التحرير الفلسطينية» لإعداد الشعب الفلسطيني عسكرياً للقيام بدوره في تحرير وطنه.

---

(٢) أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وتوكيداً لذلك، وإمعاناً من الملوك والرؤساء في إثبات رغبتهم في تنفيذ قراراتهم «الضخمة»، فقد ابتدعوا أسلوباً جديداً للتنفيذ والتطبيق، لم يسبقهم إليه الذين سبقوهم من الملوك والرؤساء. ومن هنا فقد اهتدى البارعون في صناعة الإلهاء، فصاغوا للأمة العربية قراراً جديداً هو البند السادس من قرارات مؤتمر القمة العربي في القاهرة، تغريني عباراته الجميلة أن أنقله بنصه:

«سادساً: المتابعة والتنفيذ ـ يقرر الملوك والرؤساء أن تشكل لجنة خاصة برئاسة الأمين العام للجامعة العربية عن ممثلين لملوك ورؤساء الدول الأعضاء، منضماً إليها ممثل فلسطين لدى مجلس الجامعة ويكون اختصاصها:

١ ـ متابعة تنفيذ القرارات السابقة الذكر «وهي القرارات العسكرية والمالية والسياسية المتعلقة بقضية فلسطين.

٢ ـ وضع الخطط اللازمة لاسترداد فلسطين إلى أهلها مستخدمين الوسائل السياسية الاقتصادية والإعلامية، وخاصة لمنع إسرائيل من تحويل مياه مجرى نهر الأردن، وتجتمع دورياً بدعوة من الأمين العام، وتقدم تقريراً بنتائج كُلّ اجتماع لها إلى رؤساء الدول».

ويلفت النظر في هذا القرار أن «لجنة المتابعة» تتمتع باختصاص خطير في القضية الفلسطينية، ويزيد من خطورته أن أعضاءها متصلون بالملوك والرؤساء مباشرة، يرفعون إليهم التقارير ويتلقون منهم الأوامر.

وقد زاد على ذلك مؤتمر القمة العربي في الإسكندرية، بأنه قرر «بأن تنعقد لجنة المتابعة على مستوى رؤساء الحكومات العربية مرتين في العام لتنفيذ قرارات الملوك والرؤساء».

وجاء عام ١٩٦٥ من أوله إلى آخره ليكون بمثابة الامتحان الأول للملوك والرؤساء، يوضعون فيه على «المحكّ» لتعرف الأمة العربية مبلغ صدقهم وإخلاصهم في تنفيذ قراراتهم. وانعقدت لجنة المتابعة من ممثلي الملوك والرؤساء بضع عشرة مرة، كما انعقدت على مستوى رؤساء الحكومات العربية مرتين للتنفيذ، ولا شيء غير التنفيذ.

وقد حضرت هذه الاجتماعات كلها، فكانت لجنة الممثلين للملوك والرؤساء تجتمع مرة في كُلّ شهر، وعقد مجلس رؤساء الحكومات العربية اجتماعه الأول في كانون الثاني/ يناير، واجتماعه الثاني في أيار/ مايو، وتوسطهما اجتماع وزراء الخارجية العرب في آذار/ مارس.

وعدت بالذاكرة أربعين عاماً إلى الوراء، حينما كنت طالباً «نجلس» للامتحان

الشهري مرة كُلّ شهر، وللامتحان الفصلي، مرة عند كُلّ فصل من فصول السنة. وها نحن الآن نلتقي للامتحان الشهري والفصلي، لنقول للملوك والرؤساء «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان».

وانعقدت لجنة الممثلين للملوك والرؤساء في اجتماعاتها الشهرية، فكانت هذه الامتحانات الشهرية فاشلة في مظهرها وجوهرها.

في مظهرها، لأنها أخذت طابع الجامعة العربية في اجتماعاتها التقليدية التي أورثت الأمة العربية السأم والضجر... ولقد كان من المفروض حين فكر الملوك والرؤساء في إنشاء لجنة المتابعة أن يكون لكُلّ ملك أو رئيس «ممثل خاص» يستطيع أن يعبّر عن رأيه وسياسته، ولكن سرعان ما انقلب الأمر عند التطبيق إلى اختيار سفراء الدول العربية في القاهرة ممثلين شخصيين للملوك والرؤساء، باستثناء الملك حسين، فقد اختار بهجت التلهوني لفترة قصيرة من الوقت، ولم يكن رئيساً للوزراء، والرئيس جمال عبد الناصر، فقد اختار د. حسن صبري الخولي ممثلاً له، واستمرّ يؤدي هذه المهمة حتّى «صفيت» لجنة المتابعة في أعقاب حرب حزيران/ يونيو... في جملة ما صفي من خطط الملوك والرؤساء.

والواقع أن د. الخولي كان الوحيد بين الممثلين الشخصيين في أشياء كثيرة. كان الوحيد بين الممثلين لمهمته، وكانت لديه ملفات ودراسات، وكان يحضر بانتظام، وكانت التعليمات بين يديه على الدوام من الرئيس عبد الناصر مباشرة. ولو كان الممثلون الآخرون في مثل حاله، لو... لاستطاعت لجنة المتابعة أن تنجز شيئاً غير الخيبة التي أفلحت في تحقيقها. ولكن كان طبيعياً ألا تنجز اللجنة على هذا الشكل أية إنجازات تتفق واختصاصاتها الخطيرة، كما وردت في قرار مؤتمر القمة، فالسفراء العرب في القاهرة الذين كانوا أعضاء هذه اللجنة يتحملون مسؤوليات متعددة في مكاتبهم، ورعاية مصالح دولهم، والاجتماع بزملائهم السفراء والأجانب، وأخيراً لا آخراً، فإن على السفراء العرب الانتظار ساعات في المطار لاستقبال الضيوف العظام الوافدين على القاهرة، ليلاً ونهاراً. وما أكثرهم.. والضيوف العرب أكثر من الهمّ على القلب، كما يقول المثل العامي.

ولا أعلم أننا استطعنا مرة واحدة أن نعقد جلسة واحدة في موعدها. وتمضي الساعة والساعتان ونحن بانتظار هذا السفير لأنه كان مشغولاً بمكالمة هاتفية مع عاصمة بلاده، وذلك السفير لأن إعداد الحقيبة الدبلوماسية استنفد وقته، وذاك السفير لأن عجلة السيارة «فرقعت»، وتفرقعت معها لجنة المتابعة التي تمثل أصحاب الجلالة والسمو والفخامة والملوك والرؤساء.

ذلك من حيثُ المظهر، أما الجوهر فهو خال من الجوهر. فالجلسة تبدأ بتلاوة تقرير الأمين العام عبد الخالق حسونة، وهو لا يعدو أن يكون سرداً لقرار القمة، وتلخيصاً للأحداث الجارية مأخوذاً عن الصحف ووكالات الأنباء، ويعلن التقرير في النهاية الخاتمة المألوفة «والأمر معروض على لجنتكم الموقّرة للنظر، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام».

وكم تمنيت المرة بعد المرة أن يكون تقرير الأمين العام متضمناً اقتراحات معينة أو دراسات معدّة، كما يفعل الأمين العام للأمم المتحدة، ولكن شيئاً من ذلك لم يقع، فحسونة لا يريد أن يأخذ زمام المبادرة في أي شيء. والدول العربية لا تعطي أمينها العام في القاهرة ما تعطيه لأمينها العام في نيويورك. وبهذا أصبحت الأمانة للجامعة العربية «مكتب بريد يستقبل المذكرات من الدول العربية»، ثُمّ يعيد طبعها ويوزعها على الدول العربية، في حين أن الأمانة العامة في الأمم المتحدة لها دور كبير في معالجة الأمور المهمة، وبصورة إيجابية.

وكذلك الممثلون الشخصيون، فإنهم يستمعون إلى تقرير الأمين العام، ويستمعون إلى بعضهم البعض، وهم يعلّقون على الأحداث الجارية: عدوان إسرائيل الغاشم، موقف أمريكا الرذيل، فشل الأمم المتحدة، وما إلى ذلك من الأحاديث الشائعة التي يتداولها عامة الناس في المقاهي، ولكن على مستوى أدنى.

أما قرار الملوك والرؤساء الذي عهد إلى لجنة المتابعة تنفيذه، وهو «وضع الخطط اللازمة لاسترداد فلسطين لأهلها، مستخدمين الوسائل السياسية والاقتصادية والإعلامية»، فلم يشغل بال أعضاء اللجنة، ولا ألومهم، لأن الملوك والرؤساء، أصلاً لم يضعوا خططهم وأفكارهم أمام ممثليهم، وبالتالي فإن فاقد الشيء لا يعطيه، كما يقول فقهاؤنا العظام، وما أروع ما قالوا، رحمهم الله.

ومع هذا، فقد كنت أشغل كثيراً من وقت اللجنة حتّى لا يمرّ عاطلاً باطلاً، ذلك أن منظمة التحرير وإنجازاتها الإعلامية والسياسية والتنظيمية والعسكرية كانت موضوع تقاريري الشهرية المتوالية، أقدمها إلى الممثلين الشخصيين ليرفعوها إلى الملوك والرؤساء، ليروا أين وصلنا في هذه المسيرة. وما كان أشقى تلك المسيرة!

وقد أصبح تقليداً دائماً للمنظمة أن أنهي تقاريري بمناشدة الحكومات العربية بدفع التزاماتها المالية، وبتسهيل مهمة المنظمة، وبرفع القيود عن الفلسطينيين بالنسبة إلى السفر والإقامة والعمل. وكان من تقاليد الممثلين للملوك والرؤساء، بدورهم، أن يصدروا القرار المألوف «بمساندة المنظمة مادياً ومعنوياً، ومناشدة الدول العربية بدفع التزاماتها»، وكأنهم يخاطبون دولاً لا يمثلونها.

ذلك كان أمر لجنة المتابعة على مستوى الممثلين الشخصيين، أما أمرها على مستوى رؤساء الحكومات العربية، فلا بُدَّ من أن نقف قليلاً أمامه نتبين صورته. فقد اجتمع رؤساء الوزارات مرتين في عام ١٩٦٤، وتوسطهما اجتماع وزراء الخارجية. وكانت الأمور المعروضة على هذه الاجتماعات في غاية الخطورة.

ففي مطلع عام ١٩٦٥ (٩/ ١/ ١٩٦٥) توافد رؤساء الحكومات العربية على القاهرة ومعهم وزراء الخارجية والدفاع العرب، وتفننت الأمانة العامة للجامعة، وأبدعت، فأسمت الاجتماع «مجلس رؤساء الحكومات العربية» على نسق «مجلس ملوك ورؤساء الدول العربية» لتوهم الجماهير العربية أن جديداً قد طرأ على الحياة العربية، وأن الأمور ليست كالعهد البائد، فقد تبدل كُلّ شيء، وأصبحت الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، والملوك غير الملوك، والرؤساء غير الرؤساء، ومن ذاق عرف!

وبدأت الجلسة الأولى علنية في القاعة الكبرى للجامعة العربية، وتدافع الصحافيون ومراسلو وكالات الأنباء الأجنبية يلتقطون صور رؤساء الحكومات العربية، بين باسم، وجاد، ومقلب لأوراقه، أو ممسك بقلمه ونظارته، وجو التفاؤل يسود الجميع، فهذا أول اجتماع «تنفيذي» لرؤساء الحكومات العربية لتطبيق قرارات مؤتمري القمة في القاهرة والإسكندرية. فاشرأبت الأعناق وتطلعت الأبصار.

وكانت رئاسة الجلسة لسوريا، فافتتح الاجتماع د. نور الدين الأتاسي بخطاب «بليغ» أكد فيه «أن سوريا تضع كُلّ إمكاناتها البشرية والمادية من أجل قضية العرب الأولى في فلسطين، وهي مصممة على أن تخوض المعركة المقدسة بالتعاون مع الأقطار الشقيقة الأخرى»، وأنه يرجو بصدق «أن يكون جيش التحرير الفلسطيني قادراً على جمع الطاقات المتوفرة لدى الشعب الفلسطيني ليكون طليعة للجيوش العربية».

وتكلم بعده عبد الخالق حسونة، الأمين العام للجامعة العربية، الكلمة التقليدية عن التضامن العربي، وتضافر الجهود، وسائر هذه المعاني التي لم تكن قائمة بين الدول العربية منذُ أن وقعت حرب فلسطين عام ١٩٤٨، إلا على الورق في محاضر الجلسات.

وانتهت الجلسة العلنية، وخرجنا إلى الصالة المجاورة «للاستراحة» كأننا قد بذلنا جهداً نستحق عليه الاستراحة. وسألني د. نور الدين الأتاسي:

قال: «عسى أن يكون قد أرضاك موقف سوريا. لقد حدّدنا الموقف في خطابي. ولم نغفل جيش التحرير».

قلت: «يا أخي نور الدين، ليتك تقنع الحكومة السورية أن تدفعوا التزاماتكم المالية لجيش التحرير، حتّى يستطيع أن يؤدي الدور الطليعي الذي أشرت إليه،

وخاصة أنك أعلنت الآن في خطابك بأن سوريا تضع كُلّ إمكاناتها البشرية والمادية. نحن نريد القليل من هذه الإمكانات».

قال: «وهل الدول العربية الأخرى تدفع؟».

قلت: «دفع البعض، ووعد البعض الآخر. ويجب أن تكون سوريا في الطليعة. على الأقل ادفعوا رواتب قوات جيش التحرير الفلسطيني الموجودة في سوريا! ولكن هنالك ما هو أهم من الرواتب».

قال: «وماذا؟».

قلت: «لقد تمنيت في خطابك في جلسة الافتتاح أن يكون جيش التحرير «قادراً على جمع الطاقات المتوفرة للشعب الفلسطيني»، فأنا أطالب حكومة دمشق ألا تتدخل في شؤون جيش التحرير، وأن تيسّر للمنظمة السيطرة الكاملة على جيش التحرير ضباطاً وجنوداً حتّى نستطيع أن نحقق الغاية التي تمنيتها سيادتك».

قال: «وهل جيش التحرير الفلسطيني في قطاع غزة تحت سيطرتكم الكاملة؟ أليست القاهرة صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في شؤون جيش التحرير؟».

قلت: «صحيح أنّه ليست لنا سيطرة كاملة على جيشنا في غزة، ولكننا نمارس كثيراً من السلطة عليه. وليت دمشق تعاملنا كما تعاملنا القاهرة».

قال: «هذه أمور لا أستطيع أن أبتّ فيها. لا بُدَّ من عرضها على قيادة الحزب».

قلت: «لقد مضى علينا عامان ونحن نناشد الحزب أن يقوم بين المنظمة والبعث تعاون قومي صادق»[٣].

قال: «لا أمل في التعاون ما دامت المنظمة تابعة للقاهرة، ولعبد الناصر».

قلت: «أنا لست تابعاً للقاهرة ولا لعبد الناصر».

قال: «الأمر يحتاج إلى برهان».

قلت: «وما هو؟».

قال: «تترك القاهرة، وتأتي إلى دمشق، ونحن نضع تحت تصرفك الإذاعة وكُلّ أجهزة الدولة».

قلت: «أريد أن أعمل مع القاهرة ودمشق. وكُلّ رجائي ودعائي ألا تتمزق القضية الفلسطينية على مسرح الصراعات العربية».

---

(٣) المصدر نفسه.

واقترب منا الحاج حسين العويني، رئيس وزراء لبنان، وقال د. الأتاسي: «وهل دفع لبنان التزاماته المالية؟».

قلت: «نعم دفعها كاملة للمنظمة وللجيش».

فقال الرئيس العويني: «نحن لسنا دولة ثورية، ولكننا ندفع التزاماتنا في مواعيدها». وأوشك العويني والأتاسي أن يدخلا في حوار بينهما، حتّى جاء حسونة وراح «يلمّ» الوفود ويدعوهم إلى الاجتماع السري في صالة اللجنة السياسية.

وجلسنا في الصالة نفسها، أمام الطاولة المستديرة نفسها، وعلى المقاعد إياها، وأنا أكاد أسمع الجدران وهي تئن من المداولات «السرية» التي تعرفها منذُ أن قام هذا المبنى الجديد للجامعة العربية على أرض الثكنات العسكرية البريطانية التي كانت في عهد الاحتلال البريطاني. وإنه ليفجعني أن أفكر في الفارق بين الحالين، جدية ونظاماً.

وتوالت الاجتماعات على مدى ثلاثة أيام، رؤساء الحكومات العربية على هيئة سياسية، ووزراء الخارجية والدفاع على هيئة مجلس الدفاع العربي المشترك، والصحافة والإذاعات العربية ترسل إلى الرأي العام العربي سيلاً مدراراً من التصريحات، أو من القيء والإسهال، سواء بسواء. ولا أعتذر عن هذا التعبير البذيء.

وكان أول ما واجهه رؤساء الحكومات موضوع تحويل الروافد، وفي مقدمة ذلك مشكلة الموقع. موقع محطة الضخّ الرئيسيّة لنهر الوزاني، وهل تكون على الأرض اللبنانية، أم داخل الأراضي السورية؟ وقد حاول رئيس وزراء لبنان الحاج حسين العويني ووزير خارجيته فيليب تقلا أن يكون هذا الموقع في الأرض السورية. ولكن تكاثر الخبراء والفنيون وباقي رؤساء الحكومات على لبنان. ولم تنفع لباقة «تقلا» الوزير اللبناني، ولا مرافعته بالعربية الفصحى.

وأحسّ الحاج حسين العويني رئيس وزراء لبنان أن كُلّ «شطارة» الجامعة العربية قد وقعت على رأس لبنان، فخلع الشيخوخة عن أكتافه وقال في حماسة الشباب: «إننا مستعدون لكُلّ طارئ. وإن كان في نية العدو الإسرائيلي أن يتوسع على حسابنا، فإني أقول له ما قاله الشاعر العربي:

فقلت التمس يا ليث غيري طعاماً إن لحمي كان مرّا

وسأل رئيس وزراء السودان أحمد محمّد محجوب: من يعني بكلمة «غيري»؟ فتدخلت لأنقذ الموقف وقلت: «المعنى في بطن الشاعر، لا في بطن الراوي. والحاج حسين راوية لا شاعر. ولكن كان ينبغي أن تسأل الحاج حسين من يعني حين أنشد «إن لحمي كان مرّاً»، هل لحم الحاج أم لحم لبنان»! وكانت الابتسامات هي الجواب.

ومن الشعراء والرواة، انتقلنا بعد ذلك إلى مشكلة نقل القوات العربية إلى الأرض اللبنانية، وفق ما تقترحه القيادة العربية الموحدة لحماية مشروعات التحويل، وثار جدل طويل، أيما طول! وتعلل الوفد اللبناني بأن دستور بلادهم يحول دون ذلك. وتكاثر الخبراء الدستوريون ورؤساء الحكومات العربية على لبنان «الضعيف» مرة ثانية، ووافق الوفد اللبناني على قرار بأن «تحصل الحكومة على صلاحية مسبقة من مجلس النواب اللبناني تخوله الموافقة على إدخال قوات عربية دفعاً لأي اعتداء محتمل قد تقوم به إسرائيل».

وانتقل الرؤساء بعد ذلك إلى معالجة مشكلة أهم وأوخم. ولم يكن لبنان «الضعيف» هذه المرة سبب المشكلة، ولكنه الأردن. فلقد أعلن الوفد الأردني ببساطة ومن غير مبالاة أنّه يعارض دخول القوات العراقية والسعودية إلى الأراضي الأردنية، وكانت القيادة العربية الموحدة قد أصدرت توصية بذلك، «لدعم الجيش الأردني في مواجهة أي عدوان يمكن أن تقوم به إسرائيل تحدياً للمشروع العربي لتحويل مجرى نهر الأردن». وهذا هو قرار القيادة العربية بالنصّ والحرف.

ووضع الفريق عامر، القائد العام للقوات العربية الموحدة، خرائط على الطاولة وأخذ يشرح الموقف العسكري، وتولى معاونه اللواء عبد المنعم رياض إيضاح الأسباب التي تدعو إلى «مركزة» القوات السعودية والعراقية في داخل الأراضي الأردنية.

وأعلن الوفدان العراقي والسعودي «أن قواتهما محتشدة منذُ زمن خارج الأراضي الأردنية، تنتظر الإذن لاتخاذ مراكزها داخل الأراضي الأردنية لتعزيز الجيش الأردني».

وتحدث اللواء عامر خماش، رئيس الأركان الأردني، مفنداً آراء الفريق علي عامر. وامتد الحوار بين العسكريين، ورؤساء الحكومات العربية ساكتين، وفيهم عسكريون، سابقاً أو لاحقاً، مثل زكرياً محيي الدين، رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة، والفريق طاهر يحيى الدين، رئيس الوفد العراقي. ورفعت يدي أستأذن بالكلام، والرؤساء يعجبون، ما عسى أن يقول هذا «المدني» الذي قضى معظم عمره في المحافل الدولية في الأمم المتحدة.

قلت: «نقطة نظام، يا سيدي الرئيس. إن الحوار أمر طبيعي في مثل اجتماعاتنا، ولكني أحب أن أسأل: هل القيادة العربية الموحّدة لجنة استشارية من حقنا أن نناقشها ونجادلها؟ وهل عينّ الملوك والرؤساء الفريق عامر مستشاراً عاماً أم قائداً عاماً؟ وما معنى مخالفة مطالب القيادة الموحدة، ونحن ما زلنا في أول الطريق. ولم ندخل المعركة بعد»؟

وقال العقيد هواري بومدين، رئيس الوفد الجزائري: «هذا سؤال جوهري، إذا كانت القيادة الموحدة لا تنفذ توصياتها، فما الفائدة من إنشائها؟ ونحن في الجزائر لا

يمكن أن نوافق على مثل هذه التناقضات، ولا يمكن أن نسمح للأمور العسكرية بأن تخضع لهذه المجادلات».

واستأنفت حديثي وقلت: «إن الفرق بيننا وبين إسرائيل أن إسرائيل لها خطة واحدة تنفذها قيادة واحدة. لقد أعلنت إسرائيل منذُ أسبوع (٦/ ١/ ١٩٦٥) أنها بدأت في بناء خزان لتحويل مياه الأردن من بحيرة طبريا إلى صحراء النقب، وتبلغ مساحة الخزان ٢٥٠ هكتاراً. ونحن هنا ثلاث عشرة دولة نجتمع اليوم، لنجادل القيادة الموحدة التي أنشأناها بالأمس. والموضوع المطروح أمامنا الآن هو: أن تخضع المملكة الأردنية الهاشمية لقرار القيادة العربية الموحدة. وهذا هو الموقف بكل بساطة، وليس للوفد الأردني أن يجادل أو يناقش».

واستأنف العقيد هواري بومدين ملاحظاته قائلاً: «أعتقد أننا إذا لم نفكر تفكير دولة واحدة فإن العاقبة وخيمة. والقيادة العربية الموحدة إما أن تكون أو لا تكون».

ورفع رئيس الأركان الأردني يده يريد الكلمة، وساد المجلس جو من الوجوم، وتدخل الرئيس وأعلن تأجيل الاجتماع لنصف ساعة للاستراحة.

و«الاستراحة» مادة غير مكتوبة في النظام الداخلي للجامعة العربية، ولكنها تستخدم على الدوام لفضّ المنازعات، وللتهرب من المسؤوليات، وتفريج الأزمات.

وتفرق المجتمعون في الصالة المجاورة يطوف عليهم «ولدان» الجامعة بأكواب القرفة والشاي، والجامعة العربية ومقهى الفيشاوي في القاهرة فرسا رهان في تقديم أجود المشروبات وأزكاها مجاناً من غير ثمن!

ودارت المداولات الجانبية، وجلسنا حلقة صغيرة: العقيد هواري بومدين، وسرّ الختم خليفة رئيس الوزراء السوداني، وأنا، فقال الرئيس السوداني:

«أنت تعرف المناطق التي يجري فيها تحويل مجرى الأردن، وما رأيك في الموضوع برمته؟».

قلت: «لا بُدَّ من أنكم تلاحظون أن منظمة التحرير لا تبدي رأيها في الموضوع في الجلسات لأسباب متعددة. نحن لا نؤمن بهذا المشروع. إن تكاليفه باهظة والأجدى أن تنفق على تسليح الجيوش العربية، ومن ناحية فنية إن المشروع لا يحرم إسرائيل إلا من جانب ضئيل من المياه. وهو لا يبعد كثيراً عن مشروع جونسون الأمريكي الذي سبق أن رفضته الدول العربية، ومن ناحية عسكرية فإن إسرائيل قادرة على الدوام على أن تدمر المشروع العربي، حتّى ولو كنا متفوقين عسكرياً على إسرائيل، لأن التدمير من أسهل العمليات العسكرية».

وقال العقيد بومدين: «هذا صحيح. إن تدمير المشروع العربي لا يحتاج إلى أكثر من قنبلة واحدة، ولكن ماذا ترى. ماذا تقترح؟».

قلت: «الرأي السديد أن نقوم نحن بتدمير التحويل الإسرائيلي بدلاً من أن ننشئ التحويل العربي وتدمره إسرائيل. وأعني بكلمة «نحن» الشعب الفلسطيني».

وأخذت أشرح أن التدمير هو الأسهل والأرخص. وجاء حسونة يدعونا إلى الاجتماع وهو يقول: اتفق «الإخوان» على صيغة مقبولة وجميلة!

وعدنا إلى الاجتماع، فأعلن رئيس الجلسة بعد الديباجة عن تفاهم «الإخوان» على مشروع قرار يقول بأن «المجلس أحيط علماً بوجهة نظر القيادة العربية الموحدة، وهو إذ يقدر موقفها ويؤيديها فيه، يقرر رفع هذا الموضوع إلى مجلس الملوك والرؤساء الذي سيعقد في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٥ في الدار البيضاء».

وتمت الموافقة على هذا القرار، ولكن بالصمت الرافض. وكان الفريق علي عامر يجلس إلى جواري، فقلت له: «إن معنى هذا القرار أن تبقى القوات السعودية والعراقية خارج الأردن حتّى الخريف، وأن يبقى المشروع العربي من غير حماية. وأن يظل المشروع إلى ذلك الوقت تحت رحمة الطائرات الإسرائيلية».

واستأنفت حديثي، وقلت للفريق عامر:

«لا شكّ في أنك سمعت التصريحات الإسرائيلية، فقد صرح ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل قبل يومين (١١/ ١/ ١٩٦٥) «أن إسرائيل تعتبر المياه مسألة حيوية كالدم الذي يجري في عروقنا وسنتصرف طبقاً لذلك». وأعلن إسحاق رابين رئيس الأركان الإسرائيلي صباح اليوم (١٣/ ١/ ١٩٦٥) أن إسرائيل «ستعمد إلى القوة لمواجهة المشروعات العربية». وناولت الفريق عامر قصاصة هذه التصريحات، وهو يقول: «إيه نعمل؟ لنا الله».

قلت: ولكن الله يقول: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوَّة**﴾[٤]، وهذا الأردن يقول «وبددوا ما عندكم من قوة».

وخرج الفريق على عامر، القائد العام للقوات العربية الموحدة، ومعه معاونه اللواء عبد المنعم رياض من القاعة، ومعهما الملفات والخرائط. خرجا إلى مصر الجديدة حيثُ مقر القيادة العربية الموحدة ليسجلا أول هزيمة في أول معركة، لا ضدّ إسرائيل، ولكن ضدّ الأردن!

---

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٦٠.

وهكذا قدر للقوات السعودية والعراقية أن تبقى محتشدة في الصحراء بعيدة عن الحدود الأردنية، تنتظر مصيرها الذي ينتظرها في مؤتمر الدار البيضاء في خريف ذلك العام. ولكل خريف حديث.

وانتقل المجلس بعد ذلك إلى بحث موضوع علاقة الدول العربية بألمانيا الغربية، وتلا حسونة تقريره عما تقدمه ألمانيا لإسرائيل من معونات مالية وعسكرية وما تعتزمه ألمانيا من الاعتراف بإسرائيل وإقامة علاقات دبلوماسية معها.

وانبرى رؤساء الحكومات يندّدون بألمانيا الغربية، ويقرأون ما في ملفاتهم من بيانات عن المساعدات المالية والعسكرية التي قدمتها ألمانيا لإسرائيل، ولا تزال.

وانتهى دور الاستعراض ـ استعراض الموقف ـ وجاء دور استعراض العضلات، وقالوا للدكتور نوفل، أمين الجامعة المساعد: «أكتب لنا صيغة قرار مناسب».

قال: «وماذا أكتب؟».

قالوا: «أكتب ما تراه مناسباً على ضوء مناقشاتنا».

وكتب «المسكين» د. نوفل قراراً فيه إنذار إلى ألمانيا الغربية بقطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية إذا اعترفت بإسرائيل.

قالوا: «نحن لم نتفق على هذا، إن قطع العلاقات مرحلة لم يأت وقتها بعد، يكفي الآن أن نقرر: «تكليف الأمين العام بمراقبة تطورات الموقف بغية اتخاذ موقف عربي موحّد».

قلت: «أرجو أن ألفت نظر الرؤساء إلى أن هذا الموضوع قديم يرجع عهده إلى ما يزيد على عشرة أعوام، وقد اتخذ المجلس بشأنه قرارات متعددة، ولا يصحّ في عهد مؤتمرات القمة أن يعالج هذا الموضوع الخطير بمثل هذا القرار «الشفاف»».

فقال رئيس الجلسة: «وما هي هذه القرارات السابقة، عسى أن نستأنس بها؟».

قلت: «إن ملف الموضوع هو أمامي، وقد رافقت الموضوع منذُ أن كنت أميناً مساعداً للجامعة العربية. وها أنا أضع أمامكم الوقائع كاملة».

في ٢٩/ ١١/ ١٩٥٤ قرر مجلس الجامعة «أن تبذل الحكومات العربية المساعي اللازمة لإحباط سعي إسرائيل لعقد قرض بمائة مليون دولار من الحكومة الألمانية، وخمسة وثلاثين مليون دولار من البيوتات المالية».

وفي ١/ ١٢/ ١٩٥٤ قرر المجلس «أن تبذل الحكومات العربية المساعي لدى حكومة ألمانيا الاتحادية للحيلولة دون حصول إسرائيل على القرض، وأن تنبّه البنوك

التي يمكن أن تلجأ إليها إسرائيل إلى أن الحكومات العربية لن تسمح لها بممارسة أعمالها في بلادها إذا منحت قرضاً لإسرائيل».

وفي ١٤/ ١٠/ ١٩٥٥ قرر مجلس الجامعة «مواصلة السعي الدبلوماسي لدى ألمانيا الاتحادية لإحباط محاولة إسرائيل الحصول على قرض منها، وكذلك تبصير الرأي العام بالاتجاهات الخطرة في سير تطبيق اتفاقية التعويضات الألمانية لإسرائيل».

وفي ١٧/ ١١/ ١٩٥٧ قرر مجلس الجامعة بأن «يتابع ممثلو الدول العربية في بون عن كثب مسألة اعتزام ألمانيا الغربية تبادل التمثيل الدبلوماسي مع إسرائيل، وأن يستمروا بالاتصال بحكوماتهم وبالجامعة العربية لاتخاذ التدابير اللازمة في هذا الشأن».

وفي ٧/ ٩/ ١٩٦٠ قرر المجلس إعادة «بذل المساعي الحثيثة اللازمة لدى الحكومة والبنوك والشركات الألمانية للحيلولة دون إعطاء إسرائيل القروض المطلوبة مع تبيان العواقب الخطيرة التي تترتب على متابعة الحكومة والمؤسسات الألمانية تقديم المساعدات لإسرائيل، وما تنطوي عليه هذه السياسة من تهديد للمصالح العربية، وتصميم الدول العربية على مقاومتها بشتى الوسائل».

وفي ٢/ ٤/ ١٩٦٣ قرر مجلس الجامعة «توجيه نظر حكومة ألمانيا الاتحادية إلى ما يترتب على تقديم المساعدات المالية والعسكرية لإسرائيل من أضرار جسيمة بالعلاقات العربية ـ الألمانية، وأنه في حالة حدوث تطورات جديدة في علاقات ألمانيا الغربية بإسرائيل أو عدم الاستجابة للمساعي العربية ستضطر الدول العربية إلى إعادة النظر في العلاقات العربية ـ الألمانية».

وبعد تلاوة هذه القرارات الستة التي أصدرها مجلس الجامعة على مدى عشر سنوات، ناشدت المجلس أن يقدم للأمة العربية قراراً عملياً جديداً، وخاصة أن هذا هو أول اجتماع توضع فيه قرارات مؤتمر القمة موضع الاختبار . . وختمت مناشدتي قائلاً: «إنني أريد أن أسألكم لا كرئيس منظمة التحرير الفلسطينية فحسب، ولكن كمواطن عربي: ما معنى عبارة «اتخاذ موقف عربي موحّد» التي تقترحونها في قراركم الحالي؟ ما هو هذا الموقف الموحد؟ أخشى ألا يكون هناك موقف. أي موقف. لا موحّد ولا مبدد». فأجابني رؤساء وفود المغرب وتونس وليبياً: «لماذا نستبق الحوادث؟ لكُلّ حادث حديث . . . إذا اعترفت ألمانيا بإسرائيل فبإمكاننا أن نتخذ موقفاً عربياً موحداً. ومن الممكن أن نفوض الأمين العام، من الآن بأن يدعو وزراء الخارجية إلى اجتماع عاجل».

قلت: «لقد أعلن الملوك والرؤساء مبدأ مهماً وخطيراً: «أن نحدد علاقتنا بالدول الأجنبية في ضوء موقفها من قضية فلسطين»، وإذا كان رؤساء الحكومات العربية يعقدون اجتماعهم الأول بعد القمة ولا يطبقون هذا المبدأ، فمن الذي يطبقه،

ومتى يحين الوقت لتطبيقه؟». ولكن تساؤلاتي وابتهالاتي لم تجد جواباً، وانتهى مجلس رؤساء الحكومات العربية بإصدار القرارات التقليدية في إطار الكليشيهات المعروفة: «توكيد التضامن العربي»، ولم يكن هناك تضامن عربي، و«مساندة منظمة التحرير»، وكانت المنظمة أسيرة الحكومات العربية، وصريعة الخلافات العربية.

وصدر البيان الختامي الذي قرأه د. نوفل في مؤتمر صحافي، ليعلن أن: «رؤساء الحكومات العربية تدارسوا ما تمّ اتخاذه من إجراءات تنفيذية تفصح عن روح التعاون والعزم الصادق على تحقيق الأهداف القومية العادلة، وبناء القوة والعزة العربية، واتفقوا على وسائل التنفيذ التام الناجز للخطط العربية، السياسية والعسكرية والفنية، والاقتصادية والعلمية وغيرها، وعقدوا العزم على أن يتبعوا خطة موحدة في مجابهة أية دولة أجنبية تسعى لإقامة علاقات جديدة مع إسرائيل ودعم مجهودها العدواني الحربي».

وقهقه القدر لهذا البيان «البليغ» الذي جاء مسبوكاً محبوكاً للتستر على الموقف العربي المتخاذل، في أخطر موضوعين: دخول القوات العراقية والسعودية إلى الأردن، وعلاقات ألمانيا بإسرائيل. فلا القوات العراقية والسعودية تمركزت داخل الأراضي الأردنية كما طلبت القيادة العربية الموحدة، ولا الدول العربية حدّدت علاقاتها مع الدول الأجنبية «على ضوء موقفها من قضية فلسطين»، كما أعلن الملوك والرؤساء من مآذن القاهرة ومن منارات الإسكندرية.

وهكذا سقط الملوك والرؤساء في الفصل الدراسي الأول من عام ١٩٦٥، وعاد رؤساء الحكومات إلى عواصمهم ليعلنوا على شعوبهم، من الإذاعات التي يسيطرون عليها، والصحف التي يملكون زمام أمرها، أنّهم أصدروا القرارات السرية الخطيرة، وأن المشروع العربي لتحويل نهر الأردن يسير وفق الخطط المرسومة، وأن القيادة العربية الموحدة ماضية في تطبيق خططها العسكرية، وأن الجيوش العربية على أهبة الاستعداد، والويل لإسرائيل إن تحركت، فسننقضّ عليها قبل أن يرتد إليها طرفها.

كنت أسمع هذا الضجيج الهادر من الإذاعات العربية، وكنت أقرأ هذا الكلام الثائر في الصحف العربية، في حملة كبرى لخداع الأمة العربية. لخداع الجماهير. ولكن الإذاعات نفسها كانت تردد صوت «المقرئ» بما هو أبلغ وأصدق، وهو يتلو قوله تعالى ﴿**وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون**﴾[٥] صدق الله العظيم.

(٥) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٩.

مسكينة أنت يا فلسطين!

منذُ عرفت القاهرة عبر أربعين عاماً، قبل هجرتي إليها وبعدها، لم أجد فيها شتاء عاصفاً غاضباً، ثائراً هادراً، كالذي شهدته في عام ١٩٦٤.

ولست أتحلم القاهرة، فقد حباها الله سماء صافية، وشمساً ساطعة، وأزهاراً شذية عطرة، وجعل شتاءها ربيعاً رائعاً، حلّ قبل أوانه وتجلّى في غير زمانه.

وإنما أعني الجو السياسي لا الطبيعة، فقد تفجّرت في مطلع هذا العام أزمة العلاقات العربية ـ الألمانية، وانطلقت من عقالها حتّى بلغت ذروتها، وأصبحت القاهرة مسرحاً لأحداث خطيرة مثيرة، ومنبراً داوياً يرسل جلجلاته وصيحاته إلى دنياً العرب حيناً، وإلى سائر أرجاء العالم أحياناً أخرى.

والذين عاشوا تلك الحقبة العصيبة بعقولهم وأرواحهم، وأنا واحد منهم، لا يزالون يستشعرون وهج تلك الأيام الساخنة، وأنوفهم مزكومة بغبار معاركها حتّى الآن.

والواقع أن العلاقات العربية ـ الألمانية، ومنذُ أوائل الخمسينيات يوم عقدت اتفاقية التعويضات الألمانية ـ الإسرائيلية، كانت أشبه ببركان عجوز «يتنفس» زماناً، ثُمّ يأخذ في الرقاد. ولكنه في شتاء هذا العام (١٩٦٥) انفجر عن آخره وقذف ما في جوفه من حمم، وما في أحشائه من لهب.

ذلك أن ألمانيا الغربية لم تكتف بتقديم التعويضات السخية كفّارة عن مظالم العهد النازي التي وقعت على اليهود في الحرب العالمية الثانية، وبلغت ملايين الملايين من الدولارات وأنقذت الاقتصاد الإسرائيلي من الانهيار على مدى عشر سنوات عجاف، فقد كشفت، بل فضحت الاتفاقات السرية التي عقدت بين بون وتل أبيب أن ألمانيا قد تعهدت بأن تقدم لإسرائيل مقادير ضخمة من مختلف أنواع الأسلحة مجاناً. . . هكذا هبة عسكرية وبلا ثمن!

وكذلك، فقد فضحت وكالات الأنباء أن مفاوضات تجري في الخفاء، في إطار الدبلوماسية الهادئة، بحسب التعبير الأمريكي الشائع، لإقامة علاقات سياسية بين ألمانيا الغربية وإسرائيل، وأن قادة إسرائيل يتمهلون في الأمر، ريثما يستطيعون تهدئة الرأي العام الإسرائيلي، ويرضونه شيئاً فشيئاً، حتّى يعفو عن ألمانيا، وهي راكعة على كرسي الاعتراف، وعلى مذبح الاستغفار.

واهتاج الرأي العام العربي في غضبة عارمة، وانبرى الرئيس عبد الناصر يندّد بألمانيا الغربية والولايات المتحدة والمعسكر الغربي في مجموعه، فقام بجولة واسعة في أقاليم مصر، يخاطب الجماهير ويشحن عواطفهم بعباراته الراعدة، ونكاته اللاذعة، وجمال عبد الناصر يتمتع بقدرة خارقة في إثارة الشعب وحشده وتعبئته، وغمز الملوك والرؤساء وهم في قصورهم يستمعون.

وطفحت الصحف العربية بأنباء الأزمة، وتهيأ المسرح العربي لاجتماعات قمة صغيرة بين الملوك والرؤساء، ففي خلال شهر واحد، من منتصف شباط/ فبراير إلى منتصف آذار/ مارس، توافد على القاهرة الملك حسين، والرئيس بورقيبة، والملك الحسن الثاني، وكان طبيعياً أن أكون في موكب هذه اللقاءات من المطار إلى قصر القبة، إلى الجامعة العربية، إلى أسوان، إلى الأزهر الشريف، أعدو وألهث من لقاء إلى لقاء، فإن الأزمة تتصل بقضية فلسطين في الصميم.

وكان الملك حسين أول الوافدين على القاهرة. جاء يعرض وساطته بين ألمانيا الغربية والجمهورية العربية المتحدة، وكأنما الأزمة مع القاهرة وحدها ولا تتصل بالأمة العربية بأسرها.

وحضرت جانباً من المباحثات بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين. وفي حديث مزيج من الجد والدعابة التفتّ إلى الملك حسين وقلت: «يا «سيدنا» إنك لا تصلح وسيطاً في هذه الأزمة. أنت طرف رئيسي فيها. إن الأردن شعباً ووطناً هو الهدف الرئيسي في صفقة الأسلحة الألمانية التي تقدم لإسرائيل، إن مصر تعرف كيف تدافع عن نفسها. ولكن ماذا يصنع الأردن وكيف؟».

وقاطعني الرئيس عبد الناصر قبل أن يتطور الحوار.

قال: «والله يا أخ أحمد، نحن مش عايزين نعمل مشاكل. إذا كان جلالة الملك حسين يستطيع أن يقنع ألمانيا الغربية بالعدول عن تزويد إسرائيل بالسلاح وإقامة علاقات دبلوماسية معها، فنحن موافقون، وتكون الأزمة قد انتهت، نتصافى مع ألمانيا الغربية، ويكون الملك حسين قد أدّى خدمة كبيرة».

قلت: «الموضوع ليس قاصراً على ألمانيا الغربية... إن الولايات المتحدة هي التي تحرض ألمانيا الغربية على هذه الصفقة، فلا فائدة من إضاعة الوقت في الوساطة. ويجب اتخاذ موقف عربي واحد. فلا يصحّ أن يكون العرب منقسمين: أحدهم وسيط، والثاني خصم، والثالث متفرج، والرابع يندفع إلى ألمانيا الغربية مستغلاً الأزمة لاقتناص معونات مالية».

وأنهى الرئيس عبد الناصر الحوار.

وقال: «على كُلّ حال، لا مانع من أن نجرب. على بركة الله، يا جلالة الملك، نحن موافقون على الوساطة. ربنا يوفق».

وقال الملك حسين وكأنما يتأهب للتزحلق على الجليد: «وأنا أتعهد من جانبي أن أساند القاهرة في موقفها إلى أبعد حدّ إذا فشلت الوساطة».

وتركنا للزمن وحده أن يقرر ما إذا كان الملك حسين سيفي بعهده، أو يكون أول الناكثين.

وبعد الملك حسين، انفتحت أبواب القاهرة على مصاريعها إلى «المجاهد الأكبر» الرئيس بورقيبة في زيارة استغرقت سبعة أيام بلياليها (١٥/ ٣/ ١٩٦٥) طرب خلالها الرئيس التونسي لهتافات الجماهير في الساحات والميادين، وقد امتلأت جدرانها بصوره المجسمة، تلثمها شمس القاهرة، فتزيدها بهاء على بهاء، وسناء على سناء.

ولست أنسى يوم وقف الرئيس بورقيبة على المنصة الرئيسيّة في جامعة القاهرة يلبس «روب» الدكتوراه الفخرية ووشاحها الأخضر، وهو يعلن أمام ذلك الحشد الكبير تأييده لموقف الرئيس عبد الناصر من الأزمة الألمانية وأن «المعركة في تونس والجمهورية العربية المتحدة هي معركة واحدة»[1].

ولا أنسى كذلك تلك الاستقبالات العارمة في أسوان حين أطل الرئيس بورقيبة على الجماهير المهللة المكبرة، وهو يعلن إليها وإلى الأمة العربية من ورائها في المشرق والمغرب تأييده لموقف القاهرة. ولا تزال أحجار الغرانيت بآذانها المرهفة في السدّ العالي شاهدة على ذلك.

وبعد الرئيس بورقيبة استقبلت القاهرة الحسن الثاني وبدا الأزهر الشريف في

---

(١) تعرض المؤلّف للرئيس بورقيبة في كتبه (الثلاثة)، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية، حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء، ومن القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء.**

أزهر أيامه حين وقف الملك المغربي والرئيس عبد الناصر يؤديان صلاة الجمعة، والخطيب يسرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الحضّ على التضامن والتعاون لإعلاء كلمة العرب والمسلمين. وتنتهي الصلاة، ونخرج من المسجد، والحسن الثاني يوجه إلي الحديث باللهجة المغربية قائلاً: «يا سي أحمد. والله لا سبيل إلى رفعة الإسلام إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه».

وقلت: «إن أول هذه الأوامر الاتحاد، وأول هذه النواهي الفرقة».

وقال الرئيس عبد الناصر: «إن جلالة الملك ساع لتوطيد الاتحاد ونبذ الفرقة».

وفي تلك الأيام الجياشة الحافلة، شهدت مدينة المنصورة الحشر الأكبر والحشد الأروع، من جماهير مصر، كما لم تشهد مثله إلا يوم انكسر الإفرنج في هذه المدينة التاريخية قبل سبعة قرون في حملة لويس التاسع. وأمام ذلك البحر البشري الزاخر الهادر، وقف الحسن الثاني والرئيس عبد الناصر يعلنان على الأمة العربية التضامن الوثيق في مواجهة الأزمة الألمانية، بما تهدّد من أخطار على المصير العربي وأمنه وسلامته... وقد انفجرت الجماهير بالهتاف العاصف حين أعلن الرئيس عبد الناصر، بعد أن سمع ما سمع من الحسن الثاني، أن «وزراء خارجية الدول العربية سيجتمعون غداً في مقر الجامعة العربية ليتخذوا موقفاً عربياً موحدا... ولقد جاءت الآن ساعة امتحان الإرادة العربية الجماعية».

وفي المأدبة التكريمية الكبرى التي أقيمت للحسن الثاني، والحديث يدور من غير تكلف حول الموضوع نفسه، العلاقات الألمانية ـ العربية، التفت العاهل المغربي وقال للرئيس عبد الناصر بلهجة حادة قاطعة:

«نحن لن نترك القاهرة وحدها، هذه معركتنا جميعاً. ولقد تلقيت دعوة لزيارة ألمانيا الغربية، وقد تحدد موعدها، ولكنني قررت إلغاء هذه الزيارة تضامناً مع الجمهورية العربية المتحدة، ومع سيادتكم بالذات». فشكره الرئيس عبد الناصر على هذا الموقف النبيل. وثنيت على الشكر باسم الشعب الفلسطيني. وما دريت أن حديث العاهل المغربي سيكون واحداً من الأطباق التي مضغناها وبلعناها وهضمناها، وانتهت لذتها بانتهاء الطعام.

وانتهت زيارة الحسن الثاني، وخرجت إلى المطار، لأقوم برياضتي المعتادة، في وداع الملوك والرؤساء، وكان سلام وكان عناق، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة تحية للعاهل المغربي. وكأنما كانت تتساءل المدفعية: «هل ستكون خطب الملوك والرؤساء مثل هذه الطلقات من غير ذخيرة حية، دوياً وكفى، ودخاناً وانتهى؟».

وسألني الرئيس عبد الناصر، ونحن في أرض المطار:

«إيه رأيك في لقاء المنصورة؟».

قلت: «ما أعظم الشعب».

قال: «يعني الملوك والرؤساء مش نافعين؟».

قلت: «سيادتك، قلتها».

قال: «لو كان الأمر بيدّ شعوبنا لاستطعنا أن نحل كُلّ مشاكلنا. ولكن حاتعملوا إيه غداً في اجتماع وزراء الخارجية؟».

قلت: «كما ذكرت سيادتكم. سندخل الامتحان».

قال: «إن شاء الله تنجحوا في الامتحان».

وانصرف الرئيس عبد الناصر وخلفه الوزراء والسفراء، كُلّ إلى طريقه، وانصرفت إلى مكتبي لأعد أوراقي وملفاتي إلى اليوم الموعود.

وكان عبد الخالق حسونة، الأمين العام للجامعة، قد وجّه دعوة عاجلة لاجتماع عاجل، وتوافد وزراء الخارجية العرب، وقد نفروا خفافاً ثقالاً من عواصمهم، والتصريحات النارية تفور من أشداقهم وتسيل من أوداجهم. وامتدّت الاجتماعات يومين كاملين (١٤-١٥ آذار/ مارس)، وكانت أفئدة الأمة العربية مثل أسماعها مشدودة إلى القاهرة، تنتظر من وزراء الخارجية العرب إجراء رادعاً، يردّ إلينا كرامتنا بعد أن ثلمتها تهديداتنا الفارغة عشرين عاماً طوالاً، وخاصة مع ألمانيا الغربية.

وفي الجلسة الأولى تقدمت باسم المنظمة باقتراحات محددة:

١ ـ قطع العلاقات الدبلوماسية.

٢ ـ مقاطعة ألمانيا اقتصادياً وثقافياً.

٣ ـ الاعتراف بألمانيا الشرقية.

وشرعت أسرد المبررات التي تدعو إلى اتخاذ قرارات حازمة في هذا الموضوع، وذكرت بالأرقام والوقائع المقادير الضخمة من الأسلحة الثقيلة التي قدمتها ألمانيا الغربية لإسرائيل لتضرب بها المدن والقرى العربية، وأن هذا العمل من جانب ألمانيا هو عمل عدواني صريح، لا يصحّ أن يقابل من الحكومات العربية بقرارات إنشائية، وأن هذه الاقتراحات التي قدمتها هي ما تطلبه الأمة العربية جمعاء.

ثُمّ تناولت من بين أوراقي قصاصة من صحيفة ألمانية أعلن فيها مستشار ألمانيا إيرهارد، قبل خمسة أيام من اجتماع وزراء الخارجية (٩/ ٣/ ١٩٦٥)، أنّه «لن يركع أمام تهديدات العرب» وأن المصلحة القومية تفرض اتخاذ موقف عربي حازم، ولو في العمر مرة، كالحج في العمر مرة، من استطاع إليه سبيلاً.

ودارت مناقشات قصيرة بين الوزراء اشترك فيها: محمود رياض (القاهرة)، عبد العزيز بوتفليقة (الجزائر)، فيليب تقلا (لبنان)، إبراهيم ماخوس (سوريا)، عمر السقاف (السعودية)، ناجي طالب (العراق)، محمّد أحمد محجوب (السودان)، د. حازم نسيبة (الأردن)، ولم يشترك في الكلام وزراء تونس والمغرب وليبياً. ووضح من الأحاديث أن الاقتراح الوحيد الذي يمكن أن يكون محل اتفاق هو: سحب جميع السفراء العرب من بون، أما الاقتراحان الآخران فلم يمسهما أحد.

ونظر الوزراء في وجوه زملائهم: المنجي سليم (تونس)، أحمد بن هيمة (المغرب)، حسين مأزق (ليبيا)، ليستدرجوهم إلى موقف يحدّدونه، وعلى الأقل إلى كلمة يقولونها. وليسعف النطق إن لم تسعف الحال.

وتحدث المنجي سليم، وهو ينظر إلى زميليه المغربي والليبي، توكيداً لهما بأنه يتكلم بلسانهما.

وقال: «الأخ الشقيري يفاجئنا دائماً باقتراحاته ويضعنا أمام الأمر الواقع. إلى متى نظل نتكلم بالعاطفة؟ يجب أن ندرس الأمور دراسة علمية قبل أن نقدم على اتخاذ أية إجراءات».

قلت: «ليس في الأمر مفاجأة. إن الرئيس بورقيبة والملك الحسن الثاني كانا قد اجتمعا مع الرئيس عبد الناصر في القاهرة قبل شهر واحد، وقد تداولا في الأمر، وأعلنا مساندتهما للقاهرة. وهذه تصريحاتهما بين أوراقي. ثُمّ إني لست أنكر على الأخ المنجي سليم أن الموضوع عاطفي، وأنا أرجو أن يكون الآخر معي في الجانب العاطفي. إن مئات الدبابات والمصفحات والطائرات تقدمها ألمانيا الغربية إلى إسرائيل مجاناً. أليس ينبغي لهذا الموضوع أن يحرك عواطفنا؟ ألم تتحرك عواطفكم يوم كانت القوات الفرنسية تقصف القرى والمدن التونسية بالطائرات والمدافع...؟ ثُمّ إنني لا أفاجئكم ولا أضعكم أمام الأمر الواقع. هذا موضوع قديم يزيد عمره على عشر سنوات. وإن الأمة العربية كلها تتحدث الآن عن الموضوع خارج هذه القاعة. وعلى سبيل المثال، فإن مجلس الأمة الكويتي قد طالب الحكومة بأن تقطع علاقاتها السياسية والاقتصادية مع ألمانيا، وهذا البرلمان اللبناني قد طالب عدد كبير من أعضائه بمقاطعة ألمانيا اقتصادياً وسياسياً. وهذا وهذا...».

فقال: «نحن ما زلنا نتكلم في العموميات، يجب أن نرتقي إلى مستوى الأمم المتحدة ونتكلم بالتحديد».

قلت: «سأكلمك بالتحديد، كما تريد»، وأخذت أقرأ من أوراقي الأرقام والوقائع:

أولاً: بلغ إجمالي التعويضات الألمانية لإسرائيل مبلغ واحد وأربعين مليار مارك.

ثانياً: قامت ألمانيا بمسعى كبير في ربط إسرائيل بالسوق الأوروبية المشتركة، وصرح المستشار الألماني إيرهارد بأنه قام بجهد كبير في سبيل ذلك لدعم الاقتصاد الإسرائيلي وخفض العجز في ميزانها التجاري، باعتبار «أن إسرائيل دعامة أوروبية في المنطقة».

ثالثاً: دفعت ألمانيا لإسرائيل مبالغ مالية لدعم صناعتها العسكرية، وعقدت معها صفقات كبيرة لشراء الرشاش الإسرائيلي «أوزي» الذي يحمل على مقبضه النسر الألماني، هذا بالإضافة إلى ذخائر الأسلحة الصغيرة، والمدافع الصغيرة، والبنادق اليدويّة، والملابس العسكرية لأفراد الجيش الألماني.

رابعاً: تقوم ألمانيا بتدريب العسكريين الإسرائيليين في وندسبرغ على الأسلحة الأمريكية، والعسكريون الإسرائيليون يلبسون الملابس العسكرية الألمانية.

خامساً: عقدت ألمانيا مع إسرائيل اتفاقية عسكرية (إديناور ـ بن غوريون) استلمت إسرائيل بموجبها أسلحة مختلفة بقيمة ثلاثمائة مليون مارك. وتشمل هذه أسلحة الطائرات والدبابات، والسفن الحربية، والمدافع، وأجهزة اللاسلكي، والذخائر.

سادساً: قدمت المؤسسات العلمية الألمانية مجموعة من العلماء الألمان إلى إسرائيل، ليعملوا في ميدان الأبحاث الذرية والتكنولوجية، وقدمت ألمانيا ستة عشر مليون مارك هبة لإسرائيل، لدعم هذه الأبحاث الخطيرة الرهيبة، على حين تقوم الحكومة الألمانية ببذل جهود كبيرة لسحب العلماء الألمان الذين يعملون في الجمهورية العربية المتحدة.

سابعاً وأخيراً: تتخذ ألمانيا الإجراءات اللازمة للاعتراف بإسرائيل وإقامة علاقات دبلوماسية معها.

ولم أكد أتم حديثي حتّى قاطعني المنجي سليم، وكأنما ظفر بعنقي، وقال:

«إذا كان الاعتراف بإسرائيل جريمة، فلماذا لا نقاطع دول العالم أجمع؟ لماذا لا

نقاطع الولايات المتحدة التي فعلت لإسرائيل أكثر مما فعلت ألمانيا الغربية؟».

فقلت: «إن الاعتراف بإسرائيل ليس هو السبب الوحيد، لقد ذكرته في آخر الأسباب. وأنا معك، فإن الولايات المتحدة هي المسؤولة الأولى عن قيام إسرائيل. ويجدر بنا أن نعتبرها العدو الأول للأمة العربية، ويتعيّن علينا أن نقاطعها قبل جميع الدول. وإذا كان الأخ المنجي سليم يقدم اقتراحاً بمقاطعة أمريكا فإني أثنّي عليه».

قال: «أنا لا أدعو إلى هذا، ولكني ذكرت أمريكا على سبيل المثال».

قلت: «إذن هي كلمة حقّ أريد بها باطل».

قال: «على كُلّ حال، إن تونس لا توافق على اقتراحات الشقيري، ونحن نقترح أن تبقى للحكومات العربية حرية الحركة».

وهنا اقترح حسين مأزق (ليبياً) تأليف لجنة فرعية لوضع صيغة مقبولة من الجميع على أساس ما قاله الوفد التونسي.

وأضاف أحمد بن هيمة (المغرب) أن هناك دولاً كثيرة تمدّ إسرائيل بالمال والسلاح لم يتعرض لها أحد.

وأعلن عمر السقاف (السعودية) أن بلاده تعارض في الاعتراف بألمانيا الشرقية، وأنه يكفي في هذه المرحلة قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا الغربية.

وتشعّب الحديث، وحاول محمّد أحمد محجوب «السودان» أن يردّ المناقشة إلى الموضوع الأصلي، ببيت من الشعر، أو بنادرة أدبية، ولكن دولة الشعر والأدب لم يكن لها مكان في ذلك الاجتماع، كما لم يكن لدولة السياسة.

ورست المباحثات على قرار ينصّ على ما يلي:

«**أولاً**: سحب جميع السفراء العرب من بون فوراً.

ثانياً: قطع علاقات الدول العربية الدبلوماسية مع ألمانيا الغربية في حالة قيامها بإنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل.

ثالثاً: إعلان التضامن مع الجمهورية العربية المتحدة في مواقفها من ألمانيا الغربية، ولجوء الدول العربية إلى قطع علاقاتها الاقتصادية مع ألمانيا الغربية في حالة إصرارها على اتخاذ موقف عدائي من أية دولة عربية.

رابعاً: يؤكّد وزراء خارجية الدول العربية من جديد ما ورد في مقررات

مؤتمري القمة العربيين من أن تنظيم علاقات الدول العربية بالدول الأجنبية سيتم على أساس مواقفها من قضية فلسطين».

ورغماً عن أن هذه القرارات، باستثناء «قطع العلاقات الدبلوماسية»، هي عبارات إنشائية كانت تصاغ أمثالها على مدى ربع قرن من الزمان، فإن تونس والمغرب وليبيا قد أعلنت تحفظها على القرارات كلها.

وفي محاولة أخيرة ناشدتُ هذه الوفود الثلاثة أن تسير مع الركب حفاظاً على الإجماع العربي، وذكرتهم أن سفراءهم في بون قد تضامنوا مع زملائهم العرب الآخرين، فأوصوا جميعاً «بضرورة قيام الدول العربية باتخاذ موقف عربي موحّد متضامن بشكل كامل يضع سياسة عربية واضحة تجاه ألمانيا وموقفها من إسرائيل، وضرورة القيام برد فعل موحّد قوي وحاسم على مسلك ألمانيا تجاه إسرائيل».

وقال المنجي سليم: «وأين هذه التوصية؟». فدفعت إليه تقرير السفراء العرب في بون، ورجوته أن يقرأه بصوت عال... وقال بعد أن فرغ من قراءته: «إن سياسة تونس تقررها الحكومة في تونس، ولا يقررها سفيرها في بون».

قلت: «والحكومة التونسية قررت سياستها في هذا الموضوع».

قال: «الحكومة التونسية لم تقرر شيئاً».

قلت: «لقد عقد الرئيس بورقيبة مؤتمراً صحافياً في القاهرة في ٢١/ ٢/ ١٩٦٥ أعلن فيه»، وأخذت أقرأ من أوراقي التي في ملفاتي «أننا كلنا موقفنا من ألمانيا الغربية هو موقف التضامن مع عبد الناصر وحكومته وشعبه، وقد بلغني خبر هذه الأزمة قبل سفرنا من تونس، وقد بهتّ وأصابتني الدهشة مما حدث في ألمانيا الغربية، وعقدنا اجتماع اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الدستوري، وقررنا أن نقف موقف التضامن مع الرئيس عبد الناصر، ولكن لا أدري كيف تأخر وصول قرارنا إلى القاهرة». وتابعت كلامي قائلاً: «إن هذا ما أعلنه الرئيس بورقيبة في حينه، وأيده في ذلك الملك الحسن الثاني عندما زارا القاهرة أخيراً، وإني أطالب اليوم الوفاء بالوعد، وأناشد الإخوة وزراء تونس وليبياً والمغرب ألا يخرجوا على الإجماع العربي».

وحاول محمّد أحمد محجوب (السودان) تأييد اقتراحي، ولكن المنجي سليم وزميليه الليبي والمغربي ظلوا مصرّين على موقف التحفظ.

وانتهت الجلسات، وأعلن السيد عبد الخالق حسونة القرارات الأربعة التي ذكرتُها على الصحافة، وندم الصحافيون الأجانب قبل العرب أنهم جاؤوا من

بلادهم، وأنفقوا من الجهد والعناء ليبرقوا بأخبار خطيرة وجدية، فوجدوا أنفسهم أمام انقسام في الجبهة العربية، وأمام قرار الأكثرية، وهو لا يعدو أن يكون من مخلفات العهود العربية البائدة التي ثارت عليها الثورات وتقلبت عليها الانقلابات.

وافرنقع وزراء الخارجية العرب إلى عواصمهم، ليقدموا تقريراً إلى حكوماتهم ولينشروا كلاماً على شعوبهم. ووجد وزراء المغرب وتونس وليبيا «الشجاعة» الكاملة في أن يقولوا للأمة العربية «إنهم متضامنون مع باقي الدول العربية، وإنهم يفتدون عروبة فلسطين بالنفس والنفيس». وما أتعس هذا الموقف التعيس!

ولكن المضحك المبكي أن الملوك والرؤساء أنفسهم لم يجدوا حرجاً في أن يصدروا تصريحات تناقض مواقفهم التي أعلنوها قبل شهر واحد.

فهذا الرئيس بورقيبة أعلن في مؤتمر صحافي (١١/ ٣/ ١٩٦٥) «أن مشكلة العلاقات الألمانية قد وقعت من دون أن يستشيرنا أحد»، و«أن قطع العلاقات مع ألمانيا لن يؤدي إلى موتها»، في حين أنّه لم يجفّ توقيعه على البلاغ المشترك مع الجمهورية العربية المتحدة الذي جاء فيه «ويعلن الرئيسان أن تزويد السلطات الإسرائيلية بالأسلحة هو تشجيع يستدعي متابعة تطوراته باهتمام شديد حماية لسلامة الدول العربية وصيانة لأمنها» (٢٢/ ٢/ ١٩٦٥).

وهذا الملك الحسن الثاني، راح يعلن أن زيارته لألمانيا قد تأجلت وما ألغيت، وهو الذي قال للرئيس عبد الناصر في اليوم الأول لوصوله إلى القاهرة (١١/ ٣/ ١٩٦٥) إنّه قرر إلغاء زيارته لبون «قياماً بواجب التضامن العربي ومساندة الجمهورية العربية المتحدة».

وهذا الملك فيصل أكد في مؤتمر صحافي (٨/ ٤/ ١٩٦٥) «أن أحداً لا يستطيع أن يجرنا للاعتراف بألمانيا الشرقية. ونحن وكُلّ ما نملك من أجل القضية الفلسطينية»، كأنما الاعتراف بألمانيا الشرقية هو أغلى وأعلى «ما نملك من أجل القضية الفلسطينية».

وهذا الملك حسين، كان أول الناكثين، كما كنت أخشى، فقد تبادل الاعتراف الدبلوماسي مع ألمانيا الغربية، مما حمل مجلس الجامعة العربية في جلسته المؤرخة ١٨/ ٣/ ١٩٦٧، أن يصدر قراراً يعلن فيه «استنكاره لقرار الحكومة الأردنية بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع جمهورية ألمانيا الاتحادية لما في ذلك من خروج على مقررات الجامعة العربية».

ولم يكتف الملك حسين بهذا الموقف «الشجاع»، ولكنه بقي مصراً عليه، إلى أن وقعت حرب حزيران/ يونيو، فكان أول عمل مجيد قام به هو تبادل البرقيات الودّية مع مستشار ألمانيا الغربية . . . وتناسى أن القدس الشهيدة قد سقطت بين فكّي كماشة من الدبابات التي قدمتها ألمانيا للجيش الإسرائيلي.

ومع ذلك كُلّه، بل رغماً عن ذلك كُلّه أيضاً، استمرّت الإذاعات العربية الرسمية تندّد بألمانيا الغربية وتنذرها بالعواقب الوخيمة، وتذيع التصريحات النارية. من ذلك أن راديو الكويت أذاع تصريحاً للشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الكويتية أكد فيه أن الكويت «مستعدة للتضحية بجميع ثرواتها البترولية من أجل القضية الفلسطينية». وما أغلى البترول، وما أرخص فلسطين!

ومن ذلك ما أعلنه الملك فيصل في مؤتمر صحافي عقده في جدة من أن «المملكة العربية السعودية ترفض رفضاً باتاً الصلح والمفاوضات مع إسرائيل طال الزمن أو قصر. ولو أجمع العرب جميعاً على أن يتفاوضوا أو يتصالحوا مع إسرائيل لخرجنا على الإجماع». وكم وكم خرجت المملكة العربية السعودية على الإجماع!

ولكن ألمانيا الغربية، ومعها دوائر الاستعمار الغربي، كانت تعرف حقائق الموقف العربي، في بلاغته وتفاهته. فقد علقت عليه صحيفة **الغارديان** البريطانية قبل يومين من صدور قرار وزراء خارجية الدول العربية في قولها: «إنه من السهل أن يحصل الرئيس عبد الناصر على إجماع العرب بالأقوال لا بالأعمال».

ولقد صحّت هذه النبوءة، ولكن بأكثر مما تنبأت الصحيفة البريطانية. ولم تبال ألمانيا الغربية بقرار وزراء الخارجية العرب، ومضت في سياستها العدائية نحو الأمة العربية، وواصلت معاونتها العسكرية الضخمة، والمالية الوفيرة لإسرائيل، وتوجّت ذلك كُلّه بالاعتراف بإسرائيل وإقامة علاقات دبلوماسية معها، في حين كانت الجماهير الإسرائيلية تتظاهر في تل أبيب وتحتج على إسرائيل لأنها تعتزم أن تعترف بألمانيا الغربية «خليفة النازية التي قتلت، وذبحت». ويضحك القول المأثور: «يرضى القتيل، وليس يرضى القاتل».

وقطعت الدول العربية العشر علاقاتها الدبلوماسية بألمانيا الغربية، والتزمت ليبيا وتونس والمغرب بتحفظها المعروف. ولكن بقية القرار «قطع العلاقات الاقتصادية»، «بقي حبراً على ورق»، أو على الأصح لا حبراً ولا ورقاً.

وهاجت الأمة العربية بالغضب والاستنكار، وأخذ الرأي العام العربي يتساءل: وأين مؤتمرات القمة وقراراتها؟ أين التضامن العربي؟ أين القرار الشهير الذي يدعو

الدول العربية إلى «تحديد علاقاتها بالدول الأجنبية في ضوء موقفها من قضية فلسطين؟».

مسكينة أنت يا فلسطين كم خاض فيك الملوك والرؤساء، وكم لعبوا بمصيرك ومصير الأمة العربية، وكأنما أشار إليهم بالذات قوله تعالى: ﴿**فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يُلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الزخرف،» الآية ٨٣.

تمخض الرؤساء فولدوا قراراً

جاء اليوم الذي كنت أخشاه، وكنت أخشاه منذُ زمان. وكان هذا اليوم على التحديد هو السابع عشر من شهر آذار/ مارس من عام ١٩٦٥.

ففي صبيحة هذا اليوم كنت في مكتبي في منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة، وإذا بقسم الاستماع في إذاعة المنظمة يرسل إلي قصاصة تقول:

«أعلن ناطق عسكري سوري أن دورية إسرائيلية مصفحة قامت باجتياز خطوط الهدنة في منطقة نخلية ودمرت جرارين ورافعتين تعملان في مشروع تحويل الروافد. والسائق استشهد، وجرح عاملان مدنيان. رافق اجتياز الحدود حشود مفاجئة من دبابات العدو ومُشاته في منطقة دان وتل القاضي. سوريا أعلمت القيادة العربية الموحدة وهيئة الرقابة الدولية بالاعتداء. وهذا الحادث هو السابع خلال اثني عشر يوماً».

قرأت هذه القصاصة الموجزة، فأدركت على الفور أن العدوان الإسرائيلي ليس «موجزاً» كما وصفة البلاغ السوري. وأيقنت أن إسرائيل قد أخذت في تنفيذ تهديداتها المتلاحقة في تدمير المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن في بدايته، قبل أن يصل إلى نهايته.

وبدأت الأنباء تتوالى من مكتب المنظمة في دمشق، ومن التقارير العسكرية التي تردّ على القيادة العربية الموحدة، بأن الغارة الإسرائيلية استهدفت «مواقع» المشروع العربي، فدمرت المنشآت والمعدات، وقتلت وجرحت عدداً من العمال، وأن العمل العربي قد توقف، إلى أن تتهيأ الحماية العسكرية اللازمة.

وأبرق إلينا مكتب المنظمة في نيويورك يقول: «إن رئيس الوفد الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة وجّه رسالة إلى رئيس مجلس الأمن أعلن فيها أن المراكز السورية بالقرب من مستعمرة دان قصفت دورية إسرائيلية كانت تقوم بأعمالها العادية، وأن القوات الإسرائيلية ردت على النار بالمثل، وأن الدبابات الإسرائيلية في المنطقة خفت لنجدة

الدورية». وهكذا زينت إسرائيل للرأي العام الدولي، بحسب تقاليدها المعروفة، أن ضرب مواقع المشروع العربي وتدمير منشآته ومعداته كان نتيجة قصف متبادل بدأته القوات السورية، ولم يسع القوات الإسرائيلية إلا أن تردّ على النار بالمثل، قياماً بحقّ الدفاع عن النفس.

وفي مثل النار في الهشيم، انتشرت الأنباء في أرجاء الوطن العربي أن المشروع العربي لتحويل روافد الأردن الذي أقره الملوك والرؤساء في مؤتمر القمة قد ضربته إسرائيل على مشهد ومسمع من الملوك والرؤساء. ومن أراد النزال فهذا هو الميدان.

كان ذلك أول تحد عسكري صارخ واجهته الدول العربية بعد مؤتمر القمة الأول في القاهرة، والثاني في الإسكندرية.

وفي الوقت نفسه، كان ذلك أول تحدّ فاصل واجهته القيادة العربية الموحدة التي ألقي على كاهلها «واجب» الحماية العسكرية لتحويل الروافد.

وقد اشرأبت الأعناق وتطلعت الأبصار إلى الملوك والرؤساء، وإلى القيادة العربية الموحّدة، قرابة يوم أو يومين، وهي تنتظر أن تبادر الجيوش العربية إلى الردّ على إسرائيل بقصف المشروع الإسرائيلي لتحويل مجرى الأردن. فقد كان المواطن العربي يريد شيئاً واحداً ولا يريد سواه. . . إسرائيل ضربت مشروعنا، وها نحن نضرب مشروعهم.

وكان المواطن العربي على حقّ في تمنياته، وعلى حقّ في تساؤلاته. على حقّ في تمنياته، لأن الملوك والرؤساء قد أعلنوا أنهم وضعوا «الخطط السياسة والعسكرية والفنية والمالية لتنفيذ المشروع العربي وحمايته من أي عدوان إسرائيلي».

وكذلك، كان المواطن العربي على حقّ في تساؤلاته. أين مؤتمرات القمة وقراراتها؟ أين الاستعدادات العسكرية؟ أين القيادة العربية الموحدة؟ . أين . . أين؟

وإزاء هذه التمنيات والتساؤلات راحت الأجهزة العربية الرسمية، كعادتها، ترغي وتزبد، وترسل التصريحات جزافاً، حتّى من أولئك الذين قصفتهم إسرائيل ألف مرة ومرة. . . وأعني، بلا تردد ولا تحفظ المملكة الأردنية الهاشمية.

وأذكر أنني كنت أستمع إلى إذاعة عمّان بعد العدوان الإسرائيلي بيومين (١٩/ ٣/ ١٩٦٥)، وإذا بالمذيع الأردني يصيح بأعلى صوته أن «جلالة الملك المفدى يقف إلى جانب الشقيقة سوريا، بالنسبة إلى الاستفزازات والاعتداءات الإسرائيلية على طول الحدود، وأن الأردن يعتبر أي اعتداء على سوريا هو اعتداء على الأراضي الأردنية».

وانقضت أيام الانتظار، فلم تتحرك الجيوش العربية من نفسها، ولم تحركها

القيادة العربية الموحدة، وظلت الطائرات العربية في مهابطها من دون أن تصدر إليها الأوامر بالانطلاق نحو أهداف العدو . . . ودخل في روع المواطن العربي أن إسرائيل قد ضربت ضربتها، وأن الدول العربية لم تردّ على الصاع صاعين كما أعلنت، بل بقيت راقدة على القش، كما يقول المثل العامي البليغ.

ومن المصادفات الحزينة أن مجلس الجامعة العربية كان مجتمعاً في دورته العادية (آذار/ مارس)، ونظر في التقرير المقدم من الحكومة السورية بصدد العدوان الإسرائيلي، فأصدر قراراً تحملني تفاهته أن أقتبسه بنصه الكامل: «ناقش المجلس موضوع العدوان الإسرائيلي المتكرر على الحدود السورية، تنفيذاً لخطة إسرائيلية مدبرة، يقصد منها خلق جو من عدم الاستقرار في الشرق الأوسط، وتعطيل تنفيذ المشروع العربي لاستغلال مياه نهر الأردن العربية». وبعد هذه الديباجة الخطيرة يصدر توصيته الخطيرة:

«ويقرر المجلس التضامن مع الجمهورية العربية السورية في موقفها، واعتبار أي عدوان على الأرض السورية، أو أي أرض عربية أخرى عدواناً على الدول العربية كلها تتعاون جميعاً في صده طبقاً لمعاهدة الدفاع المشترك والالتزامات العربية المقررة».

وصدر القرار بالإجماع مثل جميع القرارات الإنشائية البليغة التي تصدرها الجامعة في مثل هذه المناسبات. ولم أدع الفرصة تفوت. فقد أعلنت في ختام الاجتماع أن هذا القرار قد صدر عن د. نوفل وحده، بصفته الأمين العام المساعد للجامعة العربية، وهو من صنعه وإنشائه، ولن تنفذه أي من الدول العربية.

وجاء هذا القرار على هذه الصيغة الهزيلة ليزيد المواطن العربي غضباً على مؤتمرات القمة، وعلى الملوك والرؤساء، وعلى القيادة العربية الموحدة. وهنا جاءت الفرصة الذهبية لحزب البعث في دمشق ليعلن عن عدائه السرمدي للرئيس عبد الناصر[1].

وراحت الدوائر الرسمية في دمشق ومعها أجهزة الإعلام الإذاعية والصحافية تشنّ حملة كبرى، تلميحاً وتصريحاً، على الجمهورية العربية المتحدة، وتتهمها بالتقاعس عن نجدة سوريا، وتندّد بالقيادة العربية الموحّدة.

وبدأت تصلني الصحف ونشرات الإذاعة السورية، وقد كدت أن أقع فريسة تلك العبارات الرنانة عن «حرب التحرير الشعبية»، و«تلاحم القوى التقدمية»، و«تفجر الطاقات الثورية» و«التضامن مع القوى العالمية المناهضة للإمبريالية» . . و . . و . . أجل

(١) كتب هذا الفصل قبل تولي الفريق حافظ الأسد زمام القيادة.

كدت أن أصبح أسيراً بين يدي هذه الكلمات المجلجلات الداويات. ولكني تذكرت قول الرسول العظيم «أبعدكم عني منازل يوم القيامة المتشدقون المتفيهقون».

وبعيداً عن دمشق «الحديثة»، فإن دمشق القديمة العريقة لا تعرف المتشدقين والمتفيهقين... أصبحت صحف بيروت منبراً عربياً للمناقشة والحوار، وكان الكاريكاتور أكثر تعبيراً وأشد إيلاماً من المقالة والعنوان.

فهذه صحيفة تهاجم الرئيس عبد الناصر لأنه لم يدفع بطائراته إلى تل أبيب انتقاماً للغارة الإسرائيلية على المواقع السورية، وتلك صحيفة تندّد بسياسة المزايدات التي يتبعها حزب البعث الحاكم في سوريا... وصحيفة ثالثة تدعو العالم الإسلامي إلى الجهاد... وصحيفة رابعة... وأخرى خامسة، وكلها تعكس رأي القاهرة أو دمشق أو بغداد أو الكويت أو الرياض، إما عن اقتناع فكري، أو انتماء عقائدي، أو ارتباط مالي، والثالثة ثالثة الأثافي.

وفي خضمّ هذه المعركة الكلامية التي نشبت بين العرب والعرب، وجدت إسرائيل فرصتها السانحة لتضع العالم أمام الأمر الواقع، من غير مداراة ولا مبالاة، وهي تعلم بتجاربها وممارستها أن الأمر الواقع قد يواجهه استنكار واشمئزاز في بدايته، ولكنه يصبح مقبولاً في النهاية.

ومن هنا، فقد شرع قادة إسرائيل على اختلاف ميولهم السياسية يكاشفون الرأي العام الإسرائيلي والدولي على السواء بالموقف الصارم الحازم: «يجب اتخاذ إجراءات عسكرية لمنع الدول العربية من تنفيذ برامجها الخاصة بتحويل روافد نهر الأردن»، وهذا ما دعا إليه صراحة وعلانية الجنرال موشي ديان، ولم يكن يومئذ (٢٦/ ٣/ ١٩٦٥) إلا مواطناً إسرائيلياً، ورئيس الأركان العامة للجيش الإسرائيلي السابق.

وصادف في تلك الفترة أن كان أشكول رئيس وزراء إسرائيل في زيارة لبريطانيا، فأعلن في حديث نقلته الإذاعة البريطانية (٢٩/ ٣/ ١٩٦٥) أنّه «إذا أقدم السوريون على تنفيذ مشاريعهم الحالية في تحويل المياه التي تصبّ في بحيرة طبريا، فإننا سنعتبر ذلك بمثابة عدوان إقليمي، وسنرد بما هو مناسب، وستلجأ إسرائيل إلى جميع الإجراءات لتحول دون ذلك».

وتجاوبت غولدا مائير مع هذا التهديد، فأعلنت أمام الكنيست أن الحكومة الإسرائيلية «مصممة على عدم السماح لعرقلة المشروع الإسرائيلي لتحويل مياه نهر الأردن».

كانت هذه التهديدات الجادة تصدر عن الجانب الإسرائيلي، والأمة العربية

غارقة في الشجون حتّى الذقون. فقد أفلح الرئيس بورقيبة في إشغالها، في هذه الفترة بالتحديد، باقتراحاته الشهيرة بالصلح مع إسرائيل، ولم تجد المراجع العربية السياسية والعسكرية إلا أن تبحث لها عن «فتوى» تخرجها من أزمة نهر الأردن. فكانت الفتوى أن تواصل سوريا أعمال التحويل، ولكن «في مواقع بعيدة عن خطوط الهدنة الإسرائيلية».

ولكن هذه «الفتوى» قد سخر منها المواطن العادي، وهو على علم بأن حوض نهر الأردن بكامله من منابعه إلى مصبه هو في متناول الطائرات الإسرائيلية، بل المدافع الإسرائيلية. ولم تمض إلا أيام حتّى صاح موشي ديان من تل أبيب بأن «على إسرائيل إفساد المشروعات العربية لتحويل روافد نهر الأردن وهي في مرحلتها الأولية. فإن الوسائل السياسية غير مناسبة لحمل العرب على الإقلاع عن تحويله، ولذلك يجب إيقاف جرافاتهم عن العمل بطرق أخرى».

وانتهزت غولدا مائير وزيرة الخارجية الإسرائيلية فرصة اجتماع اللجنة المركزية لحزب ماباي في تل أبيب، فأعلنت «أن على العرب وقف أعمال تحويل مياه نهر الأردن فوراً إذا كانوا راغبين في تجنب صدام عسكري. ونحن لسنا على استعداد للانتظار حتّى يكمل العرب مشاريعهم».

وكان لبنان يسمع هذه التهديدات وهو لا يدري ما يصنع. لقد التزم لبنان وعلى أرضه بتنفيذ المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن، والتزم كذلك بأخذ موافقة مسبقة من البرلمان اللبناني بالسماح لجيوش عربية بالدخول إلى الأراضي اللبنانية لدفع أي اعتداء إسرائيلي. ولكن دنت ساعة الخطر. لقد ضربت إسرائيل مواقع التحويل في سوريا. فهل يستمرّ لبنان من جانبه في مشروعات التحويل؟

كانت تلك هي الصورة التي شرحها أمامي جوزف أبو خاطر سفير لبنان في القاهرة حين زارني في مكتبي في النصف الثاني من شهر آذار/ مارس ١٩٦٥ وهو يطلب «مداخلتي»، وقلت للسفير اللبناني:

«أنا أعرف هذا وأكثر من هذا، وما هي «المداخلة» التي أستطيعها؟».

قال: «إن فخامة الرئيس حلو سيسافر إلى فرنسا في مطلع الشهر القادم ليجتمع بالرئيس ديغول لبحث حالة التوتر في المنطقة، وقد ارتأى أن يعرّج على القاهرة ليتبادل الرأي مع الرئيس عبد الناصر».

قلت: «حسناً، وماذا يطلب مني؟».

قال: «أنت على صلة طيبة مع المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة، وخاصة

مع الرئيس عبد الناصر. وإن فخامة الرئيس حلو يطمح إلى أن تفهم القاهرة ظروف لبنان الصعبة، لعل بالإمكان تأجيل العمل في المشروع العربي على أراضي لبنان ريثما تتأمن الحماية العسكرية اللازمة. ولقد رأينا ماذا جرى في سوريا».

قلت: «يا سعادة السفير، أنت تعلم رأيي في الموضوع، وقد أبديته أكثر من مرة في الاجتماعات الرسمية، أنا لا أؤمن بهذا المشروع من البداية. إن تدمير المشروع يكلف قنبلة واحدة يحملها جندي إسرائيلي واحد. إن المشروع العربي معناه في النهاية الاصطدام المسلح مع إسرائيل. والمطلوب هو الاستعداد للحرب ولا أعرف غير هذا».

وانتهى الحديث بيننا بالمجاملة اللبنانية الحلوة، وجاء اليوم الأول من شهر أيار/ مايو ١٩٦٥، وكان الرئيس اللبناني شارل حلو يحتفل مع ملايين المصريين بيوم العمال، كتفاً إلى كتف مع الرئيس جمال عبد الناصر. وخطب الرئيسان أمام الجماهير الحاشدة، عبد الناصر باللغة العامية وباللهجة المصرية، والحلو بالفصحى وباللهجة اللبنانية. والجموع تصفق، وشباب الهتاف يقاطعون الرئيس بالنداءات والشعارات.

ومن غير إفصاح ولا إيضاح بثّ كُلّ من الرئيسين شكواه إلى الجماهير، ومن استطاع أن يفهم فيلفهم. فقد أعلن الرئيس عبد الناصر أن «لبنان هدف من أهداف العدوان الإسرائيلي، وأن شعب الجمهورية العربية المتحدة عاقد العزم على ألا يمكّن لهذا العدوان من تحقيق أي هدف ضدّ لبنان أو ضدّ أية بقعة عربية من أرض أمتنا العربية». ثُمّ راح الرئيس عبد الناصر يكشف النقاب عن «أن الجمهورية العربية المتحدة تواجه ضغطاً اقتصادياً من قبل الولايات المتحدة، وأن الاتفاقية التي يتم بموجبها تصدير القمح الأمريكي إلى مصر تنتهي في الشهر القادم، وأن السلطات الأمريكية لم تتخذ أي خطوة لتجديدها». واستطرد الرئيس العربي بعد ذلك إلى قضية فلسطين، فقال: «سيأتي اليوم الذي يجنّد فيه العرب مليونين وثلاثة ملايين ويحررون فلسطين. وإن قضيتنا ليست قضية مزايدات». وراح الرئيس عبد الناصر يهاجم البعث، والجماهير من أمامه تقول «آمين».

وكان خطاب الرئيس اللبناني، في معناه ومبناه، يقدر لبنان في ظروفه المتشابكة، فأكد «أن لبنان سيظل أميناً لمقررات مؤتمرات القمة، وأن مصير جميع العرب مرتبط بنجاح قضية فلسطين المقدسة. ولا بُدَّ لنا من توحيد الصفوف وتشديد العزائم، في ما نحن إليه سائرون، وله عاملون من أجل إعادة الحقّ كاملاً إلى نصابه في الأرض العربية المغتصبة».

وقال لي المشير عبد الحكيم عامر ونحن خارجون من قاعة الاحتفالات:

«خطاب الرئيس حلو كويس أوي، مش كده؟».

قلت: «ليت الدول العربية الأخرى تعطي القضية العربية بقدر ما يعطي لبنان. لبنان يعطي، وهذه طاقاته وقدراته، ولكن الغير لا يعطي عشر قدراته».

قال: «صحيح. ليت السعودية. ليت الكويت. ليت ليبيا. ليت هذه الدول البترولية تعطي بقدر ما عندها».

قلت: «عندئذ يستطيع الرئيس عبد الناصر أن يجند ثلاثة وأربعة ملايين من أجل فلسطين، كما تمنى في خطابه».

وذهبت في المساء لزيارة الرئيس حلو في قصر القبة، وتناولنا بالحديث العدوان الإسرائيلي على سوريا، وتوقف العمل في المشروع العربي لنهر الأردن، ومخاوف لبنان من عدوان إسرائيلي غادر، وأن الرئيس اللبناني في زيارته المقبلة لفرنسا سيرجو الجنرال ديغول أن يبذل جهوده الدولية لحمل إسرائيل على وقف اعتداءاتها والالتزام باتفاقية الهدنة.

فقلت: «أرجو لفخامتكم رحلة موفقة. ولا شكّ في أن الجنرال ديغول يحبّ لبنان، وله عطف خاص على لبنان ومشاكله، ولن يتأخر عن بذل جهده في هذا السبيل. ولكن ماذا يستطيع أن يساعد إذا كان العرب لا يساعدون أنفسهم؟».

ورأيت الرئيس اللبناني ينظر في ساعته، فقد أزف موعد قدوم الرئيس عبد الناصر لعقد جلسة مباحثات. وخرجنا إلى الباب الخارجي، على حين كان الرئيس عبد الناصر يدخل القصر. وهممت بالانصراف، فإذا بالرئيس عبد الناصر يقول لي:

ـ «تعال معنا شوية. في مانع عند الرئيس حلو. نحبس الشقيري معانا ساعة، ساعتين».

قال الرئيس حلو: «الأستاذ أحمد عربي، ولكنه لبناني أيضاً، إنه من مواليد لبنان».

قلت: «أنا انحبست كثيراً في زمن الإنكليز، وأريد أن أجرب حبس «الحلو»».

ودخلنا إلى الصالة الرئيسيّة، ودار الحديث طويلاً حول الأوضاع العربية الراهنة، وأثار الرئيس الحلو الموضوع إياه: المشروع العربي لتحويل الروافد، ومخاوف لبنان من العدوان الإسرائيلي.

وتناول الرئيس عبد الناصر الموضوع بإسهاب منذُ أن نشأت أزمة تحويل مجرى نهر الأردن. وقال: «نعمل إيه؟ البعث في سوريا هو أصل المشكلة. البعث هو اللي خلق الأزمة. . . المزايدات السورية هي اللي جابت لنا المشكلة. موضوع نهر الأردن

جزء من قضية فلسطين، وقضية فلسطين محتاجة إلى وقت طويل واستعداد كبير. البعث عاوزني أحرر فلسطين. أنا ما اقدرش أحرر فلسطين. البعث طرح شعاراً لتحرير فلسطين، اليوم قبل الغد. قبل ما نصنع طائرات ودبابات ما نقدرش نحرر فلسطين. لكن نعمل إيه؟ البعث عاوز يحكم سوريا . . . ويحكم البلاد العربية. أخيراً عقدنا مؤتمرات القمة، واتفقنا على كُلّ حاجة. إسرائيل أخيراً ضربت مواقع العمل السورية. صاحت سوريا. لازم نحارب. لازم نهاجم. أنا بقول نحن لا نقدر أن نهاجم. يمكن لا نقدر أن ندافع في الظروف الراهنة. لازم نكمل استعدادنا و . . .».

وسأل الرئيس حلو: «وما العمل يا سيادة الرئيس؟ الرأي العام في لبنان في قلق شديد، ومناطق الجنوب عندنا تعيش في خوف، والأخ أحمد يعرف ظروف لبنان، وأن جيشنا على قد الحال . . .».

فقال الرئيس عبد الناصر: «أنا عندي فكرة. نؤجل موضوع تحويل الروافد بعض الوقت إلى أن نستكمل استعداداتنا العسكرية. ونتشاور مع الدول العربية حول هذه الاقتراح. وما هو رأي الشقيري؟».

قلت: «نحن في الأصل لا علاقة لنا بالمشروع العربي. والرأي للدول العربية صاحبة الشأن. وأنا كنت شرحت لسيادتك رأيي ومخاوفي من الموضوع بعد مؤتمر القمة الأول في القاهرة».

فقال الرئيس عبد الناصر: «إن رؤساء الحكومات العربية سيجتمعون في القاهرة في ٢٦ أيار/ مايو، وأنا سأفهم زكرياً محيي الدين رئيس وفدناً موقفنا. ونحن موافقون على ما توافق عليه الدول العربية».

وأحسست أن الموضوع الذي يهمني قد انتهى. واستأذنت وانصرفت، وتركت للرئيسين أن يبدآ مباحثاتهما الرسمية. وأحسب أنها كانت أقل صراحة ووضوحاً من المباحثات غير الرسمية.

وقد جاء هذا التقدير في محلّه، فقد أعلن البلاغ المشترك الذي صدر في ختام المباحثات (٤/ ٥/ ١٩٦٥) أن الرئيسين «أكدا موقفهما الثابت إزاء العدوان الصهيوني على فلسطين وتصميمهما على العمل لاستعادة الحقّ المغتصب والتزامهما بمقررات مؤتمري القمة العربيين، وبوضع هذه القرارات كاملة موضع التنفيذ». وبدا واضحاً الفارق الكبير بين كلام الغرف المقفلة، وكلام البلاغات المفتوحة التي تعلن على الجماهير.

ولم يكد الرئيس حلو يغادر القاهرة، ويبدأ مباحثاته في باريس مع الرئيس ديغول حتّى راحت إسرائيل تصعّد الأزمة، وتنذر وتتوعد، وتطلق التهديدات علناً

بأنها ستلجأ إلى القوة إذا استمرّ العرب في «العدوان» على مجرى نهر الأردن.

وجاء دور الاتحاد السوفياتي ليقول كلاماً، عسى أن يجدي العلاج مع إسرائيل.

ونطق ألكسي كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي. وكان كلامه ساخناً بعض الشيء. وأرسل السفير السوفياتي إلى مكتبي نصّ الكلام بكامله (٩/ ٥/ ١٩٦٥) يقول فيه الرئيس السوفياتي «إن اتفاق المصالح الاستعمارية والإمبريالية الغربية تجعلنا لا نستبعد حرب سويس ثانية. وإن هذه الحرب إذا قامت فلن تقتصر على الجمهورية العربية المتحدة وحدها، ولكنها ستشمل المنطقة بأسرها، وخاصة الدول العربية. إن زيارة ليفي أشكول رئيس الوزراء ووزير الدفاع الإسرائيلي إلى أوروبا هي في الواقع للاتفاق على عدوان جديد. وإن الاتحاد السوفياتي يؤيد الجمهورية العربية المتحدة بكل إمكاناته، وإنه مستعد لتقديم كُلّ المساعدة الممكنة لها».

وقد قرأت هذا التصريح ووقفت عند عبارة «المساعدة الممكنة»، وخامرني الخوف حول «الممكن وغير الممكن»، وخشيت من أن يكون هذا التعبير مما يشجع إسرائيل على المضي في العدوان، فإن إسرائيل تتلقى المساعدات الأمريكية بلا حدود، والجمهورية العربية المتحدة تتلقى المساعدات الروسية «الممكنة». وفوق هذا فإن إسرائيل تعرف أمور العرب الداخلية، وتمزق كلمتهم، وتفرق صفوفهم، وتباين أهدافهم. فلِمَ لا تمضي في العدوان، وتحقق مكاسب جديدة؟

وهذا ما كان فعلاً. فقد كنت أستمع إلى البرنامج العربي في الإذاعة الإسرائيلية (١٧/ ٥/ ١٩٦٥) وهي تنقل تصريحاً للجنرال حاييم بارليف، رئيس التخطيط والعمليات الحربية للجيش الإسرائيلي، يهدّد فيه «بأن لدى إسرائيل وسائل عسكرية لمواجهة مشروعات الدول العربية لتحويل الروافد، وأن إسرائيل لن تتنازل عن مياه الأردن».

ولم ينقض على هذا التهديد الإسرائيلي المكشوف ليلة واحدة حتّى أعلن ناطق عسكري سوري في صبيحة ١٨/ ٥/ ١٩٦٥ «أن سوريا تعرضت لأربعة اعتداءات جديدة في منطقة الدكة قريباً من خطوط الهدنة السورية ـ الإسرائيلية، وأن سوريا تقدمت بشكوى إلى هيئة الرقابة الدولية».

وفي مثل هذا الجو المأزوم المحموم هرول رؤساء الحكومات العربية إلى القاهرة (٢٦/ ٥/ ١٩٦٥) ليعقدوا ما يسمى «مجلس رؤساء الحكومات العربية»، وكانوا هم الرؤساء الذين حضروا «المجلس» الأول في مطلع العام، باستثناء وصفي التل الذي أصبح رئيساً للوزراء، وطلب إليه الملك حسين في «كتاب التكليف السامي» أن

يمضي قدماً في حمل «رسالة الثورة العربية الكبرى، ليكون الأردن خطّ الدفاع الأول عن دنياً العرب و. . و. .».

وبدأنا الاجتماعات على الصورة التقليدية المعروفة: خطبة الافتتاح، صور التلفزيون، ولائم الليل، والمشاورات الثنائية بين فندق هيلتون وفندق شبرد.

وبقدر ما كان جدول الأعمال بسيطاً لا ينبئ عن شيء، فقد كانت المداولات في داخل القاعة المقفلة خطيرة للغاية.

كان المشروع العربي لتحويل مجرى الأردن يتبخر، وكان عمل القيادة العربية الموحدة يتعثر. وتقدمت هيئة المشروع تشكو من توقف العمل في سوريا ولبنان. وتقدمت القيادة العربية الموحّدة تشكو من الدول العربية عدم تنفيذ المطالب العسكرية، وتقدمت الأمانة العامة تشكو عدم الوفاء بالالتزامات المالية.

وبدا واضحاً لأول وهلة أن الكلام الذي قيل في الجلسة الافتتاحية على مسمع من الصحافيين لينقلوه إلى الأمة العربية ليس صحيحاً على الإطلاق. فقد أعلن عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية في كلامه العلني «أن العمل في خطة الملوك والرؤساء العرب يسير قدماً بعزم أكيد في جميع الميادين». كما أعلن زكرياً محيي الدين رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة ورئيس الدورة في كلامه العلني أن «الأزمة العربية ماضية في سبيلها قدماً، وأن مؤامرات التحالف الاستعماري الصهيوني وأدواته تزيدها قوة».

وها نحن قد بدأنا الجلسات السرية، سواء في مجلس الدفاع المشترك أو في اجتماع رؤساء الحكومات، ليتضح الفارق الواضح بين السرّ والعلن.

ولم نكد نبدأ المداولات حتّى أخذ الوفد السوري برئاسة د. نور الدين الأتاسي نائب رئيس الوزراء السوري يبدأ «زحفه المقدس» نحو المواضيع المدرجة على جدول الأعمال، بالقصف الجوي أولاً، والمدفعية ثانياً، ثُمّ بقوات المشاة؛ كُلّ ذلك بالكلمات المدوية.

شرح الوفد السوري في بداية الجلسة تفاصيل العدوان الإسرائيلي على مواقع التحويل، وكيف أن القيادة العربية الموحدة لم تحرك ساكناً، وأن الدول العربية لم تتدخل في المعركة، وأنه كان يجب على الطيران المصري أن يقوم بغارة انتقامية. ثُمّ تقدم الوفد السوري باقتراحات محددة: «إنشاء قوة عربية رادعة؛ حلّ مجلس الدفاع العربي واللجنة العسكرية الدائمة؛ إنشاء مجلس دفاع أعلى جديد يشرف على القيادة العربية الموحدة؛ وأن تقوم الجمهورية العربية المتحدة، في حالة عدوان

جديد، بفتح جبهة سيناء، وغزة، وإخراج قوات الطوارئ الدولية...».

وردّ زكرياً محيي الدين بأعصاب هادئة، قائلاً: «نحن حاضرون لمناقشة جميع هذه الاقتراحات، ولكننا نريد أن نوضح مسألة مهمة. يجب التفريق بين الاعتداءات الإسرائيلية المحدودة والاعتداءات الشاملة. في الحالة الأولى، فإن مسؤولية الدفاع تقع على الدولة المعتدى عليها، وفي الحالة الثانية فإن الجمهورية العربية المتحدة وسائر الدول العربية الأخرى ملزمة بالدفاع وفق نصوص معاهدة الدفاع المشترك».

وتدخّل العقيد فهد الشاعر رئيس الأركان السوري، وقال: «لا يوجد في معاهدة الدفاع المشترك عدوان محدود، وعدوان شامل».

وقال د. نور الدين الاتاسي: «الاعتداء اعتداء. هذا ما نفهمه في سوريا». ووقعت مشادّة بين الفريق علي عامر والعقيد فهد الشاعر رئيس الأركان السوري. ووضعت سؤالي القديم الذي أثرته قبل خمسة أشهر في مجلس رؤساء الحكومات الأول: «هل القيادة العربية الموحدة لجنة استشارية للدول العربية، يرمى بتواصيها عرض الحائط؟».

ولكن ضجيج العقيد فهد الشاعر لم يترك مجالاً لأحد أن يجيب عن هذا السؤال، فقد راح يرغي ويزبد، ويندّد بالقيادة العربية الموحدة بأنها لم تحرك الطيران العربي لنجدة سوريا. وراح الفريق عامر من جانبه يدافع عن نفسه بأن مصر كانت مستعدة لإرسال سرب جوي إلى سوريا تحت قيادة ضابط مصري، ولكن سوريا رفضت ذلك وأصرّت على أن تكون القيادة لضابط سوري.

ولم يستطع أحد أن يفضّ الخلاف، لأن الآخرين كان عليهم مخالفات مالية أو عسكرية، أو الاثنان معاً كالأردن. ولكني عدت مرة ثانية أطرح سؤالاً ثانياً، قلت: «يا أخ فهد الشاعر، أنتم في حزب البعث تدعون إلى الوحدة العربية، فما معنى الكلام عن قائد مصري وسوري؟ هذا من ناحية سياسية، ومن ناحية عسكرية، هل لي أن أسأل: هل ستكون المعركة بيننا وبين إسرائيل على أساس مصري وسوري، في حين أن جيش العدو فيه البولوني والأمريكي والبريطاني والحبشي، وكلهم يقاتلون تحت راية إسرائيل؟».

ولكن العقيد الشاعر لم يجب عن سؤالي. وتشاغل في حوار جانبي مع اللواء عبد المنعم رياض عن عدد الطائرات والمدافع في الجبهة السورية.

وهدأ الاجتماع قليلاً، وامتص العقيد فهد الشاعر رغوته وزبده من بين شفتيه، واقترح أن يقوم الأردن ولبنان بهجمات مضادة على إسرائيل، انتقاماً لعدوانها على

سوريا. ولكن الفريق علي عامر طلب وقف الحديث في الخطط العسكرية، محذراً من أن إسرائيل تريد أن تستدرج الجيوش العربية إلى معركة ليست مستعدة لها في الوقت الحاضر، وأشار على سوريا بأن تقوم بأعمال التحويل في المناطق البعيدة عن «حدود» إسرائيل.

وظن وصفي التل رئيس وزراء الأردن أنّه وجد فرصته الذهبية، فقال إنه لا يوافق على دخول القوات العراقية والسعودية إلا بعد أن تستكمل القيادة العربية الموحدة استعداداتها العسكرية.

واستأذن اللواء عبد المنعم رياض من رئيسه الفريق عامر أن يتكلم، فقال: «إن دخول القوات العراقية والسعودية إلى مراكزها المحددة لها في الأردن هو جزء من الاستعدادات العسكرية، وإن معارضة الأردن تعطل كُلّ خططنا العسكرية وتعرّض موقفنا للخطر».

ولم يقنع وصفي التل بهذا الجواب، وراح يفند أقوال اللواء عبد المنعم رياض مستعملاً بعض التعابير العسكرية مثل: الحشد، التعبئة، مركز القوة، الالتفاف، فسألني جاري المزمن رئيس الوفد المغربي: «وهل السيد التل عسكري؟». قلت: «نعم. لقد كان ضابطاً في الجيش البريطاني لمدّة ستة أشهر في الحرب العالمية الثانية».

وفي بداية الجلسة الثانية لاجتماع الرؤساء أنفسهم، طلب وصفي التل الإذن بالكلام، وبدأ يقرأ من أوراقه، فقال: «إن وحدات من الجيش الإسرائيلي مؤلفة من قوات المظلات ولواء المشاة الخاص قامت بثلاث غارات على ثلاثة مواقع أمامية في الجانب الأردني من خطوط الهدنة. الغارات بدأت قبل منتصف الليل (٢٨/ ٥/ ١٩٦٥) وشملت قرية المنشية في شمال الأردن، وجنين وقلقيلية». وبعد أن سرد تفاصيل العدوان، أنهى وصفي التل «بلاغه» قائلاً: «إن الأردن مستعد لردّ مثل هذا الاعتداءات، وإنه لا يطلب أي مساعدة».

وأحسست أن هذا العدوان الإسرائيلي قد هبط من السماء لأبذل محاولة أخيرة لحمل رؤساء الحكومات العربية على اتخاذ موقف صارم إزاء الأردن، فقلت:

«لو أن الأردن سمح بدخول القوات العراقية والسعودية إلى داخل الأراضي الأردنية، كما طلبت القيادة الموحدة، لأمكن الردّ على الغارة الإسرائيلية».

فقال وصفي التل: «نحن لسنا كغيرنا ـ معرِّضاً بسوريا ـ نحن قادرون أن نردّ الصاع صاعين».

قلت: «منذُ أن وقعت اتفاقية الهدنة في عام ١٩٤٩ لا أعلم أن الأردن قد ردّ

على إسرائيل في غارة واحدة انتقاماً لآلاف الغارات التي شنتها إسرائيل».

قال: «إن رقم «آلاف» مبالغ فيه كثيراً، وهذا هو أسلوب منظمة التحرير».

قلت: «إن معي الآن كشفاً مؤرخاً في ١٠/ ٤/ ١٩٦٥ موقّعاً من المقدم محمّد داود رئيس الجانب الأردني في لجنة الهدنة المشتركة يذكر فيه: «أن إسرائيل أطلقت النار على الأردن ١٣٧٥ مرة، واجتازت قواتها خطّ الهدنة ١٧٢ مرة، وحشدت قواتها على الحدود ٧٤ مرة، وطردت السكان العرب من إسرائيل إلى الأردن ٧٧ مرة، واعتدت على مدينة القدس ٥٣١ مرة، وقامت باعتداء جوي ٤٢٩٩ مرة».

وكان ما أجاب به وصفي التل أن قال: «نحن لا نريد أن ندخل في حوار مع منظمة التحرير». وهكذا طوي هذا الموضوع مع الموضوع الكبير، العدوان الإسرائيلي على سوريا، وجرى تحويله إلى مؤتمر الدار البيضاء.

ومضت بضع دقائق في تهامس بين الوفود، وإشارات وغمزات، كأنهم يهمون «باقتحام» موضوع معين. وانكسر الصمت على حركة «شاعرية» من الوزير السوداني محمّد أحمد محجوب، فتكلم عن التضامن العربي وما تتطلبه المعركة الحاضرة من توحيد الصفوف وتنقية الجو العربي من الشوائب، وعرّج على قضية اليمن، وتمنى على الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية أن يعملا على تسوية هذا الموضوع لتتفرغ الأمة العربية بكل طاقاتها إلى معركتها الحقيقية مع إسرائيل.

وساد الجلسة جو من الصمت، وبقي رئيس الوفد السعودي الأمير فهد بن عبد العزيز، بوجهه الصبيح، ساكتاً، كأن الأمر لا يعنيه، ومن ورائه عمر السقاف وطاهر رضوان (السعودية) يدوّنان كلام الوزير السوداني، ويراقبان لمحات الوجوه على باقي أعضاء الوفود.

وصاح محجوب بسودانيته الصارمة: «تكلم يا أخ فهد». وتكلم الأمير فهد فقال: «نحن لسنا طرفاً في النزاع، هذا موضوع يخص أهل اليمن في ما بينهم، ونرجو أن يصل الفريقان إلى تسوية بينهم تحقن الدماء. والمهم أن تكَفّ القوى الخارجية عن التدخل في أمور اليمن الداخلية، أما نحن فلسنا طرفاً في النزاع، وكُلّ ما يهمنا ويهم كُلّ عربي مخلص، وكُلّ مسلم مؤمن، أن تنتهي الحرب اليمنية، وأن يقرر الشعب اليمني مصيره بنفسه».

ولم يكن كلام الأمير فهد جديداً على المجلس، ولا على الرأي العام العربي، فمنذ أن نشبت الثورة في اليمن، والملك فيصل يردّد هذه العبارات الجميلة من غير زيادة ولا نقصان، وبكل «براءة».

ولقد حاولت الوفود العربية أن تفتح ملف القضية اليمنية، وأن تحمّل الأمير فهد على أن يتزحزح قيد أنملة عن موقفه، ولكن الموضوع بقي جامداً في مكانه من دون أن يستطيع مجلس الرؤساء أن يؤدي أي دور، ووضع الأمر في قائمة الديون الكثيرة المتخلفة على الجامعة العربية.

والواقع أن قضية اليمن لم تكن مدرجة على جدول الاجتماعات العربية، ولكن الوفد السوداني، قياماً بدوره التقليدي في هذه القضية، كان يتسلل إلى بحثها من خلال موضوع «الموقف العربي العام»، وهو عنوان مزمن قديم يدرج على جدول أعمال الاجتماعات العربية. وأصبح مع الزمن ميداناً للخطب الحماسية، حتّى غدا أشبه بسوق المزاد يتبارى فيه المشترون والبائعون، ولكن من غير أن يدفعوا مالاً، أو يستلموا بضاعة.

وهكذا انتهت قضية اليمن، القضية التي كانت تستنفد الجهود والأرواح والأموال بلا حساب، من قبل القاهرة والرياض وصنعاء. انتهت تلك القضية كذلك من غير نهاية، لتحسمها في النهاية قوة السلاح في الميدان، ولتنعم إسرائيل بعد ذلك، فإن الميدان بعيد بعيد، في جبال اليمن ووديانها، لا على جبال فلسطين ولا في وديانها.

ثُمّ جاء دور القضية الكبيرة الخطيرة، قضية العلاقات الألمانية ـ العربية، وتلا الأمين العام التقارير التي بعثها السفراء العرب في بون، ومناشدتهم رؤساء الحكومات العربية أن يتخذوا موقفاً موحداً حاسماً.

وتكلم رؤساء الوفود كلاماً غاضباً مزمجراً. واستعرضت بدوري تاريخ هذا الموضوع منذُ عام ١٩٥٢، منذُ أن عقدت اتفاقية التعويضات الألمانية ـ الإسرائيلية. واستنهضت همة الرؤساء إلى المبادرة لتنفيذ القرارات السابقة، والموافقة على المقاطعة الاقتصادية وما إليها.

وتنطّح رئيس وزراء الأردن وصفي التل، وهو يحسب أنّه ليس عندي في هذا الموضوع إلا الكلام العائم، فقال: «هل عندك معلومات محدّدة موثقة بالأرقام. إن معركتنا هي معركة أرقام وإحصاءات».

قلت: «نعم. أليس عند الحكومة الأردنية أرقام وإحصاءات حول هذا الموضوع؟».

قال: «لم نحضر هذا الملف معنا. نريد أن نعرف المعلومات التي عند منظمة التحرير».

قلت: «إذا كان الأردن لم يحضر الملف معه، فإن المنظمة حاضرة أن تزوّدهم بما عندها».

قال (متحدياً): «إذا كان عندكم أرقام، وقائع، إحصاءات، نحن نريد أن نسمعها».

قلت (وهنا فتحت ملفاتي وبدأت أسرد امام المجلس): «إنه نتيجة للاتفاق السري الذي تمّ بين أديناور، مستشار ألمانيا الاتحادية، ورئيس وزراء إسرائيل بن غوريون في عام ١٩٦٠ حصلت إسرائيل على الأسلحة والمعدات الآتية:

١- ٢٠٠ مدفع عيار ٤٠ مليمتر من طراز ٧٠ مزوّد بأجهزة رادار.

٢- ٥٠ مدفع عيار ٤٠ مليمتر مضاد للطائرات من نوع م -٤٢.

٣- ٣٦ مدفع عيار ٢٠٥ مليمترات مزودة بأجهزة الحركة من الطراز الأمريكي.

٤- ١٥ طائرة هيلوكوبتر طراز س ٥٨ أمريكية الصنع.

٥- ٢٤ طائرة نور أطلس.

٦- ٨٠ دبابة من طراز جنرال باتون الأمريكية.

وجميع هذه الأسلحة هدية بلا مقابل».

وتابعت كلامي قائلاً: «ثُمّ إنه تمّ اتفاق جديد لتزويد إسرائيل بـ:

من الطائرات

٤٨ قاذفة مع طائرات نقل من طراز أطلس، وعدد من طائرات هيلوكوبتر هـ ـ ٣٤.

٢٧ من طائرات المواصلات، والملاحظة الجوية طراز -٥.

من المدرعات

صفقة دبابات طراز ٤٧ و٤٨ جنرال باتون.

ناقلات مدرعة صغيرة طراز س ـ ج ـ ٢ هوتشيكوس.

ناقلات مدرعة س ـ ج -٣٠ لأعمال الاستطلاع الحربي.

صفقة دبابات ألمانية الصنع من الطراز الجديد ليوتارد.

من المدفعية

٣٦ مدفعاً من عيار ١٠٥ مليمترات الحركة، ولها جرارات من النوع الأمريكي.

٣٦ مدفعاً من طراز هاوزر ١٥٥ على جرارات أمريكية الصنع.

من القطع البحرية

٦ زوارق طوربيد جاغوار.

معدات ومهمات الضفادع البشرية.

غواصتان ساحليتان، حمولتهما ٢٥٠ طناً و٣٠٠ طن.

من الصواريخ

حصلت إسرائيل من ألمانيا الغربية على عدد من الصواريخ الأمريكية الصنع من طراز حديث تستخدم من الأرض إلى الأرض».

وسكت رئيس وزراء الأردن، وأنا اختم كلامي إليه قائلاً: «هذه بعض الأرقام والوقائع والإحصاءات، وإذا كان السيد التل يريد المزيد، فعندي المزيد وزيادة».

وشكر الرؤساء واحداً واحداً رئيس منظمة التحرير على بياناته «القيمة المسهبة التي كشفت عن خطورة هذا الموضوع». ولكنهم كانوا كالجبل تمخضوا فولدوا قراراً، لا جرواً ولا فأراً.

وكان القرار بنصه الكامل: «أحاط المجلس بالتطورات الأخيرة في علاقات ألمانيا الغربية بإسرائيل، وقرر أن تتابع الأمانة العامة الموضوع، وتعرض ما يجد فيه من تطورات».

وتولاني الذهول أمام هذا القرار «الرزين» المشين، فالتزمتُ الصمت في بقية الجلسات. وفهمت يومئذ قيمة الكلمة المأثورة «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب». وتوالت بعد ذلك القرارات، هزيلة، ولا تزال أوراقي تئن من تفاهتها.

ومن هذه القرارات:

١ ـ تأكيد مسؤولية الأمم المتحدة تجاه اللاجئين الفلسطينيين.

٢ ـ تأليف لجنة مراجعة مشروع بروتوكول الإقامة والسفر والعمل للفلسطينيين.

٣ ـ أحاط المجلس علماً بما تضمنه تقرير رئيس مجلس إدارة هيئة استغلال مياه نهر الأردن عن سير العمل في المشروع العربي الموحّد.

٤ ـ أحاط المجلس علماً بما تضمنه تقرير الأمين العام عن تنظيم علاقات الدول العربية بالدول الأجنبية على أساس مواقفها من قضية فلسطين.

و . . و . . وغيرها من هذه القرارات التي تبدأ دائماً «أحاط المجلس علماً» التي تجعل الجامعة العربية جديرة بأن تسمى «مجلس أحاط علماً».

ولكن القرار الذي كان آية في السخرية هو ما قرره المجلس في «دعوة الدول العربية إلى المبادرة لسداد المبالغ المتأخرة كفالة لوضع الخطط العربية موضع التنفيذ التام الناجز». ووجه العجب أن الدول العربية تناشد نفسها، أو كأنما مجلس الجامعة ليس مؤلفاً من دول الجامعة.

وخرجنا من قاعة الاجتماعات مثنى وثلاثاً. وكنت أسير مع السيد أحمد محمّد محجوب.

فقال لي: «هل من بيت من الشعر يواسينا؟».

قلت: «ما أصدق هذا البيت على مجلس رؤساء الحكومات العربية في اجتماعنا هذا:

فيا حجر الشحذ حتّى متى تسنّ الحديد ولا تقطع».

فدوّنه الرئيس السوداني في مفكرته وانصرف إلى فندقه. وانصرفت إلى بيتي، أضع أوراقي في مكانها. وكانت آخر عبارة دونتها: «لقد سقط الملوك والرؤساء في عام ١٩٦٥ في الامتحانات الشهرية، وفي الفصلين الدراسيين الأول والثاني. لقد تمخض الرؤساء فولدوا قراراً».

ولقد أفجعني أن العدو في الطرف الآخر لنهر الأردن كان يجتاز الامتحان شهراً بعد شهر، وراح يمضي في تحويل مجرى نهر الأردن، ونحن نمضي في تحويل الرأي العام العربي بالاجتماعات والتصريحات على غير جدوى.

ولقد كان من هذه التصريحات الكلمة الختامية التي تلاها رئيس الاجتماع زكرياً محيي الدين وأعلن فيها «أن الاجتماع قد أكد للعالم أجمع أن أمتنا عرفت طريقها».

ولكن الرئيس عبد الناصر أحسّ أن الأمة العربية تريد أن تسمع «على المكشوف» كما كانت تطالبه دائماً.

وهكذا كان، فقد اغتنم فرصة اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني الثاني (٣١/ ٥/ ١٩٦٥) وألقى خطاباً «شاملاً»، كشف فيه عن ضعف الجامعة العربية، وهاجم الرجعية العربية، والبعث السوري، وقال: «طيب النهار ده إذا كنا غير قادرين على الدفاع إزاي نتكلم على الهجوم؟ البعثيين السوريين يهاجموا الدول العربية كلها، وبهذا بنحسّ أنّهم يلمّحوا علينا. بيقولوا فيه البوليس الدولي، والبوليس الدولي يمنع مصر

من الحرب. طيب نشيل البوليس الدولي، وبعدين حانعمل إيه، بقولوا حاربوا، لازم نحارب إسرائيل النهار ده، ليه؟ . . قد تتمنى إسرائيل فعلاً أن نحن نحاربها النهار ده. إذا كنا غير قادرين على تحويل النهر النهار ده نقول نؤجل التحويل لغاية منكون قادرين على حمايته».

ولم يمض يومان على هذا الخطاب حتّى انبرى وزير الإعلام السوري ومعه الإذاعة السورية باتهام الرئيس عبد الناصر بأنه «يحاول إرضاء الرجعية المتخاذلة، وأنه يتاجر بقضية فلسطين ويدخل التقاعس إلى قلوب أبناء الشعب العربي».

وفي اليوم الثاني على التحديد (٥/ ٦/ ١٩٦٥) عقد الملك فيصل مؤتمراً صحافياً في جدة أعلن فيه أنّه يجب «إثبات النية الصادقة في استرجاع فلسطين قبل البحث في وسائل استرجاعها، وأن مؤتمرات القمة لم تفرق بين الاعتداءات المحلية والعامة». وقد أراد الملك فيصل بهذا التصريح أن يعرّض بالرئيس عبد الناصر. ولكن خانه ذكاؤه فقد يبقى السؤال بلا جواب: و«ماذا عمل الملك فيصل، إذا كان الرئيس عبد الناصر قد تقاعس؟».

ولكن هذا الكلام العربي كُلّه، المنبعث من العواصم العربية، قد مسحه كلام مفجع، صدر عن أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي، تعقيباً على مؤتمر رؤساء الحكومات العربية حين قال: «إن هذا المؤتمر هو بمثابة ورق يلصق فوق الشقوق في واجهة الوحدة العربية».

لقد كان هذا الكلام أشدّ إيلاماً من العدوان الإسرائيلي نفسه. ولم أدر ما العمل، فهؤلاء الملوك والرؤساء، وكثيراً ما تقلبت في فراشي، وهذا السؤال في رأسي: أجل ما العمل؟ لم يكن أمامي إلا أن أمضي في الشوط إلى نهايته، إلى يوم الكارثة، إلى حرب الأيام الستة. وليت القدر حجبها عني فلا تراني. أو ليت القبر حجبني عنها فلا أراها. ﴿**يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكُنتُ نسياً منسيًا**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة مريم،» الآية ٢٣.

بالله عليك.. أخبر الملوك والرؤساء بما رأيت

وكما كان عام ١٩٦٥ امتحاناً للملوك والرؤساء، كان كذلك امتحاناً للشعب الفلسطيني البطل. وعلى حين سقط الملوك والرؤساء، فقد نجح الشعب الفلسطيني على رغم صعوبة الامتحان، ذلك أن الشعب إذا أراد استجاب له القدر، ولان له الحجر.

وحين كانت تترنح مشروعات تحويل روافد الأردن، ومعها خطط القيادة العربية الموحدة، في كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس وأيار/ مايو من ذلك العام، كانت إرادة الشعب الفلسطيني تشق طريقها لتحقق إنجازات رائعة.

وكان شعبنا في ظمأ لا يرتوي لاستكمال مؤسساته القومية، فلم يكتف بقيام كيانه متمثلاً في منظمته، ولا بإنشاء جيشه عنواناً لآماله، ولكنه كان دائماً يريد المزيد، في مثل جهنم، والعياذ بالله أن تقول: هل من مزيد؟

وقد رأينا أن يكون هذا المزيد نشاطاً دائباً في الخارج، وتنظيماً دائماً في الداخل. وقد تمثل النشاط الخارجي في إرسال الوفود إلى أوروبا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا. ولقد كانت خطوة جريئة حقاً أن تقوم منظمة التحرير في بداية نشأتها بهذه المبادرة، وهي لم تثبت بعد أقدامها على الأرض العربية، فما معنى أن تلقي مراسيها على شواطئ هذه القارات الشاسعة؟ ولكن الشعب الفلسطيني معروف بمغامراته ومبادراته.

وهكذا كان، فقد انطلق وفد فلسطيني إلى دول أمريكا اللاتينية، وآخر إلى أوروبا، وثالث إلى أفريقيا، وقد وقع الاختيار على رجال وشباب من الشعب الفلسطيني معروفين بوطنيتهم وعلمهم بالقضية الفلسطينية، ليؤدوا هذه الرسالة.

وقد حملت الوفود معها رسائل موقّعة من رئيس منظمة التحرير إلى رؤساء الدول ووزرائها، كأول بادرة على بروز الشخصيّة الفلسطينية في المجال العالمي.

ولم تكد الوفود الفلسطينية تصل إلى الأقطار المخصصة لها حتّى بدأت تتوارد التقارير المسهبة عن نشاطها، وانفتاح الطريق أمامها للدعوة إلى القضية الفلسطينية. ومع التقارير كانت تصلنا قصاصات من الصحف فيها أحاديث الوفود ولقاءاتهم مع الرجال المسؤولين، من رؤساء ووزراء. وأخذت إذاعة منظمة التحرير تنقل أخبار هذه الوفود، والشعب الفلسطيني ممتلئ طرباً بهذه الأخبار، ويودّ لو يغني مع أم كلثوم أغنيتها الشهيرة، «ردّت الروح». فالواقع أن الشعب الفلسطيني قد ردّت إليه روحه.

ففي أمريكا اللاتينية اجتمع الوفد الفلسطيني بعدد من رؤساء الجمهوريات ووزراء الخارجية، وشرح لهم القضية الفلسطينية بكل أبعادها، وعقد مؤتمرات صحافية أوضح فيها مطالب الشعب الفلسطيني وما يعانيه اللاجئون من البؤس والحرمان. واجتمع بالجاليات العربية ونقل إليهم تطلعات الأمة العربية وآمالها في تحرير فلسطين.

وكانت الطائرات تنقل الوفد الفلسطيني من عاصمة إلى عاصمة، ومن مدينة إلى مدينة، فالبلاد شاسعة والوقت قصير. وأفراد الجاليات العربية يبرقون من قراهم يريدون أن يستضيفوا الوفد الفلسطيني، ويأخذون معه صوراً تذكارية، وأن يتبرعوا إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

وبدأت ترد إلينا التبرعات، وحمدت الله أنها جاءت في وقتها، فقد نفد ما كنت اقترضته من عبد الخالق حسونة، الأمين العام للجامعة «مبلغ عشرة آلاف جنيه إسترليني» لتسديد نفقات الوفود، وكان التخلف في دفع الالتزامات هو القاعدة، وهو الأصل.

وكان للسفراء العرب جهد مشكور في تيسير مهمة الوفد أمام الصعاب الضخمة التي كان يفتعلها سفراء إسرائيل والمؤسسات الصهيونية، حتّى بلغ من وقاحة ممثلي إسرائيل أنهم احتجوا لدى دول أمريكا اللاتينية لاستقبال «أشخاص موفدين من قبل ما يسمى بمنظمة التحرير الفلسطينية من غير أن تكون لهم أية صفة رسمية أو قانونية». وانطلقت الصحف الموالية للصهيونية تشنّع على الوفد الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية، وتنكر على دول أمريكا اللاتينية استقباله «لأن الشعب الفلسطيني يريد بصراحة إزالة إسرائيل من الوجود، وهي دولة عضو في الأمم المتحدة. وكيف ترضى بذلك دول أمريكا اللاتينية المعروفة بولائها العريق للقانون الدولي، وتمسكها بحقوق الدول وواجباتها؟».

وفي أفريقيا كان للمنظمة وفدان يطوفان فيها، واحد مخصص للدول الناطقة

باللغة الإنكليزية، وآخر للناطقة بالفرنسية. وراح الوفدان يجتمعان بالرؤساء والوزراء يشرحان لهم القضية الفلسطينية على أنها قضية تحريرية، مثل قضاياهم التي كافحوا من أجلها طويلاً. وكانت لي معرفة بكثير منهم يوم وقفوا على عتبات مؤتمر باندونغ (عام ١٩٥٥)[١] حين توليت الدفاع عن قضاياهم، ثُمّ ازدادت معرفتي بهم بعد ذلك وهم ينتظرون على أبواب الأمم المتحدة أعواماً طويلة، وأنا امضي في نصرة قضاياهم. وها قد جاءت الأيام ليقف الوفد الفلسطيني على أبوابهم بعد أن أصبحوا رؤساء ووزراء ﴿**وتلك الأيام نُداوِلها بين الناس**﴾[٢] صدق الله العظيم.

وقد قام السفراء الإسرائيليون في أفريقياً بحملة مضادة لنشاط الوفد الفلسطيني، وهم يركّزون دعايتهم على أن إسرائيل «كافحت» مثل الأفريقيين في «حرب تحريرية» ضدّ بريطانيا للظفر باستقلالها، وأن اليهود ضحايا الاضطهاد النازي واللاسامية، تماماً كالأفريقيين ضحايا التمييز العنصري والاستعمار الأوروبي.

وقد جاءت هذه الدعاية المضادة لتشحذ عزائم الوفد الفلسطيني، فأبدى نشاطاً عظيماً في الكشف عن حقيقة إسرائيل، وأنها دولة عدوانية توسعية عنصرية.

وكما جرى في أمريكا اللاتينية، فقد نهضت الجاليات العربية في أفريقياً، ومعها السفارات، لتيسير السبيل أمام الوفد الفلسطيني للمقابلات الرسمية، وإقامة الندوات والولائم، وتحولت الاجتماعات في الدول الصديقة إلى مهرجانات شعبية لتأييد كفاح الشعب الفلسطيني.

أما الوفد الذي سافر إلى أوروبا، فلم يكن حظه كبيراً في النجاح، ذلك أن النفوذ الصهيوني معشعش منذُ زمن طويل في الأقطار الغربية، فسيطر على صحافتها وإذاعتها وأجهزتها الرسمية. ومع هذا، فقد استطاع الوفد الفلسطيني أن يتنفس في أروقة الأوساط المسيحية، في فرنسا واليونان وغيرهما.

ولقي الوفد الموفد إلى الفاتيكان كثيراً من اليسر في أداء مهمته. فقد سلم رسالة المنظمة إلى قداسة البابا، واجتمع بوزرائه، وشرح لهم خطر الحركة الصهيونية على المقدسات المسيحية في فلسطين، وألقى بعض المحاضرات في الأوساط الدينيّة. وكانت لي علاقات وصداقات مع الفاتيكان ورجاله، فقد زرتهم

---

(١) للمزيد عن مؤتمر باندونغ، انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٤٠.

غير مرة، وكنت على صلة بهم عن طريق ممثلهم في الأمم المتحدة[٣].

وعلى الجملة، فقد عادت الوفود الفلسطينية من رحلاتها، بعد أن أدت واجبها على أكمله، والأمل يحدوها بأن تستطيع المنظمة، إذا توافرت لها الإمكانات المالية، أن تفتح مكاتب للدعاية في هذه القارات. ولكن عسى ولعلّ.

وحينما كانت الوفود الفلسطينية تنقل إلى العالم آمال الشعب الفلسطيني في تحرير وطنه، كانت المنظمة في الوطن تحقق إنجازات أخرى لها فوائد جزيلة في الداخل والخارج.

وكان من أوائل الإنجازات، قيام اتحاد الطلبة الفلسطينيين كقاعدة شعبية من قواعد منظمة التحرير، وللطلبة شأن كبير في جميع الحركات الثورية والتحريرية، وبخاصة أن طلاب فلسطين، ومعهم الطلاب العرب، منتشرون في كُلّ أصقاع العالم، ويستطيعون بالتنظيم والتوجيه أن يؤدوا خدمات كبرى لوطنهم.

وكان من أوائل الخطوات الناجحة التي قام بها اتحاد الطلبة الفلسطينيين «الندوة العالمية» التي انعقدت في القاهرة في أواخر شهر آذار/ مارس ١٩٦٥، وقد دعا إليها جمهرة من أنصار القضية العربية في أوروبا وآسيا وأفريقيا، بالإضافة إلى اتحادات الطلبة العرب، وعدد من المفكرين العرب.

ومع أن ظروفنا المالية لم تكن ميسّرة كما ينبغي، فلم تبخل المنظمة بأي مال أو جهد لرعاية الندوة والعمل على إنجاحها. فكانت الوفود ضيوف المنظمة في القاهرة، وفي قطاع غزة، حين ذهبوا لزيارته، وللأردن يوم ذهبوا لزيارة مخيمات اللاجئين والقرى الأمامية. وكانت الجلسة الافتتاحية بالغة حدّ الروعة والإتقان والنظام، فقد قضى الطلبة الفلسطينيون أيامهم ولياليهم في الاستعداد. وكانت القاعة الكبرى لجامعة القاهرة تحت سيادة الشعب الفلسطيني وسيطرته، ولو لبضعة أيام.

وحضر الحفل الوزير كمال الدين رفعت مندوباً عن الرئيس عبد الناصر، وافتتحت الاجتماعات بخطاب وجهته إلى الوفود الصديقة، أوجزت فيه جوانب القضية الفلسطينية ومطالب الشعب الفلسطيني.

وفي هذه الأيام (عام ١٩٧٢) والبلبلة فاشية حول القضية الفلسطينية وما تعانيه من الضياع الفكري على الصعيدين العربي والفلسطيني، ألحّت عليّ مذكراتي أن أسرد

(٣) الشقيري، المصدر نفسه.

النقاط الرئيسيّة من ذلك الخطاب، لنرى أين كانت القضية الفلسطينية قبل النكسة؟ وأين أصبحت بعد النكسة؟

ـ لقد كانت فكرة جليلة حقاً أن تعقد هذه الندوة لدراسة مختلف جوانب القضية الفلسطينية، وأن تدعى إليها هذه النخبة الممتازة من رجال الفكر الحرّ في عالمنا المعاصر، وفيهم من ساهم في تأييد الحركات التحريرية في آسيا وأفريقياً وأمريكا اللاتينية.

ـ إن دراساتكم وأبحاثكم لن تكون مكرّسة للعلم وحده، على جلالة قدره، فلستم امام مسألة أكاديمية، ولكنكم ستجدون أنفسكم امام قضية حيّة تفور بالآمال والآلام، وراءها شعب عريق، يهيئ نفسه للكفاح المسلح من أجل تحرير وطنه، واسترداد حريته وكرامته الإنسانية.

ـ إنه يبدو لنا أن حرية النشر في العالم الغربي بالنسبة إلى قضية فلسطين لها معنى واحد، وهو الحرية في تأييد الصهيونية، وأن هذا الذي يسمي نفسه بالعالم الحرّ يفهم الحرية على أنها حرية في تأييد الحركة الصهيونية من جانب، وحرية في طمس معالم القضية العربية من جانب آخر.

ـ يجب أن يكون واضحاً أن تحرير فلسطين هو أكبر أهداف الأمة العربية، عليه يتوقف مصيرها ووجودها، ومن أجل ذلك فإن قضية فلسطين لا تقبل أنصاف الحلول ولا تخضع للمساومات. وليس هذا موقفاً نابعاً من عواطف متطرفة، وإنما أملاه التفكير الهادئ، والحساب الدقيق للخطر الصهيوني في حاضره ومستقبله، لا على فلسطين وحدها، بل على الأمة العربية بأسرها.

ـ وفي خبرتي الطويلة في الأمم المتحدة تأكد اقتناعي بأن قضية فلسطين ليس لها حلّ سياسي أو دبلوماسي، وأن حرب التحرير هي الطريق الوحيد لإعادة الوطن إلى الشعب وعودة الشعب إلى الوطن.

ـ إني أحذر أن يظن أحد أن النزاع بيننا وبين إسرائيل يقوم على أساس عنصري، أو كراهية دينية، أو صراع عقائدي، أو خلاف على حدود ترسم هنا أو هناك.

ـ نحن نرى عن حقّ وتصميم أن وجود إسرائيل في حقيقته وجوهره باطل من أساسه، وأنه يجب أن يزول من جذوره، كما زال الوجود الاستعماري في أقطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ـ إن التمييز العنصري في جنوب أفريقيا، وهو المشكلة التي هزّت الضمير العالمي، قد ترك الشعب في وطنه، أما في فلسطين فقد اقتلع الشعب من وطنه،

وسترون يوم زيارتكم مخيمات اللاجئين في قطاع غزة والضفة الغربية، أبشع ظلم حلّ بالإنسان، منذُ أن كان الإنسان.

ـ إن بريطانيا وأمريكا تعلنان أن إسرائيل وجدت لتبقى، ونحن نعلن من جانبنا أنّه لا مكان لإسرائيل في وطننا، وعلى الذين يؤيدون إسرائيل أن يحملوها على أكتافهم ويغرسوها في أوطانهم، فإن وطن العرب للعرب.

ـ نحن أمة سلام، ولكن لا سلام مع إسرائيل وفيها تتمثل النازية بأبشع صورها، ونحن نؤمن بالتعايش السلمي، ولكن لا تعايش مع إسرائيل وفيها تجمعت عوامل الاستعمار والتمييز العنصري، ونحن نؤمن بمبدأ المفاوضات، ولكن لا مفاوضات مع إسرائيل، فالشعوب لا تفاوض على أوطانها ولا تساوم على حريتها وسيادتها، ونحن نؤمن بحقّ تقرير المصير، ولكن إسرائيل أشتات من مواطني جميع الدول، وعليهم أن يقرروا مصيرهم في مواطنهم الأولى، ونحن نقرر مصيرنا في وطننا.

ـ إن الحرية الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ولكنا نشترك في حمل أمانتها السامية. أنتم روّاد الحقّ، ونحن طلائع التحرير، ومن أجل هذا الهدف المقدس سنحمل السلاح.

وانتهت جلسة الافتتاح لتعقبها جلسات العمل، تعقد صباحاً وعصراً وليلاً، وقد جرت خلالها مناقشات حول القضية الفلسطينية، اشترك فها عدد من مفكري العرب، وكان بينهم أكرم الديري، الوزير السوري السابق، والمهدي بن بركة، رئيس الاتحاد الوطني للقوى الشعبية في المغرب، وحسين التريكي، مدير مكتب الجامعة العربية في الأرجنتين، ود. سيد نوفل، الأمين العام المساعد للجامعة العربية، وقحطان الشعبي، رئيس الجمهورية اليمنية الجنوبية في ما بعد، وجميعهم أسهبوا في شرح مختلف جوانب القضية الفلسطينية من نواحيها التاريخية والقانونية والدولية.

وتكلم عدد من رؤساء الوفود الصديقة معربين عن وجهة نظرهم بموضوعية وعلمية، وقد اتخذوا مواقف واضحة محددة، فقد أعلن أنتوني ناتنغ، الوزير البريطاني السابق وموقّع اتفاقية الجلاء مع مصر، أنّه يتوقع عودة الأوروبيين الإسرائيليين بالتدريج إلى أوطانهم الأولى وإعادة إنشاء دولة فلسطين من العرب واليهود الأصليين، وأن الأجيال من الشباب في إسرائيل يرفضون أسلوب دولة إسرائيل ويريدون الخروج حيثُ العالم الحرّ، وأن الحلّ هو إعادة فلسطين عربية على أن يعيش فيها اليهود في تعاون وسلام مع العرب.

وأوضح نفيل باربر، الكاتب المعروف، «أن إسرائيل لا يمكنها الاستمرار كدولة أوروبية على أرض عربية. وأعلن في كلام قاطع: «إنني لا اعتقد بإمكان قيام قوميتين داخل فلسطين العربية. إن بلادي كانت ضحية الحركة الصهيونية، وإنني آمل أن تتطور منظمة التحرير إلى حكومة فلسطينية مؤقتة تعمل على تكتيل الشعب الفلسطيني وتنظيمه على أنّه الشعب الحقيقي». وتكلم د. هومر، أحد القساوسة الأمريكيين، فقال:

«وجدت في إسرائيل أقواماً مختلفين، نجحوا بإقامة مزارع ومدن، وفشلوا في إقامة مجتمع كبير هو الوطن». وخطب كريشنا مينون وزير الدفاع الهندي السابق، وكان في ما مضى من أنصار إسرائيل، فقال: «إن التفرقة العنصرية في أبشع معانيها تستخدم الآن داخل إسرائيل، وإن الحرية تنتزع بالحق وبالسلاح». وأعلن بيير روسيه المفكر الفرنسي ما يلي: «إن الصهيونية حصلت بمعاونة الغرب على إسرائيل عن طريق الحرب، فيجب أن يقضى عليها عن طريق الحرب ولا طريق آخر، وإن الدعايات لن تجدي لأن سياسة الغرب واضحة وجميع وسائل الإعلام تحت يد الصهيونية، وأن المأساة الفلسطينية لا تحتمل غير حلّ واحد فقط هو القضاء على إسرائيل».

وألقت أثيل مانين، الكاتبة البريطانية، خطاباً مسهباً قالت فيه:

«إن إسرائيل أوجدها الاستعمار البريطاني والأمريكي. وإنه ينبغي محو إسرائيل كدولة عنصرية عسكرية». وتحدث أبو بكر حليمي، المدير السابق لجامعة كراتشي، فقال: «إن الحلّ الوحيد لمشكلة فلسطين هو إزالة إسرائيل وإعادة الفلسطينيين إلى وطنهم».

وفي مثل هذه المواقف الرائعة أنهت ندوة فلسطين العالمية جلساتها، وأعلنت في بيانها الختامي «التأييد الجماعي لحقوق شعب فلسطين في استعادة أراضيه المحتلة، ودمغ إسرائيل بالعدوان والعنصرية، وأنها عميلة للإمبريالية وللاستعمار العالمي، ومطالبة جميع شعوب العالم بتأييد كفاح شعب فلسطين، وأن الوحدة العربية من أهم عوامل استعادة الشعب الفلسطيني لحقوقه»، وغير ذلك من المواقف السديدة التي تبدو في هذه الأيام «نشازاً» إلى جانب المواقف العربية الرسمية التي تطالب بتطبيق قرار مجلس الأمن، وما فيه من اعتراف بإسرائيل وإنهاء حالة الحرب، وتصفية القضية الفلسطينية، وهذه نكسة قومية أشدّ هولاً من نكسة الأيام الستة.

ومضى أسبوعان على ندوة فلسطين العالمية وأقبلت حركة جادة نشطة في

صفوف العمال الفلسطينيين، فقد أجمعوا أمرهم على إقامة اتحاد لعمال فلسطين يجمع شتاتهم ويوحّد صفوفهم ويضعهم في مكانهم الطليعي في الحركة، وتحدد يوم ١٤/ ٤/ ١٩٦٥ موعداً لعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للعمال.

ووجهت الدعوة إلى الاتحادات العربية والدولية، وكانت غزة هي مكان الاجتماع، فقد حرصت أن يبدأ هذا التأسيس العمالي على أرض فلسطينية.

وحملتني الطائرة من القاهرة إلى العريش، وكان قطاع غزة كالعهد به في حشد كامل وتعبئة شاملة لهذه المناسبة العظيمة. وكيف لا، أليس هذا هو يوم العمال والفلاحين؟

وزاد من روعة تلك الأيام، ربيع غزة، وقد تفوحت روائح الزهور وهبت النسمات الرائقات تحمل عطر الليمون من البيارات، وهاجنا الشوق إلى يافا وبساتينها الغنّاء وبرتقالها الفواح، ويا شقاء السمع والبصر والفؤاد، حين تهيج الذكريات.

وإلى سينما النصر في غزة، ذهبت إلى مكان الاجتماع، يرافقني الفريق العجرودي الحاكم العام للقطاع، وكان لقاء مثيراً حقاً، جمع ممثلي العمال الفلسطينيين وممثلي الاتحادات العربية العالمية، والشعب في خارج القاعة، ملأ الشوارع والميادين، وملأ الفضاء بالهتاف والأهازيج.

وقفت افتتح المؤتمر مرحباً بالوفود الصديقة، وقد تجشمت مشاق السفر لتشارك العامل الفلسطيني، وهو يستأنف مسيرته على درب النضال والتحرير. وقلت: «صحيح أن مؤتمركم هو المؤتمر الأول، ولكنه الأول بعد الكارثة، فلقد نشأت الحركة العمالية في فلسطين أيام كنا في فلسطين، وأن بينكم يا عمال فلسطين من رافق هذه الحركة وساهم في نشاطها، وإن ننسَ، لا ننسى منظمات العمال في حيفا ويافا وعكا والناصرة وطبريا وصفد وبيسان وبئر السبع، وأنا أذكر الآن مدننا الغالية في الوطن السليب. إن علينا أن نذكر أن عمالنا في فلسطين كانوا دائماً وأبداً يعيشون لفلسطين ومن أجل عروبة فلسطين. لقد كافحوا مع الفلاحين والمثقفين، ومع الطلاب الشباب، وغصت بهم السجون، وعلقوا على أعواد المشانق دفاعاً عن وطنهم وحريتهم. إنني أثني على العمال بكل جدارة واستحقاق، فالذين هم في مثل عُمري يذكرون بطولة بحارة يافا في أوائل العشرينيات وهم يفجرون القنابل في وجه الهجرات اليهودية التي كانت تسندها الحراب البريطانية. ثُمّ نذكر كذلك الإضراب التاريخي في عام ١٩٣٦ الذي امتد ستة أشهر، وكان العمال والفلاحون طليعته الثائرة».

واستأنفت بعد ذلك كلامي قائلاً: «إن أبواب جيش التحرير مفتوحة أمامكم، وإن معسكرات التدريب مهيأة لكم. وإني أدعوكم إلى وحدة الهدف والصف، فإن معركة التحرير ترفض الخلاف والشقاق، والجدال، والقيل والقال، فليس لنا أن نحارب زرافات ووحداناً، ولا أحزاباً وشيعاً، ولكن نحارب شعباً واحداً وقلباً واحداً. وإني أدعوكم كذلك إلى أن يكون هدفنا الأول والأخير التحرير ولا شيء غير التحرير، فالأمة التي سلبت وطنها وأخرجت من ديارها، لا يشغلها شاغل عن التحرير، فالتحرير هو قُدس الأقداس، وهو القبلة والمحراب».

وتعاقب على الكلام ممثلو الاتحادات الدولية الصديقة من أوروبا وآسيا وأفريقيا، وكان في طليعة المشتركين وفد من جمهورية الصين الشعبية. وأعلنوا جميعاً وقوفهم إلى جانب الشعب الفلسطيني في كفاحه لتحرير وطنه[٤].

ومن الوفود العربية، تكلم أديب الجادر، وزير الصناعة العراقي وممثل الاتحاد الاشتراكي العراقي، وأحمد فهيم، رئيس اتحاد العمال في الجمهورية العربية المتحدة، فأعلنا تضامن الحركة العمالية العربية مع اتحاد عمال فلسطين والشعب الفلسطيني في نضاله لتحقيق مطالبه القومية في الحرية والسيادة والاستقلال.

وانتهت جلسات المؤتمر التأسيسي، وبعد أن فرغت لجانه من وضع الدستور والأنظمة الداخلية، أعلن أمين عام المؤتمر قيام «الاتحاد العام لعمال فلسطين» وسط هتافات الجماهير، إيذاناً بمولد قاعدة أخرى من قواعد منظمة التحرير. واختتم الاجتماع بآي من الذكر الحكيم، وكانت آخر الآيات ﴿**وقُلِ اعملوا فسيرى الله عملكم ورسُولُهُ والمؤمنون**﴾[٥] صدق الله العظيم. فكانت مسك الختام والنور الأخضر على أول الطريق، لا للعمال وحدهم، ولكن لجميع العاملين.

وتلقيت في صبيحة اليوم التالي برقية من الاتحاد النسائي في القدس لافتتاح المؤتمر العام لاتحاد المرأة الفلسطينية. وكان عليّ أن أخرج من مؤتمر إلى مؤتمر. ولكن هاجساً ألحّ بالسؤال: ولماذا لا أسافر بالسيارة من غزة إلى القدس، وهي على مرمى الحجر، كما يقولون في البادية؟ ألم أسافر بالسيارة بين القدس وغزة مرات ومرات؟ فلماذا لا أسافر اليوم إلى القدس وأكون فيها مع الغداء؟

---

(٤) عن زيارة وفد المنظمة إلى الصين، انظر: أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ١٠٥.

ولكني صحوت من هواجسي، ورجع إلي عقلي، وتذكرت. تذكرت أن ذلك عهد مضى، وأن إسرائيل قد احتلت أرضنا وديارنا، وأنه لا طريق إلى القدس من غزة إلا بالعودة إلى القاهرة، ومنها إلى القدس بالطائرة بعيداً عن خطوط الهدنة حيثما كانت.

وذلك ما جرى، فقد عدت إلى القاهرة، وأخذت طائرة الخطوط الأردنية لتنزل في مطار قلندية، على مقربة من القدس، فقد ضجرت من السفر إلى عمان، والحديث مع الملك حسين عما سيكون وما كان.

وأنزلت الطائرة عجلاتها في المطار، ورأيت جموع السيدات والأوانس في استقبالي، ومعهن الكشافات الفتيات بملابسهن العسكرية، فصافحتهن ملء جوانحي، وأنعِمْ وأكرِمْ بالمرأة العربية في الميدان.

وكانت مصادفة غريبة أني نهضت في صباح اليوم التالي، وإذا بألم في أضراسي لا يحتمل، ولم يكن مناص من أن أذهب إلى طبيب الأسنان، وأن أعمل بنصيحة الأجداد القدامى: اقلع الضرس واقلع وجعه. وذلك ما جرى، فقد قلعت الضرس، ولكن وجعه بقي معي إلى سينما صلاح الدين، إلى حيثُ ذهبت في اليوم نفسه لافتتاح المؤتمر النسائي.

وكان الحفل عظيماً في تنظيمه، فقد امتلأت القاعة بوفود المرأة الفلسطينية من كُلّ أرجاء الوطن العربي، وتراصت صفوف الوزراء والنواب والصحافيين والنقابيين ليشهدوا من جديد مولد الشخصيّة النسائية الفلسطينية لتستأنف رسالتها الوطنية.

واستعرضت في كلمتي الافتتاحية تاريخ المرأة العربية في عصر الجاهلية، وفي صدر الإسلام، وعبر العصور الوسيطة، شارحاً دور المرأة الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني وهي تكافح الاستعمار والصهيونية مع الرجل، جنباً إلى جنب وقلباً إلى قلب. ووقفت عند سيرة شهيرات النساء، عائشة أم المؤمنين ودورها البطولي في عهد الخلفاء الراشدين، وأسماء بنت أبي بكر ومواقفها الفدائية الباسلة، والخنساء أم الشهداء الأربعة من أبنائها، ونسيبة بنت كعب في قتالها و. . و. . ، وختمت بالقول إن منظمة التحرير الفلسطينية تفتح أبوابها للنشاط النسائي في الحقل الاجتماعي والصحي، وفي مجال الإسعاف الميداني.

وصاحت الشابات، وهن منبثات في كُلّ الصفوف: «بل وفي الميدان نفسه، نحمل السلاح».

وأبهجني أن يخرج هذا النداء من أفواههن، ولم أجد ما يسعفني إلا أن أردّد ما قاله المتنبي، وهو المسعف في كُلّ المواقف:

ولـو كـان الـنـسـاء كـمـن «رأيـنـا» لـفُـضّـلـتِ الـنـسـاء عـلى الـرجـال

وهنا ختمت كلمتي، والشابات يتفجرن حماسة وإيماناً وعزماً، وعدت إلى الفندق. وهناك، وهناك فقط أحسست بآلام الضرس مرة ثانية. وقد نسيته في الاجتماع، وأيقنت أن الإنسان ينسى إذا أراد أن ينسى، ويحسّ الألم حين يتذكر. ووجدت في غرفتي برقية من قيادة الجيش الفلسطيني تذكر الحاجة إلى متطوعين فلسطينيين من الأردن لينضموا إلى جيش التحرير. وكانت أيسر طريقة أمامي هي أن تنشر المنظمة إعلاناً في الصحف المحلية، تدعو الراغبين في التطوع إلى تسجيل أسمائهم في مكاتب المنظمة.

وذلك ما كان فعلاً. فقد نشرت الصحف في اليوم التالي الإعلان المطلوب، ولكنه كان أكثر من إعلان. فقد ابتهج أصحاب الصحف بهذا الحدث وزينوا الإعلان بإطار جذاب، ووضعوه في مكان بارز، حتّى أصبح قطعة فنية، ليس له صفة الإعلان.

وأقبل الشباب في الأيام التالية صفوفاً طويلة على مكتب المنظمة في الشيخ جرّاح في القدس ليسجلوا أسماءهم. واغتاظ حكام عمّان. واتصل الملك حسين برئيس وزرائه وصفي التل، يسأل: «كيف ينشر هذه الإعلان؟ وكيف نسمح للشباب أن يذهبوا إلى سوريا ليتطوعوا في جيش التحرير ويتدربوا على حمل السلاح؟ وكيف وكيف؟».

وبينما كنت أتناول طعامي في فندق الأمباسادور، جاءني محافظ القدس داود أبو غزالة، ليبلغني رسالة من «دولة الرئيس التل» يطلب فيها باسم «جلالة الملك» أن تتوقف المنظمة عن تسجيل المتطوعين، وعن التدخل في الشؤون الداخلية للمملكة الأردنية الهاشمية. نطق المحافظ أبو غزالة بهذا «الإنذار» وهو مطرق حياء من «فلسطينيته»، ولسان حاله يقول: ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ**﴾[٦].

وقلت للمحافظ وأنا اجترّ طعامي: «أخبر الرئيس التل ليخبر «جلالة الملك» أنّه إذا كانت له شكوى على المنظمة، فليقدمها إلى مؤتمر الدار البيضاء، وسينعقد في أواخر الصيف. وأنا أرفض هذا الإنذار. وسيستمر هذا الإعلان أسبوعاً آخر،

(٦) المصدر نفسه، «سورة المائدة،» الآية ٩٩.

وسنمضي في تسجيل أسماء المتطوعين، أَوَليس يكفي أن الملك حين ينكر على المنظمة أن تكون لها كتائب فلسطينية في الضفة الغربية، وهو الآن يريدنا أن نمتنع عن تدريب شبابنا خارج الحدود؟ أهذا هو «تأييد المنظمة إلى أبعد الحدود»، كما جاء في البيان الوزاري الذي أعلنته حكومة وصفي التل وأقره الملك حسين؟».

وخرج المحافظ أبو غزالة شارد الفكر في مثل شرود الغزالة. وهو يمشي على استحياء، لا يدري أين تسير قدماه.

وقضيت نهاري وشطراً من الليل وأنا استقبل الشباب من المدن والقرى، وهم يسألون ويلحّون، متى يسافرون إلى دمشق؟ متى يدخلون المعسكر؟ متى يلبسون البدلة العسكرية؟ متى يحملون السلاح؟ متى يتدربون على فنون القتال؟.

وكانت ساعات حلوة قضيتها مع الشباب، عوضتني عن مرارة اللقاء مع الملوك والرؤساء. فما أعظم الأولين، ولست أدري ما أقول عن الآخرين.

ونهضت في الصباح المبكر(٥-٩-١٩٦٥)، وجلست في شرفتي «أستحم» في فيض من أنسام القدس الوديعة الطاهرة، وأمامي المسجد الأقصى، وقد أرسلت إليه الشمس تحية الصباح بأنوارها الذهبية، فتألقت قبابه الفضية، وراح الراديو الصغير، وهو رفيقي الذي أوسده في شنطتي إلى جوار دوائي الذي أحمله معي حيثما كنت، يرتل القرآن الكريم، وما أروع أن تسمعه بأذنيك، وقلبك خاشع في بيت المقدس، وعيناك شاخصتان إلى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وكأنك تشهد الرسول الكريم وقد أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومنه عرج إلى السماء.

وانتهى ترتيل القرآن، وأعقبته نشرة الأخبار، والمذيع الأردني يتلو ما أمامه بلهجة غاضبة حزينة «أعلن ناطق عسكري أردني أن القوات الإسرائيلية قد شنّت غارة غادرة على قرية قلقيلية تحت جنح الظلام، ودمرت إحدى عشرة بئراً. واشتبكت معها قواتنا الأردنية وطاردتها إلى ما وراء خطوط الهدنة، ولم تقع خسائر في قواتنا وعادت إلى مراكزها سالمة».

ابتأست وحزنت وأنا استمع إلى هذه الأخبار، وإن كنت قد ألفت مئات مثلها تقع على طول خطوط الهدنة منذُ أن وقّعت الهدنة عام ١٩٤٩، وكان دورنا أن نحصيها عدداً. وكان سبب ابتئاسي أنّه قد انقضى عليّ إلى ذلك العهد عام ونصف، وأنا لا أفتر عن مطالبة الملك حسين بتسليح القرى الأمامية، حتّى تستطيع أن تدافع عن نفسها أمام الغارات الإسرائيلية الغادرة.

وطلبت السيارة على عجل، ودعوت رجال المنظمة، وذهبنا معاً إلى قرية قلقيلية لأرى بعيني هذه الجريمة النكراء.

وسرنا في ذلك الطريق الضيق إلى قلقيلية، وكدت أنطلق مقهقهاً، لولا أني خشيت أن يظن بي سائق السيارة أنني أُصبت بمسّ في ذلك الصباح، فلقد تذكرت أني قلت للملك حسين في إحدى لقاءاتي معه: «لماذا لا تنظمون شبكة جيدة من الطرق بين القرى الأمامية، فإن المواصلات عصب الأعمال العسكرية، وها إن إسرائيل في الطرف الآخر من خطوط الهدنة قد أنشأت طرقاً من الدرجة الأولى؟». فقال لي الملك حسين: «نخشى إذا تغلغل اليهود إلينا أن ينتفعوا بهذه الطرق ويجدوها جاهزة في خدمة أغراضهم التوسعية». ولم أر يومها فائدة من الجدل مع الملك حسين، وحديثه يقوم على فرضية راسخة، وهي أن إسرائيل ستحتل هذه الأراضي.

وقد أمسكت عن القهقهات الساخرات، لأن خاطرة أخرى لمعت في ذهني تجلى فيها الفارق الكبير: كيف يفكر الملك حسين، وكيف يفكر الشعب، وأكثر ما تجلى ذلك في قلقيلية.

وقلقيلية لم تعد اسم قرية، ولكنها حكاية بطولة، وسيرة صمود شجاع، تمثل تقاليد الفلاح الفلسطيني البطل، صانع تاريخنا وانتصاراتنا، وضحية انكساراتنا وهزائمنا.

في هدنة ١٩٤٩ التي تمت بين إسرائيل والأردن، رسمت خطوط الهدنة في قلقيلية القرية، عند بيوت القرية، أما بياراتها ذات القطوف الدانية، أما كرومها ومروجها ومراعيها وأراضيها، فقد وقعت في الجانب الإسرائيلي. هكذا أرادت إسرائيل، وكان على الأردن أن يخضع. جرى ذلك في عهد الملك عبد الله، وأصبح في ما بعد ملك المملكة الأردنية الهاشمية، جزاء وفاقاً.

وقد زرت قلقيلية مراراً بعد الهدنة، ووقفت على أسطح منازلها لأرى العمال اليهود يعملون في بيارات قلقيلية، ويزرعون في أراضيها ويحصدون. ولم يكن أمام أهل قلقيلية إلا النزوح عن الديار طلباً للرزق، ولكنهم صمدوا ولم ينزحوا.

وأهل قلقيلية البواسل أرادوا غير ما أراد لهم اليهود، فعزموا على الثبات في وجه إسرائيل، وعزموا على أن يصبحوا ويمسوا إلى جوار بياراتهم، وقد أصبح لليهود برتقالها، ولنا أريجها الحزين.

وتجمّع أهل قلقيلية، عائلات عائلات، في ما يشبه التعاونيات، واتفقوا على أن

تحفر كُلّ عائلة بئراً بحثاً عن الماء، فباعوا حلى نسائهم، وأمدهم أولادهم الذين يعملون في الكويت بوفرهم، وراحوا ينقبون الصخر حتّى تفجر منه الماء. وكانت ثلاث عشرة بئراً.

ثُمّ راحوا يقلعون الحجارة، ويسوّون الأرض، وينقلون التراب من التلال المجاورة، حتّى أصبحت لهم أرض حول قريتهم، فأجروا عليها مياه الآبار، وزرعوا البيارات الجديدة، وأخذت تنمو الأشجار، وتحمل القطوف، ويفوح الأريج، ووجدت القرية الباسلة عزاءها عما فقدت، ورزقها في ما زرعت.

وفي كُلّ زورة إلى الأردن، كنت أحجّ إلى قلقيلية، وأرى البيارات تكبر عاماً بعد عام، وشباب القرية وصباياها يقدمون إليّ عناقيد زهر الليمون. ولله ليمون فلسطين!

كنت أفكر في كُلّ هذه، وأنا في طريقي إلى قريتنا الباسلة الباسمة. . . ووصلنا قلقيلية فوجدتها باسلة غير باسمة.

طاف بنا رئيس البلدية ورجال القرية على الآبار الإحدى عشرة المهدمة، بموتوراتها المهشمة، وقصّوا الحكاية ببساطة، قالوا: «كنا ما زلنا في ساحة القرية، عند منتصف الليل، وإذا بالجنود الإسرائيليين ينسلّون من الغرب من بياراتنا، وصاح أحدهم بالعربية ألا يتحرك أحد، وتوجّهوا نحو آبارنا ووضعوا فيها الديناميت ونسفوها، إلا بئرين كان بجوارهما حارس معه بندقية صيد، أطلق عليهم النار فلم يقتربوا. ثُمّ ألقوا في القرية عشرات المنشورات باللغة العربية»، وسلموني نسخة منها.

وكان أهل القرية نساء ورجالاً وشباباً، وأنا أستمع إلى القصة يصيحون: «نريد السلاح، والله لو معنا سلاح ما رجع من اليهود مخبّر»، وانقلبت القرية إلى مظاهرة تهتف: «يا شقيري بدنا سلاح. . . هات سلاح وخذ رجال». ودخلنا المضافة، وقلت لرئيس البلدية: «هذه عشرة آلاف دينار دفعة أولى تعويضاً على المتضررين»، وسلمته الشيك على البنك العربي في القدس. «أما السلاح» فقد استأنفت حديثي، «فسنطالب الحكومة بتزويدكم بالسلاح».

وبعد أن أخذنا البيانات التفصيلية، وبعض الصور الفوتوغرافية للآبار المهدمة، اتجهنا إلى سياراتنا، والشعب من حولي يصيح: «بالله عليك، تخبر الملوك والرؤساء بما سمعت وما رأيت».

وركبت السيارة وهذه الصيحات الداوية تملأ فؤادي قبل مسمعي، ووضعت المنشور الإسرائيلي بين أوراقي لأقرأه على الملوك والرؤساء في اجتماعهم التالي في

الدار البيضاء. ووصلت إلى القدس، إلى غرفتي في فندق الأمباسادور، وتناولت جهاز الترانزيستور لأستمع إلى أخبار المساء، فإذا بالملك حسين يخطب بصوت فخم كأنه يصدر عن رجل ضخم، ويتحدث إلى «أبناء أسرتي وعشيرتي» عن العدوان الغادر الغاشم على قلقيلية، فهدّد وتوعّد، «بأننا عقدنا العزم على صدّ كُلّ عدوان بأقسى منه وأشد. وأصدرنا أوامرنا إلى قواتنا المسلحة لاتخاذ الأهبة الكاملة لمجابهة كُلّ اعتداء وحسمه بقوة مهما كانت النتائج». وكادت الجدران في غرفتي التي ألفت مثل هذا الكلام الذي يقال في أعقاب كُلّ عدوان إسرائيلي أن تنطق حجارتها صائحة: «شنشنة أعرفها من أخزَمِ!».

ولكن قضية قلقيلية لم تنته عند هذا الحدّ، فقد جاءني رئيس البلدية، من آل السبع، في اليوم التالي وهو يعيد إلي شيك العشرة الآلاف دينار.

قلت: «لماذا؟ المبلغ قليل؟ ولكن هذه دفعة أولى».

قال: «لا والله. إنه عندنا يساوي ملايين، وإن مجيئك عندنا يساوي ملايين. ولكن. . .».

قلت: «ولكن ماذا؟».

قال: «لقد اتصل بنا رئيس الوزراء وأخبرنا أن «سيدنا» سيقدم التعويضات الكاملة. ومن المستحسن أن تعيدوا المبلغ إلى المنظمة. وأنت تعرف ظروفنا مع الأردن». وتسلمت «الشيك» ودمعتان كريمتان تتفجران من عينيّ رئيس البلدية، وكأنما وقعت كارثة فلسطين في تلك الدقيقة من جديد.

وكان ذلك الإحساس بما سيكون، وبالكارثة الكبرى التي ستقع، وكانت الدموع استباقاً لحرب الأيام الستة بكل شدائدها.

لقد كانت قلقيلية أمام فوهة المدافع الإسرائيلية وسقطت، ومعها سقطت كُلّ القرى الأمامية في صبيحة اليوم الأول من حرب حزيران/ يونيو، ثُمّ سقطت الضفة الغربية بأجمعها، وجاء وقت تصفية الحساب، الحساب مع قلقيلية بالذات التي صمدت وتحدت إسرائيل على مدى عشرين عاماً.

لقد دخلت القوات الإسرائيلية إلى قلقيلية، وجمعت الأهلين في ساحة المدينة وكأنهم في يوم الحشر. وشرع سلاح المهندسين الإسرائيليين بنسف بيوت القرية واحداً بعد واحد، وأصحابها يرونها بأم أعينهم تتهاوى سقوفها وتتطاير جدرانها، حتّى بلغت مائتي بيت.

وتقاطرت باصات «إيجد» الإسرائيلية في أرتال طويلة، وراح الجنود

الإسرائيليون يسوقون الأهلين إليها ليركبوها، ويذهبوا بهم عبر الجسر إلى الضفة الشرقية، حتّى تبقى المدينة من غير أهلها.

ولكن أهل قلقيلية البواسل رفضوا أن ينساقوا إلى السيارات، وهاموا على وجوههم في الطريق إلى نابلس، وانتشروا بين كروم الزيتون، لبضعة أيام، يلتحفون السماء ويفترشون التراب، ويأكلون ما تجود به الأرض من أعشابها، وهرع الصليب الأحمر ومعهم مراسلو الصحف العالمية، ليروا هذه «القطعان» الإنسانية صامدة عازمة، لا تبرح مكانها حتّى تعود إلى القرية، إلى المنازل، إلى الأرض، إلى قلقيلية الحبيبة.

ورأت إسرائيل نفسها أمام فضيحة عالمية. فلم يكن لها خيار إلا أن تعيد الهائمين إلى بلدهم وإلى أرضهم. وهكذا عادوا. وما قصة قلقيلية إلا قصة شعب بكامله، وحكاية وطن بأسره.

تحية إلى قلقيلية الصامدة، ونحن على موعد اللقاء، إن لم نكن نحن الجيل المعاصر، فسيكون جيل الأبناء، أو جيل الأحفاد، أو أي جيل يريده القدر.

ونحن على موعد مع القدر ومع النصر. ﴿**فاصبر إنَّ وعد الله حقّ**﴾[٧] صدق الله العظيم.

(٧) المصدر نفسه، «سورة غافر،» الآية ٥٥.

حـرب الأيـام الستـة كانـت خطتنـا!

في عام ١٩٦٥، كانت الغيوم الداكنة تتجمع في المشرق العربي، ثُمّ تزحف إلى آفاق المغرب العربي لتحتشد في سمائه، وتكون في استقبال الملوك والرؤساء حين يتوافدون على الدار البيضاء ليشهدوا مؤتمر القمة الثالث.

وكان العام كُلّه سلسلة من العثرات والعقبات على الصعيدين العربي والدولي، حتّى بدا كأن مؤتمر الدار البيضاء ينعقد لا للانطلاق إلى مواقع جديدة، ولكن لترميم المواقع السابقة، وقد أصابها الدمار والانهيار.

ففي مجال العلاقات الألمانية ـ العربية بدا واضحاً أن الجبهة العربية انكشفت عن تصدّع كبير وتشقق خطير، فلم يصل رؤساء الحكومات العربية إلى قرار إجماعي، والذي وصلت إليه الأكثرية كان سحب السفراء العرب من «بون»، ووقعوا في «بون» شاسع بين ما عاهدوا وما قرّروا.

وفي مجال العمل العربي لتحويل الروافد، فقد قامت إسرائيل بضرب أعمال التحويل (١٤/ ٧/ ١٩٦٥) في الأراضي السورية، ثُمّ توالت هذه الاعتداءات، وامتدّت إلى الأراضي الأردنية، وتوقفت أعمال التحويل انتظاراً للحماية العسكرية العربية.

وعلى الصعيد العسكري، نشبت مع القيادة العربية الموحّدة، مهاترات من القيادات السورية، ومشاحنات من القيادة الأردنية، ومجادلات من القيادة اللبنانية، ولكنها تنصبّ حول تحركات الجيوش العربية لدعم القوات العسكرية لهذا البلد أو ذاك. فقد اشترطت سورية «أن تكون القوات العربية دفاعية ومزوّدة بوسائل الدفاع المتفق عليها»، واشترط الأردن أن «تدخل القوات العربية في حالة الحرب والدفاع»، واشترط لبنان «أن يكون قد استوفى كُلّ إجراءاته العسكرية، وأن تكون السلطات الدستورية والأجهزة المختصة قد وافقت على الخطط العربية المقررة»، وما

إلى ذلك من الصياغات المتعددة التي تعني شيئاً واحداً هو «الرفض في صيغة القبول». وهذا ما تعلمه العسكريون من السياسيين.

كان ذلك هو الموقف العربي في داخل الغرف الصغيرة، المقفلة الأبواب، المفتوحة النوافذ، حتّى لم يعد سراً من الأسرار. أما المواقف العلنية فقد كانت على المنابر، وفي دور الإذاعة والتلفزيون.

ففي العيد الثالث عشر للثورة المصرية أعلن الرئيس عبد الناصر أن من المواقف المؤلمة موقف «الحبيب بورقيبة عميل الاستعمار والصهيونية»، وموقف حزب البعث العربي الحاكم في سوريا «لسياسته الانتهازية ومحاولته اللعب بقضايا المصير، وبالكذب على الجمهورية العربية المتحدة في أنها كانت متخلفة في تحويل روافد الأردن أثناء الوحدة»[1].

وقبل ذلك، غداة انفرط مجلس رؤساء الوزراء العرب الثاني (٢٦-٣٠ أيار/ مايو ١٩٦٥) تفجرت موجات الأثير بين إذاعتي دمشق والقاهرة، في أعقاب الاعتداءات الإسرائيلية على المواقع السورية من تحويل روافد نهر الأردن، وصاح حكام دمشق في وجه الرئيس عبد الناصر: «أين الجيش المصري؟ أين سلاح الجو المصري؟ أين اتفاقية الدفاع المشترك؟ ألم تسمعوا أزيز الطائرات الإسرائيلية وهي تقصف الأراضي السورية؟»، إلى آخر هذه الاتهامات الضارية. وأجاب الرئيس عبد الناصر على الصيحة بصيحة أشدّ في وجه حكام دمشق، وهو يردّ «التحيّة» بأحسن منها قائلاً: «إن القضية ليست عسكرية ولكنها قضية ثقة. ما هي الضمانة إذا أرسلنا قوة جوية أن السوريين لا يدّعون بأن الطيارين المصريين سيقومون بمؤامرات ضدهم؟ وقد قلنا لهم بأننا مستعدون أن نرسل قوة جوية إذا كانوا يعطونا قاعدة جوية يمكن الدفاع عنها بقواتنا، حتّى نضمن بأنها لا تهاجم».

ولم تقف الغارات الإسرائيلية، كما لم يقف التراشق العربي بقنابل الإذاعات. فقد عرّض اللواء أمين الحافظ، رئيس مجلس الرئاسة، بالرئيس عبد الناصر في مؤتمر صحافي عقده في مبنى التلفزيون السوري، حضره د. منيف الرزاز، الأمين العام لحزب البعث، ود. نور الدين الأتاسي، نائب رئيس الوزراء. فقال: «إن الزعماء العرب الذين يقولون بأن قضية فلسطين كالحرب الصليبية في حاجة إلى مئة سنة، هم

(١) كُلّ ما يذكره المؤلّف عن سياسة حزب البعث في دمشق ليس له علاقة بقيادة الفريق حافظ الأسد، وكلام المؤلّف يقصد فيه عهد اللواء جديد ونور الدين الاتاسي، ومن قبلهما عهد الفريق أمين الحافظ.

زعماء ضعفاء عاجزون ومتخاذلون، وإن قنبلة المدفع أفضل من الصواريخ التي تصنعها الجمهورية العربية المتحدة، ونحن نتمنى أن تكون هذه الصواريخ ذات رؤوس نووية».

سمع عبد الناصر هذا الكلام، وظلّ رابضاً إلى أن جاءت مناسبة ذكرى الثورة المصرية في ٢٣/ ٧/ ١٩٦٥، فوثب على البعث في خطاب لاهب قال فيه: «سياسة البعثيين هي نكسة أخرى. هناك حقد في قلب البعثيين ضدّ الجمهورية العربية المتحدة. والبعثيون ماعندهمش مانع يتعاونوا مع الشيطان إذا كان هذا يؤذي مصر، لأن الحقد موجود في قلوبهم. أساليب حزب البعثيين كلها أساليب غدر وخداع وطعنات في الظهر. ولم ينالنا من البعثيين إلا طعنات في الظهور ودس ودسائس».

حتّى قضية اليمن المقدسة التي بذل فيها عبد الناصر زهرة شباب مصر، وأنفق فيها الملك فيصل زبدة الثروة السعودية، لم تخل من الحوار بين القاهرة ودمشق، فقد صاح الرئيس عبد الناصر غاضباً وهو يقول: «حملات البعثيين علينا مستمرة من سنين، ولن تنتهي، النهار ده بيتكلموا على اليمن، بيقولوا إن الجمهورية العربية المتحدة بقوتها في اليمن بتتدخل في اليمن، وإننا عاوزين نترك اليمن، طيب وإنتو عملتوا إيه؟ انتو يا حضرات البعثيين عملتوا إيه لليمن؟ كُلّ اللي عملتوه تلغراف واحد بعثتوه لليمن، وقالوا: إنهم لكُلّ مساعدة مادية ومعنوية. طيب دفعوا إيه بعد كده؟ دفعوا ليرة؟ كلام جعجعة».

هذا وغير هذا من «التلاحم» الثوري بين دمشق والقاهرة على الصعيد العربي، كما سمعته من الرئيس عبد الناصر وهو يخطب على الجماهير العربية، أو مما عرفته في دمشق أثناء زياراتي لها.

أما على الصعيد الفلسطيني أو على صعيد منظمة التحرير بالذات، فقد أخذت المصاعب تتكاثر وتتفاقم، فكثير من الدول العربية تخلفت عن التزاماتها لجيش التحرير، حتّى إنّ اللواء عبد المنعم رياض معاون الفريق علي عامر، جاءني يشكو أن صندوق القيادة العربية الموحدة ليس فيه ما يقوم بنفقات جيش التحرير. ولم يخرج من مكتبي إلا بعد أن سلمته شيكاً بمبلغ مليون جنيه إسترليني من أموال الصندوق القومي الفلسطيني، ولو على سبيل السلفة. هذا إلى جانب الشكاوي الكثيرة التي كان يردّدها الضباط الفلسطينيون في جيش التحرير، من أن الضابط المصري في غزة، أو الضابط السوري في دمشق، أو الضابط العراقي في بغداد، يسيء معاملتهم، أو يمنعهم من ممارسة صلاحياتهم.

ورأيت من واجبي قبل السفر إلى الدار البيضاء أن يكون الشعب الفلسطيني على

علم ببعض المصاعب التي تعانيها منظمة التحرير الفلسطينية، فوجهت عن طريق إذاعتنا خطاباً طويلاً أضع أمام الأجيال الصاعدة والوافدة بعضاً من عباراته لتعيش مع تلك الحقبة العربية بلحمها ودمها. قلت: «إن من حقّ الشعب الفلسطيني أن يعرف أين تقف قضيته، قبل أن يعرفها الملوك والرؤساء، فقد انتهى إلى غير رجعة ذلك الزمان الذي كانت تعالج فيه قضية فلسطين في الاجتماعات المقفلة محجبة وراء الأستار، تكتنفها أشباح من الأسرار، ثُمّ تصرّف أمورها بالإشارات والهمسات بعيدة عن الشعب والشعب بعيد عنها. لقد قامت منظمة التحرير ومعها جيش التحرير، وسائر الأجهزة المالية والإعلامية والسياسية والتنظيمية. ولكننا لم نجد هذه الإنجازات على قارعة الطريق لقية أو لقطة. لقد انتزعت هذه الإنجازات من مخالب النكبة ومن أنياب الكارثة.

لقد وجدنا أنفسنا بعد الكارثة أمام كوارث ثلاث: **الأولى** أننا فقدنا وطننا، و**الثانية** تشريد شعبنا، و**الثالثة** أن إرادتنا الشعبية قد احتجبت، وسقط زمام القضية من أيدينا. ولذا فإن منظمتكم الآن من غير وطن، ومن غير شعب متجمع، ومن غير إرادة حرة. لقد ولدت المنظمة قبل أن تحرر الوطن السليب أسيرة الظروف العربية، ولا بُدَّ للمنظمة قبل أن تحرر الوطن السليب أن تحرر إرادة الشعب الفلسطيني، ويوم يكتب تاريخ الكيان الفلسطيني بكل أسراره وتفاصيله ستعرف أيها الشعب أن قيام منظمة التحرير بذاته هو أعظم عمل نضالي ثوري تحقق بعد النكبة. ولكن ماذا يريد الشعب الفلسطيني من مؤتمر الملوك والرؤساء الذي سينعقد بعد بضعة أيام في الدار البيضاء؟ سندخل الدار البيضاء وعلى سيارة وفد فلسطين علم فلسطين. وسنجد أنفسنا إلى جوار الملوك والرؤساء كتفاً إلى كتف، نأكل معهم ونساهم في اجتماعاتهم، ونضع توقيعنا إلى جانب توقيعاتهم، وقد يكون في ذلك إشباع لضعفنا أو غرورنا الإنساني. ولكن ما لهذا نحن ذاهبون إلى الدار البيضاء. نحن ذاهبون للمطالبة بالتجنيد الإجباري لكُلّ أبناء فلسطين حيثما وجدوا في الوطن العربي، ولتحصين القرى الأمامية في الأردن، ولتسهيل السفر والإقامة والعمل لأبناء فلسطين، وإنشاء معسكرات التدريب الشعبي في الضفة الغربية، ولجباية ضريبة التحرير. وعلى الجملة فسنطالب بتعبئة طاقات الأمة لمعركة التحرير، ولإعداد الشعب الفلسطيني ليكون طليعة معركة التحرير.

لقد ولدت المنظمة بترخيص من الدول العربية، ولم يكن هذا ما اختاره الشعب الفلسطيني، ولكن هذا ما فرضته الكارثة، والمنظمة لا تزال تمارس نشاطها بالقدر الذي تسمح به الدول العربية، ولكن قد آن الأوان لأن تمارس المنظمة حرية العمل كاملاً، وهذا ما سأذكره في الدار البيضاء. وإذا كنا فقدنا وطننا فليس لنا أن نفقد

إرادتنا. وإذا فشلت كُلّ مطالبنا أو بعضها أو فشل مؤتمر القمة في مجموعه، فسأكاشف الشعب بالحقيقة كلها، من الدار البيضاء أو بعد الدار البيضاء، ويومئذ يقول الشعب كلمته، وكلمة الشعب هي العليا».

هذه هي الصورة العامة، العربية والفلسطينية، التي كانت تسود الموقف في المشرق العربي حين كان رجال التشريفات الملكية في المغرب يروحون ويغدون بين القصور الملكية وفنادق المدينة، لوضع اللمسات النهائية على برامج استقبال الملوك والرؤساء وكفالة راحتهم وأمنهم. ومنامهم وطعامهم.

وبدأت أبحث عن طائرة ليس فيها أي من الوفود العربية، فقد كان حزب البعث في دمشق، والملك حسين في عمّان، والملك فيصل في الرياض، كُلّ بأسلوبه وبطريقته، يقولون بأن منظمة التحرير الفلسطينية ناصرية، وإن الشقيري «موظف» في وزارة الخارجية المصرية، وما إلى ذلك من الكلام الذي أصبحت له قيمة فقط لأنه وجد طريقه إلى مذكراتي.

وأخيراً وجدتها وركبتها، وكانت طائرة فرنسية نقلتني من بيروت إلى باريس إلى الرباط، ومنها إلى الدار البيضاء.

وقد استبشرت أن يكون نزولي إلى المغرب «في رباط الفتح» وهي التي أنشأها أحد ملوك الموحّدين، إيذاناً بان يهيئ الله للعرب العودة إلى الأندلس. . . وقد احتجبت مأساة الأندلس أمام الكارثة الكبرى في فلسطين.

وركبت الطائرة وأنا أدعو الله أن يجعل للملوك والرؤساء من «رباط الفتح» ما يربط قلوبهم على الوحدة، ويفتح أبصارهم على العمل الجاد الهادف، فتلك هي الخطوة الأولى «لفتح» فلسطين.

وفي المساء وصلت مطار الدار البيضاء، وقد تحوّل إلى صالة استقبال كبرى بما فيه من الأعلام والأقواس ومعالم الزينة، وللمغرب تقاليد عريقة في المراسم، «فالمملكة المغربية الشريفة» عمرها كدولة ألف عام وزيادة.

ومرقت سيارتي وسط شوارع المدينة، وعليها علم فلسطين رفرافاً خفاقاً، والجماهير المغربية تملأ الأرصفة والميادين، وتصايح الناس، جمهرة تسمع عن جمهرة: فلسطين. . . فلسطين، وهتفوا: «تعيش فلسطين، تعيش فلسطين».

ووصلت إلى فندق المنصور، حيثُ ينزل الملوك والرؤساء، فوجدته «مسوراً» بالحرس المغربي بملابسهم المزركشة وعمائمهم الملونة وسيوفهم المشرعة، ومجموعات من الشباب المغربي المؤنق، يرطنون بالفرنسية الباريسية، هم رجال التشريفات الملكية.

وأذنت الساعة المحددة لجلسة الافتتاح (١٣-٩-١٩٦٥)، فخرج موكب الملوك والرؤساء بحسب ترتيب بروتوكولي دقيق لثلاثة عشر ملكاً ورئيساً، ثُمّ سيارتي، وبعدي سيارة الأمين العام للجامعة العربية، وأمامنا ومن حولنا الموتوسيكلات والفرسان يسابق بعضهم بعضاً.

ولكن هذا الموكب الكبير كان كأنه يمشي على سجادة مغربية فاخرة، فلا تسمع صوت السيارات ولا الموتوسيكلات ولا وقع الخيول، لأن تهليل الرجال وزغاريد النساء من حولنا كان كالرعد القاصف تسمع له هديراً وزئيراً.

وجلسنا في قاعة الاجتماع، كُلّ في مكانه المخصص له، وأمامنا، على الطاولة أوانٍ من الكريستال الرفيع جيء بها من القصور، ليشرب الملوك والرؤساء بالأقداح الملكية. ولمعت كاميرات المصورين مع الابتسامات التي يدّخرها الملوك والرؤساء لمثل هذا اليوم. وبقيت أنا، وجاري القائد علي عامر ومعاونه اللواء عبد المنعم رياض، عاكفين على ملفاتنا، غارقين في قراراتها، كأنما أوراقنا هي التي ستقرر المصير.

وألقى الرئيس عبد الناصر كلمة الافتتاح، وكانت له دورة الرئاسة، فأشاد بالإنجازات التي تمت في مؤتمري القمة في القاهرة والإسكندرية، وما جرى بشأن تحويل الروافد وخطط القيادة العربية الموحدة، وشؤون منظمة التحرير الفلسطينية، «وأن هذا كُلّه لا يعتبر كافياً، فإن إمكانات الأمة العربية لا حدود لها، ولا نملك بديلاً غير النصر». ووجمت وأنا أستمع إليه وهو يقول: «. . . إن عقد هذا المؤتمر في زمانه ومكانه المحدّدين هو من الخطوات الإيجابية». وقلت في نفسي: «هل أصبح مجرد لقاء الملوك والرؤساء، خطوة إيجابية، جديرة بالتنويه؟».

وانقشع وجومي وانقلب إلى رضى وطمأنينة حين أضاف الرئيس عبد الناصر قائلاً: «إن مهمة المؤتمر باختصار هي تحرير فلسطين. . .ولا يمكن الفصل بين الحركة الشاملة للأمة العربية من أجل تحريرها السياسي والاجتماعي والاقتصادي وتحرير فلسطين».

ولكني عدت فاستدركت في نفسي. . . وتذكرت التمزق الرهيب الذي يشمل الوطن العربي، والخلافات المستمرة بين القاهرة والرياض، والشجار الناشب بين دمشق والقاهرة، والنزاع بين هؤلاء جميعاً وعمّان، فاعتبرت أن اللقاء، مجرد اللقاء، هو إنجاز كبير. وحسب الملوك أن يكون لقاؤهم نصراً وفخراً! ورحم الله المتنبي حينما قال: وحسب المنايا أن يكن أمانيا. . .

وأعقبه الملك الحسن الثاني، فألقى خطاباً جيد الإنشاء والبناء، استعرض فيه تاريخ نضال المغرب للمحافظة على عروبته، وركز على «مسؤولية الدول العربية في

استمرار كارثة فلسطين بسبب الخصومات العربية المتوالية وإضاعة الجهود في معارك جانبية»، ونبّه إلى أن الشعب العربي «ليتتبع اجتماعاتنا، ومن الممكن أن يفقد ثقته باجتماعاتنا ويفقدنا الأمل بلقاءات أخرى. والمغرب سعيد بتأدية كُلّ التزاماته». هكذا بكل التزاماته!

وقد صفّق الحاضرون طويلاً لهذا الخطاب الرشيق الأنيق، من دون أن يعرفوا أن المملكة المغربية لم تؤد شيئاً من التزاماتها، فقد كانت مدينة للمؤسسات الأربع: هيئة تحويل الروافد، والقيادة العربية الموحّدة، وجيش التحرير، ومنظمة التحرير الفلسطينية. ومع هذا، فقد اختار الملك الحسن الثاني أن يؤكّد في ختام خطابه «المغرب سعيد بتأدية كُلّ التزاماته»، وقديماً قال العرب: ختامه مسك. وليتهم قالوا: ختامه إفك.

وسألني الملك الحسن الثاني، ونحن نخرج من القاعة: «كيف رأيت خطابي؟ لقد وضعت النقاط على الحروف وخاصة في قضية فلسطين. أليس كذلك يا سي أحمد؟».

قلت: «إن خطاب الحسن الثاني الملك، هو على كُلّ حال خير من خطاب الحسن الثاني ولي العهد».

قال مستغرباً متسائلاً: «وماذا تعني؟».

قلت: «هل تذكر جلالتك. لقد ترأست مؤتمراً ثقافياً في فلورانس في إيطاليا، حين كنت وليا للعهد، فقلت في خطابك الافتتاحي: «هناك قضيتان ما زالتا تهددان السلام في الشرق الأوسط: القضية الجزائرية وقضية قبرص»، وقد عتبنا على «سموك» يومئذ أنك لم تذكر قضية فلسطين من قريب أو بعيد؟

قال: «ها قد عوضنا. إن مؤتمر الدار البيضاء هو كُلّه من أجل فلسطين».

وعدنا إلى الفندق، في الموكب نفسه، والجماهير المغربية لا تزال في مكانها: الشباب والرجال واقفون، والشيوخ والأطفال والنساء جالسون على الأرصفة، والجميع في تهليل وتكبير، وهتاف للعروبة وفلسطين، وأحسست ساعتها أن القاعة التي كنا فيها ليست مؤتمر قمة، وأن مؤتمر القمة هو هذه الأمة، مجتمعة في هذه الساحات والميادين.

وصلت إلى الفندق، فأحاط بي الصحافيون يريدون تعليقاً على خطابي عبد الناصر والحسن الثاني. قلت: «ليس لي كلام الآن. ولكنني سأعقب على المؤتمر بكامله عند الانتهاء في بيان سأذيعه من إذاعة المنظمة. والأمور مرهونة بخواتمها». ولكن

الصحافيين بقوا في مقاعدهم يتندرون، والنوادر تسلية الصحافيين حين لا يجدون الأخبار.

فقالوا: «إن الطباخ الكبير في فندق الملوك والرؤساء هو يهودي، وهو الآن موقوف عن العمل مؤقتاً إلى أن ينتهي المؤتمر».

قلت: «نعم أعلم هذا، حتّى لا يدس السم في طعام أصحاب الجلالة والسمو والفخامة، فالتاريخ العربي حافل بأخبار الملوك الذين ماتوا بالسم».

قالوا: «لقد رأينا كتابة العبرية على بعض المخازن، وخاصة الجزارين، ورأيناً كذلك يافطة كبيرة مكتوب عليها (النادي الإسرائيلي)».

قلت: «هذا أمر يسير، في زيارتي السابقة للمغرب، كان عدد من اليهوديات يعملن سكرتيرات في وزارة الدفاع، وقد نبهت الإخوة المغاربة المسؤولين إلى خطورة هذا الموضوع، وإني لأرجو أن يكونوا قد تفادوه».

وانصرف الصحافيون يفتشون عن نوادر أخرى. وانصرفت إلى لقاءات ثنائية مع الملوك والرؤساء أبحث معهم مطالب منظمة التحرير الفلسطينية، استنهض همتهم وأستنجد مروءتهم.

وقضينا أربعة أيام في الدار البيضاء (١٣-١٧ أيلول/ سبتمبر) في اجتماعات متواصلة مع وزراء الخارجية في الصباح، والملوك والرؤساء في المساء.

وكانت الجلسة الأولى للملوك والرؤساء في غرفة صغيرة لا تكاد تتسع للحركة المريحة، فقد كان الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير الكويت يجد عسراً للمرور مع عباءته إلى مقعده. ووجد إسماعيل الأزهري رئيس مجلس السيادة السوداني زاوية صغيرة جلس فيها على كرسي في مثل ضخامته بعيداً عن طاولة الملوك والرؤساء، فقد كان أحمد محمّد محجوب رئيس الوزراء هو الذي جلس في مقعد السودان. وكان الملك حسين، بجسمه الصغير، أكثر الملوك راحة وانشراحاً في مجلسه، لولا أنّه كان يقابلني مباشرة على الطاولة، الوجه بالوجه.

وبدأ الحديث في استعراض عام للموقف، فتحدث الرئيس جمال عبد الناصر عن استعداد الجيش المصري، تدريباً وتسليحاً، وأفضى إلى الاجتماع بأنه عقد صفقة كبرى للسلاح مع السوفيات بما قيمته مائة مليون دولار، وأن مصر تعدّ نفسها للمعركة كما لو كانت وحدها، وأن أي دعم عربي عسكري هو خير وبركة للمعركة.

ووقف الرئيس عبد الناصر بعض الوقت عند بعض الأسرار الذرية، فتحدث

عن جهود الجمهورية العربية في حقل الصواريخ تحت إشراف عدد من الخبراء الألمان الذين يرأسهم «أكبر عالم متخصص في هذا الموضوع»، وأن العلماء المصريين بالتعاون مع الخبراء الألمان «قد نجحوا في إطلاق أول صاروخ في منتصف عام ١٩٦٠، وأن هذا النوع من الصواريخ يمكن أن يصل إلى أبعد موقع في إسرائيل. . .».

وبعد الرئيس عبد الناصر، تكلم الرئيس أمين الحافظ عما أنجزته سوريا في الميدان العسكري، وأن ٦٠ بالمئة من ميزانيتها مكرس للجيش، وأن على الدول العربية الأخرى البعيدة عن خطوط القتال، وخاصة الدول البترولية، أن تؤدي واجبها كاملاً، وأن «المال لن ينفع أصحابه، والمرء إذا مات لا يأخذ معه إلا قطنة تحشر في طيزه». هكذا. وكان الحافظ ينظر تارة إلى أمير الكويت وتارة أخرى إلى الملك فيصل، ومرة ثالثة إلى ولي عهد ليبيا، وقد أعجبني في الحافظ بذاءته وشجاعته.

وأسهب المشير عبد السلام عارف في المدى الذي وصل إليه الجيش العراقي من الاستعداد، وأن القوات العراقية لا تزال مرابطة في الـ «H 4» تنتظر من الملك حسين الإذن بالدخول إلى الأراضي الأردنية، وفق خطة القيادة العربية الموحدة.

وتكلم الرئيس شارل حلو والملك حسين عن المصاعب التي تعترض أعمال وتحويل الأردن، واعتداءات إسرائيل المتكررة.

وتحدث العقيد هواري بومدين عن تجارب الثورة الجزائرية، وأن تحرير فلسطين لا يتم عن طريق الحرب النظامية، وأن الوسيلة المثلى هي حرب العصابات، وغير ذلك لا يجدي.

وأشار الملك الحسن الثاني إلى الدور الكبير الذي يمكن أن تلعبه دول المغرب في القضية العربية «وأننا قادرون على أن نقفل مضيق جبل طارق إذا بقي الغرب مصراً على مساندته لإسرائيل». وحسبت نفسي أني استمع إلى خطبة طارق بن زياد حين عبر إلى الأندلس من طريق مضيق جبل طارق. أجل حسبت أني استمع إلى خطبة طارق، ولكن من غير عزيمة طارق!

وأشار الملك فيصل في عبارة موجزة إلى أن «لا ننسى دول العالم الإسلامي في قضية فلسطين، ونحن من جانبنا حاضرون للقيام بأي عمل نتفاهم عليه مع الدول الإسلامية، والأخ شارل حلو من جانبه يستطيع أن يعمل شيئاً بالنسبة إلى العالم المسيحي».

وعقّبت على كلام الملك فيصل بشأن المؤتمر الإسلامي، فقلت: «إن العالم

الإسلامي ذخيرة كبرى للقضية الفلسطينية، وليس من المعقول أن نستنجد بدولة ساحل العاج في أفريقياً، ونهمل العالم الإسلامي بإمكاناته الضخمة. ولكن المحزن حقاً أن دولاً كإيران وتركيا تتعامل مع إسرائيل سياسياً واقتصادياً، فهذا ليس من الإسلام في شيء، بل إنه ليس مسلماً من يتعامل مع إسرائيل. وإني أعلن باسم منظمة التحرير أننا نسند جهود الملك فيصل في هذا السبيل. ولكننا نريده مؤتمراً إسلامياً حقيقياً يساند الأمة العربية في إنقاذ الديار المقدسة من أيدي إسرائيل». وكان مقدراً لهذا الحديث العابر، وقد عبّر من غير قرار عن الاستنصار بالعالم الإسلامي، أن يكون هو الركيزة التي اعتمدها الملك فيصل في ما بعد للدعوة إلى مؤتمر للدول الإسلامية، فكان مثاراً لشجار كبير بين الرياض والقاهرة وعدد من العواصم العربية.

وأكد الأمير عبد الله السالم الصباح ضرورة التضامن العربي وأهميته في الظروف الحاضرة، وكنت «أترجم» للرئيس عبد الناصر، وأنا بجانبه، بعض الكلمات الكويتية في حديث الأمير.

وأعلن المشير عبد الله السلال استعداد اليمن لوضع كُلّ طاقاتها في معركة فلسطين بشرط أن تسوّى الأمور مع المملكة العربية السعودية، ونتصافى مع جلالة الأخ فيصل. ولم يتكلم الأمير حسن الرضا عن ليبيا، فلم يكن موضوع توزيع الالتزامات المالية قد أتى بعد[٢]!

وجاء دور محمّد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان، ليؤدي دوره الذي عرف به، وهو توكيد التضامن العربي كخطوة أولى في سبيل سلامة العمل العربي. وكان قد تحدث في هذه الموضوع مع الملوك والرؤساء في اجتماعات ثنائية. وأخرج من جيبه مشروع ميثاق التضامن العربي متضمناً:

١ ـ التضامن العربي في معالجة القضايا العربية، وخاصة تحرير فلسطين.

٢ ـ احترام سيادة الدول العربية وعدم التدخل في شئونها.

٣ ـ مراعاة قواعد اللجوء السياسي وآدابه.

٤ ـ مراعاة حدود النقاش الموضوعي والنقد الباني.

٥ ـ التزام الصحافة بعدم الإساءة إلى علاقات الدول العربية أو تجريح رؤساء الدول العربية.

---

(٢) أصبح في السجن بعد قيام ثورة الفاتح من أيلول/ سبتمبر بقيادة العقيد معمر القذافي.

وكان الأمر قد «طبخ» في الليلة السابقة بين الملوك والرؤساء، فلم يعترض أحد إلا على لفظة «النقد الباني»، فقد أراد بعضهم أن تكون «النقد البناء»، وأخذ الرئيس السوداني يغوص في «صرف ونحو» لا يفهمه إلا هو وأنا. فالحاضرون ليسوا من الأدباء ولا من المتأدبين، باستثناء الحسن الثاني ملك المغرب، فقد كان من فضل والده عليه أن ثقفه ثقافة عربية، والرئيس بومدين الذي درس بعض الوقت في الأزهر الشريف.

وطاف الرئيس محمّد أحمد محجوب على الملوك والرؤساء، فوقّعوا واحداً واحداً، ووقّعت كذلك باعتبار أن المنظمة تملك أجهزة إعلامية ثلاثة:

١ ـ الإذاعة.

٢ ـ جريدة **أخبار فلسطين** في غزة.

٣ ـ لساني. ولعل الثالث هو الأول!

وانفضّ الاجتماع الأول بعد المناقشة العامة المائعة، وتم توقيع الميثاق، وخرج عبد الخالق حسونة إلى الصحافيين فزفّ إليهم البشرى الكبرى بتوقيع ميثاق التضامن العربي، وقرأه عليهم كلمة كلمة من «الديباجة إلى عدم التجريح برؤساء الدول العربية». وعدنا إلى الفندق في الموكب العظيم نفسه، لأجد الصحافيين العرب والأجانب حلقات حلقات، وقد سبقونا إلى الصالة الكبرى وهم يتناقشون في عبارات ميثاق التضامن العربي ومعناها ومبناها ومداها. وأمسكوا بالوفد السوري وهو يدخل الباب، يسألونه إذا كانت إذاعة دمشق ستوقف حملاتها الإعلامية على الرجعية العربية، وعلى الرئيس عبد الناصر؟ فأجاب د. منيف الرزاز أمين عام الحزب، وأيده في ذلك اللواء حافظ، ود. نور الدين الأتاسي «أن ميثاق التضامن العربي لا يمكن أن يكون ستاراً للخيانة». ثُمّ جاؤوا إليّ فقلت لهم: نحن لا نسبّ أحداً. إن المنظمة ليس لها موقف من النظم الملكية والجمهورية. ولا شأن لنا بالخلافات العربية. إن موقفنا بسيط. من كان مع فلسطين فنحن معه. ومن لم يكن مع فلسطين فلسنا معه. وإن المعيار الوحيد عندنا هو الوفاء بالالتزامات وتيسير مهمة المنظمة، والحفاظ على القضية الفلسطينية أولاً وآخراً. وهذا هو كُلّ ما يعنينا.

وتراكض الصحافيون بعد ذلك عبر السلالم ليقصدوا الوفود الأخرى، والمراسلون الأجانب منهم، يودّون أن ينهكوا ميثاق التضامن العربي قبل أن تجفّ تواقيع الملوك والرؤساء!

ولم تنعقد اجتماعات في اليوم التالي، فقد كان يوم جمعة، وتهيأ الملوك والرؤساء لصلاة الجمعة. وكان يوماً مهيباً رائعاً احتشدت فيه الجماهير على الأسطح والشرفات، وتسلق الشباب على أعمدة الكهرباء والأشجار، وعلا تهليل الجماهير فوق أذان المؤذنين، والناس في بكاء وضراعة، يهتفون بكل جوارحهم لتحرير فلسطين. وكانت ضراعتي أن يهدي الله الملوك والرؤساء.

وركبنا عربة مكشوفة، أشبه ما تكون بعربة الترام الصغيرة، تسير الهوينا بين الصفوف، والوزراء وكبار رجال الأمن يحفّون بها من كُلّ جانب، والملوك والرؤساء يردّون التحيّة، والملك الحسن الثاني بملابسه المغربية الوطنية، يستبطئ العربة شيئاً فشيئاً حتّى وصلنا المسجد وأدينا الصلاة، والجماهير تؤدي الصلاة معنا خارج المسجد، على الطرقات وفي الميادين من غير بساط ولا حصير. وفرغنا من الصلاة وعدنا إلى فنادقنا، بعد أن تركنا خشوعنا في المسجد.

وعادت الجماهير إلى حالها وشؤونها، إلى المنازل والديار، مسرورة مبتهجة، فقد «امتص» الموكب الفخيم كُلّ حماستهم، «وابتلع» كُلّ عواطفهم. وكذلك يكون تنفيس الحماس وتفريغ العواطف، بأمثال هذه المهرجانات، وقد برع الملوك والرؤساء في الأداء والإخراج!

وتوالت الاجتماعات بعد ذلك في اليومين الثالث والرابع، والأمة العربية من حول المؤتمر ترجو أن يكون ميثاق التضامن العربي هو المفتاح السحري الذي يفتح القلوب والجيوب!

وتولى الرئيس عبد الناصر طرح المواضيع واحداً بعد واحد. وكان الموضوع الأول هو تقرير هيئة تحويل الروافد، فتلا الأمين العام بياناً مفصلاً شرح فيه توقف العمل في مشروعات التحويل في كُلّ من سوريا ولبنان والأردن، بسبب الاعتداءات الإسرائيلية المتوالية. وطالب باعتمادات إضافية تتطلبها مشروعات التحويل في سوريا والأردن، ومعاونة الحكومة اللبنانية بتقديم قرض لمشروع «سدّ النبطية».

ودافع اللواء الحافظ والملك حسين والرئيس شارل حلو كُلّ عن موقفه بعبارات متباينة، ولكنها كلها تلتقي عند عدم توافر الحماية العربية العسكرية اللازمة. هذا مع التوكيد من كُلّ منهم بأنه «على أتم الاستعداد لدفع العدوان مهما أدّى ذلك من تضحيات».

وتناقش المجلس طويلاً في هذه المطالب، «وفرشت» خريطة مشروع تحويل الروافد على طاولة المؤتمر، والملوك والرؤساء ينظرون إلى الخطوط الزرقاء والحمراء. ولكن أحداً لا يتحدث عن المطالب المالية. وقالوا للأمين العام عبد الخالق حسونة:

أكتب قراراً. فبدأ يكتب. هذا الملك كلمة، وذلك الرئيس عبارة. وجمع حسونة تلك الكلمات والعبارات، فكانت القرار الآتي:

١ ـ استمرار الدول المعنية في أعمال المشروع.

٢ ـ تفويض هيئة المشروع أن تنقل بعض الاعتمادات المرصودة من قسم إلى قسم تسديداً للأموال الإضافية المطلوبة.

٣ ـ إرجاء النظر في المبالغ الإضافية المطلوبة للأردن وسوريا إلى الدورة المقبلة.

٤ ـ تفويض هيئة الروافد بما يمكن أن تساهم به في القرض الذي يطلبه لبنان من المبالغ المخصصة للبنان.

وكان هذا القرار، بجوانبه المالية والعملية، هو عدم اتخاذ أي قرار. ونظر الملوك والرؤساء بعضهم إلى بعض، وقد أيقنوا أن ميثاق التضامن العربي لم يكن المفتاح السحري للقلوب ولا للجيوب!

ودفع إليّ محمّد محجوب ورقة صغيرة كتب فيها الشعر الشهير: «وفسر الماء بعد الجهد بالماء». وكانت بيني وبينه مطارحات شعرية متواصلة في الاجتماعات، فأعدتُ الورقة بعد أن كتبت عليها:

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء!

ثُمّ انتقل الرئيس عبد الناصر إلى تقرير القائد العام بشأن الخطة العسكرية لحماية تحويل الروافد.

وأخذ الفريق عامر يشرح المصاعب التي يواجهها مع السلطات السورية واللبنانية، بصدد نقل القوات العربية وتدعيم الجبهتين السورية واللبنانية، ثُمّ شكا من موقف العناد الذي يقفه الأردن في عدم السماح للقوات السعودية والعراقية بالدخول إلى الأردن، وأثر ذلك على الخطة العسكرية في مجموعها.

وانبرى الملك حسين يجادل الفريق علي عامر في أن دخول قوات عربية إلى الأردن من شأنه أن يستفزّ إسرائيل فتشنّ هجوماً على الأردن. وأكد أن القوات الأردنية وحدها قادرة على الدفاع عن مشروعات التحويل.

وأفحمه الفريق عامر حين قال للملك حسين: «إذا كانت القوات الأردنية قادرة على حماية المشروع، فلماذا تخشى من إسرائيل؟ إن القوات العربية هي دعم للجيش الأردني، وستردع إسرائيل عن أي محاولة للاعتداء على الأردن».

وطال الجدل بين الملك حسين والفريق علي عامر، وهم يتراشقون بالتعابير

العسكرية. ولم يكن الملك حسين قد حاز بعد لقب «مارشال في سلاح الجو البريطاني»، وهو اللقب الذي منحته إياه اليزابيث، ملكة بريطانيا، في أواسط عام ١٩٦٦.

وقال الملك فيصل: «إن قواتنا تقف على الحدود الأردنية، فإذا سمح لها جلالة الأخ حسين أن تدخل دخلت، وإلا فنحن واقفون على الحدود».

وقال المشير عبد السلام عارف: «نحن نرى أنّه يجب أن ننصاع لتوجيهات الفريق علي عامر. وأنا كرئيس دولة وكعسكري أقول إنه ليس لنا أن نناقش القائد العام في خططه».

وفي هذه الأثناء اقتحم الباب أحد أعضاء الوفد العراقي، وسلم إلى المشير عبد السلام عارف ورقة، وخرج.

قرأ المشير الورقة، وهمّر وشخر. وكانت شخرة عراقية. وإذا بها برقية واردة من بغداد بأن محاولة انقلابية قد جرت في بغداد يقودها «عارف عبد الرزاق، وأنها أحبطت وقبض على المتمردين، وأن الجيش العراقي بقيادة عبد الرحمن عارف قابض على زمام الموقف».

وساد الاجتماع وجوم وصمت. ونهض الرئيس عبد الناصر والمشير عبد السلام عارف إلى غرفة مجاورة، فاختليا قريباً من نصف ساعة. وباقي الملوك والرؤساء يتباسطون، والملك الحسن الثاني يأمر بالشاي المغربي الفاخر.

وكنا نخرج من حين إلى حين إلى الغرف والردهات المجاورة، حيثُ كان وزراء الخارجية والدفاع يتسقطون أخبار الملوك والرؤساء. ولكن نبأ محاولة الانقلاب في بغداد قد أشغلهم عن مؤتمر القمة، وانتظم الوزراء حلقات حلقات، يجمعهم قاسم مشترك أعظم هو الهمز واللمز. فهذا الوزير يتساءل: هل كان من الممكن أن يقوم عميد الجو العراقي عارف عبد الرزاق بهذه المحاولة من غير «تدبير» الرئيس عبد الناصر؟ ويقول وزير آخر: تؤكد الأخبار أن عبد الرزاق وصل إلى القاهرة على متن طائرة خاصة.

ويعلق وزير ثالث: عبد الناصر بارع جداً. دبّر المؤامرة أثناء وجود المشير عبد السلام عارف في مؤتمر القمة، ولكنها لم تنجح. وها هو الآن يختلي معه.

كنت أستمع إلى هذا الهمس يدور في أروقة المؤتمر، وأنا أتساءل في أعماق نفسي: هل هذا هو التضامن العربي؟ بل إن سؤالاً أكثر عمقاً وأشد عنفاً كان يصرخ في قلب فؤادي: أهؤلاء الناس سيحرّرون فلسطين؟!

وانتهت فترة الاستراحة، وعدنا إلى الغرفة الصغيرة لنستأنف المداولات، وعاد الرئيسان عبد الناصر وعبد السلام عارف من خلوتهما، وقد طغى خبر الانقلاب على خلاف الملك حسين والفريق عامر.

وقال الرئيس العراقي: «الذي نرجوه هو إبراء مسؤولية العراق. نحن لا نستطيع إبقاء الجيش العراقي عاماً آخر ينتظر على الحدود. إذا كان الأردن يعارض دخول قواتنا، فنرجو أن تقرروا هذا، ونحن سنعود بجيشنا إلى العراق».

ونظر الملوك والرؤساء إلى وجوه بعضهم بعضاً، النظرات الحائرة المألوفة، وسأل الرئيس عبد الناصر:

ـ «هل تريدون دخول القوات العراقية إلى الأردن؟»، فلم يجب أحد عن السؤال.

ثُمّ سأل الرئيس عبد الناصر:

ـ «هل توافقون على عودة القوات العراقية إلى العراق؟».

فلم يجب أحد عن السؤال.

وكان الرئيس العراقي يهمّ بالانصراف استعداداً للعودة إلى العراق في أول طائرة تنقله من الدار البيضاء، فقال: «أنا أفهم من هذا الصمت أنكم تعفون العراق من المسؤولية. ونحن سنعيد جيشنا إلى العراق».

قال الملك حسين: «نعم. إن العراق ليس بعيداً عنا، ونستطيع أن نطلب نجدتكم في الوقت المناسب».

فأومأ الملوك والرؤساء بالموافقة، وهمست في أذن الفريق عامر بما قال الفقهاء: «لا ينسب إلى ساكت قول، ولكن السكوت في معرض الحاجة جواب».

فقال: «رحم الله الفقهاء ما أعظم أقوالهم، تماماً على الجرح».

ونهض المشير عبد السلام عارف، وودّع وانصرف، واللواء الحافظ يقول له: «أريد أن أطمئنك أنّه لا علاقة لحزب البعث بما جرى في بغداد».

وفي بديهة سريعة أجاب المشير عبد السلام: «والله، يا أبا عبده (كنية الحافظ) أنت لا تعرف شيئاً عن حزب البعث. إنهم لا يثقون بك، لقد جاؤوا بك لأنهم مضطرون. ونحن نعرف بعض زين، يا أبو عبده».

وقارب موعد الطعام، وكان عشاء رسمياً أقامته بلدية الدار البيضاء، فنهض

الجميع، والرئيس عبد الناصر يقول لي وللفريق عامر: «حضروا حالكم. الجلسة الختامية غداً، وستكون مخصصة لكم».

ونعمنا تلك الليلة بأشهى الأطباق المغربية، والمطبخ المغربي عريق أصيل في جودة طعامه. فأكلنا وشبعنا وتخمنا... والأمة العربية من المحيط إلى الخليج جائعة، طاوية على أخبارنا وقراراتنا.

وتوافدنا على الاجتماع في اليوم التالي، وأنا أحمل معي ملفاتي... ووجدت الفريق عامر قد سبقني وبين يديه أوراقه يقرأها، ويضع علامة على هذه الصفحة أو تلك.

وبدأت الجلسة بي، فعرضت على الملوك والرؤساء ما استطاعت المنظمة أن تنجزه بالنسبة إلى جيش التحرير الفلسطيني وإلى مؤسساتنا السياسية والإعلامية. ثُمّ انتقلت إلى مطالبي ومقترحاتي واحداً واحداً. والملوك والرؤساء يناقشونها واحداً واحداً، ثُمّ لا يقرّرون واحداً واحداً، بل إنهم يريدون أن يقرّروها جملة واحدة، كما قالوا!

وبدأت بالأسهل فالأسهل، أو ما حسبته كذلك. فعرضت أولاً موضوع الإقامة والسفر والعمل لأبناء فلسطين، وهو موضوع قديم يرجع عمره إلى عهد النكبة، فشرحت ما يلاقيه أبناء فلسطين من المتاعب والقيود في ما يتصل بعملهم، وسفرهم، وإقامتهم، وأن هذا لا يليق بالأخوة العربية ونحن على أبواب تحرير فلسطين. وشرحت بعض «المفجعات» في هذا الصدد، مثل السماح «للجثمان» باجتياز الحدود بين سوريا ولبنان، وعدم السماح لأصحاب «الجثمان» بالمرور، وغير ذلك من الأمور التي تشترك في مصاعبها كُلّ البلاد العربية من غير استثناء. وختمت في النهاية بأن الجامعة العربية قد وضعت «بروتوكولاً» لتنظيم شؤون الفلسطينيين، وهو يمثل الحدّ الأدنى من التسهيلات «لأبنائكم وإخوانكم وأخواتكم» من أهل فلسطين، ورجوتهم في النهاية أن توقّع الدول العربية على هذا البروتوكول.

وتحدث الرئيس حلو في أن لبنان قدم كُلّ التسهيلات الممكنة للفلسطينيين «مع مراعاة ظروف الأمن والأحوال الاقتصادية في لبنان»، وأن لبنان يستوعب من اللاجئين أكثر مما تتحمله أية دولة عربية أخرى.

وتكلم اللواء الحافظ عن أن سوريا تعامل الفلسطينيين كمعاملة السوريين سواء بسواء، وأن القيود التي على الفلسطينيين هي القيود نفسها التي على السوريين من حيثُ السفر والانتقال، كأنما القيود على المواطن العربي قد أصبحت هي القاعدة في الحياة العربية.

وقال الملك حسين: «نحن لا فرق عندنا بين فلسطيني وأردني، والكُلّ متساوون في الحقوق والواجبات، أما الفلسطينيون في الخارج فيجب أن نتأكد من عدم انتمائهم إلى منظمات حزبية».

وتكلم الملك فيصل غاضباً من هذه «المعاملات المشينة التي يتعرض لها الفلسطينيون التي لا تتفق مع الأخوة في الدين. أما الذين يمنعون من دخول المملكة أو يطردون منها فهي أمور متعلقة بالأمن. والمملكة اعتمدت الهيئة العربية العليا في الموضوع، فكُلّ من تشهد له بحسن السلوك نعطيه تصريحاً». هكذا تحدث الملك فيصل بكل بساطة كأن المستمعين جهلاء أو أغبياء. وقد تناسى أنّه قد منع خمسة عشر فلسطينياً في المملكة من الاشتراك في المجلس الوطني الأول الذي انعقد في القدس في ربيع عام ١٩٦٤[٣].

وغرق موضوع «البروتوكول» في خضم هذه «النخوات» الغارقات في بحار من التحفظات. وبقي البروتوكول من غير توقيع، وبقي مكانه في أوراق الجامعة العربية التي تحرق كُلّ خمسة أعوام في جملة ما يحرق من المهملات.

وكانت الفتوى «الكريمة» للخروج من هذا الموضوع من غير قرار، أن على المنظمة أن تتصل بالدول العربية للاتفاق على التسهيلات الممكنة. فعدنا إلى حيثُ كان الموضوع قبل عشرين عاماً، يوم خرج الفلسطينيون من وطنهم وديارهم. وكانت الفتوى لهذه الفتوى كما أعلن الملك فيصل أنّه «لا يليق بالحكومات العربية أن توقّع بروتوكولاً بهذا الموضوع، فإن واجب العروبة والدين أسمى من ذلك». ولكن يليق أن يئن الشعب الفلسطيني تحت هذا العذاب.

وعرضت بعد ذلك أن تيسّر الحكومات العربية للمنظمة إجراء انتخابات عامة لاختيار مجلس وطني تنبثق منه قيادة فلسطينية، وأوضحت أن القضية الفلسطينية قد وصلت مرحلة تتطلب قيام قيادة منتخبة مسؤولة أمام الشعب الفلسطيني.

وسكت الملوك والرؤساء إلا اثنان. وكان هذا السكوت طبيعياً، فإن أكثر الحكومات العربية، ملكية كانت أو جمهورية، ليس فيها انتخابات، والشعب فيها مستقر في وطنه لا شريداً ولا طريداً.

وكان الاثنان اللذان تكلما: الملك حسين والملك فيصل. قال الملك حسين إنه لا يمانع بالانتخابات، ولكن يجب أن تكون أكثرية المجلس الوطني الفلسطيني من

---

(٣) أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

الفلسطينيين الأردنيين. وأجبت بإيجاز أن هذا أمر داخلي يخص الشعب الفلسطيني، وليس للحكومات العربية دخل فيه. وقد يكون المجلس الوطني كُلّه من «الفلسطينيين الأردنيين» أو من الفلسطينيين في البحرين.

أما الملك فيصل، فقد اشترط أن تتم الانتخابات بعيداً عن المنظمة وأن يتولى الإشراف عليها «القضاة الشرعيون»، وهو اقتراح سبق أن تقدمت به الهيئة العربية العليا. فأجبت بما أجبت الملك حسين، وأضفت أننا نوافق أن تجري الانتخابات تحت إشراف الجامعة العربية، ولكن الملك فيصل أصرّ على رأيه وألقى بكوفيته وراء كتفه وهو يقول: «الجامعة العربية عندها ما يكفيها من المشاكل». وقلت: «وكذلك القضاة الشرعيون فهم غارقون في مشاكل الزواج والطلاق»!

وهكذا، فإن الملوك والرؤساء لم يجدوا صيغة يتفقون عليها سوى الفتوى نفسها، فقرروا «أن على المنظمة أن تتفق مع الدول العربية بشأن الموضوع». وهكذا تزحلق الموضوع.

ثُمّ عرضت مسألة التجنيد الإجباري لأبناء فلسطين في الأردن، واكتفيت بالقول بأن إسرائيل في الطرف الآخر من خطوط الهدنة تفرض التجنيد الإجباري ٢٦ شهراً للشباب و٢٠ شهراً للشابات. فعارض الملك حسين استناداً إلى «أسباب اقتصادية واجتماعية تعرفونها، ولأننا لا نريد أن نخلق حساسية بين فلسطيني وأردني». وسئل الفريق علي عامر عن رأيه في الموضوع، فقال: «لقد طلبت إلى الملك حسين مراراً أن يفرض التجنيد الإجباري على جميع المواطنين في الأردن من غير تمييز بين أردني وفلسطيني، ولكن لم يوافق».

وتقحمت على الكلام فوراً، قلت: «إذا كان (سيدنا) يعتمد التجنيد الإجباري على جميع المواطنين، فإن المنظمة تتنازل عن طلبها. فنحن طلاب وحدة، وفلسطين هي وطن الأردن كما هي وطن الفلسطينيين». ولكن الملك حسين بقي على إصراره. وبقي الملوك والرؤساء على إصرارهم في الصمت. فقد أصبحت مؤتمرات القمة عند العرب كمجلس الأمن عند الدول العظمى، يحقّ فيه للأعضاء الدائمين أن يمارسوا حقّ الفيتو. والأعضاء الدائمون في مؤتمرات القمة هي الدول العربية التي تستضيف على أراضيها جماهير الشعب الفلسطيني.

ولم يبق من المواضيع إلا إنشاء قوات فلسطينية إضافية: سبع كتائب صاعقة، أربع منها في سوريا، وثلاث في قطاع غزة، وذلك بموجب خطة القيادة العربية الموحدة، وعلى الورق كان الأمر سهلاً، «فقد قرر الملوك والرؤساء تكليف القيادة

الموحدة بالاشتراك مع منظمة التحرير الفلسطينية في إنشاء القوات الفلسطينية المنصوص عليها في خطة الإنشاء».

ووجه الفريق عامر سؤالاً بسيطاً: «والمال؟، نريد اعتماداً جديداً».

قالوا: «كم هو المبلغ المطلوب؟».

قال: «خمسة ملايين ونصف مليون جنيه إسترليني».

فنظر الملوك والرؤساء بعضهم إلى وجوه بعض، ولم ينظروا إلى جيوب بعضهم بعض، وقالوا:

«يصرف المبلغ من وفورات القيادة العربية الموحدة».

فقال الفريق عامر: «ليس عندنا وفورات. كُلّ بندّ في الميزانية مربوط على مخصصاته».

قالوا: «دبر أمرك. أنقل من بند إلى بند. وفّر... دبّر!».

وقال الرئيس عبد الناصر:

«أمامنا الموضوع الكبير. خطة تحرير فلسطين، نستمع الآن إلى تقرير الفريق عامر».

وهكذا أقفلت أوراقي. وفتح الفريق عامر أوراقه ليتحدث عن خطة تحرير فلسطين، استجابة لما طلبه الملوك والرؤساء في مؤتمر القمة الثاني في الإسكندرية.

وراح الفريق عامر يقرأ تقريره عن خطة تحرير فلسطين من النسخة الوحيدة التي تملكها القيادة الموحدة، فقد انتزعها من محفظته، وفضّ عنها الشمع الأحمر، ومضى يتلو صفحة بعد صفحة، ويقف عند بعض فقراتها شارحاً بعض الوقائع، أو موضحاً بعض الأرقام.

ولست أبيح لنفسي أن اقف طويلاً عند هذا التقرير، ولا أن أفشي كُلّ ما فيه، فإني ما زلت أعيش تلك الساعات الثلاث التي قضيناها مع علي عامر وهو يشرح خطة تحرير فلسطين، مع ملابساتها الدولية، والتزاماتها العربية، ومختلف ظروفها السياسية والعسكرية والمالية و.. و..

وكانت تتنازعني أحلامي ومخاوفي. أحلامي لأن تحرير فلسطين هو أمنيتي وأمنية كُلّ عربي في ليله ونهاره. ومخاوفي لأني عرفت الحكم العربي منذُ عام ١٩٤٨، وها أنا الآن أعيشه في الدار البيضاء، عام ١٩٦٥، ولا أراه على مستوى المعركة.

وتحدث الفريق عامر تفصيلياً عن العوامل الثلاثة في معركة التحرير: القوات العسكرية اللازمة، الأموال الكافية، التوقيت الملائم: «وفي ستة أيام نكون قادرين على تحرير فلسطين».

ولقد أمسكت عن ذكر تفاصيل الخطة، ولكن لم أستطع أن أكتم حكاية «الأيام الستة» بعد أن هزمنا في حرب الأيام الستة، وكأنما نحن وضعنا الخطة، وبادرت إسرائيل لتنفيذها، ولكن نصراً لها وهزيمة علينا. وتلك حكاية رهيبة سأقصها في مكانها(٤).

وتعاقب الملوك والرؤساء في الثناء على الخطة، والموافقة عليها، وأنه ما على العرب إلا أن يتضامنوا، ويوحّدوا صفوفهم، ويستجيبوا للمطالب العسكرية والمالية التي اقترحها الفريق عامر.

وجاء دوري في الكلام وقلت: «ليست هذه أول مرة توضع فيها خطة لتحرير فلسطين. لقد عشت مؤتمرات سابقة وضعت فيها مثل هذه الخطة. وإني أدعو الله أن نكون اليوم أمام الخطة الأخيرة، ويتم تحرير فلسطين، لتستريح الأمة العربية إلى الأبد. القضية الفلسطينية كلّفت الأمة العربية ثمناً غالياً من الرجال والجهود والأموال، وإن الأرخص هو تحرير فلسطين. ولو أنكم وضعتم على هذه المائدة نصف إمكاناتكم المالية، وتقشفتم عاماً أو عامين لاسترحتم من إسرائيل كُلّ العمر».

ثُمّ قلت مستدركاً: «إن الخطة التي سمعتموها هي خطة هجومية انقضاضية، ولكنها تستلزم كذلك خطة دفاعية بالنسبة إلى القرى الأمامية، وخاصة في الجبهة الأردنية، فهذه القرى مكشوفة وعزلاء. وآخر ما وقع منذُ بضعة أسابيع العدوان على قلقيلية، حيثُ دمر اليهود إحدى عشرة بئراً، وتركوا وراءهم منشوراً فيه إنذار إلى أهل قلقيلية. إني اعتبر هذا المنشور موجهاً إلى الملوك والرؤساء. وها إني أضعه أمامكم بنصه الكامل، لتروا ما تضمره إسرائيل للقرى الآمنة عند أول بادرة. إنه يقول في جملة ما يقول: «إننا نحذركم بكل صراحة بأنه إذا لم يحلّ الهدوء على أراضينا، فلن يحلّ هدوء على أراضيكم، وستكون أضراركم وخسائركم جسيمة، وقد قدمنا هذه الليلة للإنذار فقط. ونحن نأمل بألا نجبر أن نقدم إليكم بوسائل تأديبية أقوى من هذا. وقد أعذر من أنذر».

وتناول الرئيس عبد الناصر المنشور الإسرائيلي من يدي وأخذ يقرأه على الحاضرين. وانتهى التعقيب والتعليق. وتناول الرئيس عبد الناصر قلماً وورقة، وبدأ

(٤) في كتاب كان تحت الإعداد عن حرب الأيام الستة (كذا ورد في الأصل).

يدوّن تلخيصاً لتقرير الفريق عامر: ما يلزم من الجيوش والطيارات والدبابات ومختلف الأسلحة والذخائر، وما يلزم من النفقات المالية، ما عندنا في الوقت الحاضر من الجيوش والسلاح والعتاد، وما ينقصنا، ما يتطلبه الوقت من التدريب والتجهيز وما... وما... إلى آخر ذلك التلخيص.

ولا أطيل. لا أطيل، فالحديث في هذا الموضوع في عام ١٩٧٢ يفتح الجراح من جديد.

وكُلّ الذي يكفي أن أقوله إنّه جرى توزيع الأقساط الأولى من الالتزامات المالية، حتّى يمضي القائد العام في تنفيذ خطته، والتزمت مع الملوك والرؤساء بالقسط الأول الذي يخصنا، مبلغ نصف مليون جنيه إسترليني... الالتزام المترتب على الشعب الفلسطيني.

وختم هذا الموضوع على هذه الصورة من غير تدوين، وكان على كُلّ ملك ورئيس أن يكتب في مفكرته الخاصة القسط الأول المطلوب، ولا يزيد على ذلك قليلاً أو كثيراً

وانتقلنا إلى القاعة الكبرى حيثُ كانت الوفود ومن حولهم المصوّرون والصحافيون في انتظار الجلسة الختامية، وجلس كُلّ وفد في مقعده، وألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطاباً أعلن فيه: «إن المؤتمر قد حقق نجاحاً أكيداً، لأنه مهما كانت اتجاهاتنا الاجتماعية أو السياسية، فإن حكم الطبيعة المتمثلة في وحدة التاريخ ووحدة المصير قادر على أن يخلق بيننا وحدة عمل نواجه بها كُلّ التحديات والمخاطر. إن هذا المؤتمر هو أخطر الاجتماعات العربية. وإن كثيرين كانوا ينتظرون وربما يتمنون انفجاراً يمزق هذا الاجتماع، ولكن الذي حدث عكس ذلك».

وانتهى مؤتمر القمة على نغمات التفاؤل الحلوة، وخرجنا من القاعة، وكنا ثلاثة نمشي معاً: الحسن الثاني ملك المغرب، والحسين ملك الأردن، وأنا. فقال ملك المغرب: «لماذا لا تتحول منظمة التحرير الفلسطينية إلى حكومة مؤقتة، وتبدأون بإقامة سفارات في البلاد العربية بدلاً من إنشاء مكاتب، ونحن موافقون على إنشاء أول سفارة لكم في المغرب». فقلت على الفور: «إن على جلالة الحسن أن يقنع جلالة الحسين. والحسن أخو الحسين. ونحن حاضرون». فقال الملك حسين: «الموضوع وراءه أمور شائكة، وهو ليس بهذه السهولة، وسأشرح لكم الملابسات قبل عودتي».

وانصرفنا إلى سيارتنا، إلى الفندق في انتظار أول طائرة تعود بنا إلى القاهرة أو إلى بيروت كيفما اتفق. فقد كنت في سباق مع آمالي، قبل أن تجتاحها مخاوفي.

ومرت الأيام والأسابيع ومؤتمر الدار البيضاء يترنّح في الفضاء، بين اليأس والرجاء، فقد كان آخر مؤتمر للملوك والرؤساء. ولم يعقد بعده مؤتمر القمة في الجزائر، كما تعاهدوا قبل أن يتفرقوا.

وانقضى العامان (١٩٦٦-١٩٦٧) من غير قمة، إلى أن حلّت النكبة في حزيران/ يونيو، وأعقبتها بعد ذلك «قمة الهزيمة» في الخرطوم، و«قمة» التمزق في الرباط، وقمم صغيرة أخرى لدول المواجهة، ليست جديرة بالاسم ولا بالعنوان.

ذلك كان حال الملوك والرؤساء. . .

﴿**ختم الله على قُلوبهم وعلى سمعِهم وعلى أبصارهم غِشاوة**﴾[٥] صدق الله العظيم.

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٧.

الملــوك والرؤســاء مشــوا علــى رؤوسهــم

هل كان الرئيس عبد الناصر صادق الفراسة؟

بل، هل كان الرئيس عبد الناصر صادقاً في ما يقول؟

أم إنه قال ما قال إذكاء للنفوس وتثبيتاً للقلوب؟

كانت هذه الأسئلة تغور في نفسي، وأنا في الطائرة من الدار البيضاء إلى القاهرة، غداة انتهى مؤتمر القمة الثالث.

كانت بيدي جريدة **الأهرام** وقد امتلأت صفحاتها بأخبار مؤتمر القمة وإنجازاته، وقد تصدّر ذلك قول الرئيس عبد الناصر: «هذا أنجح مؤتمر حضرته في حياتي».

وبدأتُ أبحث في أعماق نفسي عن إنجازات هذا المؤتمر، موضوعاً موضوعاً، ورحتُ أضرب وأطرح، وأجمع وأقسم. وتساءلت: الخطة العسكرية لتحرير فلسطين، عبارة رائعة، ولكن أنّى للدولة العربية الممزقة المتباغضة المتحاسدة أن تحارب؟ وإذا حاربت أنّى لها أن تنتصر؟

المشروع العربي لتحويل الروافد يحتاج إلى أموال وحماية. ولا هذه موفورة، ولا تلك ميسورة... فمن أين للمشروع العربي أن ينجح؟

ومطالب منظمة التحرير الفلسطينية في التجنيد والتدريب، وحرية الإقامة والعمل والسفر، و.. و.. وسائر الأمور، خرجت من مؤتمر الدار البيضاء بصفحة بيضاء، فأين المفر والمقر؟

وفي النهاية رسا مؤتمر القمة في نفسي على إنجازات لا أراها إنجازات. من ذلك أن علم تونس قد أنزل من مقر المؤتمر احتجاجاً على موقف الرئيس بورقيبة من قضية فلسطين. وعلم تونس ملك الشعب وليس ملك رئيسه، ومن ذلك إجلاء عدد كبير من يهود المغرب عن الدار البيضاء أثناء انعقاد المؤتمر. ولكن المؤتمر لم يكن على مستوى الخطر الصهيوني المحدق بالوطن العربي بأسره، فضلاً عن الوطن المغربي،

ومن ذلك مبادرة الملوك والرؤساء إلى صلاة الجمعة في موكب فخيم، ولم تكن تظاهرة لله بقدر ما كانت تظاهرة لامتصاص عواطف عباد الله!

ومن ذلك، أخيراً، أن وزراء الخارجية قد رفضوا أن يدرجوا على جدول الأعمال مذكرة مرسلة من الرئيس بورقيبة إلى المؤتمر تفنيداً للوحدة العربية. وكان الأجدر بالمؤتمر أن يسير خطوة واحدة على طريق الوحدة العربية بدلاً أن يعلن رفضه آراء بورقيبة[1].

هذا كُلّ ما استقر في ذهني عن إنجازات المؤتمر. وسألت نفسي مرة ثانية: لماذا قال الرئيس عبد الناصر عن المؤتمر ما قال. أنا أكبره بعشر سنوات في ميدان العمل. ولكنه يكبرني بأعوام في الممارسة والمعاناة، وهو يعرف من تخلف الحكم العربي الرسمي أكثر مما أعرف.

وأبقيت هذه الخواطر حبيسة في نفسي بضعة أيام إلى أن عاد الرئيس عبد الناصر من المغرب، وطلبت موعداً عاجلاً، وفي منزله في منشية البكري في مصر الجديدة اجتمعت به قريباً من ساعتين، ونحن نتحدث في الشؤون العربية، وما انتهى إليه مؤتمر الدار البيضاء من قرارات، وما هي بقرارات!

وأسهب الرئيس عبد الناصر في تحليله وتقييمه مؤتمر القمة في الدار البيضاء، مؤكّداً أن الأمر في النهاية يعتمد على التنفيذ، ومشكلة الدول العربية هي التنفيذ.

ولم يكد يلفظ هذه «الأدلة» على الحكم العربي، حتّى بادرته بالسؤال: و«لماذا ذكرت **الأهرام** على لسانك بأن مؤتمر القمة في الدار البيضاء يعتبر أنجح مؤتمر شهدته في حياتك؟ فبادرني على الفور قائلاً: «وهل تريدني أن أدفع الأمة العربية إلى اليأس؟ وهل تريد أن تيأس الأمة العربية من ذاتها بعد أن يئست من حكامها؟».

قلت: «ولكن الأمر يحتاج إلى شيء من المكاشفة».

قال: «نعم، ولكن بمقدار».

قلت: «أنا لست من حكام العرب، فلا أنا ملك، ولا أنا رئيس، وإني عازم على أن أقوم بدور المكاشفة».

قال: «ذلك أمر ضروري، من غير شكّ، ولكن بمقدار، وبحذر».

---

(١) أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وانتهى الحديث بيننا على هذا «الاتفاق»، وقضيت ليلتي أعدّ خطاباً عن مؤتمر القمة في الدار البيضاء، أكاشف فيه الأمة العربية والشعب الفلسطيني، ولكن «بمقدار وبحذر»، كما قال الرئيس عبد الناصر.

وفي اليوم الأول من شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٥ كنت في طريقي إلى إذاعة منظمة التحرير، في شارع الشريفين في القاهرة، أحمل معي خطابي، وفي نفسي آلام أكثر مما كتبت، وآمال دون ما ذكرت.

ودخلت حجرة المذياع، كأنني في المحراب، وألقيت خطابي، وكانت نبراتي أكثر تعبيراً عن كلماتي. فإذا كنت قد حبست الكلمات، لكني لم أستطع أن أحبس النبرات.

ولتعيش الأجيال العربية مشاعر تلك الأيام، بآمالها وآلامها، بل لأضيف صفحة حيّة إلى سجل تلك الحقبة من تاريخ الأمة العربية، فقد انتزعت ذلك الخطاب من بين أوراقي وضممته إلى مذكراتي، ليعلم المواطن العربي ما هو كائن، وما سيكون مما هو كائن، وما هو أهم من ذلك، ليتعرف على ذلك المؤتمر الذي وضع خطة لتحرير فلسطين في ستة أيام!

وهذا هو مؤتمر الدار البيضاء في خطاب، في خطاب غاضب على «الحاضر» الذي كان خائفاً على «المستقبل» الذي سيكون. وها أنا أضع الخطاب، الخائف الغاضب، أمام المواطن العربي، ليقرأ كيف مشى الملوك والرؤساء إلى الهزيمة على رؤوسهم قبل أقدامهم:

«يا أبناء فلسطين، يا رجالها ونساءها، يا شبابها وطلابها، يا فلاحيها وعمالها استمعوا إليّ.

يا أبناء فلسطين ـ في الأردن ـ حيثُ أرضنا الطيبة وشعبنا البطل.

يا أبناء فلسطين ـ في قطاع غزة ـ حيثُ الرقعة الغالية تضم المقيمين والعائدين.

يا أبناء فلسطين ـ في سوريا ولبنان ـ في العراق والكويت ـ والخليج ـ في السعودية والعربية المتحدة.

يا أبناء فلسطين ـ في الشمال الأفريقي من الوطن العربي حتّى المحيط.

أنصتوا إليّ جميعاً، وأعيروني سمعكم وعقلكم وضميركم، لأحدثكم عن القضية المقدسة التي تملك عليكم سمعكم وعقلكم وضميركم، بل كُلّ جوارحكم وكُلّ حياتكم.

ولست أحدثكم عن ماضي قضيتكم، فأنتم تعيشون إلى يومكم هذا قضية فلسطين، وكارثة فلسطين، تعيشونها في الخيام المهلهلة التي مزقتها السنون، وفي الكهوف التي احتوتكم الأعوام تلو الأعوام، في مدننا المشرفة على أرضنا السليبة، وفي قرانا المطلة على شاطئنا الخصيب وقد احتله الغاصب الدخيل.

ولكني أحدثكم عن حاضر قضيتنا الفلسطينية إلى المرحلة التي بلغتها، أحدثكم عن منظمة التحرير إلى النقطة التي وصلت إليها، أحدثكم عن مؤتمر الدار البيضاء، وفي ما نجح وفي ما فشل وأخفق، وسأحدثكم يا إخواني أبناء فلسطين، حديثاً واضحاً صريحاً، كما أحدث نفسي في نجواي، لا أخفي عنكم أمراً، إلا ما ينفع العدو أو يشمت له، فعند ذلك الحدّ وقوفي وصمتي.

لقد انعقد مؤتمر الدار البيضاء على شواطئ المحيط، وانعقدت حوله آمال الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، وكان على جدول أعماله عدة مواضيع، لو جمعنا أطرافها لالتقت كلها تحت عنوان واحد عمره سبعة عشر عاماً، ألا وهو تحرير فلسطين.

وتحرير فلسطين في أبسط بديهياته يقوم على حقيقتين راسختين تسيران جنباً إلى جنب في ترابط وانسجام:

الحقيقة **الأولى** ـ إعداد الشعب الفلسطيني إعداداً روحياً وعسكرياً ليخوض بنفسه معركة التحرير كطليعة للبذل والفداء.

والحقيقة **الثانية** ـ تعبئة طاقات الأمة العربية، الروحية والمادية والعسكرية، منسقة منظمة موحدة، تناضل كلها في ميدان التحرير.

ومن هنا كان إنشاء القيادة العربية الموحّدة لتكون الأداة الفعالة للكفاح العربي، ومن هنا كان إنشاء «منظمة التحرير» و«جيش التحرير» ليكونا الأداتين المنفذتين لحشد شعب فلسطين استعداداً لتحرير فلسطين.

وقد أمضى مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء كُلّ أيامه وبعض لياليه يبحث موضوع تحرير فلسطين، ولو أننا استثنينا الأمور العسكرية، فإن الحوار الذي دار في الجلسات المقفلة ليس سراً نخشى إذاعته، فإنه الحوار الذي يدور على ألسنة الملايين من الأمة العربية، في الحواضر والبوادي: إنه السؤال القديم الذي انطلق منذُ النكبة: متى يكون تحرير فلسطين؟ وكيف؟

ولقد دخل هذا السؤال إلى الغرفة المقفلة التي التقى فيها الملوك والرؤساء، فهو سؤال كالموت يقتحم على الناس خلواتهم ولو كانوا في بروج مشيّدة، فماذا كان الجواب؟ على الصعيد العربي أجاب مؤتمر القمة في الدار البيضاء عن هذا السؤال

الكبير بتوقيع التضامن العربي، وإقرار خطة القيادة الموحدة لتحرير فلسطين.

والتضامن العربي وثيقة لا يمكن أن ننقص من قدر المبادئ التي تضمنها، والجديد فيها توكيد التوكيد: فجميع هذه المبادئ مودعة في ميثاق الجامعة العربية وقراراتها، في أجمل عبارة وأكمل صياغة، ولقد مضى على الدول العربية عشرون عاماً منذُ وقّعوا ميثاق الجامعة، ولم يستطيعوا أن يحققوا التضامن العربي في ما بينهم. ومع هذا، فإن منظمة التحرير لا تستطيع أن تنكر هذه الخطوة الجليلة إذا نفذت بروح من الجد والإخلاص، ويصحّ اعتبارها من أروع إنجازات مؤتمر القمة العربي، فإن تضافر الجهود العربية هو بداية الطريق لتحرير فلسطين.

وحين تحدثت باسم منظمة التحرير عن موضوع التضامن العربي، أعربت عن الرجاء الملحّ والدعاء الحار أن يشطب هذا الموضوع من جدول أعمال القمة العربي إلى الأبد. وأكدت أن قضية فلسطين، بقداستها وفداحتها، تدعو إلى التضامن من غير شكّ، ولكن تكرار هذا الموضوع على جدول أعمال الملوك والرؤساء ليس دليل خير، بل إنه دليل شرّ. إن وجود هذا الموضوع على جدول الأعمال ينبئ أننا مختلفون على الدوام، وأننا كلماً التقينا تعاهدنا على التضامن، لنلتقي في العام التالي ونتعاهد على التضامن مرة أخرى.

ولقد ناشدت مؤتمر القمة بأن نبطل الشعار المألوف «فلسطين فوق الخلافات»، فهذا شعار جميل حقاً، ولكن ما هو أسمى وأروع أن نرفع شعاراً أحق وأجدر بأن «لا خلافات وفلسطين محتلة».

أما بالنسبة إلى الخطة العربية لتحرير فلسطين، فإن الذي تمّ الاتفاق عليه في هذه المرحلة أدنى بكثير من الإمكانات الضخمة التي تملكها الأمة العربية، بل إنها ليست في مستوى الذروة حقاً، ومع هذا، إذا استطاع الجهد العربي الموحد أن ينقل هذه الخطة من الورق إلى الميدان، يكون مؤتمر الدار البيضاء قد حقق إنجازاً جديراً بالتقدير. وستظل الأمة العربية ومعها شعب فلسطين على موعد حاسم مع مؤتمر القمة المقبل في الجزائر تتطلع يوماً بعد يوم خلال العام كُلّه في لهفة حائرة لترى من الذين صدقوا في ما عاهدوا، ومن الذين تخلفوا، والواقع أن التخلف قد بدأ يتسلل إلى مؤتمر القمة العربي بعد أن أنهك الجامعة العربية منذُ أن نشأت الجامعة العربية.

ولقد أصبح معروفاً أن الأردن عارض في دخول القوات العراقية والسعودية. وبهذا أصبح المشروع العربي لتحويل الروافد من غير حماية عسكرية. لقد بدأنا المشروع بجلجلة صارخة، ثُمّ تركناه تحت رحمة القدر، فتحول التحويل إلى طريق آخر لا نعرف نهايته.

ولم يكن التخلف وحده هو الذي تسلل إلى مؤتمر القمة، فقد أخذ الروتين يزحف إليه زحفاً، ولقد ناشدت باسم منظمة التحرير ألا تقع مؤتمرات القمة ضحية الروتين كما وقعت الجامعة العربية. وقد ضربت على ذلك مثلاً حياً يتجسد في ما انتهى إليه مشروع المؤسسة المالية لتحرير فلسطين. هذا المشروع تقدمت به المنظمة إلى مؤتمر القمة في الإسكندرية، وهو مشروع وضعه نفر من الاختصاصيين العرب يهدف إلى إنشاء مؤسسة مالية ذات موارد ثابتة تتولى تمويل حركة الكفاح العربي لتحرير فلسطين. ومؤتمر الإسكندرية أحال المشروع لدراسته على لجنة متخصصة تؤلفها الجامعة العربية، وقد قامت تلك اللجنة بدرسه فعلاً، ووافقت على الكثير من الأسس التي اقترحتها المنظمة، فماذا كان مصير المشروع في الدار البيضاء؟ لقد تأجل مرة ثانية لدراسة ثانية!

هذا هو أسلوب الروتين الذي نخر العمل العربي خلال سبعة عشر عاماً طوالاً، ونحن في سباق مع الزمن، والزمن لا يرحم ولا يمهل.

ليس هذا أسلوب الثورة، وليس هذا أسلوب التحرير، وإذا دخل الروتين إلى مؤتمرات القمة، تهاوت القمة إلى القاع، وهوى معها تحرير فلسطين.

والروتين لا يحول دون تحرير فلسطين فحسب، بل إنه يؤدي في النهاية إلى تحقيق أطماع إسرائيل وأحلامها في عدوان جديد وتوسع جديد. ذلك لأن الزمن يسير في صالح إسرائيل وليس في صالح العرب، وإذا لم نبادر إلى اختزال الزمن بمضاعفة الجهد، فسيقع تحرير فلسطين تحت رحمة الأسلحة الذرية، حين لا ننفك من قبضتها، إلا بصنع السماء.

فهذا هو الموقف العربي كما انتهى إليه مؤتمر القمة في الدار البيضاء، موقف إذا رافقه التنفيذ الجاد المخلص، لا نستطيع إلا أن نباركه ونفرح له، وإن كانت الكارثة لم تترك في قلوبنا مكاناً للفرح والسرور.

وأنتقل بكم الآن ـ يا إخواني أبناء فلسطين ـ إلى شؤوننا المباشرة، إلى مطالب منظمة التحرير الفلسطينية التي تقدمت بها إلى مؤتمر القمة في الدار البيضاء.

ولقد كنت على حسرة في نفسي أن أتقدم بهذه المطالب إلى مؤتمر الملوك والرؤساء. كان ينبغي ألا يكون لشعب فلسطين في الوطن العربي أية مصاعب وأية مطالب. فقضية فلسطين هي قضية الأمة العربية بأسرها، مصيراً ووجوداً، وشعب فلسطين فلذة من الأمة العربية التي تعيش في الوطن العربي الكبير، ومن حقنا أن تستجاب مطالبنا من غير طلب. فما هي مطالبنا وماذا كان مصيرها؟ خدمة العلم ـ التجنيد العسكري، كان **أول** مطالبنا، والأمر واضح بذاته لا يحتاج إلى إيضاح. إن

شعب فلسطين متلهف لخوض معركة التحرير، فلِمَ لا تتيسر له أسباب التجنيد في جميع الدول العربية؟ لقد تشتت شعب فلسطين بعد الكارثة، وشاء القدر أن تكون تجمعاته الكبيرة وراء خطوط الهدنة في قطاع غزة، وفي الأردن، وفي سوريا، وفي لبنان. ومنذُ أن وقعت الكارثة وشعب فلسطين يطالب الدول العربية بأن تفتح أمامه أبواب التجنيد، وحين قامت منظمة التحرير أخذت على عاتقها المسؤولية الوطنية في تعبئة الشعب الفلسطيني حيثما كان في الدفاع المشترك، وأمام الملوك والرؤساء، وتركز الحوار في الدرجة الأولى مع الأردن، فإن الأردن هو المنطلق الكبير للتحرير.

وإذا كان لدى بعض الدول العربية أسباب تحول دون التجنيد. ومنظمة التحرير لا تقرّها، فإن موقف الأردن ليس له ما يبرّره، ففي الأردن بقية وطننا، أو بقية شعبنا، وحرام أن يحرم أبناء فلسطين من شرف التحرير، كائنة ما كانت الأسباب، فإن كُلّ الأسباب يجب أن تخضع لهدف التحرير.

أما مطلبنا **الثاني**، فهو حرية السفر والإقامة لأبناء فلسطين، ولقد كاشفت الملوك والرؤساء بالقيود الثقيلة التي فرضت على أبناء فلسطين بشأن سفرهم وإقامتهم وعملهم في عدد من الدول العربية، وتلوت على مؤتمر القمة بعض الرسائل التي تلقيتها من أبناء فلسطين تشرح ما يعانونه من متاعب، وقد أكدت للملوك والرؤساء الأهمية البالغة لهذا المطلب لكلّ مواطن فلسطيني في حياته اليومية، وأنه إذا كانت الكارثة قد شردت هذا الشعب البطل، فإنها كارثة أخرى أن يرسف الشعب في هذا العناء سبعة عشر عاماً، وفي الوطن العربي الرحيب.

وأوضحت بعد ذلك أنّه لتحرير الأرض السليبة، لا بُدّ من تحرير إرادة الإنسان الفلسطيني، فيعمل ويسافر ويقيم كأي مواطن في بلده، ذلك لأن سبعة عشر عاماً تحت أي قانون في العالم، مهما كان صارماً، تكفي لتمنحه حقوق المواطن. ونحن لا نطالب من هذه الحقوق إلا بحرية السفر والإقامة والعمل.

ولكن هذا المطلب الأساسي لم يجد استجابة كاملة، فقد تحفظت عدة دول، ولم يكن يصحّ لمؤتمر القمة العربي، وهو الذي يخطط لتحرير فلسطين، بكل ما ينطوي عليه من تضحيات جسام ومسؤوليات عظام، أن يواجه شعب فلسطين في هذا الأمر اليسير بهذه التحفظات.

ثُمّ جاءت بعد ذلك المطالب الأخرى المتصلة بالتنظيم الشعبي وضمان الحرية لانتخابات المجلس الوطني المقبل، وما يتبع ذلك. والواقع أن هذه المطالب تقع تحت عنوان واحد، ألا وهو حرية الشعب الفلسطيني في ممارسة نشاطه الوطني، شأنه في ذلك شأن جميع الشعوب العربية الأخرى في مراحل كفاحها.

ولم أدخر جهداً في شرح الضرورة القومية لتيسير الطريق أمام الشعب الفلسطيني لتعبئة طاقاته وتنظيم صفوفه، وأنه، كائنة ما كانت الخطة لتحرير فلسطين، فلا بُدَّ في هذه المعركة من شعب فلسطين ولا بُدَّ لشعب فلسطين من أن يكون منظماً معبأً وراء قضيته، وناشدت مؤتمر القمة أن ييسّر جميع الأسباب للتنظيم الشعبي. فإذا كانت الشعوب الآمنة في ديارها، المستقرة في وطنها، تلجأ إلى التنظيم الشعبي لحماية مكاسبها الوطنية، فإن الشعب الفلسطيني المشرد عن وطنه المشتّت في مهاجره، ليس في حاجة إلى التنظيم الشعبي فحسب، بل إلى الحرية الكاملة للعمل الوطني الكامل، وفي جميع المجالات، النشاط العسكري والسياسي على السواء.

ولكن هذا الموضوع الخطير لم يجد استجابة من بعض الدول العربية، وفي مقدمتها الأردن، وحين أخصص الأردن، لا أفعل ذلك عن حقد وضغينة، ولكن إدراكاً كاملاً لدوره الكبير الذي هيأته له النكبة لإزالة النكبة.

وقد بدا واضحاً بعد أن رفضت مطالب المنظمة في مجموعها أن منظمة التحرير في حاجة إلى تحرير قبل أن تدخل معركة التحرير، بل وضح فوق ذلك أن شعب فلسطين في حاجة إلى تحرير إرادته قبل تحرير أرضه.

ولقد عدت من مؤتمر القمة في الدار البيضاء، وفي ضميري سؤال كبير: ماذا حققت منظمة التحرير في هذا المؤتمر؟ لقد عاد كُلّ ملك ورئيس إلى شعبه يحدثه عن إنجازات المؤتمر. وسألت نفسي: ماذا أقول أنا اللاجئ، للشعب اللاجئ، للشعب الطريد؟ وعزمت ألا أقول إلا الحقّ، فإذا كنا فقدنا في هذه الكارثة الوطن ومعه الكثير والكثير، فليس علينا أن نفقد كلمة الحقّ.

وكلمة الحقّ أن منظمة التحرير لم تجد في مؤتمر الذروة ما كانت تطمح إلى تحقيقه، فإن مطالبها وهي مطالب الشعب، لم تجد الاستجابة الجديرة بالتحرير، وأهداف التحرير.

لقد رفض الأردن التجنيد والتنظيم الشعبي وكُلّ نشاط لمنظمة التحرير، ولم يكن يسيراً أن نحاسب دولاً عربية أخرى على مواقفها السلبية، فإذا كان حراماً على منظمة التحرير أن تعمل في وطنها ومع شعبها في الأردن، فماذا نقول لأطراف المحيط وأطراف الخليج؟

أما بالنسبة إلى السفر والإقامة والعمل لأبناء فلسطين، فالأمر باق على حاله، ولم يستطع مؤتمر القمة العربي أن يقدم لشعب فلسطين أكثر من الأمر الواقع، وما له من دافع!

ولهذا، فإن منظمة التحرير تواجه في عامها الثاني مصاعب، كان ينبغي ألا تجدها في طريقها، حتّى تستطيع أن تتفرغ بكل جهودها للمهمة الكبرى، مهمة التحرير، بدلاً من أن يستغرق وقتها ونشاطها في معالجة أمور السفر والعمل وما إليها، ألا يكفي أن منظمة التحرير تعمل من غير أرض، ومن غير شعب متجمع، على غير ما تعمل الشعوب المناضلة لتحرير وطنها؟

إذا كانت لدينا قضية اسمها قضية فلسطين. فيجب أن يكون لها شعب اسمه شعب فلسطين، فلا يمكن أن نتحدث عن قضية من دون أن يكون لها شعب يحمل اسمها وعلمها ويكافح من أجلها.

وإذا كان هنالك شعب اسمه شعب فلسطين، فيجب أن يكون هذا الشعب حراً في ممارسة نشاطه الوطني، لا وصاية عليه، لا أغلال تكبله، ولا قيود تكتّفه.

إن انطلاق الشعب الفلسطيني في تعبئة طاقاته هو أول الطريق لتحرير فلسطين، ومن غير شعب فلسطين، حراً منظماً معبأً، فإن أية خطة عربية لتحرير فلسطين مبتورة لا تؤدي إلى نهاية ظافرة.

ولقد اعتمد الملوك والرؤساء في الإسكندرية منظمة التحرير ممثلة لإرادة الشعب الفلسطيني في كفاحه لتحرير وطنه، وتعاهدوا في ما بينهم بأن ييسروا للمنظمة مهمتها القومية، ولكن المنظمة تجد بعد مؤتمر الدار البيضاء أن مقرها العام في القدس قد أصبح سجيناً بين الجدران الأربعة، بعيداً عن الشعب، والشعب بعيد عنه، وأصبح لا بُدَّ من تحديد الموقف تحديداً واضحاً.

وتحديد الموقف هو حقّ الشعب وواجبه، والأمر مطروح على الشعب ليقول كلمته، فليست المنظمة هي رئيس المنظمة وأعضاؤها ولا مدراؤها، بل المنظمة هي الشعب، والشعب هو المنظمة.

وإن رئاسة المنظمة ليست عندي وظيفة أتقاضى عنها راتباً، أو أتطلع من ورائها إلى جاه أو مغنم.

هذا المنصب كُلّه متاعب ومصاعب، كُلّه عناء وابتلاء.

هذا المنصب هو الأرق الممضّ في وحشة الليل البهيم.

هذا المنصب هو الصراع الرهيب في أعماق النفس عن يوم التحرير، متى وكيف؟

هذا المنصب تلتقي فيه آلام الهجرة وذكريات الوطن.

وهذا المنصب، فوق كُلّ ذلك تتجسد فيه نكبة شعب، وكارثة وطن.

وإن المرء ليستعذب هذا العذاب كُلّه، ما بقي في الميدان قائماً للنضال، وما بقي الطريق مفتوحاً للكفاح.

إن تجربة حكومة عموم فلسطين لا تزال ماثلة في خواطرنا، وإن شعب فلسطين يرفض أن تتكرر هذه المأساة، ويرفض أن تصبح المنظمة دمية يلهو بها، وقد ضاع من عمره سبعة عشر عاماً طوالاً.

وإذا كان الطريق مسدوداً أمام المنظمة هنا أو هناك، فإن هذا الشعب البطل الذي ألف الكفاح والنضال، لا بُدّ من أن يجد كُلّ وسيلة ليشق للمنظمة طريقاً ثانياً، خارج مؤتمر القمة، طريقاً تحت الأرض، وستكون الأمة العربية يومئذ في هذا الطريق لأنه طريق الكفاح والنضال».

ولقد عدت إلى بيتي بعد أن أفرغت ما في نفسي، قياماً بواجبي وراحة لضميري. واسترسلت تلك الليلة في نوم عميق، لم أنم بمثله منذُ سنين.

ونهضت إلى مكتبي في الصباح نشيطاً متحفزاً لعمل، وكأنني قد تخففت من أحمال ثقيلة كانت تنوء بها كتفاي. ومسكين هذا الإنسان يعيش بمشاعره، ليسعد بها ويشقى.

وعند الظهيرة، رنّ جرس التلفون في مكتبي، كان المتكلم سامي شرف، مدير مكتب الرئيس عبد الناصر، فقال: «الرئيس استمع إلى خطابك كُلّه، وهو مسرور جداً. وهو يرى أنك وضعت النقط على الحروف».

قلت: «أرجو أن تبلغ سيادة الرئيس تحياتي وشكري».

ولقيت الرئيس عبد الناصر بعد بضعة أيام في قصر عابدين في واحدة من الحفلات الرسمية التي يقيمها لضيوف القاهرة، فبادرني الحديث قائلاً:

«الخطاب كان «موفق أوي. لقد خطبت بلساني».

قلت: «أرجو أن تكون المكاشفة قد تمت بمقدار وبحذر، كما أردت».

قال: «إنه بالقدر اللازم. المهم ألا نصل إلى درجة الانفجار».

قلت: «سأحرص على الدوام ألا أصل مع الحكومات العربية إلى درجة الانفجار».

ومضيت نحو مكاني إلى مائدة العشاء، وأنا أؤكد في نفسي أن أتجنب نقطة الانفجار.

وقد التزمت هذه النصيحة زمناً طويلاً، ولكن نقطة الانفجار قد وقعت، ووقعت على غير اختيار.

أجل! لقد تفجر الموقف في وجه الناصح والمنصوح، على الرئيس عبد الناصر وعليّ.

ولكن «اللغم» قد انفجر تحت قدمي أولاً، ففي أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٥ دعيت لمقابلة الرئيس عبد الناصر في مكتبه بقصر القبة. ودخلت على الرئيس فوجدته يقلب ملفاً أمامه، ويؤشر على بعض أوراقه، وبادرني بالقول: الملك حسين عتبان عليّ وزعلان عليك.

قلت: «زعلان عليّ، مفهوم. ولكن عتبان على سيادتك ليه؟».

قال: «وصلتني منه رسالة مطوّلة يتكلم فيها عن الخلافات مع المنظمة. هذه صورة منها لك لتطلع عليها. أنا من جانبي لا أريد أن أتدخل بينك وبينه. المهم أننا لا نصل معه إلى نقطة الانفجار».

قلت: «يا سيادة الرئيس، ما أظن أحداً يستطيع أن يصبر على الملك حسين أكثر مما صبرت. أرجو أن تقدروا ظروفي. أنا أعمل مع شعب شرد عن وطنه. الأسرة الهاشمية لها تاريخ مرير مع الشعب الفلسطيني. إنه يعتبر الملك عبد الله أساس نكبته».

قال: «كُلّ هذا مفهوم. وأنا أشعر معك تماماً. ولكن ابذل كُلّ جهدك للتفاهم مع الملك حسين عسى الله يهديه».

قلت: «كان الله في عوننا على قضية فلسطين، وعلى الملك حسين».

وودعته وانصرفت. ودخلت سيارتي، وأخذت أقرأ رسالة الملك حسين إلى الرئيس عبد الناصر، ابتداء من أخي «الأعز» إلى «وتفضلوا يا سيادة الأخ بقبول فائق الاحترام ووافر التحيات والتمنيات». وكانت تقع في خمس صفحات، تجلت فيها صناعة البديع والبيان، في ما هو مأثور عن الديوان الهاشمي في عمان.

ويشير الملك حسين في رسالته، بعد «التحيّة القلبية الصادقة» إلى «الحملات المتجنية المتوالية التي يشنّها السيد أحمد الشقيري ورهطه من وراء مذياع فلسطين في القاهرة على الأردن قبل أن يجفّ الحبر الذي كتبت به مقررات مؤتمر القمة الثالث الذي كان لحنكتكم ودرايتكم أبلغ الأثر في نجاحه العظيم. إن الحجة التي يتذرع بها السيد الشقيري في مهاتراته هي أن الأردن يعوق عمل المنظمة ولا يسمح لها بحرية العمل. وحرية العمل في مفهومه تستهدف سلخ المواطن الأردني الفلسطيني غربي نهر الأردن عن أخيه في شرقه، وتفتيت وحدة الشعب والجيش. وقد أحزننا أن يتجاهل السيد أحمد الشقيري ومذياعه الذي يبثّ من أرض الكنانة الشقيقة مقررات مؤتمر

القمة، وأن يذهب مذاهبه المشبوهة في التهجم على المملكة الأردنية الهاشمية. وقد بلغت بنا الحساسية مبلغها، فأصبحنا لا نطيق النكران والجحود. إن أعوان الشقيري هم الذين زيّنوا له مثل هذا السلوك. وأخشى ما أخشاه أن توصد تصرفات الشقيري الباب نهائياً أمام كُلّ مجال للتعاون معه، ما لم يعد إلى رشده، ويسلك الطريق السوي المستقيم الواضح، خدمة لفلسطين ولأهداف أمتنا العربية. نحن نكرم أنفسنا أن ننزل إلى درك النداءات والهتافات التي انطلقت من حشود الشقيري موجهة إلى شخصنا وإلى بلدنا، في الوقت الذي كنا نعتقد أن عهد هذه الغوغائية قد انقضى إلى غير رجعة. وإن كرامتي وكرامة العاملين معي هي جزء من كرامتكم. وإنه ليسعدني أن أترك بين يديكم دقائق الموقف برمته، وكلي ثقة بأنكم ستتولون بحسن رعايتكم وعنايتكم وحرصكم على المصلحة القومية هذا الموضوع بما يحقق رتق الفتق وتقويم الاعوجاج تمشياً مع ميثاق التضامن» إلى آخر الرسالة.

ضحكت ملء الرئتين والشدقين، وأنا أقرأ هذه العبارات من رسالة الملك حسين، وقد وشاها بالعسل المصفى من المديح الذي كاله للرئيس عبد الناصر من غير حساب.

ضحكت. وضحكت معي الأقدار لأن هذا الثناء العاطر على الرئيس عبد الناصر لم يدم إلا عاماً واحداً فقط، ففي اليوم السابع من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٦٦ أدلى الملك حسين بحديث طويل لمراسل جريدة **الهرالد تريبيون** حمل فيه هذه المرة، لا على الشقيري، ولكن على الرئيس عبد الناصر قال فيه «إن الرئيس المصري عميل للاتحاد السوفياتي».

وبعد، لقد كانت رسالة الملك حسين حلوة الألفاظ، عذبة العبارات، لو سمعها المرء من غير الملك حسين الذي عرفناه وعرفته معنا الأمة العربية، لأثارت الإعجاب، ولكن الله قال، وقوله الفصل: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحبّ الفساد**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيتان ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

اتفقنا في القاهرة.. واختلفنا في الأردن

انتهى مؤتمر القمة الثالث في الدار البيضاء في خريف عام ١٩٦٥، وعاد الملوك والرؤساء إلى شعوبهم وأوطانهم. أما أنا فما عدت إلى شعبي ولا إلى وطني، ذلك أن وطناً تحت الاحتلال، وشعبنا مشرّد في الآفاق.

ولم يكن من سبيل أمامي إلا أن أتصل بالشعب عن طريق إذاعتنا في القاهرة، فهي الطريق المختصر «للاجتماع» بالشعب في مهاجره من المحيط إلى الخليج. وكان خطابي الذي كشفت فيه عن الحقّ من غير زيادة ولا نقصان.

ولكن «الحقّ» قد أغضب الملك حسين وأثار حفيظته، وشنّ حرباً شعواء على المنظمة ورئيسها، وكان ذلك بداية صراع طويل بيني وبين الملك حسين، تمت خلاله بيننا هدنات وتسويات، ونشبت معارك وخصومات، يتحمل النظام الأردني مسؤوليتها كاملة، فتلك طبيعته منذُ نشأته، بل إنه وجد من أجلها، ولأجلها وجد.

استمع الملك حسين إلى خطابي عن مؤتمر الدار البيضاء، وأنا ألقيه على الهواء، واستمع معه الشعب كُلّه في الأردن بضفتيه، فغضب الملك وانشرح الشعب. غضب الملك لأني نطقت بالحق، لأني كاشفت الشعب أن مليكه يعارض في تدريبه وتسليحه، يعارض في تحصين القرى الأمامية، ويعارض في أن يكون لجيش التحرير الفلسطيني مكان في وطنه ومع شعبه.

ولقد انشرح الشعب لأني قلت هذا القول، وكان هذا ما يقوله الشعب في مدنه وقراه، في إربد قبل نابلس، وفي عجلون قبل جنين، وفي عمّان قبل القدس. فأبناء «شرق الأردن» وأبناء فلسطين، ينتمون إلى وطن واحد وشعب واحد. ومن كان في شكّ فليرجع إلى التاريخ، فإن قوله الفصل وما هو بالهزل.

وانبث أعوان القصر الملكي، ومعهم أجهزة الدولة، في أرجاء البلاد يحرّضون الناس على «منظمة الشقيري» التي هاجمت «سيدنا»، فباءت الحملة بالفشل، إلا من

بعض برقيات «طيّرها» أصحابها إلى «منقذ البلاد وحامي حمى الوطن» تستنكر «تهجم الشقيري على مقام سيد البلاد».

كنت أستمع إلى هذا اللغو من الإذاعة الأردنية، والرسائل تصلني من الأردن تروي نوادر طريفة، منها أن أحد المخاتير كان يقول لأعوان القصر «إقطعوا يدي، ووقّعوا بها البرقية التي تريدونها». وأحد الوجهاء غادر بيته إلى المقبرة عدة ساعات، هرباً من إلحاح السلطة عليه للاشتراك في الاستنكار. ومنها.. ومنها...، مما يؤلّف كتاباً يوازي الكتاب العربي الشهير: **المستطرف في كُلّ فن مستظرف!**

وأدرك الملك حسين أن حملة الاستنكار قد فشلت، فلم يشترك فيها أحد له قيمة أو مكانة في بلده، أو قريته أو في أسرته، فسار خطوة أخرى في الحملة، فقد دعا إلى اجتماع في قصر بسمان (٥/ ١٠/ ١٩٦٥) شهده أعضاء مجلس الأمة وقادة الجيش الأردني، وأعوان القصر الملكي، وكررت الإذاعة الأردنية الإعلان عن مكانه وزمانه ليذاع على الهواء.

وجلست إلى جوار الراديو ذلك اليوم لأستمع إلى ماذا عسى أن يقول الملك. وضحكت طويلاً وأنا أستمع إلى هتاف هزيل وتصفيق نحيل تردّده فرقة موظفي الهتاف ومستخدمي التصفيق التي تكون حاضرة دائماً عند الطلب لتقوم بدورها المطلوب.

وألقى الملك حسين واحداً من الخطب الإنشائية البارعة التي تخصص الديوان الملكي بتسجيعها وترصيعها. وأعلن جلالته أنّه: «يرفض التمييز بين المواطن الأردني والمواطن الفلسطيني، وأنه لا تجنيد لأحد خارج القوات المسلحة، وأن القرى الأمامية محصنة ومسلحة، وأن التدريب العسكري ينتظم كُلّ أبناء البلد، وأن الحملة المريبة التي يوجهها إلينا رئيس المنظمة وأجهزته لا يمكن أن تفسر بغير كونها تستهدف تمزيق الأسرة الواحدة، وترمي إلى نسف التضامن العربي. كُلّ ذلك في لغة مجموعة ولفظ نازل. وبما أن الجيش الأردني هو وريث جيش الثورة العربية الكبرى، فلا مكان إذاً لغيره (جيش التحرير)، وأن وجودنا عقبة، ولكنها عقبة في وجه تصفية القضية الفلسطينية. ويوم تزول هذه العقبة التي نحن، كما يسموننا زوراً وبهتاناً، فستحل بأمتنا الكارثة التي ما بعدها كارثة»، إلى آخر ما ورد في ذلك الخطاب.

وانتهى الاجتماع والخطاب في جو فاتر، لأن الذين شهدوه في القصر، والذين سمعوه في الوطن، يعلمون علم اليقين أن الشعب كُلّه غير مدرب على القتال، والمدن مكشوفة، والقرى عزلاء، وأن «دفاع» الملك حسين عن «جلالته» يفتقر إلى دفاع!

وثار المسؤولون عن إذاعة منظمة التحرير في القاهرة يريدون أن يردّوا على الملك

حسين الصاع صاعين، والكيل كيلين، وهم قادرون على ذلك، لأن قصور الملك حسين كلها من زجاج. ولكني آثرت أن أبقي شعرة معاوية قائمة بيني وبين الملك حسين، فطلبت إليهم أن يردّوا برفق وبموضوعية كاملة، وبدأت إذاعة المنظمة حملة توعية تشرح مطالب المنظمة في التدريب والتنظيم، والتسليح، وأنها مطالب الشعب، لا مطالب الشقيري.

وانبرى رئيس وزراء الأردن وصفي التل ليؤيد مليكه، فعقد مؤتمراً صحافياً أعلن فيه: «أن منظمة التحرير هي منظمتنا، ونحن وطنها، ونحن سندها. وليست منظمة الشقيري، وأن مؤتمرات القمة استثنت الأردن من نشاطات المنظمة، وأن الأردن قائم بواجبه الكامل في التنظيم والتدريب والتسليح، وأن لديه عشرات المعسكرات للتدريب، وأن الحكومة وزعت الأسلحة على الأهلين، وعلى القرى الأمامية، وأن الاتصالات مستمرة مع الجمهورية العربية المتحدة لإسكات صوت منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة الذي لا يخدم أحداً إلا إسرائيل».

وبدأت تتوالى عليّ العرائض والبرقيات من تجمعات الشعب الفلسطيني، كلها تؤيد موقف المنظمة، وتستنكر خطب الملك حسين ورئيس وزرائه، ولم يعد يتسع منزلي للوفود الفلسطينية التي هبّت للدفاع عن كيانها ومنظمتها ومطالبها. ودعيت إلى عدة اجتماعات شعبية في الجمهورية العربية المتحدة، فلبيت الدعوة، وكان في مقدمتها اجتماع شعبي كبير في بور سعيد، تزاحم فيه المصريون قبل الفلسطينيين.

وخطب الخطباء في ذلك الاجتماع الحاشد، وارتفعت هتافات عدائية للملك حسين من صفوف الشباب والطلاب، فقلت في صدر كلامي وكان يذاع على الهواء مباشرة، رأساً من بور سعيد إلى الوطن العربي بأسره:

«أرجو أن تكفّوا عن الهتاف، لا تهتفوا لي، ولا ضدّ الملك حسين. إن تحرير فلسطين لا يتم بالهتاف والتصفيق. لقد هتفنا طويلاً وصفقنا كثيراً، وإسرائيل لا تزال تحتل أرضنا وديارنا. إن تحرير فلسطين لا يتم إلا بالتدريب والتسليح والتجنيد والتنظيم، وهذه هي مطالبنا الأربعة التي ندعو الملك حسين إلى أن يعمل على تحقيقها، وليس لنا مطلب خامس. إن منظمة التحرير تكون خائنة للأمانة إذا كانت لا تصرّ على هذه المطالب، وإن منظمة التحرير تطرح مطالبها في وضح النهار، فلِمَ المخاوف ولم الهواجس؟ ونحن نخص الأردن بهذه المطالب، لأن في الأردن أكبر منطلق للتحرير، أرضنا وشعبنا. الضفة الغربية هي قاعدة الانطلاق الكبرى. ونحن نريد أن نناضل في الضفة الغربية لا أن نحكم. نحن لسنا طلاب حكم، ولكنا طلاب تحرير. فليعلم الملك حسين أننا لا نريد أن نقيم دولة في الضفة الغربية، ولكننا نريد

أن نتعاون معه على إقامة قاعدة انطلاق، قاعدة وُثوب وتحرير. ولقد قلت للملك حسين قبل عام مضى، وكنا جمعاً كبيراً في قصر «رغدان»، لو كنت أرى خيراً في إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية لأعلنتها من قصر رغدان. إن أي واحد من المنظمة يصلح لأن يكون رئيس وزراء للأردن بأسره، فليس للملك حسين أن يخشى أن نسلخ الضفة الغربية لنقيم فيها دولة ممسوخة. نحن منظمة وحدوية لا نعمل للتجزئة والانفصال، فليطمئن الملك حسين، وليكن مستريح البال. كُلّ ما نريده من الملك حسين أن تكون كُلّ مدينة، كُلّ قرية، كُلّ مخيم تحت السلاح. ونحن لا نرسل الكلام في الهواء، فنحن مستعدون لأن نرسل السلاح إلى الملك حسين، وننقش عليه اسمه ليوزعه على الشعب الفلسطيني هدية من «جلالة مليكه». وإن السلاح موجود عندنا، وأنتم ترون أن خطابي يسجل كلمة كلمة، ليذاع من إذاعة منظمة التحرير. وها أنا أدعو الملك حسين أن يوافق اليوم، لنرسل له السلاح غداً».

وهاجت الجماهير وماجت، وأنا أمنع الشباب والطلاب من إطلاق الهتافات العدائية، ثُمّ تحدثت إلى الجماهير المصرية في بور سعيد، وقلت: «أنتم تذكرون أيها الإخوة تلك الأيام الخالدة التي قاتلتم فيها قتال الشوارع في معركة بور سعيد أثناء العدوان الثلاثي. إنكم تذكرون إخوانكم الفلسطينيين في بور سعيد وقد قاتلوا معكم جنباً إلى جنب. فإذا كانوا يحسنون القتال في بور سعيد فلِمَ لا يقاتلون من أجل فلسطين، وفي فلسطين؟».

ومضيت أخاطب الجماهير بهذه المعاني من غير تهجم ولا تشهير، ولعلي ضايقت الطلاب والشباب بعض الشيء، لأني منعتهم من أن يفرغوا غضبتهم في صيحاتهم وهتافاتهم.

وأمضيت أياماً وأياماً وأنا أنتقل من اجتماع إلى اجتماع، وأنا أشرح وأشرح، وسفير الأردن في القاهرة أنور الخطيب يتردد بين الخارجية والرئاسة، وهو ينقل احتجاج الملك حسين على إذاعة منظمة التحرير، وعلى خطب رئيس منظمة التحرير، والهتافات العدائية التي يطلقها الشباب والطلاب في ندواتهم.

وذهبت إلى منزل الرئيس جمال عبد الناصر في منشية البكري، بناء على إشارة تلفونية من مكتبه، فقال الرئيس:

«الملك حسين عتبان عليّ، وغضبان عليك».

قلت: «خيراً إن شاء الله».

قال: «لقد خرقت ميثاق التضامن العربي، وبدأت تحمل على الملك حسين في

الإذاعة، وفي الاجتماعات العامة، وقد كلمني بالتلفون أمس ليلاً يطلب مني إيقاف الإذاعة، لأن ذلك يعتبر عملاً غير ودّي من قبل القاهرة».

قلت: «الإذاعة مستقلة عن القاهرة، وكذلك المنظمة، أما ميثاق التضامن العربي فقد نصّ على النقد البنّاء، وأنا لم أتعدّ حدود الميثاق. الملك حسين يجب أن يشكرني».

قال (وهو يقاطعني): «يشكرك ليه؟».

قلت: «لقد منعت الطلاب والشباب من الاسترسال في الهتاف ضدّ الملك حسين». فضحك الرئيس عبد الناصر واحدة من ضحكاته التي يعرف معناها من يعرفه جيداً.

وقال: «طلبت من الملك حسين أن يتم التفاهم بينكما، وأرى أن تسافر إلى عمّان في أقرب فرصة وتبذل أقصى جهدك للاتفاق معه على أمور المنظمة».

قلت: «إن أملي ضعيف. إن الملك حسين واقع تحت مخاوفه، وتحت سيطرة الإنكليز والأمريكيين، وإلى جانبه وصفي التل رئيس وزرائه. ومع هذا فإني سأسافر. وسأجرب».

وانصرفت من منزل الرئيس عبد الناصر إلى مكتبي، واتصلت بالسفير الأردني، وقلت له: «أرجو أن تبرق «لسيدنا» بأنني سأسافر إلى عمان للتفاهم».

وبعد يومين (١٩/ ١١/ ١٩٦٥) كنا، سفير الأردن وأنا، في الطائرة، في طريقنا إلى عمّان، وقد حرصت فور وصولي على أن أذهب من المطار إلى القصر الملكي لأفتح قلب الملك حسين على مطالب المنظمة.

قلت للملك حسين: «يا سيدنا، لو أنني أطمع في أن أكون رئيس وزراء عند جلالتكم لاستأجرت بيتاً في عمّان، وأصبح بعد أسبوع رئيس وزراء. وأنتم تعلمون جلالتكم، من غير تفاخر، أن رئيس وزرائكم الحالي السيد وصفي التل كان موظفاً عندي في المكتب العربي في القدس (عام ١٩٤٦)، كُلّ الذي أريده أن تتعاون منظمة التحرير مع جلالتكم لخير البلد».

قال: «سيجتمع بكم رئيس الوزراء لبحث هذه الأمور كلها. والشريف ناصر (خال الملك) سيناقش معكم المسائل العسكرية».

قلت (مازحاً): «إذا لم يوافق سيادة الخال، فسأستأنف ضدّ قراره إلى «سيدنا»».

وخرجنا من القصر إلى رئاسة الوزراء، فعقدنا اجتماعاً تمهيدياً، أعقبته

اجتماعات متوالية، قبل الظهر وبعد الظهر، ودعوت أعضاء المنظمة الموجودين في الأردن إلى أن يشتركوا فيها.

وفي تلك الفترة صادف يوم الإسراء والمعراج، فذهبنا مساء إلى بيت المقدس لشهود الحفل الدينيّ الكبير الذي يقام في المسجد الأقصى، وقلت لوصفي التل، وقد رأى الجماهير وهي تهتف على مسمع منه في ساحة المسجد «يا شقيري بدنا سلاح»: «هذا هو مطلب الشعب في كُلّ مكان. والأمر يحتاج إلى درس واجتماعات».

وكانت ليلة روحانية خطب فيها وفود عديدون من الأقطار الإسلامية كافة، وعدنا بعدها إلى عمّان لنستأنف في اليوم التالي اجتماعاتنا.

وكان وصفي التل يحاور ويناور، ونحن نعرض قضيتنا ببساطة، فهو يريد أن يحيل كُلّ شيء إلى الجيش، ونحن نقدر الجيش، ولكن نريد إلى جانب الجيش أن يكون الشعب كُلّه تحت السلاح.

وطال الجدال والأخذ والردّ. وزعم التل في الجلسة الأخيرة أن الحكومة وزّعت السلاح على المدن والقرى، وأن الطلاب يدرّبون على حمل السلاح.

قلت: «هل إذا نزل المظليون الإسرائيليون في الخليل بلد سفيركم أنور الخطيب، أو إربد، بلد رئيس الوزراء، يكون الأهالي قادرين على اصطيادهم أو التعرض لهم؟».

قال: «نعم بكل تأكيد. وقادرون على إبادتهم».

قلت: «الذي أعرفه أن أهالي إربد وغيرهم ليس عندهم سلاح لمقاومة الإسرائيليين. وأدعو الله ألا تأتي الأيام لتكذبك يا «أبا مصطفى» (وهذه كنيته). وقد جاءت الأيام لتكذبه بعد بضعة أسابيع حين قامت إسرائيل بغارتها الشهيرة على السموع، وسأرويها في زمانها ومكانها.

وانتهى الاجتماع بيننا إلى فشل، واكفهر جو الحديث وقلت: «لقد ضاعت هذه الأيام من عمر قضية فلسطين، وعلينا أن نضمها إلى العشرين سنة الماضية. ضاعت كلها من عمر شعبنا الشريد».

وقضيت يومين آخرين بين عمّان وبيت المقدس، وأنا أشرح للوفود الفلسطينية حقائق الموقف، وبعضهم يناشدني ألا أهدم الجسور بيني وبين الملك حسين، وأنا أقول: وأين هي الجسور؟ والبعض الآخر يقول: أنت حسن الظن كثيراً في عمّان، وهم لا يعرفون أني سيئ الظن بعمّان، ولكنها محاولة لإرضاء الضمير والتاريخ.

وعدت إلى القاهرة، وقد سبقتني برقياتي التي كنت أرسلها إلى الرئيس عبد الناصر عن طريق سفارته في عمّان عن سير المباحثات في عمان، وكيف أخفقت، فهو الذي اقترح عليّ المبادرة.

وشاء الله أن تبدو حكومة عمّان على حقيقتها، كاذبة وفي الميدان، فلم تمض أيام (٣٠/ ١٠/ ١٩٦٥) حتّى قامت القوات الإسرائيلية بالاعتداء على المنطقة الحرام في اللطرون، فدخلتها الجرارات الإسرائيلية وبدأ المزارعون الإسرائيليون بزراعتها.

استمعت إلى الإذاعة الأردنية وهي تنقل هذه الأخبار الرهيبة، والمذيع الأردني المسكين يتلعثم وهو يذيع أن الملك حسين يرافقه وصفي التل قد توجه إلى مكان الحادث، وأنّه أصدر أمره إلى «القوات الأردنية بالرد على الاعتداءات الإسرائيلية بأشد منها».

لم أنم ليلتي تلك. فلم يكن لدى الأهلين سلاح يدافعون به عن أراضيهم، وزاد من حزني أن اللطرون قلعة من قلاع صلاح الدين، استبسل بالدفاع عنها أيام حروبه مع الإفرنج.

وهاج الشعب في الأردن وماج، وكان طبيعياً ألا تسكت منظمة التحرير، وانطلقت إذاعتنا من القاهرة تفضح الملك حسين ورئيس وزرائه، وتذكرهما بمطالب المنظمة، واجتماعات عمّان، وكيف ظهر الكذب حين قالوا إن السلاح موفور بين أيدي الشعب، وإن القرى الأمامية مسلحة محصنة، آمنة مطمئنة. وهكذا بدأ الصراع مرة ثانية بين الملك حسين والشعب، والمنظمة تعبّر عن رأي الشعب. . .

ونشط الملك حسين في تجواله في البلاد ليجمع الأنصار من حوله، ويصطنع الاستقبالات الشعبية، ولكن هذه المحاولات ما باءت بالفشل فحسب، بل انتشرت التظاهرات في المدن والقرى تتحدى الملك حسين، والجماهير تطالب بالسلاح.

وعقد الملك حسين مؤتمراً في قصر بسمان (٥/ ١/ ١٩٦٦) أعلن فيه أن مطالب الشقيري «خيانة. ففيها تعريض لوحدة البلد. . وسنقف منها موقف الضراوة الذي نقفه مع إسرائيل والصهيونية، وأن حملات الشقيري تستهدف ضعضعة الأوضاع في الأردن. . وهي خدمة كبرى للصهيونية وأهدافها. ولا مجال عندنا لأية تشكيلة عسكرية مهما صغرت لا تخضع لقيادة الجيش الأردني. ولا مجال للارتجال والغوغائية والتهريج».

سمعت هذا الكلام من الملك حسين، فلم يعد عندي مكان للصمت، فتصدّيت للملك حسين في الاجتماعات الشعبية، وعن طريق الندوات الإذاعية وأنا أقول:

«إن ترك الشعب بلا سلاح هو أكبر خدمة للصهيونية. وهل مطالبنا الأربعة: التدريب والتسليح والتنظيم والتحصين، ارتجال أو تهريج أو غوغائية؟ إن شعبنا أذكى من أن تجوز عليه أقوال الملك حسين. إن الملك يخطب بلسان الصهيونية والاستعمار». وكان الشعب في الأردن يترقب مواعيد إذاعتنا ترقب مدفع الإفطار في رمضان، «ليفطر» على الملك حسين!

وصادف أن أقيم مهرجان البرتقال في مدينة أريحا (١٠/ ١/ ١٩٦٦)، فحضره الألوف من أبناء الشعب، وزحف اللاجئون من مخيم عقبة جبر على بعد بضعة كيلومترات وهم يتوقعون حضور الملك حسين، فما إن شاهدوه حتّى أخذوا يهتفون الهتاف الذي كان يزعجه على الدوام: «يا شقيري بدنا سلاح، يا شقيري هات سلاح وخذ أرواح»، فخرج الملك حسين غاضباً من المهرجان، وانبرى رجال الأمن يلقون القبض على الشباب الهاتفين. ووصلتني في ذلك اليوم برقية عن طريق دمشق تنبئ أن الشرطة الأردنية تحاصر مقر المنظمة في القدس، وتحقق مع الداخلين والخارجين.

واشتدّ الخلاف بيننا وبين الملك حسين، ومعه اشتد الخناق على منظمة التحرير في الأردن، وسارع الشعب إلى تأييد المنظمة بالتظاهرات والمنشورات وسائر وسائل التأييد، ونشطت قوات الأمن الأردنية في مداهمة البيوت واعتقال الطلاب والشباب، وإفشاء جو الإرهاب، واعتقلت قرابة ٤٠٠ مواطن من أنصار المنظمة في أسبوع واحد.

ونشطت الدوائر العربية في القاهرة للتوسط بين المنظمة والملك حسين، وقام خالد العدساني سفير الكويت بجهد بارز في هذا المضمار.. وسافر سفير الأردن أنور الخطيب إلى عمّان عدة مرات، وهو يحمل رأي القاهرة ودوائر الجامعة العربية بضرورة إزالة الخلاف. وعقدت اجتماعات في مكتب الأمين العام للجامعة العربية عبد الخالق حسونة كنت خلالها أعلن أنّه «لا خلاف بيني وبين الملك حسين. فإذا استجاب الملك لمطالب الشعب ينتهي الخلاف، وتتوقف إذاعة المنظمة».

وأخيراً، وبعد محادثات تلفونية بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين، وصل إلى القاهرة وفد أردني برئاسة الوزير عبد الوهاب المجالي يضم في عضويته: عبد المنعم الرفاعي وأنور الخطيب واللواء الركن عامر خماش، عن الحكومة الأردنية للتفاوض مع منظمة التحرير.

وعقدت الاجتماعات في جامعة الدول العربية برئاسة عبد الخالق حسونة الأمين العام، وامتدّت أياماً في نقاش تفصيلي، واللاسلكي بين السفارة الأردنية في القاهرة والملك حسين في عمّان ينقل ما يدور في الجلسات ويتلقى التعليمات.

واضطر رئيس الوفد الأردني عبد الوهاب المجالي غير مرة إلى أن يطير إلى عمّان ليطلع الملك حسين على ما لم يستطع اللاسلكي أن يحمله.

وتقدمت المنظمة بمذكرة تفصيلية تشرح فيها مطالب الشعب، وتفنّد موقف الحكومة الأردنية، مؤكّدة أنّه «لمناسبة ما جاء في خطب الملك حسين من تركيز موجّه إلى رئيس المنظمة الفلسطينية، ترى المنظمة أن تؤكد أن رئيس المنظمة مرتبط في قوله وعمله بالشعب الفلسطيني، وهو وحده الذي يمنحه الثقة أو يحجبها عنه، وأن المنظمة التي تلتزم بعدم التدخل في شؤون الأردن الداخلية تطالب الأردن ألا يتدخل في شؤونها». ومضت المذكرة بعد ذلك في سرد مطالب الشعب المعروفة.

وفي اليوم الأول من شهر آذار/ مارس ١٩٦٦، وبعد أيام مضنية من النقاش والحوار، تمّ التوصل إلى اتفاق بين الوفد الأردني ووفد منظمة التحرير الفلسطينية، ووقّعه الجانبان في دار الأمانة العامة وكانت أهم مواده:

تواصل الحكومة الأردنية دراسة موضوع التجنيد الإجباري على أن يتفق والمصلحة القومية، بحيث يكون تطبيقه بحسب الظروف العامة وفي ضوء متطلبات القيادة العربية الموحدة.

إحالة موضوع تشكيل كتائب جيش التحرير إلى القيادة العربية الموحدة لدراسته وإبداء الرأي بشأنه.

تنشئ منظمة التحرير معسكرات في فصل الصيف للتدريب العسكري للطلاب والشباب.

المبادرة إلى تسليح المدن والقرى الأمامية في الأردن ودعم مستواها الاجتماعي والاقتصادي، وتنظم المنظمة أسبوعاً في العالم العربي يعرف بأسبوع الخطوط الأمامية لتمويل هذا المشروع.

يكون للمنظمة مكاتب فرعية في جميع محافظات الأردن، وخاصة من الناحية العسكرية، وتعقد الاجتماعات والمؤتمرات الشعبية في جميع المناسبات القومية، وتتولى الجباية الشعبية وضريبة التحرير.

وهذا الاتفاق، وإن يكن دون المستوى المطلوب، وخاصة من الناحية العسكرية، غير أنّه حقق للمنظمة مكاسب كبيرة، ذلك أنها أصبحت فريقاً رئيسياً يفاوضه الملك حسين، ولم يكن لنا يومئذ من قوة إلا إذاعة المنظمة التي ينام عليها الشعب ويستيقظ.

ووجهت كلمة بالإذاعة إلى الشعب في الأردن، أكدت فيها أن الاتفاقية «ليست

نصراً للملك حسين، ولا لأحمد الشقيري، ولكن للقضية الفلسطينية، وأن المنظمة ستلتزم بالاتفاق نصاً وروحاً، وأنها حريصة كُلّ الحرص على التعاون مع الملك حسين وحكومته على طريق التحرير، وأنني سأسافر إلى الأردن قريباً لنعمل على تنفيذ الاتفاق بروح الأخوة والنضال، وأننا سنشرع بأسبوع الخطوط الأمامية في العالم العربي، لنبدأ تسليح القرى الأمامية وتحصينها».

ثُمّ عدت أؤكد هذه المعاني وقلت: «ليس المهم أن تتلاقى تواقيعنا على الورق، بل المهم أن تتلاقى عزائمنا في الميدان، وأن ينفذ هذا الاتفاق بكل إخلاص وأمانة. . وقد يسأل سائل: هل كان الاتفاق نصراً للمنظمة أو لحكومة الأردن؟ والواقع أني أرفض أن يوضع هذا السؤال، وبالتالي فإني أرفض الجواب عنه. فلا المنظمة انتصرت ولا الحكومة الأردنية انهزمت، وإنما الذي انتصر هو قضية فلسطين. إن نشاطنا القومي لا يستهدف إلا إعداد الشعب للمعركة، ليكون سنداً وظهيراً للجيش الأردني البطل، بضباطه الشجعان وجنوده البواسل».

وسارعت في اليوم التالي، وهذا الكلام لا يزال ساخناً كالدم الحيّ، إلى السفر إلى عمّان، ووصلت إلى مطار قلندية في ضاحية القدس، فوجدت الجموع محتشدة، ووفوداً من القرى الأمامية تدوّي صيحاتها في جنبات المطار: «يا شقيري هات سلاح وخذ أرواح».

ومكثت نصف ساعة مع الجماهير، الشباب والطلاب يطالبون بمعسكرات التدريب، وسكان القرى يذكرون أنواع الأسلحة التي يحتاجون إليها، وأنا أعدهم أن يمهلوني بعض الوقت حتّى أجتمع مع «سيدنا» في عمّان، ونرى كيف نرتب الأمور.

وأقلتني الطائرة إلى عمّان، والبحر الميت على يميني ونهر الأردن على شمالي، وفي حقيبتي الاتفاقية مع الملك حسين، ومصيرها معلق بين الأرض والسماء.

وفي مطار عمّان، لقيت عدداً من الطلاب والشباب الأردنيين، من أبناء «شرق الأردن»، يواجهونني بالاحتجاج وهم يقولون:

«لقد جئنا نحتج على الاتفاقية التي عقدت بينكم وبين حكومة الأردن في القاهرة».

قلت: «وما هو سبب احتجاجكم؟ أنا أقبل كُلّ شيء إلا غضب الشباب».

قالوا: «نحن نريد أن ندخل معسكرات الشباب، مع إخواننا الفلسطينيين».

قلت: «أهلاً وسهلاً ومرحباً. إن أبواب المعسكرات مفتوحة لكم مع إخوانكم أبناء فلسطين».

قالوا: «ولكن الاتفاقية قاصرة على أبناء فلسطين».

قلت: «**أولاً**، أنتم من أبناء فلسطين. إن الكرك من فلسطين، وكذلك إربد وجرش والسلط. إن الإنكليز هم الذين أسموكم بشرق الأردن[1].

و**ثانياً** أرجو أن تقرأوا الاتفاق، لقد ذكرنا معسكرات للشباب والطلاب ولم نقل الفلسطينيين. وأخيراً، أنتم طلاب. اذهبوا واقرأوا رحلة ابن جبير الأندلسي حين جاء إلى الكرك، وقال عنها إنها أطيب أرض في فلسطين. اعقلوا واهدأوا. وموعدي معكم في معسكرات الشباب».

قالوا: «لقد زرنا رئيس الوزراء وصفي التل، وقال لنا إن هذه المعسكرات خاصة بالفلسطينيين».

قلت: «حين نفتح المعسكرات ستدخلون إليها معي إذا شئتم، وليمنعكم وصفي التل إذا كان يقدر على ذلك».

وانتهينا من هذا الحوار، وعاد الشباب «الأردنيون» وهم يصيحون: «كلنا فلسطينيون»، ويهتفون لمنظمة التحرير. وذهبت إلى الفندق، وإلى غرفتي نفسها التي أصبحت داري. وهتافات الشباب تتجاوب في فؤادي، وأنا أدعو في نفسي: اللهم إجعل الحكم العربي كُلّه على هذا المستوى الرفيع.

وقضيت بضعة أيام في عمّان، بين الملك حسين ورئيس وزرائه، نبحث في وسائل التنفيذ، وتوقيته ومراحله، وشعرة معاوية تتأرجح بيننا، وقال لي الملك حسين في إحدى الجلسات:

«وماذا نفعل بأبناء الضفة الشرقية؟».

قلت: «ما هو المقصود، ماذا تعني «سيدنا»».

قال: «إنهم يريدون أن يدخلوا في معسكرات الشباب».

قلت: «نحن نرحب بذلك، إنهم إخوان الفلسطينيين، إنهم إخوان السلاح، إخوان في الوطن».

قال: «ولكن، لا داعي لأن تتصل المنظمة بالأردنيين».

قلت: «من الذي يفرق «يا سيدنا» بين الفلسطيني والأردني. هل هو أنا؟».

---

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قال (مقطباً، عابساً): «على كُلّ حال، الحكومة تدرس الاتفاق، وهي مشغولة الآن ببحث جدول أعمال اجتماع رؤساء الحكومات العربية الذي سينعقد قريباً (١٤ آذار/ مارس ١٩٦٦)، ولا بُدَّ من أنك ستحضره. فلنرجئ الموضوع إلى فرصة أخرى. فلا بُدَّ من أنك تجتمع مع الوفد الأردني أثناء وجوده في القاهرة، ويمكنك أن تبحث معهم في التفاصيل».

لزمت الصمت، فلم أعقّب على هذا الحديث، فقد كان السفير المصري في عمّان يزورني يوماً بعد يوم، وهو يبلغني رغبة الرئيس عبد الناصر بأن أجنح إلى الروية، ولا أقطع الحبل مع الملك حسين، وكذلك كان السفير العراقي ينقل إلي مثل هذه الرغبة من الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف. . . أما السفير الجزائري، فلم تكن عنده إلا كلمة واحدة يردّدها باللهجة الجزائرية: «الأخ بومدين يقول لك يجب أن يكون لكم موضع قدم في الأردن».

وخرجت من القصور الملكية، والصحافيون يطاردوني بأسئلتهم، وأنا أمضي في الصمت، وهم يثيرون آلامي قائلين: يجب أن تكاشف الشعب بالحقيقة. هذه قضية مصيرية لم تعد تتحمل الدبلوماسية، أنت مسؤول أمام الشعب. الشعب يريد أن يعرف متى تنفذ الاتفاقية.

واعتصمت بالسكوت، كمن ينطوي على جراحه ليوقف نزيفه. وعدت إلى القاهرة، وأنا أحمل معي الاتفاقية إياها. واجتازت السيارة بي شوارع القاهرة وميادينها، وأنا أستعرض في ذهني مواقف الملك حسين معي. كم عاهدني؟ وكم حلف الإيمان، وكم. . وكم. . ؟.

ولقد كنت أعرف الجواب عن هذه الأسئلة، ولكن الجواب المحكم كان في محكم آياته، في قوله تبارك وتعالى: ﴿**إنَّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ٧٧.

عبد الناصر.. سعود.. فيصل.. من غير عنوان

أطل عام ١٩٦٦، وأطلت معه البشائر والنذر تتصارعان على أشدّ ما يكون الصراع من غير هوادة ولا رحمة.

وكان الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية يقود حملة البشائر، يمنّي العرب والمسلمين بأحلى الأماني وأسعد الأيام تنتظرهم على الأبواب.

وكان الرئيس عبد الناصر يقود حملة النُّذر يخوّف العرب والمسلمين من الخطر الداهم يحيط بهم من كُلّ جانب.

وكان الملك فيصل هو البادئ في هذه الحملة، فقد خرج من مؤتمر القمة في الدار البيضاء في خريف ١٩٦٥ يشمّر عباءته ويشدّ عقاله لينزل إلى ساحة العالم الإسلامي يصول فيها ويجول.

وقد وجد الحافز إلى ذلك، وكان ينتظر هذا الحافز منذُ زمن، في حديث عابر في الجلسة الأخيرة في مؤتمر الدار البيضاء حين تواصى الملوك والرؤساء أن يعبئ كُلّ منهم طاقاته المعنوية، في نصرة القضية الفلسطينية، وأعلن الملك فيصل في هذا الصدد أنّه سيطلب نصرة العالم الإسلامي، كما أعلن الرئيس اللبناني شارل حلو أنّه سيسعى لنصرة العالم المسيحي، وانفض مؤتمر القمة على هذه التمنيات العذاب.

ومضى الخريف، وبعده أقبل شتاء الحجاز بكل خيراته، وتحرك الملك فيصل يدقّ أبواب الدول الإسلامية يدعوها إلى اجتماع ـ مؤتمر ـ إلى لقاء، ولتكن الأسماء ما تكون.

وحامت في الآفاق الدولية والإسلامية أطياف «المؤتمر الإسلامي»، تحملها الرياح من سماء إلى سماء. وبحسب العادة فقد توافدت هذه الأطياف، أول ما توافدت، من بعيد، من الغرب، من الصحافة الغربية، والأمريكية والبريطانية

على السواء، وكُلّ مقالاتها وأخبارها وتعليقاتها تؤذن بمولد خطة جديدة تجر الوطن العربي إلى فلك المعسكر الغربي. وأعلنوا أن «المؤتمر الإسلامي» سيكون هذا المولد.

وبدأ التحرك من جدة. خرج الملك فيصل عن قاعدته المعروفة، «السكوت من ذهب»، وبدأ يتكلم عن الحاجة الماسة إلى عقد مؤتمر إسلامي، «للنظر في شؤون المسلمين وتوحيد كلمتهم». وأسهب في الحديث عن مزايا هذه الفكرة، وهو المعروف بالإيجاز، بل بالإقلال من الكلام. وتلك واحدة من فضائله، ولا أتحدث عن معايبه.

ثُمّ جاء تبادل الزيارات بين الملك فيصل والملك حسين، وتبادلا الخطب على الموائد الرسمية، تشيد بعقد مؤتمر إسلامي لنصرة القضية الفلسطينية، والقضية الفلسطينية هي قميص عثمان عند حكام العرب أجمعين، ولا تزال.

كنت أستمع إلى هذه الخطب، وأذني مسلطة على إذاعة عمّان وإذاعة جدة، وزملائي في منظمة التحرير يسألون: «هل تمّ الاتفاق في مؤتمر الدار البيضاء على عقد مؤتمر قمة إسلامي؟».

قلت: «لم يقرر مؤتمر القمة شيئاً من هذا على الإطلاق. كُلّ الذي جرى في الدار البيضاء في صدد الاستنصار بالعالمين الإسلامي والمسيحي، أن يبذل الملك فيصل مساعيه لدى الدول الإسلامية، وأن يقوم شارل حلو الرئيس اللبناني بمثل هذا المسعى لدى الفاتيكان والدول المسيحية».

وجرى نقاش طويل بيننا في المنظمة حول هذا الموضوع انتهى إلى الاتفاق بأن تعبئة العالم الإسلامي إلى جانب قضية فلسطين شيء، وإقامة حلف إسلامي يسير في فلك السياسة الغربية شيء آخر، وأن على المنظمة أن تلتزم الصمت في هذا الموضوع إلى أن ينجلي الموقف.

وبدأ الرأي العام العربي يتململ من تصريحات الملكين فيصل وحسين حول هذا الموضوع، وبخاصة بعد أن انضم إليهما في «الأوركسترا» الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، وهو الذي أثار ثائرة الأمة العربية بتصريحاته المعروفة عن الصلح مع إسرائيل. وتحول التململ العربي إلى تجهّم، بعد أن انضم إلى قافلة المؤتمر الإسلامي شلة إيران، وإيران الرسمية، على غير ما يريد الشعب الإيراني، لها علاقات وثيقة مع إسرائيل.

وأقبل عيد الوحدة (٢٢ شباط/ فبراير ١٩٦٦) وهي مناسبة قومية يخطب فيها

الرئيس عبد الناصر في القاهرة، وتعطل الدوائر الرسمية في دمشق. وتتساءل الأمة العربية في ذلك اليوم: إذا كانت القاهرة ودمشق تبكيان الانفصال، فلِمَ لا تقوم الوحدة بينهما؟ أبكاء أم تباكٍ؟!

وشهدت الاحتفال مع الوفود الرسمية والشعبية التي تتوافد على القاهرة في مثل هذه المناسبة القومية، ودخل الرئيس عبد الناصر قاعة الاحتفال، وكان متجهماً على غير عادته. واستشعرت في ملامح وجهة، وأنا قريب منه على المنصة الرئيسيّة أن الرئيس عبد الناصر سيفاجئ الأمة العربية بجديد.

ووقع الذي توقعته، وألقى الرئيس العربي خطاباً طويلاً لم يصل فيه إلى الخاتمة «والسلام عليكم ورحمة الله»، حتّى تجاوز الساعتين، حمل خلالهما على الرجعية العربية وعلى الحلف الإسلامي، وهو يذكر بالاسم شاه إيران، والملك فيصل، وبورقيبة، والملك حسين.

وكانت هذه أول مرة، بعد مؤتمرات القمة الثلاثة، وبعد ميثاق التضامن العربي، وبعد اجتماع الدار البيضاء الذي وصفه الرئيس العربي بأنه «أنجح اجتماع شهده في حياته» يتعرض فيها الرئيس عبد الناصر إلى الزملاء من الملوك والرؤساء.

وبدأ الرئيس عبد الناصر حملته بإيران، وانشدّت إليه أبصار جميع رجال السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي وهو يعلن بأن «إيران باستمرار تمثل خطر الاتجار بالدين. وتضليلها باسم الإسلام، واعترفت بإسرائيل، وبفضل حكم شاه إيران الرجعي فتحت الوكالة اليهودية فرعاً لها في طهران، وأصبحت إيران قاعدة إسرائيلية.. وأن بن غوريون عقد محادثات مع رئيس وزراء إيران في مطار طهران، وأن.. وأن..».

وانتقل الرئيس عبد الناصر بعد ذلك إلى الحديث عن بقية الرفاق، فرفع صوته عالياً وهو يقول: «إن الملك فيصل أوفد صديقه المغربي محمّد الكتاني في مهمة سرية إلى دول المغرب، مهمة تستهدف إنشاء حلف إسلامي مقدس يتصدى للثورات التقدمية في المنطقة. الصحف الأمريكية اعترفت بأن واشنطن كلّفت الملك فيصل وشاه إيران القيام بمهمة تشكيل الحلف الإسلامي، وأن إسرائيل إذا دعيت للاختيار بين جبهة الملوك والجبهة المتحررة، فإنها ستختار بالتأكيد جبهة الملوك».

وكان الرئيس عبد الناصر يمدّ يده إلى ملف مملوء بالقصاصات الصحافية،

الأمريكية والبريطانية والإفرنسية، يشير إليها وهي تتحدث عن دور الملك فيصل في إقامة حلف إسلامي يكون في خدمة السياسة الغربية.

وكنت أجلس إلى جوار المشير عبد الحكيم عامر النائب الأول لرئيس الجمهورية، فقلت له: «لا بُدَّ أن يكون للرئيس جهاز كفء يتابع الصحف العالمية بمثل هذه السرعة». فقال: «أُمّال. هي المسألة لعب، الريس لا يلقي الكلام على عواهنه وفي الهواء».

وتابع الرئيس عبد الناصر حديثه، وهو يعلم أن مائة مليون عربي، ومعهم ملايين المسلمين يستمعون إليه، ويلتقطون إشاراته الهادرة الساخرة، فقال: «الحلف الماضي سموه حلف بغداد. وجدوا له اسم عربي، لبّسوه عقال وعباية علشان يخبي بينهم إنكلترا وأمريكا. الحلف الجديد لبسوه عمة علشان يسموه الحلف الإسلامي، علشان يضحكوا على المسلمين باسم الدين».

ولم يفلت الرئيس التونسي بورقيبة في ذلك اليوم من الكماشة، فراح الرئيس عبد الناصر يقول: «استطاع الاستعمار أن يحرك بورقيبة اللي كان جه في مؤتمر القمة العربي الأول، وتبنى قضية فلسطين، وقال إنه مستعد يبعث جيش تونس علشان يقف على حدود فلسطين. جاء السنة اللي فاتت ونادى بتصفية قضية فلسطين، ونادى بالتفاوض مع إسرائيل. ولم يكن إلا عميل فعلي للاستعمار، من إمتى بورقيبة بيدافع عن الإسلام، هو اللي لغى إجازة العيد كلها وخلاها يوم واحد».

ومضى الرئيس عبد الناصر يهاجم الحلف الإسلامي وأنصاره، مقتبساً أقوال الدوائر الغربية وصحافتها، داعياً الجماهير العربية إلى النضال. وختم خطابه بكلمة صارمة حازمة، وهو يقول: «وستُسقط الشعوب العربية الحلف الإسلامي المزعوم كما أسقطت حلف بغداد».

وعاد الرئيس عبد الناصر إلى مقعده، والجماهير الحاشدة تهتف وتصفق، وترغي وتزبد، وتنادي بحياة القومية العربية وبسقوط الأحلاف.

وغادرنا مكان الاجتماع لنودع الرئيس عبد الناصر وهو يبادرني بالسؤال: «يا أخ أحمد، أنت حضرت مؤتمر القمة في الدار البيضاء، هل اتفقنا على الدعوة لمؤتمر إسلامي كما يدّعي فيصل؟».

قلت: «أبداً. لم يصدر قرار بهذا الشأن. كُلّ الذي جرى، وفي حديث عارض، أن يستنهض الملك فيصل المسلمين أثناء الحج لنصرة القضية الفلسطينية، وأن يتصل الرئيس اللبناني شارل حلو بالفاتيكان لمؤازرة القضية الفلسطينية».

وتدخل أحد الصحافيين العراقيين وقال: «يا سيادة الرئيس، وما هو دور الملك حسين في موضوع الحلف إلاسلامي»، فقال الرئيس مقهقهاً: «الملك حسين ده حصة الأخ أحمد. على كُلّ حال يجي دوره بعدين. مش حننساه. ولا الشقيري حينساه».

وغادر الرئيس عبد الناصر بموكبه، وأنور السادات يسألني: «أنتم في المنظمة رأيكم إيه في الحلف الإسلامي؟».

قلت: «في نفس الملك فيصل عقدة الشقيري، وفي نفسي عقدة اسمها عقدة فيصل، ونخشى إذا تكلمنا أن نتهم بالانحياز. وخطاب الرئيس يغني عن كُلّ خطاب».

وغادرت المكان إلى مكتب المنظمة، ورجال الإذاعة ينتظرونني ليسجلوا لي تعقيباً في الموضوع. قلت لهم: «أنتم تعرفون ما بيني وبين الملك فيصل[1]. لا نريد أن نؤذي المنظمة. اتركوا الأمر بين عبد الناصر وفيصل». قلت هذا، وقد بدأت أفكر في مصير مؤتمر القمة، وفي مصير المؤسسات التي انبثقت عنها: القيادة العربية الموحدة، منظمة التحرير وجيشها، وأخيراً هيئة تحويل الروافد، وإن كنت لا أؤمن بهذه لا شكلاً ولا موضوعاً.

فكرت في هذا، وقدرت أن الرئيس عبد الناصر يخطط لمنهج ثوري جديد بعيد عن مؤتمرات القمة، وتأكد لدي هذا الحدس حين ذكر لي الوفد الصحافي العراقي ما قال له الرئيس عبد الناصر بالأمس: «إن الرجعية العربية استفادت نتيجة لمؤتمرات القمة من المهادنة، ولن نسكت على أي تحرك للرجعية العربية».

ولكن هذا الهجوم الضاري الذي شنّه الرئيس عبد الناصر على المؤتمر الإسلامي، قد عاد بذاكرتي من الستينيات إلى الخمسينيات. وتدافعت الأحداث في مخيّلتي كما تتدافع الصور المتعاقبة على شاشة السينما، وكنت في صميم هذه الأحداث حيناً وعلى هامشها حيناً آخر.

وبدأت أستعرض الذكريات، بعضها اختزنته في ذاكرتي، وبعضها اختزنته في أوراقي. وعلى مسرح تلك الذكريات انتصب أمامي الرئيس عبد الناصر، والملك سعود، والأمير (الملك فيصل)، ولدا العاهل العربي عبد العزيز آل سعود. وكانت لي معهم صلات ومواقف حول الموضوع المثير الذي اتخذ أسماء عديدة: الحلف الإسلامي، المؤتمر الإسلامي، التعاون الإسلامي، وغير ذلك من الأسماء التي أثبت الزمن أنّه ليس فيها شيء إسلامي.

---

(١) تفصيل ذلك في: أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

ومن أوائل ذكرياتي في هذا السياق زيارتي للرئيس عبد الناصر في سراي الثورة في الجزيرة في أوائل الخمسينيات، يوم حملت إليه مذكرة مطولة عن القضايا العربية، ودخلت معه في نقاش مترامي الأطراف، تعرفت خلاله على رأيه في الشؤون العامة ـ خارج حدود مصر ـ وكانت شؤون العالم الإسلامي في المقدمة[٢].

ثُمّ جاء بعد ذلك كتابه: **فلسفة الثورة**، فوقفت طويلاً عند كلامه عن العالم الإسلامي وهو يطرح السؤال الكبير: «أيمكن أن نتجاهل عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقرّ بها العقيدة الدينيّة فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ؟».

بل إن الرئيس عبد الناصر قد راح يجيب نفسه عن سؤاله الذي طرحه على نفسه، حين يدعو أن يكون موسم الحج «قوة سياسية ضخمة، بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كُلّ قادة الدول الإسلامية ورجال الرأي فيها، وعلماؤها وكتّابها، وملوك الصناعة فيها، وتجارها وشبابها، ليضعوا في هذا البرلمان الإسلامي العالمي خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً».

ورأيت في هذا الكلام بلسماً لجراح فلسطين، فقد كنا نحن العاملين في الحقل الوطني الفلسطيني نمدّ أبصارنا صوب العالم الإسلامي نستنجده ونستصرخه، ونرسل الوفود تلو الوفود، لننشئ «الإسلامية العالمية» لنواجه «الصهيونية العالمية» في غزوتها العدوانية على الديار المقدسة.

وقلت للرئيس عبد الناصر في أحد لقاءاتي الكثيرة: «إذا كان العالم الإسلامي هو الدائرة الثالثة لمصر، بعد الدائرة العربية والدوائر الأفريقية، كما عبرت في **فلسفة الثورة**، فنحن أهل فلسطين نرى أن العالم الإسلامي هو «الدائرة الأولى»، فما رأيك في توطيد العلاقات بين مصر والمملكة العربية السعودية، حتّى نستطيع إقامة «البرلمان الإسلامي» الذي نتحدث عنه؟».

وقال الرئيس عبد الناصر: «لقد كنت في البعثة المصرية التي سافرت إلى المملكة العربية السعودية لتقديم العزاء في وفاة الملك عبد العزيز. وفي مكة المكرمة تفتح عقلي على الطاقات الهائلة التي يملكها العالم الإسلامي. وأذكر أني تحدثت إلى الملك سعود بالفوائد العظمى الكامنة في حكمة الحج، ورأيت عنده استعداداً لتفهم هذه المعاني».

---

(٢) أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قلت: «ألا ترى يا سيادة الرئيس أن نعمل على توطيد العلاقات بين مصر والمملكة العربية السعودية تحقيقاً لهذه الغاية؟».

قال: «نحن بدأنا من جانبنا، وإذا كان أحد من الإخوة العرب يسعى معنا فنحن موافقون».

استمعت إلى هذا الكلام، فوجدت فيه حافزاً جديداً يدعو إلى العمل، فإن الصهيونية العالمية تحشد كُلّ طاقاتها في جميع أرجاء العالم، فلِمَ لا نحشد طاقات العالم الإسلامي في هذه المعركة دفاعاً عن قضيتنا المقدسة؟

وبدأت بالعمل، وكنت يومئذ أميناً مساعداً للجامعة العربية ورئيساً لوفد سوريا في الأمم المتحدة. فتحدثت إلى الرئيس السوري شكري القوتلي في الأمر، وكان على صلة وثيقة برجال المملكة العربية السعودية، فوجدت عنده استجابة كاملة، وأخذ يتصل بالرياض عن طريق الرسل والرسائل.

وأنا كواحد من عشرات العاملين في الحقل الوطني الذين وثّقوا صلاتهم بالمملكة العربية السعودية، اغتنمت كُلّ فرصة للتحدث إلى الملك سعود، وإلى ولي عهده الأمير فيصل بهذا الشأن، وكانت تربطني بالثاني صداقة وطيدة، كانت نهايتها حين ابتدأت ثورة اليمن.

وأفلحت الجهود من كُلّ جانب. الجهود المصرية ـ السورية ـ الفلسطينية، تحقيقاً لهذه الغاية، وتم الاتفاق بين الرئيس عبد الناصر والملك سعود على التعاون في حشد طاقات العالم الإسلامي لما فيه الخير للأقطار الإسلامية كافة. وفي إطار هذا الاتفاق أنشئت «الأمانة العامة للمؤتمر الإسلامي»، واختيرت القاهرة مقراً لها، وأنور السادات أميناً عاماً لها.

وفي ذهابي وإيابي إلى مكتبي في الجامعة العربية كنت أعرّج على مقر الأمانة العامة للمؤتمر الإسلامي، قريباً من منزلي في القاهرة، وأجد عدداً وافراً من الكفاءات المصرية وهي تعدّ الخطط والدراسات والأبحاث، للحاضر والمستقبل، وانشرح صدري أن طريقنا إلى العالم الإسلامي قد أصبح معبّداً، وأن بشائر الخير لفلسطين قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

وتشاء الأقدار أو ظروف خليج العقبة، وقد شرحتها في ما سبق[٣]، أن أصبح

(٣) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

رئيساً للوفد السعودي في الأمم المتحدة، وبهذا أصبحت أكثر اتصالاً بالملك سعود والأمير فيصل أدعوهما على الدوام في كُلّ مناسبة إلى توثيق الصلات بالقاهرة، كما كنت أناشد الرئيس عبد الناصر في زياراتي إلى القاهرة الانتفاع بالثروة الروحية والمادية التي تملكها المملكة العربية السعودية، وما تستطيع أن تفعله في بناء المدارس والمستشفيات والمساجد في آسيا وأفريقياً، مما يعود خيره على المسلمين، وعلى العرب، وعلى فلسطين.

ولكن هذه الآمال بدأت تتضاءل، وأصبح مقر المؤتمر الإسلامي في القاهرة يأخذ بالضمور. وبدأ الملك سعود ينسلّ من الساحة، مثلما أخذ الرئيس عبد الناصر ينسحب من الميدان، بانتظام وانتظام، تماماً كما يفعل الجندي في الميدان.

وقد حاولت جهدي من جانبي أن أزيل الأسباب، كما فعل غيري من العاملين في الحقل الوطني، ولكن القوى التي تواجهنا، كانت أقوى منا جميعاً. ولعلها أقوى من الرئيس عبد الناصر، ومن الملك سعود، مجتمعين.

وفي كلام موجز، يمكن فهمه من غير إسهاب، كان الخطر الإسرائيلي يشدّ الرئيس عبد الناصر نحو المعسكر الشرقي، كما كان الخوف من الشيوعية الدولية يرمي بكل ثقل الولايات المتحدة على المملكة العربية السعودية. ولم يكن الملك سعود ولا ولي عهده الأمير فيصل من طراز الرجال الذين يقولون للولايات المتحدة: لا.. لا..

وازداد الموقف توتراً بين القاهرة والرياض حين ذهب الملك سعود إلى واشنطن في زيارته الشهيرة إلى الجنرال أيزنهاور في عام ١٩٥٧. ولم يكن الأمر يحتاج إلى «التجسس» على ما دار بين الرجلين، فقد ألح الرئيس أيزنهاور بطريقته المألوفة على الملك سعود أن يسعى لتأليب الشعور الإسلامي ضدّ «الشيوعية الدولية». والملك سعود، كذلك بطريقته المعروفة لم يكن أمامه إلا أن يقول: نعم، فإن ملوك العرب يرون الشيوعية أخطر عليهم من الصهيونية.. أو هكذا تجرعوا هذه «العقيدة».

وبدأت أجهزة الإعلام في القاهرة تغمز الملك سعود وتثير الشكوك حول زيارته إلى الجنرال أيزنهاور، والملك سعود يصبر على القتال، ولكنه لا صبر له على القيل والقال.

وأذكر أني كنت في مجلس الملك سعود بعد عودتي من الأمم المتحدة في أوائل عام ١٩٥٨، فوجه إلى الكلام قائلاً:

«يا شيخ أحمد، أصحابك في القاهرة يهاجمونني. لقد أرسلت إليهم خلاصة محادثاتي مع الجنرال أيزنهاور. وكُلّ ما فيها خير للعرب وللمسلمين، فلماذا يهاجمنا الرئيس عبد الناصر في صحفه في القاهرة وبيروت؟».

قلت: «يا طويل العمر، الإخوة يقع بينهم اختلاف، ولكن لا بُدّ من أن يعودوا إلى الصفاء».

وطلب الملك سعود إلى الشيخ يوسف ياسين أن يأتي بملف المراسلات بينه وبين الجنرال أيزنهاور، وأخذ يقرأ الترجمة العربية لآخر رسالة جاءته من البيت الأبيض. قال:

«هذه هي آخر رسالة تسلمتها من الجنرال أيزنهاور بنفسه. وهذا هو الأصل باللغة الإنكليزية، وبتوقيع الرئيس أيزنهاور بنفسه. أنت خذها إلى القاهرة، واقرأها على الرئيس عبد الناصر حتّى يتأكد أننا لا نضمر شراً لعبد الناصر ولا لأي عربي ولأي مسلم».

وهكذا كان. استلمت الرسالة، وأقلتني أول طائرة إلى القاهرة لأحاول رأب الصدع بين القاهرة والرياض. وكُلّ اعتمادي على الله، وعلى رسالة الرئيس أيزنهاور.

وكانت هذه الرسالة جواباً عن كتاب بعث به الملك إلى الجنرال أيزنهاور يشرح فيه التوتر السائد في منطقة الشرق الأوسط بسبب إسرائيل واعتداءاتها، ويناشد فيها ألا تتخذ منظمة حلف الأطلسي التي كان من المزمع انعقادها في باريس في أواسط عام ١٩٥٨ أي قرار ضار بشأن النزاع العربي ـ الإسرائيلي. وكان مجمل جواب الرئيس أيزنهاور أن «نشاطات الشيوعية الدولية لا بُدَّ من أن تبحث في إطار أية مداولات دولية، وأن شعوب منظمة الأطلسي تدرك تماماً الفرص المتاحة أمام الشيوعية الدولية بسبب التوتر في الشرق الأوسط، وبخاصة بالنسبة إلى المضاعفات الناشئة عن النزاع القائم بين الدول العربية وإسرائيل كما وصفتها جلالتكم».

وبكّرت في اليوم التالي إلى جهاز التلفون أتصل بمكتب الرئيس عبد الناصر أطلب موعداً عاجلاً لأمر عاجل.

ومضت قرابة أسبوعين، وأنا أتوسل وأناشد. ولكن لا سبيل إلى ذلك، وكان الجواب من مكتب الرئيس: «والله الرئيس لم يحدّد الموعد بعد. سيادة الرئيس مشغول كثيراً في مواعيد كثيرة. ممكن تتصل بوزارة الخارجية لتطلعهم على الموضوع. إذا تحدد موعد نبقى نتصل فيك بالتلفون، عندنا رقم تلفون المنزل».

وأدركت أن الرئيس عبد الناصر لا يريد مقابلتي. والرئيس عبد الناصر لطيف جداً حينما يريد، وخشن جداً حينما لا يريد، ولا يبالي بالبروتوكول، وهو مستعد أن يهتك عرض الدبلوماسية من غير تحفظ ولا تردد. وهو يرى أن ذلك أسلوب من الأساليب الدبلوماسية.

ووقعت في حرج شديد. وأحسست أن كرامتي ومهمتي في الميزان. ولولا قضية فلسطين ما كان لي أن أعرّض نفسي لهذا الهوان.

وزاد من ألمي أن الصحافيين المصريين، لم يكفّوا عن متابعتي بالتلفون سائلين:

«هل قابلت سيادة الرئيس؟ هل سلمته الرسالة الخاصة التي تحملها من الملك سعود؟» وكان بعضهم يريد أن يستغضبني. وكنت أكظم ألمي، فلا أنبس ببنت شفة، وبخاصة أنا أعلم أن تلفون منزلي واحد من عشرات التلفونات الخاضعة للرقابة، من «صباح الخير إلى الحمدلله على السلامة».

وضجرت ويئست. وعزمت على أن أعود إلى الرياض وأن تعود الرسالة معي. ولا بُدَّ من أن الله تبارك وتعالى سيلهمني عذراً لطيفاً كاذباً ألقيه بين يدي الملك سعود، من دون أن تزداد الفجوة بينه وبين الرئيس عبد الناصر. والملك سعود، خلافاً للأمير فيصل، يمكن استرضاؤه، حتّى ببشاشة مصطنعة.

وحزمت حقائبي، وحجزت لي مكاناً في الخطوط السعودية، وأخذت طريقي إلى مطار القاهرة الدولي وأنا أسبّ الساعة التي أقحمت نفسي في هذا الموضوع، ولكنها فرجت بعد أن ضاقت واستكملت حلقاتها.

ذلك أني لم أكد أصل إلى صالة الانتظار حتّى كان ضابط المطار وأعوانه يبحثون عني، وميكروفونات التلفون تلعلع باسمي: «الأستاذ الشقيري، يتصل بضابط المطار. وشكراً».

وجاءني ضابط المطار يقول: «السيد سامي شرف مدير مكتب الرئيس يريدك أن تكلمه بالتلفون الآن وحالاً».

وقال سامي شرف وأنا أكلمه على التلفون:

«لقد تحدّد موعد سيادتك لمقابلة سيادة الرئيس غداً الساعة ١٢ ظهراً».

قلت: «أنا في طريقي إلى الرياض. وقد حجزت مكاناً في الطائرة السعودية».

قال: «أرجوك أن تلغي سفرك».

قلت: «لقد أبرقت إلى الملك سعود بسفري، ماذا أفعل الآن؟»

قال: «اعتذر بما تشاء. الموقف حساس و. . و. .».

وعدت إلى بيتي وعادت معي الرسالة نفسها.

وفي اليوم التالي وفي الموعد المحدّد كنت مع الرئيس في منزله في منشية البكري وهو يبادرني بالحديث:

«إزاي كنت عاوز تسافر إلى الرياض. مهما كانت علاقتنا بالملك سعود، إنت عارف مكانتك في القاهرة. بس أنا كنت مشغول أوي في الأسبوع الماضي، وأنا قلت الأخ الشقيري نسيبه للآخر، هو في بيته في القاهرة».

قال الرئيس عبد الناصر هذا الكلام، وما هو أكثر منه حلاوة، ليزيل المرارة في نفسي. وشرعت بعد المقدمات والديباجات أحدّث الرئيس عبد الناصر عن ضرورة التفاهم مع المملكة العربية السعودية ومع الملك سعود بالذات، وأنه يسهل «قياده» بالكلمة الطيبة، وأنه يحسن أن «نخطفه» من الجنرال أيزنهاور، ومن براثن السياسة الأمريكية، وأنه. .

وأخرجت من حقيبتي رسالة أيزنهاور، فقرأها الرئيس عبد الناصر بإمعان، وقال:

«عندك مانع تبقى الرسالة عندي يومين. . ثلاثة. أنا أحب أن يقرأها المشير عبد الحكيم عامر».

ـ قلت: «لا مانع».

قال: «على كُلّ حال، أنا أرى أن هذه الرسالة تضع المملكة العربية السعودية على مفترق الطرق، فإما أن يسير الملك سعود في فلك السياسة الأمريكية، وحينئذ لا تعاون بيننا، وإما أن يظل في الحظيرة العربية ويبقى التعاون بيننا».

قلت: «أنا أرجو أن يبقى التعاون بينكما، ويزداد. أنا أذكركم «بالدائرة الثالثة»، العالم الإسلامي، كما عبّرت عنه في كتابك **فلسفة الثورة**، وسيطالبك التاريخ.

قال: «الأمر مرهون بالمستقبل، فإما صداقة مع السعودية، وإما عداوة، وأنا أرحب بالأولى».

قلت: «هذه خاتمة طيبة، وسأنقل إلى الملك سعود تحياتك وتمنياتك».

قال: «لا مانع. ونسأل الله التوفيق».

وانتهى الاجتماع، وخرجت من منزل الرئيس عبد الناصر، تاركاً عنده

رسالة الجنرال أيزنهاور، وأنا أعلم أن مكتب الرئيس سيصوّرها بالزنكوغراف لضمها إلى ملف الوثائق السرية، ولم أر حرجاً في ذلك. فقد عادت إلي سليمة بعد ثلاثة أيام واحتفظت بها هذه السنين، وهذه صورة عنها ليطلع عليها المواطن العربي(٤).

ولكن مهمتي بين الرئيس عبد الناصر والملك سعود لم تفلح، وانتابتها مضاعفات دولية وعربية، فازدادت سوءاً على سوء.

وكان النزاع بين الأخوين سعود وفيصل من أهم المضاعفات، وهو خلاف على السلطة يؤلّف فصلاً بذاته، ولا أحسب أن له مكاناً في مذكراتي إلا بقدر.

وأعني بهذا القدر علاقتي بهذا الصراع، فقد انقسم رجال المملكة إلى فريقين حول هذا الصراع:

ـ هذا يؤيد الملك سعود نهاراً، ولكنه يتسلل بالليل إلى قصر الأمير فيصل لينقل إليه الأخبار.

ـ وذاك يمثل الدور على الوجه الآخر. وكان كُلّ من سعود وفيصل يستعين على الآخر بالجهات العربية والأمريكية على السواء.

ومن ذلك أن الملك سعود كان يبعث إليّ رسولاً خاصاً من رجاله إلى القاهرة يحمل إليّ بريداً منتظماً عن الخلاف بينه وبين أخيه الأمير فيصل. وقد اخترت لمذكراتي واحداً من هذه الرسائل يطلب فيه «بعد قراءة الكتاب مزّقوه» وأن أشرح نياته «للجماعة»، وهو يعني بالجماعة الرئيس عبد الناصر.

ولكني لم أستجب لرغبة الملك سعود، فلم أتصل بالرئيس عبد الناصر في ما لا ينفع القضية التي كرست حياتي لها، وكذلك لم أمزّق الكتاب، فهو نموذج صالح على الحكم العربي المعاصر. . وها إني أضعه أمام المواطن العربي للتاريخ. وهذه هي صورة أخرى(٥).

ودارت الأيام دورتها، ونجح فيصل بخلع أخيه سعود عن المُلْك، تحت ظروف لم يسبق أن وقع مثلها في تاريخ البيت السعودي، وجاءت حرب اليمن ورافقها ما رافقها من أزمات عربية ودولية، وتوتر الموقف بين الرئيس عبد الناصر والملك

(٤) انظر نصّ الخطاب في آخر هذا الكتاب.

(٥) انظر نصّ الخطاب في آخر هذا الكتاب.

فيصل، ولم تفلح مؤتمرات القمة، ولا وساطة بريطانيا وأمريكا في رأب الصدع وجمع الشمل. وعاد الحديث عن الحلف الإسلامي إلى ساحة الصراع.

وأصبح الملك فيصل غير الأمير فيصل، فقد كان في الماضي ينعى على أخيه سعود خلافه مع الرئيس عبد الناصر، فلما أصبح الآن ملك البلاد والعباد تصدّى للرئيس عبد الناصر بكل إصرار وعناد واختار موضوع المؤتمر الإسلامي ميداناً للنزال. والله وملائكته ورسله يشهدون أن الميدان الحقّ هو في فلسطين وفي فلسطين وحدها.

وبدأ الملك فيصل عهده بزيارة الدول الإسلامية، يحضّها على «الاجتماع والتعاون لما فيه خير المسلمين ومناهضة الشيوعية والانحلال»، مؤكّداً بالأيمان المغلظة أنّه لا يريد إنشاء حلف إسلامي، بل إن الأمر لا يتعدّى دعم الأخوة الإسلامية، فالمؤمنون إخوة وكفى.

وراح الرئيس جمال عبد الناصر من جانبه يهاجم الملك فيصل، ويتصدّى لكُلّ ملك أو رئيس يلتقي معه، ومن هنا كان هجوم الرئيس عبد الناصر على شاه إيران ورئيس تونس وملك الأردن.

واستمرّ الرئيس عبد الناصر في كُلّ مناسبة قومية عامة يندّد بالمؤتمر الإسلامي، ويحمل على الملك فيصل باعتباره الداعية الأول لهذه الفكرة، ومضت هذه الحملة قرابة عام ونصف، ولم تتوقف إلا قبيل حرب حزيران/ يونيو بأيام معدودات.

وخلال تلك الحقبة التاريخية (١٩٦٦ -١٩٦٧) اجتمعت بالرئيس عبد الناصر أكثر من مرة، وفي كُلّ مرة كان يسألني:

«رأيك إيه في الحلف الإسلامي؟».

وكنت أجيبه دائماً: «أنا لست من أنصار الحلف الإسلامي، ولكن لا أرى داعياً لمهاجمة الملك فيصل وشركاه».

قال: «نتركهم كده، يجرّوا العالم الإسلامي في فلك أمريكا؟».

قلت: «إن الحلف الإسلامي يحتاج إلى جهد، وسخاء، ومثابرة، إن «فيصل وشركاه» لا يملكون شيئاً من ذلك. أنت تملك هذه الصفات مجتمعة وأنت الوحيد القادر على تعبئة العالم الإسلامي. وإن فيصلاً والحسين وبورقيبة ومعهم شاه إيران أقل شاناً من أن يستطيعوا تقديم أية خدمة لأمريكا».

قال: «يعني نسيبهم يسرحوا ويمرحوا على كيفهم؟».

قلت: «هذا هو رأيي بالضبط، وليعقدوا المؤتمر الإسلامي. إنهم لن يقدموا أية خدمة للمسلمين، ولا لقضية فلسطين».

قال: «ولكن يجب كشفهم أمام الرأي العام الإسلامي».

قلت: «المؤتمر الإسلامي بنفسه سوف يكشفهم، فأنا أعرف الكثير عن حكام المسلمين، ولن يقدموا لفلسطين غير الكلام».

ولكن الرئيس عبد الناصر كان مصمماً على الحيلولة دون عقد المؤتمر الإسلامي بأي ثمن، فقد كان يخشى أكثر ما يخشى أن تستطيع الولايات المتحدة عزل الجمهورية العربية المتحدة وتطويقها ومحاصرتها بهذا الذي يسمى الحلف الإسلامي.

ومرت الأيام، وشاء الزمن، أن يوضع المؤتمر الإسلامي في الامتحان، وأن يسقط ملوك الإسلام في الميدان، الميدان الذي اختاروه.

وكانت المناسبة المفجعة إحراق المسجد الأقصى في صيف عام ١٩٦٩، واهتز العالم إسلامي في مشارق الأرض ومغاربها، وتطلعت الجماهير الإسلامية الغاضبة إلى ملوكها وأمرائها ورؤسائها داعية إلى الجهاد، منادية بالاستشهاد.

ووثب الملك فيصل على هذا الحدث المفجع، ووجد فيه الحجة التي لا تردّ، ووثب معه الحسن الثاني ملك المغرب، والحسين ملك الأردن، وغيرهم.. وغيرهم يجدّدون الدعوة للمؤتمر الإسلامي. ورضي الرئيس عبد الناصر رضاء المقهور. فقد قهرته حرب الأيام الستة، وقهرته فاجعة المسجد الأقصى، ولينعقد المؤتمر الإسلامي، لعل... وعسى.

وبعد أن تصايح الملوك والرؤساء وتناوحوا في أرجاء العالم الإسلامي شدّوا رحالهم إلى المغرب ليعقدوا المؤتمر العتيد، والدنيا بأسرها تتساءل: ماذا سيصنع ملوك المسلمين لبيت المقدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين وموطن الإسراء والمعراج؟

وهكذا التقى في مدينة الرباط أربعة ملوك، وخمسة رؤساء جمهورية، وثلاثة رؤساء برلمانات، وستة عشر وزيراً، ومعهم جيش من السفراء والخبراء والمستشارين والصحافيين، وآلات التصوير وأجهزة التلفزيون.

وامتد المؤتمر أربعة أيام معدودات، واجه خلالها أربع أزمات.

في اليوم **الأول**: نشبت الأزمة الأولى: منظمة التحرير الفلسطينية. هل تمثل في

المؤتمر؟ هل تحضر كمراقب؟ هل يسمح لها بالكلام؟ ولم تجد الأزمة حلاً يليق بشعب فلسطين، وهم سدنة المسجد الأقصى.

وفي اليوم **الثاني**: نشبت الأزمة الثانية بين الهند وباكستان. هل تحضر الهند أو لا تحضر؟ وانتهت الأزمة بحل كريه أغضب الهند وباكستان معاً.

وفي اليوم **الثالث**: نشبت أزمة ثالثة. هل تكون الجمهورية العربية المتحدة عضواً في لجنة الصياغة أو لا تكون؟ واضطر أنور السادات رئيس الوفد المصري أن يخاطب شاه إيران ببيت من الشعر الفارسي معناه: «إن الذي يأكل خبزاً بعرق جبينه لا يحتاج منة أحد».

وفي اليوم **الرابع**: نشبت أزمة رابعة حول جدول الأعمال، وهل تصدر عنه قرارات أم توصيات؟

وانتهى المؤتمر كما بدأ من دون جدول أعمال. وختم أيامه التعيسة الأربعة من غير قرارات.

وكُلّ ما تمخّض عنه الملوك والرؤساء في دنيا الإسلام أنهم أصدروا بياناً اجتمعت فيه بلاغة العرب والعجم يعلن «أن المؤتمر يرفض أي حلّ لا يعيد القدس إلى وضعها قبل حرب يونيو/ حزيران، ويوجه نداء حاراً إلى الدول المسؤولة عن حماية الإسلام في العالم بأن تضاعف جهودها على المستوى الفردي والجماعي لانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة».

وقد صدرت «الإرادة السنية» من «السدّة العلية» لملوك المسلمين وأمرائهم، فجرى إرسال هذا البيان «البيان السامي» إلى السيد يوثانت ليجعله وثيقة من وثائق الأمم المتحدة.

وهكذا كان، فقد أصبح وثيقة من وثائق الأمم المتحدة. ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾[٦]. والجدال.

وهكذا ابتدأت حكاية المؤتمر الإسلامي، ومعها انتهت قصة الصراع بين الرئيس عبد الناصر والملك فيصل. وسجل التاريخ أن عام ١٩٦٩ قد شهد حدثاً رهيباً، وعاراً مهيناً.

كان الحدث الرهيب إحراق المسجد الأقصى على أيدي إسرائيل.

---

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٥.

وكان العار المهين مؤتمر الملوك والأمراء المسلمين.

ولست أعتذر ولا أستغفر، ولكني أقولها، صائحة نائحة، باكية غاضبة، حزينة مزمجرة، إن الملوك والأمراء المسلمين قد أنزلوا بالإسلام إذلالاً بالغ العار، تجاوز ما اقترفته إسرائيل من عبث في المقدسات وهتك الحرمات.

وبهذا كان ملوكنا وأمراؤنا أشدّ بلاء على الإسلام والمسلمين من إسرائيل وأنصار إسرائيل، فأصبحوا من الخاسرين الأخسرين.

﴿**قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾[٧] صدق الله العظيم.

(٧) المصدر نفسه، «سورة الكهف،» الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤.

سبعون مليون جنيه دين على الملوك والرؤساء

كانت نهاية عام ١٩٦٣، البداية، البداية لمؤتمرات القمة، وبعد ثلاثة أعوام جاء عام ١٩٦٦ ليشهد البداية، ولكن هذه المرة، بداية النهاية، نهاية مؤتمرات القمة. وكان من قدري بوصفي رئيساً لمنظمة التحرير أن أكون في مشهد الولادة، كما رويتها، وأن أسير في موكب الجنازة، وليس من يبكي أو يرثي.

فما إن انتهى مؤتمر الملوك والرؤساء في الدار البيضاء حتّى بدأ التشقق في جدران القمة، وأخذ التصدع في قوائمه يبدو للجماهير العربية. وكان «خطاب السويس» هو القشة التي قصمت ظهر البعير.

وأحسب أن المواطن العربي يعرف من غير تعريف أني أعني بخطاب السويس خطاب الرئيس عبد الناصر الذي ألقاه في مدينة السويس (٢٢/ ٣/ ١٩٦٦) ولم يكن يخاطب جماهير السويس بقدر ما كان يخاطب جماهير الأمة العربية من المحيط إلى الخليج.

تلقيت الدعوة من الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي فلبيت، وفي السويس لم أجد براً ولا بحراً، ولا أرضاً، ولا شارعاً ولا ميداناً، فقد كانت الجماهير المتراصّة تغطي كُلّ شيء وتحجب كُلّ شيء. ولولا أن سيارات المطافئ كانت هي التي تشق الطريق للوفود العربية لكان علينا أن نستمع إلى خطاب الرئيس من راديو سياراتنا.

وكانت عناوين الصحف في القاهرة تلمّح إلى أن الرئيس عبد الناصر سيوجه خطاباً مهماً. وهذا ما كان فعلاً. فقد مضى الرئيس في خطابه، كعادته، من الأمور الداخلية إلى الشؤون العربية، وأرسل صوته داوياً حين قال: «إن الجمهورية العربية المتحدة على وشكّ اتخاذ قرار بعدم جدوى العمل المشترك من خلال مؤتمرات القمة بعد أن اتضح أن الرجعية في العالم العربي تخشى من قوى التقدم العربي أكثر من العدو المشترك». وانهال الرئيس عبد الناصر بعد ذلك على الحلف الإسلامي ودعاته: فيصل والحسين وبورقيبة وشاه إيران، لم يترك شعرة في رؤوسهم إلا وأصلاها بعباراته الكاوية.

وعدت إلى القاهرة في ساعة متأخرة من الليل، وأنا أضرب وأطرح، كما يقولون، وأتساءل: ماذا عسى أن يريد الرئيس عبد الناصر بعد هذا الإنذار الموجه إلى الحكومات العربية الرجعية.

وقضينا أياماً، أنا والسفراء العرب ونحن يراهن بعضنا بعضاً في ما يعتزمه الرئيس عبد الناصر، ولكن أحداً لم يربح الرهان، فلم نقدّر، يومئذ، أن الرئيس عبد الناصر سيختم بالشمع الأحمر على مؤتمرات القمة. فقد بقي هذا الموضوع في ذهنه أشهراً أخرى قبل أن يكشفه في صيف ذلك العام.

ودعتني شؤون منظمة التحرير الفلسطينية، وما كان أكثرها، إلى دمشق، لحضور مناورة بالذخيرة الحية تقوم بها كتائب جيش التحرير الفلسطيني في درعا. وكان سروري بالغاً حينما ذهبت برفقة الرئيس السوري أمين الحافظ إلى معسكراتنا ورأيت جنودنا يقتحمون النيران، ويأكلون الأفاعي، ويقفزون فوق الأسلاك. وقد حمدت للرئيس الحافظ أنّه كان يقدمني أمامه في صف الاستعراض. وهو يقول: «أنا اليوم ضيفكم. وهذا جيشكم واليوم يومكم. فشكرته على هذه الأريحية، وقلت له مازحاً: «لماذا لا يكون جميع البعثيين مثل أبو عبده (وهذه كنيته)؟ لماذا يغلق البعث الباب على نفسه؟ لماذا لا ينفتح على الناس؟ ألا يكون الإنسان العربي وطنياً مخلصاً إلا إذا كان بعثياً مسجلاً؟». واكتفى أبو عبده بأن قال: «سنبذل جهدنا للانفتاح على الجماهير».

وفي تلك الزيارة، انفتحت أبواب الدولة، ولعل الفضل يعود في ذلك إلى عدد من القيادات البعثية من الصف الثاني، فمكنت لي السلطات السورية أن أصلي الجمعة في مسجد اليرموك في ضاحية دمشق. وكان جليلاً مهيباً. فزحف الفلسطينيون من كُلّ أرجاء دمشق، وصلينا معاً، ودعونا معاً، وكانت الجموع تهتف بحياة منظمة التحرير. وقد بالغوا في رفع أصواتهم حتّى يسمع قادة حزب البعث في دمشق أين عواطف الشعب الفلسطيني.

وبالغ حزب البعث بالحفاوة بي في هذه الزيارة بالذات، وبخاصة على مشهد ومسمع من الجماهير الفلسطينية، فقد أراد أن يكفّر عن سيئة صغرى في شكلها، كبرى في مضمونها.

وخلاصة الحكاية، وهي حكاية مضحكة مبكية حقاً، أني كنت في أوائل هذا العام (١٩٦٦) على موعد مع جيش التحرير الفلسطيني أزوره في ثكناته في درعا. وقد فاجأني مطار القاهرة يبلغني تلفونياً أنّه تلقى رسالة لاسلكية من دمشق: «أنّه يحسن تأجيل زيارتي إلى سوريا إلى إشعار آخر». ونمت على هذا الخبر المريح، فقد أراحني من الحوار الذي كنت أتوقعه من الإخوان البعثيين. وأضفت هذا الحدث إلى

قائمة المصاعب الصغيرة والكبيرة التي لقيتها من الحكومات العربية، وأنا أسير معها على طريق القضية الفلسطينية بكل تعرجاتها ومزالقها.

وفي صباح اليوم التالي جاءني السفير السوري إلى مكتبي، يقول: «نحن آسفون لتأجيل زيارتك إلى دمشق. هنالك أسباب لا أعرفها دعت إلى ذلك. ولكن سنعمل على ترتيب موعد آخر».

قلت: «يا سيادة السفير.. لقد منعني الانتداب الإفرنسي في عام ١٩٢٧ من دخول سوريا[١]. وها إن التاريخ يعيد نفسه، وهذا هو الحكم الوطني الاستقلالي يمنعني من الوصول إلى دمشق والاتصال بشعبنا الشريد الطريد، وإذا فقدت أملي في سوريا، فأين أضعه؟».

قال: «أرجو ألا تنظر إلى الموضوع على هذه الصورة».

قلت: «بالعكس. أنا أنظر للأمر ببساطة. ومن غير استغراب ولا استهجان. إن الحكم السوري في عام ١٩٦١ قد منع إقامة حفل تأبين للمرحوم جميل مردم في دمشق، وكذلك فقد منع وضع إكليل من الزهور على ضريح سعد الله الجابري في حلب. وهذان الرجلان بلا جدال من بناة الاستقلال. ولهذا فإني لا أستغرب أن أمنع من دخول دمشق».

ومضى الحديث بيننا على هذا الحال. السفير يعتذر وأنا أهزأ وأسخر. ومرت بضعة أيام وانتشر الخبر بين جماهير الفلسطينيين والسوريين على السواء، فأثار موجة من الاشمئزاز والاستنكار، ووجدت قيادة البعث نفسها أمام حرج كبير حتّى أمام قواعدها من الشباب والطلاب. وعاد إليّ السفير السوري في القاهرة ليعتذر ويعتذر، ويلحّ علي بالسفر إلى دمشق. وهي «وطنك ووطن العرب أجمعين»، تلك هي الحكاية الصغيرة الكبيرة!

وما دمت في صدد حكاياتي مع حزب البعث، فإن ذاكرتي تعود بي إلى زيارة لاحقة، بعد واحد من الانقلابات التي ينقلب فيها البعث على البعث تجديداً وتصحيحاً، حينما أقيم مهرجان تأسيس حزب البعث (٧/ ٢/ ١٩٦٦) وخطب أحد قادة حزب البعث قائلاً: «إن الحزب عمل على خلق منظمات فلسطينية حزبية تحمل شعار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقد تبنّى المؤتمر القطري هذه الفكرة».

---

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قلت يومها للرئيس السوري د. نور الدين الأتاسي، وأنا أزوره في القصر الجمهوري: «ولماذا (تخلقون) منظمات فلسطينية؟ أليس هذا هو هدم لمنظمة التحرير؟ أليس هذا هو تمزيق للشعب الفلسطيني، والوحدة شعار الحزب؟».

ولكن الرئيس السوري انصرف عن هذا الحديث وراح يسألني عن الأمور في القاهرة. وقال لي، وفي ثنايا حديثه غمزات ولمزات: «هذا بيان القيادة القطرية لحزب البعث (٤/ ٤/ ١٩٦٦)». وسلمني صورة عن البيان، يعلن فيه حزب البعث: «إن مؤتمرات القمة فيها عودة إلى العمل التقليدي إزاء تحرير فلسطين وتضليل للشعب العربي، ومحاولة لإجهاض أية حركة ثورية لتحرير فلسطين، وهي سياج يحمي الرجعية العربية من غضبة الجماهير. إنه تهرّب من المعركة وانهزامية». وواضح أن هذه الإشارة كانت موجهة إلى القاهرة والرياض معاً. الأولى «تهرب من المعركة»، والثانية «رجعية تحميها مؤتمرات القمة».

طويت البيان في جيبي، وخرجت من القصر الجمهوري الذي ألفت جدرانه منذُ عهد الاستقلال، أيام شكري القوتلي وهاشم الأتاسي. وأنا أتساءل في نفسي: هل يرضى البعثيون على المنظمة إذا أصبحت بعثياً؟ وأنا لا أرى بأساً من أن أكون بعثياً بشرط أن أنفتح على الناس، فإن مبادئ حزب البعث هي مبادئ كُلّ مؤمن بالعروبة، بل يجب أن تكون.

ومن دمشق سافرت إلى بيروت، فقد كانت الجماهير الفلسطينية في لبنان غاضبة هائجة، فقد تواترت الأنباء عن أن السلطات اللبنانية كانت قد ألقت القبض على الفدائي الفلسطيني جلال كَعْوَش، وأنه باختصار مات تحت التعذيب. ووصلت إلى مكتب المنظمة في بيروت، في شارع كورنيش المزرعة، لأجد الجماهير قد سدّت المسالك والمنافذ، وهي تسير في تظاهرة صاخبة، فعدت إلى أيام شبابي، وسرت في التظاهرة مع المتظاهرين الذين اشتبكوا مع رجال الأمن ووقع بعض الجرحى.

وقال لي أحد الفلسطينيين وأنا أسير في التظاهرة: «إن جلال كعوش هو من رجال «فتح»، وليس من مؤيدي المنظمة، فكيف تسير في التظاهرة؟».

قلت: «فليكن. إنه عندي شهيد. وهو من أبطال فلسطين. ولا فرق عندي بين أن يكون من رجال «فتح»، أو من رجال أية منظمة أخرى».

قال: «المهم أن تقدّر «فتح» هذا الموقف».

قلت: «أنا لم أفعل ما فعلت من أجل خاطر «فتح». إنه من أجل فلسطين وآمل من «فتح» وغيرها من المنظمات الفلسطينية أن ترقى إلى مستوى المسؤولية».

وطلبت إلى مكتب المنظمة في بيروت أن يقوم بواجب الشهيد جلال كعوش، كما لو كان واحداً من جنود جيش التحرير.

وقضيت بضعة أيام، وأنا أتصل بالمسؤولين في بيروت، أبحث معهم مضاعفات قضية كعوش، وهم يعتبون على «رئيس المنظمة الذي تصرف تصرفاً غير دبلوماسي».

وقلت لهم: «أنا لست رئيس دولة. هل نسيتم أن زعماء لبنان كانوا قد تصدّوا للقوات الفرنسية في الشارع بعد الحرب العالمية الثانية، مطالبين بالجلاء وبالاستقلال، فلماذا تعيبون علي أن أسير في تظاهرة مع الشعب؟».

فخجلوا... وسكتوا.

ومن بيروت سافرت إلى القاهرة التماساً لبعض الراحة، واستعداداً لمؤتمر رؤساء الحكومات العربية الذي سيعقد في القاهرة. ولكن أية راحة، وعيد النصر في قطاع غزة يلحّ عليّ بشهوده، وهو عيد جلاء القوات الإسرائيلية بعد العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦.

وصلت قطاع غزة، فوجدت الشعب يحتفل ببطولاته التي تجلت أثناء الاحتلال الإسرائيلي. وجدته يتحدث عن بسالات رجاله ونسائه في تلك الأيام السوداء. ومن تلك الأحاديث التي تلقفتها من ألسنة الشعب رحت أخطب في غزة، وخان يونس، ورفح، أخطب عن الشعب الذي أضرب عن دفع الضرائب، والموظفين الذي توقفوا عن العمل، عن الشباب الذين كانوا يفجرون القنابل في صفوف القوات الإسرائيلية، عن الطلاب الذين كانوا يخطفون البنادق من الجنود الإسرائيليين ويردونهم صرعى، وعن.. وعن..، عن شجاعة شعبنا حين يملك السلاح ويضع يده على الزناد.

وكان من بين هتافات الجماهير: «تعيش جمهورية فلسطين»، يردّدونها في كُلّ مكان، وفي كُلّ مكان كنت أصدّ الجماهير عن هذا الهتاف، خشية أن يسمع الملك حسين، وعمّان ليست بعيدة عن غزة. وأنا أقول للجماهير: «ما لنا وللجمهورية. نحن نريد فلسطين ولا شيء غير فلسطين».

غادرت قطاع غزة إلى القاهرة، وأنا مشحون بعواطف الشعب الجياشة، لأشترك في اجتماع الجامعة العربية، وهو يحمل اسماً فخماً ضخماً «اجتماع مجلس رؤساء الحكومات العربية». وكفى.

ومما زاد الاجتماع فخامة وضخامة، الصحافة العربية. ولا لوم على الصحافيين

بالذات، فإن الصحافة جهاز من أجهزة الدول في عدد من الدول العربية. وكان طبيعياً أن تفخّم وتضخّم الصحافة مجلس رؤساء الحكومات، كما عبّرت صحيفة **الأهرام** بأن «جدول الأعمال المعروض على مجلس رؤساء الحكومات يحتوي اثنتين وعشرين مسألة، وأربعة عشر تقريراً تتناول القضايا السياسية والعسكرية والفنية والمالية والاقتصادية والإعلامية والثقافية والقانونية، ويحتمل أن تضاف إليه أمور أخرى»، كأنما تقاس هذه الاجتماعات «بطول» جدول الأعمال، وعدد المواضيع المدرجة عليه. وقلت في نفسي وأنا اقرأ هذه العناوين: الآن عرفت لماذا أنت ساكت أبد الدهر يا أبا الهول.

انعقد الاجتماع العتيد في دار الجامعة العربية (١٤/ ٣/ ١٩٦٦) وسط المظاهر المألوفة، وهو يحمل اسمه إياه، وكان ثالث اجتماع على هذا المستوى ينعقد لتنفيذ مقررات مؤتمر القمة. وقد حضره من رؤساء الحكومات العربية: زكريا محيى الدين (القاهرة)، ووصفي التل (الأردن)، والشيخ جابر الأحمد الصباح (الكويت)، وعبد الرحمن البزاز (العراق)، ومحمّد أحمد محجوب (السودان)، ورشيد كرامي (لبنان)، والفريق حسن العمري (اليمن). وكان الآخرون وزراء أو أنصاف وزراء وسفراء، وهم: عبد العزيز بوتفليقة (الجزائر)، وعمر السقاف (السعودية)، وإبراهيم ماخوس (سوريا)، وأحمد البشتي (ليبيا)، ومحمّد الشرقاوي (المغرب).

وفي الجلسة العلنية حاول رئيس الدورة السابقة رئيس وزراء الجمهورية العربية المتحدة، وهو يلقي خطابه، أن يسدل ستاراً على الفشل العربي الذي كان يتحدث عنه الوطن العربي في الشوارع والمقاهي. ولكن كلمته الافتتاحية فضحت الموقف العربي برفق، حين قال: «إن ما نفذناه حتّى الآن لا يتلاءم وخططنا المرسومة. فالقيادة العربية الموحّدة يجب أن تمارس أعمالها في فاعلية أعظم، والمشروع العربي لاستثمار مياه الأردن يجب أن يمضي بخطى حثيثة في جميع الأقسام، والكيان الفلسطيني يجب أن يحمل مسؤولياته كاملة». وكان المعنى الواضح لهذا الكلام الناعم أن الحكومات العربية لم تنفذ التزاماتها إزاء القيادة العربية الموحدة، وهيأة تحويل الروافد، ومنظمة التحرير الفلسطينية. وهكذا تشكو الحكومات من الحكومات.

وبعد هذا البيان ألقى رئيس الدورة الحاضرة الفريق حسن العمري رئيس وزراء اليمن خطبة الافتتاح، فأعرب عن أمله في «أن يتم السلام وحسن الجوار بين المملكة العربية السعودية وجمهورية اليمن، كما أبدى أسفه لفشل مؤتمر «حرض» الذي عقد للمصالحة بين مختلف الفرقاء المعنيين». ولم يعقّب الوفد السعودي على هذا الحديث. ولولا شيء من الحياء لرفض الاشتراك في اجتماع يرأسه وفد يمني يمثل الجمهورية اليمنية.

وجاءت كلمة الجامعة العربية من إعداد د. نوفل، وإلقاء عبد الخالق حسونة، فكانت خاتمتها الآية القرآنية: ﴿**وقُلِ اعملوا فسيرى الله عملكم ورَسولُه والمؤمنون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

وكان معنى هذه المناشدة القرآنية أن الحكومات العربية لم تعمل عملاً يراه الله ورسوله والمؤمنون.

ولم يكن هذا هو تفسيري المبكر لاجتماع الرؤساء الذي ينعقد تحت قبة مؤتمر القمة، وقد بدت الشقوق في قبابها والصدوع في جدرانها، بل كانت هذه هي حصيلة الأيام الأربعة التي قضيناها في الجامعة العربية، فضاعت من عمر الأمة العربية كما ضاعت من قبلها الأعوام والأعوام.

وكان «التضامن العربي» الموضوع الأول على جدول الأعمال. فكان صمت وكان وجوم، وتولى «إطلاق النار» الرئيس السوداني أحمد محمّد محجوب، وهو صاحب صياغة الميثاق في الدار البيضاء، وقال إن ميثاق التضامن العربي لم يعد موجوداً. فتصدى له الرئيس الأردني وصفي التل وقال: «الحمد لله. الميثاق قائم، والأخوة العربية سليمة».

قلت: «الحمد لله، صحيح، لأنه لا يحمد على المكروه سواه... إن كلام الأخ محجوب صحيح. إن ميثاق التضامن العربي لم يعد قائماً. الحملات الإعلامية بين دمشق وبغداد وصلت إلى عنان السماء. الحكومة المغربية سحبت سفيريها في دمشق وبيروت، ثُمّ قطعت علاقاتها الدبلوماسية بالجمهورية العربية السورية. وعاد التوتر بين القاهرة وصنعاء والرياض بسبب أزمة اليمن. وبالنسبة إلى الخلاف بين المنظمة والأردن، فقد سوّي على الورق، ولم نستطع الوصول إلى مرحلة التنفيذ، و.. و.. إلخ».

واقترح د. عبد الرحمن البزاز رئيس الحكومة العراقية المبادرة لإقامة محكمة عدل عربية لتسوية جميع الخلاقات العربية ما دام ميثاق التضامن العربي غير نافذ، وما دامت الحكومات العربية لا تلتزم بنصوصه.

وقاطعت د. البزاز قائلاً: «سيادة رئيس الوفد العراقي يتكلم الآن كأستاذ حقوق في جامعة بغداد. إذا كان الأردن يخالف ميثاق التضامن العربي، فلا تنفع معه محكمة العدل العربية، ولا محكمة العدل الدولية».

وهنا تدخل الشيخ جابر الأحمد، وقد خشي أن ينفجر الموقف إلى ما هو أوخم،

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ١٠٥.

فدعا إلى التآخي والتفاهم، وإزالة الأسباب التي أدت إلى خرق الميثاق.

ولكن أحداً لم يجرؤ على بحث الأسباب، فقد كانت أزمة اليمن فاغرة فاهها كالضبع، يبتلع من يدنو، ولو من بعيد.

وتغلّب أسلوب الجامعة المعروف في التلفيق والتزويق والتنميق، فصدر القرار مؤكّداً دعم ميثاق التضامن العربي، والتقيّد به وتنفيذه نصاً وروحاً. وهذه ألفاظ تكرّرت على مدى عشرين عاماً منذُ أن أنشئت الجامعة العربية بميثاقها الشهير.

وانتقلنا من هذا القرار الهزيل إلى موضوع خطير أشغل الأمة العربية حيناً من الدهر، كما يقول خطباء المساجد، وهو موضوع العلاقات العربية ـ الألمانية. وانبرى رؤساء الوفود في الكلام الطويل العريض عن المساعي الدبلوماسية التي بذلتها حكوماتهم على غير طائل، وأن الأمر خطير يقتضي موقفاً حاسماً حازماً، وردّدوا جميعاً عبارة «موقفاً حاسماً حازماً». فهي الصيغة التي تعارفوا على إطلاقها في تصريحاتهم الصحافية. ولم أتكلم في الموضوع، فقد واكبته على مدى عشر سنوات في الجامعة العربية، ورأيت أن الخوض في هذا الأمر، على خطورته القصوى، هو مضيعة للوقت، ومهانة للعقل.

وكان الأمر كما توقعت، فقد صدر القرار بعد أن عرضت عدة صياغات، بأن «يستمرّ الأمين العام في متابعة الموضوع»، وسألت: «هل هذا قرار أو فرار؟»، وأنشد الرئيس السوداني، قائلاً: «وقال أصيحابي الفرار أم الردى».

فأكملت: «فقلت هما أمران أحلاهما مرّ»، وهو البيت الشهير لأبي فراس الحمداني.

وطلب إبراهيم ماخوس وزير الخارجية السورية الكلمة فقال: «الآن وقد صدر القرار، أحب أن أسأل: هل صحيح ما تردّده الصحافة الأجنبية من أن مفاوضات سرية تدور بين ألمانيا الغربية وبعض الدول العربية بشأن هذا الموضوع؟». وأخذ يقرأ من بين أوراقه: «نشرت جريدة **فرانكفورت زايتونغ** أن مفاوضات سرية جرت ببين ألمانيا الغربية والدول العربية لاستئناف العلاقات الدبلوماسية بينهما على أن تدفع ألمانيا الغربية ألفاً وثمانمائة مليون مارك مساعدات للدول العربية تنال منها الجمهورية العربية المتحدة ألف مليون مارك».

وقال رئيس الوفد المغربي: «إن هذا السؤال ليس موجهاً لنا، لأننا نحن لم نقطع علاقاتنا بألمانيا الغربية. وإذا كانت الدول العربية الأخرى عندها ما تقوله فلتتفضل».

وأقفل رئيس الجلسة الفريق حسن العمري رئيس الوفد اليمني المناقشة حول هذا الموضوع بلهجة عسكرية، وقال: «أريد أن أطمئن الأخ وزير الخارجية السورية،

باسم جميع الدول العربية: أن هذا الخبر مختلق من أساسه ولا داعي لإضاعة وقت المجلس في مثل هذه الأمور». وهكذا كان الرئيس اليمني «حكيماً»، وقديماً قال العرب: الحكمة يمانية.

ومن هذا الموضوع المرير انتقلنا إلى ما هو أدهى وأمر:

«تزويد الولايات المتحدة لإسرائيل بالسلاح». فلم يبق رئيس ولا وزير ولا سفير إلا وتكلم وأفحم، مع شرح مستفيض في خطورة الموضوع على قضيتنا المقدسة (قضية فلسطين)، ورحم الله فلسطين وشعب فلسطين.

وخضت مع الخائضين، ولكن من زاوية أخرى، وقلت: «إذا كان اجتماعنا سينتهي إلى قرار نعلنه في الصحف، فلن تبالي بنا الولايات المتحدة، وستمضي في تزويد إسرائيل بالسلاح والمال معاً. هذا موضوع خطير يتصل بسلامة الأمة العربية وأمنها. هذا السلاح الأمريكي سيضرب مدننا وقراناً. وليس أمامكم إلا أن تنفذوا المبدأ الذي اجتمعتم عليه، المرة بعد المرة، وهو أن تعاملوا أمريكا في ضوء موقفها من الأمة العربية».

وقفت عند هذه العبارة. وكان صمت مثل صمت أهل الكهف، ولكن الشرقاوي مندوب المغرب وجد مهرباً، فقال: «هذا موضوع خطير، يجب أن يبحث على أعلى مستوى. فليكن أمام القمة المقبلة في الجزائر».

وكان الهروب من هذا الموضوع الخطير بصيغة «رهيبة» أقرها المجلس تقول:

«ونظر المجلس ببالغ القلق والاهتمام موضوع تزويد الولايات المتحدة لإسرائيل بالسلاح. ويرى أن ذلك دعم للعدوان، وإجحاف صارخ بحقّ شعب فلسطين العربي في وطنه. ويؤكد رفضه القاطع لأي مبرر لتزويد إسرائيل بالسلاح. وينبه المجلس إلى خطورة الأمر الذي دفع بالسياسة الأمريكية إلى نتائج ضارة بالعلاقات العربية ـ الأمريكية».

وسألت: «ما معنى هذه «النتائج الضارة» وما مداها؟».

فقال زكرياً محيي الدين: «هل السؤال موجه اليّ أم إلى المجلس كُلّه؟».

قلت: «إنّه موجه إلى المجلس بأجمعه، الرئيس والأعضاء».

وتكلموا جميعاً فأطالوا. ولكن صفوة الحديث رست على أتعس عبارة في اللغة العربية. فقالوا «لكُلّ حادث حديث». وإذا كانت هذه هي عبارة البادية، فإن عهد الصواريخ يفرض أن يكون لنا كلام آخر:

«الحديث قبل الحادث».

ثُمّ أخذ عبد الخالق حسونة يتلو التقارير المقدمة من قبل القيادة العربية الموحدة وهيئة تحويل الروافد ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكلها تلحّ على مطالب عسكرية وفنية ومالية.

فتناول الكلام الوزير اللبناني جورج حكيم، وفي أسلوب أكاديمي كأنه يحاضر على طلابه في الجامعة الأميركية أعلن «أن أعمال المشروع العربي لتحويل مجرى نهر الأردن على الأراضي اللبنانية قد توقفت منذُ أن تعرضت إحدى الأقنية في سوريا لحادث تخريب من قبل القوات الإسرائيلية، وأنه متى استأنفت سوريا العمل على أراضيها، فإن لبنان مستعد أن يستأنف العمل على أراضيه، والأمر موقوف على تأمين الحماية العسكرية».

وعند «الحماية العسكرية» لزم الصمت جميع رؤساء الحكومات العربية، العسكريون منهم قبل السياسيين. وتفرس الفريق علي عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة، في وجوههم، وتشاغل بعضهم بالقراءة، وبعضهم بالكتابة وبعضهم بالرسم والتصوير على أوراقهم، كيفما اتفق.

وسألني الفريق عامر، ومقعدي إلى جوار مقعده دائماً: «ما العمل يا أخ أحمد؟».

قلت: «إقرأ سورة البقرة».

قال: «أقرأ سورة البقرة كلها؟».

قلت: «يكفي منها آية: ﴿**صُمٌّ بُكمٌّ عُمي فهم لا يعقِلون**﴾[٣] صدق الله العظيم.

وعاد المجلس إلى تلاوة التقارير التي أمامه، واستمع الرؤساء بعناية واهتمام، وراحوا يدوّنون في مفكراتهم، كأنهم يسمعون جديداً ولأول مرة. ولكن أحداً لم يبحث ولم يناقش. وصدرت ثلاثة قرارات: مهمة، ومهمة جداً!

«**أولاً** ـ المجلس يعرب عن أجزل الشكر للقائد العام وعظيم التقدير لجهوده وجهود أعضاء القيادة العامة، ويرجو لها أن تحقق جميع الأهداف القومية المنوطة بها.

ثانياً ـ يعرب المجلس عن التقدير للمنظمة ورئيسها على جهودهم المخلصة ويرجو لهم اطراد التوفيق في مهمتهم القومية.

ثالثاً ـ يعرب المجلس عن الشكر لهيئة استثمار مياه نهر الأردن وروافده على ما بذلته من جهود».

---

(٣) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٧١.

كان مجلس الرؤساء كريماً في الشكر، وفي الشكر فقط، لأن الحكومات العربية، ومن فوقها الملوك والرؤساء أبعد ما تكون عن الأداء والوفاء. مع أنهم ارتبطوا «بكلمة الشرف» حسبما جاء في بيانهم الختامي في مؤتمر الإسكندرية.. «وكلمة الشرف ليس تعبيري. إنه تعبير الملوك والرؤساء سجلوه بتواقيعهم»[٤].

وبدا واضحاً في ذلك الاجتماع، بعد مؤتمرات «القمة» الشامخة في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء أن القيادة العسكرية غير قادرة على تحريك القوات العسكرية، وأن هيئة تحويل الروافد لا تجد حماية عسكرية، وأن منظمة التحرير في حاجة إلى تحرير قبل أن تدخل معركة التحرير.

وبدا مفضوحاً كذلك أن ست جمهوريات ومملكة واحدة متخلفة عن التزاماتها المالية لثلاث سنوات: وهي تونس، والجزائر، والسودان، والعراق، واليمن، ولبنان، والمغرب.. وأن مملكتين، وهما الأردن وليبيا، متخلفتان عن أداء التزاماتهما لسنتين.

ومن أجل هذا تستطيع الأمة العربية أن تفهم معي لماذا كان مجلس الرؤساء كريماً في المديح، وسخياً في الثناء، للقيادة الموحدة، وهيئة الروافد، ومنظمة التحرير.

كان كريماً في الثناء، لأن تقرير الإدارة المالية قد أعلن بالرقم الذي لا يجامل ولا يماري بأن الحكومات العربية مدينة بمبلغ يزيد على ثلاثين مليون جنيه إسترليني، طبقاً لقرارات مؤتمرات القمة الثلاثة، أي نعم بكل بساطة ثلاثين مليون جنيه استرليني. فكيف تستطيع الأجهزة الثلاثة المنبثقة عن مؤتمرات القمة أن تنفّذ قرارات الملوك والرؤساء؟

وكان على الرؤساء العرب بديلاً من تمنيات «التوفيق» أن يدفعوا التزاماتهم المالية، فالتوفيق «شيكات» لا تمنيات.

ولكن هذا الموضوع «المالي التعيس» قد انتهى بقرار أتعس. فقد قرر الرؤساء بأن «يوصي المجلس سداد الالتزامات المطلوبة». وهكذا أصدرت الحكومات العربية توصياتها إلى الحكومات العربية. وانتهى الاجتماع، والرؤساء الكرام يوصي بعضهم بعضاً.

---

(٤) أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وقال لي الرئيس السوداني ونحن خارجين من القاعة: قال الشاعر:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

واستدركت: بل قال الشاعر:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعف النطق إن لم يسعف الحال

وسمعني الصحافيون وقالوا: «أهذا تصريح صحافي؟».

قلت: «نعم».

قالوا: «إشرحه لنا».

قلت: «اطلبوا من رؤساء الوفود أن يشرحوه لكم. اذهبوا إليهم وافرنقعوا عني».

فذهبوا إلى رؤساء الوفود، وكانت الصحف في صباح اليوم التالي طافحة بالعناوين المزخرفة والعبارات المزركشة، وتحتها صور الرؤساء يرغون ويزبدون، يرغون على أمريكا، ويزبدون على ألمانيا!

وحين كنت أقلب الجداول المالية بين أوراقي، وأنا أراجع مذكراتي بعد الهزيمة، تجلت أمامي أرقام تصرخ بالويل والثبور على جباه الملوك ورؤوس الرؤساء. لقد تجلى لي أن الملوك والرؤساء بلا استثناء قد أصبحوا مدينين لمؤتمرات القمة، في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، بمبلغ سبعين مليون جنيه استرليني.

وبعبارة مفجعة، فإن الدول العربية قد اقتحمت، أو أقحمت حرب الأيام الستة، وهي مدينة بهذه الملايين من الجنيهات، ونتساءل: بعد ذلك لماذا انكسرت الأمة العربية؟

وأحسب أن الرؤساء سيقرأون هذه المذكرات، وهم يعجبون ويضحكون ﴿**أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون**﴾[٥] صدق الله العظيم.

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة النجم،» الآيتان ٥٩ ـ ٦٠.

أي جلالــة وفخامــة؟ وأي سمــو وسيــادة؟

شهر أيار/ مايو من كُلّ عام هو شهر الشعب الفلسطيني، شهد نكبته الكبرى، ومأساته العظمى في قيام إسرائيل على وطنه، وتشرّده في الآفاق، فوق كُلّ أرض وتحت كُلّ سماء.

ومنذُ عام ١٩٤٨، وإلى أن تزول إسرائيل، يتنادى الشعب الفلسطيني في مهاجره إلى اجتماعات كبرى يجدّد العهد ويؤكد العزم على النضال من أجل تحرير الوطن السليب، مهما طال الزمان ومهما تعاظمت التضحيات.

وفي شهر أيار/ مايو من هذا العام (١٩٦٦) كان الشعب الفلسطيني يجتمع على هذه الذكرى المشؤومة، وهو أكثر عزماً ومضاء. ففي السنين الخوالي كان يعلن عن آماله الوطنية بالكلمة الواعية، ولكنه في هذا العام قد حشد القوة إلى جانب الكلمة.

ولقد اخترت لفظة «الحشد»، لأن الشعب قد بدأ في هذا العام يستشعر ذاته ويحس قوته. وتجلى ذلك أكثر ما تجلى لمناسبة انعقاد المجلس الوطني في دورته الثالثة في غزة.

كان ذلك في العشرين من شهر أيار/ مايو، وقد آثرت أن أذكر هذا التاريخ بالحروف لا بالأرقام حتّى لا تطمسه الأيام إذا طمسه النسيان.

منذُ مطلع الشهر والاستعدادات قائمة على قدم وساق لعقد المجلس الوطني في غزة. كانت الطائرات العربية من كُلّ العواصم العربية تنقل أعضاء المجلس الوطني إلى القاهرة، وبالتأكيد من المحيط إلى الخليج، فإن الشعب الفلسطيني وممثليه يقيمون في الوطن العربي الكبير، ينتظرون يوم العودة إلى الوطن الصغير.

ومن القاهرة أعددنا قطاراً خاصاً ينقل الوفود الفلسطينية إلى قطاع غزة. وكان ميسوراً أن ننقلهم بالطائرات، ولكننا أردناها عن قصد، أردنا أن يسير القطار وئيداً بالوفود الفلسطينية وهي ترى قطاع غزة من جنوبه إلى شماله: مدينة مدينة، قرية

قرية، مخيماً مخيماً، بيارة بيارة، فإن اجتلاء طلعة الوطن مصدر الوحي والإلهام. وغصت الفنادق بهؤلاء الفلسطينيين الوافدين على قطاع غزة، العدو أمامه، والبحر وراءه، ولا نصر له إلا بالقتال.

وكذلك غصّت كثير من البيوت، فما زال الناس على تقاليدهم يأبون أن يتركوا أصدقاءهم في الفنادق. هذا عيب، وعيب كبير.

وكان الوافدون فريقين: **الأول** جيل الرجال والكهول، وهؤلاء عرفوا قطاع غزة في الماضي، وجاؤوا اليوم بعد السنين ليروا هذه الرقعة الغالية من وطنهم، ما آل إليه حالها وحال شعبها المقيم منهم واللاجئ. والفريق **الثاني**، الجيل الصاعد، يدخل وطنه الذي لا يعرفه ولا يعرف شعبه، يعرفهما بما قرأ وسمع. ولم يكونوا يقدّرون أن ما هو آت سيكون أشدّ ويلاً وهولاً مما فات، وأعني أيام حزيران/ يونيو المشؤومات!

وكان أهل القطاع في مثل هذه الحالات الوجدانية فريقين: **الأول** جيل الرجال والكهول يلتقون مع لداتهم لأول مرة بعد أعوام. و**الثاني** جيل الشباب يتعرفون على من لا يعرفون من أبناء وطنهم.

وكانت أياماً هبّت فيها رياح الوجد، فاحتفى هؤلاء بأولئك. وسعد أؤلئك بهؤلاء. وما هؤلاء وأؤلئك الا أبناء الوطن الواحد والشعب الواحد، تمزقوا، تفرقوا أيدي فلسطين، بدلاً من القول الشهير: تفرقوا أيدي سبأ.

وصلت إلى قطاع غزة تغمرني هذه الخواطر والأحاسيس، وأنا أرى الشعب في الشوارع والميادين، زرافات ووحدانا، يتعانقون، يتباسطون، يتناجون، ويتشاكون.. ويتعارف بعضهم على بعض. وكان أول لقائي مع الوفود في حفل غداء أقامته بلدية غزة في مطعم على الشاطئ. وأكلنا جميعاً أسماك بحرنا، وطيور برنا. كانت أيدينا في أطباق الطعام، ولكن أبصارنا كانت مشدودة إلى البحر، بحرنا، نحن الشعب الفلسطيني.

وبدأ جيل الرجال والكهول من أبناء يافا، يستذكر ويتكلم ويتساءل: «ألسنا في قهوة أبو شاكوش على شاطئ يافا، أيام كنا نأكل الحمص والكباب؟». وتساءل أبناء حيفاً: «ألسنا في الكازينو في حيفاً، أيام كنا نأكل السمك يأتينا من البحر وهو «يلعبط»؟»، وتساءل أبناء عكا: «ألسنا في قهوة أبو محمّد أمام السور، أيام كنا نسبح في البحر ولا نشبع»؟

وكان جيل الشباب من الوافدين يستمعون إلى هذه الحكايات والتشبيهات، وهم في حيرة مما يسمعون. إنهم لا يعرفون مرابع الوطن السليب الحبيب... كانت

الوليمة في غزة. ولكن جيل الرجال والكهول كانت الوليمة في خيالهم، في فلسطين بأسرها، في مرابعها ومغانيها.

ونهضنا بعد الفراغ من الطعام، وكادت أن تقعد بنا الذكريات، وانصرفنا إلى ساعة من الراحة، استعداداً لشهود الجلسة الافتتاحية الأولى للمجلس الوطني.

وفي الموعد المحدّد كان المجلس الوطني الفلسطيني متكاملاً في سينما النصر. وبدأ الاجتماع بآي من القرآن الكريم، وبكلمة ترحيب من محمود نجم رئيس المجلس التشريعي في غزة، وبخطاب من اللواء عبد المنعم حسني حاكم القطاع نيابة عن الرئيس عبد الناصر.

ووقفت على المنصة، والحشود محتشدة من الداخل ومن الخارج: في الداخل من الأرض حتّى السقف عند الشرفات، وفي الخارج حشود مقرفصة في الشوارع والساحات والميادين، وقد صعدوا برؤوسهم وعيونهم وآذانهم فوق مكبرات الصوت المنصوبة فوق الجدران والعمدان والأشجار.

ولم يكن من السهل أن أخاطب الشعب الفلسطيني ومن ورائه الأمة العربية، ففي تلك الظروف التي يجتازها الوطن العربي كانت مؤتمرات القمة الثلاثة تترنح في الهواء، وكان الوطن العربي يعرف كُلّ شيء، ولا يغيب عنه شيء. كانت أمام القيادة العربية الموحدة مصاعب، وأمام هيئة تحويل الروافد متاعب، وأمام منظمة التحرير نوائب.

وقد زاد من صعوبتي أن الشرفات كانت مملوءة بالشباب والطلاب، وهم يهتفون من حين إلى حين: «بدنا نحكي على المكشوف»، وهي العبارة التي صاغتها الجماهير في القاهرة في لقاءاتها مع الرئيس عبد الناصر.

وبدأت أتحدث في ما أعددت نفسي له. ولكني وجدتني امام حالة فريدة لم أواجهها في «حياتي» الخطابية كُلّ عُمري، ذلك أن الشباب والطلاب قد وقفوا في الشرفات يصيحون بصوت واحد، وهم يلحّون أن أتكلم في هذا الموضوع أو ذاك.. والجمهور يهتف من ورائهم وأمامهم مؤيداً صيحاتهم. وكان الحماس بالغاً أشده بحيث لم يعد أمامي إلا أن أسلم إليهم لساني، ليتحرك في ما يريدون.

صاحوا أولاً: «حدثنا عن إنجازات المنظمة. نريد أن نسمع عن الإنجازات قبل كُلّ شيء».

قلت: «إن إنجازات المنظمة تتحدث عن ذاتها. وإنها مصادفة كريمة أن ينعقد المجلس الوطني في غزة حتّى يرى الإنجازات على الطبيعة. إن جيش التحرير الفلسطيني قائم في قطاع غزة، ولم يمض على إنشائه إلا عام وبعض العام. ولقد كنت

في الأسبوع الماضي مع الفريق فوزي (وزير الحربية في ما بعد) نتفقد وحدات جيشنا، فأعجب بالتدريب والكفاءة. وقبل شهر كنت مع الفريق عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة، وشهدنا معاً مناورة لوحدات جيش التحرير في سوريا، فكان مأخوذاً بالمستوى الرفيع الذي بلغه جيش التحرير، وقد عجب كيف استطاع في مثل هذا الوقت القصير أن يحقق هذا التقدم الباهر. فقلت له يومئذ: لا تعجب، فهذا هو شعب فلسطين».

وما إن قاربت على نهاية الكلام عن جيش التحرير، حتّى صاح الشباب من الشرفة: «وماذا عن زيارتك لبكين؟ نحن لم نسمع إلا القليل».

قلت: «نعم، أنتم لم تسمعوا إلا القليل، لأننا آثرنا الصمت لظروف وأسباب. ولكني أجد نفسي قادراً الآن على مسمع من المجلس الوطني، ومسمع من الشعب في غزة، بل العالم أجمع أيضاً، على أن أكشف الستار عن بعض الأسرار. ولقد وافقت جمهورية الصين الشعبية على أن تزوّدنا بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة. ولقد وصلت شحنات الأسلحة إلى ميناء عربي. وليس هذا فحسب، فإنه منذُ بضعة أيام وصل أول فوج من ضباطنا إلى بكين ليدخلوا أحد المعاهد الحربية للتدريب على فنون حرب التحرير»[1].

وتعالت الهتافات من الشرفات، والجموع تصفق لماو تسي تونغ، وشو آن لأي، وأخذ أعضاء المجلس الوطني بزمام المبادرة هذه المرة بدلاً من الطلاب والشباب، وصاحوا: «نريد أن تحدثنا عن موقف الاتحاد السوفياتي. نريد أن نعرف الحقيقة وبصراحة».

كان هذا السؤال رهيباً ومحرجاً، فالاتحاد السوفياتي لم يكن موقفه من المنظمة إيجابياً طوال العامين الماضيين. قلت، وأنا أحاول أن أصرف الجماهير عن هذا الموضوع: «سنخصص جلسة مقفلة لبحث هذا الموضوع مع مواضيع أخرى تتطلب السرية». فوقف أعضاء المجلس وهم يصيحون بأعلى أصواتهم: «نحن المجلس الوطني، لا نريد جلسة مقفلة. يجب أن يكون كُلّ شيء مكشوفاً. لقد اجتمعت بكوسيغن في القاهرة. نريد أن نعرف ماذا جرى؟ وكما تحدثت عن الصين نريد منك أن تتحدث عن موسكو».

ولم أجد مفراً من أن أتحدث عن الاتحاد السوفياتي، فخضت في حديث طويل

---

(١) أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

عن الماضي لأهرب من الحاضر، وأسهبت في الكلام عن تأييد الاتحاد السوفياتي لنا في الأمم المتحدة، وبخاصة في مجلس الأمن، وكيف أن الفيتو الروسي قد أنقذنا في مجلس الأمن من حبائل الولايات المتحدة، ومحاولاتها المتعددة لاستصدار قرارات من المنظمة الدولية بدعوة الدول العربية إلى المفاوضات المباشرة وعقد الصلح مع إسرائيل، ثُمّ عرجت على المعاونات العسكرية التي يقدمها الاتحاد السوفياتي إلى الجمهوريات العربية في القاهرة ودمشق وبغداد والجزائر. وبعد أن «أغرقت» المجلس الوطني في هذا الحديث الطويل عن الاتحاد السوفياتي، تعرضت بصورة موجزة إلى لقائي مع اليكسي كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي، وأنني قدمت إليه خمسة مطالب باسم منظمة التحرير الفلسطيني، وأنه وعدني بعرضها على المجلس الأعلى للاتحاد السوفياتي لدرسها واتخاذ الموقف اللازم بشأنها. فهدأ روع المجلس الوطني لهذا الإيجاز، وسكنت ثائرة الشباب والطلاب لهذا الحديث، وقد كنت فيه نصف كاذب، ونصف صادق، ذلك أني لم أذكر لهم وقوفي على أبواب السفارات السوفياتية في العواصم العربية طيلة عامين طويلين، ألتمس العون من الاتحاد السوفياتي كائناً ما كان، ولكن على غير جدوى.

وسأل الشباب: «وما هي المطالب الخمسة التي قدمتها إلى كوسيغن؟».

قلت: «سأذكرها لكم حينما يصل جواب موسكو. وسأذكر لكم ما قُبل منها وما رفض. وأرجو ألا يرفض شيء، وأن تقبل برمتها. وعلى كُلّ حال، فلا حاجة بي إلى أن أذكر لكم تلك المطالب لأنكم تعرفونها. ولو سألتم ضمائركم وعقولكم لوجدتم الجواب. إن المطالب الخمسة التي قدمتها هي ما تفكّرون فيه وما تضمرون، هي ما تحتاج إليه المنظمة في هذه المرحلة من نضالكم، والإشارة تغني عن العبارة، والتلميح يغني عن التصريح. فاسكتوا واصبروا.. وانتظروا.. إني معكم من المنتظرين».

فسكت الشباب عن هذا الموضوع. وأفلتّ من أزمة موسكو، لأسمع الشباب والطلاب يفتحون موضوعاً شائكاً انقسمت حوله الدول العربية إلى معسكرين. ذلك هو موضوع الحلف الإسلامي، والأحلاف بصورة عامة. وكنت إلى ذلك العهد أتجنب الخوض في هذا الموضوع، خوفاً من التهمة نفسها: الشقيري عميل عبد الناصر، وهي التهمة التي ألصقتها بي دمشق والرياض معاً، رغماً عن اختلافهما في أي شيء، وعلى كُلّ شيء، فقد اتفقتا على أني عميل عبد الناصر، وكم أعلنت أني مع عبد الناصر زميل لا عميل، زميل نضال وكفاح... ولكن أنّى للفجّار أن يؤمنوا!

وشرحت الجانب الإسلامي في قضية فلسطين منذُ الإسراء والمعراج إلى الفتح العربي، إلى حروب صلاح الدين، مؤكّداً أن فلسطين وطن الإسلام بعد الديار

الحجازية، وأن الجهاد في تحريرها هو فريضة على كُلّ مسلم، وأنه إذا كان انعقاد المؤتمر الإسلامي وقيام الحلف الإسلامي هو لإعلان الجهاد، والزحف المقدس، فنحن مع الحلف الإسلامي، ولكن.. ولكن إذا كان الحلف الإسلامي سيكون اجتماعاً يضم الحكومات التي اعترفت بقيام إسرائيل، وتتعاون مع إسرائيل، مثل تركيا وإيران، فنحن لسنا مع الحلف الإسلامي. وذلك بطبيعة الحال، ما هو حلف ولا هو إسلامي، لأن الإسلام دين الجهاد، وليس مسلماً من يوالي إسرائيل، سواء كان ملكاً أو مملوكاً، أميراً أو مأموراً، وتلوت الآيات القرآنية في هذا الصدد، وما أكثرها.

وهكذا مضيت أخطب قريباً من ساعتين، أنتقل من موضوع إلى موضوع في ما يريده المجلس الوطني مرة، وما يريده الشباب والطلاب مرات. وكنت كمن ينهض من حفرة ليقع في حفرة أخرى. وحمدت الله أني خرجت من هذه الحفائر سليماً معافى، والغبطة تملأ فؤادي أني خطبت لا بما أريد، ولكن بما أرادوا. وفي النهاية نجوت.

وأعلنت في ختام الاجتماع أننا سنعقد جلسة فريدة، ليس لها مثيل ولا سابقة، «سنعقد جلستنا المقبلة في الهواء الطلق، في صحراء من الصحراء. جلستنا ستكون صباح الغد، مع جيش التحرير في مناورة بالذخيرة الحية».

ووقف المجلس الوطني، يتفجر حماسة، ويصفق بيده وعلى الكراسي والمناضد، حتّى العلماء والشيوخ خرجوا عن وقارهم وهيبتهم، فلوّحوا بعمائمهم، وبدت نواصيهم على حقيقتها، الأصلع أصلع، والأشيب أشيب، والصابغ مفضوح!

وخرجت من القاعة لأجد الجماهير وقد افترشوا الساحات والميادين والشوارع والأسطحة والشرفات. ولولا سيارات الشرطة التي شقت لنا الطريق، لقضينا ليلتنا في دار السينما نشاهد فيلماً حياً عن الشعب، وهو في ذروة حماسته.

وأقلتنا السيارات في صبيحة اليوم التالي إلى صحراء في الصحراء لنعقد المجلس الوطني تحت الخيام. وكانت كتائب جيش التحرير على أتم الاستعداد. وبدأت المناورات بالذخيرة الحية. وبدأت كتيبة المدفعية تضرب الأهداف واحداً بعد واحد، فتصيبها كلها إصابات مباشرة، وينتصب أعضاء المجلس الوطني ليروا هذا المشهد الرائع، والدموع تتساقط من عيونهم فرحاً وابتهاجاً.

وسمعت واحداً خلفي يسأل: «أهؤلاء مصريون؟»، فسكت، وعزمت على أن يجيب جنودنا عن هذا السؤال بأنفسهم، بألسنتهم.

وتقدم إلينا الجنود بالتحية، بعد انتهاء المناورة، وكنت أدعوهم واحداً، واحداً، وأنا أسألهم بصوت عال:

«اسمك؟».

قال: «محمّد بن علي القاسم».

قلت: «جنسيتك؟».

قال: «فلسطيني».

قلت: «بلدك؟».

قال: «من سكنة أبو كبير، يافا».

وهكذا كنت أسألهم. وهكذا كانوا يجيبون. وشهدت السماء والصحراء أن جيشنا من أبناء فلسطين، من مدنها وقراها، لا شكّ في ذلك ولا ريب. ولقد أطلت في السؤال على هذا المنوال لسببين مختلفين: **الأول** أن الإذاعة السورية كانت تهاجم المجلس الوطني صباح ذلك اليوم، وتقول عن الاجتماع إنّه واحد من «مسرحيات الشقيري». والسبب **الثاني** أن عدداً من أعضاء المجلس الوطني الوافدين من الأردن، كانوا يظنون، كما أوحت إليهم الأجهزة الأردنية الرسمية، أن جيش التحرير الفلسطيني جلّه من المصريين، ضباطاً وجنوداً، وأن هذه المناورة، بالتالي، هي مناورة مصرية، وأن دور الفلسطينيين فيها هو حفر الخنادق ونصب الأهداف. . ودور المصريين إطلاق النار.

ووقفت بعد انتهاء المناورة، وأعلنت: «لقد انتهت الآن جلستنا المكشوفة في الهواء الطلق. وغداً وبعد غد تكون جلسات اللجان الفرعية لتدرس شؤون المنظمة من مختلف جوانبها».

وعدنا في ذلك اليوم الأغر إلى غزة، وأعضاء المجلس الوطني يقولون: «ما لنا حاجة باجتماعات اللجان. لقد رأينا جيشنا في الميدان، ومن يَمُتْ منا بعد اليوم، سيكون مطمئناً في قبره أننا على طريق التحرير، ومهما طال الزمان».

وقضينا يومين، والبارعون في صناعة القلم واللسان يكتبون ويصوغون، ويتحاورون ويتجادلون. وأخيراً اتفقوا على التوصيات اللازمة، ودعي المجلس الوطني إلى الجلسة الختامية، فناقش تقارير اللجان الفرعية، في جو كامل من التقاليد البرلمانية، ونحن لا أرض ولا دولة. وأصدر المجلس قراراته، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ويحدد فيها موقفاً. كما يلي:

«المبادرة إلى إجراء انتخابات حرة للمجلس الوطني المقبل.

أول واجبات العمل الفلسطيني أن تستكمل العدة للاشتباك المسلح مع إسرائيل.

المطالب التي تقدم بها رئيس المنظمة إلى الحكومة الأردنية هي الحدّ الأدنى.

مطالبة الدول العربية بأن تلتزم بتنفيذ قرارات مؤتمرات القمة.

قضية فلسطين ليست قضية الشعب العربي الفلسطيني وحده، وأن مستقبلها مرتبط بمستقبل الثورة العربية.

إن الوقت قد حان للانتقال من مرحلة الاستعداد إلى مرحلة التهيئة الفعلية النهائية، وإن واجب إشعال المعركة يقع على قوى الثورية العربية.

إن القبول بالتجزئة بديلاً من الوحدة يعتبر تخلياً عن الأهداف الثورية العربية.

ضرورة استخدام البترول العربي سلاحاً أساسياً لاسترداد الوطن السليب.

شجب الأحلاف مهما كان شكلها أو تسميتها.

كانت هذه زبدة القرارات التي أصدرها المجلس الوطني، من غير ديباجتها وأسبابها الموجبة، ثُمّ جاءت بعدها قرارات بتأييد الثورة اليمنية، والجنوب المحتل، واستنكار مواقف أمريكا والإمبريالية العالمية في تأييد إسرائيل.

ولكنها كانت «توصية» استغرقت قرابة نهار بكامله، دار حولها الحوار طويلاً، واشترك فيها معظم أعضاء المجلس الوطني، وهي أن «تظل القضية الفلسطينية في منأى عن الخلافات العربية». وقد تركت المجلس يناقش هذا الموضوع طويلاً، فقد كان الشعب الفلسطيني مشغولاً فيه منذُ أن قامت منظمة التحرير الفلسطينية، من دون أن يصل إلى رأي حاسم.

كان هذا النقاش الطويل يدور، وأنا ساكت أدير الجلسة، أعطي الكلمة لمن يطلبها من الأعضاء. وقال الأعضاء: نريد أن نعرف رأي رئيس المنظمة.

قلت: «ليس عندي رأي بصيغة «نعم» أو «لا». الأمر يحتاج إلى إيضاح». وضحك الجميع وأنا أقول لهم: «أنا موافق على رأي الفريقين منكم. المنظمة فوق الخلافات العربية ويجب أن تكون. وكذلك، فإن المنظمة في صميم الخلافات العربية ويجب أن تكون. حين تكون الخلافات لا تتصل بالقضية الفلسطينية فنحن فوق الخلافات، ومثال ذلك خلافات الحدود بين الجزائر والمغرب. نحن فوق هذا النوع من الخلافات بقطع النظر عمن يكون على حقّ، ومن يكون على باطل. أما حينما يكون الخلاف متصلاً بالقضية الفلسطينية، فنحن في صميم الخلافات، ومثال ذلك الخلاف بين الدول العربية بشأن موقف بورقيبة. ونحن لا يمكن أن نكون في معزل عن قضيتنا، أو في حالة حياد مع قضيتنا حين يكون الخلاف العربي على قضيتنا، و. . و. .».

ومضيت على هذا النحو أجمع آراء الفريقين المتناحرين، وطرح كُلّ منهما صيغة

قرار. ولكن المجلس رفض الصيغتين، ووافق في النهاية على أن «يثبت الإيضاح الذي قدمه رئيس المنظمة في مضابط الجلسة تعبيراً عن رأي المجلس الوطني»، وبهذا انتهينا من معركة فكرية ثورية كادت تعصف بالمؤتمر.

وانتهى المؤتمر إلى إجماع كامل في جميع قراراته، فكان مدعاة لاعتزاز الشعب الفلسطيني بمنظمته، وكنت أسعد من المنظمة ومن الشعب على السواء، ذلك أن المجلس الوطني قد أسبغ عليّ قلادة لا تزال مستقرة في فؤادي، ولن ينتزعها إلا غاسل القدر وحافر القبر. تلك التوصية الكريمة التي صدرت بإجماع المجلس، يقرر فيها «اعتبار فلسطين المحتلة دائرة انتخابية واحدة، لها مقعد واحد، وانتخاب الأستاذ أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية نائباً عن هذه الدائرة، واعتباره عضواً طبيعياً في المجلس الوطني الذي سيجري انتخابه في العام المقبل».

ولم أستطع أن أحبس هذه الغبطة من أن تنساب إلى مذكراتي.

ومن قاعة سينما النصر انتقلنا إلى معسكر كتيبة غزة، وهو على قيد خطوات. فذهبنا إليها مشياً. وهناك كان اللقاء بين الشعب وجيشه. قامت الكتيبة بتمارين رياضية بارعة. وقامت فرقة الصاعقة بالهرولة الشجاعة، وهم يصيحون: عودة. . . عودة. . . وهبّت نسائم الجنوب كأنها تسوقنا شمالاً. . شمالاً. . إلى فلسطين، ونحن على مقربة منها، بل أقرب من حبل الوريد.

وقفنا امام هذه المشاهد.، وبكينا جميعاً، الرجال قبل النساء، والكهول قبل الفتيان، وتملكت قلوبنا نفحات روحانية نورانية، كأننا اجتمعنا عند سدرة المنتهى، غير بعيد عن الحضرة الإلهية.

وهذه المرة، وقفت أخطب كما أريد، لا كما يريدون، وقفت أخطب، والوجدان من غير بدن، والضمير من غير سكن، وقد بدأت سائلاً ومجيباً:

«لقد بكينا جميعاً، ولكن لِمَ البكاء؟ وفيمَ هذه الدموع؟ لقد مضت علينا السنون السالفات ونحن نبكي. بكينا بدَموع حزينة، بدموع منكسرة، حنيناً إلى الديار، حنيناً إلى مدننا الجميلة وإلى قرانا الوادعة، وإلى مضاجع الأحبة من الآباء والأجداد الذين ضمهم الثرى. أما دموع اليوم، فليست حزينة ولا ذليلة. ولكنها مملوءة بالإباء والكبرياء. إنها دموع فرحانة جذلانة، لأنها دموع تتطلع إلى النصر والتحرير. ومن حقنا أن نفرح ونحن في هذه الأمسية مع جنودنا وضباطنا، كتيبة الصاعقة، وكُلّ واحد منهم في هرولته، في صيحته وخطوته، كتيبة صاعقة بنفسه. نحن الآن مع شعبنا وعلى أرضنا. شعبنا صنع البسالات والبطولات على مرّ الأجيال. وأرضنا أرض معطاء. وفي زماننا هذا نبتت على أرضنا هذه ثورة ٢٣ يوليو أعظم ثورة عربية شهدها

تاريخنا الحديث. نحن نناشد كُلّ ملك وكُلّ رئيس أن يكون مع شعب فلسطين. مع الكفاح لتحرير فلسطين، ومن كان معنا فنحن معه، ومن لم يكن معنا فلسنا معه، وليست الأمة العربية معه. نحن لا نريد أن نكون على خلاف مع أي ملك أو رئيس، ولكن يجب على كُلّ ملك أو رئيس ألا يكون على خلاف معنا. وكُلّ ملك أو رئيس يختلف معنا فإنه على باطل، لأن شعب فلسطين على حقّ. لقد مرت السنون بعد النكبة وعلى ألسنتنا تجري ألقاب رفيعة: صاحب الجلالة، صاحب الفخامة، صاحب السمو، صاحب السيادة. ولكن أي جلالة وفخامة وفلسطين سليبة، وأي سمو وسيادة وشعب فلسطين شريد؟ إن هذه الألقاب الرفيعة جديرة بأصحابها حين يتم تحرير فلسطين، حين يعود شعبها كريماً إلى وطنه، حين يغسل هذا العار الذي لم تشهد الأمة العربية مثيلاً له في تاريخها الطويل. ولقد سئم شعبنا أن يقوم الحوار بيننا وبين هذه الحكومة أو تلك حول ما يكون وما لا يكون. نحن لا نضمر شراً لأحد، ولا نحمل حقداً على أحد. ولا نريد أن نفتح الحساب القديم وكيف وقعت النكبة. نحن نريد أن نعيش حاضرنا لمستقبلنا، و.. و..».

ومضيت في هذا الحديث لا أعرف كيف بدأت، ولا أعرف كيف انتهيت. وما إن عدت إلى مكاني، حتّى انبرى سيف الدين الكيلاني، أحد أعضاء المجلس الوطني، ووقف بقامته الفارعة يلقي قصيدة عصماء أشاد فيها بمنظمة التحرير وجيش التحرير، وبكى واستبكى وتجاوب معه الرجال بالتهليل والتكبير، وتصايحت معه النساء بالزغاريد.

كان الكيلاني سفيراً للملك حسين عند الملك الحسن في المغرب، وجاء خصيصاً ليحضر اجتماعات المجلس. ولقد خشيت عليه وأنا أستمع إلى قصيدته الرائعة، خشيت عليه من غضب الملك حسين.

وجاءت خشيتي في محلها. فما إن عاد الكيلاني إلى مقر عمله في المغرب، حتّى صدرت الإرادة الملكية من عمّان بإنهاء عمله. وبقي الكيلاني في المغرب أستاذاً في جامعتها، وتوفاه الله بعد ذلك ببرهة وجيزة.

وكان حقاً عليّ وأنا أكتب مذكراتي هذه أن أترحم على الكيلاني، واحداً من شهداء الشعب، الشهداء الذين يسقطون في حلبة الصراع القائم الدائم بين الملوك والشعوب. ﴿**إنَّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها**﴾[٢] صدق الله العظيم.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة النمل،» الآية ٣٤.

من الحسين الكبير.. إلى الحسين الصغير

انتهى المجلس الوطني من دورته الثالثة التي عقدها في غزة في شهر أيار/ مايو من عام ١٩٦٦، وعاد الأعضاء إلى مهاجرهم في الوطن العربي، وهم يتحدثون عن جيش التحرير في معسكراته وفي مناوراته، ويخصون بالذكر كتائب الصاعقة، وكيف كانت تهز الأرض تحت هرولتهم الضاربة، وتهتز الأجواء على رجع نبراتهم: «عودة، عودة، عودة»، وهي صيحتهم المحببة.

وعاد في من عاد أعضاء المجلس الوطني الفلسطينيون الأردنيون. وكانت عودتهم إلى الأردن أشبه بطوفان اجتاح المدن والقرى، وحمل في تياره الدافق الأخبار والأخبار عن منظمة التحرير وإنجازاتها، وكتائب جيش التحرير وبسالاته. وبدأ الأعضاء يتحدثون في المضافات والدواوين والمقاهي والبيوت عن المجلس الوطني في غزة، ولقاء الشعب في غزة، ومنجزاتنا في غزة. فكان سمر الناس حين يمسون وحين يصبحون، وكأنما عادت البلاد سيرتها الأولى قبل قرون، في أيام السمر والسمار، والقصص والقصاصين.

واشتعلت خواطر الأهلين بالحماسة في القرى الأمامية ابتداء من قلقيلية، إلى القرى الخلفية انتهاء بأريحا، وبالمدن الكبرى والصغرى من الخليل جنوباً حتّى جنين شمالاً، وكانت مخيمات اللاجئين على امتدادها في الضفة الغربية أكثر ولعاً وكلفاً بالحديث عن المجلس الوطني في غزة. فقد عاد إليها ممثلوهم في المجلس الوطني، وهم يحدثونهم كيف تحولت مخيمات اللاجئين في غزة إلى معسكرات يتدرب فيها على السلاح، كُلّ قادر على حمل السلاح.

وفي أعقاب هذه الأحاديث، وقد أضفى عليها الحب غلالة من الزيادات والمبالغات، قفزت الأسئلة الحائرة، وما كان أكثرها:

لماذا كانت تكذب علينا الحكومة الأردنية وتقول: لا يوجد جيش فلسطيني، هذا جيش مصري؟

لماذا يعارض الملك حسين في إنشاء جيش تحرير فلسطيني في الضفة الغربية؟

لماذا لا يسمح الملك بدخول جيش التحرير الفلسطيني إلى الأردن؟

لماذا يعارض الملك في إنشاء معسكرات للتدريب في مخيمات اللاجئين؟

ولماذا يترك الملك حسين القوى الأمامية مكشوفة عزلاء؟

ولماذا. . ولماذا؟ وعشرات من هذه الأسئلة أصبح يتداولها الأهلون في الضفة الغربية كلما تبادلوا التحيّة والسلام.

وتضايق الملك حسين من هذه الموجات الروحية التي وفدت على الأردن من غزة، كالحمى الوافدة وأشد أثراً وخطراً. وازداد ضيقاً حين تحولت التساؤلات إلى نشاطات، نشاطات قام بها الطلاب والشباب، وكُلّ فئات الشعب.

وحتى قبل انعقاد المجلس الوطني كانت قد بدأت الندوات والاجتماعات تطالب بتنفيذ الاتفاق الذي عقد بين المنظمة والحكومة الأردنية (آذار/ مارس ١٩٦٦) بشأن التجنيد والتدريب والتسليح والتنظيم. وقد مضت أشهر من غير إنجاز ولا تنفيذ. وبدأت العرائض تصل إلى الملك حسين مطالبة بهذه المطالب، ومع العرائض جاءت تقارير الأجهزة السرية لتقول إن هناك حركة عدائية ضدّ النظام، ضدّ سيدنا «وارث الثورة العربية الكبرى»!

وصدرت الأوامر من «سيدنا» بالقبض على «المخربين» حيثما وجدوا في البلاد ومحاصرة مقر منظمة التحرير الفلسطينية في القدس. وانطلقت قوى الأمن تداهم البيوت وتعتقل الشباب والطلاب تحت تهم شتى: شيوعيون، حزبيون، مخربون، عقائديون، تحرريون، بعثيون، قوميون عرب، إلى آخر جمع المذكر السالم. ولم يكن جلالته إلى ذلك الوقت قد استعمل جمع المؤنث السالم ليعتقل الأوانس والسيدات، من المدنيات والفلاحات. فقد جاء دورهن في ما بعد، ومع تشديد النون الثقيلة.

وساد الجو شعور متزايد بالقلق والتوتر. ووصلتني هذه الأخبار وأنا في القاهرة، وتابعت تطوراتها في الإذاعة الأردنية.

وباكرت في الصباح إلى السفارة الأردنية (١٤-٤-١٩٦٦) واجتمعت بالممثل الخاص لجلالته، سعد جمعة (رئيس وزراء الأردن في ما بعد) لأستوضح الموقف.

قال: «جميع المعتقلين هم من أعداء منظمة التحرير. الشباب الذين كانوا يسبونك دائماً. ألا تذكر القوميين العرب الذين كانوا يوزّعون المنشورات ضدك،

والبعثيين الذين يقاومون منظمة التحرير، وجماعة «فتح» الذين يتحينون الفرصة للاستيلاء على منظمة التحرير؟».

قلت: «أنا لا أعرف المعتقلين، ولا أسماءهم، ولا أحزابهم. أنا أعرف أنهم فلسطينيون، أنهم أبناء الشعب، أبناء المنظمة. وقد يكون بينهم من كان يشوّش على المنظمة، ولكن واجبي أن أدافع عنهم. إنهم في السجن فلسطينيون ولا أعرف لهم صفة أخرى».

قال: «هذا الموضوع من اختصاص الحكومة. يمكنك أن تكتب إلى سيدنا».

قلت: «هذا رأي سديد».

وتناولت واحدة من أوراق السفارة ووجهت رسالة إلى «جلالة الملك حسين المعظم» قلت فيها: «إن الاعتقالات قد امتدت إلى عدد كبير من المواطنين، وقد استمعت خلال الأيام الأربعة الماضية إلى تعليقات الإذاعة الأردنية، وفيها عبارات تدين المعتقلين وهم لا يزالون رهن التحقيق قبل أن يدينهم القضاء، وإني أرجو جلالتكم أن تصدروا أوامركم بالمبادرة إلى إطلاق سراح أولئك الذين لا تتوافر عليهم الدلائل الصادقة في جو من التحقيق النزيه الأمين، وأمام القضاء العادل. إن تكامل أسباب الطمأنينة والاستقرار في الأردن فيه كفالة راسخة لتعبئة جميع الطاقات الشعبية والقوى الوطنية في معركة التحرير، وهذه هي الروح التي أملت عليّ أن أكتب لجلالتكم في الأمر».

وبعد يومين جاءني الجواب من الملك حسين مؤلفاً من كلمتين، وأصبح بعد الديباجة سطرين. وكُلّ ما فيه «أن هذه الإجراءات هي أمور داخلية اقتضتها مصلحة الأمن».

واتسع نطاق الاعتقالات، فامتدت أيدي الشرطة إلى عدد من زعماء البلاد أنصار المنظمة، وكُلّ ذنبهم أنهم يريدون أن يجعلوا من الضفة الغربية ما رأوه في قطاع غزة.

ووجهت إلى الملك حسين رسالة ثانية أرى من الأمانة للتاريخ أن اقتبسها بكاملها بعد التحيّة: «خلال السبعة عشر عاماً التي أعقبت الكارثة، انخرط عدد وافر من شبابنا وطلابنا في منظمات حزبية وعقائدية، وعسكرية.. وكان ذلك أمراً طبيعياً، فإن الفراغ الذي عاشته فلسطين في تلك الفترة قد دفع بالعديد من أبناء فلسطين إلى سلوك هذا الطريق إيماناً منهم بأنه هو الطريق لتحرير فلسطين. ولما قامت منظمة التحرير، طرحت شعار الوحدة الوطنية، وعملت على تحقيقه بكل ما

استطاعت من جهد. وفي المرحلة الأخيرة قطعت شوطاً حسناً في دعوة المنظمات الفلسطينية إلى التجمع على العمل الواحد ضمن إطار منظمة التحرير وعلى هدى من ميثاقه. والواقع أنّه ما لم تكن هنالك جريمة عادية، فإن الحزبية بهذه الصفة لا تعالج بالاعتقال، بل تعالج بالتوجيه القومي في ميادين النشاط العامة، وهنا يبدأ دور منظمة التحرير، وهذا هو الأسلوب البنّاء الإيجابي في توحيد الطاقات الوطنية لشعب فلسطين ولا أعرف له بديلاً، وإني أتطلع أن تتفضلوا جلالتكم بإعادة النظر في هذا الموضوع من هذه الزاوية التي أضعها أمامكم، سدد الله خطاكم وألهمكم التوفيق». (١٠/ ٥/ ١٩٦٦)، التوقيع: أحمد الشقيري، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

ولم يصلني جواب من الملك حسين. فقد «شكاني» إلى الرئيس عبد الناصر عن طريق السفير الأردني في القاهرة الذي حمل إليه صورة عن رسالتي. وهو يقول: وهل الشقيري يريد أن يعلم «سيدنا» قانون العقوبات، وأسلوب المحاكمات؟!

وطلب إليّ مكتب الرئيس أن أحضر لمقابلته. وفي مكتبه في منشية البكري تحدث الرئيس عبد الناصر عن «الظروف الراهنة التي تفرض علينا ألا يفلت الملك حسين من اليد، ويقع في قبضة الملك فيصل. وأنت عارف دسائس الاستعمار لإنشاء الحلف الإسلامي».

قلت: «وماذا تنصح؟ لقد ضجرت من تصرفات الملك حسين، والشعب الفلسطيني يلهب ظهري، يريد كُلّ شيء، والملك حسين لا يوافق على شيء».

قال: «أرى أن تسافر إلى عمّان، وتجتمع بالملك حسين، وسأطلب من سفيرنا في عمّان أن يهيئ الجو المناسب».

قلت: «على بركة الله».

وعدت إلى مكتبي، وأنجزت في خلال بضعة أيام كثيراً من الأمور العاجلة التي كانت تهبّ علي كالأعاصير من كُلّ أرجاء الوطن العربي.

وسافرت إلى عمّان، وما إن وصلت إلى الفندق، حتّى اتصلت «بالمقر» أطلب موعداً لمقابلة «جلالة الملك». ومضى اليوم كُلّه من غير جواب.

وفي اليوم الثاني، استوضحت وأكدت، فجاءني الجواب عند المساء، أن «سيدنا» مريض وقد دخل المستشفى العسكري لإجراء فحص عام.

قلت: «شفاه الله». وكنت أدعو له بشفاء الروح قبل شفاء الجسد.

وجاءتني الصحف في صباح اليوم التالي، لأجد البيان المعتاد الصادر عن

التشريفات الملكية بأن جلالته قد استقبل دولة فلان، ومعالي فلان، وسعادة فلان، وفريق البولو الإيراني!

وانتظرت يومين آخرين بعد هذا الكذب الواضح، وأنا أتصل «بالمقر» ورجال التشريفات يتلعثمون بأن «سيدنا مريض». وأنا أقول في نفسي: ناقل الكذب ليس بكاذب.

ولم يعد في قوس الصبر منزع، كما قال الأجداد الأكارم، فخرجت من عمّان، فلم يكن ميسوراً عليّ أن أمكث فيها طويلاً، فإن التحضير للدورة الثالثة للمجلس الوطني يلحّ بالعودة العاجلة إلى القاهرة.

وكتمت إهانتي، لا امتثالاً للقول المأثور: «الكريم من كتم إهانته»، بل ضماناً لنجاح المجلس الوطني وتجنباً لتصدعه وفيه كثير من الإخوة الفلسطينيين الأردنيين. وبدأ المجلس الوطني في غزة وانتهى، وتحدثت في كُلّ شيء، في كُلّ شيء إلا في حكاية استقبال الملك حسين لفريق البولو الإيراني ورفضه استقبال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. ولقد كتمت ذلك حرصاً على المجلس الوطني، وخشية أن يعود أعضاؤه الأردنيون إلى المطار، ومنه إلى السجون والمعتقلات، وللأردن سيرة شهيرة في هذا الميدان.

وأصبح من واجبي، بعد القرارات التي أصدرها المجلس الوطني، أن أوجه رسالة ثالثة إلى الملك حسين تكون أكثر شمولاً وتحديداً. وبصيغة موضوعية هادئة، لا أستطيع أن أصفها في مذكراتي بأكثر من اقتباسها بنصها الكامل. وهي كما يلي:

«صاحب الجلالة الحسين المعظم، ملك المملكة الأردنية الهاشمية.

تحية العروبة، وبعد

أكتب إلى جلالتكم مع أني لم أتلق جواباً على كتابي بشأن المعتقلين المؤرخ ١٠/ ٥/ ١٩٦٦، وعلى رغم أني في زيارتي الأخيرة إلى عمّان ما أتحتم لي الفرصة لمقابلتكم والتحدث إليكم بشأن مختلف جوانب القضية الفلسطينية. ولكني قياماً بمسؤولياتي أرى من واجبي أن أواصل السعي مع جلالتكم للاستجابة لمطالب منظمة التحرير الفلسطينية، لا يثنيني عن ذلك ما ألاقي من المواقف السلبية أو مصاعب الطريق، وبخاصة أن موضوع هذا الكتاب يتصل بصورة مباشرة بهدف التحرير الكبير مما لا يصحّ أن يحول دونه حائل، وتعلمون جلالتكم أن الاتفاق الذي تمّ بين الحكومة الأردنية والمنظمة قد تناول في جملة ما تناول موضوع التجنيد الإجباري وإنشاء كتائب جيش التحرير. وقد أصدر المجلس الوطني في دورته الثالثة، التي انعقدت في غزة في

العشرين من شهر أيار/ مايو ١٩٦٦ قراراً إجماعياً بالمطالبة بتطبيق قانون التجنيد الإجباري وإنشاء كتائب جيش التحرير الفلسطيني في الأردن، وكان هذا القرار نتيجة دراسة موضوعية عميقة، أخذت بعين الاعتبار ظروف الأردن من مختلف نواحيها، وفي مقدمتها دور الأردن الكبير شعباً وأرضاً في معركة التحرير. وما هو حري بالذكر أن القيادة العربية الموحدة قد أعربت عن تأييدها لتطبيق التجنيد الإجباري وإنشاء كتائب التحرير في الأردن، وأن تنفيذها ينتظر موافقة الأردن. لهذا رأيت أن أكتب إلى جلالتكم، وكلي أمل ورجاء بأن تصدروا جلالتكم توصياتكم الكريمة إلى الحكومة الأردنية للمبادرة إلى سَنّ التشريع اللازم لتطبيق التجنيد الإجباري على جميع المواطنين من أبناء الأردن، وتيسير إنشاء كتائب جيش التحرير الفلسطيني بحسب الخطة التي وضعتها القيادة العربية الموحدة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

التوقيع: أحمد الشقيري ـ رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

وهذا الكتاب يغني عن التعليق، موضوعية ووضوحاً، ولطفاً، استنفاداً لكُلّ وسائل اللطف!

سلمت هذه الرسالة الثالثة إلى سعد جمعة، وكان لا يزال ممثل «جلالته» في لجنة المتابعة في القاهرة، وطلبت إليه أن يقرأها قبل أن أقفلها. ووقف عند عبارة «القيادة العربية الموحدة قد أعربت عن تأييدها لتطبيق قانون التجنيد الإجباري في الأردن»... إلخ. وقال:

«متى كان ذلك؟. نحن لا نعلم شيئاً عن هذا الموضوع. أعتقد أن جلالته لا يعلم».

قلت: «هذه هي صورة من كتاب الفريق عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة».

وسلمته صورة من الكتاب مصورة بالزنكوغراف.

وكان كتاب الفريق عامر صريحاً غاية الصراحة بالموافقة، من غير شرط ولا تحفّظ، على «ضرورة تطبيق نظام التجنيد الإجباري في الأردن، لإمكان إيجاد تشكيلات احتياطية تستدعى عند الطوارئ».

وهذه الرسالة الثالثة التي وجهتها إلى الملك، ليست في حاجة إلى تعقيب، موضوعية ووضوحاً، وقد شفعتها برأي القيادة العربية الموحدة. ومضت أيام وأيام والملك حسين لا يجيب، إلا بازدياد الاعتقالات وإفشاء حملات الإرهاب في البلاد.

ونشطت في تلك الفترة، كأن الأمر على ميعاد، حملة أمريكية ـ إسرائيلية على

منظمة التحرير الفلسطينية في أنها أثارت حماسة الجماهير العربية في قضية فلسطين بعد سكون دام بضعة عشر عاماً، وأن الأحلام الأمريكية للوصول إلى تسوية سلمية آخذة بالانهيار، وأن «الشقيري عميل لموسكو ولعبد الناصر».

وفي أوائل الشهر (حزيران/ يونيو ١٩٦٦) خطب روبرت همفري نائب الولايات المتحدة، منددا بالشعب الفلسطيني وبقضية فلسطين، وأن منظمة التحرير «خطر على إسرائيل». ثُمّ جاء بعده السناتور الأمريكي الصهيوني غاربنشين، وقدم اقتراحاً بإلغاء وكالة الإغاثة ودفع الأموال رأساً إلى الدول المضيفة. وجاء بعد ذلك ماكلوفسكي المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الأمريكية وطالب بقطع الإغاثة عن الفلسطينيين الذين ينضمون إلى جيش التحرير. وجاء بعد ذلك كينيدي الصغير شقيق كينيدي القتيل يحمل على القضية العربية وعلى شعب فلسطين ومنظمة التحرير وجيش التحرير.

وفي غمرة هذه الحملة الأمريكية ـ الإسرائيلية على منظمة التحرير، وضعت «الجماعة الأمريكية لمنع الحرب الثالثة»، وهي منظمة صهيونية، نشرة دورية جرى توزيعها بالآلاف على أرجاء العالم كافة، تحذر «العالم المتحضر» من أحمد الشقيري أحد دعاة الحرب في العالم، وأحد العاملين على إثارة الفتن والقلاقل بين الشعوب، وأن الشقيري وأمثاله إذا تركوا وشأنهم سيدفعون العالم إلى حرب عالمية ثالثة».

كانت هذه هي موجة الغضب الأمريكي ـ الإسرائيلي، حين كانت رسائلي الثلاث تصل إلى عمّان. فركب الملك حسين موجة الغضب هذه، وألقى خطاباً هائجاً مائجاً، اشتهر في ما بعد بخطاب «عجلون».

كان ذلك في ١٤ حزيران/ يونيو ١٩٦٦، وكانت المناسبة: الاحتفال بخريجي معاهد المعلمين والمعلمات في عجلون.

لم يكن خطاب «جلالته» في هذه المناسبة العلمية تهنئة للخريجين، ولا تمجيداً للعلم، كما تفرضه هذه المناسبة الكريمة. واختار الملك حسين أن يخطب في كُلّ شيء، في القضية الفلسطينية، وفي القضية العربية، وفي المشاكل العالمية، فهاجم منظمة التحرير في شيوعيتها، وغوغائية رئيسها، وندّد بالقومية العربية وقادتها، وحمل على الاتحاد السوفياتي والصين، وأثنى على العالم الغربي ومؤسساته الدستورية، ودعا إلى الحلف الإسلامي، ومجد الأسرة الهاشمية وتضحياتها في الثورة العربية الكبرى. وعلى الجملة، فإنه لم يترك شاردة ولا واردة إلا وحدد موقفه منها.

ولقد كان بوسعي أن أكتفي بهذا التلخيص لخطاب عجلون لولا أن سلسلة من الأحداث العربية والدولية قد تعاقبت بعده، كان آخرها هزيمتنا الكبرى في حرب حزيران/ يونيو. فلم يعد أمامي إلا أن أنتزع خطاب الملك حسين من مكانه وأضمه إلى

مذكراتي بنصه الكامل، وأن أتبعه بجوابي عنه، خطاباً بخطاب، والبادئ أظلم.

وإني أفعل ذلك، لا ليقرأ الجيل المعاصر والجيل المقبل، سرداً تاريخياً للوقائع والأحداث، بل ليتعرف بقلبه ووجدانه على أسباب الهزيمة. فإن في خطاب الملك حسين بعض هذه الأسباب، بل إن هذا الخطاب هو واحد من هذه الأسباب، وإن جوابي عنه نابع من ضمير الأمة العربية، بجماهيرها الفلسطينية والعربية على السواء.

خطاب الملك حسين

«أيها الإخوة،

«بالأمس القريب، وقفت مع أبنائنا في الجامعة الأردنية الفتية نتطارح الأحاديث في سيرنا واتجاهنا، ونتبادل الرأي في مظاهر نهضتنا ومقومات حضارتنا وفي مدلولات أمانينا القومية.

«ولقد كنت معهم كشأني معكم اليوم، وكعهدي في كُلّ موقف يجمعني بأبناء أسرتي الحبيبة، خاصة الطلائع الذين نعلق عليهم أكبر الآمال، لربط حاضرنا بماضينا، والمشاركة القاصدة في إعلاء البناء للمستقبل الأفضل. كنت معهم. وها أنذا معكم اليوم. أحدثكم حديث القائد الذي لا يخدع جنده، والرائد الذي لا يخون عهده، حديث المحبة والمودة، والإيثار، إذ ليس كالمطارحة الصريحة، وصدق النية في السرّ والعلن سبيلاً بيننا إلى الصراط القويم.

«وإنه ليسعدني حقاً أن ألقاكم وأنتم على أهبة الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، من مرحلة الاستعداد والتلقي، إلى مرحلة الخدمة والعطاء، من جو الدراسة المثالي، إلى أجواء الحياة الفسيحة بتجاربها، ومشاكلها، وآلامها، وآمالها. ولعلي لو أردت أن أصوغ شعاراً واحداً يلمّ كُلّ ما نتمناه لكم ونأمله فيكم، لقلت: إنّه الشعور بالمسؤولية، بمسؤوليتكم تجاه مجتمعكم، تجاه بلدكم. فقد اختارتكم العناية لتكونوا النواة لأجيالنا الطالعة. ومن حقّ تلك الأجيال عليكم أن تصدقوا لها الخدمة، وتخلصوا لها النصيحة، وأن تحموها من مزالق الانحرافات الضالة، ومتاهات العقائد المستوردة، صيانة لموروث تقاليدنا وقيمنا الروحية وشخصيتنا القومية، مدركين كُلّ الإدراك أن مناخ الجامعة أو الكلية أو المدرسة، إنما هو حرم مقدس، مكرس للعلم وحده، وأن ما ابتليت به هذه المنطقة في البضع عشرة سنة الماضية، من افتعال السياسة والحزبية في مرابع الطلبة، قبل أن يقوى عودهم ويشتد ساعدهم ويتكامل تفكيرهم وتنمو ملكاتهم الواعية، هو سبب ما تعانيه بلادنا من فراغ أنصاف المتعلمين الذين هجروا مقاعد الدرس إلى مطارح الاستغلال، وأصبحوا أداة هينة في يد كُلّ

دعوة مشبوهة، وكُلّ مبدأ مدخول، وكُلّ عقيدة مستوردة تخرج بهم عن نطاق دينهم وقوميتهم وتراثهم التاريخي العظيم. لقد بدّدت طاقات هائلة أضعناها، واستغل عنفوان الشباب أبشع استغلال، واستخدمت جذوة الحماس فيهم فغدوا أدوات هدم بدل أن يكونوا دعائم بناء. وكانت الضحية الأولى لذلك المصلحة العربية العليا، وكانوا هم أنفسهم الضحية الثانية. وفي يدكم أنتم المساهمة الفعلية في تقويم المعوج، وإعادة الضال إلى جادة الصواب، وتبصير من غطت أبصارهم غشاوة الهوس وملأت قلوبهم نزوات الغرور. ولعل من أهم واجباتي نحو أمتي وأسرتي ونحوكم بشكل خاص أن أبصركم ولو بإيجاز حول وضعنا ومسيرتنا وأهدافنا وأمانينا القومية، شأني كلما واتت الفرصة وسمحت الظروف.

«ونحن نؤمن قبل كُلّ شيء أننا عرب، وأن فكرة القومية العربية لا تكون ذات جدوى ومدلول إلا حين تكون في إطارها الديني، فالإسلام والقومية العربية كالصورة والمحتوى، صنوان متلازمان مترابطان لا ينفصمان، وكُلّ انحراف عن هذا المفهوم هو باطل يراد به حقّ، ودعوة مدسوسة يراد بها تقويض دعائم عقيدتنا، وتخريب أسس قوميتنا وتغليف قدسية الفكرة بشعارات الجدلية المادية والمذهب الماركسي. ولقد أثبتت التجارب العالمية، ومنها تجربتنا الخاصة في هذا البلد، أن مبادئ الديمقراطية والحرية تتفق مع مبادئ ديننا الحنيف، وهو دين التطور والتقدم. ولذا فهي أقوم النظم لتوطيد الأمن والاستقرار وإشاعة الخير وتحقيق الازدهار وتعميم العدالة الاجتماعية، وبناء المجتمع على أسس روحية أخلاقية تحترم الفرد وتقدس الحرية وتحمي الملكية وتشجع المبادهة الخاصة والمساواة في الفرص والحد من الجشع والاستغلال والفروق الطبقية، ويكون الفرد فيها لبنة صالحة في بناء سليم، لا آلة صماء في مجتمع بوليسي رهيب، ولذا فنحن ننتمي إلى أسرة الأحرار في هذا العالم ولا ننتمي لسواها.

«ونحن نؤمن أن القضية الفلسطينية هي قضيتنا الأولى والأخطر والأهم، لأنها بالنسبة إلينا قضية حياة أو موت، بقاء أو فناء، وهي التحدي الكبير الذي نجابه في هذه المنطقة قبل سوانا. ولذا فكُلّ ما صنعناه ونصنعه في هذا البلد هو لفلسطين ومن أجل فلسطين. وجهدنا وحشدنا هو استمرار لمبادئ الثورة العربية الكبرى ورسالتها العظيمة التي كان قائدها أول ضحايا فلسطين.

«ومهمتنا كما قلنا مراراً مهمة مزدوجة، فنحن من جهة عملنا ونعمل بكل ثقة وإيمان لتقوية جيشنا ودعم قواتنا المسلحة لنبلغ مكان القوة الرادعة، ثُمّ نهيئ أنفسنا لاستعادة الحقّ العربي المهدور، وقد قطعنا أشواطاً في هذا الطريق توحي بالثقة وتبعث على الاعتزاز، حتّى أصبحت قواتنا المسلحة في مستوى عالمي تدريباً وتنظيماً وتسليحاً مثلما كانت دائماً مضرب الأمثال بسالة وإقداماً.

«وإنها لدعوى فارغة أن نعتبر الاستعمار وقواه وراء كُلّ ما حلّ بنا من نكبات دون تحديد واضح لما نعنيه، فحقيقة الأمر أن الحركة الصهيونية تدعمها اليهودية العالمية تمكنت بفعل التخطيط والتنظيم والتصميم والاستعداد لكُلّ تضحية مهما غلت من أن تفرض نفسها في هذا العالم على مجتمعاته المختلفة، وفي شتى المجالات والميادين، فتحولت من خلال علمائها ومفكريها ورجال مالها وصناعتها والمختصين منها في شؤون الدعاية والإعلام إلى قوة هائلة لها وزنها وتأثيرها على العالم ودولة كبيرة أكانت أم صغيرة. فالقول بأن قلب وطننا العربي المحتل هو ركيزة من ركائز الاستعمار فحسب، هو قول ناقص لأن هذا الجزء في الحقيقة على صغر مساحته وقلة سكانه هو قاعدة ومقر ومنطلق استعمار خطير قادر، ومن خلال الوعي والتصميم والاستعداد للتضحية لدى الكثيرين جداً في هذا العالم ممن يدورون في فلك الصهيونية العالمية، على أن يحرك الأمور وفق مصلحته وما يحقق أهدافه.

«ولقد كانت القضية الفلسطينية تتأرجح في دوامة المزايدات والمساومات والاستغلال حتّى استهدى العرب في مطلع سنة ١٩٦٤ إلى وجوب لقاء عربي جماعي، وخطة عربية موحدة، ومنهاج قومي مشترك واستعداد علمي كامل مدروس لدرء الخطر واسترجاع الحقّ السليب.

«وكانت مؤتمرات القمة وما نجم عنها من مقررات حتّى الآن حداً فاصلاً بين التخبط والارتجال من جهة، وبين استهلال العمل الهادف من جهة أخرى. وكانت آخر فرصة وأمل للأمة العربية في تعميق الشعور بالمسؤولية وإدراك أبعاد القضية على مستوى خطورة المعركة الحاسمة التي تنتظرنا وقد تفرض علينا، غير بعيدين.

«وقد استطعنا منذُ أول مؤتمر للقمة إلى الآن لا أن نحقق كُلّ ما كان يمكن تحقيقه، ولكننا حققنا بالفعل الكثير مما كان يخامر عقولنا ولا نستطيعه، نتيجة تخاذل العرب وتصدع صفوفهم وتشتت أهوائهم وانشغالهم بالمعارك الجانبية عن معارك المصير خلال سنوات الضياع التي انقضت. ويسرني أن أشير إلى المهرجان القومي الذي عشناه في هذا البلد قبل أسابيع وأرسينا فيه الحجر الأساسي لمشروع سدّ خالد، ومعنا إخواننا من كافة الدول العربية الشقيقة، فهو دلالة واضحة على العمل القومي المشترك والحشد العربي الموحد.

«إننا نؤمن بأن الوحدة العربية ستتحقق عندما يشارك كُلّ العرب في دولهم المختلفة المتناثرة ضمن وطنهم الكبير في وضع أسسها وإرساء دعائمها، وحدة أنداد لا وحدة قسر أو تسلط أو استبعاد، يمليها مستقبل واحد ومصير ينتظر الجميع، أفلحوا أم فشلوا، ويمليها كونهم إخوة متساوين يكمل بعضهم بعضاً مثلما تمثل

بلادهم بخيراتها ومميزاتها وخصائصها كلاً رائعاً ما في ذلك ريب. إننا نؤمن بأن الجامعة العربية وقد بعثت مؤتمرات القمة العربية فيها روحاً جديدة هي خطوة مكينة على الطريق الصحيح تستحق كُلّ دعم وكُلّ رعاية. وهذه المؤتمرات والقيادة العسكرية الموحدة المنبثقة عنها تشكل الأمل القوي، الأمل الأول والأخير، لا لاستعادة حقوقنا فقط وإنما لتحقيق أغلى أهدافنا وأعز أمانينا في وحدة شاملة تبنى في ظلال الحرية والقوة العربية والحياة الأفضل، وتحقق استعادة المكانة المرموقة التي كانت لنا بين الأمم والشعوب.

«إننا نؤمن أن كُلّ ذلك لن يتم إلا إذا بقيت القمة فعلاً في استمرار وجودها في كُلّ ما يصدر عنها بدافع من حرص القادة العرب على المصلحة العربية، وبفعل التصميم الهادف لديهم على بلوغ الأهداف العربية السامية، وإذا بقيت القيادة الموحدة في منأى عن كُلّ الخلافات الجانبية التي ينبغي على القادة مجتمعين مواجهتها وتصفيتها مرة واحدة. وإننا لنؤمن أن كُلّ عمل خارج هذا النطاق هو استهتار بالمصلحة العليا وهدر للطاقات والجهود، وتمييع لقضيتنا المصيرية، وأن الوعي العربي سيكشف كُلّ خروج عن وحدة الصف وخطة التضامن، وأنه قادر على أن ينبري، وهذا واقع لا ريب فيه، ليضع حداً لكُلّ محاولة لهدم مؤتمرات القمة وتعطيل مقرراتها والتخلي عن مسؤولياتها، وبالتالي تطويح القضية إلى ما هو أسوأ من سيرتها الأولى، في متاهات المساومات والمزايدات والارتجالية نحو نهاية مظلمة حتمية.

«لقد توافق القادة العرب في أول مؤتمر للقمة على وضع القضية الفلسطينية فوق كُلّ خلاف. ومن المحزن أن نرى الخلافات الجانبية تطغى على القضية المصيرية وتكاد تعصف بها، وأن نجد أنفسنا والفلسطينيين من أبناء النكبة سواء من انتمى إلى أسرتنا الأردنية أو من كان بعيداً عنها، مسافة لا واقعاً، والعرب من حولنا، في دوامة فارغة بعد أن عصفت بالمنظمة، منظمة التحرير، التي كانت لنا اليد الطولى في إنشائها الأهواء، فأصبح القائمون عليها، بعد طغيان الحزبيين المخربين عليها، معاول هدم لما بنيناه لا لأنفسنا وإنما لفلسطين، ومعاول هدم لوحدة الصف العربي والعمل الموحد، وقروحاً تترعرع فيها جراثيم غريبة عن وطننا الكبير، وأن تذهب كُلّ محاولاتنا لإصلاح اعوجاجها أدراج الرياح حين غدت قطب الرحى في إذكاء الخلافات العربية والانقضاض على التضامن العربي وكُلّ ما من شأنه أن يجمع الأفئدة حول القضية ويخدم مصلحتها. إنه ليحزّ في نفسي ويؤلمني أشدّ الألم أن أصرح بأن كُلّ أمل حرصنا على إبقائه، ولو كان بصيصاً خافتاً، قد خبا وزال حول إمكان التعامل مع هذه المنظمة بمضمونها الحالي جملة وتفصيلاً.

«أرجو أن أوضح هنا وبما لا يدع أدنى مجال لسوء فهم أو تفسير أننا قد عملنا

وبمنتهى الإخلاص وحسن النية لنجسد فكرة الكيان إلى حقيقة، ونمكّن كُلّ فلسطيني من ممارسة حقه في خدمة قضيته بفعالية وجدارة. أردنا المنظمة لتكون البرهان الساطع أمام العالم أجمع على أن شعب فلسطين باق تدعمه الأمة العربية برمتها في انتظار أن يستيقظ الضمير العالمي من غفوته، فيمنحه ذلك الحقّ المقدس الذي حرم من ممارسته، ألا وهو حقّ تقرير المصير، وليكون الدليل القاطع على أن الحقّ لن يضيع، والقضية لن تميع مهما طال الزمن وتعاقبت السنون. أردنا المنظمة مثلما أردنا القضية ولمصلحتها أولاً وأخيراً، ولمصلحة أمتنا التي لا تنفصل عنها، أن تكون للجميع مشعلاً يلم الشعب كلما أوشك البعض أن يضلّ الطريق تأكيداً لإيماننا الذي لن نحيد عنه. إن قضية فلسطين هي قضية العرب أجمعين. وأردنا أن يعبأ كُلّ فلسطيني قادر ليؤدي واجبه في خدمة قضيته وخدمة أمته، وأعطينا من خلال تجربتنا المثالية في هذا البلد، شعباً وقوات مسلحة، مثالاً جديراً بأن يُحْتَذى للمشاركة الفعلية والاندماج الصحيح الذي يفرضه كوننا شعباً واحداً ضمن حدود بلدنا وضمن حدود وطننا الكبير وتفرضه وحدة الهدف والمصير.

«ثُمّ إننا قد انتفضنا دائماً على المنطق السقيم والسياسة الهزيلة القائمة بوجوب إبقاء الفلسطينيين قيد خيامهم ومعسكراتهم وضمن أسلاكها الشائكة، حيثُ تكون حقيقة القضية وحياتها دولياً مجرد قضية إغاثة وإعانة يقاس لها النجاح أو الفشل بالمقدار المتوفر منها سنة بعد سنة، وليكون البؤس والشقاء محتوى الصورة التعيسة التي يتناولها الخطباء في كلماتهم التقليدية في الأمم المتحدة كُلّ عام للقيام باستجدائهم المستمر. نحن انتفضنا ضمن إمكانياتنا على سياسة إماتة شعب بأسره وإماتة معنوياته وإبقائه تحت رحمة ما ينال من فتات البطاقات التي لا تليق بكرامة إنسان ولا بكرامة شعب كشعبنا الذي ينتمي اليه مثل هذا الإنسان.

«فشعب يعيش على العدم ويقتات الفتات والفضلات تموت كرامته وتضيع قضيته معها. والقول بأن هذه التعاسة تولد الحقد، وأن الحقد والجوع والجهل هي السبل المؤدية إلى النصر، هو منطق فارغ وحجة سقيمة. الشعب الذي ينتصر هو الشعب الذي يعيش كريماً في أرضه وأرض أهله وإخوانه ينمي ملكاته صحيحاً في جسده وذهنه وتفكيره ورزقه، فبقوته فقط يقوى حقه فيكسب الجولة وينال مناه. الذئاب الجائعة تهاجم دون وعي أو تمييز ما يواجهها، ولكنها أيضاً تأكل بعضها بعضاً ويمكن صدها والقضاء عليها. أما الإنسان الواعي المثقف المهيأ للمعركة سليماً في معتقده، قوياً في صحته، متحكماً في إرادته وتصرفاته، قوياً في حقه، فهو المنتصر أخيراً دون أدنى شكّ. هذه كانت أهدافنا وستبقى في هذا البلد وسيبقى سبيلنا إلى النصر واضحاً لنا جميعاً أسرة واحدة، مهاجرين وأنصاراً، نمدّ أيدينا إلى كُلّ يدّ عربية

يحركها قلب عربي يؤمن بأن النصر لن يتم إلا من خلال إرادة عربية هادفة لا شرقية ولا غربية ولا صينية ولا ماركسية، وبتضحيات عربية شريفة على الطريق الطويل.

«فلسطين القضية كان يمكن قبل عام ١٩٤٨ أن يُقبل رأي البعض في أسلوب معالجتها تكتيكياً وليس واقعياً بأن تعتبر قضية أبناء فلسطين وحدهم باعتبارهم أصحابها وبيدهم حلها، وكان يمكن أن يقبل رأي البعض في أسلوب معالجتها عن طريق مدّ الفلسطينيين بكل ما يحتاجونه لخوض المعركة نظراً إلى حالة الضعف وفقدان التخطيط وانعدام التنظيم العربي بمستوى المعركة آنذاك، ولكن القضية قد زالت عنها صبغتها الفلسطينية المطلقة منذُ اللحظة التي دخلت فيها الجيوش العربية أرض فلسطين. لو كانت فلسطين القضية قضية أبناء فلسطين وحدهم دون سواهم لما اصطدمت الثورة الكبرى بمخططات الصهيونية والاستعمار، ولما كان قائدها الحسين ابن علي أول ضحاياها وشهدائها، ولما تمزق الكيان العربي الواحد إلى دول متعددة عجزت عن أن تكون بمستوى المعركة فوقع ما وقع عام ١٩٤٨. ومع هذا كُلّه فقد استمرّ الكثيرون في عالمنا العربي وحتى يومنا هذا، وعلى ما يبدو يؤثرون في وجه التحدي أن يعتبروا قضية فلسطين قضية أهلها وحدهم على ما في ذلك من خور وقصر نظر. وكنا نحن في هذا البلد قلب الوطن الكبير النابض ودرع الأمة المتين الواقي في مواجهة الخطر على الخطّ الطويل نشكل عقبة في وجه أصحاب هذه المدرسة ومن يدور في فلكهم، وسنظل نشكل عقبة لا في وجوههم فحسب، وإنما في وجوه الكثيرين من المتاجرين بالقضية والمهرجين الذين تحركهم الأيدي الخفية والمخربين الذين كفروا بعروبتهم يوم اعتنقوا كُلّ مبدأ هدام وفكر دخيل ووحدوا صفوفهم اليوم في العمالة للشيوعية الدولية ليطلوا اليوم جميعاً بوجوههم الكالحة وحقدهم الأسود ونواياهم الخبيثة من خلف أقنعة البطولة والحرص على القضية التي ارتدوها في غفلة من الزمان، فأوصلتهم في ما أوصلتهم حتّى إلى منظمة التحرير ليهيمنوا عليها ويحاولوا من خلال ما كنا نأمله فيها ونريده لها جميعاً أن ينفذوا مخططاتهم الشريرة لنسف وحدة الصف العربي ووحدة الجهد العربي وكُلّ ما بنيناه لفلسطين، وتمادوا حتّى أنكروا على أبناء هذا البلد، وهم الأكثرية الفلسطينية المطلقة، حقهم، وهم الذين صمدوا على أرضهم في وجه الخطر وتصدوا يواجهون التحدي أسرة واحدة، وأنكروا عليهم حقهم، حقّ الأكثرية في منظمتهم، منظمة التحرير، وحاولوا أن ينصّبوا من أنفسهم أوصياء علينا وعلى فلسطين وشعب فلسطين.

«ونحن في هذا البلد نؤمن إيماناً راسخاً بأن وحدة الضفتين هي وحدة باركها الله وأيدها الشعب، وهي نواة طليعية للوحدة الكبرى، وقد استطاعت هذه الوحدة الرائدة المقدسة أن تحمي بقايا أشلاء الوطن السليب لتصبح منطلق خطة الحشد،

ويصبح جيشنا الرابض في خنادقه هو جيش التحرير، جيش فلسطين. وأيدينا ممدودة إلى كُلّ عربي وفلسطيني في وطننا الكبير ليلتقي معنا على درب البناء والواجب، ونحن أصحاب قضية لا نقدم على عمل إلا إذا وجدناه يتفق ومصلحتها. وكُلّ دعوة للازدواجية أو لتقطيع أوصال هذه الوحدة وتفتيت عراها، هي دعوة لا يقصد بها وجه الله. وكُلّ يدّ تمتد إلى هذه الوحدة، إلى هذا البلد الواحد المناضل بسوء، سنقطعها، وكُلّ عين تنظر إلينا شزراً سنفقؤها، ولن نتهاون أو نتساهل قيد أنملة بعد الآن.

«وعجبي لأناس يتعشقون البطولات المسرحية، كيف تفوتهم هذه البداهة، فيجهلون أو يتجاهلون أن خطة الحشد ليست خطباً رنانة ومظاهر زائفة، بل هي تعب وعرق وتقشف وعمل صامت دؤوب.

«نحن في هذا البلد نؤمن بداية بأن انقسام العرب في ما بينهم وفي معاركهم الجانبية أكثر وأكثر سوف يجعل وطنهم الكبير مسرحاً لمعارك عنيفة لا يفيدون منها بقدر ما تفيد القوى الدولية المتقابلة المشتبكة في معركة مصيرية هائلة. ونؤمن أن الأيديولوجية الماركسية تستهدف التسلل إلى بلادنا، عن طريق النزوات العاطفية والدعاوي العاطلة من كُلّ قيمة صحيحة. وهي أيديولوجية تتعارض مع معتقداتنا وموروثاتنا ومقوماتنا الروحية، فوق ذلك أن الأحزاب العميلة لها في المنطقة تدعو بصراحة ووقاحة إلى الصلح مع إسرائيل على أساس طمس قوميتنا وإلغاء ديننا والاستعاضة عنها بشعار الأخوة الشيوعية. لقد كانت هذه المنطقة الاستراتيجية المهمة بحكم موقعها هدفاً تطمع روسيا القيصرية بالاستيلاء عليه، وبقيت هدفاً للشيوعية بشقيها السوفياتي والصيني لما فيها من مصادر بترولية إذا أمسكت بها أمسكت بخناق القوى التي تقابلها، ولكونها منطقة تشقها خطوط مواصلات ذات أهمية استراتيجية كبرى إلى أنحاء العالم المختلفة، ولكونها تشكل جسراً لو تمكنت الشيوعية من أن تعبره فإنها عندئذ تكون قد وصلت واتصلت بأفريقيا، وتكون عندئذ قد خطت خطوة هائلة نحو بلشفة العالم والسيطرة عليه.

«نحن نعلم والألم يحزّ في نفوسنا أن هناك ثغرات كثيرة على رغم الانتكاسات التي واجهتها الشيوعية في ديارنا يمكنها استغلالها، وهي تستغلها فعلاً، وفي طليعتها الخلافات العربية الجانبية، وضعف بعض الأنظمة في بعض أجزاء وطننا إلى درجة جعلتها تترامى في أحضان المعسكر الشيوعي طلباً للبقاء، ولو كان هذا على حساب مستقبل الأمة ومصيرها. ونحن نعلم أن عدم الاستقرار من العوامل التي تشجع على نمو الشيوعية حيثُ تتسلل من خلال الضعف والفقر وفقدان الأمل إلى أهدافها، ونحن نعرف أن السلاح السوفياتي الذي أغرق المنطقة، أو أي سلاح من أي مصدر آخر، لن يكون سلاحاً عربياً إلا عندما تحمله أيد عربية أصيلة تأبى أن تكون

مطية لأية قوى خارجية، وقلوب عربية تعزّ عليها معتقداتها ومقوماتها، فترفض أن تستبدلها بكل مستورد غريب. نحن نرفض وسنقاوم حتّى الموت بكل ضراوة أي تسلل إلى هذه المنطقة، أينما كان وكائناً ما كان شكله ولبوسه، ولن تكون انتفاضة العرب هذا القرن وثورتهم انتفاضة الموت ما دمنا أحياء. ثُمّ إننا نرفض أن نكون من السذاجة بحيث يستغفلنا هذا القبيل أو ذاك أو يجعلنا نعتقد أن الاتحاد السوفياتي أو الصين الشيوعية حليفتانا الوحيدتان الراغبتان مخلصتين إحداهما أو كلتاهما في تمكيننا من إنهاء قضية فلسطين لصالحنا. إن وجود القضية وبقاءها هكذا كان وسيبقى وسيلة مثالية تستغلها هذه القوى للتسلل إلى المنطقة بأسرها.

«نحن نؤمن أن الثغرات لن تسدّ في وجه كُلّ القوى الطامعة إلا من خلال الإرادة العربية الواعية المؤمنة التي تستطيع أن تجند كُلّ الطاقات العربية، وتستخدم كُلّ الأسلحة لخدمة المصلحة العربية القومية العليا دون سواها. نحن نرحب بالتعاون مع السوفيات ومع كُلّ دولة في هذا العالم عندما تدرك كُلّ دولة أننا عرب نعتز بعروبتنا، نحترم من يحترمنا ونعادي من يعادينا، نملك أمرنا ونتعامل من مركز قوة لا ضعف. إن استمرار الخلافات ووجود الثغرات ستنقل بلادنا أكثر وأكثر نحو المعترك العالمي الكبير، وسنكون نحن الخاسرين عندئذ أولاً وأخيراً. وأما بالنسبة إلى فلسطين، فلا بُدَّ من اعتبار العالم أجمع ميدان معركة بين حقنا وباطل أعدائنا ميداناً لا ننسحب من أي جزء منه لمجرد أن إسرائيل دخلته أو احتلته، ميداناً نقابل فيه الصهيونية أينما كانت وحيثما وجدت حتّى ننتصر.

«إننا نعتقد أن لا شيء يحدّ من غلواء الدعوة الشيوعية الهدامة وسواها كالتمسك بشعائر ديننا الحنيف التي تناسب كُلّ زمان ومكان والتي وضعت أنسب الحلول العملية لإقامة المجتمع السليم. ولهذا فكُلّ دعوة مخلصة إلى لقاء إسلامي وحل للمشاكل القائمة بين بعض الدول العربية والإسلامية يؤدي إلى تضامن إسلامي يحف بالتضامن العربي، يجب أن تدرس دراسة واعية بناءة بغية تلاقي الدول والشعوب الإسلامية على كلمة سواء بينهما، تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتستمد من مبادئها الروحية سنداً يحميها من المدّ الإلحادي والأخطار، مع مناشدة تلك الدول والشعوب الأخذ بناصر القضايا العربية في ضوء الأخوة الإسلامية، خاصة قضية فلسطين، وبتر كُلّ علاقة لبعضها بإسرائيل. وتحقيق ذلك متيسر وممكن لو عاملنا هذه الدول بما نحب أن تعاملنا به واحترمناها وقدّرنا ظروفها بمثل ما نرغب في أن تحترمنا وتقدر ظروفنا، ونصرناها بمثل ما نتوقع أن تنتصر لنا، ولحقّنا ولقضيتنا الواحدة المتمثلة في الأخوة الإسلامية التي تفرضها ما بيننا من صلات روحية وما للإسلام من مقدسات في هذه الأرض التي ندافع عنها ونكافح لتبقى لنا وللمسلمين في هذا العالم.

«إن الهجوم على بعض الدول الإسلامية التي تقف في مواجهة القوى الشيوعية مباشرة لا يخدم المصلحة العربية بقدر ما يخدم أهداف الشيوعية. وأي مصلحة عربية تتحقق لو انهارت دولة من هذه الدول أو أكثر وأصبحنا ذات يوم لنجد الشيوعية بقواها ومخططاتها لبلشفة العالم التي يتضاءل بالمقارنة بها الخطر الصهيوني ذاته على أبواب وطننا العربي. وكيف ترى يصحّ في عقل أو منطق أو خلق أو ضمير أن تهاجم كُلّ دعوة إلى الاعتصام بحبل الله وإعلاء راية الدين وإلى التعاطف بين المسلمين؟ أم لعل تردّي وتهافت المبادئ المستوردة يجعلها ترتعد أمام جبروت العقيدة السمحة والدين الحنيف، فتحاول أن تخنق أي صوت يدوّي بالحق أو يعارضها وتكتم أنفاسه بشتى الأساليب. وما التلاقي الإسلامي إلا جزء من حملة روحية تسود العالم اليوم وترمي إلى مقابلة لاأخلاقية الإلحاد، ولا أخلاقية الظلم والاستبداد، وكُلّ مؤمن بالله مدعو إلى الانضواء تحت رايتها والمساهمة في حرب مقدسة مفروضة عليه تعيد إلى البشر اطمئنانهم الروحي وسمتهم الخلقي في نطاق مخافة الله وشرف الضمير.

«إن ألف جيش تحرير لن يتمكن إذا انهارت القمة وانهار التعاون العربي أن يملأ الفراغ، في حين نعلم نحن جيداً أن كُلّ فلسطيني عربي مخلص يضمه جيش التحرير أو أي تنظيم فلسطيني سيلتقي بنا وينضم إلى صفوفنا لنعمل معاً في ظلّ القمة والتعاون العربي وخدمة للمصلحة القومية العربية العليا ومصلحة القضية الفلسطينية التي لا تنفصل عنها إن عاجلاً أو آجلاً. أما إذا انهارت القمة وانهار التعاون، فسنكون على شفا هاوية وستفرض علينا جميعاً معارك هائلة لن يكون فيها خاسر إلا العرب والعروبة إجمالاً، وإن كان هذا الشعب في الوطن الكبير يملك من الخصائص ما قد يمكّنه من الصمود والبقاء في خاتمة المطاف.

«أما إذا فرضت علينا المعركة، فإننا نقسم بالعزيز القدير لنخوضها بضراوة لن يعرف لها الوجود مثيلاً، وخلفنا ألف وثلاثمائة وستة وثمانون عاماً حافلة بقوافل شهدائنا مستعذبين الموت، على أن نعيش نهاية أمة ننتمي إليها.

«إن من المؤلم حقاً أن نسمع من هنا وهناك من يطعن مؤتمرات القمة ويخذل المسيرة القومية، وكأنما القضية شارة يصطنعها بعض القادة العرب للتزين بها، حتّى إذا لم تشبع أنانيتهم ضربوا بها عرض الحائط، وتنكروا للوعود والعهود كأنما هي تسلية هينة ولعبة حمقاء.

«إن جوابنا على هذا الانهيار في التفكير والقول والعمل، أن نهتف في وجوه هؤلاء السادة: اتقوا الله في ما تفعلون. إن القضية أخطر مما تصوره لكم أوهامكم،

والتاريخ لا يرحم، وإذا لم تلفظكم شعوبكم فإن الأجيال العربية القادمة ستصبّ على رؤوسكم بما فرطتم، أبشع اللعنات.

«ولقد دعونا قبل أيام بإخلاص وصدق وحمية إلى وحدة الصف ونبذ التخالف والاستئناس بالتجارب الماضيات، وتمكين خطة الحشد ودعم مقررات القمة. وإننا لنرجو ونأمل أن تصل هذه الدعوة إلى كُلّ زاوية في الوطن العربي، وإننا ندعو الله أن يوفقنا على أية حال لنكون دائماً جند أمتنا وجند الحقّ». **هنا انتهى خطاب الملك حسين.**

ألقى الملك حسين خطابه هذا، والطلاب والطالبات، يعجبون لماذا اتخذهم الملك حسين مطية في ذلك اليوم حتّى يقول ما يريد أن يقول. وقد وجم الحضور لهذا الخطاب التائه، في تيه الباطل والضلال، حتّى إنّ أشدّ المعجبين بشباب الملك ومغامراته قالوا إن الملك خانه التوفيق.

واستمع الشعب إلى الإذاعة الأردنية، وهي تعيد خطاب الملك حسين، وسط هتافات خافتة تنبعث من الصفوف الخلفية في قاعة الاجتماع. وأصيبت جماهير الشعب بالدهشة والذهول، وتواترت التساؤلات في كُلّ مكان: لِمَ هذا الهجوم على الاتحاد السوفياتي والصين، وهما الصديقان الباقيان لنا في هذه الدَنيا؟ ولم الثناء على المعسكر الغربي، وهو الذي يضم أعداءنا ولا أعداء لنا سواه؟ ولِمَ التصدي لمنظمة التحرير ورئيسها الذي وقف طويلاً على أعتاب الملك، وبذل ماء وجَهه بين يديه وهو يناشده التعاون مع منظمة التحرير؟

وبدأت جماهير الشعب عند الأمسيات تدير مفتاح الراديو على إذاعة منظمة التحرير لتسمع ماذا ستقول المنظمة ورئيسها ردّاً على تلك الحملة الظالمة.

وقضيت يوماً بكامله وأنا أفكر. ماذا أصنع؟ هل أتكلم أم أصمت؟ وعزمت أن أتكلم، فإن هذا الهجوم الكاسح الذي شنّه الملك حسين على الأمة وقادتها، وعلى الشعب الفلسطيني ومنظمته، لا يصحّ معه السكوت.

ثُمّ قضيت يوماً آخر، وأنا أكتب خطاباً أنبش فيه حفائر التاريخ. فلم يعد بعد مجال للمجاملة. ولقد بدأ الملك حسين المعركة، وليس لنا أن نهرب منها.

وبدأت إذاعة المنظمة في ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٦٦ تذيع في نشراتها الثلاث تنبيهاً إلى الشعب بأن «رئيس المنظمة سيلقي خطاباً يردّ فيه على خطاب الملك حسين الذي ألقاه في عجلون».

وفي مساء ذلك اليوم، كما أخبرني سفير القاهرة في عمّان، خلت الشوارع من

المارة في كُلّ أنحاء البلاد، وأقفل الناس حوانيتهم في موعد مبكر، وغدا الشعب كُلّه وراء الجدران في منازلهم ومخيماتهم إلى جوار أجهزة الراديو ينتظرون موعد إلقاء الخطاب. وكان الملك حسين، في قصره، يداعب جهاز الراديو مع المنتظرين ليسمع ما سيقوله «الشقيري، العميل الشيوعي، المأجور، الغوغائي».

وفي الموعد المحدّد ذهبت إلى إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة، وألقيت خطاباً، كنت فيه مثل قصّاص الأثر، أتابع الملك حسين في خطابه فقرة فقرة، ما خلا الاستهلال المعروف «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإنه لا معقّب لكلمات الله.

وهنا كذلك، وجدت أن تعريف الجماهير العربية المعاصرة والمقبلة، بأسباب الكارثة، تفرض عليّ أن أنتزع خطابي من ملفاتي وأضمه إلى مذكراتي، لتكون الصورة في وجهيها بارزة واضحة، وخاصة أن خطابي تناول القضية العربية والظروف التي تكتنفها، وأشار إلى موقف الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، وأوجز السياسة الهاشمية من عهد الحسين الكبير إلى حسين الصغير، و.. و.. و...

وهذا هو الخطاب للتاريخ وللتاريخ فقط:

«أيها الإخوة المواطنون،

«كان يوم الثلاثاء الماضي يوماً رائعاً حقاً، يوماً مجيداً لأنه كان يوم الخريجين في عجلون.

«والمنظمة تعتبر الخريجين أبناءها، وتعتبر عجلون بلدها، والأهل أهلها، فكُلّ مواطن في الأردن هو عضو طبيعي في المنظمة، وكُلّ بلد في الأردن هو بلد المنظمة، والشعب كُلّه في الأردن هو شعب المنظمة.

«كُلّ شيء في ذلك اليوم كان رائعاً ومجيداً، إلا الملك حسين وخطاب الملك حسين. فقد كان خطاب الملك حسين دون مستوى الخريجين، دون المستوى بكثير، في كثير من القضايا التي عالجها. فقد تحدث الملك حسين عن القومية العربية، عن الدين الإسلامي، عن الشيوعية، عن الاتحاد السوفياتي، عن الصين الشعبية، عن الحلف الإسلامي، عن منظمة التحرير، عن مؤتمر القمة، وتحدث أخيراً عن خطر أنصاف المتعلمين.

«وقد أثبت خطاب الملك حسين خطر أنصاف المتعلمين، فالمواطن، أي مواطن، إذا كان من أنصاف المتعلمين فإنه خطر على الوطن بلا ريب، وخطر على الأمة بلا ريب، ولكن إذا كان الملك، أي ملك، هو من أنصاف المتعلمين فذلك هو الخطر كُلّ الخطر على الشعب وعلى الأمة.

«ولقد لقي هذا الخطاب، خطاب الملك حسين، استياء عاماً لدى الشعب الفلسطيني كُلّه، ولدى الأمة العربية بأسرها.

«الشعب في الأردن، كُلّ الشعب، ناقم ساخط على خطاب الملك حسين، المواطنون جميعاً في الضفة الشرقية وفي الضفة الغربية أجمعوا على استنكار خطاب الملك حسين.

«الجيش الأردني، ضباطه الشجعان وجنوده البواسل، كلهم غاضبون، كلهم ناقمون على خطاب الملك حسين. إخواننا في المدن وفي القرى، في المخيمات وفي الخطوط الأمامية جميعاً غاضبون، وجميعاً ناقمون.

«ولكن الذي يبتهج لخطاب الملك حسين إسرائيل وإذاعة إسرائيل، بريطانيا وإذاعة بريطانيا، وأمريكا وإذاعة أمريكا، فهنيئاً للملك حسين بإسرائيل، وهنيئاً للملك ببريطانيا، وهنيئاً للملك حسين بأمريكا، ونحن نقدم هذه التهنئة للملك حسين بقلوب حزينة لأننا لا نريد لأي ملك عربي، ولا لأي زعيم أن يحشر نفسه في معسكر إسرائيل وفي معسكر الاستعمار، ولكن حسين اختار أن يكون في معسكر إسرائيل وفي معسكر الاستعمار، فهنيئاً له ما اختار، ويا شرّ ما اختار!

«أيها الإخوة المواطنون: لقد كنت حريصاً على الدوام ألا أقحم الملك حسين في أي خلاف بين المنظمة والأردن، بل كنت حريصاً على الدوام أن أجامل الملك حسين، وأن أذكره بالثناء والتقدير، كما كنت حريصاً على الدوام أن أزيل مخاوف الملك حسين وما أكثر مخاوفه! وأن أزيل هواجس الملك حسين وما أكثر هواجسه! وأن أملأ قلبه بالطمأنينة، ولم يكن في قلبه مكان للطمأنينة.

«أعلنت مائة مرة ومرة أننا لا نريد أن نتدخل في الكيان الأردني. أعلنت مائة مرة ومرة أننا لا نريد أن نسلخ الضفة الغربية من الشرقية. أعلنت مائة مرة ومرة أننا لا نريد أن نقيم حكومة فلسطين لا في الوطن ولا في المهجر. أعلنت مائة مرة ومرة أننا لا نفرق بين المواطنين من الضفة الشرقية أو من الضفة الغربية.

«ولقد وضعنا في ميثاقنا الوطني مادة صريحة أننا لا نريد أن نمارس سيادة إقليمية على الضفة الغربية، ولقد ضجت الطائرات وأنا أسافر إلى عمّان ذهاباً وإياباً، لأزيل مخاوف الملك حسين وهواجس الملك حسين. ولقد اتهمت غير مرة من شبابنا المتحمس أنني أسلمت المنظمة للملك حسين، وأن المنظمة لم تعد فلسطينية، وإنما أصبحت أردنية تابعة للملك حسين.

«ويوم تمّ توقيع الاتفاقية مع الأردن، واتهمت المنظمة بالتقصير، وبالتقصير

الشديد، ويوم تقرر وقف الحملات الإذاعية بين المنظمة والأردن، كاد العاملون في الإذاعة، في إذاعة منظمة التحرير: المذيعون والكتّاب والمحررون والسعاة والحجاب، كاد هؤلاء جميعاً أن يضربوا عن العمل احتجاجاً على هذه الهدنة، ويوم رفض الملك حسين مقابلتي في عمّان كتمت الخبر وما سمحت بنشره.

«لقد لقيت هذا وغير هذا، من العنت والإرهاق الذي طال اصطبارنا عليه. لقيت هذا وغير هذا طمعاً في أن يسير الملك حسين مع منظمة التحرير بكل إخلاص وبكل أمانة لننسى الماضي القريب الحزين، ونعيش حاضرنا مع الملك حسين، ومن أجل مستقبلنا مع التحرير، بل إنني كنت أطمع في أن يصبح الملك حسين محرراً عظيماً، لا ملكاً، له في التاريخ سطر واحد أو كلمة واحدة. كانت هذه آمالي في الملك حسين، أو كانت هذه، إن شئتم، سذاجتي في التفكير، بالنسبة إلى الملك حسين.

«الملك حسين في خطابه في عجلون يشكو من المعارك الجانبية، ولكنه أباح لنفسه أن يفتح هذه المعركة الجانبية مع المنظمة، مع شعب فلسطين، بل مع الأمة العربية جمعاء. ونحن وإن كانت تحزننا هذه المعركة الجانبية، إلا أننا نعرف نتيجتها، نعرف مصيرها. إنها ستكون انتصاراً للمنظمة، انتصاراً للشعب، وهزيمة للملك حسين ومن هم وراء الملك حسين. أقول هزيمة للملك حسين ولمن هم وراء الملك حسين، لا ظلماً ولا بهتاناً، ولكن لأن خطاب الملك حسين يوم الثلاثاء الماضي في عجلون لم يكن مصادفة في توقيته، بل لقد كان كجزء من حملة أمريكية مركّزة، حملة أمريكية مركزة على القضية العربية، حملة أمريكية على قضية فلسطين، حملة أمريكية على منظمة التحرير وعلى جيش التحرير.

«في أوائل هذا الشهر خطب روبرت همفري نائب رئيس الولايات المتحدة منددا بالقضية العربية، فحمل على شعب فلسطين، وعلى قضية فلسطين، وقال إن منظمة التحرير هي خطر على إسرائيل. ثُمّ جاء بعده السيناتور الأمريكي الصهيوني غاربنشتين، وقدم اقتراحاً بإلغاء وكالة الإغاثة ودفع الأموال رأساً إلى الدول المضيفة، وجاء بعد ذلك ماكلوفسكي المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الأمريكية، وطالب بقطع الإغاثة عن الفلسطينيين الذين ينضمون إلى جيش التحرير الفلسطيني، وجاء بعد ذلك كينيدي الصغير شقيق كينيدي القتيل يحمل على القضية العربية، يحمل على شعب فلسطين، وعلى منظمة التحرير، وعلى جيش التحرير.

«وفي يوم الثلاثاء، منذُ ثلاثة أيام، وقف الملك حسين في عجلون يخطب ضدّ القومية العربية، ضدّ قضية فلسطين، ضدّ شعب فلسطين، ضدّ منظمة التحرير، وضدّ جيش التحرير. وحين يترجم هذا الخطاب، خطاب الملك حسين إلى اللغة

الإنكليزية، أو إذا شئتم إلى اللغة الأمريكية، يبدو تماماً أن هذا ليس خطاباً عربياً، وإنما هو خطاب أمريكي على لسان ملك عربي، فبئس الخطاب، وبئس الذي خطب!

«أيها الإخوة المواطنون، لست أقول هذا الكلام جزافاً، ولكني أقوله عن روية وعن تفكير، لقد قرأت خطاب الملك حسين ثلاث مرات، ثُمّ استمعت إلى تسجيل كامل له حتّى تصدّق أذناي ما قرأته عيناي، وليت أحداً في بسمان يبحث عن الملك حسين اليوم يوم الجمعة، وأحسب الآن أنّه في العقبة بحسب عادته في يوم الجمعة، ليت أحداً في بسمان يبحث عنه حتّى يستمع إلى جوابي كما استمعت إلى خطابه.

«لقد تحدث الملك حسين عن القومية العربية، فأبدع وأجاد، وقد حسبت وأنا أستمع إليه أنّه طالب يخطب في مباراة خطابية، الصوت فيه نبرة قوية، والعبارات جميلة فيها سجع وإيقاع. دعا الملك حسين إلى أن تكون القومية العربية في إطارها الدينيّ، «القومية العربية في إطارها الدينيّ». هذا ما دعا إليه الملك حسين في عجلون، تحدث طويلاً عن الدين الحنيف، عن القيم الروحية الأخلاقية، عن الشريعة السمحاء وآدابها، ثُمّ حضّ على الاعتصام بحبل الدين، وإعلاء راية الدين، والتعاطف بين المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«كُلّ هذه هي عبارات الملك حسين، ولا أحسب عربياً يخالفه في هذه الدعوة، ولكن نريد أن نتساءل: أين موضع الملك «المعظم»؟ أين موضع الملك المعظم من هذه الدعوة العظيمة؟ أين موقع الملك حسين من الشريعة السمحاء، من الدين الحنيف، من القيم الروحية التي أمر بها الدين الحنيف؟ أين، أين؟

«نحن في المنظمة لا نتعرض للشؤون الشخصيّة لأي ملك، لأي رئيس، نحن لا نتعرض لسلوك الملك حسين في ليله ونهاره، في عقبته وفي بسمانه، في سِرّه وفي علانيته، ولكن إذا كان الملك حسين يتحدث بإسهاب عن الدين الحنيف، فمن حقنا نحن الشعب أن نسأله عن مكانه من الدين الحنيف.

«سيدنا عمر قال: «من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه». ولما قال له أحد المسلمين والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحدّ السيف. أجابه عمر: «أحمد الله أن جعل في المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه». هذه هي القيم الروحية. هذا هو تراث الإسلام، هذه هي مبادئ الإسلام التي يتحدث عنها طويلاً الملك حسين من وراء المذياع وفي خطبته في عجلون، فهل لنا نحن الشعب أن نسأل الملك المعظم الداعي إلى الإسلام: كم مرة صلى الجمعة في المسجد الأقصى منذُ تولى الملك؟ جماهير المسلمين في الأردن تؤم المسجد الأقصى لصلاة الجمعة، إخواننا القرويون من حول مدينة القدس يؤمون القدس مشياً على أقدامهم. والكثيرون من مدننا وقرانا في

فلسطين يجهزون أنفسهم ليوم الجمعة لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، إخواننا السوريون في دمشق يركبون السيارات كُلّ جمعة إلى القدس للصلاة في أولى القبلتين وثالث الحرمين، فهل صلى معهم الملك المعظم مرة واحدة؟ هل صلى ملك الشعب مع الشعب؟

«وفي أسفاره الكثيرة إلى باريس، إلى لندن، إلى أمريكا، هل خطر في بال الملك حسين مرة واحدة أن يصلي في مساجدها حتّى ترى الدول الغربية أن الملك حسين قائم بشعائر الإسلام التي جاء ليدعو إليها أخيراً، وفي خطابه في عجلون.

«إن رؤساء الدول الغربية جميعاً: الملكة إليزابيث، ديغول، أديناور، جونسون، جميع هؤلاء وفي مناسبات متعددة يذهبون إلى الكنيسة يوم الأحد، فهل خطر على بال الملك حسين أن يذهب إلى المسجد في باريس حتّى يسرّ المسلمون: إخواننا المغاربة، الجزائريون، المراكشيون، التوانسة، المصريون، والعرب المسلمون الموجودون كلهم في باريس، حتّى يسرّوا بلقاء الملك حسين يسجد لله في بيت الله، خاضعاً، خاشعاً، وحتى يرى الشعب الفرنسي رجاله ونساؤه أن مليكنا الشاب الذي يدعو إلى الإسلام في عجلون يعرف حقّ الله في باريس، ولا يذهب به الشيطان إلى غير طاعة الله؟

«لقد دعوت الملك حسين أن يقتدي برؤساء الدول الغربية لا لأنني أريد هذا، أبداً. لا أريد لعربي أن يتخذ من رؤساء الدول الغربية قدوة أو أسوة. ولكن حسين هو الذي أراد لنفسه هذا. هو الذي أراد أن يكون رؤساء الغرب له قدوة وله أسوة. . . فقال في خطابه في عجلون: «إنّه ينتمي إلى أسرة الأحرار في العالم»، من هي هذه الأسرة التي ينتمي إليها؟ ومن هم أولئك الأحرار الذين ينتمي إليهم الملك حسين؟ أسرة أحرار العالم. نريد من الملك حسين أن يدلنا عليها. إن أسرته من أحرار العالم، هم رؤساء الدول الغربية، هؤلاء هم أسرته، ألا بئست الأسرة، وبئس ما كانوا يفعلون!

«وليس للملك حسين أن يغضب من هذه المصارحة، هذه هي القيم الروحية الإسلامية التي سنّها الإسلام، والإسلام ليس خطباً رنانة، ولكنه شعائر تؤدى، وواجبات يحاسب عليها الغافلون حساباً عسيراً.

«ولقد كان الملك حسين فصيحاً وبليغاً في حديثه عن الإسلام، ومن حقنا أن نحاسبه، بل من حقنا أن نناقشه، وأن نبحث عن مكانه الصحيح من الإسلام الصحيح.

«وقد مضى الملك حسين في خطابه يندّد بالإلحاد، ويدعو إلى التمسك بأهداب

الدين، ولا أحسب عربياً، مسلماً كان أو مسيحياً، يخالف الملك حسين في هذه الدعوة، ولكن ما مناسبة هذه الدعوة؟ ما مناسبة هذا الكلام في هذه الأيام؟ الأمة العربية أمة متدينة، متمسكة بعقيدتها، والإسلام بخير في الأمة العربية، والأمة العربية بخير في إسلامها، وليس في الوطن العربي إلحاد ولا دعوة إلى الإلحاد. الشعوب العربية مؤمنة كُلّ الإيمان، الشعوب مؤمنة في الوطن العربي بأسره، وإذا كان الملك حسين يقصد بدعوته التلميح إلى الاشتراكية، فإن الاشتراكية كنهج وأسلوب تهدف إلى العدل، والعدل روح الإسلام. وقبل يومين في اجتماع شعبي كبير في البحيرة قدم محافظها المصحف الشريف الكريم إلى الرئيس جمال عبد الناصر، ومثل هذا يحدث في دمشق وفي بغداد وفي الجزائر وغيرها من الحواضر العربية، فعلامَ هذا النواح على الإسلام، وعلام هذا العويل على حضارة الإسلام، الإسلام بخير، ولكن الملك ليس بخير.

«الملك حسين يدعو من وراء هذا الكلام إلى حرب مقدسة ضدّ الاتحاد السوفياتي وضدّ الصين الشعبية. الحرب المقدسة كلام ورد في خطاب الملك حسين وليس هذا كلامي، إن شعب فلسطين ومعه الأمة العربية، لا تدين بالشيوعية ولا تريد أن تدين بالشيوعية. إن الأمة العربية لها دينها وتقاليدها ولها حضارتها وتعتز بها، ولكن الدعوة إلى حرب مقدسة ضدّ الاتحاد السوفياتي وضدّ الصين الشعبية هو كلام دالاس الراقدة عظامه تحت تراب الولايات المتحدة، وزير الخارجية الأمريكية الذي دعا إلى حرب صليبية ضدّ روسيا وضدّ الصين. وهكذا يبدو جلياً، مرة ثانية، أن خطاب الملك حسين لو ترجم إلى لغة دالاس لبدا أنّه خطاب أمريكي بلسان ملك عربي.

«والملك حسين المعظّم يرتكب خطأ أعظم، إنه يقارن بين خطر الشيوعية وخطر الصهيونية، فيقول في خطابه، وهذا كلامه: «إن خطر الصهيونية يتضاءل حين يُقارن بخطر الشيوعية». إن منظمة التحرير تعلم جيداً أن الدول، جميع الدول، لها مطامعها وخططها. ولسنا نريد أن نكون تبعاً للدول الشيوعية، لسنا تبعاً للمشرق أو للمغرب، ولكن الشيوعية بالنسبة إلينا، كائناً ما كان ضررها أو خطرها، خطر محتمل وقوعه، ولكن الصهيونية خطر قائم، خطر واقع، فكيف يجوز للملك حسين أن يجعل الصهيونية أقل خطراً من الشيوعية؟ إن الشيوعية على أسوأ حالاتها تفرض نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وكفى، ولكنها تبقي الشعب في وطنه، وتبقي الوطن للشعب. أما الصهيونية، فقد طردت الشعب، الصهيونية اغتصبت الوطن، فكيف يجرؤ الملك حسين على هذه المقارنة الغاشمة، المقارنة الفاضحة الظالمة، هذا هو الإلحاد. الإلحاد القومي من غير شكّ ولا ريب. وقد وقع الملك حسين في الإلحاد الذي يندّد به، فكان ملحداً في مقارنته بين الشيوعية وبين الصهيونية.

«وانطلاقاً من الحملة على روسيا، راح الملك حسين يقول: «إن الأسلحة السوفياتية قد أغرقت المنطقة. هذا كلام الملك حسين كما جاء في خطابه، وليس كلامي، وإنها لكارثة عقلية ووجدانية أن يتحدث الملك حسين بهذا المنطق، وأقولها مرة ثانية: لو ترجم هذا الكلام إلى اللغة العبرية لكان منطقاً إسرائيلياً تماماً، هذا هو كلام إسرائيل، وهذا هو كلام أمريكا مع إسرائيل، وما فتئت إسرائيل تقول بملء صوتها إن الأسلحة السوفياتية قد أغرقت المنطقة. الأسلحة السوفياتية هي في أيدي جيوش عربية، جيوش ثورية، وراءها شعوب عربية ثورية ودول عربية ثورية: الجمهورية العربية المتحدة، وسوريا، والعراق، والجزائر... ماذا يريد الملك حسين من وراء هذا الكلام عن الأسلحة السوفياتية في المنطقة؟ بل ماذا يكون حال الأردن، حال الأردن بالذات، من دون الأسلحة السوفياتية في القاهرة ودمشق وبغداد وفي الجزائر؟ على الملك حسين أن يجيب عن هذه الأسئلة بشجاعة، أمام الشعب، فإن الشعب يعرف كيف يحاسبه.

«ولقد كانت لنا تجربة مريرة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨. الدول الغربية منعت عنا السلاح والذخيرة وقطع الغيار، الدول الغربية ترفض أن تسلح الدول العربية إلا بشروط وبشروط ثقيلة في الأعناق، وعلى أساس التوازن مع إسرائيل، فهل نضع أنفسنا مرة ثانية، هل نضع شرفنا مرة ثانية، هل نضع مصيرنا مرة ثانية، تحت رحمة السلاح من بريطانيا ومن أمريكا؟ فإذا كان الملك حسين لا يستطيع أن يشكر، فلماذا يكفر؟

«ولكن الملك حسين له أسباب كثيرة يكره من أجلها السلاح السوفياتي. إن الملك حسين يكره السلاح السوفياتي لا لأن الأمر يتصل بالدين، أو يتصل بالعقيدة أو بالإلحاد. إن الأمر يتصل بالمال. إن السلاح الغربي يكلف خمسة أضعاف ثمن السلاح الشرقي، وبهذا يكون القومسيون من السلاح الغربي أكبر وأكبر، والسلاح السوفياتي على كُلّ حال ليس عليه قومسيون أو سمسرة، لا للوسطاء ولا للسماسرة، حتّى ولو كانوا ملوكاً أو أشباه الملوك.

«الملك حسين لا يكتفي بالحملة على روسيا والصين. ولكنه يمضي إلى أبعد من هذا. الملك حسين يبرئ الاستعمار الغربي وقد تعجبون من هذا. الملك حسين يدافع عن الاستعمار الغربي، وقد تعجبون من هذا. ولكن حسين في خطابه يقول وأنا أقتبس كلماته: «إنها لدعوة فارغة أن نعتبر الاستعمار وراء ما حلّ بنا من نكبات»، وإني أعوذ بالله أن يقول ملك عربي بل إنسان عربي، بل إنسان منصف في هذا الوجود، مثل هذا القول الغاشم الآثم. إن الذين كتبوا هذا الخطاب للملك حسين قد أساؤوا إليه وإلى العروبة وإلى التاريخ. وكيف يرضى الملك نفسه أن يقرأ هذا الخطاب؟

أليس الاستعمار هو السبب المباشر في نكبة فلسطين؟ أليس الاستعمار هو أسّ الداء ورأس البلاء؟ إن الذي يدافع عن الاستعمار ليس له مكان في الأمة العربية، وليس جديراً بشرف الإقامة بين ظهرانيها أو الانتساب إليها.

«ويتحدث الملك حسين بعد ذلك عن الوحدة العربية، حديثاً جميلاً كريماً. يقول في خطابه: «يجب أن نبذل في سبيل تحقيقها أقصى جهدنا وغاية طاقاتنا». والحديث عن الوحدة العربية إذا كان الشاعر مبدعاً، أو الخطيب مصقعاً، صفقنا له، لأن الشاعر، والخطيب، لا يملك إلا أن يتمنى بنثره ويتمنى بشعره، وليثير أحاسيسنا لتحقيق ما يتمنى، ولكن الملك يوم يتحدث عن الوحدة، ولكن حسين حين يتحدث عن الوحدة العربية، ويدعو إلى أن نبذل في سبيل تحقيقها قصارى جهدنا وغاية طاقاتنا، يجب أن نحاسبه، ويجب أن نطالبه، وها نحن الآن في ساحة الطلب وفي ساعة الحساب، وعلى حسين أن يقف أمام الشعب يؤدي الحساب.

«الأردن، أيها الإخوة المواطنون، أكثر الأقطار العربية حاجة إلى الوحدة العربية. إذا كانت الوحدة العربية ضرورة قومية في المغرب، فهي للأردن تحرير، والأردن ليست له مقومات الدولة، وهو يعيش عالة على الولايات المتحدة. ويحزننا هذا، ويفجعنا أن يكون قطر عربي ودولة عربية تعيش بمنّة من الولايات المتحدة، لكن هذه هي الواقعة، تركة الكارثة: كارثة فلسطين. الأردن له حدود طويلة مع العدو، ٦٥٠ كيلومتراً مع إسرائيل، والشعب في الأردن والجيش في الأردن على شجاعتهما لا يملكون وسائل الدفاع، فضلاً عن الهجوم. فإذا تخلت الدول العربية كلها عن الوحدة العربية، فليس للأردن أن يتخلى عنها، لأن الوحدة للأردن هي دفاع وهجوم، هي إنقاذ وتحرير، هي بقاء أو فناء. على ميمنة الأردن سوريا، وفيها شعب أكبر ولها جيش أكبر وحدودها مع العدو ٧٥ كيلومتراً، لا ٦٥٠ كيلومتراً كما هو الحال بين الأردن وإسرائيل، وخلف الأردن العراق، فيه شعب أكبر، فيه جيش أكبر، فيه موارد أكبر، فإذا كان الملك حسين جاداً في الكلام عن الوحدة العربية، فما عليه إلا أن يعلن الوحدة مع العراق أو سوريا أو كليهما، وأنا هنا لا أذكر الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة لأني حريص على أن لا يغمى على الملك حسين، ونحن نذكر الجمهورية العربية المتحدة.

«يقول الملك حسين في خطابه: إن قضية فلسطين هي قضيتنا الأولى. فإذا كان هذا الكلام صحيحاً، فإن الوحدة هي الطريق إلى التحرير. إن العقبة أمام هذه الوحدة هي إنسان واحد، إنسان واحد فقط، اسمه الملك حسين. العقبة هي العرش، وعلى الملك حسين أن يختار بين العرش والوحدة، بين العرش والتحرير، بين العرش وفلسطين. إذا كان الملك حسين صادقاً في خطابه فعليه أن يختار فلسطين، أن يختار

الوحدة، أن يختار التحرير. فإن فعل ذلك، ونحن نرجو أن يفعل ذلك، كان صادقاً في خطابه ونزل في التاريخ كأعظم مواطن في المشرق العربي. ولكنه إن لم يفعل كان من حقّ الأمة العربية أن تحسب الملك في حديثه عن فلسطين، في خطابه عن الوحدة، إنما هو في عداد خطبائها الصغار، وكفى الله المؤمنين هؤلاء الصغار.

«أقول هذا لأن الملك حسين في خطابه يعلن أن تحرير فلسطين ليس خطباً رنانة، رحم الله عبد السلام عارف، في مؤتمر الإسكندرية، مؤتمر القمة العربي الثاني، عبد السلام عارف رأى الملك حسين يسحب خطاباً من جيبه ليقرأه، فصاح: يا أخي ما جئنا هنا لنخطب؟

«ومع هذا، فإن الملك حسين ما زال يخطب.

«وبعد الحديث عن الوحدة العربية يمضي الملك حسين إلى تأييد الجامعة العربية ووجودها، ويدعو إلى دعمها وتأييدها، وطبيعي أن الملك حسين يريد من الجامعة العربية ما يحلو له منها. الجامعة العربية تجمد الأوضاع العربية القائمة، فلِمَ لا يدعم الملك حسين الجامعة العربية؟ الجامعة العربية قراراتها غير نافذة إلا لمن يرضاها، فلِمَ لا يدعم الملك حسين الجامعة العربية؟ من أجل هذا، فإن الملك حسين يمجّد الجامعة، ولكنه لا يتقيد بها إلا في ما يحلو له أن يتقيد به.

«لست أريد أن أعود بالذاكرة بعيداً وبعيداً، إلى قرار صدر في الجامعة العربية سنة ١٩٥٠، ذلك القرار الذي يعلن عدم الموافقة على ضمّ الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، واعتبار فلسطين وديعة في المملكة الأردنية، فذلك حديث قديم، لا أريد أن أعود إليه، ولكن الأمر الحادث الحديث أن الجامعة العربية أرادت أن تعقد مؤتمراً لأجهزة فلسطين في القدس في هذا الشهر، إن في ذلك تعزيزاً للأردن ولقضية فلسطين، وإذا جاز للسودان مثلاً أن يعتذر عن عقد هذا الاجتماع لسبب أو غير سبب، فلا يجوز للأردن أن يعتذر كائنة ما كانت الأسباب. يجب أن تفتح عمّان وأن تفتح القدس لهذا الاجتماع، الملك حسين يقول إن قضية فلسطين هي قضيتنا، فكيف يجوز أن يعتذر الأردن عن هذا الاجتماع العربي، بل الاجتماع الفلسطيني على أرض فلسطين ومع شعب فلسطين. صحيح أن قضية فلسطين هي قضية الأردن، ولكن على صعيد الشعب الشجاع، على صعيد الجيش الباسل، أما على صعيد الملك حسين ومن حول الملك حسين، فهي قضية خطب رنانة، وسلام ملكي يعزف من حين إلى حين، وأقواس نصر تقام هنا وهناك، وليكن بعد ذلك ما يكون.

«ولسنا نقول هذا الكلام جزافاً، فإن قضية فلسطين عند الملك حسين ليست إلا خطاباً عابراً، فلو أن قضية فلسطين هي عنده قضية حياة أو موت، كما قال في

خطابه، فمن حقنا أن نسأله عن موقفه من الحبيب بورقيبة. الحبيب بورقيبة دعا إلى التعايش السلمي، وإلى التفاوض مع إسرائيل. وكان ذلك أول ما دعا اليه حينما كان في الأردن، وعلى أرض الأردن، وعلى مسمع من مليك الأردن، فماذا كان موقف الملك حسين؟ الملك حسين منع التظاهرات الشعبية، ومنع إرسال البرقيات إلى المنظمة لاستنكار موقف بورقيبة. لقد غضب شعبنا في الأردن، وكان من حقه أن يغضب على بورقيبة وهو يدلي بتلك التصريحات الآثمة الخائنة على أرضنا وعلى مسمع من شعبنا، ولكن ملك الأردن لم يغضب مع الشعب، فالشعب في واد والملك في واد، وشتّان بين مشرق ومغرب.

«ولكن الملك حسين قد هوى إلى الحضيض، بل إلى قاع الحضيض. حين يتحدث عن القمة، عن مؤتمرات القمة. إنه حديث عن القمة، ولكن من الحضيض إلى الحضيض. لقد شكا الملك من الهجوم على مؤتمرات القمة، وقد يلوح أنّه كان يبكي. الصحيح أنّه كان يتباكى على مؤتمرات القمة، لقد قال: إن نسف مؤتمر القمة هو نكسة كبرى، وإن مؤتمر القمة يجب أن يكون قمة فعلاً.

«ونحن نرفض هذا الكلام من الملك حسين، ولو قاله فلسطيني أو عربي يحسّ القضية العربية من ضميره وأعماقه، والنكبة إلى قراراتها، لقبلنا منه هذا الكلام، ولكننا نرفضه من الملك حسين. ليس المهم أن الملك حسين كان أول من استجاب لدعوة الرئيس عبد الناصر، حينما دعا إلى مؤتمر القمة، ليس المهم أنّه أول من استجاب، لكن المهم أن نعرف سلوك الملك حسين، تصرفات الملك حسين تجاه مؤتمر القمة.

«الملك حسين يشكو من محاولة نسف مؤتمرات القمة، ولكن الملك حسين هو أول من طعن، وهو أول من خالف قرارات مؤتمر القمة. منذُ كانت القمة، والملك حسين يخطب عن مؤتمرات القمة، بمناسبة أو غير مناسبة، يتمسح بأعتاب مؤتمر القمة ويتبارك بخيرات مؤتمر القمة، وينعم بأموال مؤتمر القمة، ولكن لا يقوم بمسؤوليات القمة، ولا بواجبات القمة. الملك حسين كذلك يتمسح بالقيادة العربية الموحّدة في كُلّ تصريح، في كُلّ خطاب نسمع الملك حسين وهو يقول: «نحن ملتزمون بخطّة القيادة العربية الموحّدة»، حتّى كأنه يبدو لنا إذا قلنا للملك حسين «صباح الخير»، قد يفكر ألا يردّ علينا التحيّة، لأن «صباح الخير» لم تردّ في خطة القيادة العربية الموحدة!

«والواقع أن الملك حسين هو أول من خالف مؤتمر القمة، وأول من خالف القيادة العربية الموحدة، ودعوني أقلها لكم بصراحة، لأن الأمر لم يعد سراً. الخطة العربية الموضوعة كانت تقضي بأن تدخل القوات السعودية والعراقية إلى داخل

الحدود الأردنية، ولكن الملك حسين رفض قرار القمة، رفض قرار القيادة الموحّدة، ولو أن القوات السعودية والعراقية كانت متمركزة في الأردن إلى جانب الجيش الأردني الباسل بجنوده الشجعان، بضباطه الأبطال، لو أن القوات العراقية والسعودية كانت متمركزة في داخل الأردن، ما جرؤت إسرائيل على أن تضرب قرية رافات في الشهر الأخير، وتلقي إلى أطفالنا الشوكالاتة الحلوة، وهي أمرّ من العلقم في الهزء والسخرية!

«بل إنه ما كان لإسرائيل أن تجرؤ على ضرب القرى الأمامية، لو كانت القرى الأمامية مسلحة، ما كان لإسرائيل أن تعبر خطّ الهدنة ١٠٨٦٠ مرة، وهذا رقم الحكومة الأردنية وليس من أرقام المنظمة، ولا من أرقام الصحف العربية أو الأجنبية. والمسؤولون عن الهدنة في عمّان صرحوا أخيراً بأن إسرائيل منذُ وقّعت اتفاقية الهدنة خرقت خطّ الهدنة ١٠٨٦٠ مرة، فلو كان التجنيد الإجباري معمولاً به على جميع المواطنين لهبّ الشعب يردّ هذا الخرق لاتفاقية الهدنة، على مسمع وعلى بصر من الأمم المتحدة ومن العالم بأسره.

«إن القيادة العربية الموحّدة منذُ أنشئت، وهي تلحّ على الملك حسين أن يطبق التجنيد الإجباري، ولكن من غير جدوى. القيادة العربية الموحدة، إلى الفجر، في ليال متعاقبة في عمّان، تلحّ على المسؤولين في الأردن أن يطبقوا التجنيد الإجباري في الأردن. على الميمنة الأردنية نرى الجمهورية العربية المتحدة تطبق التجنيد الإجباري، وعلى الميسرة نرى الجيش السوري يطبق التجنيد الإجباري، وأمامكم العدو الإسرائيلي يطبق التجنيد الإجباري، ٢٦ شهراً للشباب وللرجال، و٢٠ شهراً للمرأة والفتاة الإسرائيلية، ومع هذا فإن الملك حسين في كُلّ مناسبة وفي غير مناسبة يخطب بأعلى صوته مطالباً بالتزام خطة القيادة العربية الموحّدة، والملك حسين بعد ذلك لا يلتزم بالقيادة الموحّدة. ليست خطط القيادة العربية خططاً فارغة، القيادة العربية شرف الالتزام لأن شرف التحرير يدعو إلى شرف الالتزام. إذا كان الملك حسين عامراً قلبه بالتحرير فأقل واجباته القومية أن يلتزم بخطّة القيادة العربية بتطبيق التجنيد الإجباري على جميع المواطنين في الأردن، على الشعب في الأردن بأسره.

«والملك حسين يقفز بعد ذلك من التاريخ الحديث إلى التاريخ القديم. الملك حسين في خطابه تحدث عن الثورة العربية الكبرى وصلتها بقضية فلسطين، إن الثورة العربية الكبرى فيها جوانب مشرّفة، مشرّفة في غاياتها وفي دوافعها، وفي من سقط فيها من الشهداء من أبناء فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وغيرها من البلدان العربية، ولكن الثورة العربية الكبرى فيها جانب مظلم، جانب مظلم جداً، هو

الشريف حسين، شريف مكة. وإنني لا أحّمل حسين الصغير أوزار حسين الكبير: ﴿**ولا تَزِرُ وازِرة وِزرَ أخرى**﴾[1] صدق الله العظيم.

وحسين الكبير ـ على غير ما قال حسين الصغير ـ ليس أول شهدائها ولا أول ضحاياها كما يقول في خطابه في عجلون، على العكس. . إن قضية فلسطين، إن الوحدة العربية، هي أولى ضحايا حسين الكبير.

«إن الشريف حسين قد اشترك في الثورة التي أشعل نارها الشباب العربي في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وغيرها من البلاد العربية. لكن الشريف حسين اشترك فيها لا من أجل الأمة العربية، ولكن من أجل المُلْك، ومن أجل العرش، ومن أجل التاج، وكان المُلْك كُلّ همه. لقد دخل في مراسلات مع مكماهون الذي كان هنا في القاهرة في الحرب العالمية الأولى، دخل معه في مراسلات لمدّة أشهر والشريف حسين يتساءل عن حدود مملكته، لا عن حدود الوطن العربي الذي يجب أن يحرّر، وكانت الصهيونية معروفة يومئذ بكل أخطارها. الحديث عن الصهيونية كان في أوروبا كلها، وكان في الدولة العثمانية، كان في البرلمان العثماني، وأولاد الشريف حسين كانوا نواباً عن الحجاز في البرلمان العثماني، واستمعوا إلى نواب القدس. . . الخالدي والحسيني وغيرهم من نواب فلسطين في مجلس المبعوثان يذكرون خطر الصهيونية، فالشريف حسين كان يعلم خطرها وكان يعلم بمكرها وأطماعها في فلسطين. كانت بينه وبين إنكلترا ثماني رسائل: أربع من الشريف حسين وافدة إلى القاهرة، وأربع من مكماهون عائدة من القاهرة إلى مكة بشأن الحدود، ولكن الشريف حسين لم يكلف قلمه مرة واحدة أن يكتب مرة واحدة، كلمة واحدة، في هذه الرسائل الثماني، كلمة «فلسطين». لم يطالب مرة واحدة بأن تكون فلسطين داخلة ضمن حدود الاستقلال. وعلى العكس من ذلك، فبعد أربعة أشهر من تاريخ صدور وعد بلفور كتب الشريف حسين وفي جريدته المسماة **القبلة** التي كانت تصدر في مكة، كتب بتاريخ ٢٣ آذار/ مارس سنة ١٩١٨ مقالة يدعو فيها السكان العرب في فلسطين إلى أن «يضعوا نصب أعينهم أن كتبهم المقدسة وتقاليدهم تحتم عليهم واجب الكرم والضيافة والتسامح»، ويحثّهم على الترحيب باليهود كإخوة، و«على التعاون معهم من أجل الخير المشترك». هذا ما كتبه الشريف حسين بعد وعد بلفور ببضعة أشهر. وإذا كان حسين الصغير لا يعرف أين ورد هذا الكلام، فإن منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة لأن تعلمه، وهي تفعل ذلك كجزء من واجب التوعية بالقضية الفلسطينية.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة فاطر،» الآية ١٨.

«ثُمّ إن فيصلاً، فيصل بن الشريف حسين، بأمر من والده، اجتمع بالدكتور وايزمن في الصحراء في خيمة، هي خيمة فيصل بن الحسين شريف مكة، اجتمع به في شهر حزيران/ يونيو سنة ١٩١٨ بعد تصريح بلفور، ولم يكن فيصل يجهل تصريح بلفور، وفيصل كان على علم بأخطار الصهيونية، كان نائباً في الآستانة وهو يستمع إلى النقاش العربي حول خطر الصهيونية، اجتمع وايزمن وفيصل في الصحراء على بعد بضعة أميال شمال العقبة، العقبة عقبة الأردن، وهي العقبة التي لا يجهلها الملك حسين، وقد نتج من هذا الاجتماع بين وايزمن وفيصل اجتماع آخر في لندن عاصمة بريطانيا صاحبة وعد بلفور. اجتمع به في كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١٩، هناك التقى وايزمن وفيصل، وهناك كانت المساومة، فيصل يريد المُلْك له ولإخوانه، يريد المُلْك لأبيه، يريد أن يعرف حدود هذا الملك وحدود هذه الدولة.

كان فيصل يساوم زعيم الصهيونية، وهو يعرف قوة الصهيونية في أوروبا يوم ذاك وقدرتها على أن تؤيد مطالب فيصل، فكانت فلسطين هي البضاعة، وكانت فلسطين هي السلعة، ووقّع الاتفاق بين فيصل ووايزمن، وورد في المادة الثالثة من هذا الاتفاق قبول وعد بلفور، وقبول بتطبيقه في فلسطين. وبسبب هذه الاتفاقية، نحن الوفود العربية، قضيناها أياماً مريرة لثمانية عشر عاماً في الأمم المتحدة، وكُلّ مرة إسرائيل تقدم لنا هذه الاتفاقية، اتفاقية فيصل ووايزمن، ووقع علينا العبء المرير أن نفنّد هذه الاتفاقية، ولكن الحقيقة المريرة أن فيصلاً قد ارتضى بالمادة الثالثة من تلك الاتفاقية بقبول وعد بلفور وتطبيق وعد بلفور في فلسطين. صحيح أنّه ورد في ذيل هذا الكتاب أن هذه الاتفاقية تعتبر باطلة إذا لم تنفذ مطالب فيصل، يعني إذا لم تُهيأ العروش والتيجان لأبناء الحسين، حينئذ تعتبر هذه الاتفاقية لاغية. ولكن هنالك السم الزعاف قد تجرّعه فيصل وأراد أن يجرّعه إلى الشعب الفلسطيني وإلى الأمة العربية، ولا نزال حتّى يومنا هذا نحمل هذه التركة الثقيلة على أكتافنا، التركة التي خلفها الحسين وخلّفها أبناؤه، وخلّفها فيصل في اتفاقيته مع وايزمن بالموافقة على وعد بلفور.

«هذا هو دور الشريف حسين في إنقاذ فلسطين. ولم يكن الحسين هو الضحية، ولكن فلسطين كانت الضحية. صحيح أن الشريف حسين في ما بعد، اعتقل في قبرص، وأهين في قبرص، ولكن هذا نتيجة غفلته في المفاوضات مع بريطانيا بمكرها، فما استطاع الحسين أن يعرف خباياها، فكان اعتقاله في قبرص. ومرة سيق إلى المحكمة، محكمة صغيرة في قبرص، وقاضاه صاحب البيت الذي يسكن فيه يطالبه بأجر البيت، وأبناء الحسين ملوك في الشرق العربي، الملك علي في الحجاز، وفيصل في العراق، وعبد الله في الأردن، وأبناؤه ملوك، ووالدهم العجوز يُقاضى

في قبرص على إيجار الدار التي يسكنها، وإذا كان الأبناء على مثل هذا العقوق مع والدهم، فكيف يكون وفاؤهم للأمة العربية؟

«أما الضحية الثانية للشريف حسين، فقد كانت الوحدة العربية التي يخطب عنها الملك حسين. لقد كان المشرق العربي في أيام الدولة العثمانية، من جبال طوروس شمالاً إلى اليمن جنوباً، بلاداً واحدة في السفر والإقامة وفي العمل، في كُلّ مظاهر الحياة، وفي كُلّ مظاهر الوجود، ولكن المطالبة بالعروش قد هدمت تلك الوحدة، فقامت إمارة فيصل في سوريا ثُمّ انهارت، ثُمّ قامت ملكية فيصل في العراق ووقعت تحت الانتداب، ثُمّ قامت إمارة لعبد الله سميت شرقي الأردن وورثت نكبة فلسطين، ثُمّ قامت بعد ذلك مملكة في الحجاز لعلي بن الحسين، ولكنها انهارت أيضاً. وهكذا، أقيمت هذه الدويلات في الوطن الواحد في المشرق العربي من أجل الحسين وأبناء الحسين، فيصل وعبد الله وعلي، ثُمّ يأتي اليوم الحسين الصغير ليتحدث عن الوحدة العربية، فليرجع إلى التاريخ إذا كان لا يعرف التاريخ، وإن كان لا يعرفه فالمنظمة مستعدة أن تعلمه تاريخ الوحدة العربية.

«ولا يكتفي الملك حسين بالحديث عن الثورة العربية، بل يتطرق إلى الحديث عن كارثة فلسطين في سنة ١٩٤٨ ويتعرض فيها لشعب فلسطين، وقد عجبت كيف جرؤ الملك حسين على أن يتحدث عن كارثة فلسطين سنة ١٩٤٨، لقد تعرض لشعب فلسطين، ولكن شعب فلسطين لم يكن مسؤولاً عن كارثة فلسطين، شعب فلسطين دافع عن وطنه بشجاعة، دافع عن وطنه ببسالة، ولكن الأمير عبد الله ابن شريف مكة كان من أهم أسباب هذه الكارثة.

«وما كنت أريد أن أتعرض للموتى، لأنهم في ذمة الله، وشعب فلسطين شعب مروءة وشعب نخوة، ونحن نضعف أمام الموتى في قبورهم، ونتركهم للحساب أمام الديّان، ونتركهم للتاريخ ليحاسبهم، وما كنت أريد أن أنكأ الجراح القديمة، ولا أن أرجع إلى جذور الكارثة، لولا أن الحفيد حسين هو الذي نبش التاريخ، ونبش العظام، ونبش القبور، فكان علينا أن نذكر له التاريخ الصحيح.

«والتاريخ الصحيح هو أن الأمير عبد الله كان موافقاً على تقسيم فلسطين منذُ عام ١٩٣٧، حتّى تكبر إمارته وتصبح مملكة. الأمير عبد الله كان يريد أن يكون ملكاً، كان هذا الحلم يعيش في قلبه ويعيش في خياله، كلما سمع بالملك فيصل ملكاً في العراق تحركت الغيرة في أعماقه، في قلبه. كان الأمير عبد الله يريد أن يكون ملكاً ولو على أشلاء فلسطين، يريد أن يكون ملكاً على المملكة الأردنية التي تضم أشلاء فلسطين. ووصولاً إلى هذا الهدف كان الأمير عبد الله يتفاوض مع إنكلترا

ويتفاوض مع اليهود على السواء، ولما وقعت حرب فلسطين لم يدخلها للتحرير وإنما دخلها ليقتطع منها ما يقدر، ويضمها إلى الإمارة الأردنية ويجعلها المملكة الأردنية الهاشمية. وهكذا كان.

«ولقد اجتمع الأمير عبد الله بزعماء اليهود في أثناء حرب فلسطين وبعد حرب فلسطين. اجتمع في الشونة، بين القدس وعمّان، مع زعماء اليهود: قادة الوكالة اليهودية، شرتوك وغولدا مائير وعدد من الضباط الإسرائيليين ورجال السياسة الإسرائيليين. هذه الحقائق تاريخية نزلت في التاريخ، فيها وثائق وفيها سجلات تاريخية، وليست شائعات وليست أراجيف ولكنها حقائق أصيلة عميقة. لقد سلّم الأمير عبد الله اللد والرملة إلى اليهود، وهذه حقائق تاريخية يشهد بها الألوف من اللاجئين من اللد والرملة، الرجال والنساء، الذين خرجوا من بيوتهم حفاة وعراة، لأن الأمير عبد الله سلم المدينتين العربيتين الكبيرتين: اللد والرملة. وبقي إلى الآن بضع مئات من إخواننا الفلسطينيين يعيشون في اللد والرملة يعذبون كُلّ يوم، ويهانون كُلّ يوم، ويضربون كُلّ يوم، ولا أدري إذا كان الأمير عبد الله في قبره يستمع إلى هذا العذاب، إلى هذا الهوان الذي يلقاه أبناء فلسطين في اللد والرملة. وبعد اتفاقية رودس سلم الأمير عبد الله إلى اليهود المثلث العربي بقراه الجميلة، بأراضيه الخصبة، أخصب أراضي فلسطين، سلمهما الأمير عبد الله ويشهد عليها كُلّ ضحايا النكبة، كُلّ العائدين في الخيام، في عقبة جبر وغيرها من مخيمات الأردن. لم يكن شعب فلسطين سبب النكبة، لقد كان الأمير عبد الله هو سبب النكبة من أولها إلى آخرها. وإننا خشوعاً أمام الله وأمام الديّان نترك حسابه إلى الله، إلى الله العلي القدير.

«هذه هي أسرار النكبة كما اقترفها الأمير عبد الله. الأمير عبد الله كان جارنا، جار الفلسطينيين، والأمير عبد الله عربي يعرف تقاليد الجوار، الجار يحسن الجوار، ولا يخفر ذمة الجوار، ولكن الأمير عبد الله قد أحسن جوار اليهود، ولم يحسن جوار إخوانه عرب فلسطين، الرجال والنساء، والشيوخ والأطفال، الذين شردوا من وطنهم، ونزل بالأمة العربية هذا العار الكبير الذي لم تعرف الأمة العربية مثيلاً له في تاريخها الطويل. يكمن وراء كُلّ هذا إنسان اسمه الأمير عبد الله بن الحسين، وأنا لا أحمل الأوزار على الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية: ﴿**ولا تَزِرُ وازرة وِزر أُخرى**﴾ صدق الله العظيم، ولكني أريد من الملك حسين إذا تحدث عن التاريخ أن يرجع إلى التاريخ الصحيح، وأن يقول الحقّ ولو على آبائه، فهذه هي القيم الروحية الإسلامية التي يدعو إليها الملك حسين.

«غير أن خطاب الملك حسين في عجلون يضع الملك حسين أمام أوزاره

بالذات، إن الملك حسين يريد أن يصفّي قضية فلسطين، وهذا واضح في خطابه، وهذه كلماته: «إنه منطق سقيم، وسياسة هزيلة، إبقاء الفلسطينيين قيد خيامهم». هذا هو كلام الملك حسين، التوطين وراء هذا الكلام، التصفية وراء هذا الكلام، وخصوصاً فيما يدعو السناتور الصهيوني الأمريكي في واشنطن في مجلس الشيوخ، إلى إلغاء الوكالة، وإلى إعطاء أموالها للدول العربية المضيفة، وحسين في عجلون يسرع في الجواب ليقول: «إنها مهزلة ومنطق سقيم أن يبقى اللاجئون في الخيام»، والملك حسين يقول في خطابه: «إن قضية فلسطين قد زالت عنها صفتها الفلسطينية المطلقة منذُ اللحظة التي دخلت فيها الجيوش العربية فلسطين عام ١٩٤٨»، هذا ما يقوله الملك حسين في زوال الصفة الفلسطينية عن القضية الفلسطينية. ولكن هذا الكلام هو كلام إسرائيل الذي حاربناه في الأمم المتحدة لمدّة ثمانية عشر عاماً.

«غولدا مائير، وزيرة خارجية إسرائيل، المرأة العجوز، ومن قبلها أبا إيبان الذي هو الآن نائب رئيس الوزراء، على مدى ثمانية عشر عاماً، قالا في الأمم المتحدة إنّه لم تعد هنالك قضية اسمها فلسطين، فهنالك دولتان: إسرائيل في الغرب،ـ والأردن في الشرق، فلسطين قسمت، والشعب الفلسطيني اندمج في الأردن، وكلمة فلسطين لم تعد موجودة على خريطة العالم بعد قيام إسرائيل.

«هذا هو كلام غولدا مائير، هذا كلام إيبان منذُ عام ١٩٤٧. وهذا ما يقوله الملك حسين في شهرنا هذا من عام ١٩٦٦ في عجلون. إن قضية فلسطين قد زالت عنها الصفة الفلسطينية.

«ثُمّ يتحدث الملك حسين بعد ذلك عن وحدة الضفتين، وهذا الحديث أصبح ممجوجاً مملولا. إن أحداً في الأردن أو خارج الأردن، لا يتحدث في سرّه أو علنه عن وحدة الضفتين، ولكن الملك حسين يتحدث عن الضفتين ووحدة الضفتين من زاوية العرش، من زاوية التاج، والمنظمة تتحدث من زاوية الشعب، زاوية الوطن، زاوية التحرير. الملك حسين لا يعرف التاريخ، وإن من واجب المنظمة أن تعلمه التاريخ. هذا وطن واحد، وهذا شعب واحد، والأردن نهر من أنهار فلسطين، وإننا نقول إنّه نهر تجاوزاً إذا قيس بالأنهار. فما هو إلا ساقية صغيرة، الأرض أرضنا، والوطن وطننا، والشعب شعبنا، وإن أول من سلخ الضفة الشرقية عن الضفة الغربية هو الأمير عبد الله بن الحسين، لما أسس له الإنكليز إمارة أسموها شرقي الأردن. و«إمارة شرقي الأردن» لم يكن هذا الاسم معروفاً قبل ذلك في تاريخ العرب ولا في جغرافية العرب، وإذا كان الملك حسين يقول في خطابه في عجلون إن «كُلّ يد تمتد إلى هذه الوحدة بسوء سنقطعها وكُلّ عين تنظر إلينا شزراً سنفقؤها»، فإن المنظمة ستقطع اليدين الاثنتين، وتفقأ العينين الاثنتين، لأن الوطن وطن المنظمة والشعب

شعب المنظمة. وعلى الملك حسين أن يعلم أن كُلّ عين عربية تنظر إلى الأردن بالحب والتأييد، ملايين العرب في الأمة العربية في الوطن العربي الكبير عيونهم ممدودة إلى الأردن وطناً وجيشاً وشعباً، بالحب والتأييد، والإعزاز والإكبار، ولكن عيناً واحدة هي التي تنظر إلى الأردن بشزر، ولكن يداً واحدة هي التي تمتد إلى الأردن بالعدوان، هذه العين هي عين إسرائيل وحدها، هذه اليد هي يد إسرائيل وحدها. إن موشي دايان له عين واحدة فقئت، فليتفضل الحسين بأن يفقأ عينه الثانية، حتّى يكون مع أبناء فلسطين، أم إن الحسين «أسد عليّ وفي الحروب نعامة؟».

«ويتحدث الملك حسين طويلاً عن خطة الحشد في الأردن، بعبارات جميلة، مرصعة مزينة موشّاة، فيقول عن هذه الخطة، وأنا هنا أقتبس كلماته:

«إن الخطة ليست مظاهر زائفة، بل هي تعب وعرق وتقشف». هذا هو كلام الملك حسين عن التعب، وعن العرق وعن التقشف، كُلّ هذا صحيح لا خلاف فيه، وفي الأردن تعب وفي الأردن عرق، وفي الأردن تقشف، الشعب الباسل والجيش البطل هو الذي يتعب، هو الذي يعرق، هو الذي يتقشف، القرى الأمامية، وسكان الخيام من شعبنا، هم الذين يتعبون، هم الذين يعرقون، هم الذين يتقشفون.

«ولكن هل الملك ومن حول الملك في تعب وفي تقشف وفي عرق؟ سواء في بسمان أو في العقبة؟ هل الأسفار إلى أوروبا تعب وعرق؟ هل الأموال التي تودع في بنوك أوروبا عرق وتقشف؟ هل هدايا الميلاد التي تنقل بالطائرات من لندن إلى عمّان تعب وعرق؟ هل أراضي الشعب التي تصادر في الغور وفي القدس وفي غيرها تعب وعرق؟ هل ثروات الحشيش الكبرى تقشف وتعب وعرق؟ هل تجارة الأسلحة الرابحة تقشف وعرق وتعب؟ إن أموال الملك، أموال الأمراء، إن أموال الشرفاء والشريفات من الأسرة الهاشمية كافية لتحصين القرى الأمامية، كافية لإيواء الأيتام، كافية لتعليم أبناء الشهداء، كافية لتحسين أحوال العائدين من سكان الخيام الذين يقول عنهم الملك حسين في خطابه إنهم «ذئاب جائعة يأكل بعضهم بعضاً»، إن شعبنا ليس شعب ذئاب جائعة، ولكنه ذئاب تفترس أعداءها حيثما كان أولئك الأعداء.

«هذه الثروات كلها يجب أن تقدم إلى الشعب، لأنها مال الشعب في أصله، سواء خرجت من مال الشعب في الأردن، أو في الأمة العربية. إن الشعب من حقه في الأردن أن يقول للملك والأمراء وللأشراف وللشريفات: «من أين لكم هذا؟» «من أين لكم هذا؟». هذه المقولة الإسلامية الشهيرة، الحسين يتحدث عن مآثر الإسلام، وعن القوى الروحية في الإسلام، وعن السلف الصالح في الإسلام، وهذه الصيحة المشهورة: «من أين لك هذا؟» ما أرادها قائلها أن تكون كلمة في

التاريخ، ولكنه أرادها أن تكون حية في الأمة العربية، ويعمل بها ملوكها ورؤساؤها وأمراؤها، فمن أين لك هذا؟ هذه صيحة الشعب إلى ملك الأردن، والأمراء في الأردن، والأشراف والشريفات في الأردن، هذه الأموال التي خرجت من الشعب يجب أن تعود إلى الشعب، إلى القرى الأمامية، إلى أبناء العائدين، إلى أبناء الشهداء، فأبناء الشعب أحق بأموال الشعب؟

«وختام الحديث في خطاب الملك حسين كان إفكاً ولم يكن مسكاً، كان عن منظمة التحرير الفلسطينية، منظمة الشعب الفلسطيني ورمز كفاحنا، وعنوان نضالنا. يقول الملك حسين إنّه كانت له اليد الطولى في بنائها، أريد أن أكون منصفاً، لقد كانت له يد، وإن لم تكن طولى، كانت له يد في بنائها لأنه أرادها منظمة له، لأنه أرادها منظمة تابعة لعمّان، تسير وفق هواه، وتسير وفق مشتهاه، ولكن الشعب، شعب فلسطين، أراد منظمة التحرير أن تكون لنفسه، أن تكون منظمة فلسطينية لا تتبع عمّان ولا ملك عمّان، منظمة التحرير الفلسطينية تتعاون مع كُلّ ملك يتعاون معها، ولكنها لا تكون عميلاً لهذا الملك ولهذا الرئيس، فمن تخلى عن المنظمة ملكاً كان أو رئيساً فالشعب يتخلى عنه، والأمة العربية تتخلى عنه.

«يقول الملك حسين في حديثه عن المنظمة «إنه لا أمل في التعامل معها». ولقد قرر الملك حسين في خطابه في عجلون ألا يتعامل مع المنظمة، وبالأمس ليلاً إذاعة عمّان في تعليقها حول قرار الملك حسين تركت كُلّ شيء في منظمة التحرير، وركزت على رئيس منظمة التحرير، وأعلنت أن رئيس المنظمة ينحرف بالمنظمة صوب الصين الشعبية، ينحرف بالمنظمة صوب الاتحاد السوفياتي، وأن رئيس المنظمة يسير في عمله نحو تصفية القضية الفلسطينية. هذا هو تعليق عمّان، وبوصفي رئيساً للمنظمة أقول للملك حسين أن يفتح استفتاء شعبياً في الأردن بضفتيه الشرقية والغربية، استفتاء حراً نزيهاً تحت إشراف الجامعة العربية، وأطرح الثقة أمام الشعب، رئيس المنظمة يقف وجهاً لوجه أمام الشعب ليسأل: إذا كان يقرّ سياسة المنظمة أو سياسة الملك حسين؟ يقول الملك حسين إنّه لا أمل في التعامل مع المنظمة، وأنا أشدد على كلمة «تعامل المنظمة» لأني ضحكت طويلاً من هذا الكلام، وشعب فلسطين في الأردن الذي شهد المنظمة منذُ نشأتها إلى يومنا هذا لا بُدَّ أنّه ضحك على هذا الكلام الذي يصدر عن الملك. يقال إن كلام الملوك ملك الكلام. لكن هذه المرة كلام الملك هو ضحك الكلام، لأن هذا الكلام ليس إلا هزءاً بالمنطق، وليس إلا سخرية بالواقع. الملك حسين يقول: «لا نريد أن أتعامل مع المنظمة»، لكن متى تعامل الملك حسين مع المنظمة، حتّى يوقف تعامله مع المنظمة؟ الملك حسين لم يتعامل مع المنظمة يوماً واحداً، لم يتعامل مع المنظمة ساعة واحدة. لقد كان يجامل المنظمة، لكنه لم يكن

يعامل المنظمة، وشعب فلسطين لا يريد المجاملة، ولكنه يريد المعاملة، وأنا هنا دعوني أن أعلّم الملك حسين شيئاً من الصرف والنحو.

«إن كلمة تعامل في اللغة العربية، كما يعرف كُلّ طالب في اللغة العربية، نحواً وصرفاً، تدل على المشاركة، على وجود عمل مشترك، فما هو العمل الذي اشتركنا فيه مع الملك حسين منذُ أن قامت المنظمة إلى أن خطب الملك حسين في عجلون؟

«الملك حسين منع المنظمة من التجنيد الإجباري. الملك حسين منع المنظمة من التنظيم الشعبي. الملك حسين منع المنظمة من إنشاء كتائب جيش التحرير وإنشاء معسكرات الشباب والطلاب. الملك حسين منع المنظمة من تحصيل ضريبة التحرير. الملك حسين منع المنظمة من كُلّ نشاط للمنظمة في الأردن. الملك حسين منع تنفيذ الاتفاق الذي تمّ بين الأردن والمنظمة.

«والملك حسين حينما ذهب إليه رئيس المنظمة ليحدثه بشأن المعتقلين أقفل أبوابه في وجه رئيس المنظمة، ثُمّ يقول الملك حسين في خطابه إنه يلتزم بقرارات مؤتمرات القمة، وأول قرار من مؤتمر القمة بشأن الكيان الفلسطيني يقول: إن منظمة التحرير الفلسطينية تمثل إرادة الشعب الفلسطيني في كفاحه، وعلى الدول العربية أن تسهّل مهمة منظمة التحرير الفلسطينية، فهل هذا تسهيل لمنظمة التحرير الفلسطينية أن يقفل الباب في وجه رئيس المنظمة؟ لكن رئيس المنظمة لا يغضب، والشعب لا يغضب، إذا كان قد أقفل باب بسمان، فقد فتحت في وجه المنظمة كُلّ الأبواب، ملايين الأبواب وملايين القلوب في الأمة العربية، وشعب الأردن بالذات.

«إن المنظمة لا تجزع لهذا القرار الذي اتخذه الملك حسين أبداً، نحن شعب لا نخاف ولا نهاب، ولا نجزع لهذا القرار. الشعب سيتعامل مع المنظمة وهذا يكفينا. إذا كان الملك لا يتعامل معنا، يكفينا أن نتعامل مع الشعب والشعب يتعامل معنا. إن المنظمة ستتعامل مع الجيش الأردني ويكفيها هذا، ولا نجزع إذا كان الملك حسين لا يتعامل معنا، ويكفينا الشعب ويكفينا الجيش، حينما يتعاملان مع المنظمة وتتعامل المنظمة معهما، ولا يضير شعب فلسطين أن يتخلى عنه الملك حسين والرئيس بورقيبة منفردين أو مجتمعين، لا يضيرنا هذا. يستطيع الملك حسين أن يقفل مكاتب المنظمة في القدس، وأن يعتقل رجالها في الأردن، ولكننا مستعدون لأن نهاجر بقضيتنا ومنظمتنا إلى بلدنا وإلى وطننا في غزة، ولنا أسوة في هجرة الرسول العظيم من مكة إلى المدينة، ولكننا سنعود إلى القدس كما عاد نبينا العظيم إلى مكة.

«يستطيع الملك حسين أن يمنع عنا مساهمة الحكومة الأردنية في ميزانية المنظمة، ولكن الأمة العربية قادرة على سدّ العجز، وشعب فلسطين قادر على سدّ العجز،

وشعب فلسطين كثير المروءات وغني النجدات، نحن غير مستعدين أن نبيع قضية فلسطين لقاء مساهمات مالية من الملك حسين والرئيس بورقيبة، فإن القضية في غنى عنهم وعن أموالهم، لأننا ـ والحمد لله ـ في غنى كبير بشعبنا وبالأمة العربية.

«لقد أراد الملك حسين أن ينصّب نفسه وصياً على شعب فلسطين في الأردن وعلى حقوقه في المنظمة. كان الملك حسين قبيل انعقاد المؤتمر الوطني في غزة يحرّض أبناء فلسطين في الأردن على أن يطالبوا بأن تكون لهم الأكثرية «الثلثان» في عضوية المجلس الوطني المنتخب، ونحن لا نفرّق بين فلسطيني في الأردن وفلسطيني خارج الأردن. إن نظام انتخاب المجلس الوطني عرض لمدّة سنتين كاملتين في الصحف، نشر في الإذاعة فلم يعترض عليه فلسطيني واحد في الأردن، ولم تتلق منظمة التحرير الفلسطينية اعتراضاً واحداً من أي فلسطيني حول هذه النسبة من الأردن أو من خارج الأردن، لقد رضي إخواننا في الأردن أن يكون لهم في المجلس الوطني ستون نائباً، لأن النظام أعطى الفلسطينيين في السعودية، في العراق، في الكويت، في قطر، في ليبيا، في الجزائر والمغتربين في المهاجر الأمريكية ثلاثة وعشرين مقعداً. وهؤلاء كلهم من أبناء فلسطين في الأردن، منازلهم في الأردن، مزارعهم في الأردن، متاجرهم في الأردن، عائلاتهم في الأردن، يعملون خارج الأردن ويعودون في إجازاتهم إلى مدنهم وإلى قراهم وإلى عائلاتهم ومزارعهم. وبهذا تكون حصة الفلسطينيين في الأردن ٨٣ نائباً من أصل ١٤٠ نائباً، فهم الكثرة وهذه هي الكثرة الحقيقية، هذه هي الأرقام التي لا تكذب، وليست الخطب التي تكذب، هذه أرقام ووقائع موجودة في نظام الانتخابات في المجلس الوطني، لكنا نريد أن نسأل الملك حسين: ما دخل الملك حسين في هذا الموضوع؟ هذا موضوع يتعلق بأبناء فلسطين، وأبناء فلسطين ارتضوا لأنفسهم هذا التوزيع، طرح الأمر على المجلس الوطني في اجتماعه الأخير في غزة ورضي بهذا التوزيع، فما شأن الملك حسين في هذا الأمر؟ لم يتكلم عبد الناصر في هذه النسبة في ما يتعلق بالفلسطينيين في قطاع غزة أو الفلسطينيين في الجمهورية العربية المتحدة، وقد سمعت شكوى من بعض إخواننا الفلسطينيين في الجمهورية العربية المتحدة بأن ثلاثة مقاعد قليلة لأن عددهم كبير ومن حقهم أن يكون عددهم أكثر من ثلاثة.

لم يشكُ الرئيس عبد الناصر ولم يتدخِل في هذا الموضوع، لا هو ولا غيره ولا أي ملك ولا أي رئيس. ونريد أن نسأل: لِم يتدخل الملك حسين؟ هذه أمور داخلية تتعلق بمنظمة التحرير الفلسطينية، ليس للمَلك حسين ولا لأية دولة عربية ولا لأي رئيس أن يتدخل في الشؤون الداخلية لمنظمة التحرير الفلسطينية. إن شعب فلسطين يرفض وصاية الملك حسين، ويرفض وصاية أي ملك أو أي رئيس، وشعب فلسطين

هو سيد أمره وصاحب مصيره. ولكني أقولها صريحة للملك حسين: إذا كان يوافق على التجنيد الإجباري في الأردن، إذا كان حسين يوافق على إنشاء كتائب جيش التحرير في الأردن، فإني مستعد أن أدعو اللجنة التنفيذية إلى اجتماع عاجل وأن أناشدها بكل قوتي أن تجعل أعضاء المجلس الوطني، كُلّ أعضاء المجلس الوطني، من أبناء فلسطين في الأردن، فإن فعل الملك فإنا فاعلون.

«لكن على الملك حسين قبل أن يتحدث عن حقّ الشعب الفلسطيني في المنظمة أن يذكر الإهانة الكبرى التي يوجهها إليهم، إلى شعب فلسطين، حين يقول إنهم أردنيون من أصل فلسطيني، إنهم أردنيون وإنهم فلسطينيون على السواء لا فرق عندنا، ولكن «إنهم من أصل فلسطيني». فهذا كفر وطني وإلحاد قومي، بل إن الملك حسين قبل أن يتحدث عن أبناء فلسطين في الأردن وحقوقهم في المنظمة، أن يسأل نفسه عن حقوق أبناء فلسطين في الأردن. إن حقهم على الصعيد الشعبي قائم وكامل، أبناء فلسطين في ضفتي الأردن على الصعيد الشعبي متمتعون بحقوقهم كافة. إنهم قائمون بكل واجباتهم مع إخوانهم في الضفة الشرقية، نحن معهم إخوان، كرم ومروءات، وما أكرم إخواننا في الضفة الشرقية وما أكبر مروءاتهم، ولكن على الصعيد الرسمي، أين هي الأخوة؟ ولا أقول: أين هي الأكثرية والأقلية؟ فالمنظمة ترفض التفريق بين المواطنين، أكثرية أو أقلية، ولكن النظام، نظام الدولة، في الأردن، قائم على التفريق والتمييز بين المواطنين، كثرة وقلة. فإذا كان هذا النظام شراً كُلّ الشرّ على الصعيد الرسمي، يعزينا أنّه على الصعيد الشعبي هو خير كُلّ الخير، وأنعم وأكرم بإخواننا في الضفة الشرقية لأنهم كلهم خير كُلّ الخير!

«ولي كلمة أخيرة أريد أن أقولها للملك حسين.

«إن شعب فلسطين شعب البطولات والبسالات، وقد تمرس في تاريخه الطويل بالكوارث والنكبات، فلن يستطيع أحد أن يقهر إرادته أو يثنيه عن عزمه. لقد اتهم الملك حسين شعب فلسطين بأن فيه «وجوهاً كالحة وقروحاً عفنة»، فهذا هو الكلام الكالح والكلام العفن. وشهد الله أن شعبنا شعب طهور زاده النضال الطويل طهراً ونوراً، وأن الوجوه الكالحة والقروح العفنة ليست إلا في أنسباء الملك حسين الذين كانوا سبب الكارثة وأصل النكبة. أنسباؤه من الإنكليز، ولا حاجة إلى مزيد من الإيضاح والتعريف.

«إن قضية فلسطين قضية حقّ وعدل، وإن الله العلي القدير لا بُدّ من أن ينصر الحقّ وإن ينصر العدل، وإن منظمة التحرير باقية إلى يوم التحرير، باقية إلى يوم تقرير

المصير. الملوك والرؤساء يروحون ويغدون. الملوك والرؤساء يموتون أو يخلعون، ولكن الأمة العربية باقية، ولكن شعب فلسطين باق وخالد.

«هذا هو وحي العروبة، وهذا هو هدي الإسلام ﴿**ومن يُضلِل الله فما له من هادٍ**﴾[٢] صدق الله العظيم.

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحدّ، فقد مضى الشعب في الأردن يستمع ليلة بعد ليلة لخطابي مسجلاً. فقد سجله عدد كبير من الأسر، وأصبحوا كلما تضايقوا من تصرفات الملك حسين في أي من الأمور، استمعوا إلى التسجيل، حتّى أصبح الطلاب والشباب يحفظون عن ظهر قلب كثيراً من فقراته، وراح الصغار يلقونه بصوت صاحبه محاكاة وتقليداً!

وبعد أسبوعين (١٧/ ٦/ ١٩٦٦) عقدت لجنة الممثلين الشخصيين للملوك والرؤساء اجتماعها الشهري المعتاد للنظر في ما تمّ إنجازه من مقررات الملوك والرؤساء، وكان خطاب عجلون هو الموضوع الرئيسي على جدول الأعمال.

وسكت الأعضاء. فليس عند أحد إنجازات يذكرها. فأصبحت الجلسات الأربع، على مدى ساعات طوال، حديث رئيس المنظمة عن خطاب الملك حسين في عجلون.

وكان يمثل الملك حسين في تلك الجلسات ممثله الخاص سعد جمعة «رئيس الوزراء في ما بعد»، فأراد بادئ ذي بدء أن يتجنب الخوض في الموضوع استناداً إلى أن خطاب «جلالته» ليس معه، وأنه لا يريد أن يتحدث من الذاكرة.

فدفعت إليه صورة عن خطاب الملك حسين، وأنا أقول له: «هذا هو خطاب الملك حسين، لا داعي لأن تستعين بذاكرتك. وأنت على كُلّ حال شاركت في كتابة هذا الخطاب»!!

فعاد سعد جمعة إلى حجة ثانية قائلاً: «إن خطاب الملك يمكن أن يناقش أمام الملوك، ولنترك هذا الموضوع إلى مؤتمر القمة في الجزائر الذي سيعقد بعد بضعة أسابيع».

قلت: «ليس لأي ملك أو رئيس حصانة بالنسبة إلى القضايا العربية، وخاصة قضية فلسطين». ولم تلتفت لجنة الممثلين إلى النقاط «القانونية» التي تذرع بها سعد جمعة.

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة الرعد،» الآية ٣٣.

ومضيت أفنّد ما ورد في خطاب الملك الحسين، في شروح وإيضاحات، طبعت في ما بعد في كراس مستقل، وبلغت مائة وخمسين صفحة. وقد توسع النقاش بحيث تناول القضية العربية برمتها منذُ عهد الشريف حسين الكبير، إلى أيام الملك حسين، مستعرضاً موقف الملك عبد الله من القضية الفلسطينية.

وفي الجلسة الأخيرة قدمت لكُلّ عضو من أعضاء اللجنة ملفاً كاملاً يحتوي عشر صور زنكوغرافية تتضمن المراسلات التي تبودلت بين الملك عبد الله من جانب، وبن غوورين، وغولدا مائير، وساسون، من الجانب الآخر، مع تفصيل عن اللقاءات التي تمت بين الملك عبد الله وزعماء إسرائيل، في قصره في الشونة ـ الأردن ـ وكيف أن غولدا مائير دخلت إلى القصر، في إحدى زياراتها، من باب المطبخ، وفي ملابس سيدة مسلمة.

وكان سعد جمعة «حكيماً»، فقد اعتمد الإيجاز في إجابته، فلم يكن عنده ما يقوله ردّاً على الحجج والأسانيد الدامغة. واقتصر كلامه على القول بأن «الشقيري من أتباع ماو تسي تونغ. ونحن لا نلتفت إلى افتراءاته وتهجماته على سليل بيت النبوة، ووارث النهضة العربية».

وكانت تلك الجلسات أشبه بمحكمة مجرمي الحرب في نورمبرغ، استعرضت فيها مواقف المملكة الأردنية من أيام حسين الكبير إلى عهد حسين الصغير.

أقدمت على ذلك العرض بضمير مستريح وقلب مطمئن، غير خائف من دعوى الانتساب إلى بيت النبوة، وأنا متحصن بقوله تعالى: ﴿**إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) المصدر نفسه، «سورة الحجرات،» الآية ١٣.

قطعنا شعرة معاوية.. عبد الناصر وأنا

في مساء اليوم الثاني والعشرين من شهر تموز/ يوليو ١٩٦٦، كنت في طريقي إلى ميدان الجمهورية في القاهرة لأشهد المؤتمر الشعبي الكبير لمناسبة العيد الرابع عشر للثورة المصرية. وكانت حرارة الجو في ذلك اليوم في ثورة حقاً، وآمنت بالقول العامي المعروف في ديار الشام:

«في تموز بتغلي المية بالكوز».

ولكن كان مقدراً لذلك اليوم أن تصل فيه الحرارة إلى درجة الانفجار، وأن يكون خطاب عبد الناصر في عيد الثورة قمة الانفجار، تشهد الأمة العربية في أعقابه النهاية والبداية، النهاية لمؤتمرات القمة، والبداية لمسيرة جديدة عاجلتها الأحداث بالضربات تلو الضربات حتّى سقطت في أول الطريق، على عتبات حرب الأيام الستة.

جلست على المنصة إلى جوار رؤساء الوفود، وقد تقاطروا من كُلّ أرجاء الوطن العربي. وكان السرادق أمامنا مكتظاً بجماهير الشعب المصري، وأمامهم الوفود الشعبية العربية، تنبئ عنهم وجوههم، وهي تئنّ من وهج ذلك اليوم الأغبر الأغرّ.

وقعقعت الموتوسكلات مؤذنة بمقدم الرئيس عبد الناصر، فصعد إلى مكانه في المنصة كالعهد به، وليس في وجهه ما ينمّ عن القذيفة التي يحملها بين طيات لسانه، ويتردّد دويّها في كُلّ أرجاء الوطن العربي.

وتكلم د. عبد الرحمن البزاز رئيس وزراء العراق، وأعقبه شريف بلقاسم، نيابة عن مجلس الثورة الجزائري، فأشادا بالثورة المصرية وبقائدها.

وكان من ضمن البرنامج أن أتكلم بعدهما، غير أن مدير مكتب الرئيس اقترب مني وهمس في أذني وقال: «سيادة الرئيس يريدك أن تتكلم في المؤتمر الشعبي في الإسكندرية في الثامن والعشرين، وسأرسل لك غداً مظروفاً خاصاً». قلت: «حسناً، الخيرة في ما يختاره الله».

ووقف الرئيس عبد الناصر، وفتح ملفه المعتاد، وبدا أن الخطاب «سمين»، ودخل في صلب موضوع الثورة وإنجازاتها، وأسهب في الحديث عن السدّ العالي، وعن التحول الاشتراكي، وعن الخطة الخمسية، وعن سائر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية في مصر، منتقلاً من موضوع إلى موضوع، مع الاستشهاد بالأرقام والإحصاءات.

وكان بجانبي حسين مأزق ممثل ليبيا آنذاك فقال: «يظهر أن الرئيس سيقتصر خطابه على الشؤون الداخلية». وما إن فرغ من هذه الملاحظة حتّى أعلن الرئيس: «أنتقل الآن إلى العمل العربي». وأشرأبت الأعناق وتطاولت الآذان، وأحسب أن الملايين من الأمة العربية التي كانت تستمع إلى الخطاب في ذلك اليوم قد أمسكت بأنفاسها لترى ما سيقوله الرئيس عن العمل العربي، يوم كان رجل الشارع يرى أن العمل العربي قد هوى إلى الحضيض.

وتحدث الرئيس عبد الناصر عن العمل العربي من أول بداياته، فقال:

«في آخر ١٩٦٣ دعيت إلى مؤتمرات القمة لتوحيد العمل من أجل فلسطين لأن الدول العربية كانت مختلفة. طبعاً كنا نعرف إنه فيه دول رجعية وفيه دول متحررة. وكان رأيي أننا يجب أن ننساها. ثُمّ بعد هذا اجتمع مؤتمر الإسكندرية وبعده مؤتمر الدار البيضاء. لقد هادنا الرجعية على أساس أنها تشترك في وحدة العمل من أجل فلسطين. ولكن هذه السنة بدأت حملات علينا. انصرف خمسة ملايين جنيه لمؤسسة أمريكية من السعودية بالذات علشان تعمل دعاية ضدنا توزعها في أمريكا. وهذه الدعاية ما فيهاش ولا كلمة ضدّ إسرائيل، كُلّ الكلام إللي فيها ضدّ الجمهورية العربية المتحدة. أما راح الحجاج السعودية السنة دي توزعت منشورات ضدنا».

وانتقل الرئيس عبد الناصر بعد ذلك إلى الحلف الإسلامي، فقال:

«الحلف الإسلامي موضوع مش جديد. ده سنة ١٩٥٧، أما سعود رجع من أمريكا قالوا له الأمريكان إعمل حلف إسلامي. وجه سعود تكلم معانا، وأيزنهاور كتب هذا الكلام في مذكراته. الحلف الإسلامي موجة ضدنا وضدّ قوى الثورة في العالم العربي. كلنا نعرف أن شاه إيران واقف في وجه رجال الدين في بلده، ويقضي أكثر أوقاته في أوروبا. وبورقيبة أدّى فتوى بإفطار رمضان وأبطل الصوم ونادى بالصلح مع إسرائيل. بورقيبة مهووس. هؤلاء هم القائمون بالمؤتمر الإسلامي من أجل وضع البلاد العربية داخل مناطق النفوذ. نشوف موضوع السلاح، اللي سلح إسرائيل هو اللي سلح السعودية. فيه طبعاً في السعودية بعثة عسكرية أمريكية، وفيه بعثة عسكرية إنكليزية. أصبحت وحدة الرجعية العربية مع الاستعمار».

وشخصت الأبصار إلى الرئيس عبد الناصر، وحتى الوفود الجالسون على المنصة

لووا أعناقهم إليه، وهو يقول: «إيه الجدوى إن إحنا نروح ونحضر المؤتمر، وده الجو. حنروح نعقد اجتماع عربي ونقعد نقول لبعض إزيك سلامات وإزاي القمة ونشرب قهوة ونشرب شاي. ومعنى هذا إن إحنا برّأنا العناصر الرجعية براءة كاملة من التهم التي يدينهم بها الشعب العربي في كُلّ مكان».

وإلى هذا الحدّ كان الرئيس عبد الناصر لا يقول جديداً، فذلك ما كانت تقوله الجماهير العربية ذلك العام بأجمعه. ولكنه أخيراً جاء بالجديد، وتفجّر السرادق بالهتاف والتأييد والتصفيق حين أعلن الرئيس عبد الناصر «استقر رأينا على الآتي: إحنا لا نستطيع أن نجلس مع هذه القوى الرجعية في مؤتمرات قمة قادمة. إحنا الجمهورية العربية المتحدة لن نذهب إلى مؤتمر القمة القادم. وحطلب من الجامعة العربية أن تؤجل مؤتمر القمة إلى أجل غير مسمى. إذا أرادوا باقي الدول أن يعقدوا المؤتمر، يعقدوا المؤتمر، ولكن لن نستطيع أبداً أن نحضر هذا المؤتمر والحال على ما هو عليه».

ألقى الرئيس عبد الناصر بهذه القنبلة، وكأنما ألقاها كُلّ مواطن مصري وعربي شهد ذلك الاجتماع التاريخي. فقد كان هذا ما تريده الجماهير العربية، لقد تقززت النفوس من مؤتمرات القمة، وعاف الناس الملوك والرؤساء، اجتمعوا أو لم يجتمعوا!

ولكن الرئيس عبد الناصر عاد وأمسك بشعرة معاوية بين يديه وهو يقول: «إذا رجعنا وشفنا إن فيه إمكانية وحصل كلام شرف واتفاقيات حقيقية على عدم الغدر كان بها يبقى فيه فرصة لعقد المؤتمر».

لكن الجماهير، لم تعد تؤمن بشعرة معاوية مع الملوك والرؤساء، فصاح الصائحون من السرادق: «كلام شرف، ما فيه شرف عند الخونة».

وأنهى الرئيس عبد الناصر خطابه وعاد إلى منزله في منشية البكري، لتهتز موجات الأثير مع الإذاعات والتعليقات لا في العواصم العربية فحسب، ولكن في العالم بأسره من القطب في الشمال إلى القطب في الجنوب.

وقضيت ليلتي وأنا أسأل: وماذا بعد خطاب عبد الناصر؟ وماذا سيكون مصيرنا نحن، منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير؟ وأغمضت عينيّ على رأي لم أجد له بديلاً. وعزمت على أن نبدأ علاقات ثنائية مع الدول العربية، مع كُلّ دولة بمفردها، ونرجو أن نثير فيهم روح التنافس. وعلى هذا الرأي نمت واسترحت.

وذهبت إلى مكتبي في اليوم التالي لأجد أحد رجال «الياوران» لرئاسة الجمهورية بانتظاري، ومعه مظروف كبير مختوم بالشمع الأحمر. فكسرت ومزقت وقرأت، وإذا

بها رسالة من الملك حسين إلى «سيادة الأخ الرئيس جمال عبد الناصر حفظه الله» مؤرخة ١٤ تموز/ يوليو سنة ١٩٦٦.

قرأت الرسالة وقرأت عجباً، أربع عشرة صفحة وكلها تدور وتدور حول «السيد أحمد الشقيري وما آلت إليه منظمة التحرير بعد أن استولت عليها قوى مخربة مريضة وعميلة». والمنظمة ما آلت إلى شيء. كانت كحالها الذي بدأته يوم حضر الملك حسين افتتاح المجلس الوطني الأول في بيت المقدس في أيار/ مايو ١٩٦٤[١].

وقد تضمنت الرسالة كثيراً من عبارات الثناء والمديح يكيلها الملك حسين بلا حساب إلى الرئيس جمال عبد الناصر، إلى «سيادة الأخ، ذلك المسؤول العربي الكبير»، كُلّ ذلك كمدخل إلى الطعن بالمنظمة والتنديد برئيسها.

وفي فقرات قصيرة، من باب التنويع، ينتقل الملك حسين في رسالته إلى الرئيس عبد الناصر إلى عتاب «غرامي»، وهو يقول: «وكم آلمني يا أخي وحزّ في نفسي ما بلغني من قولك مؤخراً وفي كلمة وجهتها ما معناه: الشخص الذي ما استطاع دخول حلف بغداد يبشّر الآن بحلف إسلامي. ولا إخال غيري هو المقصود بها، أفلا يحقّ لي يا أخي أن أعتب وأن أتألم؟».

والملك حسين كان على حقّ في ما فهم، فإن الرئيس عبد الناصر قصده بالذات. ثُمّ يعود الملك حسين إلى المنظمة ويقول: «لقد أصبح واضحاً من تصرفات الشقيري أن هدف المنظمة بعد أن سيطر عليها الحزبيون والهدّامون والمخربون هو شرق خطّ الهدنة لا غربه. ونحن قد فهمنا من البداية أن تشكيل المنظمة ما هو إلا لملء الفراغ في المجتمعات الدولية وإبقاء القضية الفلسطينية حية في الأذهان والقيام بتنظيم وتعبئة طاقات الفلسطينيين خارج الأردن، إذ إنّ الأردن مستمر في ذلك التنظيم منذُ زمن طويل. إنه لا يجوز خلق ازدواجية في داخل الأردن. ثُمّ إنه لا يجوز أن تكون المنظمة أداة لحركة مذهبية محلية أو دولية».

وبعد كلام طويل على هذا النمط، ختم الملك حسين كتابه بعبارة حاسمة قال فيها: «لقد أصبح واضحاً لدينا أن هدف المنظمة هو نسف للأردن ونسف لمؤتمرات القمة، ولذا لم يعد بإمكاننا التعامل مع المنظمة لما نعرفه عن سوء نياتها».

ثُمّ عاد الملك حسين إلى الغراميات مع «أخيه» الرئيس عبد الناصر، فقال: «وقد حرمتني تلك الحملات المتجنية على شخصي وحكومتي وبلدي، تطلقها على أمواج

(١) أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

الأثير منظمة التحرير والقوى الواقفة وراءها، من إمكان الاتصال المباشر بأخي كما اعتدت من قبل. ويحزّ في نفسي أن أقف من أخي موقف العاتب. ضع نفسك في مكاني، وقل لي بربك ماذا يكون موقفك؟ وربما يكون الردّ على هذا السؤال أن إذاعة منظمة التحرير لا سيطرة لكم عليها، والجواب: ضع نفسك في مكاني، وقل لي ماذا يكون موقفك؟ ضع نفسك في مكاني، وانظر واستمع إلى قبور آبائك وأجدادك، وهي تنبش صباح مساء. أيحق أن ننكأ جراحنا كُلّ مرة؟ ضع نفسك في مكاني يا أخي، وقل لي ماذا تفعل؟ ومرة أخرى تطالعني صحف قاهرية لتقول إن الأردن يحرص على مؤتمرات القمة لأنه كسب منها مادياً»، إلى آخر هذه التساؤلات الذليلة المنكرة.

قرأت هذا الكتاب بكامله، وفهمت لماذا أراد الرئيس جمال عبد الناصر أن أؤجل خطابي من المؤتمر الشعبي في القاهرة إلى المؤتمر الشعبي في الإسكندرية.

وكان اللقاء الكبير في الإسكندرية في مساء الثامن والعشرين من شهر تموز/ يوليو ١٩٦٦ في الهواء الطلق، في ساحات جامعة الإسكندرية، واكتظت الوفود الرسمية والشعبية على المنصة الرئيسيّة. ووصل الرئيس إلى مكان الاجتماع وسط هتافات الجماهير الحاشدة في تلك الأمسية التي حشدت فيها الإسكندرية كُلّ نسماتها الناعمة.

وقال الرئيس عبد الناصر: «لا بُدَّ من أنك قرأت رسالة الملك حسين. إنت تخطب زي ما إنت عاوز. بس لا تذكر اسمه. المنظمة حرة في إذاعتها في القاهرة. ولكن هنا في المؤتمر سيكون خطابك محسوب عليّ».

وتدخّل المشير عبد الحكيم عامر، وكان يجلس بيني وبين الرئيس عبد الناصر مباشرة، وقال: «وصاحبك فيصل، حاتعمل فيه إيه؟».

قلت (ضاحكاً): «فيصل مشكلته معك في اليمن. أما نحن فمشكلتنا الرئيسيّة هي في الأردن، مع الملك حسين».

وبدأ الحفل، ودعي إلى الكلام اللواء شاكر محمود شكري وزير الدفاع العراقي. فألقى كلمة حيا فيها الثورة المصرية وقائدها الرئيس عبد الناصر، وهاجم الاستعمار والصهيونية.

ثُمّ دعيت إلى الكلام، وفي ذهني كُلّ النقاط التي وردت في رسالة الملك حسين. فعزمت على أن أفنّدها واحدة واحدة. وإنها لفرصة على الهواء مع ملايين الأمة العربية التي شدّت آذانها إلى إذاعات القاهرة.

وبدأت حديثي عن مؤتمر الإسكندرية، مشيداً بالشعب السكندري وكيف

استقبل الملوك والرؤساء نيابة عن الأمة العربية بأسرها، وهو يهتف في آذان الملوك والرؤساء بتحرير فلسطين، وأن هذه المشاعر الوطنية ليست غريبة على الإسكندرية وهي الثغر العربي الكبير الذي لعب دوراً كبيراً في الكفاح العربي في وجه الحملات الصليبية. ثُمّ تطرقت إلى أن مؤتمر القمة في الإسكندرية هو الذي قرر اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني في إرادته وتصميمه على تحرير وطنه، وأن هذا القرار معناه تجميع طاقات الشعب الفلسطيني وتوجيهها طليعة للأمة العربية في معركة التحرير، وأن الأردن هو منطلق التحرير أرضاً وشعباً، وأن على عمّان أن تفتح قلبها للمنظمة لتنظيم الشعب وتدريبه وتسلحه. ومضيت في هذا السياق أجادل الملك حسين من غير أن أذكر اسمه. والجماهير تهتف لمنظمة التحرير، والرئيس عبد الناصر يشترك في التصفيق، وأول من يبدأ وآخر من ينتهي.

وختمت خطابي وأنا أقول: «من هذا الثغر العربي الكبير أعلن إلى الملوك والرؤساء أننا نمدّ أيدينا إليهم جميعاً على هدف التحرير. نتعاون معهم جميعاً على هدف التحرير. لا نختلف مع أحد، ولا نحقد على أحد. ولا ندبّر انقلاباً على أحد. نحن في منأى عن الخلاف العربي ما دام الخلاف في منأى عن قضية فلسطين. ومن كان معنا من الملوك والرؤساء فنحن معه، ومن لم يكن معنا فلسنا معه، وليست الأمة العربية معه».

وانفجر الجمهور حماسة، والميكروفون ينقل عباراتي الصارمة إلى أرجاء الساحة الرحبة، وجماعات الشباب والطلاب يقفزون في الهواء ويلوّحون بأيديهم. وكان من حسن حظّ الملك حسين في ذلك المساء أن البحار والقفار تفصل الإسكندرية عن عمّان، وعن قصر رغدان.

ووقف الرئيس عبد الناصر ليلقي خطابه، فازدادت الجماهير هياجاً وحماسة، ومكث مدة واقفاً حتّى هدأت الجماهير وسكنت.

وبحسب العادة، بدأ الرئيس كلامه في الأمور الداخلية، عن شؤون المجتمع المصري في ظلّ الثورة والاشتراكية، وانتقل في النهاية إلى الحديث عن الأعداء في الخارج بعد أن أجهز على الأعداء في الداخل، مركزاً على «خيانة الرجعية العربية في عام ١٩٤٨. ونحن جلسنا مع الرجعية العربية في مؤتمرات القمة بهدف واحد هو تحرير فلسطين، وليس لأي مصلحة مصرية. وإننا اتخذنا قرارنا بتأجيل مؤتمرات القمة بكل ألم. الرجعية العربية تكرهنا أكثر مما تكره إسرائيل. السعودية عليها أن تتحرر أولاً من القواعد الأمريكية والبريطانية ثُمّ تتجه إلى فلسطين. والرجعية العربية لن تحارب إسرائيل».

ثُمّ خصّ الإخوان المسلمين الذين يعملون في الخارج بجانب كبير من الحملة

بعد ذلك: «إن المعركة اللي موجودة ضدنا منذُ قامت الثورة معركة تحالف فيها قوى مختلفة: الاستعمار مع الصهيونية مع الرجعية العربية مع النظم الإقطاعية في البلاد العربية. الرجعية في السعودية والرجعية في الأردن استخدموا الإخوان المسلمين. ولهذا احتضنت السعودية والأردن بعض أفراد الإخوان المسلمين الذين تآمروا علينا في الماضي. وطبعاً اللؤم في هذه العملية هو لؤم دولي، لؤم سعودي، على لؤم إخوان مسلمين».

وفرغ الرئيس عبد الناصر من خطابه، وأخذ يهمّ بالانصراف. فمدّ ذراعه إليّ رافعاً يدي بيده، تحية للجمهور، وليلتقط المصورون هذه الصورة، لتكون جواباً للملك حسين على رسالته. وكأن لسان حاله يقول: «ها قد أعلن الشقيري أنّه لا يشتم ولا يهرّج ولا يريد إلا إعداد الشعب الفلسطيني للمعركة».

وانتهى الاجتماع، وغادرت المنصة، وأساتذة جامعة الإسكندرية يقبلون عليّ مصافحين وهم يقولون: «لقد عدت بنا إلى أيام زمان، حين كان زعماء الوفد يخطبون بالفصحى في عهد الثورة المصرية». وشكرت لهم تحيتهم، وهربت من الشباب والطلاب إلى سيارتي، وإلى بيتي في القاهرة طلباً للنجاة من حماسة الجماهير. وأيقنت يومئذ أن شعرة معاوية التي ربطت بين مؤتمرات القمة قد انقطعت بعد خطاب الرئيس عبد الناصر وخطابي.

وشهدت القاهرة بعد ذلك أياماً حافلة، كان مكتبي خلالها يغص بالسفراء العرب والأجانب، والصحافيين، والجميع يتساءلون عن مصير مؤتمرات القمة بعد خطاب الرئيس عبد الناصر. ودارت الاتصالات بين الجامعة العربية والحكومات العربية لتحديد الموقف، وكان علينا في المنظمة أن نفتح ملفاً جديداً عنوانه: «تأجيل مؤتمر القمة».

وجاءت المبادرة الأولى من محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة، فأرسل في صبيحة اليوم التالي لخطاب الرئيس عبد الناصر في ميدان الجمهورية في القاهرة (٢٥/ ٧/ ١٩٦٦) مذكرة، كُلّ ما فيها «أنّه نظراً إلى ما اتضح للجمهورية العربية المتحدة من أن عقد المؤتمر الرابع للملوك والرؤساء في الخامس من شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦ في مدينة الجزائر لن يحقق في الظروف العربية الحالية الأهداف التي من أجلها نادت الجمهورية العربية المتحدة إلى عقد هذه المؤتمرات، فإن وزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة تطلب تأجيل المؤتمر إلى أجل غير مسمى».

وراحت الأمانة العامة للجامعة العربية تباشر مهمتها البريدية المعتادة، فعممت مذكرة الجمهورية العربية المتحدة على الحكومات العربية، وفي خلال بضعة أيام

جاءت الموافقة على التأجيل من لبنان والمغرب واليمن والعراق وسوريا وليبيا والكويت والسودان، وعارض كُلّ من الأردن والسعودية في التأجيل.

ولقد رجعت إلى ملف الموضوع، وأنا أكتب مذكراتي فوجدت «طرائف» عربية تغريني أن أضعها أمام الأمة العربية لتتعرف على جوانب معينة من الفكر العربي الرسمي.

من ذلك ما جاء في المذكرة اللبنانية من أن «لبنان يتقيد بمؤتمرات القمة، والتي لا يشكّ في أن سائر الدول الشقيقة تتقيد بها أيضاً»، مع أن لبنان لم يقم بكامل التزاماته بالنسبة إلى مشروع تحويل الروافد على الأرض اللبنانية، وكذلك فإن الدول الشقيقة الأخرى لم تف بالتزاماتها المالية والعسكرية.

ومن ذلك أن المذكرة المغربية أعربت عن خشيتها «أن يفهم الرأي العام العربي والدولي أن تأخير المؤتمر لأجل غير مسمى يعني «إقبار» مؤتمر القمة بصفة نهائية، الشيء الذي يسجل إخفاق الدول العربية ويسبب لشعوبها خيبة». وقد تناسى المغرب أنّه ساهم في «إقبار» مؤتمر القمة، لأنه لم يساهم في دفع التزاماته المالية للقيادة العربية الموحدة ولمنظمة التحرير ولجيش التحرير.

ومن ذلك أن مذكرة المملكة العربية السعودية، وقد وصلت برقياً، لجأت إلى التهديد بأنه: «في حالة الأخذ بمبدأ التأجيل، فإن المملكة العربية السعودية ترى نفسها مضطرة إلى تجميد كافة التزاماتها تجاه مؤسسات المؤتمر»، وبهذا لجأت السعودية إلى العقوبات المالية لفرض رأيها. وهكذا أصبحت السعودية تمارس حقّ الفيتو شأنها في ذلك شأن الاتحاد السوفياتي في مجلس الأمن.

ومن ذلك المذكرة السورية التي أكدت «عدم جدوى هذه المؤتمرات، ولأنها استغلت من قبل الرجعية العربية لضرب الحركة التقدمية والثورية في الوطن العربي». وقد تجاهلت المذكرة السورية الحرب الساخنة التي شنّتها القيادة العسكرية السورية على القيادة العربية الموحدة.

ومن ذلك أن المذكرة الأردنية أعلنت «أن أي زعزعة لمؤتمرات القمة تعني زعزعة للعمل العربي الموحد»، على حين أن الأردن كان من أهم الأسباب في هذه «الزعزعة» بعد أن رفض دخول القوات السعودية والعراقية إلى الأردن، وخالف كثيراً من توصيات القيادة العربية الموحدة.

وكانت مذكرات الدول العربية الأخرى موجزة، خالية من الأسباب والمبررات، وبهذا كفت نفسها مؤونة التعليق.

وأخيراً اكتمل البريد في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، فأصدرت مذكرة (٥/ ٨/ ١٩٦٦) تقول في ختامها: «وبناء على ما تقدم فإن تأجيل المؤتمر قد أصبح أمراً مقرراً»، وكان هذا هو كُلّ دور الأمانة العامة للجامعة العربية.

وفي الوقت الذي كانت فيه الجامعة العربية في شغل شاغل في هذه الأوراق، كانت سياسة التكتلات والمحاور آخذة طريقها بين حكام العرب، وحكام العرب ينسون أن المواطن له ذاكرة حادة يستطيع بها أن يعرف موقف الحاكم بالأمس، وموقفه اليوم. . ومن طول الإدمان يستطيع أن يعرف موقفه غداً.

وجاءني في تلك الأيام أحد مندوبي إذاعة صوت العرب يسألني رأيي في زيارة الملك فيصل إلى تونس. وكانت هذه واحدة من تلك التكتلات والمحاور.

قلت: «ما هي المناسبة؟».

قال: «الملك فيصل قام بزيارة إلى الرئيس بورقيبة في تونس، وعقد مؤتمراً صحافياً في نهاية الزيارة قال فيه إن آراء الرئيس بورقيبة عن القضية الفلسطينية لا تختلف عن آراء غيره من رؤساء العرب». وهو يقصد بذلك الرئيس عبد الناصر.

قلت: «ليس هذا هو الجانب المهم في الموضوع. في الاجتماع الذي عقده رؤساء الحكومات العربية قرروا بالإجماع، ومنهم الوفد السعودي، إدانة تصريحات الرئيس بورقيبة، فما الذي جعل الملك فيصل يتراجع عن موقفه من الرئيس بورقيبة؟ وإني لأتساءل: ألم يسمع الملك فيصل بما أذاعته وكالات الأنباء العالمية (١٢/ ٧/ ١٩٦٦) من أن الرئيس بورقيبة أرسل برقية يعتذر فيها عن عدم حضوره الاحتفال بوضع حجر الأساس لمركز السلام الذي أقامته إسرائيل في القسم المحتل من القدس «نظراً إلى ارتباطاته السابقة، متمنياً النجاح للمركز»، وقد نشرت جريدة **الجيروزالم بوست** الإسرائيلية صورة زنكوغرافية عن البرقية».

قال: «وهل تأذن لي بإذاعة هذا التصريح؟».

قلت: «لا أريد أن أفتح جبهة ثانية مع الملك فيصل، ونحن مشغولون بالجبهة الرئيسيّة مع الملك حسين».

ولم أكد أفرغ من حديثي عن المعركة مع الملك حسين حتّى جاءني مدير مكتبي ليعلمني أن ثلاثة من موظفي الإذاعة الأردنية قد وصلوا اليوم إلى القاهرة، فراراً من اضطهاد الحكم الأردني، وأنهم يريدون الالتحاق «بإذاعتهم»، إذاعة منظمة التحرير.

قلت: «فليدخلوا. المنظمة لهم، والإذاعة إذاعتهم».

فدخلوا إلى المكتب، ووجوههم طافحة بالبشر، فقالوا:

«كنا نعيش في جحيم. كانوا يجبروننا على أن نذيع السباب والشتائم لمنظمة التحرير ورئيسها، وللجمهورية العربية المتحدة وقائدها. وأخيراً قررنا الهرب من عمّان، وتركنا أهلنا وراءنا في الضفة الغربية تحت رحمة المملكة الأردنية الهاشمية».

قلت: «أهلاً بكم ومرحباً، اذهبوا الآن إلى إذاعة منظمة التحرير، وثقوا أنكم لن تذيعوا سباباً على الذين سبّوا منظمة التحرير».

قالوا: «إن عدداً من أصدقائنا، من ضباط الجيش الأردني، ينتظرون منا إشارة ليهربوا إلى القاهرة وينضموا إلى جيش التحرير».

قلت: «أرسلوا إليهم إشارة عاجلة. قولوا لهم: لا تهربوا. إبقوا في مواقعكم في الأردن فأنتم جيش التحرير. ونحن نعتبر الجيش الأردني بأسره ضباطاً وجنوداً، هو جيش التحرير».

وذهب الشباب الثلاثة، وهم من أبناء الضفة الغربية، إلى إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية، ليفاجئوا الشعب في الأردن في ذلك المساء، أنهم يذيعون من إذاعة منظمة التحرير، وأنهم براء من إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية.

وسألني المذيعون الثلاثة قبل انصرافهم: «ما هي تعليماتكم؟».

قلت: «توخّوا الحقّ والصدق. إن قضيتنا ليست في حاجة إلى الكذب. وإن شعبنا في الأردن يريد منكم الدعوة الحسنة، بالكلمة العفيفة المهذبة».

قالوا: «والشتائم، والإقذاع، والأراجيف التي تردّدها الإذاعة الأردنية؟».

قلت: «الدفاع عن الأنفس فرض محتوم. اجهروا بالحق. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**لا يُحِب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم**﴾[٢]. صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة النساء،» الآية ١٤٨.

أشبعتهم شتماً.. وراحوا بالإبل

في شهر آب/ أغسطس اللهّاب الذي يجيد الشعب العراقي وصفه بأنه «يذيب المسمار في الباب، وينضج الأعناب والأرطاب، ويفتح إلى جهنم باب».

في هذا الشهر من عام ١٩٦٦ كان عبد الخالق حسونة، الأمين العام لجامعة الدول العربية، يتحرك بدبلوماسيته الهادئة كالمعتاد، يستقبل السفراء العرب في القاهرة ويتبادل الرأي معهم حول ما ينبغي عمله بعد أن وافقت معظم الدول العربية على اقتراح الرئيس عبد الناصر بتأجيل مؤتمرات القمة إلى أجل غير مسمى.

ودعيت لحضور أحد هذه الاجتماعات، فنعمت ساعة من الزمن في مكتبه المبرد، وتخلصت من مكتبي، وليس فيه إلا مروحة تحتاج أن يقيم إلى جوارها عامل فني ليصلحها كلما عرجت أو تعطلت.

ولخّص حسونة مواقف الدول العربية، وأنه يرى أن ينعقد مجلس الجامعة العربية في الدورة المقبلة (أيلول/ سبتمبر) على مستوى وزراء الخارجية.

قلت: «وماذا ترجو من اجتماع المجلس على هذا المستوى؟».

قال: «نعطي الرأي العام العربي والأجنبي الدليل على تضامننا، ووقوفنا صفاً واحداً».

قلت: «في ديار الشام مثل لطيف، لا أدري إذا كان معروفاً في مصر. يقول المثل العامي: «تغطي السموات بالأبوات». إن العالم كُلّه يعلم أنّه لا يوجد صف عربي، ولا تضامن عربي. فأية فائدة من هذه الاجتماعات؟».

قال: «إن مجلس الجامعة كان ينعقد منذُ مدة طويلة على مستوى السفراء، فإذا عقدناه، هذه المرة، على مستوى وزراء، نكون قد أعطينا دعماً للجامعة».

قلت: «مرة ثانية، إن الأمثال الشعبية غنية بالحكم. يقول العامة: «هذه الخميرة من هذه العجينة». ماذا يفعل الوزراء بعد أن فشل الملوك والرؤساء؟».

قال: «إنها تجربة على كُلّ حال. ولكني أردت أن أرجوك أن تعاونني في موضوع أعتقد أنّه بسيط».

قلت: «خيراً إن شاء الله؟ وأرجو أن يكون الأمر بسيطاً».

قال: «أتمنى عليك في الاجتماع المقبل ألا تكون قاسياً مع الأردن والسعودية حتّى توفر للاجتماع كُلّ أسباب النجاح».

قلت: «بالنسبة إلى السعودية، أنا لم أتعرض لها، لا في خطبي، ولا في الإذاعة، ولا في اجتماعات جامعة الدول العربية. وبالنسبة إلى الأردن، إنّه هو الذي شنّ عليّ حملة السباب والشتائم، وقابلتها بالرد الموضوعي. ومع هذا، فإنني لن أبلغ ما بلغه الرئيس عبد الناصر من القسوة والعنف في حملاته الضارية على السعودية والأردن والبعث وتونس. فإذا كان لهذه الدول أن تغضب، فعليها أن تغضب على عبد الناصر، وهو قادر أن يؤلب عليها الجماهير. أما نحن في المنظمة، فليست لنا قدرة الرئيس عبد الناصر. ومع هذا، فإن الدول العربية تحاسب المنظمة ورئيسها على أتفه الأخطاء. نحن حيطنا واطي، أليس كذلك؟».

وانتهت الجلسة بيننا على «اتفاق الجنتلمان» بأن لا أكون البادئ بإطلاق النار، وأن من حقّي الدفاع عن النفس كائناً من كان المهاجم.

وانعقد مجلس جامعة الدول العربية في دورته العادية (١٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦) على مستوى وزراء الخارجية. وقد حضره إبراهيم المفتي (السودان)، د. عدنان الباجه جي (العراق)، فيليب تقلا (لبنان)، د. إبراهيم ماخوس (سوريا)، محمود رياض (القاهرة)، د. حسن مكي (اليمن)، الشيخ صباح الأحمد (الكويت»).

أما الدول العربية الأخرى، فلم يكترث وزراء خارجيتها لهذا الاجتماع، وأنابوا عنهم سفراءهم في القاهرة.

وبدأ الاجتماع في ظلّ التقاليد والمراسيم التي ألفها الصحافيون على مستوى وزراء الخارجية لزمن طويل، حتّى أصبحوا قادرين على أن يكتبوا في صحفهم وصفاً دقيقاً عن الاجتماع قبل انعقاده، وعن الخطب قبل إلقائها، وعن القرارات قبل إصدارها، وأخيراً عن التصريحات قبل انطلاقها من البطاريات العربية.

وكان حظّ الوزراء العرب سيئاً هذه المرة، فقد انعقدت هذه الدورة وكأنها على موعد مع الأحداث، الأحداث الخطيرة التي تتطلب موقفاً حاسماً.

من هذه الأحداث، أن إسرائيل قد قامت باحتفالات كبرى لمناسبة افتتاح مبنى الكنيست الجديد في القدس (٣٠ آب/ أغسطس ١٩٦٦)، وكان الحاضرون في هذه الاحتفالات بالآلاف تجمعوا من دول العالم كافة. وكان بينهم وزراء وبرلمانيون يمثلون واحداً وأربعين دولة، جاؤوا ليسمعوا زعماء إسرائيل وهم يجددون العهد بأن مدينة القدس هي عاصمة إسرائيل الخالدة، وأن إسرائيل من غير القدس جثة بلا رأس وجسد بلا روح.

ومن هذه الأحداث التي واجهت مجلس الجامعة ما تناقلته وكالات الأنباء عن تزويد أمريكا لإسرائيل بأسلحة هجومية، وكذلك موضوع القنبلة الذرية التي تمضي إسرائيل في صنعها.

وفي بداية الجلسة خطب رئيس الدورة السابقة، وتبعه رئيس الدورة اللاحقة، في خطابين أشبه ما يكونان بالخطب المنبرية التي كانت تعدّ للجمعة الأولى في رمضان، والجمعة الأخيرة في شوال، وهكذا لكُلّ جمعة خطبة، من دون ما اعتبار إلى أحداث تلك الجمعة.

ثُمّ تلا الأمين العام تقريره عن إنجازات لم تنجز، وقرارات لم تنفذ، والتزامات لم تدفع، فلم يبال أحد بهذا الجانب، ولكن وفود السعودية والمغرب وليبيا والأردن قد رقصت حواجبهم حين أشار الأمين العام في تقريره إلى «اندفاع الصين الشعبية مع الحقّ العربي في فلسطين، وهي ما تفتأ تؤكد ذلك قولاً على ألسنة زعمائها، وعملاً بما تقدمه لجيش التحرير الفلسطيني من أسلحة وعون فني»، وحمدت الله أن هذه الإشارة قد عبرت من غير تعقيب[1].

وانتقل المجلس بعد ذلك إلى دراسة جدول الأعمال في جلسات متعاقبة لبضعة أيام، وقد استحوذ موضوع القدس على اهتمامهم، وأعطوه عنواناً مثيراً «محاولة إسرائيل تهويد مدينة القدس».

وبحسب العادة القديمة، كانت خطب الوزراء بليغة، وأشهد أن الخطب في

---

(١) في موقف جمهورية الصين من قضية فلسطين، انظر: أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

جامعة الدول العربية على مدى خمسة وعشرين عاماً، وقد سمعت معظمها بأذنيّ، ليس عليها اعتراض إطلاقاً، ذلك أن الخيبة العربية لا تتجلى إلا حين تنتهي الخطب وتبتدئ صياغة القرارات، وبعدها تنفيذ القرارات!

واشترك الوزراء جميعاً في صياغة قرار عن «تهويد القدس» وجوّدوا الألفاظ، وسكبوا كُلّ «الديكور» العربي على العبارات، وأعلنوا في قرارهم أن «الأمة العربية إذ ترفض التسليم بالأمر الواقع المتمثل في قيام إسرائيل بفلسطينها المحتلة، تؤكد أن مدينة القدس عربية باعتبارها جزءاً من فلسطين العربية، وأن القدس الجديدة جزء لا يتجزأ من بيت المقدس، وأن الوجود الإسرائيلي فيها مرتبط بالاحتلال الإسرائيلي العدواني لفلسطين، وأن افتتاح المبنى الجديد المسمى بالكنيست (البرلمان) الإسرائيلي في القدس المحتلة يمثل تحدياً جديداً للحق العربي في فلسطين».

صدر هذا القرار بالإجماع، وبسرعة. فليس فيه التزام بشيء، ولا مانع فيه من الإجماع ما دام كلاماً في كلام.

قلت: «أنا أوافق على هذا القرار، وأعارضه».

فنظر إليّ حسونة، وفي عينيه تذكير لي بأن أبرّ بوعدي السابق الذي قطعته له في اجتماعنا الأخير في مكتبه بأن التزم جانب الهدوء والسكينة.

ثُمّ استأنفت حديثي وقلت: «أريد أن يكون واضحاً أنى لا أريد من كلامي أن أنكأ جراحاً أرجو أن تكون قد اندملت. أنا لا أخصّ في حديثي دولة بالذات. إن اعتراضي ينصبّ على القرار في مجموعه. إنه قرار إنشائي مثل جميع القرارات التي أصدرتها جامعة الدول العربية عن القضية الفلسطينية منذُ أنشئت الجامعة قبل ربع قرن من الزمان».

فتنطّح الوفد الأردني وكأنه وجد فيّ مقتلاً، فقال بلهجة الساخر: «الشقيري هو أستاذنا الكبير، وبخاصة في القضية الفلسطينية، فهل يتفضل بأن يدلنا على قرار عملي غير هذا القرار الذي اتخذناه؟!».

قلت: «نعم، عندي اقتراح عملي. أنا سأتكلم وأنت أكتب». وضحك الوزراء. وقلت لهم: «ولا بأس من أن تكتبوا معه». ومضيت أتكلم وهم يكتبون.

وبعد مقدمة عن أطماع إسرائيل في بيت المقدس، أتيت فيها على أقوال زعماء الصهيونية من هرتسل، ووايزمن، وبن غوريون، إلى غولدا مائير، وأبا إيبان، قدمت ثلاثة اقتراحات:

«**أولاً**، نقترح على الحكومة الأردنية، كواجب قومي أسمى أن تبادر إلى إعلان القدس عاصمة للبلاد بأسرها، ومن جملتها فلسطين المحتلة، وأن تنقل الوزارات ومؤسسات الدولة الرئيسيّة إلى مدينة القدس، باعتبار أن الأردن هي فلسطين، وفلسطين هي الأردن.

ثانياً، نظراً إلى الخطر الإسرائيلي المحدق بمدينة القدس التي تعتبر تراثاً دينياً وحضارياً في المقام الأول، ولأن الدفاع عن هذه المدينة العربية، يعدّ مسؤولية عربية مشتركة، تكلف القيادة العربية الموحدة أن تضع خطة كاملة تلتزم الدول العربية بتنفيذها من أجل الدفاع عن القدس. وإن منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة لأن تشترك بقوات جيش التحرير في هذا الواجب المقدس، باعتبار أن الأردن وفي مقدمتها القدس هي وطن المنظمة، وأن جيش التحرير مستعد لأن ينتقل فوراً إلى مدينة القدس لأداء هذا الواجب.

ثالثاً، تلتزم الدول العربية في القيام بمشروعات إنشائية وعمرانية في مدينة القدس، بحسب خطة مدروسة، للعمل على تنشيط المدينة وأهلها والقرى العربية التي حولها».

وحتى لا أدع مجالاً لمناقشات بيزنطية، قلت: «أنا لا أطالبكم بالموافقة الفورية على هذه المقترحات. كُلّ ما أريد أن تحال هذه المقترحات إلى الحكومات العربية وإلى القيادة العربية لتحديد الموقف بالنسبة اليها.

وفي رأيي المتواضع أن هذا اقتراح عملي يضع الحكومات العربية والقيادة العربية الموحدة أمام مسؤولياتها وليس كالقرار الإنشائي الذي أصدرتموه قبل قليل».

تململ الوفد الأردني في مقاعده، وهو يرى الوفود الأخرى أمام اقتراح لا تستطيع رفضه، فطرح سؤالاً أراد من ورائه أن يوقع بين منظمة التحرير والدول البترولية، فقال: «ومن الذي سيتولى الإنفاق على المشروعات الإنشائية والعمرانية التي تقترح إقامتها في القدس والقرى المحيطة بها؟».

قلت: «إذا كنا نريد بقاء القدس عربية، فعلينا جميعاً يقع واجب الدفع. إن مبنى الكنيست الجديد قد كلف إسرائيل مبلغ عشرين مليون ليرة إسرائيلية، وقد تبرعت بمعظمه عائلة يهودية واحدة، هي عائلة روتشليد. إن في الوطن العربي أسرات عربية كثيرة، حاكمة وشبه حاكمة، تستطيع أن تقوم بهذا الواجب».

ورأى الوفد الأردني أني فوتّ عليه «المقلب»، ففكر في مقلب آخر، فقال: «ولماذا تطالب المنظمة بأن يتولى مجلس الجامعة إحالة هذا الموضوع إلى الحكومات العربية؟ كُلّ وفد منا سيحمل هذه المقترحات إلى حكومته، ولا داعي لأن يذكر شيئاً عن الموضوع في مضابط الجلسة».

قلت: «أنتم قطعتم علاقتكم بالمنظمة، ولا تعترفون بها، بل إنكم ترون أن هذه الأمور ليست من اختصاصنا، ولذلك أنا أصرّ على أن يصدر القرار من مجلس الجامعة».

قال: «على العكس. نحن نعترف بالمنظمة. نحن نؤيد المنظمة. نحن. . .».

قلت: «أنا أعني ما أقول. ورئيس وزرائكم وصفي التل يعني ما يقول».

قال: «وماذا يقول رئيس وزرائنا؟».

فمددت يدي إلى حقيبتي، وتناولت ملفاً فتحته، وقلت: «لقد أعلن رئيس الوزراء وصفي التل أمام مجلس الأمة في الجلسة التي عقدها في ١٧/ ٧/ ١٩٦٦ أن قضية فلسطين كانت تشكو من ثغرة في المجالات الدولية، وهذا يحرج العرب في بعض الأحيان لعدم وجود هيئة تمثل الفلسطينيين، وعلى هذا الأساس برز موضوع الكيان الفلسطيني. وهذه التعريفات التي وضعناها في الأردن عن منظمة التحرير أخذت بها مؤتمرات القمة. إن الكيان الفلسطيني هو ضرورة دبلوماسية لمساعدة المجهود العربي الدبلوماسي في المجالات الدولية. وإننا بعد أن تكشفت لنا وللعالم نيات الشقيري وجدنا أنّه لا بُدَّ من قطع العلاقة مع المنظمة».

ثُمّ مضيت قائلاً: «وإذا كان الوفد الأردني لا يعرف ما يقوله رئيس وزرائه، فإنه له العذر في ذلك».

وبعد أن انتهت «المقالب» الأردنية، جاء الوفد السعودي بمقلب آخر، فقال، وهو يتحدث إلى رئيس المجلس: «يا سيادة الرئيس، إن موقفنا واضح. الحكومة السعودية قررت تجميد التزاماتها بالنسبة إلى مؤسسات مؤتمرات القمة وهي القيادة العربية الموحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية وهيئة تحويل الروافد، ولذلك فنحن لا نستطيع الموافقة على اقتراحات رئيس المنظمة».

قلت: «إن القدس توأم مكة والمدينة المنورة. والمملكة العربية السعودية دستورها الإسلام، فهل جمّدتم التزاماتكم تجاه بيت المقدس وهي موطن الإسراء والمعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين؟ وهل جمّدتم التزاماتكم تجاه الإسلام،

ومقدسات الإسلام؟». . ولم يجب الوفد السعودي، لأنه لم تكن لديه تعليمات بالإجابة.

وكانت هذه المقالب تدور في أروقة الجامعة، وجهاز اللاسلكي بين السفارة الأردنية في القاهرة والملك حسين يعدّ مقلباً آخر. وجاء المقلب سمجاً، تفكيراً وإخراجاً.

وجاء هذا المقلب عن طريق برقية وصلتنا من الأردن أثناء انعقاد المجلس موقّعة من الشيخ محمّد علي الجعبري، رئيس بلدية الخليل، وهو من المعروفين بولائه للملك حسين، يقترح فيها أن «تنقل القيادة العربية الموحدة مقرها من القاهرة إلى القدس». وواضح أن هذا كان اقتراحاً مضاداً لاقتراحنا بنقل العاصمة من عمّان إلى القدس.

ولم يناقش المجلس برقية الشيخ الجعبري، أو بالأحرى برقية الملك حسين، ولم يعقّب عليها رؤساء الوفود بغير الابتسامات، وأطرق الوفد الأردني بعدها متشاغلاً في أوراقه.

وجاء بعد ذلك موضوع كبير انتهى إلى قرار صغير، ذلك هو موضوع الاعتداءات الإسرائيلية على المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن. فقد قامت إسرائيل بالإغارة على المواقع التي يقوم فيها العمل، واشتبكت الطائرات الإسرائيلية بالطائرات السورية في معركة جوية. وكانت النتيجة أن دمرت معدات العمل تدميراً كاملاً، كما أصيب عدد من العمال إصابات مختلفة.

وتلي تقرير الأمين العام في هذا الصدد، موضحاً الخسائر المادية التي لحقت بالمشروع العربي. وتحدث رؤساء الوفود مستنكرين مؤيدين، مستنكرين العدوان الإسرائيلي، مؤيدين الموقف السوري.

وأسهب رئيس الوفد الأردني عبد المنعم الرفاعي الشاعر الناغم والدبلوماسي في الإشادة بموقف سوريا وبسالة الجيش السوري، وتبعه رؤساء الوفود الآخرون.

وتحمس د. إبراهيم ماخوس، وهو يستحث المجلس على اتخاذ قرارات إيجابية تكون على مستوى الأحداث بعد أن سمع هذه التصريحات الدسمة.

وجاء دوري في الكلام فقلت: «إن أسهل الأمور أن نشيد بموقف سوريا. ونحن هنا لسنا في ندوة شعر حتّى ننظم القصائد لنمتدح الجيش السوري. لقد قام

العدو بهذه الإغارة، واعترف بها، وأبلغ مجلس الأمن أنّه قام بها. وإن أشكول وزير الدفاع الإسرائيلي هو الذي أمر بها، كما أشارت إلى ذلك الصحف الإسرائيلية ذاتها. إن خير وسيلة لتأييد موقف سوريا هو أن تقوم الدول العربية بالوفاء بالتزاماتها العسكرية والمالية. على الصعيد العسكري، على الأردن أن يسمح بدخول القوات العراقية والسعودية إلى الأراضي الأردنية. وعلى الصعيد المالي أن تبادرالدول العربية إلى الوفاء بالتزاماتها المختلفة وقد بلغت الملايين والملايين. وإنني ألفت نظر المجلس الكريم إلى خطورة الموضوع، فإن مؤتمرات القمة العربية قد انعقدت أصلاً من أجل موضوع تحويل روافد الأردن، فإذا فازت إسرائيل «بالإبل» هذه المرة، فإنها تكون قد عرفت الطريق إلينا، ولا يهمها بعد ذلك أن نشتم إسرائيل ونمدح سوريا.

فسال د. إبراهيم ماخوس: «ما هي حكاية الإبل؟».

قلت: «إنها حكاية الأعرابي الذي سطا عليه اللصوص، فسرقوا الإبل وأشبعهم بالشتائم، وذهب القول المأثور: أشبعتهم شتماً وراحوا بالإبل».

ودار حوار طويل وطويل انتهى بقرار إنشائي بتوجيه «التحيّة إلى الجمهورية العربية السورية، حكومة وجيشاً وشعباً، للبطولة والبسالة في ردّ العدوان الإسرائيلي، واستنكار موقف الولايات المتحدة ومن سار معها في رفض الشكوى السورية».

وكان مجلس الأمن قد درس الشكوى السورية في عدة جلسات متعاقبة، إلى أن ختمت المسرحية الدولية (٣-٨-١٩٦٦) برفض الشكوى السورية. ولست في حاجة إلى أن أذكر أن الولايات المتحدة كانت هي السبب، فهي جذر البلاء وأس الداء.

وانفتح الموضوع مرة ثانية وانصبّت اللعنات على الولايات المتحدة، وكيف أنها استعملت حقّ الفيتو، فصوتت ضدّ مشروع القرار الذي يشجب العدوان الإسرائيلي.

وعدنا مرة ثانية إلى السؤال القديم، وعمره ربع قرن: «ماذا يجب أن نفعل بالولايات المتحدة؟ هل سنظل نصبّ عليها اللعنات وانتهى؟».

وقلت: «إنني لا أريد أن أشترك في أوركسترا اللعنات، وما أظن أحداً منكم قد هاجم الولايات المتحدة بمثل ما فعلت، وفي نيويورك بالذات، وفي

الأمم المتحدة. ولكني أناشدكم لمرة واحدة أن تتخذوا إجراء تأديبياً واحداً، ولو صغيراً، وهو الامتناع عن شرب زجاجة واحدة من الكوكاكولا، على الأقل!

ولكن هذه النكتة الموجعة لم توجع أحداً، فأصدر المجلس القرار المعتاد بالنصّ المعتاد: «التزام الدول العربية بتحديد علاقات الدول العربية بالدول الأجنبية على أساس مواقفها من قضية فلسطين».

وقلت تعقيباً على هذا القرار: «ولكن الولايات المتحدة قد حدّدت موقفها. إنه موقف عدائي، وقد بقي علينا أن نحدّد موقفنا. ويكفي أن تعلموا أن مساعد وزير الخارجية الأمريكية سيسكو كان يتغدى في وزارة الخارجية الإسرائيلية في تل أبيب حين كانت الطائرات الإسرائيلية تقصف الأراضي السورية (١٤-٧-١٩٦٦) في اليوم نفسه، وربما في الساعة نفسها.

وقاطعني رئيس الوفد الأردني وهو يقول: «إيه الحكاية؟ إيه الحكاية؟».

قلت: «الحكاية بسيطة ـ وتناولت جريدة **جيروسالم بوست** الإسرائيلية التي تصدر باللغة الإنكليزية ـ هذه هي الجريدة الإسرائيلية، وهذا هو خبر الوليمة».

وقرأ حسونة الخبر الإسرائيلي بالإنكليزية (المصرية)، ولكن وزراء الخارجية العرب التزموا الصمت واكتفوا بالقرار الذي أصدروه بشجب واستنكار موقف الولايات المتحدة.

ولم تعبأ الدول الأجنبية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، بهذا القرار، ذلك أنها على يقين تام بأن مصالحها المتعددة في هذا الجزء من العالم مصونة في أمان وعافية. إسرائيل تصون المصالح الأمريكية الاستراتيجية، والحكم العربي الرسمي يصون مصالحها البترولية. وماذا تريد أمريكا أكثر من هذا؟ وليصدر العرب ما شاؤوا من القرارات، فالقافلة تسير، ويصيح من يصيحون، ولا أقول لينبح من ينبحون!

وانتهى اجتماع مجلس الجامعة الذي أرادوا له أن يكون على مستوى الوزراء، وعقد الأمين العام للجامعة مؤتمراً صحافياً أعلن فيه القرارات والتهديدات.

وخرجنا من قاعة الاجتماع، وأحاط بنا الصحافيون يسألون ويستوضحون،

وتجنّب الوفود أن يتكلموا بعد أول اجتماع للجامعة ينعقد بعد تأجيل مؤتمر القمة لأجل غير مسمى، فأحالوهم على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

فقلت: «أوسعتهم شتماً وراحوا بالإبل».

قالوا: «وما تفسير ذلك؟».

قلت: «اذهبوا إلى عميد الأدب العربي د. طه حسين، وهو يشرح لكم ما تسألون».

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تَسؤكم**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ١٠١.

تعـال إلـى المسجـد الأقصـى..
نتعاهـد علـى كتـاب الله

دق جرس التلفون، وقال:

«سيادة الفريق أول علي عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة، يريد أن يكلم سيادتك. لحظة معاي من فضلك».

هكذا فاجأني عامل التلفون في القيادة العربية الموحدة، وكأنه يملي عليّ أمراً عسكرياً. وانتظرت لحظة، وإذا بالفريق أول علي عامر يتحدث بنبرة عصبية:

قال: «لا بُدَّ من أن أخبار العدوان الإسرائيلي على السموع قد وصلتك».

قلت: «نعم، لقد وصلتني. أنا هنا مع إذاعة الأردن وإذاعة إسرائيل منذُ الصباح».

قال: «أنت شاهد يا أخي، كم مرة حذرت الأردن. والبلية أن وصفي التل يخبرنا بهذا العدوان بعد أربع ساعات من انتهاء الغارة. بعد أربع ساعات من انتهاء الغارة. بعد أربع ساعات من انسحاب القوات الإسرائيلية».

قلت: «وأنت شاهد أيضاً. كم مرة طالبت الأردن بتسليح القرى الأمامية وتحصينها».

وتبادلنا بعد ذلك الكلام عما سمع وما سمعت بصدد الغارة الإسرائيلية وتفاصيلها.

كان ذلك في الثالث من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٦٦ وهو يوم ليس للأمة العربية أن تنساه.

ففي فجر ذلك اليوم، حين دقت ساعة الصفر، انطلقت القوات الإسرائيلية مخترقة خطوط الهدنة الأردنية تدعمها الدبابات والمصفحات، وتسندها المدفعية من

مختلف العيارات، وتحميها مظلة من الطائرات المقاتلة. تقدمت هذه القوة الضخمة خمسة كيلومترات بين الجبال صوب قرية السموع (الخليل)، وهي واحدة من عشرات القرى المكشوفة العزلاء الرابضة على خطّ الهدنة الإسرائيلية ـ الأردنية.

وعلى مدى ست ساعات كاملة اتخذت القوات الإسرائيلية مراكزها الاستراتيجية حول مدخل القرية ومخارجها، وراحت فرق النسف والتدمير تبث المواد المتفجرة في المنازل والساحات العامة، وهي مطمئنة أن أحداً لن يخدش أسماعها بطلقة أو صيحة، فقد خلا لها الجو، وكان الجو ينشد معها:

خلا لك الجو فبيضي واصفري و«دمري ما شئت أن تدمري»[1]

واهتزت الجبال الوادعة والوديان الآمنة من حول القرية، حين كانت منازلها تتساقط بجدرانها وسقوفها، فلم تستثن مدرسة ولا مصحاً ولا جامعاً. وأصبح كُلّ شيء في القرية قاعاً صفصفاً، إلا المئذنة فقد بقيت قائمة بعد أن سددت إليها قذيفة اخترقت خرطومها الأعلى. وكأنما أرادت إسرائيل أن تقول لمن يرى هذه الإصابة المسدّدة: أرأيتم؟! وهذه مئذنتكم تحت رحمتنا.

ومع النسف والتدمير، قامت القوات الإسرائيلية بحملة التقتيل والترويع، حتّى إذا فرغت من هدم عشرات البيوت وقتل العشرات من الرجال والنساء والشيوخ، عاد الجنود الإسرائيليون إلى ما وراء خطوط الهدنة، وهم ينشدون ويهزجون، كما أوصاهم التلمود في وصاياه البربرية في قتال الأعداء، بلا شفقة ولا رحمة.

وفي تقرير أوّلي وصلني من مكتب الأمم المتحدة في القاهرة، أعلن الجنرال أود بول كبير مراقبي الهدنة «أن الغارة الإسرائيلية كانت تسندها ثمانون مصفحة، وثمانون دبابة، واثنتا عشرة طائرة مقاتلة، وأن عدد المنازل المدمرة مائة وخمسة وعشرون، وأن القتلى والجرحى قد تجاوزوا المائتين».

كنت في صباح ذلك اليوم أدير مفتاح الراديو بين إذاعتي عمّان وإسرائيل، وأنا استمع إلى أخبار هذه الغارة المجرمة. وقد روّعني من أنبائها أمور ثلاثة:

الأول، أن البلاغات الأردنية قد أكدت «أن العدو كان يستهدف احتلال قرية السموع. ولكن القوات الساهرة قد أجبرته على الانسحاب بعد أن لقنته درساً قاسياً»، وتمنيت لو كان هذا الكذب صحيحاً، ولو بعض الشيء.

الثاني، أن الإذاعة الإسرائيلية قد أكدت «أن الغارة التي قام بها جيش الدفاع

(١) بيت الشعر في الأصل: و«نقّري ما شئت أن تنقّري».

الإسرائيلي لم تكن تستهدف الملك حسين، وإنما تستهدف تأديب أهالي القرى القائمة على خطوط الهدنة». وفجعت أن يكون الملك في واد، والشعب في واد، وفي نظر إسرائيل بالذات.

و**الثالث**، أن الغارة قد وقعت في صبيحة اليوم الذي وصل فيه إلى عمّان، في زيارة رسمية، المشير أيوب خان رئيس الجمهورية لأكبر دولة إسلامية. وكأنما مصادفة الأقدار لتقول إسرائيل في يومها للعالم الإسلامي، هل من مبارز؟ أين السبعمائة مليون مسلم؟ ولم يكن هذا التحدي للعالم الإسلامي من وحي الخيال، فإن السموع، واحدة من قرى مدينة الخليل، وهي مدينة خليل الله إبراهيم، وفيها المسجد الإبراهيمي الجليل، ولعله رابع المقدسات الرفيعة في الإسلام، بعد بيوت الله في مكة والمدينة وبيت المقدس..

ومضت أيام رهيبة، وبدأت الرسل تتوالى بين المنظمة وبين الوطن. فقد كان الملك حسين قد أعلن أنّه قطع علاقته بالمنظمة وسحب اعترافه بها، وأغلق مقرها العام في القدس وختمه بالشمع الأحمر. ولم يعد أمامنا من سبيل للاتصال بجماهير الشعب إلا بإذاعة المنظمة في القاهرة، نخاطب من خلالها أهالي السموع، والخليل، والشعب أجمع في الوطن بأسره.

وحجزنا طائرة خاصة حملت الصحافيين العرب والأجانب ومراسلي الإذاعة والتلفزيون إلى الأردن، ونقلوا صورة رهيبة عن التدمير النازي والتقتيل البربري الذي اقترفته القوات الإسرائيلية على الحجر والبشر.

ولكن الصحافيين شاهدوا انفجارات أروع وأرفع. لقد شاهدوا خلال إقامتهم في البلاد وعلى أيام وأيام انفجار الشعب على الملك حسين. فقد اندلعت التظاهرات في مدن الضفة الغربية، ومنها انتقلت إلى الضفة الشرقية، وخرج الشعب إلى الشارع وهو يهتف صارخاً متمزقاً يطلب: السلاح. تسليح القرى الأمامية، التجنيد الإجباري، دخول جيش التحرير الفلسطيني لحماية القرى الأمامية.

واشترك في هذه التظاهرات الشعب بكل فئاته، ولم يسع رجال الأمن إلا أن يساهموا في هذه المسيرات الشعبية، وبلغ الغضب ذروته فهتفوا بسقوط الملك حسين، ومزقوا صوره في دواوين الحكومة، وحملوا الولاة على أكتافهم وأجبروهم على أن يصيحوا: ليسقط الملك حسين! فهتفوا ملء قلوبهم وأفواههم..

وكان ميسوراً على الملك حسين أن ينحني أمام العاصفة حتّى تعبر، ولكن المطلب الرهيب: دخول جيش التحرير إلى الأردن، لم يكن بوسعه أن يحتمله ولا أن يصبر عليه. فصدرت الأوامر الملكية إلى رئيس وزرائه وصفي التل، كما ردّدتها

إذاعة عمّان «بالضرب على المشاغبين بيد من حديد وبلا رحمة».

وازداد الموقف توتراً، وازدادت مضاعفاته، وشمل الهياج جماهير الأمة العربية في الوطن العربي بأسره، فقامت التظاهرات في العواصم العربية، وأقيمت صلوات الغائب على أرواح الشهداء، وتنادى الطلاب العرب في القارات الست إلى مسيرات هائجة، واقتحموا السفارات الأردنية وبعثروا أوراقها، ومزقوا صور الملك حسين، وداسوا على ما لم يستطيعوا تمزيقه.

وفي تلك الأيام الحالكة، كان لا بُدَّ من الصفاء والصوفية في القول وفي العمل، ورأيت أن أبدأ بنفسي. رأيت أن استأنف الاتصال بالملك حسين، رغماً عن القطعية التي بيننا. واحتشدت في نفسي كُلّ آلام الوطن وكُلّ عذاب الشعب، فوجهت إلى الملك حسين **رسالة** (١٥-١١-١٩٦٧) قلت فيها:

«منذُ أن ألقيت خطابك في عجلون انقطعت الصلة بيننا، وأصبحت المنظمة غريبة في وطنها، بعيدة عن شعبها».

«ولكن هذا الوطن الجريح ليس لي وليس لك، فإنّا كلينا إلى زوال، وهذا الوطن هو الذي يبقى، وهذا الشعب هو الذي يدوم، ولست في حاجة إلى أن أجعل لحديثي مقدمة أو ديباجة، فإن الهجمة الإسرائيلية الغادرة على لواء الخليل أبلغ من كُلّ مقدمة وأفصح من كُلّ ديباجة.

«وإن الغارة الإسرائيلية قد حققت أغراضها وفق الخطة التي وضعتها لها القيادة الإسرائيلية. وهذه الغارة لم تكن تستهدف احتلال الأرض، أبداً، لم يكن هذا ضمن خطتها، كان هدفها الشعب، الشعب الآمن، الشعب الأعزل، فأنجزت الغارة الإسرائيلية ما أرادت، ثُمّ انسحبت، وتركت وراءها الأرواح وقد أزهقت، والمنازل وقد دمرت، وكان ضحاياها الشيوخ والنساء والرجال والأطفال، ومثل هذه الغارة، بل أشدّ منها، سيقع على وطننا وعلى شعبنا حيناً بعد حين.

«سيقع مثل هذا، بل أشدّ من هذا في الخليل، وفي القدس، وفي نابلس وطولكرم، وفي جنين، وفي إربد، وفي جميع المدن والقرى الأمامية على طول الخطوط الأمامية، على خطوط الهدنة.

«لقد عرضتم الشكوى الأردنية على مجلس الأمن، وهذا عمل لا طائل تحته، وخذها عني أيها الملك حسين، خذها عني خبرة السنين، إن مجلس الأمن لا يحمي شعبنا ووطننا من غدر إسرائيل بالمدافع والدبابات والطائرات التي ضربت قرى الخليل أول أمس.

«ومنذُ قامت منظمة التحرير، وهي تخشى وقوع الذي وقع، بل إن منظمة التحرير الفلسطينية منذُ قامت وهي تدعو إلى التجنيد الإجباري، وتسليح المدن والقرى الأمامية، وإنشاء معسكرات للتدريب على أعمال المقاومة الشعبية.

«وإني أذكر الآن للتاريخ والعبرة أنّه يوم التقينا في رئاسة الوزارة في عمّان لبحث مطالب منظمة التحرير الفلسطينية، وجهت السؤال واضحاً صريحاً إلى وصفي التل رئيس الوزراء: هل إذا هبطت فرقة من المظليين الإسرائيليين على الخليل، هل أهالي الخليل قادرون على الدفاع عن أنفسهم؟. فأجابني رئيس الوزراء فوراً: «نعم، إن أهل الخليل قادرون على الدفاع عن أنفسهم».

«وأحسب أنني كنت أتكلم يومئذ بلسان الغيب، فها قد وقعت الواقعة، وعلى أهل الخليل بالذات. فما استطاعوا الدفاع عن أنفسهم، فقتل من قتل، وذبح من ذبح، وإن هذا المصير ينتظر أهالي القدس وبيت جالا ورام الله ونابلس وجنين وطولكرم، وجميع مدننا الأمامية وجميع قرانا الأمامية.

«وليس الوقت الآن وقت ملامة وحساب. لسنا نريد أن نعود إلى الماضي قريباً كان أو بعيداً، ولا نريد أن نتحدث عن الأسباب والنتائج، وما كان بين المنظمة وعمّان، فإن الزمن زمن كفاح وجهاد، وزمن إعداد واستعداد، وإن منظمة التحرير الفلسطينية ليست لها مطالب شخصية تعرضها عليكم، إنها مطالب التحرير: هذا الشعب يجب أن ينظم، هذا الشعب يجب أن يدرب، وهذا الشعب يجب أن يسلح.

«وحين نقول هذا الشعب يجب أن ينظم، فإنما نعني إنشاء فرق شعبية للمقاومة الوطنية في كُلّ مدينة، في كُلّ قرية، في كُلّ مخيم. وحين نقول هذا الشعب يجب أن يدرب، فإنني أعني إنشاء معسكرات للتدريب في طول البلاد وعرضها، يدرب فيها الشباب والطلاب والنساء والرجال على حمل السلاح بكل أنواعه. وحين نقول هذا الشعب يجب أن يسلح، فإنما أن تسلح المدن، وأن تسلح القرى الأمامية على طول خطوط الهدنة لتكون قادرة على الدفاع، الدفاع عن الحياة وعن الوجود.

«وإن منظمة التحرير لا تقدم اقتراحاتها إلى الملك حسين كلاماً وتمنيات، ولكن تشفعها عزماً وتصميماً، عملاً ونضالاً.

«إن منظمة التحرير الفلسطينية لا تؤيد الأردن كبلد شقيق. إنها تؤيده، لأنها تؤيد ذاتها ووجودها ومصيرها. ليس الأردن عندنا بلداً شقيقاً، إنه بلدنا فيه وطننا، وفيه شعبنا، وله علينا حقّ النضال وواجب الجهاد.

«إن منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة لأن تنقل جميع وحدات جيش التحرير

من غزة، من سوريا، من العراق، إلى أرض الوطن في الأردن، لتتخذ مراكزها في المواقع التي تخصصها القيادة العربية الموحدة، وأن تعمل تحت إمرة القيادة الموحدة. وبهذا يجد الجيش الأردني الباسل توأمه الشقيق جيش التحرير الفلسطيني، تجمعهما أخوة الدَم وأخوة السلاح في معركة التحرير وعلى أرض التحرير.

«إن منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة لأن تقدم إلى المدن والقرى الأمامية في الأردن جميع أنواع الأسلحة الخفيفة والأسلحة المتوسطة، بما فيها الأسلحة الأتوماتيكية والأسلحة المقاومة للطائرات والدبابات.

«إن منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة لأن تضع إمكانياتها المالية والمعنوية لإنشاء فرق للمقاومة الشعبية، ولإقامة معسكرات للتدريب، حتّى تجعل الشعب كُلّ الشعب سنداً قوياً للجيش الأردني البطل.

«وإنني في هذه اللحظات الحاسمة أطلب إلى الملك أن يتأمل ملياً وعميقاً هذه المرحلة الخطيرة التي تواجه شعبنا ووطننا. إنها مرحلة تاريخية تضعنا جميعاً امام المسؤولية القومية وجهاً لوجه.

«إن منظمة التحرير الفلسطينية تريد أن تعبئ الشعب، كُلّ الشعب، لمعركة التحرير، هذا هو هدفها الوحيد في الحياة، بل هذا ما قامت من أجله منظمة التحرير.

«أريد أن أقولها كلمة صريحة للملك حسين: لسنا طلاب حكم، ولكننا طلاب تحرير، الوطن واحد، الشعب واحد، والمصير واحد.

«نحن نطالب الملك حسين، على مسمع من شعبنا الصابر، ومن الجيش الأردني البطل، أن يبادر بنفسه إلى دار الإذاعة الأردنية ليحدّد موقفه من هذه الخطة النضالية التي تعرضها المنظمة.

«نحن نتطلع إلى الملك حسين أن يعلن قبوله لها، فإن قبل، فستكون المنظمة، قيادتها، وجيشها، وأجهزتها، وأموالها، وكُلّ طاقاتها وقدراتها، ستكون في الأردن غداً مع الشعب البطل، مع الجيش الباسل، نكافح معاً من أجل تحرير الوطن السليب.

«نحن ننتظر الجواب من عمّان، ومن الملك حسين بالذات.

«لا نقول هذا تحدياً ولا حواراً.

«ولكننا نقوله قياماً بواجب النضال، وقياماً بواجب الجهاد.

«نحن ننتظر الجواب من عمّان، نحن ننتظر الجواب من الملك حسين، فإن قبل

فنحن على موعد على اللقاء في أرضنا، وفي وطننا، ومع جيشنا، سنكون كلنا في المعركة: قيادة المنظمة، جيشها، أجهزتها، قواعدها، شعبها، كلنا في أرض المعركة».

وجهت **هذه الرسالة** إلى الملك حسين بنفس صافية وأنا أطمع في أن يقابلها من جانبه بنفس صافية. ولكنه حسب أني أستعطفه وأستنجده، وكأنما قرية السموع هي داري التي تهدمت، وجئت اليوم أطلب نجدته.

ونام الملك حسين على رسالتي بضعة أيام، وإذا بالإذاعة الأردنية في عمّان تذيع نصّ رسالة ملكية سامية وجهها جلالة الملك المفدّى «إلى عزيزنا دولة الرئيس وصفي التل»، ثُمّ يذيع بعد ذلك رسالة جوابية من رئيس الوزراء مروّعة إلى «أعتاب مولانا صاحب الجلالة وارث الثورة العربية».

استمعت إلى الرسالتين من دون أن تتقزز نفسي من عبارات التفخيم العظيم التي تبادلها الملك ورئيس وزرائه، فقد تبلّد إحساسي منذُ زمن طويل وأنا أستمع إلى هذه الصياغات وهي أشبه ما تكون «بالمجوهرات» العصرية بقيمة الجنيه وأنصاف الجنيه، مما يباع على أرصفة الشوارع.

وقد استمع الشعب إلى هاتين الرسالتين، ودماء الشهداء لا تزال طرية على ترابنا الطهور، وكُلّ ما فيهما هجوم على منظمة التحرير التي «تسعى إلى تخريب هذا البلد، والتفريق بين أبناء الوطن الواحد»، وأن رسالة رئيس المنظمة تهدف إلى «تعطيل جهودنا المتواصلة التي تهدف إلى التعبئة والحشد على خطّ الدفاع الأول عن دنيا العرب». وطلب الملك حسين في رسالته من رئيس وزرائه بأنه «إذا ظهر بيننا من تسوّل له نفسه الانصراف إلى الفوضى والتخريب، فليعاقب دون هوادة». وأجاب رئيس الوزراء على ذلك بقوله: «إن ما يسمع من أصوات منكرة إنما هي أصوات عميلة مأجورة».

وكان هذا الوعيد والتهديد أشبه بغاز البترول مسته ولعة من نار، فتأججت مشاعر الشعب وازدادت غضباً واستنكاراً، وأصبحت التظاهرات والمسيرات من الأعمال اليومية تمارسها الجماهير الحانقة، وليس لها من مطلب إلا السلاح. . . السلاح.

وفي قرية السموع بالذات بلغ الإلحاح على السلاح ذروته، فقد أرسلت السلطات الأردنية سيارات محملة بالخيام ليأوي إليها الأهالي الذين دمرت منازلهم، وكان أن جمعت هذه الخيام في ساحة القرية كومة واحدة، وتقدم الشباب وصبّوا عليها الكاز وأحرقوها لتصبح رماداً تذروه الرياح. والشباب يصيحون: «نحن لا نريد الخيام. نريد السلاح».

ومرة ثانية، وبنفس أصفى من عين الديك، كما يقول المثل العامي، بعثت إلى الملك حسين **رسالة ثانية** (٢٢-١١-١٩٦٦) لعل الله أن يهديه، وقلت:

«مرة ثانية أوجه إليك هذه الرسالة لأعبر عن مشاعر الشعب المناضل والجيش الباسل، ولست أريد أن أتحدث عن رسالتك لرئيس الوزراء، ولا إلى جوابه إليك، فليس هذا وقت الحوار والجدال، ولكنه وقت الكفاح والقتال.

«إن مناقشات مجلس الأمن بصدد العدوان الإسرائيلي على قرية السموع تدور في حلقة مفرغة، وإن صدور القرار بإدانة إسرائيل لا يشفي غليل الأمة ولا يثأر لشهداء الشعب والجيش، ولا يعمر الخراب والدمار، ولا يأسو جراحنا القديمة والحديثة. ولن تكون الإدانة أكثر من قرار يضاف إلى قرارات عديدة أصدرتها المنظمة العالمية، فكانت كلاماً على كلام، وتراكمت أوراقاً على أوراق.

«ونحن لا نتوقع أكثر من هذا، فإن مجلس الأمن فيه الولايات المتحدة التي أقامت إسرائيل بالأموال الأمريكية والأسلحة الأمريكية. مجلس الأمن هذا لا يحمي شعبنا ووطننا، يحميه شعبه وجيشه، وتحميه الأمة العربية، وليس لنا أن نرجو غير هذا، أو نطمع في غير هذا.

«ولو شاءت الولايات المتحدة، حتّى من غير حاجة إلى مجلس الأمن أن تقف إلى جانب الحقّ لمنعت عن إسرائيل المال والسلاح عاماً واحداً. ويومها سنرى إسرائيل جاثمة على جبهتها، خاضعة مستسلمة، ولكن إسرائيل هي القاعدة الأمامية للاستعمار وعلى رأسه أمريكا. وقد آن لنا أن نغسل أيدينا من السياسة الغربية في قضية فلسطين، فإن الغرب هو الذي كان ولا يزال أصل الكارثة وسبب البلاء، وإنه لعبث ما بعده عبث أن نجعل من الخصم حكماً، وأن نلتمس من العدو حقاً وعدلاً.

«وفي رسالتي الأولى إليك عرضت عليك أيها الملك الحسين خطة نضالية وضعتها منظمة التحرير لنقابل بها الأحداث الخطيرة التي تجابه وطننا في حاضره ومستقبله.

«ولم أتلق منك جواباً مباشراً حتّى الآن، ولو كان الأمر بيننا يتناول أموراً شخصية لأمسكت عن الاتصال بك، فإني كعربي فلسطيني يعتزّ بكرامته، ولا أسمح لنفسي أن أقف على العتبات أمام الأبواب المقفلة.

«ولكن الأمر يتعلق بالوطن والشعب، يتعلق بالمصير الخطير الذي ينتظرنا، فكان لا بُدَّ لي من أن أعتصم بالصبر، وأن أضع الكرامة الشخصيّة جانباً، فإن فلسطين فوقك وفوقي، وفوق جميع الملوك والرؤساء، ولا حرج عليّ، من أجل

فلسطين أن أظل واقفاً على الأبواب أقرع وأطالب، فلا يضيع حقّ وراءه مطالب، وشعب مطالب.

«والأمر الذي أريد من الملك حسين أن يتأمله ملياً، ويفكر فيه عميقاً، أن الفدائيين المناضلين من أبناء فلسطين سيواصلون ضرب إسرائيل في المنطقة المحتلة. الفدائيون سيزدادون عدة وعدداً. الفدائيون سيزدادون نضالاً وعزماً. الفدائيون سيثأرون لشهداء الجيش والشعب. إنهم سيثأرون لشهداء الجيش والشعب. إنهم سيثأرون لأهالي الخليل، بل لأهل فلسطين، بل للأمة العربية بأسرها.

«هذا ما انتهى إليه عزم الفدائيين المناضلين من أبطال فلسطين. إنهم سينطلقون من كُلّ شبر من أرض الوطن، من العقبة جنوباً إلى عجلون شمالاً، هذا هو علم اليقين وستعلمون نبأه بعد حين.

«ولقد مات نصف شعبنا على فراشه تحت الخيام المهلهلة منذُ وقعت الكارثة، فالفدائيون المناضلون من أبناء فلسطين طال انتظارهم، ونفد اصطبارهم، ولم يعد أمامهم إلا أن يبدأوا معركة التحرير، وأن يجعلوا دماءهم فداء لاسترداد الوطن السليب.

«على الملك حسين أن يدرك هذا كُلّه، وأن يدرك حقّ الشعب وحق الجيش في هذه المعركة، وأن يدرك إلى جانب ذلك كُلّه واجب منظمة التحرير إزاء هذا الهدف المقدس.

«ولقد سمع الشعب أنباء البلاغات الرسمية التي أذيعت من عمّان عن الهجمة الإسرائيلية الغادرة على لواء الخليل، وإنني امتنع الآن بكل قصد وتصميم عن ذكر حقائق هذه المعركة ونتائجها، فإن الشعب يعرفها، ويعرفها رجل الشارع في صميم الشارع.

«ولذلك، فإن الحاضر الذي يواجهنا، والمستقبل الذي ينتظرنا، يفرض علينا جميعاً أن نتقي الله جميعاً في وطننا وشعبنا، وأن نرتفع إلى مستوى المعركة، وأن نعيشها بكل عزائمنا وبكل جوارحنا. وها أنت أيها الملك حسين تسمع صيحات المتظاهرين ونداءات الشعب تنطلق من الشباب والطلاب من الرجال والنساء، ومن الفلاحين والعمال ومن جميع فئات الشعب على السواء.

«وحين عرضت في رسالتي الأولى إليك أن تتحرك المنظمة فوراً بقيادتها وجيشها وأجهزتها إلى أرض الوطن، إلى أرض المعركة، فما أردت من وراء ذلك معاونة الأردن ومساندة الجيش والشعب. هذا تصور خاطئ نرفضه بكل شمم وإباء، نحن لا

نقدم معاونة إلى الأردن. ليس الأردن بلداً شقيقاً، الأردن فيه وطننا وفيه شعبنا. وإنه واجبنا المقدس، بل حقنا الأسمى للدفاع عن وطننا، وأن نسارع لنذود عن شعبنا كتفاً إلى كتف مع الجيش الأردني الباسل، وعلى الملك أن يكون في استقبال كتائبنا، كتائب جيش التحرير، فذلك ما يدعو إليه شرف الكفاح والجهاد.

«لقد عرضنا أن نقدم جميع الأسلحة إلى المدن والقرى الأمامية على طول خطوط الهدنة.

«ومنظمة التحرير تقول اليوم للملك حسين: إننا مستعدون أن نقدم هذه الأسلحة إليك لتوزيعها، بكلتا يديك على أبناء الشعب، وأبناء الشعب لو أصغيت إلى صيحاتهم يطالبون بالسلاح، ونحن حاضرون أن نقدم السلاح.

«لقد عرضنا أن ننشئ المعسكرات للتدريب الشعبي على جميع فنون القتال، ونحن نعرض على الملك حسين أن يفتتح بنفسه هذه المعسكرات حتّى يصبح الشعب كُلّ الشعب، قادراً على حمل السلاح، وأن يتصدّى للعدو هجوماً ودفاعاً في المدن والقرى، في المزارع والمصانع، في الساحات وفي الشوارع.

«ولقد عرضنا أن ننقل جيش التحرير لفلسطيني فوراً إلى مراكزه التي تحددها القيادة العربية الموحدة وأن يكون تحت إمرة القيادة العربية الموحدة، ومنظمة التحرير تقول اليوم للملك حسين: إننا مستعدون أن يتحرك عشرة آلاف جندي، نعم، عشرة آلاف جندي ومعهم قادتهم وضباطهم إلى وطنهم فلسطين، إلى وطنهم الأردن، ليكونوا مع الجيش الأردني الشجاع جنباً إلى جنب، وإن شئت المزيد فإن جيش التحرير قادر وحاضر للمزيد.

«وجيش التحرير الفلسطيني كُلّه من أبناء فلسطين لحماً ودماً، وإن شئت فإنه كُلّ من أبناء الأردن لحماً وعظماً ودماً. فالأردن وفلسطين اسمان مترادفان للوطن. إن وحدات جيش التحرير في غزة وسوريا والعراق قد بلغت مستوى رفيعاً من النظام والتدريب ودرجة عالية من الكفاءة في القتال. ذلك هو تقرير علي عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة، والتقرير عندكم في ملفاتكم، وإذا أضفنا إلى ذلك شجاعة أهل فلسطين وتمرسهم بالقتال والنضال عبر العصور والأجيال، حينئذ يطرح السؤال الخطير نفسه أمام الملك حسين: ماذا تفعل كتائب جيش التحرير في العراق ولواء الخليل يضرب بالحديد ويقذف بالنار؟ ماذا تفعل كتائب جيش التحرير في سوريا والمدن والقرى الأمامية في وطننا مكشوفة عزلاء؟ ماذا تفعل وحدات جيش التحرير في غزة وإسرائيل تتوعد شعبنا في الأردن؟ إن الملك حسين وحده مطالب بالجواب.

«وجيش التحرير، أقولها للملك حسين على مسمع من الشعب، مؤلف من

وحدات فدائية ونظامية، مجهز بمختلف الأسلحة الهجومية والدفاعية بما فيها الأسلحة المضادة للطائرات والدبابات. ويطرح السؤال الخطير نفسه مرة ثانية على الملك حسين: لماذا لا يكون جيش فلسطين على أرض فلسطين، ومع شعب فلسطين، يناضل ويقاتل مع الجيش الأردني الباسل؟، إن الملك حسين وحده مطالب بالجواب.

«ولست أعلنها كلاماً، ولكني أعلنها قَسَماً أن جيش التحرير يوم يدخل وطنه في الأردن سيكون للتحرير ولا شيء إلا التحرير، فلا المناصب هدفنا، ولا الرواتب مطمعنا، ولا الحكم غايتنا. الوطن السليب قبلتنا بعد قبلتنا، وكعبتنا بعد كعبتنا، والتحرير هو إيماننا بعد إيماننا.

«أما أنا فإنني لا أصلح للقتال، وأنا أقترب من الستين من عُمري، ولكني أصلح لما أصلح له، أن أعمل مع قادة الشعب نزيد جيشنا طاقة وعدة، وصبراً وعزماً وأملاً وإيماناً، فإن النصر معقود اللواء للذين يقاتلون بصبر وعزم وإيمان.

«مرة ثانية أطلب إلى الملك حسين أن يكون في استقبال كتائب جيش التحرير حين يدخل أرض الوطن، فإن رضي الملك حسين، وهذا هو رجائي ودعائي، فسيدخل جيشنا غداً، وأرجو أن يكون لقاؤنا الأول مع الملك حسين في المسجد الأقصى، لنتعاهد على التحرير في أولى القبلتين وثالث الحرمين وفي موطن الإسراء والمعراج، فإن لم يرض الملك حسين بهذا فستكون الكلمة للشعب المناضل، والجيش الأردني الباسل».

كانت تلك هي **رسالتي الثانية** إلى الملك حسين، ولكن.. ولكن لم تجدِ توسلاتي إلى الملك حسين، فآثر الإصرار على موقفه، وازداد الشعب إصراراً على مطالبه، وتطايرت شرارات الثورة في البلاد، فأخذ الأهالي يهاجمون مراكز الشرطة للاستيلاء على ما فيها من الأسلحة، وأضربت المدارس، وتداوت أصوات الانفجارات في الليل والنهار، واعتصم الجيش في ثكناته يرفض الانصياع إلى الأوامر للبطش بالشعب، فإن واجبه الأول والأخير هو التصدّي لإسرائيل، لا التنكيل بالآمنين الأبرياء من أبناء الشعب الشرفاء.

ومع اضطراب الحال في داخل الأردن، اضطرب اثنان خارج الأردن: إسرائيل والولايات المتحدة، فقد بدأ الإسرائيليون يدركون أن «الغارة الإسرائيلية كانت خطأ سياسياً فادحاً، فإن الملك حسين معروف بصداقته الشديدة للغرب، وإن إخراجه من الحكم ضربة قاسية لكُلّ العرب المحافظين ولإسرائيل نفسها»، وهذا ما نقلته «الأسوشييتد برس» عن مراسلها في تل أبيب.

أما الولايات المتحدة، فإنها أصدرت أوامرها إلى الأسطول الأمريكي «بأن يكون

على قدم الاستعداد للتدخل لحماية الملك وعرش الملك، وأن على وحدات الأسطول الأمريكي أن تتخذ مراكزها شرقي البحر الأبيض المتوسط لإنزال الجنود في الأردن عند طلب الملك حسين»، وهذا ما نشرته **النيويورك تايمز** (٢٨/ ١١/ ١٩٦٦).

وكان الشعب يتابع أخبار مجلس الأمن في مناقشاته الهزيلة للشكوى التي تقدم بها الأردن، ويستمع إلى خطب مندوبي الدول الأربع، وهم يندّدون بالغارة الإسرائيلية على قرية السموع، وإلى مندوب الأردن وهو يطالب بإنزال العقوبات السياسية والاقتصادية بإسرائيل من دون أن ينحرف مجلس الأمن عن إطار القرار التقليدي «بإدانة إسرائيل على غارتها المخالفة لنصوص اتفاقية الهدنة، ومطالبة جميع الفرقاء بالتزام وقف إطلاق النار».

وأخفقت جهود الملك حسين في استدراج الجيش الأردني من ثكناته ليتصدّى للشعب، فتحركت مفارز من الجيش السعودي إلى الأردن، فالمملكة العربية السعودية لا تستطيع أن تحتمل رؤية العرش الهاشمي يترنّح في عمّان. ولقد عشت وجيلي أخبار الحروب الطاحنة بين السعوديين والهاشميين، وكيف انتهت بجلاء الهاشميين عن مُلْكهم في الحجاز. غير أن الظروف قد تبدلت، وصارت الرياض ترى في عمّان قلعتها الأمامية، وذلك ما حدا القوات السعودية على أن تتحرك إلى الأردن، حينما كان الشعب يتحرك حول القصور الملكية في عمّان.

وفي هذه المرة رأى الشعب أن الملك حسين قد أذن للقوات السعودية بأن تتجاوز الحدود وتدخل الأراضي الأردنية، إن لم يكن قد دعاها هو بنفسه، بعد أن بقيت هي والقوات العراقية عاماً بكامله من دون أن يؤذن لها بالدخول لتكون في مواجهة إسرائيل.

واتخذت القوات السعودية مواقعها في الخطوط الخلفية من البلاد شرقي نهر الأردن، وخشيت من أن تتطور الأمور إلى ما هو أسوأ، وتشتبك القوات السعودية مع الشعب، وإسرائيل على مرمى البصر تتفرج. فغادرت مكتبي إلى دار إذاعة منظمة التحرير، أناشد القوات السعودية، والإسلام.. الإسلام، والقرآن.. القرآن، في رسالة قلت فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين..

«أيها الضباط الشجعان، أيها الجنود البواسل من الجيش العربي السعودي.

«أحييكم تحية العروبة والإسلام، وأسلم عليكم سلام الأخوة والإيمان، وها إني أحدثكم اليوم، تفصلني عنكم البراري والقفار، ولكنا نحن وأياكم أقرب من

حبل الوريد، فإنما المؤمنون إخوة، وعروة الإيمان وثقى لا انفصام لها، أماتنا الله وأحيانا على الإيمان، ﴿**قُل إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾[٢].

«وإني بعد أخوة الإسلام، لست غريباً عنكم، فقد عرفتكم في الحجاز، مهبط الوحي العظيم، وفي نجد موئل الشمائل الإسلامية والبطولة العربية، عرفت الكثير من ضباطكم وجنودكم، عرفت قبائلكم التي تنتسبون إليها، وهم الذين قاتلوا قتال الأبطال تحت راية بطل الجزيرة العربية، المرحوم عبد العزيز آل سعود، نوّر الله مرقده، وطيّب ثراه.

«أجل إني لست غريباً عنكم، وقد مثلت العربية السعودية سنين طوالاً في الأمم المتحدة، فأعربت عن آمالكم الكبرى في القضايا العربية، وفي مقدمتها قضية العرب الأولى، قضية فلسطين، بل قضية الإسلام والمسلمين، وهو القائل: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**﴾[٣] صدق الله العظيم. وقد تواترت الأنباء أنكم تتهيأون للدخول إلى الأردن من تبوك، وأن شعب الأردن، وإني أحدثكم بلسان كُلّ واحد منهم، من الصحراء شرقاً إلى أسوار القدس غرباً، يسعدهم جميعاً أن تدخلوا بلدكم، أن تدخلوا المدن والقرى والمخيمات، والبوادي والحواضر، فأنتم على الرحب والسعة، حيثما حللتم، وأينما نزلتم، إخوان في الله والإيمان، وإخوان في الجهاد، تأتون أهلاً، وتنزلون سهلاً.

«وإنه لمن بوادر الخير أنكم تخرجون من تبوك، وأنتم عارفون بقدرها وفضلها في الإسلام، فغزوة تبوك قادها رسولنا العظيم بنفسه، في السنة التاسعة للهجرة، وكانت تبوك آخر ما وصل إليه نبينا الكريم، صوب فلسطين، ويقيني أنكم في طريقكم إلى فلسطين ستحملون معكم في قلوبكم رسالة الجهاد في سبيل الله التي قاتل من أجلها رسول الله.

«ولست أعرف التعليمات التي لديكم، ولا ما هي الواجبات العسكرية التي ستوكل إليكم، أعلم أنكم وافدون من بلاد دينها الإسلام، ودستورها القرآن، والإسلام فوق كُلّ تعليمات، والقرآن يعلو على كُلّ توجيهات. فما هو واجب الإسلام من قضية فلسطين، وما هو أمر القرآن في ما يجري من الأحداث على أرض فلسطين؟

«أيها الضباط الشجعان، أيها الجنود البواسل من الجيش العربي السعودي، إن

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ١٦٢.

(٣) المصدر نفسه، «سورة الإسراء،» الآية ١.

الخلاف القائم الآن بين الشعب والملك حسين، ليس خلافاً سياسياً، ولا عقائدياً، ولا اجتماعياً، ولا اقتصادياً، وإن الشعار الوحيد الذي يطرحه الشعب في هذه المرحلة من حياته القومية هو شعار التحرير، لا شيء غير التحرير.

«ومنذُ أن وقع العدوان الإسرائيلي الأخير على لواء الخليل، هبّ الشعب الأردني، وعلى رأسه زعماؤه يطالبون بالسلاح، دفاعاً عن الوطن، ثأراً لشهداء الجيش والشعب، وانطلقت التظاهرات في جميع أنحاء البلاد، تدعو إلى دخول الجيوش العربية وفي طليعتها جيش التحرير الفلسطيني.

«وبدلاً من أن يجيب الملك حسين على هذه المطالب العادلة، سلط زبانيته من المرتزقة على الشعب، فقتلوا العشرات من أبناء الوطن، وامتلأت المستشفيات بالجرحى، وغصّت السجون بزعماء البلاد وأحرارها، حتّى لقد أصبحت غارات الملك حسين على الشعب أشدّ من الغارة الإسرائيلية، تقتيلاً وترويعاً، والشعب كُلّه، وهو يقلّب بين يديه صفحات القرآن الكريم، كل أبناء الشعب، يريد من الملك حسين ألا يصدّ عن سبيل الله، والجهاد في سبيل الله.

«أجل بدلاً من أن يتجه الملك حسين صوب إسرائيل لينتقم منها، وبدلاً من أن يثأر لشهداء الشعب والجيش، وبدلاً من أن يستمع إلى القرآن الكريم وهو يقول: ﴿**يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال**﴾[٤] صدق الله العظيم، بدلاً من كُلّ هذا اتجه الملك حسين صوب الشعب، بالتنكيل والتقتيل، والترويع والتدمير، وقد وجد نفراً من الزبانية المرتزقة الذين حملوا السلاح في وجه الشعب الأعزل، فقتلوا النساء والأطفال، والمقيمين واللاجئين، وهم خارجون من بيوت الله، بعد صلاة الجمعة، فحقّ عليهم قول الله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً**﴾[٥] صدق الله العظيم.

«والآن ما هو واجبكم الذي يدعوكم إليه واجب الجهاد، إني لا أبتدعه لكم وليس لمخلوق على هذه الأرض أن يبتدع لكم واجباً غير ما أوجبه القرآن، والقرآن يقول: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**﴾[٦] صدق الله العظيم، فاحذروا أن توجهوا سلاحكم إلى صدور إخوانكم في الأردن، فهؤلاء قوم مؤمنون بالله واليوم الآخر، إنهم مجاهدون من غير سلاح، إنهم يرابطون من غير عتاد،

(٤) المصدر نفسه، «سورة الأنفال،» الآية ٦٥.

(٥) المصدر نفسه، «سورة النساء،» الآية ٩٣.

(٦) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٢٩.

أعطوهم من سلاحكم وعتادكم، حتّى يدافعوا معكم عن وطن العروبة والإسلام. فقد كانت هذه سيرة الأنصار مع المهاجرين في المدينة المنوّرة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، الأنصار قاسموا المهاجرين كرومهم وأعنابهم. منازلهم ونخيلهم، وطعامهم وسلاحهم.

«ورابطوا أيها الشجعان في الخطوط الأمامية، في المقدمة لا في المؤخرة، فأنتم جديرون بالمقدمة وأمامها الخطر الكبير، تجدونه على مرمى أبصاركم، متجسّداً في قيام إسرائيل.

«رابطوا في بيت المقدس، وفيها أولى القبلتين وثالث الحرمين، ووطن الإسراء والمعراج.

«رابطوا في المدن والقرى التي شهدت دعوة السيد المسيح عليه السلام.

«رابطوا في الخليل في مدينة خليل الله إبراهيم عليه السلام، ولتكن لكم نظرة على السموع، لتروا ما بجنباتها من الخراب والدمار، يفوح من أرجائها عطر الدماء الزكية، لا تزال ندية على أرضنا الطهور.

«رابطوا في رام الله والبيرة ونابلس وجنين وطولكرم وإربد وعلى طول خطوط الهدنة لتشهدوا إيمان الشعب البطل، وهو صامد في وطنه أمام العدو الغادر، منذُ أن كانت الكارثة.

«ثُمّ انتقلوا إلى مخيمات العائدين، لتروا كبرياء هذا الشعب في خيام مهلهلة، تحتها عزة وكرامة، ووطنية وإباء، وصبر على المحنة والبلاء.

«إن دخولكم أيها الشجعان إلى الأرض المقدسة، هو لملاقاة العدو، وإن عدوكم لواحد هو إسرائيل، الشعب ليس عدوكم، وكُلّ واحد من هذا الشعب هو أخ لكم، مؤمن إيمانكم، يردد قول الله في قرآنه الكريم: ﴿**لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله ربّ العالمين**﴾[٧] صدق الله العظيم.

«ولقد عرضنا على الملك حسين أن يدخل من جيش التحرير الفلسطيني عشرة آلاف جندي، معهم قادتهم وضباطهم وسلاحهم، لكن حسين أبى واستكبر، وطغى وتجبّر، وصدق فيه قول الله: ﴿**وخاب كُلّ جبار عنيد**﴾[٨] صدق الله العظيم.

«ولو رضي الحسين لكان لنا شرف كبير أن نقاتل معكم، ومع إخواننا في

(٧) المصدر نفسه، «سورة المائدة،» الآية ٢٨.

(٨) المصدر نفسه، «سورة إبراهيم،» الآية ١٥.

الجيش الأردني الباسل، كتفاً إلى كتف في هذه المعركة المقدسة، ولكن الحسين قد اختار أن يصدّ عن سبيل الله، وأن يمنع الجهاد في سبيل الله، وأن يحول بين جيشنا ووطنه، وأن يمنع السلاح عن الشعب، وكان على الحسين حتّى يزكي نسبه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يذكر قول الله إلى رسوله: ﴿**وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال**﴾[٩] صدق الله العظيم، ولكن الحسين لا يعرف القرآن ولا حكم القرآن.

«أيها الشجعان من الجيش العربي السعودي.

«الديار المقدسة وطنكم، فاتقوا الله في وطنكم، وشعب الأردن إخوانكم، فاتقوا الله في إخوانكم، وليس أمامكم إلا إسرائيل، فقاتلوها وحدها، ولا تقاتلوا سواها، وإحذروا أن تقتلوا أخاً من إخوانكم، طفلاً أو رجلاً، امرأة أو كهلاً، ويكفي أن إسرائيل منذُ قامت تقتل رجالنا ونساءنا، ويكفي أن الحسين يقتل شبابنا، وطلابنا وشيوخنا. اتركوا الشعب وشأنه، يهيئ نفسه لمعركة التحرير، وإياكم أن تتعرضوا من قريب أو بعيد إلى الفدائيين من أبطال فلسطين، الفدائيين الذين سينطلقون إلى أرضنا المحتلة، وقد عزموا على الشهادة في سبيل الله.

«قاتلوا العدو ولا تقاتلوا سواه، ذلك هو حكم القرآن وحكم الإسلام: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**[١٠] صدق الله العظيم. كان ذلك حديثي إلى الجيش السعودي الذي كتب على رايته: «لا اله إلا الله محمّد رسول الله».

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه المعركة بين الشعب والملك في الأردن، امتدت معركة السموع إلى خارج الحدود حتّى شملت الدول العربية جمعاء. وكان من أسباب ذلك أن الملك حسين قد ألقى جميع تبعات الغارات الإسرائيلية على عاتق القيادة العربية الموحدة، مرة، وعلى عاتق الدول العربية مرة أخرى. وكانت قد بدأت هذه الحملة في مؤتمر صحافي عقده وصفي التل رئيس وزراء الأردن (٢١/ ١١/ ١٩٦٦)، فأبرأ ذمة الحكومة الأردنية من كُلّ شيء، وألقى اللوم كُلّ اللوم على الجمهورية العربية المتحدة، لأن «مسؤولية التدخل الجوي لحماية جنوب الأردن تقع على سلاح الطيران المصري»، وعلى القيادة العربية الموحدة، لأنها «لم تطلب إلى الجيوش العربية التحرك لنجدة الأردن»، وعلى الجمهورية العربية السورية لأن «سلاح

(٩) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١٢١.

(١٠) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ٨.

الطيران السوري كان بوسعه أن يقصف الأهداف الإسرائيلية الحيوية، ويخفف الضغط على الأردن»، وعلى أحمد الشقيري «لأنه لم يفتح جبهة ثانية في سيناء بتحريك جيش التحرير الفلسطيني المرابط في قطاع غزة».

وزرت الرئيس عبد الناصر في منزله في منشية البكري (٢٣/ ١١/ ١٩٦٦)، ودار الحديث بيننا حول العدوان الإسرائيلي على قرية السموع، وما تطور إليه من مضاعفات عربية ودولية.

قال: «إن الموقف في الأردن خطير. عندنا معلومات أكيدة أن القوات الأمريكية تتأهب للنزول في الأردن، كما جرى في عام ١٩٥٨ أيام أحداث لبنان، وإن من المصلحة أن نعمل على التهدئة في الظروف الحاضرة».

قلت: «وهذه مخاوفنا في المنظمة. ومن أجل ذلك، فقد ناشدت الملك حسين أن يستجيب لمطالب الشعب بلهجة بعيدة عن العنف والاستفزاز. وبقي على سيادة الرئيس أن يقول كلمة في الموضوع».

قال: «هل تريد مني أن ابعث إليه برسالة عن طريق سفيرنا في عمان؟».

قلت: «هنالك ما هو أجدى من ذلك».

قال: «وماذا تقترح؟».

قلت: «سيادتك ستخطب غداً في مجلس الأمة لمناسبة انعقاد دورته الرابعة، وهذه مناسبة حسنة للتحدث في الموضوع حتّى تسمع الأمة العربية، ويسمع الملك حسين».

وخرجت من بيت الرئيس عبد الناصر من دون أن يعلّق على كلامي. فهذه عادته. لا يقبل ولا يرفض حتّى يعطي لنفسه فرصة للروية.

وذهبت في اليوم التالي إلى قاعة مجلس الأمة، وجلست في شرفة كبار الزوار استمع إلى خطاب الرئيس. فتحدث وأطال، وتناول مختلف الشؤون المصرية والعربية والدولية. وفي نهاية خطابه تعرض لمعركة السموع، فشدّد بصره على أوراقه أمامه لا يرفع عينيه عنها، فقد حرص على أن يلتزم بالنصّ الذي أمامه، وأن يلتزم كذلك بنبرة هادئة، وخلص إلى القول إنّه «بالنسبة إلى جبهة الأردن لا بُدَّ من تسليح سكان القرى الأمامية ولو بالقدر الذي يمكّنهم من الدفاع عن النفس والقيام بدور المعوّق حتّى تصل النجدات العسكرية النظامية. إن أي جيش لا يستطيع أن يحمي جبهة واسعة كجبهة الأردن أمام عدو غادر كالعدو الإسرائيلي من دون نظام للدفاع يعتمد على تسليح أهل القرى الأمامية. هذا هو رأينا في العدوان الإسرائيلي الغادر على السموع».

وصفق أعضاء مجلس الأمة طويلاً وهم يصعدون بصرهم إليّ وأنا جالس في شرفة الزوار، ولسان حالهم يقول: «هذا تأييد لمنظمة التحرير. وعلى الملك حسين أن يسمع».

وخرجنا من قاعة المجلس، والسفراء العرب يحمدون للرئيس العربي أنّه ضبط أعصابه وتناول قضية السموع باتزان وموضوعية. وقلت للسفير الأردني وهو يؤيد وجهة نظرهم: «اللاسلكي مفتوح بينك وبين عمّان الآن. أبرق إلى الملك حسين أن يبادر إلى تهدئة الموقف».

قال: «وماذا تقترح؟».

قلت: «فليتفضل الملك بزيارة القرى الأمامية وليعلن أنّه سيمد الأهالي بالسلاح ويعمل على تحصين قراهم».

وعلى هذا الحديث انصرفنا جميعاً كُلّ إلى مكتبه. والأردن يغلي كالمرجل، وهو يتساءل: هل يستمع الملك حسين إلى نصيحة الرئيس عبد الناصر؟

وأحسّت العواصم العربية أن عليها أن تحدّد موقفها، ولو على صعيد الكلام.. بعد أن قال الرئيس عبد الناصر كلمته. وصادف في تلك الفترة أن كان الرئيس السوداني إسماعيل الأزهري في زياره رسمية إلى المملكة العربية السعودية (٢٦/ ١١/ ١٩٦٦)، وفي حفلة العشاء التي أقامها الملك فيصل على شرف ضيفه وجد الفرصة مناسبة لأن يشير إلى معركة السموع بقوله: «اعذروني يا فخامة الرئيس إذا كنت صريحاً أكثر من اللازم، إذا قلت إننا بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة التي نعيشها اليوم كان من نتائجها أن العدو المتربص بنا كانت له الحرية أن يعتدي على قطر من أقطارنا وإخوة من أشقائنا، ويفعل ما يشاء، وينسحب، ولا يجد منا نحن العرب من يقول له: قف مكانك، أو يحرك ساكناً». سمعت هذه الكلمة من الإذاعة السعودية بصوت الملك فيصل، وهو يرسل هذه الصيحة، يحمّل غيره المسؤولية، وهو بريء الذمة، وكُلّ دور جلالته أن يقول للعرب: تحركوا، وهو رابض في الرياض!

وكذلك، فإن معركة السموع كانت فرصة ليقول حزب البعث كلمته ويحدّد موقفه. فاجتمعت القيادة القومية لحزب البعث وأصدرت بياناً سياسياً (٢٩/ ١١/ ١٩٦٦) هاجمت فيه الحكم القائم في الأردن، وأن «الحلّ العملي الموضوعي هو لقاء القوى التقدمية بهدف قيام حرب شعبية شاملة، وأنه يجب تشكيل جبهة تقدمية في القطر العربي الأردني، وأن حرب التحرير الشعبية هي التي تستطيع أن تطيح بالعرش الهاشمي وتدك إسرائيل من جذورها، وأن الحلّ هو الاستمرار في الثورة إلى أن يزول العرش الخائن من الوجود. اليوم تحرير الأردن، وغداً تحرير فلسطين».

وزارني السفير السوري د. سامي الدروبي، وهو من أدباء الشام المعروفين، فقدم إليّ بيان القيادة القومية لحزب البعث، مزهواً بعباراته، وهو يقول: «هذا أقوى بيان عربي صدر بتأييدكم في موقفكم ضدّ الملك حسين».

قلت: «المثل المصري العامي يقول: «يا بايع المي في حارة السقايين»، ويقابله بالفصحى: «يا بائع التمر في هجر»، إذ إنّ المنظمة لا يعوزها الكلام. نحن نريد مساندة حقيقية. نحن نريد أن ينفتح البعث على المنظمة. نريد تعاوناً إيجابياً مع البعث.

تلك كانت هي الملابسات التي عشتها في غضون معركة السموع، رحت أستذكرها صفحة بعد صفحة، وأنا أقلّب أوراقي، لأرى ما أختار منها لمذكراتي، لأضعها في محراب التاريخ.

ورأيت بين أوراقي تصريحات عربية عن معركة السموع تصلح لأن تكون نموذجاً للحكم العربي الرسمي المعاصر في ما يرسل من الكلام. وهذه هي القصاصات تتحدث:

ـ وزارة الخارجية العراقية أصدرت بياناً عن الاعتداء الإسرائيلي على الأردن استنكرت فيه الاعتداء الإسرائيلي وأعلنت استعدادها لتقديم كُلّ المساعدات الممكنة للأردن لصدّ العدوان.

ـ الحكومة الكويتية أبلغت الحكومة الأردنية أنها تضع كافة إمكاناتها تحت تصرف الأردن لصدّ أي اعتداء عليه.

ـ ناطق سوري ندّد بالعدوان الإسرائيلي على الأردن، وأعلن أن سوريا استعدت لكُلّ احتمالات الموقف.

ـ أعلن الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة أن الدول العربية تعتبر العدوان على الأردن عدواناً عليها جميعاً.

ـ أعلن الرئيس اليمني استنكاره للاعتداء الإسرائيلي على الأردن ووقوف الجمهورية اليمنية إلى جانب أية دولة عربية يعتدى عليها.

ـ رئيس الحكومة اللبنانية أعلن استنكاره للغارة الغاشمة على الأردن ووقوف لبنان إلى جانب الأردن.

ـ وزير خارجية السودان أذاع بياناً استنكر فيه الاعتداء الإسرائيلي على الأردن، ودعا الدول العربية إلى اتخاذ الخطوات الكفيلة لوقف هذه الاعتداءات، وأكد وقوف بلاده إلى جانب الشعب الأردني من دون تحفظ.

تلك كانت القصاصات التي وجدتها في ملف السموع، ولكن قصاصة أخيرة وقفت أمامها حائراً متأملاً.

قالت تلك القصاصة: «نشرت جريدة **الصنداي تايمز** البريطانية مقالة لمراسلها في تل أبيب ذكر فيها أن ليفي أشكول رئيس الوزارة الإسرائيلية ووزير دفاعها قد أصدر بنفسه الأمر إلى القوات الإسرائيلية بالهجوم على السموع، وأنه فعل ذلك ليغطي موقفه المهتزّ في داخل إسرائيل، وأنه أراد أن يثبت أنّه إنسان شديد المراس، يحارب من أجل بقاء وزارته في الحكم». قارنت بين هذه القصاصة والقصاصات التي سبقت. وبدا الفارق كبيراً: الحاكم اليهودي يعمل ليبقى في الحكم، وأما الحاكم العربي فإنه يرسل التصريحات تلو التصريحات ليبقى في الحكم. وإن قلمي يتلعثم وأنا استحي أن أسأل: هل يستوي حكام إسرائيل وحكام العرب؟!

﴿**وما يستوي الأحياء ولا الأموات**﴾[11] صدق الله العظيم.

(١١) المصدر نفسه، «سورة فاطر،» الآية ٢٢.

«قررنا أن نجتمع في تموز/يوليو».. «وانكسرنا في حزيران/يونيو»

أقفلت الأبواب على أخطر اجتماع عقده مجلس الدفاع العربي منذُ أن تمّ التصديق على اتفاقية الدفاع المشترك، واقترنت بتوقيع الملوك العظام والرؤساء الفخام!

كان ذلك في اليوم السابع من الشهر الأخير من عام ١٩٦٦، وكان صاحب الدعوة لهذا الاجتماع الفريق أول علي عامر قائد القيادة العربية الموحدة، وكان موضوع الاجتماع: «معركة السموع: عِبَرها ودروسها، موقف الأردن منها، واجبات القيادة العربية حيالها، التزامات الدول العربية بشأنها». ونتيجة ذلك كُلّه، قيمة العمل العربي الموحد، ومدى صدق الملوك والرؤساء داخل مؤتمرات القمة وخارجها.

ولقد شهدت كثيراً من اجتماعات مجلس الدفاع مع وزراء الخارجية والدفاع العرب ومعهم رؤساء الأركان والخبراء والسياسيون والعسكريون منذُ الاجتماع الأول في عهد «صاحب المقام الرفيع» مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر، و«صاحب الفخامة» نوري باشا السعيد رئيس وزراء العراق، ولكن هذا الاجتماع الذي عقد اليوم في دار جامعة الدول العربية، وقد شهده ما يقرب من ثمانين من رجالات العرب، بين وزير وسفير، وضابط كبير وصغير، كان أخطرها على الإطلاق.

أجل، كان أخطرها، لأن الاجتماعات السابقة كانت كلها على الورق من غير اختبار ولا امتحان، وكان من السهل أن تمرّ الأمور على الورق من غير عناء، وكان من السهل كذلك أن تمرّ الأمور على «عقل» الأمة العربية في يسر وسهولة. فالحكم العربي مسيطر على أجهزة الإعلام في الوطن العربي بالأكاذيب على أنها حقائق،

وبالأباطيل على أنها الصدق الصادق. والويل للأمة، أي أمة، لا تملك صحافتها وإذاعتها، ويملكها حكامها، وحكامها وحدهم.

ولكن معركة السموع التي التقى مجلس الدفاع لمناقشتها قد كشفت وفضحت، وامتدّت أصابع الاتهام عالية تطالب بالحساب، وصاحت الجماهير العربية تريد أن تعرف الحقّ، كُلّ الحقّ، بعد أن تشدق الإعلام العربي الرسمي كثيراً وكثيراً عن عناوين كبيرة تشيد بمؤتمرات في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء، وتتغنى بخطط القيادة العربية الموحدة، وتمجّد التعزيزات العسكرية، وما إلى ذلك من التعابير الفخيمة.

وقد زاد من أهمية الاجتماع مناورات ومهاترات «احتشدت» في الوطن العربي لمدّة ثلاثة أسابيع، وحمل الأردن لواءها من غير وجل ولا خجل، ذلك أن الملك حسين ورئيس وزرائه وصفي التل قد قاما بحملة تشهير على القيادة العربية الموحدة، وعلى الدول العربية، وعلى الجيوش العربية، فعقدا المؤتمرات الصحافية والندوات الإذاعية، معلنين إلى العالم أجمع أن الدول العربية قد تخلّت عن الأردن في معركة السموع، وأن القيادة العربية الموحدة قد تركت الأردن وحده يخوض هذه المعركة.

ووصلت «الشجاعة» بوصفي التل أن قرأ في مؤتمره الصحافي فقرات من تقارير القيادة العربية الموحّدة عن «دور سلاح الجو المصري في المعركة المقبلة في حماية قطاع القدس وما حولها»، وعن توصيات القيادة العربية الموحدة «بمنع الفدائيين من التحرك من الأراضي العربية المحيطة بإسرائيل إلى أن يتم استكمال الاستعداد العربي حتّى لا تستدرج الدول العربية إلى المعركة مع العدو قبل الوقت المناسب».

وزاد التل على ذلك بأنه مستعد أن ينشر بالزنكوغراف صوراً عن هذه القرارات.

وفي أواخر الشهر (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦) اتصلت بالقيادة العربية الموحدة، وتحدثت إلى الفريق علي عامر عن حملة الزور والفجور التي يشنّها الأردن. فقلت له: «أرى أن تدعو إلى دورة استثنائية لمجلس الدفاع العربي».

قال: «القلوب عند بعضها. كنت أتذاكر في هذا الموضوع مع اللواء عبد المنعم رياض وأركان القيادة».

قلت: «لقد مضى أسبوعان على معركة السموع حتّى الآن، والأردن يطبق القول المعروف: «رمتني بدائها وانسلت»، بل رمتني بدائها وتواقحت».

قال: «والله يا أخي أنا لا أعرف الفصحى. المثل عندنا يقول: «الفاجر يأكل مال التاجر»، وهذا هو وصفي التل معنا».

قلت: «سيادتك لا تعرف الأردن. الملك حسين ورئيس وزرائه على استعداد أن يأكلا الفاجر مع مال التاجر».

وفي اليوم الأول من شهر كانون الأول/ ديسمبر «تحرك» الفريق عامر، فوجّه الدعوة إلى الحكومات العربية لحضور دورة طارئة لاجتماع مجلس الدفاع العربي في دار جامعة الدول العربية في الساعة الخامسة من يوم الأربعاء (٧/ ١٢/ ١٩٦٦).

ووافقت الدول العربية على الاجتماع، والزمان والمكان إلا . . . إلا دولة واحدة أعلنت تردّدها. وكان ينبغي أن تتولى هي بنفسها الدعوة إلى هذا الاجتماع. وأحسب أن المواطن العربي يدرك بداهة وفراسة أن تلك المتمردة هي المملكة الأردنية الهاشمية!

ففي اليوم الثالث من الشهر (كانون الأول/ ديسمبر) كنت أستمع إلى الإذاعة الأردنية وهي تنقل تسجيلاً للمؤتمر الصحافي الذي عقده الملك حسين، فإذا «بجلالته» يعلن «أن الأردن قد لا يحضر اجتماع مجلس الدفاع نظراً إلى قصر الوقت» واستأنف جلالته يورد عذراً آخر، عذراً أقبح من ذنب، يقول فيه: «ثُمّ إن رئيس الأركان اللواء عامر خماش مسافر إلى الخارج ولا يمكن المشاركة في هذا الاجتماع».

ولكن الملك حسين لم يستطع أن يقعد على هذه المعاذير، فقد ازداد هياج الشعب في طول البلاد وعرضها، وارتفع صوت الشباب من ضباط الجيش الأردني يتساءلون: لماذا؟ وتراجع الملك بعد ذلك عن تردّده، وأعلن (في ٦/ ١٢/ ١٩٦٦) أن الأردن سيشترك في اجتماع المجلس. وهكذا أسدل الستار على هذه المسرحية الصغيرة، لتبدأ المسرحية الكبيرة، لتمثل فيها المأساة الخطيرة.

ودخلنا قاعة الاجتماع إياها في دار الجامعة العربية، وافتتح الجلسة رئيس الدورة الوزير اللبناني فؤاد بطرس بالكلمة التقليدية منوّهاً بخطورة الموقف، وداعياً إلى وحدة الكلمة والخروج بقرارات رشيدة، ثُمّ تبعه الفريق أول علي عامر القائد العام للقيادة العربية الموحّدة فتلا تقريراً من اثنتي عشرة صفحة، استعرض فيه تاريخ إنشاء القيادة العربية الموحّدة واختصاصاتها، وما صدر عنها من توصيات، وما واجهت من صعوبات ومخالفات. ثُمّ تكلم عن معركة السموع من الناحية العسكرية، وأنها عدوان محدود لم يكن يستهدف الاحتلال. ثُمّ شرح مخالفات الحكومة الأردنية لتواصي القيادة العربية من حيثُ «التسليح والتجنيد وبناء المطارات وإنشاء الأسراب الجوية». وانتهى إلى القول بأن «القيادة العربية الموحدة ترفض جميع الاتهامات التي وجهت إليها. وقد دعونا إلى هذا الاجتماع الطارئ لتحديد المسؤولية، ولنطرح عليكم سؤالاً مهماً: هل تريدون قيادة فعالة أم لا تريدون؟».

وبعد أن فرغ الفريق عامر من ردّ الاتهامات عن نفسه، تبعه محمود رياض وزير

الخارجية ليقوم بدوره بردّ الاتهامات عن الجمهورية العربية المتحدة، ذلك أن الأردن لم يدعْ أحداً يسلم من شره. فقد قدمت الحكومة الأردنية مذكرة تتعلل فيها بأنها غير مستعدة أن تنفذ تواصي القيادة العربية الموحدة قبل أن تنسحب قوات الطوارئ الدولية من سيناء وقطاع غزة «فإن وجود قوات الطوارئ الدولية على الأرض العربية يشكل عائقاً يحول دون تنفيذ خطط القيادة العربية الموحدة».

فأخذ الوزير رياض يتلو بياناً من بضع صفحات استعرض فيه تاريخ قوات الطوارئ الدولية، ومهمتها، والظروف التي أحاطت بإنشائها. ثُمّ خلص إلى القول بأن «قوات الطوارئ الدولية لا تشكل أي قيد على الجمهورية العربية المتحدة أو على حريتها في العمل الذي تراه مناسباً، ونستطيع أن نطلب سحب هذه القوات في أي وقت نشاء».

أنهى محمود رياض بيانه، وساد الجلسة سكون. وقد نظر الحاضرون إلى عمر السقاف رئيس الوفد السعودي، وإلى أكرم زعيتر وزير خارجية الأردن. فقد كانت السعودية والأردن لعدة سنوات مضت تثيران هذا الموضوع وتتساءلان: «كيف يستطيع جيش الجمهورية العربية المتحدة أن يتحرك وأمامه قوات الطوارئ الدولية؟»، وتكلم أكرم زعيتر بالثناء على «البيان الموضوعي الذي ألقاه سيادة الوزير الدكتور محمود رياض، وأننا نحن في الأردن ما أردنا إثارة هذا الموضوع بقصد التهجم، بل بقصد الاطمئنان، وقد حصل الاطمئنان والحمد لله». وحمدت الله في نفسي أن فلسطينية الوزير الأردني قد تغلبت على حكومته وعلى منصبه وعلى مليكه! وأما الوزير السعودي، فلم يتكلم. فعند السعودية الصمت والبترول من ذهب، الأول هو من الذهب الأصفر، والثاني هو الذهب الأسمر!

وطلبت الكلمة لا لأتحدث في موضوع قوات الطوارئ الدولية، ولكن في صلب الموضوع: معركة السموع، ما قبلها وما بعدها. فقال الوزير الكويتي الشيخ صباح الأحمد: «نحن نعلم أن الأخ أحمد عنده كلام مستفيض في هذا الموضوع يستغرق عدة جلسات، فلنؤجل الاجتماع إلى الغد». وهكذا كان.

وفي بداية الجلسة، صباح اليوم التالي، تحدث إبراهيم المفتي وزير الخارجية السودانية عن التضامن العربي، مناشداً الأخ الشقيري «أن يرجئ بيانه إلى الجلسة الأخيرة حتّى يستطيع أصدقاء الطرفين التوسط بين المنظمة والأردن». وتبعه د. أحمد البشتي وزير خارجية ليبيا، ومحمّد الشرقاوي وزير خارجية المغرب بتأييد الاقتراح. ووافق المجلس على هذا الرأي بالصمت.

قال الوزير اللبناني رئيس الجلسة: «فلننتقل إلى جدول الأعمال، وليتفضل من

يريد الكلام». ومرت فترة طويلة والأعضاء ينظر بعضهم إلى بعض من دون أن يتكلم أحد.

وعاد الرئيس يقول: «هل من يريد الكلام؟»، ولكن أحداً لم يتكلم. وعندها اقترح د. ماخوس الوزير السوري «أن نسمع الأخ الشقيري، فماذا نقول للصحافة إذا أعلنّا انتهاء الجلسة الآن، وقد لا يكون من يريد أن يتكلم في جلسة المساء».

وهكذا «رسا عليّ المزاد» لأشغل الجلسات الأربع المتوالية في الكلام. وهممت بفتح ملفاتي، وإذا بالوزير الأردني أكرم زعيتر يقول للمجلس: «إن استماعنا لحديث «المتكلم» لا يعني اعترافنا بالمنظمة. الحكومة الأردنية قد سحبت اعترافها بالمنظمة إلى أن تتغير قيادتها الحاضرة. ونرجو أن تسجلوا هذا التحفظ في مضبطة الجلسة».

وبدأت حديثي قائلاً: «إن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذي اختاره الشعب الفلسطيني يعلن إلى «المتكلم السابق» أن مجلس الدفاع قد اجتمع لأمور خطيرة، لا للبحث في السفاسف الصغيرة. لقد وقع على قرية السموع عدوان إسرائيلي شنيع، وانطلقت بعده اتهامات أردنية أشنع. ونحن هنا نريد أن نكشف عن الحقّ والحقيقة».

فقال الرئيس: «أرجو أن نحصر الكلام في الموضوع الذي اجتمعنا من أجله. وإني باسم المجلس أرجو من رئيس المنظمة أن يكون كلامه محدّداً، نقطة نقطة، حتّى نستطيع أن نفهم موقف الأردن على حقيقته».

وبدأت حديثي قائلاً: «وهذا ما أنا عازم عليه. سأتكلم بالتحديد. و**أول** هذه الأمور المحدّدة أن القيادة العربية الموحدة منذُ إنشائها في عام ١٩٦٤ قد أوضحت بعد دراسة الموقف العسكري العربي أن هناك نقصاً كاملاً في مرافق الدفاع الجوي في المملكة الأردنية الهاشمية، وأن التغطية الجوية يجب أن تنبع من أرض الدولة ذاتها، فالنجدة الجوية من الخارج متعذرة، وذلك لقصر مدى عمل الطائرات المقاتلة. وعلى هذا، فقد طالبت القيادة العربية الموحّدة في جميع تقاريرها المقدمة إلى مؤتمرات القمة الثلاثة أن تتمركز المقاتلات العربية في الأراضي الأردنية، وقد رفضت السلطات الأردنية هذا الطلب إلى يومنا هذا.

«و**ثاني** الأمور المحدّدة أن القيادة العربية الموحدة كانت قد عرضت على السلطات الأردنية أن تورد لها طائرات روسية مقاتلة جديدة من أحدث طراز في العالم فوراً، ولكن السلطات الأردنية أصرّت على شراء طائرات أمريكية قديمة مجدّدة، ويبلغ ثمن الطائرة ثلاثة أضعاف الطائرة التي عرضتها القيادة العربية الموحدة، وهذه الطائرات الأمريكية يتم توريدها خلال سنتين أو ثلاث.

«و**ثالثها** أن القيادة العربية الموحدة تبيّن لها من دراستها مسرح العمليات في الأردن عدم توفر القواعد الجوية التي تصلح للطائرات المقاتلة، فألحت على الحكومة الأردنية أن تنشئ قاعدة جوية صالحة، وقدمت القيادة بدورها إلى الأردن نفقات إنشاء هذه القاعدة في شهر حزيران/ يونيو ١٩٦٤، ولم يبدأ العمل بإنشائها إلا بعد فوات سنتين كاملتين، أي في حزيران/ يونيو ١٩٦٦، هذا على حين أنّه أوشك الانتهاء من إنشاء القواعد الجوية التي أوصت القيادة العربية الموحدة بإقامتها في البلاد العربية الأخرى.

«و**رابعها** أن القيادة العربية الموحّدة قد طلبت وألحت على الأردن، في جميع مؤتمرات القمة، واجتماع رؤساء الحكومات العربية، السماح للقوات السعودية والعراقية بالدخول إلى الأراضي الأردنية للاشتراك في الدفاع عنها، وذلك لطبيعة الجبهة الأردنية الطويلة، ولعدم كفاية القوات الأردنية للدفاع عن أراضيها، وقد رفضت السلطات الأردنية مطلب القيادة العربية الموحّدة.

«و**خامسها** أن خطة القيادة العربية الموحدة التي أقرّها الملوك والرؤساء، والملك حسين واحد منهم، قد نصّت على «مسؤولية كُلّ دولة في ردّ غارات العدوان عليها» طالما لم يؤد ذلك إلى احتلال جزء من أراضيها.

«و**سادسها** أن القيادة العربية الموحّدة قد طلبت المرة بعد المرة كتابة وشفاهاً إلى الحكومة الأردنية فرض التجنيد الإجباري العام حتّى يمكن إنشاء احتياطي للجيش الأردني يستدعى عند الحاجة. ولكن الملك رفض ورفض».

وأخذت بعد ذلك أشرح هذه الأمور الست المحدّدة واحداً واحداً، مستشهداً بتقارير القيادة العربية الموحدة، أقرأ صفحاتها وفقراتها تماماً كما يفعل المحامون أمام القضاء وهم يترافعون، ويستشهدون بالمقتبسات القانونية من هذا المرجع أو ذاك.

ثُمّ فاجأت المجلس بعد ذلك قائلاً: «وسأحدثكم الآن عن النعوش الطائرة». فقال الشيخ توفيق المدني رئيس الوفد الجزائري، وهو من العلماء والأدباء: «حمانا الله من نعوش الجو ونعوش الأرض. ما هي حكاية النعوش الطائرة؟».

قلت: «النعوش الطائرة لها حكاية. حُكي ـ والله أعلم ـ أن الولايات المتحدة عندها طائرات اسمها «ستار فايتر» من طراز المقاتلات القديمة، قدمتها إلى ألمانيا الغربية بعد أن جدّدتها ودهنتها بطلاء خلاب. وما إن استلمتها الحكومة الألمانية وبدأت باستعمالها حتّى أصبحت تتهاوى على الأرض واحدة بعد الأخرى. وكان أن قتل فيها عدد من الطيارين الألمان وهم يقومون بتجاربهم عليها، بل إن عدداً من جنرالات ألمانيا قد قتلوا في هذه الطائرات، وضجّ الشعب الألماني من الطائرات

الأمريكية وأطلق عليها اسم «النعوش الطائرة»». ثُمّ قرأت على المجلس فيضاً من القصاصات الصحافية عن أخبار هذه الطائرات، والأزمة الكبرى التي أحدثتها في صفوف ألمانيا، الجيش والشعب على السواء.

واستطردت بعد حديث طويل إلى القول بأن الملك حسين يزوّد الجيش الأردني بهذه النعوش الطائرة، وإن أحد نسور الجو الأردنيين قد سقط قبل شهرين وهو يقوم بأعمال تدريبية على هذه الطائرة، في الوقت الذي يرفض فيه عرض القيادة العربية الموحّدة لتوريد أحسن الطائرات المقاتلة، ثُمّ يعلن بعد غارة السموع أن القاهرة لم تؤمّن له غطاء جوياً.

وشرحت للمجلس في الجلسات التالية تفاصيل غارة السموع، كيف بدأت وانتهت، وقدمت ملفاً كاملاً يحتوي عشرات الصور عن الدمار الذي حلّ بالقرية، وعن الجثث المحترقة، والأشلاء المهشمة للشيوخ والنساء والأطفال، وملفاً آخر عن صور التظاهرات الشعبية التي اندلعت في أرجاء البلاد وهي تطالب الملك حسين بالتجنيد والتسليح والتدريب، وقد ظهرت فيها اللافتات الكبرى كتب عليها: «نؤيد مطالب المنظمة»، و«نريد دخول جيش التحرير»، ولافتات أخرى فيها تنديد بالملك حسين، بالقلم العريض!

وانتقلت بعد ذلك إلى موقف الأردن من مطالب الشعب، وأن السلطات الأردنية قامت بالإرهاب والقمع بدلاً من أن تستجيب لمطالب الشعب، وأن قوات الأمن أخذت تداهم القرى الأمامية بحثاً عن السلاح، بدلاً من أن تزوّدها بالسلاح.

وأحسست بأن المجلس قد أثقلته معركة السموع والمخالفات الخطيرة التي اقترفها الأردن، فرأيت أن أختم حديثي إلى الوزراء بالترفيه، ولكنه ترفيه أكثر إيلاما من الحديث الجاد.

قلت: «الأمثال العامية غنية بالحكم. ويقول واحد من هذه الأمثال: «العليق يوم الغارة خسارة».

قالوا: «ما تفسير ذلك، وما علاقته بما نحن فيه؟».

قلت: «إن هواة الجياد العربية الأصلية لا يعنون بالجواد في يوم السباق. إنهم يعنون به لزمن طويل بالعلف الجيد والمران الدائم، والنظافة المستمرة. ولكن الجواد إذا أهمل في كُلّ هذا، وأتخم بالتبن والشعير والماء في يوم الغارة، فستكون النتيجة خسارة. إنه لن يقدر على الجري، وقد امتلأ كرشه في يوم السباق».

واستدركت بعد ذلك إلى القول: إن الملك حسين قد وقع في الخسارة لأنه أراد أن يعلف الجواد يوم الغارة. بعد معركة السموع راح الملك حسين يشدّد النكير على القيادة العربية الموحدة وهو يسألها: لماذا لم تتحرك الجيوش العربية لنجدة الأردن؟ وقد فات الملك حسين أن يتذكر أن القوات العراقية قد حشدت في الرطبة خارج الحدود الأردنية وبقيت في عرض الصحراء ما يزيد على العام من دون أن تسمح لها السلطات الأردنية بالدخول، مما دعا إلى سحب هذه القوات داخل الجمهورية العراقية بقرار من مجلس الملوك والرؤساء الثالث في الدار البيضاء في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٥، بعد أن «أصاب معداتها التلف وهبطت روح رجالها المعنوية»، كما يقول تقرير القيادة العربية الموحدة بالنصّ والحرف.

فرغت من بياناتي المسهبة وتنفّس الصعداء الفريق علي عامر، وهو يجلس بجواري، فقد وجد فيّ محامياً أترافع بالنيابة عنه، أدافع عن خططه وتوصياته، وعن موقفه. ولسانه قصير: **أولاً** لأنه عسكري، و**ثانياً** لأنه متهم، يجد الحرج أن يثنى على جهوده.

وتدخّل الفريق فوزي الأمين العام المساعد العسكري (وزير الحربية في ما بعد) وقال: «لقد قرأت التقارير السرية التي قدمتها القيادة العربية الموحّدة على مدى ثلاثة أعوام إلى الملوك والرؤساء وإلى رؤساء الحكومات، وإني ألفت نظركم إلى الفقرات المهمة التي تتصل بالموضوعات المطروحة أمامنا، وإني أقرأها عليكم». وراح يقرأ المقتبسات الخطيرة التالية:

١ ـ من تقرير القائد العام للقيادة العربية الموحّدة إلى مجلس الملوك والرؤساء الثاني المنعقد في الإسكندرية في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤، البند (٢٣)، الصفحة ١٤:

«يجب أن تكون كُلّ من الدول العربية المحيطة بإسرائيل قادرة على الصمود أمام هذا العدوان إلى أن يكون لعمليات الجيوش العربية الأخرى التأثير المطلوب على العدو. وهذا لا يطبق على القوات الجوية، إذ إنّها قادرة على القيام بعملياتها فوراً، في ما عدا قوات الدفاع الجوي التي يجب أن تنبع من أرض الدولة نفسها».

٢ ـ من تقرير موقف خاص باستخدام القوات العربية الموضوعة حالياً بإمرة القيادة العربية الموحّدة مرفوع إلى مجلس الملوك والرؤساء الثاني في الإسكندرية في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤، البند (هـ)، ص ١٤:

«لما كانت وسائل الدفاع الجوي سواء بالمقاتلات أو بالمدفعية أو بالصواريخ يجب أن تنبع من أرض الدولة ذاتها لقلة المدى المؤثر لهذه الأسلحة بطبيعتها، كما أن إنشاء تشكيلات جديدة لهذا الغرض بهذه الدولة سيستغرق وقتاً طويلاً لا يقل عن ٢-٣

سنوات. من هذا نرى حتمية دعم وسائل الدفاع الجوي لهذه الدولة من الدول العربية الأخرى إلى أن تقام بها تشكيلاتها المطلوبة».

٣ ـ من تقرير موقف خاص باستخدام القوات العربية الموضوعة حالياً بإمرة القيادة العربية الموحدة والمرفوع إلى مجلس الملوك والرؤساء الثاني في الإسكندرية في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤، البند (و)، ص ١٥:

«يجب دعم الموقف الجوي، وخاصة في ما يتعلق بالدفاع الجوي في كُلّ من الأردن وسوريا ولبنان بقوات الدول العربية الأخرى تعمل من أراضى هذه الدول».

٤ ـ من تقرير القائد العام للقيادة العربية الموحّدة المرفوع إلى مجلس رؤساء حكومات الدول العربية الأول في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٥، البند (١)، الصفحة ٥:

«قرر مجلس الملوك والرؤساء الثاني منح القائد العام حقّ التصريح المطلق بالتحركات العسكرية على أن يراعى في تحركات القوات من دولة إلى أخرى، قبل وقوع القتال، الأحكام الدستورية والنظم المرعية في كُلّ دولة. وبالاتصال بالسلطات الأردنية بشأن وجود قوات الدعم اللازمة لها من القوات العراقية والقوات السعودية وافقت على دخول المستلزمات الإدارية اللازمة لهذه القوات فقط، مع خبراء بملابس مدنية، ولم تسمح بدخول القوات إلى أراضيها، مما اضطر القيادة إلى حشد هذه القوات في «H 3» للقوات العراقية، وتبوك للقوات السعودية. وما زالت القيادة ترى أن وجود هذه القوات على مسافات شاسعة من مسرح العمليات تشكل خطراً على الموقف العسكري في المملكة الأردنية، إذ إنّ إجراء تحركات لهذه القوات عند العمليات سيكون في ظروف موقف جوي قد لا يكون في صالحنا، وترى القيادة أن هذا الوضع يشكل خطراً على الجبهة الأردنية، وما زالت ترى أنّه من الصالح لسلامة الموقف العسكري في الجبهة الأردنية أن توجد التشكيلات المعاونة لها من العراق والسعودية في أراضيها من الآن».

٥ ـ من تقرير القائد العام للقيادة العربية الموحّدة المرفوع إلى مجلس رؤساء حكومات الدول العربية الثاني المنعقد في أيار/ مايو ١٩٦٥، البند (١٧)، الصفحة ٧:

«كما سبق أن أوردت في تقريري، فقد نبّهت القيادة إلى مثل هذا الموقف، وخاصة موقف الدفاع الجوي الذي يجب أن ينبع من أراضى الدولة ذاتها، وذلك في تقريرها وتقرير الموقف الذي رفع إلى مؤتمر الملوك والرؤساء الثاني قبل إعطاء الأمر بالبدء في عمليات التحويل. وكما سبق أن ذكرت، فإن السير بالخطوات الحالية لن يجعل الدول المعنية في موقف يسمح لها بالدفاع الجوي محلياً عن أراضيها

في وقت قريب من دون الدخول في معركة شاملة لا نختار نحن وقتها».

٦ ـ من تقرير القائد العام إلى القيادة العربية الموحّدة المرفوع إلى مجلس رؤساء حكومات الدول العربية الثاني المنعقد في أيار/ مايو ١٩٦٥، البند (١٩ب، وج)، الصفحة ٨:

«وقد قامت القيادة بالتخطيط لذلك فعلاً، ولكن ضعف الموقف العسكري برياً وجوياً في كُلّ من الأردن ولبنان، وجوياً في سوريا، يقيّد تصرف وحركة هذه القيادة، وفي الوقت نفسه لا تسمح كُلّ من الأردن ولبنان بدخول قوات عربية عسكرية إلى أراضيها لتعزيز دفاعها إلى أن يتم استكمال التشكيلات الجاري إنشاؤها بها، والتي ستستغرق فترة تقرب من العام من الآن».

٧ ـ ومن التقرير السابق نفسه، البند (د)، الصفحة ٨:

«كذلك لم تقبل هذه الدول عمل هذه الطائرات من أراضيها في حالة وجودها، وذلك كما طلبت القيادة في تقريرها المقدم إلى مؤتمر الملوك والرؤساء الثاني».

٨ ـ ومن التقرير السابق نفسه، البند (٢٠)، الصفحة ٨:

«لمجابهة هذا الموقف، تتقدم القيادة إلى مجلسكم الموقّر بالتوصيات التالية:

ـ فدخول القوات العربية إلى لبنان والأردن لدعم موقفها الدفاعي بما يدعو إلى الاطمئنان حتّى تتمكن القيادة من العمل بحرية في الردّ على اعتداءات العدو.

ـ زيادة القوات الجوية الموضوعة بإمرة القيادة، وخاصة المقاتلات من الجمهورية العراقية والمملكة العربية السعودية وباقي الدول العربية الأخرى والتصريح لها بالعمل من أراضي لبنان وسوريا والأردن فوراً حتّى تتمكن من مواجهة التفوق الجوي المعادي».

٩ ـ ومن التقرير السابق نفسه، البند (٢٠ ج)، الصفحة ٩:

«هذا مع العلم إذا لم يتحقق ذلك، ستظل هذه القيادة مقيّدة الحركة في الردّ على اعتداءات العدو وكفالة حماية العمل في مشروعات التحويل، كما ورد في قرارات مؤتمر الملوك والرؤساء الثاني».

١٠ ـ من تقرير القائد العام للقيادة العربية الموحّدة إلى مجلس الملوك والرؤساء الثالث المنعقد في الدار البيضاء في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٥، القسم الأول، الصفحة ٤:

«إلى أن يتم استكمال وتدريب القوات البرية الجاري إنشاؤها في كُلّ من الأردن ولبنان، وذلك في النصف الثاني من عام ١٩٦٦، فالموقف البرّي في هاتين الدولتين

لا يدعو إلى الاطمئنان في حالة قيام العدو بالتعرض عليهما في هذه الفترة، ولا سيما أن هاتين الدولتين لا تسمحان بدخول القوات المعاونة من السعودية والعراق أو سوريا إلى أراضيهما. أما من الناحية الجوية، فالموقف في هاتين الدولتين سيئ ولا ينتظر تحسنه في القريب العاجل. فمن ناحية، حتّى لو تمّ التعاقد على الأسلحة الجوية اللازمة لهما الآن، فلن يظهر أثر ذلك عسكرياً قبل مضي سنتين على الأقل، وذلك بعد توريد المعدات وتدريب الطيارين والفنيين الذي يستغرق وقتاً طويلاً. ومن ناحية أخرى، فهاتان الدولتان لا تقبلان مركزة قوات عربية في أراضيهما، ولا يمكن لمقاتلات الدفاع الجوي ذات المدى المحدود بطبيعتها أن تقوم بحمايتها من الأراضي العربية المجاورة حتّى لو توفرت هذه القوات، ولا ينطبق هذا جزئياً على لبنان الذي يمكن حماية معظم أراضيه من القواعد الجوية في الجمهورية العربية السورية».

١١ ـ ومن التقرير السابق نفسه، القسم الأول، الصفحة ٥:

«وليس من المستعبد أن يقوم العدو بتكرار اعتداءاته هذه على الدول العربية الأخرى المحيطة بإسرائيل أثناء قيامها بتنفيذ العمليات الفنية للتحويل مستغلاً ضعف الموقف الجوي بها طالما بقي على ما هو عليه».

١٢ ـ ومن التقرير السابق نفسه، القسم الأول، الصفحة ٦:

«على ضوء هذه الاعتبارات فإن القيادة تتقدم لمجلسكم الموقّر بعرض التالي: «إننا نجابه عدواً أعلن صراحة نيته في الاعتداء إذا استمرّت الدول العربية المحيطة في تنفيذ مقرراتكم والسير في تنفيذ الأعمال الفنية، وقد قام بالاعتداء فعلاً أكثر من مرة وأصبح لزاماً علينا أن نتخذ الأوضاع العسكرية الصحيحة للردّ على هذا العدوان، أما الاستمرار في تنفيذ الأعمال الفنية مع علمنا بأوجه النقص في استعداداتنا العسكرية وعدم تقبل الحلول المعروضة لإصلاحها فهو طريق لا يتمشى مع المنطق السليم. وكما سبق أن ذكرت هذه القيادة في تقريرها المرفوع إليكم في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤ وفي تقريرها للموقف الذي قرئ على مجلسكم الموقر في الاجتماع نفسه لن يكون الموقف العسكري سليماً إلا بأمرين:

١ ـ دخول قوات الدعم من الدول العربية المحيطة بإسرائيل واتخاذها مواقع تحشد سليمة من وجهة النظر العسكرية، وطبقاً لتخطيط هذه القيادة. وأذكر هنا في هذا المجال أنّه لا فائدة من قوات عسكرية توضع بإمرة هذه القيادة تتمركز في مواقع حشد تمليها الحدود السياسية والحساسيات الإقليمية أكثر مما تمليها المتطلبات العسكرية، فنحن في مواجهة قضية عسكرية من الدرجة الأولى تتطلب حلولاً عسكرية صحيحة أولاً مع طرح جميع الاعتبارات الأخرى جانبياً.

٢ ـ زيادة القوات الجوية من المقاتلات بإمرة هذه القيادة بما يعادل أربعاً على الأقل ومركزتها في الأراضي المحيطة بإسرائيل، إذ إنّ طبيعة هذه الأسلحة لا تمكّنها من القيام بعملياتها من مسافات بعيدة. ولن يكون الموقف مطمئناً في الدول الشمالية: لبنان، وسوريا، والأردن، كما لن تتمكن قواتها البرية من العمل في حماية حدودها بغير وجود هذه القوات.

«هذا وقد تقدمت هذه القيادة بهذين المطلبين في العام الماضي، وكان الاعتقاد السائد عندئذ أن القيام بالأعمال الفنية لن يدعو إسرائيل إلى القيام بالعدوان، ولكن ثبت عكس ذلك ولم يعد خافياً استعداد إسرائيل للعدوان وإعلانها ذلك صراحة، وهذا يدعونا إلى أن نعيد النظر في إجراءاتنا وتفسيرنا للموقف، كما أرجو أن يدعو ذلك إلى استجابة طلبات هذه القيادة وتقديم الاعتبارات والسلامة على غيرها من العوامل.»

وعند هذا التحذير الخطير وقف الفريق فوزي في تلخيصه المدوّن.

ولقد أبحت لنفسي أن أدخل هذه الفقرات في مذكراتي لسببين:

الأول أنها لم تعد أسراراً عسكرية بعد أن وقعت هزيمة الأيام الستة، فقد فات زمانها وأوانها، ولم تعد لنا قيادة عربية موحدة. و**الثاني** أن الأمانة القومية تفرض عليّ أن أضع أمام الجيل المعاصر والوافد حقيقة الأوضاع العربية في عام ١٩٦٦، وقبل حرب الأيام الستة ببضعة شهور، وأن تكون معروفة من أعلى مصدر عسكري مسؤول، هو القيادة العربية الموحدة التي كانت تضم قرابة مائة ضابط عربي ممتاز يمثلون العسكرية العربية من المحيط إلى الخليج.

وعقد مجلس الدفاع جلسته الأخيرة لتلخيص الموقف، فبدا واضحاً انقسام الدول العربية إلى ثلاثة معسكرات: **الأول** تقف فيه الجمهورية العربية المتحدة، وسوريا، والعراق، والجزائر، واليمن، و**الثاني** تقف فيه السعودية والأردن والمغرب وليبيا[1]، و**الثالث** تقف فيه الكويت ولبنان والسودان. والمعسكران الأول والثاني يمثلان اتجاهين مضادين، بينما يقف المعسكر الثالث وسطاً بينهما يحاول أن يوفق، أو يلفق، إن لم يستطع أن يوفق. ولكن معركة السموع وما أعقبها من غضبة الشعب الفلسطيني والجماهير العربية قد دخلت إلى قاعة الاجتماعات ولم يعد ميسوراً على «أصدقاء» الأردن أن يؤيدوه في مخالفاته المكشوفة المفضوحة، وما كان أكثرها.

وجاء دور صياغة القرارات، فألحّ الفريق علي عامر أن يصدر المجلس قراراً

(١) قبل ثورة الفاتح من أيلول/ سبتمبر.

بالموافقة على دخول القوات العراقية والسعودية في مدة أقصاها شهران. ولم يستطع الوفد الأردني، وزيراً وضباطاً أن يعارض هذا المطلب، والمجلس مشحون بكارثة السموع. وكذلك أصرّ القائد العام أن يصدر المجلس قراراً نهائياً يطلب إلى الدول الأعضاء أن تفي بالتزاماتها المالية، وأن يدعى وزراء المالية العرب إلى الاجتماع في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٧ لاتخاذ الخطوات التنفيذية في هذا الصدد.

ووافق جميع الوفود على هذه التوصية المالية، وخاصة بعد أن ألقي الأمر على كاهل وزراء المالية، ما عدا الوفد السعودي، فقد قال عمر السقاف إنه «يتحفظ على هذا القرار لأن المملكة العربية السعودية عند موقفها الذي أعلنته في ما سبق، وهو تجميد التزاماتها المالية إزاء جميع مؤسسات مؤتمرات القمة إلى أن ينعقد مؤتمر قمة جديد».

قلت: «ولكن هذا يخالف تماماً ما أعلنه جلالة الملك فيصل».

قال: «وماذا أعلن جلالته؟».

قلت: «بين أوراقي صحيفة **البلاد** السعودية الصادرة في جدة (٨/ ١٠/ ١٩٦٦)، نشرت خطاباً لجلالة الملك فيصل لمناسبة عودته من سفرته إلى أوروبا وأمريكا قال فيه: «نحن نرفض رفضاً باتاً قرارات الأمم المتحدة، لأننا إذا قبلنا بها نكون اعترفنا بدولة الصهاينة. ولن نقبل بتقسيم فلسطين ولو أجمع العرب جميعاً على قبوله. وإذا رضوا بوجود إسرائيل وتقسيم فلسطين فلن ندخل معهم في هذا الاتفاق. ونحن لسنا ممن يريدون المعارك من وراء المكاتب وأجهزة التلفون، فإذا دق جرس الحرب والنضال، فستروني أنا بنفسي وإخواني وأبنائي أمامكم أيها الإخوة».

واستأنفت حديثي قائلاً: «هذا هو خطاب جلالته. وإن جيش التحرير الفلسطيني عازم على خوض المعركة التي أشار إليها جلالته، ونحن نناشده أن يستمرّ في دفع التزاماته لجيش التحرير. وإذا كان مؤتمر القمة قد تأجل أو سقط، فليس معنى هذا أن الواجبات القومية قد تأجلت أو سقطت». ولكن رئيس المجلس أراد أن ينقذ الوفد السعودي من هذا الحديث الدامغ، فطلب إقفال الموضوع ملتمساً العذر لعمر السقاف بأن «الوفد السعودي لا يملك أن يتجاوز تعليماته، وهذه هي تعليماته».

وأنهى مجلس الدفاع جلساته بهذه القرارات التي أصدرها على أن يعود إلى الاجتماع في شهر آذار/ مارس من عام ١٩٦٧ ليواصل «الإشراف على تنفيذ مخططات القيادة العربية الموحدة».

وانطلقت إذاعات القاهرة على جميع موجاتها تنقل إلى الجماهير العربية خلاصة موجزة عن أعمال مجلس الدفاع، وفيها نغمة من التفاؤل الحذر بأن قرارات المجلس قد أخذت بالإجماع، وأن الوفد الأردني قد وافق على القرارات العسكرية وتعهّد بالالتزام بها.

وفتحت الإذاعة الأردنية في مساء ذلك اليوم، في الساعة الحادية عشرة، بعد ارفضاض مجلس الدفاع بست ساعات، فإذا بالمذيع يقول: «أعلن مصدر رسمي أن الأردن له تحفظات فنية وموضوعية على قرارات المجلس سيبديها في اجتماع المجلس القادم».

وكان في بيتي في ذلك الوقت بعض الوفود العربية من مدنيين وعسكريين، جاؤوا ليزورني فقلت لهم: «أرأيتم؟، إن الوفد الأردني في القاهرة وافق في الساعة الخامسة من هذا اليوم على القرارات العسكرية، والحكومة الأردنية في عمّان تنقض القرارات في الساعة الحادية عشرة. أرأيتم الحكم الأردني؟ إن عمّان ١٩٤٨ هي عمّان سنة ١٩٦٦، ولم يتغير شيء. لقد كانوا ينقضون في النهار ما يبرمون في الليل، أثناء حرب فلسطين ١٩٤٨، وإنهم اليوم يلعبون الدور نفسه».

وقد صدقت فراستي في الأردن، فهذه طبيعته وطبعه، فبعد أسبوع (٢٠/ ١٢/ ١٩٦٦) أعلن متحدث بلسان وزارة الخارجية العراقية أن «القطعات العراقية التي أرسلت إلى الحدود الأردنية طبقاً لقرار مجلس الدفاع لم تسمح الحكومة الأردنية بدخولها لتتمركز في الأراضي الأردنية في المواقع التي تحددها القيادة العربية الموحدة».

ومضت ثلاثة أشهر من القلق والحيرة يسودان العالم العربي، ونحن على قمة الحيرة والقلق، بعد أن سقطت مؤتمرات القمة. وسجلت «يومياتي» خلال تلك الفترة أحداثاً مثيرة ذيلتها بتعليقات صغيرة. وهذه بعضها:

٣٠/ ١٢/ ١٩٦٦، بدأت الحكومة الأردنية تشوّش على إذاعة منظمة التحرير الفلسطينية. وقد جاءت بأجهزة التشويش بالطائرات إلى الأردن، بعضها من ألمانيا، وبعضها من أمريكا، وقلت في نفسي ليت الأردن يشوّش على إسرائيل.

٨/ ١/ ١٩٦٧، أعلن الجنرال موشي ديان تعليقاً على أحداث الأردن قال فيه: إن «الخطر الوحيد هو قيام انقلاب في الأردن يطيح بالملك حسين، فإنه عنصر الاستقرار الوحيد في منطقتنا واختفاؤه عن المسرح سيكون له نتائج خطيرة علينا». قلت: «والفضل» ما شهدت به الأعداء.

٥/ ٢/ ١٩٦٧، وصل من الأردن الرئيس الركن رشيد محمّد يوسف الحمارنة من ضباط الجيش الأردني، لاجئاً إلى القاهرة، وأعلن «أن المخابرات الأردنية كانت كلفته بمهمة اغتيال رئيس المنظمة»، وألقيت بياناً في إذاعة المنظمة ختمته بالآية القرآنية: ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله**﴾[٢] صدق الله العظيم.

٧/ ٢/ ١٩٦٧، صدر بيان مشترك عن محادثات الرئيسين عبد الناصر وعبد الرحمن عارف في القاهرة جاء فيه: «ولقد استمع الرئيسان باهتمام إلى عرض شامل أدلى به أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وأكد الرئيسان في هذا الصدد من جديد تأييدهما الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأعربا عن إعجابهما وتقديرهما لشجاعة الشعب الفلسطيني وبطولته وصموده أمام صنوف البطش والإرهاب»، وكان هذا الكلام موجهاً إلى الملك حسين، ولكن لا سميع ولا مجيب.

٩/ ٢/ ١٩٦٧، بعث أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا مذكّرة إلى الملك حسين يثني على مواقفة الشجاعة ويعرب عن تأييد الشعب الفلسطيني. قلت: «ولله في خلقه شؤون».

١٣/ ٢/ ١٩٦٧، أقام الملك حسين وليمة للملك فيصل في عمّان أعلن فيها أنّه «لن يسكت على حمام الدَم الذي يجري في اليمن، وندّد بالغزوة الماركسية التي تتعرض لها المنطقة، وحمل على الرئيس عبد الناصر. وأشاد الملك فيصل بموقف الأردن، وأكد أن المؤتمر الإسلامي هو طريق الخلاص. قلت: «ليت هذه الوليمة أقيمت في بيت المقدس، حتّى يشهد المسجد الأقصى على هذا الكلام».

٢٢/ ٢/ ١٩٦٧، خطب الرئيس عبد الناصر لمناسبة ذكرى الوحدة، فشنّ حملة مركزة على بورقيبة وفيصل والحسين والمؤتمر الإسلامي. قلت: «هذه الحملة تغني عن التعليق».

١/ ٣/ ١٩٦٧، قام الحاج أمين الحسيني بزيارة إلى الأردن، واجتمع بالملك حسين، ونزل في قصر الملك في بيت حنانيا، تحت حراسة كتائب البادية. قلت: «سبحان مغيّر الأحوال ومقلّب القلوب!».

٢/ ٣/ ١٩٦٧، أعلن الملك حسين استئناف العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا الغربية. قلت: «لقد ضربت إسرائيل قرية السموع بالأسلحة الألمانية التي وصلتها هدية سخية».

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة غافر،» الآية ٢٨.

وفي جو هذه المعالم الصغيرة التي سجلتها «يومياتي» انعقد مجلس الدفاع العربي في اليوم الثاني عشر من شهر آذار/ مارس ١٩٦٧، كما قررت الدول العربية في ما سبق.

ولكن الأردن والسعودية تضامنتا على عدم الحضور: الأردن لأنه لا يريد أن يواجه القيادة العربية الموحدة أمام المجلس بصدد عدم موافقته على دخول القوات العربية، والسعودية لأنها لا تحضر أي اجتماع منبثق عن مؤتمرات القمة قبل أن ينعقد مؤتمر قمة جديد، وكلتا الدولتين قد أدخلت في حسابها أن معركة السموع قد بردت، وثائرة الرأي العام العربي قد سكنت، فلِمَ العناء، ولِمَ الحضور؟

وانعقد مجلس الدفاع في جو متوتر. وتلا الفريق علي عامر تقريراً عصبياً موجزاً استغرق إلقاؤه خمس دقائق طالب فيه من المجلس أن «يبتّ في أمر القيادة العربية الموحدة حتّى لا تبقى من دون عمل، وأن تصارح الدول العربية الأمة العربية بالحقيقة، وأن قوات الدعم العربية لم تدخل الأردن، وأن عدداً من الدول العربية لم تف بالتزاماتها المالية، وأن توقف الدول عن سداد التزاماتها سوف يؤدي بالوضع العسكري إلى موقف خطير». وختم الفريق عامر تقريره بإنذار قصير قال فيه: «إن القيادة العربية الموحدة ترى أن واجب الأمانة يطالبها بأن تبلّغ مجلسكم الموقر أن استمرار هذه الأوضاع لا يمكّنها من تنفيذ المهمة التي أقرها مجلس الملوك والرؤساء في الإسكندرية».

وتكلم الوزراء: جورج حكيم (لبنان)، وأحمد البشتي (ليبيا)، وعبد العزيز بوتفليقة (الجزائر)، واللواء شاكر محمود شكري (العراق)، وحسن عوض الله (السودان)، ومحمود رياض (الجمهورية العربية المتحدة)، والشيخ صباح الأحمد (الكويت)، واللواء عبد الله جزيلان (اليمن)، تكلموا في نبرات مختلفة، وأعربوا عن أسفهم لغياب الأردن والسعودية عن هذا الاجتماع الخطير بعد أن حضروا الاجتماع السابق، ثُمّ أثنوا على جهود القيادة العربية الموحدة، وخصّوا بالمديح الفريق عامر على صبره واستقامته وشجاعته.

وفي لهجة غاضبة تحدث الوزير السوري د. إبراهيم ماخوس، فطالب بأن يعاد النظر في خطط القيادة العربية الموحدة مع «إسقاط الأردن والسعودية وتونس من الحساب».

وجاء دوري في الكلام، فقلت: «إن تخلف السعودية والأردن عن هذا الاجتماع لا يخلو من دلالات خطيرة، ولكن تخلف الأردن هو الأخطر، فإن قضية فلسطين هي في قلب الأردن وطناً وشعباً، وإن الأردن كان سبب الكارثة في عام

١٩٤٨، وبعد مؤتمرات القمة قالت الأمة العربية الطيبة: «عفا الله عما سلف»، وها نحن نرى الآن أن الأردن قد نفذ شيئاً واحداً فقط من مؤتمرات القمة، هو أنّه قبض ٢٢ مليون استرليني من القيادة العربية الموحدة من دون أن ينفّذ خططها. وبالإضافة إلى ذلك، فقد قبض ٣ ملايين ونصف المليون جنيه من إمارات الخليج لتسليح الشعب، وأبقى الشعب مجرداً من السلاح».

ومضى مجلس الدفاع يومين متعاقبين من غير عمل، فقد كان الفريق عامر يجري مباحثات جانبية في قيادته في مصر الجديدة مع اللواء عامر خماش رئيس أركان حرب الجيش الأردني، واللواء عبد الله مطلق رئيس أركان الجيش السعودي، فقد وصلا إلى القاهرة «ليجتمعا بالفريق عامر لا ليحضرا مجلس الدفاع!»، كما أعلنا إلى الصحف.

وكانت تلك الاجتماعات أشبه ما تكون بالمناورات العسكرية، ولكن بالذخيرة الميتة. فقد كان اللواء خماش يصرّ على ألا ينفّذ خطط القيادة قبل أن تدفع مزيداً من المال إلى الأردن، وكان اللواء مطلق يكرر ويعيد بأن السعودية لن تدفع المال قبل أن ينعقد مؤتمر قمة جديد. وأصبحت القضية قضية مال، لا قضية رجال!

والتأم مجلس الدفاع في الجلسة الختامية، فوضع توصيات موجزة:

١ ـ أن تفي الدول العربية بالتزاماتها المالية في موعد لا يتجاوز أول تموز/ يوليو ١٩٦٧.

٢ ـ تكليف القيادة العربية الموحدة بوضع تقدير جديد للموقف العسكري، في ضوء تخلف السعودية والأردن وتونس.

٣ ـ توزيع الاعتمادات المخصصة للأردن على كُلّ من سوريا ولبنان وجيش التحرير لاستكمال تعزيزاتهما العسكرية.

٤ ـ عقد مجلس الدفاع المقبل في ٤ تموز/ يوليو ١٩٦٧.

وسخر القدر من التوصية الرابعة، فإن مجلس الدفاع لم ينعقد في تموز/ يوليو، لأن الكارثة الكبرى وقعت في حزيران/ يونيو، تماماً كأنها كانت مع الهزيمة على ميعاد، ويا بئس هذا الميعاد!

ولم يكن وقوع الكارثة عجيباً ولا غريباً، بل العجيب ألا تقع الكارثة. والغريب ألا تقع الهزيمة.

فقد كانت طوالع النجوم في السماء العربية تشير إلى الكارثة.

وكانت معالم الأحداث على الأرض العربية تسير نحو الهزيمة.

وإن الكوارث والهزائم لا تبالي بالكثرة المتفرقة المتبددة، حتّى ولو كان على رأسها ثلاثة عشر ملكاً ورئيساً، وثلاثة عشر جيشاً، بل إن الأمة، أية أمة، إذا كان على رأسها ثلاثة عشر ملكاً ورئيساً كمن عرفت وزاملت، لا بُدَّ أن تنهزم، لا بُدَّ أن تنكسر، وقد قال الله تعالى:

﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثُمّ وليتم مدبرين**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٢٥.

فيصل وبورقيبة والحسين يتعاونون.. على ماذا؟

في مطلع عام ١٩٦٧ بدت طلائع معركة ضارية على منظمة التحرير الفلسطينية، وكان الفرقاء في هذه المعركة: الولايات المتحدة، إسرائيل، وبعض الدول العربية، والدول العربية التي أعنيها: الأردن والسعودية وتونس.

وكنت في خضم هذه المعركة منذُ بدايتها. وكانت بدايتها هي بداية منظمة التحرير، وكان «القتال» في هذه المعركة مختاراً مع فريق، ومفروضاً مع فريق آخر، هجومياً مع الأول، ودفاعياً مع الثاني. وكانت الولايات المتحدة وإسرائيل هي الفريق الذي اخترت القتال معه والهجوم عليه. وكانت الدول العربية هي الفريق الذي فرض علينا القتال معه والدفاع ضده، مكرهين لا مختارين: ﴿**كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم**﴾[1] صدق الله العظيم.

ولم يكن قتالنا مع الولايات المتحدة وإسرائيل حباً في القتال، ولكن القتال معهما كان قدراً محتوماً، ذلك أن الشعب الفلسطيني قد طرد من وطنه، وكان طبيعياً وإنسانياً أن يقاتل الذين طردوه، ومن دياره أخرجوه.

وكان قيام منظمة التحرير الفلسطينية، مجرد قيامها، هو بداية المعركة مع الولايات المتحدة وإسرائيل، فقد استشعرت «إسرائيكا»، وهو الاسم المزجي الذي سأعتمده كلما أردت أن أتحدث عن إسرائيل وأمريكا مجتمعتين، استشعرت «إسرائيكا» أن قيام المنظمة معناه قيام الشعب الفلسطيني، وقيام الشعب الفلسطيني معناه قيام الأمة العربية، وذلك معناه قيام الحركة العربية لتحرير فلسطين.

وقد حسبت «إسرائيكا» بعد انتهاء حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ أن القضية الفلسطينية قد انتهت، فالأرض الفلسطينية أصبحت إسرائيل في الغرب، والأردن في الشرق، وكلاهما عضو في الأمم المتحدة. ولم يبق من القضية الفلسطينية إلا

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٢١٦.

اللاجئون، وهؤلاء تعنى بهم وكالة الإغاثة، إلى أن يموتوا، وتموت معهم آخر بقايا القضية الفلسطينية.

وقد شجع «إسرائيكا» على هذا الحساب أن الدول العربية، وقد انهزمت في عام ١٩٤٨، لجأت إلى السياسة «الواقعية»، فلم تعد تتحدث عن تحرير فلسطين، بل نادت بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة. وأول هذه القرارات هو قيام إسرائيل، دولة ذات سيادة، كأية دولة أخرى في العالم.

ومرت خمسة عشر عاماً والقضية الفلسطينية يأكلها الزمن، والتقاعس العربي، و«إسرائيكا» تتطلع باطمئنان وتفاؤل إلى حمل الدول العربية على التفاوض مع إسرائيل وعقد الصلح معها، وكتابة الصكوك، وتوقيع شهادة الوفاة للقضية الفلسطينية، وفاة طبيعية عادية!

ولست أقول هذا من باب الفراسة، ولكني أقوله من باب الدراسة، فقد شاء القدر أن أكون في الأمم المتحدة خمسة عشر عاماً، رئيساً للوفد السوري، ثماني سنين، ثُمّ رئيساً للوفد السعودي سبع سنين أخرى، ورأيت دورة بعد دورة أن «إسرائيكا» تسعى لتصفية القضية الفلسطينية بصورة هادئة ناعمة، وبلغ من حرصها على تحقيق هذه الغاية أنها كانت تؤكد أن «فلسطين» لم تعد قائمة في جغرافياً العالم الدولي، وأن هذا الاسم ليس له وجود في قاموس العلاقات الدولية المعاصرة. وكم، وكم قام الحوار المرير في الأمم المتحدة بيني وبين أبا إيبان وغولدا مائير حول لفظ «فلسطين»، هل هو موجود دولياً، أم إنّه مضى منذُ زمان وانتهى.

وحسبت «إسرائيكا» أن الأمل بتصفية القضية الفلسطينية وإذابة شعبها قد تحقق أو كاد. ولكن حسابها قد أخطأ الحساب، فقد فوجئت بعد انتهاء مؤتمر القمة الأول في القاهرة عام ١٩٦٤ بقيام منظمة التحرير الفلسطينية والتفاف الشعب الفلسطيني حولها، وانطلاق شعار التحرير بين الجماهير الفلسطينية والعربية على السواء.

كان ذلك خيبة أمل كبرى «لإسرائيكا» بعد جهود دامت خمسة عشر عاماً، ومن هنا بدأت المعركة بين «إسرائيكا» ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكانت أجهزة الإعلام الغربية من صحافة وإذاعة وتلفزيون هي ميدان هذه المعركة.

وبدأت أجهزة الإعلام التابعة «لإسرائيكا» تهاجم منظمة التحرير الفلسطينية، في أنها تريد أن تخلق التوتر في الشرق الأوسط، وتحول دون الاستقرار والأمن، وتخرّب مساعي السلم بين الدول العربية وإسرائيل. وفي ثنايا هذه الحملة، كانت أجهزة الإعلام الغربية تؤكد على الدوام أن رئيس المنظمة عميل شيوعي، وأنه . . وأنه . . .

وقد ازدادت التهمة الشيوعية بعد أن قمت بزيارة جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٦٥، وبلغت ذروتها حينما أصبح معروفاً أننا نتلقى أسلحة من بكين، وأن عدداً من ضباطنا يتدربون على حرب العصابات في الصين[٢].

وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٦٧ عقد وزير الخارجية الأمريكية مؤتمراً صحافياً هاجم فيه منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير، وأعلن «أن الولايات المتحدة تعارض أهداف منظمة التحرير الفلسطينية». فكانت هذه ساعة الصفر للهجوم على منظمة التحرير، مع التركيز على رئيسها «الشيوعي» والعمل على إسقاطه، حتّى يسقط الحجر الأول في هذا البناء.

وقد جاهرت الولايات المتحدة بهذا الموقف بعد أن أيقنت أن منظمة التحرير الفلسطينية قد أصبحت قوة فاعلة في الوطن العربي. فقضية فلسطين أصبحت قضية الجماهير العربية، وشعار التحرير أصبح فوق كُلّ شعار في الوطن العربي، وإذاعة المنظمة أصبحت إذاعة المواطن العربي في الوطن العربي، يسمعها قبل أن يسمع إذاعته المحلية. وعلى العموم، فقد أصبحت المنظمة هي القوة الدافعة المحركة في العمل العربي، ابتداء من مؤتمرات القمة إلى مؤتمر ضباط مقاطعة إسرائيل.

وانطلاقاً من هذا التقييم، فقد وجه مندوب صحيفة **الأوبزرفر** البريطانية (٥/ ٢/ ١٩٦٧) سؤالاً إلى الرئيس عبد الناصر يقول فيه: «هل تعتقدون أن جهود منظمة التحرير الفلسطينية قد غيّرت سياسة مؤتمرات القمة وعملت على احتمال الصدام المسلح مع إسرائيل؟ وهذا السؤال ينبئ بصورة جلية عن مخاوف الإمبريالية الغربية بأجمعها من منظمة التحرير الفلسطينية، كما ينبئ عن السبب الواضح في الحملة على منظمة التحرير الفلسطينية، والمبادرة إلى تحطيمها.

والمنظمة من جانبها لم تكن تترك فرصة إلا وتنتهزها في الحملة على «إسرائيكا»، ولا أذكر خطاباً ألقيته في عشرات المناسبات القومية إلا وأعلنت العداء على «إسرائيكا»، وأن الأمة العربية تغسل يديها نهائياً وإلى الأبد من الولايات المتحدة، ومن أي أمل بأن تقف موقف العدل والإنصاف، أو موقف الحياد على الأقل.

كان ذلك على الصعيد الدولي، وكان هذا واضحاً لا يحتاج إلى إيضاح، فإن معركتنا مع «إسرائيكا» هي معركة لا مفرّ منها ولا محيص عنها، فقد يجامل المرء أو يتساهل، ولكن حينما تتصل القضية بالوطن وبالشعب، وجوداً واستمراراً،

---

(٢) أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

تكون المجاملة تفريطاً مجرماً، ويصبح التساهل خيانة عظمى.

أما المعركة على الصعيد العربي، فقد عزمت منذُ البداية، من أول يوم لإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، أن أتجنبها بكل جهدي. فأنا صاحب الميثاق الوطني الفلسطيني، ولا فخر، وقد أكدت فيه «أن تحرير فلسطين تبعة قومية كبرى تقع على عاتق الأمة العربية، حكومات وشعوباً، وفي طليعتها شعب فلسطين». وقد حرصت على الدوام على أن تكون الحكومات العربية جميعها في الميدان، كما حرصت على أن تكون قضية فلسطين فوق الخلافات العربية، وفي منأى عن التناقضات العربية.

ولكن ما ذنبي وذنب المنظمة إذا وقعت هذه الخلافات والتناقضات على رأس القضية الفلسطينية، على غير إرادتي؟ وما ذنبي إذا كانت بعض الحكومات العربية هي التي فتحت النار أولاً، ولم يكن أمامي إلا أن أقابل النار بالنار؟ وهذا أول بند في حقوق الإنسان منذُ كان الإنسان.

وكانت **أولى** هذه المعارك مع الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة حين دعا إلى الصلح مع إسرائيل عام ١٩٦٥، فرأيت من واجبي أن أتصدّى له بكل صرامة، ضارباً عرض الحائط صداقتي «العتيقة» معه.

وكانت المعركة **الثانية** مع الملك حسين الذي ألقى خطاب عجلون الشهير في حزيران/ يونيو ١٩٦٦ وأعلن الحرب على المنظمة وسحب اعترافه بها، وأغلق مكاتبها، واعتقل رجالها، بعد أن كلمته سنتين كاملتين بالحسنى لتلبية مطالب الشعب، ولم يعد أمامي إلا أن أردّ له الكيل اثنين.

وكانت المعركة **الثالثة** مع الملك فيصل، وكانت معركة صامتة، نابعة من أسلوب الملك فيصل في القتال الصامت، فقد توقف عن دفع التزاماته للمنظمة لا لذنب إلا التهمة الباطلة بأن الشقيري هو عميل الرئيس عبد الناصر والشيوعية العالمية معاً.

وهكذا أصبحت المنظمة تواجه حلفاً ثلاثياً بين فيصل والحسين وبورقيبة. وبدأ الثلاثة يتحركون «لخلع» الشقيري من منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت بداية هذا التحرك في نهاية عام ١٩٦٦، وبداية العام الذي يليه.

وبدأ الملك فيصل المعركة. فقد أدلى بحديث صحافي لجريدة **السياسة** الكويتية (٢/ ١١/ ١٩٦٢) أعلن فيه أن السعودية قررت تجميد التزاماتها لمنظمة التحرير الفلسطينية «لأن جيش التحرير الفلسطيني يدرّب في فييتنام، على حين أنّه يجب أن يعمل لتحرير فلسطين بدلاً من أن يعمل لتحرير فييتنام». وقد بادرت إلى تكذيب هذا

الخبر بأرق العبارات وأعذبها في حديث لوكالة أنباء الشرق الأوسط رجوت فيه أن «يتفضل جلالة الملك فيصل بإرسال لجنة تحقيق من قبله لزيارة معسكرات جيش التحرير، والاطلاع على سجلاتنا حتّى يتأكد أننا لم نرسل أي جندي فلسطيني إلى فييتنام، وأننا لن نحارب إلا على أرض فلسطين».

ولم يستجب الملك فيصل لاقتراحي، وهو أذكى من أن يصدق في قرارة نفسه ما يقوله على لسانه!

وفي تلك الفترة أعلن الرئيس بورقيبة من تونس أنّه مستعد للعودة إلى جامعة الدول العربية، وإلى مؤتمرات القمة العربية، ولكنه «لا يمكن أن يجلس مع أحمد الشقيري تحت سقف واحد». وقد كتب مستشاره سيسل حوراني مقالة في الصحافة الأمريكية يطلب فيها إلى الدول العربية «أن تختار بين التعاون مع الرئيس بورقيبة أو مع أحمد الشقيري الذي لا يمثل أحداً». وقد فاته بأن رؤساء الحكومات العربية في اجتماعهم في ربيع عام ١٩٦٥ قد أدانوا موقف الرئيس بورقيبة بالإجماع، ومعهم الأردن والسعودية يومئذ. فلم أكن وحدي في هذا الموقف.

ولكن هذه الجهود لم تثمر، فقد بقي الشقيري على رأس منظمة التحرير الفلسطينية، ولم يفلح الحسين وفيصل وبورقيبة في خلعه. وكان لا بُدَّ من خطوة عملية أخرى.

وجاءت الخطوة العملية على شكل مذكرة رقم (٨-٧-١٧) قدمتها الحكومة الأردنية إلى الجامعة العربية (٢٩/ ١/ ١٩٦٧) جاء فيها «أن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري منذُ اللحظة الأولى لإنشائها، وخاصة بعد مؤتمر القمة الثالث، قد انحرف عن النهج الصحيح وعن المهمة الحقيقية التي أنشئت من أجلها إلى الزجّ بها في أمور ليست من اختصاصها، وإلى دفعها لتكون طرفاً في الخلافات العربية والمعسكرات الدولية.

وما إن تولت الأمانة العامة تعميم هذه المذكرة على الحكومات العربية، حتّى بادرت السعودية إلى تأييدها بمذكرة تقول: «تهدي وزارة خارجية المملكة العربية السعودية أطيب تحياتها إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وبالإشارة إلى مذكرة وزارة خارجية المملكة الأردنية الهاشمية رقم (٨-٧-١٧) تاريخ ٢٩/ ٢/ ١٩٦٧ بشأن منظمة التحرير الفلسطينية، تتشرف بإفادتها بأنها تؤيد ما لاحظته وزارة خارجية المملكة الأردنية الهاشمية بصدد انحراف السيد أحمد الشقيري عن النهج الصحيح وعن المهمة الأساسية التي أنشئت المنظمة من أجلها، وبخاصة أنه دأب على التصريح في كثير من المناسبات بأنه لم يعد يعترف بمؤتمرات القمة، ولا يتقيد بقراراتها،

متجاهلاً أن تكوين المنظمة التي يرأسها لم تكن إلا بقرار من مؤتمرات القمة. وترى السيد أحمد الشقيري في ما انحرف إليه وانساق وراءه قد خرج عن الخطّ القومي لهذه القضية إلى الحدّ الذي أصبحت لا ترى فيه الشخص الجدير بتمثيل الكيان الفلسطيني المنبثق عن مؤتمرات القمة». هكذا اختار الملك فيصل أن يوجه هذه التهم الخطيرة من غير قرينة أو دليل، وإلى رجل قضى أربعين عاماً في خدمة القضايا العربية على الصعيدين العربي والدولي، وكان في السبع السنين الأخيرة رئيساً للوفد السعودي في الأمم المتحدة.

وتعزيزاً لهذا الجهد في محاولة خلع الشقيري، فقد اتصل الملك حسين بالرئيس بورقيبة لعله يستطيع أن يقنع ليبيا والمغرب بتأييد هذه الجهود في داخل الجامعة العربية، فأرسل إليه رسالة (١-٢-١٩٦٧) يقول فيها «تعلمون فخامتكم أن رئيس منظمة التحرير السيد أحمد الشقيري قد انحرف عن خطة العمل الموحّد والالتزام بمؤتمرات القمة إلى جرّ المنظمة لتكون طرفاً في الخلافات العربية، بل في الخلافات الدولية، هذا بالإضافة إلى موقفه الصريح من إثارة الفتنة في هذا البلد المرابط، والتحريض على الثورة، وتقويض الكيان الأردني، وبذر بذور الشقاق بين أبناء البلد الواحد، والحضّ على التخريب والتدمير والقتل، وأعلنها صريحة في جميع اللقاءات المنبثقة عن مؤتمرات القمة أنّه لا يلتزم بأي قرار، وأنه يعمل منفرداً على الوجه الذي يحلو له، ثُمّ إن المذكور قد أثبت في نظرنا أنّه غير أمين على سرّ يفترض بقاؤه على الكتمان بعد أن يتفق على وجوب ذلك في أي اجتماع يعقد، مثلما أنّه غير أمين حتّى في ما يتمادى بكشفه مشوّهاً محرّفاً مليئاً بالحقد والدس والتزوير». هكذا.. هكذا!

وحين كان الثلاثة فيصل وبورقيبة والحسين يتداولون الأمر لخلع الشقيري من منظمة التحرير الفلسطينية. كنت أجلس إلى جوار أنور السادات نائب رئيس الجمهورية على المنصة الرئيسيّة في جامعة القاهرة أستمع إلى خطاب الرئيس عبد الناصر لمناسبة ذكرى الوحدة (٢٢/ ٢/ ١٩٦٧) وهو يزمجر غاضباً: «طلع الخواجه بورقيبة يساوم على قضية فلسطين، وطالب بالتفاوض مع إسرائيل والصلح معها. بورقيبة عميل استعماري. ثُمّ بدأ الملك فيصل يعمل من أجل الحلف الإسلامي لخدمة مصالح أمريكا وإنكلترا. وبعدين بيطلع الملك حسين وينضم إلى فيصل في هذا الطريق، فيصل والحسين يخدموا الأمريكان والإنكليز. الاستعمار لا يريد الكيان الفلسطيني ولا منظمة التحرير ولا جيش التحرير. بقاء النظام العميل في الأردن يخدم بقاء إسرائيل. إسرائيل راضية من سياسة الملك حسين. نظام الأردن حماية لإسرائيل، وزير خارجية أمريكا قال إن أمريكا لا توافق على قيام منظمة التحرير وأهداف جيش

التحرير، وهذا هو موقف الملك فيصل من منظمة التحرير، فيصل يحارب المنظمة ويبعث بجيب الحاج أمين الحسيني، يدّي له فلوس علشان يهدموا المنظمة. الملك حسين ملك فاجر عاهر».

كان الجمهور الحاشد في جامعة القاهرة يستعيد من الرئيس عبد الناصر هذه العبارات ليزداد حماسة وطرباً، ولتزداد الجماهير العربية في تونس والسعودية والأردنية استماعاً لها وتوكيداً لمعانيها.

وقال لي أنور السادات ونحن خارجون من قاعة الجامعة: «سيادة الرئيس أخذ بثأرك».

قلت: «بل إنه ثأر للعرب أجمعين. إن الأمة العربية بأسرها هي القاعدة الكبرى لمنظمة التحرير، وإن تحرير فلسطين لم يعد مسؤولية الشعب الفلسطيني وحده. إنه مسؤولية الأمة العربية بأسرها». خرجنا من ميدان الجامعة لنجد جماهير القاهرة تملأ الساحات والشوارع وهي تهتف لتحرير فلسطين وتنادي بسقوط الثلاثة أنفسهم. الثلاثة الذين حمل عليهم الرئيس عبد الناصر في خطابه: فيصل والحسين وبورقيبة.

وجاءت الدورة العادية لمجلس الجامعة العربية (١٤ آذار/ مارس ١٩٦٧)، وقدّر الثلاثة فيصل والحسين وبورقيبة أن ساعة الصفر قد دنت، وأن الوقت قد حان لخلع الشقيري من منظمة التحرير الفلسطينية، ووزعت الأدوار، وكان الدور الأول على المملكة الأردنية الهاشمية.

وانعقد مجلس الجامعة العربية على مستوى الوزراء. وكان يرأس الوفد الأردني مدحت جمعة السفير الأردني في بيروت، وكان يرأس الحكومة الأردنية في تلك الفترة سعد جمعة، فلم يطمئن لأحد يؤدي الدور إلا لشقيقه مدحت.

وبدأت الاجتماعات الجانبية لتلطيف الجو. وقام الوزير الكويتي الشيخ صباح الأحمد بدور بارز، واتصل بي يناشدني ألا أتعرض للأردن، وأن ينحصر النقاش في جدول الأعمال، وأن مدحت جمعة قد وعده بأن يلتزم جانب السكينة، فقلت له: «لك عليّ ألا أتعرض للأردن من قريب أو بعيد». ودخلت قاعة الاجتماع من دون أن يدري أحد ما يضمره ويدبّره السفير الأردني، شقيق الرئيس الأردني، وممثل الملك الأردني.

وبدأ الاجتماع بكلمات الترحيب المعتادة، والتحيات المألوفة، وخرج الصحافيون، وأقفلت الأبواب. ورفع السفير الأردني يده يطلب الكلمة. ويا بئس

الكلمة! ووقعت المفاجأة، وكانت مفاجأة حقاً. فقد فتح السفير الأردني ملفه، وأخذ يقرأ خطاباً مكتوباً مطبوعاً، حملة من عمّان، وألقاه في الاجتماع في القاهرة من دون أن يستفزه أحد، أو يستدرجه أحد. قال فيه: «لقد عرفت ردهات الجامعة العربية وقاعات اجتماعاتها الشقيري خطيباً لا ينطق إلا عن الهوى، ولا يقول إلا اللغو وينضح عن طبيعته في الشتم يوزعه هنا وهناك. إن الشعوب العربية وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني الذي يزعم الشقيري أنّه يتكلم باسمه قد ملّوا بضاعة الشقيري من الكلام والشعوذة والضحك على العقول، والأردن يحتفظ بحقّه في عدم حضور أي اجتماع للجامعة العربية على أي مستوى إذا حضره الشقيري، وإن مجرد وجود الشقيري في أي اجتماع بعد أن عرف عنه إفشاء الأسرار العسكرية الخطيرة والتجني على الحقيقة، وتزوير التاريخ، كفيل بأن يجعل ذلك الاجتماع عديم الجدوى والفائدة، والأردن إذ يتخذ هذا الموقف يرجو بذلك أن يتأثر الإخوة بموقفه الحقّ العادل، ويعلن الوفد الأردني بعد هذا البيان انسحابه من الاجتماع».

خرج الوفد الأردني من قاعة الاجتماع، واستمرت الجلسة في جو غاضب، وأرى أن خير ما أفعله الآن أمانة للتاريخ أن أقتبس أقوال الوزراء من المحاضر الرسمية للجامعة العربية (مضابط الجلسات، الاجتماع العادي السابع والأربعين، ١٤ آذار/ مارس ١٩٦٧). وقد جرى الكلام على الوجه التالي:

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية: «لقد خرج الوفد بحمد الله من هذا الاجتماع، إن وفده وحكومته وملكه خارجون على الأمة العربية. ونحمد الله أن الجامعة العربية تطهرت الآن من حكومة خائنة للقضية العربية والقضية الفلسطينية. إن الخطاب الذي ألقاه السيد مدحت جمعة، جاء به من عمّان، من بسمان ومن رغدان، وبسمان ورغدان يغوصان الآن في وحل الخيانة، بدلاً من أن يكونا انعكاساً للرغد والابتسام. لقد عشت كُلّ عُمري في المحافل الدولية والعربية، ولكني لم أسمع بمثل هذا الكلام البذيء، وما رأيت مستنقعاً عفناً نتناً يخرج منه مثل هذا الكلام البذيء. وكنت أتمنى لو بقي الوفد الأردني حاضراً حديثي لأرد عليه وعلى حكومته وملكه العميل الخائن وجهاً لوجه. إن الأردن كان ينبغي أن يطرد من الجامعة العربية عام ١٩٤٨ لأنه خان قضية فلسطين وخان العرب أجمعين. وها نحن الآن أمام ضلال الملك حسين، ونحن لا نستطيع أن نهديه ﴿**ومن يُضلل الله فما له من هادٍ**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ٣٣.

«وأنتم تعلمون أن الدوائر الأمريكية قد وصفت الأردن أخيراً بأنه قاعدة لحلف الأطلسي، ونحمد الله أن هذه القاعدة خرجت الآن من مجلسكم الكريم. ونرجو أن يكون ذلك إلى الأبد إلى أن يتحرر الأردن من هذا النظام، من هذا النظام العميل ويعود الشعب الأردني إلى هذا المجلس ممثلاً بالحكم الوطني الأصيل. ولقد سمعتم أشكول رئيس وزراء إسرائيل وأبا إيبان وزير خارجيته وقد أعلنا في الشهر الماضي بأن إسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين إذا حدث أي تغيير في النظام الأردني. وبات واضحاً أن الحسين هو في حماية إسرائيل، تحميه من الشعب الأردني الباسل. ومن كان تحت حماية إسرائيل فليس له مكان بيننا. وإن مقعد الأردن الشاغر سيملأه الحكم الوطني الأردني الذي يمثل الشعب وشرف النضال، ولا يستطيع الملك حسين أن يحتمي وراء ميثاق التضامن العربي، لأن التضامن العربي لا يحمي من الخيانة. ولا حصانة لأي ملك أو رئيس اقترف الخيانة. ومعركة السموع كلكم تعرفون تفاصيلها. لقد زعم الملك حسين أن الأردن قد أسقط طيارَتي ميراج من سلاح الجو الإسرائيلي. لقد تمنيت لو كان هذا صحيحاً. شباب فييتنام الذين كانوا يفدون على القاهرة كنت أرى في أصابعهم خواتم مضيئة مصنوعة من معدن الطائرات الأمريكية التي يسقطها أبطال فييتنام. وكنت أتمنى لو أن الملك حسين قد وضع في رقبته طوقاً من معدن الميراج الإسرائيلية. ولو فعل لأكبرته ومجدته. إن الخطاب الذي ألقاه مندوب الأردن هو خطاب عاهر وماجن.

«وفي عيد الوحدة الأخير خطب الرئيس عبد الناصر، فقال إن الحسين عاهر وفاجر. وهذه حقيقة وليست صفة. وإن خطاب الأردن هو دليل اليوم على ذلك. أما بصدد المذكرتين السعودية والأردنية حول ما قيل عن انحرافاتي عن النهج الصحيح وعدم جدارتي بأن أكون رئيساً لمنظمة التحرير، فالأمر يدعو إلى السخرية. إن الأمر لا يتصل بأحمد الشقيري، فأنا إنسان زائل، وسيأتي غيري رئيساً للمنظمة يختاره الشعب الفلسطيني، لا يختاره ملك أو رئيس، هذا هو حقّ الشعب الفلسطيني الذي يرفض كُلّ وصاية. إن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية موجود هنا معكم بإرادة الشعب الفلسطيني لا بإرادة أي ملك تمثلونه، ولا بأي رئيس تمثلونه، ولا بالملوك والرؤساء مجتمعين. إن الشعب الفلسطيني وحده هو الذي يختار من يتكلم باسمه ويتولى الدفاع عن قضيته، وهو وحده الذي يقرر إذا كنت جديراً برئاسة المنظمة. أما القول بأني انحرفت عن النهج، فإني أترك لكم الردّ عليه، وأنتم جميعاً تعرفون من هو رئيس المنظمة. أقولها بكل تواضع واعتزاز، لقد قضيت زهرة شبابي في الدفاع عن القضايا العربية في المحافل الدولية.

«لقد دافعت عن قضية ليبيا في عام ١٩٤٩ كواحد من أبناء ليبيا، وعن قضية

المغرب في عام ١٩٥١ كواحد من أبناء المغرب، وعن قضية تونس عام ١٩٥٥ كواحد من أبناء تونس، وعن القضية الجزائرية ما بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٢ كواحد من أبناء الجزائر، ودافعت عن فلسطين، وطني الصغير، سنوات وسنوات. فهل أصبحت الآن منحرفاً وخائناً؟ أنا حاضر للحساب أمام الأمة العربية، ولكني أرفض بكل شمم وإباء هذا الكلام الخائر. وقد آن لي أن أتكلم من غير تواضع. لقد بنيت المنظمة من العدم، وأنشأت الجيش من الصفر، وأبرزت الشخصيّة الفلسطينية من بين الأنقاض. وكُلّ ذنبي أني أخذت سلاحاً من الصين، وأرسلت ضباطنا ليتدربوا على حرب التحرير في الصين. ومن كان قادراً على أن يأتينا بسلاح من واشنطن فليتفضل، ومن كان قادراً على أن يدرب شبابنا في لندن فليتفضل، وإني أناشد الملك فيصل أن يكون عوناً لنا على لندن وواشنطن. لست شيوعياً ولا أريد أن أكون. أنا فلسطيني عربي مسلم نذرت كُلّ عُمري من أجل فلسطين. يقولون إن الشقيري عميل لعبد الناصر، وأنا أرفض هذا القول. أنا زميل لعبد الناصر، ورفيق درب وسلاح، نحن لا شأن لنا بالخلافات العربية ما دامت لا تمسّ قضيتنا. ولم يقع خلاف بيننا وبين ليبيا الدولة الملكية الرأسمالية لأنها لم تتعرض لقضيتنا بسوء. ولكننا اختلفنا مع جارتها تونس الدولة الجمهورية الاشتراكية لأن الرئيس بورقيبة تعرّض لقضيتنا بسوء. إنه دعا للصلح مع إسرائيل. وكذلك الملك حسين لم نتعرض له إلا حين هاجم المنظمة ورماها بالشيوعية، وأعلن أن المهمة الرئيسيّة للجيش الأردني هي مقاومة الشيوعية، وأن الشيوعية أخطر من الصهيونية. هذا هو موقفنا بإيجاز. ونحن هنا معكم لا صدقة ولا منة، نمثل شعبنا كما تمثلون شعوبكم. ولا أريد أن أطيل لأترك المجال لغيري أن يتكلم ما يشاء».

محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة: «إن البيان الذي أدلى به مندوب الأردن خطير، ولا يمكن أن نفض هذه الجلسة قبل أن يتخذ المجلس قراراً بشأنه. إن بيان المندوب الأردني يحمل الكثير من الشتائم والمفتريات ليس فقط ضدّ رئيس المنظمة، بل ضدّ هذا المجلس، لأننا في هذا المجلس لا يمكن أن نقبل افتراءات وادعاءات وشتائم توجه إلى رئيس المنظمة، إن من يتهم رئيس المنظمة بالخيانة هو الخائن في الواقع، فنحن نجلّ رئيس المنظمة ونعرف قدره، ونعرف مواقفه الوطنية، في كافة الميادين والمنظمات الدولية التي دافع فيها ليس عن قضية فلسطين فقط، بل عن جميع القضايا العربية، فمنذ أن أنشئت الأمم المتحدة كان يدافع دفاع المستميت، وكسب الأعداء من كافة الدول الاستعمارية الذين كانوا على الدوام يناهضونه ويقاومونه، وهم يعلمون مدى صلابته في الحقّ ومدى قدرته وكفاءته للصمود أمام الاستعمار وعملاء الاستعمار وألاعيب الاستعمار، فكان دائماً شوكة

في حلق الاستعمار وفي حلق مندوبي الدول الاستعمارية في الأمم المتحدة، وكلنا استمعنا إليه بتقدير وإعجاب، ونعلم الجهد الذي يقوم به والذي نقدر أنّه سيقوم به على الدوام في المستقبل، ليس فقط من أجل القضية الفلسطينية، بل من أجل كافة قضايا الحرية.

«ولذا، فإننا نرفض تماماً أن نسمع هذا الكلام من ممثل الخيانة. فقد سجل التاريخ على هذه الأسرة التي تحكم في الأردن، سجل التاريخ عليها الخيانة فعلاً، والخيانة مستمرة متوارثة، لأنه لا يمكن إصلاح الخائن وأن يعود إلى وطنه وقومه وشعبه، لذلك أعتقد أن خروج مندوب الأردن لا يسيئنا إطلاقاً، بل هذا يسهّل عملنا، فلم تعد هناك أية فائدة عندما نناقش القضية الفلسطينية من أن يستمرّ أو نتعاون مع أي خائن للقضية الفلسطينية. وأعتقد أنّه لا يمكننا في هذه اللحظة أن ننتهي قبل أن نتخذ قراراً، وإني أعرض على المجلس الموقّر قراراً محدّداً نصه ما يلي: يقرر مجلس الجامعة العربية، بعد أن استمع إلى البيان الذي ألقاه مندوب المملكة الأردنية الهاشمية والذي هاجم فيه رئيس منظمة تحرير فلسطين، رفض كُلّ ما جاء في هذا البيان من ادعاءات وافتراءات، ولذا يقرر المجلس أن يعبّر عن تقديره واحترامه وثقته الكاملة في رئيس منظمة تحرير فلسطين».

الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية الكويت: «أؤيد الزميل الأخ السيد محمود رياض في اقتراحه الذي أتى به الآن، وأود أن أسجل تقديري واحترامي للزميل الكريم رئيس المنظمة واحترام حكومتي له. وكنت طلبت هذا المساء من السيد أحمد الشقيري أن يكون موضوعياً حباً في جمع الكلمة، وكُلّ ما طلبته منه قد استجاب له، ولذلك فإني شاكر له ومقدر، ونؤيد اقتراح السيد وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة».

عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر: «أؤيد الزميل الأخ رئيس المنظمة. أرى من الواجب المقدس على وفدي أن نشكره على ما قام به شخصياً من تضحيات ومجهودات لا تعرف التواني، ولا تعرف أي تردّد في خدمة القضية الجزائرية على الخصوص والقضية العربية على العموم، وهو إذ يعتبر في بعض الدول الشقيقة خائناً للقضية العربية، فإننا نعتبره في الجزائر لا رئيساً ولكن مجاهداً مكرّماً كريماً في سبيل القضية العربية، ومجاهداً كسائر المجاهدين الجزائريين الذين ناضلوا في صفوف جيش التحرير أو في السجون أو في المنظمات التي كانت تقاوم الاستعمار حينذاك أيام الاحتلال الفرنسي في الجزائر. فإن الأستاذ الشقيري أدّى واجبه المقدس في ميادين الكفاح وخدم القضية الجزائرية، وقام في وجه الاستعمار الأجنبي أينما كان، وعلى أي شبر وعلى أي رقعة من البلاد العربية. إن تضامننا مع القضية الفلسطينية يعدّ قسطاً ضئيلاً للدين الذي علينا من الكثيرين من أبناء فلسطين وعلى رأسهم رئيس منظمة

التحرير الفلسطينية. ثُمّ إنه من حقنا أن نسأل هل تغيّر الشقيري الذي عرفناه منذُ سنوات بين عشية وضحاها وأصبح المنحرف الخائن؟ وإذا كان الشقيري قد خان القضية، فأعتقد أنكم من دون استثناء شاركتموه في الخيانة. وبعد أن قال الأردن رأيه في ما يتعلق بالشقيري، فإن عهدنا في الشقيري الوفاء، وعهدنا فيه التشبث بالقضية العربية».

حمد عوض الله وزير خارجية السودان بالإنابة: «إني متفق مع السيد وزير الخارجية الجزائري في كُلّ الحديث الذي جاء به مختصاً بالسيد الشقيري ونضاله وبتاريخه وبمواقفه العديدة الرائعة، فقد وهب نفسه للقضية الفلسطينية، وهو يعتبر بحقّ أبا القضية الفلسطينية. لقد التقيت بالسيد الشقيري منذُ أكثر من عشر سنوات في نيسان/ أبريل ١٩٥٥ في مؤتمر باندونغ في إندونيسيا حيثُ لم يكن رئيساً للمنظمة، واستطاع بقوته وإيمانه بالقضية الفلسطينية أن يشقّ طريق تلك القضية في ذلك المؤتمر الكبير، واستطاع أن يكسب تأييد ذلك المؤتمر للقضية، وما زلت أذكر ذلك الحديث الوطني الرائع الذي تحدث به والذي ما زالت أصداؤه ترنّ في أذني حتّى هذه اللحظة. ونأتي بعد أكثر من عشر سنين لنلتقي بالسيد الشقيري في هذه القاعة، فإذا بالرجل هو نفس الرجل، وإذا بالإيمان هو نفس الإيمان، وإذا بالثقة في الشعب الفلسطيني وفي القضية الفلسطينية لم تتغيّر ولم تتبدل، فهنيئاً للشعب الفلسطيني المناضل أن يوجد فيه هذا الرجل. إني قد تحدثت معه قبل هذه الجلسة، جلسة السيد الشقيري، وأريد أن أسميها بهذا، لأنها قد كشفت عن الكثير من قيمة وقدر هذا الرجل، وتوجهت إليه بالدعوة لزيارة السودان لأن الشعب السوداني يعرف السيد الشقيري ليس عن طريقي، ولكن عن طريق القضية الفلسطينية، وعن طريق الدور المهم الذي قدمه لها. ولذلك أقول باسم السودان إننا نثق كُلّ الثقة في رئيس المنظمة، ونقول له إلى الأمام، فالمجاهدون الصادقون دائماً هم عرضة للنقد والتجريح، ونحن نؤيد الاقتراح الذي تقدم به وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة».

الدكتور عبد الحسن زلزلة رئيس الوفد العراقي: «أؤيد كُلّ ما قاله إخواني الذين سبقوني في الكلام، ويؤسفني أن أرى أن أروقة الجامعة وسجلاتها لم تشهد مثل هذه التمزقات والمغالطات التي شحن بها خطاب مندوب الأردن. إن ذلك الخطاب أهان الأمة العربية والشعب الفلسطيني الذي اختار السيد الشقيري معبراً عن إرادته وممثلاً له، وأظنكم تشاركوني جميعاً الاستنكار الشديد للتجريح والاتهام الباطل الذي كاله الخطاب للسيد رئيس المنظمة، وهو الشخصيّة العربية المناضلة التي ناضلت بكل صدق وإخلاص وصلابة في سبيل قضايانا العربية ومقاومته الاستعمار، وأرى أن

يصدر المجلس فوراً قراراً يوضح ثقته الكاملة برئيس المنظمة وإكباره لجهوده وتضحياته، مع ضرورة شجب بيان الأردن واستنكار تهجماته حرصاً على كرامة المجلس والمنظمة».

الدكتور إبراهيم ماخوس وزير الخارجية السورية: «بعد أن استمعنا إلى البيان الذي أدلى به مندوب المملكة الأردنية والموقف الذي اتخذه بتعليمات من سيده، متضمناً افتراءات وازدراء حقيقياً بشعبنا، ما يعطي صورة حقيقية عن تلك الحكومة، وقد أغنانا السيد رئيس المنظمة في بيانه القيم عن طرح المواقف المخزية التي وقفها الأردن؛ كُلّ هذه الإهانات التي وردت في البيان الأردني والتي وجهت إلى السيد رئيس المنظمة، لا نقبل بها بأي شكل من الأشكال. إن أضعف الإيمان أن نتخذ قراراً حاسماً إزاء موقف الحكومة الأردنية، ذلك الموقف الخائب الخائن، وإني مع تأييدي الكامل لمشروع القرار الذي اقترحه وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة أرى أنّه يجب علينا إدانة حكومة الأردن بإضافة عبارة مناسبة تحمل معنى الإدانة».

محمّد عبد العزيز سلام وزير الخارجية اليمنية: «لقد استمعنا بكل اعتزاز وإكبار للسيد أحمد الشقيري، وأقول إن الكلام الذي قاله مندوب الأردن كان متوقعاً، وأقول: «إذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل». فهذه تزكية كبيرة للسيد أحمد الشقيري الذي كافح من أجل القضية الفلسطينية، ومن أجل اليمن، ومن أجل الجنوب اليمني المحتل، ومن أجل الجزائر، ومن أجل المغرب، ومن أجل ليبيا، ومن أجل العالم العربي بأكمله من المحيط إلى الخليج، وإني أؤيد مشروع القرار الذي تقدم به وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة بإدانة الخونة في الأردن».

الدكتور جورج حكيم وزير خارجية لبنان: «أؤيد الزملاء الذين تقدموني بما أبدوه من تقدير لرئيس المنظمة. إن الوفد اللبناني يأسف شديد الأسف لما سمعناه في البيان الأردني الذي هاجم الأخ الشقيري. وبهذه المناسبة أؤكد بأن رئيس المنظمة يحظى بكامل ثقتنا، وأننا نكنّ له كُلّ الاحترام، ونؤيد الاقتراح من وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة».

محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة: «كلمة إيضاح سيدي الرئيس للأخ وفد المغرب الذي حضر الآن، فقد كان في اجتماع مع الرئيس عبد الناصر. لقد اتهم مندوب الأردن الأخ الشقيري بأنه خائن، اتهمه بأنه يبيح الأسرار العسكرية الخاصة بمجلس الدفاع. فلا يمكن أن نذهب إلى منازلنا هذه الليلة قبل أن

نجلي هذه النقطة، فيجب أن نبرئ الشقيري ونبرئ أنفسنا قبل الشقيري من الخيانة، ويجب علينا أن نقرر حذف البيان الأردني من مضبطة الجلسة، ونظهر تقديرنا وثقتنا في رئيس المنظمة».

الدكتور أحمد البشتي وزير الخارجية الليبية: «أعلن باسم الوفد الليبي أننا نؤيد تأييداً كاملاً شاملاً منظمة التحرير ورئيسها الأستاذ أحمد الشقيري وننزهه ونرتفع به عما ورد في كلمة الوفد الأردني، وكلنا لا يشكّ ولا ينكر نضال المنظمة ورئيسها الكريم، ونحن نعرب عن الأسف الشديد لما ورد في كلمة مندوب الأردن، ونؤيد مشروع القرار المقدم من وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة».

وانتهت كلمات رؤساء الوفود، وطرح للتصويت مشروع القرار الذي تقدم به وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة، فتمت الموافقة عليه بالإجماع، وامتنع عن التصويت وفد المملكة العربية السعودية من غير إيضاح. وهذه مرة أخرى خرج فيها الوفد السعودي على الإجماع.

وخرجنا من قاعة الاجتماع بعد منتصف الليل بقليل، والصحافيون ينتظرون في معابر الجامعة ليستمعوا إلى ما قرره المجلس بشأن الأردن.

وسألوا: هل قررتم طرد الأردن من الجامعة؟

فقال لهم د. إبراهيم ماخوس الوزير السوري: «سنتقدم بهذا الاقتراح في الدورة المقبلة».

وتلا عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية القرار الذي اتخذه المجلس، وترجمه إلى اللغة الإنكليزية إلى مندوبي الصحف الأجنبية.

وكان أطرف تعليق صدر من مندوبي الصحافة الأجنبية ما قاله مراسل **النيويورك تايمس** من أن «بورقيبة وفيصل والحسين قد تعاونوا على خلع الشقيري من رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية، تعاونوا على هذا الهدف، ولكنهم لم يستطيعوا».

حقاً إنهم لم يستطيعوا في مطلع عام ١٩٦٧، ولكنهم استطاعوا بعد أشهر معدودات، في أخريات العام نفسه.

لقد استطاعوا خلع الشقيري بعد الهزيمة، بعد حرب حزيران/ يونيو، وفي ظروف عربية ودولية سأشرحها في حينها مع ذكرياتي عن الهزيمة النكراء. ولا أريد أن أعتذر عن اقتباسي كلمات رؤساء الوفود العربية، فقد أوردتها لا لما حوته من الثناء، ما لهذا قصدت.

لقد كان قصدي من كتابة هذا الفصل كُلّه أن أضرب مثلاً واحداً حياً كما وقع لما تعانيه القضية الفلسطينية من بلاء وعناء، وأردت أن يكون ذلك المثل هو رئيس منظمة التحرير، بلحمه ودمه، وأيامه وأعوامه. ﴿**ضرب لكم مثلاً من أنفسكم**﴾[٤] صدق الله العظيم.

(٤) المصدر نفسه، «سورة الروم،» الآية ٢٨.

مع إمام اليمن أحمد حميد الدين في صنعاء

مع ملك المغرب الراحل محمد الخامس

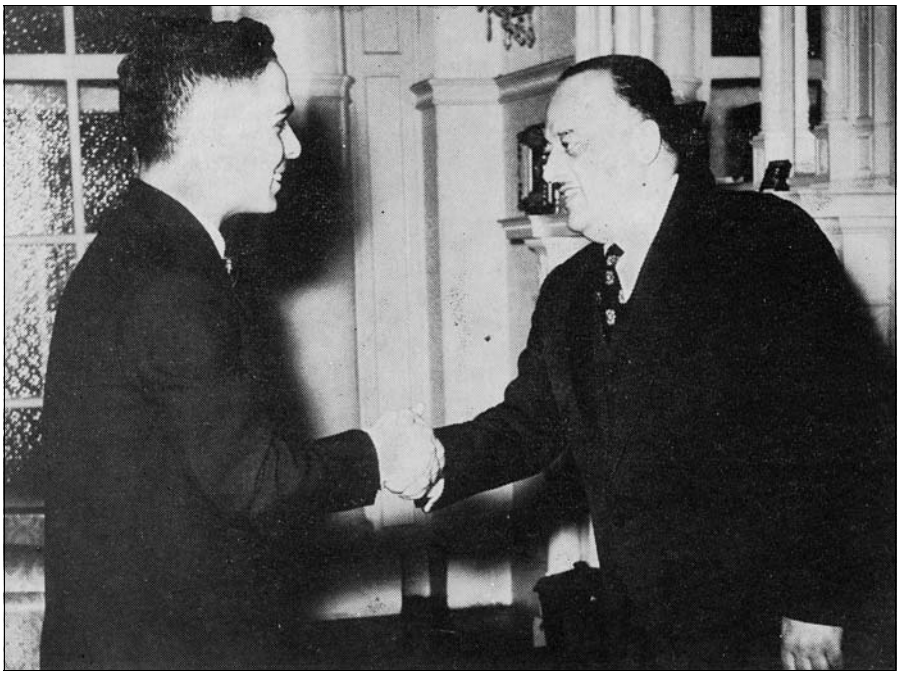

مع الملك حسين في قصر رغدن

مع الملك فيصل في الأمم المتحدة

مع خروشوف في باحة بيته

في الأمم المتحدة ويبدو موشى شاريت وزير خارجية العدو في الخمسينيات

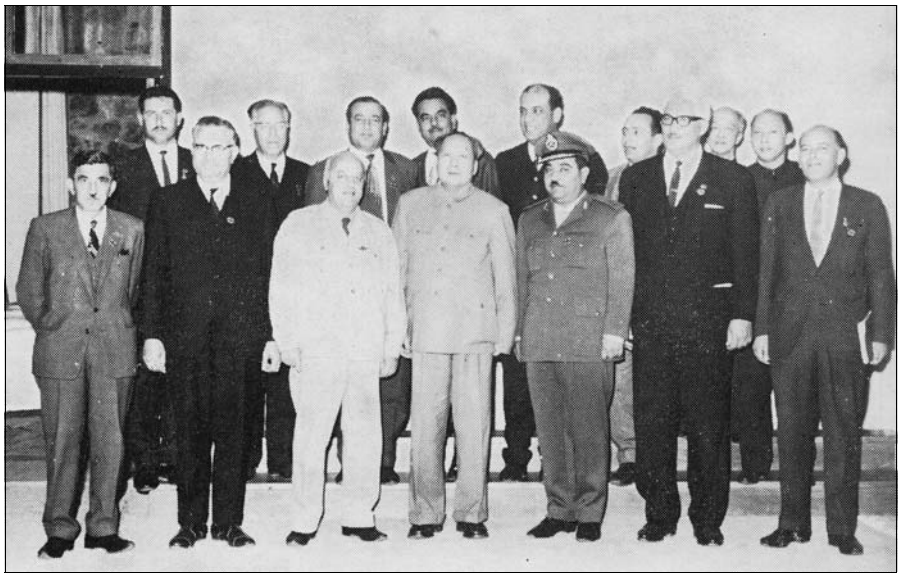

في الصين الشعبية مع الرئيس ماوتسي تونغ، ويبدو
بعض أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية

في الصين الشعبية مع الرئيس الصيني شو إن لاي ويبدو في الوسط قائد جيش التحرير السابق اللواء وجيه المدني، وأعضاء من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير

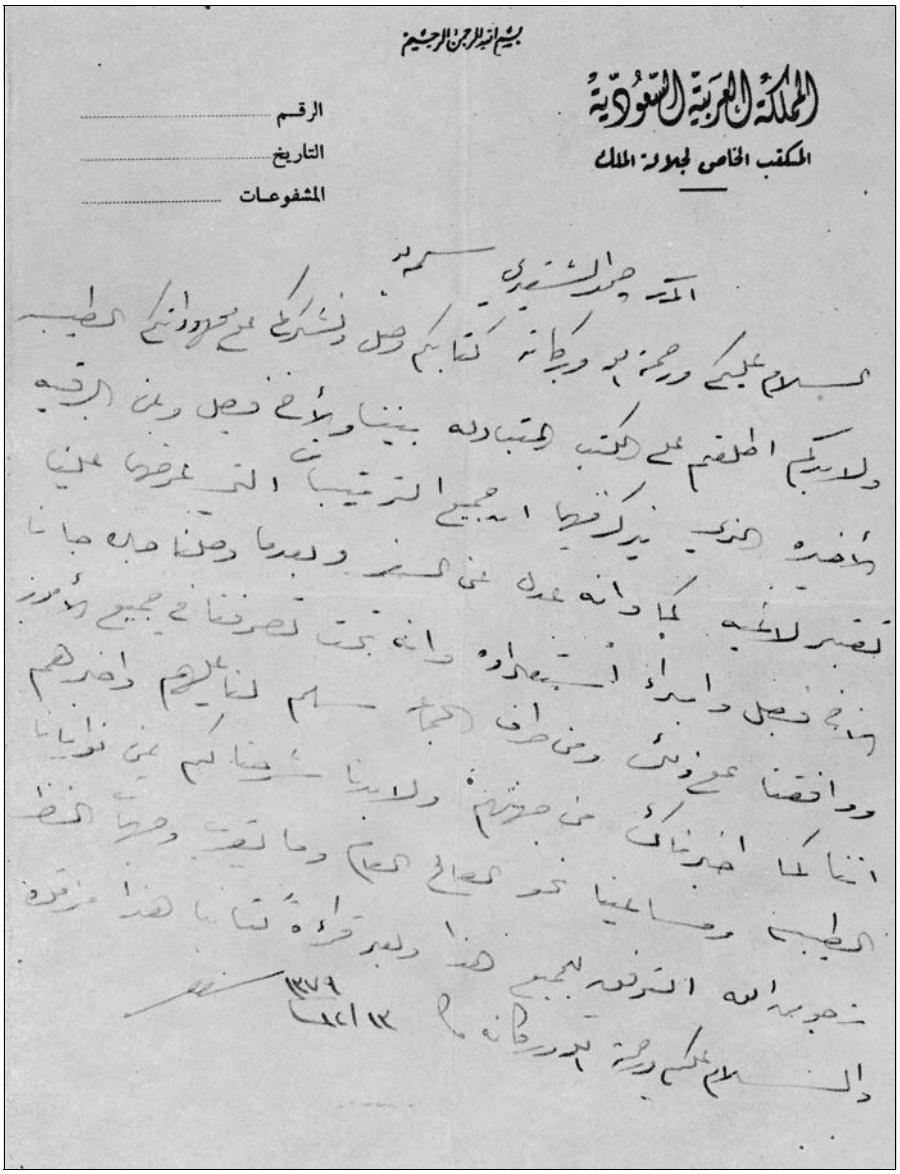
بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

المكتب الخاص لجلالة الملك

الرقم .....

التاريخ .....

المشفوعات .....

رسالة سرية من الملك سعود وفيها إشارة إلى اتلاف الرسالة بعد قراءتها، والمقصود بالجماعة في الرسالة هو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

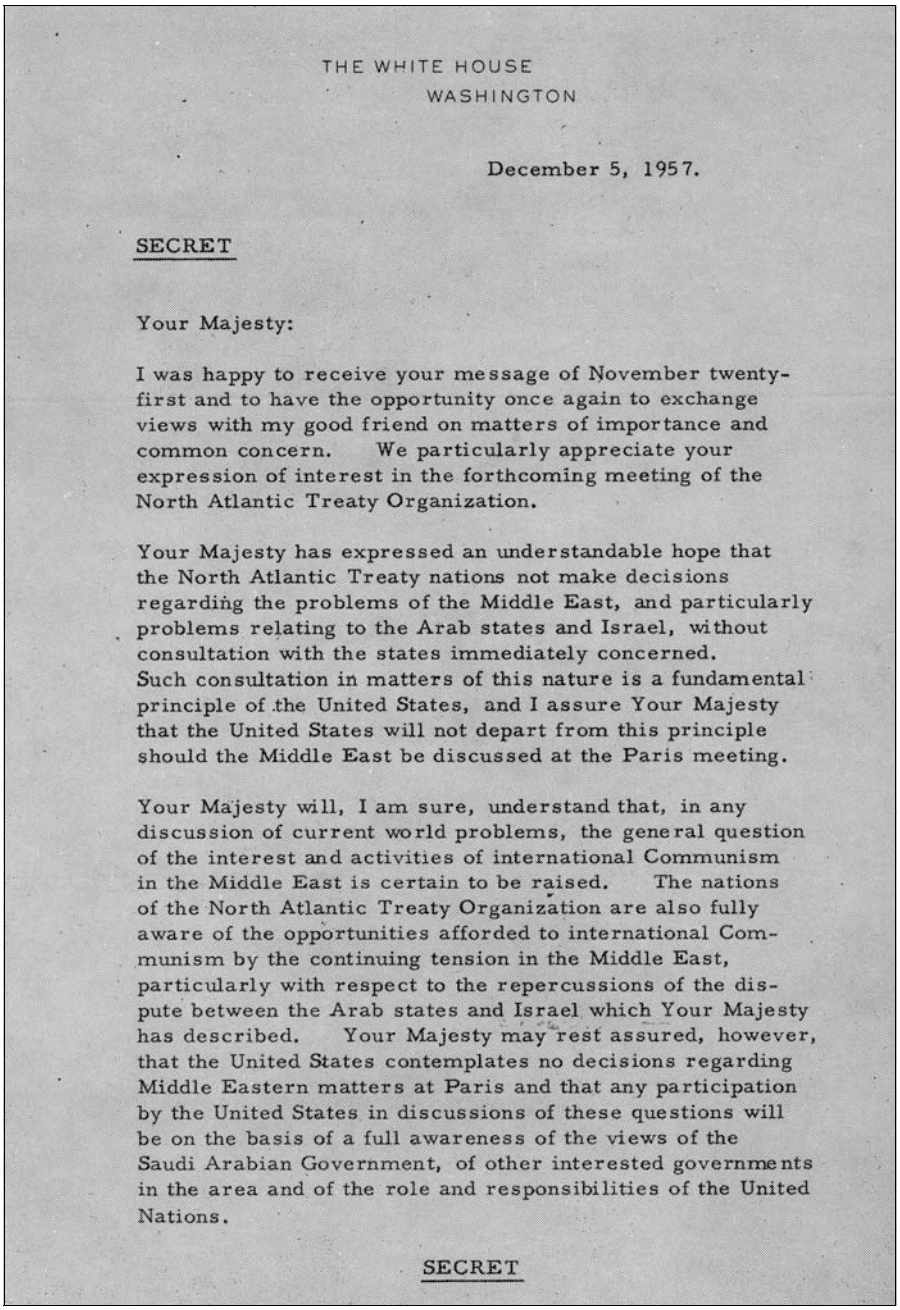

THE WHITE HOUSE
WASHINGTON

December 5, 1957.

SECRET

Your Majesty:

I was happy to receive your message of November twenty-first and to have the opportunity once again to exchange views with my good friend on matters of importance and common concern. We particularly appreciate your expression of interest in the forthcoming meeting of the North Atlantic Treaty Organization.

Your Majesty has expressed an understandable hope that the North Atlantic Treaty nations not make decisions regarding the problems of the Middle East, and particularly problems relating to the Arab states and Israel, without consultation with the states immediately concerned. Such consultation in matters of this nature is a fundamental principle of the United States, and I assure Your Majesty that the United States will not depart from this principle should the Middle East be discussed at the Paris meeting.

Your Majesty will, I am sure, understand that, in any discussion of current world problems, the general question of the interest and activities of international Communism in the Middle East is certain to be raised. The nations of the North Atlantic Treaty Organization are also fully aware of the opportunities afforded to international Communism by the continuing tension in the Middle East, particularly with respect to the repercussions of the dispute between the Arab states and Israel which Your Majesty has described. Your Majesty may rest assured, however, that the United States contemplates no decisions regarding Middle Eastern matters at Paris and that any participation by the United States in discussions of these questions will be on the basis of a full awareness of the views of the Saudi Arabian Government, of other interested governments in the area and of the role and responsibilities of the United Nations.

SECRET

نص رسالة سرية من الرئيس الأمريكي الراحل أيزنهاور إلى الملك سعود

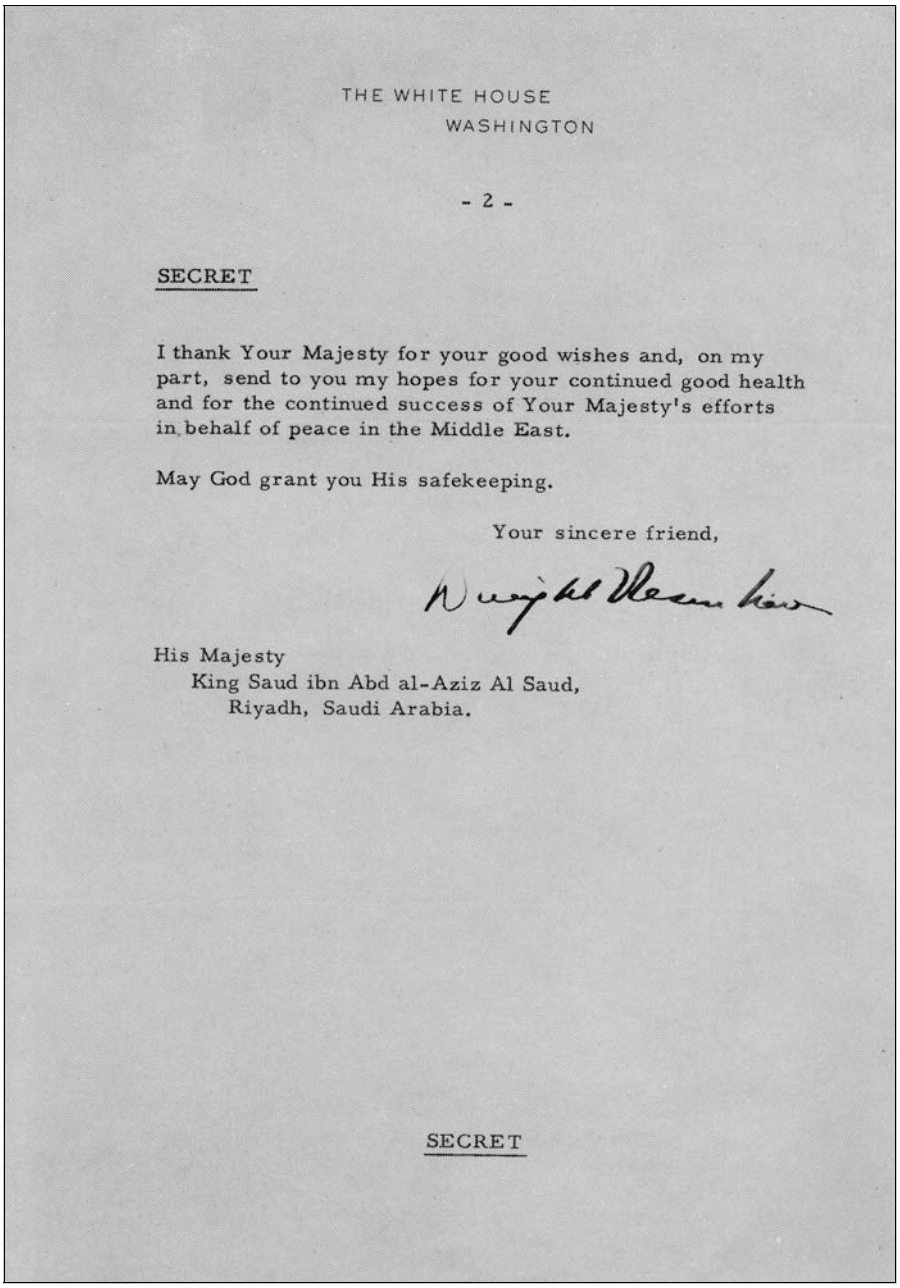

THE WHITE HOUSE
WASHINGTON

- 2 -

SECRET

I thank Your Majesty for your good wishes and, on my part, send to you my hopes for your continued good health and for the continued success of Your Majesty's efforts in behalf of peace in the Middle East.

May God grant you His safekeeping.

Your sincere friend,

Dwight D. Eisenhower

His Majesty
King Saud ibn Abd al-Aziz Al Saud,
Riyadh, Saudi Arabia.

SECRET

توقيع الرئيس الأمريكي أيزنهاور على الرسالة السرية

الهزيمة الكبرى

مع الملوك والرؤساء

من بيت عبد الناصر إلى غرفة العمليات

الجزء الأول

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

الهزيمة الكبرى
مع الملوك والرؤساء
من بيت عبد الناصر إلى غرفة العمليات
الجزء الأول

أحمد الشقيري

٦ / ١٤٩١

(*) صدر هذا الكتاب في بيروت: دار العودة، ١٩٧٣.

المحتويـــــات(*)

نجدة من فوهات الإذاعة . . لا من فوهات المدافع ٧

سوريا ترفض قاعدة جوية مصرية ٢٣

الخطوة الأولى على طريق الحرب ٣٧

الخطوة الثانية على طريق الحرب ٥١

حديث الحرب مع يوثانت ٦٩

وجهاً لوجه أمام الحرب: عبد الناصر . . الشرق . . الغرب ٨٥

أنا خائف من شهر حزيران/ يونيو ١٠٥

عبد الناصر وحسين ١١٩

لن تسقط القدس قبل أن تسقط رؤوسنا ١٣٥

ليلة الخامس من حزيران/ يونيو ١٤٩

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

الخامس من حزيران/ يونيو . . بين النصر والهزيمة ١٦١
الملوك والرؤساء ليتهم سقطوا ١٧٩
عبد الناصر . . عبد الناصر ١٩٩
الملك فيصل لم يسقط شهيداً في بيت المقدس ٢١٥

نجدة من فوهات الإذاعة.. لا من فوهات المدافع

أقبلت رياح الخماسين مبكرة هذا العام، وما زلنا في أوائل نيسان/ أبريل، وهبّت على القاهرة ريح صرصر عاتية، ولفّها رداء من الغبار جاء يجر ذيوله من الصحراء، فاحتجبت الرؤية وبدت المدينة الزاهية الزاهرة شاحبة كئيبة.

وتطيّرت من عواء الهواء يتناوح من حولنا، ووقع في نفسي ما يقع في نفوس الكلاب حين تعوي، وفي الخيل حين تصهل، وفي القطط حين تموء، قبل الزلازل والأعاصير. ودعوت الله ألا يجعل هذا الشهر، ولا هذا العام، مؤذناً بالكارثة، كبيرة كانت أو صغيرة.

وراودتني نفسي أن اعتكف في البيت هذا اليوم، فأنا لم أجلس إلى كتبي منذ زمن طويل، حتى لقد خشيت أن أصبح أميّاً، إذا طال مقامي في منظمة التحرير الفلسطينية، بعيداً عن أساتذتي الأجلاء من أصحاب المؤلفات الرائعة في التاريخ والفلسفة والأدب، والتراجم، والسير، وفي المقام الأسنى، سيرة صلاح الدين الأيوبي التي قرأتها مائة مرة ومرة، وما ارتويت.

ولكن رياح الخماسين قد أخذت تقرع الأبواب والنوافذ، ولم يعد ميسوراً أن اقرأ بفؤادي كما يطيب لي، وأنا قارئ صوفي، أحب أن أفنى في الكتاب، كما يفنى العابد الزاهد في ذات الله، إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ورجّحت في النهاية أن اذهب إلى مكتبي في حي «الدقي» في القاهرة، وهو غير بعيد عن بيتي، فلعلي أستطيع عملاً يواسيني، أو أقرأ خبراً يعزّيني.

وما إن دخلت مكتبي حتى جاءني مدير إذاعة المنظمة وهو يقول:

«هل سمعت إذاعة دمشق في هذا الصباح؟».

قلت: «لم أفتح الإذاعة بعد».

قال: «عدوان إسرائيلي على سوريا.. ويظهر أنه كبير وخطير».

وملت إلى جهاز الراديو الرابض أبداً ودائماً إلى جوار طاولتي، وأدرت المفتاح على إذاعة دمشق، وإذا بالأناشيد العسكرية والأغاني الحماسية تلعلع.. ثم تتعاقب عليها بلاغات الناطق الرسمي باسم الجيش السوري، موجزة، صارمة، جادة.. تماماً كما لو كنا في الميدان، لا يتسع الوقت لكلمة زائدة، ولا يحتمل كلمة ناقصة.

وبقيت اليوم كله، ٧ نيسان/ أبريل ١٩٦٧، في مكتبي، أصرّف بعض أمور المنظمة، وأستقبل بعض السفراء العرب وبعض الصحافيين الأجانب، ثم أتناوب على جهاز التلفون مرة، وعلى الإذاعات العربية مرة أخرى، أتابع أخبار العدوان الإسرائيلي على سوريا.

كان ذلك هو يومي كله إلى ساعة متأخرة من الليل، أنتقل من إذاعة دمشق إلى إذاعة إسرائيل، أتعقب أخبار المعركة، ولولا أن السعاة في مكتبي قد تفقّدوني ببعض الطعام والفاكهة في الغداء والعشاء، لحسبت نفسي في «غرفة العلميات» أعيش مع المعركة ساعة بساعة!!

وكانت حصيلة الإذاعات والأخبار لذلك اليوم أن إسرائيل قد دفعت بالجرارات الزراعية إلى المنطقة المجردة شرقي بحيرة طبريا، تمهيداً لاحتلالها، فتعرضت لها المراكز السورية بالنار، فتدخلت الدبابات والمدفعية الإسرائيلية، وبدأت المعركة بين القوات الإسرائيلية والسورية، وما إن حمى وطيس المعركة بين الجانبين حتى تدخّل سلاح الجو الإسرائيلي بأسراب متوالية، وقصف المواقع السورية، واشتبك معه سلاح الجو السوري في أجواء دمشق، وتوقف إطلاق النار في ساعة متأخرة من المساء.

تلك هي معركة السابع من نيسان/ أبريل في كلمات قليلات.

ولكن هذه المعركة كانت أكبر من هذه الكلمات.. كانت هذه المعركة أكبر المعارك التي شهدتها خطوط الهدنة العربية ـ الإسرائيلية من الناقورة شمالاً حتى شرم الشيخ جنوباً إلا.. إلا معركة ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثي على مصر.

وبدأت تتجمع أمامي التقارير.

وصلني تقرير من مكتب المنظمة في دمشق.. وتقرير ثان من قيادة جيش التحرير الفلسطيني في سوريا، ثم بدأت تنهمر تعليقات الصحافة الأجنبية ووكالات الأنباء العالمية، وقارنت كل هذا بالتقارير التي كانت تصلني من القيادة العربية الموحدة.. واستقر في ذهني أن هذه المعركة لم تكن مثل المئات من سابقاتها التي وقعت بين سوريا وإسرائيل على مدى عشرين عاماً، منذ أن وقّعت اتفاقية الهدنة بينهما في عام ١٩٤٩.

كانت هذه المعركة أشد ضراوة من كل ما وقع حتى الآن. . كانت معركة برية وجوية، اشتركت فيها الدبابات والمصفحات والطائرات يوماً بكامله، من الصباح حتى المساء. . وكان الطيران الإسرائيلي ينطلق في موجات وطلعات متعاقبة، كأنما يمهّد لعملية احتلالية.

وازدادت الصورة وضوحاً في ذهني، حينما بعث إلي مكتب المنظمة في نيويورك صورة عن المذكرة التي قدمها د. جورج طعمة مندوب سوريا في الأمم المتحدة إلى مجلس الأمن يقول فيها: «إن إسرائيل أرسلت ٧٢ طائرة نفاثة لقصف ثماني قرى سورية وقذفت بألف قنبلة مدمرة ومحرقة، مما أدى إلى قتل العجزة والأطفال من دون تمييز. . وإن القاذفات الإسرائيلية استخدمت قنابل زنة كل منها نصف طن، كما استخدمت قنابل النابالم ضد المدنيين، وهي بذلك ارتكبت جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. . وإن هدف إسرائيل توسيع الصدام واستفزاز سوريا ودفعها إلى خوض معركة شاملة، وذلك لإيقاع المزيد من الدمار والكوارث بسوريا خاصة، والشعب العربي عامة» (١٠ نيسان/ أبريل ١٩٦٧).

«اثنتان وسبعون نفاثة إسرائيلية تقصف ثماني قرى سورية». . ذهلت وأنا اقرأ مذكرة المندوب السوري، والمواطن العربي في الوطن العربي بأسره لا تزوّده أجهزة الإعلام الرسمية بالحقائق أو ببعض الحقائق، وحكام العرب يحسبون أنهم بهذه «السياسة» الإعلامية يحمون الروح العربية المعنوية من الوهن، وقد فاتهم أن الترانزيستور الصغير يفضحهم صباحاً وعشية، حينما يستمع العامل والفلاح والطالب والمرأة إلى إذاعات إسرائيل وصوت أمريكا وصوت بريطانيا، وهي تنقل صورة تفصيلية تناقض الإذاعات العربية. . جملة وتفصيلاً!!

وفي زيارة إلى السفارة السورية في القاهرة لأستزيد من أخبار المعركة الرهيبة، قلت للسفير:

«هل عندكم من جديد بشأن العدوان الإسرائيلي الأخير؟».

قال: «الحمد لله، كن مطمئنا. . لقد دمرنا عدداً من المستعمرات الإسرائيلية وأسقطنا للعدو ست طائرات. . وكانت خسائرنا بسيطة».

قلت: «لقد استمعت إلى البلاغات العسكرية الخمسة التي أعلنها الناطق الرسمي في دمشق في يوم المعركة. . يظهر أن الطيران الإسرائيلي قام بغارات متتالية على القرى والمواقع السورية».

قال: «لقد تلقيت اليوم تقريراً مفصلاً عن المعركة. . والطيران الإسرائيلي لم يجرؤ على الدخول في المعركة بصورة جدية».

قلت: «ولكن اشتراك ٧٢ طائرة إسرائيلية يدلّ على أن المعركة كانت حامية الوطيس».

قال: «هذه أخبار العدو.. لم تشترك أكثر من تسع طائرات، أسقطنا منها ستة، وهربت الثلاث الأخرى».

قلت: «إن موضوع ٧٢ طائرة ليس من أخبار العدو.. إن إسرائيل لم تذكر في بلاغاتها العسكرية عدد الطائرات.. إن هذا العدد هو ما قالته سوريا».

قال: «أبداً ليس هذا صحيحاً.. وهذا هو التقرير أمامي.. ليس فيه شيء من ذلك».

قلت: «أنا لا اعلم ماذا عندك في التقرير..إن د. طعمة ممثل سوريا في الأمم المتحدة قدم مذكرة إلى مجلس الأمن يذكر فيها أن ٧٢ طائرة إسرائيلية قصفت القرى السورية.. وقد وزعت هذه المذكرة على الدول الأعضاء وأصبحت وثيقة رسمية من وثائق الأمم المتحدة».

قال: «أنا لا أعلم شيئاً من هذا.. ذلك أمر غريب».

قلت: «أرجو أن تبرق إلى دمشق لتكشف للرأي العام العربي بعض حقائق هذه المعركة.. إن ذلك يقوّي الروح المعنوية لا يضعفها.. ولا يصح أن تعرف الدنيا بأسرها أن الطائرات الإسرائيلية المغيرة كانت ٧٢.. ولا يعلم المواطن العربي شيئاً من ذلك».

وقد استجاب السفير السوري لاقتراحي، وأرسل برقية بذلك إلى دمشق ونحن ما زلنا في مجلسنا في السفارة.

وبتّ أراقب ما ستفعله دمشق لتنوير الرأي العام العربي، وكيف ستتصرف بشأن برقية السفير السوري.. وجاءتني قصاصات الصحف السورية ونشرات الإذاعات، فماذا قرأت؟ وماذا سمعت؟؟

سمعت خطاب الرئيس السوري د. نور الدين الأتاسي وهو يعلن: «لقد حاول الصهيونيون أن يعتدوا على حدودنا، وحاولت طائراتهم أن تمزّق حرمة سمائنا، ولكن جيشنا العقائدي البطل ردّ الرد الطبيعي والحاسم، وإن نيراننا لن تخمد حتى نردّ الصاع صاعين وأكثر.. ولن نشتكي بعد الآن، بل سنرد على العدوان بتدمير قواعد العدوان في قلب الأرض المحتلة، وإن سوريا ماضية في طريقها لتحرير فلسطين، وإن الجيش الشعبي السوري يقف بالمرصاد لكل التحركات الرجعية المشبوهة في المنطقة».. ودار خطاب الرئيس السوري حول هذه المعاني، وهي

ضرورية من غير شك، ولكنه لم يطرح أمام المواطن العربي حقائق المعركة، وهذه بذاتها كافية لأن تجعل منه مواطناً واعياً، لا مواطناً متحمساً فحسب.

وبعد خطاب د. نور الدين الأتاسي عقد وزير الإعلام السوري محمد الزعبي مؤتمراً صحافياً تحدث فيه عن الاشتباكات السورية ـ الإسرائيلية، فوجدته ينهج نهج رئيسه في الكلام الحماسي، وهو يقول: «إن الهدوء لن يعود إلى مناطق الهدنة طالما هناك احتلال صهيوني لفلسطين، وإن المعركة التي جرت ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، بل ستليها معارك أشد وأقسى إلى أن يتم تحرير فلسطين وإنهاء الوجود الصهيوني.. وإن خلق أوضاع تقدمية وثورية في الأقطار العربية المجاورة لإسرائيل شرط أولي لتحرير الأرض المحتلة، وإن المعركة أثبتت تفوّق سوريا، وأنها حطمت أسطورة التفوق الجوي الإسرائيلي». ولم أجد في هذا الكلام ما يشفي غليلي، فما زال الكلام السوري يدور في فلك ديوان الحماسة للبحتري الذي أنشئ في القرون الوسطى!!

وأرسلت إليّ السفارة السورية جريدة **البعث** تتضمن مقالة عن المعركة، فوجدت فيها بعض ضالتي، فقد تحدثت ولأول مرة عن «مئة هجمة أو موجة من الطيران الإسرائيلي استطاعت سوريا أن تصدها دون ما حاجة إلى طلب تدخل القيادة العربية الموحدة أو مجلس الدفاع المشترك».. وبادرت إلى التلفون، وقلت للسفير السوري: «إن الحقائق وحدها، ولو كانت موجعة، هي التي تشحذ عزيمة المواطن العربي، أرجو أن تواصلوا مكاشفة الرأي العام العربي بحقائق هذه المعركة.. و.. و...».

ولكن سوريا لم تكن وحدها في هذا التخلف الإعلامي، فقد قامت الدول العربية بممارسة هواياتها المعروفة في ميدان الإعلام الرخيص، فراحت تصدر التصريحات الصحافية بالعشرات، في ما ينطبق عليه قول القائل:

كلامك يا هذا كأكلي بندقاً خلياً من المعنى ولكن له طقش

وقد تورّم الملف بين يدي وأنا أضع هذه التصريحات في مكانها. وأنا أتساءل عن مصير الجهد الذي أنفقه في جمعها وتبويبها وحفظها.. وقالت هذه التصريحات:

في يوم العدوان الإسرائيلي بالذات (٧/ ٤/ ١٩٦٧) قال وزير الخارجية العراقية في تصريح له أذاعه راديو بغداد: «إن الحكومة العراقية مستعدة لإسناد سوريا ضد العدوان الإسرائيلي، وإنها تراقب الوضع عن كثب وستظل على اتصال مستمر مع سفاراتها في الدول العربية وخاصة في القاهرة ودمشق، لمعرفة التفاصيل وإصدار الأوامر..».

وأعلن وزير الخارجية والمغتربين اللبناني أن: «حكومته تشجب الاعتداء الذي شنّته القوات الإسرائيلية على الأراضي والأجواء السورية، وتتضامن مع سوريا ضد كل عدوان..».

وزاد الأردن على العراق ولبنان بأن أعلن بطريقة مسرحية أن القوات الأردنية وضعت في حالة تأهب وإنذار، وأن سلاح الجو الأردني كان على اتصال مستمر ومباشر مع سلاح الجو السوري أثناء الاشتباكات، وأن الملك حسين توجّه على أثر تلقيه أنباء الاشتباكات إلى قيادة سلاح الجو الأردني، حيث حضر اجتماعاً لكبار قواد الأسلحة، واطلع على الإجراءات التي اتخذوها، وأصدر إليهم تعليماته بأن توضع جميع القوات الأردنية المسلحة في حالة الاستعداد التام..».

كانت هذه حصيلة «النجدة» العربية لسوريا في اليوم الأول للعدوان، ثم جاءت في الأيام التالية نجدات أخرى.

ومن هذه النجدات تصريح رئيس أركان الجيش العراقي الذي أعلن فيه أن: «القوات العراقية تقف على أهبة الاستعداد لنجدة الجيش والشعب السوري ضد العدوان الإسرائيلي، وأننا كنا نتابع بصورة مستمرة تطورات المعركة بغية الاشتراك فيها إذا استدعى الموقف..».

ومنها أن وزير خارجية الكويت استدعى القائم بالأعمال السوري في الكويت وأبلغه: «أن الكويت تضع جميع إمكاناتها تحت تصرف سوريا وتقف معها بكل طاقاتها ومشاعرها وتذهب بالتأييد إلى أبعد الحدود».

ومنها أن وزير خارجية السودان: «أكد مؤازرة بلاده لسوريا ضد العدوان الصهيوني وأشاد بتضحيات الشعب السوري في ردعه العصابات الصهيونية المعتدية».

ومنها تصريح من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية: «بأن العدوان الإسرائيلي على سوريا يؤكد أن إسرائيل تحتقر قرارات الأمم المتحدة، وأن على المنظمة العالمية أن تطرد إسرائيل من الأمم المتحدة».

ومنها تصريحات أخرى على هذا المنوال من باقي الدول العربية، وكلها متأهبة للقتال والنزال لا من فوهات المدافع، ولكن من فوهات الراديو!!

وإلى جانب هذا الملف عن التصريحات العربية كان بين يدي ملف آخر يزيدني غمّا وهمّاً، ذلك هو الملف الذي أعددته ليحتوي التصريحات الإسرائيلية عن المعركة.. وقد وجدت في هذين الملفين الفارق الفاصل بين الحكم العربي من جانب، والحكم الإسرائيلي من جانب آخر.. إن المقارنة فادحة وفاضحة.. إنها موجعة

مفجعة. . ولكني أريد ان أضعها أمام الأجيال الصاعدة. . إلى سدة الحكم العربي حتى تتعلم كيف تحكم، وأن تعرف كيف تتكلم. . ولا ضير أن نتعلم من أعدى أعدائنا. . ففي عدوان السابع من نيسان/ أبريل كان واضحاً تماماً أن إسرائيل قد أعدّت لأمرين: أعدّت للمعركة. . وأعدّت ما تقول عن المعركة. . كل شيء بحساب وكل شيء بمقدار.

وعلى صعيد الكلام، عقد ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل ووزير الدفاع، بعد انتهاء المعركة، مؤتمراً صحافياً شدّد فيه على سوريا «أن تحترم خطوط الهدنة وسيادة إسرائيل وتمتنع عن أعمال الخرق والتخريب، وأن الطيارين الإسرائيليين قد تسلموا أوامر بضرب الأهداف العسكرية فقط، وعدم التعرض للأهداف المدنية، وأنهم نفذوا الأوامر بدقة. .». كلام يعترف بغارة سلاح الجو الإسرائيلي، ولكن جعله في صيغة تغري بالاقتناع بأن إسرائيل قد مارست «حقها المشروع» في الدفاع عن النفس. . . وهكذا يكون التزوير وإلا فلا!!

وحين كان أشكول يعلن هذا الموقف، لا في الكلام يرسله إرسالاً، بل في بيان واضح له حجم وحدود، كان الجنرال رابين رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، والكولونيل هود قائد سلاح الطيران الإسرائيلي، يعقدان مؤتمراً صحافياً يعلنان فيه أن «مواقع المدفعية السورية ليست مستحيلة على طيراننا، وأن الطيران الإسرائيلي استطاع التغلب على التفوق السوري الطوبوغرافي، وأننا هدمنا مواقع السوريين بالقنابل ذات الانفجار الشديد وقنابل النابالم. .». وهذا الكلام أعلنه العسكريون ظهراً، لتقابله مساء ندوة تلفزيونية أجرتها الإذاعة الإسرائيلية مع وزير خارجية إسرائيل أبا إيبان يعلن فيها «أننا مستعدون للمحافظة على السلام الذي ساد الحدود الإسرائيلية ـ السورية بعد اليوم، وأن على الدول الكبرى أن تقف ضد مدافع الهاون السورية لا ضد المحاريث الإسرائيلية».

وبهذا كانت إسرائيل في ذلك اليوم أشبه بأوركسترا متعددة الآلات والنغمات لعب فيها أشكول وإيبان والقادة العسكريون على «الآلات» التي بين أيديهم، ليخرجوا «سيمفونية» العدوان في إطار السلام. . . «سلام» يكمن في جوف العدوان!!

ولم أكد أفرغ من المقارنة بين «كلامنا» نحن، «وكلامهم» هم حتى بدأت معركة عربية أخرى، هي معركة النكاية والشماتة، إلى جانب معركة النجدة نفسها، وكان الأردن صاحب «الخط الأول في الدفاع عن دنيا العرب» هو بطل هذه المعركة.

وإني لأذكر ليلة لقيت فيها نفسي في بيتي، وأنا استعرض فيها مصاعب منظمة

التحرير الفلسطينية، مع الملوك والرؤساء، وفتحت مفتاح الراديو في الساعة الحادية عشرة (١٠/ ٤/ ١٩٦٧) وإذا بمصدر أردني مسؤول يعلن أن «أجهزة الرادار الأردنية قد سجلت يوم ٧ نيسان/ أبريل طائرتين إسرائيليتين قد خرقتا حرمة الأجواء العربية وحلقتا فوق العريش وعادتا إلى قواعدهما من دون أن يكون هناك أي رد فعل من جانب الجمهورية العربية المتحدة، تماماً كما حدث أثناء العدوان الإسرائيلي على السموع[١].

وانتقل المصدر الأردني بعد ذلك إلى التعقيب على العدوان الإسرائيلي على سوريا، فأردف قائلاً: «إن الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة قد أعلن في خطابه الأخير أنه في اللحظة التي يقع فيها أي عدوان على سوريا، فإن الجمهورية العربية المتحدة ستتدخل..». وتابع المصدر الأردني تعقيبه متسائلاً: «إن العدوان الإسرائيلي الأخير على سوريا استمر عدداً من الساعات لا من اللحظات، فأين الجمهورية العربية المتحدة..؟».

ولكن حرب النكاية الأردنية، بعد أن غمزت الرئيس عبد الناصر، انتقلت إلى التعريض بسوريا في أشنع تهمة يستطيع الخيال أن يبتدعها، وخلاصة التهمة، كما أعلنتها الإذاعة الأردنية (١٤/ ٤/ ١٩٦٧) أن الطائرات السورية التي اشتبكت مع سلاح الجو الإسرائيلي قد سقطت ثلاث منها في الأراضي الأردنية، «وان الفنيين الأردنيين الذين فحصوا حطام الطائرات السورية تبيّنوا أنها كانت مزوّدة فقط بصواريخ خشبية».

كان ذلك ما أعلنه «مصدر أردني مسؤول»، ولكن الأمر لم يقتصر على الإذاعة الأردنية، فقد انتقل التزوير إلى الصحافة في بيروت، فقد تلقفته جريدتا **الحياة** و**الزمان**، أو أن الخبر هبط عليهما من عمّان، فنشرتا أن سلاح الجو السوري «كان مزوداً بذخيرة كاذبة في معركة مع الطيران الإسرائيلي في السابع من نيسان/ أبريل..».

وصادف في ذلك الأسبوع أننا كنا في حفل عشاء في السفارة اللبنانية، ولقيت سفيريْ الأردن ولبنان يتضاحكان.. فقلت لهما: «لي كلمة مع كل منكما: بالنسبة إلى بيروت أنا أعلم أن الصحف «حرة» في ما تكتب، ولكن هل يجوز أن تزعم صحيفتا **الحياة** و**الزمان** أن الطائرات السورية تحمل ذخيرة كاذبة في معركتها مع

(١) عن غارة السموع، انظر: أحمد الشقيري، **على طريق الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٢). وهو متضمن في هذه المجموعة.

إسرائيل؟ هل تصل «حرية» الصحافة إلى هذا الدرك من التزوير والتشهير؟ أما بالنسبة إلى عمّان: فإني أتساءل، هل تكذب إسرائيل على الجيش السوري بمثل ما تكذب الإذاعة الأردنية.. هل جف ماء الحياء إلى هذا الحدّ؟؟ هل أصبح شعارنا اليوم: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت.. واكذب ما شئت».

وانصرفت عن السفيرين وهما في غاية الحياء، ويؤكدان أنهما سيتصلان بحكومتيهما.. وقد أدى لبنان واجبه في هذا المجال. فقد أعلمني السفير بعد ثلاثة أيام أن الحكومة اللبنانية قد قدمت الصحافيين إلى القضاء بتهمة التعريض بكرامة الجيش السوري.. أما عمّان.. عمّان لم تكن لها آذان.. فلم تسمع منها شيئاً.. ولم أسمع عنها شيئاً.. ولكن عمّان، مع بعض صحف بيروت، قد استمرت في حملة الشماتة والنكاية، وهي تسخر من دمشق مرة، ومن القاهرة مرة أخرى.. وكانت التهمة الصارخة موجهة إلى النظام السوري بأنه يستفز إسرائيل ولا يصمد أمامها... وموجهة كذلك إلى الجمهورية العربية المتحدة بأنها لم تنجد الجيش السوري في معركة امتدت يوماً بكامله.. ولم ينطلق الطيران المصري إلى ضرب القواعد الإسرائيلية لتخفيف الضغط عن سوريا.

ولقيت المشير عبد الحكيم عامر في حفل أقامته السفارة العراقية، وتحدثت إليه عن حملة التشكيك المتصاعد في الأردن ولبنان بصدد معركة السابع من نيسان/ أبريل، وما أضفت عليها الصحافة الغربية من تفوّق سلاح الجو الإسرائيلي، «وتقاعس» مصر عن نجدة سوريا ونقض اتفاقية الدفاع المشترك المعقودة بين القاهرة ودمشق.

فقال لي المشير عامر: «لقد كنا على اتصال دائم مع دمشق في يوم المعركة.. وعرضنا على إخواننا السوريين إذا كانوا يريدون معاونة، فأجابوا بأن سلاح الجو السوري يسيطر على الموقف».

قلت: «أريد ان أسألك بأمانة الجندي الشريف.. هل أنت مطمئن إلى جواب دمشق؟».

قال: «الحق.. أنا غير راض عن سير هذه المعركة من أولها إلى آخرها.. ولقد قلت لإخواننا السوريين عدة مرات إنه لا داعي لاستفزاز إسرائيل.. يجب ان نستكمل استعداداتنا أولاً.. ومع هذا فقد عرضنا عليهم، الرئيس عبد الناصر وأنا، أن تكون لنا قاعدة جوية كاملة في سوريا حتى نستطيع أن نسند سلاح الجو السوري عند أي طارئ.. ولم يرض إخواننا السوريون بذلك.. فماذا يريد «العرب» منا أن نفعل؟؟!».

قلت: «إن جو المعركة لا يزال ساخناً حتى الآن.. وإنها فرصة لمعاودة البحث في الموضوع، وأرى أن تؤكدوا اقتراحاتكم مرة ثانية بصدد القاعدة الجوية».

قال: «القلوب عند بعضها، وهذا ما نحن نفكر فيه الآن.. خلال هذا الأسبوع سنبعث وفدين: **الأول** برئاسة الفريق محمد صدقي محمود قائد القوات الجوية، **والثاني** برئاسة محمد صدقي سليمان رئيس الوزراء، وسنفتح الموضوع من أساسه، ونحن حاضرون لتنفيذ كل التزاماتنا التي وردت في اتفاقية الدفاع المشترك بيننا وبين سوريا».

وقد تم هذا فعلاً، فقد سافر الوفدان في ذلك الأسبوع (١٢/ ٤/ ١٩٦٧) إلى دمشق واجتمعا برجال الدولة، العسكريين قبل السياسيين، فتلك هي سوريا.

وكنت على اتصال دائم بالسفارة السورية في القاهرة لأكون على علم بما يدور حول المباحثات في دمشق، فقد أصبح الرأي العام العربي يشك في جدوى اللقاءات العربية، والتضامن العربي، وقد ضجر بالذات من الشعار الذي كان يردّده حكام العرب على الدوام، من أن «أي اعتداء يقع على أي دولة عربية يعتبر اعتداء على الدول العربية جمعاء..».

ولم تكن إسرائيل تجهل طبيعة التيارات العربية في تلك الفترة، فقد علقت صحيفة **الجيروسالم بوست** الإسرائيلية على زيارة الوفد المصري إلى سوريا، فقالت: «إنها محاولة للرد على التعليقات التي انطلقت من عمّان ومن بعض صحف بيروت التي سخرت من فشل الجمهورية العربية المتحدة في نجدة سوريا خلال اشتباكات ٧ نيسان/ أبريل».

والواقع أن معركة الشماتة والنكاية التي بدأتها عمّان لم تعد معركة جانبية، فقد تحولت الأبصار عن العدوان الإسرائيلي، وتركزت على الخلافات العربية، ولم يجد الرئيس الأتاسي بداً من أن يغتنم مناسبة الذكرى العشرين لجلاء القوات الفرنسية عن سوريا (١٧ نيسان/ أبريل) ليعلن أن سوريا مصممة على منع إسرائيل من احتلال أراضي المنطقة المجردة من السلاح، مهما بلغت التضحيات.. وأن قضية فلسطين هي قضية سوريا المصيرية، وأن أسلوب سوريا في تحريرها هو حرب التحرير الشعبية.. وأن تأييد الحكم الرجعي القائم في السعودية والأردن بعد معركة ٧ نيسان/ أبريل لم يكن إلا محاولة مكشوفة لخداع الجماهير العربية وتغطية تعاونهم مع الاستعمار والصهيونية.. وأن الحكم العميل في الأردن أعلن عن تعبئة قواته، ولكنه حشدها على الحدود السورية بدلاً من حشدها لمواجهة إسرائيل.. وأن الأردن سمح للطائرات الإسرائيلية بالتحليق عبر الأجواء الأردنية للاشتباك مع الطائرات السورية.. وأنه لا يرجى خير من تونس والمغرب ومؤتمرات القمة والحلف الإسلامي..».

وحول هذه المعاني ذاتها خطب رئيس الوزراء السوري د. يوسف زعين في مؤتمر الاتحاد الوطني لطلبة سوريا، فقال: «إن سوريا تتوقع عدواناً إسرائيلياً استعمارياً رجعياً عليها في أية ساعة.. وإن معركة السابع من نيسان/ أبريل قد كشفت بكل وضوح التنسيق الإعلامي وغير الإعلامي بين الصهيونية والاستعمار والرجعية العربية.. وإن الاستعمار قد عهد إلى الملك حسين باللعب بورقة تقوم على تغيير الأوضاع العربية، وقلب أنظمة الحكم العربية التحريرية في المنطقة، ولكن الشعب العربي فضح هذه اللعبة وسيسحقها، وإن الأردن قد حشد جيوشه على الحدود السورية، وهل من يريد تحرير فلسطين يقوم بحشد جيوشه على حدود سوريا؟». ومضى د. زعين في خطابه يقول: «إن حرب التحرير الشعبية هي السبيل الأكيد لتحرير فلسطين من الاغتصاب الصهيوني، وإن التفوق الإسرائيلي المزعوم أسطورة لا يمكن أن تجوز علينا، وحتى تسليحها بالأسلحة غير التقليدية وحتى الذرية منها، فإننا سنواصل طريق حرب التحرير الشعبية».

كنت استمع إلى هذه العبارات النارية في الإذاعة السورية تصدر عن الرئيس الأول والرئيس الثاني، وأنا أقدر أن مباحثات الوفدين المصريين العسكري والسياسي ستفضي إلى نتيجة إيجابية، وقد عاد الوفدان بعد أن قضيا بضعة أيام في مباحثات مستفيضة، وصدر البلاغ المشترك في القاهرة ودمشق ليعلن: «تأكيد العزم على تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك المعقودة بين البلدين، وأن القاهرة ودمشق كانتا على اتصال مستمر خلال وبعد معركة السابع من نيسان/ أبريل.. وأن وفد الجمهورية العربية المتحدة يحيّي صمود سوريا الحازم الذي حطم العدوان الإسرائيلي، وأن القومية العربية تواجه مؤامرة التحالف بين الاستعمار والصهيونية والأردن والسعودية.. وأن السبيل الوحيد للتصدّي لجميع مخططات الاستعمار وإحباطها وسحق التحركات الصهيونية والرجعية هي بالمزيد من تعميق اللقاء بين القوى التقدمية العربية، وفي تفجير طاقات الجماهير غير المحدودة في سائر أرجاء الوطن العربي». واختتم البيان معلناً: «بأن الجانبين يؤكدان تصميمهما على التصدّي المشترك لإسرائيل، واعتبار معركة الشعب العربي مع إسرائيل والصهيونية معركة واحدة...».

وقد أحسست وأنا اقرأ البلاغ المشترك أن الاتفاق لم يتم بين الجانبين على الأمور الأساسية، وأنها حجبت تحت سحابة من التعابير البعثية، فسارعت إلى محمود صدقي سليمان رئيس الوزراء ورئيس الوفد أستجلي منه حقيقة الموقف.. وكان معه قائد القوات الجوية، فقال:

«لقد دعوت الفريق محمود صدقي قائد القوات الجوية لتسمع منه مباشرة.. لقد كانت زيارتنا نافعة من ناحية سياسية ومعنوية.. لقد أحبطنا المحاولات الرجعية التي

كانت ترمي لبذر بذور الشقاق بيننا وبين سوريا . . ولكن من الناحية العسكرية لم يكن لمباحثاتنا نتائج حاسمة».

وتناول الحديث الفريق محمود صدقي، فقال: «إن الموقف العسكري في سوريا يحتاج إلى دعم جوي . . لقد عرضنا على إخواننا السوريين استعدادنا لإرسال عدد من أسرابنا إلى سوريا . . وهذا الأمر يتطلب أن تكون لنا قاعدة جوية على الأرض السورية . . ومع الأسف لم يوافق إخواننا السوريون على ذلك . . لقد اتفقنا على إنشاء لجان عسكرية دائمة لوضع الخطط اللازمة لمواجهة مختلف الاحتمالات، ولكن ذلك لا يجدي . . إن طائراتنا لا تستطيع أن تسند سوريا من قواعدنا في مصر . . يجب أن تكون لنا قاعدة في سوريا . . . وسوريا لا توافق على ذلك».

وقال رئيس الوزراء محمود صدقي سليمان: «على كل حال . . لقد تركنا الباب مفتوحاً، وطلبنا إلى الحكومة السورية أن يأتي وفد على مستوى عال لاستكمال البحث في هذا الموضوع، عسى أن نجد صيغة ملائمة تفي بالغرض».

قلت: «هذا هو الفرق بيننا وبين إسرائيل . . إسرائيل عندها خطة واحدة تنفّذها في اللحظة الحاسمة . . ونحن نواجه اللحظة الحاسمة من غير خطة واحدة، ولا قيادة واحدة» . . واستأنفت حديثي وقلت لرئيس الوزراء: «لقد عملت سنين في الإشراف على بناء السد العالي، وأنت توافق معي من غير شك في أن العمل الإنشائي الإيجابي وحده هو الذي يلفت انتباه الرأي العام العالمي . . لقد زرت المنطقة المجردة من السلاح على الحدود السورية . . إن إخواننا السوريين على مدى خمسة عشر عاماً وهم يضربون الجرارات اليهودية بالمدافع كلما اقتربت من الأرض العربية، وهذا عمل وطني سليم من غير شك . . ولكن هنالك ما هو أعظم من ذلك . . ».

قال: «وما هو أعظم من ذلك؟».

قلت: «الخطة الصحيحة أن يزوّد الجيش السوري المزارعين العرب بالجرارات ليفلحوا أراضيهم ولتتقدم المدفعية الإسرائيلية بضربهم . . وحينئذ نحقق غرضيين: نحفظ الأراضي العربية، ويسمع العالم أن إسرائيل تضرب المحاريث العربية بالمدافع والصواريخ».

قال: «هذا صحيح . . نحن العرب ما زلنا نركّز على الأمور السلبية، ونتجنب الخطط الإيجابية ولكن هل اقترحت شيئاً من ذلك على سوريا؟».

قلت: «بالتأكيد ومراراً . . منذ عهد الرئيس الشيشكلي إلى عهد الرئيس الأتاسي، وأنا ألحّ على المسؤولين السوريين، عسكريين ومدنيين، أن يضعوا مثل هذه

الخطة ويعملوا على تنفيذها.. ولكن شيئاً من ذلك لم يقع، واستمرت إسرائيل تقول للعالم إن سوريا تضرب مشروعاتها الإنشائية، وتقصف مستعمراتها الزراعية، وتقتل الفلاحين اليهود العزل.. وما إلى ذلك من الدعاوى الزائفة».

وانتهى الحديث بيني وبين رئيس وزراء الجمهورية العربية المتحدة، ليبدأ لي حديث أهم وأخطر مع الفريق علي عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة.. بعد ذلك ببضعة أيام.

كنا نتبادل الزيارات أنا والفريق عامر منذ مؤتمر القمة العربي الأول الذي انعقد في القاهرة في كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٦٤[٢]، ونشأت بيننا صداقة وثقت عراها مصاعبنا المشتركة مع الملوك والرؤساء، فقد ارتبطنا كلانا مع مؤتمرات القمة منذ البداية، هو يعمل من جانبه لتنسيق الخطط العربية العسكرية، وأنا أعمل من جانبي على إنشاء الكيان الفلسطيني وجيش التحرير الفلسطيني.

ولم ينقضِ أسبوع إلا وأتلاقى مع الفريق عامر، في مكتبه بمصر الجديدة، أو مكتبي في الدَقي بالقاهرة، أو في الطائرة في طريقنا للاشتراك في عيد الجيش العراقي في بغداد، أو أعياد الجلاء في دمشق، أو في قاعة الجامعة العربية لحضور البلاء المشترك الذي سمي مجلس الدفاع المشترك!!

والتقينا هذه المرة في بيته.. ذلك أن الفريق عامر اتصل بي يقترح على أن نلتقي في مكتبه أو مكتبي.. وقلت: «أريد أن أزورك في البيت.. فإن التلفون في مكتبك ومكتبي لا يترك لنا فرصة للحديث الهادئ».

وهكذا تم الاتفاق.

وكانت جلسة طويلة.. طويلة، تشاكينا وتشاكينا.. فقد انقضى علينا إلى ذلك الوقت قريباً من ثلاثة أعوام والحكومات العربية تغمرنا بالوعود من غير إنجاز، وبالقرارات من غير تنفيذ.. وفاجأني الفريق عامر وهو يقول:

«ما رأيك يا سيادة الأخ.. أن نستقيل معاً..؟».

قلت: «أنا موافق على ذلك.. ولكني أقترح أن نقدم استقالتنا إلى مجلس الدفاع المشترك الذي سيجتمع بعد ثلاثة أشهر (تموز/ يوليو ١٩٦٧)، وأن نعلن استقالتنا إلى الأمة العربية وأن نشرح أسبابها في مؤتمر صحافي».

---

(٢) عن مؤتمر القمة، انظر: أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قال: «أنا رجل عسكري، لا اشترك في مؤتمر صحافي.. وأنت تملك الحرية أن تقول ما تريد»... واستأنف الفريق عامر حديثه متسائلاً: «ما هي آخر المعلومات التي وصلتك عن العدوان الإسرائيلي الأخير على سوريا؟».

قلت: «لم يصلني جديد، ولا بد من أنك اجتمعت بوفد الجمهورية العربية المتحدة بعد عودته من دمشق.. ويبدو أن الموقف سلبي.. وهل وصلك شيء جديد؟؟».

قال (غاضباً): «يا أخي.. هؤلاء السوريون أمرهم عجيب.. هل تدري أنه لم يصل إلى القيادة الموحّدة من دمشق أي تقرير عن العدوان الإسرائيلي منذ أن وقع إلى يومنا هذا.. إن سوريا لم تعد تعترف بالقيادة العربية الموحدة.. إنها لا تتصل بنا إطلاقاً.. طبعاً الأردن قاطعنا منذ بضعة أسابيع.. ربما أنه يقلد سوريا».

قلت: «أرى أن تبرق لوزارة الدفاع السورية تطلب تقريراً مفصلاً، أو أن يأتيك ضابط كبير من الجيش السوري».

قال: «إن كرامة القيادة العربية الموحدة تأبى عليّ ذلك. إن الجيش السوري يجب أن يعرف واجبه تجاه القيادة العربية الموحدة».

قلت: «لقد عقد اللواء أحمد سويداني رئيس أركان حرب الجيش السوري مؤتمراً صحافياً «٢٠/ ٤/ ٦٧» شرح فيه ظروف العدوان الإسرائيلي، وقد لفت نظري فيه شيئان: **الأول**: أنه قال إن القواعد الجوية في سوريا تفوق طاقة مسرح العمليات السوري، ولا داعي للسماح للسلاح المصري بإقامة قاعدة جوية في سوريا، و**الثاني**، أن الأردن سمح بمرور الطائرات الإسرائيلية عبر أجوائه لضرب المواقع السورية ولم يخبر السلطات السورية بمرور هذه الطائرات»..

قال: «هذا كلام غير صحيح إطلاقاً.. لقد أخبرت إخواننا السوريين عدة مرات أن سلاح الجو السوري يجب أن يعزز تعزيزاً كبيراً حتى يستطيع الصمود أمام سلاح الجو الإسرائيلي، أو أن يسمح للمقاتلات المصرية بان تتمركز في سوريا.. ولكن رئيس الأركان السوري اللواء فهد الشاعر، كان يريد أن (يصارعني) بدلاً من أن يستمع إلى توجيهاتي.. وها قد رأينا أن سلاح الجو الإسرائيلي وصل أخيراً إلى سماء دمشق.. وبالنتيجة فإنهم يلقون العبء على القيادة العربية الموحدة... أما بالنسبة لموضوع الأردن فليست عندي معلومات»..

قلت: «أرى أن ترسل اللواء عبد المنعم رياض إلى دمشق للتفاهم مع القيادة السورية»..

قال (وكأنما قذائف صاروخية تتفجر من صدره): «يا أخي.. يا أخي.. وماذا يستطيع عبد المنعم رياض أو غيره أن يفعل مع إخواننا السوريين. منذ أنشئت القيادة العربية الموحدة وأنا في اجتماعات متوالية مع كبار المسؤولين العسكريين السوريين.. لقد تقابلنا هنا في القاهرة وتقابلنا في دمشق، ولم تجدِ هذه الاجتماعات... وأصبحت أخشى أن ننجرّ إلى كارثة أكبر من كارثة عام ١٩٤٨»..

وواصل الفريق عامر حديثه الغاضب، وهو يقول: «يا أخي، كم مرة ناشدت إخواننا السوريين ان لا يستفزوا إسرائيل.. إنهم يعرفون أننا لم نستكمل استعداداتنا العسكرية.. إنهم يعرفون أننا يجب أن نختار زمان المعركة وميدانها.. لقد كررنا هذا الكلام آخر مرة في اجتماع القمة بالدار البيضاء.. ومع هذا فإن إخواننا السوريين ماضون في استفزاز إسرائيل.. إنهم يقصفون المستعمرات الإسرائيلية.. إنهم يرسلون جماعات «فتح» لنسف عبّارة أو وضع لغم على الطريق.. وهذا كله ضرر ينعكس على استعداداتنا العسكرية.. أنا والله أخشى أن تباغتنا إسرائيل بحرب غادرة، ونحن لم نستكمل خططنا العسكرية».

قلت: «كل هذا يدعوني أن اكرر اقتراحي بأن توفد اللواء عبد المنعم رياض إلى دمشق لمعاودة البحث في هذه الأمور... ثم إن شباب «فتح» وطنيون مخلصون ويمكن التفاهم معهم»..

قلت: «سوف أوفد اللواء عبد المنعم رياض في شهر يوليو/ تموز وسأحدد مطالبي بصورة نهائية. سأطلب إلى الأردن أن يوافق فوراً على دخول القوات العراقية، والسعودية مع تطبيق التجنيد الإجباري.. وسأطلب إلى سوريا أن توقف جماعة «فتح» عن نشاطها، وأن يتجنب الجيش السوري استفزاز إسرائيل.. وسأطلب من الدول العربية الوفاء بالتزاماتها المختلفة. فإن استجابوا في تلك الجلسة فأنا مستعد أن أواصل واجباتي، وان لم يوافقوا فسأقدم استقالتي، وأعود إلى بيتي، وأنا أدعو الله أن يبعدنا عن الكارثة التي تنتظرنا»..

قلت: «بقي عندي سؤال أريد أن أسمع رأيك العسكري فيه»..

قال: ما هو؟ إذا كان يتعلق بجيش التحرير ونشاطه. إن مشكلتك ليست معي إن مشكلتك مع الأردن.. والأمر مرهون بموافقة الملك حسين. وأنا لا أملك أن افرض عليها شيئاً، كفاني المشاكل العربية الأخرى.. كفاني أن مصر وسوريا قد وقّعتا أخيراً على معاهدة الدفاع المشترك. وأنا لا أعلم بها. ولا أدري لها سبباً، ونحن عندنا معاهدة الدفاع المشترك التي تضم الدول العربية جميعاً»..

قلت: «ليس هذا قصدي. أنا أعرف هذه الأمور. ولكني أريد أن أعرف

رأيك في شعار الحرب الشعبية الذي تطرحه سوريا على الدوام» . .

قال: «يا أخي . . ليس السائل بأدرى من المسؤول . .نحن لم نتفق على الحرب الشعبية . . هذا كلام انفردت به سوريا . . إن الحرب الشعبية هي نضال الشعب الذي لا يملك جيشاً نظامياً وليست له دولة . . حروب الاستقلال هي حروب شعبية . . أما الدولة فإنها تحارب حرباً شاملة بالجيش والشعب معاً . . أنا لا أفهم شعار الحرب الشعبية الذي تطرحه سوريا . . وقد قلت لإخواننا السوريين أكثر من مرة لا علاقة لهذا الموضوع بخططنا العسكرية . .ولكن . .لا حياة لمن تنادي . . يا أخي . . يا أخي . . والله إذا استمر هذا الحال فنحن سائرون إلى الكارثة . . نسأل الله أن يجعل لنا من أمرنا مخرجاً . .

وانتهت الجلسة بيننا على هذا النحو، عند هذا الدعاء إلى الله بان يجنّب الأمة العربية موارد الهلاك . .وكانت جلسة تاريخية حقاً، بل أصبحت جلسة تاريخية بعد أن وقعنا في حرب الأيام الستة . .

وعدت إلى بيتي، وإلى فراشي، لأستيقظ في اليوم الثاني على شهر نيسان/ أبريل وقد أشرف على النهاية، وليشرف شهر أيار/ مايو على البداية، ومخاوف الفريق عامر تصبح مخاوفي، فأردد معه النذير تلو النذير كلما لاحت الفرصة مع هذا الملك أو ذاك الرئيس . .

وكان شهر أيار/ مايو شهر النذر، لو كانت تنفع النذر . . ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة يس،» الآية ١٠.

سوريا ترفض قاعدة جوية مصرية

في النصف الأول من شهر أيار/ مايو من عام ١٩٦٧ كنت في عاصمة الأمويين، وفي فندق أمية بالذات.. وما أحسب أني في حاجة أن أقول للمواطن العربي لماذا أنا في دمشق.. ذلك أن قضية فلسطين كالهواء في كل مكان وزمان، وهي في كل عاصمة عربية بمشاكلها ومتاعبها.. ولنا في دمشق زهاء مائتي ألف فلسطيني من النازحين، وسبعة آلاف من جيش التحرير... ولهؤلاء وأولئك مع حزب البعث، لا مع الشعب السوري الباسل، مشاكل ومتاعب...

وكانت دمشق في تلك الأيام تعيش في «مناخين» مختلفين متباينين.. فقد كانت دمشق الطبيعة تختال في عرس الربيع تحف بها بسمات الغوطة العطرة، وكانت دمشق الدولة تفور بالأحداث الساخنة، تتمخض كالحامل تنتظر الولادة والوليد، وكأنما قال الشاعر ما قال، من أجل دمشق في تلك الأيام..:

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب

وليالي دمشق، في تلك الحقبة من الزمان، كانت حبالى بالأحداث المثيرة، وكأنما كنت على موعد مع عاصمة بني أمية لأعيش في خضم تلك الأحداث، من دون أن أدري، بل من دون أن يدري أي إنسان من ملايين الأمة العربية، أنه بعد شهر واحد على الضبط والتحديد ستقع حرب حزيران/ يونيو المشؤومة، وستقع معها الهزيمة الكبرى التي ما زلنا نرزح تحت أنقاضها، وصدورنا مملوءة بدخانها وغبارها، ووطننا مشحون بعارها.

وكان العمل الفدائي في سوريا ومن سوريا هو محور هذه الأحداث على الصعيدين العربي والدولي سواء بسواء.. فعلى الصعيد الدولي كانت إسرائيل، وسع جهدها وطاقاتها الإعلامية، تهوّل في مخاطر العمل الفدائي على أمن الوطن الإسرائيلي وحياته اليومية، وهي بذلك تريد أن «تهيّج» الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، هجرة المال والسلاح والبشر.. كما كان البعث، الحزب الحاكم في سوريا، يفاخر

بالعمل الفدائي على الصعيد العربي، «ويزايد» على الحكومات العربية بأسرها وفي مقدمتها الجمهورية العربية المتحدة.. وعلى شخص الرئيس عبد الناصر بالذات.

وقد التقيت مع قادة حزب البعث العسكريين والسياسيين، وخضت معهم في أحاديث مطوّلة حول شعاراته الثلاثة: حرب التحرير الشعبية، والعمل الفدائي الفلسطيني، ولقاء القوى التقدمية الثورية.. وخلصت من هذه الأحاديث إلى أن حزب البعث في سوريا يطرح هذه الشعارات الثلاثة وهو مكبّل بأغلال ثلاثة: إخلاص بلا عقل.. والتزام من غير انفتاح.. وحماسة من غير اتزان.

وقد تجلّى ذلك أكثر ما تجلّى في الخطب الرسمية التي ألقاها كبار المسؤولين في الدولة في تلك الفترة الخطيرة.. فقد أكد د. نور الدين الأتاسي رئيس الدولة السورية في احتفالات الذكرى العشرين لجلاء القوات الفرنسية عن سوريا أن «أسلوب سوريا في تحرير فلسطين هو أسلوب الحرب الشعبية.. وأن سوريا لا يمكن إلا أن تكون مع الفدائيين، وأن طلائع الفدائيين لن تثنيها حكومات وهمية ولا حكومات عميلة تتآمر ضدها..»، ثم حمل د. الأتاسي في خطابه بالجملة، على الأردن، والسعودية، وتونس، والمغرب، ولبنان، ومؤتمر القمة، وميثاق التضامن العربي، والحلف الإسلامي.. وقد أطلق د. الأتاسي كذلك طلقات حامية من كلماته على الأسطول السادس الأمريكي الذي كان يمخر بمحاذاة شواطئ البحر الأبيض المتوسط في تلك الأيام الثائرة المثيرة.

وخطب د. يوسف زعين رئيس الوزارة السورية في حفل افتتاح المؤتمر الثالث للاتحاد الوطني لطلبة سوريا، فأعلن: «أن سوريا تتوقع عدواناً إسرائيلياً استعمارياً في أية ساعة، وأن سوريا مستعدة للرد على العدوان بأسلوب قوي وحازم.. وأن حرب التحرير الشعبية هي السبيل الأكيد لتحرير فلسطين.. وأن التفوق الإسرائيلي المزعوم أسطورة لا يمكن أن تجوز علينا.. حتى لو افترضنا أن الاستعمار سيمضي في تزويد إسرائيل بالأسلحة الذرية، فإننا سنواصل طريق الحرب الشعبية».

ونزلت «الحرب الشعبية» من الخطب الرسمية إلى الشارع.. فقد كنت أقف على شرفة غرفتي كل صباح لأرى كتائب جيش التحرير الشعبي تتجمع في ميادين العاصمة، ثم تسير في الشوارع بموسيقاها العسكرية، والأطفال يهرولون حولها، والنساء يزغردن من ورائها.. هذا بالإضافة إلى المسيرات الشعبية التي تحمل اللافتات وقد كتب عليها شعارات الحرب الشعبية.. وما أرخص الحبر والقماش، فالأول موفور، والثاني ميسور!!

وتعاقبت الأعمال الفدائية، وهي تحمل في بطولاتها وبسالتها أصالة الأمة

العربية في الشجاعة، وعراقتها في البذل والفداء. . . ولكن. . ولكن من دون أن يكون لها ظهر عسكري يحميها على صعيد العمل العربي الرسمي. كانت الإذاعة هي الظهير الوحيد.

وطفحت صحف دمشق بأخبار العمل الفدائي وبلاغاته. . . وكنت أفتح غرفتي كل صباح لأجد تحت الباب الصحف البعثية، وليس في دمشق غيرها، وهي تحمل العناوين الضخمة عن الأعمال الفدائية، وكأنما حزب البعث يبارز الدول العربية بأسرها. . ويصيح: «هذه هي أعمالنا. . فما هي أعمالكم؟. . . الفدائيون منا، سلاحهم منا، تدريبهم عندنا، منطلقهم أرضنا. . فماذا أنتم فاعلون؟؟».

وفتحت ملفاً جمعت فيه بلاغات الأعمال الفدائية كما نشرتها صحف دمشق في تلك الأيام العصيبة، وأرى لزاماً عليّ أن أنشرها موجزة، فإن تواريخها تقترب يوماً بعد يوم من اليوم الأغبر. . الخامس من حزيران/ يونيو.

في ٣ أيار/ مايو. . . اصطدمت قوة من «العاصفة» أثناء توجهها إلى أهدافها في المنطقة الشمالية الغربية من الأراضي المحتلة بقوة إسرائيلية، ونشب اشتباك آخر حوالى نصف ساعة استعملت فيه الأسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية، واستطاعت القوة الفدائية خرق طوق حاول الإسرائيليون إحكامه حولها وعادت إلى قواعدها سالمة.

في ٤ أيار/ مايو. . قوة من فدائيي العاصفة قامت بنسف عبّارة المياه على طريق دير نخاس ـ بيت جبرين، وأدى الانفجار إلى تدمير العبارة وقطع الطريق. . وقوة من المجموعة ٧٤ من قوات العاصفة نصبت كميناً لسيارات الدوريات العسكرية الإسرائيلية على طريق بئر السبع فأصلتها بوابل من الرصاص والقنابل اليدوية، ونتج من هذه العملية إعطاب السيارة وقتل من فيها، وقد غنمت القوة الفدائية رشاشاً وعادت إلى قواعدها سالمة.

في ٥ أيار/ مايو. . قامت قوة من قوات العاصفة (المجموعة ١٤) بوضع لغمين على الطريق المؤدي إلى كفر برعم شمال الأرض المحتلة، فانفجر أحد اللغمين تحت شاحنة عسكرية وقتل سائقها وجندي كان إلى جواره.

في ٦ أيار/ مايو. . اشتبكت وحدة مدفعية الهاون التابعة للمجموعة ٢٧ من قوات العاصفة بقوة إسرائيلية شمال غرب مستعمرة جلعادي، وكسرت الحصار الذي ضربه العدو حولها مستخدمة في ذلك القنابل اليدوية والرشاشات وقنابل الهاون. . . وقامت وحدة مدفعية مورتر تابعة لقوات العاصفة بالهجوم على مستعمرة المنارة القريبة من الحدود اللبنانية، فأوقعت إصابات ببعض الأبنية العسكرية في المستعمرة، واستطاعت القوة الفدائية الإفلات من الحصار، وقد

شوهدت سيارات الإسعاف تنقل المصابين الإسرائيليين.

في ٨ أيار/ مايو . . قامت منظمة «أبطال العودة» بعملية استكشاف، فتوغلوا في منطقة طبريا الداخلية وشاهدوا تحشدات ضخمة على طول خطوط إسرائيل.

في ٩ أيار/ مايو . . قامت مجموعة من فدائيّي فرقة الشيخ عز الدين القسام التابعة «لجبهة تحرير فلسطين» بتنفيذ عملية كمين لسيارات باص كبيرة تقل ضباط معسكرات الحولة، وذلك على طريق الجاعونة ـ طبريا، فدمرت الباص بالمتفجرات ثم انقضّت على حطامه بالرشاشات، وتقدر خسائر الإسرائيليين ما بين ٣٥ ـ ٤٠ قتيلاً، وتركت المجموعة منشورات بالعبرية في مكان الحادث.

في ١٣ أيار/ مايو . . . قامت مجموعة فدائية تابعة لـ «جبهة تحرير فلسطين» بوضع حشوة متفجرة في سينما رويال في حيفا، فأدى الانفجار إلى تحطيم دار السينما وقتل وجرح ما يزيد على مئة من الإسرائيليين . . وقامت مجموعة أخرى تابعة للجبهة بوضع حشوة متفجرة في سيارة ركاب تابعة لشركة إيجيد متوجهة من حيفا إلى تل أبيب، فانفجرت الحشوة قريباً من ناثانيا وقتل وجرح ما لا يقل عن أربعين من الإسرائيليين.

وهكذا . . وهكذا . . من البلاغات الصادرة عن مختلف المنظمات الفدائية.

وجاءني قادة الفدائيين من منظمات فتح وأبطال العودة وجبهة تحرير فلسطين، وفداً بعد وفد، والتقينا في جلسات «مقفلة» على حدّ تعبير الجامعة العربية . . وكان الحوار عن الأعمال الفدائية والبلاغات العسكرية.

قالوا: «لا بد من أنك تقرأ بلاغاتنا العسكرية، فما رأيك في أعمالنا الفدائية؟».

قلت: «إني فخور برجالنا الأبطال، وهذه هي شجاعة شعبنا الأصيل. ولكن . .».

قالوا: «ولكن ماذا؟ هل هناك من خطأ؟».

قلت: «نعم . . هنالك خطأ جسيم لا بد من أن ينشأ عنه خطر كبير إذا لم نأخذه بالجد والعزيمة».

قالوا: «خيراً إن شاء الله . . وهل الأعمال الفدائية خطأ وخطر؟».

قلت: «حاشا لله أن تكون الأعمال الفدائية موضوع تجريح . . ولكني أريد أن نوحّد المنظمات الفدائية . . وأن نوحد كذلك جميع المنظمات السياسية . . إني أخاف على العمل الفدائي من الفرقة . . وإن منظمة التحرير مستعدة لأن تضع كل إمكانياتها بين أيديكم».

قالوا: «وكيف تقترح أن يتم التوحيد؟».

قلت: «هنالك طرق متعددة.. يكفينا منها واحدة مارسها عدونا في أواخر الانتداب البريطاني لقد كانت لليهود في فلسطين ثلاث منظمات إرهابية: شترن ـ زفاي لومي ـ بالماخ، بالإضافة إلى الهاغاناه، وكلها كانت تعمل في تنسيق تام تحت إشراف الوكالة اليهودية، حتى إن الوكالة اليهودية كثيراً ما كانت تستنكر بعض الأعمال الوحشية التي كانت تقوم بها المنظمات الإرهابية اليهودية».

قالوا: «وكيف ترى أن يتم التنسيق؟».

قلت: «منظمة التحرير أصبحت لها شرعية كاملة على الصعيدين العربي والدولي، وإني أرى أن تعمل المنظمات الفدائية تحت إشراف منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها المؤسسة الوطنية التي تمثل الشعب الفلسطيني بأسره».

قالوا: «والمال.. والسلاح.. والخطط العسكرية؟؟».

قلت: «المال ندبره لكم من الصندوق القومي الفلسطيني.. والسلاح فإني أحوّل إليكم ما يأتينا من جمهورية الصين أو أي مصدر آخر.. والخطة العسكرية فإني أرى أن يضعها مجلس عسكري أعلى يمثل جيش التحرير الفلسطيني والمنظمات الفدائية».

قالوا: «ولكن منظمة التحرير تابعة لمؤتمرات القمة، ولا يمكنكم التصرف بالأموال والسلاح إلا بموافقة الحكومات العربية.. وهذه لا توافق».

قلت: «عندنا مئة حيلة وحيلة، إذا وجدت الإرادة والعزيمة... إذا وافقت المنظمات الفدائية على التوحيد، فأنا أتكفل بإيجاد الصيغة المناسبة».

وانتهت تلك الجلسة في إطار هذا الحوار على أن نستأنفه بعد بضعة أيام.. فقد طلب قادة المنظمات بعض الوقت للتشاور مع زملائهم «وقواعدهم».

والتقينا في جلسة أخرى، وكان القادة هذه المرة غير القادة الذين جاؤوا في الجلسة السابقة، ولا أبيح لنفسي أن أذكر أسماء السابقين أو اللاحقين، فقد كنا نتعاهد على الكتمان، وقد كادت مذكراتي أن تغريني بذكر أسمائهم، ولكن الوفاء فوق الإغراء.

وبدأنا الحديث من جديد، لا من حيث انتهينا في الجلسة السابقة، وعدنا إلى موضوع توحيد المنظمات الفدائية تحت إشراف منظمة التحرير الفلسطينية.

قالوا: «إن منظمة التحرير مؤسسة علنية في كل أعمالها.. ونحن منظمات سرية، فكيف سيكون التنسيق والتوحيد؟».

قلت: «نلجأ إلى إنشاء مجلس ثورة سري، يكون أعضاؤه من قيادة المنظمة وقيادات المنظمات الأخرى وجيش التحرير».

قالوا: «وكيف تكون النسبة العددية للمنظمات؟».

قلت: «هذه عملية ثورية، وليست حكومية ائتلافية.. أرى أن تمثل كل منظمة برئيسها.. وكفى».

قالوا: «الحقيقة نحن لا نثق إلا بسوريا.. الحكومات العربية الأخرى تطاردنا وتضطهدنا ولا تنشر بلاغاتنا، ونحن نرى أن تمضي منظمة التحرير في طريقها، ونحن نمضي في طريقنا».

قلت: «وما هو طريقكم؟».

قالوا: «نحن نريد أن نورّط الدول العربية.. نريد أن نجرهم إلى الحرب مع إسرائيل.. إن قضيتنا آخذة بالذوبان مع الزمن.. الحكومات العربية لا تريد أن تحارب وهي لا تستعد للحرب.. إن ضربنا لإسرائيل، وضرب إسرائيل للدول العربية هو الحافز الوحيد لأن تستعد الجيوش العربية.. لا بد لنا من أن نورط الحكومات العربية».

قلت: «أنا موافق على التوريط.. التوريط نافع إذا كانت الحكومات العربية قادرة وغير راغبة.. أما إذا كانت غير قادرة ولا راغبة، فماذا تكون النتيجة؟؟».

قالوا: «فيّ وفي أعدائك يا رب.. نحن نريد أن نورّط الدول العربية».

قلت: «لو أن التوريط يقتصر على ثلاثة عشر ملكاً ورئيساً، فلا ردهم الله.. ولكن التوريط سيشمل الأمة العربية بأسرها».

قالوا: «نحن نعتقد أن إسرائيل ستقوم بغارات انتقامية فقط، ولن تقوم بحرب شاملة، وبهذا تكون خطتنا سليمة ومجدية».

قلت: «أنتم مخطئون.. إذا كان هذا هو اعتقادكم، فأنتم لا تعرفون الصهيونية وأطماعها.. إن إسرائيل لا تكتفي بالعدوان الذي تمّ، ولكنها تتطلع إلى التوسع، إلى المزيد من أرض فلسطين، ومن الأرض العربية».

قالوا: لقد بدأنا أعمالنا الفدائية منذ بضعة أعوام، وقمنا بعدة أعمال داخل الأرض المحتلة.. وكل ما فعلته إسرائيل هو الغارات الانتقامية فقط.

قلت: «ان إسرائيل ستختار ميدان المعركة وزمانها.. وإني أريد أن أهمس في آذانكم حقيقة توصلت إليها في الاجتماعات العربية السرية وآخرها في مؤتمر الدار البيضاء.. إن الجيوش العربية غير قادرة على الدفاع، فضلاً عن الهجوم.. ولقد رأيتم كيف أن إسرائيل قد ضربت مواقع التحويل في سوريا (٧ نيسان/ أبريل) فلم تستطع الدول العربية أن تلقي قذيفة من الزهور على إسرائيل».

قالوا: «ولكن طاقات الأمة العربية ليست بهذا القدر من العجز».

قلت: «إن طاقات الأمة العربية قادرة على أن ترد لإسرائيل الصاع صاعين، لو.. لو أنها اجتمعت في قبضة واحدة..ولكن الأمة العربية شيء، والحكومات العربية شيء آخر».

قالوا: «أنت تكلمنا كلاماً دبلوماسياً».

قلت: «أنا أكلمكم كلاماً قومياً في الصميم..لقد قضيت عمري في الدفاع عن القضية الفلسطينية، ولكني أعرف الواقع العربي الممزق».

قالوا: «الأمر يحتاج إلى تفكير ثوري.. وأنت متأثر بالتفكير السياسي».

قلت: «أنا وطني أعرف، وأنتم وطنيون لا تعرفون.. وهذا هو الفرق بيننا.. أسأل الله أن يهدينا جميعاً».

وعلى هذا الدعاء انتهى الحديث بيننا، ولم أكن أحسب أنه بعد شهر واحد من تلك الأحاديث ستجد إسرائيل فرصتها الذهبية للانقضاض على مصر والأردن وسوريا، الواحدة بعد الأخرى، وتحتل الأرض العربية من القنال إلى الجولان... ولقد كانت إسرائيل أسرع من حسابي ومخاوفي.

أما موقف البعث، الحزب القائد، فقد عرفته من اللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش السوري في حديث طويل جرى بيني وبينه في رئاسة الأركان السورية.. وقد تشعب النقاش في كل موضوع وإلى كل اتجاه.. من مصاعب جيش التحرير الفلسطيني، إلى القيادة العربية الموحدة، إلى التنسيق مع الجمهورية العربية المتحدة، وغير ذلك من الأمور التي يفترض في رئيس الأركان في أي دولة أن يعرفها أكثر من وزير الدفاع، وربما من رئيس الدولة نفسه، حتى ولو كان ضابطا سابقاً.

وركزت في بداية الحديث على ضرورة التعاون العسكري التام بين القاهرة ودمشق باعتبار أن الجبهة السورية وفيها مرتفعات الجولان تؤلف منطلقاً خطيراً على إسرائيل، وانتقلنا بعد ذلك إلى أهمية سلاح الجو في أية معركة تنشب بيننا وبين إسرائيل.. وقلت:

«الذي أعلمه أن وفد الجمهورية العربية المتحدة الذي جاءكم في الشهر الماضي (نيسان/ أبريل) قد عرض تعزيز سوريا بأسراب من سلاح الجو المصري، وتكون لها قاعدة جوية على الأرض السورية، فماذا تم في الأمر؟؟».

قال: «نحن لا نعترف بالحدود، أحب الحكام هذه الحقيقة أم لم يحبوا، إن سوريا

مفتوحة لأي تعزيز عسكري يأتي من أي جانب عربي مخلص. . أما قاعدة جوية مصرية على الأرض السورية، لماذا؟».

قلت: «أنت رجل عسكري. . أرجو ألا تتكلم معي بلغة التصميم. . ثم إنه يجب ان ننزل من سماء الشعارات إلى أرض الحقائق. . هل القاهرة جانب عربي مخلص؟».

قال: «نعم بالتأكيد، وإن بيننا اتفاقية الدفاع المشترك».

قلت: «ولماذا تعارضون في أن يكون لمصر قاعدة جوية في سوريا؟ . . وقد سمعت منك الآن الكلام الذي سمعته من البعث سنين طويلة، وهو أنكم لا تعترفون بالحدود».

قال: «الصحيح، إنه لا حاجة إلى إقامة قاعدة جوية لمصر على أرض سوريا، يوجد عندنا من القواعد الجوية في سوريا ما هو أكثر من حاجتنا بالنسبة إلى حجم بلادنا وحجم مسرح العمليات».

قلت: «زيادة الخير خير. . في الشهر الماضي اقتحمت الطائرات الإسرائيلية سماء دمشق، ثم إن تعزيز سلاحكم الجوي يمكّنكم أن تضربوا إسرائيل في سماء حيفا بالذات. . أليس كذلك؟».

قال: «موضوع إنشاء قاعدة جوية مصرية على الأرض السورية ليس مسالة عسكرية فحسب، ولكن له اعتبارات أخرى، وقد بحثناها في القيادة القطرية، ورأينا إرجاءها في الوقت الحاضر».

ولم أسترسل أبعد من ذلك في هذا الموضوع، فقد أدركت أن الاعتبارات الأخرى التي أشار إليها رئيس الأركان السوري هي في الواقع تخوُّف حزب البعث من أن تكون القاعدة الجوية المصرية ظهيراً لأية حركة تقوم بها بعض عناصر الجيش السوري للعودة إلى الوحدة مع القاهرة.

وهكذا «يفسر» البعث شعار الوحدة الذي نفذ من خلاله إلى الجماهير العربية. . وإلى طلائع الطلبة والشباب وصغار الضباط.

وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن القيادة العربية الموحدة، وأعربت له عن «شكاوى» الفريق علي عامر من موقف سوريا السلبي، وأن المصلحة العربية تفرض الاستجابة لمطالب القيادة العربية الموحدة، وقلت:

«أرى ان تبرق إلى الفريق علي عامر لإيفاد اللواء عبد المنعم رياض إلى دمشق للتفاهم، أو لإزالة سوء التفاهم على الأقل».

قال: «عبد المنعم رياض عسكري ممتاز.. ولكن القيادة العربية الموحدة.. لا.. أبداً».

قلت: «لماذا؟».

قال: «نحن نضع خططنا بالتعاون مع الجمهورية العربية المتحدة، وهذا يكفي».

قلت: «كلاكما على خطأ، سوريا والجمهورية العربية المتحدة.. إما أن تعزلوا القيادة العربية الموحدة أو تتعاونوا معها.. أما أن تترك معلقة بين السماء والأرض، فهذا لا يصح إطلاقاً».

قال: «لم يكن لهذه القيادة أي عمل إيجابي في الماضي، ولن يكون لها في المستقبل، إنها القيادة العربية المرحومة.. وهي بالنسبة إلينا غير موضوعة بالحساب.. نحن نحضر اجتماع القيادة العربية الموحدة لمجرد الاستماع..ونحن لا نرسم أية خطة تعتمد على وجود القيادة العربية الموحدة، ونحن.. ونحن..».

قلت: «سأعود إلى القاهرة بعد بضعة أيام، فهل من سبيل إلى «إعادة العلاقات» بينكم وبين القيادة العربية الموحدة؟ هل أستطيع أن أؤدي خدمة في هذا السبيل؟».

قال: «أرجو أن لا تتدخل في الأمر.. لقد كان آخر ما فعله الفريق علي عامر أنه أرسل ينذرنا بألا نسمح للفدائيين بالانطلاق من الأرض السورية.. ونحن من جانبنا قد رفضنا هذا الإنذار.. إن الحزب تبنّى العمل الفدائي، ولن نتراجع عن ذلك ولو أدى الأمر إلى احتلال دمشق».

قلت: «وموضوع العمل الفدائي يمكن التفاهم عليه مع الفريق عامر.. إن الخطة التي جرى الاتفاق عليها في مؤتمر الدار البيضاء تتضمن «واجب» العمل الفدائي».

قال: «العمل الفدائي هو من اختصاص سوريا، ونحن لا نسمح لأحد بالتدخل فيه.. ونحن نريد من جيش التحرير الفلسطيني ألا يكون جيشاً كلاسيكياً، يستعرضه من يستعرضه ويخطب فيه من يخطب.. حبذا لو خلع جيش التحرير ملابسه العسكرية ولبس ملابس الفدائيين».

قلت: «أظنك تعرّض بي.. أنا وأنت كنا آخر من استعرض جيش التحرير الفلسطيني في درعا (سوريا) وآخر من خطب فيه، قبل ثلاثة أشهر.. وعلى كل حال.. فإن جيشنا هو على أرضكم وتحت سيادتكم..أصدروا إليه الأوامر ليخلع ملابسه العسكرية، ويلبس ملابس المغاوير، وينطلق بالإغارة على إسرائيل..وهذا هو الميدان أمامكم».

قلت هذا في نبرة حادة ساخرة.. ووقفت لأنهي الحديث مع رئيس الأركان، بعد أن أيقنت أنه فاقد الأركان.. الأركان الخمسة: من البصر إلى الذوق.. «والذوق» أولاً لا آخراً.

ومن هذا الحديث العسكري بأجوائه المشحونة بالتشنج، اعتزمت أن أتولى بنفسي «تقدير الموقف»، وهو المصطلح العسكري الذي يستخدمه العسكريون حينما يقفون على عتبات الحرب... وبدأت أقضي بضع ساعات في مكتب المنظمة في دمشق وساعات أخرى في دار وزارة الخارجية السورية لأطلع على التقارير السياسية والصحافية.

وفي الحجرة نفسها التي كانت أجلس فيها في وزارة الخارجية السورية حين كنت رئيساً للوفد السوري (١٩٥١ ـ ١٩٥٧) تكدست على طاولتي البرقيات الواردة من الأمم المتحدة وقصاصات الصحف العالمية، وبدأت أقرأ، وأدرس، وأحلل، وأستنتج.

وكان د. إبراهيم ماخوس يعرّج على مكتبي كلما انتهى من اجتماعات الحزب، أو من لقائه مع سفراء الدول العظمى.. وسألني وأنا اقلب الملفات أمامي:

قال: «ما هو رأيك في الموقف؟ الحمد لله الأمور طيبة جداً.. الأعمال الفدائية تتصاعد كل يوم، وسنمضي في مساندتها إلى النهاية بالمال والرجال والسلاح.. المهم أن نجرّ الدول العربية إلى المعركة، ولا يجوز أن تبقى سوريا وحدها في الميدان».

قلت: «وأنا كذلك حريص على ألا تبقى سوريا وحدها في المعركة.. ولكن هل نحن مستعدون هذا العام للمعركة؟، لقد كان الرئيس أمين الحافظ موجوداً في اجتماع القمة في الدار البيضاء، واستمع إلى تقرير القائد علي عامر، وإن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت لاستكمال الاستعداد».

قال: «نحن لا نردّ على الفريق عامر.. هذا خرفان.. إنه لا يؤمن بالحرب الشعبية».

قلت: «لماذا لم تناقشوه في المؤتمر.. ولماذا لم تطالبوا بتبديل هذا القائد الخرفان؟.. وعلى كل حال فإن الحرب الشعبية تحتاج إلى وقت.. وهل أنتم مستعدون للحرب اليوم أو غداً؟؟».

قال: «إن إسرائيل لا تجرؤ على الحرب اليوم ولا غداً.. إن أمريكا تمنعها من ذلك خوفاً على مصالحها.. وإن روسيا ستساعدنا حفاظاً على صداقتها معنا».

قلت: «هذا تقدير خطر وخطير.. إن أمريكا تنتظر الفرصة الملائمة لضرب القومية العربية. وإن روسيا تساعدنا، ولكن في حدود تتفق مع ظروفها الدولية.. وإنني أخشى أن تضربنا إسرائيل في الوقت الذي يلائمها ولا يلائمنا.. بل إنها

تبحث عن الفرصة الأولى للهجوم علينا قبل أن نستكمل قدراتنا العسكرية.. وكل التعليقات التي أراها أمامي في هذا الملف تنبئ أن إسرائيل تتحين الفرصة للهجوم».

وأخذت أقرأ على الوزير السوري ماخوس، وقد جرّ كرسيه إلى جانبي، وهو يثبت مسدسه في حزامه، ورحت أقلب القصاصات واحدة بعد الأخرى... وأقرأ:

«ليفي أشكول رئيس حكومة إسرائيل ووزير الدفاع خطب في المؤتمر الوطني لمنظمة الطلاب الإسرائيليين، فهدد سوريا بصورة قاطعة حاسمة وأعلن أنه إذا كان أحد خلف الحدود يعتقد أن تفوقه الطوبوغرافي يضمن له حصانة يستطيع معها مهاجمتنا وانتهاك حرمة حدودنا من دون أن يصله العقاب فهو يرتكب خطأ فادحاً، وأن رجال الجو الإسرائيلي قد برهنوا لسوريا وللعالم أجمع أننا نعرف كيف نحمي حقوقنا ونصون أرواح مواطنينا» (٢٦/ ٤/ ١٩٦٧).

«ليفي أشكول رئيس حكومة إسرائيل ووزير الدفاع ألقى خطاباً في اجتماع لحزب الماباي قال فيه إنه قد يصبح من الضروري على إسرائيل أن تقوم بعمل ضد سوريا لا يقل عنفاً عن معركة ٧ نيسان/ أبريل، بالنظر إلى تزايد حوادث «التخريب» التي تنظر إليها الحكومة الإسرائيلية على أنها بالغة الخطورة، وأن طبيعة العمليات «التخريبية» الأخيرة تدل على أنها وحدات فدائية سورية نظامية تقوم بهذه الأعمال..» (١٢/ ٥/ ١٩٦٧).

وذهبت وكالة اليونايتد برس إلى أبعد من ذلك، فقد ذكرت: «أن مصدراً إسرائيلياً رفيعاً قال إنه إذا استمرت سوريا في دعم «عمليات التخريب» داخل إسرائيل، فإن ذلك سيستتبع بالضرورة قيام إسرائيل بعمل عسكري لقلب نظام الحكم في سوريا.. وإن الخطوة الإسرائيلية ستكون ضربة قاصمة للنظام السوري.. وإن إسرائيل مستعدة للمخاطرة في مواجهة تدخل مصري إذا ما هوجمت سوريا، رغماً عن أن مصر متورطة في اليمن وجنوب الجزيرة إلى درجة لا تسمح لها بتحمل مسؤوليات جديدة» (١٢/ ٥/ ١٩٦٧).

وانتقلنا بعد ذلك إلى تقييم الموقف الدولي، وأخذ الوزير السوري د. إبراهيم ماخوس يشرح الخطوات التي اتخذها لتحذير الدول العظمى من مغبّة الخطة التي تبنتها إسرائيل، وأنه استدعى سفراء الدول والأعضاء في مجلس الأمن المعتمدين في دمشق وحمّل حكوماتهم، وخصوصاً التابعة للدول العظمى منها، «مسؤولية» أيّ اعتداء إسرائيلي يقع على سوريا.. ثم أضاف: «إن الحكومة السوفياتية كانت قد سلمت إلى السفير الإسرائيلي في موسكو رسالة رسمية تحذر فيها إسرائيل من «مغبة السياسة» المليئة باحتمالات الخطر التي تتبعها إسرائيل تجاه الدول العربية.. وإن

إسرائيل تلعب بالنار في منطقة محاذية لحدود الاتحاد السوفياتي» (١٦/ ٤/ ١٩٦٧).

قلت للوزير السوري: «إن تقييم الموقف، أي موقف دولي، يجب أن ننظر إليه من كل جوانبه . . . يجب أن نتعرف عما تقوله إسرائيل في هذا الصدد، وعما تقوله أمريكا، فكلاهما يؤلف الطرف الآخر في المعركة. . وهو طرف واحد بذاته، لا ينفصل الواحد عن الآخر».

قال: «وما هو موقف الطرف الآخر؟».

قلت: «بالنسبة إلى إسرائيل، فقد ذكرت جريدة **جيروسالم بوست**، وهي الجريدة الإسرائيلية شبه الرسمية (٢٦/ ٤/ ١٩٦٧) أن التحذير السوفياتي بأن «إسرائيل تلعب بالنار في منطقة مجاورة للاتحاد السوفياتي، هو في نظر إسرائيل مجرد تصريحات روتينية». . أما الولايات المتحدة، فقد كان موقفها صريحاً وصارماً، فقد أعلن هيوبرت همفري نائب رئيس الولايات المتحدة (٩/ ٥/ ١٩٦٧) موقفاً أمريكياً رسمياً واضحاً، فقد ألقى خطاباً في حفل غداء أقيم له بمناسبة منحه «جائزة الهستدروت الإنسانية» لعام ١٩٦٧ أعرب فيه عن قلقه «للإرهاب الذي تتعرض له إسرائيل، وأن إسرائيل لا تحتاج إلى تحالف مكتوب مع الولايات المتحدة، فهذا التحالف موجود روحاً».

وفي ما نحن «نغوص» في التعليل والتحليل، اندفع سكرتير الوزير السوري يدعوه إلى مكتبه لمكالمة تلفونية مع د. جورج طعمة مندوب سوريا الدائم لدى الأمم المتحدة في نيويورك، فقفز الوزير السوري وقفز معه مسدسه المشدود إلى وسطه، وخرجت أنا بدوري من مكتبي إلى الفندق وأنا أدس في جيبي بعض القصاصات التي كانت أمامي. . وكأنها التمائم التي يحملها الأطفال دفعاً للأذى، وحماية من العين الشريرة، ومن يدري فقد تكون والدتي رحمها الله قد قلدتني مثل هذه التمائم في عنقي أيام طفولتي. . وها قد أصبحت قصاصات الصحف تمائمي في رجولتي!!

وفي اليوم التالي (١٤ ـ ٥ ـ ١٩٦٧) كنت أتناول الغداء في مطعم الفندق، وإذا بالفريق محمد فوزي رئيس هيئة القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة يربّت على كتفي وهو يقول: «أنت هنا. . .؟»، وقلت: «وأنت هنا كمان؟!».

وصعدنا إلى جناحه في الفندق، وحسبت أني سأجلس معه بعض الوقت، وإذا به يعدّ حقيبته للعودة إلى القاهرة، وقد وصل دمشق منذ ساعتين، وها هو يعود الآن بعد أن انتهى من محادثاته مع اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري، واللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش السوري. . وقلت:

«خيراً إن شاء الله، وهل أنهيت محادثاتك بهذه السرعة؟».

قال (مازحاً): «نحن عسكريون.. لا نحتاج إلى كلام كثير، يمكننا أن نتفاهم بسرعة.. وأنتم السياسيون الله يكون بعوننا عليكم».

قلت: «وهل تفاهمتم.. هل اتفقتم على كل شيء؟.. نحن السياسيون عاطلون، هل اتفق العسكريون؟».

قال: «لقد تفاهمنا على معظم الأمور.. وسنترك باقي الأمور للقيادة السياسية».

قلت: «وموضوع إقامة قاعدة جوية مصرية على الأرض السورية؟».

قال: «قريباً سيصل د. نور الدين الأتاسي إلى القاهرة لبحث هذا الموضوع.. فإن القيادة السياسية لم توافق على هذا الموضوع بعد».

قلت: «لقد طال الحديث في هذا الموضوع.. إن الأمور تسير بسرعة نحو الانفجار، وقد أدلى الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت بالأمس (١٣ ـ ٥ ـ ١٩٦٧) بتصريح أعرب فيه عن قلقه الشديد للأنباء التي تفيد بأن إسرائيل تنوي استخدام القوة ضد سوريا».

وبدأت أخرج القصاصات من جيبي وأقرأها إلى الفريق فوزي، وكانت آخر قصاصة تنقل تصريحاً للجنرال إسحق رابين رئيس الأركان الإسرائيلي، يعلن فيه: «أن أي عمل تقوم به إسرائيل ضد سوريا سيكون مختلفاً عن أية أعمال انتقامية قامت بها القوات الإسرائيلية في الماضي».

وتناول الفريق فوزي القصاصتين من يدي ووضعهما في جيبه، وودعني وانصرف إلى المطار ليستقل طائرته ويعود إلى القاهرة.

وتسللت إلى غرفتي، وأنا أحس بالوحشة والوحدة، فلم أستطع أن أفهم من الفريق فوزي شيئاً.. واندفع سيل جارف من التساؤلات يتفجر في نفسي:

ـ هل وصل الموقف بيننا وبين إسرائيل إلى نقطة الانفجار؟

ـ هل تقدم إسرائيل على الحرب؟

ـ هل تكون حرباً محدودة أم شاملة؟

ـ هل نحن مستعدون للحرب؟

ـ هل تحارب سوريا؟ وهل يحارب الأردن؟ وهل يحارب العراق؟ وهل تساهم الدول العربية الأخرى في الحرب؟ وبماذا؟ وكيف؟

ـ هل تقف الولايات المتحدة مكتوفة اليدين إذا نشبت الحرب؟

ـ هل يكون لروسيا دور إيجابي فعّال في الحرب؟

ـ هل نستخدم البترول كسلاح فعال في هذه المعركة؟

كانت هذه الأسئلة وأمثالها تدور في رأسي ويدور رأسي معها، وفي طليعة هذه الأسئلة كلها كان السؤال الأكبر: وعبد الناصر، العقل الهادئ.. والأعصاب الباردة.. أَعرفُ العرب بالدول العربية، وبإسرائيل، وبأمريكا وروسيا..هل يدخل الحرب؟ هل هو قادر على الحرب، أم إنه يناور ويناور ولا يدخل الحرب؟

لقد عشت تلك الساعة في جحيم هذه الأسئلة وأنا لا أدري لها جواباً.. وكان يتنازعني تعليلان جباران، ماردان، عملاقان: **أولهما** أن إسرائيل تعتزم الحرب، و**ثانيهما** أن جمال عبد الناصر لا يقدم على الحرب..وكان عقلي ممزقاً بين هذين التعليلين الجبارين الماردين العملاقين.

كنت على يقين أن جمال عبد الناصر لن يحارب ولن يدفع الأمور إلى حافة الحرب..فكم وكم أكد لي في لقاءاتنا الخاصة أن مصر والدول العربية معها لم يستكملوا استعداداتهم..وكم.. وكم أعلن في خطبه أمام الجماهير ان مأساة ١٩٤٨ لن تتكرر، ولن تتكرر أبداً.

انتابني الهمّ والغمّ، تماماً كما انتاب الإمام الغزالي وهو ممزق بين الشك واليقين في كتابه **المنقذ من الضلال**، وأعترف أني وقعت في وهدة الضياع في ذلك اليوم الرهيب.

وعزمت على أن أعود إلى القاهرة لأنقذ نفسي من هذه الأزمة الخانقة.

وفي مساء ذلك اليوم كنت في القاهرة، في طريقي إلى بيتي بعد ان غبت قرابة أسبوعين...

وصلت القاهرة، وأنا التمس الأمان..الأمان من مخاوفي..

وشفتاي تتمتمان بالآية الكريمة: ﴿**ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآية ٩٩.

الخطـوة الأولـى علـى طريــق الحــرب

عدت إلى القاهرة من دمشق، وكان آخر عهدي بها منذ أسبوعين، يوم كان الرئيس عبد الناصر يخطب في شبرا الخيمة لمناسبة عيد العمال في أول أيار/ مايو، ويشنّ أكبر حملة على بورقيبة وفيصل والحسين بالجملة والمفرق.. ولعلها كانت آخر مرة تعرض فيها «للفرسان الثلاثة»، فقد جاءت حرب الأيام الستة، ثم جاء مؤتمر الخرطوم، وأعلن الرئيس عبد الناصر وقف إطلاق النار على جميع العواصم العربية، ما كان يعرف منها بالرجعية، وما كان يعرف بالتقدمية.

وكان عبد الناصر في تلك المناسبة بالذات أقسى ما عرفت وما سمعت.. وكانت كلماته تقطر حنقاً ومرارة، ولعل القدر أوحى إليه أنه لن يستطيع أن يمسك بتلابيبهم بعد ذلك اليوم، فراح يصبّ جام غضبه، ويستغضب معه الجماهير العربية، ويصيح صيحته الأخيرة، وهو يقول: «بورقيبة أنا مش عايز أتكلم عليه، الراجل عيّان ربنا يشفيه.. ربنا يشفي عقله كمان... الملك فيصل والملك حسين بيشغلّوهم الإنكليز والأميركان.. خلقوا عميل من العائلة الهاشمية وعميل من العائلة السعودية.. فيصل بيدّي فلوس ليطبع بها كتب ضد جمال عبد الناصر وضد الثورة.. فيصل بيتكلم على الدين وقلبه ما في دين.. إذاعة الملك حسين بتشتغل للمخابرات الأمريكية.. الملك حسين بيعيط هو وأمه..كان فيه تضامن عربي ١٩٤٨، لكن الملك عبد الله كان بيفاوض اليهود..إزاي يكون فيه تضامن بين الثوار وعملاء الاستعمار، جربناهم وما نفعتش التجربة.. وافتكرنا أنه عندهم شرف وضمير.. لا عندهم شرف ولا عندهم ضمير.. إنهم ورثوا العمالة.. ورثوا الخيانة.. إسرائيل تقول إنها لا توافق على تغيير نظام الملك حسين..».

والواقع أن الرئيس عبد الناصر لم يكن متجنياً على الملك حسين في ما أشار إليه، فقد سبق أن صرح أبا إيبان لمراسل مجلة **جويش أُبزرفر** في القدس بأن «إسرائيل تحتفظ بحرية الحركة في حال تغيير الحال الراهنة في الأردن، سواء دخلت الجيوش العربية

أم لم تدخل» (١٧/ ٣/ ١٩٦٧)، وهذا واحد فقط من التصريحات الإسرائيلية الكثيرة في هذا الصدد.

أما بالنسبة إلى الملك فيصل، فقد لحقه خطاب الرئيس عبد الناصر إلى أوروبا حيث بدأ زيارة رسمية إلى بعض الدول الغربية، وراحت التظاهرات المعادية من الطلاب العرب تستقبله حيثما حل، وراحت جريدة **الأهرام** بعناوينها الزاهية تنشر أن «التظاهرات المعادية واجهت فيصل في بدء زيارته لبريطانيا، وأن الطلبة العرب استقبلوه في لندن بصيحات الاستنكار، وهم يرفعون صوراً كبيرة للرئيس عبد الناصر. . وأن مئات من القوات البريطانية تتبع سيارة الملك فيصل مع عدد كبير من رجال الأمن، وأن فيصل ينسق خططه مع لندن ويعمل لحمل بريطانيا على الاحتفاظ بوجود عسكري في عدن. .» (١٠/ ٥/ ١٩٦٧) إلى آخر هذه الأنباء والتعليقات التي برعت فيها **الأهرام** من غير منافس.

أما الملك حسين، فقد أخذ زمام المبادرة بنفسه، ولعله تعلم بعض البديهيات العسكرية البسيطة التي تقول إن الهجوم خير وسائل الدفاع، فقد اختار الهجوم على منظمة التحرير الفلسطينية، فأدلى بحديث إلى جريدة **القدس** الأردنية هاجم فيه منظمة التحرير الفلسطينية، وأكد فيه أن «منظمة التحرير» شارفت على نهايتها للأسباب التالية:

محاولة الشقيري زعزعة الكيان الأردني.

زجّ المنظمة في النزاعات الدولية والعربية، وانحيازها نحو المعسكر الثوري المزعوم، بل تحولها أيضاً إلى جهاز تابع للمخابرات المصرية.

تسخير أبناء المنظمة لأعمال التخريب في البلاد العربية، وفي فييتنام واليمن بدل إسرائيل.

انفراد الشقيري برأيه وخيانته أهداف المنظمة.

تبذير أموال المنظمة في خدمة مطامع الشقيري الخاصة وسادته الثوريين العملاء للشيوعية الدولية، وربط الشقيري للمنظمة بالعجلة الماركسية على نمط أسياده (٧/ ٥/ ١٩٦٧).

ولقد أوردت هذه التعليقات والمقتبسات لأنها تمثل صورة صغيرة ومصغرة عن نوع العلاقات العامة التي كانت تسود مختلف الأطراف العربية لا في الأعوام ١٩٦٤ و١٩٦٥ و١٩٦٦، بل في شهر أيار/ مايو من عام . .١٩٦٧ أي حينما كانت الأمة العربية تقف على حافة الحرب لتقع في ما بعد إلى قاع الهزيمة.

ولقد جاءت الأحداث في النصف الثاني من هذا الشهر (أيار/ مايو) لتحجب هذه الصورة العربية، لا لتمحوها. . فقد امتلأت الأجواء العربية بأنباء التوتر على الحدود السورية، وما تلا ذلك من الحشود الإسرائيلية، وفوهات مدافعها مصوبة صوب الجولان ودمشق، فسكتت مدافع الإعلام العربي بعضها عن بعض، انتظاراً لما يسفر عنه الصراع بين المدافع العربية والمدافع الإسرائيلية.

وكنت كأنني على موعد مع هذه الأحداث، فغداة وصولي إلى القاهرة عائداً من دمشق (١٥/ ٥/ ١٩٦٧) كنت في طريقي إلى مكتب المنظمة، وإذا بي أرى جماهير الشعب على جنبات الطرق وفي الميادين العامة، تقف في صفوف طويلة لتصفق وتهتف لوحدات الجيش المصري، وهي تخترق شوارع القاهرة بمصفحاتها وآلياتها المختلفة، تشق طريقها في اتجاه مناطق القتال.

وقد امتدت هذه المسيرة العسكرية الضخمة بضع ساعات تعطلت أثناءها حركة السير، والناس يحدث بعضهم بعضاً أن الحرب مع إسرائيل وشيكة الوقوع. . وهذه سيارات الهلال الأحمر تتوسط المسيرة، بمن فيها من أطباء الجيش، والممرضين والممرضات.

وقد زاد من يقين الشعب أن الحرب آتية لا ريب ما طالعتهم به الصحف في صبيحة ذلك اليوم من عناوين حمراء لاهبة عن «احتمال انفجار الموقف في أي وقت على خطوط الهدنة بين سوريا وإسرائيل» وعن «الحشود الإسرائيلية التي تتجمع في مواجهة سوريا» وما إلى ذلك من الأنباء المثيرة.

وذهبت في ذلك اليوم إلى المبنى الفخم الأنيق في مصر الجديدة الذي يحتوي وزارة الدفاع في الجمهورية العربية المتحدة، لألتقي مع المشير عبد الحكيم عامر وأبحث معه بعض الشؤون المتصلة بوحداتنا العسكرية في قطاع غزة، فلم أستطع الاجتماع به، فقد كان الضباط يروحون ويغدون في ردهات الوزارة ومعابرها، والاجتماعات العسكرية على قدم وساق، من شمس الدين بدران وزير الحربية إلى شعرواي جمعة وزير الداخلية، إلى الفريق فوزي رئيس الأركان، إلى. . إلى. . وكلهم يبحثون الخطط العامة وتدابير الدفاع المدني. . وعدت أدراجي من دون أن التقي بأحد، إلا تحية عابرة من شمس بدران. . وكلمة واحدة قالها: «خلال اليومين القادمين إن شاء الله نتصل بسيادتك لمقابلة المشير عامر».

وقد أدركت في اليوم التالي (١٦/ ٥/ ١٩٦٧) لماذا لم استطع أن ألتقي بالمشير عبد الحكيم عامر. . فقد علمت أنه كان بالأمس يعقد اجتماعات متوالية في مقر القيادة المتقدمة للقوات الجوية في سيناء. . وأنه اتخذ القرار في تلك الاجتماعات بإعلان حالة

الطوارئ في القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة ابتداء من الساعة السادسة صباحاً، وأنها، بحسب التعبير العسكري، أصبحت في حالة «الاستعداد القصوى».

ولم تخفِ صحف القاهرة، وهي صحف الدولة، سواء في عناوينها أو في مقالاتها «أن الجمهورية العربية المتحدة سوف تخوض المعركة ضد إسرائيل إذا تعرض الوطن السوري لعدوان يهدد أراضيه أو سلامته».

وجاء اليوم السابع عشر من شهر أيار/ مايو . . وعلى المواطن العربي وهو يسير معي في ركاب الأحداث نحو حرب حزيران/ يونيو، ألا ينسى هذا اليوم، فإنه مع يوم آخر سوف يأتي ذكره سيكونان هما اللذان صنعا اليوم الرهيب: الخامس من حزيران/ يونيو.

في هذا اليوم وجّه الفريق محمد فوزي رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة كتاباً إلى الجنرال ريكي قائد قوات الطوارئ الدولية في غزة، ولست أريد أن ألخص هذا الكتاب، فهو جدير بأن ينزل في مذكراتي بنصه الكامل، ذلك ان الإنسان العربي، المعاصر والمقبل، سيرى فيه أول وثيقة عربية في سجل حربنا الثالثة مع إسرائيل، بعد حرب ١٩٤٨ وحرب العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ . . وهذا هو نص الكتاب.

الجمهورية العربية المتحدة

القيادة العليا للقوات المسلحة

١٦/ ٥/ ١٩٦٧

الجنرال ج. أ. ريكي، قائد قوات الطوارئ الدولية ـ غزة

أحيطكم علماً أنني أصدرت تعليمات إلى جميع القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة لتكون مستعدة للعمل ضد إسرائيل فور قيامها بعمل عدواني ضد أي دولة عربية.

وتنفيذاً لهذه التعليمات تجمعت قواتنا في سيناء على حدودنا الشرقية، ولضمان أمن قوات الطوارئ الدولية المتمركزة في نقط المراقبة على حدودها أطلب إصدار أوامركم بسحب هذه القوات فوراً.

وقد أصدرت تعليماتي لقائد المنطقة العسكرية الشرقية في ما يتعلق بهذا الشأن.

التوقيع محمد فوزي

ولقد قرأت كتاب الفريق فوزي عدة مرات، وعلى فترات متباعدة في ذلك اليوم، تماماً كما كنت أفعل قبل ربع قرن من الزمان حين كنت محامياً، أقف عند كل كلمة في مادة قانونية معينة، أقلبها على جميع وجوهها، وها أنا في هذا اليوم وقفت عند عبارات الفريق فوزي باستعداد «القوات المسلحة للعمل ضد إسرائيل» وتجميع «قواتنا في سيناء على حدودنا الشرقية»، والمطالبة بإصدار الأوامر «بسحب قوات الطوارئ الدولية فوراً».

أجل، وقفت عند هذه العبارات، يتقاسمني عاملان يتصارعان: **الأول** وهو الشعور الفلسطيني العربي في فرحة للهجوم على إسرائيل، وتحرير فلسطين وتخليص الأمة العربية من بلاء الصهيونية، و**الثاني** شعور الخوف الذي يتملك الإنسان الدارس وقد خبر قوة الصهيونية العالمية ومساندة الإمبريالية الأمريكية لإسرائيل.. وعرف قبل هذا وذاك تخاذل الحكم العربي المعاصر.

وفي مثل البرق الخاطف انطلقت في آفاق التحليل والتعليل، وأنا أحدّث نفسي، كما يفعل الصوفي، تتحدث روحه إلى روحه، وسرحت إلى ما قبل ثمانية أشهر (أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦) حينما كنا في مؤتمر الدار البيضاء في المغرب نستمع إلى الفريق عامر قائد القيادة العربية الموحدة يؤكد أن تحرير فلسطين يحتاج إلى أمور ثلاثة: مزيد من الاستعداد، ومزيد من المال، ومزيد من الوقت.. ويعقب الرئيس عبد الناصر بقوله: «العامل الثالث هو في نظري العامل الأول..».

ورحت أتساءل في نفسي: ماذا جرى في الأشهر الثمانية التي مضت؟.. هل استكملنا استعداداتنا العسكرية؟ هل دفعت الدول التزاماتها المالية؟ هل جاء الوقت الملائم لتوجيه الضربة القاضية للخلاص من إسرائيل؟

ورحت بدوري أجيب عن الأسئلة.. نحن لم نستكمل استعداداتنا العسكرية، فلا يزال التدريب والسلاح الجوي دون المستوى المطلوب في مصر والأردن وسوريا.. ولا تزال الدول العربية متخلفة عن الوفاء بالتزاماتها المالية.. ولا يزال الوقت بعيداً للقضاء على إسرائيل.. وأحسب أني كنت مؤهلاً لهذه الإجابة، فلم أكن على هامش الأحداث، ولم أكن مراقباً أو متفرجاً.. ولكنني كنت في قلب المسرح العربي وراء كواليسه، أعرف ما يعرف الملوك والرؤساء.. بل أكثر مما يعرف معظمهم.

وفوق هذا وذاك، فقد كنت على لقاءات مستمرة مع الرئيس عبد الناصر منذ سنين طويلة قبل مؤتمرات القمة وأثناءها، ولم يكن حديثنا إلا عن قضية فلسطين وتحرير فلسطين.. وكان على الدوام يؤكد لي أنه لا سبيل إلى تحرير فلسطين إلا حينما تصبح مصر قادرة على صنع الدبابات والطائرات، حتى لا تكون تحت رحمة الدول

العظمى محتكرة الدبابات والطائرات. . ومحتكرة الذخائر وقطع الغيارات.

ولست أكتم المواطن العربي أني كنت لا أستسيغ من الرئيس عبد الناصر هذا الإسراف في الحذر، فالقائد في المعركة يعتمد الحيطة من غير شك، ولكنه لا يفقد الخيال الجاد، والمغامرة الشجاعة.

ومن هنا تملّكني ما يشبه اليقين أن الرئيس عبد الناصر لا يعتزم الحرب في ضميره، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تظاهرة عسكرية لتحقيق مكاسب سياسية، وعلى هذا فقد توقفت عن تحليل كتاب الفريق فوزي وما يحمل في طياته من التهديد بالحرب. . وترجّح، بل تحقق، عندي أن عبد الناصر قد وجد أخيراً، وبعد عشر سنوات، فرصته الذهبية للخلاص من قوة الطوارئ الدولية التي ركبت على أكتافه في أعقاب العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦. وأنه سيقف عند هذا الكسب السياسي وكفى.

والواقع أن قوة الطوارئ الدولية كانت موضوع أحاديث وأحاديث بيني وبين عبد الناصر لسنين طويلة. . فقد كانت المملكة العربية السعودية، والمملكة الأردنية الهاشمية، ومعهما البعثيون والقوميون والإخوان المسلمون والفلسطينيون ينعون على الرئيس عبد الناصر موافقته على وجود قوات الطوارئ الدولية في سيناء وقطاع غزة. . وكان عبد الناصر يؤكد لي في كل مرة أنه في اللحظة التي يستكمل فيها الجيش المصري استعداداته العسكرية سيطلب إلى الأمم المتحدة سحب قواتها الدولية.

ولم يقتصر التنديد بالرئيس عبد الناصر في هذا الصدد على التصريحات الإذاعية والصحافية، فقد شق هذا الموضوع طريقه إلى مجلس الدفاع العربي في آخر جلسة عقدها قبل حرب حزيران/ يونيو (٨/ ١٢/ ١٩٦٦). . وإني لأذكر في ذلك الاجتماع العاصف أن الوفد الأردني قد عرّض بموقف القاهرة في سياق الحديث عن الخطة العسكرية، متسائلاً: «وكيف تستطيع الجمهورية العربية المتحدة أن تؤدي دورها في تحرير فلسطين وقوات الطوارئ الدولية تقف حاجزاً بينها وبين إسرائيل؟».

ومما تجدر الإشارة إليه أن الوفد الأردني قد أثار هذا الموضوع لا حرصاً على أن تكون الخطة العربية لتحرير فلسطين رشيدة سديدة، وانما فعل ذلك نكاية وتمحكاً، ثم جعلها دفاعاً عن موقفه المتخاذل. . فلقد أثار الفريق علي عامر «امتناع الأردن عن السماح للقوات العراقية والسعودية بدخول الأراضي الأردنية»، فلجأ الوفد الأردني إلى هذا «الدفع القانوني» مطالباً وفد الجمهورية العربية المتحدة بأن يسحب قوات الطوارئ الدولية من سيناء وغزة. ويومئذ، أجاب محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة شارحاً الظروف التي أحاطت «بوجود قوات الطوارئ الدولية في غزة وسيناء استناداً إلى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٥ تشرين

الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦»، وأضاف: «بأن حكومة الجمهورية العربية المتحدة تستطيع أن تطلب سحب هذه القوات في أي وقت تشاء».

ونظر بعض وزراء الخارجية في المجلس إلى بعضهم بعضاً تتساءل عيونهم وحواجبهم من دون أن تتحرك شفاههم، ولسان حالهم يتساءل: «وهل تستطيع الجمهورية العربية المتحدة أن تسحب قوات الطوارئ الدولية حين تشاء..؟».

ومضت ستة أشهر على ذلك التساؤل، وجاء الجواب على غير انتظار، وبأسرع مما كانوا يتوقعون.. جاء اليوم السابع عشر من شهر أيار/ مايو ١٩٦٧، فطلبت القاهرة سحب قوات الطوارئ الدولية... وانسحبت فعلاً، وبدأت تحتشد القوات المصرية في مواقعها المحددة لها في سيناء وفي الخطوط الأمامية من الجبهة.

وقد استقبلت الأمة العربية هذا الحدث التاريخي بموجات هادرة من الابتهاج، وكأنما رأت فيه بوادر التحرير والنصر.. ولكن الحكم الأردني ظل سادراً في غواياته ونكاياته، فقد نشرت جريدة **الدستور** الأردنية تصريحاً نسبته إلى «مصدر مصري» قال فيه: «إن ثلاث كتائب مصرية تمردت على القيادة الناصرية وطلبت طرد قوات البوليس الدولية، وإن الفرق الخاصة والمخابرات المصرية قد أمرت بالتحرك لمنع هذه الكتائب وضربها في السويس..» (١٨/ ٥/ ١٩٦٧).

وحذت تونس حذو الأردن، وكلاهما في موكب واحد، فقد أعلن مندوب تونس لدى الأمم المتحدة للصحافيين: «أن وجود قوات الطوارئ الدولية أتاح لمصر الاستمرار في مساعدة اليمنيين وإلقاء الخطب الرنانة ضد إسرائيل.. وأن التحركات العسكرية الحالية في مصر وطلب انسحاب قوات الطوارئ الدولية هي شبه مناورة من مصر للتأثير في الرأي العام العربي.. فالمصريون يريدون التظاهر بأنهم سيقدمون على القتال إذا نشبت الحرب بين سوريا وإسرائيل...».

وفي هذا الوقت الذي كان يتردّد فيه صوت النشاز العربي من الأردن وتونس كان انسحاب قوات الطوارئ الدولية على الصعيد الدولي قد فجر أزمة بين المستر يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة وعدد من الدول العظمى والوسطى والصغرى.. وقد بدأ مكتب المنظمة في نيويورك يوافينا بالبرقيات والرسائل يوماً بعد يوم.

وكان طبيعياً أن يكون لنا دور في هذا الأمر، مضافاً إلى الاهتمام العام بالقضية ذاتها، ذلك أن قوات جيش التحرير الفلسطينية قد حلّت محل قوات الطوارئ الدولية في الخطوط الأمامية في قطاع غزة، فأقامت في ثكناتها، ورفعت علم فلسطين مكان علم الأمم المتحدة، والقوات الإسرائيلية على الطرف الآخر من خطوط الهدنة ترى هذا المشهد «الكريه»، وتودّ لو تقصفه وتسحقه.

وكان أول التقارير التي تلقيناها أن يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة قد أعلن: «أن القوات الدولية قد ذهبت منذ عشر سنوات إلى المنطقة بموافقة الجمهورية العربية المتحدة، وأنه إذا طلبت القاهرة سحب القوات فعليها أن تنسحب».

وأعلن جورج براون وزير خارجية بريطانية موقف حكومته في «أن الموقف خطير في الشرق الأوسط، وأنها لسخرية من جهود الأمم المتحدة الرامية إلى السلام أن يطلب من قواتها الانسحاب في وقت تشتد فيه حدة التوتر».

وتصدّى بول مارتن وزير خارجية كندا للموضوع فأعلن: «أن كندا تعارض سحب قوات الطوارئ الدولية، وأن معظم الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بما فيها الولايات المتحدة وبريطانيا تعارض طلب الجمهورية العربية المتحدة».

وحملت إسرائيل على يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة، فقد أعلن ليفي أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي استنكاره لما أسماه «بالخطوة، المتسرعة التي قام بها يوثانت في الموافقة على سحب الطوارئ الدولية باعتبار أن هذه الخطوة لها مضاعفات خطرة من شأنها أن تغيّر ميزان الأمن في المنطقة».

ولم يكد رئيس الوزراء الإسرائيلي يكمل تصريحه هذا حتى ثارت عاصفة ملتهبة في الكونغرس الأمريكي، كأنما غارة روسية قد شنّت على الولايات المتحدة، فقد احتج عدد من النواب والشيوخ على يوثانت واتهموه «بالاستسلام وتجاوز اختصاصه.. وأن على الولايات المتحدة أن توجه إنذاراً إلى القاهرة ودمشق يضع الأمن في نصابه».

وهكذا، فقد أصبح يوثانت وكأنه في قفص الاتهام، فلم يكن أمامه إلا أن يدافع عن نفسه، فقدم إلى الجمعية العامة تقريراً خاصاً شرح فيه الأسباب التي حملته على الموافقة على سحب القوات الدولية باعتبار «أن هذه القوات نقلت إلى المنطقة بناء على اتفاق تم الوصول إليه في القاهرة بين الأمين العام للأمم المتحدة داغ همرشولد والرئيس جمال عبد الناصر.. وبما أن الجمهورية العربية قد سحبت موافقتها، فقد أصبح لزاماً على الأمم المتحدة أن تسحب قواتها من المنطقة، لأن موافقة البلد المضيف أمر أساسي» (١٩/ ٥/ ١٩٦٧).

وكان الفضل ليوثانت أنه فجّر دمّلاً قديماً كان ينزّ صديداً منذ زمن طويل، فقد كان خصوم عبد الناصر، سواء منهم المخلصون أو الخائنون، يتهامسون على الدوام أن الرئيس عبد الناصر قد وقّع مع داغ همرشولد الأمين العام السابق للأمم المتحدة «اتفاقية سرية خطيرة» من شأنها أن تبقي قوات الطوارئ الدولية إلى أجل غير محدود في سيناء وغزة حتى لا تقوم حرب بين العرب وإسرائيل.

وقد شاءت الأحداث الحاضرة، ومعها الصدفة العابرة، أن انسحبت القوات

الدولية، واضطر يوثانت أن يكشف النقاب لأول مرة وبصورة رسمية عن هذه «الاتفاقية السرية الخطيرة».. وقد أرادها دفاعاً عن نفسه، فجاءت كذلك دفاعاً عن عبد الناصر، وبدا جلياً أنها ليست «اتفاقية خطيرة».. وكل ما فيها أنها موافقة من الجمهورية العربية المتحدة على وجود القوات الدولية على الأرض المصرية.

كان هذا كله يدور على الصعيد الدولي في الوقت الذي كنت فيه أعيش الأحداث اليومية المثيرة في الساحة العربية، فقد كانت لي عين وأذن هنا، وعين وأذن هناك، وإن كانت الأحداث في الوطن «مهماز» التحرك الدولي حيثما كان.

وكانت القاهرة في تلك الحقبة هي المهماز الأكبر للأحداث العربية والدولية على السواء، واتصلت بمكتب الرئيس عبد الناصر أطلب موعداً لمقابلته لأتعرف على طبيعة تلك المرحلة بأبعادها وأعماقها، ورد عليّ مدير مكتبه سامي شرف قائلاً: «لا أظن أن وقت الرئيس يسمح في هذا الأسبوع، إنه مشغول جداً، الاجتماعات العسكرية متصلة، والمواعيد كثيرة متراكمة، ونحن مشغولون هذه الأيام بصورة خاصة في توجيه رسائل إلى رؤساء الدول الصديقة... على كل حال سأتصل بك في الساعة الأولى التي أجد فيها فراغاً في مواعيد الرئيس... و...».

ولكن موعداً آخر قد تيسّر لي، وكنت طلبته منذ بضعة أيام، وكان هذا الموعد مع المشير عبد الحكيم عامر... ودخلت عليه في مكتبه فوجدته بادي القلق، يدخن من عينيه وأذنيه، ويبادرني الكلام قائلا:

«إيه.. يا أخ أحمد.. نحن الآن على أبواب المعركة...».

قلت: «المهم في هذه المعركة ألا تكون مصر وحدها».

قال (وهو يقاطعني): «أنا أعرف ماذا تريد أن تقول.. نحن سنبذل جهدنا ألا نكون وحدنا في المعركة. أعتقد أن سوريا ستحارب قطعاً، لأن هذه الحرب هي أصلاً من أجل الحفاظ على سلامتها وأراضيها... لقد حشدت إسرائيل أحد عشر لواء من المصفحات على حدود سوريا، كما أن قوة الطيران الضاربة الإسرائيلية قد حشدت في المنطقة الشمالية على مقربة من الجبهة السورية».

قلت: «إن معلوماتي من مؤتمرات القمة الثلاثة التي اشتركت فيها أن الجيوش العربية لا تزال غير قادرة على خوض المعركة...، فما هو تقديرك للموقف؟».

قال: «نحن قادرون على الدفاع... وهذا يكفي في هذه المرحلة... نرجو أن يأتي الوقت قريباً لنأخذ المبادرة بالهجوم ونخلص من إسرائيل إلى الأبد... ولكن أمريكا هي المشكلة».

قلت: «وما هو موقف الاتحاد السوفياتي؟».

قال: «إن الاتحاد السوفياتي هو الذي نبهنا إلى خطورة التحرك الإسرائيلي. . . أصدقاؤنا الروس وصلتهم معلومات موثوقة أن إسرائيل تريد أن تقوم بحملة عسكرية على سوريا لإسقاط النظام القائم، وطبعاً نحن ملزمون بالدفاع عن سوريا تنفيذاً لاتفاقية الدفاع المشترك وقياماً بواجبنا القومي. .».

قلت: «وما هو دورنا. . دور جيش التحرير الفلسطيني؟».

قال: «قواتنا المسلحة نفذت الأوامر الصادرة إليها، وهي تحتشد الآن في المراكز المحددة على الجبهة. . أما بالنسبة إلى جيش التحرير، فسيكون في الميدان قطعاً. . . وماذا ترى في هذا الصدد؟».

قلت: «أرى أن يكون جيش التحرير الفلسطيني في المواقع الأمامية في جبهة قطاع غزة، وإن بعض وحداتنا مرابطة الآن في سيناء، وأرى أن تنقل فوراً إلى القطاع. . وعلى كل حال لا بد من تعيين قيادة عسكرية خاصة للمنطقة. . ولقد استقبلت في هذه الفترة وفوداً كثيرة من قطاع غزة، وهم يناشدون القاهرة أن تحشد في القطاع قوة عسكرية كبيرة. . إنهم يخشون من أن يسقط القطاع كما جرى في العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦، ولذلك فإنهم يلحّون على أن تتولى وحدات آلية مهمة الدفاع عن القطاع».

قال: «هذه مسائل عسكرية بحتة ترسمها رئاسة الأركان. إن الدفاع عن القطاع لا يمكن من القطاع ذاته، ولكن من المحاور المحيطة بالقطاع. . كن مطمئنا من هذه الناحية، وسندافع عن القطاع قبل دفاعنا عن سيناء».

وتناول المشير عامر التلفون وأصدر أوامر إلى الفريق فوزي رئيس الأركان بتعيين اللواء عبد المنعم حسني الحاكم العام للقطاع قائداً عسكرياً للقطاع، وبأن يأخذ جيش التحرير الفلسطيني مواقع في الخطوط الأمامية في قطاع غزة في مواجهة العدو مباشرة.

وخرجت من مكتب المشير عامر، ومررت بمقر قيادة جيش التحرير الفلسطيني في مصر الجديدة، وأصدرت بدوري أمراً بأن تنتقل قيادة جيش التحرير الفلسطيني إلى الميدان، إلى غزة، لتتعاون مع اللواء عبد المنعم حسني.

وعدت إلى مكتبي لأضع الأمور في نصابها بالنسبة إلى نصيبنا في المعركة، فوجهت ثلاث رسائل إلى الرئيس عبد الناصر، وإلى الرئيس السوري د. الأتاسي، وإلى الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، أبلغهم فيها أن قوات جيش التحرير

الفلسطيني في غزة وفي سوريا وفي العراق قد أصبحت تحت إمرة القيادة العسكرية في كل من القاهرة ودمشق وبغداد.

وأخذت الأحداث تتطور مثل وميض البرق. . فقد بدأت الحشود الإسرائيلية في الضمور في مواجهة الجبهة السورية بعد أن اندفع الجيش المصري إلى المواقع الأمامية في جبهة سيناء، وأصبحت القوات الإسرائيلية تتدفق بأقصى سرعة نحو الجنوب في مواجهة الجبهة المصرية، وأعلن المشير عامر في بيان صحافي جاء فيه: «أنا أقول بوضوح قاطع إنه لا ينبغي لأحد، سواء داخل منطقة الشرق العربي أو خارجه، أن يساوره شك في أن الجمهورية العربية المتحدة سوف تضرب بكل قوة أي محاولة للعدوان. . ولست أقول أكثر من أن القوات المسلحة الرابضة الآن في مواجهة العدو الإسرائيلي ستضرب أي حركة عدوانية في أي ميدان وفي أي اتجاه وستضرب بقوة» (١٩/ ٥/ ١٩٦٧).

وكنت إلى هذه اللحظة، وحتى بعد قراءة هذا البيان، أرجح أن الجمهورية العربية المتحدة لا تعتزم أن تدخل الحرب، وأن كل مقصدها أن «تمتص» الحشد الإسرائيلي الذي تجمع في الجبهة السورية. . ولكن المخاوف بدأت تساورني حينما نقلت وكالات الأنباء أن إسرائيل قد أصدرت أمراً باستدعاء الاحتياطي.

بل إن مخاوفي ازدادت رسوخاً حينما أعلن ناطق بلسان وزارة الخارجية الإسرائيلية أنه «لا توجد تحشدات إسرائيلية. . وأن التحشدات الوحيدة في إسرائيل هي تحشدات السياح»!! فإن الذين يعرفون أساليب إسرائيل السياسية والعسكرية يفهمون خفايا هذا التصريح، فإسرائيل أكثر تحدثاً عن السلام حينما تكون أكثر استعداداً للحرب. . وتلك هي خبرتنا الطويلة مع إسرائيل.

وصادف أن انعقد مجلس الجامعة العربية. . وأقول «صادف» لأن مجلس الجامعة لا ينعقد للأمور الخطيرة التي يواجهها الوطن العربي، وقد عرفت على مدى خمسة وعشرين عاماً أنه حين ينعقد يتخذ القرارات «الضخمة» بعيداً عن ثلاث: الجدية، والمسؤولية، والشجاعة.

وهكذا صادف أن اجتمع مجلس الجامعة العربية في دورته العادية، وصادف أن يكون هذا الاجتماع في اليوم العشرين من شهر أيار/ مايو ١٩٦٧، حين كانت القوات العربية والإسرائيلية وجهاً لوجه ومدفعاً لمدفع. . وترددت، هل أحضر هذا الاجتماع، أو أنيب أحداً من رجال المنظمة، ولكني آثرت في النهاية أن أحضر بنفسي، لا تقديراً لمجلس الجامعة، ولكن تقديراً لرهبة الحقبة التي كانت تعيشها الأمة العربية.

وندمت على الحضور، فلم يكن المجلس على مستوى الرؤساء أو الوزراء، كما تفرض الأحداث، ولكن كان على مستوى «القائمين بالأعمال» من السفارات العربية وبعض المندوبين الدائمين، وأصدر مجلس الجامعة واحداً من قراراته التافهة التي شهدتها على مدى الأعوام والأعوام.

والواقع أن هذا القرار لا يستحق أن يجد له مكاناً في مذكراتي، لولا أن كل ساعة من تلك الأيام كانت تؤلف بذاتها وقفة تاريخية لا يجوز إغفالها، ولذلك عزمت على أن أقتبس القرار التافه بنصه الكامل لتدرك الأجيال العربية عمق الهاوية التي انحدر إليها هذا الذي يسمى بالتضامن العربي. . وإلى هذه الأجيال أقدم النصّ الكامل لذلك القرار:

«بحث مجلس الجامعة ببالغ الاهتمام موضوع التهديد الإسرائيلي السافر على أراضي الجمهورية العربية السورية والحشود الإسرائيلية الكبيرة على خطوط الهدنة، والإجراءات الفورية الحاسمة التي اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة في مواجهة التهديد الصهيوني بالعدوان، وإعمال حقها في إنهاء مهمة قوة الطوارئ الدولية، وتضامن الدول العربية التي أعربت عن تأييدها للجمهورية السورية والمحاولات الأجنبية المناوئة للموقف العربي. .

ويعلن المجلس ما يلي:

أولاً: تأييد الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة تأييداً تاماً في موقفهما والتضامن معهما في جميع الميادين.

ثانياً: طبقاً لالتزامات الدول الأعضاء في معاهدة الدفاع العربي المشترك وميثاق جامعة الدول العربية، فإنها جميعاً تعتبر أي عدوان على أي أرض عربية عدواناً عليها جميعاً تتضامن كلها في صده، وتنهض بمسؤولياتها إزاءه.

ثالثاً: شجب المحاولات الاستعمارية سواء بالنسبة إلى تشجيع إسرائيل على العدوان طبقاً لمخطط استعماري صهيوني مشترك، أو بالنسبة إلى التشكيك في الموقف العربي مواجهة للتهديدات الإسرائيلية العدوانية، ووقوف الدول العربية ضدها صفاً واحداً.» وهذا هو القرار بنصه وفصه!!

وقد كان من الممكن أن يصدق الرأي العام العربي هذه الكلمات عن التضامن العربي. . وصدّ أي عدوان إسرائيلي، لولا أن أصواتاً عربية مسؤولة خارج المجلس كانت تكذب جامعة الدول العربية من غير مواربة ولا استحياء.

ومن هذه الأصوات ما قاله وكيل وزارة الإعلام السعودية الشيخ فهد السديري

الذي كان يقوم بزيارة للكويت، فأعلن في مؤتمر صحافي أن: «اتفاقية الدفاع المشترك بين سوريا والجمهورية العربية المتحدة تستهدف في الحقيقة وقف أعمال الفدائيين ضد إسرائيل، وأن مصر لو كانت راضية في الأساس عن أعمال الفدائيين لفتحت لهم أبواب صحراء سيناء لأنها المنطلق الطبيعي للفدائيين» (١٦/ ٥/ ١٩٦٧).

وقد أذاعت وكالات الأنباء العالمية هذا التصريح السعودي.. فلم يسع د. إبراهيم ماخوس نائب رئيس الحكومة السورية ووزير خارجيتها إلا أن يمارس هوايته المفضلة، ورياضته المعتادة، فهاجم الملك فيصل «الذي يتمرغ في أوحال الخيانة عند الملكة إليزابيث في لندن»، كما هاجم الملك حسين «الذي يحشد قواته على حدود سوريا بعيداً عن أرض المعركة..» (١٨/ ٥/ ١٩٦٧).

ولم يفت جريدة **الأهرام** كذلك، وهي الصحيفة التي كانت توحي لجمهور القراء بأنها تتحدث باسم الرئيس عبد الناصر، إلا أن تشير إلى مباحثات الملك فيصل في لندن: «إنه ليس من حق العملاء أن يتحدثوا باسم الأمة العربية.. وإن فيصلاً يطلب الحماية من بريطانيا بصدد البحث في مستقبل جنوب اليمن المحتل» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

ولكن الضربة القاسية وجهتها القاهرة إلى جامعة الدول العربية، عن جدارة واستحقاق، وكانت أوساط الجامعة تتحدث عن ضرورة اجتماع مجلس الدفاع المشترك لمعالجة الموقف، ذلك أن وزارة الخارجية المصرية قد اتصلت بالجامعة وأبلغتها أموراً ثلاثة، كانت صفحات ثلاثاً:

الأولى: أن القاهرة لا ترى جدوى من اجتماع مجلس الدفاع العربي.

الثانية: أن الجمهورية العربية المتحدة قدرت الموقف تقديراً كاملاً وهي مستعدة لتحمل كل تبعاته.

الثالثة: أنها لا تستطيع أن تشترك في اجتماع مجلس الدفاع يجلس فيه الكل، وتناقش خططها معهم أو تعرضها أمامهم.. والجمهورية العربية المتحدة تعني بذلك بعض الدول الرجعية بالذات التي تنسق خططها مع لندن وواشنطن وتخضع خضوعاً كاملا للاستعمار الذي هو حامي إسرائيل.

وقد وقفت طويلاً عند عبارة «أن الجمهورية العربية المتحدة قدرت الموقف تقديراً كاملاً وهي مستعدة لتحمل كل تبعاته»، وتساءلت: هل هذه عبارة إنشائية، أم هي عبارة جادة مسؤولة؟؟

وكان واحد في الجمهورية العربية المتحدة يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال، هو الرئيس عبد الناصر، ولم أستطع أن أقابله إلى يوم صدور هذا البيان، وقلت في

نفسي: فلأذهب إلى محمود رياض وزير الخارجية، فلعل صداقتي القديمة معه تستطيع أن تستخرج شيئاً من مكنونات صدره، وأتعرف على الخبر اليقين.

وقلت للوزير رياض بعد أن استقر بنا المقام في مكتبه المشرف على النيل، النيل المشرف بدوره على التاريخ: «هل نحن مقبلون على الحرب؟ إن كل الحركات والكلمات الصادرة عن القاهرة تنبئ أن الحرب وشيكة الوقوع».

قال: «وهل اجتمعت من قريب بالرئيس عبد الناصر؟؟».

قلت: «لم أفلح حتى الآن؟ ولعلي أستطيع ذلك قريباً كما وعدني سامي شرف».

قال: «وأنا لم أقابله منذ أن تطورت الأحداث، ولكننا نتلقى توجيهاته من حين إلى حين».

قلت: «وما هو موقف الاتحاد السوفياتي إذا نشبت الحرب؟».

قال: «إن معلوماتي العامة أن موسكو تؤيدنا.. ولكن إلى أي مدى إذا نشبت الحرب؟، لا أعلم.. وأنت تعرف موقف الروس كما أعرفه.. وعلى كل حال فما أظن أن الأمور ستصل إلى مرحلة الحرب».

قلت: «هذا صحيح لو أن الطرف الآخر هو غير إسرائيل.. ولكن إسرائيل تنتهز الفرص حيناً بعد حين، للتوسع.. والتوسع لا بد له من حرب».

ودخل مدير مكتب الوزير ليعلمه أن السفير اليوغوسلافي قد وصل، فنهضت مودعاً، وهو يقول لي: «إذا اجتمعت بالرئيس عبد الناصر.. أخبرني».

وقلت له ضاحكاً: «وأنت إذا اجتمعت بالرئيس أرجو أن تخبرني!!».

وعدت إلى منزلي، ومددت يدي إلى مكتبي وسللت سيرة صلاح الدين الأيوبي، فقد كنت على الدوام أجد السلوى في ما واجهه هذا البطل الفذ من العناء والإرهاق من ملوك ذلك الزمان، وأمراء العصر والأوان.

وبعيداً عن الرياح الهائجة من شهر أيار/ مايو من عام ١٩٦٧، غبت في تلك القصة المجيدة قصة صلاح الدين الأيوبي، قدّس الله سره وطيّب ثراه. ﴿**كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق**﴾[١] صدق الله العظيم.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة طه،» الآية ٩٩.

الخطـوة الثانيــة على طريــق الحــرب

نحن اليوم في الثاني والعشرين من شهر أيار/ مايو من عام . . . ١٩٦٧ ولا بد لنا من أن نقف وقفة طويلة أمام هذا اليوم، وأن يقف معنا التاريخ، لنعرف كيف جرى ما جرى، وكيف حاربنا كما حاربنا، وكيف انهزمنا كما انهزمنا.

ولقد بعدت الشقة بيننا وبين ذلك اليوم، وستزداد بعداً على مر الزمان، ولكن اليوم الثاني والعشرين من شهر أيار/ مايو سيظل يعيش معنا . . بل سيظل أقرب إلينا من حبل الوريد، إلى أن يأتي يوم جديد . . يوم تتحقق فيه للأمة العربية آمالها في القوة والمنعة والنصر والتحرير.

وإذا كان اليوم السابع عشر من شهر أيار/ مايو من عام ١٩٦٧ قد شهد الخطوة الأولى على طريق الحرب، بعد أن طلبت القاهرة سحب القوات الدولية من سيناء وقطاع غزة، فإن هذا اليوم الثاني والعشرين سيكون هو الخطوة الثانية على طريق الحرب . . ولم يبق على الخامس من حزيران/ يونيو إلا أسبوعان كاملان، لا يزيدان ولا ينقصان.

ولقد كانت الخطوة الأولى قبل خمسة أيام، حين أرسل الفريق محمد فوزي رئيس أركان حرب القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة كتاباً إلى الجنرال ريكي يطلب إليه انسحاب القوات الدولية، وانسحبت القوات فعلاً، وحلّت محلها القوات المصرية والفلسطينية.

وفي صبيحة هذا اليوم خرج جمال عبد الناصر إلى سيناء، إلى مركز القيادة المتقدمة للقوات الجوية، ليقول كلاماً هزّ الدنيا بأسرها من مشرقها إلى مغربها، كأنما إعصار عاصف هبّ على العالم أجمع، فعصرهم بوثاقه، فخلخل مواطئ أقدامهم، وهزهز مواقع رؤوسهم.

وليس هذا الكلام من طراز البديع العربي الغني بالكنايات والمجازات، ولكنه

الحق كل الحق، والصدق كل الصدق، وما على المواطن العربي إلا أن يصبر عليَّ قليلاً ويسير معي في موكب ذلك اليوم العتيد.

في ذلك اليوم وصل الرئيس عبد الناصر في زيارة أرادها أن تكون خاطفة، لتخطف القلوب قبل الأبصار، وأرادها أن تكون على مسرح الأحداث، فاختار أن تكون في سيناء. .وكم شهدت سيناء من رسالات المرسلين في العصور القديمة، وكم شهدت من بطولات الفاتحين في العصور الوسيطة.

وكان مع جمال عبد الناصر في تلك الزيارة المشير عبد الحكيم عامر النائب الأول لرئيس الجمهورية ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة، وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وعلي صبري نواب رئيس الجمهورية، وشمس الدين بدران وزير الحربية، والفريق أول محمد صدقي محمود قائد القوات الجوية، والفريق أول عبد المحسن كامل مرتجى قائد قوات الجبهة. . وبهذا حلّت في سيناء قيادة مصر السياسية والعسكرية العليا، يتربع على قمتها الرئيس عبد الناصر، وهو يحمل بين منكبيه العريضين آمال الملايين والملايين من الأمة العربية.

وخطب عبد الناصر في سيناء في ذلك اليوم، كما لم يخطب في أي يوم من أيام حياته، فقد كانت الجماهير العربية تمسك أنفاسها عند كل كلمة لترى ما بعدها، وتحبس نبضاتها عند كل عبارة لتنظر ما وراءها، وكان الشوق والوجد والأمل والنصر والتحرير. . . كل أولئك يداعب القلوب كل القلوب. . من المحيط إلى الخليج.

وعبارة «من المحيط إلى الخليج» باتت مبتذلة لكثرة ما تكررت في الكلام المبتذل، ولكن هذه العبارة قد تجدد شبابها وتألق جوهرها وحلا رنينها، في ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم بالذات.

وما إن انتهى عبد الناصر من خطابه ذلك حتى كانت الأمة العربية تهتز بكل جوانحها وجوارحها، وتهتز معها سيناء كأنما أصابها مطر مدرار، فـ ﴿**اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾[1] صدق الله العظيم، وسيناء منذ كانت، تنام على القحط وتستيقظ على الجدب، ولكنها اليوم تخصب الأحداث الجسام وتنبت الأمور العظام.

وقبل بضعة أيام، كانت الجماهير العربية تتساءل: وماذا بعد انسحاب القوات الدولية؟؟ لقد خلصت مصر من آثار عدوان ١٩٥٦، وبرئ عبد الناصر من هذا

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الحج،» الآية ٥.

الاحتلال البغيض الذي حمله عشرة أعوام ونصف العام، وكاد أن يذكّر الناس بالاحتلال البريطاني الذي دام سبعين عاماً. وتساءل المثقفون مع الجماهير، بل تساءل العالم كله.. من ليندون جونسون في أمريكا، إلى هارولد ويلسون في بريطانيا، إلى هيروهيتو في طوكيو.. وماذا بعد ذلك؟ ما هي الخطوة التالية؟.

وجاء عبد الناصر إلى سيناء ليجيب عن السؤال، وليخطو الخطوة التالية، فكان خطابه في سيناء.. ولقد سمعت ذلك الخطاب، لا كما سمعته الجماهير.. فقد رحت أستمع إلى المعاني وراء الألفاظ، وإلى جوف الأهداف تحت سطح العبارات.. فأنا واحد مع ثلاثة عشر رجلاً عقدوا مؤتمرات القمة في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء، وعرفتهم في السر والعلن.. وها أنا ذا اليوم استمع إلى هذا الرئيس العربي وهو يقف أمام الزمان يتحدث وجهاً لوجه، وليصبح حديثه تاريخاً في صميم التاريخ.

واليوم، فإن يقيني أن الجماهير العربية قد نسيت ذلك الخطاب، والنسيان له حسناته وسيئاته.. بل إن الجماهير العربية التي ستأتي بعدنا، ستمر عليه مرور الكرام، هذا إذا صادفته في الطريق.

من أجل ذلك، بل من أجل حاضرنا المظلم، ومستقبلنا المشرق، كان لا بد من أن أضع أمام التاريخ، تاريخ الكفاح العربي، ماذا سمعت في ذلك الخطاب، وماذا قرأت، وماذا فهمت.

أراد عبد الناصر، **أولاً** وقبل كل شيء، أن يقارن بين مصر الضعيفة في عام ١٩٥٦، ومصر القوية في عام ١٩٦٧.. ليوحي إلى الشعب المصري وإلى الأمة العربية أن جيش مصر اليوم أقوى مما كان عليه بالأمس، عدداً وسلاحاً وتدريباً.. فأعلن عبد الناصر أنه «في سنة ١٩٥٦ ما كانش أبداً لينا فرصة أن نقاتل إسرائيل.. في ذلك الوقت كان عندنا الإليوشن القاذفة، وكان عددها قليل ولسه يا دوبك متسلحين بيها... النهار ده عندنا كثير، والفرق بين امبارح والنهار ده.. بين سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٥٦ فرق كبير.. وإسرائيل النهار ده ما معهاش بريطانيا وفرنسا زي ما كانت معاها سنة ١٩٥٦.. التآمر اللي حصل سنة ١٩٥٦ مش ممكن العالم يقول إنه يعود مرة أخرى.. إحنا النهار ده عندنا الفرصة لكي نبيّن الحقيقة.. عندنا الفرصة فعلاً.. نحن وجها لوجه مع إسرائيل..».

وأراد عبد الناصر، **ثانياً**، بعد أن استشعر أنه أمام الفرصة التاريخية، أن يؤكد ثقة الشعب المصري بقدراته، وثقة الأمة العربية بطاقاتها، فأكد في خطابه: «نستطيع أن نقوم بواجبنا القومي في الدفاع عنا في مصر، سواء في الدفاع عن حدودنا، أو الهجوم إذا اعتدت إسرائيل على أي بلد عربي.. وإسرائيل تعتقد أن مصر لن تستطيع

ان تتحرك لأنها مشغولة في اليمن. . ولكن إحنا نستطيع أن نقوم بواجبنا في اليمن، وفي نفس الوقت نستطيع ان نقوم بواجبنا القومي. . ».

وأراد عبد الناصر، **ثالثاً**، أن يبرز موقفه من هذا التحرك المفاجئ، فقال: «يوم ١٢ أيار/ مايو بدا أول تصريح لإسرائيل. . . وقح جداً. . . بحيث لا يمكن أن نسكت عليه. . القادة الإسرائيليون أعلنوا أنهم سيقومون بعمليات حربية ضد سوريا من أجل احتلال دمشق ومن أجل إسقاط الحكم السوري. . وفي يوم ١٣ أيار/ مايو وصلتنا معلومات مؤكدة بأن إسرائيل تحشد على حدود سوريا قوات مسلحة بحوالى ١١ لواء إلى ١٢ لواء. . واتصلنا بإخواننا السوريين وقلنا لهم إن إحنا أخذنا قرار إذا حصل هجوم على سوريا، فإن مصر حتدخل المعركة من أول دقيقة. . ».

وأراد عبد الناصر، **رابعاً**، أن يتساءل عن السلام بالنسبة إلى العدوان الإسرائيلي والقضية الفلسطينية، فقال: «بنلاحظ إن الكلام كتر النهار ده عن السلام. . السلام الدولي والأمن الدولي. . طيب لما صرح رئيس الوزراء الإسرائيلي بأنهم حيحتلوا دمشق وأنهم حيسقطوا الحكم السوري محدش تكلم عن السلام وعن الأمن. . ولكن معنى السلام إننا بنتجاهل حقوق شعب فلسطين. . . طيب فين الأمم المتحدة بالنسبة إلى شعب فلسطين. . الكلام عن السلام بيكون موجود بس حينما تتعرض إسرائيل للخطر، أما إذا ضاعت حقوق العرب وحقوق شعب فلسطين ما بيتكلمش حد عن السلام. . ».

وأراد عبد الناصر، **خامساً**، أن يحدد الموقف الحاسم الفاصل القاطع بالنسبة إلى خليج العقبة، فقال: «القوات المسلحة المصرية احتلت امبارح شرم الشيخ. . ومعنى هذا تأكيد حقوقنا وتأكيد سيادتنا على خليج العقبة. . خليج العقبة يمثل المياه الإقليمية بتعتنا المصرية. ولا يمكن بأي حال من الأحوال إن إحنا نسمح للعلم الإسرائيلي أن يمر في خليج العقبة. . بيهددوا بالحرب اليهود. بنقول لهم أهلاً وسهلاً، إحنا مستعدين للحرب، قواتنا المسلحة وشعبنا كلنا مستعدين للحرب. . هذه المياه هي المياه بتاعتنا وقد تكون الحرب فرصة علشان اليهود يختبروا قواتهم مع قواتنا ويشوفوا إن الكلام اللي كتبوه على معركة ١٩٥٦ واحتلال سيناء كان كله كلام هجص في هجص وكلام تخريف في تخريف. . ».

وأراد عبد الناصر، **سادساً**، أن يتحدى الحلف الإسلامي ويقحمه في المعركة، فقال: «أنا عايز من المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية وإيران أن يمنعوا إمداد إسرائيل بالبترول. الذي يموّن إسرائيل اليوم بالبترول هو الحلف الإسلامي اللي هو حلف استعماري، ومعنى هذا أنه مع الصهيونية. . ونحن لا نستطيع أن ننسق خططنا

مع أعضاء الحلف الإسلامي أبداً لأن معنى هذا إن إحنا بندّي خططنا لليهود».

وأراد عبد الناصر، **سابعاً** وأخيراً، أن يحقن الشحنة الأخيرة في الشعب المصري والأمة العربية، رأسا إلى الشرايين والأوردة، فقال:

«النهارده القوات المسلحة موجودة في كل مكان... الجيش معبأ والقوات كلها معبأة والشعب كله معبأ.. ونحن على ثقة أنكم ستؤدوا الأمانة.. كل واحد فينا مستعد يموت ولا يضحي برملة من أرض بلده.. أشرف شيء إن إحنا ندافع عن بلدنا، وبعدين مش حتخوفنا حملات الاستعمار والصهيونية والرجعية.. إحنا بنينا جيش وطني قوي.. وسنسير في طريق الواجب في طريق النصر والله يوفقكم..».

انتهى عبد الناصر من خطابه وابتدأ العالم.. ابتدأ العالم يفور ويمور كأنما غلاف كهربائي قد أحاط بالدنيا بأسرها، وراح يهزها هزاً عنيفاً حتى باتت تترنح في مدارها.

ولم تكن هذه الهزة العالمية من صنع عبد الناصر وحده، بل إن عبد الناصر مهما تعاظمت قدراته، ليس بالشخص الذي يقدر أن يهز الدنيا، ولكن السبب في ذلك يعود إلى عاملين كبيرين: **الأول** أن خليج العقبة يمسّ العالم بأسره، فما من أمة إلا ولها صادر أو وارد عن طريق العقبة، و**الثاني** أن إسرائيل لها وتد في كل بقعة من بقاع العالم، ومَن هزها هز أوتادها في العالم.

وكائنة ما كانت الأسباب، فإن خطاب عبد الناصر في سيناء قد شدّ انتباه الدنيا بأسرها، يستوي في ذلك الأصدقاء والأعداء.. ولقد عشت تلك الأيام مع الذين عاشوها.. وما أحسب الأجيال القادمة بقادرة على أن تسبر غور كلامي هذا، لأنها لم يقدر لها أن تعيش هذه الأحداث.. وإن واجب الأمانة لتاريخ النضال العربي في هذه الحقبة المريرة الخطيرة أن أعيد بناء الصورة، على هيئة نواة صغيرة بقدر ما تستطيع أن تحمل من ظلال وألوان.. ولو أن النصر قد جاء في أعقاب هذه الأحداث لكان واحداً من الملاحم الإنسانية، المتسامية في الروعة، المتشامخة في المجد.

وأحسب أن أبهى ملامح هذه الصورة هو موقف الأمة العربية.. وقد عرفت هذا الموقف هنا في القاهرة، حيث كنت في هذين الأسبوعين، أعيش مع الشعب في ليله ونهاره، في الشوارع، والميادين، والمساجد.

ولا يحسبن المواطن العربي أني أتحدث بلغة المجاز والكناية، بل إني أناشده باسم الحق أن يحمل كلامي محمل الصدق كل الصدق، وأن يعيش معي تلك الأيام الماجدة بأحلامها الرائعة.

كانت القاهرة في تلك الأيام تعيش أروع المشاعر وأعمق الأحاسيس، عبر تاريخها العتيق. . وأنا أزعم أني قارئ متواضع لهذا التاريخ العريق، وكل ما يهمني من التاريخ وأنا اقرأه أن أنفذ إلى حياة الناس وما تضطرم به خلجات نفوسهم، لا يلفتني ما يتشاغل به حكامهم.

وعلى هذا، فأنا عليم بحياة الشعب في مصر منذ أيام الكهنة والسحرة والفراعنة، إلى أيام صلاح الدين وعهد المماليك والأسرة العلوية. . ولكني أقرر، وأنا لا أخشى نقضاً أو نقداً، أن الأيام الخمسة عشر التي شهدتها في القاهرة (١٥ ـ ٣٠ أيار/ مايو) كانت أياماً فريدة في فورانها ومعمعانها. . فريدة ليس لها سابق. . وما أظن أنه سيكون لها لاحق إلا. . إلا يوم تهدم إسرائيل الدولة، وتصبح ركاماً من الأنقاض يجوس خلالها الشعب العربي الفلسطيني بأقدامه وهو يعود إلى وطنه الحبيب الذي طال حنينه إلى ربوعه الفاتنة. . لقد أصبحت القاهرة في تلك الحقبة الغامرة من الزمان، شعباً هائجاً هادراً، صائحاً هاتفاً، راقصاً هازجاً، منشداً مرتلاً، وكان يحتشد في كل ساحة، متجمعاً في كل ميدان، مكتظاً في كل حارة، مزدحماً في كل زقاق. . وليست هذه كلمات مترادفات، ولكنها صور نابضات بالواقع الحي، تملأ العيون والآذان.

ولم أكن أشاهد هذه الصور الحية في صحف الصباح. . أو أشاهدها من شرفة منزلي أو من نافذة سيارتي. . أو على شاشة التلفزيون وأنا ناعم في مقعدي!!

كلا. . لقد عشتها بنفسي وبكل جوارحي. . لقد عشتها مع الشعب، كتفاً إلى كتف، في زحمة الجماهير، وسط تظاهراتهم الصاخبة، تهزّني مناكبهم وتتعثر خطاي بين مواقع أقدامهم.

ومرة ثانية، ليس هذا الكلام مجازاً، ولكنه الحق الذي لا أزال أحسه بكتفي وقدمي. . وأنا امرؤ أحب أن أعيش مع الشعب بكل خلجاته. . وأن أسعى إليه في تظاهراته وتجمعاته. . . فإن أحلى الساعات عندي، وأحلى الأيام من عمري، حين أرى الشعب يتجمع، وحين أراه يصيح ويهتف، وحين أراه يرقص ويهزج، وحين أسمعه يغني وينشد. . ذلك بعض ضعفي، وذلك بعض اعتزازي وافتخاري. . وقد أشبعت ضعفي، ورويت اعتزازي، وعشت تلك الأيام مع الشعب. . وخرجت من منزلي إلى الشعب في القاهرة. . . تماماً كما كنت أفعل أيام شبابي في فلسطين في مسيراتنا وتظاهراتنا ضد سلطات الاحتلال البريطاني.

ذهبت إلى حي بولاق قريباً من منزلي في الزمالك، ووقفت السيارة عند مدخل الحي، فلم يعد في الشارع متسع إلا لطائر يطير فوق الرؤوس، فقد كان الشعب كتلة

متراصة مترابطة، تعلوها أقواس النصر بأعلامها، وتتمايل فوقها اللافتات الضخمة، وتدافع شباب الحي أمامي يشقون شقاً، والهتافات مدوّية لعبد الناصر ولتحرير فلسطين ولتدمير إسرائيل، تلعلع من الميكروفونات المنصوبة على الجدران وعلى العمدان.. ووصلت أخيراً إلى منصة رحبة ضاقت بالشباب والشابات من الاتحاد الاشتراكي، وقد تصبب العرق من جباههم، وهم يصيحون من الميكروفون: النظام! النظام!

ولكن أي نظام يدعو إليه الشباب باسم الاتحاد الاشتراكي؟ لقد أصبح الحماس الهائج المائج هو النظام في ذلك اليوم.. الهتافات تشق عنان السماء، وحلقات الرقص تدق جوف الأرض، والطبول تقرع الآذان، والصنوج تصدع الجدران..ومن أين يكون النظام؟.. شعب هائج ثائر، يودّ لو ينقل بسحر ساحر، إلى إسرائيل ليهدّها، عظماً ولحماً.

ودعاني عريف الحفل إلى الكلام، ووقفت أمام الميكروفون بعضاً من الوقت انتظاراً للهدوء والسكينة، ولكن لا هدوء ولا سكينة...بدأت بالكلام بأعلى صوتي، والميكروفون يزيده ضخامة وفخامة، ولكن صوت الجماهير الراعد طغى على كل كلام.. وتلوت بعض الآيات القرآنية استدراراً لسمعهم، ولكن لا سبيل، وأشرت إلى خطاب عبد الناصر الأخير، وما من سميع..وتحدثت عن بطولة أهل بولاق في أيام الحملة الفرنسية، وكيف أبادوا الكتيبة الفرنسية حتى احمر ماء النيل في ذلك اليوم الرهيب..وما من مجيب.

وأيقنت أخيراً أن هذا اليوم ليس يوم كلام..وإنما هو يوم يساق فيه الشعب إلى الميدان.. لو أنه كان مدرباً على القتال.

وعدت أدراجي إلى البيت، بعد أن خطبت **لأول مرة** في عمري خطابي الطويل، من دون أن يسمعني أحد، ومن دون أن أسمع نفسي.. وأدركت يومئذ كيف أن الأمة العربية الماجدة قد وصلت في فتوحاتها إلى مقربة من باريس وروما وجنيف، حين كانت لها قيادات رائدة راشدة... وفي يوم آخر دعيت إلى **مهرجان شعبي آخر** في حي السيدة زينب، وقد جنّد الاتحاد الاشتراكي كل رجاله للمحافظة على النظام والهدوء.. ولم أتردد في الاستجابة، فقد كان يهمني ان أعيش مع الشعب في تلك الأيام الجليلة، سواء سمع الناس خطابي أم لم يسمعوه!!

وبدأ الحفل بتلاوة القرآن الكريم، وسكنت الجوارح وهدأت الجوانح، والمقرئ يتلو آيات الجهاد في تلك الأمسية الروحانية، ووقفت بعده أتكلم، وأنا أسير في ركاب بعض الآيات القرآنية التي تلاها، شارحاً ومؤكداً، وانتقلت بعد ذلك إلى

موضوع خليج العقبة.. مردداً أقوال الرئيس عبد الناصر في سيناء بأن الخليج مياه عربية ليس للبواخر الإسرائيلية أن تعبره، وأن.. وأن..، واستطردت بعد ذلك إلى معركة خليج العقبة بين العرب والإفرنج في العصور الوسطى حين أرسل صلاح الدين الأيوبي السفن على ظهور الجمال ألواحاً ألواحاً إلى خليج العقبة، حيث جعلت سفناً كاملة، خاض بها الجيش العربي معركة ضارية مع الإفرنج، فأغرق أسطولهم وجعل بحارتهم طعاماً للحيتان، وطعماً للأسماك.

ولم أكد أنتهي من سرد هذه الملحمة التاريخية حتى سقط زمام الموقف من يدي ومن يد الاتحاد الاشتراكي، فهاج الشعب هيجانه الذي لقيته في بولاق، وانتظم الناس حلقات حلقات يهتفون ويهزجون.. والنداءات الداعية إلى النظام..ذهبت أدراج الرياح وانسللت من زحمة الجماهير إلى زقاق خلفي حيث قادني رجال الشرطة إلى سيارتي، إلى بيتي، لأستذكر في ساعة هدوء تلك الأيام التي تجمعت فيها القاهرة لوداع الجيش المصري الزاحف إلى «عين جالوت» على أرض فلسطين، للانتصار على جيوش التتار.

وكان **اللقاء الثالث** مع الشعب، هذه المرة، في الجامع الأزهر.. وكان ينتظرني على الأبواب «جيش» من الصحافيين والمصورين الأجانب أكثر من العرب، فقد ازدحمت القاهرة بمندوبي الصحافة العالمية جاؤوا إليها ليبرقوا بأنباء الحرب بين العرب وإسرائيل، وكل واحد منهم يطمح إلى أن يكون السابق في إذاعة أنباء ساعة الصفر.. من أطلق النار أولاً.. ومن كانت له الغلبة، إذا انتهت الحرب إلى غالب ومغلوب.

وأديت صلاة الظهر مع المصلين، وكنت أجلس إلى جوار شيخ الأزهر الشيخ تاج، وأخذ يدفعني إلى المنبر لأخطب في الجمع الحاشد، ولم أكن بحاجة إلى من يدعوني إلى الكلام، فقد جنّدت نفسي لهذه المهمة، ذلك أني لا أقدر على حمل السلاح، وأحسست أن دوري في المعركة هو أن أدعو الناس إلى الجهاد، بلساني، وهو أضعف الإيمان.

وقفت على المنبر، وتزاحمت في فؤادي في دقيقة عابرة صورة شاملة عمرها ألف عام منذ أن أنشئ الأزهر.. ورحت أسرد ما كان من أمر هذا المعقل الإسلامي الكبير الذي تخرّج في أروقته الصفوة الممتازة من العرب والمسلمين الذين قادوا ثورات التحرير، لا من المحيط إلى الخليج، ولكن من الأطلسي حتى الباسفيكي، وذكرت بالتخصيص ما كان للأزهر الشريف من فضل عظيم في دفع راية الجهاد ضد الغزوة الفرنسية والاحتلال البريطاني..وختمت حديثي بالإشارة إلى المقدسات الإسلامية في

فلسطين، وإلى أن خليج العقبة هو طريق الحجيج الإسلامي منذ أن انتشر الإسلام في ديار الشام.

ونهض المصلّون من صفوفهم، وراحوا يهلّلون ويكبّرون ويهتفون ويصفقون حتى كادوا أن يخرجوا عن حرمة المسجد.. ونزلت من على المنبر، وأقبل عليّ شيخ الأزهر يعانقني، وانحنيت على كفيه ألثمهما، وكأني أقول لمصر كلها إن الأزهر هو أعظم «رجل» أنجبته مصر، وإن شيخ الأزهر هو «ضمير» هذا الرجل، وهكذا يجب أن يكون.. لا واحداً من موظفي الدولة شأنه شأن باقي الموظفين.

وكان **اللقاء الرابع** مع الشعب، في مسجد مولانا الإمام الحسين، ولهذا المسجد حرمة فائقة عند جماهير المسلمين في الديار المصرية، وتبعتني كاميرات التلفزيون إلى داخل المسجد، وأنا أشق طريقي بين صفوف المصلين، وما إن انتهينا من الصلاة حتى خطبت في الجموع مشيداً بالروابط التاريخية بين مصر وفلسطين، وأن الدفاع عن مصر كان دائماً في ساحة ديار الشام وفي مقدمتها فلسطين، وأن المسجد الأقصى قد بناه الأمويون، ولكن بخراج مصر لسبع سنين، وأن مصر كانت طليعة الجهاد في عهد صلاح الدين لتحرير فلسطين من الإفرنج، وأن..وأن.. وختمت كلامي مشيراً إلى استشهاد الحسين صاحب هذا المسجد المبارك، وأنه هو المثل الأروع في التضحية في سبيل الحق، ومن أجل إعلاء كلمة الله.

وهكذا قضيت الشطر الأخير من شهر أيار/ مايو أنتقل من حي إلى حي، ومن مسجد إلى مسجد، أحدّث الجماهير، وكأني من أبناء القاهرة لألف عام أو يزيد.. لا من المواطنين العرب الوافدين على مصر، لتكون دار هجرته، إلى أن ييسر الله طريق العودة إلى الوطن الصغير.

كان ذلك هو حال القاهرة، قلب الجبهة الداخلية للمعركة، تنام وتستيقظ على المعركة بكل أحلامها، الأحلام الوردية التي تجسّد النصر المؤزر والظفر الأكبر. ولم تكن القاهرة وحدها هي التي تعيش المعركة، فقد كان الوطن العربي كله هو القاهرة.. صحيح أن القاهرة كانت هي التي ترسل «الموجات» إلى دنيا العرب، ولكن هذه «الموجات» كانت بذاتها هي جماع أفئدة الأمة العربية وحصيلة آمالها ومشاعرها.

حقاً، ففي الساعات القليلة التي كانت أقضيها في منزلي كنت أستمع إلى الإذاعات العربية وهي تردّد مشاعر المواطن العربي في الوطن العربي بأسره.. وتفصل أخبار التظاهرات، والاجتماعات، والإقبال على مكاتب التطوع ومعسكرات التدريب و..و..

تلك صورة موجزة عن الشعور الشعبي في كل صقع من الأصقاع العربية، في

الحواضر والبوادي، في المدن والقرى.. وأحسب أنه كان أكثر عمقاً في الخيام.. حيث ينتظر النازحون أن يسارعوا إلى رحلة العودة إلى فلسطين، ليعفّروا جباههم في ترابها، ويلثموا أديمها، قبل أن ينزل بهم القضاء والقدر، بعيداً عن مرابع الوطن.

أما الشعور الرسمي، شعور الملوك والرؤساء، ومن تحتهم من الوزراء والمستوزرين، فقد كان قاصراً على الرغبة والتمني، متفاوتاً في العزم على البذل والعطاء.. وتلك هي مصيبة النضال العربي، منذ أن اصبح للأمة العربية حكام أو أشباه حكام.

وقد استمعت إلى الصوت الرسمي في ذهابي وإيابي إلى المهرجانات الشعبية، وفي أوقات فراغي، فقد كان الراديو يصاحبني آناء الليل وأطراف النهار.. وأنا صادق حين أقول إني كنت أضعه على وسادتي، قريباً من أذني أستمع وأستمع حتى أنام.. ولقد كتبت ما سمعت وهذه بعض النماذج مما سمعت.. من غير تعقيب أو تعليق، تاركاً لهذه الأحاديث أن تتحدث عن نفسها بنفسها:

ـ أدلى اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري بحديث إلى جريدة **الشعب** الدمشقية قال فيه: «قد أصبحت قواتنا جاهزة ومستعدة ليس فقط لرد العدوان وإنما للمبادرة لعملية التحرير بالذات ونسف الوجود الصهيوني من وطننا العرب، وأنا كعسكري أرى أن الوقت قد حان لخوض معركة التحرير» (١٩/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ صرح د. إبراهيم ماخوس نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية السورية، حين وصوله إلى القاهرة للبحث مع المسؤولين في الموقف الراهن، أن «جميع مطارات سوريا مفتوحة للطيران المصري، وأن كل قرار يقرره العسكريون سينفذ في الحال، ولا دخل للسياسيين في ذلك، ولتتأكد إسرائيل ومن يشفقون على إسرائيل أنها ستواجه ضربات مصرية سورية من جميع الجهات..» (٢٠/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وأدلى وزير الإعلام السوري محمد الزعبي بتصريح إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط قال فيه إن: «الوقفة الجبارة للقوى الثورية والتقدمية العربية قد أثبتت أن قوة دولة العصابات ليست إلا أقل من نمر من الورق الهشّ القميء المهترئ... وأن إسرائيل اليوم محصورة بين فكي الكماشة: الجيوش العربية المستنفرة من جهة، وأعمال الفدائيين من جهة أخرى، وهيهات لها أن تفلت من تلك الكماشة» (٢٠/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وتحدث اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع السوري وقائد سلاح الطيران إلى جريدة **الثورة** الدمشقية فقال: «إنه يرى أنه لا بد على الأقل من اتخاذ حد أدنى من الإجراءات الكفيلة بتنفيذ ضربة تأديبية لإسرائيل تردها إلى صوابها، وأن الوقت قد

أزف لخوض معركة تحرير فلسطين، وأن سلاح الطيران السوري قد ازداد عدد طائراته، وحصل على أنواع من أحدث الطائرات في العالم، كما ارتفعت إمكانات التدريب ومناهجه» (٢٠/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وخطب الرئيس السوري د. نور الدين الأتاسي في المجلس المركزي للاتحاد الدولي لنقابات العمال المنعقد في دورة طارئة في دمشق، فأعلن: «أن سوريا والجمهورية العربية المتحدة قد اتخذتا ما يلزم، لا لإحباط المؤامرات الاستعمارية والرجعية والعدوان الصهيوني فحسب، بل لخوض معركة تحرير فلسطين أيضاً عند أول تحرك عدواني.. وأن أصوات التهديدات الإسرائيلية قد خفتت بعد أن أصبحت إسرائيل بين فكي الجمهورية العربية المتحدة وسوريا.. وأن الملك فيصل يقوم بمؤامرة رجعية لاستغلال الشعور الديني في البلاد، وأن زيارته لبريطانيا في الوقت الحاضر هي جزء من مخطط استعماري.. وأن دعوة الملك حسين إلى استئناف مؤتمرات القمة هي مؤامرة مفضوحة للتسلل إلى صفوف القوى التقدمية.. وأن الأردن يحشد قواته وقوات المرتزقة على الحدود السورية بدلاً من حشدها على الحدود مع إسرائيل.. لقد آن الأوان لخوض معركة التحرير، ولا بد من أن تنتصر قوى الحق والتقدم.. والى اللقاء في أرض المعركة..» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ ووصل إلى القاهرة الفريق طاهر يحيى نائب رئيس حكومة العراق وهو يحمل رسالة من الفريق عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية العراقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر يعرض فيها: «إرسال قوات عراقية من المشاة والمدرعات والطيران إلى الجمهورية العربية المتحدة تأكيداً لوحدة النضال العربي، وتأكيداً لموقف القاهرة الجبار الذي أعلنته بشان قوات الطوارئ»... (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وأعلن د. أحمد البشتي وزير خارجية ليبيا لوكالة الأنباء الليبية: «أن المملكة الليبية تعتبر أي اعتداء على أي بلد عربي عدوانا عليها..» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وألقى المشير عبد الله السلال رئيس الجمهورية العربية اليمنية خطاباً على الشعب اليمني من إذاعة صنعاء أكد فيه: «أنه تم إعلان التعبئة العامة للقوات المسلحة اليمنية.. وأنه يجري الآن اتخاذ الخطوات اللازمة لفتح باب التطوع ليتاح لأبناء الشعب اليمني فرصة الجهاد في سبيل الله والوطن..» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وسلم محمد عيسى الرجيب سفير الكويت في القاهرة رسالة إلى محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة موجهة من الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير خارجية الكويت يؤيد فيها الجمهورية العربية المتحدة في «دورها الحاسم إزاء التحرشات الصهيونية.. وأن القوات المسلحة الكويتية وضعت في

حالة استعداد للمساهمة بأي جهد مع شقيقاته العربيات. .» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وصرح د. يوسف زعين رئيس الوزراء السوري عند وصوله إلى القاهرة ومعه اللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش السوري قائلاً: «ليس هناك أي داع للحديث، فنحن قادمون من أجل الحرب. .» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وأصدرت القيادة القومية لحزب البعث نداء ناشدت فيه: «جميع المناضلين التقدميين والمنظمات الشعبية في الوطن العربي إلى تنظيم صفوفهم وتلاحم طاقاتهم لينقضّوا في ساعة الصفر على جميع الجيوب الرجعية والاستعمارية، وليدمروا قواعد الاستعمار واحتكاراته النفطية وخطوط مواصلاته. .» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وأعلن الفريق طاهر يحيى نائب رئيس وزراء العراق بأن العراق «يؤيد قرار الجمهورية العربية المتحدة بإغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية. .»، كما أعلن اللواء شاكر محمود شكري وزير الدفاع العراقي بأنه «ستصل قريباً إلى الجمهورية العربية المتحدة قوة عراقية كبيرة مع تشكيل جوي كبير لتعمل جنباً إلى جنب مع جيش الجمهورية العربية المتحدة كطليعة للقوات الزاحفة نحو العدو» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وأكد العقيد أحمد المير قائد الجبهة السورية: «بأن الجيش السوري أصبح معبأ بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، وأن الأعمال البطولية للفدائيين يجب توسيعها إلى حرب عصابات. . وأن العرب لم ينهزموا في معركة ١٩٤٨ على أيدي الإسرائيليين، بل من قبل حكام العرب الخونة. . وهذه المرة لن نسمح لهم أن يفعلوا ذلك» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

وأوفد العقيد هواري بومدين رئيس مجلس الثورة الجزائري العقيد طاهر الزبيري رئيس أركان الجيش الجزائري إلى القاهرة لإجراء مشاورات مع الجمهورية العربية المتحدة وتأكيد التضامن العربي في المعركة. .» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ ووصل الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير خارجية الكويت يحمل رسالة من أمير دولة الكويت إلى الرئيس جمال عبد الناصر: «تؤكد تضامن الكويت حكومة وجيشاً وشعباً. .»، وأعلن وزير الخارجية بصدد استخدام البترول في المعركة المقبلة فقال: «إننا لا نبخل بالدم في هذه المعركة، فكيف بالبترول؟. .» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ ونفى دبلوماسيون سعوديون النبأ القائل: «إن الملك فيصل هدد بقطع النفط عن الدول الغربية إذا ما ساعدت إسرائيل في الحرب ضد العرب» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وألقى محمد أحمد محجوب رئيس حكومة السودان خطاباً في الخرطوم أعلن فيه: «أن السودان، حكومة وشعباً، يقف بثبات إلى جانب الجمهورية العربية المتحدة

وسوريا، وأن السودان سيتخذ مكانه في الخط الأمامي في حال وقوع عدوان إسرائيلي على أي بلد عربي» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وألقى الملك حسين خطاباً بمناسبة عيد الاستقلال الأردني خصص معظمه للهجوم على سوريا وحمّلها المسؤولية بصدد «انفجار قنبلة في الرمثا ذهب ضحيتها بضعة عشر قتيلاً» (٢٤/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وبعث العقيد هواري بومدين رئيس مجلس الثورة الجزائري رسالة إلى الرئيس عبد الناصر أعرب فيها عن «استعداد الجزائر لإرسال قوات جزائرية مسلحة إلى الجمهورية العربية المتحدة للاشتراك مع الجيش المصري في مجابهة احتمالات الحرب» (٢٥/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وخطب د. نور الدين الأتاسي رئيس الدولة السورية في اجتماع جماهيري خطاباً طويلاً أعلن فيه: «أن الأحداث تصاعدت بشكل ينذر بحرب شاملة في الشرق الأوسط.. وأن العمال سيكونون شعلة النضال التي تحرق مصالح المستعمرين وتدمرها» (٢٥/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وأبرق الحبيب بورقيبة الابن وزير خارجية تونس إلى عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية معلناً: «أن تونس ستدعم أي قطر عربي يتعرض للعدوان الإسرائيلي» (٢٥/ ٥/ ١٩٦٧).

وأرجو ألا ينسى المواطن العربي أن هذه التصريحات كانت بين التاسع عشر والخامس والعشرين من شهر أيار/ مايو.. قبل أسبوعين تقريباً من فجر الخامس من حزيران/ يونيو.

وغير ذلك من الخطب والتصريحات، والرسل والرسالات!!

وإذا كانت هذه هي مواقف الدول العربية كما تجلت على لسان المسؤولين فيها، فإن قطاعات أخرى من الرأي العام في الجمهورية العربية المتحدة كان لها صوتها ورأيها وموقفها:

ـ ومن هذه المواقف ما أعلنه محمد حسنين هيكل، وهو الصحافي المصري الذي كان يؤثره الرئيس عبد الناصر لأنه ينشر آراءه من دون أن يلقنه إياها، من أن الصدام المسلح بين العرب وإسرائيل «قد أصبح حتمياً بفعل الأضرار والمشاكل الاقتصادية التي تلحق بإسرائيل نتيجة إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية.. وأنه يجب أن يوجه إلينا العدو الضربة الأولى في المعركة.. ثم تكون الضربة الثانية في المعركة.. وهي ضربتنا الموجهة إليه رداً وردعاً إلى أقصى حد مستطاع».

ـ ومن ذلك أيضاً أن صحيفة **الأهرام** قد نشرت على صفحتها الأولى عنوانا بارزاً بأحرف ضخمة، تكاد تصيح، ويقول العنوان «الحرب مع إسرائيل قد تنشب في أي لحظة» (٢٤/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وهذا وزير العمل أنور سلامة، وكأنه مؤهل لأن يتحدث في شؤون الحرب، خطب في مهرجان الطلاب الجامعيين قائلاً: «إن قوات الجمهورية العربية المتحدة أصبحت الآن قادرة على الوصول إلى قلب إسرائيل خلال بضع دقائق».

ـ وتحدث اللواء سعد الدين الشاذلي قائد قطاع العريش، فأعلن في مؤتمر صحافي: «أن الجمهورية العربية المتحدة حشدت من القوات ما يكفي لصد أي هجوم مفاجئ، ثم القيام بهجوم مضاد.. وإننا واثقون من النصر».

ووجمت بعض الشيء وأنا أراجع القصاصات اليومية للصحف البريطانية والأمريكية، وكنت أحرص على ألا أنام قبل أن أقرأها، حتى أعلم ما يدور خارج عالمنا من تعليقات وأخبار، صادقة كانت أو كاذبة.. وخصوصاً أن صحف القاهرة لا تنشر من الأخبار الخارجية إلا ما يوحى به.. وعلى الصورة المنتقاة المشتهاة!!

ـ ومن أوائل الصحف البريطانية التي ناقشت موضوع الحرب بيننا وبين إسرائيل جريدة **التيمس** اللندنية، فقد كتبت في مقالتها الافتتاحية تقول:

«إن إسرائيل قادرة على حماية نفسها ضد أي هجوم بري تقوم به إحدى الدول العربية أو بعضها، وعلى الرغم من أن الجيوش العربية متفوقة عددياً إلا أن الجيش الإسرائيلي يتمتع بتدريب أرفع مستوى، وقدرة أكمل على استخدام المعدات، وخطوط مواصلاته الداخلية محكمة، وقيادته مركزية فعالة، بينما تفتقر الجيوش العربية إلى هذه المزايا جميعاً..» (٢٠/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ ونشرت جريدة **إنترناشنال هرالد تريبيون** تحقيقاً صحافياً لمراسلها في باريس قال فيه: «إن المراقبين العسكريين الغربيين يعتقدون أن إسرائيل ستضرب الضربة الأولى كي تمنع جيش الجمهورية العربية المتحدة وسوريا من الالتفاف حولها في حركة كماشة.. وأن قيادة الجيش الإسرائيلي لا بد من أن تنصح الحكومة الإسرائيلية بعدم الانتظار طويلاً نظراً إلى تحشد الجيوش العربية..» (٢٥/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ ونشرت مجلة **الإيكونمست** البريطانية تحقيقاً صحافياً لمراسلها في تل أبيب قال فيه: «إن الحرب أصبحت حتمية وستكون دموية.. وإن قوة الجمهورية العربية المتحدة في سيناء متفوقة جداً عما كانت عليه في عام ١٩٥٦.. ومع ذلك فلا أحد يشك في قدرة إسرائيل على هزيمة الجمهورية العربية المتحدة..».

وقرأت هذه القصاصات وغيرها من التعليقات الأمريكية والبريطانية، وتكاد تكون متماثلة في تقديرها للموقف العسكري، فانتابني القلق وبدأ رأسي يترنح بين الشك واليقين.

ودقّ جرس التلفون في مكتبي، وأنا أقلب القصاصات الصحافية بيدي وعقلي، وإذا بسامي شرف مدير مكتب الرئيس عبد الناصر يقول: «حدّدنا لك موعداً مع سيادة الرئيس اليوم (٢٦/ ٥/ ١٩٦٧)، الساعة السادسة مساء، ومدة المقابلة ساعة على الأكثر، لأن سيادة الرئيس سيستقبل السفير السوفياتي بعد ذلك».

قلت له: «شكراً، ويكفيني نصف ساعة.. الرئيس عنده مسؤولياته الجسيمة في هذه الأيام، ولا نريد أن نثقل عليه».

ودخلت على الرئيس في الموعد المحدد، فإذا به أكثر نشاطاً من أي وقت منذ عرفته قبل خمسة عشر عاماً، وعبد الناصر من طراز الرجال الذين يتألقون أمام الشدائد، ويختفون في الأيام الساكنات الهادئات.

وبادرني الرئيس عبد الناصر قائلاً: «فيه إيه عند الأخ أحمد.. وهذه عادته يحب أن يسمع أولاً ويتحدث ثانياً.. وهو يسمع ملياً ويتحدث جلياً».

قلت: «ليس عندي شيء أقوله بالتحديد.. أنا طلبت الموعد.. لأني أريد الأمان والاطمئنان».

قال (ضاحكاً): «يا ساتر.. الأمان من إيه.. والاطمئنان على إيه؟».

قلت: «الأمة العربية خارج منزلك تصيح صيحة الحرب، والجيش المصري محتشد في سيناء، والجيش السوري محتشد في الجولان، وقد تقع الحرب في أية لحظة، ومن غير إرادتنا.. فهل نحن مستعدون في هذا العام.. وهل هذا هو الوقت الذي نختاره للمعركة؟».

قال: «أنا أعرف كل ما تريد أن تقوله..نحن غير مستعدين لمعركة التحرير، تحرير فلسطين يحتاج إلى وقت طويل.. هذا أمر لا شك فيه.. وأنت تعرف رأيي في هذا الموضوع، وقد أخبرتك به منذ سنين.. كما أني شرحت موقفي في مؤتمر الدار البيضاء في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦، ولهذا فإن تحرير فلسطين لم يأت وقته بعد.. لا بد لنا من استعدادات أكثر.. لا بد لنا من موقف عربي أفضل.. ولكن نحن أمام معركة دفاعية.. فإذا هاجمتنا إسرائيل، فنحن قادرون على صدّها. ويظهر أنها معركة مفروضة علينا».

قلت: «ولكن ألا يرى سيادة الرئيس أنه حتى هذه المعركة الدفاعية كما وصفتها

يجب علينا أن نتجنبها، أو نؤجلها لفرصة أخرى نكون فيها أكثر استعداداً، ويكون الوضع العربي أحسن حالاً».

قال: «نحن لم نتحرك.. إسرائيل هي التي بدأت التحرك.. لقد حشدت قوات ضخمة على سوريا.. وعندنا معلومات وثيقة من مصادر متعددة تؤكد أن إسرائيل كانت تعتزم احتلال دمشق يوم ١٧ أيار/مايو، ولولا الإجراءات التي اتخذناها بسحب قوات الطوارئ الدولية وحشد قواتنا في سيناء لاستطاعت إسرائيل أن تغزو سوريا ونحن نتفرج».

قلت: «إلى هنا فالموقف سليم جداً.. وهذه وقفة تاريخية من جانب مصر، ومن سيادتك بالذات، ويجب أن تسجل بالفخر والإعجاب.. ولكن ألا تعتقد أن الأمر يتطور إلى ما هو أكبر؟».

قال: «أعتقد أن الأمر قد انتهى بالنسبة الينا في هذه المرحلة.. لقد حققنا ثلاثة نجاحات رئيسية: **أولاً** لقد رفعنا الضغط عن الجبهة السورية، وأصبحت إسرائيل تعلم علم اليقين أنها لا تستطيع أن تنفرد بأية دولة عربية وحدها. **ثانياً** لقد خلصنا نهائياً من قوات الطوارئ الدولية. و**ثالثاً** انتهينا من موضوع خليج العقبة، وأعدناه إلى ما كان عليه قبل العدوان الثلاثي، ولن نسمح للملاحة الإسرائيلية في مياهنا الإقليمية بعد اليوم».

قلت: «أنا أعلم ان الاتحاد السوفياتي يؤيدنا، ولكن إلى أي مدى إذا نشبت الحرب بيننا وبين إسرائيل؟».

قال: «الاتحاد السوفياتي يمدّنا بالسلاح والعتاد وبلا حساب، وسيكون إلى جانبنا مهما تطورت الأمور، وأعتقد أنه سيضغط على أمريكا لتضغط على إسرائيل حتى لا يتفجر الموقف.. وهذا طيب في الوقت الحاضر».

قلت: «ولكن يجب ألا يغيب عن البال نوع القيادة السوفياتية الحاضرة».

قال: «ماذا تعني؟».

قلت: «القيادة السوفياتية الحاضرة ليست فيها عبقرية لينين، ولا وحشية ستالين، ولا ديناميكية خروتشوف.. إن القيادة السوفياتية الحاضرة مؤلفة من ثلاثة من الخبراء الفنيين الكبار، وليس عند أحدهم عقل سياسي نافذ.. إن خروتشوف الذي عربد على العالم الغربي أثناء العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ ليس في سدة القيادة في هذه الأيام... والقادة الثلاثة الذين جاؤوا بعده فيهم برودة الخبراء، وتنقصهم شعلة الزعماء».

قال: «يكفينا من الاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر أن يمدّنا بالسلاح.. ويصدّ عنا الولايات المتحدة، ونحن نتكفل ببقية الموقف».

قلت: «وما هو الموقف الأمريكي في تقدير سيادتكم في الوقت الحاضر؟».

قال: «أمريكا على اتصال مستمر معنا. .أمريكا لها مشاغل كثيرة ولا أظن أنها تريد أن تخلق مشكلة جديدة في الشرق الأوسط.. وأعتقد أنها ستضغط على إسرائيل.. ونحن ليس من مصلحتنا في الوقت الحاضر أن نخوض معركة شاملة مع إسرائيل».

وهنا دخلنا في حديث طويل عن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ومصالحها الاقتصادية والاستراتيجية، وأوجزت للرئيس تعليقات الصحافة الأمريكية والبريطانية عن الأزمة واحتمالات الحرب، وعدنا مرة ثانية إلى الكلام عن احتمالات القتال.. فقال:

«المهم ألا يزداد الموقف توتراً، فإذا أمكننا الاحتفاظ بمكاسبنا التي حققناها من غير أن ندخل الحرب نكون قد وصلنا إلى المرحلة التي حققناها من غير أن ندخل الحرب، نكون قد وصلنا إلى مرحلة طيبة كنا ننتظرها منذ زمن طويل... المهم ألا يفلت زمام الموقف من أيدينا... المهم أن إخواننا السوريين يخففون حماستهم، ولو قليلاً».

قلت: «وهذا بيدك أيضاً... إن اتفاقية الدفاع المشترك التي عقدت أخيراً بين القاهرة ودمشق تفرض على سوريا أن تتحرك بتنسيق تام مع الجمهورية العربية المتحدة».

قال: «المفروض شيء، والواقع شيء آخر... البارحة أرسلت إلى إخواننا السوريين أن يوقفوا الأعمال الفدائية لمدة شهر أو شهرين... الأعمال الفدائية نشطت هذا الأسبوع نشاطاً كبيراً... والإسرائيليون متضايقون كثيراً.. فهل بإمكانك أن تتصل بالإخوان في دمشق؟».

قلت: «الأمور ليست عامرة كما يجب بيني وبين البعث السوري.. وموضوع الفدائيين حسّاس عندهم.. وقد غضبوا على الفريق عامر لأنه أنذرهم عدة مرات بوقف الأعمال الفدائية إلى أن تستكمل القيادة العربية استعداداتها».

وامتد الحديث إلى أكثر من نصف الساعة التي قنعت بها، ولم أشأ أن أطيل البقاء، فالرئيس عبد الناصر على موعد مع السفير السوفياتي، ولا بد من أن عنده حديثاً أهم بكثير من الحديث معي.. وحديثي لا يعدو الأمان والاطمئنان.

وخرجت من منزل الرئيس عبد الناصر في منشية البكري إلى منزلي في الزمالك، والساحات والميادين والطرقات مزدحمة بالجماهير، وهي مزهوة بحمى الحرب، وأحاديث الحرب.

دخلت بيتي، وبحسب عادتي في أيام الشدة، وأنا أستغفر الله عن ذلك، توضأت وصليت صلاة المغرب، ودعوت الله بأن ينصرنا ولا يهزمنا.. ولقد صدق معي قوله تبارك وتعالى:

﴿**وإذا مسَّ الإنسان الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة يونس،» الآية ١٢.

حديث الحرب مع يوثانت

في الأسبوع الأخير من شهر أيار/ مايو كنت أسير حرب، قبل أن تقع الحرب.

كان ذلك في مكتبي في حي الدقي في القاهرة، فقد حبست نفسي بين ملفاتي وأوراقي، وجهاز الراديو إلى جواري، أنتقل به حول العالم من عاصمة إلى عاصمة.. ألهث وراء التحرك الدولي، لأرى أين وصلت أمورنا مع الأصدقاء والأعداء.

ولقد اخترت لنفسي هذه المهمة من غير اختيار.. فنحن شعب فلسطين اتخذنا مكاننا في المعركة وانتهى، فقد أصبح جيش التحرير الفلسطيني في غزة جزءاً من الجيش المصري، وفي درعا جزءاً من الجيش السوري، وفي بغداد جزءاً من الجيش العراقي.. وأصبح شعبنا جزءاً من الأمة العربية يسري عليه ما يسري على الشعوب العربية الأخرى من تدريب واستعداد، وشعارات وتظاهرات.

وعلى الصعيد العربي، فقد تصدّى الرئيس عبد الناصر لقيادة المعركة السياسية والعسكرية، والملوك والرؤساء العرب وراءه، أعوان وأنصار، بعضهم يسايرونه مدفوعين، وبعضهم يسيرون مندفعين، وآخرون يسيرون متثاقلين.

ولم يعد للأجهزة العربية العامة أي مكان في المعركة.. فجامعة الدول العربية وراءها ربع قرن من الخيبة والخذلان ليس لها موقع قدم في القيادة العربية الموحدة التي عطّلها الملوك والرؤساء، فقد وأدوها بعد أن ولدوها، فخالفوا توصياتها العسكرية وحجبوا عنها الالتزامات المالية، وأصبح القائد العام للقيادة العربية الموحدة الفريق عامر ليس فريقاً في الأحداث.

وأنا، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، رأيت أن مكاني هو في مكتبي، أدرس وأحلل وأستنتج، لأجعل دراستي ورأيي في خدمة المعركة، إذا كان هنالك مجال للرأي، في هذا العالم العربي الذي يحتوي ثلاثة عشر ملكاً ورئيساً على رأس أمة واحدة.

وهكذا قنعت، وأقنعت نفسي أن دوري أن أقرأ وأسمع.. أن أقرأ الصحافة الأجنبية.. وأن أسمع الإذاعة الخارجية، وأن أبحث عن سؤال واحد لا سواه.. هل تبدأ إسرائيل الحرب ومتى.. وأين.. وكيف؟؟

لقد كان سؤالي عن إسرائيل بالذات.. ولم يكن عن العرب، فأنا أعلم أن الدول العربية غير راغبة في الحرب ولا قادرة عليها.. وهذا موضوع كبير لا تتحمله مذكراتي، ويكفي أن أوجز القول إن الدول العربية كما عرفتها خلال ربع قرن من الزمان لم تكن قادرة على الحرب لأنها غير راغبة فيها.. ولم تكن راغبة فيها لأنها لم تكن قادرة عليها.. وهذه المعادلة التي قد تبدو متناقضة في حاجة إلى كتاب، غير هذا الكتاب.

وهل ستحارب إسرائيل، ومتى، وأين، وكيف؟؟.. سؤال كبير لا بد من أن نلتمس الإجابة عنه في المحافل الدولية، وعلى وجه التخصيص في الأوساط الغربية، وبصورة أخص في الولايات المتحدة.. فإن إسرائيل تلتمس النور الأخضر في البيت الأبيض، في كل ما تواجهه من أزمات.

أقول هذا لا لأن إسرائيل مجردة من الإرادة المستقلة، فإن إسرائيل تتمتع بكامل استقلالها الفكري والسياسي شعوراً بقدرتها الذاتية، وبتأثيرها على كثير من الأجهزة الرسمية وغير الرسمية في العالم الغربي.. ولكن إسرائيل لا تملك الإرادة الذاتية في موضوع خطير، مثل موضوع حرب أو لاحرب.. وهي لا تملك الإرادة الذاتية لأنها لا تملك القدرة الذاتية.. فإن إسرائيل الدولة، والجيش، والاقتصاد، بل الوجود كله أيضاً نابع من الولايات المتحدة، وقرار إسرائيل حول الحرب والسلام هو قرار الولايات المتحدة.

ولهذا فقد عشت بحواسي الخمس هذا الأسبوع الأخير من شهر أيار/ مايو في صميم العالم، كالباحث عن الماء في الصحراء.. وفي عقلي سؤال يدور.. وعقلي يدور في السؤال.. هل تحارب إسرائيل؟.. ومن هنا فإن جسمي كان في القاهرة، ولكن عقلي كان يجوب الآفاق، يلحق بالأحداث حيثما كانت، والأشخاص أنى كانوا.

ولقد انشد انتباهي إلى كلمات صارمة حاسمة صدرت عن البيت الأبيض، فقد أصدر الرئيس الأمريكي لندن جونسون بياناً قال فيه: «إن إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية يضيف بعداً جديداً وخطيراً إلى الازمة الراهنة في الشرق الأوسط.. وإن إغلاقه في وجه الملاحة الإسرائيلية عمل غير قانوني ويشكل خطراً محتملاً على قضية السلام.. وإن حق المرور البريء في المياه الدولية قضية حيوية تهم

المجموعة الدولية بأسرها.. إن الولايات المتحدة ملتزمة كل الالتزام بدعم الاستقلال السياسي والسيادة الإقليمية لجميع الدول في منطقة الشرق الأوسط..» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ومن غير إيضاح، فقد أوضح هذا البيان مساندة أمريكا لإسرائيل في قضية خليج العقبة، والتزام أمريكا بالدفاع عن إسرائيل والحفاظ على سيادتها واستقلالها. وكان هذا البيان موجهاً إلى الأمة العربية، وخاصة إلى القاهرة ودمشق.

وقد وضحت المعاني التي يحملها بيان الرئيس الأمريكي، بصورة خاصة، حين صرح دين راسك وزير الخارجية الأمريكي في اليوم ذاته بأن «الموقف حساس جداً في منطقة الشرق الأوسط.. وأنه لا يعلم إذا كانت الولايات المتحدة ستجد نفسها مجبرة للتدخل بالقوة المسلحة في الشرق الأوسط..».

وازداد الأمر وضوحاً على وضوح حين أصدرت السفارات الأمريكية في الشرق الأوسط تعليمات إلى رعاياها تنصحهم «بتجنب السفر إلى الجمهورية العربية المتحدة والأردن وإسرائيل، ومغادرة هذه البلدان إذا كانوا يزورونها في الوقت الحاضر».

وأصدرت وزارة الخارجية البريطانية تعليمات مشابهة تطالب فيها الرعايا البريطانيين «بمغادرة الجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل والضفة الغربية من الأردن، كما طلبت إلى رعاياها في سوريا ولبنان والعراق والضفة الشرقية من الأردن أن يكونوا على استعداد لمغادرة البلاد في أي وقت».

وحتى استراليا، القارة النائية عن الشرق الأوسط، فقد نصحت وزارة خارجيتها رعاياها «بالابتعاد عن إسرائيل والدول المجاورة لها».

وقد صدرت هذه التعليمات الأمريكية والبريطانية والأسترالية كلها في يوم واحد.. وكأنها على ميعاد.. (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

والواقع أنه في هذا اليوم ذاته عقد اجتماعان مهمان: **الأول** في البيت الأبيض في واشنطن، وقد حضره الرئيس الأمريكي جونسون، ودين راسك وزير الخارجية، وروبرت مكنمارا وزير الدفاع، ووالت روستو الصهيوني مستشار البيت الأبيض، والاجتماع **الثاني**، في لندن حيث اجتمعت الوزارة البريطانية لبحث الموقف في الشرق الأوسط.. وتقرر فيه إيفاد الوزير البريطاني جورج طومسون إلى الولايات المتحدة لبحث الموضوع مع المسؤولين الأمريكيين.

وفي أوروبا الغربية كان التحرك السياسي يسير في الفلك الأمريكي ـ البريطاني، ومن أبرز ما قيل في هذا السياق التصريح الذي أدلى به د. جوزف لونز

وزير خارجية هولندا، حين قال إن: «قرار الجمهورية العربية المتحدة بإغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية هو عمل قد تعتبره إسرائيل بمثابة هجوم عليها..».

وهولندا كما هو معروف من الدول البحرية ذات الشأن، وليس تصريح وزير خارجيتها بأقل من دعوة مكشوفة لإسرائيل أن تشنّ الحرب على مصر لأن مصر «قد شنت هجوماً عليها»، على حد تعبير وزير الخارجية الهولندية.

ولعل هذه الدعوة المكشوفة للحرب هي التي دعت رئيس وزراء إسرائيل ليفي أشكول إلى أن يطلب إلى كوستاباسيو رئيس حكومة فنلندا الذي كان يقوم بزيارة لإسرائيل لمدة أسبوع بأن يقطع زيارته في يومها الثالث «بأسف عميق بالنظر إلى خطورة الأمن في المنطقة...» (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

وجرت الدانمارك على غرار هولندا، فقد أعلن رئيس حكومتها جنيس أوتوكراغ أن قرار الجمهورية العربية المتحدة بإغلاق خليج العقبة هو أخطر حادث في الشرق الأوسط منذ أزمة السويس في عام ١٩٥٦.. (٢٤/ ٥/ ١٩٦٧).

وواضح أن التذكير بالعدوان الثلاثي لعام ١٩٥٦ هو دعوة أخرى لإسرائيل للقيام بعدوان مماثل، منفردة أو مع شركاء.

ولكن الأوركسترا العالمية الكبرى المسماة بالكونغرس الأمريكي هي التي دقت طبول الحرب.. الحرب ضد مصر وسوريا، فقد أصدر ستة وتسعون عضواً من أعضاء الكونغرس الأمريكي بياناً شديد اللهجة طالبوا فيه «باتخاذ إجراء حازم من شأنه أن يقاوم العدوان على إسرائيل.. باعتبار أن مصر وسوريا تهددان إسرائيل..وأن الحرب واقعة لا محال إذا لم تعمل الولايات المتحدة بقوة وثبات.. وأن خطاب عبد الناصر في سيناء كان بالفعل أعلاناً للحرب.. وأن حكومة الولايات المتحدة في عهود رؤسائها ترومان وأيزنهاور وكينيدي وجونسون قد أعلنت المرة بعد المرة عزمها على مقاومة أي عدوان في الشرق الأوسط.. واتخاذ جميع الإجراءات الكفيلة بإيضاح الموقف الأمريكي لأولئك الذين يريدون تدمير إسرائيل..» (٢٤/ ٥/ ١٩٦٧).

ولم يقف الأمر عند حدود التصريحات، فقد بدأت مرحلة التحركات، وأخذت الولايات المتحدة بزمام المبادرة، كأنما أصبحت إحدى ولاياتها مهدّدة بغزو خطير، فقد فوجئ العالم برحلة جوية خاطفة قام بها الرئيس الأمريكي جونسون إلى كندا للاجتماع مع ليستر بيرسون رئيس الحكومة الكندية، حيث اجتمع به لمدة ثلاث ساعات عاد على إثرها إلى واشنطن، وصرح الرئيس الأمريكي

للصحافيين بأن «الطرفين اتفقا على أن الوضع في الشرق الأوسط في غاية الخطورة..» (٢٥/ ٥/ ١٩٦٧). وأضاف إلى ذلك قوله إن قصد الاجتماع بالرئيس الكندي بيرسون «لأنه يعتبر واحداً من أعظم الخبراء الأحياء في شؤون الشرق الأوسط..». وقد كان جونسون صادقاً في هذا التقييم، فإن الرئيس بيرسون معروف بعدائه الشديد للأمة العربية. ولقد لعب دور «الفارس» أثناء رئاسته للجنة السياسية للأمم المتحدة في عام ١٩٤٨ حين أصدرت توصيتها المشؤومة بتقسيم فلسطين.. وإنشاء إسرائيل.

وقبل ذلك بيوم واحد (٢٤/ ٥/ ١٩٦٧) استمع العالم إلى أنباء رحلة أخرى، مختلفة الهدف والوسيلة. فقد طار جورج براون وزير خارجية بريطانيا إلى موسكو واجتمع بالقيادة السوفياتية الثلاثية: بريجنيف، كوسيغن، بودغورني... وحاول أن يقنع الاتحاد السوفياتي بأن تتفق الدول العظمى على حل مشترك لمعالجة الموقف المتفجر في الشرق الأوسط.. غير أن الاتحاد السوفياتي لم يبد حماساً لهذه الفكرة، فقد قال رئيس الاتحاد السوفياتي أليكسي كوسيغن للوزير البريطاني، على حد تعبير وكالة اليونايتد برس «إن حل مشكلات العالم لا يعتمد عليكم وعلينا فحسب..».

وإلى جانب هذه التحركات، أطلق المعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحدة اقتراحاً عملياً، يقصد منه جسّ نبض الاتحاد السوفياتي وإرهاب الجمهورية العربية المتحدة، وقد سمح لهذا الاقتراح «العملي» بأن يتسرب إلى الصحافة العالمية، فنشرت بأن «الخطط التي تبحثها الدول الغربية الآن هي إنشاء قوة طوارئ بحرية دولية تعمل تحت علم الأمم المتحدة في خليج العقبة.. وأنه في حالة قبول مثل هذه الخطة فإن أمريكا تحبّذ أن تقوم الدول البحرية بخطوة قوية تشرك فيها الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا لفتح خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية» (٢٧/ ٥/ ١٩٦٧).

وفي إطار الحرب النفسية على القاهرة أعلنت الولايات المتحدة من جهة أخرى بلسان وزير خارجيتها دين راسك: «أن على مصر وإسرائيل التزام الهدوء».. وأن كل واحد يجب أن ينصح كل واحد بالمحافظة على السلام في هذا الموقف الخطير.. وإن كان ليس على أمريكا التزام بكبح جماح أحد الطرفين..» (٢٧/ ٥/ ١٩٦٧).

وببساطة، فقد كان معنى التصريح الأمريكي أن الولايات المتحدة ليست ملزمة بكبح جماح إسرائيل.. وببساطة أبسط، فإن التصريح الأمريكي هو بمثابة دعوة لإسرائيل إلى أن تحارب.. ودعوة لمصر إلى أن تلتزم الهدوء والسكينة.

وقد سبقت الحرب النفسية، حرب دبلوماسية قام بها السفير الأمريكي في القاهرة، في اليوم الذي كان يقدم فيه صورة من أوراق اعتماده إلى محمود رياض

وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧). . فقد عرض السفير الأمريكي رأي واشنطن متمثلاً في خمس نقاط تتلخص في ما يلي:

ـ بقاء قوات الطوارئ الدولية إلى أن تعرض المشكلة على الأمم المتحدة.

ـ أن توافق الجمهورية العربية المتحدة على حرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة.

ـ أن لا تدخل قطاع غزّة أية قوات مسلحة مصريّة.

ـ أن تتولى الأمم المتحدة ووكالاتها المسؤولية عن إدارة قطاع غزة إلى حين تسوية المشكلة.

ـ أن تعود القوات المصرية في سيناء والقوات الإسرائيلية في النقب إلى مواقعها الأصلية.

وكان معنى هذه المطالب الخمسة تحقيق أمر واحد. .وهو أن يبقى القديم على قدمه، كما يقول الفقهاء، وذلك بأن تلغي الجمهورية العربية المتحدة، والرئيس عبد الناصر بالذات، ما قال وما فعل، بدءاً من انسحاب قوات الطوارئ الدولية، إلى إغلاق خليج العقبة. . وفوق ذلك، بل أنكى من ذلك، أن يسلم قطاع غزة إلى الأمم المتحدة.

وكان من البديهي أن ترفض القاهرة هذه الوساطة الأمريكية، فإن الولايات المتحدة هي آخر من يصلح لدور «الوسيط»، فهي الطرف «العدو»، شأنها في ذلك شأن إسرائيل. . وهذا هيوبرت همفري نائب رئيس الولايات المتحدة يبعث إلى مؤتمر ضم عدة مئات من زعماء الصهيونية برسالة يصف فيها إسرائيل بأنها: «صديقة أمريكا العزيزة في التقدم والسلام. . وأن إسرائيل منارة لجميع الشعوب في الشرق الأوسط وخارج الشرق الأوسط، وضوءها هو رسالة الأنبياء الكونية، رسالة الحرية والإنسانية. .» (٢٨/ ٥/ ١٩٦٧).

بل كيف يمكن أن تكون أمريكا وسيطاً لحل الأزمة، وفيها كما في بريطانيا منظمات صهيونية تجاهر باستعدادها للوقوف إلى جانب إسرائيل في السلم وفي الحرب؟ . . وهذا د. أمانويل جاكوبوفيتش كبير حاخامي اليهود في بريطانيا يدعو في اجتماع كبير نظمه مجلس ممثلي اليهود البريطانيين «إلى فرض ضريبة دخل عن كل فرد يهودي في جميع أنحاء العالم، وإلى تجنيد عشرات ومئات الألوف من الشبان اليهود الذين يكونون مستعدين لدى أول مخابرة هاتفية من إسرائيل للاستجابة للطلب. . وأن المجتمعات اليهودية في بريطانيا وأمريكا وأستراليا مرتبطة بمعاهدات دفاع

مشترك مع إسرائيل.. وإذا طلبت إسرائيل فسنكون تحت امرتها...» (٢٠/ ٥/ ١٩٦٧).

ولو كان الأمر قاصراً على تصرف المنظمات الصهيونية في أمريكا وبريطانيا وغيرها لجاز أن نعزل الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة عن نشاط الصهيونية حتى ولو على صعيد «التضامن العسكري»، كما أعلن كبير حاخامي اليهود في بريطانيا، ولكن الأمر أخطر من ذلك بكثير فإن الولايات المتحدة نفسها، وهي أكبر دولة في العالم غارقة إلى الأذقان بتبنّي الأهداف الصهيونية والالتزام بحمايتها، والعمل على تنشيطها وتشجيعها، فقد كانت الولايات المتحدة في هذا الشهر ـ أيار/ مايو ـ وهو شهر الأزمة، تسلك طريقين متوازيين: **الأول** المساندة الإيجابية لإسرائيل عسكرياً وسياسياً، و**الثاني** تخدير الدول العربية وترويضها وحملها على التراجع، وتوجيه هذا الجهد نحو الجمهورية العربية المتحدة، باعتبارها تحتل مكانة الرأس من الجسد.

وإني لأذكر أن الرئيس جونسون قد تولى بنفسه محاولة التخدير والترويض، فقد بعث برسالة خاصة إلى الرئيس عبد الناصر يقترح فيها إيفاد نائبه هيوبرت همفري لمشافهة الرئيس عبد الناصر بصدد الأزمة، والبحث عن حلول للخروج منها.. (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

وقد أعدّ مكتب الرئيس العربي جواباً عن رسالة الرئيس الأمريكي، وقد اتصل بي سامي شرف مدير مكتب الرئيس يطلب إليّ أن أوافيه إلى مكتبه لأطلع على الرسالة والجواب، لأن «سيادة الرئيس يحب يعرف رأيك.. فالموضوع كله يتصل بالقضية الفلسطينية..».

وقد كانت رسالة الرئيس الأمريكي، كما توقعت، تأييداً لوجهة نظر إسرائيل، لا محاولة للبحث عن حل عادل للأزمة... فقد تناولت الرسالة ثلاثة مواضيع: قوات الطوارئ الدولية، وخليج العقبة، وحشد القوات المصرية في سيناء، عولجت كلها من وجهة النظر الإسرائيلية، بفارق واحد، هو أن الرسالة كتبت باللغة الأمريكية بدلاً من اللغة العبرية.

وقد جاء في ختام رسالة الرئيس جونسون عبارة أصبحت ملكاً للتاريخ، وليس للتاريخ أن ينساها.. فقد قال الرئيس الأمريكي: «وليس لدينا سبب للاعتقاد بأن أحداً من أطراف اتفاقات الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل لديه النية في ارتكاب عدوان.. وتستطيع حكومة الجمهورية العربية المتحدة والحكومات العربية الأخرى أن تتأكد بيقين، وأن تعتمد على أن حكومة الولايات

المتحدة تعارض معارضة صارمة أي عدوان في المنطقة من أي نوع..».

وكان جواب الرئيس العربي على رسالة الرئيس الأمريكي موفقاً وحازماً... ولم أقترح فيه تبديلاً أو تعديلاً، إلا كلمة مكان كلمة وعبارة قبل عبارة.

وقد شرح الرئيس عبد الناصر موقفه من هذه القضايا الثلاث شرحاً موضوعياً؛ فبالنسبة إلى الحشود المصرية في سيناء، فصّل الرئيس عبد الناصر مسألة الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا وتهديدات المسؤولين الإسرائيليين بالعدوان على سوريا، وخلص إلى القول إنه «كان طبيعياً عندئذ أن تقوم الجمهورية العربية المتحدة بمسؤوليتها، وأن تتخذ كافة الإجراءات التي يتطلبها العمل دفاعاً عن الوطن العربي ضد العدوان المدبر»، وكانت الإشارة إلى «الوطن العربي» سديدة ورشيدة.

وبالنسبة إلى سحب قوات الطوارئ الدولية، فقد أوضح الرئيس عبد الناصر أن «الإجراءات التي اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة بالنسبة إلى تقدم قواتها المسلحة إلى مواقعها الأمامية حتى تكون قادرة على مواجهة تطورات الموقف وعلى التدخل ضد الغزو الإسرائيلي المدبر، فقد قررنا ضرورة انسحاب قوات الطوارئ الدولية حرصاً منا على سلامتها..».

وفي ما يتعلق بخليج العقبة، فقد أكد الرئيس عبد الناصر «أنه كان منطقياً أن مارسنا حقوق سيادتنا الثابتة على مضيق تيران وعلى مياهنا الإقليمية في خليج العقبة بعد أن تقدمت قواتنا المسلحة واحتلت منطقة شرم الشيخ المطلّة على مضيق تيران... وأن الجمهورية العربية المتحدة قد مارست قبل العدوان الثلاثي حقوقها القانونية الثابتة إزاء الملاحة الإسرائيلية في المضيق وفي الخليج.. وموقفنا في هذا ثابت شرعاً، وهو يستهدف إزالة آخر أثر للعدوان الثلاثي، إعمالاً للمبدأ الأخلاقي الذي يقضي بعدم مكافأة المعتدي على عدوانه..».

ولم يكتف الرئيس عبد الناصر بالإجابة عن الأمور الثلاثة التي أثارها الرئيس جونسون، ولكنه أبرز موضوع القضية الفلسطينية، ولعل هذا هو السبب الذي دعا الرئيس عبد الناصر إلى أن يطلعني على الرسالة الأمريكية والجواب العربي.

ففي ما يتعلق بالقضية الفلسطينية، كان جواب الرئيس عبد الناصر حاسماً وقاطعاً، فقد نبّه إلى أن هنالك «تجاهلاً كاملاً ومؤسفاً» لقضية فلسطين التي «تفرض في الواقع حكمها على مجرى الأحداث اليوم، وستظل تفرض حكمها في المستقبل.. وأن حقوق شعب فلسطين هي في نظرنا أهم حقيقة يجب الاعتراف بها.. فلقد استطاعت القوة المسلحة المعتدية أن تطرد هذا الشعب من وطنه وتحوله إلى لاجئين على حدود هذا الوطن، وتقف قوى السيطرة والعدوان اليوم حائلاً دون حقهم الثابت في

العودة إليه والعيش فيه، على رغم قرارات الأمم المتحدة التي كان آخرها في العام الماضي..».

وبألفاظ أخرى، ولكن في المعنى نفسه، أراد عبد الناصر في جوابه أن يصارح الرئيس الأمريكي لندن جونسون أن موضوع خليج العقبة، وسحب قوات الطوارئ الدولية، واحتشاد الجيوش حول الحدود، إنما هي أمور، على أهميتها، نابعة من القضية الفلسطينية، تمكن الشعب الفلسطيني من العودة إلى وطنه.

وقد كان الرئيس عبد الناصر موفقاً غاية التوفيق في إثارة القضية الفلسطينية في تلك المناسبة، لأن الرئيس الأمريكي قد أكد في رسالته على ضرورة «نسيان الماضي والعمل على إنقاذ الشرق الأوسط بل والعالم كله..»، وجاء عبد الناصر فنبش الماضي، وجعله سبب الحاضر.. وسبب المستقبل.

وفي الوقت الذي كان فيه البيت الأبيض يوجه رسالته إلى الرئيس عبد الناصر، كان يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة في طريقة إلى الشرق الأوسط.. وكان لا بد له من أن يقوم بهذه الزيارة لسببين: **الأول**، هو أن الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، ومعها إسرائيل والصهيونية العالمية، قد شنّت حملة كبرى على الأمين العام للأمم المتحدة تتهمه بالتسرع في الاستجابة لطلب القاهرة بسحب قوات الطوارئ الدولية، وأنه كان يجب أن يعرض الأمر على مجلس الأمن أو على الجمعية العامة للأمم المتحدة، والأمر **الثاني** أن يوثانت لا بد من أن يقوم من جانبه بسعي لتخفيف حدة التوتر في المنطقة، وهذا جزء من واجباته ومسؤولياته كأمين عام للمنظمة الدولية.

وقد غادر يوثانت نيويورك (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧) يحمل رغبة الولايات المتحدة بضرورة إعادة الحالة في الشرق الأوسط إلى ما كانت عليه، وقد تلقى مثل هذه الرغبة من الحكومة البريطانية في رسالة عاجلة وصلته من لندن وهو في طريقه إلى المطار.. وكان لا يزال في نيويورك.. وقد توقفت طائرته في باريس، فاجتمع بأحد كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية.. ومرة أخرى وقفت به الطائرة في روما حيث اجتمع بالمنتوري فانفاني وزير الخارجية الإيطالية..وفي هذين الاجتماعين (الترانزيت) استمع يوثانت إلى رأي باريس وروما في الأزمة.

والواقع أن يوثانت كان يدرك خطورة الموقف في الشرق الأوسط، قبل أسبوع..فقد أعلن في بيان أصدره من مقر الأمم المتحدة (١٧/ ٥/ ١٩٦٧): «أن الموقف مليء باحتمالات الخطر.. وأنه لذلك يلغي الزيارة التي كان يعتزم القيام بها إلى كل من لندن وبروكسل..». وبعد ثلاثة أيام قدم يوثانت تقريراً إلى مجلس الأمن

حول تطورات الموقف في الشرق الأوسط محذراً من أن الوضع في المنطقة بات أكثر خطراً من أي وقت مضى منذ حرب السويس.. وأن الوضع في الشرق الأوسط خطر بالنسبة إلى العلاقات بين الدول العربية وإسرائيل وبين الدول العربية نفسها.. وأنه صدرت في الأسابيع الأخيرة تقارير من إسرائيل منسوبة إلى كبار المسؤولين تحمل تهديدات تزيد من خطورة الوضع وحدة الانفعال.. وأنه تردّدت في الأيام القليلة الماضية أنباء وتحركات وحشود، خاصة على الجانب الإسرائيلي من الحدود..» (٢٠/ ٥/ ١٩٦٧).

تلك كانت الصورة العامة في ذهن يوثانت حين اعتزم السفر إلى الشرق الأوسط ليعالج المشكلة على الطبيعة، كما يقولون.

ولم يكد يصل يوثانت عشية ذلك اليوم إلى القاهرة، إلى أوتيل هيلتون، حتى كنت في غرفته، فإن بيننا صداقة منذ سنين، وقبل أن يصبح أميناً عاماً للأمم المتحدة، حين كان المندوب الدائم لبلاده في الأمم المتحدة، وكان له نشاط بارز في الكتلة الآسيوية ـ الأفريقية، وخاصة في ما يتعلق بقضية الجزائر.

وتبادلنا التحية، كما تبادلنا ذكريات أيامنا السابقة، فقد تغيرت مواقفنا، فقد أصبحت رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد أن كنت رئيساً للوفد السعودي، وهو أصبح أميناً عاماً للمنظمة الدولية، بعد أن كان رئيس البعثة الدائمة لبلاده أمام الأمم المتحدة.

وفاجأني يوثانت بالسؤال مازحاً: «أين وصلت في تحرير فلسطين؟».

قلت: «ما زلنا في أول الطريق... وإذا أيدتنا في الأمم المتحدة يمكننا أن نقطع شوطاً على الطريق».

قال: «وما رأيك في الموقف الحاضر؟».

قلت: «كل الظواهر تدل على أن إسرائيل ماضية في طريق الحرب.. وهي تسعى الآن للحصول على موافقة أمريكا ولو بصورة ضمنية.. ولكن ما هو رأيك أنت في الموقف الحاضر؟».

قال: «لا أظن أن إسرائيل تقدم على الحرب.. أنتم العرب تعرفون أهداف إسرائيل أكثر مني.. وأنا حريص على تهدئة الموقف.. إلى فرصة تنفس.. حتى يمكن البحث عن حل دائم وعادل لكل مشاكل الشرق الأوسط».

قلت: «وهل عندك اقتراحات محددة؟».

قال: «عندي أفكار عامة.. وليس عندي اقتراحات محددة».

قلت: «مثلاً.. ما هي هذه الأفكار؟».

قال: «وهل تساعدني على إقناع القاهرة بقبولها؟».

قلت (مازحاً): «بل لعلك ستطلب مساعدة القاهرة لإقناعي أنا بقبولها!!».

ودخلنا في أحاديث جانبية عن متاعبه في نيويورك... وعن الجو في القاهرة... وحكاياته مع الأصدقاء المشتركين في الأمم المتحدة.. ولكني عدت مرة ثانية إلى الحديث عن مهمته في القاهرة.

قلت: «والآن ما هي أفكارك العامة بصدد المشكلة؟».

قال: «أرى أن تبتعد القوات المسلحة عن خطوط الهدنة كما كانت في الماضي».

قلت: «إذا كانت إسرائيل تسحب قواتها، فأعتقد أن مصر حاضرة لأن تسحب قواتها».

قال: «ونعمل على إعادة وجود الأمم المتحدة بصورة أو بأخرى».

قلت: «إذا كانت إسرائيل تقبل بأن يكون وجود الأمم المتحدة في جانبها، فأعتقد أن مصر موافقة على ذلك من جانبها.. أيضاً».

قال: «لا أعتقد أن إسرائيل توافق على ذلك».

قلت: «وكيف يمكن الأمم المتحدة أن تطالب عبد الناصر بذلك بعد أن انسحبت القوات الدولية من سيناء.. وحلّت القوات المصرية محلّها.. ولا بد من أنك علمت أن أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي ألقى في الليلة الماضية بياناً في الكنيست انتقدك فيه للطريقة التي عالجت بها موضوع سحب قوات الطوارئ الدولية، وأن قرارك الفوري بالموافقة على سحب القوات الدولية «قد أصاب الجميع بالدهشة، وأنه كان يجب الاتصال بإسرائيل لاستشارتها..» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

قال: «ولكن لو استشرتها.. هل ستوافق على سحب قوات الطوارئ؟».

قلت: «ومن أين لها أن توافق.. وقد قامت طائرتان إسرائيليتان باعتراض طائرة الأمم المتحدة التي كانت في طريقها من السويس إلى غزة مقلة الجنرال ريكي قائد قوات الطوارئ الدولية، وحاولت إرغامها على الهبوط داخل إسرائيل.. وأطلقت عليها النار؟.. لقد كان من الممكن أن تنفجر طائرة الأمم المتحدة في

الجو، ويسقط الجنرال ريكي جثة ممزقة في داخل إسرائيل» (١٨/ ٥/ ١٩٦٧).

قال: «مع الأسف لقد كان ذلك ممكناً».

قلت: «هذا هو مبلغ احترام إسرائيل للأمم المتحدة».

قال: «وقوات جيش التحرير التي احتلت المواقع الأمامية من خطوط الهدنة؟».

قلت: «إن قواتنا قد أصبحت جزءاً من الجيش المصري.. وما يجري على الجيش المصري يجري عليها».

قال: «وموضوع خليج العقبة..ألا يمكن الوصول إلى حل وسط؟».

قلت: «لقد حسم عبد الناصر موضوع خليج العقبة نهائياً.. وأنت تعلم أن عبد الناصر طعن في شرفه وأمانته وكرامته في موضوع خليج العقبة..فقد اتهمه بعض المسؤولين العرب بأنه وقع اتفاقاً سرياً مع سلفك داغ همرشولد، اعترف فيه لإسرائيل بحق الملاحة في خليج العقبة».

قال: «في ذهني مخرج معقول.. لعله يكون مقبولاً من الجميع؟».

قلت: «وما هو؟».

قال: «يظل خليج العقبة مفتوحاً للملاحة الدولية ومنها إسرائيل إلى أن تنظر الجمعية العامة في الموضوع».

قلت: «إن موضوع خليج العقبة هو جزء من القضية الفلسطينية. والقضية الفلسطينية وصلت إلى هذه الأزمات بسبب سياسة الأمم المتحدة».

قال: «وهل سنظل أمام الأزمة من غير حل؟».

قلت: «هنالك حل..؟».

قال (في لهفة وعجب): «وما هو؟».

قلت: «تصدر الأمم المتحدة قراراً يطالب الفريقين بالتزام الهدنة، وعدم إطلاق النار».

قال: «ولكن الجيش المصري والجيش الإسرائيلي يقفان وجهاً لوجه، وقد يمكن أن تندلع الحرب في أية لحظة».

قلت: «تصدر الأمم المتحدة قراراً تدعو الجانبين إلى سحب قواتهما مسافة عشرين، ثلاثين، خمسين كيلومتراً إلى ما وراء خطوط الهدنة».

قال: «وموضوع الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة.. إنه هو مفتاح الأزمة في الوقت الحاضر... ولا سبيل إلى تجنب الاصطدام إلا بتسوية هذا الموضوع».

قلت: «وكيف ترى تسوية الموضوع؟».

قال: «عندي ثلاثة اقتراحات: **الأول** أن يفتح خليج العقبة للملاحة الدولية البريئة بشرط ألا تحمل البواخر أية مواد استراتيجية. **الثاني** يطلب إلى إسرائيل ألا ترسل أية بواخر من جانبها بقصد اختبار حرية الملاحة. **الثالث** أن تمتنع الجمهورية العربية المتحدة عن القيام بإجراءات التفتيش المعتادة».

قلت: «ومن يضمن أن تنفذ إسرائيل تعهدها إذا قبلت بالاقتراح الثاني؟».

قال: «سأقترح على مجلس الأمن أن يصدر قراراً بهذا المعنى.. وعلى كل حال فإنه إجراء مؤقت حتى نخرج من الأزمة الحادة الحاضرة».

وعند هذه النقطة من الحديث دخل علينا الجنرال ريكي قائد قوات الطوارئ الدولية، فكان لا بد من أن أخرج، وقد طال الاجتماع، وجئت من غير موعد.

وغادرت الفندق لأجد على أبوابه تظاهرة كبرى أوقفت حركة المرور، واستوقفت عدداً من السياح، وكان همهم أن يصوروا هذا المشهد ليعودوا به إلى بلادهم ويثبتوا لأهلهم وأصدقائهم أنهم كانوا في القاهرة أيام التظاهرات.. وكان المتظاهرون يحيّون يوثانت ويهتفون: «عاش عبد الناصر»، «نريد الحرب»، «النصر للعرب».. والويل لأمة لا تحقق هتافاتها وشعاراتها.

وفي طريقي إلى مكتبي مررت بوزارة الخارجية العربية على النيل، وكانت مصادفة حسنة، فلم أجد عند الوزير محمود رياض أحداً، وكان يقرأ آخر ما جاء من التقارير من وفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة.

وفاجأت وزير الخارجية قائلاً: «إن عندي آخر التقارير.. إن التقارير التي تقرأها الآن قديمة، لقد تجاوزها الزمن».

قال: «وهل مكتب المنظمة في نيويورك أرسل لكم جديداً؟».

قلت: «لا... لم يصلني شيء.. ولكني جئتك الآن بآخر تقرير.. لقد كنت عند يوثانت منذ لحظة».

وسردت للوزير رياض ما دار بيني وبين يوثانت من الحديث حول مهمته وآرائه.. وخرجت إلى مكتبي وفي نفسي شيء من الغبطة، فقد «تجسست» على صديقي يوثانت لصالح أمتي، والجاسوسية أشكال وأصناف.. ولم أكن أدري أين أصنف نفسي.

وعلمت صبيحة اليوم التالي أن يوثانت قد اجتمع بالوزير محمود رياض، وصدر على أثر الاجتماع بيان موجز جاء فيه: «إن الأمين العام للأمم المتحدة استمع خلال هذا الاجتماع إلى وجهة نظر الجمهورية العربية المتحدة، وتم تبادل وجهات النظر حول الموقف الراهن في المنطقة».

ولكن العكس هو الصحيح، فإن الوزير رياض هو الذي استمع إلى وجهة نظر الأمين العام للأمم المتحدة. ولكن تقاليد الدبلوماسية الهادئة قد أملت هذه الصيغة لتصور يوثانت بأنه لم يأت إلى القاهرة وهو يحمل مقترحات معينة. ولكنه جاء يحمل أذنيه ليستمع بهما، ويعود أدراجه، إلى مكتبه في الطابق الثامن والثلاثين من مبنى الأمم المتحدة في نيويورك.

وفي مساء الرابع والعشرين من أيار/ مايو استقبل الرئيس عبد الناصر يوثانت بحضور د. محمود فوزي نائب رئيس الحكومة للشؤون الخارجية، ومحمود رياض وزير الخارجية.

وفي صبيحة اليوم التالي ـ الخامس والعشرين - عقد يوثانت اجتماعاً ختامياً مع الوزير رياض لاستكمال محادثات الأمس. . وقد صرح الأمين العام بعد الاجتماع بأنه: «لا يرغب في الإفضاء بأية تفصيلات. . . ولكنه لا يستطيع أن يقول إن مهمته لم تنجح. . وسيقدم تقريراً عن مباحثاته في القاهرة إلى مجلس الأمن في الوقت المناسب»، كما صرح الوزير رياض من جانبه قائلاً: «إن مهمة الأمين العام قد نجحت وحققت الغرض الذي جاء من أجله»، وهكذا يتفنن الدبلوماسيون في صياغة أحاديثهم ستراً للفشل، ولكن في صيغة النجاح.

وأردت أن أكون فضولياً في ذلك الصباح، ولعلها المرة الوحيدة التي فعلتها في حياتي. . فقد ذهبت إلى الفندق لأزور يوثانت «مودعاً»، ولكن الواقع أني أردت أن أكون «مستقصياً» لأعلم ماذا جرى. . . وقد دفعني إلى هذا الفضول هو أن «الكلفة» كانت مرفوعة بيننا، ولكن ما هو أهم من الكلفة أني كنت حريصاً على أن أعرف ما إذا كان الرئيس عبد الناصر قد قبل حلاً وسطاً أو أنه بقي على صلابته.

وسألت يوثانت (وهو ينظر في محفظة أوراقه): «عسى أن يكون اجتماعك بالرئيس عبد الناصر ناجحاً؟».

قال (ضاحكاً): «ناصر شخصية جذابة، لقد نسيت مهمتي معه».

قلت: «هذا جواب دبلوماسي. . وأريدك أن تنسى دبلوماسيتك معي».

قال (مازحاً): «أنتم شعب فلسطين سبب كل هذه المشاكل».

قلت: «هذا صحيح، نحن سبب كل هذه المشاكل. ولكن مشكلة المشاكل هي الأمم المتحدة. الأمم المتحدة هي التي قسّمت وطننا وشردت شعبنا. ومن هنا نشأت الأزمة. ولكن كيف رأيت موقف القاهرة؟».

قال: «الحقيقة أنا لا أستطيع أن ألوم الجمهورية العربية المتحدة على أي عمل قامت به. إن سيناء أرض مصرية ولا يمكن أن تبقى قوات الطوارئ فيها إلى الأبد، وعلى الرغم من مصر. هذا أمر واضح. ولكني كنت أفضّل أن يؤجل هذا الموضوع إلى فترة أخرى أكثر هدوءاً».

قلت: «وبالنسبة إلى خليج العقبة؟».

قال: «لقد استعرض عبد الناصر الموقف منذ التهديد الإسرائيلي لسوريا، وما تبعه من تحرك الجيش المصري، وطلب سحب قوات الطوارئ الدولية، وإن إغلاق الخليج هو النتيجة الطبيعية لهذا الموقف. وإن الجمهورية العربية المتحدة اتخذت ما اتخذت من إجراءات وهي على استعداد كامل لتحمل المسؤولية».

قلت: «الآن، وقد انتهت مباحثاتك في القاهرة، هل ترى احتمال وقوع الحرب؟».

قال: «الرئيس عبد الناصر لا يريد الحرب!!! أنا متأكد من هذا الموقف... لقد شرح لي الموضوع كما ورد في خطابه الذي ألقاه في ٢٢ أيار/ مايو. وأنه يريد العودة إلى الظروف التي كانت قائمة قبل العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦، ولا يريد أكثر من ذلك. ومع هذا، فقد وافق الرئيس عبد الناصر على اقتراحي بأن يفتح خليج العقبة للملاحة كالسابق بعد أن تؤخذ الضمانات الكافية ألا تشحن مواد استراتيجية إلى إسرائيل، وألا تقوم الجمهورية العربية المتحدة بأية إجراءات تفتيش. وبهذا نكون قد كسرنا الحلقة المفرغة، وأعطينا الأمم المتحدة فرصة لتسوية الموقف، وفوق ذلك فقد أكد لي أن الجمهورية العربية المتحدة لن تبدأ بإجراء هجومي ضد إسرائيل».

قلت: «لقد حصلت على هذا التوكيد من القاهرة، فهل تظن أن إسرائيل تلتزم بهذا الموقف؟».

قال: «لا أعرف... لا أظن... لقد أعلنت حكومة إسرائيل أنها تعتبر إغلاق خليج العقبة بمثابة مبرر للحرب. ولا أكتمك، فقد أصبحت أخشى أن يؤدي النزاع بشأن خليج العقبة إلى نشوب صدام شامل في الشرق الأدنى».

وكانت عبارة «صدام شامل» هي النهاية الطبيعية للحديث، فخرجنا معاً من

الفندق، هو إلى المطار قاصداً نيويورك. . وأنا إلى حي الدقي قاصداً مكتبي، حيث ملفاتي وقصاصاتي، وجهاز الراديو إلى جانبي، لأعود مرة ثانية أسير حرب قبل أن تقع الحرب. . وقد أصبحت أكثر يقيناً بأنها أقرب من حبل الوريد.

وفي طريقي كانت التظاهرات على كل ساق وقدم، وكانت الهتافات على كل شفة ولسان، والسياح يمضون في هواياتهم، يصوّرون ويصوّرون، لا ينتهي فيلم إلا ويعبئون فيلماً آخر. . وهم يحسبون أن القتال بعيد المنال.

﴿**إنهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً**﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة المعارج،» الآيتان ٦ ـ ٧.

وجهاً لوجه أمام الحرب:
عبد الناصر.. الشرق.. الغرب

ثلاثة أيام سالفة، مضت أخبارها وبقيت آثارها.

لقد مضت أخبارها، لأن الزمن يبتلع الأحداث في جوفه، فلا يبقي ولا يذر.

وبقيت آثارها، لأنها ضربت جذورها في أرضنا الطيبة.. وها نحن نعيش المحنة الكبرى، لست سنوات على احتلال الأرض العربية، بعد خمسة وعشرين عاماً على احتلال التراب الفلسطيني، ونحن لا ندري، متى نخلص من الكارثة السابقة، والنكبة اللاحقة.

وهذه الأيام الثلاثة، الماضية الباقية هي: السادس والعشرون، والثامن والعشرون، والتاسع والعشرون من شهر أيار/ مايو من عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين... أكتبها بالحروف حتى لا تنسى أو تبلى.. فالأرقام أقرب إلى البلى، وأيسر على النسيان.. ومن يدري فقد تبلى الحروف قبل الأرقام.

والقليلون القليلون هم الذين يتذكرون هذه الأيام الثلاثة، فقد طغت عليها الأيام الستة.. من حرب حزيران/ يونيو.. والناس معذورون، فهم يذكرون الحرب ونتائجها.. وينسون ما كان قبلها... ما هو لنا وما هو علينا.

وفي هذه الأيام الثلاثة ألقى الرئيس عبد الناصر ثلاث خطب فاصلة، لم يلق مثلها في حياته العامرة الغامرة إلا يوم خطب في الأزهر الشريف أثناء العدوان الثلاثي على مصر.

ففي السادس والعشرين خطب في وفد يمثل مؤتمر العمال العرب.. وفي الثامن والعشرين أدلى بحديث مستفيض إلى مراسلي الصحافة العربية والعالمية.. وفي الثامن والعشرين خطب في أعضاء مجلس الأمة.. وبعد أسبوع وقعت الحرب.

وكانت الخطبة الأولى في قصر القبة، وتحدث فيها الرئيس جمال الناصر إلى ممثلي العمال العرب عن الموقف العربي الراهن، فألهب مشاعرهم أولاً وأكفهم ثانياً، وألهب وراءهم قلوب الملايين والملايين من الأمة العربية، ووراء هؤلاء وأولئك ألهب إعجاب الأصدقاء. . . وضغائن الأعداء. . حيثما كان لنا أعداء وأصدقاء في هذا العالم الرحيب.

وقد أذيع هذا الخطاب عدة مرات على جميع موجات الإذاعات العربية في القاهرة أو في معظم العواصم العربية الأخرى، وأقول «معظم» لأن الإذاعة السعودية، مثلاً، لم تكن تنشر أخبار الرئيس عبد الناصر ولا خطبه. . وإن كان الشعب السعودي، ومعه الملك فيصل وإخوانه الأمراء، كانوا يستمعون إلى إذاعة صوت العرب صباح مساء.

وكذلك الحال بالنسبة إلى إذاعة تونس وإذاعة الأردن، ورئيس الأولى وملك الثانية.

ولقد لفت نظري وسمعي مقاطع متعددة في خطاب الرئيس عبد الناصر، وقفت أمامها دارساً، ومراجعاً، ومستذكراً، كما دفعتني مقاطع أخرى إلى آفاق فسيحة من الأمل والرجاء، ومن الغليان والفوران، وأصبحت ممزقاً بين عقلي وقلبي.

لقد كان عقلي مع عبد الناصر الذي عرفته في الماضي شديد الحذر، كثير التقدير، دقيق الحساب، ويرى قضية فلسطين قضية تاريخية، كثيرة العقد، تتضاعف حولها المضاعفات الدولية، على قمة ذلك كله موقف الولايات المتحدة الذي لا يسلّم أن تخدش إسرائيل في أناملها، أو تمزق أكمامها.

وكان قلبي مع عبد الناصر في الحاضر، وقد حقق في خلال أسبوعين ثلاثة انتصارات كبرى: **الأول** سحب قوات الطوارئ الدولية، وكان وجودها جرحاً ينزف في جبهة الرئيس عبد الناصر على مدى عشرة أعوام. . و**الثاني** إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، وهو أول انتقام شريف لثأرات قديمة بين عبد الناصر وإسرائيل منذ أن كان محاصراً في الفالوجة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨. أما الانتصار **الثالث**، فهو تعبئة جماهير الأمة العربية، وشحنها وإلهابها، إلى درجة أخرست وألجمت خصومه التقليديين من حكام العرب، وجعلتهم يطفون على سطح المدّ الشعبي الجارف، وأصبحوا مثلهم مثل عامة الشعب لا حول لهم ولا طول، سوى السمع والطاعة.

وقد بدا للرئيس عبد الناصر، في ما أحسب، أنه حقق هذه الانتصارات من غير ثمن، وأحسب أيضاً أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يخشى العواقب.

لقد حقق هذه الانتصارات من غير ثمن لأنه لم يفعل شيئاً سوى تحريك القوات المصرية إلى شرم الشيخ، والمواقع الأمامية في جبهة سيناء.

وهو كذلك، لم يكن يخشى العواقب، فها قد مضى أسبوعان (١٥ ـ ٣٠ أيار/ مايو) من دون أن يدخل في صدام مسلح مع إسرائيل. . وزاد في اطمئنانه أن الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، قد أخذت على حين غرة في هذه «الضربة» الخاطفة، فلم تدر ما تفعل. . لقد فكرت في إرسال قوات بحرية تشترك فيها الدول الغربية لتفتح خليج العقبة أمام الملاحة، وثار السؤال: وهل تبقى القوات البحرية الدولية إلى الأبد في المنطقة لتحمي الملاحة الإسرائيلية؟؟

وهكذا اطمأن الرئيس عبد الناصر إلى أن الضربة الخاطفة قد أفلحت. . وأنه لم يبق أمامه إلا أن يتجنب الحرب، وانتظار المعركة الكبرى إلى اليوم الموعود.

وحتى يتجنب الحرب، كان لا بد له، في ما أحسب، من أن يلجأ إلى الحرب النفسية. ومن هنا كان خطابه في وفد العمال العرب هو في صميم الحرب النفسية، لتجنب الحرب العسكرية.

فقد بدأ خطابه، بعد مقدماته المعتادة قائلاً: «إحنا أخيراً شعرنا بأن إحنا قوتنا كافية وأن إحنا في دخولنا أي معركة مع إسرائيل بعون الله نستطيع أن ننتصر، وعلى هذا قررنا فعلاً ناخذ خطوات حقيقية. . وإحنا على ثقة أن إحنا إذا دخلنا المعركة نستطيع أن ننتصر بعون الله». . . وكان هذا الكلام موجهاً في الواقع إلى إسرائيل وإلى أمريكا من ورائها، لإظهار القوة العربية بمظهر القدرة على النصر. . وأن على إسرائيل ألا تتحرك أية خطوة خارج الحدود، فلن تكون الغالب وقد تكون المغلوب.

وبعد ذلك تناول الرئيس عبد الناصر موضوع قوات الطوارئ الدولية فقال: «كان ناس كثير جداً كانوا بيعيرونا بقوات الطوارئ الدولية. . هل كان أحسن أن إحنا نتكلم أي كلام والا أحسن أن إحنا نبني جيشنا، وقوات الطوارئ الدولية قاعدة لغاية ما نبني جيشنا، ولغاية ما نجهز نفسنا. . وإحنا في نص ساعة نقول لقوات الطوارئ الدولية دي تمشي. . يوم ما نجهز بنقول لقوة الطوارئ الدولية دي أمشي، وهذا ما حصل». وهذا الكلام كان موجهاً كذلك إلى إسرائيل وإلى أمريكا بأن الجيش المصري قد تم بناؤه وتجهيزه، وأنه قد أصبح قادراً على المواجهة.

أما قول الرئيس عبد الناصر: «كان ناس كثير جداً كانوا بيعيرونا بقوات الطوارئ الدولية»، فإنه منصرف إلى الملك فيصل والملك حسين وأضرابهما الذين كانوا يعيّرون الرئيس عبد الناصر في موضوع قوات الطوارئ الدولية بمناسبة وبغير مناسبة. . من ذلك ما أعلنه رئيس وزراء الملك حسين، وصفي التل، في حديث

صحافي إلى جريدة **الجهاد** الأردنية (١٧/ ١/ ١٩٦٧) قال فيه: «إن بن غوريون وعبد الناصر عقدا معاهدة جنتلمان بواسطة همرشولد، وهذه المعاهدة هي التي أنهت الوجود العسكري المصري في سيناء، ووضعت قوات الطوارئ الدولية لاستتباب السلم بين الطرفين، وهكذا نرى أن الحرب مع إسرائيل بالنسبة إلى عبد الناصر قد انتهت على رغم كل الشعارات والتهجمات».

وتحدث الرئيس عبد الناصر عن شرم الشيخ، وهو «شيخ» الأزمة كلها، فقال: «بالنسبة أيضاً إلى شرم الشيخ إحنا أيضاً هوجمنا من هذه الناحية بواسطة بعض العرب.. معنى اتخاذ هذه الخطوة لازم نكون على استعداد لأن ندخل حرب شاملة مع إسرائيل.. كان لازم إحنا نحسب بحيث إن إحنا في يوم ما نكون قادرين على هذا بنروح شرم الشيخ وفعلاً نثبت حقوقنا، وعلى هذا الأساس أخذت هذه العمليات.. ». وأراد عبد الناصر بهذا الكلام الواضح أن يقول لإسرائيل وأمريكا إن إغلاق خليج العقبة يؤدي إلى حرب شاملة، وإن مصر حاضرة لها وقادرة عليها.

وتوكيداً لمعنى الحرب الشاملة مع إسرائيل، بل توكيداً لعواقبها على وجود إسرائيل نفسه، مضى الرئيس عبد الناصر يقول: «فإسرائيل إذا بدأت بأي عمل عدواني ضد سوريا وضد مصر، فحتكون المعركة ضد إسرائيل معركة شاملة، مهيش معركة محصورة في حتة (أودّام) سوريا، وفي حتة (أودّام) مصر، المعركة حتكون شاملة وحيكون هدفنا الأساسي هو تدمير إسرائيل، وإحنا نقدر نعمل كده». وكان هذا التهديد «بتدمير إسرائيل» هو قمة الحرب النفسية التي شنّها الرئيس عبد الناصر إذا.. إذا بدأت إسرائيل بالعدوان، وأن تدمير إسرائيل سيكون هو الهدف الذي يقدر عليه إذا.. إذا بدأت إسرائيل بالعدوان.

وأضاف الرئيس عبد الناصر توكيداً على هذا التوكيد حين قال: «هذا الكلام يمكن مكنتش إقدر أقوله من خمس سنين ومكنتش أقدر أقوله من ثلاث سنين.. ولو كنت مش قادر مكنتش مستعد أقول هذا الكلام يبقى كلام فاضي ولا قيمة له.. ».

وإثباتاً للقدرة العربية على تدمير إسرائيل، قدم الرئيس عبد الناصر دليله على ذلك فقال: «وبالنسبة إلى المخطط العسكري فيه تنسيق كامل للعمل العسكري بيننا وبين سوريا، وعملنا حيكون كعمل جيش واحد في معركة واحدة من أجل هدف واحد هو هدف الأمة العربية.. أنا واثق وعارف إيه اللي عندنا، وعارف إيه اللي عندنا في مصر وعارف إيه عند سوريا.. أيضاً النهار ده العراق دخّلت قوات إلى سوريا، الجزائر حتبعت قوات، الكويت أيضاً حاتبعت لنا قوات، هيبعتوا لنا مدرعات، وحيبعتوا كتائب مشاة. دي قوى عربية، وده الشعب العربي فعلاً الحقيقي

للأمة العربية اللي كانت يمكن تشعر بشيء من اليأس . . ». وقد أراد عبد الناصر بكلماته هذه أن يخاطب إسرائيل والعرب معاً . . فقد أنذر إسرائيل بأن الأمة العربية كلها ستكون في هذه المعركة بجيوشها . . وحذر الأمة العربية من اليأس . . وأن الذي فات فات، وأن النصر آت.

وانتقل الرئيس عبد الناصر بعد ذلك إلى توسيع ميدان الحرب النفسية لتشمل الدول الغربية في مجموعها، فقال: «لازم نعرف وناخذ الدرس الكبير النهار ده . . وبنشوف إن فعلاً أمريكا تاخذ وجهة نظر إسرائيل ماية في المايه . . وبريطانيا بتتحيز لإسرائيل ماية في المايه، والغرب واقف مع إسرائيل . . من الواضح أن أمريكا دي عدو العرب لأنها تنحاز إلى إسرائيل انحيازاً كاملاً، من الواضح أن بريطانيا هي عدو العرب لأنها تنحاز أي إسرائيل انحيازاً كاملاً . . وعلى هذا الأساس يجب أن نعامل أعداءنا . . ونحن نستطيع أن نعامِل كأعداء لأن إحنا فعلاً دول لها قيمة ودول لها مكان في العالم». وكل الذي قصد إليه الرئيس عبد الناصر من تهديد الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة أنه يتمنى عليهم حفاظاً على مصالحهم في الوطن العربي، أن يكبحوا جماح إسرائيل وأن يحولوا بينها وبين القيام بأية مغامرة عسكرية، ستفضي إلى تدمير إسرائيل، وإلى تدمير المصالح الغربية في العالم العربي أجمع.

هكذا كان الرئيس عبد الناصر يفكر، وهكذا كان يحسب ويقدر، في ٢٦ أيار/ مايو، ولقد جاءني وفد العمال العرب زائراً إلى مكتبي في اليوم نفسه . . جاؤوا إليّ والحماسة تطفح على وجوههم، فلقد استمعوا إلى عبد الناصر وهو يحدثهم بأعز آمالهم، وقد انتظروا عليها أعواماً طوالاً، ولاقوا في سبيلها أهوالاً شداداً.

قالوا: «ما رأيك في خطاب الرئيس عبد الناصر . . إنه خطاب عظيم ورائع . . أليس كذلك؟؟».

قلت: «إنه خطاب عظيم بلا شك . . ولكن عظمته لا تتحقق بكلماته، وإنما بأعمالكم انتم العمال».

قالوا: «نريد مزيداً من الإيضاح . . ماذا تعني . . ؟».

قلت: «العمال يؤلفون السواد الأعظم من الأمة العربية . . وإن العمال يستطيعون أن يترجموا أقوال عبد الناصر إلى أعمال . . إن عبد الناصر بمفرده لا يستطيع أن يحارب وأن ينتصر . . عبد الناصر يستطيع أن يحارب بكم وينتصر بكم . . إن عبد الناصر ليس الجيوش العربية . . بل إنه ليس الجيش المصري . . وإذا حارب كل جندي وكل ضابط نستطيع أن نحقق النصر . . وأن الخطب وحدها لا تحارب ولا تنتصر!!».

قالوا: «وما رأيك في مستوى الجيوش العربية في هذا العام.. هل هي قادرة على تحقيق النصر؟؟».

قلت: «أرجو ألا نخوض في هذه الأمور.. المسائل العسكرية أمور فنية، ومن أخطر الأمور أن يخوض فيها المدنيون إلا إذا كانوا على علم تام بالتفاصيل.. وأنا لا أعلم.. ولكن الذي أعلمه أننا إذا قاتلنا متحدين، وصابرين، وعازمين، فلا بد لنا من أن ننتصر.. ولكن إذا كنا سنقاتل كما فعلنا في عام ١٩٤٨، فسنكرر المأساة».

قالوا: «وما رأيك في موقف الاتحاد السوفياتي إذا نشبت الحرب بيننا وبين إسرائيل؟ لقد قال الرئيس عبد الناصر في خطابه اليوم «إن الاتحاد السوفياتي مع العرب ومع الأمة العربية ضد أي تدخل وأي عدوان.. ».

قلت: «أريدكم أن تعلموا حقيقة واحدة.. إن الاتحاد السوفياتي لا يدخل أي حرب من أجلنا، ومن أجل تحرير وطننا. الاتحاد السوفياتي لا يحارب إلا دفاعاً عن وطنه.. يجب علينا أن نعتمد على أنفسنا وأن نحارب بأنفسنا.. إن الاتحاد السوفياتي يمدنا بالسلاح.. ولا يمدنا بإرادة القتال.. نحن نشكر للاتحاد السوفياتي معاونته العسكرية ومساندته السياسية.. ولكن هذه الحرب التي نواجهها مع إسرائيل هي حربنا وحدنا.. الاتحاد السوفياتي لم يحارب من أجل فييتنام، فهل يحارب من أجلنا؟؟».

قالوا: «وهل تتوقع من أمريكا أن تتدخل لصالح إسرائيل؟».

قلت: «أمريكا هي العدو.. ولا أستبعد عنها شيئاً.. وأمرها مع إسرائيل يختلف عن أمر الاتحاد السوفياتي مع العرب».

قالوا: «ولماذا لم يتحدث الرئيس عبد الناصر عن تدمير المنشآت البترولية في خطابه.. لقد استطاع العمال السوريون أن يفجروا أنابيب البترول أثناء العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦».

قلت: «حكاية التهديد باستخدام البترول كسلاح في المعركة حكاية قديمة.. الولايات المتحدة لا تخشى هذا التهديد لأنها تعرف أنه لا ينطوي على جدية.. ومن الخير أن عبد الناصر لم يتعرض لهذا الموضوع حفاظاً على البقية الباقية من كرامتنا».

قالوا: «وهل تظن أن إسرائيل ستكون البادئة بالحرب؟».

قلت: «المعلّقون العسكريون الأجانب يكادون يكونون على إجماع بأن إسرائيل ستوجه الضربة الأولى... وأعتقد أن هذا التقدير صحيح».

قالوا: «ولماذا لا نكون نحن البادئين؟».

قلت (ضاحكاً): «الخطاب خطاب عبد الناصر.. ولماذا توجهون إليّ الأسئلة.. كان الأحرى أن تناقشوه وتجادلوه.. كان يجب أن تظهروا «شطارتكم» عند عبد الناصر لا عندي!!».

وانصرف الإخوة العمال وهم في هرج ومرج، ولم يكن يدري أحد أن خطاب عبد الناصر في ذلك اليوم لن يكون واحداً من خطبه الكثيرة، بل واحداً من خطب الحرب، وأن أسئلة العمال حوله ستكون في المستقبل القريب والبعيد أسئلة الدارسين والمؤرخين، الأصدقاء والأعداء، سواء بسواء.

ذلك كان أمر الخطبة الأولى للرئيس عبد الناصر.. أما الخطبة الثانية، فقد كانت بمثابة بيان ألقاه الرئيس عبد الناصر في الثامن والعشرين من شهر أيار/ مايو في مؤتمر صحافي حضره مندوبو الصحافة، وممثلو وكالات الأنباء والإذاعة والتلفزيون العربية والدولية.

وكان أعظم مؤتمر صحافي شهدته القاهرة... وقد عبأت الجمهورية العربية المتحدة كل طاقاتها الإعلامية للإعداد له ولإنجاحه... والجهد الإعلامي في مصر أصبح مهارة قومية فريدة فاقت كثيراً من الأمم.. وقد كنت أدعو الله، وسأظل، أن تبرز في مصر مهارات أخرى غير الإعلام العرمرم، وغير النكتة البارعة... فإن في مصر مهارات كثيرة، معزولة أو مجهولة... والواقع أن هذا المؤتمر الصحافي كان حملة أخرى من حملات الحرب النفسية التي أراد أن يشنّها على إسرائيل، وعلى الذين يساندون إسرائيل.

ومن البداية، وضع الرئيس عبد الناصر العالم كله أمام قنبلة موقوتة تنتظر ساعة الانفجار، وأن عقارب الزمن تتأرجح بين الحرب والسلام، فقد أعلن في مطلع حديثه: «أن الموقف قد يعني السلم أو الحرب بالنسبة إلى الامة العربية كلها بما ينتج من ذلك من آثار وردود فعل حتى خارج العالم العربي. ونحن أمام مسالة تتعلق بقضية الحرب والسلام... »، وهذا الكلام يشدّ انتباه الرأي العام بقدر ما يمكن أن يكون للرأي العام من أثر على السياسة الدولية.

ومن غير مقدمات، قفز الرئيس عبد الناصر إلى لبّ الموضوع، كما لم يفعل في حياته السياسية منذ أن انطلق في ٢٣ تموز/ يوليو من عام ١٩٥٢.. فلقد عالج الرئيس عبد الناصر قضية فلسطين في مناسبات متعددة، سواء في المؤتمرات العربية الشعبية والرسمية، أو في الأحاديث الصحافية للمراسلين الأجانب، أو في خطابه المعروف في الأمم المتحدة في دورة عام ١٩٦٠.. ولكنه في هذا المؤتمر الصحافي

الذي نحن بصدده تجنب الأسلوب الدبلوماسي والأوضاع الرسمية كرئيس دولة، وتحدث بلسان المواطن العربي على فطرته وسجيته.

ومن هذا المنطلق القومي أعلن الرئيس عبد الناصر: أن «المشكلة التي نعيش فيها الآن جميعاً ونهتم بها، ساسة وصحافيين وجماهير، ليست مشكلة مضائق تيران، وليست مشكلة سحب قوات الطوارئ.. هذه عوارض طارئة لمشكلة أكبر وأخطر، تلك هي مشكلة العدوان الذي وقع ولا يزال وقوعه مستمراً على وطن من أوطان شعوب الأمة العربية في فلسطين، وما يعنيه ذلك من تهديد قائم باستمرار ضد أوطانها جميعاً.. هذه هي المشكلة الأساسية.. ».

ثم أراد عبد الناصر أن يردّ على الدول الغربية والولايات المتحدة بصورة خاصة التي كانت تطالب دائماً بنسيان القضية الفلسطينية باعتبار أنها قضية ماضية تجاوزها الزمن، فقد صارحهم قائلاً: «الذين يتصوّرون أن القضايا المصيرية للأمم والشعوب يمكن أن تموت بمرور الوقت أو أن يصيبها الزمن بأعراض الشيخوخة يقعون في خطأ كبير.. إن الأفراد يصابون بأمراض الشيخوخة ومنها النسيان، ولكن للشعوب وجود حي متجدد الشباب.. ».

وعاد بعد ذلك إلى الحديث عن مضائق تيران وقوات الطوارئ الدولية مؤكداً أن الموقف لا رجعة فيه، فقال: «مضائق تيران مياه إقليمية مصرية، ولقد طبقت عليها حقوق السيادة المصرية.. وموضوع سحب قوات الطوارئ الدولية هو الآخر أمر لا خلاف عليه.. فلقد جاءت هذه القوات في ظروف المؤامرة الدولية إلى أرضنا بموافقتنا، وقد سحبنا هذه الموافقة، واستجاب السكرتير العام للأمم المتحدة بأمانة ونزاهة وشرف.. وانتهى أمر هذه القوات تماماً ولم يعد مفتوحاً لأي حديث.. ».

ثم أعلن الرئيس عبد الناصر تهديداً مباشراً إلى الدول الغربية، وكانت تتداول في ما بينها لتوجيه قوات بحرية دولية إلى البحر الأحمر «لتفتح» مضائق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية، فقال في عبارة حازمة: «لن تستطيع قوة من القوى، مهما بلغ جبروتها، وأنا أقول ذلك بوضوح لكي يعرف كل الأطراف موقفهم، أن تمسّ حقوق السيادة المصرية أو تدور حولها.. وأي محاولة من هذا النوع سوف تكون عدواناً على الشعب المصري وعدواناً على الأمة العربية كلها، وسوف نلحق بالمعتدين أضراراً لا يتصورونها.. ».

وبعد هذا التهديد الصريح استدرك الرئيس عبد الناصر أنه يلتزم موقف الدفاع، لردع العدوان.. وشرح بالتفصيل التحركات والتصريحات الإسرائيلية تمهيداً للعدوان على سوريا، فقال: «لقد تقدمت قواتنا المسلحة إلى المواقع التي تستطيع منها أن تعمل

على ردع العدوان.. ونحن لا نعتبر أنه يمكن لأي منصف أن يسمي أي تصرف قمنا به في الأسبوعين الأخيرين عدواناً أو يجد فيه شبهة العدوان».

وقدم الرئيس عبد الناصر بعد ذلك عرضاً موجزاً لنشوء إسرائيل ومخالفاتها المتواصلة منذ عام ١٩٤٧ وأن «أبرز مثل على ذلك ميناء إيلات الذي بنته إسرائيل على موقع أم الرشراش العربي الذي احتلته إسرائيل بعد توقيع اتفاقيات الهدنة في شباط/ فبراير ١٩٤٩».

وبعد أن انتهى عبد الناصر من بيانه جاء دور السؤال والجواب، والصحافيون الأجانب، وبخاصة الأمريكيون يسألون لا للوصول إلى الحقيقة، ولكن يؤدون دور النائب العام مع المتهم لاستدراجه للاعتراف بالجريمة.. فالعربي متهم.. والعروبة جريمة.

وهذا ما وقع فعلاً، فقد كان أول من سأل هو مندوب إذاعة كولومبيا الأمريكية.. فكان سؤاله عن التفوق الإسرائيلي، وعن السلام والحرب، فأجاب الرئيس عبد الناصر، بعد شرح وإيضاح: «أهو النهار ده إحنا وإسرائيل لوحدنا إذا كانوا عايزين يجربوا الحرب باقول لهم تاني النهار ده: أهلاً وسهلاً.. واللي أدانا فعلاً التوقيت هو رئيس وزراء إسرائيل، لكن كنا مستعدين لهذا التوقيت.. أما بالنسبة إلى التفوق العسكري، طبعاً إحنا نعتقد أن قواتنا المسلحة قادرة على أن تقوم بواجبها بشرف وقوة وأمانة.. ».

ووجه الصحافي نفسه سؤالاً عن موقف الولايات المتحدة واحتمال تدخلها، فقال الرئيس عبد الناصر: «وأعتقد أن الولايات المتحدة إذا تدخلت في سيادتنا سنقاوم هذا التدخل بكل قوة».

وسأل صحافي عربي عن احتمال استخدام البترول كسلاح في المعركة، فقال الرئيس عبد الناصر: «أنا أعتبر أن هذه المعركة يجب أن تستخدم فيها كل الأسلحة - تستخدمه الحكومات وتستخدمه أيضاً الشعوب». وواضح أن هذا السؤال من الصحافي العربي قد أعطى فرصة للرئيس عبد الناصر في تلك الأيام الهادرة وكأنه يقول للشعوب العربية: «استخدموا سلاح البترول إذا تخلّفت الحكومات».

وأثار صحافي فرنسي السؤال عن: «القضاء على إسرائيل وعن الوضع الذي تقبلونه كأسلوب للتعايش مع إسرائيل.. ». فأجاب الرئيس عبد الناصر: «إحنا أصحاب حق ما يهمنا من الدول الكبرى.. إحنا ما إحناش تحت وصاية دول كبرى.. حقوق شعب فلسطين يجب أن تعاد إلى شعب فلسطين ولا نقبل أي أسلوب للتعايش مع إسرائيل.. اللي حيقف مع إسرائيل أعداؤنا، واللي حيقف معانا هم

أصدقاؤنا، وسنستطيع أن نسترد حقوقنا.. وأيام الصليبيين لما احتلوا بلدنا قعدنا ٧٠ سنة.. وبعدين فين الصليبيين، الصليبيين مشيو وفاضلة لغاية دلوقت بس قلاع الصليبيين كأثر من الآثار.. إذن ما فيش عربي حيفرّط أبداً في حقوق شعب فلسطين».

وسأل مندوب شبكة التلفزيون المستقلة في لندن عما إذا كان من الممكن رفع الحظر عن السفن الإسرائيلية في خليج العقبة، فأجاب الرئيس عبد الناصر بلهجة حازمة حاسمة قائلاً: «خليج العقبة مياه إقليمية مصرية لن تمر فيها سفن إسرائيل، وهذا موقف لن أتزحزح عنه بوصة واحدة.. ».

وسأل مندوب الإذاعة الدانمركية سؤالاً من طراز النبوءات الصحافية أضعه بنصه الكامل:

«هل يتوقع السيد الرئيس هجوماً في المستقبل القريب من جانب إسرائيل أو الولايات المتحدة أو من جانبهما معاً متواطئتين؟».. وقال الرئيس في جوابه: «أتوقع كل حاجة، وبالنسبة إلى هجوم إسرائيل ده إحنا بنتوقعه كل يوم.. في سنة ١٩٥٦ كنا نستنى فرنسا وإنكلترا وهجوم فرنساوي إنكليزي.. حصل اللي ما كناش نتصوره وتواطأت إنكلترا مع إسرائيل، وهجمت علينا إسرائيل في الوقت اللي كنا نعتقد أن الهجوم حيكون علينا من جانب بريطانيا.. اليوم نحن نتوقع أي شيء.. ».

وعلى غرار هذه الأسئلة والأجوبة كان المؤتمر الصحافي الذي عقده الرئيس عبد الناصر ليتخذ منه مناسبة دولية لشنّ حرب نفسية مركّزة، لعلها.. لعلها توطد للرئيس عبد الناصر المكاسب التي حققها من دون حرب، ولعلها تحمل الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة أن تصدّ إسرائيل عن الحرب.

وأظن، وبعض الظن إثم، أن الرئيس عبد الناصر كان يساوره هذا الاطمئنان أو بعض الاطمئنان بسبب مذكرة رسمية من الولايات المتحدة وصلت القاهرة قبل يومين (٢٦ أيار/ مايو).. عن طريق سفارة الجمهورية العربية المتحدة في واشنطن.. وكانت المذكرة في منتهى «البراءة والحزم»، ولم تكتشف حقيقتها إلا بعد بضعة أيام.. وقالت المذكرة: «إن أبا ايبان نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير الخارجية طلب مقابلة المستر دين راسك وزير الخارجية الأمريكية فوراً، ولا يحتمل الانتظار دقيقة واحدة، وذلك لأنه وصلت إلى إسرائيل معلومات بأن الجمهورية العربية المتحدة ستقوم هذه الليلة بهجوم مفاجئ على إسرائيل.. وأن الرئيس جونسون يرغب في أن يبلغ الجمهورية العربية المتحدة بأن هذا لو تم فسوف يؤدي إلى نتائج خطيرة للغاية، ويؤكد من جانبه أن الحكومة الأمريكية سوف تبذل كل جهد من أجل منع

إسرائيل من البدء بأية عمليات عسكرية ضد الجمهورية العربية المتحدة . . ».

هذه الرسالة وغيرها من العوامل العربية والدولية كانت في ذهن الرئيس عبد الناصر وهو يتحدث إلى الصحافيين عما تخبئه الأيام المقبلة: حرب أو لاحرب.

وقد طلب عدد من الصحافيين الأجانب الذين حضروا المؤتمر الصحافي أن أتحدث إليهم عن الأوضاع الحاضرة، وموقف منظمة التحرير الفلسطينية، ولكني اعتذرت، فقد كان بيان الرئيس عبد الناصر كافياً ومغنياً . . واتصل بي محمد فايق وزير الإعلام يقترح عليّ أن أعقد لهم مؤتمراً صحافياً . . فاعتذرت وقلت له: «أنت لا تعرف هؤلاء الصحافيين . . إنهم لا يبحثون عن الحقيقة، كل ما يريدونه أن يجدوا فارقاً صغيراً بين كلامي وكلام الرئيس عبد الناصر ليجعلوا من الحبة قبة».

ومع ذلك، فلم أنجُ من المكيدة . . ذلك أن مندوب الإذاعة الأمريكية أبرق إلى مكتبه في نيويورك يقول إني لم أكن راضياً عن بيان الرئيس عبد الناصر وإنه لهذا السبب رفضت أن أستقبل الصحافيين أو أعقد لهم مؤتمراً صحافياً. وبهذا لم أفلح مع الصحافيين الأمريكيين، متحدثاً أو صامتاً.

أما الخطاب الثالث الذي ألقاه الرئيس عبد الناصر، فكان في التاسع من شهر أيار/ مايو . . قبل أسبوع واحد من الحرب . . في يوم الاثنين . . وفي يوم الاثنين، بعد سبعة أيام، وقعت الحرب.

وقد كان هذا الخطاب هو النافذة إلى ضمير الرئيس عبد الناصر وإلى عقله . . بماذا كان يفكر، وماذا كان يشعر؟ . . إنه آخر كلام قاله الرئيس عبد الناصر قبل المعركة . . قبل الهزيمة.

وكانت المناسبة مثيرة بذاتها، وكأني أراها الآن أمامي . . لقد خرج أعضاء مجلس الأمة وعلى رأسهم أنور السادات في شبه تظاهرة وطنية إلى الرئيس عبد الناصر في منزله في منشية البكري ليسلموه بأيديهم وقلوبهم مصير مصر، ومصير الأمة العربية.

لقد سلموا إليه تقريراً اتخذه المجلس بالإجماع يفوّض الرئيس عبد الناصر بإصدار قرارات لها قوة القانون في جميع الموضوعات التي تتصل بأمن الدولة . . وكان لهذا القرار سبب ومعنى . . السبب أن الدولة مقبلة على الحرب . . والمعنى أن مجلس الأمة سلم زمام الحرب إلى رئيس الدولة.

ولكن هذا القرار كان تظاهرة بذاته . . فلم يكن عبد الناصر محتاجاً إلى هذا القرار . . ففي ذلك الأسبوع كان عبد الناصر على قمة الموجة الشعبية المصرية والعربية . . ولم يعد بحاجة إلى تفويض لا من مصر ولا من الأمة العربية . . وإذا كان

ملوك العرب ورؤساؤهم قد سارعوا إلى الطاعة والولاء، مضطرين غير مختارين، فماذا بقي لمجلس الأمة في القاهرة.. وكان قبل هذه الأحداث لا يملك إلا التصديق والتوثيق.

ولكن عبد الناصر أرادها خطوة أخرى على طريق الحرب النفسية، ليعلن إلى إسرائيل ومن وراءها أن كل شيء قد اتخذ طريقه الدستوري.. وأن كل شيء قد اكتمل.. جيشاً وشعباً، ومصراً وعرباً.

ومن هذه المنصة المصرية العربية وقف الرئيس عبد الناصر يخاطب العالم، فشرح بادئ ذي بدء تطور الأمور، ثم قال: «النهار ده بعد ١١ سنة من سنة ١٩٥٦ نعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٥٦. هذا من الناحية المادية، أما من الناحية المعنوية فهو بعث أمة العرب، بعث قضية فلسطين، عودة الثقة إلى كل عربي، وإلى كل فلسطيني، على أساس أننا إذا كنا قد استطعنا أن نعيد الحالة إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٥٦، فلا بد من أن الله يساعدنا ويدفعنا إلى أن نعيد الحالة إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٤٨. إن الثورة العربية وهياج الجماهير العربية الذي نراه اليوم في كل بلد عربي وفي كل مكان ليس فقط لأننا عدنا إلى خليج العقبة أو لأننا تخلصنا من قوات الطوارئ، لا.. إنه من أجل عودة الشرف العربي.. من أجل عودة الأمل العربي.. وإننا سنقرر الوقت وسنقرر المكان، ولن نتركهم يقرّرون الوقت ويقرّرون المكان.. علينا أن نستعد لننتصر.. لا لنعيد مهازل عام ١٩٤٨. ننتصر بعون الله وبتأييد من الله.. ونحن على استعداد لمواجهة إسرائيل الآن.. نحن على استعداد للمواجهة.. نحن على استعداد لأن نفتح قضية فلسطين كلها.. إن الموضوع اليوم ليس موضوع العقبة، ولا هو موضوع مضيق تيران، ولا هو موضوع قوة الطوارئ الدولية.. إن الأمر هو حقوق شعب فلسطين، هو العدوان الذي تم في عام ١٩٤٨ بمساعدة بريطانيا ومساعدة أمريكا.. إن القضية اليوم أكبر مما يتكلمون عليها.. هم يريدون أن يحصروها في خليج تيران، وفي قوة الطوارئ الدولية، وفي حق المرور، ونحن نقول إننا نريد حقوق شعب فلسطين كاملة غير منقوصة.. ».

ولقد أنعمت النظر طويلاً في هذا الكلام الذي ألقاه الرئيس عبد الناصر على أعضاء مجلس الأمة، ولكنه كان في الواقع يلقيه على إسرائيل وأمريكا معاً.. ولو شئت أن أتقيد بعباراته ومعانيه وألفاظه ومدلولاته لوجب عليّ أن أستنتج أن الرئيس عبد الناصر كان يستعد لتحرير فلسطين.. فإن كلامه واضح ولا يستطيع السامع، أي سامع، أن يستنتج غير ذلك.. ولكن سامعاً مثلي، يعرف عبد الناصر وحسن تقديره وتدبيره، ويعرف بعثرة الطاقات العربية وضعف الاستعداد العسكري العربي،

لا بد له من أن يجزم أن الرئيس عبد الناصر كان يهدّد بقضية فلسطين، ويتوعد بحقوق شعب فلسطين، وكأنما كان يقول بلسان حاله إلى إسرائيل وأمريكا: اسكتوا عن موضوع خليج العقبة وقوات الطوارئ الدولية، وإلا فإنني سأفتح قضية فلسطين وسنعمل على تحريرها.. وإن سكتم سكتنا، وإن عدتم عدنا.

وتوكيداً لهذا التهديد، فقد مضى الرئيس عبد الناصر في خطابه وهو يخاطب أمريكا وبريطانيا بالاسم: «وإننا لا ترهبنا أمريكا وتهديداتها. ولا ترهبنا بريطانيا وتهديداتها.. أمريكا تتحيز لإسرائيل، وبريطانيا تتحيز لإسرائيل.. علينا أن نعرف من هو العدو ونعامله كعدو، ونعرف من هو الصديق ونعامله كصديق، وإذا كانت بريطانيا وأمريكا تتحيز لإسرائيل فإننا نقول إن عدونا ليس فقط إسرائيل، ولكن أعداءنا هم إسرائيل وأمريكا وبريطانيا وسنعاملهم معاملة الأعداء.. ».

ونقل الرئيس عبد الناصر حملته النفسية إلى ميدان آخر، وهذه المرة راح يخوّف أمريكا وإسرائيل بالاتحاد السوفياتي.. فقال في خطابه: «.. لقد تقابلت مع السيد شمس بدران وزير الحربية وعرفت منه ما دار في موسكو.. وإني أحب أن أقول لكم اليوم إن الاتحاد السوفياتي هو دولة صديقة لنا يقف معنا موقف الصديق.. بلّغني شمس بدران بالأمس رسالة من رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي السيد كوسيغن يقول فيها إن الاتحاد السوفياتي يقف معنا في هذه المعركة ولن يسمح لأي دولة أن تتدخل إلى أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه عام ١٩٥٦».

وكانت هذه العبارة الأخيرة عن زيارة شمس بدران إلى موسكو، ورسالة كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي قد أثارت عاصفة من تصفيق مجلس الأمة، ولولا جو الجدية الذي كان يسود الاجتماع لصاح أعضاء المجلس في وجه الرئيس عبد الناصر: أعد.. أعد.. كما يفعلون مع السيدة أم كلثوم حين تترنح الرؤوس بين الآهات والنغمات.

كنت أتابع إذاعة القاهرة وهي تردد خطاب عبد الناصر، والأمة العربية في جميع أرجاء الوطن العربي تردد الهتافات بحياة الاتحاد السوفياتي.. ولم تخل بيوت الله، الله الذي ينكره الشيوعيون، من إطلاق الحمد والثناء للشعب السوفياتي العظيم.

ولكني بعيداً عن التظاهرات والهتافات أردت أن أعرف موقف الاتحاد السوفياتي على حقيقته، فقد واكبت تطور السياسة السوفياتية سنين طويلة من عمري، في الأمم المتحدة وخارجها، وعرفت القادة السوفيات: مولوتوف، وفيشنسكي، وغروميوكو، وخروتشوف، وكوسيغن، وجرت بيني وبينهم مناقشات ومباحثات بصدد القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين.. بل إني واكبت مسيرة الحركة

الشيوعية منذ أن كنت طالباً في معهد الحقوق (القدس)، وصحافياً، حين كنا نرى في الاتحاد السوفياتي دولة المبادئ، والمبادئ فقط.. سواء كنا نحبها أو نبغضها[1].

وفي خلال شهر أيار/ مايو الذي نحن بصدده زرت السفير السوفياتي في القاهرة ثلاث مرات في محاولة للتعرف على موقف الاتحاد السوفياتي من تطور الأحداث في بلادنا.. وسألت، بالتحديد، عن رأي موسكو في سحب قوات الطوارئ الدولية، وموضوع خليج العقبة.. وفي الاجتماع الأخير حصرت أسئلتي عن احتمالات الحرب بيننا وبين إسرائيل ونظرة الاتحاد السوفياتي إلى الموقف.

وكان السفير السوفياتي لبقاً وحصيفاً، يحدثني من غير كلفة، من دون أن يبدي أي اهتمام أو قلق لتأزم الموقف، كأنما الأمور تجري بصورة عادية.. وهو يردد على الدوام العبارات التقليدية العامة بأن: «موسكو تؤيد الدول العربية التقدمية، وتقدم إليها المعونات العسكرية والاقتصادية والفنية.. وأننا لن نسمح بأي تدخل من جانب الولايات المتحدة.. وأننا معكم ضد أي عدوان يقع على الدول العربية.. وأن الاتحاد السوفياتي يقوم الآن بجميع الاتصالات مع إسرائيل وأمريكا حتى لا تتطور الأمور إلى نقطة الانفجار.. ولا بد لهذه المحاولات من أن تنجح في عودة الأمور إلى الهدوء والسكينة».

وكنت أخرج من هذه اللقاءات غير مستريح إلى حصيلتها.. أخرج منها جاهلاً كما دخلتها.. وأيقنت في نفسي أن الأمر لا يعدو واحداً من ثلاثة.. إما أن السفير لا يعلم كثيراً من سياسة موسكو، أو أنه لا يريد أن يطلعني على شيء، أو أن موسكو نفسها تريد أن تقف عند حدود معينة لا تريد أن تتجاوزها، وتركت للزمن والتاريخ أن يكشف الحقيقة بين هذه الاحتمالات الثلاثة.

وقد شغلني هذا الموضوع أياماً معدودات وأنا أديره وجهاً على بطن، أريد أن أعرف حقيقته، فهو من العوامل الرئيسية في تقرير مصير الأيام التي كنا نعيشها.. بل هو الجواب الحاسم عن السؤال الصارم: هل ستقع الحرب بيننا وبين إسرائيل؟.. وهل يكون النصر لنا أم لإسرائيل؟.. وبعبارة أعم، هل سيكون النصر للولايات المتحدة أم للاتحاد السوفياتي؟.. فإن الحرب العربية ـ الإسرائيلية على الطراز الكلاسيكي التقليدي هي حرب بين موسكو وواشنطن.. ما لم يغيّر العرب استراتيجيتهم، ويبدّلوا موقفهم المتذبذب من الولايات المتحدة.

---

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وأخيراً لجأت إلى مراجعي، ولم يكن عندي سواها.. إلى ملفاتي وقصاصاتي، فقد كان مكتبي يعدّ لي يوماً بيوم خلاصة عن الصحف والإذاعات الأجنبية.. وإذا كانت الصحف الغربية لا تتقيد بحكوماتها في ما تكتب، فإن الصحف الروسية تعتبر من جملة أجهزة الدولة، تعبر عن سياستها وتنطق بلسانها.

وكان أول ما وجدته في ملفاتي مقالة لجريدة **إزفستيا** تحت عنوان «خيوط المؤامرة» قالت فيها: «إن هناك مخططاً لقلب نظام الحكم الثوري في سوريا، وإن الملهم الرئيسي لهذا المخطط هو الإمبريالية الأمريكية التي ترى في سياسة سوريا المستقلة خطراً على مصالحها في هذه المنطقة من العالم، وإن العدوان الإسرائيلي الأخير على سوريا كان من المقرر أن يكون إشارة البدء إلى الرجعية المحلية لكي تبدأ عملها لقلب نظام الحكم.. » (١١/ ٥/ ١٩٦٧).

ولقد قرأت هذه المقالة غير مرة، فلم أجد فيها موقفاً محدداً للاتحاد السوفياتي.. لقد عرض الحالة القائمة والخطر المتوقع.. ووجّه الاتهام من غير تسمية إلى الأردن للقيام بمحاولة قلب النظام في سوريا، وأدان الولايات المتحدة بالاسم بأنها هي التي تخطط للمؤامرة.. ولقد أوضحت **الإزفستيا** هذه الأمور كلها، ولم تكن بعيدة عن الصواب.. ولكنها لم توضح موقف الاتحاد السوفياتي ولو بالتلميح بديلاً من التصريح.

وبعد ذلك بخمسة أيام نشرت الجريدة نفسها، وهي تعتبر الناطق الرسمي بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي، مقالة اتهمت فيها إسرائيل «بالعمل على إحداث اضطراب في الشرق الأوسط بمساعدة الولايات المتحدة»، وأضافت «أن سوريا التي تعارض سيطرة الاحتكارات الأجنبية في الشرقين الأدنى والأوسط لا تحوز على رضاء واشنطن.. وقد حرصت الدوائر الإمبريالية على إشعال التوتر على الحدود السورية.. كما أن إسرائيل قد أخذت على عاتقها خلق متاعب جديدة للحكم السوري.. ومن هنا فإن تزويد إسرائيل بسرعة بالاعتدة الأمريكية بما فيها الدبابات الثقيلة لا يذهب هدراً.. » (١٦/ ٥/ ١٩٦٧).

وفي اليوم ذاته نشرت وكالة أنباء «نوفوستي» السوفياتية الرسمية تعليقاً ذكرت فيه أن: «الوضع على الحدود السورية ـ الإسرائيلية توتر من جديد بعد أن حشدت إسرائيل قواتها العسكرية على الحدود واستنفرت قوى الاحتياط، وأجرت مناورة عسكرية على شكل استعراض للجيش الإسرائيلي في القدس المحتلة.. وأن إسرائيل تحاول التأكد من دعم الأسطول الأمريكي السادس لها إذا قامت بعمليات عسكرية ضد سوريا، وهي تتلقى معدات عسكرية أمريكية بما فيها الدبابات الثقيلة

باستمرار». ولقد كان هذا العرض قيماً بقدر ما كشف من موقف إسرائيل والولايات المتحدة، ولكني لم أجد فيه ضالتي المنشودة.. ما هو موقف الاتحاد السوفياتي..؟.

ولم تمض أكثر من بضعة أيام حتى نشرت جريدة **البرافدا** السوفياتية (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧) مقالة تقول فيها: «إن هناك ترابطاً بين تفاقم الوضع في الشرق الأوسط والأعمال الإجرامية التي يرتكبها الأمريكيون في فييتنام بتوغلهم في المنطقة المنزوعة السلاح.. وإن هناك مؤامرة جديدة تعدّها الإمبريالية وإسرائيل والرجعية العربية لضرب نظام الحكم التقدمي في سوريا». وهذا التحليل أعجبني وأزعجني.. أعجبني لأنه كشف أهداف أمريكا وإسرائيل والرجعية، وأزعجني لأنه لم يكشف عما يعتزمه الاتحاد السوفياتي.

وبقيت على غير يقين من سياسة الاتحاد السوفياتي ومقاصده حتى يوم صدر بيان رسمي من موسكو (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧) يعلن: «دعم الاتحاد السوفياتي للدول العربية في الأزمة الراهنة مع التحذير بأن من يغامر في شنّ عدوان في الشرق الأدنى سوف يجابه لا بالقوة الموحدة للشعوب العربية فحسب، بل بالمقاومة الحازمة من الاتحاد السوفياتي والدول المحبة للسلام».

حقاً، لم يكن هذا البيان ليطمئن عقلي وقلبي، فلم أستطع أن أعرف من هي الدول المحبة للسلام المستعدة للمقاومة.. بل لم أكن أعرف ما معنى مقاومة الاتحاد السوفياتي الحازمة، باللغة الروسية.. وتساءلت هل تعني المقاومة المسلحة.. هل تعني الصواريخ عابرة القارات التي تحدث عنها الرئيس السابق خروتشوف أيام العدوان الثلاثي على مصر؟!!

وإني لأذكر أن صحف القاهرة قد نشرت في اليوم نفسه أن الرئيس جمال عبد الناصر استقبل سفير الاتحاد السوفياتي.. ودفعني قلقي الذي كان يجيش في صدري في تلك الأيام إلى أن اتصل بسامي شرف مدير مكتب الرئيس عبد الناصر في ساعة متأخرة من الليل، وسألته:

«خيراً إن شاء الله.. علمت أن سيادة الرئيس استقبل السفير السوفياتي؟».

قال: «نعم.. للبحث في الظروف الحاضرة.. إنت عارف الموقف الروسي موقف تأييد».

قلت: «هل من جديد.. وإيه التأييد على التحديد؟».

قال: «السفير سلم سيادة الرئيس رسالة تأييد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي».

قلت: «فيه شيء محدد؟؟».

قال: «لا.. تأييد عام لموقفنا وموقف سوريا.. وألا نجعل زمام الأمور يفلت من أيدينا».

وانتهت المكالمة التلفونية بيننا من دون أن أشفي غليلي، فقد بقيت أجهل موقف الاتحاد السوفياتي بقدر ما أنا عليم بموقف الولايات المتحدة، موقف العداء السافر في وضح النهار وفي ظلمة الليل.

ثم جاءت سبعة أيام متوالية متعاقبة، ٢٥، و٢٦، و٢٧، و٢٨، و٢٩، و٣٠، و٣١ من هذا الشهر الذي نحن فيه، أيار/ مايو، وكانت عيناي تقرآن، وأذناي تسمعان ولا همّ لي إلا التعرف على موقف الاتحاد السوفياتي من خلال بياناته وتصريحاته.

وفي ٢٥ أيار/ مايو سافر شمس بدران وزير الحربية للجمهورية العربية المتحدة على رأس وفد من العسكريين والسياسيين مؤلف من عشرة أعضاء إلى موسكو.. وقد اجتمع الوفد فور وصوله مع المارشال غريشكو وزير الدفاع السوفياتي.

وفي ٢٦ أيار/ مايو أجرى الوزير شمس بدران محادثات مع أليكسي كوسيغن رئيس الحكومة السوفياتية، وصدر عقب الاجتماع بيان رسمي جاء فيه أنهما بحثا في مواضيع ذات مصلحة مشتركة بالنسبة إلى البلدين.

وفي ٢٧ أيار/ مايو استقبل الرئيس عبد الناصر السفير السوفياتي في القاهرة الذي سلمه رسالة من أليكسي كوسيغن رئيس حكومة الاتحاد السوفياتي.

وفي ٢٧ أيار/ مايو أيضاً عقد الوزير شمس بدران اجتماعاً آخر مع أليكسي كوسيغن، وقالت وكالة أنباء «تاس» السوفياتية إن الجانبين تبادلا في هذا الاجتماع وجهات النظر في جو ودّي حول المسائل التي بدأت مناقشتها في اجتماعهما الأول أول أمس.

وفي ٢٨ أيار/ مايو عاد من موسكو الوزير شمس بدران، وتوجه فور وصوله إلى مقر القيادة العليا للقوات المسلحة، حيث كان جمال عبد الناصر يعقد اجتماعاً لمراجعة آخر تطورات الموقف العسكري، وقدم تقريراً عن محادثاته مع الزعماء السوفيات.. وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر في اليوم التالي أن الوزير شمس بدران حمل له رسالة من أليكسي كوسيغن رئيس الاتحاد السوفياتي يقول فيها: «إن الاتحاد السوفياتي يقف معنا في هذه المعركة ولا يسمح لأية دولة بالتدخل».

وفي ٢٩ أيار/ مايو سافر د. نور الدين الأتاسي رئيس الدولة السورية إلى

موسكو على رأس وفد سوري يضم د. إبراهيم ماخوس نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية، ومحمد الزعبي وزير الإعلام، واجتمع الوفد السوري فور وصوله برئيس الوزراء السوفياتي أليكسي كوسيغن، وحضر الاجتماع أندريه غروميكو وزير الخارجية السوفياتي، والمارشال غريشكو وزير الدفاع، وسيميون سكاتشكوف أحد كبار الخبراء السوفيات.

وفي ٣٠ أيار/ مايو عاد الرئيس السوري د. نور الدين الأتاسي والوفد المرافق من موسكو، وصرح محمد الزعبي وزير الإعلام السوري بأن: «الاتحاد السوفياتي أكد تأييده للخط الثوري التقدمي الذي تنتهجه سوريا، كما أكد وقوفه بحزم ضد أي عمل عدواني قد يتعرض له الشعب العربي من جانب إسرائيل».

وفي ٣١ أيار/ مايو أعلن رئيس الدولة السوفياتية نيقولاي بودغورني، وكان يزور أفغانستان في ذلك اليوم: «أن الاتحاد السوفياتي سوف يتخذ كل الإجراءات الممكنة ضد أي محاولات لانتهاك السلام والأمن في الشرق الأوسط.. وأن الاتحاد السوفياتي يؤيد الأمة العربية لأن الاستعماريين يريدون الاعتداء على استقلال البلدان العربية ويريدون المؤامرات ضد العرب».

وهكذا قضيت هذا الأسبوع بكامله وأنا هائم العقل بين الشك واليقين، لا أعرف ماذا يريد الاتحاد السوفياتي.. وماذا يستطيع وما لا يستطيع.. وتذكرت طفولتي أيام كنا نضع زهرة شقائق النعمان بين أصابعنا نقطع أوراقها ونحن نقول: نعم، لا.. نعم، لا.

وفي غمرة الحيرة عكفت على دراسة ما تقوله الصحافة الغربية، فنزلت إلى قاع الحيرة بعد أن كنت على السطح وازددت قلقاً على قلق.. وهموماً على هموم.

فهذه وكالة رويتر للأنباء تقول: «إن مصادر سوفياتية عليا أكدت أن الاتحاد السوفياتي سيستخدم نفوذه في محاولة لتهدئة التوتر في الشرق الأوسط، وأن الاتحاد السوفياتي أبلغ الدبلوماسيين الأجانب في موسكو أنه لا مصلحة للسوفيات في اندلاع الحرب، وأنه سيبذل الجهود المناسبة لتهدئة حدة التوتر من دون أن يتخلى عن دعمه الأساسي للقضية العربية.. » (٢٥/ ٥/ ١٩٦٧).

وهذه وكالة يونيتد برس للأنباء تعلن: «أن التقارير السياسية الواردة إلى لندن تشير إلى أن جميع الملابسات تؤكد أن الاتحاد السوفياتي مصمم على استغلال أزمة الشرق الأوسط إلى الحد الأقصى لتقوية مركزه في المنطقة والضغط على السياسة الأمريكية في فييتنام. وأن السوفيات يستخدمون الحجة القائلة بأن تعاونهم مع الأمريكيين في جهد مشترك لإحلال السلام في الشرق الأوسط أمر صعب جداً،

وذلك بسبب الحرب الفييتنامية، وأن أزمة الشرق الأوسط لا يمكن أن ينظر إليها منعزلة، بل يجب أن ينظر إليها في ضوء العدوان الأمريكي في أماكن أخرى من العالم، وعلى الأخص فييتنام.. وأن الكرملين يدعم جمال عبد الناصر بحزم، وقد ترك له مجالاً كافياً للمناورة.. وأن الاتحاد السوفياتي مستعد إلى المضي في إطلاق التصريحات السياسية وإغداق الأسلحة على عبد الناصر ولكنه لن يتدخل بالقوة المسلحة».

ولقد استطعت أن أصبر على هذه التعليقات بعض الشيء.. ولكني وقفت أمام مقالة مخيفة كتبها المراسل العسكري لجريدة **الأوبزرفر** اللندنية، وتزاحمت مخاوفي في نفسي تزاحم السحب الثقال في يوم عاصف مدرار.

قال المراسل العسكري إنه: «يتوقع أن تقوم إسرائيل بالضربة الأولى ضد الدول العربية المجاورة، وأنه وإن كانت سوريا والجمهورية العربية المتحدة تستطيع اتخاذ موقف التهديد لأجل غير مسمى، فإن إسرائيل لا تستطيع أن تصبر طويلاً نظراً إلى إغلاق خليج العقبة، ولأنها لا تستطيع إبقاء الاحتياطي معبأ زمنا طويلاً.. وأن الدوائر الإسرائيلية تعتقد أن المعركة قد تربح أو تخسر في الساعات الأربع والعشرين الأولى من بدئها.. وأن المبررات العسكرية لضربة جوية وقائية من قبل إسرائيل على المطارات المصرية والسورية مبررات قوية، وذلك للتخلص من الخطر الذي يمكن أن تحدثه أسلحة الجو العربية على مدينتي حيفا وتل أبيب الكثيفتي السكان، ولتحقيق ضمان التفوق الجوي الإسرائيلي في العمليات البرية لتفتيت الجيوش العربية المحتشدة على حدود إسرائيل، وأن إسرائيل تأمل في أن تضرب الجيوش المصرية وتخرجها من سيناء قبل أن يستطيع أحد أن يتدخل.. ».

لقد أرعبتني حكاية «الضربة الأولى».. «وأن تربح المعركة في الأربع والعشرين ساعة الأولى».. «والضربة الجوية على المطارات السورية والمصرية.. »، وانطلقت في خاطري أسئلة كالرعد القاصف.

ماذا أعدّ الاتحاد السوفياتي لنصرتنا من هذه المفاجآت الرهيبة؟

وهل تغامر الولايات المتحدة على ما بقي لها من رصيد في الوطن العربي؟

وهل أعدت القاهرة ودمشق العدة لمجابهة هذا الخطر الداهم؟

هل الرئيس عبد الناصر على ثقة من وعود موسكو؟

وهل موسكو على معرفة تامة بأوضاعنا العسكرية؟

هل نخرج من هذه الأزمة بالنصر أو الهزيمة.. ؟

وكان سؤال «النصر أو الهزيمة؟» هو الذي عاش في فؤادي في تلك الأيام، يؤرقني حين أنام، ويقرع رأسي حين أستيقظ.

ولم أجد سكينة إلا حين تذكرت الحوار الإسلامي القديم.. هل الإنسان مخيّر أو مسيّر؟.. وأحسست أن الأمة العربية كلها، بحكوماتها وجيوشها وشعوبها، وصحفها وإذاعاتها، وعبد الناصر في القمة، قد أصبحت مسيّرة غير مخيرة.. مسيّرة إلى القدر المجهول.

وعلى هذه السكينة استسلمت إلى الغيب الداهم، ولم أعد أسأل عن مواقف الروس والأمريكيين، ولا أتساءل عن النصر أو الهزيمة، وأنا أردد قوله تعالى:

﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٦٠.

أنـا خائـف مـن شهـر حزيـران/يونيـو

وإسرائيل، ماذا قالت وستقول.. ماذا فعلت وستفعل؟؟

كان هذا هو السؤال الذي يقرع سمعي ويشغل عقلي، وأنا في خضم الأحداث التي تجري حولنا في الشهر نفسه.. أيار/مايو.. لا كان ولا كانت أيامه ولياليه.

ففي منتصف هذا الشهر طلبت القاهرة سحب قوات الطوارئ الدولية من غزة وسيناء، واستجاب الأمين العام للأمم المتحدة للطلب، فانسحبت تجر وراءها ذيلاً من عشرة أعوام من الذكريات.. واندفعت القوات المصرية بآلياتها ومعداتها ومؤنها في أفواج كالأمواج إلى مواقعها المحددة لها، وتهيأت ساحة القتال.. ولم تبق إلا الرصاصة الأولى، من يطلقها.. ومتى؟

وبعد أسبوع من ذلك الحدث أعلن الرئيس عبد الناصر أن القوات المصرية احتلت شرم الشيخ، وأصبحت تهيمن على مضائق تيران، وأن خليج العقبة مياه إقليمية عربية ليس للملاحة الإسرائيلية حق في عبوره.

وأشعل هذا الإعلان خيال الأمة العربية، وأذكى آمالها ومطامحها، وجدّد عزمها حتى بدا تحرير فلسطين قاب قوسين أو أدنى.. أو رمية عصا كما يقول الأعراب في البادية.

ووثب سمعي وعقلي إلى إسرائيل أستطلع أخبارها وأتقصى آثارها، وهذه صنعة العاشق المدنف.. وطالب الثأر.. الأول يجري وراء حبيبه، والثاني يلهث وراء غريمه.. وأنا واحد من ملايين الأمة العربية الذين كانوا يلهثون في طلب الثأر وراء العدو القديم، ذلك الذي احتل أرضنا وشرّد شعبنا ودنس شرفنا.

ومن هنا كان السؤال يقرع سمعي دوماً.. ماذا قالت إسرائيل وستقول؟ وماذا فعلت وستفعل؟!

وتكدست أمامي الصحف الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية، وتكدست معها النشرات الإخبارية من الإذاعات ووكالات الأنباء، حتى أصبح مكتبي جهازاً إعلامياً متخصصاً، يعمل فيه الشباب ليلاً ونهاراً.. بعضهم يترجم من العبرية إلى العربية، وبعضهم يقتطع القصاصات من الصحف المختلفة، وآخرون يصنفون ويفهرسون.. وأنا غارق في القراءة لا أستريح منها إلا إلى عمل آخر.

واستقرت في ذهني صورة عن مسيرة الأمور في إسرائيل.. كانت أشبه بلوحة المريض في المستشفى، تسجل حرارته صاعدة هابطة، متذبذبة ومستقرة.

وكان أول ما استرعى انتباهي في هذه «اللوحة» وأنا أراقب ردود الفعل في إسرائيل أن انسحاب قوات الطوارئ الدولية لم يحدث صخباً ولا ضجيجاً في المجتمع الإسرائيلي.. لقد كان أمراً جديداً، من غير شك، لدى المواطن العادي.. ولكن الحياة العامة ظلت سائرة في مجراها المعتاد.. وأحسب أن المواطن الإسرائيلي، وهو الذي يختار حكومته بملء إرادته، كان مطمئناً إلى أن الدولة تعرف واجبها وستؤديه على خير وجه.. وقد كتبت وكالة الصحافة الفرنسية نقلاً عن مراسلها في تل أبيب تقول: «لا يبدو أن هناك تدابير غير عادية قد اتخذت في إسرائيل.. وأن الناس في الشوارع يعتصمون بالصمت بعد سماعهم بانسحاب قوات الطوارئ الدولية وحشد القوات المصرية في صحراء سيناء.. » (١٦/ ٥/ ١٩٦٧).

وكان هذا هو الواقع.. فإن إسرائيل قد اتخذت الموقف اللازم وعبّرت عن رأيها بشأن انسحاب قوات الطوارئ الدولية في حينه. وقد أوردت وكالة الصحافة الفرنسية نبأ لمراسلها في القدس المحتلة ذكر فيه: «أن الحكومة الإسرائيلية طلبت من يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة ألا يتخذ أي قرار بشأن قوات الطوارئ الدولية قبل استشارتها، إذ إن هذا الموضوع له أهميته الحيوية والاستراتيجية بالنسبة إلى إسرائيل في ما يتعلق بأمنها وسلامتها» (١٨/ ٥/ ١٩٦٧).

وتحركت إسرائيل خطوة أخرى إلى الأمام في إطار إستراتيجيتها التقليدية التي تلجأ إليها على الدوام، فراحت تشنّ حملة إعلامية على الجمهورية العربية المتحدة بأنها تدبر عدواناً على إسرائيل، وأن الحشود المصرية في سيناء باتت تهدد أمن إسرائيل وسلامتها.

وفي حديث على التلفزيون الأمريكي في نيويورك تناول جدعون رفائيل مندوب إسرائيل الدائم في الأمم المتحدة هذا الجانب، فقال إن: «سحب قوات الطوارئ

الدولية هو مقدمة للهجوم على إسرائيل، وإن هذا الموضوع ينذر بخطورة الموقف، وإن إسرائيل تراقب بمنتهى الحرص والحذر تحشد القوات المصرية في سيناء وقطاع غزة. . ».

وكان من الملاحظ أن المندوب الإسرائيلي كرر تعبير: «الهجوم على إسرائيل» عدة مرات، ليغرس في أذهان الرأي العام الدولي أن إسرائيل هي في موقف الدفاع عن النفس، وأن أي إجراء عسكري تتخذه في أي وقت تشاء إنما هو عمل مشروع، ويقرّه ميثاق الأمم المتحدة.

وتوكيداً لهذا المعنى، فقد صدرت التصريحات الصحافية من داخل إسرائيل تحذر المجتمع الدولي من تصرفات الجمهورية العربية المتحدة «العدوانية». . وفي سياق هذه الاستراتيجية الإعلامية صرح مصدر إسرائيلي مأذون لوكالة رويتر في تل أبيب بأن: «القوات المصرية المحتشدة في سيناء قد اتخذت مواقع تعبّر من ناحية عسكرية بأنها مواقع هجومية. . » (١٩/ ٥/ ١٩٦٧). . وبهذا تركز الحديث عن «الهجوم» من جانب مصر لتبرير «الدفاع» من جانب إسرائيل.

وقد صادف في ذلك الوقت بالذات أن زالمان شازار رئيس إسرائيل غادر تل أبيب في زيارة رسمية إلى كندا، وفي وقوفه في مطار لندن أدلى بحديث تلفزيوني أراد من ورائه أن يظهر إسرائيل بمظهر الحمل الوديع الذي يخشى افتراس الذئاب من حوله، فقال: «إن إسرائيل لن تفعل من جانبها شيئاً يؤدي إلى إثارة قتال مسلح في الشرق الأوسط، وإن رحلتي إلى كندا تشير إلى الهدوء والثقة السائدين في إسرائيل رغماً عن التطورات الأخيرة والحشود المصرية في سيناء» (١٩/ ٥/ ١٩٦٧).

وترسيخاً لهذا المعنى أصدر ناطق عسكري بياناً قال فيه: «إن القوات الإسرائيلية اتخذت جميع الخطوات اللازمة لمجابهة جميع الاحتمالات «بعد» أن دخلت أعداد كبيرة من القوات المصرية إلى القطاع الشرقي من شبه جزيرة سيناء، «وبعد» انسحاب قوات الطوارئ الدولية بناء على طلب مصر. . وإن من بين الإجراءات التي يتم اتخاذها التعبئة الجزئية للاحتياطي. . » (٢٠/ ٥/ ١٩٦٧).

وأخذ أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي الزمام من يد «الناطق العسكري الإسرائيلي» وأطلق لسانه على مدى يومين متعاقبين ليندّد بموقف مصر ويبرر موقف إسرائيل. . فألقى في اليوم الأول في إحدى المستعمرات اليهودية خطاباً مطولاً أعلن فيه: «أن الخطوات التي اتخذها الجيش الإسرائيلي إنما هي لمواجهة أي تطور حول

إسرائيل، وأن الجهود الدبلوماسية ستبذل باستمرار للعمل على حفظ السلام» (٢١/ ٥/ ١٩٦٧).

وفي اليوم الثاني ألقى أشكول بياناً في الكنيست الإسرائيلي أعلن فيه:

«أن القوات المصرية المحتشدة في سيناء لا تقلّ عن ثمانين ألف رجل، وأن هذه هي المرة الأولى التي تحشد فيها قوات مصرية في مثل هذا الحجم في سيناء.. وأنه يجب على الدول الكبرى أن تمارس تأثيرها الكامل لمنع وقوع صدام في الشرق الأوسط.. وأن هناك في هذا المجال مسؤولية خاصة تقع على الاتحاد السوفياتي الذي يحتفظ بعلاقات صداقة مع القاهرة ودمشق.. وأن ضغطاً دولياً يجب أن يمارس لتأمين استمرار الهدوء الذي ساد الحدود الإسرائيلية منذ آذار/ مارس ١٩٥٧.. وأن إسرائيل دولة مسالمة لا تملك أية مخططات عدوانية» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

كان ذلك على صعيد الإعلام الخارجي.. أما على الصعيد الداخلي فقد كانت إسرائيل ماضية في إلهاب ظهر المجتمع الإسرائيلي، وكان «السوط» الذي بيدها هو الهجوم العربي على إسرائيل وتدمير إسرائيل.. وانطلقت الصحف والإذاعة الإسرائيلية تشحن مشاعر الإسرائيليين لتضعهم أمام خيار لا بديل له.. «الهجوم الإسرائيلي» لقمع «الهجوم العربي» في مهده.

ومن ذلك أن دافيد هاكوهن رئيس لجنة الشؤون الخارجية والأمن في الكنيست طالب بإصدار بيان إلى الشعب اليهودي «بأن يكون على أهبة الاستعداد للحرب».. وأن ياكون هازان ممثل حزب المابام قد أعلن: «أن لا شيء يعدل إعداد القوات المسلحة لأي احتمال.. وأنه يجب على إسرائيل أن تعلم عبد الناصر بأننا مستعدون للحرب».. وحتى يوري أفنيري ممثل حزب هاعولام هازيه الذي تعتبره الأوساط الإسرائيلية من دعاة التفاهم مع العرب، قال: «إن الحرب لا تحل المشاكل، ولكن يجب أن نكون مستعدين لها» (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧).

تلك كانت استراتيجية إسرائيل على صعيد الإعلام بصدد موضوع انسحاب قوات الطوارئ الدولية، واحتشاد القوات المصرية في سيناء. لقد عبأت إسرائيل كل قدراتها الإعلامية في هذه المعركة في جميع أرجاء العالم، فلم تترك عاصمة إلا وطرق الممثل الإسرائيلي فيها أبواب الدولة كلها، ليقول إن إسرائيل في خطر، وإن العرب يريدون أن يدمروا إسرائيل.. وأن يلقوا بشعب إسرائيل في البحر.

وجاء اليوم الثاني والعشرون من شهر أيار/ مايو، حين أعلن الرئيس عبد الناصر

إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، فانعقدت الكنيست في جلسة طارئة، وبدأت إسرائيل بحملة متصاعدة موجهة إلى الداخل والخارج.. إلى المجتمع الإسرائيلي وإلى المجتمع الدولي. فألقى ليفي أشكول رئيس الوزراء ووزير الدفاع الإسرائيلي بياناً قال فيه:

«إن إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية يشكل خرقاً فاضحاً للقانون الدولي وضربة لحقوق وسيادة الدول الأخرى، وعملاً عدوانياً موجهاً ضد إسرائيل، ثم أهاب بالدول الكبرى أن تعمل من دون تأخير على ضمان حرية الملاحة في خليج العقبة ومضائق تيران.. وإننا نواجه ساعة مصيرية لا بالنسبة إلى إسرائيل، ولكن بالنسبة إلى العالم أجمع».

وأدركت وأنا أقرأ هذا الخطاب بأن إسرائيل تخطط لمغامرة أخرى.. إلى سويس أخرى.. حين وقع العدوان الثلاثي قبل عشر سنوات، وكانت إسرائيل ذيلاً لبريطانيا وفرنسا.. ومن هنا، فإن كلام أشكول عن: «حقوق وسيادة الدول الأخرى» كان يهدف من ورائه أن يدبر «عدواناً جماعياً» على مصر.. فإن لم يتيسر، فإن إسرائيل حاضرة لعدوان منفرد، أصالة عن نفسها ونيابة عن المجتمع الدولي.. أو على الأقل مجتمع الدول البحرية.

وتوكيداً لقدرة «العدوان الإسرائيلي المنفرد» قام أشكول في اليوم نفسه بسلسلة مشاورات مع قادة المعارضة، موشي ديان ومناحم بيغن وغيرهما، وأعلن في حفل عام في إحدى المستعمرات الإسرائيلية: «أن إسرائيل يمكنها أن تواجه قوة الدول العربية وتفوقها العددي، فإسرائيل متفوقة نوعياً».

وفي الرابع والعشرين من شهر أيار/ مايو وصل وزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبان إلى مطار باريس بصورة مفاجئة، وأعلن أنه في طريقه إلى لندن ونيويورك وواشنطن لبحث «التطورات الأخيرة في أزمة الشرق الأوسط».

والواقع أن سفره كان إلى البيت الأبيض.. وما باريس ولندن ونيويورك إلا محطات ترانزيت، يتوقف فيها قليلاً ليتحدث مع المسؤولين فيها.. ولكن النور الأخضر أو الأحمر لا بد من أن يلتمسه في البيت الأبيض.. ذلك أنه لم يجد النور في باريس مدينة النور.. فقد سمع أبا إيبان حديثاً قاسياً من الجنرال ديغول أثناء اجتماعه به في قصر الإليزيه.. وقد وصل هذا الحديث إلى القاهرة في مساء ذلك اليوم عن طريق السفارة العربية في باريس.. وقال الجنرال ديغول للوزير الإسرائيلي: «إذا هوجمت إسرائيل فلن ندع أحداً يدمرها.. ولكن إذا هاجمتم أنتم، فسنشجب بادرتكم

وعليكم ألا تبدأوا الحرب.. ومن يطلق الرصاصة الأولى يكون هو الذي يبدأ الحرب».

وهكذا خاب أمل إيبان في فرنسا.. فلم يعد يحكمها الرئيس الفرنسي السابق «غي موليه» الذي تآمر مع بن غوريون أيام العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦.

ولم يكن الأمر يحتاج إلى موهبة رفيعة في الفراسة لمعرفة الأهداف الحقيقية وراء رحلة أبا إيبان إلى البيت الأبيض، وواشنطن، حيث الكونغرس، والخارجية ووزارة الدفاع الأمريكية، وأخيراً وأولاً وكالة المخابرات الأمريكية التي هي حكومة فوق الحكومة.

وحتى من غير فراسة أو دراسة، فقد كان واضحاً أن أبا إيبان كان يسعى إلى استنفار أعداء الأمة العربية للقيام بحرب عدوانية ثنائية أو ثلاثية أو رباعية على مصر باعتبارها القلعة الأمامية في الوطن العربي، وأن تكون إسرائيل ذيلاً لهذه الحملة. وكما قامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالعدوان الثلاثي على مصر في أعقاب تأميم قناة السويس، فلم لا تكون حرب أخرى من أجل فتح خليج العقبة؟

بل إن أبا إيبان نفسه فضحته أحاديثه، فقد قال في مقابلة تلفزيونية في مطار لندن، وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة: «إن المسألة الحرجة هي ما إذا كانت الدول البحرية تعتزم فتح خليج العقبة، أو أنها ستنحني للعدوان والقرصنة الدولية اللذين كانا السبب في إغلاق مصر لخليج العقبة».

وبعد ست ساعات من هذا الحديث في مطار لندن، تحدث أبا إيبان في مطار نيويورك فأعلن أنه لن يطلب من الأمم المتحدة اتخاذ أي أجراء، و«إن مهمتي أن أتحقق بصورة واضحة ما إذا كانت الدول التي تعهدت بحماية حقنا في المرور الحر في الخليج العقبة وفي مضائق تيران تعتزم تنفيذ هذا التعهد أم لا؟».

ومن نيويورك طار أبا إيبان إلى واشنطن.. وما هي إلا برهة وجيزة حتى بدأ اجتماعاته العاجلة مع الرئيس جونسون، ومع دين راسك وزير الخارجية الأمريكية، ومع روبرت مكنمارا وزير الدفاع، ومع عدد من رجال المخابرات الأمريكية.

ومن واشنطن، وبعد هذه الاجتماعات العاجلة، عاد ابا إيبان ليلاً إلى تل

أبيب، ليصلها في السابع والعشرين من الشهر نفسه، أيار/ مايو صاحب الأحداث والأخبار.

وتعاقبت القرائن والدلائل مثل بصمات الأصابع، أو مواقع الأقدام في الرمال، وكلها تثبت أن تواطؤاً أمريكياً إسرائيلياً قد دبر في واشنطن لينفذ في تل أبيب.

وسرت في هذا الموكب من الدلائل والقرائن، ولم أكن في حاجة إلى أن أكون حاضراً في الاجتماعات ومعي الأمة العربية كلها، لنسمع الأحاديث حول هذه المؤامرة.. فقد نشرت وكالات الأنباء أخبار هذه الاجتماعات نتفاً نتفاً، وما على العقل إلا أن يجمعها ليكوّن منها الصورة الواحدة، الكاملة الشاملة. وقالت الأنباء: وما «نعمة» الأنباء إلا رواتها.. في الاجتماع الرئيسي الذي امتد قريباً من ساعتين مع الرئيس جونسون، شرح أبا إيبان بوضوح موضوع خليج العقبة منذ حرب السويس، وقرأ المراسلات الأمريكية التي صدرت لإسرائيل في عهد الرئيس أيزنهاور ووزير خارجيته دالاس بالتعهد بضمان حق إسرائيل بالملاحة في خليج العقبة، وانتشار قوات الطوارئ الدولية في سيناء لضمان هذا الحق.. ثم ما كان أخيراً من سحب قوات الطوارئ وإغلاق خليج العقبة واحتشاد القوات المصرية، وأن الموقف الآن يتطلب الالتجاء إلى القوة.. إما القوة الدولية البحرية لفتح خليج العقبة، أو قوة إسرائيل العسكرية، إذا كانت الدول البحرية لا تريد اتخاذ هذه الخطوة.

وزاد أبا إيبان على ذلك أخيراً «خبراً في غاية الخطورة».. كان هذا الخبر الخطير أن أبا إيبان تلقى برقية عاجلة من تل أبيب، سلمت إليه عند وصوله إلى واشنطن: «إن مصر ستهجم على إسرائيل غداً أو بعد غد».

ولمناقشة هذه البرقية العاجلة دعي الجنرال ويلر رئيس أركان حرب القوات الأمريكية لإبداء رأيه في الموضوع.. وقال الجنرال الأمريكي: «إنه لا يشارك أبا إيبان آراءه ومخاوفه لأن المعلومات التي لدى وزارة الدفاع الأمريكية هي أن الجيش الإسرائيلي هو الذي يلحّ على أخذ زمام المبادرة، وأنه ليس لإسرائيل ما تخشاه، فإن الجيش الإسرائيلي متفوق على الجيش المصري.. ومع هذا، فإن الأسطول السادس المؤلف من خمسين سفينة حربية اتخذ مواقعه اللازمة في شرق البحر الأبيض المتوسط ابتداء من الرابع والعشرين من هذا الشهر».

ويشاء القدر الساخر أن يكشف واقعة إضافية استشهد بها الوزير الإسرائيلي

أبا إيبان في اجتماعه مع الرئيس جونسون، وكان ذلك في الخامس من حزيران/ يونيو.

أجل، ففي الخامس من حزيران/ يونيو، وهي مصادفة القدر العجيب، نشر المعلق الأمريكي المعروف جوزيف إلسوب مقالة في جريدة **هيرالد تريبيون** ذكر فيها أن أبا إيبان قد أبرز للرئيس جونسون وثيقة رسمية بخط وزير الخارجية الأمريكي دالاس «بالتزام أمريكا بحماية حق إسرائيل في الملاحة في خليج العقبة بجميع الوسائل المتاحة»، ولكن أحداً لم يتساءل كيف وصلت وثائق الخارجية الأمريكية إلى وزارة الخارجية الإسرائيلية؟!!

ولعله كان طبيعياً ألا يتساءل أحد، فالخارجية الأمريكية والخارجية الإسرائيلية هما وزارة واحدة في دولة واحدة، ويبقى السؤال المحير: هل الدولة، إسرائيل، أم الولايات المتحدة؟؟!!

وفي اجتماع جانبي جرى بين الرئيس جونسون والوزير الإسرائيلي المفوض في واشنطن (أفرون) وكانت بينهما صداقة وطيدة قبل أن يتولى جونسون الرئاسة، أشار الوزير الإسرائيلي إلى أن الرئيس جونسون حين كان زعيم الديمقراطية في الكونغرس في عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧ كان مؤيداً لإسرائيل بصدد حرية الملاحة في خليج العقبة، إلى حد أنه وجّه انتقاداً شديداً إلى وزير الخارجية الأمريكية فوستر دالاس لأنه كان يهدد إسرائيل بوقف المعونات الاقتصادية.. وأجاب الرئيس جونسون قائلاً: «أريد أن أرى العلم الإسرائيلي الأزرق والأبيض يمخر في خليج العقبة.. أنتم اعتمدتم على أنفسكم ولا تنتظروا منا أن نفعل لكم شيئاً.. ».

وهكذا عاد أبا إيبان من واشنطن بانطباعات واضحة أبرزها:

أولاً: أن الأسطول الأمريكي السادس يرابط في شرق البحر الأبيض المتوسط على أهبة الاستعداد.. إذا هبت الرياح في غير صالح إسرائيل.

ثانياً: أن على إسرائيل أن تعتمد على نفسها.

ثالثاً: أن الاتحاد السوفياتي لن يتدخل عسكرياً في حالة حدوث أي نزاع مسلح.

رابعاً: أن الدول البحرية تؤيد فتح خليج العقبة، ولكنها في الظروف الحاضرة لم تستطع أن تتفق على خطة مشتركة، وما على إسرائيل إلا أن تقوم بهذه المهمة بنفسها.

وقد أدلى أبا إيبان بتصريح واضح غداة وصوله إلى تل أبيب قال فيه:

لقد أتيت معي ببعض العبارات.. لقد لاحظت تأييد القادة الأمريكيين القوي الحازم لحرية الملاحة في خليج العقبة لجميع السفن، مهما كان العلم الذي ترفعه.. لقد أوضحت للقادة الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين بصراحة أن السلام لا يمكن أن يتعايش مع هذا الإغلاق غير القانوني.. وأن إسرائيل لا تواجه هذا الاختبار بمفردها..» (٢٧/ ٥/ ١٩٦٧).

وفي اليوم الثاني عقد مجلس الوزراء الإسرائيلي اجتماعاً مطولاً استمر خمس ساعات أفضى خلاله الوزير الإسرائيلي أبا إيبان بتقرير مفصل عن رحلته إلى الخارج، ولا بد من أن الوزارة الإسرائيلية قد توصلت إلى قرار.. قرار الحرب.. أو على الأقل إلى اتجاه في طريق الحرب، بعد أن نقل ما قاله المسؤولون الأمريكيون.. وفي مقدمتهم رجال المخابرات الأمريكية، وصانعو المؤامرات، ومدبرو الانقلابات، ومشعلو الحروب الصغيرة في هذه القارة أو تلك.

ومرة ثانية لم يعد الأمر في حاجة إلى دراسة ماهرة للتعرف على هذا الاتجاه. لقد كنت أستمع إلى النشرة الإنكليزية لإذاعة إسرائيل وهي تلخص الخطاب الذي ألقاه أشكول رئيس الوزارة الإسرائيلية بعد اجتماع الوزراء، وهو يعلن فيه:

أولاً: أن الخطر الذي يتهدد إسرائيل قد وصل إلى حده الكامل.. وقد تلقت الحكومة تقريراً عن إجراءات الاستعداد التي اتخذت، وهي أن قوات الدفاع الإسرائيلية مستعدة تماماً لحماية أمن إسرائيل.

ثانياً: أن حكومة إسرائيل تعتبر إغلاق مضائق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية بمثابة عدوان على إسرائيل، وستقاوم هذا الإغلاق في الوقت المناسب طبقاً لحق كل دولة في الدفاع عن نفسها.

ثالثاً: لقد تلقت الحكومة تقريراً من وزير الخارجية عن محادثاته مع قادة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، واتصالاته مع الدول الأخرى بما فيها الاتحاد السوفياتي.. وقد وضعت الحكومة الإسرائيلية توجيهاتها لاستمرار العمل السياسي في المجال الدولي بقصد حفز القوى الدولية على اتخاذ إجراءات فعالة لضمان حرية الملاحة، وإزالة التحشدات العسكرية على الحدود الجنوبية.. حتى لا نضطر إلى استخدام قواتنا العسكرية في الدفاع عن أنفسنا..» (٢٨/ ٥/ ١٩٦٧).

واضح أن هذه العبارات بصورة عامة، وخاصة: «استعداد قوات الدفاع الإسرائيلية»، وأن إسرائيل «ستقاوم إغلاق خليج العقبة في الوقت المناسب»، وأن إسرائيل «ستضطر إلى استخدام قواتها العسكرية».. هذا الكلام العام

والخاص لا يترك مجالاً للشك في أن إسرائيل قد قررت أن تحارب وأن تحارب في الوقت المناسب.. ولم يبق إلا أن تأخذ زمام المبادرة.. وأن تحدّد ساعة الصفر.

ودعماً لهذا القرار.. فقد سار أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي خطوة عملية على طريق الحرب، فقد دعا زعماء المعارضة الإسرائيلية للاشتراك معه في الوزارة لتكون بمثابة وزارة حرب لمواجهة جميع مسؤوليات الحرب.. وبدأت الأحزاب السياسية مشاوراتها لبحث الأسس العامة لتشكيل وزارة ائتلافية.

ويوم كان أشكول يعمل على تأليف وزارة حرب، كان يخاطب المجتمع الإسرائيلي والدولي شارحاً مبررات الحرب، داعياً الدول العظمى بوجه خاص إلى أخذ المبادرة الفعلية وبالقوة المسلحة، وإلا فليس أمام إسرائيل غير «الدبابة» مركباً.. «وليس على المضطر إلا ركوبها.. ». وما كان منه إلا أن أعلن في الكنيست أن إسرائيل «لن تتراجع عن إصرارها على حرية الملاحة في مضائق تيران، وأنها لا تقبل بأي حل وسط، وأن إسرائيل تظل ملزمة باختبار تعهدات القوى البحرية لضمان حرية الملاحة في المضائق.. وأن من المنطق أن تتوقع من هذه الدول أن تقوم بعمل فعال في فترة قصيرة لضمان حرية الملاحة.. وأن إسرائيل تعلن بكل اعتزاز أن الجيش الإسرائيلي هو في أوج قوته وعظمته في ما يتعلق بالمهارة والروح القتالية والعتاد الحربي.. » (٢٩/ ٥/ ١٩٦٧).

وكان الحديث عن «الفترة القصيرة» وتفوق «الجيش الإسرائيلي» مدعاة لخروج بن غوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق عن صمته وعزلته، وهو يعتبر نفسه مؤسس جيش الدفاع الإسرائيلي.. فقد عقد مؤتمراً صحافياً أعلن فيه: «ثقته الكاملة بالجيش الإسرائيلي، وأنه يعادل نوعياً في الجودة أي جيش في العالم، وأن التهديد المصري لإسرائيل أخطر من أي تهديد واجهته إسرائيل في الماضي.. وأن إسرائيل لها أصدقاء أقوياء جداً، ولكن ليس مستطاعاً أن تأخذ بنصائحهم دائماً، أو أن تتجاهلهم دائماً».

ولم تعد الحرب حديثاً عابراً، بل أصبحت خطة مدبرة، وبدأ المتطوعون اليهود يتوافدون على إسرائيل. فقد أعلن ناطق بلسان الوكالة اليهودية بأن: «تطوع الشباب اليهود خارج إسرائيل لا يزال يتزايد باستمرار، وأنه يتوقع وصول جماعات كبيرة من المتطوعين إلى إسرائيل خلال الأيام القليلة القادمة.. » (٢٩/ ٥/ ١٩٦٧).

ولم يكد يطل اليوم الثلاثون من الشهر حتى أطلت معه بوادر سياسية وعسكرية

تنذر بأن إسرائيل ستوجه الضربة الأولى، وتطلق الرصاصة الأولى. . «والمتطوعون اليهود يتوافدون خلال الأيام القليلة القادمة»، كما أعلنت وكالة رويتر.

فعلى الصعيد السياسي عقد أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل مؤتمراً صحافياً أعلن فيه أن إسرائيل مستعدة لأن تقدم أية تضحيات لفتح خليج العقبة، بمعاونة الدول الأخرى إذا أمكن، ووحدها إذا اضطرت إلى ذلك. . وأن إسرائيل على استعداد للتريث بعض الوقت لمعرفة ما إذا كان بالإمكان حل القضية عن طريق إجراء دولي. . وأنه من المشكوك فيه ما إذا كانت الأمم المتحدة قادرة على أن تلعب دوراً حاسماً. . وأن إسرائيل لا تستطيع أن تنتظر طويلاً. . ولن يكون الانتظار شهوراً ولا سنوات. . وأن إسرائيل الآن مستعدة تماماً وكأنها رقاص مشدود، وأن التأييد المعنوي الذي تلاقيه إسرائيل ضخم جداً. . ».

كان هذا كلام الوزير الإسرائيلي أبا إيبان الذي يعتبره الإسرائيليون من فصيلة الحمائم. . وكان كلامه في ختام شهر أيار/ مايو، وعلى التحديد، بالرقم في ٣٠/ ٥/ ١٩٦٧.

وعلى الصعيد العسكري، كان لا بد لهذا «الرقاص المشدود»، بحسب تعبير الوزير الإسرائيلي أبا إيبان، من دعم مادي وحربي. . وتجلّى ذلك بصورة فعلية في مطار أورلي (باريس)، فقد وصل بصورة مفاجئة ظهر ذلك اليوم بنحاس سابير وزير المالية الإسرائيلية ومعه الجنرال حاييم لاسكوف مدير سلطة الموانئ ورئيس أركان الجيش الإسرائيلي سابقاً، وعقدا اجتماعاً طارئاً مع سفراء إسرائيل في باريس وبون وروما، واشترك معهما المالي الفرنسي الصهيوني البارون روتشيلد.

ومن ناحية أخرى، فقد وصل في اليوم نفسه سفير إسرائيل المتجول ميشيل كوماي إلى لاهاي في جولة إلى العواصم الأوروبية. . وقد رفضت هذه التجمعات الإسرائيلية الإفصاح عن مهمتها، واقتصر وزير المالية الإسرائيلية على القول بأنه: «سيقضي بضعة أيام في الولايات المتحدة بخصوص بعض المسائل الاقتصادية التي نجمت عن حالة الأمن في إسرائيل. . » (٣٠/ ٥/ ١٩٦٧).

وإذا كانت الأفواه الإسرائيلية ملجمة في ذلك اليوم، ملتزمة الصمت، فقد تكلمت الذخائر الحربية وهي تشحن عبر الأجواء إلى تل أبيب، فقد نشرت الصحف الفرنسية نقلاً عن مصادر مطلعة: «أن ثلاث طائرات نفاثة من طراز بوينغ تابعة لشركة الخطوط الجوية الإسرائيلية هبطت في مطار بوردو الفرنسي حيث وقفت في

المدرج العسكري الملاصق لمصانع شركة داسو للطيران التي تزوّد سلاح الطيران الإسرائيلي بالصواريخ. . وقد عادت هذه الطائرات إلى إسرائيل محملة بقطع الغيار ومواد حربية فرنسية الصنع، أما سلطات مطار بوردو فقد رفضت التعليق على الموضوع وأحاطته بمنتهى الكتمان. . ».

ومن جهة أخرى، فقد أعلن ناطق بلسان وزارة الدفاع الأمريكية بأن أربعة أطنان من الذخيرة الخاصة بالرشاشات الأوتوماتيكية قد أرسلت أمس إلى إسرائيل، وأن شحنة الذخائر قد أرسلت إلى وكيل شحن يمثل إسرائيل.

ولم تكد تصل المعدات العسكرية إلى إسرائيل حتى صدر بيان من تل أبيب يقول إن الأحزاب المعارضة قد قبلت الاشتراك في الوزارة الإسرائيلية، وإن موشي ديان قد أصبح وزيراً للدفاع. . وبهذا أعلنت وزارة الحرب. . ولم يبق إلا أن تقع الحرب في أي يوم، في أي ساعة، في أي لحظة، ومن غير إعلان.

بل إن إعلان الحرب قد تم فعلاً في إسرائيل، ولم يبق إلا تحديد ساعة الصفر. . وكانت هذه النتيجة الحتمية التي يصل إليها القارئ ـ القارئ على المستوى العادي، وهو يتابع الصحف الإسرائيلية. . وهذه جريدة **معاريف** الإسرائيلية حثت على وجوب قيام إسرائيل باتخاذ خطوة عسكرية في سيناء، معلنة بأن: «الحشود المصرية تهدد أمن إسرائيل، وأن القضاء على هذا التهديد أمر يتعلق بإسرائيل وحدها» (٣١/ ٥/ ١٩٦٧).

بل إن المرء ليدهش إذا كانت إسرائيل لا تبادر إلى الحرب، والمصادر الغربية كلها تحضّ إسرائيل على القتال بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وكان آخر من دعاها إلى القتال المستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية السابق وعضو مجلس العموم في مقالة نشرتها له جريدة **صندي تلغراف** اللندنية قال فيها: «إن على بريطانيا وأمريكا وغيرهما من القوى البحرية أن تعلن بجرأة عزمها على ضمان حرية الملاحة في خليج العقبة، وإذا كان هناك نزاع على الحق فيجب أن تستخدم القوة المسلحة لضمانه» (٢٨/ ٥/ ١٩٦٧).

وأي تحريض أشد من ذلك لإسرائيل؟ وإسرائيل بأصلها العدواني وطبيعتها التوسعية ليست في حاجة إلى تحريض.

ولم يكد ينتهي شهر أيار/ مايو، ويبزغ فجر حزيران/ يونيو، حتى نقلت وكالة رويتر رسالة لمراسلها في تل أبيب يقول فيها: «إن مصادر موثوقاً بها ذكرت أن إسرائيل تضغط الآن على واشنطن ولندن وباريس للإسراع في العمل الدولي المقترح

لفك الحصار المضروب على خليج العقبة.. وأن إسرائيل أبلغت الدول الغربية أن عنصر الوقت أصبح الآن أكثر أهمية من أي وقت مضى.. وأن الدوائر الإسرائيلية تتساءل إلى متى نظل ننتظر؟».

«إلى متى نظل ننتظر؟» كان هذا هو السؤال الذي طرحته إسرائيل على حلفائها في بداية شهر حزيران/ يونيو.. وكان طبيعياً بل منطقياً.. بل حتمياً أن تقع الحرب في أوائل حزيران/ يونيو.

ولم تكن هذه نبوءات الفلكيين، ولا العرّافين بطوالع النجوم، ولكنها حتمية الأحداث إزاء دولة تصطنع الأحداث لتعتدي، فكيف بها وقد وقعت الأحداث وتوافرت بين يديها المبررات.

وبدأت أخاف من حزيران/ يونيو.. وبدأت مخاوفي أكثر من غيري.. أعرف أننا غير قادرين على الحرب، ولسنا على استعداد لها.. فلقد كنت أعرف مؤتمرات القمة كما أعرف اسمي، وأحس مخالفاتها كما أحس جسمي.

وكان أكبر خوفي أن تتحقق فراسة الصحيفة البريطانية، جريدة **الأوبزرفر**، التي أعلنت: «أنه من المتوقع أن تقوم إسرائيل بالضربة الأولى.. وأن المعركة قد تربح أو تخسر في غضون الأربع والعشرين ساعة التالية في هجمة جوية مفاجئة» (٢٨/ ٥/ ١٩٦٧).

وجمعت شجاعتي، وقلت سائلاً ومجيباً.. وذلك تعليقاً على نبوءة الصحيفة البريطانية:

تساءلت: هل يستطيع العدوان أن يدمر سلاحنا الجوي بضربة ساحقة؟

قلت: يستحيل.. وهل نحن غافلون، وجاهلون، ومستهترون إلى هذا الحد؟

وتساءلت: ولكن العدو ذكي وقوي، وماهر وماكر، ألا يستطيع أن يدمرنا بمفاجأة ما؟؟

قلت: يستحيل.. إن فينا القادة الكبار، والضباط العظام، ومعنا روسيا بكل خبراتها العسكرية والسياسية، فهل يمكن أن تجوز المفاجأة علينا جميعاً.

وتساءلت: ولكن الحرب خدعة.. وإسرائيل ولدت على فراش الخديعة.

وقلت: نحن نعرف أن الحرب خدعة.. ولا بد من أننا أخذنا لكل أمر عدته.

وكبحت نفسي عن أن يدور هذا القيل والقال في نفسي، وقلت ليت..

ليت الذين بيدهم مقاليد الأمور يعملون بقوله تعالى، وهو يعلّم الرسول كيف يصلي في ميدان القتال: ﴿**وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾[1] صدق الله العظيم.

حقاً صدق الله العظيم. . فقد غفلنا عن أسلحتنا وأمتعتنا، ومال العدو علينا ميلة واحدة، وكأنما نزلت آية القرآن، من أجل حرب حزيران/ يونيو. .

(١) **القرآن الكريم**، «سورة النساء،» الآية ١٠٢.

عبـــد النـــاصر وحســـين

«الملك حسين وصل إلى القاهرة» . . .

تلك كانت همسة الجماهير في صبيحة يوم الثلاثاء، الثلاثين من شهر أيار/ مايو، شهر الأقدار والأخبار.

وبدأت الهمسة في مطار القاهرة، ثم انسابت إلى المدينة كلها، يتناقلها المواطنون من واحد إلى واحد، حتى ملأت ساحاتها ومقاهيها ومعابدها ووزاراتها، والناس بين مصدّق ومكذّب، وذاهل ومتسائل.

وفي القاهرة حملت أمواج الأثير إلى سائر أرجاء الدنيا النبأ المثير . . «الملك حسين وصل فجأة إلى مطار القاهرة، وكان الرئيس عبد الناصر في استقباله، وهما الآن في اجتماع مغلق في قصر القبة».

وكان هذا الخبر هو خبر الساعة في الوطن العربي كله، وفي كل بقعة من بقاع العالم، حيث تقرأ الصحف ويضاء التلفزيون أو يسمع الراديو.

وقد سبق للملك أن زار القاهرة مرات ومرات، واجتمع بالرئيس عبد الناصر في عدة مناسبات . . ولم يكن وصوله إلى القاهرة مثيراً للاهتمام، أو باعثاً على الدهشة والعجب . . بل إن كثيراً من زياراته لا تعدو أن تكون عبارة واحدة: «الملك حسين وصل القاهرة»، وليست أكثر من مبتدأ وخبر . . كما يقول طلاب المدارس الابتدائية.

ولكن وصول الملك الحسين إلى القاهرة وفجأة . . . وفي آخر شهر أيار/ مايو، كان حدثاً من الأحداث الجسام، طبع بصمات عميقة على مسيرة الأيام التالية . . ولم يبق على حرب الأيام الستة . . إلا ستة أيام . . وسقط القدر بكامله في اليوم السابع!!

وكانت الدهشة بالغة العجب في كل مكان . . ولكن مجيء الملك حسين إلى القاهرة كان أبلغ دهشاً وعجباً في الوطن العربي . . فلم يكن أحد يتصور أن يخرج الرئيس عبد الناصر من منزله في منشية البكري وبرفقته المشير عبد الحكيم عامر

ليكون في استقبال الملك حسين، ويضمه بين ذراعيه، ويطبع على وجنتيه قبلة التحية التي أسماها مؤرخو حرب الأيام الستة من أنصار الصهيونية في ما بعد «بالقبلة التاريخية القاتلة».

وكان السبب في العجب، وإذا عرف السبب بطل العجب، أن العلاقات بين القاهرة وعمّان كانت على أقسى حال من التدابر والتناحر. وكان عبد الناصر يتهم الملك حسين بالعمالة والخيانة، وكانت إذاعة القاهرة تندّد بالملك حسين، وبأمه وأبيه، وأسرته التي تؤويه، كما كانت إذاعة الأردن تنهش عبد الناصر بلا حساب.. وشتان بين الموقفين، فالملك حسين في قفص الاتهام، وعبد الناصر في كرسي النائب العام.. والجماهير تتندر وتسمر على هذا الحوار وهي متكئة على سدة الحكم.

ولكن مجيء الملك حسين إلى القاهرة في صبيحة ذلك اليوم كانت له قصة فريدة بذاتها خفيت أسرارها حتى على الذين يظنون أنهم يعرفون بواطن الأمور.. أو يعرفون الواقع قبل وقوعه.

ففي عمّان لم يكن يعرف أمرها إلا الملك حسين ورئيس وزرائه سعد جمعة ورئيس الأركان اللواء عامر خماش.. وفي القاهرة كان علمها عند اثنين، أو عند إنسان واحد مؤلفاً من شخصين: الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر.. وانضم إليهما ثالث في ما بعد، هو اللواء عبد المنعم رياض معاون القائد العام للقيادة العربية الموحدة.

وقد بدأت القصة في أوائل العشرينيات من شهر أيار/ مايو حين كانت الأمة العربية تقف على أطراف أصابعها مشدودة بكل جوارحها إلى إذاعة القاهرة وهي تتحدث عن سحب قوات الطوارئ الدولية واحتشاد القوات المصرية، تسبقها وتلحقها الأناشيد الوطنية وفي طليعتها النشيد الشهير «الله أكبر».

ففي الواحد والعشرين من الشهر وصل إلى القاهرة اللواء عامر خماش رئيس أركان الجيش الأردني، وأعلن رئيس الوزراء سعد جمعة في بيان رسمي أن الحكومة الأردنية «طبقاً لتوجيهات الملك حسين بن طلال أوفدت اللواء عامر خماش لإجراء مباحثات مع القيادة العربية الموحدة».. غير أن الحقيقة كانت غير ذلك.. بل إن مجلس الوزراء لم يكن يعرف الحقيقة... ولكنه بيان رسمي.. وأعذار رسمية لا تستند إلى الواقع لسببين كبيرين: **الأول** أن القيادة العربية الموحدة كانت قد جمدت منذ العام الماضي، و**الثاني** أن الأردن قاطع القيادة العربية الموحدة على غير جدوى، كما لم تفلح كل المحاولات المخلصة لحمل الأردن على العودة إلى الحظيرة العربية والالتزام بمقررات مؤتمرات القمة.

وكانت القيادات الشابة في الجيش الأردني هي السبب في رحلة اللواء خماش إلى القاهرة.. فقد وصل إلى علم الملك حسين أن مجموعة تعرف «بالضباط الأحرار» قد بدأت تتساءل عن دور الجيش الأردني في المعركة، وقد أصبح الجيشان السوري والمصري يواجهان الجيش الإسرائيلي.. وتصايح الجيش الأردني في ثكناته: ونحن هل نبقى في الخنادق، وإخواننا في السلاح يتواثبون إلى الميدان.. وبأي وجه نقابل شعبنا، بل نساءنا وأولادنا؟!»

ولم يكن أمام الملك حسين إلا أن ينحني أمام العاصفة الجارفة، وبخاصة بعد أن رأى أن الشعب في الأردن يعيش جو المعركة صباح مساء، وأن جماهير اللاجئين قد بدأوا يقلعون أوتاد خيامهم ليعودوا إلى مدنهم وقراهم في موكب النصر والتحرير، بعد أن سلخوا عشرين عاماً طوالاً يحنّون شوقاً إلى الديار.

ومن غير أن يذهب اللواء عامر خماش إلى السفارة الأردنية في القاهرة، فقد توجه في «غزوة خاطفة» إلى مبنى القيادة العربية الموحدة رأساً من مطار القاهرة الدولي.. وهناك اجتمع باللواء عبد المنعم رياض، وهو من الضباط المقربين من الرئيس عبد الناصر، وأفضى إليه برغبة الملك حسين في زيارة القاهرة وتنسيق الموقف مع الرئيس عبد الناصر، وأن الأردن مستعد أن يضع كل طاقاته في المعركة.. والمعركة أصبحت على الأبواب..

وعاد اللواء عامر خماش إلى عمّان في صباح اليوم التالي (٢٢/ ٥/ ١٩٦٧) وصدر البيان الرسمي من رئاسة مجلس الوزراء الأردني، مصراً على الأسباب الكاذبة نفسها، ليعلن: «أن اللواء عامر خماش قد ذهب إلى القاهرة في مهمة رسمية تتعلق بتنسيق المجهود العربي مع القيادة العربية الموحدة»، والقيادة العربية الموحدة بريئة مما يزعمون.

وكان موقفاً عسيراً على الرئيس عبد الناصر أن يستقبل الملك حسين في القاهرة بعد تلك الخطب الهادرة التي تحدث فيها عن الحسين «الصغير، العميل، الخائن، وريث العمالة والخيانة.. »، ولكن الرئيس عبد الناصر كان واقعياً بمقدار ما كان مثالياً حين تفرض الظروف.. وأي ظروف أشد قهراً من المعركة المقبلة على الأمة العربية؟.. بل كيف يمكن أن تكون المعركة أصلاً من غير الأردن، وهو يطل على إسرائيل تدميراً وتمزيقاً، وإفناء وتحريقاً؟

ومضت بضعة أيام وعبد الناصر يلوك هذا الأمر في نفسه.. غير أنه لم يستطع أن يبلع شيئاً واحداً بعد أن مضغه ومضغه مرات ومرات.. لم يستطع أن يرى الملك حسين في القاهرة ومعه رئيس ديوانه وصفي التل، وهو الذي تولى حملة التشهير على

الرئيس العربي، حين كان رئيساً للوزراء أيام العدوان الإسرائيلي على قرية السموع، ونزل فيه نزلة مالك في الخمر.. فاتهمه بالجبن والتقصير، والتواطؤ مع إسرائيل.. ورمتني بدائها وانسلت!!

وانتهز الرئيس عبد الناصر فرصة لقائه بالعمال العرب (٢٦/ ٥/ ١٩٦٧) وهو الذي يعرف كيف يدير كل فرصة، فوجّه في خطابه كلاماً كان بمثابة جواب إلى الملك حسين، من دون أن تعرف الجماهير العربية معنى ذلك الكلام، ومن دون أن تفهم القصد والمقصود.

لقد قال عبد الناصر، من غير أن يشير إلى الملك حسين بالاسم أو بالجسم: «إحنا النهار ده مستعدين والجيش السوري والجيش المصري يمثلوا جبهة واحدة، ونتمنى أن كل الجبهة إللي موجودة حول إسرائيل أن تكون جبهة واحدة، بنتمنى هذا، ولكن هناك عقبات في الوقت الحالي.. طبعاً وصفي التل جاسوس عند الأمريكان وجاسوس عند الإنكليز لا يمكن أن أنا أتعاون مع هؤلاء الجواسيس بأي شكل من الأشكال لأن المعركة هي معركة مصير ولا مجال للجواسيس في هذه المعركة.. نتمنى أن تكون جبهة واحدة حول إسرائيل».

وقد أراد الرئيس عبد الناصر أن يحقق هدفين، وأن يرمي بحجر واحد عصفورين.. أراد **أولاً** أن يهيىء الرأي العام العربي لأن يكون الأردن في الجبهة العربية الواحدة.. حتى لا يفاجأ بعودة الملك حسين إلى الحظيرة العربية، ولا يرى في لقاء عبد الناصر والحسين أمراً مستنكراً، وأراد **ثانياً** أن يخاطب الملك حسين علناً بأن: «وصفي التل العميل الجاسوس» لا مكان له في هذه المعركة.. وبالتالي لا مكان له في هذا اللقاء.. في القاهرة.

وتم تبادل الإشارات والرسالات السرية بين القاهرة وعمّان حول الموعد وأشخاص الوفد ومواضيع البحث.. ووصل الملك حسين إلى القاهرة في صباح الاثنين (٣٠/ ٥/ ١٩٦٧) ليجد في استقباله في المطار الرئيس عبد الناصر والمشير عامر وثلاثة آخرين من رجال الدولة، من غير استقبال رسمي ولا شعبي.. ولم يكن الملك حسين يطمع بأكثر من هذا، فتلك عنده هي فرحة العمر.

وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم دق جرس التلفون في مكتبي في رنين متواصل منبعث من تلك الحقبة التاريخية.. وإذا بسامي شرف مدير مكتب الرئيس عبد الناصر يحدثني من قصر القبة.

قال: «سيادة الرئيس يدعوك إلى قصر القبة، ضروري، حالاً».

قلت: «خيراً إن شاء الله.. هل أستطيع أن أعرف الموضوع».

قال: «أرجو أن يبقى الأمر سراً، الآن، «صديقك» الملك حسين وصل القاهرة.. ستتم مباحثات مهمة بينه وبين سيادة الرئيس.. وطبيعي، حضورك ضروري للاشتراك في المباحثات».

قلت: «أنا أفضّل أن أتريث بعض الوقت، فإن نجحت المباحثات، يمكنني أن أحضر في ما بعد.. وأنت تعرف ما قد وصلت إليه الأمور بين المنظمة والملك حسين».

قال: «من فضلك، انتظر على الخط، دقيقة واحدة وبس».

وبقيت ممسكاً سماعة التلفون، وإذا بالرئيس عبد الناصر على التلفون يتكلم.

قال: «يا أخ أحمد.. الملك حسين معانا في قصر القبة.. وحضورك ضروري.. ونحن نأمل أن نصل إلى اتفاق.. وأن يزول سوء التفاهم بين الملك والمنظمة.. على كل حال حينما تأتي سأشرح لك الموقف».

قلت: «سأتوجه الآن إلى قصر القبة.. إنما أرجو أن أرى سيادتك على انفراد أولاً».

قال: «طبعا.. هذا في نيتي».

وخرجت من مكتبي في حي الدقي.. وهمست في أذن زملائي أعضاء اللجنة التنفيذية بخلاصة حديث الرئيس عبد الناصر، وطلبت إليهم انتظاري إلى أن أعود.. فما عدت إليهم.. بل ما رأيتهم إلا.. إلا بعد الكارثة بأيام وأيام.. وذلك له حديث الشؤون والشجون!!

وانطلقت السيارة في شوارع القاهرة المزدحمة، وأنا أكاد لا أرى الشوارع ولا الجماهير، ووصلت إلى حدائق القبة، وهي تفوح بالأريج، فما أبصرت الأشجار ولا سمعت بلابل الأطيار.. فقد كان عقلي قد سبقني إلى قصر القبة، وحقاً أن المرء يبصر ويشمّ ويسمع بعقله، قبل أنفه وعينيه وأذنيه!!

ودخلت القصر، وقادني رجال التشريفات إلى غرفة مجاورة لمكتب الرئيس.. ودخل الرئيس عبد الناصر يحدثني واقفاً، وكأنما يوحي إليّ بأن الوقت قصير.. ولا يحتمل الشرح والإيضاح، وأوجز «قصة» مجيء الملك حسين إلى القاهرة: «وأننا في ظروف حرب.. وأن كل الدلائل تشير إلى أن إسرائيل ستهاجمنا.. وأن الجبهة الأردنية تؤلف أهم محور في هذه المعركة.. وأن الموقف لا يحتمل التردّد والانتظار..

وأن الظروف تفرض عليّ وعليك وعلينا جميعاً أن يكون الملك حسين معنا في هذه المعركة» . . وبدأ الرئيس عبد الناصر يسير في خطواته عند آخر كلماته في طريقه إلى الباب، وإلى مكتبه الخاص . . وأنا أسير وراءه ساهماً واجماً، وأطياف المعركة وأحلام النصر وآمال التحرير وأماني العودة، أفقدتني كل إرادتي، ورأيتني في داخل الصالة وجهاً لوجه أمام الملك حسين . . وكانت لحظة عنيفة تماسكت خلالها الخفقات والنبضات . . وتبلد الإحساس، وانحبست الأنفاس.

ومدّ الملك حسين يده مصافحاً، ومددت يدي مصافحاً، وكان المشهد بارداً كأننا في مسرحية باردة، غارقة في التفاهة.

وصاح المشير عبد الحكيم عامر: «يا جلالة الملك عاوزين نزيل سوء التفاهم . . يا أخ أحمد لازم تتفاهموا وتتعانقوا . . ».

وأقبل عليّ الملك حسين، بالعناق . . وبادلته بالعناق . . وجلسنا جميعاً في أماكننا . . الرئيس عبد الناصر والمشير عامر والملك حسين . . وخيّم على الغرفة، بعض الوقت، جو من الصمت تقطعه نفثات المدخنين . . والقدر سميع رقيب.

وتحدث الرئيس عبد الناصر، وكسر جو الصمت . . فأشار إلى الظروف الراهنة وضرورة التحام جميع القوى العربية وحشدها في المعركة، وطلب أن ندخل في بحث أسباب الخلاف ونعمل على إزالتها.

فقلت: «نحن الآن أمام معركة، ولا داعي للتفصيل في أسباب الخلاف . . لقد بدأت مسيرتي مع الملك حسين في صدد إنشاء الكيان الفلسطيني بكل انفتاح، وقدمت له كل التطمينات المعروفة بأننا لا نريد أن نتعرض للكيان الأردني، ولا أن نسلخ الضفة الغربية عن الشرقية، ولا نمارس أي سيادة أو سلطة، وأن كل الذي أردناه هو تحقيق مطالبنا المعروفة: التجنيد الإجباري، تحصين القرى الأمامية، التدريب الشعبي، الدفاع المدني . . أما على الصعيد العام، فقد كان رأينا العمل على تنفيذ توصيات القيادة العربية الموحدة في ما يتعلق بدخول القوات العراقية والسعودية إلى الأردن، وإنشاء مطارين عسكريين . . و . . و . . ».

وقاطعني الرئيس عبد الناصر قائلاً: «جلالة الملك موافق على دخول القوات العراقية، وسأتصل اليوم بالرئيس العراقي عبد الرحمن عارف لأبلغه بذلك . . ونأمل أن تصل وحدات الجيش العراقي إلى الأردن في خلال يومين أو ثلاثة».

وعقّب المشير عبد الحكيم عامر قائلاً: «يا أخ أحمد . . عفا الله عما سلف . . نحن الآن كلنا إخوان . . يجب أن نعبئ كل جهودنا في معركتنا مع إسرائيل . . كل التقارير

عندنا تشير إلى أن إسرائيل ستبدأ الحرب قريباً.. ربما غداً.. ربما بعد غد.. من يدري؟.. فليس عندنا وقت للعتاب على الماضي.. نحن اليوم أبناء اليوم».

قلت: «إن خلافي مع الملك حسين من أجل المعركة.. وليس من أجل أي شيء آخر».

وقال الملك حسين: «إن الأخ أحمد يعرف أسباب خلافنا مع المنظمة.. على كل حال.. نحن جميعاً مسؤولون عما جرى.. أنا أحمل خمسين في المائة من المسؤولية.. والأخ أحمد الخمسين في المائة الباقية».

قال الرئيس عبد الناصر: «وماذا يقول الأخ أحمد؟؟».

قلت: «بل أنا أحمل كل المسؤولية.. أنا المسؤول عن كل الأخطاء.. نحن الآن نواجه المعركة مع إسرائيل.. وأنا أعتذر لجلالة الملك حسين عن كل الأخطاء.. وأنا مستعد أن أسير خلفه، وكل ما أطلبه أن نفتح صفحة جديدة، بكل صدق وإخلاص».

قال الملك حسين: «وأنا موافق من جانبي أن تبدأ المنظمة نشاطها بالتعاون والتنسيق.. وسنفتح مكتب المنظمة في القدس». وكانت السلطة الأردنية قد أقفلته بالشمع الأحمر قبل عام[1].

قال الرئيس عبد الناصر: «الحمد لله أنكم تصافيتم بسرعة.. والواقع أنه ليس بينكم أي خلاف جوهري.. وأنا أقترح أن يسافر الأخ أحمد إلى عمّان بعد بضعة أيام للتنسيق مع جلالة الملك».

قلت: «بل إني أرى أن أسافر اليوم ومع الملك حسين في طائرته.. الأمر لا يحتمل التأجيل.. المشير عامر ذكر أن المعركة واقعة قريباً.. فلماذا الانتظار والتأجيل؟».

وسكت الملك حسين، ووجهه لا ينم عن الرضا.. ولكن جو الحديث لم يسمح له أن يقول: لا، وإن كانت قسمات وجهه كانت تقول: لا، لا.

واستطرد الرئيس عبد الناصر ليقول: «إن شاء الله تنتهي هذه المعركة بتحرير فلسطين.. ونحن من جانبنا موافقون على إلحاق قطاع غزة بالأردن تحت حكم جلالة الملك.. وما رأي الأخ أحمد؟ أليس كذلك؟؟».

---

(١) أحمد الشقيري، **على طريق الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٢). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قلت: «والله، أنا لا أملك إلا نفسي.. قطاع غزة هو لأهل القطاع وللشعب الفلسطيني.. والشعب الفلسطيني هو الذي يقرر مصيره.. أنا من جانبي مستعد لأن أبايع الملك حسين على التحرير، إذا خاض الملك حسين معركة التحرير، وحقق الله الآمال، وكل ما أستطيعه أن أناشد الشعب على أن يبايع الملك حسين ملكاً على البلاد والعباد.. ونسأل الله النصر».

وعاد الرئيس عبد الناصر إلى الكلام عن قطاع غزة، كمن يقدم طبقاً من الحلوى إلى طفل صغير، فقال: «قطاع غزة جزء من فلسطين، ولازم ينضم إلى الضفة الغربية، والملك حسين أولى أن يحكمه من أن يحكمه المشير عامر.. أليس كذلك؟».

فأجاب المشير عامر (وكأن قطاع غزة من اختصاصه): «نحن غير مستفيدين من قطاع غزة بأي حاجة.. وإذا كان الملك حسين يريد نضم إليه العريش!!».

وانفرجت أسارير الملك، وساد الاجتماع جو من الانفتاح، وطلب الرئيس عبد الناصر إلى رجال التشريفات أن «يتفضل الإخوان»، فدخل زكريا محيي الدين وعلي صبري، نائبا الرئيس، ومحمود صدقي سليمان رئيس الوزراء، واللواء عبد المنعم رياض... ودخل معهم سعد جمعة رئيس الوزراء الأردني، واللواء عامر خماش رئيس الأركان.. وتحول الاجتماع إلى مؤانسة ومباسطة، بعد أن انتهت المصالحة.

وحان موعد الغداء، فاستأذنت لأنصرف إلى بيتي، وأعود بحقيبتي حتى أسافر إلى عمّان مع الملك بطائرته، وتحت قيادته.

فقال الرئيس عبد الناصر: «ونحن في هذه الفترة سنعد معاهدة الدفاع المشترك بيننا وبين الأردن، لنوقعها في جلسة رسمية، ونذيعها اليوم... فالجماهير العربية تنتظر النتيجة بعد أن أصبح معروفاً في كل أرجاء العالم أن الملك حسين هو معنا.. وأرجو الأخ أحمد ألا يتأخر عن الساعة الثالثة... وإلا «مازحاً» فإننا سنرسل اللواء عامر خماش ليأخذك بالقوة».

قلت: «سأكون في الموعد المحدد... وأخشى إذا جاءني اللواء عامر أن يخطفه رجال المنظمة».

ومثل السهم المارق المنطلق انطلقت سيارتي مخترقة الشوارع والساحات، والجماهير في لهفة وراء الأخبار.. وفي عقلي مئة سؤال وسؤال.. وأنا لا أملك جواباً واحداً... فقد انغمر فكري تحت سطح التيار المتدافق من الأحداث، حتى لم يعد عقلي موجوداً ولا صاحبه مولوداً.

وصلت إلى منزلي، فوجدت زوجتي إلى جانب الراديو تستمع إلى إذاعة القاهرة، وهي مشدوهة بما تسمع.

وقالت: «وكيف جاء الملك؟ . . . وكيف استقبله الرئيس عبد الناصر؟؟».

قلت: «ستعرفين كل شيء في ما بعد . . أريد حقيبتي . . أريد وجبة عاجلة من الطعام . . وسأعود إلى قصر القبة . . أنا مسافر إلى عمّان مع الملك حسين».

قالت: «وكيف تسلّم نفسك إلى الملك حسين . . ألا تخاف من الغدر و . . و . ؟؟».

قلت: «اتكلي على الله . . . ما فائدة صلاتك إذا كنت لا تؤمنين بقوله تعالى: ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾[٢] صدق الله العظيم؟

وأعدّت زوجتي الحقيبة التي رافقتني في أسفاري قرابة ربع قرن من الزمان . . والتهمت لقيمات من الطعام لا أدري كيف مضغتها، وخرجت من المنزل، وزوجتي مطرقة لا تطيق الكلام والوداع . . وقالت: «الله معك»، وما زادت.

ودخلت قصر القبة، ووجدت الصالة الكبرى وقد ركزت فيها أجهزة التلفزيون، واتخذ المصورون مواقع استراتيجية لتصوير الحدث الخطير الكبير في حفل توقيع اتفاقية الدفاع المشترك بين القاهرة وعمّان . . وبالذات بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين.

وكان كل شيء جاهزاً . . الاتفاقية على نسختين، الوفدان العربي والأردني، والوجوه المبتسمة على استعداد للتصوير . . ولكن شيئاً واحداً كان ينتظر الفتوى من رجال البروتوكول . . وكان الموضوع البروتوكولي، أين يجلس الشقيري . . مع الوفد العربي؟ . . . مع الوفد الأردني . . ؟ أم هل يجلس وحده، وأين . . ؟.

وقلت: «لا أجلس في أي مكان . . هذه حفلة لتوقيع اتفاقية الدفاع المشترك، ولست فريقاً في هذه الاتفاقية، فنحن لا دولة ولا وطن».

وأصرّ الرئيس عبد الناصر والملك حسين «بالإجماع»على أن أحضر، وأجلس، وأخطب، واقترح الرئيس عبد الناصر أن أجلس مع الوفد العربي . . وعارض الملك حسين وأصرّ على أن أجلس مع الوفد الأردني . . وهكذا كان، فقد أجلسني رجال التشريفات بجوار الملك حسين مباشرة، ومن بعدي رئيس الوزراء الأردني سعد جمعة . . وهكذا جلست.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ٥١.

ودخل سامي شرف مدير مكتب الرئيس، يحمل الاتفاقية، ووقّعها الرئيس عبد الناصر والملك حسين.. تحت أضواء المصورين والمتلفزين.. وإذاعات القاهرة مفتوحة على الهواء.. الهواء الذي كان يتنفسه مائة مليون عربي في تلك اللحظات التاريخية.

وجاء دور الخطابة، وهي المهارة الكبرى التي حذقناها في ميدان العمل الوطني.. فخطب الملك حسين في صوت خافت، وقال: «الحمد لله أن وفقنا الله وجعلنا الآن في مستوى المسؤولية نواجه التحدي والعدوان، أمة واحدة، ويداً واحدة وقلباً واحداً.. أملنا كبير في أن نتمكن من الوصول إلى أهدافنا، والحفاظ على أرضنا واستعادة حقوقنا ومجابهة التحدي بقوة، بعزم، بتصميم.. أشكر لأخي أنه أتاح لي الفرصة حتى نلتقي وحتى نتوصل إلى هذه النتائج.. وأنا واثق من أن هدفنا قريب وحانوصل له.. وأرجو أن أغتنم هذه الفرصة لأنقل إلى سيادتك وإلى إخواني في الجمهورية العربية المتحدة تحيات ومحبة ومساندة كل أعضاء الأسرة الأردنية في هذا الظرف وأشكرك على كل شيء».

«أشكرك على كل شيء.. وأشكر لأخي أنه أتاح لي الفرصة اليوم حتى نلتقي».. كان ذلك كل ما يطمع فيه الملك حسين.. مجرد الاجتماع بالرئيس عبد الناصر.. وكذلك كان حال سائر الملوك والرؤساء.. فالقومية العربية في أوج عزها، وتباشير النصر تلوح في الأفق.. وبادروا أيها الملوك والرؤساء للحاق، ولو بذيل الموكب، قبل أن يفوت القطار في طريقه إلى تل أبيب.

وألقى الرئيس عبد الناصر كلمة مكتوبة أعرب فيها عن شكره للملك حسين «للخطوة التي اتخذتموها والمبادأة التي قمتم بها للقيام بهذه الزيارة إلى القاهرة.. كانت هناك بعض الخلافات، ولكن موقف الأمة العربية اليوم يحتم على الرجال أن يتخذوا هذا الموقف.. ولقد اتفقنا اليوم منذ بدأت مباحثاتنا في الصباح سياسياً وعسكرياً، واتفقنا على كل شيء.. يقف الجيش المصري والجيش الأردني والجيش السوري والجيش اللبناني على حدود إسرائيل ومن ورائنا الجيش العراقي والجيش الجزائري والجيش الكويتي والجيش السوداني والأمة العربية كلها.. إن هذا العمل يذهل العالم اليوم.. والقضية ليست خليج العقبة، ولكن هي قضية حقوق فلسطين.. وأشكرك مرة أخرى أيها الأخ العزيز وأرجو لك التوفيق وللشعب الأردني الشقيق كل عزة وكل توفيق.. ».

وأمسك الرئيس عبد الناصر المذياع ووضعه أمامي لأتكلم.. وأنصت الحاضرون لما عسى أن أقول، وهم يحسبون أني سألقي واحدة من خطبي الطويلة،

ونحن في هذه المناسبة التاريخية.. غير أن هذه المناسبة التاريخية نفسها هي التي أوحت إلي أن ألقي أقصر خطبة ألقيتها في حياتي.

أمسكت المذياع بيدي وألقيت كلمات قصيرات، قلت: «أدعو الله تعالى العلي القدير أن ينتقل هذا الاتفاق من الورق إلى الميدان، بكل أمانة، وبكل شرف، وبكل إخلاص».. وما لقيت عربياً أو أجنبياً في ما بعد، إلى يومنا هذا إلا ويذكرني بتلك الخطبة الموجزة، ويا ليتني لم أخطب، ولم أكن في ذلك الموكب.

ودهش الرئيس عبد الناصر، وأنا أزيح المذياع من أمامي، وهو يقول: «بس كده.. كنا عاوزين نسمع خطبة شقيرية».

قلت: «المعركة على الأبواب.. وشاعرنا يقول: «تكلم السيف فاسكت أيها القلم».

ونهض الوفدان يتصافحان، ويتعانقان، وأصابني من المصافحة والعناق نصيبان: نصيب من الوفد العربي، وآخر من الوفد الأردني.. والربح في ذلك اليوم خسران.

وأراد الرئيس عبد الناصر أن يضفي مزيداً من الرهبة على الرأي العام العالمي، فاقترح أن نذهب جميعاً إلى مقر القيادة العامة للجمهورية العربية المتحدة الجديدة قبل أن يسافر الملك حسين إلى عمّان.. وكان ذلك.

واخترق موكب السيارات الطريق من قصر القبة إلى مقر القيادة، والتاريخ معنا يسمع ويكتب، والقدر يراقب ويعجب.. حتى وصلنا إلى ذلك المبنى الفخم، وحملتنا المصاعد إلى الصالة الكبرى التي تعقد فيها الاجتماعات العسكرية وتقرر الخطط الحربية.

ومكثنا ساعة من الزمن، فشربنا القهوة.. وتبادلنا الأحاديث في كل شيء.. إلا المعركة.. فقد أودعناها في اتفاقية الدفاع المشترك!!

وفي مقر القيادة عاد موكبنا إلى مطار ألماظه العسكري، ووقفنا بضع دقائق في مجاملات الوداع، وأطيب التحيات وأصدق التمنيات.

ومال إليّ المشير عبد الحكيم عامر، وقال: «كده مسلم روحك ويّا الملك حسين.. ولا معك سكرتير ولا حارس؟».

قلت: «الملك حسين هو الذي يحتاج إلى حارس.. أما أنا فلست في حاجة.. كل شاب في الأردن هو حارسي وهو سكرتيري».

ودخلنا الطائرة، الملك حسين وأنا من ورائه، وأقلعت بنا في الجو، ومن حولنا

طائرات الميغ المصرية، للتحية، وعبد الناصر على الأرض يلوّح بذراعيه الطويلين، وحلقت بنا الطائرة فوق القاهرة ذات الألف مئذنة، وقلبي يهتف بالدعاء: «يا رب نصرك الذي وعدتنا».

وتولى الملك حسين قيادة الطائرة، وجلست في مقعدي أتصفح اتفاقية الدفاع المشترك، فلم أجد فيها جديداً، بل إني وجدتها من حيث الصياغة دون مستوى ميثاق الجامعة العربية وميثاق الضمان الجماعي.. وتذكرت ما كان يكتب عساكرنا في الدولة العثمانية حينما يسطرون رسائلهم إلى ذويهم.. ويذيلونها بالعبارة المألوفة: «عدم المؤاخذة، ، حرر على عجلة!!».

حقاً إني لم أجد جديداً في الاتفاقية الجديدة، وقد حررت على عجلة.. لقد نصّت المادة الخامسة على: «إنشاء مجلس دفاع مكوّن من وزيري الخارجية والدفاع في كل من البلدين.. يجتمع دورياً كل ستة أشهر.. » وحكمت الأقدار ألا يجتمع هذا المجلس إطلاقاً.

ونصّت المادة السادسة كذلك على: «إنشاء مجلس رؤساء الأركان يجتمع دورياً كل ثلاثة أشهر.. »، وكان نصيبه كنصيب مجلس الدفاع.. وارتهما حرب حزيران/ يونيو قبل الميلاد.

وألقيت بالاتفاقية على المقعد المجاور، فقد سئمت قراءة الاتفاقيات العربية.. وخرج الملك حسين من غرفة القيادة وجلس إلى جواري.

وسأل بصوت يتجاوز عمره بعشرين عاماً أو يزيد: «وهل الأخ أحمد مبسوط؟.. لقد اتفقنا مع الرئيس عبد الناصر».

قلت: «أنا نصف مبسوط».

قال: «لماذا.. لقد حققنا كل ما تريد.. القوات العراقية والسعودية ستدخل الأردن.. وقد أنشأنا قيادة مشتركة تحت إمرة اللواء عبد المنعم رياض، وسيصل غداً أو بعد غد إلى عمّان».

قلت: «نعم هذه الأمور هي الأمور التي تجعلني نصف مبسوط.. ومن غيرها أنا غير مبسوط».

قال: «والبسط الكامل كيف يتم؟».

قلت: «نحن الآن في الجو أقرب إلى الله.. وأنا معك بكل إخلاص وتأييد.. وإني أرى أن تتصل تلفونياً الليلة بقوات جيش التحرير الفلسطيني في درعا لتدخل

الأردن، ولتكن تحت قيادة اللواء عبد المنعم رياض، شأنها في ذلك شأن القوات الأردنية».

قال: «أخشى أن يثير هذا الموضوع حساسيات معينة في الجيش الأردني.. وخصوصا أننا نحن على أبواب معركة».

قلت: «ولكن الجيش الأردني نصفه من الفلسطينيين، ونصفه الآخر من «الأردنيين» ولا توجد بينهما حساسيات.. إنهم أبناء وطن واحد وشعب واحد».

قال: «اترك لي فرصة من الوقت أفكر في صيغة مقبولة، وأتشاور مع إخواننا العسكريين».

قلت: «الصيغة سهلة.. إني مستعد لأن أعلن باسم منظمة التحرير أن القائد الأعلى لجيش التحرير الفلسطيني هو الملك حسين.. وأنا حاضر لأن أذيع ذلك بنفسي من الإذاعة الأردنية غداً».

قال: «الجبهة العربية واحدة.. ومن الأفضل بقاء جيش التحرير في الجبهة السورية».

قلت: «الجبهة السورية قصيرة الحدود، كثيرة الجنود.. خط الهدنة السورية ـ الإسرائيلية لا يتجاوز سبعين كيلومتراً.. والخط الأردني ـ الإسرائيلي لا يقل عن آلاف الكيلومترات.. ونحن في الأردن محتاجون إلى جيش يزيد على خمسة أضعاف الجيش السوري لو أمكن».

قال: «أظن أن الرئيس عبد الناصر لم يخبرك. أثناء الغداء اتفقنا مع الرئيس عبد الناصر على أن يرسل ثلاث كتائب من قوات الصاعقة المصرية.. وستكون في الضفة الغربية غداً أو بعد غد».

قلت: «نحن نعتز بهذه المبادرة في أن يكون إخواننا المصريون في وطنهم في الضفة الغربية.. ولكن أليس الأجدر أن يكون جيش التحرير الفلسطيني معهم، وهم من أبناء الضفة الغربية؟».

قال: «ولكن، أين يكون تمركز جيش التحرير؟؟».

قلت: «هذا أمر متروك لتقدير القيادة.. ولكني أفضل أن يكون جيش التحرير في داخل بيت المقدس».

قال: «ولماذا بيت المقدس، بالذات؟؟ عندنا خطة كاملة للدفاع عن بيت المقدس!».

قلت: «إذا وقعت الحرب، فسيكون بيت المقدس هو الهدف الأول لإسرائيل».

قال: «وهل يستطيع جيش التحرير أن يحمي المدينة.. إذا استطاعت إسرائيل التغلب على القوات الأردنية؟؟».

قلت: «نعم بالتأكيد.. إن إسرائيل لا تقدم على قصف المدينة المقدسة، لا من الطائرات ولا بالمدفعية، وستكون المعركة حرب شوارع.. ويستطيع جيش التحرير أن يقاتل وراء الأسوار، ومن الأسطحة، وفي الأزقة، بحيث يصبح اقتحام المدينة مستحيلاً.. على الأقل يمكننا الصمود أسبوعاً أو أسبوعين إلى أن يتدخل الرأي العام الدولي.. وتكون المدينة بأيدينا».

قال: «أترك لي فرصة لأبحث الموضوع مع القادة العسكريين».

قلت: «يا سيدنا.. إن معركة ستالينغراد هي معجزة التاريخ الحديث.. لقد قاتل الروس عن مدينتهم وراء كل جدار، بل وراء كل حجر.. ونحن نستطيع أن نجعل معركة القدس معجزة للبطولة العربية.. إن الشعب في القدس غير مدرّب على القتال، وعلينا أن ندخل جيشنا إلى كل بيت في القدس.. وعلينا ألا نسمح لإسرائيل باقتحام المدينة إلا بعد أن تصبح أكواماً من الجثث، وركاماً من الحجارة.. فالعار كل العار أن تستلمها إسرائيل، والمسجد الأقصى قائم على جدرانه.. يا سيدنا أنت تعرف أطماع إسرائيل في بيت المقدس، وأخشى أن يجدوا في هذه الأيام فرصتهم الذهبية».

قال: «أنا معك.. أعطيني فرصة لأفكر في الموضوع مع القادة العسكريين».

قلت: «يا سيدنا، والله لا داعي للتردد، أنا خائف على القدس».

ودخلنا الأجواء الأردنية، «وأنا خائف على القدس» ترتجف بها شفتاي.. ونهض الملك حسين من مقعده إلى غرفة الملاحين ليتولى بنفسه قيادة الطائرة.. وكانت فرصة مناسبة ليهرب مني ومن إلحاحي.. وأنَى له أن يهرب من التاريخ.

وحام الملك حسين بالطائرة عدة جولات فوق روابي عمّان، فرأيتها على غير العهد بها.. لقد سبقتنا الأخبار إلى الأردن، وماجت أمواج الأثير منذ الصباح الباكر بأخبار الملك حسين في القاهرة، وتوقيع معاهدة الدفاع المشترك مع الرئيس عبد الناصر، وتصفية الخلاف مع منظمة التحرير الفلسطينية، وأن الشقيري عائد مع الملك حسين في الطائرة الملكية.. وأن.. وأن..

وحدّقت بعمّان من تحتنا فرأيت عجباً عجاباً، وبحراً عباباً.. بحراً من البشر يغمر المدينة كأنه الطوفان الهادر.. كانت الروابي مزروعة بالأكتاف والرؤوس،

وكانت الشوارع كتلة بشرية متراصة، فلا ترى مواضع الأقدام.. وما أحسب أن عمّان سترى حشداً كهذا إلا يوم الحشر الأكبر.

وهبطت الطائرة في مطار عمّان، والخلائق في ساحاته ومن حوله، يعلو صياحها وهتافاتها فوق هدير الطائرة.. ووثب الملك حسين من غرفة القيادة ببزته العسكرية، وقد انتصبت قامته كمن قفز من القاع إلى القمة، وسار إلى باب الطائرة.. وإلى السلم، يؤدي التحية العسكرية، وأنا من ورائه أرفع يدي تحية للجماهير.

ودوى صوت المذيع الأردني، وهو يحمل الميكروفون بيديه في ساحة المطار، وصاح: «الله أكبر.. هذا هو المليك المفدى.. ومعه الأخ أحمد الشقيري.. الله أكبر.. الله أكبر»، وراح المذيع على غير وعي، يطلق صوته الهادر بهذه العبارة وأمثالها، ونحن ننزل سلم الطائرة.. والجماهير تصيح وتهتف، وتهلل وتكبر.. وانسابت الدموع من عينيّ، وأنا بين أحضان المستقبلين.. الأردنيين والفلسطينيين، ولم أرهم منذ عامين بعد القطيعة مع الحسين!!

واستقلّ الملك سيارته الملكية، وأنا وراءه في سيارة أخرى، وركب معي سعد جمعة رئيس الوزراء والوزير عاكف الفائز، وخرجنا من أرض المطار إلى الشارع الرئيسي، واخترقت الجماهير صفوف الجيش ورجال الأمن، وهجمت على سيارتي، يريدون اختطافي من السيارة.. ولم يعدلوا عن هذه المحاولة إلا بعد أن ناشدتهم «باسم فلسطين»، وأرادوا أن يقوموا بمحاولة أخرى.. أرادوا أن يخطفوني بالسيارة.. وهموا بحملها.. وصحت بهم من النافذة مرة أخرى «باسم فلسطين» أن يحملوا سيارة الملك حسين.

وقد أردت من ذلك أن أنجو بجلدي، وأن أكرّم الملك حسين، وأن أشعره بتعلق الشعب ومحبته، ليظل على العهد الذي قطعناه صباح اليوم في القاهرة.

وكان ذلك فعلاً.. فقد اتجهت جماهير الشباب إلى سيارة الملك حسين فحملوها، وكانت المرة الأولى في حياته وحياة الشعب.. إلى أن وصلوا به إلى الأبواب الخارجية للقصور الملكية.

وتابعت سيارتنا سيرها، وأنا احتجبت بين جمعة والفائز، والسائق يسير في هذا الزقاق، وفي الطريق الممنوع، وتحت هذه الربوة، وفوق هذا الوادي، حتى وصلنا إلى فندق إنتركونتنتال ورأساً إلى الجناح الملكي الفخيم.. وها أناذا أنزله لأول مرة.. وكانت آخر مرة.

وجلست على مقعد وثير، ألتقط أنفاسي.. ورحت أفكر في هذه الرحلة المثيرة، ماذا كان الحال قبلها، وماذا أصبح بعدها.

أنا الآن في عمّان، وكان ظني ألا أكون فيها إلا بمعجزات الزمان.. وها قد وقعت معجزة اللقاء بين القاهرة وعمّان، بين عبد الناصر والحسين.. بين المملكة الأردنية الهاشمية ومنظمة التحرير الفلسطينية.

ولم أسترسل طويلاً في ما كان وما سيكون، فقد شقت الوفود طريقها إلى الفندق، ونزلت إليهم وقد غصّت بهم ردهات الفندق، وأنا أتنقل من صالة إلى صالة، في تحيات وذكريات، وأحاديث عن الحاضر والمستقبل.

وكانت أحلى لقاءاتي حين احتضنني أصدقائي القدامى من خدم الفندق الذين كانوا يضفون عليّ سابغ رعايتهم في المطعم، وأقضي معهم ساعات حلوة من الحديث عن فلسطين.. عن أيامنا الخوالي، وذكرياتنا في الربوع الغوالي.. وما أغلى اللقاء مع الشعب وما أحلاه.

وانتصف الليل، ونحن في اللقاء والسمر، وكأنما الدنيا أحلام وأطياف، وقلوبنا مترعة بالأماني العذاب، والآمال الجسام.. فالمعركة مشبوبة النار، والأمة مشدودة الأوار، ونحن على الطريق إلى فلسطين.. حيث الراحة الكبرى والسعادة العظمى.. وخرجت أتهادى على هذه المنى، إلى غرفتي، لأنام طرفاً من الليل.. استعداداً لنهار حافل طويل.

وأغمضت جفوني، وأذناي تتجاوبان صيحات الجماهير، وتكبيرات الشعب، وهدير الطائرة التي أقلتني إلى عمّان، وكلامي إلى الملك حسين: «يا سيدنا أنا خائف على القدس».

ودعوت الله ألا يشملنا بقوله تعالى: ﴿**إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كل شيء قدير**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٣٩.

لــن تسقــط القــدس قبــل أن تسقــط رؤوسنــا

نامت عمّان ملء الجفون، وأرقت دمشق، وما غمضت منها العيون!!

كان ذلك عشية الثلاثين من شهر أيار/ مايو.. شهر الأخبار والأقدار.

لقد قضت عمّان ذلك اليوم وهي ترقص حتى كلّت الأقدام، وتهتف حتى جفّت الحناجر، وضجّ مجلس النواب الأردني بالقصائد والأناشيد، وتطريز برقيات التهنئة إلى الرئيس عبد الناصر والملك حسين، وهما يوقّعان اتفاقية الدفاع المشترك في قصر القبة في القاهرة.. ولا إن أزف الليل حتى هجعت المدينة لترقد على أحلى الأماني وأعز الآمال.

أما دمشق، فقد باتت مؤرقة المضاجع أمام المفاجأة الكبرى.. لقاء عبد الناصر والحسين.. وحينما أتحدث عن دمشق فإنما أعني حزب البعث في سوريا، فقد كان الشعب السوري متلاحماً في عواطفه مع الأمة العربية، يتجاوب مع الأحداث العربية بعقل واع وقلب مفتوح.

حقاً لقد كانت هذه «العملية» برمتها مفاجأة مذهلة لحزب البعث، فهو لم يكن يدري من أمرها شيئاً.. وعلم خبرها كما علم عامة الناس، ورأى فيها «خديعة» من قبل الرئيس عبد الناصر «وخيانة» للمسيرة الثورية والتقدمية، وطعنة لاتفاقية الدفاع المشترك بين القاهرة ودمشق، ولا تزال تواقيعها ندية طرية.. وتلك كانت عبارات رجال البعث من القيادة إلى القاعدة.. وناقل الكفر ليس بكافر.

وأحسب أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يستطيع أن يطلع حزب البعث على شيء في هذا الموضوع.. فهو خبير بحزب البعث وبأساليبه.. ومن المؤكد أن حزب البعث لم يكن ليوافق على أي لقاء بين الحسين وعبد الناصر حتى ولو في جنات الفردوس. فضلاً عن أن حزب البعث كان مستعداً، لو علم، لأن يقوم بحملة تخريب على هذه المحاولة. وذلك كان اقتناع عبد الناصر الذي أملى عليه ألا تعلم دمشق بشيء إلا في حينه.

ولم يكن الأمر في حاجة إلى دليل.. والدليل قائم في العشية التي سبقت سفر

الملك حسين إلى القاهرة. . ففي التاسع والعشرين من شهر أيار/ مايو وقف د. يوسف زعين رئيس مجلس الوزراء السوري يخطب في مؤتمر المحامين العرب في دمشق ليقول: «تقف الأمة العربية ويدها على الزناد، ولا تجد الرجعية العربية في عمّان والرياض وتونس إلا التظاهر بالتأييد والوطنية، وأن حرب التحرير لا يمكن إلا أن تسير في العواصم الرجعية وتسقط الأنظمة العميلة. . فليحاول تلميذ أمريكا النجيب ملك الأردن حفيد عبد الله أن يمنع أبناء فلسطين من النضال لاستعادة وطنهم، فلن تكون النتيجة غير انهيار عرشه الكرتوني».

ولقد كنت أشترك مع حزب البعث في تقييم الملك حسين والنظام الأردني أصلاً وفرعاً منذ أن قام قبل أربعين عاماً، ولكن الظروف كانت قاهرة من غير شك. . فقد كانت الأمة العربية «مجرورة» من ناحيتها إلى هذه المعركة، وكان حزب البعث هو «حرف الجر» الكبير الذي أمسك بالقاهرة من العنق. . ولم يكن أمام الرئيس عبد الناصر، في هذه الحالة، إلا أن يدفع الملك حسين إلى المعركة، ولو كان البعث هو الحزب الحاكم في القاهرة لصنع ما صنع عبد الناصر، وخرج للقاء الملك حسين بالدفوف والصنوج.

ولقد استطاع حزب البعث أن يكبح جماح الإذاعة في دمشق، فلم تهاجم لقاء عبد الناصر والحسين ولم تشتم. . ولكن حزب البعث، من القيادة حتى القاعدة قد اتخذ موقفاً عدائياً وشنّ حملة تشهير على اتفاقية الدفاع المشترك بين القاهرة وعمّان. وانتشرت صور كثيرة تجمع عبد الناصر والشقيري والحسين وكتب تحتها بالقلم العريض: «العملاء الثلاثة». . وقد فات حزب البعث في دمشق أنه بسياسته الغوغائية الهوجاء في العامين السابقين هو الذي كان سبباً في لقاء العملاء الثلاثة.

وكانت هذه المواقف البعثية، وغيرها من الأسباب، هي التي حملت الرئيس عبد الناصر أن يوفد بعثة إلى بغداد ودمشق في زيارة خاطفة للتفسير والتبرير. . وقد بدأت هذه الزيارة في اللحظة التي طار فيها الملك حسين من القاهرة إلى عمّان (٣٠/ ٥/ ١٩٦٧)، ولم تستغرق أكثر من اثنتي عشرة ساعة، وستين دقيقة.

وكان الوفد برئاسة زكريا محيي الدين نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة وعضوية أمين هويدي وزير الدولة، ود. حسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس عبد الناصر، والفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان القيادة العربية الموحدة.

ولم يجد الوفد المصري صعوبة في شرح الموقف للرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، فلم تتعد الجلسة أكثر من سرد الواقع. . ولكن الصعوبة كل الصعوبة كانت في معالجة التشنج في دمشق. . وكان على الوفد المصري أن يلتقي بوفد سوري كبير، فقد كان الموقف خطيراً، جد خطير.

وكان الوفد السوري مؤلفاً من د. نور الدين الأتاسي رئيس الدولة، واللواء صلاح جديد الأمين العام المساعد لحزب البعث، ود. يوسف زعين رئيس الوزراء، واللواء حافظ الأسد وزير الدفاع، واللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش، ومحمد عيد عشاوي وزير الداخلية، وعبد الكريم الجندي مدير مكتب الأمن القومي.. وهكذا كانوا سبعة أعضاء يمثلون سبعة أجنحة في الحزب الواحد، الرائد القائد.

ولم تتحرج صحف دمشق ذلك اليوم من أن تشير إلى أن هذه المباحثات قد تناولت بحث «التطورات والملابسات التي أحاطت بتوقيع اتفاق الدفاع المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن».

وقد استطاعت هذه الأبحاث أن تهدئ من انفعالات البعث.. ولكن صور «العملاء الثلاثة» بقيت معلقة حيث كانت.. إلى أن أزالتها حرب حزيران/ يونيو، وسقطت مرتفعات الجولان. وعلى نقيض الحال الذي كان في دمشق، فقد كانت عمّان تعيش في عرسها الكبير، فقد تجمع الناس حول مبنى مجلس الأمة الأردني الذي عقد جلسة استثنائية بمجلسيه النواب والأعيان، حيث تقدم رئيس الوزراء ببيان ضافٍ عن اتفاقية الدفاع المشترك، وأقرها المجلس بالإجماع، بالتصفيق والهتاف.

وكان التصفيق على أشده حينما قال سعد جمعة رئيس الوزراء الأردني في كلمته: «إذا كان يوم ١٥ أيار/ مايو يوم عار في تاريخ هذه الأمة فإن يوم ٣٠ أيار/ مايو قد غسل هذا العار.. وأننا نستطيع بعد توقيع هذه الاتفاقية أن ننام ملء جفوننا، لأننا لا نخشى إسرائيل وعدوانها، فجيشنا الموحّد كفيل بالقضاء على كل عدوان، وأن تباشير النصر تلوح في الأفق».. وهذه خطبة أخرى من مقامات الحريري.. يحسن أن تضم إلى الديوان.. ديوان خطب الملوك والرؤساء.

سمعت هذا الخطاب من راديو السيارة وأنا في طريقي إلى القصور الملكية لأجتمع بالملك حسين، ونبدأ خطة التعاون والتنسيق بين المنظمة والأردن، كما اتفقنا في اجتماع قصر القبة في القاهرة بحضور الرئيس عبد الناصر.

ولم يكن مع الملك حسين في مكتبه سوى «سيادة الخال» الشريف ناصر بن جميل، وسألني الملك حسين:

قال: «عساك نمت يا أخ أحمد هذه الليلة.. واسترحت؟؟».

قلت: «وأنى لي أن أنام، وعمّان يقظانة من حولي؟».

وقال الشريف ناصر: «مجلس الأمة وافق بالإجماع على اتفاقية الدفاع المشترك.. عساك مسرور؟».

قلت: «هذه خطوة طيبة.. ولكن المهم ألا «ننام ملء جفوننا»، كما قال رئيس الوزراء سعد جمعة قبل لحظة».

قال الملك: «صحيح.. يجب أن نزيد في استعدادنا».

قلت: «ومن دواعي الاستعداد، يا سيدنا، أن نبحث موضوع استدعاء جيش التحرير الفلسطيني من درعا إلى القدس، كما كلمتكم في الطائرة بالأمس».

قال: «لقد كنت أتشاور مع الشريف ناصر في هذا الموضوع قبل مجيئك، وسيدرسه مع القيادة في أقرب فرصة، ولكني أقترح عليك أن تزور مواقع الجيش الأردني في الضفة الأردنية لتطمئن إلى أوضاعنا العسكرية.. ولتتأكد أن القدس في أمان، ولن تسقط قبل أن تسقط رؤوسنا عن أجسادنا».

قلت: «أنا لا أفهم في الأمور العسكرية، يا سيدنا، ولكني مستعد لأن أقوم بهذه الزيارة لأجتمع بالضباط والجنود في خنادقهم وأتحدث إليهم».

قال: «الشريف ناصر يكون في رفقتك.. وأنا أقترح أن يكون ذلك غداً صباحاً».

قلت: «حسناً.. أنا أذهب اليوم إلى القدس لنفتح مكتب المنظمة، وأعود في المساء إلى عمّان».

قال (ضاحكاً): «إنه مقفل بالشمع الأحمر».

قلت: «سأحضر حفلة افتتاح المكتب، ونكسر الشمع الأحمر».

قال الشريف ناصر (متحدياً): «غداً الساعة الرابعة صباحاً.. عند الفجر.. أحضر إلى الفندق.. ممكن؟».

قلت: «لا، بل الساعة الواحدة بعد منتصف الليل».

وخرجت من القصور الملكية، عبر التلال والوديان، في طريقي إلى بيت المقدس، تاركاً ورائي عمّان تترنح بأحلامها، وتميد بأفراحها.

ووصلت إلى الحي الذي يضم مكتب المنظمة، فإذا بجمهرة من رجال البلاد ينتظرون ليشهدوا «حفل» فتح المنظمة وكسر الشمع الأحمر... وكان اللقاء حاراً وتحية دافئة.. وجاء رجال الأمن وفضّوا الأختام وفتحوا الأبواب، ودخلنا إلى مكاتبنا التي اشتملت أحاديثنا واحتوت آمالنا زمناً طويلاً.

ولقد أحزننا ما رأينا.. رأينا مكاتبنا ترثي حالها.. وتكاد الجدران تنطق مستنكرة هذا العبث الحقير الذي فشا فيها.. الخزانات كسرت أقفالها، وبعثرت أوراقها وملفاتها.. والطاولات مجرورة هنا وهناك، والتلفونات مقطعة خطوطها،

ومشاهد فلسطين المصورة محطمة على الأرض كأشلاء الشهداء.. والحال تماماً كحال القضية الفلسطينية مفككة الأوصال، مخلخلة الأطراف.

كان هذا بعض ما فعلته السلطة الأردنية في مكاتب المنظمة بعد أن شجر الخلاف مع الملك حسين، وكان ذلك، بالتأكيد، تقليداً، بل منافسة، لما كانت تفعله معنا سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين حين كانت تداهم بيوت الشعب في المدن والقرى، وتعيث فيها فساداً وخراباً.. وليتنا تعلمنا من الإنكليز غير الفساد والخراب.

وتركنا الخدم يصلحون ما أفسد الملك حسين.. وانصرفنا إلى فندق أمباسادور، وقد كان بيتي الثاني في عهد المنظمة، وتجمعنا في الصالة التي شهدت اجتماعاتنا ومداولاتنا، وأصبحت في مثل لمح البصر ندوة تضم قادة الشعب الفلسطيني، تقاطروا من مختلف أنحاء الضفة الغربية، جاؤوا ليسألوا أين تقف قضية فلسطين اليوم، وما مصيرها في الغد؟؟

ومن غير انتظار لسؤال واستيضاح بدأت بعرض عام لأوضاع القضية الفلسطينية في ظروفها الراهنة، وشرحت ما جرى في اجتماع قصر القبة بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين، «والصلح» مع المنظمة على أساس التعاون والتنسيق.

وقد استمع الإخوة لهذا العرض باهتمام بالغ، ولكن اهتمامهم كان مركزاً على احتمالات الحرب، ومواقف الدول العربية منها، واتجاهات السياسة الدولية، وبخاصة ما كان منها متصلاً بالاتحاد السوفياتي، وبالولايات المتحدة.. ودار الحوار عميقاً في الجوانب السياسية والعسكرية، وفي الحاضر والمستقبل، وفي كل ما يخطر على البال، ويجول في الخيال، والفلسطيني إنسان ذكي، شديد التوق إلى المعرفة، وقد شحذته النوائب والمصائب فزادت نباهته وأذكت فراسته.. ومسكين من يقع فريسة السؤال والجواب مع أبناء فلسطين.

سألوا: «ما موقف الدول العربية في الظروف الحاضرة؟؟».

قلت: «الزمام بين يدي الرئيس عبد الناصر.. والجماهير العربية معه كما تعلمون، ومصر في ذروة الحماسة الوطنية، والتأييد الوطني والقومي آخذ بالازدياد.. والاستعدادات العسكرية على ساق وقدم».

سألوا: «وإلى أي مدى وصلت الاستعدادات العسكرية؟؟».

قلت: «أنتم تعلمون أن القيادة العربية الموحدة قد جمّدت منذ مدة لأسباب تعرفونها، وقائدها العام الفريق علي عامر يواظب على مكتبه، ولكن من غير عمل، ويقرأ الأحوال الجارية كما يفعل أي مواطن آخر.. ولهذا فإن الاستعدادات العسكرية العربية تجري الآن بصورة إفرادية، مع كل دولة بمفردها.. فقد عقد اتفاق للدفاع

المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن بالأمس . . وعقد اتفاق مماثل مع سوريا منذ بضعة أسابيع . . وقد أعلنت الدول العربية استعدادها للمعركة وتأييدها».

سألوا: «وهل هناك قيادة موحدة للمعركة؟؟».

قلت: «القيادة الفعلية هي بيد الجمهورية العربية المتحدة . . هناك قيادة مشتركة سورية ـ مصرية على الجبهة السورية، وقيادة مشتركة أردنية ـ مصرية على الجبهة الأردنية، وسيصل غداً أو بعد غد اللواء عبد المنعم رياض ليتولى قيادة الأعمال العسكرية على الجبهة الأردنية».

سألوا: «لقد أعلن الرئيس عبد الناصر أنه سوف يتخذ موقفاً دفاعياً، وأنه لن يبدأ بالهجوم، وأنه سيدمر إسرائيل إذا بدأت بالهجوم . . أليس الأفضل أن تبدأ مصر بالهجوم حتى تكون لها مزية المبادرة؟؟».

قلت: «هذه مسائل عسكرية وراءها حسابات طويلة دقيقة . . ونحن هنا كلنا مدنيون، وليست الوقائع بين أيدينا، ولهذا يصعب الخوض في هذا الموضوع، ولا أستطيع الإجابة . . وأعتقد أن الرئيس عبد الناصر هو الذي يملك الإجابة عن هذا السؤال».

سألوا (وبإلحاح): نريد رأيك الخاص . . إنك حضرت مؤتمرات القمة، واجتماعات مجلس الدفاع، وتعرف خطط القيادة العربية الموحدة . . ما هو تقديرك كرجل سياسي لا كرجل عسكري؟».

قلت: «إن تقديري الخاص أننا لم نستكمل استعداداتنا العسكرية، ولعل هذا هو السبب الذي يفرض على الرئيس عبد الناصر أن يتخذ موقف الدفاع».

سألوا: «والصواريخ المصرية، القاهر والظافر والناصر، هل سيوجهها الرئيس عبد الناصر إلى تل أبيب؟ . . إذا فعل تكون إسرائيل قد انتهت، أليس كذلك؟؟».

قلت: «هذه أمور عسكرية وفنية لا نعرفها . . المؤكد أن الرئيس عبد الناصر سيضع كل أسلحته في هذه المعركة، هذا أمر طبيعي، فالمعركة معركة مصير، ولا يمكن التهاون والتفريط فيها».

سألوا: «الأخبار كلها تشير إلى أن الأسطول السادس يقترب من شواطئ البحر الأبيض المتوسط، كما أن قطعاً من الأسطول البريطاني قد اتجهت إلى البحر الأحمر . . فهل تتدخل الولايات المتحدة وبريطانيا في المعركة؟».

قلت: «إن الأمر موقوف علينا نحن الأمة العربية».

سألوا: «وكيف ذلك؟».

قلت: «إذا أيقنت أمريكا وبريطانيا أن الحكومات العربية بملوكها ورؤسائها مصممة على المعركة بكل صدق وعزيمة، فإنهما تتجنبان التدخل.. إن مصالح أمريكا وبريطانيا ستفصل الأمر.. فإذا كانت مصالحها عندنا آمنة، تدخلت لجانب إسرائيل.. وإذا أصبحت مهددة فإنها تقف على الحياد.. ذلك العقل والمنطق».

سألوا: «وموقف الاتحاد السوفياتي؟؟».

قلت (ضاحكاً): «إن موقف الولايات المتحدة وبريطانيا عدائي واضح مئة في المئة».

سألوا: «نحن نسألك عن موقف الاتحاد السوفياتي؟».

قلت: «ليس عندي من العلم أكثر مما عندكم.. الاتحاد السوفياتي يقف منا موقف التأييد كما تنشر الصحف السوفياتية نفسها، ولكني لا أعرف مدى هذا التأييد».

سألوا: «لا بد من أنك التقيت بالرئيس عبد الناصر عدة مرات.. فما هو تقدير الرئيس عبد الناصر لموقف الاتحاد السوفياتي، نحن يهمنا أن نفهم هذا الموضوع».

قلت: «الرئيس عبد الناصر على اتصال يومي مع موسكو، ولعله ساعة بساعة هذه الأيام.. في تقديري أن الاتحاد السوفياتي يريد أن يتجنب الحرب، ويسعى إلى إنهاء الأزمة بالضغط الدولي، وهو يسعى مع الولايات المتحدة لتضغط على إسرائيل فلا تبدأ بالعدوان.. ولا أدري إذا كان الاتحاد السوفياتي سينجح بهذه المحاولة، ولا أدري ما سيكون موقفه إذا فشلت».

سألوا: «وما تقديرك في ما نحن فيه الآن؟».

قلت: «تقديري أن الرئيس عبد الناصر قد ربح جولتين.. **الأولى** سحب القوات الطوارئ الدولية.. و**الثانية** إغلاق خليج العقبة، وهو يريد الاحتفاظ بهذا النصر في الوقت الحاضر، ولا أظن أنه يريد أكثر من ذلك الآن.. السبب واضح، نحن الآن غير مستعدين للمعركة».

سألوا: «وإذا قامت إسرائيل بالهجوم على مصر، وعلى الأردن، وعلى سوريا.. ماذا تتوقع؟».

قلت: «أدعو الله أن تتأخر المعركة عاماً أو عامين».

سألوا: «لماذا؟ نحن الآن أمام فرصة العمر.. أمريكا غارقة في حرب فييتنام، ولا تستطيع أن تنصرف لمعاونة إسرائيل».

قلت: «نحن لم نستكمل استعداداتنا.. القدرات العربية متوافرة ولكنها مبدّدة.. والحرب لا تكسب بالحماسة اللفظية.. الحرب إرادة واستعداد ووحدة.. ونحن ما زلنا نفتقر إلى هذه العناصر الثلاثة.. وهي متكاملة عند إسرائيل».

وانتقل السؤال والجواب إلى الإخوة في ما بينهم.. وكان محور النقاش حول موقف الاتحاد السوفياتي.. اليساريون يؤكدون قوته ودوره، وفضله في انتصارات فييتنام، والآخرون يشكّكون ويرتابون، ويشرحون أوجه الخلاف بين قضيتي فييتنام وفلسطين، وأن الاتحاد السوفياتي وافق على قيام إسرائيل، واعترف بها، ويريد استمرارها، ولكن من غير أنياب ومخالب، ومن غير توسع جديد.

واسترحت بعض الشيء عندما انشغل الإخوة عني في جدلهم في ما بينهم، وكان لا بد لي من العودة إلى عمّان لأكون جاهزاً فجر اليوم التالي للموعد نفسه مع «سيادة الشريف ناصر» لتفقد الجيش الأردني في مواقعه في الضفة الغربية.

ونهضت مودعاً، وأنا أقول لهم: «أنتم في بيتكم.. استمروا في النقاش والحوار.. وليس عندي ما أقوله لكم إلا أن أدعو الله أن يؤجل المعركة عاماً أو عامين».

وحملتني السيارة إلى عمّان وإلى الفندق، فقد أصبحت في هذه الأعوام الثلاثة نزيل الفنادق، وأصبح بيتي في القاهرة محطة ترانزيت. ووجدت وفوداً من رجالات فلسطين يملأون ردهات الفندق حلقات حلقات، وانتقلت من واحدة إلى أخرى، ربع ساعة هنا، ونصف ساعة هناك، والأسئلة نفسها والأجوبة نفسها، فإن قلب الناس واحد ولسانهم واحد، في كل مكان.

وتسللت من بين هذه الحلقات، وقد أصبح التسلل من مهارتي أمارسها حين الحاجة، وصعدت إلى الجناح الملكي لأنام نومة مواطن كل همه بعد التحرير أن يجتلي طلعة الوطن السليب، وينام في كوخ بسيط قبل أن يغادر هذه الدنيا.

واستيقظت عند الساعة الرابعة صباحاً، كأنما في رأسي ساعة منبهة، وهذا شأن المحب يوقظه الحب في ساعة الميعاد.. وارتديت ملابسي إلى ساحة الفندق من غير حلاقة ولا فطور، فقد عزمت أن أبدأ نهاري بالتقشف.

وكانت نسمات الفجر تعوضني عن الفطور وعن نعيم الحلاقة في الصباح.. ووقفت انتظر بضع دقائق إلى أن جاء الشريف ناصر وهو يقود سيارة عسكرية مثبت عليها مدفع لمقاومة الطائرات.. وانطلقت السيارة، ونحن نتحدث.

قال: «لقد كشفني الأخ أبو مازن.. والله إنك سباق».

قلت: «أرجو الله أن تكونوا سباقين إلى الميدان».

قال: «وهل أفطرت.. والله أنا ما أفطرت.. لماذا لا تفطر في الأوتيل؟».

قلت: «فلنتقشف هذا اليوم.. أنت يلزمك صيام عدة أيام.. المعركة تحتاجك رشيقاً من غير كرش!!».

قال: «الله يلعن السيارات.. أيام الخيل لم يكن لنا كرش».

قلت: «أنا لا أعرف الضباط الإسرائيليين إلا من صورهم في الصحف.. لم أر أحداً منهم يحمل كرشاً على بطنه.. فلماذا لا تفعل مثلهم؟».

قال: «هذا صحيح.. الله يلعن «المنسف» هو سبب السمنة (وهو أكلة أردنية شهيرة).

قلت: «لا مانع من أكل المنسف، ولكن على أن يأتي بعده صيام يومين».

قال: «الموضوع ليس المنسف وحده.. الويسكي ملعون هو الذي يسبب السمنة».

قلت: «وهل الويسكي فرض؟.. اترك الويسكي».

قال: «والله أنا تركته الأسبوع الماضي.. ولكن ما العمل؟.. كنت عند سيدنا وشربنا.. ورجعت له، وأصبحت أشرب أكثر مع أن كبدي تعبان». وسيدنا كذلك كبده تعبان، وقد نصحه الأطباء في لندن أن يمتنع عن الشراب، وخصوصاً أنه يشكو من أزمات حادة بسبب الجيوب الأنفية».

قلت: «هل تريدني أن أنصح الملك بترك الشراب؟؟».

قال: «لا.. دخيلك.. نحن نتكلم كإخوان.. أنا أتكلم الآن حتى أسليك، ولا تمل من طول الطريق. وقطعنا الغور، واجتزنا جسر اللنبي، ومدينة أريحا، ونحن في هذا الحديث، وعند عطفة في أحد المرتفعات على طريق القدس، عرجنا على موقع من مواقع الجيش الأردني يقوده الشريف زيد بن شاكر.. فترجلنا، وسلمنا ومكثنا بعض الوقت، والشريف ناصر يشير بيده إلى الغور من تحتنا، ويشرح احتمالات الكرّ والفرّ، والتطويق والالتفاف بيننا وبين العدو إذا حانت ساعة المعركة. وكان الشريف زيد يشارك في الشرح والإيضاح، وأنا معجب بوسامته وقامته، وأدعو في نفسي إلى أن يكون في بسالته كحاله في رشاقته.

وبعد رشفات خاطفة من القهوة العربية تابعنا سيرنا في ذلك الطريق الأفعواني إلى بيت المقدس، إلى رام الله، إلى نابلس، وإلى جنين، لا نلوي على مدينة ولا على قرية.. ثم اقتحمت سيارتنا طريقها إلى مواقع الجيش الأردني بين الأحراش وكروم الزيتون، نقف عندها موقعاً موقعاً من الشمال إلى الجنوب.

وكان الجو في أحلى أيامه، ولا تزال الثمار والأزهار في أكمامها، ولله ربيع فلسطين، وطاب لنا أن نمشي من مخيم إلى مخيم، وبين مواقع المدافع المظللة بأغصان الأشجار، وتحدثنا إلى الضباط والجنود عن المعركة، عن العدو، عن السلاح، عن الجبهتين المصرية والسورية، عن تحركات العدو وهو على مرمى البصر، عن الطائرات الإسرائيلية وهي تحوم صباح مساء استطلاعاً واستكشافاً، وتتوغل في الأجواء الأردنية، حرة طليقة.

ومكثنا في مقر القيادة المحلية في كل موقع فترة من الوقت، ورفعت الأستار عن خريطة العمليات ليتولى قائد المنطقة شرح الخطة العسكرية، فأثنيت على علمهم وشجاعتهم وإيمانهم، ولو كانت أسلحتهم وذخائرهم ومؤنهم بقدر بسالتهم لكان لنا مع العدو يوم وأي يوم! ثم تابعنا تفقدنا ومسيرتنا إلى أن عدنا إلى بيت المقدس، ومنها إلى موقع «قبة راحيل» قريباً من بيت لحم حيث قضينا بعض الوقت مع الضباط والجنود في هذا الموقع الإستراتيجي، وهو يطل على الأحياء اليهودية من القدس الجديدة.

كان هذا الموقع معداً إعداداً كاملاً، بما فيه من الخنادق والمخابئ، وقواعد المدافع، والمنافذ والنوافذ، والمناظير والمراقب.. وقال لي قائد الموقع في نبرة مملوءة بالحسرة: «لو كانت إمكاناتنا المالية أكثر وأيسر لاستطعنا أن نجعل من هذا وحده منطلقاً لتدمير العدو، وها أنت تراه رأي العين تحت أقدامنا.. وليت الملوك والرؤساء حضروا معك ليروا بأعينهم..». ولم أتمالك إلا أن أجيبه قائلاً: «ليتهم يحضرون إلى هذا الموقع لنحتفظ بهم رهائن حتى يدفعوا كل متطلبات المعركة.. فإنهم لا يدفعون إلا إذا حبستهم في هذا الموقع..». وعاد مرة ثانية بنبرة وحسرة: «ومن أين يأتون إلى هنا..؟!!».

وتناولت الطعام مع الجنود والضباط، وما أشهى الطعام الميداني حتى لو لم يكن شهياً.. ونهضنا لزيارة بقية المواقع في بيت لحم والخليل.. ونعمنا ساعتين من الزمن ونحن نجوس خلال الكروم في تلك الربى الجميلة، وكان الأنس، كل الأنس في تلك الروح المعنوية العالية في جنودنا وضباطنا الشجعان.. وجلست في غرفة العمليات في تلك المواقع.. وكان الحديث يدور حول خطة عسكرية مشرقة بهيجة.. خطة اللقاء مع الجيش المصري في كماشة على القدس الجديدة، ومنها إلى الساحل، عبر اللد والرملة ويافا، إلى تل أبيب، وما عشت في عمري كله مع أحلام اليقظة أحلى وأغلى من ذلك الحلم الغالي.

وأدركنا الليل، ولم يعد يتسع الوقت لمزيد من الزيارات، فعدنا أدراجنا إلى بيت المقدس، ومنها إلى الطريق الأفعواني في اتجاه البحر الميت.. إلى عمّان.

وكما بدأنا عند الفجر في حديث الصباح، عدنا إلى حديث العشية، وكنا نقترب

من الأغوار التي امتلأت من العقبة جنوباً إلى إربد شمالاً بمقابر الشهداء من الصحابة والتابعين، منذ صدر الإسلام أيام معركة مؤتة وتبوك واليرموك وأجنادين وبيت المقدس، إلى عهد صلاح الدين بطل معركة حطين.. إلى السلطان قطز بطل معركة عين جالوت.. إلى كل تلك الأيام الغراء والذكريات الزهراء.. وما القبور القائمة حتى اليوم لأبي عبيدة الجراح.. وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة إلا حفنة من تلك المعالم الغالية... وكلها يعرفها الأعراب والفلاحون أكثر مما يعرفها المؤرخون والباحثون. ومددت يدي إلى كتف الشريف ناصر وهو يقود السيارة.

قلت: «يا أبا ناصر.. أنا أشكرك على هذه الزيارة.. هل أنت مطمئن إلى أوضاع الجبهة في الضفة الغربية؟».

قال: «ما رأيك أن نتكلم في هذا الموضوع مع «سيدنا»، إنه ينتظرنا في قصر الحمر.. وهذه هي رغبته».

ومضينا في طريقنا حتى وصلنا مشارف عمّان، وعطفنا على قصر الملك حسين المتلألئ بالأنوار، وخطوات الحرس تقطع سكون الليل ذهاباً وإياباً.. ودخلت إلى الصالة لنجد الملك مدثراً بعباءته، وملتفاً بغلالة من أطباق الدخان تتلوى حتى السقف... وبادرني بصوته الأجش.

قال: «ما هي انطباعاتك عن الجيش... وعن الاستعدادات العسكرية في الضفة الغربية... نحن الآن أقوى بكثير من السنة الماضية... أليس كذلك؟... لقد حضرت العرض العسكري قبل عامين».

قلت: «أنا فخور بالجيش الأردني. إن روحه المعنوية عالية جداً، وهذه شيمة الجندي العربي في كل مكان.. لكن الأمر موقوف على استعداد الجيوش العربية الأخرى.. فالجيشان المصري والسوري هما عماد المعركة.. والجيش الأردني وحده لا يستطيع الصمود أمام القوات الإسرائيلية.. ثم إن الأمر يحتاج إلى تجميع الطاقات العربية كلها، عسكرية وسياسية واقتصادية».

قال: «لقد تلقينا بالأمس رسالة من الملك الحسن الثاني يقترح فيها عقد مؤتمر قمة عربي لدراسة الوضع الحالي في الشرق الأوسط واتخاذ القرارات الجماعية لمواجهة أي عدوان.. والرئيس عبد الناصر كلمني اليوم ظهراً بالتلفون.. وسألني عنك.. قلت له إنك في الضفة الغربية.. وسألني رأيي في اقتراح الملك الحسن الثاني بشأن الدعوة إلى مؤتمر قمة.. ما هو رأي الأخ أحمد في الموضوع؟».

قلت: «لقد ضجرت الأمة العربية من مؤتمرات القمة.. ثم إن الأحداث تمر

بسرعة هائلة.. وما الفائدة من مؤتمر قمة جديد إذا كانت قرارات مؤتمرات القمة السابقة لم تنفذ؟.. المعركة الآن على الأبواب.. والقضية بسيطة، ومن كان عنده مال أو سلاح أو رجال، فليتفضل إلى الميدان، هذا خير من مؤتمر قمة».

قال: «وهل تظن أن المعركة مقبلة بهذه السرعة؟؟».

قلت: «بضعة أيام وستنشب المعركة.. إني أتابع الاستماع إلى الإذاعة الإسرائيلية، وقراءة الصحف الإسرائيلية.. كل شيء ينبئ بأن إسرائيل ستشنّ الحرب، وستضرب مصر أولاً.. ثم إن هنالك «بوصلة» الحرب قد أصبحت معالمها واضحة».

قال: «وماذا تعني؟».

قلت: ««بوصلة» الحرب هي لجنة الصليب الأحمر الدولية في جنيف. لقد أوردت الإذاعة البريطانية خبراً في هذا اليوم بأن لجنة الصليب الأحمر اتخذت احتياطات الطوارئ لمجابهة احتمال نشوب الحرب في الشرق الأوسط، وعينت وفوداً إلى الجمهورية العربية المتحدة وسوريا ولبنان والأردن لتعمل على ضمان تنفيذ اتفاقيات جنيف بشأن الجرحى والمدنيين، وما إلى ذلك».

قال: «لنعد إلى الضفة الغربية.. كيف وجدت الروح المعنوية لدى الشعب؟؟».

قلت: «لم أر أحداً من الشعب.. كل زياراتي كانت لمواقع الجيش.. غير أني واثق من الروح المعنوية لدى الشعب.. ولكن المشكلة أن الشعب لا مكان له في المعركة.. إنه أعزل.. إنه غير مدرّب على السلاح.. وهذا ما كنا نطالب به على الدوام».

قال (وكأنه يريد أن ننصرف عن هذا الحديث): «وهل من ملاحظات أخرى؟؟».

قلت: «لا توجد في الضفة الغربية استعدادات للدفاع المدني».

قال: «ولكن الأوامر صدرت إلى قيادة الدفاع المدني باتخاذ الإجراءات اللازمة.. وإن كانت إمكاناتنا المالية قليلة».

قلت: «الشعب هو الإمكانات المالية.. الشعب مستعد لأن يحفر الخنادق ويبني المخابئ.. وأن يكدّس أكياس الرمل في الشوارع وأمام المنازل.. الشعب مستعد لأن يقوم بكل ذلك.. ولقد مررنا بالضفة الغربية كلها، فلم أجد خندقاً ولا كيس رمل واحداً أمام المنشآت العامة.. على حين أننا كنا نرى بأعيننا اليهود يعملون في حفر الخنادق. لقد رأينا ذلك صباحاً في منطقة اللطرون.. كان اليهود يحفرون الخنادق.. أليس كذلك يا أبا ناصر؟».

فقال الشريف ناصر: «نعم رأيناهم.. وإذا أمر سيدنا أن يصدر التعليمات إلى قيادة الدفاع المدني بإجراء اللازم».

قلت: «وأعتقد أنه يجب توزيع الأسلحة على الأهلين حتى يشتركوا في الدفاع عن مدنهم وقراهم».

قال الملك: «نخشى أن تحصل الفوضى.. توزيع السلاح على الأهالي موضوع صعب».

قلت: «فليكن على رأس هذا العمل ضابط من الجيش الأردني في كل قرية وفي كل مدينة.. لقد استطعنا أن ننشئ في قطاع غزة في الأسبوع الماضي كتائب للمقاومة الشعبية تعدادها عشرون ألفاً، وهم يباشرون الآن حفر الخنادق وبناء الملاجئ وحماية الجسور وما إلى ذلك، فلِمَ لا نفعل ذلك في الضفة الغربية؟؟».

قال: «هذه كلها مسؤوليات الجيش، ونحن لا نريد أن يقع تضارب بين القوات المختلفة».

قلت: «إذا كان الجيش يقوم بهذه المهمة، فلا مانع.. المهم أن تقوم بها جهة مسؤولة سواء كان الجيش أو غير الجيش».

قال: «وهل أنت مطمئن للدفاع عن القدس؟ لقد رأيت كل شيء».

قلت: «ما زلت عند رأيي.. القدس معرضة للسقوط في كل لحظة.. الأسوار وحدها هي التي تفصل إسرائيل عن القدس من الداخل.. يجب أن تتمركز القوات المسلحة في داخل المدينة، في البيوت، في الشوارع، على الأسطحة. على الأسوار.. إن بيت المقدس لا يحميها إلا حرب الشوارع. في كل حارة وزقاق، بل وراء كل حجر».

والتفت الملك حسين إلى الشريف ناصر وسأله:

«وما رأي أبي ناصر في الموضوع؟؟».

وقال الشريف ناصر: «عينٌ خير.. يا سيدنا.. عندك رجال مستعدين يموتوا قبل أن تسقط القدس.. لقد أعددنا خطة عسكرية متكاملة للدفاع عن القدس.. الحرب الحديثة هذه الأيام تفرض أن يكون الدفاع عن القدس من الخارج لا من الداخل».

قلت: «أنا لست عسكرياً.. ولكني أريد أن أسأل.. وما العمل إذا سقط الخارج، فما هو مصير الداخل؟؟».

فقال الملك حسين: «فليطمئن الأخ أحمد.. سأتولى بنفسي الدفاع عن القدس.. الله يعطيك العافية اليوم تعبت كثيراً.. خليك تستريح.. والقدس أمانة في أعناقنا، نفديها بأرواحنا».

فنهضنا في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وأنا أحسب أن كل اقتراحاتي متأخرة.. فلم تعد المعركة تنتظرنا لنستعد، ولم تعد إسرائيل تنتظرنا لنستكمل استعداداتنا.. بل هي تريد أن تضرب الضربة القاصمة في هذه المرحلة بالذات، قبل أن نجمع صفوفنا ونعبئ طاقاتنا، سواء في الجبهة الأردنية أو في الجبهات العربية الأخرى.

ومددت يدي لأودع الملك حسين، ولم أستطع أن أحبس نفسي عن كلمة أخيرة قلتها له على الطريقة العربية، بل على الطريقة العشائرية:

«مرة أخيرة أقولها لسيدنا.. القدس في رقبتك.. أنا ما زلت أعتقد أن إدخال جيش التحرير الفلسطيني إلى القدس هو أمر ضروري لحماية المدينة.. ولو أذنت لي أن أتصل تلفونياً في دمشق صباحاً، فإن كتائبنا في درعا مستعدة لأن تكون ظهراً في بيت المقدس».

فقال الملك حسين: «عيِّن خير.. القدس في رقبتي.. روح نام مطمئن.. والله لا تدخلها إسرائيل إلا على جثتي».

قلت: «لقد سبق للسلطان عبد الحميد في زمن الدولة العثمانية أن قال لهرتزل مؤسس الحركة الصهيونية: «إن الوطن القومي اليهودي لن يقوم إلا على جثتي».. ولقد قام الوطن القومي اليهودي.. وقامت إسرائيل.. والسلطان عبد الحميد تحت التراب.. وقد أكرمه الله أنه مات قبل أن يقوم الوطن القومي اليهودي».

ولم تحتمل تلك الوقفة على أبواب القصر أكثر من هذا الكلام.. وتركت الملك حسين والشريف ناصر عند الباب، وأقلتني إحدى السيارات الملكية إلى الفندق، وقلبي ينازع عقلي، وعقلي يصارع قلبي، وأنا لا ادري ما يأتي به الغد وما بعد الغد.

وألقيت بنفسي على السرير، وأنا خائف منها وعليها.. خائف من الأمانة وعليها.. الأمانة التي حملتها، وما أدري هل كنت ظالماً جهولاً، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿**إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٧٢.

ليلـة الخامـس مـن حزيـران/يونيـو

من صباح الجمعة المبارك إلى صباح الاثنين المشؤوم كنت في بيت المقدس. . . وكان ذلك على وجه التحديد، وبالتاريخ، يوماً وشهراً وعاماً. . . من الثاني إلى الخامس من شهر حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧.

ولقد كانت لي في عمري أيام وأعوام في بيت المقدس، حين كنت طالباً في العشرينيات، وصحافياً في الثلاثينيات، ومحامياً في الأربعينيات. . وسياسياً في الخمسينيات. . ولكن هذه الأيام الثلاثة قد طغت على كل أعوامي وأيامي.

ولقد أهلّ صباح الجمعة ليجدني في فراشي في فندق عمّان بعد نهار طويل قضيته في مواقع الجيش الأردني، وما زلت كأني في الخنادق مع الجنود والضباط نركز المنظار على العدو أمامنا، والعدو يرصدنا من أبراجه وطائراته. . والقدر محلق في السماء يرانا كلينا من غير أن نراه.

ودقّ جرس التلفون ليقطع عليّ سارحات الذهن وشاردات الفكر. . وإذا بمدير مكتب المنظمة في المقدس، يتحدث.

قال: «نحن سنصلي الجمعة في «الصخرة» هذا اليوم».

قلت: «إن شاء الله. . سأسافر بعد قليل إلى القدس».

قال: «أرجو أن يكون حضوركم مبكراً. . أولاً إلى مكتب المنظمة ثم إلى المسجد. . لقد اتصل بنا إخواننا من نابلس وجنين وطولكرم والخليل، إنهم يريدون الحضور إلى المكتب ليذهبوا إلى الصلاة معاً».

قلت: «حاضر. . ولكن أرجو ألا تكون تظاهرة. . فليكن لقاء عادياً».

قال: «جماهير كثيرة ستأتي بالسلاح، السيارات محجوزة اليوم. . سيكون أشبه بزحف على القدس».

قلت: «أرجو أن تتصل بالإخوان جميعاً وأن تناشدهم، باسم فلسطين، وبهذا

اليوم المبارك ألا تكون هنالك تظاهرات ولا سلاح . . وليكن كل شيء هادئاً . . والظروف دقيقة . . وحساسة . . ونحن لا نريد أن نزعج الملك حسين . . لا داعي للتظاهرات . . إن شاء الله بعد النصر يفعل الشعب ما يشاء . . أرجوك أن تتصل بالتلفون بالجميع . . الآن».

وما هي إلا دقائق حتى ركبت السيارة إلى القدس قبل أن يفلت الزمام ونقع في أزمة . . وقد صحّ ما خشيته، فقد رأيت الجماهير محيطة بمكتب المنظمة بأسلحتها، من المسدس إلى البندقية إلى الرشاشات، ودخلت المكتب فوجدته غاصّاً برجال البلاد وأعيانها.

وعقدنا جلسة «طوارئ» وشرحت للإخوة أن الظروف الحاضرة تقتضي الهدوء والسكينة . . وأننا نحرص على «حساسيات» الملك حسين، فلا نريد أن نزعجه في قليل أو كثير، حرصاً على الاتفاق الذي تم في القاهرة، إننا لا نريد ان يشعر أننا نحاول أن «نسرق» الشعب منه.

واستجاب الإخوة، فخرجوا إلى الجماهير يرجونهم أن يتركوا أسلحتهم في سياراتهم، وأن يذهبوا إلى المسجد بنظام . . وكان كذلك، وقد ترك عدد منهم سلاحه في المنظمة في «عهدة» الموظفين.

ومكثنا ساعة من الزمن نتداول الموقف الحاضر . . ولا حديث إلا المعركة، فحدثتهم بكثير من التحفظ، فقد كانوا من الحماسة بحيث لا يحتاجون إلى إثارة، فصاح أحد الشباب:

قال: «ولكن الأستاذ هيكل رئيس تحرير **الأهرام** أكثر منك تفاؤلاً».

قلت: «الموضوع ليس تشاؤماً أو تفاؤلاً . . وماذا قال الأستاذ هيكل؟».

قال (وأخرج عدد **الأهرام** وقرأ): جاء في ختام مقالته قوله: «إن إسرائيل مقبلة على عملية انكسار تكاد تكون محققة سواء من الداخل أو من الخارج . . لقد كانت إسرائيل ولا تزال في وجودها كدولة تقليداً للطبيعة، صنع من مادة ليست أصيلة وليست صلبة أقرب ما تكون إلى تشكيل من الجبس لا يستطيع أن يتغير إلا إذا انكسر . . . » .

قلت: «أنا غير موافق على هذه المقالة . . يجب ألا نبالغ في قوتنا، أو في ضعف إسرائيل . . إن «كسر» إسرائيل ليس سهلاً إلى هذا الحدّ الذي تتصوره».

قال: «ولكن المعروف أن الأستاذ هيكل يعبّر عن رأي الرئيس جمال عبد الناصر».

قلت: «وهذا غير صحيح أيضاً.. هنالك شخص واحد يعبّر عن رأي الرئيس عبد الناصر».

قال: «من هو الشخص؟».

قلت: «إنه الرئيس عبد الناصر نفسه».

ومضينا في الحديث عن المعركة المقبلة، وظروفها، ومواقف الدول الصديقة والمعادية من الاتحاد السوفياتي إلى الولايات المتحدة. واقترب موعد الصلاة، فذهبنا إلى مسجد الصخرة لأداء فريضة الجمعة، وأوقفنا سيارتنا عند باب «ستنا مريم» ومشينا في موكب التاريخ عبر السور المجيد الذي شهد أعظم انتصارات الأمة العربية إلى ساحة الحرم الشريف، فكانت مزدحمة بالخلائق من الرجال والنساء والأطفال، من أهل المدن والقرى في حشد زاخر رائع، يهلل ويكبّر ويهتف بالنصر والتحرير.

ولقد كان يوماً مشهوداً ذلك اليوم، فحين يحتشد الشعب في ساحة الحرم الشريف تحتشد معه ذكريات جليلة القدر، ابتداء من إسراء الرسول ومعراجه، إلى دخول عمر بن الخطاب ومعه عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وغيرهما من كبار الصحابة، إلى دخول صلاح الدين الأيوبي.. إلى سائر تلك الأيام التاريخية الماجدة.

تزاحمت هذه الذكريات الجليلة في نفسي وأنا أشقّ طريقي بين الجماهير الراكعة الساجدة، الخاشعة القانتة، وألقى الخطيب خطبة الجمعة، ونهضت للانصراف، ولكن أنّى لي أن أنصرف.. فقد انتصب أمامي الجمهور واقفاً يحول بيني وبين الخروج.. ولا بد من خطاب، وكانت هذه هي حجة الجماهير.

وماذا عساي أن أخطب، فلم يعد الموقف يتسع للكلام.. فالجيوش العربية تقف وجهاً لوجه أمام القوات الإسرائيلية، وأصبح الكلام للطائرات والمدافع.. ولكني أذعنت وخطبت، وشرحت للجماهير ما كان من اجتماع قصر القبة بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين ودعوت مرة ثانية: «أن ينتقل الاتفاق من الورق إلى الميدان بكل أمانة وإخلاص وشرف»، ثم شدّدت على وحدة الأمة العربية في هذه المعركة المصيرية لتحرير الديار المقدسة وتطهيرها من رجس الصهيونية والاستعمار، وناشدت العالم الإسلامي أن يصون عروبة القدس، مستشهداً بالآيات القرآنية.. وختمت كلامي بترديد الحديث النبوي الشهير، الساحر الباهر، البديع المبدع: «إن الجنة لتحنّ شوقاً إلى بيت المقدس».

ونزلت عن المنبر، لأجد نفسي على أكتاف الشباب، وكنت أكره هذه «العراضة» الوطنية، ولكني رضيت بها ذلك اليوم، فلم يكن من سبيل لأتفادى زحمة الجماهير

إلا أن أكون محمولاً على سواعد الشباب، ولم أطأ الأرض إلا عند السيارة.. وكان الجو حاراً شديد الجفاف يكاد المرء أن يلفظ رئتيه التماساً للهواء.. ولكن الشعب يرى في الأيام القومية برداً وسلاماً.. ولو كان الجو زمهريراً أو يحموماً!!

وعدت إلى فندق أمباسادور القائم في حي الشيخ جراح، وهو على بضعة أمتار من خطوط الهدنة الإسرائيلية.. وجلست على الشرفة أستريح بعض الشيء، ولكن متاعبي ومخاوفي أخذت تندلع في نفسي اندلاع النار في الهشيم.

كانت مدينة القدس أمامي بشطريها، القديم والجديد، وكلاهما عربي.. فقد عشت شبابي في المدينة، والمقدسيون العرب يبنون أحياءها الجميلة خارج الأسوار: القطمون، والطالبية، وغيرهما... وها إني أرى «القدس الجديدة» تحت الاحتلال الإسرائيلي، ويهود اليمن القذرون قد بنوا أكواخهم وراء الأسوار، وأولادهم يعبثون بالوحل، ويلعبون بالأوساخ.

وأزعجني خاطر رهيب.. خاطر أوحته المقارنة بين شطري المدينة.. لقد كنت أرى القدس الجديدة تعجّ بالحركة والحياة.. ورأيت العمال اليهود يحفرون الخنادق أمام بيوتهم وحول أحيائهم، ويكدسون أكياس الرمل في الميادين والساحات وفوق أسطح المباني.. أما المدينة القديمة، فقد كانت راقدة راكدة بين أسوارها، لا مخبأ ولا ملجأ.. ولا حفنة من الرمال أمام هذا المستشفى، أو ذلك المخيم.. وكأنما أصبحت القدس القديمة، البلدة اليتيمة، تحت رحمة الجارة اللئيمة.

وهربت من الشرفة إلى غرفتي لأهرب من هذه المقارنة المخيفة، فلم أعد أطيق أن أرى هذا المشهد الرهيب.. ورحت التمس السلوان في التحدث إلى الوفود القادمة من كل أرجاء فلسطين، وقد طالت عني غيبتهم بعد أن «سحب» الملك حسين اعترافه بالمنظمة، وأقفل مكاتبها وشرّد رجالها واعتقل موظفيها.

وهكذا قضيت هذه الأيام الثلاثة، الثاني، والثالث، والرابع من شهر حزيران/يونيو.. من الفندق إلى مكتب المنظمة وبالعكس، في لقاءات متصلة، وأحاديث مستمرة، ومن ثم في استطلاع ما يجري خارج الأردن، كلما لاح لي فراغ في الليل والنهار.

وكان استطلاعي لما يجري خارج الأردن يتم ساعة بساعة، فقد كان مكتب الإذاعة الأردنية في القدس يضم مجموعة من الشباب المخلصين النابهين، يتابعون الإذاعات العالمية، والصحف الإسرائيلية والأجنبية، ويرسلون إليّ القصاصات مع مراسل الموتوسكل ساعة بساعة.. وأكرمْ بأولئك الشباب وأعظمْ بذلك المراسل.

وما زلت احتفظ بتلك القصاصات في ملفاتها، أعود إليها كلما أردت أن أعود إلى القدس في خاطري.. وكلما حملتني مذكراتي إلى ذكرياتي.. وها أنا الآن أقلب تلك القصاصات الأجنبية والعربية ليقرأها معي المواطن العربي.. مواطن الحاضر ومواطن المستقبل، ليعيش معي الأيام والليالي قبل الهزيمة.

قالت جريدة **جيروسالم بوست**، وهي الجريدة الإسرائيلية التي تصدر باللغة الإنكليزية، تعقيباً على تشكيل وزارة ائتلافية أسندت فيها وزارة الدفاع إلى موشى ديان: «إن التغيير المهم في الوزارة الجديدة هو أن الجنرال موشيه ديان سيأخذ مكانه في الوزارة الجديدة كوزير للدفاع بالاتفاق مع رئيس الحكومة ليفي أشكول.. وأن تعيينه في منصبه الجديد هو خير وسيلة لتحقيق مطامح إسرائيل في استعادة حرية الملاحة في خليج العقبة، وهو بذاته إرضاء لدافيد بن غوريون، فلا بد من الاستفادة من رأي بن غوريون في المحنة الحاضرة (٢/ ٦/ ١٩٦٧)». وقد تساءلت، ونحن نملك ثلاث عشرة حكومة عربية، هل تم تشكيل وزارة ائتلافية واحدة، أو وزارة حرب، لمواجهة الحرب في أية حكومة عربية؟.. وهل فكّر أي ملك أو رئيس في الاستعانة بأهل الرأي المختزنين في بيوتهم في الوطن العربي؟.. وطبيعي أنه لم يتم شيء من ذلك، فإن كل شيء على خير ما يرام في الوطن العربي!!

ونقلت وكالات الأنباء: «إن متطوعين من يهود فرنسا وأمريكا سيصلون إلى إسرائيل في الأسبوع المقبل لدعم إسرائيل».. وأعلنت الإذاعة الإسرائيلية «أن هؤلاء المتطوعين سيجدون مواقعهم جاهزة للدفاع عن إسرائيل (٢/ ٦/ ١٩٦٧)».. وهذا واحد من عشرات الأخبار التي كانت تصلنا صباح مساء منذ أن انسحبت قوات الطوارئ الدولية.

وأدلى الجنرال شارل ديغول رئيس الجمهورية الفرنسية بتصريح قال فيه: «إن فرنسا تؤكد حيادها في النزاع العربي ـ الإسرائيلي، ولكن الجهة التي تبدأ بالعدوان لن تحظى بتأييد بلاده» (٢/ ٦/ ١٩٦٧).

وصرح هارولد ويلسون رئيس الوزراء البريطاني في مؤتمر صحافي عقده في واشنطن عقب اجتماعه بالرئيس الأمريكي لندن جونسون: «أن إغلاق خليج العقبة قد يؤدي لا إلى صدام عربي ـ إسرائيلي فحسب، ولكن إلى نار أكبر بكثير، وأن هذه النار قد تنشب في غضون ساعات.. وأنه سيطير غداً إلى نيويورك ليجتمع مع يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة لبحث أزمة الشرق الأوسط» (٢/ ٦/ ١٩٦٧).

وأعلن الرئيس الأمريكي لِندُن جونسون: «أنه عرض على هارولد ويلسون رئيس الوزراء البريطاني مشروع إعلان تصدره الدول الملاحية ينصّ على اعتبار خليج

العقبة ممراً مائياً دولياً، ويحق لكل دولة ممارسة حقوق المرور فيه» (٢/ ٦/ ١٩٦٧).

وصرح موشى ديان بعد أن عين وزيراً للدفاع: «أن إسرائيل تستطيع أن تنتصر إذا ما نشبت الحرب، وأن الأمم لا تعيش على ساعات التوقيت.. وأن إسرائيل لم تفقد المبادرة العسكرية بتأخير الردّ الفوري إلى هذا الوقت، وأن فرصة الانتصار لا تزال أمامها إذا نشبت الحرب» (٣/ ٦/ ١٩٦٧).

وأصدرت لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الأمة في الجمهورية العربية المتحدة بياناً أكدت فيه أن: «الإعلان الدولي المقترح لفكّ الحصار عن خليج العقبة يعتبر بمثابة حرب غير معلنة على الدول العربية.. وأكد البيان كذلك أن الوقت أصبح أكثر ملاءمة للحرب ولتدمير إسرائيل» (٣/ ٦/ ١٩٦٧).

وأعلن المشرفون على الصندوق البريطاني اليهودي: «أنهم جمعوا تبرعات لإسرائيل في أسبوع واحد تبلغ ثلاثة ملايين ونصف المليون من الجنيهات الاسترلينية، وأن أسرة روتشيلد وحدها تبرعت بمليون جنيه» (٣/ ٦/ ١٩٦٧).

وذكرت جريدة **الغارديان** البريطانية: «أن عدداً من المتطوعين قد غادروا مطار لندن على متن طائرة تابعة لشركة العال الإسرائيلية متوجهين إلى تل أبيب ليعملوا في المزارع الجماعية في إسرائيل بعد أن تركها سكانها ليلتحقوا بالجيش، وأنه من المتوقع أن يصل عدد المتطوعين قريباً إلى ألف متطوع» (٣/ ٦/ ١٩٦٧).

وقالت وكالات الأنباء، نقلا عن الرسميين الأمريكيين: «إن جميع الجهود التي بذلت لإقناع الجمهورية العربية المتحدة بفتح خليج العقبة قد باءت بالفشل، وإن ثمة شعوراً في واشنطن بأن حلّ المعضلة حلاً سلمياً قد بات مستبعداً، وأن الوقت لذلك قد فات» (٣/ ٦/ ١٩٦٧).

وعرض التلفزيون البريطاني مقابلة مع الرئيس عبد الناصر قال فيها: «إن روسيا ستكون إلى جانبنا لكي لا يتكرر ما حدث في عام ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثي على مصر» (٤/ ٦/ ١٩٦٧).

ونشرت جريدة **لندن تايمس** نقلاً عن الرسميين في واشنطن: «أنه لن ينتهي الأسبوع الثالث لأزمة الشرق الأوسط قبل أن يكون انفجار ما قد وقع، وأن هذا الاعتقاد آخذ في الرسوخ، لأن لِندُن جونسون الرئيس الأمريكي، وويلسون الرئيس البريطاني لا يعرفان كيف يمكن أن تحلّ هذه المسالة سلمياً» (٤/ ٦/ ١٩٦٧).

وغير ذلك من القصاصات الصحافية كثير.. وكثير.. وقد اقتصرت منها على الثاني والثالث والرابع من شهر حزيران/ يونيو!!

وفي مساء الرابع من شهر حزيران/ يونيو اتصل بي مكتب المشير عامر النائب الأول لرئيس الجمهورية العربية من القاهرة.. وكان موظفو التلفون في القدس يصيحون في أذني.. القاهرة على التلفون.. لا تترك الخط من فضلك.. مخابرة هاتفية عاجلة.

وجاءت المخابرة التلفونية.. وقال المشير عامر:

«يا أخ أحمد.. الفريق طاهر يحيى جاءنا اليوم وسيوقّع على بروتوكول للانضمام إلى اتفاقية الدفاع المشترك التي تمت بيننا وبين الأردن.. وسيسافر غداً صباحاً إلى عمّان حتى يوقّع مع الملك حسين الاتفاقية».

قلت: «مبروك، ونسأل الله التوفيق، والقوات العراقية هل ستدخل الأردن؟؟».

قال: «كل شيء سيكون على غاية ما يرام.. المهم أن تسافر غداً صباحاً إلى عمّان.. الفريق طاهر يحيي يريد أن يجتمع بك.. على كل حال من المناسب أن تحضر توقيع الاتفاقية».

قلت: «سأسافر غداً صباحاً.. وكيف الأحوال في القاهرة؟؟».

قال: «نحن جاهزون، استكملنا استعداداتنا.. أرجو أن تعمل كل جهدك أن يكون «صاحبك» في قبضة اليد.. ما يفلتش أبدً!!».

قلت: «سأبذل كل جهدي، ولكن «صاحبي» لا يزال يتهرب من مطالبي».

قال: «أرجو أن تضبط أعصابك، الموقف لا يحتمل أية أزمة.. وأنت عارف «صاحبك» أكثر منا».

وانتهت المكالمة التلفونية عند الحديث عن «الصاحب».. وأحسب أن المواطن العربي يعلم على وجهة اليقين أن هذا الصاحب هو الملك حسين.. من غير حاجة أن أذكره بالاسم.

والواقع أني كنت متضايقاً من الملك حسين في ذلك اليوم بالذات، وبدأت ألوم نفسي، لماذا بادرت بالمجيء معه إلى عمّان قبل أن نكتب «اتفاقية الدفاع المشترك بين الأردن والمنظمة، على غرار اتفاقية الدفاع المشترك بين الأردن والقاهرة.

ثم سخرت من نفسي من هذا الخاطر الساذج، فأي نفع من أي اتفاق مع الملك حسين إذا لم تكن عنده عزيمة صادقة على تنفيذه.. وكان الذي ضايقني من الملك حسين أنه عقد مؤتمراً صحافياً قال فيه إن ما «حصل عليه الأردن من سلاح وذخيرة

جعله في وضع ممتاز لمجابهة احتمالات المستقبل القريب.. وإن كل إمكانات الأردن معبأة للمعركة.. وإن الأردن اتفق مع منظمة التحرير الفلسطينية.. وإن الأردن على خط النار أسرة واحدة، وإن الشعب كله شعب فلسطين، وهو معبأ تعبئة كاملة لخوض معركة المصير.. ». وكان ينبغي أن توضع كلمة «لا»، أو «ليس»، أو «لم» قبل كل عبارة من هذا الحديث.

لقد ضايقني هذا الحديث كثيراً.. فقد حفزني أن أتكلم.. والظروف يومئذ فرضت عليّ الصمت.. فإن جميع الوقائع التي أشار إليها الملك حسين في مؤتمره الصحافي غير صحيحة إطلاقاً.

أولاً: إن الجيش الأردني لم يكن عنده السلاح والذخيرة الكافية.. وأمريكا لا تزوّده إلا بمقدار نقطة نقطة بالقطّارة.

ثانياً: إن الملك حسين قد رفض مطلب المنظمة الرئيسي في ما يتعلق بإدخال جيش التحرير إلى القدس.

ثالثاً: إن الشعب لم يكن معبأ للمعركة.. فلم يكن مدرباً على حمل السلاح.. ولم يكن عنده سلاح حتى في القرى الأمامية المواجهة لإسرائيل.

وتركت هذه الخواطر جانباً، وعدت إلى رفيقي الذي يلازمني أكثر من ظلي.. فإن ظلي ينقطع عني في الظل.. ولكن الراديو كان رفيقي في الليل والنهار.

وراح المذيع في «صوت العرب» يدوّي من القاهرة: استمعوا أيها العرب... بعد قليل سنذيع أنباء مهمة.. العراق سينضم إلى اتفاقية الدفاع المشترك.. الرئيس عبد الناصر يخاطب الأمة العربية... و... والفريق طاهر يحيى يتحدث إلى شعب العراق الباسل.

أزفت الساعة.. وأعلن المذيع أن الرئيس عبد الناصر والفريق طاهر يحيى قد وقّعا اتفاقية الدفاع المشترك.. وبدأ الرئيس عبد الناصر يخطب.. والجماهير العربية تسمع.. وأنا واحد.. واحد من مائة مليون عربي يستمعون «بآذان» قلوبهم.. ويقول علم التشريح إن القلب مؤلف من نصفين: «أذين» و«بطين»، وقد سمع الناس «بالأذين» لا بالأذنين!!

وابتدأ الرئيس عبد الناصر يعرض القضية من جديد، من باب التوكيد، أمام الأمة العربية، والعالم الدولي فقال: «إن ما حدث منذ ما يقرب من عشرة أيام أننا استعدنا حقنا في خليج العقبة. لقد كانت الأمور في خليج العقبة سنة ١٩٥٦ كما هي الآن، ولكن نتيجة العدوان البريطاني الفرنسي سحبنا قواتنا من سيناء وحضرت

قوات الطوارئ الدولية، وبهذا كان علينا أن نستعد، نستعد لمعركة فاصلة مع العدو. وحينما شعرنا بأننا على استعداد استعدنا حقنا.. خرجت قوات الطوارئ الدولية، ثم عدنا إلى خليج العقبة، ثم أغلقنا خليج العقبة.. ».

وأعلن الرئيس عبد الناصر في سياق خطابه أنه يرفض عودة قوات الطوارئ الدولية، فقال: «إن مستر ويلسون رئيس وزراء بريطانيا تكلم بالأمس عن عودة قوات الطوارئ الدولية.. وأنا أقول له إنه يعيش في وقت مضى منذ أسبوعين، فقد انتهت قوات الطوارئ الدولية وخرجت من بلادنا ولن تعود إليها مرة أخرى.. ».

وأكد الرئيس عبد الناصر العزم على التصدّي لأي عدوان فقال: «هناك من ينادي بعمل بيان من الدول البحرية، وإننا لن نعترف بأي بيان من الدول البحرية، ونعتبر هذا البيان عملاً عدوانياً موجهاً ضد سيادتنا وضد حقوقنا المشروعة.. نعتبر هذا العمل مقدمة لعمل حربي، ونحن سنتصدى لكل عدوان، سنقف في وجه كل عدوان.. وأنا على ثقة من أن الأمة العربية كلها ستقف ضد العدوان، بل ستهزم العدوان.. ».

ووجّه الرئيس عبد الناصر تهديداً مباشراً إلى الدول التي تؤيد إسرائيل، فقال: «إن وحدة العرب حققت لنا الاحترام والكرامة، ويجب على القوى المساندة لإسرائيل أن تعلم أن مصالحها عند العرب وليست عند إسرائيل.. لقد استعدنا حقوقنا في خليج العقبة، ولن نمكّن أي قوة في الأرض من أن تحرمنا من هذه الحقوق».

وفي كلمات قصيرات حازمات وجّه الرئيس عبد الناصر حديثة إلى الأمة العربية ليزيد من حماستها، وإلى إسرائيل ليلقي فيها الرعب، فقال: «في سنة ١٩٥٦ هاجمتنا إسرائيل وهي على ثقة من أن بريطانيا وفرنسا معها في المعركة.. ونحن نقول لهم اليوم إننا أمامكم في المعركة، ونحن على أحرّ من الجمر في انتظار هذه المعركة للثأر من غدر سنة ١٩٥٦».

وختم الرئيس عبد الناصر خطابه بالدعاء المعتاد: «إننا نسير بعون الله في طريقنا من أجل حقوقنا ومن أجل حقوق شعب فلسطين.. وسننتصر بإذن الله.. ستنتصر الأمة العربية ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾[1] صدق الله العظيم.

كان ذلك خطاب الرئيس عبد الناصر في فقراته الرئيسية كما استمعت إليه في

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٦٠.

إذاعة صوت العرب، وألقى بعده الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق خطاباً موجزاً أكد فيه أن: «على جميع الدول العربية أن تأخذ الطريق السليم الذي خططتموه أنتم بالذات، وإلا فستكون العاقبة لا سمح الله إلى نتيجة غير محمودة.. أخذ الله بيدك يا سادة الرئيس وأخيك عبد الرحمن عارف «الرئيس العراقي» للوصول بالأمة العربية إلى ما تروم».

وختم الفريق طاهر يحيى، كذلك، بالدعاء المعتاد: «وسننتصر وننتصر وننتصر بإذن الله، والسلام عليكم».

وقد امتلأ عقلي وقلبي بحمّى الحرب وآمال النصر، وامتلأ معي جو غرفتي بهذه الأحاسيس، وخرجت إلى الشرفة لألقي نظرة على القدس الجديدة، مرتع شبابي، وشباب العرب من قبلي عبر أجيال وقرون، وعلّلت النفس أن يوم النصر قريب.. وأننا على موعد مع التحرير... وأن العودة إلى الوطن السليب آتية لا ريب فيها.. وأن مسيرتي إلى عكا، بلدتي الحبيبة، ستكون خاتمة المطاف بعد أربعين عاماً من حياة العناء والكفاح.. وهناك سأستريح.. أقرأ وأكتب، وأستحم في البحر الذي صنع صباي، وأتفيأ ظلال البساتين التي شهدت طفولتي.. وفي الأعياد أقف على قبور الأعزاء من الأهل والأصدقاء، مع دمعة وفاء وعهد لقاء.

وامتدت يدي، وأنا سابح في أفلاك هذه الأماني العذاب، إلى الراديو وكان لا يزال يعزف الأناشيد العسكرية، وحركته شعرة واحدة وإذا بإذاعة إسرائيل تذيع بياناً عن اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي.. ولقد ألقيت كل سمعي لأرى ما تقول إسرائيل، وبما تفكر، وماذا أعدت للمعركة.

ولكنني ذهلت لما سمعت.. فكل ما سمعته كان عادياً... كأنما إسرائيل تعيش أهدأ أيامها.. فقد كان البيان الرسمي بالنصّ التالي: «استمع مجلس الوزراء في دورته الأسبوعية إلى تقارير عن أوضاع الأمن من رئيس الحكومة ووزير الدفاع، وإلى استعراض التطورات السياسية من وزير الخارجية، ووافق المجلس على مسودات القوانين التالية:

١ ـ إصدار سندات دولة إسرائيل «قرض التطوير الثاني لعام ١٩٦٧».

٢ ـ ضريبة الدفاع لعام ١٩٦٧.

٣ ـ قرض الدفاع لعام ١٩٦٧.

ووافق المجلس على تعديل أحكام خدمات التوظيف بعد المهلة التي يعطى فيها المهاجرون والمسرحون من الخدمة أفضلية الحصول على عمل.

وصادق المجلس على المعاهدات التالية:

١ ـ اتفاق على التعاون التقني والعلمي بين لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية ولجنة «لميرو» للسيطرة على الطاقة الذرية.

٢ ـ اتفاق زراعي بين إسرائيل وبلجيكا.

٣ ـ اتفاقية بين إسرائيل وبريطانيا حول المنتجين القانونيين في المسائل المدنية والتجارية. . ». انتهى البلاغ.

وأضافت جريدة **الجيروسالم بوست** الإسرائيلية إلى هذه الأخبار «العادية» خبراً آخر غاية في «العادية» قالت فيه: «إن الجنرال موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلي ينوي أن يجري بعض التغيير في موظفي وزارته حينما يثبّته الكنيست في منصبه الجديد بشكل رسمي غداً».

وكلمة «غداً» معناها الخامس من حزيران/ يونيو!!

وغصت في لجّة من التأمل، وأنا على شرفتي في حي الشيخ جراح، وأمامي القدس كلها، داخل الأسوار وخارج الأسوار، يلفني في تلك العشية الرهيبة تياران رهيبان: تيار الخطب العربية النارية، وتيار البيان الإسرائيلي الرسمي. . الأول ينذر بالحرب، والثاني يشير إلى الهدوء والسكينة.

ووقع عقلي في «كماشة» هذين التيارين. . ولكن السحب كلها فوقنا ومن حولنا كانت تشير إلى أن الحرب واقعة لا محالة. . ولم يعد الأمر سراً من الأسرار. . كانت الصحافة العالمية في المشرق والمغرب تتحدث عن ذلك. . كان المسؤولون في واشنطن وموسكو ولندن وباريس يتحدثون عن ذلك. . ولم يبق إلا تحديد ساعة الصفر. . وساعة الصفر هذه هي بيد إسرائيل. . وليست بيدنا. . فلقد أعلنّا منذ البداية. . أن البداية لن تكون منا. . وألقينا البداية على عدونا. . وأصبح على عدونا أن يختار ساعة البداية. . أن يختار الزمان وأن يختار الميدان.

ودخلت إلى حجرتي، ورقدت في سريري وهذه الخواطر ترقد معي. . على فراش من الأمل والرجاء، وتحت غطاء من الخوف والفزع!!

وانتصف الليل، وأنا صريع آمالي ومخاوفي، ليولد اليوم المشؤوم، الخامس من حزيران/ يونيو. . لأسافر في الصباح إلى عمّان لأحضر حفل توقيع الاتفاق المشترك بين الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق، والحسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية.

وعاد السؤال القديم يؤرقني: لمن النصر في هذه الحرب؟

كان عقلي ينبئني بأننا غير مستعدين للحرب.. وغير مستعدين للنصر.

كان عقلي معي في آخر اجتماع لمجلس الدفاع المشترك، قبل بضعة أسابيع.. واستمعت إلى التقارير العسكرية بأننا بحاجة إلى مزيد من التسليح والتدريب قبل أن نخوض المعركة.

ولكن فؤادي طغى على عقلي، فقد سمعت في هذه العشية رجلاً عسكرياً وسياسياً هو الرئيس عبد الناصر ينهي خطابه بقوله: «وسننتصر بإذن الله.. ستنتصر الأمة العربية.. ».

وسمعت كذلك رجلاً عسكرياً وسياسياً هو الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق يقول في خطابه: «وسننتصر وننتصر بإذن الله.. ».

ونمت على هذه الأماني والأحلام، كما نامت معي أمة بأسرها، وكان ذلك ليلة الخامس من حزيران/ يونيو.. وقد غفلت عن قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**أفأَمِن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) المصدر نفسه، «سورة الأعراف،» الآية ٩٧.

الخامس من حزيران/يونيو..
بين النصر والهزيمة

استيقظت صبيحة الخامس من حزيران/ يونيو، ووددت لو أني ما استيقظت لأمضي في السبات الأبدي، فلا أرى ما رأيت، ولا أسمع ما سمعت عن حرب الأيام الستة، ولا أعيش الأعوام الستة التي تمر اليوم على الكارثة من دون أن أرى النهاية أو بداية النهاية. . .

واستيقظت معي آمالي وأحلامي، ومخاوفي وآلامي. . . ونهضت من فراشي إلى شرفة غرفتي في فندق الأمباسادور، ووقفت أتمطّى أمام بيت المقدس، أُجيل الطرف في أحيائها القديمة والجديدة، أتنفس نسائمها الحلوة الندية، وأستمتع بشمسها الساطعة، وللقدس شمس لا تطاولها شمس، وسماء لا تدانيها سماء. . .

ومن غير ما سبب أعرفه طال وقوفي في الشرفة ذلك الصباح على غير عادتي. . لعله الإحساس بالكارثة قبل وقوعها، وهو إحساس بعض الحيوانات والطيور تستشعر الزلازل والبراكين قبل وقوعها، فتأخذ بالصراخ والعواء. . . وإذا كان الحيوان يملك هذه الحاسة العجيبة، فلِمَ لا يملكها الإنسان؟

ووقفت طويلاً أُجيل الطرف في مدينة القدس، حياً حياً، شارعاً شارعاً، ومنزلاً منزلاً. . تماماً كالاستعراض العسكري حين يمر الجنود موكباً موكباً. . ورحت أتذكر.

هنا حي «ميشوريم» حيث يسكن اليهود القدامى بكل قاذوراتهم وضجيجهم وشجارهم.

وهنا باب الخليل الذي كنا ننطلق منه إلى القدس الجديدة، بأحيائها المشرقة الزاهرة.

وهنا «المسكوبية» حيث كنا نترافع أمام المحاكم في عهد الانتداب البريطاني دفاعاً عن أبطال شعبنا الميامين في نضالنا ضد الاستعمار والصهيونية.

وهنا أحياء «الطالبية» و«القطمون» و«البقعة» حيث دورنا الزاهرة التي بناها أهل بيت المقدس، وكان أجمل جمالها حجارتها الوردية.

وهنا جبل صهيون حيث أنشئت مدرسة صهيون الإنكليزية، وقد نشأت فيها مع أجيال سابقة، وأخرى لاحقة. . . لنشهد جميعاً الكوارث السابقة واللاحقة.

وهنا مقبرة باب الساهرة تضم رفات الصحابة الأوائل الذين شهدوا فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة الجراح، وخالد بن الوليد وغيرهم من رواد الدعوة الإسلامية وطلائعها المشرقة.

وهنا المسجد الأقصى، وقد أذّن فيه مؤذن الرسول عليه السلام بلال الحبشي بعد أن تسلّم عمر بن الخطاب مفاتيح بيت المقدس، وبكى الصحابة المجاهدون، فقد تذكروا الرسول العظيم، فهذا أول أذان يؤذنه بلال بعد وفاة النبي المصطفى وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وهنا جبل المكبّر حيث كبّر المسلمون وهم يستقبلون عمر بن الخطاب الذي وفد من المدينة المنوّرة ليستلم مفاتيح بيت المقدس.

وهنا جبل الطوري «الثوري» حيث سقط أحد رجال صلاح الدين شهيداً، حين لم يجد فرساً فركب ثوراً، وراح يقاتل ويناضل حتى هوى في ميدان المعركة.

وهنا الروابي التي لا تزال تردّد تعاليم السيد المسيح بالدعوة إلى الحق والعدل والمحبة والسلام.

وهنا المدرسة الصلاحية وسائر المنشآت التي أقامها صلاح الدين الأيوبي بعد فتح القدس، واستخلصها من أيدي الصليبيين، وغمرهم بالسماحة والأمان.

وهنا وهنا. . . من الآثار والأسوار، والمساجد والكنائس والأسواق والفنادق، ما تغوص فيه ذاكرة التاريخ، فضلاً عن ذاكرة الإنسان.

وبين كل هذه المشاهد وقفت أمام المسجد الأقصى، أتأمل جلاله وقدسيته، وأتذوق سناءه وبهاءه، واستذكر تاريخه، ورحت أرسل إليه النظرات عميقة واجدة، مولّهاً مدنفاً.

وداومت النظر إلى بيت المقدس، كلها، أتأملها، أحدّق فيها. . . تماماً كما يفعل الوالد يوم يودّع ولده وهو في طريقه إلى ميدان المعركة، يتابع خطواته

بنظراته وخفقاته، وهو لا يدري إذا كان سيسقط أسيراً، أم شهيداً، أم يعود منتصراً ظافراً.

ونفضت نفسي من هذه الرؤى التي اختلط فيها الخوف بالرجاء، فقد أطلت الوقوف على غير عادتي في هذه الشرفة، وعدت إلى غرفتي وأعددت نفسي للسفر إلى عمّان، فأنا على موعد مع الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق لتوقيع اتفاقية الدفاع المشترك مع الملك حسين.

وخرجت من الفندق إلى سيارتي.. وكان كل شيء عادياً، فالزائرون في الفندق يروحون ويغدون، ولم يكن أحد يدري ماذا يجري في فجر ذلك اليوم على أرض مصر، فقد كانت الإذاعات العربية في صبيحة ذلك اليوم الأغبر على عادتها: القرآن الكريم، حديث ديني، ونشرة الأخبار.. وكانت الأخبار عادية.

وركبت السيارة، وأنا أقول للسائق: «إلى عمّان... إلى السفارة العراقية».

والسائق يقول: «حمى الله العراق.. سمعنا بالأمس خطاب الرئيس عبد الناصر والفريق طاهر يحيى.. إن شاء الله القوات العراقية تصل قريباً، لتنضم إلى الجيش الأردني في المعركة».

قلت: «إن شاء الله».. وسكتّ.. فقد كانت خواطر القدس تشدّ عقلي وفؤادي ولساني... وسارت بنا السيارة في ذلك الطريق الأفعواني منحدرة إلى أغوار نهر الأردن والبحر الميت... وأحسست بأن قلبي يهبط في جوفي، فقد عاودتني أفكاري السوداء، وأحسست كما لم أحسّ من قبل في «حياتي المقدسية» أني خلفّت القدس ورائي تحت سحابة من الكآبة، في مثل شعور الإنسان وهو يترك وراءه وحيدته الصغيرة الوديعة في غابة من الوحوش الكواسر، والأفاعي الأوابد.

ومضينا في الطريق.. أنا ساهم واجم، والسائق يداعب الراديو فينتقل من محطة إلى محطة، وإذا بإذاعة القاهرة تنطلق منها الأناشيد العسكرية... وإذا بالمذيع يصيح: «ترقبوا أخباراً مهمة».. وكان صمت كصمت البحر الميت على مقربة منا.

وانطلق المذيع يعلن: «لقد بدأت القوات الإسرائيلية بالهجوم على مصر... تصدّت القوات المصرية للعدو.. بدأت إسرائيل عدوانها في الساعة التاسعة من صباح اليوم بغارات جوية على القاهرة وجميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة، وتصدّت طائراتنا وأسلحتنا المضادة للطائرات.. ». ثم راح المذيع يناشد «إخوة

الحرب في الأردن وسوريا أن يزحفوا على إسرائيل ويدمروا الصهيونية. . . ».

وبعد فترة من الأناشيد الحماسية استأنف المذيع صائحاً: «إن الجيش العربي الموحد يزحف الآن من دمشق وبغداد وعمّان إلى مكان الالتقاء في تل أبيب. . ». ورفع السائق يديه عن مقود السيارة، وراح يصفق بكلتا يديه، ويكاد يخرج من السيارة بجسده وروحه لينضم إلى المعركة. . ويتركني أنا والسيارة في جحيم الأغوار.

أما أنا، فقد رفعت يدي إلى رأسي أستر بها دموعي المنسابة على وجهي، وكانت تلك واحدة من المرات القليلة التي بكيت فيها في حياتي.

وكان بكائي لا لأني خائف من نكبة كبرى تحلّ بنا، فلم أكن أظن أن هزيمة ساحقة ستنزل بنا، ولكني لم أكن واثقاً من نصر مؤكد. . . ومن أجل ذلك كان بكائي.

وطلبت من السائق أن يهدئ روعه المتقد، وكنت في حاجة إلى من يهدئ روعي الكئيب. . ولكن كيف يهدأ روعه وروعي، والمذيع في القاهرة يواصل صيحاته، فترة بعد فترة:

ـ أسقطنا ٢٣ طائرة إسرائيلية حتى الآن في الغارات التي شنتها إسرائيل علينا صباح هذا اليوم.

ـ ارتفع عدد الطائرات الإسرائيلية التي أسقطناها حتى الآن إلى ٤٢ طائرة.

ـ إن إجمالي الطائرات التي أسقطت للعدو حتى الآن ٤٤ طائرة إسرائيلية، وسقطت اثنتان من طائراتنا والطياران سليمان.

ـ تم استجواب أول أسير من طياري العدو، الكابتن مردخاي، وظهر تماماً من إفادته أن العدو الإسرائيلي هو الذي بدأ بالهجوم المسلح على الجهة المصرية.

ـ أسرت قواتنا سبعة طيارين آخرين للعدو في منطقة القنال.

ـ لا تزال عملية الإغارة الجوية للعدو على مطاراتنا مستمرة، وقد أصبح عدد الطائرات الإسرائيلية التي أسقطناها سبعين طائرة.

ـ اضطر العدو إلى أن ينسحب من خان يونس بعد قتال عنيف، وبعد أن تصدت له القوات الفلسطينية والأهالي الفلسطينيون داخل المدينة، وقد دمرت للعدو أعداد كبيرة من دباباته قبل انسحابه.

ولقد أدركت منذ اللحظة الأولى أن إسرائيل قامت بهجوم جوي مفاجئ على

مصر، تستهدف تدمير الجيش المصري، باعتباره القوة العربية الكبرى التي تخشاها إسرائيل وتحسب لها حساباً جدياً، ولكن..

ولكن إلى ذلك الحين، وأنا عليم بظروفنا العربية العسكرية المخلخلة، لم أكن أتوقع هزيمة ساحقة.. وكل ما كنت أخشاه أن تنتهي الحرب بخسائر متعادلة.. ويتأجل أمل التحرير سنوات أخرى، تضاف إلى العشرين سنة الماضية.

غير أنه ساورني الغضب والخوف من أن إسرائيل قد كسبت مبادرة المفاجأة بعد حملة مخططة منفذة من التمويه والغدر والخداع، وليس لنا أن نشكو من ذلك، فمنذ عهد الحجارة إلى عهد الصواريخ، والحرب غدر وخداع.

وفي الطريق إلى عمّان، حيث لم أجد قوات عسكرية تتحرك، لا أردنية ولا عراقية ولا سعودية ولا أية مظاهر عسكرية، رحت أستذكر الخداع الإسرائيلي، ففي الأسبوعين الماضيين:

تذكرت أن الجنرال موشى ديان كان أول ما عمله بعد أن تم تعيينه وزيراً للدفاع أن أوعز إلى الصحف أن تنشر أخباراً مفادها أن الجيش الإسرائيلي الذي ينتظر الأوامر سيكون سعيداً إذا عرف أن الحكومة قد قررت ألا تبدأ الحرب.

وتذكرت أن موشى ديان نفسه عقد مؤتمراً صحافياً أول من أمس، أي نعم، أول من أمس (٣ حزيران/ يونيو)، أعلن فيه أن الموقف لا يزال بأيدي الدبلوماسيين وأن دور العسكريين لم يأت بعد، وأنه يفضل أن ينتظر نتائج العمل السياسي عقب إنهاء مجلس الأمن الدولي أعماله.

وتذكرت أن إسرائيل، مبالغة منها في الخداع والتمويه، قد منحت بالأمس، أي نعم، بالأمس ٤ حزيران/ بونيو ـ الأحد ـ إجازات لعدد من جنودها وضباطها، والتقطت لهم صوراً في المقاهي والملاهي، والمسارح والنوادي، ووزعتها على الصحف العالمية، حتى إن عدداً من المراسلين الأجانب قد اطمأنوا إلى الهدوء والسكينة، فعادوا إلى بلادهم ليقولوا لصحفهم «كل شيء هادئ في الشرق الأوسط..»، ولا داعي للبقاء في تل أبيب.

عبرت هذه الخواطر في نفسي وأنا لا أدري كيف عبر الوقت سريعاً في ذلك اليوم الخاطف، إلى أن وصلنا إلى السفارة العراقية في عمّان.. واقتحمت مكتب السفير العراقي لأجده وسط ضجة من الأناشيد العسكرية تبثها الإذاعات العربية.

وقلت: «الله بالخير.. ما هي آخر الأخبار... وهل وصل الفريق طاهر يحيى من القاهرة؟».

قال: «إن شاء الله خير.. خلاصة الأخبار أن سلاح الجو الإسرائيلي بدأ منذ صباح اليوم بغارات متلاحقة على مطارات الجمهورية العربية المتحدة، وقد وصلتنا برقية بأن الفريق طاهر يحيى لا ينتظر وصوله إلى عمّان اليوم، فقد قصفت الطائرات الإسرائيلية مطار ألماظه، وأصابت طائرته وهو يستعد للسفر، وقد أخبرت الملك حسين أننا متضامنون في المعركة، ومستعدون لتنفيذ مضمون اتفاقية الدفاع المشترك حتى إذا لم يتم التوقيع عليها في عمّان».

قلت: «والقوات العراقية، هل وصلت إلى الأردن؟».

قال: «إنها تصل تباعاً في هذا اليوم.. وأنت سامع الآن الاتصال التلفوني مع بغداد بشأن الأمور العسكرية المستعجلة».

ولم أكن في حاجة إلى أن «أتسمع»، فقد كان أحد الضباط العراقيين يصيح على التلفون بصوته الأجش، كما لو كان يصيح في ساحة التدريب، وهو يلحّ لإرسال «الإمدادات بأقصى سرعة، فقد بدأت المعركة، سامعني.. سامعني».

وخرجت من السفارة العراقية ملهوفاً مذهولاً، من غير سلام ولا وداع، وأنا أسمع صوت الضابط العراقي إلى الشارع، وهو يكرّر طلب الإمدادات.. وأنا أقول في نفسي: «ما أتعس الأمة العربية بحكامها.. لماذا لم يستطع الحكام العرب أن ينشئوا شبكة اتصال عسكرية بين العواصم العربية لمثل هذه الأيام العصيبة».. ولكنني رجعت إلى نفسي واستدركت، وتذكرت أن الحكام العرب لم يستطيعوا أن ينشئوا شبكة تلفونية جيدة في بلادهم، فإن كل همهم أن ينشئوا أجهزة جيدة للاستماع إلى المخابرات التلفونية بين المواطن والمواطن.. ويا شقاء الأمة العربية بملوكها ورؤسائها!!

وعدت إلى السيارة لأجد السائق مشغولاً مع الراديو يدير مفتاحه يميناً ويساراً بحثاً عن الأخبار.. وقلت له: «نذهب الآن إلى مقر القيادة الأردنية».

وما إن تحركت سيارتنا حتى بدأت الإذاعة الأردنية تذيع السلام الملكي الأردني يتبعه خطاب من الملك حسين من أرض المعركة «كذا»، موجه «إلى الإخوة المواطنين، والإخوة العرب في كل مكان، وإلى إخواني في القوات المسلحة العربية، وإلى إخواني على الخط الطويل».

وكان خطاب الملك حسين على غير العادة بعيداً عن العبارات المزركشة التي يجيدها ديوان الإنشاء في القصور الملكية.. وأيقنت أن الذي كتبه هو أحد ضباط التوجيه المعنوي في القيادة الأردنية ممن لا يجيدون صناعة البديع والبيان.

وقد بدأ الملك حسين خطابه بقوله: «هذه هي الساعات التي يجب على كل واحد منا أن يؤدي واجبه في سبيل وصولنا إلى أهدافنا، كما توقعنا تماماً قام العدو صباح اليوم بالهجوم والاعتداء على أرضنا العربية، على أجوائنا وعلى أرضنا، على مطاراتنا، على مدننا، وكنا نتوقع هذا.. لقد وضعت القوات المسلحة مجموعها في هذا البلد بأمر عسكري من خيرة قادتنا العرب، الفريق أول عبد المنعم رياض وهو الآن يمارس مهمته... كلنا جنود في المعركة.. وتأكدوا بأن قواتنا المسلحة وشعبنا والأمة العربية ستجتاز الامتحان وتصل إلى الهدف... أرجوكم منتهى ضبط النفس والمحافظة على النظام... وأن تكونوا على استعداد لتنفيذ التعليمات التي تصدر إليكم من الأجهزة المسؤولة... كلنا جنود، ونحن على أبواب المعركة الفاصلة، وقد بدأت هذه المعركة فعلاً، ونرجو أن يكون في نهايتها النصر الذي نتمناه ونعيش من أجله وعشنا سنين طويلة، ونحن مصممون إما حياة شريفة أو نموت بشرف في الدفاع عن كل عربي على قلب عربي... أشكركم».

وكنا كأننا على موعد في التوقيت، فقد وصلنا إلى مبنى القيادة حيث انتهى الملك حسين من خطابه، واجتزت مراكز الحراسة، والأبواب الحديدية، ونزلت الدرج إلى غرفة العمليات العسكرية، وكانت أول مرة في حياتي أدخل فيها إلى الغرفة المحرمة، حيث يقودون الحرب تحت الأرض بعيداً عن الميدان.

وكانت الغرفة قاعة واسعة رحبة، فيها عدة طاولات، على كل منها عدة تلفونات، والجدران مليئة بالخرائط، وأجراس التلفون تقرع على كل طاولة، يتناولها هذا الضابط وذاك، وهو يروي بصوته ما يسمع، ثم يسجل الوقائع باللغة الفكرية الموجزة.

وكان في الغرفة الملك حسين، والفريق عبد المنعم رياض، واللواء عامر خماش رئيس هيئة الأركان الأردنية، واللواء الشريف ناصر (خال الملك حسين)، واللواء عاطف المجالي من كبار الضباط الأردنيين في القيادة العربية الموحدة، وعدد آخر من الضباط الأردنيين.

وفي غرفة مجاورة كان الضباط المصريون، معاونو الفريق عبد النعم رياض، يتلقون منه التعليمات، ويأتونه بالبرقيات حيناً بعد حين...

كانت غرفة العمليات مشحونة بجو الحرب.. وسلمت على الملك حسين، والفريق عبد المنعم رياض والضباط الآخرين.. ولم يتسع المجال لأي كلام غير الأسئلة العابرة...

وقلت للفريق رياض: «هل من كلمة موجزة عن الموقف العسكري على كل الجبهات العربية، فقد غادرت القدس صباح هذا اليوم، والناس في شؤونهم في الشوارع كباقي الأيام المعتادة، والقطاع الإسرائيلي في القدس الجديدة كان هادئاً.. فما الذي جرى؟؟».

قال: «ملخص البرقيات التي وردتنا من القاهرة أن الطيران الإسرائيلي قام بغارات متوالية على مطارات الجمهورية العربية المتحدة، والمعركة محتدمة، وقد أبرق إليّ المشير عبد الحكيم عامر صباحاً يقول إن طيراننا قد أعطب ٧٥ بالمئة من الطيران الإسرائيلي، وأن سلاحنا الجوي قد دمر عدداً من المطارات الإسرائيلية، وأن جيشنا في طريقه إلى النقب.. وتقديري أن إسرائيل بهذه المفاجأة تستهدف ضرب السلاح الجوي المصري وتفتيت الجيش المصري بحيث يمكن إخراج مصر من المعركة... ولكنهم لن يستطيعوا تحقيق هذا الهدف بحول الله».

قلت: «والجبهة السورية، والقوات العراقية؟؟».

قال: «الجبهة السورية فيها مناوشات وتبادل إطلاق النار، وتقوم بعض أسراب سلاح الجو السوري بقصف مواقع العدو، ولكن القوات السورية الآلية لم تتدخل بعد بمعركة شاملة مع العدو.. وقد طلبت صباح اليوم من الطيران السوري إسناد الجبهة الأردنية، غير أن إخواننا في دمشق أجابوا بأنهم فوجئوا بالمعركة، وطلبوا إمهالهم بعض الوقت، واتصلت بدمشق مرة ثانية، فطلب الإخوة مهلة ثانية، وبعد ذلك طلبت منهم أن يرسلوا قوات مدرعة لإسناد قطاع جنين، ولكنهم اعتذروا بأنهم لا يملكون غطاء جوياً كافياً».

وتابع الفريق رياض كلامه قائلاً:

«أما القوات العراقية، فقد بدأت تصل صباح هذا اليوم وهي في طريقها إلى الجبهة الأمامية... الصعوبة التي نواجهها أن القوات الأردنية تقاتل ببسالة وشجاعة، ولكن من غير غطاء جوي كاف.. ولعلنا نستطيع غداً أو بعد غد إقحام الطيران المصري والسوري في المعركة.. فالطيران العراقي والأردني غير قادرين على حماية الجبهة الأردنية وحدهما».

قلت: «والقوات السعودية المرابطة على الحدود الأردنية السعودية، ألا يمكن استخدامها؟».

قال: «القوات السعودية بعيدة عن ميدان المعركة.. وهي غير مهيأة للقتال، فإن أسلحتها خفيفة ومتوسطة.. وفضلاً عن ذلك، فقد ذكر لي قائد القوات

السعودية أنه لا يستطيع أن يتحرك إلا بأمر من جلالة الملك فيصل، ولا ندري متى يصل هذا الأمر!!».

وانصرف عبد المنعم رياض والضباط إلى الخارطة المعلقة على الجدران، يدرسون ويتباحثون، والملك حسين وأنا، نستمع ونراقب، كل منا في كرسيه.

وكان اللواء المجالي يجادل زملاءه الضباط في تفصيل هذا الرأي أو ذاك، وهو يثبت أصابعه على مواضع مختلفة من الخريطة، من جنين شمالاً إلى الخليل جنوباً.

والمجالي يعرف طبيعة الأرض معرفة جيدة، فوق مقدرته العسكرية.. وكان يحاول أن يستميل الفريق عبد المنعم رياض إلى رأيه في خلافه مع زملائه الضباط الأردنيين الآخرين.. وبدا المجالي ذكياً صارماً لامعاً وهو يقف بقامته الطويلة أمام الخريطة.

وكان الحوار، بقدر ما تسرب إلى سمعي وسط أجراس التلفون ووقع أقدام الضباط وهم يروحون ويغدون، يدور حول تحريك القوات العسكرية وتبديل مواقعها... وملت إلى الملك حسين وأنا أسأله: «ما هي خلاصة الموقف.. «يا سيدنا»؟

فقال: «الموقف الآن غير واضح تماماً.. الأخبار الأولية التي وصلتنا تفيد بأن إسرائيل قامت صباح هذا اليوم بهجوم بري وجوي على مصر.. وأن سلاح الجو الإسرائيلي يقوم بغارات متوالية على مطارات الجمهورية العربية المتحدة... وقد تلقى الفريق رياض برقية من القاهرة تنبئ أن المعركة شاملة بين إسرائيل ومصر، وأن القوات المصرية تتصدى للقوات الإسرائيلية بثبات وبسالة».

قلت: «والموقف بالنسبة إلى الجبهة الأردنية؟».

قال: «المعركة بيننا وبين إسرائيل بدأت في الساعة الحادية عشرة... وقواتنا مشتبكة مع إسرائيل على الجبهة كلها».

وانضم إلينا الفريق رياض ومعه اللواء الخماش، واللواء المجالي، واللواء الشريف ناصر، وقال الفريق رياض:

«لقد استعرضنا الموقف، وأرى أن نصدر أمراً إلى لواء المدرعات الأردني الستين ليتحرك من مراكزه الحالية في قطاع القدس وينتقل إلى لواء الخليل، ومنه قطاع بئر السبع الذي تحتله القوات الإسرائيلية، ليلتقي بالألوية المصرية المدرعة الزاحفة من سيناء صوب إسرائيل.. وأن يتجه لواء المدرعات الأردني الأربعون المتمركز في قطاع جنين إلى القدس، ليحلّ محل اللواء الستين.. وأن نطلب من

القوات السورية مرة ثانية أن تتقدم إلى قطاع جنين لتحل بدورها محل اللواء الأردني».

وقال الملك حسين: «المهم ألا يتعرض الجيش إلى خسائر فادحة وهو ينفذ هذه الأوامر».

وسألت بدوري: «وما هو موقف العمليات في الوقت الحاضر؟».

فقال اللواء عامر خماش: «المعارك دائرة بيننا وبين القوات الإسرائيلية على طول الجبهة».

وقال الفريق رياض: «لقد أصدرنا الأوامر باحتلال جبل المكبر (سكوبس)، فهذا مركز استراتيجي مهم، دفاعاً وهجوماً. . دفاعاً عن القدس القديمة، وهجوماً على القوات الإسرائيلية في القدس الجديدة».

وما هي إلا لحظة حتى دقّ جرس التلفون، وصاح الشريف ناصر وهو يمسك بيده التلفون ليردّد النبأ من القيادة الأمامية: «احتلت قواتنا جبل المكبر بعد معركة حامية بالسلاح الأبيض، وقد دمرنا دبابات العدو، وتكبد العدو خسائر فادحة».

وانصرف الفريق رياض إلى الخريطة هو والضباط الأردنيون، وساد القاعة جو من الفرح والحماسة، وكدنا نكبّر، كما كبر المسلمون الأوائل على هذا الجبل الأشم، قبل ثلاثة عشر قرناً من الزمان.

وأصدر الفريق رياض باسم القيادة العربية المشتركة بلاغاً. . . «إن القوات العربية المشتركة قد استولت على جبل المكبّر، وإن العدو قد فرّ من جنوبي القدس بعد أن تكبد خسائر فادحة في الأرواح والسلاح. . ».

ثم بدأت البرقيات تتوالى على غرفة العمليات من المراكز الأمامية.

ـ القتال يدور على كل الجبهات، نحن نكبد العدو خسائر فادحة على رغم تفوقه العددي.

ـ بدأ الإسرائيليون يقصفون من كنيسة نوتردام، ومدفعيتنا تقصف تجمعات العدو ومعسكراته.

ـ نيران هائلة شبّت في منطقة المستعمرات الخمس نتيجة لضرب مدفعيتنا.

ـ قواتنا الأرضية أسقطت طائرة للعدو في منطقة الخليل.

ـ مدفعيتنا أسقطت طائرة إسرائيلية من نوع ميراج فوق المفرق، وطائرة أخرى فوق غور الصافي.. وطائرة أخرى فوق منطقة السموع.

كانت هذه الأخبار الهاتفية يتلقاها ضباط القيادة ويردّدونها بأصواتهم العالية، ونحن نسمعها نبأ بعد نبأ، والفرحة تغمرنا، فالمعركة تسير على نحو يدعو إلى الاطمئنان، وأن نصر الله قريب.

وفتح أحد الضباط الراديو على الإذاعة الأردنية، فإذا بالمذيع الأردني يعلن بأعلى صوته: «إن مجموع ما حطمه جنودنا البواسل خمسون طائرة مقاتلة.. ».

وقلت للملك حسين: «الزيادة في خسائر العدو، والنقصان في خسائرنا، هما من ضرورات الحرب.. هذا لا شك فيه.. ولكن لو تفضلتم جلالتكم بإصدار الأمر بعدم المبالغة في الزيادة والنقصان، ما أظن أن المواطن العربي تجوز عليه هذه المبالغات».

فقال: «هذه ملاحظة مفيدة يا أخ أحمد.. ليتك تنصح إذاعة القاهرة كذلك.. إن أحمد سعيد قد أسقط في إذاعة صوت العرب ما لا يقل عن مائتي طائرة إسرائيلية حتى الآن».

قلت: «إن سكان مصر ثلاثون مليوناً. والمبالغات تضيع بين الإسكندرية وأسوان، والقاهرة وسيناء.. أما الرقعة الأردنية الصغيرة فسرعان ما تنكشف فيها المبالغات».

ودخل علينا في هذه البرهة وصفي التل رئيس الديوان الملكي، وهو بملابسه العسكرية، والغليون في فمه، وفي وجهه أمارات الشماتة والحقد.

وما إن طاف على الضباط مسلّماً حتى كان هدير الطائرات الإسرائيلية يمزق سماء عمّان، وبدأ القصف كأنه على موقع القيادة الأردنية، وعلى غرفة العمليات بالذات، ثم بدأت تتوالى الأسراب الإسرائيلية تقصف وتدمر، والمدفعية الأردنية تبادلها النار..

وتوقف القصف وهدأت أجواء عمّان، ودق جرس التلفون وأمسك به الشريف ناصر، وراح يردّد: «قصف العدو مطار عمّان، ودمر كل طائراتنا على أرض المطار واستشهد مازن العجلوني وهو يحاول الطلوع بطائرته».

ودقّ جرس التلفون مرة ثانية وأمسك به اللواء عامر خماش وردّد:

«قصف العدو مطار المفرق ودمر منشآت المطار وعدداً من طائراتنا..».

وضرب وصفي التل يداً على يد وهو يقول: «لقد فقدنا جميع طائراتنا.. سلاحنا الجوي الذي بناه سيدنا كل عمره قد ضاع في دقائق».

والتفت إليّ وصفي التل، كما لو أني تقمصت جمال عبد الناصر جسداً وروحاً، وقال بصوت مملوء بالشماتة والسخرية: «وأين سلاح الجو المصري، وأين الميغ ١٧ و٧٠؟».

ثم التفت إلى الفريق عبد المنعم رياض وقال: «كان الاتفاق أن تقوموا بغارات جوية على إسرائيل في أول ساعات القتال.. أين صواريخكم الظافر والناصر والقاهر؟!!».

وراح التل يرغي ويزبد، وهو يشير بغليونه إلى الخارطة المثبتة في الجدار.. وسكت الفريق رياض وأنا معه، فإن المجال لا يتسع للحوار مع حاقد شامت في غرفة العمليات العسكرية، والمعركة محتدمة على طول الجبهة العربية.

والتفت إلى الملك حسين لأدير الحديث إلى وجهة أخرى.. وقلت: «وكم عدد الطائرات الأردنية؟».

قال: «كل ما نملكه اثنتان وثلاثون طائرة هوكر هنتر.. ويمكننا اعتبارها مدمرة بعد هذه الإغارة الإسرائيلية».

قلت: «الذي أعلمه أن الولايات المتحدة كانت ستسلمكم ٣٦ طائرة مقاتلة من طراز ستار فايتر «ف ـ ١٠٤»، فماذا تم في هذا الموضوع؟؟».

قال: «كان المفروض أن نستلم هذه الصفقة في الشهر الماضي ـ ولكن حين تأزم الموقف في الشرق الأوسط لم يسلموا الطائرات».

قلت (وفي عزّ الأزمة): كانت أمريكا تواصل إمداد إسرائيل بطائرات الفانتوم رغماً عن تفوقها الجوي؟؟!!».

وانبرى وصفي التل يدافع عن موقف الولايات المتحدة وهو يقول: «الحقيقة أن أمريكا كانت سترسل إلينا هذه الطائرات في الأسبوع الماضي، ولكن حين تم توقيع اتفاقية الدفاع المشترك بين عمّان والقاهرة توقفت أمريكا عن التسليم، وهذه معلوماتي من السفارة الأمريكية.. و.. و.. !!».

وفيما كان وصفي التل يواصل حديثه وإذا ببرقية لاسلكية من الضباط الأردنيين في سلاح الجو الملكي الأردني يناشدون فيها الملك حسين أن يسمح لهم: «بالانضمام إلى سلاح الجو العراقي لاستمرار المشاركة في المعركة المقدسة ضد العدو».

وصمت الملك حسين قليلاً. . وقال الفريق عبد المنعم رياض: «إذا وافق جلالة الملك نصدر إليهم أمراً بالالتحاق بالقوات العراقية في «H3» حيث تسلم إليهم الطائرات العراقية هوكر هنتر وأنتم مدربون عليها».

فأومأ الملك حسين بالموافقة، وصدرت الأوامر على هذه الصورة. . ووجدتها فرصتي الذهبية، فالتفت إلى وصفي التل وقلت: «أرأيت. . هذه هي روح الأمة العربية متمثلة في أبطالنا نسور الجو الأردنيين، فقدوا طائراتهم في الأردن، ولكنهم سيقاتلون اليوم بطائرات عراقية، ومن قواعد عراقية. . ». وهذا ما جرى فعلا طيلة أيام المعركة، فقد انضم النسور الأردنيون إلى النسور العراقيين. . ما أعظم الشعب وما أحطّ الحكام. . .

وأقبل علينا أحد الضباط المصريين مهرولاً من الغرفة المجاورة، وسلم الفريق عبد المنعم رياض ورقة. . فاقترب منا الفريق رياض وسلمها إلى الملك حسين، فإذا بها برقية من القاهرة تقول: «اطمئنوا سنقوم بغارات شاملة على إسرائيل هذه الليلة، المعركة مستمرة، نسأل الله النصر. . التوقيع: القيادة العليا للقوات المسلحة».

ولمعت فرحة كبرى في القاعة، وتبادل الضباط النظرات الحلوة بعضهم إلى بعض، ونظرت إلى ساعتي أجمع وأطرح لأعرف كم بقي على مغيب الشمس، فإن جيلنا لم يعد يعرف موعد الغروب، على الساعة الإفرنجية، إلا أيام رمضان. . .

واستمرت غرفة العمليات تتلقى أنباء العمليات من جميع الجهات، وأنا لا ألقي بالاً إليها، فإن الجهة الأردنية على أهميتها الاستراتيجية لا تحسم المعركة، فالجيش المصري هو القوة الضاربة الكبرى في الأمة العربية، فإن انتصر انتصرنا، وإن انكسر انكسرنا.

وكان كل بالي منصرفاً إلى عقارب الساعة في يدي، أنظر إليها حيناً بعد حين. . لأحسب موعد غروب الشمس، فذلك عندي موعد شروق النصر.

وطال حسابي، وطال انتظاري، ولم يكن قد مضى على برقية القاهرة أكثر من نصف ساعة، حسبتها مائة ساعة، وفقدت صبري واشتد غيظي على الشمس. . . لِمَ تسر بطيئة في كبد السماء. . وخطر لي أن ساعتي لا تعمل بانتظام فرحت أسأل الضباط عن ساعتهم، وأيقنت أن الخلل ليس في ساعتي ولكنه في نفسي.

وامتد النهار طويلاً طويلاً في ذلك اليوم بما لم أر مثله في حياتي، ونحن نتابع أنباء المعركة، وأنا أشغل نفسي بخيالي. . أتخيل الأسراب المصرية هذه الليلة وهي تدق إسرائيل دقاً. كما قال الله في كتابه الكريم: ﴿**دُكت الأرض دكاً دكاً**﴾[1] صدق الله العظيم.

وهمّ الملك حسين بالانصراف ومعه وصفي التل، فودع وانصرف. . . وانسحب الفريق رياض إلى الغرفة المجاورة ليضطجع بعض الوقت. . وانصرفت بدوري إلى فندق الأردن، لا لأنام وأستريح، ولكن لأحيي هذه الليلة كلها في انتظار الغارات الشاملة على إسرائيل.

وقد سررت وأنا في طريقي إلى الفندق أن الشمس قد غابت أخيراً، وصعدت إلى غرفتي فوجدت نوافذ الفندق مفتوحة على مصاريعها، فقد صدرت التعليمات أن «تفتح النوافذ وقاية من الغارات الجوية». . وكانت هي الوقاية الوحيدة في البلد، فلم يكن فيها ملاجئ تقي الشعب من الغارات، ولم يكن فيها أكياس رمل، ولا خنادق ولا دفاع مدني. . وكذلك كان حال العواصم العربية الأخرى، وما أشقى الأمة بملوكها ورؤسائها!

وخلعت ثيابي وتمددت على السرير، وطلبت من موظفي منظمة التحرير أن يزوّدوني بأربعة أجهزة راديو. . لأسمع أربع إذاعات في وقت واحد: القاهرة، وعمّان، ودمشق، وإسرائيل.

وهكذا كان، فقد أثبت أجهزة الراديو الأربعة على الإذاعات الأربع حتى لا يفوتني خبر. . ولو دخل عليّ أحد في تلك الليلة. . لحسبني واحداً من المجانين. . . ومثل هذه الأعراض لم تكن تنتابني وحدي، فقد كانت الأمة بأسرها محمومة مجنونة.

وسمعت أول ما سمعت إذاعة معادة لخطاب د. نور الدين الأتاسي يقول فيها: «لقد وقعت ساعة النصر على أعداء العروبة. . إن الصهاينة الغزاة قد حفروا قبورهم بأيديهم عندما أغاروا صبيحة هذا اليوم على الأرض العربية في الجمهورية العربية المتحدة. . لقد قررنا أن تكون معركتنا هذه معركة تحرير نهائي للأرض المغتصبة من الاستعمار والصهيونية، ولن تقف في وجه إرادة الشعب العربي المكافح أية قوة دولية في العالم. . لقد وضع الجيش العربي السوري كل قواه الضاربة في لهيب المعركة،

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الفجر،» الآية ٢١.

وإن نسورنا البواسل يدمرون منشآت العدو ومدنه، وهم في طريقهم لتحرير الأرض المغتصبة.. فإلى الأمام أيها الجيش العربي السوري والشعب كله في المعركة.. فلقد دقت ساعة النصر».

وواصلت الإذاعة السورية تلخيص البلاغات العسكرية التي صدرت طيلة النهار، وكانت خمسة وعشرين بلاغاً، وجميعها، ومن غير استثناء، تتحدث عن غارات جوية متقابلة بين سلاح الجو السوري وسلاح الجو الإسرائيلي، وكان آخر بلاغ عسكري يقول: «بلغ عدد الطائرات التي أسقطها سلاح الطيران السوري للعدو أربعاً وخمسين طائرة».

ثم نقل المذيع السوري مقابلة مع الطيار الإسرائيلي الذي أسقطت طائرته على الأراضي السورية، الملازم ابراهام زيلاك، فذكر أن الأوامر الصادرة إلى سلاح الجو الإسرائيلي تستهدف ضرب مطارات الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة وبني سويف وألماظة، وكذلك ضرب مطارات دمشق والضمير في سوريا.

واستشعرت منذ اللحظة الأولى وأنا أستمع إلى تلخيص الموقف العسكري من الإذاعة السورية أن النشاط العسكري السوري قاصر على التحرك الجوي، وأن قوات الجيش السوري لم تلتحم بعد في المعركة مع العدو... ولم أسمح لنفسي بسوء الظن، فهذه أيام الملحمة الكبرى ولا يتخلف عنها أي عربي.. وقدرت أنها قد تكون خطة عسكرية، وليس لعقلي أن يتجول في مجال لا أعرفه.

وراحت الإذاعة الأردنية تعيد البلاغات العسكرية التي أصدرها الناطق العسكري الأردني، وكلها عن الاشتباكات الأرضية والجوية بين القوات الأردنية والقوات الإسرائيلية.. وقد أفزعني آخر بلاغ أردني (الساعة ١١,٠٠ ليلاً) وهو يعلن: «أن العدو قام بهجوم واسع النطاق على المناطق الشمالية لمدينة القدس، وحاول يائساً احتلال مناطق الشيخ جراح والطور وشعفاط.. وأن قواتنا اشتبكت مع قوات العدو في المناطق الواقعة جنوب القدس وما زالت المعارك مستمرة في شمال القدس وجنوبها».

لقد فزعت حقاً.. فإذا كان العدو قد أصبح يقاتل في حي الشيخ جراح، «وهو من أحياء القدس».. وأن المعارك محتدمة في جنوب القدس، فمعنى ذلك أن إسرائيل في طريقها إلى القدس من الشمال والجنوب، ومعنى ذلك سقوط القدس غداً أو بعد غد.

خرجت إلى شرفة الغرفة، وأنا أرفع بصري إلى السماء، فقد عادت إليّ مخاوفي

على القدس.. ولم يبق أمامي إلا الله ومصر.. فعندهما الأمل والرجاء والنصر، ذلك أن الدول العربية في المشرق العربي دويلات لا تستطيع التصدّي لإسرائيل.. ورحت أسأل: «أفي هذه الليلة ينطلق سلاح الجو المصري على إسرائيل؟.. لقد غربت الشمس ودخل الليل، هل الأسراب الجوية المصرية تغير على إسرائيل في هذه اللحظة؟.. هل أصبحت تل أبيب حجارة وركاماً؟.. هل أصبحت دخاناً ورماداً..؟؟».

وهربت من خيالي وسؤالي إلى غرفتي وإلى الراديو لاستمع إلى آخر أخبار الإذاعة في القاهرة.

وكانت القاهرة تذيع أخبار بغداد بأن الطائرات العراقية ضربت مواقع العدو ومنشآته داخل إسرائيل، وأن القوات البرية تقدمت للزحف على تل أبيب، وأن بغداد شهدت تحركات عسكرية ضخمة، وأن حركة المواصلات تعطلت في بعض الشوارع لمرور القوات العسكرية، وأن اتصالاً هاتفياً جرى بين الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس عارف من جهة، واتصالاً آخر بين الرئيس عارف ود. نور الدين الأتاسي من جهة أخرى.

وكنت أحاول أن أبحث عن بلاغات مصرية تثلج صدري.... عن غارات جوية على إسرائيل، ولكن آخر بلاغ أصدرته القيادة المصرية كان في الساعة الثانية عشرة ليلاً جاء فيه: «إن قواتنا المدرعة خاضت معارك عنيفة مع العدو وتوغلت على أثرها في داخل الأراضي المحتلة من فلسطين، وذلك بعد أن تمكنت قواتنا من القضاء على هجوم العدو في منطقة الكونتيلا (سيناء) قام به مستخدماً لواء كاملاً من المشاة ومجموعة كاملة من الدبابات.. وقد تمكنت قواتنا من القضاء على هجوم العدو وتسلمت زمام المبادرة وتوغلت في الأراضي التي يحتلها العدو من فلسطين.. وأن مطارات العريش والقنال والقاهرة تعرضت لهجوم جوي قامت به طائرات العدو، وتم إسقاط ١١ طائرة للعدو، وبهذا أصبح عدد الطائرات التي أسقطناها للعدو ستاً وثمانين طائرة».

ثم أردف راديو القاهرة وأذاع بياناً أعلن فيه: «أن مدمرة مصرية ضربت قلب تل أبيب مساء اليوم».

ولم أجد في هذه البلاغات ما يشفي غليلي، فقد كنت أبحث عن غارات جوية مصرية شاملة تلك الليلة، وقلت في نفسي: لعل الضرورات العسكرية تفرض على القيادة العربية الكتمان؟.. لا بد من أن مصر بدأت تقصف إسرائيل هذه الليلة..

فقد كان هذا هو الوعد.. وهذا ما وعدت به برقية القاهرة التي وصلت إلينا في غرفة العمليات قبل ساعات.

وجاء دور الإذاعة الإسرائيلية، فلأستمع إليها، بالإنكليزية والعربية على السواء، فقد كنت متعطشاً إلى خبر سار أنام عليه... ولو على لسان العدو.

كان تلخيص الموقف العسكري على لسان إسرائيل من الصباح إلى منتصف الليل في غاية الاقتضاب، فقد بدأ بالقول: «إن القوات المصرية المدرعة تحركت فجر اليوم باتجاه النقب، وإن شاشات الرادار قد أظهرت اقتراب عدد كبير من الطائرات المصرية النفاثة من الشواطئ الإسرائيلية ومن مناطق النقب.. وإن مصر بدأت تشنّ هجوماً جوياً وبرياً.. وإن قتالاً جوياً وبرياً عنيفاً يدور بيننا وبين القوات المصرية.. ». كان ذلك على الجهة المصرية.

وفي مثل براءة الحمل تحدثت الإذاعة الإسرائيلية عن الجبهة الأردنية فقالت: «إن الجيش الأردني بدأ بقصف المستعمرات الإسرائيلية في المنطقة الوسطى.. وإن طائرات عربية هاجمت مستعمرة ناتانيا، وإن القتال انتشر في جميع قطاعات الجبهة الأردنية ـ الإسرائيلية، وإن طائرات هوكر هنتر الأردنية قد أخذت تقصف المواقع الإسرائيلية، وإن طائرتين سوريتين قد أسقطتا قرب قرية مجدّو... ». إلى هنا، فقد كانت أخبار الإذاعة الإسرائيلية محتملة غير مخيفة ولا مفزعة.

ولكني بعد ذلك وجمت وذهلت، فقد أعلنت الإذاعة الإسرائيلية عند منتصف الليل: «أن القوات الإسرائيلية استولت على مدينة جنين وعلى قرية النبي صموئيل قرب القدس».

وصاح الذعر في نفسي: «هل سقطت جنين؟، هل سقطت قرية النبي صموئيل؟... إذن أصبحت القدس تواجه خطر السقوط».

ومع أن القدس أحب مدائن الأرض إلى نفسي، فقد تصاعد وجومي وذهولي حين سمعت الإذاعة الإسرائيلية تقول: «استولت قواتنا على مدينة العريش التي تقع على بعد سبعين كيلومتراً داخل الأراضي المصرية في سيناء»، هكذا بكل بساطة، وبلا مقدمات وبلا ضجيج ولا عجيج!!

وكان خبر «العريش» أشد إيلاماً في نفسي من خبر «القدس»... فالجبهة الأردنية أمرها معروف عندي.. إنها لا تتحمل الصمود طويلاً.. ولكن سقوط العريش معناه اختراق الجبهة المصرية إلى عمق بعيد.. معناه.. معناه..

وراحت تدور المعاني المظلمة في نفسي.. غير أني ربطت جأشي، وتذكرت أحداث الحرب العالمية الثانية كيف كانت سجالاً.. كيف وصل هتلر إلى أبواب موسكو ثم انكسر واندحر.. وهكذا وضعت حجراً على مخاوفي.

واستسلمت إلى النوم ساعة أو بعض الساعة، فقد عشت هذه الليلة في ظلامين.. ظلام مخاوفي.. وظلام الغرفة المعتمة، خوفاً من الغارات الإسرائيلية.

ولم أدر كيف قضى الملوك والرؤساء هذه الليلة، أفي نور أم في ظلام؟.. ودعوت الله ألا يصدق فيهم قوله تعالى:

﴿**ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ١٧.

الملــوك والرؤســاء ليتهــم سقطــوا..

صحوت على أجهزت الراديو الأربعة في غرفتي وهي تنشد وتلعلع، فقد نسيت ليلة أمس أن أقفلها ساعة نومي، وهكذا بدأت نهاري بما انتهى إليه ليلي.. وكانت الإذاعات الأربع، القاهرة ودمشق وعمّان وإسرائيل، تذيع أخبار الحرب وأناشيد الحرب.

وكان أول ما استرعى سمعي قبل انتباهي السلام الملكي الأردني، فكان ذلك ايذاناً بأن الملك حسين سيخطب.. وهكذا كان، فبعد برهة وجيزة راح الملك حسين يخاطب الضباط والجنود في الجبهة وهو يقول: «إن اعتزازي بكم كان أبداً الشعار الذي أؤمن به، فقد أثبتم دائماً أنكم أبطال المعارك تلقون الموت بوجوهكم على أرض النار والفداء، في سبيل الشرف، في سبيل الكرامة، في سبيل العروبة، في سبيل فلسطين، وإنها اليوم لمعركتنا معركتكم التي تطلعنا إليها.. وكلي ثقة بعزيمتكم، بجرأتكم، بإخلاصكم وتفانيكم.. إن الموت أشرف من تمكين العدو من تدنيس أرضنا الطهور، وحاشا لله أن يسمح بذلك أحفاد خالد وصلاح الدين.... أما أنت أيها الشعب البطل... فليكن كل واحد منكم ظهيراً لأبطاله في المعركة، ولنستمت كلنا في الدفاع عن حقنا، عن أرض العروبة، عن أرض البطولات، وليسطع عملنا الباهر نوراً للأجيال العربية عبر التاريخ».

وإلى هنا، فقد كانت كلمة الملك حسين جيدة بإيجازها وخلوها من صناعة الإنشاء، وهذا أقل ما تتطلبه ظروف المعركة... ولكنني تقززت قرفاً والمذيع الأردني يقول: «تلك هي كلمة صاحب الجلالة التي وجهها من الجبهة الأمامية».

«الجبهة الأمامية»، ومتى كان الملك حسين في الجبهة الأمامية؟... لقد قضينا النهار بالأمس معاً في غرفة العمليات في عمّان.. وانصرف إلى القصر الملكي في أول الليل، فهل قدّر على الأمة العربية أن تشهد المسرحيات حتى في أيام الحرب... ويا ويلنا من الهزل في الملمات!

وتركت الإذاعة الأردنية جانباً، فلم أكن أكترث بالملك حسين في ذلك اليوم، وبالذات في ذلك اليوم.

لقد كان اهتمامي، كل اهتمامي، بأخبار مصر.. أريد أن أعرف ماذا جرى بالغارات المصرية الموعودة، وماذا جرى لإسرائيل في هذه الليلة الموعودة؟، وأنا أبتهل في أعماق فؤادي: يا رب... نصرك الذي وعدتنا.

وملت إلى إذاعة القاهرة وأنا أستمع إليها بجناني قبل آذاني.. فأطرقت... وأحسست أني أهبط في مقعدي، وأن مقعدي هبط بي.. ولم يكن في الإذاعة ذلك الخبر الذي سهرت الليلة بكاملها وأنا أبحث عنه، وها قد أقبل الصباح من دون أن أسمع الخبر.. ويا لهفي على ذلك الخبر.

ولكني سمعت شيئاً آخر... تسللت من ثناياه بعض المخاوف إلى نفسي... سمعت بياناً من القيادة العليا للقوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة، يقول: «إنه ثبت لديها الآن بطريقة كاملة أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا مشتركتان في العدوان الإسرائيلي العسكري بالنسبة إلى الأعمال الجوية.. ولقد تأكد تماماً أن بعض حاملات الطائرات الأمريكية والبريطانية تقوم بنشاط واسع في مساعدة إسرائيل... وبالنسبة إلى الجبهة المصرية فإن الطائرات الأمريكية والبريطانية قامت بعمل مظلة جوية فوق إسرائيل، وأما في ما يتعلق بالجبهة الأردنية فإن هذه الطائرات تقوم بدور فعلي في العمليات ضد القوات الأردنية، وذلك ما أثبتته شبكات الرادار الأردنية التي أظهرت بوضوح هذا النشاط الجوي المعاون لإسرائيل. وقد اتصل الملك حسين ملك الأردن صباح اليوم الباكر بالرئيس جمال عبد الناصر وأبلغه أنه الآن واثق من أن الطائرات الأمريكية والبريطانية تقوم بدور خطير في المعركة، وكان هذا يطابق المعلومات المتوافرة من الجبهة المصرية. ولقد اتفق الملك والرئيس على أن هذا التطور الخطير لا بد من إعلانه إلى الأمة العربية كلها، ولا بد من أن يترتب عليه ما يقتضيه من المواقف».

وأسرعت إلى ثيابي ألبسها، فلم تعد غرفتي تتسع لي... فلأذهب إلى غرفة العمليات ألتمس الخبر اليقين، فأخبار الصباح لا تحمل البشرى، وهي أدعى إلى الخوف من الرجاء، وهذا بيان القيادة العليا للقوات المصرية يشير إلى تدخل الولايات المتحدة وبريطانيا في المعركة... ومعنى هذا أن المعركة تسير اليوم في غير صالحنا.

ولكني عدت وربطت جأشي.. وقلت إن الحرب سجال... إنها كرّ وفرّ.. لا تزال الحرب في بدايتها... وسنرى موقف الاتحاد السوفياتي.. لا بد من أن يتخذ الاتحاد السوفياتي موقفاً صارماً وحاسماً، فهو لا يمكن أن يرى الأمة العربية تنهزم وهو على مقربة منا.

خرجت من الفندق، وهذه الهواجس تملك عليّ مشاعري، واجتازت سيارتي شوارع عمّان لأرى الجماهير تطوف في تظاهرة كبرى، والشباب يحملون اللافتات، ويصيحون بالشعارات، وكانت تهتف مطالبة بالسلاح، وتنادي بالزحف إلى الضفة الغربية لمشاركة الجيش الأردني في المعركة.

وأيقنت أن هذه المسيرة لن تجد من يستجيب لها، فقد سارت مثلها تظاهرات وانعقدت اجتماعات قبل سنين، تطالب بالتسليح والتدريب، ولكن من غير جدوى، وكانت آخرها قبل ثلاثة أيام، وأنا في أحد اجتماعاتنا في مدينة القدس حين طلب المحافظ أنور الخطيب من الشريف ناصر عشرة آلاف بندقية لتسلم إلى المقاومة الشعبية، فأجابه الشريف ناصر: «أرجوك ألا تتكلم في هذه الأمور.. نحن رتبنا كل شيء.. نحن لدينا خمس فرق لحماية القدس... وهذه هي الخطة التي أمر بها سيدنا».

وقلت للسائق أن يبتعد عن التظاهرة حتى لا يراني الجمهور، وأصبح في وسط التظاهرة، وتتوتر الأمور بيني وبين الملك حسين.. فسأظل عند عهدي بأن أتجنب كل ما يثير مخاوفه من قريب أو بعيد.. وكان كل همي مع الملك حسين أن تنتهي تلك الأيام على مثل قول الشاعر:

على أنني راضٍ بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا عليَّ ولا ليّا

وواصلنا سيرنا إلى القيادة الأردنية، إلى غرفة العمليات، ووجدت الملك حسين وقد سبقني ببضع خطوات، ونزلنا الدرج إلى القاعة الرحبة نفسها تحت الأرض، وبادرنا الفريق عبد المنعم رياض ورفاقه الضباط الأردنيون بالتحية، ولكنها تحية غير مرحة ولا مريحة.

جلسنا نرتشف القهوة العربية يسقيها أحد الجنود وهو يناولنا الفناجين، ثم يستردها بحذاقة ورشاقة، وقال الملك حسين: «الموقف غير حسن... أليس كذلك؟».

فقال الشريف ناصر: «والله يا سيدنا، الطيران الإسرائيلي أهلكنا هذه الليلة... كان الليل كالنهار والطائرات الإسرائيلية تضرب مواقعنا بالصواريخ والنابالم... دباباتنا تذوب تحت القصف الإسرائيلي».

وقال الفريق عبد المنعم رياض: «المعركة محتدمة على طول الجبهة.. هناك شكوى في جميع القطاعات من قلة الوقود والمؤن.. الدبابات في قطاع جنين أصبحت بلا وقود.. وأنا أعتبر أن قطاع جنين أصبح في حكم الساقط بيد القوات

الإسرائيلية.. أظن أنه سقط فعلاً، فلم نتلق أية أخبار من قيادة القطاع منذ بضع ساعات».

وسألت: «وما هو الموقف بالنسبة إلى القدس؟».

فتدخل اللواء عامر خماش وقال: «القتال يدور حول القدس من الشمال والجنوب.. وقواتنا مشتبكة في معركة ضارية.. والطيران الإسرائيلي يضرب مواقعنا بلا هوادة».

وقلت للفريق رياض: «وهل من جديد في الجبهة المصرية؟».

وطلب الفريق رياض أن ننتقل إلى الغرفة المجاورة، بعيداً عن التلفونات وأجراسها، وجلبة الضباط ووقع أقدامهم.. فانتقلنا، الملك حسين وأنا، ومعنا الفريق رياض واللواء عامر خماش.

وقال الفريق رياض: «الموقف في الجبهة المصرية صعب للغاية.. الطيران الإسرائيلي ألحق بمطاراتنا خسائر فادحة، قواتنا صامدة وتقاتل ببسالة، ولكن الطيران البريطاني والأمريكي يقوم بمساندة فعالة لإسرائيل».

وتدخل الملك حسين وقال: «لقد استدعيت صباح اليوم السفيرين الأمريكي والبريطاني واستوضحت منهما عن الموقف، فأكدا لي أن حكومتيهما لا تعلمان شيئاً عن المعركة قبل وقوعها، وأن قواتهما لم تشتركا إطلاقاً في المعركة لا مباشرة ولا بصورة غير مباشرة، وأن واشنطن ولندن تعملان على وقف الأعمال العسكرية وعودة الهدوء إلى المنطقة».

فقال الفريق رياض: «بصدد هذا الموضوع أرى أن يصدر بلاغ باسم الحكومة الأردنية لتأييد البيان الذي أصدرته القيادة العليا للقوات المصرية المسلحة صباح اليوم حول تدخل الطيران الأمريكي والبريطاني في المعركة».

فتجهم الملك حسين وقال: «السفير الأمريكي قام صباح هذا اليوم بتسليم رسالة خطية إلى رئيس وزارتنا سعد جمعة تؤكد عدم تدخل الولايات المتحدة».

فقال الفريق رياض: «إذا سمح جلالة الملك، نحن نصدر بلاغاً من جانبنا باسم القيادة المشتركة».

فسكت الملك حسين: لم يقل «لا».. ولم يقل «نعم».

واستدعى الفريق رياض أحد معاونيه من الضباط وطلب إليه أن يعدّ بياناً حول الموضوع.. وصدر البلاغ بعد المقدمات يعلن: «أن أعلى المصادر في القيادة العربية

المشتركة تؤمن أن وراء العدو قوى أجنبية تسانده فعلياً بإمكانات تفوق كل ما هو معروف من قدرات العدو وطاقاته، وخصوصاً أنه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هناك ثلاث حاملات للطائرات تقف إلى جانب الساحل، وتخرج منها الطائرات لتقصف قواتنا، وبهذا يتضح أن هناك مؤامرة سافرة على مصير الأمة العربية بأكملها. . . ونعلن على العالم أجمع أننا لا نحارب العدو الإسرائيلي وحده، ولكن تسنده فعلاً، وبقواتها العسكرية، القوى الغربية الاستعمارية، وتشترك إلى جانبه في المعركة، وعلى دول المجتمع العالمي أن تحدّد مكانها من الموضوع، وفي ضوء موقعها يتحدد العدو من الصديق للأمة العربية وإلى الأبد». وأرسل البيان للإذاعة. . ولكن الإذاعة الأردنية ألقته في سلة المهملات. وهذا جانب من جوانب الملك حسين.

ثم بدأ الفريق رياض يشرح الموقف العسكري بتفاصيله، ورسم صورة قاتمة للحالة في الضفة الغربية، وكيف أن القوات الأردنية تتراجع أمام القوات الإسرائيلية التي تفوقها عدداً وعدة، وخاصة أن السلاح الجوي الأردني قد دمر بالأمس، وأصبح الطيران الإسرائيلي يطارد الدبابات والمصفحات الأردنية. . . إلى آخر الصورة القاتمة.

وتناول الملك حسين من جانبه شرح الموقف، وقال إن جميع التقارير التي وصلته ليلاً وصباح اليوم تفيد بأن القوات الأردنية لم يعد باستطاعتها الصمود طويلاً أمام القوات الإسرائيلية، وأن الدفاع عن الضفة الغربية أصبح مستحيلاً ما لم تسترد القوات المصرية زمام المبادرة.

وأطرق الفريق رياض قليلاً، وقال وهو يتمالك أعصابه: «إذا كانت القوات المصرية تستطيع أن تثبت أقدامها في سيناء، فذلك فضل من الله. . لمعلوماتكم الخاصة. . . لقد حلّت بالطيران المصري خسائر فادحة بالأمس، وأصبحت قواتنا تقاتل في سيناء من غير غطاء جوي بصورة فعالة، والطيران الإسرائيلي يكاد يكون مسيطراً على الجو. . . ولا يمكننا في الظروف الحاضرة أن نتوقع مساندة من مصر إلا إذا تغيّر ميزان القوى بتدخل الاتحاد السوفياتي، وإن كان هذا في ظني يحتاج إلى وقت. . ولم يبق لنا في الجبهة الأردنية إلا الاعتماد على أنفسنا».

قلت: «أليس هذا هو الوقت الملائم لتدخل القوات السورية من الجولان وتشنّ حرباً شاملة، وبهذا يخف الضغط عن الجبهة المصرية والجبهة الأردنية معا؟؟».

فقال الفريق رياض: «هذه بديهية عسكرية، لم يعد ينقذ الموقف إلا أن يقوم الجيش السوري بحملة شاملة. . وكان الأمل أن تبدأ سوريا بالالتحام منذ الصباح الباكر أمس. . ثم إننا طلبنا منهم ثلاث مرات أن يسندوا قطاع جنين فلم يفعلوا حتى الآن».

قلت: «وما هو السبب. . . قد تكون عندهم وجهة نظر عسكرية. . وماذا قالوا؟؟».

قال: «كل ما قالوا إنهم فوجئوا بالحرب، وإن قواتهم غير مستعدة للمعركة، وإنهم محتاجون إلى أسبوع واحد على الأقل ليكمّلوا استعدادهم».

وهنا ارتفع صوت الفريق رياض وقال بنبرة غاضبة: «ونحن فوجئنا بالمعركة، ومع هذا فنحن نقاتل. . وعلى سوريا أن تقاتل، وها نحن في الأردن نقاتل. . الجيش السوري يستطيع أن ينقذ الموقف، أنا راجل عسكري بتكلمش سياسة، الرئيس عبد الناصر قام بالحركة كلها من أجل إخواننا السوريين، وإسرائيل كانت تهدد بالزحف على دمشق. . وكان علينا أن نوقف إسرائيل عند حدها. . الجيش السوري عظيم جداً. . ولكن البعث أصبح غير مفهوم عندي».

وكان الفريق رياض في حديثه عن البعثيين في سوريا كمن يحكّ الجرب للملك حسين، كما يقول المثل العادي، فصرفت الحديث إلى موضوع آخر يهمني أكثر من البعثيين وسائر حكام العرب أجمعين.

وسألت: «وما هو الموقف بالنسبة إلى القدس؟».

قال الفريق رياض: «القدس والضفة الغربية في حال واحد يسقطان معاً وينجوان معاً».

والتفتّ إلى الملك حسين وقلت: «ألا يمكن إنقاذ القدس؟».

قال: «كيف. . ؟».

قلت: «يظهر من التقارير العسكرية أن القدس مطوقة وقد أصبحت في خطر، وأنا لا أريد أن أعود إلى الماضي، لقد طلبت إلى جلالتكم قبل أيام أن تتمركز قوات جيش التحرير الفلسطيني في داخل بيت المقدس حيث تقاتل قتال الشوارع وإلى آخر رجل. . والآن، وإن كان الأمر قد أصبح متأخراً. . لعلنا نستطيع أن ننقذ القدس، في خلال بضع ساعات نستطيع أن نوجه قوات جيش التحرير الفلسطيني من درعا إلى القدس».

فقال الملك حسين: «القدس مطوقة ولم يعد ممكناً أن ندخل عليها جنوداً أو سلاحاً».

قلت (برفق ولطف): «سيدنا. . فلنحاول أن تقوم قوات التحرير مع الجيش الأردني بتطويق التطويق الإسرائيلي. . ما رأي الأخ الفريق رياض؟».

فقال الفريق رياض: «ممكن.. ولكن الوقت أصبح متأخراً.. وأظن أن القدس إن لم تسقط الليلة فهي ساقطة غداً على أكثر تقدير».

نهضت واقفاً، ومن غير وعي، وقلت: «الله أكبر، كيف تسقط القدس؟.. يا أخي.. يا أخي.. اتصل بعبد الناصر حتى يناشد الجيش السوري أن يبادر لإنقاذ الموقف.. أنا أعلم أن الجيش السوري، ومعه الشعب السوري، مستعد أن يفنى عن آخره من أجل الدفاع عن القدس.. القدس أغلى عليه من دمشق».

ووضع الملك حسين يده على كتف الفريق رياض وأخذه إلى غرفة أخرى، وبقينا وحدنا اللواء خماش وأنا، في غرفتنا، في صمت كصمت أهل الكهف.

وبعد برهة، عاد الملك حسين والفريق رياض... وبدأ الملك حسين يتحدث بلهجة صارمة كأنه يصدر أمراً عسكرياً وقال: «نحن أمام خطر داهم يتطلب منا أن نتحمل مسؤولياتنا... الموقف العسكري سيئ للغاية، ولم يعد بالاستطاعة الدفاع عن الضفة الغربية والقدس... وإذا استمرت الحرب فنحن نعرض الجيش للإبادة، وأرى أن نسحب الجيش إلى الضفة الشرقية».

قلت: «بدلاً من الانسحاب إلى الضفة الشرقية، أرجو أن تقوموا بتجميع الجيش حول القدس وداخل القدس، وإذا أمكن الصمود بضعة أيام، لعل مجلس الأمن يوقف القتال ونحن في القدس، وإن إسرائيل لا تحارب داخل القدس لأن ذلك يؤدي إلى الدمار الشامل.. ولا أظن إسرائيل تغامر بتدمير المدينة بكاملها.. إنها تريد الاستيلاء عليها سالمة بقدر الإمكان».

قال الملك حسين: «سأتحمل المسؤولية وحدي.. إنها مسؤوليتي وحدي».

قلت: «اللهم إني لا أملك إلا نفسي.. اصنعوا ما شئتم، ومن أراد أن يتحمل المسؤولية أمام التاريخ فليفعل».

وبادرت بالنهوض من مقعدي لأخرج من الغرفة.

فقال الفريق رياض: «أظن أن الاقتراح الذي اتفقنا عليه مع جلالة الملك يحلّ الإشكال... إنها محاولة أخيرة... فلنعرض الأمر على الرئيس جمال عبد الناصر لعل عنده رأياً... نرسل برقية الآن وفي المساء نتلقى الجواب، ولكل حادث حديث».

وكتب الفريق رياض برقية قال فيها: «الموقف في سبيله إلى التدهور السريع في الضفة الغربية.. هجوم مركّز على مختلف المحاور مع قصف جوي عنيف ليل نهار... القوات الجوية الأردنية والسورية والعراقية في «هـ ٣» والقاذفات عملياً

دمرت . . بعد التشاور مع الملك حسين طلب مني إبلاغكم أن هناك حلاً من ثلاثة :

١ ـ قرار سياسي نافذ بإيقاف القتال اليوم، يفرض من جهة خارجية، من أمريكا أو روسيا أو مجلس الأمن.

٢ ـ إخلاء الضفة الغربية الليلة.

٣ ـ البقاء ليوم واحد زيادة يؤدي إلى قطع الجيش الأردني بالكامل وتدميره.

طلب مني الملك حسين عرض الموضوع عليكم للرد بما ترون وعاجلاً.

قرأ الفريق رياض البرقية بصوت خافت، وأومأ الملك حسين بالموافقة، وناولها الفريق رياض إلى أحد معاونيه وهو يقول : «عاجل جداً».

واستدرك الفريق رياض وقال : «الرئيس عبد الناصر غارق الآن إلى أذنيه في المواعيد . . أخشى أن تصله البرقية متأخرة . . أرى أن أرسل برقية مماثله إلى المشير عبد الحكيم عامر، وبهذا نضمن سرعة الجواب» . . وكان ذلك.

وهكذا تأجلت أزمة الانسحاب ولو إلى حين . . ولكن القوات الأردنية كان يمزقها الانسحاب أكثر مما تمزقها آلة الحرب الإسرائيلية، آلة الحرب الإسرائيلية.

وعدنا إلى القاعة الرحبة حيث التلفونات تنقل أسوأ الأخبار عن سير المعارك . . . وبدأت التقارير تصل تباعاً :

– العدو يقوم بهجوم مركز على المناطق الشمالية من القدس منذ مساء أمس مستخدماً الدبابات والآليات المصفحة والمدفعية الثقيلة والطائرات المقاتلة والقاذفة . . القوات الإسرائيلية قصفت طول الليل ومن دون انقطاع.

– يجري قتال شرس بيننا وبين العدو في جميع المناطق، وقد بدأ القتال في الشوارع وبالسلاح الأبيض، وتواجه قواتنا ما يعادل أربعة أضعاف قواتنا.

– يجري اشتباك قوي بيننا وبين العدو في منطقة الثوري في القدس، ونحن صامدون على رغم تفوّق العدو الهائل، وخسائرنا الفادحة . . العدو يلقي بكل ثقله في المعركة.

– المعارك ضارية في مناطق جنين وطوباس وقلقيلية ورام الله والقدس وبيت لحم والخليل، وقد استخدم العدو قوات ضخمة من الدبابات والمدفعية والناقلات المصفحة، كما استخدم العدو طيلة ليل أمس ونهار اليوم الطائرات المقاتلة والقاذفة لقصف مراكز قواتنا، كما أغار على منشآتنا العسكرية وبعض القرى والمدن الأردنية من دون تمييز مستعملاً قنابل النابالم المحرقة والصواريخ . . الموقف على العموم يسير

في صالح العدو، ولكن قواتنا تقاتل ببسالة، وجنودنا مصممون على الصمود والثبات حتى الموت.

وبلاغات أخرى، واللاحق أسوأ من السابق.

وأصبح جو القاعة مشحوناً بالكآبة، فانسحب الملك حسين إلى الغرفة المجاورة ودعا إليه القادة الأردنيين: الخماش، المجالي، الشريف ناصر... وبقينا وحدنا، الفريق رياض وأنا... الفريق رياض يمشي ذهاباً وإياباً في القاعة.. وأنا قاعد في مقعدي، فلم أكن أستطيع شيئاً سوى القعود... فالموقف يبدو رهيباً خطيراً.

وعاد إلينا الملك حسين وقال: «لقد رأينا أن نعزز برقية الفريق عبد المنعم ببرقية مني شخصياً إلى الرئيس عبد الناصر، ومثلها إلى المشير عبد الحكيم عامر وأخذ يتلو البرقية:

«إلى سيادة الأخ الرئيس عبد الناصر،

أخي، الوضع متدهور للغاية، القدس في وضع سيئ للغاية، نحن نفقد دباباتنا بمعدل دبابة واحدة كل عشر دقائق، بالإضافة إلى خسائرنا الجسيمة في الأرواح والمعدات في الأماكن كافة.. إن العدو يركز على القوات العربية في بلدكم هذا بكل قواه، ونحن في الحقيقة نعتز بوقفتنا فيه، أردنية وعراقية، تروي هذه الأرض الطاهرة بالدم الزكي ونخوض فيها معركة فيها من الاستماتة والشجاعة والعزم والتصميم ما سوف ترويه الأجيال على مر السنين، على أننا في صمودنا هذا، يا أخي، نرى هدف العدو الرئيسي في هذا البلد ضفته الغربية، بعد إبادة هذه القوات وبعد تدميرها، وهذا يتحقق مع الأسف بنتيجة وجودنا دون دعم جوي... ودون مساندتنا فعلياً من قيادتنا عسكرياً. علمت أن الفريق عبد المنعم رياض قد أبرق لسيادتكم بهذا الموقف الآن، فأرجو سرعة تقدير الوضع في ضوء ما ذكرناه... وبالمناسبة اتصل بنا سفير الولايات المتحدة يحمل تأكيداً قاطعاً بأنهم لم يكونوا على علم مسبق بنيات العدو، وأنهم لا يملكون حاملات في المنطقة، وأن طائرة واحدة أمريكية لم تشترك في المعركة ولن تشترك، فوجدت أن يصلكم هذا مع دقائق الموقف كاملة لأرى رأيكم.. أرجو سرعة الإجابة فوراً والسلام عليكم ورحمة لله وبركاته.

أخوكم ـ الحسين»

وقلت للملك حسين: «لعل جلالتكم تحذفون ما دار بينكم وبين السفير الأمريكي، وأن تقتصر البرقية على تقدير الموقف لعسكري».

قال: «سنظل محتاجين للأمريكان».

قلت: «أنا لا أكره أن يعدل الأمريكان موقفهم في أي وقت. ولكنه أمل إبليس في الجنة!!». وأرسلت البرقية كما هي غير معدلة... وأرسل مثلها إلى الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف.

وخرج الملك حسين، فقد اتصل به سعد جمعة رئيس الوزراء الأردني في مكالمة هاتفية، وغادر القاعة بعدها فوراً، ولم يعد إلينا إلا في المساء.

وبقيت في القاعة طيلة النهار، وتناولنا غداء «عسكرياً» أشبه بالغداء الذي تناولته مع الشريف ناصر يوم الأربعاء الفائت في الفندق مع الجنود قريباً من بيت لحم، وما أبعد الفارق بين ما كان وما هو كائن... كنا في قمة آمالنا، ونحن الآن على حافة الهاوية، ولسنا ندري نهاية المعركة.

وعند المساء وصلت برقية من المشير عبد الحكيم عامر جواباً عن برقية عبد المنعم رياض تقول: «أخبروا جلالة الملك حسين أن المساعي مبذولة لوقف القتال، ولكن لا مانع من انسحاب الجيش النظامي بعد بذل آخر مجهود، مع المبادرة لتوزيع السلاح على الأهالي للقيام بمقاومة شعبية».

ودخل علينا الملك حسين ولم تمض إلا بضع دقائق على وصول برقية المشير عامر، فقرأها ثم عاد إلى قراءتها ثانية.

وأرسل الملك حسين إلى المشير عامر البرقية التالية: «إشارة إلى برقيتكم الجوابية عن برقية الفريق عبد المنعم رياض والتي تنصّ على موافقتكم على سحب الجيش النظامي وعمل كل جهدكم لوقف القتال، أرجو أن أبيّن أن وضعية القوات هنا كما يلي: هي تحت القصف المستمر المركز ونحاول إبقاءها على أرض المعركة إلى أطول فترة ممكنة.. بأمل وقف القتال، وهي على الأرض، وبطبيعة الحال سنحاول الاستماتة في الصمود ولن نتراجع إلا إذا كان بقاء القوات الباقية عرضة للتدمير التام. الأسلحة أساساً موزعة على الأهالي».

وناولني الملك حسين البرقية لأقرأها... ووقفت عند عبارة «الأسلحة أساساً موزعة على الأهالي»، وقلت للملك حسين: «بالأمس كانت المسيرات الشعبية في شوارع عمّان تطالب بالسلاح لنجدة الضفة الغربية». وأردت أن استرسل في هذا الموضوع، ولكني كظمت نفسي، فليس هذا وقت الحساب، وتركت للتاريخ أن يحاسب.. إذا لم يقع التاريخ تحت وطأة الزور والبهتان.

وفي ثنايا البلاغات التي كانت تنهمر على القاعة جاء جواب الرئيس عبد الناصر، بالنص التالي:

«الأخ جلالة الملك حسين. . . تلقيت برقيتك وإنني لأقدر أننا نواجه لحظة من تلك اللحظات التي تمر بها الأمة في تاريخها، والتي تتطلب شجاعة فوق شجاعة البشر. . ونحن نواجه على جبهتنا موقفاً متدهوراً نتيجة للضربة الجوية القاصمة التي جرت أمس والتي وضعت قواتنا في مواجهة قوات متفوقة عليها في كل الجبهات من دون غطاء جوي. . إن العدوان قد فرض علينا، وكان علينا مجابهته بكل ما فيه من قسوة وما فيه من غدر وتواطؤ. . إن القرار الذي أراه هو أن تختار ثاني الحلول التي تفاهمنا عليها مع الفريق عبد المنعم رياض، وهي إخلاء الضفة الغربية الليلة، على أن نضع في اعتبارنا رأيكم الأول الخاص بتدخل مجلس الأمن بإيقاف القتال. . إن تاريخ الأمم في الأخذ والعطاء، وفي التقدم والتراجع. . فليكن اختبارنا في هذه اللحظة، وإن يكن اختباراً عصيباً علينا، خطوة نستطيع أن نتقدم منها، وهذه إرادة الله. . لعل في إرادته خيراً لنا. . إننا نؤمن بالله ولا يمكن أن يتخلى الله عنا. . ولعل الأيام القادمة تأتينا بنصر من عنده. . . اللهم أعنّا، ولتكن إرادته رائدة لنا».

صعقت وأنا اقرأ برقية الرئيس عبد الناصر، فقد تجسدت أمامي الهزيمة وعلى لسان الرئيس عبد الناصر، وفي اليوم الثاني من المعركة. ولمعت في ذهني أسئلة صارخة:

ـ أبهذه السرعة الخاطفة حلت بنا الهزيمة؟

ـ هل أصبحنا نطالب بوقف القتال في اليوم الثاني من القتال؟

ـ هل نخلي الضفة الغربية لتتسلمها إسرائيل ومعها بيت المقدس، قدس أقداس الإسلام بعد مكة والمدينة؟

ـ هل تحطم الجيش المصري، أمل الأمة العربية، بدباباته ومدرعاته وطائراته. . هل تحطم في يوم واحد، بعد خمسة عشر عاماً من التدريب والتسلح؟

ـ ما الذي جرى؟. . أهي صاعقة ماحقة من السماء، أم زلزلة ساحقة من جوف الأرض؟

وتساءلت وتساءلت. . ثم جمدت أحاسيسي وتلبدت جوارحي، فقد كانت الصدمة فوق إحساسي وجوارحي.

وكذّبت سمعي وتناولت برقية الرئيس عبد الناصر بيدي لأقراها بعيني. . . فقرأت تماماً كما سمعت، يا لهول ما سمعت وما قرأت!

وقلت للفريق عبد المنعم رياض، وأنا أبحث عن شعاع من الأمل: «وهل وصلتك برقية من الرئيس عبد الناصر جواباً عن برقيتك؟»، فتثاقل الفريق رياض

وأخرج من جيبه ورقة، فإذا بها برقية من الرئيس عبد الناصر موجهة إلى الفريق عبد المنعم رياض يقول فيها: «على جلالة الملك حسين الضغط على بريطانيا وأمريكا حتى تنفذ إسرائيل وقف إطلاق النار، وهذا هو السبيل الوحيد، ولا داعي لأن يقطع الأردن علاقته مع بريطانيا وأمريكا».

ويظهر أن الفريق رياض كان يحتفظ بهذه البرقية إلى أن يأتي جواب مباشر من الرئيس عبد الناصر إلى الملك حسين.. وهذا هو البروتوكول حتى في الميدان.

وقلت للملك حسين: «نحن منقطعون عن أخبار العالم في هذه الغرفة.. يظهر أن هنالك مساعي دولية بشأن وقف إطلاق النار، فما هي معلومات جلالتكم؟».

قال الملك حسين: «لقد أصدر مجلس الأمن قراراً يدعو جميع الأطراف إلى وقف إطلاق النار، وقد أبلغنا مندوبنا في الأمم المتحدة أننا نوافق على القرار، ولكن إسرائيل لم تلتزم بالقرار بعد».

وكان وجوم.. وكان ذهول.. وكان صمت.. فأي لسان يدور، وقد أصبحنا نتمنى على مجلس الأمن أن يصدر أمراً بوقف القتال، وأصبحت إسرائيل هي التي تواصل القتال.

وذهب الفريق رياض لينام، فهذه هي ليلته الثالثة من غير نوم.. وانصرفنا نحن كل منا في سبيله، الملك إلى قصره، وأنا إلى بيتي.. إلى غرفتي في الفندق.. فمنذ سنين طويلة وأنا نزيل الفندق، وحين أكون في بيتي فإنها ضيافة لبضعة أيام.

ولم أكد أصل الفندق حتى صاحت صفارات الغارات وناحت وأخذني موظفو الفندق إلى القاعة السفلى حيث وجدت نزلاء الفندق محشورين فيها... جالسين واقفين أو مقرفصين.. وكان الأطفال يسرحون ويمرحون، وهم وحدهم لم يكونوا عابئين ولا مبالين.

وكان بين نزلاء الفندق عدد من الصحافيين الأجانب من الأمريكان والإنكليز، وقد أحاطوا بي يسألون ويتساءلون، كأننا أصبحنا في مؤتمر صحافي.. ولكني تجنبت الإجابة عن أي شيء، فقد كانت نفسي منقبضة، وكان كل جهدي أن أبدو رابط الجأش متجلداً.

وعلى حين أني كتمت عاطفتي، فإنهم لم يكتموا عاطفتهم، فقد بدا على وجوههم أنهم يعرفون قدراً كافياً مما يدور على جميع الجبهات.

وكان أنصار العرب، وهم القلة، في وضع قلق، يسألون برفق وحذر: «أصحيح أن القوات المصرية تعاني موقفاً صعباً في سيناء.. أصحيح أنه لا يوجد قتال على الجبهة

السورية، وأن الأمر لا يتعدى مناوشات جوية بين الطرفين.. أصحيح.. أصحيح؟؟».

أما أنصار إسرائيل منهم، وهم الكثرة، فلم يكونوا يخفون شماتتهم ووقاحتهم.. وبدأوا يوجهون الأسئلة بسخرية: «هل تظن أن الاتحاد السوفياتي سيدخل في المعركة؟.. وهل يسافر عبد الناصر إلى موسكو ليبحث الموقف مع قادة السوفيات؟.. تقول الأخبار إن القدس مطوّقة، فلماذا لا يعلن المسلمون الجهاد المقدس؟؟!!».

ولم أكن أجيب الأنصار والخصوم أجوبة مباشرة، حتى أعلنت الصفارات نائحة أن الغارة قد انتهت، وبهذا انتهت غارة الصحافيين عني وصعدت إلى غرفتي، وصعدت معي مخاوفي وهمومي، وألقيت بنفسي على السرير، وداهمني النوم بثيابي وحذائي.

ولست أدري كم ساعة نمت.. فلقد فقدت تلك الليلة الإحساس بالزمان، ولكني استيقظت على جرس التلفون يدق بصورة متواصلة وحسبت أني حالم في غرفة العمليات وأجراسها.. ولكن التلفون ظل يقرع ويقرع، فأمسكت بالسماعة، وإذا بأحد رجال منظمة التحرير يكلمني من قاعة الفندق ليقول:

«أنا متأسف لإزعاجك في هذه الساعة المتأخرة، لقد وصلت من القدس، لدي أخبار مهمة أريد أن أنقلها إليك».

قلت: «تفضل أنا بانتظارك في الغرفة».

ولم أكن في حاجة إلى أن أخلع وألبس، فأنا ما زلت في ملابسي، ودخل عليّ عبد الكريم العلمي، وهو يحمل على كتفيه وجهاً مكفهراً، كأنه كان مطموراً تحت الردم لبضعة أيام.

جلس يلهث وهو يقول: «لا أدي كيف أبدأ».

قلت: «تكلم كما تشاء».

قال: «أنا موفد من قبل الإخوان في القدس.. لقد خرجت بأعجوبة.. المعركة رهيبة.. الطيران الإسرائيلي أحرق الأخضر واليابس، والقوات الإسرائيلية اخترقت الخطوط الأردنية في كل القطاعات، الأهالي فروا من القرى الأمامية، المصفحات الإسرائيلية تطارد اللاجئين وتسوقهم كقطعان الماشية.. القوات الأردنية تقاتل بشجاعة، ولكن نفدت مؤنهم وذخائرهم... كبار الضباط يقولون إنهم سيصفّون حسابهم مع الملك حسين بعد انتهاء المعركة».

قلت: «والقدس؟».

قال: «القدس ليلها نهار، قنابل الضوء مسلطة على القدس من كل جانب،

والطيران الإسرائيلي يضرب المواقع الأردنية حول القدس، القوات الإسرائيلية احتلت جبل المكبر وجبل الزيتون.. ليس في المدينة القديمة أكثر من ثمانٍ وثلاثين بندقية.. طالبنا بسلاح.. من غير جدوى.. الأهالي لم يناموا في الليلة الماضية، كانت الطائرات الإسرائيلية تحوم حول القدس. ظننا بادئ الأمر أنها طائرات عراقية، فهاج الشعب وماج وأخذنا بالتهليل والتكبير.. واكتشفنا في ما بعد أنها طائرات إسرائيلية.. والناس الآن في همّ وغمّ، لقد وصل إلى علمهم أن الجيش الأردني يعتزم الانسحاب من القدس، وقد اجتمع رجال المقاومة وأوفدوني لأبلغكم مطاليبهم... ». وتناول ورقة من جيبه وراح يقرأ:

أولاً: إلغاء أوامر الانسحاب، والاحتفاظ بأكبر قوة ممكنة من الجيش الأردني في داخل القدس، فإن أهالي المدينة مصممون على حرب الشوارع.

ثانياً: مطالبة الدول العربية، وبخاصة مصر، بأن يشن السلاح الجوي العربي هجمات على الأهداف الحيوية في إسرائيل لتخفيف الضغط عن القدس ومناطق الضفة الغربية.

ثالثاً: مطالبة الاتحاد السوفياتي بتحديد موقفه، فإنه لا يكفي تأييد بالبيانات... إذا انكسرنا في هذه المعركة، فالناس يعتبرون الاتحاد السوفياتي شريكاً في التواطؤ على الأمة العربية.

رابعاً: مناشدة الرئيس عبد الناصر أن يوجه انذاراً إلى الاتحاد السوفياتي بأنه إذا تخلى عن الأمة العربية في هذه المعركة فستكون نهاية الصداقة بيننا وبين الروس.

أخذت الورقة من العلمي بمطالبها الأربعة، ولم أدر ماذا أقول؟ وبماذا أجيب؟ وكلما حاولت أن أتكلم أحسست أن حجراً يملأ فمي، فلا أقدر على الكلام.. لقد كانت مطالب أهل القدس سديدة ورشيدة.. ولكن..

ولكن أهل القدس لم يكونوا يعلمون شيئاً عن البرقيات المتبادلة بين الملك حسين والرئيس عبد الناصر.. إنهم لم يكونوا يعلمون إلا ما تبثه إذاعات القاهرة ودمشق وعمّان من أن المعركة مستمرة، وأن العدو تكبد خسائر فادحة بالمعدات والرجال.

وقلت للعلمي: «سأعمل كل جهدي لإيصال مطالبكم إلى الجهات العربية، ونسأل الله العون والنصر.. إلى آخر الابتهالات والدعوات».

وغادر العلمي عمّان إلى القدس، ليسقط شهيداً بين القدس ورام الله بعد يومين، وينضم إلى قوافل الأبرار، رحمه الله ورحمهم الله..

وبقيت في الغرفة وحدي، وطلع الفجر، ليكون فجر الشؤم في ذلك

اليوم. . . ولم أدر ماذا أصنع. . . فخرجت إلى الشرفة ألتمس الهواء والرجاء. . وحملت معي جهاز الراديو لأعرف أين وصلنا.

كانت إذاعة القاهرة تنشر أخبار المعركة، وكأنها تمهد للمواطن العربي الهزيمة المتوقعة، فقد جاء في بلاغ عسكري: «إن التدخل الجوي الواسع من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا لصالح العدو الإسرائيلي قد أحدث تطورات مهمة في سير المعركة. ويضع العدو قوات جوية ضخمة في المعركة. . وإن الذين يقفون وراءه يواصلون إمداده بما يعوض خسائره. . ». وفي بلاغ آخر أعلن الراديو أن: «الدعم الجوي العسكري الأمريكي والبريطاني للعدو قد دخل مرحلة جديدة، فقد قامت قاذفتان من طراز كامبيرا البريطانية بالاشتراك في عمليات الضرب الجوي فوق مواقعنا في سيناء. . ». وفي بلاغ آخر أعلن الراديو قوله: «ثبت لدى السلطات العسكرية المختصة أن هناك اثنين وثلاثين طائرة أمريكية قامت اليوم من قاعدة هويلي الأمريكية في ليبيا قاصدة إسرائيل. . ».

أما إذاعة دمشق، فلم يكن في بلاغها ما يشير إلى التحام عسكري بين القوات السورية والإسرائيلية، باستثناء تبادل إطلاق النار على الخطوط الأمامية، وبعض غارات قام بها السلاح الجوي السوري على إسرائيل.

وانتقلت إلى إذاعة إسرائيل، فإذا بها تنقل تصريحاً على لسان الجنرال إسحق رابين رئيس أركان الجيش الإسرائيلي يقول فيه إن: «القوات الإسرائيلية تتجه نحو أبو عجيلة بعد أن استولت على العريش، وإنها احتلت خان يونس في قطاع غزة».

وجاء بعده تصريح للجنرال مردخاي هود قائد سلاح الجو الإسرائيلي قال فيه: «إن الطائرات الإسرائيلية قد حطمت ٣٧٤ طائرة عربية أخرى».

ولقد هالني هذا الخبر الأخير، وكدت اعتبره من باب المبالغات التي تلجأ إليها البلاغات العسكرية في زمن الحرب، ولكني تذكرت برقية الرئيس عبد الناصر إلى الملك حسين وازددت فهماً لموضوعها. . وازددت فهماً للابتهالات الإلهية التي وردت في ختام كلام الرئيس عبد الناصر.

وأحسست بهول الفاجعة على قلب الرئيس عبد الناصر، وبالأمس كانت تتطلع إليه الأمة العربية بأكبر آمالها وأقدس أهدافها.

أحسست بهول الفاجعة على قلب الرئيس عبد الناصر وعلى الأمة العربية، وعلى نفسي، وأنا أقلّ المسؤولين العرب شأنا، وأنا استمع إلى الإذاعة الإسرائيلية وهي تذيع سقوط خان يونس وغزة، وأن اللواء عبد المنعم حسني قائد قطاع غزة قد وقّع

وثيقة استسلام في حفل رسمي قال فيها: «إنني استسلم للقوات الإسرائيلية من غير قيد ولا شرط». ثم تبع ذلك بلاغ عسكري يقول إن: «إسرائيل قد أصبحت سيدة الجو في الشرق الأوسط وإن القوة الجوية المصرية قد أبيدت».

وخطر لي أن أنجو من وحدتي في غرفتي.. أريد أن اجتمع بالناس وأعرف أخبارهم.. لقد سئمت من غرفة العمليات والاستماع إلى التلفونات، والحوار مع الملك حسين، فنزلت إلى الصالة الكبرى في الفندق، وكان فيها عدد كبير من أعيان الضفة الغربية من الذين حجزتهم الحرب في عمّان، وقد أخذوا يتوافدون على الفندق ليتبادلوا الأخبار.

وجلست معهم وحبست كآبتي في نفسي، ورسمت على وجهي ما أمكن من سمات الطمأنينة، ولم يكن في أحاديثهم ما ينبئ عن القلق والفزع، كل ما يعرفونه أن المعارك محتدمة في الضفة الغربية، وأن القتال شديد في سيناء، وأن الجبهات العربية صامدة.

ودخل علينا بعض مخاتير الضفة الغربية فقالوا: «الموقف خطير.. ألوف اللاجئين قد بدأوا يصلون إلى الأغوار، وهم في حالة يرثى لها، الطيران الإسرائيلي يطاردهم بالرشاشات والصواريخ».

وراح المخاتير يشرحون بعض ما وصل إليهم من أنباء عن المعارك في الضفة الغربية.. وأن القوات الأردنية تكاد تلتقي بالقوات المصرية للانقضاض على إسرائيل.

وتلقيت مكالمة تلفونية من الفريق رياض من غرفة العمليات يطلب مني أن أوافيه، فكانت إنقاذاً لي.. فقد جئت الصالة لأهرب من الأخبار، ولكني وجدتني فريسة الأخبار، كمن فرّ من الموت، وفي الموت وقع!!

وغادرت الصالة إلى سيارتي.. فإذا بالشوارع مكتظة بالجماهير في مسيرات شعبية وكلها تطالب بالتسليح والتدريب.. طافوا على دواوين الحكومة وهم صائحين هاتفين... نريد السلاح نريد الالتحاق بالمعركة.. نريد حماية القدس... نريد مساندة الجيش الأردني.

وأمام دار الحكومة، وقف أحد الموظفين يخاطب الجماهير بأعلى صوته وهو يقول: «أحييكم باسم جلالة الملك، وأحيي حماستكم، أرجو المحافظة على الهدوء والنظام، لقد أمر جلالة الملك بفتح معسكرات التدريب وتسليمكم السلاح لتشتركوا بالمعركة».

وتركت الجماهير تطوف في الشوارع. وهي لا تدري أن زمن التسليح والتدريب قد فات، وأن المعركة تقترب من النهاية.

وصلت القيادة، ووجدت الملك حسين والفريق رياض والقادة الأردنيين مجتمعين حول الطاولة الرئيسية في غرفة العمليات وهم مكبّون على القراءة.

ومن غير تحية ولا كلام جلست معهم، وأنا في لهفة لأرى ما يقرأون، لعل السماء قد انفرجت عن بريق من الرجاء.

وكانت بيد الفريق رياض برقية إلى الملك حسين من الرئيس عبد الناصر، وقال الفريق رياض: «نقرأ مرة ثانية حتى يسمع الأخ أحمد».. وراح يقرأ:

«أرجو أن أطلعكم على تطورات المعركة على الجبهة المصرية ـ الإسرائيلية... بدأ العدوان بصورة مفاجئة وغير متوقعة، واستهدف منذ اللحظة الأولى قواتنا الجوية، وكان هجوم العدو على كافة مطاراتنا دفعة واحدة وبعدد من الطائرات المهاجمة تفوق كل تقديراتنا عن قوة إسرائيل الجوية، وقد تأكدت القيادة العليا للقوات المسلحة بما لا يقبل الشك من تواطؤ أمريكا وإنكلترا مع إسرائيل، وبخاصة أنه داوم بطلعات متصلة ومتعددة، وكانت النتيجة ان أصيبت مطاراتنا وقواتنا الجوية بضربة عطلتها عن تغطية قواتنا على الجبهة.. ورغم الخسائر الشديدة التي ألحقناها بطائرات العدو إلا أنه اتضح أن لديه رصيداً من الطائرات علاوة على المظلة الجوية لأمريكا وبريطانيا فوق إسرائيل، مما أدى إلى استطاعته أن يوفر بها تغطية جوية لقواته، في الوقت الذي حرمت فيه قواتنا من مثل هذا الغطاء الجوي، ومع ذلك فإن قواتنا مشتبكة الآن في معارك عنيفة في سيناء، والخسائر شديدة سواء في جانبنا أو من جانب العدو. أخوكم جمال عبد الناصر».

وأخذ الفريق رياض والقادة العسكريون الأردنيون يحللون عبارات الرئيس عبد الناصر، وبالتعبير العسكري قاموا بعملية «تقدير الموقف»... وكان الملك حسين يشترك معهم في التقدير والتحليل، على اعتبار أنه درس لبضعة شهور في إحدى المدارس العسكرية في إنكلترا.

واتفقت كلمتهم أن الجبهة المصرية قد انهارت، وأن القوات الإسرائيلية في طريقها إلى القاهرة غداً أو بعد غد.

وانتقلوا بعد ذلك إلى تقدير الموقف على الجبهة السورية، فقال الفريق عبد المنعم رياض: «الأمر هناك بسيط، لا يوجد معركة بالمعنى الصحيح على الجبهة السورية حتى صباح اليوم، المناوشات تخف وتشتد، ولكن لا يوجد هجوم من الطرف السوري، ولا من الطرف الإسرائيلي.

وعن الجبهة الأردنية، تكلم اللواء عامر خماش قال: «الانسحاب يجري بصورة

منتظمة. . ونحن نأمل البقاء غربي النهر أقصى مدة ممكنة، إلى أن يستطيع مجلس الأمن تنفيذ قراره بوقف إطلاق النار، وقواتنا تتكبد خسائر فادحة».

وانتفض الملك حسين غاضباً وقال: «خسارة فادحة. . هه. . الخسارة تتجاوز عشرين ألف قتيل، خسرنا كذلك معظم دباباتنا[1]. الأرض يمكن ان تعوّض. . يمكن أن نستردها، لكن الجيش لا يعوض».

وخرج الملك حسين وهو يردّد: «خسرنا نصف الجيش، والنصف الثاني يعتبر في حكم الهالك». . . وانفضّ القادة العسكريون كل إلى شأنه.

وعدت إلى الفندق، فلم يعد لي مكان في غرفة العمليات بعد أن أصبح الانسحاب هو رأس العمليات. . . وكانت الجماهير لا تزال تطوف الشوارع كما تركتها في الصباح، وهي تطالب بالتدريب والسلاح والالتحاق بالمعركة. . والمعركة تقترب من النهاية.

وتسللت إلى غرفتي كما كانت المرأة المهتوكة في الجاهلية، تتسلل من مضارب قومها وهي مسربلة بالعار، تبحث عن المأوى.

وكان العار ينتظرني حقاً. . في الغرفة. . كأني أصبحت الأمة العربية بأسرها، بملوكها ورؤسائها أحمل أوزارهم وحدي. . وهم أطهار أبرياء.

فتحت إذاعة إسرائيل وكان العار، كان بركاناً من العار. . . قالت الإذاعة: «لقد سقطت القدس القديمة بأيدي قواتنا، واستولينا على بيت لحم وأريحا ومعظم الضفة الغربية. . وكان أول ما فعله جنودنا حين دخلوا المدينة بعد الظهر أنهم صلوا عند حائط المبكى. . . وقد استغرق الهجوم ٩٠ دقيقة اشترك فيه المشاة والمدرعات والمدفعية. . وبعد ساعات قليلة وصل الجنرال موشى ديان إلى حائط المبكى وقال: «لقد رجعنا، ولن نتخلى عن القدس. . لقد حررت قواتنا المدينة المقسمة عاصمة إسرائيل، لقد رجعنا إلى مدينتنا، أقدس مقدساتنا ولن نتركها أبداً».

وتابعت الإذاعة الإسرائيلية كلامها قائلة: «وجاء بعده ليفي أشكول رئيس الحكومة. . وبعد أن صلى عند الحائط وجه كلامه إلى المصلين معلناً: «أن هذا يوم عظيم في التاريخ اليهودي، وإني أعتبر نفسي الآن وفي هذا المكان ممثلاً للشعب

(١) لم يكن هذا الكلام صادقاً، فلقد كشفت التقارير اللاحقة أن شهداء الجيش الأردني لم يتجاوزوا الثمانمئة شهيد، وأن أعوان الملك حسين كانوا يرسلون بتقارير كاذبة إلى غرفة العمليات وإلى الشهيد الكبير عبد المنعم رياض.

اليهودي بأجمعه، ولأجيال كثيرة من اليهود الذين كانت تحن أرواحهم نحو القدس ومقدساتها».

الله، الله، لقد سقط بيت المقدس وحكام العرب متثاقلون عن القتال!

الله، الله، لقد سقط بيت المقدس وحكام العرب والمسلمون متشاغلون عن الجهاد!

ورحت أبحث عن النكبات الكبرى في تاريخ العروبة والإسلام لأستعير كلاماً يخفف المصاب.. فلم أجد.

هل أقول واسلاماه؟... لا، إن المصاب أعظم.

هل أقول وامعتصماه؟.. لا، إن الكارثة أدهى.

لم أستطع أن أتكلم، فقد تعطلت ملكة الكلام.

لم استطع أن أبكي، فقد تجمدت عيناي عن البكاء.

لم استطع أن أستذكر شعر المراثي في دواوين العرب، فقد تبلدت ذاكرتي.. كل مشاعري تعطلت.. كل أحاسيسي تجمدت، كل جوارحي تحجّرت.

فقد كانت الكارثة فوق قدرة الشعور على الشعور، وفوق طاقة الإحساس على الإحساس.

وانثنيت إلى الإذاعة الأردنية لأسمع ماذا تقول، فانقلبت أضحك كالأبله.. وشرّ البلية ما يضحك.

كانت الإذاعة الأردنية تذيع برقية بعث بها جلالة الملك فيصل إلى جلالة الملك حسين، يعرب فيها عن: «إعجاب العرب والمسلمين وتقديرهم للموقف الذي يقفه الشعب والجيش في الأردن في وجه العدوان الإسرائيلي في هذه اللحظات التاريخية الحاسمة... وأن السعودية تضع كل إمكاناتها في خدمة المعركة.. »، إلى آخر الكلام... وأورام الكلام.

ولكن أورام الكلام تكاثرت بعد المعركة... وكانت كلها تبريراً للهزيمة وتفسيراً لسقوط الوطن... فقد انطلقت الخطب الرسمية في الوطن العربي، تقول: «لقد انتصرت إسرائيل في الحرب، ولكن عجزت عن تحقيق أهدافها السياسية... كانت إسرائيل تريد إسقاط النظم التقدمية، ولكنها فشلت في تحقيق ذلك... لقد احتلت الأرض، ولكن الحكومات الثورية باقية»... إلى آخر هذا الكلام المريض.

ولقد ضجت الأمة العربية وهي تسمع هذا الكلام . . . وتمنت لو سقطت كل الأنظمة الثورية والتقدمية، ومعها جميع الملوك والرؤساء، قبل أن يسقط حجر واحد في بيت المقدس، أو تهتز حبة رمل في سيناء، أو تقصف قشة في الجولان . .

كان ذلك هو كلام الحكم العربي بعد الهزيمة.

وأردت أن أخرج من هذا الكلام السفلي إلى الكلام العلوي، إلى رحاب الله، ملك الملوك ورب الأرباب . . . فعنده السكينة والطمأنينة، وعنده العزاء والرجاء.

وسألت نفسي: لِمَ لم ينصرنا الله، وكان جواب الله تعالى: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم** . . .﴾[٢] صدقَ الله العظيم، وسألت نفسي: لِمَ سقطت القدس من أيدينا وسقطت في يد إسرائيل؟.

فكان جواب الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا عن الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كل شيء قدير**﴾[٣] صدق الله العظيم.

أجل . . ﴿**ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله على كل شيء قدير**﴾ صدق الله العظيم.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة محمد،» الآية ٧.

(٣) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآيتان ٣٨ ـ ٣٩.

عبـد الناصـر.. عبـد الناصـر

سقطت القدس، ولم أعد أحتمل البقاء في عمّان.. لقد جئتها من القاهرة منذ أسبوع مع الملك حسين في طائرته بعد توقيع الدفاع المشترك، وكلنا آمال وأحلام جسام.

واليوم.. ٨ حزيران/ يونيو أخذت الآمال تتداعى والأحلام تتهاوى، وعزمت على العودة إلى القاهرة لأرى ما كان، وما سيكون.

وكيف لا تتبدد الآمال والأحلام، وقد شرعت إسرائيل تذيع أخبارها من الإذاعة الأردنية في الضفة الغربية؟

أجل من الإذاعة الأردنية.. فقد احتلت إسرائيل، في جملة ما احتلت، الإذاعة الأردنية بكل مؤسساتها ومنشآتها، وبدأ المذيع الإسرائيلي يعلن: «هنا دار الإذاعة الإسرائيلية في رام الله».

وكان من أول ما أذاعته هذه الإذاعة الأردنية «سابقاً»، تصريح لناطق رسمي إسرائيلي بأن القوات الإسرائيلية تحتل كل الضفة الغربية، وأن الجنرال موشى ديان تفقّد القدس والخليل وبيت لحم، وأن اثنين من الجسور التي تصل ضفتي الأردن قد نسفا.. وأن بن غوريون وعدداً كبيراً من أعضاء البرلمان الإسرائيلي قد زاروا حائط المبكى، كما نقلت تصريحاً للجنرال إسحق رابين بأن القوات الإسرائيلية تسيطر على شبه جزيرة سيناء، وأنه تم الاستيلاء على آبار النفط المصرية في رأس سدر على شاطئ سيناء، جنوبي بور توفيق.

وإلى هنا فقد كانت إذاعة رام الله «سابقاً» تبث بلاغات عسكرية.. ولكن تراقصت الضحكات في نفسي كالطير يرقص مذبوحاً من الألم.. حين بدأ المذيع الإسرائيلي يعلن ساخراً: «قد احتلت القوات الإسرائيلية فندق أمباسادور في القدس. واتخذته مقراً لإدارة الضفة الغربية المحتلة، بعد أن كان مقراً لأحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذي فرّ بلباس امرأة مسلمة صباح الخامس من حزيران/ يونيو».

ولم أبال بالخبر، فقد حسبته من باب الفكاهات في أيام النكبات. وعلى كل حال، فقد كانت إذاعته، ولو على هذه الصورة الكذابة، تنبئ أني ما زلت في عمّان.. فقد انقطعت أخباري وآثاري، وأنا بين الفندق وغرفة العمليات في عمّان.

وكائناً ما كان الأمر، فإن أخبار الإذاعة الأردنية «سابقاً»، قد جاءتني حافزاً جديداً لأغادر عمّان.. فحزمت حقائبي وجمعت أوراقي وعزمت على السفر إلى دمشق، فبيروت، لأستقل أول طائرة إلى القاهرة.

وخطر لي أن أعرّج على القيادة الأردنية لأودع القادة العسكريين، ولكني عدلت وأنا استمع إلى إذاعة عمّان في السيارة. فمنذ غادرنا الفندق والسائق يثبت أنامله عليها.

عدلت... لأن الملك حسين كان يخطب عن القرار الذي أصدره مجلس الأمن بالأمس بصدد وقف إطلاق النار.. كان يقول: «حينما صدر قرار مجلس الأمن بالأمس بوقف إطلاق النار حسبنا أن الشرف والخلق سيتغلب عند الأعداء على الخسة والمكر والدناءة، ورغبنا منذ تلك اللحظة في الانصياع لصوت الضمير العالمي، على أمل أن تهبّ جميع الدول المحبة للسلام إلى معالجة الموقف بروح العدالة والإنصاف، وأعلنا على التوّ أننا لا نمانع في وقف إطلاق النار، لكن المؤامرة في ما بدا كانت أرحب أبعاداً عن كل سلوك أخلاقي، فإذا بالغدر يقذف بكل ما لديه من قوى ضد بقايا سيوفنا.. غير أن ما بقي من آسادنا قد اضطر تحت إلحاح النداءات والابتهالات أن تعود مهيضة الجناح».

وكما يقرف المرء من الذباب على جيفة نتنة، فقد قرفت من هذه الكلمات: «بقايا سيوفنا» «وآسادنا» وغير ذلك من عبارات الجاهلية تنبش من جوف الماضي وتقال في عهد الصواريخ.

ولكن ما زادني قرفاً أن يتحدث الملك حسين عن «الخسة والمكر والدناءة»... «والانصياع لصوت الضمير العالمي» وعن «السلوك الأخلاقي».. كما تحدث د. نور الدين الأناسي في اليوم نفسه من إذاعة دمشق حين قال: «إننا نواجه اليوم أكبر مؤامرة دنيئة خسيسة في العالم الحديث..»، وكل حقد الإمبريالية الأمريكية البريطانية على الشعوب وكل شراستها..»، وهو الحديث نفسه الذي انطلق من أفواه الملوك والرؤساء في تلك الأيام النكراء، ليثبت أنهم جاهلون وجاهلون.

جاهلون أولاً، لحقيقة إسرائيل ومطامعها وأهدافها.

وجاهلون ثانياً، للحرب.. خطة وهدفاً، وبداية ونهاية.

إنهم يشكون من الغدر ولا يعرفون أن الحرب هي الغدر كل الغدر.

إنهم يشكون في عدم انصياع إسرائيل لقرار مجلس الأمن، والغبي الغبي هو الذي ينصاع لقرار مجلس الأمن، حينما يكون قادراً على القتال والاستمرار في القتال.

ولا أريد أن أقتبس طويلاً من أقوال الملك حسين في ذلك اليوم وغيره من قادة العرب، فإن أوراقي تقرف معي إذا رجعت إلى المزيد.

من أجل ذلك عدلت عن الذهاب إلى غرفة العمليات حتى لا أرى الملك حسين ولا أرى خطابه على وجهه.. ولكني حرمت من واجب غال يوجعني كلما ذكرته.

كنت أريد أن أزجي تحية عطرة إلى رجلين قاما بواجبيهما حق قيام: الفريق عبد المنعم رياض، واللواء عاطف المجالي.. الأول ابن القاهرة البار، والثاني ابن الكرك الصادق.. وكان آخر لقائي بهما بالأمس ولم أرهما في ما بعد.. فقد سقط الأول شهيداً بعد عام في جبهة القتال على القنال.. وقضى الثاني نحبه على فراشه بعد أيام، تصهر النكبة زهرة شبابه.. وهكذا ذهبا في مواكب الألوف من رجالنا الميامين، يرحمهم الله أجمعين.

مرت هذه الخواطر سريعة في خاطري، والسيارة تخرج بنا من ضواحي عمّان في الطريق إلى دمشق، ويا لهول ما رأيت.. كانت المصفحات والدبابات، محترقة مهشمة، معطوبة مقلوبة.. ورأيت بعض الضباط والجنود على الطريق إلى جانب هذه الأكوام المحترقة.

ووقفت.. وتحدثت إلى الضباط.. كانوا من الضباط العراقيين.. وكانت الأكوام المحترقة هي الدبابات والمصفحات العراقية.

ولقد كنت أعلم عن حركة القطعات العسكرية العراقية وأنا في غرفة العمليات، ولكني أراها الآن في الميدان مدمرة محترقة، وإنها قصة بطولة مجيدة للشعب العراقي، وللأمة العربية بأسرها.

وخلاصة القصة أن القوات العراقية تركت أعالي الجبال في شمال العراق، وقطعت مسافة ألف وخمسماية كيلومتر، لتصل إلى شرق الأردن ومنها إلى غرب الأردن وتشترك في المعركة.. تلك كانت الأوامر في أوائل حزيران/ يونيو المشؤوم.

ففي الخامس من حزيران/ يونيو، في هذا اليوم فقط، وصل اللواء الآلي الثامن إلى منطقة المفرق، وتعرضت له القوات الجوية الإسرائيلية لتصطاده صيد العصافير، ودمرت الجزء الأكبر من معداته وعتاده.

وفي مساء السادس من حزيران/ يونيو، في هذا اليوم فقط، وصل لواء المشاة الأول، ثم لواء المشاة السابع والعشرون، ولواء المدرعات السادس. وفي الطريق إلى

جرش وأريحا، كانت طائرات الميراج الإسرائيلية تقصف القوات العراقية وهي تسير في أرتال منتظمة من غير غطاء جوي ولا دفاع أرضي. . . وتمتمت. . . ما أسمى هذه الأمة وجنودها، وما أغبى ملوكها ورؤساؤها!!

وواصلت سيري إلى دمشق، واجتزت مخافر الجوازات والجمارك عند الحدود، وهي أوكار العار في الوطن العربي. . . وفي دار المحافظة في درعا استرحت بعض الوقت، وكنت في الواقع أريد أن أعرف كيف حال الجبهة السورية.

كان رجال المحافظة في سكوت جامد، ولكن بعض الضباط كانوا يتحدثون بعصبية ظاهرة، وكانت عباراتهم تدل على أنهم من البعثيين، فبدلاً من أن أسمع أخباراً عسكرية، رحت أسمع عبارات عقائدية. . وشعارات حماسية. . وما أشقى الأمة حين تصبح أسيرة الشعارات الجوفاء، من غير أصالة ولا عراقة.

وللمرة المئة بعد المئة قلت في نفسي، أنا مؤمن بالبعث حزباً وفكراً وهدفاً، ولكني كافر بالبعثيين سلوكاً وتصرفاً.

وخرجت من دار المحافظة. . وكان يرافقني أحد ضباط جيش التحرير، جاء ليستقبلني على الحدود. . فمال إليّ وهو يناشدني بكل حياء: «أرجو ألا تكون قد تضايقت من تصرف الموظفين البعثيين».

قلت: «لا بأس. . ستظل دمشق بلدنا، والشعب السوري شعبنا، وجيشها جيشنا. . وحتى عدد من البعثيين، فإني أحترم إخلاصهم ونضالهم ولا نبالي بالآخرين. . دعهم في ضلالهم يعمهون. . وهذا بعض الوحل في الطريق».

ووصلنا إلى مقر قيادة جيش التحرير الفلسطيني، وهذه لم يكن فيها غرفة عمليات. . فإن جيش التحرير الفلسطيني قد وضع تحت إمرة الجيش السوري قبل أن تندلع الحرب بأيام، واتخذ مواقعه في الخطوط الأمامية على الجبهة السورية.

وقلت للضباط الفلسطينيين: «وكيف حال الجبهة عندكم؟».

قالوا: «ليس عندنا غير البلاغات الرسمية التي نسجلها من إذاعة دمشق. . ونحن كعسكريين نستطيع أن نعتبر أن المعركة في سوريا قد بدأت اليوم. . في الأيام الثلاثة السابقة كانت المعركة قاصرة على مناوشات جوية. . منذ صباح اليوم قامت إسرائيل بهجوم شامل على المراكز الأمامية، وبدأ الالتحام مع الجيش السوري».

قلت: «وما هي آخر البلاغات الرسمية؟».

قالوا: «في صباح هذا اليوم أعلن راديو دمشق أنه يتوقع أن تصل القوات السورية إلى صفد، لتلتقي بالقوات الأردنية الزاحفة».

قلت: «لو لم أكن قادماً من عمّان صباح اليوم لأمكنني أن أصدق الخبر.. لقد تركت القوات الأردنية «زاحفة»، ولكن في الطريق إلى نهر الأردن.. إنها تنسحب في اتجاه عمّان.. وأين نحن من صفد؟ الإسرائيليون يزحفون من صفد في اتجاه سوريا».

وفتح أحد الضباط الراديو ليتأكد من صحة الخبر.. فإذا بالناطق الرسمي يقرأ عدداً من البلاغات الرسمية عن الاشتباكات الجوية، ثم يعلن بعد ذلك أن «سوريا لن توقف القتال وستواصل الحرب ضد إسرائيل، وأن الحرب ما زالت في بدايتها وسوف تستمر، والنصر لمن يعبئ، ولمن يرمي في المعركة كل يوم قوى جديدة.. وأن أسلوب إسرائيل في الحرب الصاعقة لفرض وقف القتال لن يكتب له النجاح، وأن الغلبة في النهاية ستكون للحق العربي».

وطلبت إلى أحد الضباط أن يتصل برئاسة الجمهورية لتحديد موعد للاجتماع بالرئيس د. نور الدين الاتاسي.. وثار جدال بين الإخوة الضباط حول هذه الزيارة، فقال بعضهم: «نحن لا نرى داعياً لهذه الزيارة.. البعث لا يترك فرصة إلا ويهاجم منظمة التحرير».. وقال البعض الآخر: «نحن الآن في معركة ولا مانع من المجاملة».

وغضب أحد الضباط وقال: «هؤلاء يهاجموننا في المدارس، إنهم يعلمون الطلاب أن يكرهوا منظمة التحرير.. وأن يحقدوا على قيادتها وعلى جيشها».

قلت: «وكيف ذلك؟؟».

وقفز الضابط إلى سيارته... إلى منزله... وعاد إلينا بعد قليل وهو يقول: يا سيدي، هذا كتاب مدرسي اسمه **الثقافة القومية الاشتراكية** لطلاب السنة الثانية الثانوية، تقرأه إحدى بناتي... وفي شرح موقف حزب البعث من منظمة التحرير، جاء في هذا الكتاب ما يلي: وبدأ الأخ الضابط يقرأ: «... وحين حاولت مؤتمرات القمة تزييف طبيعة الدور النضالي لشعب فلسطين بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة الطبقات نفسها التي فشلت في معركة فلسطين قبل النكبة.. أمثال الشقيري وأعضاء المجلس الوطني المتحدرين من أبناء العائلات الإقطاعية والمتمولين في مناطق البترول، تصدّى مؤتمر حزب البعث إلى فضحها.. وأن على قيادة الحزب أن تحدّد موقف الحزب من هذه المنظمة بجانبيها المدني والعسكري في ضوء خطة حرب التحرير الشعبية وسائر مستلزماتها»[1].

وألقى الضابط الكتاب من بين يديه وهو يقول: «أرأيت يا سيدي كيف

(١) آخر طبعة من هذا الكتاب كانت في عام ١٩٧١ ـ ١٩٧٢، وفيه هذا الكلام..!!!

يفسدون عقول الطلبة؟ . . ماذا يريد منا حزب البعث؟ . . ماذا يريد من جيش التحرير؟ . . ها نحن الآن على الخطوط الأمامية».

قلت: «يا إخوان لا داعي للعصبية، ونحن الآن في معركة، ولا داعي لإثارة هذه الأمور. إنها تدل على جهالة فاضحة، وأن تلاميذنا لن يعبأوا بهذا الكلام الهراء، وسيكتشفون زيفه بفطرتهم الواعية . . . إنهم يعرفون أن أعضاء المجلس الوطني لا علاقة لهم بالكارثة . . لم يكونوا في مركز القيادة حين سقطت فلسطين في عام ١٩٤٨ . وليسوا متحدرين من أبناء العائلات الإقطاعية والمتمولين في مناطق البترول . . . إلى آخر هذا الكلام الذي يدل على الحقد والجهل معاً . . على كل حال، فلندع الأمور جانباً . . لنعالجها في الوقت المناسب . . أطلبوا لي موعداً مع الرئيس الأتاسي».

لم تمض دقائق حتى جاءت إحدى سيارات الدولة لتقلني إلى مقر الرئاسة الجمهوري في المهاجرين . . واستقبلني الرئيس د. نور الدين الأتاسي في مكتبه . . في المكتب الذي كان يستقبلني فيه الرئيس هاشم الأتاسي . . وما أعظم الفارق بين الرجلين والعهدين: أصالة ورجاحة، بل إخلاصاً وإيماناً.

كان د. نور الدين الأتاسي عابساً متجهماً . . ولم نكد نفرغ من عبارات المجاملة والتحية المعتادة . . حتى بدأ الحديث.

قال: «كيف تركت الجبهة الأردنية؟».

قلت: «معركة الأردن في طريقها إلى النهاية ما لم تحدث المعجزة . . القوات الأردنية تلقت أمراً بالانسحاب».

قال: «وبموافقة الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر . . أليس كذلك؟؟!!».

قلت: «كان ذلك جواباً عن تقديرات الموقف كما بيّنها الفريق عبد المنعم رياض. وهذا موقف القيادة الأردنية بالذات».

قال: «هذا نتيجة التحالف مع الرجعية الأردنية . . نحن لم نوافق على مجيء الملك حسين إلى القاهرة، ولا على اتفاقية الدفاع المشترك بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين . . ولا على اتفاقية الدفاع المشترك مع العراق».

قلت: «لماذا؟ . . إن الملك حسين لم يذهب إلى القاهرة مختاراً . . لقد ذهب تحت ضغط القوى الوطنية في الجيش الأردني والشعب».

وقال: «لا . . لا . . الرئيس عبد الناصر يعرف موقفنا تماماً . . وها نحن

نخوض المعركة وحدنا منذ صباح اليوم.. القوات الإسرائيلية بدأت هجوماً جوياً وبرياً على جميع مواقعنا».

قلت: «إن الرئيس عبد الناصر قام بهذه العملية أصلاً من أجل نجدة سوريا... ألم تكن الألوية الإسرائيلية محتشدة على الحدود السورية، فحشد عبد الناصر القوات المصرية في سيناء ليخفف الضغط عنكم؟».

قال: «وها قد أعلنت مصر والأردن قبولهما لقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، والعجيب أن إسرائيل ترفض الانصياع».

قلت: «العجيب أن توافق إسرائيل... إنها تريد أن تصل بالمعركة إلى النهاية.. إن إسرائيل كانت أكثر منا مكراً ودهاءً منذ بداية المعركة حتى الآن».

قال: «لقد حذرنا الرئيس عبد الناصر... قلنا إن إسرائيل ستشن العدوان في ٢٨ أيار/ مايو، ولكنه لم يصدقنا».

قلت: «ولماذا لم تحذروا أنفسكم؟... أنتم تقولون إنكم فوجئتم بالمعركة».

قال: «لقد قبلوا وقف إطلاق النار.. ونحن الآن في المعركة وحدنا».

قلت: «لما كانت المعركة على أشدها في الأردن وسيناء لم تدخلوا المعركة.. وجاء الآن الدور عليكم لتكونوا في المعركة وحدكم».

قال: «نحن سنصمد وحدنا... نحن لا نريد مساندة الدول العربية، ولا مساعدة روسيا كذلك.. لا بد من أنك لاحظت أننا أعلنّا من إذاعتنا أننا سنقاتل حتى من دون عون من الأصدقاء، وأننا سننتصر حتى من دون طيران الأصدقاء.. وغداً سيصدر بلاغ باسم القيادتين القطرية والقومية بالإفراج عن المعتقلين السياسيين حتى نتيح لهم جميعاً أن يسهموا في شرف الدفاع عن وطنهم».

قلت: «وماذا سيقدم المعتقلون السياسيون للمعركة في يوم المعركة؟... إن وجود معتقلين سياسيين في سوريا، وفي غير سوريا، هو وصمة عار في جبهة الحكم الوطني العربي... كان الاعتقال السياسي في عهد الانتداب والاحتلال... أما في هذه الأيام ومعركتنا الكبرى مع الاستعمار والصهيونية، فلا يجدر أن يكون في السجون إلا المجرمون العاديون».

قال: «لقد ابتعدنا عن الموضوع».

قلت: «ما هو أهم من الإفراج عن المعتقلين السياسيين أن تبادروا إلى دعوة إخوانكم اللاجئين السياسيين في القاهرة.. إن بينهم عدداً من الضباط الممتازين

أمثال: جاسم علوان، أكرم الديري، عبد الحميد السراج، جادو عز الدين.

قال: «هؤلاء قضيتهم صعبة.. وقد بحثنا موضوعهم في القيادة ولا يمكن السماح بعودتهم».

قلت: «إن قضية هؤلاء الضباط هي قضية الوحدة.. إنهم ضحايا الوحدة وأنتم شعاركم الوحدة.. ولماذا لا تقتدون بالعراق؟.. إن الرئيس عبد الرحمن عارف استقبل عميد الجو عارف عبد الرزاق الذي وضع نفسه تحت تصرف رئيس الجمهورية، فعهد إليه بقيادة الجبهة الجوية، وكذلك صنع مع جميع الضباط المسرّحين.. وأنت تعلم أن عميد الجو عبد الرزاق كان متهماً بتدبير انقلاب على المشير عبد السلام عارف».

قال: «نحن لا نقتدي بالعراق... وإني اقترح عليك أن تزور الأخ صلاح جديد قبل عودتك إلى بيروت».

قلت: «أظن أنه مشغول كثيراً في هذه الأيام... وأنا على سفر.. سأحاول أن اجتمع به في زيارة قادمة».

والواقع أن هذا الاقتراح لم يرق لي، فقد كانت في نفسي «عقدة» ضد الأخ صلاح جديد... فأنا لا أحب الذين لا يعرفهم الشعب إلا من خلال المؤامرات والصراعات يدبرونها ويديرونها من الغرف المظلمة.

وخرجت من القصر الجمهوري وأنا أنزل السلم وئيداً، درجة درجة، كأني أودعه وأودع معه دمشق كلها... فقد حجزت نفسي عن دمشق بعد حرب الأيام الستة. هذه الأعوام الستة... وما أعظم دمشق التي كنت أعرفها، وأصبحت الآن أجهلها.

وازداد حزني على دمشق حين علمت في ما بعد أن جاسم علوان ويوسف مزاحم وجادو عز الدين ومعهم خمسة وعشرون ضابطاً آخرون كانوا في مخفر الحدود السورية في اليوم الذي كنت أتكلم بشأنهم مع الرئيس السوري، ولم تسمح لهم السلطات السورية بالدخول إلى وطنهم والاشتراك في معركة المصير، ذلك أن هؤلاء الضباط كانوا أخطر على سوريا من إسرائيل.

وعرجت على مكتب منظمة التحرير لأتفقد شؤونه... وما كان أقسى شؤونه في ذلك اليوم... كانت الطرقات والساحات المحيطة بمكتب المنظمة مزدحمة بالخلق... وكان هذا «الخلق» هم الفلسطينيون... الفلسطينيون في سوريا، ومن كل المشرق العربي.. جاؤوا بالشاحنات من لبنان، ومن الكويت، ومن العراق... جاؤوا ليشتركوا في المعركة... إنهم يطلبون السلاح.. إنهم يريدون الذهاب إلى الميدان.

كان هذا المشهد مأساة بنفسه. . لقد أقفل مكتب المنظمة أبوابه، وكان الفلسطينيون يعطون أسماءهم وعناوينهم من النوافذ. . يمدون أيديهم من بين القضبان.

وهربت من هذا المشهد. لقد هربت فعلاً. . . وأعترف أني هربت. . . وأنا الذي قضيت عمري في صفوف الشعب. . وترحّمت على رجال المنظمة كيف سيعالجون هذا الموقف الرهيب. . . الجموع هائمة. . . المعركة تلتحم على أرض الوطن. . . وهذه الجموع قد قطعت بادية الشام للالتحاق بالمعركة.

ومن الذي يستطيع أن يقول لهم إن القوات الأردنية تنسحب من الضفة الغربية؟، من الذي يستطيع أن يقول لهم إن إسرائيل قد اخترقت سيناء؟. . . من الذي يستطيع أن يقول لهم إن مصر والأردن قد قبلا وقف إطلاق النار. . . ولم تعد هنالك معركة يلتحقون بها؟

كانت الجماهير لا تعرف. . وكذلك فإن الجماهير العربية بأسرها لا تعرف. . ولو أن عبد الناصر كاشف هذه الجموع بنفسه وأطلعها على الحقيقة لكفروا بأنفسهم.

ومن أجل هذا، فقد عدت أدراجي، ولم أصل إلى مكتب المنظمة، وواصلت سيري إلى بيروت لأستقل أول طائرة إلى القاهرة.

ولكني لم أجد ضالتي في بيروت، فلم أجد أول طائرة ولا آخر طائرة.

اتصلت بشركات الطيران فقالوا: «الطيران متوقف مع القاهرة».

قلت: «إلى السعودية ومنها إلى القاهرة».

قالوا: «الطيران متوقف مع السعودية».

قلت: «إلى الكويت ومنها إلى القاهرة».

قالوا: «الطيران متوقف مع الكويت».

قلت: «إلى ليبيا ومنها إلى القاهرة».

قالوا: «الطيران متوقف مع ليبيا».

ولقد رأيت بوادر الهزيمة في هذه الواقعة الحية التي تعرض لها كل مواطن عربي من المحيط إلى الخليج. . وهالني أن سلاح الجو الإسرائيلي قد أصبح يسيطر على الأجواء العربية، على حين أن بعض الدول العربية تملك من الطائرات المقاتلة ثلاثة أضعاف ما تملكه إسرائيل.

أي، نعم. . . تلك هي الحقيقة بالأرقام. . . ويكفي أن أشير إلى ما تملكه ست دول عربية، لا إلى الثلاث عشرة، بحسب البيانات التي قدمتها الدول العربية إلى

القيادة العربية الموحدة: فعند مصر ٤٥٠ طائرة مقاتلة... وعند العراق ٢٠٠ طائرة.. وعند سوريا ١٢٠ طائرة. وعند الأردن ٤٠ طائرة، وعند الجزائر ١٠٠ طائرة.. ومجموعها ٩٢٨ طائرة.. أما عند إسرائيل فالعدد لا يتجاوز ٣٠٠ طائرة، وهذا هو تقدير المعهد البريطاني للدراسات الاستراتيجية.

وليس المواطن العربي في حاجة إلى أن يسأل عن السبب.. لماذا استطاعت إسرائيل أن تسيطر على الأجواء العربية، وهي لا تملك أكثر من ثلث الطائرات التي تملكها ست دول عربية.. أي، نعم لماذا؟!.

إن الجواب بسيط.. غاية البساطة.. إن إسرائيل دولة واحدة، ولها قيادة واحدة.. والدول العربية ثلاث عشرة، لها ثلاث عشرة قيادة، وفي داخل كل قيادة تناقضات، بل صراعات.. وكثيرا ما تنتهي إلى انقلابات تحت مختلف الشعارات.

وعلى هذا، فإن طائرة واحدة لها قيادة واحدة أكثر قوة وفتكاً وتدميراً من ثلاث عشرة طائرة لها ثلاث عشرة قيادة متناحرة.

وهكذا عزمت أن أبقى في بيروت، حتى تنفتح الأجواء العربية، ويعود سلاح الجو الإسرائيلي إلى قواعده.. ويجود على المواطن العربي بحرية السفر والانتقال.

وقضيت خمسة أيام (٨ ـ ١٣ حزيران/ يونيو) حافلة مثيرة.. وأصبحت صالات الفندق عندي أشبه «بغرفة عمليات» مثل التي احتوتني في عمّان.. ولكن هذه المرة كانت «غرفة العمليات» للحوار والشجار.. لا للقتال والنزال.

تزاحم عليّ الزوار، والأصدقاء، والصحافيون، في تلك الأيام بما لم أشهد له مثيلاً في حياتي المليئة باللقاءات والاجتماعات.. فقد جاؤوا ليسألوني الأسئلة التاريخية:

ـ كيف رضي الرئيس عبد الناصر باستقبال الملك حسين في القاهرة في ٣٠ أيار/ مايو بعد القطيعة الكبرى؟

ـ ماذا دار بين الرئيس والملك من حديث؟

ـ كيف سافرت مع الملك حسين في طائرته إلى عمّان؟

ـ كيف بدأت المعركة في الأردن؟

ـ لماذا قبلت مصر والأردن قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار؟

ـ هل تستطيع مصر أن تستعيد زمام المبادرة في المعركة؟

ـ هل ستطول المعركة؟

ـ هل يتدخل الاتحاد السوفياتي لتأييد مصر؟

ـ هل صحيح أن الطائرات البريطانية والأمريكية ساندت القوات الإسرائيلية؟

ولقد كنت أجيب عن هذه الأسئلة بكثير من التحفظ، فإن المعركة لم تنته بعد في نظر الجماهير العربية على الأقل.. ولم يكن ميسوراً عليّ أن أسمح بمعلوماتي الخاصة أن تتسرب.. وبخاصة أن مثل هذه الاجتماعات المفتوحة قد يندس فيها العملاء من كل حدب وصوب.

وفي الليل كانت هذه الاجتماعات تنقلب إلى ندوات مقفلة يحضرها عدد من المثقفين والمشتغلين بالقضية العربية.

وجاء دوري لأكون مستمعاً بعد هذه الرحلة المضنية من القاهرة إلى عمّان إلى دمشق إلى بيروت، ورحت استمع إلى أحاديث الإخوة الزائرين.

وكانت المعركة هي الحديث، وكان الرئيس عبد الناصر هو محور الحوار.. وكثيراً ما ينقلب الحوار إلى شجار.

وكنت لا أعلّق على هذه الأحاديث إلا بالحكم السائرة والأمثال الشهيرة التي تقال في هذه المناسبات، فقد أصبحت أشفق على عبد الناصر إشفاقي على الأسد الجريح، وقد هوى على الأرض بعد طول الصراع.

وتكاثر اللغط على الرئيس عبد الناصر، وسرعان ما تنتقل كلمات السوء بين صفوف الجماهير حين تتحطم آمالها... فقد فتن الناس بعبد الناصر لأنهم رأوا فيه تجسيداً لأحلامهم في الوحدة والتحرير.. وها قد أخذ الآن يهوي إلى القاع... فالجماهير لا تفهم ولا ترحم.

الجماهير لا تفهم لأنها تنظر إلى النتائج، لا إلى الأسباب وإلى الظروف... والجماهير لا ترحم لأن القائد عندها على كل شيء قدير.

وازداد حنق الناس وغضبهم، وازداد كذلك تجريحهم للملوك والرؤساء العرب، حين أعلنت إذاعة القاهرة في نشرة الظهر بلاغاً رسمياً مقتضباً كل ما جاء فيه: «ساد الجبهة الآن الهدوء، وأوقفت جميع العمليات، مراعاة لقرار وقف إطلاق النار» (٩ حزيران/ يونيو).

وبلغ الغضب ذروته، والناس يستمعون إلى هذا الخبر من إذاعة القاهرة.. تماماً من إذاعة القاهرة.. وكانوا قبلها بين مصدّق ومكذّب.

ومضت بضع ساعات، في يوم الجمعة نفسه (٩ حزيران/ يونيو)، وهو يوم لا أنساه.. والتاريخ لا ينساه.. وجاءت المعجزة.

كانت الصالة غاصة بالزوار.. وكان الحديث نفسه.. عبد الناصر والهزيمة.. عبد الناصر ومسؤوليته، وكان الراديو مفتوحاً على إذاعة القاهرة.. وكانت الأناشيد العسكرية تملأ الأسماع.. ولكن الأسماع لا تريد أن تسمع أناشيد عسكرية.

وأوقفت الإذاعة الأناشيد العسكرية ليقول المذيع: «انتظروا بياناً مهماً من الرئيس عبد الناصر».

وكان السامعون لا يبالون بما تقوله الإذاعة.. تتعاقب منهم التعليقات:

ـ هل يريد أن يخطب الرئيس عبد الناصر؟

وقال المذيع: «الرئيس عبد الناصر يوجه رسالة إلى الأمة».

وبدأ الرئيس عبد الناصر يتكلم... ومع كلماته كانت أمواج الأثير تحمل حفيف أنفاسه المتكسرة.

وابتدأ حديثه قائلاً: «لقد تعودنا معاً في أوقات النصر وفي أوقات المحنة، في الساعات الحلوة وفي الساعات المرة أن نجلس معاً، وأن نتحدث بقلوب مفتوحة، وأن نتصارح بالحقائق، مؤمنين أنه عن هذا الطريق وحده نستطيع دائماً أن نجد اتجاهنا إليهم مهما كانت الظروف عصيبة، ومهما كان الضوء خافتاً».

وأطرق الزائرون برؤوسهم وهم يريدون ولا يريدون أن يسمعوا مصارحة الرئيس عبد الناصر، ومضى يقول: «ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة، ولكني واثق أننا جميعاً نستطيع وفي مدة قصيرة أن نجتاز موقفنا الصعب، وإن كنا نحتاج في ذلك إلى كثير من الصبر والحكمة والشجاعة الأدبية ومقدرة العمل المتفانية».

وأمسكت أنفاسي عند كلامه عن «النكسة الخطيرة». فقد كنا في الواقع أمام أكبر نكبة حلّت بالأمة العربية منذ عهد الصليبيين وغزوات التتار.. غير أني أحسست أن الرئيس عبد الناصر يريد أن يهوّن على الأمة العربية نكبتها، ويواسيها في مصابها، فاختار لفظ «النكسة» مكان «النكبة».. وشتان.. شتان ما بين الكلمتين.

وتحدث الرئيس عبد الناصر بعد ذلك. شارحاً الملابسات والظروف السابقة، فأشار إلى «خطة العدو في غزو سوريا.. والمعلومات الوثيقة التي أكدها أصدقاؤنا في الاتحاد السوفياتي.. ». وأوضح كيف تحركت القوات المصرية إلى سيناء في أعقاب انسحاب قوات الطوارئ الدولية، ثم تطرق إلى إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية وأن «مرور علم العدو أمام قواتنا كان أمراً لا يحتمل».

ونظر الزائرون بعضهم إلى بعض في كثير من الحيرة حين تناول الرئيس

عبد الناصر تقدير الموقف قبل المعركة، وقال: «ولقد كانت الحسابات الدقيقة أن قواتنا المسلّحة بما بلغته من مستوى في المعدات وفي التدريب قادرة على ردّ العدو وعلى ردعه، وكنا ندرك أن احتمال الصراع بالقوة المسلحة قائم، وقبلنا بالمخاطرة».

وعند عبارة «قبلنا بالمخاطرة» بالذات حدّق الزائرون في وجوه بعضهم، كل منهم يرى فيها سنداً لحواره، ولكن بدت على سيماهم جميعاً بوادر الرضا أن الرئيس عبد الناصر قد اعترف بأنها كانت «مخاطرة».

وازداد السامعون اهتماماً حين أخذ الرئيس عبد الناصر يتحدث عن صباح الخامس من حزيران/ يونيو وهو يقول: «في صباح الخامس من يونيو جاءت ضربة العدو بأكثر مما توقعناه.. وبأكبر مما يملكه، مما أوضح منذ اللحظة الأولى أن هناك قوى أخرى وراء العدو جاءت لتصفي حساباتها مع حركة القومية العربية».

واستطرد الرئيس عبد الناصر بعد ذلك إلى شرح ظروف المعركة وكيف: «أن العدو جاء من الغرب وكان من المتوقع أن يأتي من الشرق والشمال.. وأن طيران العدو غطى في وقت واحد جميع المطارات العسكرية والمدنية في الجمهورية العربية المتحدة... وأن حاملات طائرات أمريكية وبريطانية كانت بقرب شواطئ العدو تساند مجهوده الحربي.. وأن العدو كان يعمل بقوة جوية تزيد ثلاث مرات عن قوته العادية». وبعد أن أثنى الرئيس عبد الناصر على الأمة العربية «شعوباً وحكومات وما بذلت من جهود رائعة وشريفة» انتقل إلى المعركة بالذات وقال: «ولقد اضطرت قواتنا المسلحة في سيناء إلى إخلاء خط الدفاع الأول وحاربت معارك رهيبة بالدبابات والطائرات على خط الدفاع الثاني... ثم استجبنا لقرار وقف إطلاق النار أمام تأكيدات وردت في مشروع القرار السوفياتي الأخير المقدم إلى مجلس الأمن».

وتململ السامعون عند الكلام عن مجلس الأمن ووقف إطلاق النار وموقف الاتحاد السوفياتي. فإن الجماهير العربية لا تهضم أي كلام عن وقف إطلاق النار ولا عن الاتحاد السوفياتي، بل إن السامعين كادوا أن يهموا بالخروج من الصالة حين كان الرئيس عبد الناصر يقول «إن العدو جاء من الغرب، وكان المتوقع أن يأتي من الشرق والشمال».

ولو أن خطاب الرئيس عبد الناصر وقف عند هذه الوقائع، لكان ترديداً للكلام الذي أطلقته إذاعة القاهرة في اليومين السابقين... فليس فيه جديد، والجديد فيه أنه يأتي على لسان عبد الناصر.... وذلك اعتراف من الزعيم القائد بالهزيمة، وكيف للشعوب أن ترضى.

ولكن الرئيس عبد الناصر استجمع جوارحه، كالنسر يستجمع جناحيه، وراح يحلّق ويحلّق، وقلوب الأمة العربية تحلق معه، بعيداً في الأبعاد والآماد.

وابتدأ التحليق هكذا . . . مضى الرئيس عبد الناصر يقول: «نصل الآن إلى نقطة مهمة في هذه المكاشفة بسؤال أنفسنا . . هل معنى ذلك أننا لا نتحمل مسؤولية في تبعات هذه النكسة . . وأقول لكم بصدق بأنني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها . . ».

وأدركت أن الرئيس عبد الناصر قد علم بموقف الجماهير، وما يدور في صدرها وما تلوكه ألسنتها . . ورمى بقفازه معلناً أنه «على استعداد لتحمل المسؤولية بكاملها».

وامتلأ جو الصالة رهبة وهيبة كأنما أصبح عبد الناصر واقفاً فيها يخاطب الناس بقامته ونبرته ووجم السامعون حين قال الرئيس عبد الناصر بصوت مرتجف: «ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه».

واشرأبت الأعناق وتطاولت الرؤوس . . ماذا عسى أن يقول الرئيس عبد الناصر؟ . . ما عسى أن يكون هذا القرار؟ . . وتنفس الرئيس عبد الناصر طويلاً وعميقاً . . وتنفس الناس معه طويلاً وعميقاً . . وانفتح فم الرئيس عبد الناصر عن قنبلة تناثرت شظاياها في الوطن العربي لتمسّ قلب كل مواطن عربي . . . حين قال: «لقد قررت أن أتنحى تماماً ونهائياً عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر».

وانفجرت شهقات من البكاء والصياح والعويل . . . بكى الجميع . . بكى الناقدون والحاقدون، بكى المفتونون والساخطون . . وانقلب الفندق بصالاته وخدمه وموظفيه إلى مناحة كبرى، لا تسمع فيها إلا نواحاً وعويلاً.

ثم أجهشوا بالبكاء حين أعلن الرئيس قوله: «ولقد كلفت زميلي وصديقي وأخي زكريا محيي الدين بأن يتولى منصب رئيس الجهورية . . وإني أضع كل ما عندي تحت طلبه وفي خدمة الظروف الخطيرة التي يجتازها شعبنا».

وواصل الرئيس عبد الناصر يعدّد مآثر ثورة ٢٣ تموز/ يوليو خلال السنين الماضيات . . . في مكافحة الاستعمار، وبناء السد العالي، ومدّ شبكات الكهرباء وموارد البترول، والإنجازات الاشتراكية . . ولكن أحداً لم يلق بالاً إلى الماضي، فقد قفز السؤال الكبير أمام الجميع كالعملاق: والحاضر؟ والمستقبل؟ والهزيمة؟ وإسرائيل؟؟ و . . . و . . ؟

وأدرك عبد الناصر بحسّه المرهف أن ملايين الأمة العربية قد مسّها الحزن في صميم فؤادها حين كان يعلن إليها قرار الاستقالة، فراح يحلق إلى أعلى وإلى أعلى، وهو يقول: «إن هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن، إنه موقف للمثل العليا

وليس لأية أنانيات أو مشاعر فردية . . إن قلبي معكم . . وأريد أن تكون قلوبكم كلها معي . . وليكن الله معنا جميعاً أملاً في قلوبنا وضياء . . وهدى».

وكانت هذه المناشدة الأخيرة للأمة «إن قلبي معكم . . . وأريد أن تكون قلوبكم كلها معي . . »، كلمة وداع لرجل يمضي إلى الأبد، وهو على قيد الحياة.

انتهى الرئيس عبد الناصر من كلمته وانسحب من وراء المذياع، واستمعنا إلى المذيع يتلجلج الكلام في صدره، وتخنقه العبارات.

وصاح السامعون . . أبداً . . هذا مستحيل . . لا يمكن أن يتنحى عبد الناصر . . ماذا يقول الأعداء . . هذا نصر جديد لإسرائيل . . وتحول البكاء إلى غضب . . وكان أولئك الذين حملوا على عبد الناصر اليوم وبالأمس، أغضب الغاضبين وأبكى الباكين.

وانصرف الإخوة الزائرون يواسي بعضهم بعضاً، ويتواعدون على اللقاء ليتدبروا الموقف . . وصعدت إلى غرفتي وأنا أفكر ما يفعل الرئيس عبد الناصر بعد اليوم . . لقد ألقت به الأيام الستة إلى القاع، وها هو الآن يرقى إلى الذروة في دقائق معدودات . . . وعبد الناصر وحده هو الذي رفع عبد الناصر من الحضيض إلى الذروة.

ولقد كانت دقائق تاريخيات، حقاً وصدقاً، كشفت عن إحساس عبقري يملكه عبد الناصر . . وتجلى أكثر ما تجلى في ظلمات النكبة، بعد هزيمة ساحقة، تصهر النفوس، وتذيب القلوب، وتفلج العقول.

لقد أدرك عبد الناصر هول الكارثة على الأمة العربية . . . وأدرك إلى جانب ذلك أن اسمه قد ارتبط بها معذوراً أو مسؤولاً . . وأدرك فوق ذلك أنه سيصبح كالنخلة في الصحراء، إذا استمر في رئاسته وزعامته، واقفاً على أنقاض الكارثة.

ولكن عبد الناصر أراد أن يولد بطلاً من جديد، فأعلن القرار الذي أعلنه . . وختمه بكلمة وداع حزينة شجية . . أحست الأمة معها أنها فجعت بقائدها، بعد أن فجعت بوطنها.

كنت أفكر في هذا كله، وأنا مستلق على سريري، وإذا بي أسمع الهتافات والنداءات تردّدها الجماهير كأنها في أذني، وخرجت إلى الشرفة . . وإذا بالشارع على طوله في محاذاة البحر مقابل فندق الريفييرا الذي أنزل فيه يعجّ بالجماهير تحمل المشاعل وصور الرئيس عبد الناصر، وهي تصيح ملء الحناجر: «لا رئيس إلا عبد الناصر . . ليسقط الاستعمار . . لا رئيس إلا ناصر».

واستمرت التظاهرات في شوارع بيروت طيلة الليل، والجماهير تصيح: «ناصر . . ناصر نريد ناصر» . . وامتدت إلى اليوم الثاني، وعمّت جميع أرجاء البلاد،

ونقلت صحف بيروت أخبار تظاهرات مماثلة في جميع أرجاء الوطن العربي.

وكانت القاهرة كأنها في مشهد الحشر والنشر، فقد خرج الشعب تلك الليلة إلى الساحات والميادين والشوارع، وهو يهتف بعبد الناصر يناشده العدول عن قراره، وامتدت المسيرات الشعبية إلى اليوم التالي.. ولم تهدأ ثائرة الشعب في مصر، والأمة في الوطن، إلا حينما وقف أنور السادات رئيس مجلس الأمة يتلو رسالة من الرئيس عبد الناصر يعلن فيها أن «صوت جماهير شعبنا بالنسبة اليّ أمر لا يرد.. ولذلك فقد استقر رأيي على أن أبقى في مكاني، وفي الموضع الذي يريده الشعب، حتى تنتهي الفترة التي نتمكن فيها جميعاً من أن نزيل آثار العدوان».

وهكذا عاد عبد الناصر إلى سدة القيادة، وعاد الملايين من المصريين والعرب إلى حياتهم العادية، إلى منازلهم ومصانعهم ومتاجرهم ومدارسهم ومعابدهم بعد أن خلت من أهلها يومين كاملين.. من غير ديّار ولا نافخ نار.

ولم تكن هذه الموجة العارمة التي اكتسحت الوطن العربي بأسره عبادة لبطل، ولكنها في جوهرها وحقيقتها كانت عبادة لأهداف عليا تتجسد في الوحدة والحرية والاشتراكية، وتاجها، بل تاجها تحرير فلسطين.

ولم يفت الملوك والرؤساء أن يسيروا في ركاب هذه الموجة العارمة، فقد أبرقوا إلى الرئيس عبد الناصر يناشدونه العدول عن قراره واستئناف المسيرة.

حتى الملك فيصل الذي يكره الرئيس عبد الناصر كراهيته للموت أو أشد، لم يسعه الا أن يبرق وأن يناشد.

وهكذا شارك الملوك والرؤساء في مواكب الشعب، مخلصين أو منافقين، محبين أو كارهين.

ويوم ذاك رسخ في ذهن الجماهير قول الرئيس عبد الناصر: «سأبقى حتى نتمكن جميعاً من أن نزيل آثار العدوان.. .».

وكانت كلمة «جميعاً» تعني الملوك والرؤساء جميعاً.. يوم ذاك كان الظن أن الملوك والرؤساء قد اهتدوا أخيراً، وبعد النكبة الكبرى.. ولكن.. جاءت الأعوام بعد تلك الأيام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآية ١٨٦.

الملك فيصل لم يسقط شهيداً في بيت المقدس

كانت حرب الأيام الستة تدور رحاها على الجبهات المصرية والأردنية والسورية، ومجلس الأمن يخوض صراعاً سياسياً على مدى ستة أيام بالكمال والتمام.. ولم يصل المجلس إلى قرار نهائي نافذ إلا حينما وصلت إسرائيل إلى أهدافها العسكرية: على ضفاف القنال مع مصر، وعلى مرتفعات الجولان مع سوريا، وعلى نهر الأردن مع الأردن.

ولم يكن هذا التوافق بين حركة إسرائيل وحركة مجلس الأمن من باب الصدفة، بل كان قصداً وعمداً مع سبق الإصرار والإعداد، كما يقول علماء القانون الجنائي.

وكانت الولايات المتحدة هي التي توائم بين حركة مجلس الأمن وحركة إسرائيل.. حتى يأتي التحرك في الحالين متوافقاً متطابقاً.

وكما كان دور الاتحاد السوفياتي، في المعركة قاصراً على بيانات التأييد والتنديد، فإن دوره في مجلس الأمن كان يتجلى في استنكار عدوان إسرائيل وأطماعها التوسعية وتنفيذها المخططات الاستعمارية والإمبريالية، وما إلى ذلك من العبارات المألوفة المعروفة.. وأصبح الاتحاد السوفياتي مثله كمثل الدول الصغرى يتحدث بلهجة الغضب ولغة الحماسة.

وفي الأيام التي قضيتها في بيروت انتظاراً لعودة الطيران العربي إلى الأجواء العربية، كان شغلي الشاغل متابعة تحرك مجلس الأمن في نيويورك، وتحرك إسرائيل على الأرض العربية.

وكان مكتبنا في نيويورك يوافيني بأنباء مجلس الأمن يوماً بعد يوم، أو ساعة بعد ساعة، بالتلفون والبرقيات، وبالرسائل مع هذه الطائرة أو تلك.. والواقع أن بعض هذه التقارير قد وجدتها تنتظرني في بيروت يوم وصولي إليها.

وكان أول هذه التقارير باعثاً على العجب العجاب.. وكان مصداقاً للقول العامي المأثور: ضربني وبكى وسبقني واشتكى.. ذلك أنه في صباح الخامس من

حزيران/ يونيو كما يقول التقرير الأول، وقبل بدء العدوان بنصف ساعة، كان وزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبان في تل أبيب يملي على جدعون رفائيل مندوب إسرائيل الدائم في نيويورك رسالة تلفونية لتقديمها إلى مجلس الأمن بأن: «القوات المصرية البرية والجوية تهاجم إسرائيل، وأن القوات الإسرائيلية مشتبكة معها لردها». وبعد ذلك بساعة قدم محمد عوض القوني مندوب الجمهورية العربية المتحدة شكوى إلى مجلس الأمن يقول فيها: «إن إسرائيل ارتكبت عدواناً غادراً مدبراً على الجمهورية العربية المتحدة، وهاجمت قطاع غزة وسيناء ومطار القاهرة». وأحزنني أن إسرائيل قد سبقتنا في الحرب وفي السياسة.

وانعقد مجلس الأمن لبحث الموقف، ودارت مباحثات وراء الكواليس، وطالب المندوبون العرب أن يصدر المجلس قراراً بشجب العدوان الإسرائيلي، كما طالب ممثل الهند ومعه ممثل الاتحاد السوفياتي بوقف إطلاق النار وعودة المتحاربين إلى خطوط ما قبل اندلاع القتال.. ولكن بريطانيا والولايات المتحدة عارضتا في ذلك.. وانتهت تلك الجلسة من غير قرار.

وكان ذلك بمثابة «النور الأخضر» من مجلس الأمن لإسرائيل بأن تستمر في القتال.. وأن تستغل كل فرصة للنصر. ومن أعظم فرص النصر التي هيأتها الولايات المتحدة لإسرائيل أن الأسطول الأمريكي في شرق البحر الأبيض كان جاهزاً للتدخل إذا لاحت بوادر النصر لمصر.. أو إذا لاحت بوادر الهزيمة لإسرائيل.

ولم يكن هذا الاستنتاج وارداً في تقرير مكتبنا في نيويورك، ولا هو من فيض عدائي القديم للولايات المتحدة، ولكنه جاء على لسان رونالد بن مراسل جريدة **ديلي تلغراف**، فقد كتب وهو على ظهر إحدى حاملات الطائرات الأمريكية في اليوم الخامس من حزيران/ يونيو يقول: «إن الأسطول الأمريكي في حالة تأهب اليوم، وإن مائتي طائرة حربية أمريكية بإمكانها أن تضرب أي موقع في ساحة المعركة كلها من موقعها السري في البحر الأبيض المتوسط... وإن جميع السفن الحربية تبحر بسلام الآن، ولكن توقيت التدخل سيعتمد على ما إذا كان المصريون يحرزون تقدماً ضد إسرائيل... إن سياسة بريطانيا وأمريكا تعتمد على مبدأ عدم الوقوف ورؤية إسرائيل تدمر».

وفي اليوم نفسه ـ ٥ حزيران/ يونيو ـ كتبت جريدة **كرستشن سيانس مونيتر** (الأمريكية) تقول إن واشنطن قد أوضحت لإسرائيل «أن أمريكا لن تدخل الحرب بأي شكل كان إلا إذا أصبح وجود إسرائيل مهدداً». وهذه إحدى بديهيات السياسة الأمريكية.. ولكن حكام العرب جاهلون أو متجاهلون.

وهكذا مضت إسرائيل في المعركة، وأصبح واضحاً أن حرباً شاملة تدور رحاها

بين إسرائيل والدول العربية، فعاد مجلس الأمن إلى الانعقاد في اليوم التالي ـ ٦ حزيران/ يونيو ـ وكان الحوار يدور حول موضوع «وقف إطلاق النار» فقط وفقط... ورفض المجلس أن يشجب إسرائيل على عدوانها... كما رفض، وهذا الأهم، أن يدعو إلى العودة إلى خطوط ما قبل القتال.

وهكذا جاءت صيغة قرار مجلس الأمن قاصرة على «دعوة الحكومات المعنية إلى اتخاذ تدابير عاجلة لوقف إطلاق النار فوراً وإنهاء النشاط الحربي في صوره كافة في المنطقة كخطوة أولى» (القرار رقم (٢٣٣)).

ولم يعلّق مندوبا الأردن ومصر على هذا القرار، فقد كانا على علم من حكومتيهما أن المعركة تسير في صالح إسرائيل، واكتفيا بالقبول المجرد لوقف إطلاق النار، ذلك أن مندوب مصر محمد عوض القوني، في مجلس الأمن، كان قد تلقى في ذلك اليوم مخابرة تلفونية من وزارة الخارجية في القاهرة تفوّضه بأن يوافق على وقف إطلاق النار... وقد ذهل ومعه الوفود العربية، حينما وصلت هذه المكالمة التلفونية، وثارت الشبهة في أن تكون المخابرة التلفونية مزوّرة... واتصل القوني بمكتب الرئيس عبد الناصر في القاهرة، واستمع إلى صوت سامي شرف مدير مكتب الرئيس وهو يقول جازماً: «أيوه.. السيد الرئيس موافق على وقف إطلاق النار...»، وهكذا وافق مندوبا مصر والأردن على قرار مجلس الأمن من غير تعقيب ولا تعليق.

غير أن مندوبي العراق وسوريا اعتبرا القرار بأنه «استسلام كامل لإسرائيل، وطالبا بانسحاب إسرائيل إلى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩». ولم يجد مندوب الاتحاد السوفياتي ما يقوله إلا أن يجدّد اتهاماته لإسرائيل بأنها عميلة الإمبريالية وصنيعة الاستعمار.

ولاحت الفرصة لإسرائيل إزاء هذا الموقف العربي غير المنسجم في مجلس الأمن، فأعلن الوزير الإسرائيلي أبا ايبان من تل أبيب «أن حكومته ترحّب بقرار وقف القتال، «إلا أنه حذر من أن الأمر يعتمد كلياً على الدول العربية...».

وهكذا ركزت إسرائيل سياستها، مرة أخرى، على السياسة العربية المتنافرة في الوطن العربي، وفي المحافل الدولية على السواء.

وهذا ما جرى فعلاً... فقد بدأت مباراة المزايدات في الوطن العربي حول موضوع إطلاق النار... يقف أو لا يقف؟؟

فقد أعلنت المصادر التونسية الرسمية «أن تونس لا توافق على قرار وقف إطلاق النار إذا كان القرار مقتصراً على وقف القتال... والرئيس التونسي له مواقف سابقة ومعروفة بصدد الحرب مع إسرائيل اضطرته إلى ترك الجامعة العربية لعدة سنوات...

وأذاع راديو مكة بلاغاً عن مصدر مسؤول «أن الحكومة السعودية لا توافق على قرار مجلس الأمن الذي صدر الليلة الماضية بوقف إطلاق النار قبل أن يسترد الشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة في وطنه وبقاء فلسطين لأهلها». وتمنيت لو أن السعودية كان لها جيش في ميدان المعركة عازم على القتال حتى يتم تحرير فلسطين، كما جاء في البلاغ السعودي.. ولكن لا مانع من الكلام ما دام نفثُه في الهواء... وأعلن إسماعيل خير الله وزير الدولة العراقي أن بلاده «لا تلتزم بقرار مجلس الأمن بوقف القتال، وأن العراق سيستمر في موقفه الحازم تجاه إسرائيل».

ولم يستطع العراق، وهو الذي كانت تُضرب دباباته، أن يشترك في المعركة، إلا أن يتخذ هذا الموقف، فقد كان البعث السوري واقفاً للعراق بالمرصاد يتسقط خطواته.. وها قد أعلن راديو دمشق «أن سوريا لن توقف القتال وستواصل الحرب ضد إسرائيل».

ومثل العراق ومثل سوريا، أعلن ناطق رسمي من إذاعة الكويت «أن حكومة الكويت قررت رفض الالتزام بالقرار الذي اتخذه مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وإيقاف العمليات الحربية في فلسطين المحتلة، وأن الرفض قد أبلغ إلى الأمم المتحدة».

واستمرت إسرائيل في القتال.. وانعقد مجلس الأمن للمرة الثانية، وللمرة الثانية اصدر قراراً (القرار رقم (٢٣٤)) أعلن فيه «أن العمليات العسكرية ما زالت مستمرة في المنطقة.. ويطالب الحكومات المعنية بوقف إطلاق النار والامتناع عن القيام بأي نشاط حربي كخطوة أولى، وذلك في تمام الساعة ٢ توقيت غرينتش من يوم ٧ حزيران/ يونيو ١٩٦٧»، ولم يذكر القرار شيئاً عن الانسحاب إلى خطوط ما قبل القتال.. وكان ذلك دعوة مكشوفة أخرى لإسرائيل بالمضي في الحرب وفق الخطة المرسومة حتى تصل إلى الخطوط التي تستهدفها.

واغتنم الوزير الإسرائيلي أبا ايبان انفصام الموقف العربي عسكرياً وسياسياً فأعلن من غير تحفظ بأن القتال «سيستمر إلى أن يحذو العراق وسوريا حذو الأردن ومصر في الموافقة على وقف إطلاق النار».

وكان أن انتقلت المعركة إلى الجبهة السورية، بعد أن فرغت إسرائيل من سيناء والضفة الغربية، وألقت إسرائيل بكل ثقلها في المعركة، فقد تفرغ سلاح الجو الإسرائيلي لسوريا بعد أن أنهى مهمته في الجبهتين المصرية والأردنية.

وحمي وطيس المعركة في مرتفعات الجولان في اليوم الثامن من حزيران/ يونيو... ووقفت سوريا وحدها، ولم تستطع القوات الأردنية أن تنجد القوات السورية، لأنها دمرت في الأيام الأولى من المعركة.

وأدركت سوريا أن الهزيمة ستلحق بها كما لحقت بالأردن ومصر. . فأعلنت موافقتها على وقف إطلاق النار، وفي اليوم التاسع من شهر حزيران/ يونيو أعلن راديو دمشق أن سوريا «تقديراً منها للظروف الراهنة أبلغت الأمين العام أنها قررت قبول دعوة مجلس الأمن إلى وقف إطلاق النار. . »، ولكن أنّى لإسرائيل أن توقف القتال. . إنها تريد تصفية الجبهة السورية وفق الخطة المرسومة.

واجتمع مجلس الأمن للمرة الثالثة وأصدر قراره رقم (٢٣٥) يؤكد قراراته السابقة، ويطالب «بوقف القتال فوراً. . وأن يقدم السكرتير العام تقريراً إلى المجلس في غضون ساعتين من موافقة الطرفين على القرار». ومرة أخرى لم يذكر قرار مجلس الأمن شيئاً عن العودة إلى خطوط ما قبل القتال.

ولم تعبأ إسرائيل بهذا القرار، ولم تكن استكملت احتلال الجولان، فاستمرت تقاتل في الميدان، واستمر المندوب السوري يصيح ويجادل في مجلس الأمن إلى أن سقطت القنيطرة بيد القوات الإسرائيلية، وأعلن راديو دمشق سقوطها قبل سقوطها فعلياً ببضع ساعات.

واجتمع مجلس الأمن للمرة الرابعة وأصدر قراره رقم (٢٣٦) «بوقف إطلاق النار، والتزام المتحاربين بالوقوف عند مراكزهم كما هي في الساعة ١٦,٣٠ بتوقيت غرينتش يوم العاشر من حزيران/ يونيو».

وكانت القوات الإسرائيلية في تلك الساعة المذكورة، من اليوم المذكور، قد احتلت الجولان، أعظم التحصينات الاستراتيجية الطبيعية والاصطناعية في الشرق الأوسط.

و«أذعنت» إسرائيل لقرار مجلس الأمن، لأنها وصلت إلى أهدافها العسكرية، من القنال إلى الأردن، إلى الجولان.

وإني أقول «أذعنت» إسرائيل في ذلك اليوم، لأن أمريكا أرادت ذلك، في ذلك اليوم فقط. . فقد تحققت لإسرائيل أهدافها العسكرية كلها. . وهذه تتفق مع أهداف السياسة الأمريكية، من غير ريب.

ولست أتجنى على أمريكا في هذا الحكم العادل. . . فقد خرج هذا الحكم بذاته من أروقة مجلس الأمن. . فقد كتب لويس هيرت مراسل جريدة **التايمس** البريطانية في واشنطن يقول: «إن معظم الدبلوماسيين في واشنطن مقتنعون بتواطؤ الولايات المتحدة مع إسرائيل خلال الأسبوع الماضي. . وكان ذلك واضحاً في مجلس الأمن الدولي، وبخاصة وراء الكواليس عندما بدأت واشنطن تضغط على إسرائيل لقبول

قرارات إطلاق النار، إنما فقط بعد التأكد من انتصار إسرائيل.. إن ضغطاً أمريكيا قوياً لوقف القتال لم يبدأ حتى يوم الجمعة في ٩ حزيران/ يونيو عندما اقتحمت إسرائيل الأراضي السورية» (١٢/ ٦/ ١٩٦٧).

وهكذا انتهت معركة الأيام الستة.. وتكشفت نتائج رهيبة.

ومن هذه النتائج الرهيبة سقوط الجولان في ست وثلاثين ساعة، وكان تقدير القيادة العربية الموحدة أن الجولان قادر على الصمود لمدة أسبوعين إلى أن تصله النجدات العربية، بسبب مناعته الطبيعية وتحصيناته العسكرية الضخمة التي أنفق فيها الشعب السوري الملايين، وحشد فيها الاتحاد السوفياتي كل فنونه العسكرية.

ومنها أن مرتفعات الجولان لها سيطرتها على منابع المياه في فلسطين، وهي الحاجز الطبيعي الأخير الذي يطل على مداخل دمشق.. مضافاً إلى ثرواتها الطبيعية، وقد قال فيها الجنرال كارل فون هورن كبير المراقبين الدوليين سابقاً: «إن كل شبر من أراضي الجولان يساوي منجماً من الذهب».

ومنها، سقوط الضفة الغربية التي كانت المنطلق الكبير لتحرير فلسطين، وأصبحت تحت يد إسرائيل الكبرى للوثوب على الأردن، من إربد شمالاً إلى العقبة جنوباً.

ومنها، سقوط سيناء، المعبر التاريخي بين أفريقيا وآسيا، وبين المغرب العربي والمشرق العربي، وبين مصر وديار الشام.

ومنها سقوط شرم الشيخ الذي يسيطر على الملاحة في خليج العقبة.

ومنها، ومنها، مما يحتاج إلى فصل مصيب يسرد المزايا العسكرية والاقتصادية التي حققتها إسرائيل في حرب الأيام الستة.

ويأتي في رأس المزايا العسكرية أن إسرائيل قد أصبحت على مسافة ٢٠٠ كيلومتر من القاهرة، و٦٥ كيلومتراً من دمشق، و٥٠ كيلومتراً من عمّان.

وكانت هذه المزايا العسكرية في جانب العرب، فقد كانت تل أبيب على مرمى المدفعية الأردنية... وكانت «مناطق» إسرائيل الشمالية تحت رحمة المدفعية السورية.. وكانت إسرائيل كلها على مدى ثلاث دقائق من سلاح الجو المصري، من مطار العريش في سيناء.

ولا بد من وقفة خاشعة مجيدة أمام بطولات الجندي المصري في سيناء، والسوري في الجولان، والأردني في الضفة الغربية... إن الهزيمة ليست على أكتاف هؤلاء

الأبطال الميامين، الشهداء منهم والأحياء، وليست الهزيمة على أكتاف الأمة العربية الباسلة، ولكن الهزيمة كل الهزيمة هي في عنق الحكم العربي المعاصر، بملكياته وجمهورياته، كل قدر ظروفه وقدراته ومواقعه. . . ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾[1].

وبين أوراقي وثيقة سرية خطيرة تدين الحكم العربي.

فقد وضع الفريق عبد المنعم رياض تقريراً عرض فيه سير العمليات في حرب الأيام الستة. . وجاءت في هذا التقرير عبارة ملتهبة قال فيها: «إن خوض معركة مع العدو يلزم التنسيق والتحضير المسبق، والذي حدث هو أن القيادة العربية الموحدة التي كانت قائمة بهذا العمل قد شلّت أيديها قبل المعركة بحوالى سنة. . وعليه لم يكن هناك تنسيق بالمعنى المفهوم، ولم يكن هناك تجهيز لمسرح العمليات بشكل مقبول، والقيادة المتقدمة التي شكلت قبل المعركة بأيام لم يكن بوسعها أن تفعل أكثر مما فعلت، وهذا خطأ كبير للسياسة العربية التي جنت على الجندية العربية قبل أن تجني عليها إسرائيل».

وإلى جانب المأساة على الجندية العربية بدأت تنكشف المعركة عن مآس إنسانية جديدة. . ووصلني أول تقرير من الضفة الغربية حمله الأخ سعيد أحد مراسلي مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في القدس. ولست في حاجة إلى أن أقول: «منظمة التحرير سابقاً»، فقد احتلت القوات الإسرائيلية مكاتب المنظمة في بيت حنينا ـ القدس ـ وصادرت الملفات والأوراق، وهذه هي غنائم الحرب التي وجدتها.

وكان سعيد قوي البنية شديد الساعدين، رياضياً كشافاً، ولولا ذلك لما استطاع أن يصل إلى بيروت سالماً. . بعد أن عانى ما عانى للخروج من الضفة الغربية.

خرج سعيد من القدس في مواكب النازحين الذين هاموا على وجوههم عبر الجبال والوديان، في طريقهم إلى عمّان. . وقد عبر النهر سباحة وركب أول سيارة إلى عمّان، ومنها إلى دمشق، ومنها إلى بيروت.

قال سعيد في جلسة امتدت ثلاث ساعات: «ماذا أحكي. . الملك حسين غدر بنا. . الجيش الأردني ما عليه كلام. . ولكن نفدت الذخيرة والمؤن والبنزين. . . تصور أن جنود الجيش العراقي كانوا يدخلون البيوت في أريحا بحثاً عن الخبز. . الشعب كان يريد أن يقاتل مع الجيش ولكن من أين السلاح؟. . لقد وصل إلى عمّان ما يقرب من ثمانين ألفاً من النازحين من الضفة الغربية، والكثير من مخيمات اللاجئين. . هذه هي هجرتهم الثانية. . لم يحضروا معهم شيئاً. . . القوات الإسرائيلية بدأت عملية النهب في كل مكان. . في القدس لم يتركوا مخزناً ولا داراً

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآية ٤٩.

إلا ونهبوها. . قصر الملك حسين في بيت حنينا نهبه الجنود الإسرائيليون. ورقصت المجندات الإسرائيليات أمام القصر، بينما كان الجنود يشربون من زجاجات الخمور التي أخرجوها من الطابق السفلي من قصر الملك».

وعاد سعيد يتكلم عن النازحين، قال: «كثير من الشيوخ والأطفال لم يستطيعوا أن يقطعوا النهر فغرقوا. . . كانت مياه النهر عالية في هذه الأيام. . . وتزاحم الشباب لمساعدة العجزة على قطع النهر. . . أنا حملت طفلين وقطعت فيهما النهر. الناس على ضفتي النهر مثل أيام الحشر، يبحث الوالد عن ولده، والأم عن ابنتها، والجميع في ذهول من الجوع والعطش والتعب. . قصف الطائرات الإسرائيلية لا يزال في آذانهم. . حتى الجسور أصبحت عائقاً لاجتياز النهر، لقد دمرت وتناثرت أجزاؤها في مجرى النهر».

وتوقف سعيد عن الكلام، وهو يضع يده على جبينه كمن يستجمع ذاكرته، ثم قال: «ولكن مصيبة المصائب وقعت مساء الخميس ـ ليلة الجمعة ـ ٩ حزيران/ يونيو ـ ففي ذلك المساء جاءت القوات الإسرائيلية إلى الأحياء العربية المجاورة لحائط المبكى، وأمرت الجميع بأن يغادروا البيوت. . . الرجال كانوا معتقلين. . . خرج النساء والأطفال إلى منازل أقربائهم وأصدقائهم إلى الأحياء الأخرى في المدينة. . . كان منظرهم وهم يغادرون بيوتهم يفتت الأكباد. . . وعند الليل نصبت إسرائيل مصابيح كهربائية ضخمة وبدأت حفارات البولدوزر بهدم الأحياء المجاورة لحائط المبكى. . . استمر العمل طيلة الليل إلى اليومين الثاني والثالث. . هدموا حي المغاربة بكامله بما فيه من منازل ومعابد وزوايا، وأصبح ساحة مكشوفة لتتسع للألوف من اليهود، ليحتشدوا فيها في أعيادهم الدينية».

روى لي سعيد هذا وغير هذا مما لا يتسع له إلا كتاب، وعاد إلى عمّان ليبحث هو بدوره عن أهله، فقد يكونون في عداد النازحين إذا لم يكونوا قد سقطوا في النهر في جملة من سقط من الضحايا والشهداء.

وتناقلت وكالات الأنباء أخبار النزوح والنازحين، وما يقاسون من عناء وبلاء، فهبّت الأريحيات العربية في جميع أرجاء الوطن العربي التي تبعث بالغذاء والدواء والكساء إلى عمّان لإغاثة الملهوفين.

ولست أنسى ذلك المشهد الكريم الذي كنت أراه في الساحة المكشوفة مقابل الحمام العسكري في رأس بيروت، حين امتلأت بالأكياس فوق الأكياس من المواد الغذائية التي تبرع بها الشعب اللبناني بكل طوائفه وطبقاته، حتى أصبحت الساحة روابي عالية من أحمال المؤن وصناديق الدواء وأكياس الملابس.

وفي كل يوم كنت أرى هذه الروابي تزداد طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وليس هذا مبالغة في الوصف، ولكن هذه هي النجدة والمروءة على صعيد الجماهير. . . وما أكرمها وما أعظمها!

وجاء دور الحكومات العربية ليبرز كرمها على حجمه في هذه المأساة الرهيبة، فأعلن راديو الكويت أن الحكومة خصصت مبلغ ١٥٠ ألف دينار لشراء مواد غذائية وطبية للأردن. . وأرسلت بعثة طبية تضم أطباء وممرضين للمساهمة في إسعاف الجرحى (١١/ ٦/ ١٩٦٧). ثم توالت التبرعات الحكومية والشعبية في ما بعد.

وخطب الحسن الثاني ملك المغرب وناشد العرب «أن يعودوا إلى الله. . »، وتجسدت «العودة إلى الله» بأن أعلن أنه أصدر أمراً إلى جميع الوزراء والموظفين الحكوميين بأن يتبرعوا بأجر يوم واحد لإسعاف ضحايا العدوان الإسرائيلي (١١/ ٦/ ١٩٦٧).

وأعلن الرئيس بورقيبة أنه سيوفد المنجي سليم على رأس بعثة طبية إلى سوريا والأردن (١٢/ ٦/ ١٩٦٧)، وقضى المنجى سليم أيامه في عمّان ليقول: «لقد كان الرئيس بورقيبة على حق، وها قد حلت بكم الكارثة».

وأصدر الملك فيصل نداء إلى الشعب السعودي بأن «يتبرع كل فرد بحسب طاقته لنجدة إخوانه في الأردن. . وفتح باب التبرع بمبلغ مليون ريال سعودي» (١٠/ ٦/ ١٩٦٧).

وقد تبدو كلمة «مليون» ضخمة للذين لا يعرفون قيمة الريال السعودي. . . وتبسيطاً لذلك يمكن القول إن المبلغ الذي تبرع به جلالة الملك فيصل هو ثمانون ألف جنيه استرليني. . على حين أن أحد رجال الأعمال الليبيين باع العمارة التي يملكها بمبلغ نصف مليون جنيه إسترليني وتبرع بكامله لإسعاف النازحين (١٢/ ٦/ ١٩٧٢).

ومرة ثانية، من أجل التبسيط نقول إن التاجر الليبي قد تبرّع بستة أضعاف ما تبرع به جلالة الملك فيصل.

ولست أريد أن أقارن. . لست أريد أن أسرد المبالغ التي تبرع بها اليهود لإسرائيل في كل أرجاء العالم. . . ويكفي أن يعلم الملوك الأغنياء ومن تحتهم من الأمراء الأثرياء أن عدداً من أغنياء اليهود في نيويورك قد تبرعوا في جلسة واحدة عقدوها في الخامس من حزيران/ يونيو. . أي، نعم. . في الخامس من حزيران/ يونيو بمبلغ خمسة عشر مليون دولار. . . وتوالت التبرعات بعد ذلك بلا حساب من الجاليات اليهودية في جميع أصقاع الدنيا.

فقد قدرت وكالة اليونايتد برس للأنباء (٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧) التبرعات التي جمعت لإسرائيل في الولايات المتحدة منذ الأيام الأولى من شهر حزيران/ يونيو بحوالى ٨٥ مليون دولار، وبلغ حصيلة ما جمع في ولاية نيويورك وحدها ٢٢ مليون دولار، كما تم جمع ٨٥ مليون دولار أخرى في أوروبا خلال هذه المدة. . وقالت وكالة الأنباء إن البارون روتشيلد تمكن في حفل أقامة في فندق كلاريدج بلندن من جمع عشرة ملايين دولار من المساعدات لإسرائيل. . وإن التبرعات في كندا قد بلغت ١٢ مليون دولار. . وقد سمع الأغنياء من الملوك والأمراء هذه الأنباء، فانهالت منهم التبرعات. . .ولكن بالتصريحات.

وفي غمرة الحديث عن المآسي التي جاءت في أعقاب حرب الأيام الستة، ارتفع أنين الجرحى من الجنود والمدنيين في المستشفيات الأردنية والسورية، فقد تكشف للأطباء العرب أن الإصابات تبدو فيها مظاهر رهيبة تنبئ عن «قذارة» الأسلحة التي استخدمتها إسرائيل في الحرب. . . وارتفعت الأصوات تطالب بالتحقيق على الصعيدين العربي والدولي.

ونشط الأطباء العرب، ومعهم إخوانهم وزملاؤهم الفلسطينيون فألّفوا منهم وفداً متخصصاً، زار المستشفيات في الأردن وسوريا، وأجرى فحصاً طبياً على عدد كبير من المصابين، رجالاً وأطفالاً، وحينما عاد الأطباء الذين مثلوا لبنان، عقدوا مؤتمراً صحافياً أعلنوا فيه أن الطائرات الإسرائيلية قصفت المستشفيات بقنابل النابالم، وضربت سيارات الإسعاف بالمدافع الرشاشة، وأن قسماً كبيراً من جراحات المصابين كانت بسبب قنابل النابالم. . وأن المستشفى العسكري في رام الله قد دمر بكامله أثناء الحرب، وأنه لم ينج من أطبائه الثمانية إلا طبيب واحد. . وأن المستشفى الفرنسي ومستشفى أوغست فكتوريا قد تعرضا لهجمات العدو بالقنابل المحرقة.

وقد عملت منظمة التحرير على نشر تقرير الأطباء العرب على أوسع نطاق ممكن، وتولت ترجمته بلغات متعددة، وانهمك المراسلون الأجانب في تلخيصه وإبراقه إلى صحفهم، ولكنه كان جهداً ضائعاً، فلم توله الصحافة الغربية أي اهتمام. . والسبب كما هو واضح من غير إيضاح أن المصابين بقنابل النابالم كانوا من العرب وليسوا من الإسرائيليين.

وكان موضوع قنابل النابالم واحداً من أخطاء العرب الكثيرة التي ارتكبوها في حرب الأيام الستة، وهو يعود إلى أنهم لا يملكون قنابل النابالم. . أو أنهم لا يعرفونها. . . أو أنهم لم يستخدموها، بدعوى أن قوانين الحرب تحظر استخدامها. . والذين يخسرون الحرب هم الذين يلتزمون بقوانين الحرب.

تلك كانت شواغلي الإعلامية والسياسية خلال الأيام التي قضيتها وأنا سجين في بيروت، أبحث عن طائرة إلى القاهرة، فلا أجدها.. وطال انتظاري في بيروت إلى أن اقترح عليّ أحد الأصدقاء الخبراء أن أسافر بالطائرة إلى أثينا ومنها إلى طرابلس (الغرب)... ومن طرابلس أسافر إلى القاهرة بالسيارة... وتذكرت أن الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق كانت قد ضربت طائرته في مطار ألماظة الحربي في القاهرة في صباح الخامس من حزيران/ يونيو، ولم يجد وسيلة للعودة إلى بغداد إلا أن يذهب بالسيارة إلى ليبيا، ومنها استقل الطائرة إلى روما، فتركيا، فالعراق... وهكذا أصبح رؤساء العرب يهربون من إسرائيل بعد أن كان اليهود في الماضي يهربون أمام أولادنا في الشوارع.

ورضيت بالحل الذي اقترحه صديقي الخبير.. سافرت إلى أثينا في أول طائرة.. ولكن المشكلة لم تحلّ في أثينا بالسهولة التي كنت أتصورها.. فلم أجد طائرة إلى ليبيا.. وكان عليّ أن أنتظر يومين آخرين حتى وجدت طائرة.. أخيراً.. فقد أصبح الطيران بين دول البحر الأبيض المتوسط مضطرباً في جميع خطوطه.

وذلك كله ليعلم حكام العرب ما معنى وجود إسرائيل في قلب الوطن العربي.. وليعرف الذين لا يعرفون، أو الذين لا يؤمنون أن إزالة إسرائيل الدولة من الوطن العربي هو في صميم المصلحة العربية العليا.

ووصلت إلى مطار طرابلس، فكان مكروباً محزوناً.. الموظفون هم الموظفون الذين كانوا يستقبلونني في زياراتي المتعددة إلى المملكة الليبية.. ولكن وجوههم تبدلت، وسيماهم تغيرت.. الحزن يغشاهم والكآبة تغمرهم.

وقال لي ممثل الخارجية وهو يستقبلني: «لقد ضاعت فلسطين يا سيادة الرئيس.. فماذا على العرب أن يفعلوا؟».

وحاولت أن أواسيه وأشجعه، ولكني كنت في حاجة إلى من يواسيني، ولم أجد ما أقول إلا أن أحتمي بقوله تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**﴾[٢] صدق الله العظيم.

قال: «أي والله صحيح.. هذا بما كسبت أيدينا».

وسألت موظفي المطار: «متى أجد طائرة إلى القاهرة؟».

قالوا: «الطيران متوقف بين طرابلس والقاهرة».

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة الشورى،» الآية ٣٠.

وقال لي موظف شركة الخطوط العربية المتحدة: «جميع الحدود مع مصر مقفلة في وجه الطيران المدني، ونحن ننتظر الأوامر.. ننتظر عودة الطيران خلال هذين اليومين».

قلت: «وإذا بقي الأمر على هذا الحال؟».

قال: «ندبر سيارة مريحة».

وذهبنا إلى الفندق في طرابلس، فوجدته غاصاً من الجدار إلى الجدار، بالفلسطينيين والليبين، كلهم هرعوا يسألونني: كيف جرى ما جرى؟؟!!

وجلست في الصالة محشوراً بين الزائرين، وانهالت عليّ الأسئلة كما تنهال الصخور من أعلى الجبال في يوم عاصف ماطر.. وكانت الأسئلة غاضبة ومزمجرة تارة، وحزينة منكسرة تارة أخرى.. وهذا بعضها:

ـ أنتم العرب في المشرق العربي خمسون مليوناً، فكيف انهزمتم أمام العصابات الصهيونية؟

ـ أنتم تملكون دبابات وطائرات ومصفحات وجيوشاً أكثر من إسرائيل، فكيف حلّت بكم الهزيمة؟

ـ كيف انكسرتم في ستة أيام؟ ألا تستطيعون الصمود ستة أسابيع؟

ـ أليس من العار أن توافقوا على قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار؟

ـ لماذا قمتم بهذه المغامرة إذا لم تكونوا مستعدين للحرب وواثقين من النصر؟

ـ أليس من طريقة لاستئناف القتال؟ ومتى؟ وكيف؟

كانت هذه الأسئلة التي قذفوها في وجهي، وكان الإخوة الليبيون أشد قوة وعنفاً في طرحها من الإخوة الفلسطينيين.

وأعترف أني لم أكن موفقاً في أجوبتي، ذلك أني كنت ألتمس الأعذار للحكم العربي المعاصر في هزائمه الثلاث: عام ١٩٤٨، وعام ١٩٥٦، وعام ١٩٦٧، فإن الواقع الذي ما له من دافع أن حكام العرب، لا الشعوب، هم الذين يتحملون المسؤولية الكاملة بقدر متفاوت في ما بينهم عن هذه الانكسارات المتلاحقة، وآخرها حرب الأيام الستة وما جاء بعدها من اندحارات سياسية ودبلوماسية.

ولقد بردت ثائرتهم بعض الشيء حينما قلت لهم: «إذا سقطت طائرة، أو غرقت باخرة، تتألف لجنة تحقيق لبحث الأسباب.. فما بالكم إذا حلت هزيمة كبرى

بالأمة؟، أليس من الواجب أن تتألف «محكمة شعب» يساق إليها الثلاثة عشر من الملوك والرؤساء لمحاسبتهم عن الهزيمة؟.. وأنا مستعد أن أكون المتهم الرابع عشر».

ثم آخذ المجتمعون يعرضون آراءهم في معالجة الموقف، وكلها تتركز على ضرورة استئناف القتال في أقرب فرصة.. خلال شهر واحد، خلال ثلاثة أشهر، خلال ستة أشهر.. ولكن أحداً لم يذكر خلال عام واحد.

وانتقل الموضوع إلى دور الجماهير، ماذا تستطيع أن تفعل على الصعيد الشعبي لمساندة المعركة.. وقالوا.. وفعلوا ما قالوا...

قالوا: «نحن في ليبيا بدأنا بتنفيذ العقوبات الاقتصادية على دول العدوان: أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية.. قاطعنا بضائعهم، وتجارنا أوقفوا طلبات البضائع الأمريكية والإنكليزية والألمانية التي كنا أوصينا عليها قبل العدوان، سحبنا أرصدتنا من الإسترليني والدولار من البنوك والمصارف الأجنبية وأودعناها في المصارف الوطنية، العمال امتنعوا عن تفريغ البواخر الأمريكية والبريطانية.. و... و... .

وعند الكلام عن التدخين، سحب الحاضرون من جيوبهم علب السجاير ليثبتوا القول بالفعل بأنهم بدأوا في مقاطعة المنتوجات الأمريكية والبريطانية.

ثم ختموا حديثهم عن السلاح الحاسم الفاصل وهو البترول: «يجب على الحكام العرب أن يوقفوا البترول.. ومن لم يفعل فعلينا أن نغمر رأسه في براميل البترول».

وكان الحديث عن البترول مسك الختام، فقد انصرف الإخوان إلى شؤونهم... وبقيت في الصالة استقبل وفوداً ووفوداً من الزائرين الليبيين والفلسطينيين. والحديث هو الحديث... وأحسب أنه كان كذلك في الوطن العربي بأسره، فالعرب أمة واحدة وأحاسيسها واحدة، وبخاصة في أيام الملمات والنكبات.

وقضيت يومين على هذا الحال، أستقبل وأودع، وأتحدث وأسمع.. ولم تتوقف هذه الاجتماعات إلا يوم جاءني مندوب الخطوط العربية المتحدة ووجهه يطفح سروراً، وهمس في أذني قائلاً: «وصلت اليوم طائرة من القاهرة. وستقلع بعد ساعتين، وقد حجزت لكم مكاناً».

وسارعت إلى غرفتي، وإلى ثيابي وأوراقي.. وإلى المطار.. وصعدت سلم الطائرة في خطى سريعة كأني أريد أن أختزل الزمن للوصول إلى القاهرة.

كانت الطائرة من نوع «أنتينوف» الروسية، وهي صغيرة وبطيئة، وقد زاد من بطئها أنها كانت مأمورة، كما قال الكابتن، بأن تسير على ارتفاع منخفض، وأن

تتجنب مواقع معينة.. وإلا.. وإلا.. فإن المدافع تقصفها من الأرض.

وحمدت الله أني وصلت أخيراً إلى القاهرة بعد أن نجونا من الخطأ والصواب، خطأ الرادار وصواب المدافع.. ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾[٣] صدق الله العظيم.

كانت مفاجأة مذهلة لأهلي وأنا أعود إلى البيت بعد هذه الرحلة العاتية، وهم لا يدرون من أمري سوى أني سافرت إلى عمّان مع الملك حسين.. وبعدها انقطعت أخباري.

أجلت نظري في البيت كمن يبحث عن ضائع.. كان البيت في مثل حاله كما تركته قبل أسبوعين.. المكتبة في مكانها والأثاث في مكانه.. ولكن شيئاً قد تغيّر.. ورحت أسال.. ما الذي تغيّر؟؟

الذي تغيّر هو نحن.. أهلي وأنا.. لقد تغيّرت وجوهنا.. النكبة رسمت كآبتها على ملامحنا ووجوهنا ترهقها ذلة.. وأنا أدعو الله ألا نكون في الآخرة كحال الذين ﴿**خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة**﴾[٤] صدق الله العظيم.

ولقد كنت متعباً حقاً، مجهداً في روحي أكثر مني متعباً في جسدي.. ففي خلال هذين الأسبوعين وقعت على رؤوسنا نكبة غيّرت مجرى التاريخ في وطننا، ومن يدري إلى متى؟

وجلست في مكتبي وأنا لا أريد أن أقرأ ولا أكتب.. كنت أريد أن أغمض عينيّ، وأسكت وأسرح.. ولكني وجدت في بريدي ثلاثة مظاريف مختومة بالشمع الأحمر.. **الأول** من رئاسة الجمهورية العربية المتحدة، و**الثاني** من السفارة الأردنية، و**الثالث** من السفارة السعودية. وكانت المظاريف كلها مكتوباً عليها «سري جداً وعاجل جداً».. ولم أستطع أن أتمالك نفسي، فكسرت الشمع الأحمر وفتحت المظاريف.

كان المظروف الأول يحتوي على رسالة من الرئيس عبد الناصر مؤرخة في ٦ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ موجهة إلى الملوك والرؤساء في اليوم الثاني من المعركة.

وكان بودّي وأنا اكتب مذكراتي أن ألخص هذه الرسالة، أو أقتطف منها عباراتها... ولكن أحسست من أعماق ضميري أن هذه الرسالة لا تلخص، ومن

---

(٣) المصدر نفسه، «سورة لقمان،» الآية ٣٤.

(٤) المصدر نفسه، سورة القلم،» الآية ٤٣.

الظلم أن أقتبس شيئاً وأترك شيئاً آخر. . إنها رسالة متكاملة لا تقبل التجزئة. . وما هو أهم من ذلك، فإنها تمثل موقفاً تاريخياً في اليوم الثاني للمعركة، ولا بد للمواطن العربي الصاعد والوافد أن يتأمل ذلك الموقف في رسالة الرئيس عبد الناصر وفي كلماته. . وفي اقتراحاته.

وهذه هي الرسالة:

رئاسة الجمهورية

القاهرة في ٦ حزيران/ يونيو ١٩٦٧

تحية عربية مخلصة. . .

إن مقتضيات الموقف وتطوراته تتطلب، في تقديري، أن يتجلى الآن موقف عربي موحّد، قاطع وحاسم، وفي رأيي أن مثل هذا الموقف سوف يكون له أثره الكبير على المعركة المقدسة التي تخوضها شعوبنا وقواتنا المسلحة اليوم.

وإني أقترح الصيغة المرفقة لبيان يصدر تعبيراً عن موقف عربي موحد:

١ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية يجدون الآن أنه ليس هناك بديل عن وقفة موحدة وحازمة ضد العدوان الإسرائيلي المدعم بقوى الاستعمار.

٢ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية مقتنعون تماماً بأن إسرائيل لم تكن تستطيع الإقدام على ما أقدمت عليه بغير عون عسكري مركز ومستمر من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وغيرهما من الدول الضالعة معهما.

٣ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية في الوقت الذي يصممون فيه على هذه الوقفة الحازمة ضد العدوان الإسرائيلي يؤكدون أن هذا الموقف لا تتحقق فعاليته الكاملة بغير اتخاذ الموقف نفسه إزاء القوى الاستعمارية الأجنبية التي تدعمه، وبغير تقدير عملي وإيجابي لموقف القوى التي شجبت العدوان أو التي أثبتت أنها تستطيع أن تنظر إلى الأمور بنظرة موضوعية مستقلة.

٤ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية مصممون على أنه لن يكون لأية دولة من الدول المدعّمة للعدوان الإسرائيلي موقع قدم في أي وطن من أوطان الدول العربية في أي مجال من المجالات ما لم تصحّح موقفها فوراً.

٥ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية يعتبرون أن الوقفة الجبارة لشعوب الأمة العربية قد أذابت نهائياً وإلى الأبد أية خلافات عربية.

٦ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية مقتنعون بأن نظاماً عاماً جديداً يجب أن ينشأ في الوطن العربي كله قائماً على وحدة المصير التي تأكدت في ميدان القتال، ويرون أن ينعقد مؤتمر قمة عربي في أقرب فرصة بعد انتهاء هذه المعركة المصيرية لوضع إطار النظام المقترح قائماً على التعاون الصادق وعلى الثقة المتبادلة، وعلى إنكار الذات، وعلى أماني الشعوب العربية الباقية والخالدة بعد أي فرد وفوق أي منصب.

٧ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية وهم يعرفون أنهم يواجهون موقفاً كبيراً ومسؤولية ضخمة يعلنون أن جميع الموارد العربية وكل الإمكانيات والطاقات سوف تخصص كلها لخدمة معركة المصير دون قيود أو حدود، وهم يعتبرون أن القوى التي ناصبت الأمة العربية العداء وسهلت للعدوان الإسرائيلي يجب أن تتحمل تكاليفه.

٨ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية يقررون الآن، ولكي تكون وجهة نظرهم واضحة أمام جميع الأطراف، أن يتوجه الملك حسين ملك الأردن متحدثاً باسمهم جميعاً، وفي أسرع وقت تسمح له به مسؤولياته إلى مقابلة مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وأن يتوجه الرئيس هواري بومدين باسمهم جميعاً، وفي أسرع وقت إلى مقابلة مع رئيس الحكومة السوفياتية، لشرح الظروف والعواقب التي يمكن أن تترتب على استمرار العدوان الإسرائيلي المدعم بالقوى الاستعمارية ومضاعفات ذلك على السلام العالمي كله.

٩ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية يتوجهون الآن بالنداء إلى كل الشعوب الحرة والصديقة والمؤمنة بسلام قائم على العدل أن يرفعوا أصواتهم عالية لنصرة الحق العربي، وأن يقدموا للجهد العربي الباسل كل ما في طاقتهم من عون.

١٠ ـ إن ملوك ورؤساء الدول العربية قد أصدروا أوامرهم إلى سفرائهم في العواصم بأن يطلبوا مقابلة رؤساء الدول أو الحكومات المعتمدين لديها، وأن ينقلوا إليهم كلمة عربية واحدة بحقيقة الموقف وأبعاد المعركة. وهم لا يطلبون إلى أحد أن يختار بينهم وبين أي طرف آخر، ولكنهم يعتقدون بصدق أن الاختيار المطروح هو اختيار بين الحرية والسيطرة الأجنبية وقواعدها العدوانية.

التوقيع

جمال عبد الناصر

كتب الرئيس عبد الناصر هذه الرسالة، يقيناً، بعد أن تحطم سلاح الجو المصري وتدمرت المطارات المصرية، وأصبحت القوات المصرية تحت رحمة سلاح الجو الإسرائيلي.

وقد طالب عبد الناصر في هذه الرسالة الملوك والرؤساء أن يتخذوا موقفاً موحداً إزاء أمريكا وبريطانيا.. وألا يكون لدول العدوان أي موقع قدم في الوطن العربي في أي مجال من المجالات ما لم تصحح موقفها فوراً.. وأن تخصص جميع الموارد والإمكانات العربية للمعركة من غير قيود ولا حدود.. وأن يتوجه الملك حسين إلى أمريكا لمقابلة رئيس الولايات المتحدة، والرئيس هواري بومدين لمقابلة رئيس الحكومة السوفياتية لشرح الأخطار الناجمة عن العدوان الإسرائيلي.

وجاءت الرسالة بعد ذلك لتغري المتردّدين وتطمئن الخائفين، فأعلن الرئيس في كلام قاطع «أن أية خلافات عربية قد ذابت نهائياً وإلى الأبد.. وأنه يتعينّ أن ينعقد مؤتمر قمة عربي بعد المعركة لوضع نظام عام جديد للتعاون الصادق والثقة المتبادلة بين الدول العربية...».

ولكن هذه الرسالة بقيت في خزائن الملوك للعبرة والذكرى، فلم يرد عليها أحد من الملوك والرؤساء... وجاءت الكارثة سريعة كالرعد القاصف.. وأخشى أن يكون قد نسيها التاريخ.

ولو أن الملوك والرؤساء هبّوا لاتخاذ هذا الموقف، أو مثله، لتغيّر سير المعركة فإن المعركة كانت بيد الولايات المتحدة، وعنق الولايات المتحدة في أيدينا.

أجل.. لو أن الملوك والرؤساء قد استجابوا لوقفة المعركة في اليوم السابع من حزيران/ يونيو.

وفي اليوم السابع كانت إسرائيل لا تزال حول القدس لم تدخلها، وفي وسط سيناء لم تخترقها، وبعيداً عن مرتفعات الجولان لم تصل إليها.

ولكن من أين؟.. كانت قلوب الملوك والرؤساء مشحونة وفارغة.. بعضها مشحون بالحقد والبغضاء. وبعضها فارغ من الإيمان.

ولم يبالِ بعضهم بأن الرئيس عبد الناصر قد تعهد في رسالته «أن تذوب الخلافات العربية نهائياً وإلى الأبد». ولم يكن أحد يخطر في باله أن يقول الرئيس عبد الناصر مثل هذا الكلام في يوم من الأيام.

أما المظروف الثاني، فقد كان يحتوي على رسالة من الملك حسين إلى الملوك والرؤساء بتاريخ ٨/ ٦/ ١٩٧٦. ولا شك في أنها كتبت بعد سقوط القدس.. ولست في حاجة إلى أن أقتبسها كلها، فإن الجوهر فيها قليل، والكلام الإنشائي فيها كثير كثير.

يقول الملك حسين بعد المقدمات «إن جولتنا التي بدأت منذ أيام قليلة سوف

تتبعها جولات وجولات. قريبة وبعيدة.. وإننا نعاهد الله على أن نكون في المعركة إلى النهاية.. ولا بد لنا من لقاء عاجل لبحث القضية من وجوهها كافة.. لقد أثبتت المعركة مدى حاجتنا في الأردن إلى إنشاء شبكة مطارات وشبكة دفاع جوي.. وسنبني قواتنا على أمثل وجه وفي أقرب وقت».

قرأت رسالة الملك حسين عن «إنشاء المطارات وشبكة الدفاع الجوي» وضحكت.. وضحك معي القدر والتاريخ.

ضحك التاريخ، لأن التاريخ الصادق الأمين يعلم أن القيادة العربية الموحدة، وعلى رأسها الفريق عامر، قد استنجدت بالأرض والسماء لتقنع الملك حسين بإنشاء المطارات وشراء الطائرات، ودفعت له الملايين من الجنيهات... فأبى واستكبر... .

أما المظروف الثالث، فكان ثالثة الأثافي، كما يقول العرب الأوائل في الجزيرة العربية، فقد كان يحتوي على رسالة من الملك فيصل مؤرخة ١٢/ ٦/ ١٩٦٧ أهاب فيها بوصفه حامي الحرمين الشريفين «بجميع ملوك ورؤساء الدول الإسلامية والصديقة المؤمنة بالله أن يسارعوا إلى تحرير فلسطين العربية وإنقاذ الأماكن المقدسة فيها من براثن الصهيونية».

وقد حمدت الله أن الملك فيصل قد أخذ أخيراً بزمام المبادرة للدعوة إلى الجهاد... فقد كنت صديقاً قديماً للملك فيصل أيام كان أميراً وولي عهد المملكة، وكنت دائماً أناشده، وأناشد أخاه الملك سعود أن يجعلا من موسم الحج مؤتمر جهاد لتجميع طاقات العالم الإسلامي لمساندة قضية فلسطين.. لا أن يكون دور السعودية قاصراً فقط على توسيع الطرق، وتوفير الماء... الحج مجمع إسلامي كبير للذود عن حمى الإسلام وديار الإسلام، وليس تحويل مكة والمدينة إلى فندقين نظيفين لطيفين تتوافر فيهما أسباب الراحة.

ويوم قرأت رسالة الملك فيصل بالدعوة إلى الجهاد حملني حسن الظن أن الحمية الدينية قد استيقظت في ضميره، وها هو يأخذ زمام المبادرة... ودعوت الله أن يجعل منه بطلاً يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، لا أن يعيش ملكاً ويموت ملكاً، يطويه التاريخ بين المغمورين.

وكان الوقت ملائماً... فإن العالم الإسلامي كانت تغمره موجة رائعة من التطلع إلى الجهاد بعد أن سقط المسجد الأقصى بيد القوات الإسرائيلية، وفشت في ساحاته مشاهد التهتك والخلاعة على أيدي أولئك الذين أعطوا الحضارة العصرية أكبر قدر من التهتك والخلاعة.

أجل، كان الوقت ملائماً، فقد كانت الرياح الإسلامية مع السفينة العربية.. وقد امتلأت أوراقي بالوقائع والأحداث.

ففي اليوم السادس من حزيران/ يونيو تظاهر ما يقرب من عشرة آلاف باكستاني في مدينة لاهور مطالبين بالتطوع وحمل السلاح ليقاتلوا إلى جانب إخوانهم العرب.. وأعلن الرئيس الباكستاني المشير محمد أيوب خان أن باكستان مستعدة لأن تؤيد الدول العربية في معركتها ضد إسرائيل.. وسارت التظاهرات في روالبندي وتجمهر الشباب أمام مكتب المعلومات الأمريكي ومكتبة المجلس الثقافي البريطاني، فاقتحموهما وحطموا النوافذ والأبواب.

وفي اليوم السابع من حزيران/ يونيو بعث المشير أيوب برسالة إلى الدول العربية يقول فيها: «أرجو أن تشعروا بملء الحرية في أن تطلبوا منا ما تحتاجون إليه من مساعدات في المعركة ضد إسرائيل».

وفي الثامن من حزيران/ يونيو بعث المشير أيوب خان رسالة إلى العقيد هواري بومدين رئيس مجلس الثورة الجزائري يعرض فيها تقديم العون الفعلي في المعركة ضد إسرائيل، وبعث برسالة أخرى إلى السعودية يعرض تقديم الرجال والسلاح لدعم الجهد العربي.

وفي السادس من حزيران/ يونيو أعلن مجلس الوزراء الصومالي أنه يضع قواته العسكرية تحت تصرف الدول العربية.. وتقرر فتح مكاتب تطوع الصوماليين للانضمام إلى المعركة ضد إسرائيل.

وفي التاسع من حزيران/ يونيو قامت تظاهرات ضخمة في الصومال اشترك فيها الألوف وعقدوا اجتماعات شعبية وأبرقوا إلى الدول العربية يعلنون استعدادهم للقتال.

وفي السابع من حزيران/ يونيو أعلن وزير خارجية إندونيسيا تأييده للدول العربية.. وأعلن عشرة آلاف حاج إندونيسي رغبتهم في التطوع وحمل السلاح لتحرير المسجد الأقصى، وسار آلاف من الأفغانيين بتظاهرات في شوارع كابول وأعلنوا رغبتهم في التطوع دفاعاً عن الأماكن المقدسة. وأعلنت جمهورية موريتانيا قطع علاقاتها الدبلوماسية مع أمريكا تأييداً للدول العربية في صراعها مع إسرائيل.

وفي الثامن من حزيران/ يونيو أعلن سيكوتوري رئيس جمهورية غينيا تضامن بلاده مع الدول العربية في معركتها مع إسرائيل، وأن القضية العربية ضد الإمبريالية

لا يمكن عزلها عن أماني الشعوب الأفريقية.. ووقّع ٢٧ نائباً إندونيسياً بياناً أعلنوا فيه تضامن الشعب الإندونيسي مع الدول العربية.. وأعلن المئات من مسلمي سنغافورة استعدادهم للتطوع دفاعاً عن الديار المقدسة، كما بدأت لجنة الهلال الأحمر في سنغافورة حملة التبرعات للمجاهدين في فلسطين.

وفي الثاني عشر من حزيران/ يونيو تجمع مئات من المسلمين في هونغ كونغ أمام قنصلية الجمهورية العربية المتحدة وهم يعلنون استعدادهم لتحرير المسجد الأقصى «والدموع تملأ عيونهم» كما يقول التقرير.

وفي السادس عشر من حزيران/ يونيو قام المسلمون في مانيلا عاصمة الفيليبين بتظاهرة ضخمة ضد العدوان الإسرائيلي سار فيها حوالى ثلاثة آلاف شخص يحملون اللافتات الوطنية ويعلنون استعدادهم للقتال إلى جانب إخوانهم العرب.

و.. و... وغيرها من الأحداث والوقائع التي تثبت أن الوقت كان ملائماً، ولكنه يبحث عن الشخص الملائم.

وكان الشخص الملائم هو الملك فيصل.. فهو ذكي.. وشجاع.. وعنيد، وبيده مفاتيح الحرمين الشريفين، ومن أجدر منه بالدفاع عن ثالث الحرمين وأولى القبلتين؟؟

ثم إن الملك فيصل، في خطبه القليلة، كان يدعو الله دائماً إلى أن يسقط شهيداً في بيت المقدس، وكان ذلك قبل أن تسقط بيت المقدس، فها قد حل زمن الفداء والوفاء... ومن يمنع الملك فيصل من أن يسقط شهيداً في بيت المقدس.. إن أبواب الشهادة مفتوحة لكل مؤمن، إذا صدقت النية وصحت العزيمة.

وكنت أحب الملك فيصل في شبابه وشبابي، يوم كنا أنا وجيلي من المشتغلين بالقضية العربية نتحلق حوله ونتحدث عن الوحدة العربية.. وكنا نراه أملا ومثلاً.

ولكن الأمل قد خاب، والمثل قد تضاءل مع السنين.. فلقد عرفناه أكثر بالتجربة والممارسة، والرجال صناديق مقفلة، وما مفاتيحها إلا التجارب.

غير أني وأنا اقرأ رسالته عاد إليّ الأمل وانتصب المثل.. وعاد إليّ الحب القديم ودعوت الله أن يكون فيصل هو البطل وهو المنقذ.

ولكن.. ضاعت فرصة العمر وفرصة التاريخ أمام الملك فيصل، فقد اكتفى من «الجهاد» بالدعوة والنداء، ولم يسقط شهيداً في بيت المقدس، ولن يسقط، وأغلب الظن أنه سيقضي بقية عمره في الكلام عن الجهاد.. بعيداً عن الجهاد.. وسيلاقي

أجله على فراشه، يرحمه الله.. و﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾[٥] صدق الله العظيم.

وهكذا اختار الملك فيصل أن يكون همّه الأوحد أن تظل السعودية مملكة، وأن يظل ملكاً عليها، وأن يتسلسل الملك في البيت السعودي ظَهراً بعد ظَهر.. ، ولا بأس من أن يسقط بيت المقدس في يد إسرائيل، وقد أصبحت من مكة والمدينة قاب قوسين أو أدنى.

غمرتني هذه الخواطر كلها وأنا جالس في مكتبي أمعن النظر في رسالة الملك فيصل (حامي الحرمين الشريفين) وقد فاته أن هذا اللقب الكريم ليس سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام.. وكفى.

إن الله تعالى يقول في كتابه المحكم: ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعِمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾[٦] صدق الله العظيم.

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٨٥.

(٦) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ١٩.

الهزيمة الكبرى

مع الملوك والرؤساء

من بيت عبد الناصر إلى غرفة العمليات

الجزء الثاني

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

الهزيمة الكبرى
مع الملوك والرؤساء
من بيت عبد الناصر إلى غرفة العمليات
الجزء الثاني

أحمد الشقيري

(*) صدر هذا الكتاب في بيروت: دار العودة، ١٩٧٣.

المحتويـــــات(*)

انتصر الواحد على ثلاثة عشر ٧

من موسكو . . أسرار وأخبار ٢١

أسرار أخرى من موسكو ٣٩

حديث الأسرار . . بيني وبين عبد الناصر ٥٩

هل جئتم لإزالة العدوان . . أم لإزالة منظمة التحرير؟ ٧٣

هل نحن سعاة بريد . . عند الملوك والرؤساء؟ ٩٣

مؤتمر الخرطوم . . يحتضر في يوم ميلاده ١١١

مؤتمر الخرطوم . . يدفن في الخرطوم ١٣٣

الصفعة الأولى . . للملوك والرؤساء ١٥٣

عن عبد الناصر ١٧٥

إلقاء اليهود في البحر . . وإلقاء العرب في الصحراء ١٨٧

استقالة أم إقالة؟ ١٩٩

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

انتصـر الواحـد علـى ثلاثـة عشـر

قضيت النصف الثاني من شهر حزيران/ يونيو مع بريد الملوك والرؤساء.

كان من تقاليد الملوك والرؤساء كرمز لاعترافهم بمنظمة التحرير وتأييدهم لها إلى «أبعد حدود التأييد»، أنهم كانوا يرسلون إليّ خطبهم وتصريحاتهم ورسائلهم السرية التي يتبادلونها في ما بينهم.

وكان طبيعياً أن تصبح حرب حزيران/ يونيو مجالاً خصباً للخطب والتصريحات والرسائل السرية، يحدّدون فيها مواقفهم ومواقعهم، من دون أن تكون لهم مواقف أو مواقع.

ولم تكن حرب حزيران/ يونيو حدثاً عادياً في التاريخ العربي المعاصر، بل إنها لم تكن كحرب إسرائيل أثناء العدوان الثلاثي لعام ١٩٥٦، حين زحفت إسرائيل على سيناء وقطاع غزة واحتلتهما ثلاثة أشهر، ثُمّ انسحبت وكأن شيئاً ما كان.

بل إن هذه الحرب لم تكن إعصاراً هادراً هبَّ على الوطن العربي لبضعة أيام، ثُمّ سكن وهدأ، وصفا الجو وعادت الحياة إلى طبيعتها ونظامها.

كانت حرب حزيران/ يونيو بآثارها السياسية والعسكرية عطفة تاريخية رهيبة ستظل الأمة العربية ترزح تحت أثقالها، إلى أن تستطيع أن تهزّ عن أكتافها كثيراً من الأحمال، وأولها هذا الحكم العربي المعاصر ما بين خائب، وخائر، وخائن.

ولا يخلو هذا القول العادل من استثناءات قليلة ضئيلة. . وليس الأمر في حاجة إلى تصنيف وتفصيل، فالأمة تعرف الصادقين من الكاذبين.

ومن هنا كان اهتمامي ببريد الملوك والرؤساء، أقرأه وأتأمله، وأحدّد مكانه في المعركة، فقد كان كُلّه بريد المعركة، بريد الحرب.

ومع بريد الملوك والرؤساء كان في مكتبي بريد آخر ينتظرني ويجدر بي أن أسميه

بريد الشعب. إنها تقارير مكاتب منظمة التحرير في الوطن العربي، تتحدث عن موقف الشعب أثناء المعركة.

وأخذت أقرأ بريد الملوك والرؤساء، وأقرأ بريد الشعب، فإذا بالتاريخ يقرأ معي.

وكان أول ما قرأت البرقية التالية:

«فخامة الأخ الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ـ القاهرة.

إننا نقف إلى جانبكم بجميع قواتنا وطاقتنا في هذه المعركة المصيرية ونؤيدكم كُلّ التأييد في هذه المعركة الحاسمة في تاريخ الأمة العربية، وقد دخلت قواتنا إلى الأردن لتعمل إلى جانب شقيقاتها العربيات، سائلين المولى سبحانه وتعالى أن يؤيدنا جميعاً بنصره».

التوقيـع

فيصل

وكان تاريخ هذه البرقية في اليوم الأول للمعركة، وبالتحديد في الخامس من حزيران/ يونيو.

وانطلقت الإذاعة السعودية تعيد نصّ البرقية في جميع نشراتها، وتذيع بعد ذلك أن الديوان الملكي تلقى مئات البرقيات من قبائل الجزيرة العربية تؤيد فيها «الخطوات التي اتخذها جلالة الملك، وتعلن تطوع القبائل للزحف في جهاد إسلامي لتحرير فلسطين».

ولقد كانت هذه البرقيات صادقة وأمينة ومخلصة، فإن الشعب السعودي، كالشعوب العربية الأخرى، يودّ لو أتيحت له الظروف أن يفتدي القضية العربية بالمهج والأرواح.

والبرقيات هذه، كانت في الواقع، استجابة وتلبية، والشعب السعودي كالشعوب الإسلامية، يردد دائماً «لبيك اللهم لبيك».

أجل.. كانت تلبية لنداء وجهه فيصل في اليوم الخامس من حزيران/ يونيو، وكان هذا النداء موجزاً، فإن نداء المعركة لا يحتمل الكلام الكثير. وقال الملك فيصل في ندائه:

«يا أبناء الشعب العربي السعودي،

لقد آن الوقت الذي كنا نتطلع إليه منذُ أمد بعيد. فيا إخواني أبناء الشعب العربي السعودي، استعدوا للمعركة الفاصلة بيننا وبين عناصر الشرّ التي فرضتها قوى الاستعمار والصهيونية. وإننا سنكون أمامكم في المعركة، وأثبتوا للعالم أجمع أنكم دائماً في الطليعة في جميع ما يهدّد كيان الأمة العربية».

كان ذلك كلام الملك فيصل في اليوم الأول من المعركة. وكان هنالك كلام آخر في اليوم الثاني.

ففي السادس من حزيران/ يونيو أقيم مهرجان شعبي كبير في الرياض احتفاء بعودة الملك فيصل من زيارة طويلة استغرقت شهراً، في أمريكا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا. وألقى الملك فيصل خطاباً في المهرجان الشعبي. . وكان طبيعياً أن يتكلم عن المعركة، فقال في جملة ما قال: «إن مجرد وجود الوجود الإسرائيلي على الأراضي العربية هو أكبر اعتداء وظلم عرفه التاريخ. وإننا اليوم صف واحد وجنود في المعركة، لا رئيس ولا مرؤوس، بل كلنا حملة سلاح في سبيل الله وفي سبيل الوطن. . يجب أن نلقّن الصهيونية والاستعمار درساً لم يعرفوه. . وإننا سنتخذ الإجراءات بكل قوة ضدّ من يساعد أعداءنا ومن يناصرهم بأي نوع من المساعدات. . فإلى الجهاد أيها المواطنون، إلى الجهاد أيها الموطنون، إلى الجهاد يا أمة محمّد. ويجب علينا اليوم أن نثبت ما نقوله باللسان، نثبته بالعمل لا بالتظاهر والصياح. وإنه ليشرفني أن أنقل إليكم رغبة إخواني التي تقدموا بها إليّ بأن يكونوا في مقدمة الصفوف المقاتلة على الحدود، وإني أعدهم وأعدكم بأن هذه الرغبة ستتحقق».

وبعد هذا الخطاب الكبير بألفاظه، العظيم بعباراته، أذاع راديو مكة خطاباً آخر من الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود وزير الدفاع والطيران السعودي موجهاً إلى القوات السعودية المسلحة قال فيه: «إن القائد الأعلى والحكومة والشعب السعودي واثقون ومؤمنون أنكم سوف تعيدون فلسطين إلى أهلها العرب».

ولقد كان لهذه الكلمات سحرها في نفوس الجماهير، ولو اقترنت بالإرادة والعزيمة لتحول السحر إلى نصر.

وليس شيئاً قليلاً أن يعلن الملك فيصل: «إننا سنكون أمامكم في المعركة، وإننا كلنا حملة سلاح. وإلى الجهاد يا أمة محمّد. . وإن إخواني سيتقدمون الصفوف، وإني أعاهدكم على أن تتحقق هذه الرغبة».

والملك فيصل قادر أن يجعل هذا الكلام حقيقة ناصعة. إنه يملك الرجال والمال

والسلاح والبترول. وفوق ذلك، فإنه بين يديه مشاعر العالم الإسلامي، بوصفه حامي الحرمين الشريفين.

ولو أن الملك فيصل طار إلى بيت المقدس في صباح الخامس من حزيران/ يونيو، وخاطب العرب والمسلمين من المسجد الأقصى يدعوهم إلى الجهاد، لتغيّر مجرى التاريخ. ولكن الملك فيصل دعا إلى الجهاد وقعد. واختار لنفسه أن يكون ملكاً لا بطلاً. وما أكثر الملوك وما أقل الأبطال.

وحينما كان الملك فيصل يدعو إلى الجهاد، ويعلن أن قواته ستشترك في المعركة في الخامس والسادس من حزيران/ يونيو كنت أنا بعقلي وجوارحي في غرفة العلميات الأردنية، في عمّان، أتابع تحركات القوات الأردنية والعراقية في المعركة منذُ بدايتها إلى نهايتها، ولم أعلم أن القوات السعودية قد اشتركت من قريب أو بعيد. والذي أعرفه أن القوات السعودية بقيت مرابطة وعلى الحدود الأردنية وانتهى. وكان من دواعي الشرف للجيش السعودي الباسل، بل للأمة العربية، لو أنّه اخترق الحدود وساهم في القتال. فقد كانت المعركة في حاجة إلى جندي واحد، وإلى طلقة واحدة.

ولست أنسى واقعة مثيرة تفرض نفسها على التاريخ . . ذلك أن قسم استماع الإذاعات في القيادة المشتركة في عمّان كان يسجل للفريق عبد المنعم رياض كُلّ ما تقوله الإذاعات العربية والأجنبية عن المعركة. وكان من جملة ما نقله جهاز الاستماع خبر عن إذاعة مكة يقول: «إن القوات السعودية والعراقية اشتركت مع القوات الأردنية في احتلال جبل المكبّر في القدس، وإن سلاح الجو السعودي اشترك مع سلاح الجو العراقي وسلاح الجو الأردني في ضرب المنطقة المحتلة».

قرأ الفريق عبد المنعم رياض الخبر، وصاح: «هو نحن ما تعلمناش أي درس من حرب فلسطين عام ١٩٤٨، القوات السعودية متمركزة حتّى اليوم في تبوك، من أين جاءت لتحتل جبل المكبّر؟ . . والطيران السعودي، نحن نتمنى أن يكون معنا في المعركة . . إنه لا يزال في مطارات السعودية».

ورحت أهدئ الفريق عبد المنعم رياض وأقول له: «على مهلك. يجب أن تروّض نفسك على التصريحات العربية».

فقال الفريق رياض: «ما الفائدة من الكذب. لقد سقط جبل المكبّر بيد إسرائيل بعد أن احتلته القوات الأردنية بأربع ساعات، والقوات السعودية بعيدة عنا مسيرة أيام وأيام».

وما إن انتهت حرب حزيران/ يونيو حتّى بدأت حرب أخرى، حرب أطلقتها الإذاعة السعودية، تندّد بالقاهرة وتأخذ عليها كثيراً من الأخطاء العسكرية والسياسية، وبلغت الحملة ذروتها حين أعلنت جريدة **الندوة** السعودية، في الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو «أن الملك فيصل أخطر الدول العربية أثناء زيارته لأوروبا في شهر أيار/ مايو الماضي بأن إسرائيل تنوي القيام بهجوم على البلدان العربية المجاورة لها، وأن الملك فيصل قد نقل هذا التحذير إلى جميع الدول العربية بواسطة ممثليها في لندن وبروكسل أثناء زيارته لبلجيكا وبريطانيا، وأن الملك فيصل أبلغ السفراء العرب في العاصمتين المذكورتين أن على الدول العربية أن تبدأ بالهجوم على إسرائيل ليتمكن العرب من أن يحققوا نصراً، أو على الأقل حتّى لا يتحول الموقف إلى نكبة».

واستمرت الحملة السعودية تتصاعد يوماً بعد يوم إلى أن جاء يوم ٢٣ تموز/ يوليو، يوم الذكرى الخامسة عشرة للثورة المصرية. وكنت في جامعة القاهرة أجلس على المنصة الرئيسيّة.. وألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطاباً مسهباً عن ظروف النكبة.. ردّ فيه على الحملة السعودية وقال: «بعدما حصلت النكسة بيجوا بنتقدونا في المملكة العربية السعودية.. الجرايد والإذاعة كُلّ يوم تنتقدنا.. جرايد الملك بتقول ليه ماهجمتش بالأول وهو قاعد هناك بالرياض على بعد خمسة آلاف كيلومتر. طيّب وهو الملك فيصل عمل إيه؟ كام عسكري بعتهم أثناء المعركة؟.. ولا عسكري».

وانتهى الرئيس عبد الناصر من خطابه، وجلسنا في صالة الاستراحة بعض الوقت. وسألني الرئيس عبد الناصر قائلاً: «دانت يا أخ أحمد كنت في عمّان أثناء المعركة. هل السعودية اشتركت في المعركة؟».

قلت: «نعم».

ودهش الرئيس عبد الناصر وقال: «إزاي اشتركت في المعركة؟».

قلت: «إذاعة الرياض ذكرت أن الطيران السعودي والقوات السعودية اشتركت في احتلال جبل المكبّر. وسقط جبل المكبّر بعد أربع ساعات بيد إسرائيل بعد أن احتلته القوات الأردنية، وكان جبل المكبّر «يكبّر» احتجاجاً على إذاعة الرياض».

وضحك الرئيس عبد الناصر قائلاً: «ده صحيح. ناس كتير غير السعودية حاربوا بالإذاعة».

وإني أروي هذا الحادث بما فيه من قسوة، فإن القسوة متلازمة مع القدرة.. إن

قدرات المملكة السعودية ضخمة هائلة على الصعيدين العربي والإسلامي. . ولا ننسى الطاقات الروحية والسياسية والبترولية التي تملكها المملكة العربية السعودية، والتي يمكن أن تلعب دوراً خطيراً في المعركة، لو أنها توضع تحت تصرف المعركة.

وإذا كان هذا هو موقف الملك فيصل من المعركة. . خطبة رنانة، وجهاد في الإذاعة. . فإن موقف الشعب السعودي أعظم وأكرم. . حقاً وصدقاً.

لم يجد الشعب السعودي مكاتب التطوع مفتوحة أمامه كما وعده مليكه. ولم يجد الأمراء إخوة الملك فيصل يتقدمون المعركة كما طلبوا. . ولم يجهّز القادرون على حمل السلاح بالسلاح. . ولكن الشعب السعودي بذل كُلّ ما يستطيع. ففي الواحد والعشرين من شهر حزيران/ يونيو حطت طائرة نقل سعودية في مطار عمّان تحمل ٣٤٩ طرداً كبيراً من الملابس والأغذية المتنوعة تبرع بها الموطنون السعوديون لأسر الشهداء في الأردن.

وكانت هذه إحدى الأيادي السعودية البيضاء في تلك الأيام السوداء. . وقد لحقتها تبرعات شعبية قيمتها مليون وربع مليون دولار ومائة وخمسة وسبعون قطعة من الحلي الذهبية.

ثُمّ توالت التبرعات السعودية بالكرم النجدي والسخاء الحجازي حتّى بلغت قيمتها في منتصف حزيران/ يونيو ستة وأربعين مليون ريال سعودي.

ما أعظم الشعب، وما أكرم الشعب، ولا أذكر غيره.

كان ذلك هو حصيلة بريدي مع السعودية شعباً وملكاً. . وكان من المصادفة الغريبة أن أنتقل إلى بريد الكويت. وهي كالسعودية دولة بترولية، ومثلها، بدأت حياتها بداءة بدوية. . وماذا وجدت في البريد؟

في اليوم الخامس من حزيران/ يونيو أصدر أمير الكويت مرسوماً جاء فيه: «إن الكويت تعتبر في حرب دفاعية منذُ صباح اليوم مع العصابات الصهيونية، وإن الكويت يضع كُلّ إمكاناته لخوض المعركة».

وعلى إثر ذلك، اجتمع مجلس الأمة الكويتي في جلسة طارئة أقرّ فيها المرسوم الأميري، كما أقرّ الإجراءات الاستثنائية الأخرى التي اتخذها مجلس الوزراء. وتنفيذاً لهذه الإجراءات، فقد وضع الحاكم العسكري العام في الكويت جميع المحطات اللاسلكية في شركات النفط العاملة في البلاد تحت الرقابة.

وبهذا ظهر في اليوم الأول للحرب أن الكويت تواجه مسؤولياتها لا كدولة بدوية، بل كدولة دستورية لها مجلس أمة، ولها دستور، ولها قوانين. هذا إذا استثنينا

شيئاً واحداً، وهو أن الحكم في مجموعه لا يزال في يد الأسرة الواحدة، شأنها في ذلك شأن المملكة العربية السعودية.

وفي اليوم السادس من حزيران/ يونيو، وعلى أثر ما أذيع من أن أساطيل أمريكا وبريطانيا تسند العدوان الإسرائيلي، قرر مجلس الوزراء الكويتي وقف تصدير النفط الكويتي إلى كُلّ من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وفي السابع من حزيران/ يونيو وافق مجلس الأمة الكويتي في جلسة سرية طارئة على تخصيص مبلغ خمسة وعشرين مليون دينار كويتي لدعم المجهود الحربي للدول العربية.

وعلى صعيد المجهود الحربي، فقد بعثت الكويت بكتائب من الجيش الكويتي إلى الجبهة المصرية للمساهمة في المعركة.. وقد سقط منهم عدد من الشهداء في الميدان تجسيداً لوحدة النضال العربي.

وكان الجهد الشعبي رائعاً، فقد ازدحمت شوارع الكويت بتظاهرات شعبية ضخمة تطالب بالسلاح للاشتراك في المعركة، وتهافت المواطنون على مراكز التبرع بالدم، وتبرعوا بمبالغ سخية لتمويل المجهود الحربي.. ووقف المئات أمام سفارات الأردن والجمهورية العربية المتحدة وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية تطالبهم بقبول تطوعهم للقتال في ميدان المعركة، وقرّر التجار مقاطعة البضائع الأمريكية والبريطانية مقاطعة كاملة، كما بدأت المؤسسات التجارية ورجال الأعمال سحب ودائعهم من المصارف البريطانية والأمريكية.. وجمع المواطنون تبرعات مالية كبيرة، ومواد غذائية وأدوية أرسلت كلها إلى الأردن وسوريا، وسافرت بعثة صحية تضم عدداً من الأطباء والممرضين، ومعها كمية كبيرة من الأدوية لإسعاف الجرحى في الأردن وسوريا.

ولم تتخلف إمارات الخليج العربي عن النهوض بواجباتها، شعوباً وحكاماً، وهي لا تزال رازحة تحت النفوذ الأجنبي، فقامت بما تستطيع من واجبات النضال العربي.. ففي دُبي، على سبيل المثال، أرسل المواطنون برقية إلى الملك فيصل يطلبون فيها السماح لهم باجتياز الأراضي السعودية من إمارة دُبي للوصول إلى جبهات القتال.. وقامت تظاهرات ضخمة في الشوارع استنكاراً للتواطؤ الأمريكي ـ البريطاني في مساندة إسرائيل، واتجه المتظاهرون إلى مبنى البنك البريطاني وأشعلوا النار فيه.

وفي أبو ظبي، أمر حاكمها الشيخ زايد بن سلطان شركات النفط العامة في بلاده بعدم تحميل ناقلات النفط المتوجهة إلى بريطانيا والولايات المتحدة.

وفي البحرين أصدر الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين أمراً إلى شركة نفط البحرين بوقف جميع عمليات شحن ناقلات البترول.

وتناولت بريد لبنان.

وفي لبنان تضافرت الحكومة والشعب في القيام بالواجب اللبناني.. ولبنان على الدوام يؤدي للقضية الفلسطينية كُلّ قدراته السياسية والعسكرية، وإن كان لا يملك منها إلا القليل. وذنبه أنّه رضي بأن يكون دولة صغيرة، كالدول العربية الصغيرة الكثيرة.

ففي الخامس من حزيران/ يونيو أعلن رئيس الجمهورية شارل حلو أن «المعركة التي يخوضها العرب ضدّ العدوان الصهيوني يتوقف عليها مصير لبنان والبلاد العربية». وأذاع رشيد كرامي رئيس الوزارة خطاباً قال فيه: «نحن نعتبر أن هذه المعركة هي معركة لبنان». واجتمع مجلس النواب في جلسة طارئة قرّر فيها بالإجماع إعطاء الحكومة صلاحيات استثنائية لتنسيق العمليات العسكرية بين القوات اللبنانية والعربية بما في ذلك دخول قوات عربية إلى الأراضي اللبنانية. وأذاعت قيادة الجيش اللبناني بلاغاً دعت فيه «الفلسطينيين» المقيمين في لبنان إلى أن يسجلوا أسماءهم من أجل تطويعهم لمعركة التحرير، ووقعت مناوشات جوية بين الطائرات الإسرائيلية واللبنانية.

ولم يدّخر الشعب في لبنان جهداً في مساندة النضال العربي، شباباً وطلاباً، ونساء ورجالاً، في جمع الإعانات والأغذية والأدوية وإذكاء الروح الوطنية.

وفي الثامن من شهر حزيران/ يونيو شهدت بيروت اجتماعاً طارئاً لرؤساء غرفة التجارة والصناعة والزراعة في البلدان العربية اتخذوا فيه مقررات مهمة «بفتح الجبهة الاقتصادية العربية ضدّ الاستعمار.. في ما يختص بالبترول والتعامل المالي، والنقل وسائر الجوانب الاقتصادية الأخرى».

وتناولت بريد السودان. وفي السودان وجّه الرئيس إسماعيل الأزهري في الخامس من حزيران/ يونيو خطاباً إلى الشعب السوداني يصحّ أن يكون نموذجاً لخطاب الملوك والرؤساء.. وخير ما فيه إيجازه، وقال في نصه الكامل ما يلي: «لقد انفجر البركان العربي الثائر إثر الهجوم الإسرائيلي على الوطن العربي وبدأت بذلك مرحلة جديدة في نضال العرب تتسم بالمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتق كُلّ عربي. إنها الزحف المقدس نحو العدو وتمزيق كيانه وسحق وجوده والقضاء عليه قضاء ثورياً وأبدياً».

وأبلغ محمّد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الجمعية التأسيسية «أن السودان قد أعلن الحرب على إسرائيل، وأن القوات المسلحة السودانية ستتجه إلى الجبهة المصرية للاشتراك في المعركة». وقامت تظاهرات شعبية صاخبة في شوارع العاصمة تندّد بالعدوان الإسرائيلي، واستخدم البوليس الغاز المسيل للدموع حين توجه المتظاهرون نحو سفارة الولايات المتحدة.

وفي اليوم السادس من حزيران/ يونيو قرر مجلس الوزراء السوداني تحويل أرصدته المالية المودعة في البنوك البريطانية إلى البنوك السويسرية، كما قرر اتحاد العمال السوداني الامتناع عن شحن أو تفريغ أي سفينة أو طائرة بريطانية أو أمريكية في موانئ ومطارات السودان.

وفي السابع من حزيران/ يونيو أغلقت السلطات المسؤولة مطار الخرطوم في وجه الطائرات الأمريكية والبريطانية وحظرت عليها التحليق في الأجواء السودانية.

والواقع أن كتائب من الجيش السوداني قد وصلت إلى الجبهة المصرية واشتركت في المعركة. . ولم يستطع السودان، حكومة وشعباً، أن يقدم للمعركة أكثر مما قدم في ظروفه الاقتصادية الصعبة، ومتاعبه في الجنوب وأزمة العطش. ويا عطشي والماء يجري!

ووصلت إلى بريد اليمن، فقرأت بيان المشير عبد الله السلال «بإعلان الحرب على إسرائيل»، وكان اليمن في حرب مع غير إسرائيل. . ومع هذا فلم يسع المشير عبد الله السلال إلا أن يعلن فتح مكاتب للتطوع، وحثّ شعب الجنوب العربي في إذاعة خاصة من راديو صنعاء على مهاجمة القوات والمنشآت البريطانية حيثما وجدت.

ثُمّ انتقلت بعد ذلك إلى بريدي مع الشمال الأفريقي، فكانت ليبيا هي الأولى. وفي ليبيا كان الشعب هو الذي يقود الحكومة. فما من قرار اتخذته الحكومة الليبية إلا وكان الشعب هو الدافع والحافز، ففي الخامس من حزيران/ يونيو اجتاحت تظاهرات ضخمة المدن والقرى في ليبيا، وكان المتظاهرون يهتفون بسقوط الاستعمار والصهيونية، ويعلنون عن استعدادهم لخوض المعركة. وتجمهر ألوف المواطنين أمام مراكز المحافظات لقيد أسمائهم في سجل المتطوعين، وعمّ الحماس صفوف الجيش الليبي، وبدأت وحداته بالاستعداد للتحرك من طرابلس وبنغازي في طريقها إلى الجمهورية العربية المتحدة.

وكانت الحكومة الليبية تحت ضغط الشعب قد أرسلت في الخامس من حزيران/ يونيو برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر تقول فيها: «نؤكد لفخامتكم باسمنا وباسم البطولة والشعب الليبي موقفنا الصامد إلى جانبكم في خوض معركة البطولة والشرف

والتحرير والعودة، وقد صدرت التعليمات إلى قواتنا بدخول الجبهة الأمامية، وأن توضع تحت تصرفكم ورهن إشارتكم. نؤكد تأييدنا الصادق واستعدادنا لتسخير الإمكانات كافة لمساعدتكم والتضحية بكل ما يفرضه علينا الواجب القومي المقدس». وقد تحركت القوات الليبية فعلاً في اتجاه القتال (الجبهة الأمامية)، ثُمّ عادت إلى قواعدها بعد أن توقف القتال.

وفي الثامن من حزيران/ يونيو اشتدت التظاهرات في طرابلس، وتعرض الشباب للعديد من الأمريكيين الذين كانوا في طريقهم إلى القاعدة الأمريكية، وبلغ عدد المتطوعين ستة آلاف، انخرط ألفان منهم في معسكرات تدريبية. واحتل عدد من الطلبة الليبيين دار السفارة الليبية في روما، ورفعوا اللافتات على نوافذها وشرفاتها، منددين بالولايات المتحدة، محتجين على حكومتهم تخاذلها في النضال العربي. . كما أبرق الاتحاد العام للطلبة الليبيين في باريس بدعوة الحكومة إلى اتخاذ موقف حازم إزاء الولايات المتحدة «وإلا فإنهم ينفذون قراراتهم بإحراق السفارات الليبية في كُلّ أنحاء العالم».

وفي اليوم التاسع من شهر حزيران/ يونيو تظاهر أكثر من عشرة آلاف شخص في طرابلس احتجاجاً على التواطؤ الأمريكي ـ البريطاني، وتكاثرت طلبات التطوع على مكتب منظمة التحرير، وغادر الفوج الأول من المتطوعين الليبيين ومعهم ثمانية عشر طبيباً. ووصلت حملة التبرعات إلى مليوني جنيه ليبي. وامتنع العمال الليبيون عن تفريغ البواخر الأمريكية والبريطانية في ميناءي طرابلس وبنغازي.

وكان بريد تونس طريفاً. . ولا تخلو المعركة من الطرائف.

في تونس تحرك الشعب أولاً، وتحرك الرئيس القائد المجاهد ثانياً.

ففي الخامس من حزيران/ يونيو، وما إن انتشرت أخبار العدوان الإسرائيلي بين صفوف الشعب حتّى انطلقت التظاهرات تملأ شوارع العاصمة، وقصد الآلاف إلى السفارتين الأمريكية والبريطانية، فاقتحموهما وحطموا الأثاث والنوافذ والأبواب، ومزّقوا الأوراق، وبدت العاصمة وكأنها في ساحة حرب.

ووصلت غضبة الشعب بكل تفاصيلها وأخبارها إلى الرئيس بورقيبة، فلم يسعه إلا أن ينادي بما ينادي به الشعب، فخطب في الخامس من حزيران/ يونيو خطاباً ثورياً لو شاء الفلسطينيون أن يأتوا بمثله لما استطاعوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

ونسي الرئيس بورقيبة دعوته السابقة في عام ١٩٦٥ للصلح مع إسرائيل،

وعدم جدوى الحرب والقبول بالأمر الواقع[1]، فقال في خطابه: «اليوم وقد جدّ الجد وأخذ الكفاح طوره الجدي من أجل الحقّ والعدل والسلم، تقف تونس شعباً وحكومة في صف شقيقاتها من أجل تحرير فلسطين التي اغتصبت أرضها وشرّد أبناؤها. وقد وضعنا الجيش من الآن على أهبة الاستعداد للاستجابة لكُلّ ما يصدر إلينا من إخواننا العرب سواء كان الأمر يتعلق بالرجال أو العتاد أو الاختصاصيين. كمساهمة فعالة في المعركة». وهكذا انقلب الرئيس بورقيبة على آرائه وعلى فلسفته، بل على البورقيبية بأسرها.

وسار الرئيس بورقيبة خطوة أخرى على طريق «المعركة»، فأمسك بالتلفون وتحدث إلى الرئيس عبد الناصر معرباً عن تأييده باسم تونس، حكومة وشعباً، لموقف الجمهورية العربية المتحدة، «وأن الجيش التونسي على أتم الاستعداد لخوض المعركة إلى جانب الدول العربية الشقيقة».

وسارت وحدات من الجيش التونسي في شوارع العاصمة، ليثبت الرئيس بورقيبة أنّه جاد في خوض المعركة. . وابتهجت الجماهير ونثروا الزهور على الجنود وسط تظاهرات بالغة من السرور والحماسة، وتحركت الوحدة التونسية في اتجاه الحدود.

وفي اليوم التاسع من شهر حزيران/ يونيو أصدر مجلس الأمن قراره بوقف إطلاق النار. . فعادت القوات التونسية من الحدود. وأعلن الرئيس بورقيبة موافقته على وقف إطلاق النار، قبل أن يبدأ بإطلاق النار.

كان هذا في الوطن التونسي، أما في الخارج، فقد كان الكلام التونسي مخالفاً لرغبات الشعب التونسي المجاهد. فقد أعلن الحبيب بورقيبة الابن، وزير الخارجية التونسية في أمريكا، بعد اجتماعه مع دين راسك وزير الخارجية الأمريكية، أنّه «يعتذر عن التظاهرات التي قام بها الشعب في تونس، وأن المشاغبين سيقدمون إلى المحكمة العسكرية ليلقوا جزاءهم».

وكان بريد المغرب مثل بريد تونس. . حذوك الرأس بالرأس!

وجرى في المغرب ما جرى في تونس. . فما إن علم الشعب المغربي بأنباء المعركة حتّى تنادى الشعب في المدن والقرى إلى التظاهرات، وسار آلاف المواطنين إلى دواوين الحكومة يطالبون بالتطوع والمساهمة في الحرب، وبدأت حركة المقاطعة

(١) أحمد الشقيري، **من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧١). وهو متضمن في هذه المجموعة.

للبضائع الأمريكية والبريطانية، وامتنع العمال عن تفريغ البواخر الأمريكية في ميناء الدار البيضاء، رغماً عن أنها كانت محملة بالقمح إلى المغرب، إلى بطون الشعب.

وفي غمرة هذا التحرك الشعبي، تحرك الملك الحسن الثاني وأمر بأن تتحرك القوات المغربية.. فجمعها وخطب فيها قائلاً: «كنا أعلنا رسمياً موقفنا بأننا مستعدون لأن نذهب ونحارب ونقاتل بجانب إخواننا العرب، وها هو هذا اليوم قد وصل، وها هي الساعة قد حانت، وها هي أفواج من قواتنا الملكية المسلحة ستتوجه اليوم إلى بلاد الشرق الأوسط لتقف بجانب شقيقاتها القوات المسلحة العربية».

ولم تكد القوات المغربية تتحرك إلى «الشرق الأوسط» حتّى أصدر مجلس الأمن قراره بوقف إطلاق النار.. فعادت القوات المغربية إلى ثكناتها، ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾[٢] صدق الله العظيم.

وكان آخر ما بقي من البريد الجزائر.

فإذا به يعوّض عن تقاعس حكام العرب في تونس وليبيا والمغرب ليسجل صفحة مشرّفة في تاريخ النضال العربي، وليثبت أن الثورة الجزائرية لا تزال منطلقة إلى تحقيق أهداف جديدة في الوطن العربي.

استيقظ الشعب الجزائري على إذاعته في صباح الخامس من حزيران/ يونيو، وهي تنقل أخبار الهجوم الإسرائيلي على مصر.. وكما فعلت الجماهير العربية في كُلّ أقطارها، هبَّ الشعب الجزائري في تظاهرات صاخبة تنادي «ويلسون سفاح»، و«جونسون سفاح»، واقتحم المتظاهرون المراكز الثقافية الأمريكية والبريطانية، فحطموا الأبواب والنوافذ وفرّقوا الأثاث والأوراق، ولم يتمكن البوليس من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة بالغة.

ولم يخطب الرئيس الجزائري العقيد هواري بومدين، لا في اليوم الأول، ولا في اليوم الثاني من المعركة، وكُلّ ما فعله أنّه اتصل تلفونياً في الخامس من حزيران/ يونيو بالرئيس عبد الناصر، مؤكّداً وقوف الجزائر حكومة وجيشاً وشعباً في المعركة.. وبدأ التنفيذ.

في اليوم الخامس كانت ثمانٍ وأربعون مقاتلة جزائرية من طراز ميغ تشقّ طريقها في الأجواء العربية فوق تونس وليبيا والصحراء الغربية، ووصلت إلى مهابطها في الميدان على أرض الجمهورية العربية المتحدة.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٥.

وفي اليوم السادس أوقفت الجزائر النفط عن الولايات المتحدة وبريطانيا، ووضعت جميع شركات النفط الأجنبية تحت إشراف الدولة. ووجّه راديو الجزائر مناشدة إلى ليبيا والسعودية أن تقطعا النفط عن أمريكا وبريطانيا. وأعلنت الحكومة الجزائرية عن افتتاح «صندوق الحرب» داعية الجزائر إلى التبرع.

وفي اليوم السابع أقلعت أسراب جوية جزائرية من طراز ميغ ٢١ للاشتراك في المعركة. وفرضت الحكومة الجزائرية حظراً فورياً على جميع الصادرات إلى الولايات المتحدة وبريطانيا. واستمرت الجزائر في إرسال قواتها المسلحة الجوية والبرية إلى ميدان المعركة. واشتركت فيها منذُ وصولها إلى حين توقف إطلاق النار في الجبهات العربية. وبقيت القوات الجزائرية مرابطة في الجبهة المصرية تنتظر استئناف القتال بعد أن توقف القتال.

فرغت من البريد وأخباره، الحبيبة منها والبغيضة، يتنازعني عاملان متباينان: عامل الإعجاب بهذه الأمة، وعامل النقمة على حكامها.

لقد كان بريدي صورة مصغّرة لما كان يدور في الوطن العربي من الخير والشرّ، من الإقدام والإحجام، من الجود والشحّ، من الإخلاص واللؤم، من السمو والدنو.. والمواطن العربي يعرف من أصحاب الفضائل، ومن الغارقون في الرذائل.

وتركت البريد جانباً.. وثار السؤال الذي يتجدّد ويتجدّد مع الأيام والأعوام. سألت نفسي: ما هو سبب الهزيمة الكبرى التي حلّت بنا؟

تعدّدت الإجابات في نفسي. وتنوّعت.. السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي.

ودخل في هذه الإجابات: الوضع الدولي، ومعه الأمريكي والموقف السوفياتي.

ولكني استبعدت أن تكون هذه الإجابات مجتمعة أو منفردة هي السبب الأول. أبو الأسباب وأم الأسباب عندي هو الكثرة العربية المشتّتة، المبدّدة، المترهلة. ورحت أحصي وأقارن.

ـ الأمة العربية أكثر من الشعب (الشعب الإسرائيلي) بخمسين مرة.

ـ الجيوش العربية أكثر من الجيش الإسرائيلي بسبع مرات.

ـ الطائرات العربية أكثر من الطائرات الإسرائيلية بخمس مرات.

ـ المصفحات والدبابات العربية أكثر من المصفحات والدبابات الإسرائيلية بست مرات.

ـ والصواريخ العربية أكثر من الصواريخ الإسرائيلية بعشر مرات.

ـ والقوات البحرية أكثر من الصواريخ الإسرائيلية بعشر مرات.

ـ البترول العربي أكثر من البترول الإسرائيلي بألف مرة.

ـ والحكام العرب أكثر من الحكام الإسرائيليين بثلاث عشرة مرة.

ولا يحسبن المواطن العربي أن هذه الأرقام من باب المبالغة التي تصنعها آلام الهزيمة. إنها أرقام صحيحة، فليرجع إليها من شاء في كتابات معهد الدراسات الاستراتيجية البريطانية والمراجع العلمية الأخرى.

نحن كثرة مبددة مترهلة، وإسرائيل قلة موحدة مكتنزة.

إنها هذه الكثرة التي نزهو بها ونعجب بها، وهي سبب الكارثة. . فالكارثة تكمن في كثرتنا الغارقة في نتن التجزئة وعفن الانفصال، ولو أن كثرتنا واحدة وجيوشنا واحدة، وقيادتنا واحدة. . لما وقعت الهزيمة الكبرى، بل لجاء الفتح الأنور، والنصر المؤزر.

لقد انتصرت إسرائيل لأنها دولة واحدة تحكم سبعين جنساً من الأمم.

ولقد انكسرنا لأننا ثلاث عشرة دولة تحكم أمة واحدة.

وهكذا انتصر الواحد، لأنه واحد أحد. وهكذا انهزم الثلاثة عشر.

لقد أعجبتنا هذه «الكثرة»، فلما جاء يوم المعركة لم تنصرنا الكثرة، تماماً كما جرى في غزوة حُنين، في أيام الرسوم الكريم.

وكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى ﴿**ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثُمّ وليتم مدبرين**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٢٥.

مـن موسكـو.. أسـرار وأخبـار

ما إن انتهت حرب الأيام الستة حتّى بدأت حرب أخرى.

وكانت هذه الحرب على الاتحاد السوفياتي. . وكان ميدانها الوطن العربي على امتداده، والمحاربون فيها هم الجماهير العربية، الأميون والمثقفون.

وفي الوقت الذي كان حكام العرب يدينون فيه أمريكا وبريطانيا لمساندتهما إسرائيل، كانت جموع الشعب تدين الاتحاد السوفياتي، تحمّله جانباً كبيراً من المسؤولية في الهزيمة الكبرى التي حلّت بالأمة العربية.

وها أنا أستعرض تقارير مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في الوطن العربي، وأستعرض كذلك التقارير «السرية» الأسبوعية التي كان يبعث بها السفراء العرب إلى عاصمة عربية لها صلات وثيقة بالاتحاد السوفياتي.

بدأت الحملة على الاتحاد السوفياتي بالتساؤلات عن موقفه منذُ أن بدأت الأزمة في أوائل شهر أيار/ مايو، إلى أن وقعت الحرب في أوائل حزيران/ يونيو. . وكانت التساؤلات.

ـ لماذا لم يساعد الاتحاد السوفياتي الدول العربية كما ساعدت بريطانيا وأمريكا إسرائيل؟

ـ إذا كانت الأساطيل البريطانية والأمريكية في البحر الأبيض المتوسط قد ساندت إسرائيل. . فلماذا لم يفعل الأسطول السوفياتي مثل ذلك. . لدعم القوات العربية؟

ـ لماذا أعلن الاتحاد السوفياتي تأييده لموقف مصر في سحب قوات الطوارئ الدولية وإغلاق خليج العقبة، ولم يفعل شيئاً حينما وقعت الحرب؟

ـ لماذا قام الاتحاد السوفياتي بالضغط على مصر، حتّى إلى ليلة الخامس من

حزيران/ يونيو، بأن تعمل على ضبط النفس وألا تكون البادئة بالعدوان؟

هذه التساؤلات وغيرها كانت تدور على ألسنة الجماهير في البيوت والمقاهي، والنوادي، والشوارع، وحتى في الطائرة والقطار.. حينما يكون المواطن العربي على سفر، في نزهة أو عمل.

ولم تكن هذه التساؤلات من باب التجني، فقد كان المواطن العربي طيلة هذا الشهر (أيار/ مايو) وهو يتابع نشاط الاتحاد السوفياتي منذُ بداية الأزمة إلى نهاية الهزيمة.

كان المواطن العربي يستمع بابتهاج وتقدير إلى تصريحات قادة السوفيات، بتأييد الموقف العربي تأييداً مطلقاً لا يحتمل أي تأويل أو ريب.

وكان المواطن العربي يستمع إلى ما تردّده إذاعة القاهرة من أن الرئيس جمال عبد الناصر استقبل السفير السوفياتي في المساء، وفي الصباح.. ومرة كُلّ يوم في ذروة الأزمة.. وبعد منتصف الليل في ذلك اليوم المشؤوم المحموم.

وكان المواطن العربي كذلك يتنفس أملاً وعزماً وهو يستمع إلى وكالات الأنباء تتحدث عن تنقلات الأسطول السوفياتي في البحر الأبيض المتوسط، وعبور السفن الحربية السوفياتية من البحر الأسود إلى مضيق الدردنيل، وأصبح عددها عشرين، ثلاثين، أربعين سفينة حربية، محملة بالطائرات، مزوّدة بالصواريخ.

وجاءت الهزيمة الكبرى ومعها الخيبة الكبرى.. فقد خاب أمل الأمة العربية بالاتحاد السوفياتي، وتحولت التساؤلات إلى حملة كبرى على الاتحاد السوفياتي أقل بقليل من الحملة على «دول العدوان» أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية، ولكنها كانت حملة قاسية على كُلّ حال.

بل إن عامة الناس كانوا لا يستغربون موقف «دول العدوان»، فإن عداءها للأمة العربية معروف، ولكن العجيب أن يتخذ الاتحاد السوفياتي، وهو الصديق، موقفاً بارداً جامداً، والصداقة دافئة متحركة. وهكذا كان تعليل الجماهير.

وما من شكّ في أن بعض الأجهزة العربية بعدائها «للروس» مثل السعودية، كانت تغذي الحملة ضدّ الاتحاد السوفياتي، ولكن الجماهير العربية في الدول «التقدمية» كانت تعبّر عن استيائها من موقف الاتحاد السوفياتي بكل صدق وبراءة.. ومن غير إثارة ولا دعاية.

وتحولت حملة التنديد والاستياء إلى تحرش بالروس وبالمؤسسات السوفياتية في عدد من الدول العربية.. فقد قامت تظاهرات تجاهر باستنكار موقف الاتحاد السوفياتي، وتعرّض الرعايا السوفيات للإهانة، كما تعرّض أجانب من رعايا دول

أخرى، ظناً بأنهم من السوفيات.. وقضت سلطات الأمن الوطنية أياماً عصيبة في حماية السفارات السوفياتية ورعاياها.

ولا أريد أن أسرد الوقائع والتواريخ، فهي كثيرة. ويكفي أن نعلم أن دولة مثل موريتانيا، في أقصى جنوب المغرب الأقصى، قد شهدت عاصمتها نواكشوط تظاهرة ضخة غاضبة كانت تحاول اقتحام السفارة السوفياتية، والمتظاهرون يهتفون بسقوط روسيا، وهم يحملون اللافتات الوطنية، وصوراً كبيرة للرئيس عبد الناصر (١١/ ٦/ ١٩٦٧).

ولقد كانت هذه المشاعر طبيعية في الوطن العربي.. بل إنها كانت عفوية انطلقت من غير تحريض ولا إثارة.. وكانت الهزيمة بكل مقدماتها ونتائجها هي الحافز الأول والأخير.

وإذا كانت هذه العفوية محتاجة إلى دليل، فإننا نستطيع أن نجده في السيل المتدفق من النكات «والقفشات» التي انطلقت على أفواه المصريين وقد عبّروا عن أوجاعهم بضحكاتهم. وما زالت الأحياء الشعبية تردّد هذه القفشات إلى يومنا هذا.

ومما غذّى هذه الحملة أن الدوائر الاستعمارية كانت تغمرها موجة من الفرح الأكبر تمجيداً لانتصار إسرائيل «الأسطوري».. فقد اعتبرته نصراً لها وهزيمة للاتحاد السوفياتي، حتّى إنّ مراسل جريدة **كريستشين سيانس مونيتر** في واشنطن قال في رسالة مطوّلة عن حرب الأيام الستة: «إن الرئيس جونسون قد خرج الرابح السياسي من أزمة الشرق الأوسط، فقد حال دون انتشار الحرب، ولم تقع مجابهة بين الدول النووية، وانتصرت إسرائيل ربيبة أمريكا انتصاراً رائعاً، وأصيب الاتحاد السوفياتي بالذل والهوان» (١٠/ ٦/ ١٩٦٧).

وكان على الدول العربية، مصر وسوريا والعراق بوجه خاص، أن تزحزح هذا الكابوس عن صدر الاتحاد السوفياتي، فبدأت الصحف العربية تشيد بالاتحاد السوفياتي، وتشرح مواقفه السابقة، وتشدّ أنظار الجماهير العربية إلى المجهود الكبير الذي سيقدمه الاتحاد السوفياتي على الصعيدين العسكري والسياسي.

وعاد استنكار الجماهير لموقف السوفيات إلى حدته بعد أن كشفت وكالات الأنباء أن اتصالاً مباشراً على الخطّ الساخن بين البيت الأبيض والكرملين قد تمّ بين الرئيس جونسون وقادة الاتحاد السوفياتي بعد ساعات قلائل من نشوب القتال في الشرق الأوسط، وأن الجانبين قد اتفقا على حصر النزاع في أضيق نطاق ممكن. ثُمّ ما أعلنته وكالات الأنباء بعد ثلاثة أيام من أن الاتصال المباشر للمرة الثانية قد تمّ بعد وقف إطلاق النار الذي أصدره مجلس الأمن في التاسع من حزيران/ يونيو.

وعادت التظاهرات من جديد في عدة أقطار عربية، وكان أشدها في الجزائر حيثُ قامت مسيرات شعبية تستنكر موقف الاتحاد السوفياتي، مما دعا الحكومة الجزائرية إلى اتخاذ احتياطات أمن مشددة لحماية السفارة السوفياتية، ولم يجد الرئيس الجزائري العقيد هواري بومدين مندوحة من إصدار بيان أذيع في الراديو والتلفزيون دعا فيه الدول الشيوعية إلى «اتخاذ موقف حاسم، وإلى تحمّل مسؤولياتها أمام العالم العربي» (١٠/ ٦/ ١٩٦٧).

ولم يكن للدول العربية خيار آخر.. لم يكن لها بدُّ في صداقة الاتحاد السوفياتي.. فقد نزلت بالأمة العربية هزيمة كبرى، وإن كانت قد سميت «بالنكسة»، وألحقت خسائر فادحة بالجيشين المصري والسوري، في السلاح، والمعدات، والرجال.. وخسارة الطيارين لا تقل خطراً عن خسارة الطائرات.

كذلك لم يكن أمام الاتحاد السوفياتي، دولياً وعربياً، وحتى أمام الشعب السوفياتي، إلا أن يلتزم بإعادة بناء الجيشين المصري والسوري، واستئناف تقديم العون الاقتصادي والسياسي للقاهرة ودمشق.

وأخذت الصحف العربية، وجريدة **الأهرام** بصورة خاصة، تنشر بالعناوين المختلفة الألوان عن حركة النقل الجوية والبحرية التي تحمل مختلف الأسلحة إلى مصر وسوريا.. وتوحي بين السطور أن المعركة مقبلة، مقبلة، بعد بضعة أسابيع، أو بضعة أشهر على الأكثر، وأن الفضل في ذلك يرجع إلى الاتحاد السوفياتي.

وأذاع د. نور الدين الأتاسي رئيس الدولة السورية بياناً تناول فيه ظروف حرب الأيام الستة، وأثنى على موقف الاتحاد السوفياتي خلال المعركة مع إسرائيل (١٣/ ٥/ ١٩٦٧).

وخرجت من موسكو الصيحة دفاعاً عن موسكو، ولكن بتوجيه الاتهام إلى الجهات العربية، فقد كتب الصحافيان السوفياتيان بيلاييف وبرياكوف: «إن أهم أسباب نكسة مصر العسكرية ترجع إلى أن القوات المصرية فيها عدد كبير من طراز رجال الأعمال، وإن القوة الجوية هي معقل الطبقة الأرستقراطية.. وإن الطيران المصري هو السلاح المحبب لأبناء العائلات الغنية» (٣٠/ ٦/ ١٩٦٧).

ومع هذا، فقد ظلت أصوات كثيرة في الوطن العرب تبدي استياءها من موقف الاتحاد السوفياتي.. ومن ذلك أن أحد أعضاء الجمعية التأسيسية في السودان طالب بقطع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي معلناً «أن موقف موسكو أثناء الحرب بين العرب وإسرائيل ليس أقل خطراً بنتائجه من موقف بريطانيا وأمريكا» (١٣/ ٦/ ١٩٦٧).

ولكن ما هو أهم من التنديد أن الأمة العربية قد هالها أن تهزم على تلك الصورة المروّعة في حرب خاطفة صاعقة، وهبّت الجماهير تطالب باستئناف القتال.. ولكن..

ولكن، أنَّى للدول العربية أن تستأنف القتال وقد تحطم أكبر جيوشها، الجيش المصري، في سيناء وفقد معظم معداته، مضافاً إلى عشرين ألف شهيد، مائتان وخمسون منهم سقطوا أثناء القتال، والباقون أثناء الانسحاب. وهذه شريعة الحرب: المقاتلون أكثر حظاً في الحياة، والمنسحبون أكثر تعرضاً للموت.

وكان لا بُدَّ من أن تُقرع أبواب موسكو، وتم اتصال تلفوني بين القاهرة والجزائر، سافر على إثره وبصورة مفاجئة الرئيس الجزائري هواري بومدين للاجتماع بالزعماء السوفيات، لمطالبتهم بتقديم معونات عسكرية عاجلة إلى مصر وسوريا (١١/ ٦/ ١٩٦٧).

ووصل الرئيس بومدين إلى موسكو في زيارة قصيرة امتدت نهارين وليلة، ثُمّ عاد إلى الجزائر.. وجاء وزير خارجيته عبد العزيز بوتفليقة إلى القاهرة ليطلع الرئيس عبد الناصر على ما دار بين الرئيس الجزائري والزعماء السوفيات (١٤/ ٦/ ١٩٦٧).

وحدثني الوزير الجزائري، وأنا أزوره في السفارة الجزائرية في القاهرة، أن الرئيس بومدين قد كاشف القادة السوفيات بمشاعر الاستياء التي تعم الوطن العربي إزاء موسكو.. وأن مصلحة الصداقة العربية ـ الروسية تفرض أن تكون موسكو أكثر تصلباً في تأييدها للدول العربية.. وأن القادة السوفيات قد التزموا بصورة قاطعة بأن يقدموا لمصر وسوريا جميع الأسلحة المطلوبة لإعادة بناء جيشيهما، وللعمل بصورة حازمة على إزالة آثار العدوان.. وكان على المستقبل وحده أن يكشف صدق هذا الالتزام.. وهذا الكلام.

والواقع أن الاتحاد السوفياتي قد أدرك آثار الهزيمة العربية على المصالح السوفياتية في الشرق الأوسط.. وأدرك معها منذُ البداية أنّه يتحمل جانباً من المسؤولية في هذه الهزيمة.

ففي الثامن من شهر حزيران/ يونيو، حين كانت القوات الإسرائيلية تخترق الجبهة السورية، عقد اجتماع قمة سري في موسكو اشتركت فيه ثماني دول شيوعية في أوروبا الشرقية، ومنها يوغوسلافيا، وقد تقرر في هذا الاجتماع تعويض مصر وسوريا عن خسائرهما في الطيران بطائرات ميغ من نوع جديد ترسل عن طريق يوغوسلافيا. وهذا ما نقله إليّ السفير السوفياتي في القاهرة.

ولكن ما هو أهم من ذلك، كما جاء في تقرير أحد السفراء العرب في

موسكو، «أن المارشال غريشكو وزير الدفاع السوفياتي ذكر في الاجتماع أن سلفه المارشال ماينوفسكي الذي توفي في شهر آذار/ مارس كان متأثراً بتقارير مغلوطة عن ميزان القوى في الشرق الأوسط بين إسرائيل والعرب، وأن ذلك حمله على تحديد نوع معيّن وعدد معيّن من الطائرات التي وافق على إرسالها إلى الدول العربية.. وأن ذلك كان من أسباب الهزيمة العربية..». ويضيف التقرير العربي أن هذا الكلام قد يكون من «باب إلقاء التبعة على الموتى في سبيل الدفاع عن الأحياء».

وكان من الأحداث التي أحزنت المواطن العربي في ذلك اليوم (٩ حزيران/ يونيو) أن الاتحاد السوفياتي قد قرر قطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل، فقد أذاعت وكالة تاس أن وزارة الخارجية السوفياتية سلمت إلى سفير إسرائيل مذكرة تقول فيها: «إن القوات الإسرائيلية تجاهلت قرار مجلس الأمن ولا تزال تستولي على الأراضي السورية وتواصل تقدمها باتجاه دمشق، وإن الاتحاد السوفياتي سيتخذ بالاشتراك مع الدول الأخرى المحبة للسلام عقوبات ضدّ إسرائيل، وإن الحكومة السوفياتية تعلن أنّه بالنظر إلى استمرار عدوان إسرائيل على البلدان العربية فإنها اتخذت قراراً بقطع العلاقات الدبلوماسية بإسرائيل»، وتبعت في هذا القرار دول أوروبا الشرقية.

لقد كان هذا الحدث محزناً.. لقد بدا فيه تماماً أن إسرائيل قد وصلت إلى مرتبة دولة تستحق فيها أن يقاطعها الاتحاد السوفياتي ومعه دول أوروبا الشرقية.. وكان محزناً حقاً لأن الاتحاد السوفياتي لم يعد كما كان في عهد خروتشوف أيام العدوان الثلاثي على مصر، قادراً أو راغباً في التهديد والوعيد لحمل أمريكا لتحمل بالتالي إسرائيل على الجلاء عن الأراضي المصرية.

ولكن قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل لم يثر اهتمام الرأي العام العربي.. وكان على الاتحاد السوفياتي أن يتخذ خطوة ما تصون ماء وجهه أمام الأمة العربية، بل أمام شعوب الاتحاد السوفياتي بذاتها.

وما عسى أن تكون هذه الخطوة؟ الحرب.. وهذه مستبعدة لسببين لأن الاتحاد السوفياتي لا يرغب فيها، ولأن الدول العربية غير قادرة عليها، ولا مستعدة لها، وقد خرجت بالأمس مكسّرة محطمة.. وهكذا كان تعليل الاتحاد السوفياتي، وهكذا كان موقفه.

ولم يبق أمام الاتحاد السوفياتي إلا الأمم المتحدة، فهي الملهاة الدولية الكبرى التي تشغل الرأي العام.. وبعث أندريه غروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتي رسالة إلى يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة يقترح فيها «عقد جلسة طارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة لبحث الوضع في الشرق الأوسط.. ولأن إسرائيل تتحدى

بصورة فاضحة قرارات مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، واستولت على مناطق أخرى من أراضي الجمهورية العربية المتحدة والأردن وسوريا.. وأن الحكومة السوفياتية ترى من الضروري أن تنظر الجمعية العامة في الوضع الذي نشأ، وأن توافق على قرار يؤدي إلى تصفية نتائج العدوان، وأن تنسحب القوات الإسرائيلية إلى ما وراء خطوط الهدنة» (١٢/ ٦/ ١٩٦٧)

وأراد الوزير السوفياتي أن يعطي طابعاً خاصاً للاجتماع الطارئ الذي يقترحه، فذكر في ختام رسالته: «أن الوفد السوفياتي إلى الجمعية العامة يضم كبار رجال الدولة في الاتحاد السوفياتي». وكانت هذه إشارة إلى أن الرئيس كوسيغن سيرأس الوفد السوفياتي.

وواضح أن هذا الطلب لم يكن أكثر من تظاهرة سياسية، حتّى ولو اقترن بالنجاح في النهاية، فقد فشل الاتحاد السوفياتي قبل ذلك بأسبوع واحد وهو يبذل قصارى جهده في مجلس الأمن لاستصدار قرار يدعو القوات الإسرائيلية إلى العودة إلى خطوط الهدنة.

وكان ذلك الفشل، من غير شكّ، يرجع إلى صلابة أمريكا في تأييد إسرائيل، ورخاوة الاتحاد السوفياتي في تأييد العرب، ذلك أن القيادة الثلاثية الجديدة في الاتحاد السوفياتي ـ بودغورني، بريجنيف، كوسيغن ـ قد اختطت لنفسها سياسة جديدة مع الولايات المتحدة تقوم على أساس الملاينة، بدلاً من سياسة المخاشنة التي كان يتبعها الرئيس نيكيتا خروتشوف حين كان على رأس الحكم.

وكان من سوء حظّ القضية الفلسطينية أن خروتشوف كان غائباً عن مسرح السياسة السوفياتية في حرب حزيران/ يونيو.. وعادت إلى ذاكرة الجماهير العربية تهديداته المرعبة أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ حين أنذر بأن الصواريخ الروسية ستقصف شوارع لندن إذا لم تنسحب الدول المعتدية عن الأراضي المصرية.

وأبرق يوثانت بالاقتراح السوفياتي بعقد الدورة الطارئة إلى الدول الأعضاء.. فلم يعارض الاقتراح إلا الولايات المتحدة وإسرائيل.

وتقرر أن يكون موعد الدورة الطارئة في اليوم السابع عشر من حزيران/ يونيو.. وكان هذا اليوم بالذات هو موعد اجتماع عربي لوزراء الخارجية في الكويت للبحث في العدوان الإسرائيلي، والخطة التي يجب اتباعها «لإزالة آثار العدوان..»، وهو الشعار الجديد للأمة العربية بعد الهزيمة.

ولست أريد أن أقف طويلاً أمام هذا الاجتماع العربي، فقد تحدثت عنه في

كتابي **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء**، ووزراء خارجية الدول العربية لم يعطوا لذلك الاجتماع أكثر من نصف يوم ونصف ليلة، هرولوا بعدها إلى الأمم المتحدة ليشتركوا في الدورة الطارئة.

وكان اجتماع وزراء الخارجية أول لقاء عربي بعد الكارثة، وقد ساده جو الهزيمة بدلاً من العزيمة.. وكان شعار هذا الاجتماع «السياسة الإيجابية».

وكان المنجي سليم رئيس وفد تونس هو قطب السياسة الإيجابية، وتتلخص فلسفته هذه كما شرحها في الاجتماع بأن على الدول العربية أن تتجنب الحديث عن تحرير فلسطين والتصدّي لإسرائيل. وأن تخاطب العالم الدولي بمنطق التسوية السلمية، ومبادئ التعايش السلمي. وكان يعاونه في هذا الاتجاه مندوبو المغرب والسعودية والأردن وليبيا[1].

وكان المنجي، وهو يشرح أسلوبه في معالجة القضية الفلسطينية ينظر إليّ كمن يستدرجني إلى المبارزة.. ويرمي قفازه في وجهي.

ولم أتخلف عن التحدي، فاستأذنت بالكلام وقلت:

ـ «لقد افتتحت الدورة الطارئة للجمعية العمومية للأمم المتحدة في هذا اليوم، فماذا تأمل منها؟ هل تشرح لنا بالتحديد؟».

قال: «القضية واضحة وبسيطة.. ونحن في هذه المرحلة لا نبحث قضية فلسطين.. نحصر الأمر في العدوان الإسرائيلي على أراضي ثلاث دول عربية هي أعضاء في الأمم المتحدة. لقد وقع عليها عدوان واحتلت أراضيها. نطالب الأمم المتحدة بإزالة العدوان. والميثاق صريح في هذا الموضوع». وأخذ المنجي سليم يقلب أوراق ميثاق الأمم المتحدة وهو يقرأ هذه المادة وتلك الفقرة.

قلت: «هل تظن أن الأمر بهذه البساطة؟ أنت تعالج القضية كما لو كنت تترافع أمام إحدى المحاكم في تونس، وتطالب المعتدي بإخلاء أرض جاره التي اعتدى عليها. كلنا نعرف الأمم المتحدة جيداً. ولا أتوقع لهذا الاجتماع الطارئ أي نجاح. وإذا صدر أي قرار لصالحنا، فلن تذعن إسرائيل. ومع هذا، فقد أصدر مجلس الأمن أول من أمس (١٤ حزيران/ يونيو) قراراً رقمه ٢٣٧/ ١٩٦٧ (وأخذت أقرأ من أوراقي) يدعو «حكومة إسرائيل إلى تأمين سلامة وخير وأمن سكان المناطق التي كانت مسرحاً للعلميات الحربية، وتسهيل عودة السكان الذين هربوا من هذه المناطق منذُ نشوب

(١) قبل ثورة العقيد معمر القذافي.

العمليات الحربية». واستأنفت حديثي قائلاً: «ونستطيع أن نضم هذا القرار إلى عشرين قراراً سابقاً صدرت عن الأمم المتحدة بعودة اللاجئين، ولم يعد لاجئ واحد.

قال: «وماذا تقترح إذاً؟».

قلت: «مع احترامي الشديد لاجتماع وزراء الخارجية العرب، فإني ألاحظ أن حقائبكم جاهزة للسفر إلى نيويورك لحضور الاجتماع الطارئ. لقد جئتم إلى الكويت لتكون «محطة ترانزيت» لتسافروا منها إلى الأمم المتحدة. لقد أصبحت عقولكم في نيويورك، ويجب أن تبقى عقولنا في الوطن».

وأراد محمّد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان أن يحسم هذا الحوار فقال: «وما هو اقتراحك بالتحديد؟».

قلت: «اقتراحي أن يستمرّ اجتماعنا هذا أسبوعاً واحداً ندرس فيه خطة شاملة للتصدي للعدوان الإسرائيلي، ثُمّ تذهبون بعدها إلى الأمم المتحدة حتّى تخطبوا من مركز القوة. ولكنكم ذاهبون الآن من غير خطة سوى إلقاء الخطب في الأمم المتحدة».

فأجاب الرئيس السوداني: «والله، هذا الكلام صحيح. ولكن يظهر أن الوزراء أصبحوا عازمين على السفر».

وتدخل عبد الخالق حسونة وقال: «يمكن أن نستأنف اجتماعنا في نيويورك».

وقال وزيرا المغرب وليبيا: «اجتماع الأمم المتحدة مهم جداً. وقد ذكرت الأنباء أن الرئيس ألكسي كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي قد وصل إلى نيويورك للاشتراك في مناقشات الدورة الطارئة على رأس وفد كبير يضم خمسين عضواً».

وأقفل باب المناقشة.. وانتهى اجتماع وزراء الخارجية العرب دون أن يناقشوا الموضوع الذي اجتمعوا من أجله، وهو البحث في إزالة آثار العدوان.. وسارعوا إلى السفر إلى نيويورك ليتعاقب المهزومون على منبر الأمم المتحدة وألسنتهم داوية، ورؤوسهم عالية.

وكان من آيات «هرولتهم» أن الطائرة التي كانت تقل وزراء الخارجية العرب أجبرت على الهبوط في أحد مطارات تركيا لأنها لم تبلغ السلطات التركية مسبقاً بأنها ستحلق في الأجواء التركية، وطلب قائد الطائرة السماح له بالإقلاع فكان ذلك.. وكذلك يكون حال المغلوب على الأرض وفي الجو.

وانعقدت الدورة الطارئة في موعدها المحدد (١٧/ ٦/ ١٩٦٧) وازدحمت قاعات الأمم المتحدة برؤساء الوفود، وكان بينهم عدد كبير من رؤساء الحكومات ووزراء

الخارجية، ومنهم وزراء الخارجية العرب الذين لا تجمعهم إلا الطائرة الواحدة نفسها.

وكان أليكسي كوسيغن على رأس الوفد السوفياتي، كما كان د. نور الدين الأتاسي رئيس الدولة السوري على رأس الوفد السوري، والملك حسين على رأس الوفد الأردني، فقد وصلا إلى نيويورك ليعرضا القضية باسم الأمة العربية، وقد التقيا لأول مرة تحت قبة الأمم المتحدة.

ولم تكد الجمعية العامة تفرغ من إجراءاتها التمهيدية لعقد دورتها الطارئة حتّى أطلقت إسرائيل «قنبلتها السياسية» قبل أن يخطب أي رئيس أو وزير أو سفير. فقد أعلن الوزير الإسرائيلي أبا إبيان من تل أبيب، وهو يركب الطائرة إلى نيويورك إلى مراسل جريدة **جيروسالم بوست** الإسرائيلية: «أن إسرائيل لن تعود إلى خطوط الهدنة القديمة حتّى لو صوّتت الجمعية العامة ضدّ إسرائيل بمائة وواحد وعشرين صوتاً.. وأن الدول الكبرى قد أخطرت بهذا الموقف» (١٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ولم يكن هذا الموقف الإسرائيلي بعيداً عن الموقف الدولي.. ذلك أن الأمم المتحدة إنما هي ملهى نهاري للدول الأعضاء، ويُسمح فيه للسياح أن يتفرجوا عند إلقاء الخطب.. ولكن الدول العربية وحدها هي التي لا تدرك هذه الحقيقة إدراكاً جاداً ومسؤولاً.

وتحت هذا الإنذار الإسرائيلي بدأت الأمم المتحدة مناقشتها.. وكان الرئيس السوفياتي أول المتحدثين، فقرأ خطاباً استغرق إلقاؤه قرابة ساعة، فاتهم إسرائيل بالعدوان، وأن القوات الإسرائيلية لا تزال تواصل احتلالها للأراضي العربية.. وأنه إذا لم تتخذ إجراءات عاجلة لإزالة آثار العدوان فإن الحرب قد تتجدد في أية لحظة.. وأن إسرائيل هي المسؤولة وحدها عن الصراع الأخير، وطالب بسحب القوات الإسرائيلية فوراً، والتعويض عن الأضرار التي لحقت بمصر وسوريا والأردن، وإعادة جميع الممتلكات والموجودات التي استولت عليها.. ثُمّ اتهم كوسيغن الولايات المتحدة وبريطانيا بتشجيع إسرائيل على العدوان.. وأن أي محاولة لتثبيت العدوان سيكون مصيرها الفشل، وسترتد هذه المحاولات ضدّ إسرائيل وشعبها على المدى الطويل.. وأن الاتحاد السوفياتي لا يمكن أن يعترف بالاحتلال الإسرائيلي.

وما إن فرغ الرئيس السوفياتي من خطابه حتّى تصدّى له الوزير الإسرائيلي أبا إيبان، فهاجم الاتحاد السوفياتي وأعلن أن العودة بالأمور إلى ما كانت عليه قبل الخامس من حزيران/ يونيو غير مقبولة بالمرة.

وتبعه «التابعان» المندوب الأمريكي اليهودي، غولدبرغ، والمندوب البريطاني، فأنكرا الاتهام الذي وجهة كوسيغن إلى حكومتيهما.

ولم يحضر الرئيس جونسون مناقشات الأمم المتحدة، ولكنه اختار في اليوم نفسه الذي خطب فيه كوسيغن أن يتحدث في واشنطن داعياً العرب وإسرائيل إلى معالجة مشكلة الشرق الوسط «بتعقل وإيجاد سلام مستقر»، وأكد أن العودة إلى الوضع الذي كان سائداً في الرابع من حزيران/ يونيو لا يشكل علاجاً للسلام وإنما يشكل دافعاً جديداً لتجدد القتال، «وأن أطراف النزاع يجب أن يتوصلوا إلى تسوية المشكلة بأنفسهم»، كلام إسرائيل الحرف بالحرف.

وهكذا، فقد كان كلام جونسون ردّاً حاسماً على خطاب ألكسي كوسيغن ومن غير منبر الأمم المتحدة، كما أنّه تأييد كامل لإسرائيل، ومن كان له أذنان في الأمم المتحدة فليسمع، وليشرب من البحر حتّى يشبع.

ودارت المحادثات وراء الكواليس بين الوزير السوفياتي غروميكو والوزير الأمريكي راسك. وتم الاتفاق على أن يجتمع الرئيسان الأمريكي والسوفياتي لتبادل الرأي.

وتساءل مسؤول عربي كبير عن هذا الاجتماع المقترح في تقريره الذي بعثه إلى عاصمة عربية صديقة للاتحاد السوفياتي:

«ولم لا؟ . . فقد كان خطاب كوسيغن في غاية الاعتدال والاتزان، ثُمّ ألم ينجح في الضغط عَلى الرئيس عبد الناصر بألا يكون البادئ بالعدوان؟ أولَمْ يساهم في حصر النزاع العربي ـ الإسرائيلي في نطاقه المحلي، كما يقضي الوفاق الأمريكي ـ السوفياتي؟».

وتم اللقاء بين الرئيسين الأمريكي والسوفياتي في «غلاسبورو»، ولم يرشح الكثير إلى الصحف عن هذا اللقاء سوى ما صرح به جورج كريستيان الناطق الصحافي بلسان البيت الأبيض من «أن الطرفين متفقان على أن إسرائيل موجودة كدولة، ويجب أن تبقى، وأن الرئيسين تبادلا وجهات النظر حول النزاع العربي ـ الإسرائيلي». (٢٤/ ٦/ ١٩٦٧).

ثُمّ جاء اللقاء الثاني والأخير بين الرئيسين الأمريكي والسوفياتي، وكُلّ ما قالته الصحف الأمريكية أنهما تباحثا بشأن الشرق الأوسط ومشكلة فييتنام والمعاهدة المقترحة لحظر انتشار الأسلحة النووية، وأنه لا يتوقع أن تحرز المحادثات أي نجاح بصدد الشرق الأوسط (٢٥/ ٦/ ١٩٦٧).

وعقد الرئيس السوفياتي كوسيغن مؤتمراً صحافياً في مقر الأمم المتحدة، ردّد فيه فحوى خطابه الذي ألقاه في الأمم المتحدة بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة، «وأن محادثاته مع الرئيس الأمريكي جونسون لن تؤثر على

علاقات الاتحاد السوفياتي الطيبة مع الدول العربية». وكما جاء في تقرير المسؤول العربي الكبير إلى حكومته، فإن البيانات التي أدلى بها الرئيس كوسيغن في مؤتمره الصحافي «كانت فاترة كالخطاب الذي ألقاه على الجمعية العامة، كما أنّه لم يثر اهتمام الصحافة العالمية، وقد عاد الرئيس السوفياتي إلى موسكو كما جاء من دون أن يشعر أحد في الأمم المتحدة أنهم في دورة طارئة».

وقد اجتمع الرئيس كوسيغن أثناء وجوده في نيويورك بعدد من رؤساء الوفود العربية، فقد التقى بالرئيس السوري د. نور الدين الأتاسي، وبالدكتور محمود فوزي مساعد رئيس الجمهورية العربية المتحدة، وبرئيس وزراء السودان محمّد أحمد محجوب، وتحدث إليهم طويلاً عن موقف الاتحاد السوفياتي وعن اتصالاته بالرئيس جونسون.

ووصل تقرير آخر من المسؤول العربي الكبير إلى حكومته يقول فيه: «اجتمعت بالرئيس السوفياتي السيد ألكسي كوسيغن مرتين قبل محادثاته مع الرئيس جونسون وبعدها، ولا يخرج ما قاله لي عما قاله في خطابه في الأمم المتحدة.. ولا عما نعرفه عن موقف الولايات المتحدة.. لقد أكد موقف التأييد لنا، كما أكد أن الولايات المتحدة تصرّ على المفاوضات المباشرة بيننا وبين إسرائيل، والوصول إلى تسوية سلمية تنتهي بمعاهدة سلام. أما خطاب الرئيس كوسيغن، فقد كان عادياً ولم يترك أثراً قوياً في نفوس الأعضاء، وكانوا يتوقعون من الاتحاد السوفياتي، وهو الذي اقترح انعقاد الدورة الطارئة، موقفاً أكثر صلابة.. ولقد سألت الرئيس كوسيغن عن انطباعاته العامة فقال: «يجب أن نستمر بالضغط الدولي على الولايات المتحدة، وأنه ليس أمامنا في الوقت الحاضر إلا الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وإن المفاوضات مع إسرائيل بشكل أو آخر للوصول إلى تسوية سلمية متفق عليها أمر لا مفرّ منه إن لم يكن اليوم فغداً، وإن أحداً لا يمكن أن يجازف في حرب نووية من أجل مشكلة الشرق الأوسط.. وأنتم تعلمون أن هذا هو موقفنا في فييتنام، نؤيدها ولكن مع تجنب الاصطدام العالمي.. هذا هو موقف الأصدقاء، أما موقف الأعداء فهو معروف لا يحتاج إلى إيضاح، والرئيس جونسون لا يخفي شيئاً من سياسته، فهو يتحدث بصراحة في خطبه ومؤتمراته الصحافية. ولم يبق لنا، بعد الله، إلا الاعتماد على النفس والعمل العربي الموحّد».

ولقد جاء هذا التقرير إلى العاصمة العربية ليؤكد من جديد الصورة التي كنت أتخيلها عما يجري في الأمم المتحدة في هذه الدورة الطارئة، فقد عشت فيها سنين طويلة من عُمري، وما أطيب الأمم المتحدة للذين يريدون الترفيه لبضعة أسابيع في العام.

وكذلك، فإن خطاب الرئيس كوسيغن لم يعجب عناصر قيادية في الحزب الشيوعي السوفياتي، فقد كشف تقرير أرسله سفير عربي إلى حكومته، وهو معروف

بعلاقته الوثيقة بالأوساط السوفياتية، يقول: «لقد أصدرنا بياناً باسم جميع البعثات العربية في موسكو نشكر فيه الاتحاد السوفياتي على تأييده لقضيتنا، وقد أعربت دوائر وزارة الخارجية السوفياتية عن شكرها لنا، ولكنها كانت تريد بياناً أقوى، ويظهر أن التململ يسود أوساط الحزب الشيوعي، وعسكريين وسياسيين، بسبب النكسة.. وحينما عاد الرئيس كوسيغن من نيويورك قدم تقريراً عن مباحثاته مع الرئيس لندن جونسون، وعلمت أنّه جرت مناقشة حادة حول هذا التقرير، فقد انتقد عدد من الأعضاء ضعف القيادة في معالجة الموقف السياسي، وكنت ذكرت لكم في تقريري السابق أن هذه الحملة بدأت منذُ مدة، وأن القائمين بها، وهم الذين أصبحوا يعرفون همساً بصقور الحرب، يريدون أن يكون الاتحاد السوفياتي أشدّ تأييداً للعرب.. وكان من نتائج هذا الخلاف أن نيقولاي بغورتشيف أمين لجنة الحزب الشيوعي في موسكو قد أقصي عن منصبه، ولا نستبعد إقصاء غيره من الذين يحملون مثل أفكاره».

وجاءتني التقارير من مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في مناقشات الأمم المتحدة، ومعها محاضر الجلسات التي تتضمن خطب الوفود ومشروعات القرارات، وخطب رؤساء الوفود شارحين موقفهم من مشكلة الشرق الأوسط والنزاع العربي ـ الإسرائيلي، وقرأت ما كنت ألفت سماعه من التغني بالمبادئ، ونصوص ميثاق الأمم المتحدة، واحترام السيادة، واستنكار العدوان، والحفاظ على كرامة المنظمة العالمية وهيبتها، وغير ذلك من الصياغات والعبارات التي تكررها الوفود في كُلّ قضية دولية، بالحق والباطل على السواء.

ولقد انبرت دول صديقة للدفاع عن الموقف العربي، منها دول إسلامية، وآسيوية وأفريقية وأوروبية، ولكن سلطان الولايات المتحدة وأنصارها وأتباعها كان على الدوام إلى جانب إسرائيل من غير خفاء.

ومما ساعد على ذلك أن الوزير الإسرائيلي أبا إيبان كان لا يفتر عن مهاجمة الاتحاد السوفياتي حتّى يبدو أمام الرأي العام أنّه جدير بعطف «العالم الحرّ»، فهو الذي يتصدى «للشيوعية» في الشرق الأوسط، وهو «هدف» الاتحاد السوفياتي في المنطقة. وما هو أهم من ذلك، فإنه هو الذي انتصر على الاتحاد السوفياتي، وهو وحده الذي يستطيع أن يحمي مصالح «العالم الحرّ» في الشرق الأوسط، وهو وحده يستطيع أن «يؤدب» أي حاكم عربي يرفع رأسه.

وقد وقعت مسرحيات دولية لتؤكد هذه المعاني في أذهان الرأي العام، منها: أنّه عندما بدأ الوزير الإسرائيلي أبا إيبان يلقي خطابه الرئيسي انسحب وزير الخارجية السوفياتي أندريه غروميكو ومعه مندوبو دول أوروبا الشرقية (٢٠/ ٦/ ١٩٦٧).

وكان الرئيس الأتاسي أول المتكلمين العرب، وبعد أن شرح العدوان الإسرائيلي قال: «يجب على الأمم المتحدة ألا تلقي بالاً لنداءات السلام التي تتسم بطابع النفاق والتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من طابع الروتين الإسرائيلي. . إن الأمة العربية دفعت ثمن احترامها للرأي العام العالمي من دماء أبنائها ودمار مدنها وقراها واستيلاء المعتدين على جزء من الوطن العربي. . إن إسرائيل لم تكن قد احتلت أي نقطة من الأراضي السورية عندما قبلت سوريا قرار وقف إطلاق النار. إن الغزو الإسرائيلي اقترن بمناورات متعمدة قام بها المندوبان الأمريكي والبريطاني في مجلس الأمن لتأخير أعماله بحيث يفسح المجال لإسرائيل لاحتلال أراض سورية. وإن غاية الاستعمار والصهيونية إبادة العرب. إن الكفاح العربي جزء لا يتجزأ من كفاح العالم الثالث ضدّ الإمبريالية والاستعمار». (٢٠/ ٦/ ١٩٦٧).

وتكلم د. فوزي رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة فقال: «إن المعالجة الأمريكية للموقف غير نزيهة وغير عادلة وغير مقبولة. إن الأساطيل الأمريكية والبريطانية وقفت إلى جانب إسرائيل. إن إسرائيل قامت بالعدوان حينما كان مجلس الأمن يبحث الأمر وبينما كان مسؤولون مصريون سيصلون إلى واشنطن. إن إسرائيل ارتكبت فظائع لا تصدق، وقصفت بقنابل النابالم المدن والقرى، وتركت جنوداً جرحى ومدنيين يهيمون على وجوههم من دون طعام أو ماء في صحراء سيناء. إن أكثر سكان العالم يؤيدوننا. عندما فجرت إسرائيل الشرّ في الخامس من حزيران/ يونيو لم تكن الدول العربية قد أتمت خطتها الدفاعية» (٢١/ ٦/ ١٩٦٧).

وفي اليوم نفسه تكلم رئيس وزراء السودان محمّد أحمد محجوب فقال: «إن الجمعية العامة منعقدة لإصدار حكم على أحد أعضائها بتهمة القيام بعدوان طائش عن سابق إصرار وتصميم. . إن إسرائيل لقيت تأييداً مادياً ومعنوياً من الدول الغربية، وبخاصة بريطانيا وأمريكا اللتين تحاولان تبرير العدوان. . وأنه ليس من العدل السماح للمعتدي بأن يملي شروطه، ونحن لا نطالب بأكثر من انسحاب القوات الإسرائيلية، ولا نقبل أقل من ذلك».

وخطب عبد العزيز سلام وزير خارجية اليمن، وأحمد بلافريج الممثل الشخصي لملك المغرب، ود. عدنان الباجه جي وزير خارجية العراق، ود. جورج حكيم وزير خارجية لبنان، والشيخ صباح الأحمد الصباح، ووزير خارجية تونس، ود. أحمد البشتي وزير خارجية ليبيا، والحبيب بورقيبة الابن وزير خارجية تونس، وعبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر. وكانت خطبهم تتأرجح من العنف إلى الاعتدال، إلى التوسل، وإلى التهالك. ولكن المغلوب في الميدان لا ينفعه في الأمم المتحدة أي كلام مهما كان لطيفاً أو عنيفاً.

وليس لنا أن ننسى أن الملك حسين كان في عداد الخطباء، فقال: «إن الغزاة الإسرائيليين استعملوا قنابل النابالم، وهدموا كثيراً من المدن والقرى الفلسطينية، وإن إسرائيل هي التي بدأت بالعدوان، وإن الأردن أطاع فوراً وبحسن نية قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، وإن السماح للمعتدي بالتمتع بثمار عدوانه هو عمل لاأخلاقي».

ولكن المصادفة التعيسة جاءت مع خطاب عمر السقاف وكيل وزارة الخارجية السعودية، فقد قال في سياق خطاب بالغ القوة والعنف إن ٦٠٠ مليون مسلم لن يخضعوا لسلطة المعتدين الصهيونيين. . وإن الخطوة الأولى أمام الأمم المتحدة هي إجبار إسرائيل على الانسحاب من المناطق المحتلة بما فيها مدينة القدس القديمة. . وإذا لم تفعل إسرائيل ذلك فإن المسلمين سيقومون بحرب مقدسة.

كانت مصادفة تعيسة حقاً. . ففي ذلك اليوم أصدرت إسرائيل قراراً بضم القدس القديمة إلى القدس الجديدة وأعلنتها العاصمة الموحّدة لإسرائيل. . لا تتخلى عنها أبداً. وكان يوماً آخر من أيام الهوان للعرب وللمسلمين، بفضل حكام العرب والمسلمين.

وجاءت صفعة أخرى للوفود العربية التي كانت تخوض معركتها الذليلة في الأمم المتحدة، فبينما كان الحوار جارياً على أشده بشأن مشروعات القرارات التي تدعو إلى انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المتحدة، جاء التحدّي من الجنرال موشي ديان في تل ابيب، فقد خطب في اجتماع شعبي كبير وأعلن أن إسرائيل «لن تتزحزح من المناطق المحتلة الواقعة بين القنطرة والقنيطرة حتّى يوقع العرب معاهدات سلم دائمة». وأعقبه بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل السابق، فقال: «إن إعادة بناء القدس الموحدة يجب أن يكون له مكان الصدارة في الجهد القومي، ويجب على إسرائيل أن تقوم بإسكان مائة ألف يهودي حول القدس القديمة».

وهكذا أقحمت إسرائيل موضوع القدس القديمة على الأمم المتحدة ولتقرر ما تشاء. وتطوع الوفد الباكستاني فقدم مشروع قرار يدعو إسرائيل «إلى إلغاء الإجراءات التي اتخذتها وإبقاء الوضع في القدس القديمة على حاله».

وانتهت الأمم المتحدة من المناقشة العامة، وجاء دور التصويت على مشروعات القرارات المعروضة، وبدأ رئيس الدورة الطارئة، مندوب أفغانستان، يعرض القرارات واحداً بعد واحد، ثُمّ يعلن بصوت منكسر سقوط المشروعات واحداً بعد واحد.

عرض المشروع السوفياتي أولاً، وهو يدعو الى:

١ ـ إدانة أعمال إسرائيل العدوانية.

٢ ـ مطالبة إسرائيل بسحب قواتها فوراً ومن دون إبطاء إلى ما وراء خطوط الهدنة.

٣ ـ مطالبة إسرائيل بدفع تعويضات عن الخسائر الناتجة من عدوانها.

٤ ـ مناشدة مجلس الأمن اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمحو آثار العدوان.

ولم يحز المشروع على الأكثرية اللازمة، وسقط.

ثُمّ عرض المشروع الألماني، وهو يدعو الى:

١ ـ إدانة العدوان الإسرائيلي الذي تمّ بمساعدة أمريكا وبريطانيا.

٢ ـ انسحاب القوات الإسرائيلية فوراً ومن دون إبطاء.

٣ ـ مطالبة إسرائيل بدفع تعويضات عن الخسائر الناتجة من عدوانها.

٤ ـ تأييد حقّ الجمهورية العربية المتحدة في السماح أو عدم السماح لسفن إسرائيل بالمرور في قناة السويس ومضيق تيران.

ولم يحز المشروع على الأكثرية المطلوبة، وسقط.

وعرض المشروع المقدم من دول عدم الانحياز، وهو يدعو الى:

١ ـ سحب إسرائيل قواتها فوراً إلى ما وراء مواقع ما قبل ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

٢ ـ مطالبة السكرتير العام بتعيين ممثل له لمساعدته في تنفيذ ذلك والاتصال بالأطراف المعنية.

٣ ـ مطالبة مجلس الأمن ببحث جميع نواحي الموقف في المنطقة وإيجاد طرق سلمية لحل جميع المشاكل.

ولم يحز المشروع الأكثرية اللازمة، وسقط.

وعرض المشروع المقدم من دول أمريكا اللاتينية، وهو يدعو الى:

١ ـ سحب إسرائيل قواتها من جميع المناطق المحتلة نتيجة للنزاع الأخير.

٢ ـ الطلب من الأطراف المتنازعة إنهاء حالة الحرب وإقامة تعايش سلمي.

٣ ـ مطالبة مجلس الأمن بتنفيذ الفقرة الأولى وحماية حرية المرور في المياه الدولية وإيجاد حلّ لمشكلة اللاجئين.

٤ ـ بحث إقامة نظام حكم دولي في مدينة القدس في دورة الجمعية العامة الثانية والعشرين.

ولم يحز المشروع الأكثرية اللازمة، وسقط.

سقطت هذه المشروعات كلها، وقد قرأت جميع التقارير التي وردت من نيويورك إلى وزارة الخارجية في الجمهورية العربية المتحدة، وهي تبيّن الأسباب القانونية والسياسية التي أدت إلى هذه الهزيمة. . وكلها أسباب وجيهة من غير شكّ. ولكن سبب الأسباب أن الهزيمة في الوطن العربي لا يمكن معها تحقيق انتصار في الأمم المتحدة، فإن الغلبة في الأمم المتحدة هي للمنتصرين، ولو كانوا على باطل، والهزيمة للمهزومين ولو كانوا على حقّ.

وبقيت قضية القدس، القدس الأسيرة، وأنا لا أفرّق بين القديمة والجديدة. وعرض مشروع القرار الباكستاني، وهو يدعو الى:

١ ـ اعتبار الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل في القدس غير مشروعة.

٢ ـ مطالبة إسرائيل بإلغاء جميع الإجراءات المتخذة والامتناع عن اتخاذ أي عمل من شأنه تغيير وضع القدس.

٣ ـ مناشدة السكرتير العام تقديم تقرير عن تنفيذ القرار إلى الجمعية العامة ومجلس الأمن.

ونجح هذا المشروع المتواضع بأكثرية تسعة وتسعين صوتاً، وقد امتنعت أمريكا عن التصويت. . وقاطعت إسرائيل التصويت. . «ولتفعل الأمم المتحدة ما تشاء ونحن في القدس، ومن شاء أن يخرجنا فليتفضل»، كان ذلك لسان حال إسرائيل.

وهذا ما جرى فعلاً. لم تذعن إسرائيل للقرار، فتطوع وفد باكستان مرة ثانية، وقدم مشروع قرار وافق عليه مجلس الأمن في ١٤/ ٧/ ١٩٦٧، وهو يدعو الى:

١ ـ استنكار عدم تنفيذ إسرائيل للقرار المذكور.

٢ ـ تكرار دعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات المتخذة، والامتناع عن أي عمل من شأنه تغيير وضع القدس.

ولم تذعن إسرائيل.

وجاء عام ١٩٦٨، فأصدر مجلس الأمن ثلاثة قرارات بشأن مدينة القدس رقم ٢٥٠، و٢٥١، و٢٥٢. ولم تذعن إسرائيل.

وجاء عام ١٩٦٩، فأصدر مجلس الأمن قرارين بشأن القدس، رقم ٢٦٧، ورقم ٢٧١. ولم تذعن إسرائيل.

وانطلقت تصريحات حكام العرب والمسلمين نائحة صائحة على القدس. وكان

من بينها رسالة ملكية بعث بها الملك الحسن الثاني إلى قداسة البابا، كتبت بأسلوب الخلفاء الراشدين جاء فيها قوله:

«من الحسن الثاني ملك المملكة المغربية إلى حضرة صاحب القداسة البابا بولس السادس،

وفقكم الله لما يحبه ويرضاه، وأرشدنا وإياكم إلى سبيل الحقّ الذي ارتضاه.

وبعد، فإنه ليسعدنا أن نوجّه إليكم اليوم هذا الخطاب المعبّر عن الودّ الخالص، والتقدير المستطاب، تجديداً للصلات القديمة، وبعثاً لعادات مستحسنة قويمة، جرى عليها أجدادنا سلاطين المملكة المغربية، ومن سبقكم إلى اقتعاد كرسي البابوية، وداعية لفت نظر قداستكم إلى خطورة العمل الذي أقدم عليه الإسرائيليون بالقدس الشريف من إلحاقهم المدينة المقدسة بالمناطق التي يسيطرون عليها من أرض فلسطين.

ونظراً إلى الروابط المحكمة الوثيقة التي جمعت في القدس الشريف في مختلف العصور أهل الملتين، ارتأينا أن نوفد إليكم السيد علي بن جلون وزيرنا في العدل ليبلغكم تحياتنا، ويعبّر لكم عن تقديرنا للجهود التي تبذلونها لقضية الحقّ والسلم، ويعرب لكم عن رغبتنا في أن تستعمل قداستكم نفوذها الروحي وسلطتها العظيمة في العالم لإعادة الحقّ إلى أهله، وإرجاع الأوضاع السياسية والدينية في القدس الشريف وسائر الأماكن المقدسة إلى ما كانت عليه من قبل العدوان الإسرائيلي» . . . إلى آخر الرسالة.

وهكذا تمخّض «الجهاد» عن رسالة إلى قداسة البابا مليئة بالاسترحام والاستعطاف، وهكذا أنجدوا المسجد الأقصى بالكلمة، وبالكلمة وحدها. وأنا أعني ملوك العرب والمسلمين: ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآية ٥.

أســرار أخــرى مــن موسكــو

في السابع عشر من حزيران/ يونيو وصل ألكسي كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي إلى نيويورك ليشترك في اجتماعات الدورة الطارئة للأمم المتحدة.

وفي العشرين من حزيران/ يونيو وصل نيقولاي بودغورني رئيس الدولة السوفياتي إلى القاهرة للاجتماع بجمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة.

وكان للاتحاد السوفياتي من وراء هاتين الرحلتين هدف واحد: استرداد الاعتبار على الصعيدين الدولي والعربي.

ذلك أن حرب الأيام الستة كانت نصراً لإسرائيل، وبالتالي، نصراً للولايات المتحدة، وكانت إلى جانب ذلك هزيمة للأمة العربية، وبالتالي هزيمة للاتحاد السوفياتي.

ومن هنا انطلق كوسيغن إلى نيويورك ليحمل الأمم المتحدة على إصدار قرار بإجلاء القوات الإسرائيلية عن الأراضي العربية المحتلة. . وانطلق بودغورني إلى القاهرة ليؤكد للأمة العربية أن الاتحاد السوفياتي لن يدّخر جهداً في إزالة آثار العدوان، وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الخامس من حزيران/ يونيو. وبهذا يكون ردّ الاعتبار، لا أمام العالم فحسب، بل أمام شعب الاتحاد السوفياتي نفسه.

وقد حرص بودغورني في سفره إلى القاهرة على أن يرافقه وفد عسكري كبير يرأسه المارشال زخاروف رئيس أركان الجيش السوفياتي، وذلك ليوحي إلى الرأي العام العربي والدولي أنّه إذا ما فشلت المساعي السياسية في نيويورك، فإن المساندة العسكرية السوفياتية قادرة على حسم الموقف في ميدان المعركة.

وكذلك، فقد كان بودغورني يريد أن يهدئ من نقمة الجماهير العربية على الاتحاد السوفياتي، وأن يتخذ من القاهرة منبراً ليخاطب الأمة العربية ويؤكد لها التزام الاتحاد السوفياتي بتقديم العون العسكري والاقتصادي والسياسي للجمهورية العربية المتحدة.

وكانت الصيحة الداوية التي تملأ أرجاء الوطن العربي تدور حول استئناف القتال، فقد كانت الأمة العربية لا تكاد تصدق أنها هزمت، وأن الهزيمة ساحقة ماحقة، وأن إسرائيل احتلت فلسطين بأسرها، ومعها أرض عربية لثلاث دول عربية تزيد مساحتها ثلاث مرات عن مساحة فلسطين.

وقد أراد الرئيس عبد الناصر أن يجسد تصميم الأمة العربية على استئناف القتال، فأعدّ للرئيس بودغورني استقبالاً ضخماً حشدت له أجهزة الدولة كُلّ طاقاتها ومهارتها، والقاهرة تجيد فنون الاستقبال حين تريد، وفنون الإهمال حين تشاء.

وحطّت طائرة الرئيس بودغورني على أرض المطار، فاندلعت الهتافات من أرض المطار والشرفات ترحب «بالرئيس بودغورني» و«بالصداقة العربية السوفياتية»، وتماوجت اللافتات الكبيرة بألوانها المختلفة وهي تندّد «بالاستعمار الأمريكي» وتحيي «دول المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي» وتدعو إلى استئناف القتال، وكلها مكتوبة باللغة الروسية، وكذلك فقد كانت بعض الهتافات باللغة الروسية، ولكن باللهجة المصرية.

وأراد الرئيس بودغورني، وهو لا يزال في أرض المطار، أن يبدأ حديثاً إلى العالم، فقال: «إن الاستعماريين يتصورون أننا جئنا إلى هنا لكي نتبادل أحاديث اجتماعية عن الصداقة بيننا، ولكننا سوف نثبت لهم معاً أننا نعني ما هو أكثر من الحديث».

وكنت إلى جوار الفريق علي عامر القائد العام للقيادة العربية الموحدة ونحن نقف في الصف الطويل لاستقبال الرئيس بودغورني: فقال:

«هذا كلام طيب جداً ونرجو أن يترجم إلى خطة عملية».

قلت: «وما هي الخطة العملية في نظرك الآن؟».

قال: «مصر وسوريا والعراق لا ينقصها إلا الطيران. ولكن يجب أن تكون طائرات بعيدة المدى. الاتحاد السوفياتي لم يقدم هذا النوع من الطائرات قبل العدوان».

قلت: «إن عبارة الرئيس بودغورني جميلة، ولكني أشعر أنها تنطوي على كثير من التحفظ».

قال: «صحيح. ونرجو أن يكون موقف الاتحاد السوفياتي في الاجتماعات المقبلة أقوى من هذا الكلام».

وخرج الرئيس بودغورني من أرض المطار مع الرئيس جمال عبد الناصر بعد

مراسم الاستقبال وحرارة اللقاء ودفء العناق. واخترقت سيارة الرئيسين الشوارع والميادين إلى قصر القبة، ومن حولها الجماهير كأمواج البحر المتلاطمة، كلها تنادي باستئناف القتال، وتندّد بالاستعمار والمستعمرين.

وعند قصر القبة كانت الجموع تغطي الميادين من حوله، وهي تهتف مائجة هائجة، لا تبالي بموجة الحرّ اللاهبة التي لفّت القاهرة في ذلك اليوم كأنها على ميعاد مع ذلك اليوم اللاهب.

ودخل الرئيس بودغورني إلى قصر القبة دخول الفاتحين، وهو في عجب من تصميم هذا الشعب على استئناف القتال، وقد أثاره هذا الاستقبال الرائع، ولكن حزيران/ يونيو في موسكو غير حزيران/ يونيو في القاهرة، فقد بقي الرئيس بودغورني ملتزماً جانب التحفظ في حديثه، وكان ما قاله في قصر القبة غير بعيد عما قاله في أرض المطار، فقد قال: «إن مشاعر الناس وحماستهم على طول الطريق قد بهرتني، وأرجو أن تمكنني الظروف يوماً من أن أعود إلى القاهرة فألتقي بجموع الشعب المصري، ولكننا الآن نحتاج كُلّ وقتنا للعمل على إحباط خطط المتآمرين».

وعلى هذا، فإن حديث الرئيس بودغورني في المطار وفي قصر القبة لم يخرج عن الحديث العادي ولم يكن فيه التزام بشيء.. ولم يكن فيه ذكر لإسرائيل، ولم يتعرض لإزالة آثارالعدوان، ولم يتعهد بتأييد الموقف العربي.

وقد انقسمنا في قصر القبة، الوزراء وأركان الاتحاد الاشتراكي وأنا إلى فريقين: واحد يقول إن كلام الرئيس بودغورني متحفظ حقاً، ولكنه ضروري في المرحلة الحاضرة. والمهم في الاجتماعات المقفلة أن يتم الاتفاق على تدابير فعالة لتمكين القوات العربية من إزالة آثار العدوان.

وقال فريق آخر إن كلمات الرئيس بودغورني متحفظة أكثر من اللازم، ولا تبعث على الرضا، ولا على الأمل في المستقبل. وكنت أنا من هذا الفريق، رغماً عن أني معروف بصداقتي للاتحاد السوفياتي لعدة سنين.

وقد تعزّز هذا الرأي في هذا اليوم ذاته، فلم يكد يصل الرئيس بودغورني إلى القاهرة حتّى أذاعت وكالة تاس أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي قد أصدرت بياناً أعلنت فيه أنها «أقرت بالإجماع إدانة إسرائيل بالعدوان ومطالبة الأمم المتحدة بإصدار قرار يدعو إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة»، وكأن الأمر كُلّه يجب أن يحصر في نطاق الأمم المتحدة.

وبدأت الاجتماعات الرسمية بين الجانبين العربي والسوفياتي في مساء ذلك

اليوم في بيت الرئيس عبد الناصر في منشية البكري واستمرّت حتّى منتصف الليل.

وقد عشنا تلك الليلة، أنا وغيري من المشتغلين بالقضية العربية في القاهرة، نترقب طلوع الصباح، لنتنسم أخبار المحادثات، ولنتعرف على موقف الاتحاد السوفياتي بعد العدوان، لعله يكون أكثر وضوحاً مما كان قبل العدوان.

ولقد صدرت في الماضي عن الاتحاد السوفياتي بيانات بالتأييد. وكان الأسطول السوفياتي يتضاعف عدده في البحر الأبيض المتوسط.

وساهم الاتحاد السوفياتي بالضغط على القاهرة (الضغط لضبط النفس)، وبدأت الحرب وانتهت وحان الوقت ليجدد الاتحاد السوفياتي موقفه، وبخاصة أننا لا ننسى أن سفير الاتحاد السوفياتي في القاهرة قد أيقظ الرئيس عبد الناصر بعد منتصف ليل ٢٦ ـ ٢٧ أيار/ مايو ليبلغه رسالة مستعجلة من الرئيس كوسيغن بالرجاء الحار والتوكيد الشديد بضبط النفس وعدم القيام بأي عمل عسكري ضدّ إسرائيل، وأن رسالة مماثلة من الرئيس كوسيغن قد أبلغت إلى ليفي أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي عن طريق السفير السوفياتي في تل أبيب في الليلة نفسها.

ولهذا، فقد كنا نتوقع من الرئيس بودغورني أن يكون أكثر حزماً في عباراته التي تناقلتها وكالات الأنباء. ولكن بعضنا كان يرى أن هذا الحذر أجدى وأنفع. . «فنحن نريد سلاحاً ولا نريد كلاماً»، كما قال الفريق عبد المنعم رياض ونحن نغادر قصر القبة بعد أن دخل الرئيس بودغورني إلى غرفة الاستراحة.

وقمت بزيارة خاطفة إلى عدد من أعضاء الوفد العربي الذين اشتركوا في مباحثات الليلة الماضية، وبدأت تتأكد مخاوفي. فقد كانت حصيلة انطباعاتهم أن الرئيس بودغورني قد شرح ما يجري في الأمم المتحدة في دورتها الطارئة وأسهب في سرد جهود الرئيس كوسيغن ومطالبته بانسحاب القوات الإسرائيلية، وإدانة إسرائيل، والتعويض عما لحق بالدول العربية من خسائر، وأن الرئيس بودغورني يؤمل أن تصدر الأمم المتحدة قراراً بالموافقة على هذا المطلب، وأن الرئيس بودغورني، وقد استمع إلى مطالب الرئيس عبد الناصر بدعم القدرة العسكرية لمصر وسوريا، سينقل هذه الرغبة إلى الحزب في موسكو ليدرسها، بعناية تامة، انتظاراً لما تقرره الأمم المتحدة.

كانت تلك حصيلة الموقف في اليوم الأول من المباحثات، أما في اليوم الثاني فقد انجلى الموقف أكثر فأكثر. فقد اتصل الرئيس بودغورني بالرئيس عبد الناصر يعرب عن رغبته في لقاء عاجل قبل موعد الاجتماع المتفق عليه، لأنه تلقى «رسالة عاجلة من الرئيس كوسيغن في نيويورك». وتمّ الاجتماع في الصباح الباكر، وذكر

الرئيس بودغورني للرئيس عبد الناصر أن الرئيس كوسيغن سيجتمع بالرئيس جونسون ليبحث معه أزمة الشرق الأوسط وليؤكد إصرار الاتحاد السوفياتي على صدور قرار من الأمم المتحدة لصالح الدول العربية.

وقد تصاعدت الآمال بعض الشيء في جهود الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة.. ولكنها عادت وخبت بعد بضع ساعات، حتّى عند المتفائلين من الوفد العربي.. فقد كشفت وكالات الأنباء العالمية الموقف في نيويورك على حقيقته.

فقد ذكرت الأنباء أن الاجتماع بين كوسيغن وجونسون قد استمرّ خمس ساعات، وأن الرئيسين قد اجتمعا ليقولا للصحافيين بعد نهاية الاجتماع: «لقد أتاح لنا اجتماعنا هذا فرصة ليتعرف كُلّ منا على الآخر، وتبادلنا خلال الاجتماع الآراء حول عدد من المسائل المتعلقة بمنع انتشار الأسلحة النووية. وقد اتفقنا أن الوصول إلى اتفاق بمنع انتشار الأسلحة النووية أمر في غاية الأهمية الآن، وتبادلنا الرأي بالعلاقات الثنائية بيننا».

وأضافت وكالات الأنباء أن الرئيس كوسيغن قال: «أشكر الرئيس جونسون على ترتيب اجتماعنا في مدينة على هذا القدر من الجمال. وقد فهمتم مما قال الرئيس جونسون أننا حشدنا عدداً ضخماً من المسائل إلى حدّ لم نتمكن معه من أن نكون قادرين على التعرض لها جميعها اليوم، ولهذا قررنا أن نجتمع يوم الأحد، وليس لدي ما أضيفه إلى ما قاله الرئيس جونسون، فإن بيانه قد صيغ على نحو سليم جداً».

وقد جاءت هذه الأنباء لتسدل على اجتماعات بودغورني ـ عبد الناصر ستاراً من خيبة الأمل، فقد بات واضحاً من الأنباء الصحافية ومن التقارير الرسمية الواردة على القاهرة أن الرئيس كوسيغن يتصرف في نيويورك وكأن أصدقاءه العرب لم يخسروا الحرب، ولم تقع أراضيهم تحت الاحتلال. فقد ذهب إلى الأمم المتحدة ليعرض قضية العدوان الإسرائيلي، فإذا به يعترف «أننا حشدنا عدداً ضخماً من المسائل»، وأنه يشكر الرئيس جونسون لاستضافته «في تلك المدينة الرائعة الجمال»، وغير ذلك مما يوحي بأن قضية الشرق الوسط لم تكن عند الرئيس كوسيغن همه الأوحد، ولم يكن قد مضى على حرب حزيران/ يونيو إلا عشرة أيام بالتمام والكمال.

وتوالت اجتماعات بودغورني ـ عبد الناصر في القاهرة، قبل الظهر، وبعد الظهر، وفي الليل، وكنت أتردد على القصر الجمهوري في القبة لألتقي مع الرئيس عبد الناصر وأعضاء الوفد العربي قبيل الاجتماعات وبعدها. وكانت مشاعر الخيبة تزداد بازدياد الاجتماعات. فقد كان الرئيس بودغورني يتحدث دوماً عن السلام، والبحث عن تسوية سلمية للشرق الأوسط، وأن الضغط الدولي على أمريكا والأمم

المتحدة كفيل بحمل إسرائيل في النهاية على الانسحاب من الأراضي العربية، وأن الالتجاء إلى القوة يمكن «التفكير» فيه حينما تفشل كُلّ الجهود السياسية والدبلوماسية.

ولست أنسى قهقهات أعضاء الوفد العربي في قصر القبة وهم يقرأون أخبار الاجتماع الثاني بين كوسيغن وجونسون، فقد راح أحدهم يقرأ بصوت ضاحك نشرة الأنباء وهي تقول: «عندما وصلت سيارة الرئيس كوسيغن أسرع إليها الرئيس جونسون وزوجته وابنته واستقبلوا الرئيس كوسيغن وابنته لودميلا ورحبوا بهما، ودخل الجميع إلى المنزل حيثُ التقطت لهم صورة تذكارية. ثُمّ دخل الرئيسان إلى غرفة الاجتماع، ودخل معهما المستر أفريل هريمان الخبير بشؤون فييتنام لمدّة ربع ساعة. ثُمّ دخل أعضاء الوفدين واستمرّ الاجتماع خمس ساعات، صرح جونسون في نهايتها بأنهما بحثا عدداً ضخماً من المشكلات بالتفصيل، واتفقا على أن يظلا على اتصال في المستقبل.. كما أعلن الرئيس كوسيغن أنهما تناولا عدداً من المسائل الدولية كما فعلا في اجتماعهما الأول، وأن هذه الاجتماعات قد أتاحت الفرصة لاستعراض حالة العلاقات الأمريكية ـ السوفياتية ومقارنة المواقف إزاء المشاكل البارزة»، إلى آخر ما أوردته وكالات الأنباء.

ومع قهقهات الوفد العربي انطلقت القفشات، وهذه مهارة مصرية فريدة، وهم يقرأون خبراً آخر يقول: «إن الرئيس كوسيغن سيغادر نيويورك على متن طائرة من سلاح الجو الأمريكي إلى شلالات نياغرا، وهي من أبرز معالم السياحة في أمريكا».

هذا وغير هذا أضفى جواً من البرودة على مباحثات بودغورني ـ عبد الناصر، حتّى أصبح قصر القبة ثلاجة كبرى كأنه قطعة من موسكو في أيام الجليد، في حين أن جماهير الشعب في مصر كانت تفور بالغليان والثوران.

ومسكين هو الشعب. إنه لم يكن يعرف الحقيقة. فقد كان يأكل ويشرب مما تقدمه الصحافة والإذاعة العربية، وهذه كلها كانت تربط مصير الأمة العربية برحلة كوسيغن إلى نيويورك، ومجيء بودغورني إلى القاهرة.

ومما زاد الجماهير العربية لهفة على الأخبار أن زيارة الرئيس بودغورني كانت المرة الوحيدة التي لم تلق فيها خطب رسمية يتبادلها الرئيس الضيف والرئيس المضيف. ففي هذه المناسبة لم يخطب الرئيس عبد الناصر، ولم يخطب الرئيس بودغورني.

وسألت جاكوب ماليك نائب وزير الخارجية الروسية، وهو صديق قديم، لماذا لم يخطب الرئيسان في هذه الاجتماعات؟

قال: «هذه رغبة الرئيس بودغورني. ونحن أصدقاء ورفاق، ليس بيننا كلفة ولا داعي للخطب. المهم أننا نقدم العون العسكري والاقتصادي».

قلت: «حتّى الرفاق في الدول الشيوعية يتبادلون الخطب حينما يجتمعون لعرض آرائهم وأهدافهم».

ولم يعقّب جاكوب ماليك على هذه الملاحظة. والواقع أن الرئيس بودغورني كان لا يريد الخطب، لأن الخطب تحدد الأهداف وتحدد الالتزامات، وكُلّ ما جاء الرئيس بودغورني من أجله هو أن يقنع الرئيس عبد الناصر بأن يوافق ولو ساكتاً على التسوية السلمية لمشكلة الشرق الأوسط، وأن موضوع استئناف القتال أمر غير وارد، وأن إعادة بناء القوات العربية يجب أن تستهدف تعزيز القدرة الدفاعية لا غير.

وهكذا انتهت مباحثات عبد الناصر ـ بودغورني على غير نتيجة، وجاء السؤال التقليدي الذي تنتهي به الزيارات الرسمية: وماذا نكتب في البلاغ المشترك؟ ماذا نقول للأمة العربية خارج قصر القبة، وهي تهتف بالقتال، ولا شيء إلا القتال؟

وهنا، أصر الوفد السوفياتي على أن يصدر بلاغ مشترك تبرز فيه معاني السلام، والتسوية السلمية، وتوطيد دعائم الصداقة السوفياتية ـ العربية.

وأصرّ الوفد العربي على أن يشير البيان المشترك، باللجوء مع هذه المعاني، إلى حقّ الدول العربية بإزالة آثار العدوان باللجوء إلى القوة في حالة فشل الأمم المتحدة.

وطال الأخذ والردّ بين أعضاء الوفدين العربي والسوفياتي، يروحون ويغدون على بعضهم البعض بأوراقهم وأقلامهم، وهم يقترحون هذه الصيغة أو تلك.

وبقي الوفد العربي على موقفه. وأخيراً تمّ الاتفاق بين الجانبين على أن يصدر بيان مشترك.. وصدر البيان الصحافي ليقول: «تمت الاجتماعات بروح التفاهم الأخوي المشترك والصداقة التقليدية بين البلدين.. وبحث الجانبان الإجراءات اللازمة لإزالة آثار العدوان.. وإن زيارة الرئيس بودغورني سوف تسهم في زيادة تدعيم وتطوير علاقات الصداقة والتعاون الشامل بين الدولتين في صالح شعبي الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفياتي وفي صالح السلام والأمن لكُلّ شعوب العالم».

وهكذا صدر البيان الصحافي غامضاً مبهماً، ليس فيه التزام واضح على الاتحاد السوفياتي، ولا إشارة حتّى إلى احتمال صدام مسلح، بل برزت فيه معاني السلام، وأن الجانبين «بحثا» الإجراءات اللازمة بحثاً فقط.

وقال لي علي صبري أحد نواب رئيس الجمهورية، وكان من الأعضاء النشيطين

في هذه المباحثات: «إن الغموض أيضاً نافع. ربما تخاف الولايات المتحدة، والرأي العام العربي يعتقد أن هذا الغموض يخفي وراءه الخير».

قلت: «الولايات المتحدة ليست غبية إلى هذا الحدّ. وقد سبرت غور كوسيغن في أمريكا. أما المواطن العربي، فإنه إن لم يعرف اليوم، فسيعرف غداً، وإن غداً لناظره قريب. وهذا ما قاله العرب منذُ عهد بعيد».

وانتهت زيارة الرئيس بودغورني من دون أن تحقق شيئاً، وودعه الشعب المصري بالحماسة نفسها، والهتاف نفسه. . ولم يقف الأمر عند البيان الصحافي، فقد أراد الرئيس بودغورني أن يؤكّد من الجو موقفه الذي أكده على الأرض، فبعث من الطائرة ببرقية إلى الرئيس عبد الناصر يقول فيها: «إن علاقة الصداقة والتعاون الكبير بين الاتحاد السوفياتي والجمهورية العربية المتحدة ستزداد تطوراً لمصلحة بلدينا وشعبينا ولمصلحة سلام مستتب في الشرق الأوسط بأسره».

وكان واضحاً للذين عاشوا جو المباحثات في قصر القبة أن الرئيس بودغورني «يؤكّد على السلام ليستتب في الشرق الأوسط بأسره»، ويعني ذلك إسرائيل أيضاً.

وردّ الرئيس عبد الناصر في برقيته مشيداً بروح الصداقة مع الاتحاد السوفياتي، ومؤكداً من جانبه الرغبة في «السلام القائم على العدل». . والعدل هو بيت القصيد. وهنا استخدم الرئيسان ما يريدان من الألفاظ والمعاني.

ولم يكن من باب المصادفة، بل إنه كان توقيتاً متعمداً، أن مراسل جريدة **برافدا** السوفياتية في القاهرة قد كتب يوم انتهاء مباحثات عبد الناصر ـ بودغورني مقالة فيها تلميح صريح إلى أن مسؤولية الهزيمة تقع على عاتق مصر وحدها، وأن الاتحاد السوفياتي بريء الذمة. فقد جاء في تلك المقالة: «لم يكن من المتوقع في الجمهورية العربية المتحدة أن تقوم إسرائيل بهجومها بمثل هذه السرعة. وسنترك للمؤرخين تحليل الأسباب الأخرى للفشل العسكري المصري. ولكن هناك دوراً مهماً لعبه إهمال القيادة الجوية، وكان من نتيجته أن الطائرات الإسرائيلية تمكنت من التحليق على مستوى منخفض من البحر الأبيض التوسط وقصف المطارات المصرية، وكان من نتيجة هذه الهجمات أن سلاح الجو المصري قد دمر على الأرض». (٢٤/ ٦/ ١٩٦٧). وقد أغفل مراسل **برافدا** أو تغافل أن سياسة ضبط النفس التي «ضغطها» الاتحاد السوفياتي على الرئيس عبد الناصر كانت أحد أسباب هذه الهزيمة.

وانقضى شهر حزيران/ يونيو ودخل شهر تموز/ يوليو. وفي أوله (١/ ٧/ ١٩٦٧) هبطت طائرة سوفياتية في مطار دمشق تقل الرئيس بودغورني ومعه عدد كبير من المستشارين العسكريين والسياسيين، وجرى في مطار دمشق ما جرى في مطار

القاهرة قبل أسبوع، من تبادل التحيات والتمنيات بين الرئيسين الأتاسي وبودغورني.

وفي مأدبة العشاء التي أقيمت في القصر الجمهوري في دمشق خطب الرئيس الأتاسي خطبة «بشعبه» رحب فيها بالوفد السوفياتي مؤكّداً توثيق علاقات الأخوة والصداقة مع الاتحاد السوفياتي وتصميم الشعب العربي على الصمود في وجه العدوان الصهيوني والاستعماري. وردّ الرئيس بودغورني معرباً «عن استعداد الحكومة السوفياتية لتطوير علاقات الصداقة العربية ـ السوفيتية تحقيقاً للسلام».

واستؤنفت المباحثات السورية ـ السوفياتية في اليوم التالي تحت مظلة رحبة من الصحف السورية تمتدح الصداقة العربية ـ السوفياتية وتشيد بزيارة الرئيس بودغورني، وتلفت الانتباه إلى أن الرئيس بودغورني «كان يريد زيارة بعض المعالم التاريخية في دمشق، ولكنه ألغى هذا البرنامج في آخر لحظة، واتجه إلى القصر الجمهوري لاستئناف المباحثات نظراً إلى خطورة الموقف».

وانتهت مباحثات دمشق على ما انتهت إليه مباحثات القاهرة، بفارق واحد.. وهو أن سوريا قد وافقت على صدور بيان مشترك بدلاً من البيان الصحافي الذي صدر في القاهرة.

ولكن الفارق كان في الشكل ولم يكن في الجوهر.. فلم يضف البيان المشترك السوري شيئاً إلى البيان الصحافي المصري. فقد أعلن أن «الجانبين السوري والسوفياتي قد استعرضا الأوضاع التي نشأت نتيجة عدوان إسرائيل، وبحثا الخطوات العملية لتصفية آثار العدوان والمساهمة في إقرار السلام». ولم يكن في هذا البيان التزام، وكُلّ ما فعله الجانبان أنهما «بحثا» و«استعرضا».

وفي مطار دمشق صافح الرئيس بودغورني رجال الدولة السورية وهو يقول لهم بالعربية: «السلام عليكم»، وامتطى طائرته وأرسل من الجو إلى الرئيس الأتاسي برقية يقول فيها: «إن اجتماعاتنا ستدعم روابط الصداقة والتعاون بين الاتحاد السوفياتي وسوريا لصالح شعبينا ولصالح إقرار السلام في الشرق الوسط وفي العالم أجمع». مرة ثانية، كما جرى في القاهرة: توكيد السلام، ولا إسرائيل أيضاً.

ومن دمشق طار الرئيس بودغورني إلى بغداد واجتمع بالرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، وجرى بينهما من الحديث ما جرى مع الرئيس عبد الناصر والأتاسي.. بفارق واحد! أيضاً.. وهو أن البيان المشترك الذي صدر عن مباحثات بغداد كان أكثر جفافاً من البيان المشترك الذي صدر عن مباحثات القاهرة، والبيان المشترك في دمشق.. فقد احتوى بعض العبارات التقليدية: من أجل السلام والأمن

في العالم، فإن إخواننا العراقيين لا يعرفون المجاملة ولا الأعراف الدبلوماسية.. وتلك طبيعتهم لا نباهتهم!

وترك الأمر لوكالة الأنباء الروسية ـ تاس ـ أن تقول ما تشاء من جانبها، فأذاعت أن الرئيسين السوفياتي والعراقي بحثا في عدوان إسرائيل على العرب، والخطوات التي ستكفل محو آثاره، وتبادلا الرأي في توطيد علاقات البلدين، وأن زيارة الرئيس بودغورني كانت مفيدة ومتسمة بتفاهم تام.

انتهت زيارة الرئيس بودغورني إلى بغداد في اليوم الرابع من شهر تموز/ يوليو ـ وهو اليوم الذي سجل نهاية فاشلة للدورة الطارئة التي دعا إليها الاتحاد السوفياتي للنظر في أزمة الشرق الأوسط.

وقد كان هذا الفشل متوقعاً منذُ البداية.. كان فشلاً للاتحاد السوفياتي والدول العربية، كما كان انتصاراً لإسرائيل وللولايات المتحدة.

وتعالت صيحات جميع الفرقاء العرب وغير العرب تعلق على النهاية التي وصلت إليها الأمم المتحدة.

فقال الرئيس السوداني محمّد أحمد محجوب وهو لا يزال في أروقة الأمم المتحدة: «إن العرب قد خاب أملهم في المنظمة الدولية ويفكرون جدياً بإعادة النظر في موقفهم منها». ولم يحفل أحد في العالم لهذا التهديد، لأنهم ألفوا أمثاله منذُ ربع قرن من الزمان.

وخطب ليونيد بريجنيف الأمين العام للحزب الشيوعي فقال: «إن العدوان الإسرائيلي على العرب دعمته بريطانيا وأمريكا لطمس حركات التحرك الوطني.. وإن زيارة الرئيس بودغورني إلى بعض الدول العربية قد قوّت العلاقات العربية ـ السوفياتية، وإن العرب يدركون الآن بشكل خاص أهمية تمتين روابطهم مع المعسكر الشيوعي»، وترك للمستقبل أن يعلق على هذا الكلام.

أما إسرائيل، فقد أرسل رئيس وزرائها ليفي أشكول إلى وزير خارجيته أبا إيبان يهنئه ويشكره هو وأعضاء وفده على «جهودهم الموفقة في تحقيق النصر العظيم».

وكان «النصر العظيم» انفراجاً كبيراً لإسرائيل، فالأراضي العربية المحتلة ستظل محتلة.

ويعلن موشيه كول وزير السياحة الإسرائيلي في اليوم الثاني أنّه «سينظم رحلات سياحية إلى الضفة الغربية، وإلى سيناء، وإلى مرتفعات الجولان، وإلى شرم الشيخ، وأن إسرائيل ستبني الجسور على نهر الأردن، وستقوم بترميم مطار قلنديا بجوار

القدس لاستخدامه في أغراض السياحة الدولية» (٥/ ٧/ ١٩٦٧).

وهاج الرأي العام العربي لهذه الهزيمة السياسية التي حلت في الأمم المتحدة بعد الهزيمة العسكرية في الوطن العربي، ولم يكن بينهما إلا شبر واحد.

والذين لا يعرفون الأمم المتحدة وقعوا في حيرة مذهلة.. وبدأوا يتساءلون:

ـ إسرائيل، هي التي بدأت بالعدوان، والأمم المتحدة لا تدينها، لماذا؟.. وكيف؟ وإلى متى؟

ـ وإذا كانت لا تريد إدانتها، ألم يكن الواجب مطالبتها بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة؟

ـ الدول الثلاث المعتدى عليها أعضاء في الأمم المتحدة، فكيف تجيز الأمم المتحدة احتلال الأراضي العربية؟

ـ لماذا تريد الولايات المتحدة وأنصارها أن يربطوا انسحاب إسرائيل بالقضية الفلسطينية، وكيف يسكت الاتحاد السوفياتي على هذه الحالة؟

هذه الأسئلة وغيرها كانت محور الحديث بين الجماهير العربية، وهي تتأجج غضباً ونقمة على الأمم المتحدة وعلى دول العدوان أمريكا وبريطانيا.

وازدادت غضبة الجماهير وهي تقرأ نبأ ألفت أمثاله على مرّ السنين. ويقول النبأ إن «وزراء خارجية الدول العربية في نيويورك عقدوا اجتماعا مهماً مغلقاً لبحث ما ينبغي عمله بعد أن فشلت الأمم المتحدة في مطالبة إسرائيل بالانسحاب من الأراضي العربية المحتلة» (٤/ ٧/ ١٩٦٧).

وتضاعفت الصيحات من كُلّ أرجاء الوطن العربي تدعو إلى استئناف القتال، وأن الأمم المتحدة مضيعة للوقت.. وأن الاتحاد السوفياتي يجب أن يضاعف تسليحه للجيوش العربية لتمكينها من تحرير الأرض العربية بقوة السلاح.. وهل يريد الاتحاد السوفياتي دليلاً آخر؟ ها قد فشلت الأمم المتحدة ولم يبق إلا الانصراف إلى المعركة.

وقد أصبح الحديث عن الأمم المتحدة ثقيلاً على أسماع الجماهير، ولم تبال بالتصريحات التي أدلى بها الرئيس كوسيغن إلى الإذاعة الفرنسية حين قال: «إننا نثق بالأمم المتحدة وعليها أن تحل جميع المعضلات الدولية، ويجب على الأمم المتحدة عاجلاً أو أجلاً أن تدين إسرائيل، وأن الاتحاد السوفياتي سيتخذ جميع الخطوات اللازمة في مجلس الأمن لإدانة إسرائيل وسحب قواتها» (٩/ ٧/ ١٩٦٧).

هذا ما كان يدور في صدور الجماهير العربية وعلى ألسنتها: الحرب الحرب، ولا شيء إلا الحرب.

وبدأ التحرك العربي متلاحقاً متتابعاً، من اليوم التاسع (تموز/ يوليو) إلى اليوم العشرين، وكان كُلّ يوم مليئاً بالاجتماعات على أعلى المستويات. وها أنا «أنبش يومياتي» يوماً يوماً.

ففي التاسع من تموز/ يوليو، تحرك الرئيس الجزائري هواري بومدين يحمل معه في طائرته كُلّ تجارب الثورة الجزائرية ليجعلها أساساً لخطة عربية جديدة، ووصل إلى القاهرة ليجد المطار وقد ازدحم بالجماهير وهي تهتف: «الثأر، الثأر»، ويخرج مع الرئيس عبد الناصر في سيارة مكشوفة إلى قصر القبة والجموع المحتشدة في الشوارع والشرفات وعلى الأسطح تصيح صيحة واحدة: «القتال يا جمال، القتال يا بومدين».

واجتمعت بالرئيس الجزائري بومدين عند المساء في صالة قصر القبة. فقال لي:

ـ «هذا الذي كنت أخشاه. لقد كان رأيي منذُ البداية أن تستمر المعركة. وألا نوافق على قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار. إذا كنا قد فقدنا طائراتنا ودباباتنا، فعلينا أن نقاتل بالبنادق. إن القوات الجزائرية موجودة الآن في الميدان. نحن مستعدون لأن نرسل غيرها. يجب أن نضع خطة جديدة لاستئناف القتال. نحن أمام ظروف تاريخية. وإن المعركة وحدها هي التي تنقذنا من مضاعفات الهزيمة التي حلت بنا».

قلت: «لقد تحطم الجيش المصري وتحطمت معداته. والجيش السوري كذلك. والقوات العربية الأخرى، باستثناء الجيش العراقي، قفلت راجعة إلى ثكناتها بعد أن توقف إطلاق النار، وأعني تونس والمغرب وليبيا».

قال: «كُلّ هذا صحيح. ولكننا نستطيع أن نفتح ميدان المعركة من جديد. ونستطيع القتال، وأن نضع خطة جديدة، وقد جئت إلى القاهرة لأحدث الرئيس عبد الناصر بأفكاري هذه».

واستطرد الرئيس بومدين حديثه متسائلاً: «وأنتم الشعب الفلسطيني، ما هو دوركم؟».

قلت: «إذا وضعتم الخطة، أية خطة، فإن شعبنا مستعد لأن يضع كُلّ طاقاته في المعركة. إن جيش التحرير الفلسطيني حاضر لأن يشترك معكم. وكذلك القوات الفدائية. ونحن قادرون على أن نرسل عدداً من ضباطنا إلى الضفة الغربية وقطاع غزة ليبدأوا إعداد الشعب للمقاومة، والتصدّي للاحتلال الإسرائيلي من الداخل». وانتهى الحديث بيننا انتظاراً للخطة.

والتقى الرئيس عبد الناصر بالرئيس الجزائري بومدين ليلاً في جلسة طويلة . . وصفها لي الرئيس بومدين في اليوم التالي بأنها كانت جلسة عمل.

وفي اليوم العاشر من تموز/ يوليو وصل الملك حسين القاهرة بعد رحلة طويلة في الأمم المتحدة وعدد من العواصم الغربية، قام خلالها كما ذكر في خطاب له الليلة الماضية «بإعلاء صوت أمتنا فوق المنبر الدولي». وأجرى اتصالات بالرأي العام في كُلّ بلد حلّ فيه بواسطة أجهزة إعلامية ندر أن انتبهنا إلى أهمية استقلالها، وأن العرب قد خاضوا معركة لم يستعدوا لها، وأنه يجب عقد اجتماع عربي على مستوى القمة للمكاشفة الصريحة، إلى آخر هذه التعابير «البريئة» التي يطلقها حكام العرب عن «الأخطاء التي ارتكبت» وكأن غيرهم هم الذين ارتكبوا الأخطاء.

وفي اليوم الحادي عشر من تموز/ يوليو، عاد الملك حسين إلى عمّان، وسافر الرئيس الجزائري إلى دمشق، ولم تعد مهمته سراً على أحد، فقد أعلن على الجماهير المحتشدة خارج قصر الضيافة في دمشق «أنّه لا بُدَّ من الحرب، ويجب أن تتحول النكسة إلى قوة جارفة تدفعنا في طريق النصر».

وفي اليوم نفسه، وبعد سفر الملك حسين والرئيس بومدين، وصل عبد الناصر في المساء. وقد حضرت جانباً من الاجتماع، لخص الرئيس عبد الناصر خلاله الموقف الدولي، وأن الرئيس بومدين يقترح إعداد خطة لاستئناف القتال، وأنه ذهب إلى دمشق لإقناع الرئيس الأتاسي. وعقّب الرئيس العراقي على ذلك قائلاً: «المهم أن ينجح بومدين بإقناع البعث السوري بالقتال، فعلاً لا قولاً».

وفي اليوم نفسه، وصل جاكوب ماليك نائب وزير الخارجية السوفياتية في زيارة أعلن أنها تمتد يومين، فاستمرت تسعة أيام، وسأتحدث عنها في سياق الكلام.

وفي اليوم الثاني عشر من تموز/ يوليو عاد الرئيس بومدين من زيارة دمشق بعد أن قضى فيها يوماً واحداً اجتمع خلاله بالقادة السوريين، وصدر بلاغ مشترك يؤكّد «مواصلة النضال حتّى النصر».

وفي اليوم الثالث عشر من تموز/ يوليو وصل الرئيس السوري د. الأتاسي إلى القاهرة للانضمام إلى «القمة العربية المصغرة» التي أصبحت مؤلفة من الجمهورية العربية المتحدة والجزائر وسوريا والعراق، وعقدوا بينهم اجتماعاً مطولاً درسوا خلاله الموقف على الصعيدين العربي والدولي.

وفي الرابع عشر من تموز/ يوليو واصل الرؤساء الأربعة اجتماعاتهم، واشتركت وفودهم معهم في هذه الاجتماعات.

وحين كانت المناقشات دائرة في قصر القبة، كانت الاشتباكات العنيفة تدور على القنال بين القوات العربية والإسرائيلية، وكانت إسرائيل هي البادئة بإطلاق النار، حتّى يسمع الرؤساء الأربعة وهم يتناقشون في مؤتمر القمة. وقد أصدرت القيادة العامة للقوات العربية أربعة بلاغات عسكرية عن معارك يوم واحد:

البلاغ الأول أعلن أن القوات الإسرائيلية ضربت المواقع المصرية في القنطرة والفردان والإسماعيلية.

و**البلاغ الثاني** أعلن أن العدو حاول إنزال قارب آلي في قناة السويس في منطقة القنطرة، وكذلك بعض قوارب مطاط صغيرة، وجرى تبادل إطلاق النار بشدة.

و**البلاغ الثالث** أعلن أن العدو فتح نيران المدفعية والدبابات ومدافع الهاون على المواقع العربية في السويس.

و**البلاغ الرابع** أعلن أن العدو أغار بطائراته على السويس ومنطقة الزيتية أربع غارات جوية متتالية من الساعة الواحدة بعد الظهر حتّى الساعة الثامنة مساء (١٤/ ٧/ ١٩٦٧).

وفي اليوم الخامس عشر من تموز/ يوليو وصل الرئيس إسماعيل الأزهري إلى القاهرة وانضمّ إلى اجتماعات الرؤساء، فأصبح اجتماع القمة الصغيرة خماسياً. وانفرد الرؤساء الخمسة بالاجتماع وحدهم ليتعرفوا على الموقف ويضعوا الخطة.

وحين كان الرؤساء الخمسة يتباحثون ويتناقشون وقعت الاشتباكات مرة أخرى لليوم الثاني، ومن غرائب الصُدف أنّه صدرت خمسة بلاغات عن المعارك الدائرة: بلاغ واحد لكُلّ رئيس واحد. وقد تميزت هذه البلاغات بأن سلاح الجو العربي قد أخذ زمام المبادرة وتصدّى للقوات الإسرائيلية، فضرب مواقع العدو وأنزل بها خسائر فادحة.

ولقد حضرت جانباً من هذه الاجتماعات، كما تمت لي لقاءات ثنائية معهم، وكان محورها يدور حول استئناف القتال والاستعداد للمعركة وتعبئة الطاقات العربية في الميدان. وحدث في تلك الفترة حادثان وجو المناقشات على أشده. أحدهما عربي، والآخر دولي. ولا بُدّ لي وللمواطن العربي من وقفة لنمسك أنفاسنا، ونفتح عقولنا، ونتأمل.

الحدث الأول أثاره الملك فيصل بشأن استئناف ضخّ البترول لكُلّ من أمريكا وبريطانيا. وقد مهَّد لهذا الموضوع منذُ السابع من شهر تموز/ يوليو. ففي ذلك اليوم أعلن الملك فيصل من إذاعة جدة أنّه «يجب على الدول العربية البترولية أن تستأنف

شحن البترول إلى بريطانيا وأمريكا، لأنه لم يثبت لديه أن هاتين الدولتين قد ساعدتا إسرائيل على العدوان، وأن المواطنين السعوديين يطالبونه بإعادة النظر في موضوع وقف البترول حرصاً على اقتصاد البلاد، وأنه لا يستطيع إلا الاستجابة لمطالب المواطنين، وأن الملك حسين قد أدلى بتصريحات متعددة أثناء زيارته لأمريكا وأوروبا أكد فيها أن بريطانيا وأمريكا لم يكن لهما ضلع في العدوان الإسرائيلي على الدول العربية» ﴿**وشهد شاهد من أهلها**﴾[1] صدق الله العظيم. . . وأهلهم!

والتقط راديو لندن هذا الحديث، فأنجد الإذاعة السعودية التي لا يسمعها أحد، فأذاعه في كُلّ أرجاء العالم. وتساءلت كُلّ حبة رمل في صحارى الجزيرة العربية، ومتى كان الحكم السعودي، وأي حكم ملكي آخر، يقوم على مشيئة المواطنين ويستجيب لمطالبهم؟

وقد اغتنم الملك فيصل الفرصة، فرصة اجتماع الرؤساء الخمسة في القاهرة، فعادت إذاعة مكة إلى الحديث عن البترول مرة أخرى فقالت: «يجب إعادة النظر في موضوع البترول، ويجب العودة إلى تزويد كافة الدول بالبترول حرصاً على اقتصاد البلاد العربية».

كان هذا هو الحدث العربي الذي أثاره جلالة الملك فيصل بعد شهر واحد من العدوان الإسرائيلي. ومتى؟ في وقت اجتماع الرؤساء الخمسة، وفي أكثر الأوقات حاجة إلى الضغط على أمريكا، لتضغط بدورها على إسرائيل للانسحاب من الأراضي العربية المحتلة.

أما **الحدث الثاني**، فهو مجيء جاكوب ماليك نائب وزير الخارجية السوفياتية، يحمل إلى القاهرة مقترحات سوفياتية لتسوية أزمة الشرق الأوسط.

وقد اجتمع الدبلوماسي السوفياتي بالرئيس عبد الناصر عدة مرات، واجتمع بالرؤساء الأربعة، واجتمع بي مرات، بعضها في السفارة السوفياتية، وبعضها في قصر القبة، وماذا كانت المقترحات السوفياتية؟

تتلخص هذه الاقتراحات كما عرضها الدبلوماسي السوفياتي في الأمور التالية:

أولاً: إن إسرائيل كدولة معترف بها في الأمم المتحدة، أمر واقع لا مجال لإنكاره.

ثانياً: إن من حقّ إسرائيل السيادة على أراضيها والأمن لشعبها.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآية ٢٦.

ثالثاً: إن حالة الحرب بين الدول العربية وإسرائيل التي استمرّت منذُ عام ١٩٤٧ يجب أن تزول باتفاق جميع الفرقاء المعنيين.

رابعاً: إنه يجب تعيين حدود نهائية لدولة إسرائيل بالاتفاق مع الدول العربية.

خامساً: إن إسرائيل يجب أن تمارس حقّ المرور البريء في قناة السويس وفي خليج العقبة.

سادساً: إن قضية اللاجئين، عودتهم أو تعويضهم، يجب أن تبحث في مؤتمر دولي يشترك فيه جميع الفرقاء المعنيين.

سابعاً: إن التفاهم حول الأمور المختلف عليها بين الفريقين يجب أن يتم بمباحثات عن طريق وسيط دولي يختاره مجلس الأمن.

ثامناً: إن التفاهم مع الولايات المتحدة حول هذه القضايا أمر ممكن ومرغوب فيه.

تاسعاً: إن الوفود العربية قد أخطأت خطأ بالغاً في أنها صوتت في الدورة الطارئة ضدّ مشروع الدول اللاتينية، فإنه مشروع جيد.

عاشراً: إن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة مستعدان لبذل جهود جديدة في الأمم المتحدة لاستصدار قرار من الأمم المتحدة في إطار المبادئ الآنفة الذكر.

وفي خلال عرض هذه الآراء أضاف الدبلوماسي السوفياتي أن رؤساء الدول الشيوعية في اجتماعهم الذي عقد أخيراً (١٢/ ٧/ ١٩٦٧) قد اتفقوا على استخدام الوسائل المناسبة من أجل إعادة السلم إلى الشرق الأوسط، ومن أجل التعاون والتنسيق الاقتصادي بين الدول الشيوعية والدول العربية.

ولم يجد الدبلوماسي السوفياتي موافقة على مقترحاته من الرؤساء الخمسة، ولا مني بوصفي رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية. وعاد إلى موسكو وهو يقول لي قبل سفره: «لعلي الدبلوماسي الوحيد في العالم الذي قابل خمسة رؤساء دول، ورئيساً من غير دولة (يعني المنظمة)، لأبحث معهم في مهمة أستطيع أن أسميها «المهمة المستحيلة».

قلت: «إنها مهمة مستحيلة فعلاً. إن هذه المقترحات فيها تصفية للقضية الفلسطينية. فكيف تريد من الدول العربية ومن الشعب الفلسطيني أن يوافق عليها؟».

قال: «جربوا ولو مرة واحدة».

قلت: «وما الفائدة من التجربة. لقد أصدرت الأمم المتحدة عشرات القرارات

بشأن القضية الفلسطينية ولم ينفذ واحد منها، بشأن عودة اللاجئين، وبشأن القدس، وأخيراً بشأن النازحين الذين نزحوا بعد العدوان الإسرائيلي الأخير. كلها بقيت حبراً على ورق».

ولم يستطع الدبلوماسي السوفياتي أن يقول شيئاً. وعاد إلى موسكو ليقدم إلى القادة السوفيات تقريراً عن «المهمة المستحيلة».

وانتهت مباحثات الرؤساء الخمسة، واتفقت كلمتهم على عقد مؤتمر قمة في الخرطوم لوضع الخطة العربية الشاملة، وأصدروا بياناً جاء فيه: «أكد الرؤساء ثقتهم المطلقة في أن إمكانيات الشعب العربي الضخمة وقدراته الخلاقة كفيلة بأن تحيل هذه الانتكاسة إلى منطلق جيد نحو الأهداف الشريفة والعادلة. وقد اتفق الرؤساء العرب على اتخاذ الإجراءات الفعالة الكفيلة بإزالة آثار العدوان الاستعماري الصهيوني على الوطن العربي. كما أجمع الرؤساء على ضرورة تحديد علاقة الدول والشعوب العربية مع الدول الأخرى في ضوء موقفها تجاه العدوان والآثار المترتبة عليه». واقترح إسماعيل الأزهري رئيس مجلس السيادة السوداني عقد اجتماع لوزراء الخارجية العرب في الخرطوم، ووافق الرؤساء على هذه الدعوة، ووافقوا على أن يحضر وزراء الخارجية هذا الاجتماع في وقت قريب.

هذه هي سطور البيان، أما ما ورد بين السطور، فقد كانت في هذا البيان أمور أخرى كان فيها:

أولاً: إن الملك فيصل ومعه الدول البترولية الأخرى يجب أن يحددوا علاقتهم ببريطانيا وأمريكا في ضوء موقفهما من العدوان الإسرائيلي.

ثانياً: إن على جميع الدول العربية أن تضع قدراتها كافة في المعركة، وأن تتم تعبئة الطاقات العربية وفق ما تجمع عليه الدول العربية في مؤتمر الخرطوم.

ثالثاً: إن الأمم المتحدة ومعها المساعي السياسية والدبلوماسية ليست بديلاً من المعركة.

رابعاً: إن الصداقة مع الاتحاد السوفياتي تحكمها كذلك العبارة الواردة في البيان، وهي أن «الدول العربية تحدد علاقتها مع الدول الأخرى في ضوء موقفها من العدوان الإسرائيلي».

خامساً: إن الرئيسين العراقي والجزائري سيسافران إلى موسكو ليناشدا الاتحاد السوفياتي باسم الأمة العربية أن يتخذ موقفاً أشدّ صلابة وحزماً، ويبادر إلى تقديم العون العسكري والاقتصادي الذي يمكن الدول العربية من استئناف القتال».

وقد تمّ فعلاً تنفيذ البند الأخير. فقد انتهى الرؤساء الخمسة من اجتماعهم، واستقل الرئيسان العراقي والجزائري طائرة إلى موسكو، بينما عاد الرؤساء الآخرون إلى بلادهم.

وكانت زيارة الرئيسين العربيين إلى موسكو قصيرة جداً، ولعلها أقصر زيارة رسمية في تاريخ العلاقات العربية ـ السوفياتية. فقد كانت يوماً واحداً فقط، منها أكثر من اثنتي عشرة ساعة في مباحثات مع قادة السوفيات، صدر في نهايتها بيان رسمي جاء فيه: «إن المحادثات بين الرئيسين عارف وبومدين وقادة الاتحاد السوفياتي أظهرت أن الاتفاق كان تاماً بينهم على أن تصفية آثار العدوان الإسرائيلي هي أهم شرط لإعادة السلام إلى الشرق الأوسط. وقد أبلغ الرئيسان العربيان زعماء الاتحاد السوفياتي ما دار في الاجتماع الخماسي العربي. وأبلغ السيدان كوسيغن وبريجنيف بدورهما ما دار في اجتماعات الدول الشيوعية الذي انعقد في بودابست في ١٢ تموز/ يوليو ١٩٦٧».

ولم أشأ أن أسمح لممارستي الطويلة في فهم العبارات السياسية أن أستنتج ما فهمته في هذا البيان الرسمي، فما هو إلا يوم واحد إلا وعاد الرئيسان العربيان من موسكو إلى قصر القبة رأساً من غير استقبال في المطار.

واجتمعت مع الرئيسين العربيين، وذكرا ما دار بينهما وبين قادة السوفيات. . وعادا من دون أن يستطيعا إقناع قادة السوفيات بالضرورة الملحة لاستئناف القتال، وأن الاتحاد السوفياتي، كما قال الرئيس العراقي في ختام الحديث: «لا يزال يؤمل خيراً في الأمم المتحدة، وأنه يمكن الوصول إلى تسوية سلمية، ولكن الأمر يحتاج إلى صبر، وإلى جهود سياسية واسعة، وأن على الدول العربية أن تقوم باتصالات مع جميع دول العالم، وألا يقتصر الجهد العربي عل أروقة الأمم المتحدة».

هذا ما عاد به الرئيسان العربيان إلى القاهرة: مجموعة من النصائح السياسية القيمة، يمكن أن تقدمها أية دولة أخرى لا تملك حشداً ضخماً من الأساطيل في البحر الأبيض المتوسط، وليس لديها أسلحة متقدمة تحسم مصير المعركة، وفي أقل من الأيام الستة.

وهكذا تأكدت أني فهمت البيان العربي السوفياتي على حقيقته حين قال إن الاتفاق بين الجانبين لم يكن على استئناف القتال، بل كما قال البيان، على أن تصفية آثار العدوان هي أهم شرط لإعادة السلام إلى الشرق الأوسط. وهذه بديهية ولا تحتاج إلى بيان ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾[٢] صدق الله العظيم.

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة الرحمن،» الآية ١٣.

ومرت أيام وجاءت ذكرى العيد الخامس عشر للثورة (٢٣ تموز/ يوليو) فألقى الرئيس جمال عبد الناصر أول خطاب له بعد النكسة استعرض فيه أسباب الهزيمة شارحاً دور الخديعة الأمريكية بالتفصيل، والظروف والملابسات التي سبقت المعركة، مع التركيز على دور باخرة التجسس الأمريكية «ليبرتي» التي ضربتها الطائرات الإسرائيلية «خطأ».

ثُمّ انتقل إلى الموقف العربي، فقال: «حصلت اجتماعات في القاهرة. الحقيقة هذه لم تكن اجتماعات مرتبة أبداً، الرئيس بومدين بعث لي أنّه جاي القاهرة الصبح.. واستقبلنا بومدين. الملك حسين برضه بعث رسالة وقال إنّه يحبّ يجي القاهرة. قلنا له أهلاً وسهلاً، وجه. برضه الأخ عبد الرحمن عارف وماعرفتش أنّه حيوصل القاهرة إلا قبل ما يوصل بساعة. وبعدين جاء الرئيس الأتاسي من سوريا، والرئيس الأزهري من السودان، وعلى هذا انعقد الاجتماع من دون تدبير واتكلمنا فيه على إزالة آثار العدوان».

وهنا أرهف الكثيرون آذانهم لعلهم يسمعون شيئاً عن رحلة الرئيسين عارف وبومدين إلى موسكو ولو بكلمة عابرة.. ولكن الرئيس عبد الناصر قفز عن الموضوع من غير إشارة. وكان على حقّ في ذلك، فالاتحاد السوفياتي كان الدولة الوحيدة التي تمدّ الجمهورية العربية المتحدة بالعون الاقتصادي والعسكري.

وتابع الرئيس عبد الناصر خطابه قائلاً: «وهل يحجب هذا المؤتمر إمكانية عمل عربي؟ يقول: لا. يجب أن ينزل الحكام على رأي الشعب العربي في كُلّ بلد عربي. والمعركة تستدعي تعبئة كُلّ بندقية عربية وكُلّ جنيه عربي. وأنا بقول إن إحنا لازم نروح مؤتمر قمة علشان نضع كُلّ واحد قدام مسؤولياته. نحن مستعدين نروح مؤتمر القمة واللي عايز يساهم في المعركة يساهم واللي مش عايز يساهم ميساهمش. ولكن النهار ده إحنا اللي بنعبئ للمعركة. وجرايد الملك فيصل لا تشارك بأي شيء إلا أنها تنتقدنا. طبعاً يمكن بعثوا لواء بعد انتهاء المعارك وبعد إيقاف النار إلى الأردن».

واستطرد الرئيس عبد الناصر بعد ذلك مطمئناً المملكة العربية السعودية وأخواتها فقال: «إحنا لسنا ضدّ أي بلد عربي. إحنا منغيرش النظام الاجتماعي في أي بلد عربي. وإحنا مش ضدّ نفوذ أي بلد عربي. ولكن نريد لأي بلد عربي أن يكون أصيل، حقيقي. وحينما اقترح رئيس جمهورية السودان مؤتمر القمة وافقنا، ولكن نريد ضمانات نجاح لمؤتمرات القمة».

تلك هي الملامح العامة للصورة التي أرادها الرئيس عبد الناصر لمؤتمر القمة الذي سينعقد في الخرطوم.

وبقيت الجماهير العربية أربعين يوماً، بعد ذلك، في انتظار مؤتمر القمة في الخرطوم وهي تتساءل:

ـ هل سيكون مؤتمر الخرطوم كمؤتمرات القمة الثلاثة التي انعقدت قبل الهزيمة، قرارات من غير تنفيذ؟

ـ هل سيضع مؤتمر الخرطوم كُلّ طاقات الأمة العربية في المعركة؟

ـ هل ستنبثق عن مؤتمر الخرطوم خطة عربية شاملة، عسكرية وسياسية واقتصادية، لإزالة آثار العدوان؟

ـ وهل يستخدم البترول كسلاح فعال في المعركة؟

ـ وهل.. وهل.. وغير ذلك من التساؤلات والتساؤلات.. وقد غاب عنا قول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم**﴾[٣] صدق الله العظيم.

(٣) المصدر نفسه، «سورة المائدة،» الآية ١٠١.

حديث الأسرار.. بيني وبين عبد الناصر

كان العيد الخامس عشر لثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٦٧ هو العيد الأول بعد النكبة. وامتزجت انتصارات الثورة بانتكاسات النكبة، وسنترك للتاريخ وحده أن يحكم أيهما أرجح. ومعالم الرجحان لا تتجلى إلا بعد هدوء العواصف والعواطف.

وكنت في ذلك اليوم أجلس على المنصة الرئيسيّة في جامعة القاهرة، أستمع إلى خطاب الرئيس عبد الناصر، وهو يقلّب أوراقه بين يديه، ينتقل من موضوع إلى موضوع، ويدير بصره في الحاضرين من شرفة إلى شرفة.

ووصل الرئيس عبد الناصر إلى الصفحة الأخيرة من خطابه، فركّز بصره عليَّ، وكأنه يريد أن يخاطبني وحدي، وقال:

«إن الطريق الوحيد أمامنا على رغم النكسة هو المحافظة على حقوق شعب فلسطين، ولن نتخلى عن حقوق شعب فلسطين. هذا أساس القضية. ولا يمكن على رغم النكسة وعلى رغم احتلال سيناء أن نتخلى عن حقوق شعب فلسطين. وإني أثق أن أجيالاً قادمة سوف تلتفت إلى هذه الفترة وتقول: كانت تلك من أقسى فترات نضالهم، ولكنهم كانوا على مستوى المسؤولية وكانوا الأوفياء لأمانتها. وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

كانت هذه الكلمات هي آخر ما جاء في خطاب الرئيس عبد الناصر في ذكرى ذلك اليوم المنتصر المنكسر. وانصرف الرئيس عبد الناصر إلى صالة الاستراحة في جامعة القاهرة، ودخلت عليه مع نوابه ووزرائه للسلام والتحية:

وقلت: «الخطاب عظيم، ختامه مسك».

قال: «هو ما عجبكش إلا عن فلسطين».

قلت: «الخطاب كُلّه موفق، خاصة عن فلسطين».

قال: «أنا ما شفتك من يوم ما سافرت مع الملك حسين إلى عمّان بطائرته» (٣٠/ ٥/ ١٩٦٧).

قلت: «اجتمعنا في قصر القبة أثناء زيارة بودغورني واجتماعات القمة الخماسية».

قال: «لا، هذه اجتماعات عرضية. أشوفك بكرة. تعال عندي إلى البيت».

وفي اليوم التالي (٢٤ تموز/ يوليو) خرجت من مكتبي إلى منشية البكري، وإلى منزل الرئيس عبد الناصر. وتأخر الرئيس نصف ساعة عن موعده. وحسبت أني مخطئ في الموعد، أو أن ساعته مخطئة. وبدر لي أن أخرج إلى المكاتب المجاورة، وهي مكاتب السكرتارية، لأتأكد من صحة الموعد. وإذا بالرئيس عبد الناصر يدخل الصالة، وتدخل يداه وساقاه قبله، وهو يقول: «أنا تأخرت عليك. قبل قليل جاءتني الميزانية الجديدة، كنت أدرسها، نحن الآن نعدّ ميزانية تقشف استعداداً للمعركة».

ثُمّ قال: «إحكي لي من الأول، ومن يوم سافرت مع الملك حسين».

ورويت للرئيس عبد الناصر على مدى ساعة ويزيد ما كان من أمر سفري مع الملك حسين، وما جرى بيني وبينه من أحاديث حول المعركة، وعن سقوط القدس، ثُمّ سفري إلى دمشق وبيروت وأثينا وطرابلس (ليبيا) والقاهرة إلى آخر تفاصيل الرحلة الطويلة، كما رويتها في مذكراتي.

وقلت: «ولكني أريد أن أسمع عن ظروف المعركة هنا. ليس عندي من المعلومات إلا ما قرأته في الصحف».

قال: «المعركة أشبه بالحلم، بالخيال، لا أكاد أصدق ما وقع، المعركة انحسمت في اليوم الأول، بعد أن دمر العدو سلاحنا الجوي ومطاراتنا. القيادة العسكرية وقعت في ارتباك شديد. أنا كنت أقدّر أن المعركة واقعة لا محالة، وأنها ستقع في الخامس من حزيران/ يونيو، وأن الضربة الأولى ستكون موجهة على سلاحنا الجوي، وأنا حذرت القيادة العسكرية بنفسي، ولكن القيادة العسكرية لم تأخذ الموضوع بالجد الكافي. تصور أن قيادتنا العسكرية بكاملها وعلى رأسها المشير عامر، ومعه الفريق صدقي قائد سلاح الجو، قد غادروا مطار القاهرة إلى سيناء في صباح الخامس من حزيران/ يونيو قبل العدوان الإسرائيلي بـ ٥ دقائق في طائرة خاصة، وفي طريقها مرت على مطاراتنا العسكرية، فلم تتمكن من الاتصال بها، بعضها كان تحت اللهب، وبعضها كان يتصل بطائرة المشير ليخبرها أن مطارهم تحت القصف من قبل العدو. وعادت طائرة المشير إلى القاهرة من دون أن تجد مطاراً واحداً قادراً على استقبالها.

حينئذ أدركت القيادة العسكرية أن العدو قد قام بهجوم شامل علينا، وقد هبطت طائرة المشير في مطار القاهرة الدولي، ونزل منها المشير عامر والفريق محمود صدقي وأركان القيادة العسكرية، وبعد أن غادروها ببضع دقائق ضربتها الطائرات الإسرائيلية وجعلوها كومة نار».

وتابع الرئيس عبد الناصر حديثه وهو يمسك أنفاسه وقال: «إن نكبتنا هي نتيجة أخطاء متراكمة منذُ سنين. بعض الناس يظنون أني أنا الحاكم بأمر الله في القاهرة، وأنه كان يجب عليَّ أن أتجنب كُلّ الأخطاء. أنا لا يمكنني أن أكون بجوار كُلّ ضابط وكُلّ موظف لأطمئن على أنّه يقوم بواجبه على أكمل وجه. البلد فيها مراكز قوى كثيرة غيري، أنا لست مسيطراً على كُلّ شيء. المرحوم عبد الحكيم عامر كان أعز عليَّ من إخواتي، ومع هذا كم.. وكم.. كنا نختلف، ونبقى نتجادل إلى الفجر حتّى نسوي خلافاتنا في ما بيننا. هو يتنازل شوية وأنا أتنازل شوية ويتم الاتفاق. لم تكن كُلّ الأمور كما أريدها، كان في قوى كثيرة في البلد تتصارع، ولم يكن بالإمكان لا الاستغناء عنها، ولا اصلاحها بالكامل، كنت أعمل ما أستطيع. الخلاصة أنّه يوم جاءت المعركة كانت هذه أوضاعنا».

ومضى الرئيس عبد الناصر في حديثه قائلاً:

«بعد ثلاث ساعات من العدوان أصبح جيشنا من دون غطاء جوي. أولادنا قاتلوا قتالاً شجاعاً في اليومين الأول والثاني. والذي بقي من سلاحنا الجوي قام بغارات انتحارية على العدو وأنزل به خسائر فادحة. مصفحاتنا ودباباتنا خاضت معارك رهيبة مع العدو وتغلبت عليه في عدة مواقع، ولكنها كانت من غير غطاء جوي. خسرنا خسائر كبيرة أثناء الانسحاب، وانسحابنا لم يكن منتظماً. ففي العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ قررنا الانسحاب من سيناء وأنا أعلنته بنفسي، وبذلك تجنبنا أن يقع جيشنا في كارثة. ولكن هذه المرة كان الانسحاب كارثة، لأن القيادة لم ترتب الأمور. أولادنا العساكر والضباط وصف الضباط مقاتلون أبطال، ولكن مشكلتنا في الضباط الكبار، نحن الآن نسرّح العشرات من الضباط الكبار، وسنقدم المسؤولين إلى المحاكمة. نحن الآن نعيد بناء الجيش من الصفر. خسرنا ثمانين في المائة من أسلحتنا، وما لا يقل عن عشرين ألف شهيد وأسير وجريح ومفقود. وكان معظمهم في أثناء عملية الانسحاب. الذين فقدناهم في المعركة أثناء الالتحام مع العدو كانوا بضع مئات، ولكن الذين فقدناهم أثناء الانسحاب يتجاوزون الألوف. الطيران الإسرائيلي كان يتعقب جنودنا في كُلّ مكان في الصحراء، وكثيرون ماتوا عطشاً وتعباً، ولم يستطيعوا الوصول إلى منطقة القنال وهم على قيد الحياة».

وقلت للرئيس عبد الناصر: «أريد أن أستوضحكم عن مسألة مهمة، هي حديث الجماهير العربية في كُلّ مكان. هذه المسألة تتعلق بالخطة العسكرية. أنا أعرف عدداً من العسكريين يرددون أنّه كان يجب أن يقوم الجيش المصري بالمبادرة العسكرية، بالهجوم على إسرائيل. إنهم يقدّرون أن تكون النتيجة أقل سوءاً حتّى لو انتهت المعركة إلى هزيمة. وأنا أذكر أن المارشال مونتغمري كان قد عقد ندوة عسكرية في أكاديمية ناصر (في ١٥ أيار/ مايو ١٩٦٧) وقد حضر هذه الندوة كبار العسكريين في مصر، وحضر معهم ثلاثة من ضباط جيش التحرير الفلسطيني، وقد طرح السؤال في هذه الندوة عن احتمالات الحرب مع إسرائيل. وأن المارشال مونتغمري قد حذر الجيش المصري من أن يحارب حرباً دفاعية في سيناء، وذكر أسباباً كثيرة تأييداً لرأيه. والمهم أن مونتغمري قال هذا الكلام قبل المعركة بعشرين يوماً».

وقاطعني الرئيس عبد الناصر وقال: «لقد وصلني تقرير كامل عن ندوة المارشال مونتغمري.. الفريق عبد المنعم رياض حدثني عنها شفوياً في اليوم نفسه.. وأنا طلبت منه أن يلتقي بالمارشال مونتغمري في جلسة خاصة حتّى يعرض عليه أوضاعنا.. إن كلام المارشال مونتغمري يقوم على أساس خطة مثالية.. ولكننا لنا أوضاع تفرض علينا خطة الدفاع. فلاسفة الحرب في العالم العربي أصبحوا الآن يتشدقون ويتساءلون: لماذا عبد الناصر لم يهجم؟ الناس يقولون إن عبد الحكيم عامر كان يريد الهجوم وعبد الناصر كان مخالفاً. الواقع غير هذا بالمرة. الحقيقة أنّه في ٢٢ أيار/ مايو كان اجتماع اللجنة التنفيذية في بيتي. كنا جالسين هنا في هذه الحجرة. قلت للجنة التنفيذية العليا: إن احتمالات الحرب ٥٠ في المائة، وفي ما بعد عقدنا اجتماعاً آخر وقلت: إن احتمالات الحرب ٨٠ في المائة. وفي اجتماعاتنا السياسية والعسكرية كان واضحاً من البداية أن عملنا دفاعي، وأننا لن نقوم بالهجوم. وفي هذه الاجتماعات لم يتكلم المشير عامر ولا خلافه بشأن الهجوم على إسرائيل، وكنت دائماً أوضّح، أي عمل هجومي على إسرائيل سيعرضنا لمخاطر كبيرة، وأول هذه المخاطر هو أن تهاجمنا أمريكا، وتصريحات أمريكا واضحة في هذا الموضوع. وكانت عمليتنا كلها هي عملية دفاعية نقصد من ورائها أن نردع إسرائيل حتّى لا تقوم بأي عدوان على سوريا. وفي بداية شهر حزيران/ يونيو أصبح احتمال الحرب مائة في المائة. وفي يوم ٢ حزيران/ يونيو ذهبت إلى القيادة العسكرية وقلت لجميع المسؤولين العسكريين: إن إسرائيل ستوقع ضربتها علينا في خلال ٢٤ ساعة إلى ٧٢ ساعة، بل إني توقعت أن تكون الضربة الأولى في يوم ٥ حزيران/ يونيو بالتحديد على سلاحنا الجوي».

قلت: «ألم يكن ممكناً الاستمرار في القتال حتّى بالقوات الباقية».

قال: «كان هذا ممكناً لو أن الجبهة السورية بقيت ثابتة. لو أن الجيش السوري

استمرّ في القتال، لأمكن أن نستمر في القتال. الجيش السوري لم يقاتل في بداية المعركة. كان نشاطه قاصراً على مناوشات جوية وأرضية. كان العدو واضعاً كُلّ ثقله على جبهة سيناء. ولما خلَّص علينا خلَّص على سوريا. سوريا لم تحارب. إسرائيل هي التي حاربت سوريا. كان يمكن الجيش السوري أن يصمد في الجولان أسبوعين. تحصينات الجولان عظيمة، أنا أعرفها، بالإضافة إلى حصانتها الطبيعية، إنها ليست مثل سيناء صحراء مكشوفة. نحن أصلاً قمنا بهذه العملية من أجل سوريا، ولما دخلنا المعركة إخواننا البعثيين لم يحاربوا، أنا اتصلت بالدكتور الأتاسي يوم خمسة حزيران/ يونيو بالتلفون، وناشدته أن يبدأ الجيش السوري بالهجوم على إسرائيل. سهل الحولة ومنطقة طبريا وصفد تحت رحمة الجيش السوري. مصافي البترول في حيفا ليست صعبة المنال على سلاح الجو السوري. ولكن إخواننا البعثيين ما أرادوا أن يحاربوا. الجيش السوري بطل. الشعب السوري بطل. لكن المشكلة في البعثيين».

قلت: «لقد كان الوفد السوري برئاسة د. الأتاسي في القاهرة منذُ بضعة أيام، ألم تسألوه عن الأسباب؟».

قال: «ليس الوقت وقت عتاب ولا تحديد مسؤوليات. كُلّ الذي قالوه إنهم فوجئوا في المعركة، وإنهم لم يظنوا أنها معركة شاملة، وأنها مثل المعارك المحدودة السابقة».

قلت: «أنا أعرف الوضع العربي جيداً، وكذلك فإني أعرف الوضع الدولي جيداً، وبخاصة الموقف العدائي الذي وقفته الولايات المتحدة وحلفاؤها. يهمني أن أعرف موقف الاتحاد السوفياتي».

قال: «ولماذا نحاسب الاتحاد السوفياتي؟ نحن أولى بالحساب. صحيح أن موقف الاتحاد السوفياتي قبل المعركة وأثناءها وبعدها لم يكن الموقف المطلوب، لم يكن موقفاً حسناً، ولكن موقف إخواننا البعثيين كان أخطر بكثير. نحن لا نتوقع من الروس أن يحاربوا معنا. المعركة معركتنا نحن العرب، ونحن الذين يجب أن نحارب.

«لما جاء الملك حسين إلى القاهرة في آخر شهر أيار/ مايو ووقّعنا اتفاقية الدفاع المشترك مع الأردن، أنا اتصلت تلفونياً بالرئيس الأتاسي وأخبرته بكل ما جرى بيننا وبين الملك حسين. وأخبرتهم أننا مقبلون على معركة، وأن الموقف يفرض علينا أن نتفاهم مع الملك حسين، وأنت عارف الموضوع من أوله إلى آخره. وكان حديث الرئيس الأتاسي فاتراً. ثُمّ علمت أن إخواننا البعثيين طبعوا عدة صور عن اجتماعنا في القاهرة ـ أنا والملك حسين وأنت ـ وكتبوا تحت صورنا «العملاء الثلاثة»، ووزعوها على مكاتب الحزب ودوائر الحكومة، وبقيت هذه الصور معلقة عندهم ولم

يسحبوها إلا عند انتهاء المعركة، ثُمّ إنه بلغني أن د. إبراهيم ماخوس (وزير الخارجية السورية) كان يردّد في أحاديثه بعد الهزيمة قوله بأنهم جروا رجلي إلى المعركة».

وتابع الرئيس عبد الناصر حديثه، وهو يسحب سيجارته عميقاً إلى صدره، قائلاً: «المعركة ليست معركة عبد الناصر ولا معركة مصر وحدها. إذا أنا انكسرت، وانكسرت مصر، فليست الهزيمة علينا وحدنا، إنها هزيمة العرب، وماذا يستفيد البعثيون في دمشق إذا انكسرت مصر وانكسر عبد الناصر؟، فليتفضلوا ويقودوا الأمة العربية إلى النصر. أنا أعرف أن البعث في دمشق يريد أن يتولى قيادة الأمة العربية، فليتفضلوا، الساحة أمامهم مفتوحة، المعركة أمامهم جاهزة الآن. لقد انكسرت أنا وانكسرت مصر، فليتفضلوا ويقودوا وأنا أمشي وراءهم، وأضع نفسي تحت تصرفهم، وإذا انتصروا، فسأضع أكاليل الغار بيدي في رقابهم».

ومضى الرئيس عبد الناصر يتحدث عن حزب البعث فقال: «أنا أعلنت عدة مرات إني أتحمل المسؤولية كاملة بالنسبة إلى النكسة التي حلت بنا. والواقع أن حزب البعث يتحمل المسؤولية الكبرى، ألم يكن حزب البعث هو الذي كان يتحرش بإسرائيل في منطقة الحولة؟ ألم يكن هو الذي يتعرض للمستعمرات اليهودية على الحدود باستمرار؟ ألم يكن هو الذي استغل حماسة الشباب الفلسطيني وكان يحرضهم على أعمال فدائية قبل أن نستكمل استعداداتنا العسكرية؟ لقد فعلت كُلّ جهدي لأتفاهم مع حزب البعث في سوريا ولكني لم أنجح، إنهم يريدون رأس عبد الناصر. بعد الانفصال مع سوريا حاولت كُلّ جهدي أن أتفاهم مع حزب البعث. في شهر أيار/ مايو، بعد أن حشدت إسرائيل قواتها على الجبهة السورية، أنا أرسلت الفريق فوزي يعرض أسراباً من سلاحنا الجوي لتتواجد في سوريا، العسكريون السوريون كانوا موافقين ولكن القيادة السياسية لم توافق. لو كانت بعض قواتنا الجوية موجودة في سوريا أثناء العدوان الإسرائيلي لأمكننا أن نغيّر سير المعركة. ولكن حزب البعث كان خايف منا، خايف من عودة الوحدة، أكثر من خوفهم من إسرائيل».

وتابع الرئيس عبد الناصر حديثه قائلاً: «وأنا تخليت عن الوحدة من أجل التفاهم مع البعث. حتّى إني أغضبت الوحدويين في سوريا، جميع القوى الوطنية في سوريا كانت زعلانة مني لأني سرت مع حزب البعث، اعتبروا إني خذلتهم وتخليت عن قضية الوحدة. وكانت النتيجة أنّه في صباح الخامس من حزيران/ يونيو كان إبراهيم ماخوس في وزارة الخارجية في دمشق يكتب مذكرة لترسل إلى السفارات السورية في الخارج بأن حزب البعث هو الذي فجر المعركة، وأن المعركة تسير نحو النصر، وأن الفضل يعود في ذلك إلى حزب البعث. وفي ستة حزيران/ يونيو، بعد أن ظهرت المعركة لا تسير في صالحنا، عدل ماخوس عن المذكرة، وراح يكتب

مذكرة أخرى بأن عبد الناصر هو سبب الهزيمة، وأني ورطت حزب البعث في هذه المعركة. واجتمعت قيادة البعث في ٧ تموز/ يوليو على أساس أني ورطت حزب البعث وقرروا أن يسحبوا الجيش السوري من الجبهة، وأن تنسحب الحكومة من دمشق إلى حمص، وكانت حجتهم في ذلك أنّه يجب الحفاظ على نظام الحكم، وأن العدو الإسرائيلي إذا احتل الأرض يمكن استردادها، لكن إذا سقط النظام لا يمكن إعادته. وهذا ما جرى فعلاً. فقد انسحبت الحكومة إلى حمص وانسحب الجيش، ولم يبق في دمشق إلا القادة العسكريون.

كان الرئيس عبد الناصر يتحدث بمرارة وعيناه الواسعتان تشعان غضباً وحزناً، فأمسكت بزمام الكلام لأعطيه فرصة برشف فنجان القهوة الذي طال انتظاره ويهدئ روعه بعض الشيء، وأخذت أتحدث عن جيش التحرير الفلسطيني في قطاع غزة وكيف أن القوات الفلسطينية خاضت معارك ضارية في وجه القوات الإسرائيلية وكبدتها خسائر فادحة في الضباط والأفراد والعتاد، وكيف أن خان يونس قد دخلتها القوات إسرائيلية ثلاث مرات، وأُخرجت ثلاث مرات.

واسترسلت في هذه الحديث، وقاطعني قائلاً: «ليت الآخرين مثل جيش التحرير الفلسطيني والشعب الفلسطيني، أنا جاءتني تقارير عن بطولة جيش التحرير في قطاع غزة. وعلمت أن عدداً من الضباط الفلسطينيين قد انسحبوا مع زملائهم المصريين، وأنا أصدرت أن يعاملوهم مثل الضباط المصريين».

وهنا سألني عبد الناصر: «وكيف أحوال المنظمة في الظروف الحاضرة؟».

قلت: «الشعب والجيش على روح معنوية عالية. في قطاع غزة والضفة الغربية الأهالي مستعدون للمقاومة المسلحة. وأنا ما كنت أريد أن أزيد متاعبك بالحديث عن متاعبي، ولكن ما دمت تكلمت عن البعثيين، فلا بأس من أن أنقل إليك خبراً مثيراً للذهول. لقد قررنا في المنظمة بعد النكسة أن نبدأ مقاومة مسلحة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي في داخل البلاد، وقد أفرزنا ثمانية عشر ضابطاً من جيش التحرير من أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة لنرسلهم إلى داخل البلاد، إلى مدنهم وقراهم، عند أهلهم وذويهم، ليبدأوا إنشاء خلايا مدربة على السلاح، وتشرع في القيام بحرب العصابات. وسافر ضباطنا إلى دمشق، ليسافروا منها إلى عمّان، ومنها إلى الضفة الغربية. وفي دمشق قبضت السلطة على ضباطنا، وأودعوا سجن المزة لثلاثة أيام، وأجرى معهم اللواء أحمد سويداني رئيس أركان الجيش السوري تحقيقاً واسعاً، وتردّد ضباطنا في بادئ الأمر أن يذكروا له الحقيقة، لكنهم، اعتزازاً بمهمتهم وتسهيلاً لإطلاق سراحهم، كشفوا له عن حقيقة مهمتهم، فما كان من اللواء سويداني إلا أن

اقتادهم في اليوم الرابع إلى مطار دمشق، وركبوا الطائرة إلى القاهرة، وهو يقول لهم: «قولوا للشقيري الذي بعثكم: ما لكم طريق من هنا». ووصل ضباطنا الثمانية عشر إلى القاهرة، يروون لي هذه الحكاية، ولولا أن الذين قصّوها عليّ كانوا ثمانية عشر لظننت أنها أضغاث أحلام، كما يقول العرب. ومع هذا فإن جيش التحرير الفلسطيني في سوريا، ويبلغ ستة آلاف، كان في الخطوط الأمامية أثناء المعركة. نحن ندفع رواتب جيش التحرير في سوريا، وسوريا لا تدفع التزاماتها إلى المنظمة، ولا إلى جيش التحرير الفلسطيني».

وقال: «وما هي أحوالكم المالية في الوقت الحاضر؟».

قلت: «معظم الدول العربية متخلفة عن التزاماتها. ولا ندري كيف نستطيع الاستمرار في استبقاء جيش التحرير الفلسطيني».

قال: «بالنسبة الينا، نحن نتقاسم رغيفنا معكم. وأنت تعلم أننا نعيش ظروفاً مالية صعبة، وسأصدر الأمر إلى الفريق فوزي أن يدفع مخصصات جيش التحرير الموجود عندنا من ميزانيتنا، إلى أن يفرجها الله».

وسألني الرئيس عبد الناصر: «وكم كانت خسائر جيش التحرير في الجبهة السورية؟».

قلت: «لم يصلني العدد الكامل حتّى الآن».

قال: «وهل تعلم أن خسائر الجيش السوري في المعركة كانت عشرين ضابطاً، ومائة وخمسة وعشرين جندياً؟ وهذا العدد أقل من الضحايا الذين سقطوا أمام بيت الرئيس أمين حافظ لما قامت محاولة انقلابية عليه».

قلت: «يظهر أن القيام بانقلاب في دمشق أهم من الحفاظ على الجبهة السورية، وأغلى ثمناً من الدفاع عن الوطن».

قال: «البعثيون ليسوا وحدهم مصدر الشرّ في الوطن العربي. مصيبتنا أيضاً في بورقيبة، وفي الحسن، وفي الحسين».

قلت: «أنا أعرف هؤلاء الثلاثة. ولكن هل من جديد بشأنهم؟».

قال: «الحسن الثاني يهاجمنا في مجالسه مثل الملك فيصل. قال الملك الحسن إن خطأنا الأكبر أننا لم نبدأ بالهجوم، وأنه لو كان هو مكاننا لكان البادئ بالهجوم. طيب يتفضل يحلّ مكاننا ويتفضل يهجم، من يمنعه من الهجوم. لكن هو قبل أن يتكلم فليخلص المغرب من النفوذ الاقتصادي اليهودي. اليهود في المغرب مستولون على

زمام الاقتصاد في المغرب. الحسن الثاني ألقى القبض على مئات الطلاب والعمال والشباب لأنهم قاموا بتظاهرات وإضراب أيام حرب حزيران/ يونيو. واعتقل محجوب ابن صديق الأمين العام لاتحاد العمال في المغرب بتهمة إهانة السلطة. هل التحرك الوطني في المغرب يعتبر إهانة للسلطة؟ أما الحسين ملك الأردن، فلم يترك بلداً في أوروبا وأمريكا إلا وأعلن فيها أن أمريكا وبريطانيا لم يكن لهما ضلع في العدوان الإسرائيلي، مع أن الملك حسين اتصل بي يوم ٧ حزيران/ يونيو عند الفجر وقال لي إن ٤٠٠ طائرة تهاجم الجبهة الأردنية، وإن أجهزة الرادار في الأردن اتضح لها أن هذه الطائرات أمريكية وبريطانية. والحبيب بورقيبة بدأ يتكلم علينا بعدما انتهت الحرب. وكذلك، فإن الشباب في تونس الذين قاموا بتظاهرات يوم خمسة حزيران/ يونيو هم الآن في السجون، وينتظرون محاكمة عسكرية. كيف نرجو خيراً للأمة العربية من أمثال هؤلاء الناس؟».

قلت: «بل إن الملك حسين قد فضح نفسه بنفسه، فقد أعلن في مؤتمراته الصحافية التي عقدها في الولايات المتحدة بأنه كان مضطراً لتوقيع اتفاقية الدفاع المشترك مع الجمهورية العربية المتحدة (٣٠ أيار/ مايو ١٩٦٧) والدخول في الحرب، وأنه لم يكن له خيار نظراً إلى الظروف التي كانت تسود المنطقة آنذاك. على كُلّ حال، هؤلاء الذين سيحضرون مؤتمر القمة المقبل».

قال: «أنا أعلم ما يقول الناس عن مؤتمر القمة، وصلتني تقارير عن مصر والبلاد العربية، أنّه كيف يوافق عبد الناصر على حضور مؤتمر القمة في الخرطوم مع أنّه هو الذي قاطع مؤتمرات القمة في سنة ١٩٦٦؟ إن هذا الموضوع يؤثر في كرامتي أنا، فقد وافقت على مؤتمر الخرطوم لأضع الجميع أمام مسؤولياتهم، وكرامتي الشخصيّة ليست موضوع بحث. ولا يهمني كذلك إذا قيل إن حضوري مؤتمر القمة سيكون محل شماتة. أنا لا يهمني لا الشماتة ولا الكرامة. ولا أنا ذاهب لأحرج أحداً. اللي عاوز يساهم في المعركة يتفضل. واللي مش عاوز نترك حسابه لشعبه».

وعدت السؤال مرة ثانية: «ما هو موقف أصدقائنا الروس؟».

قال: «العلاقات الدولية لا يوجد فيها صداقة. الروس يساعدوننا. لهم مصالح في المنطقة. ونحن لنا مصلحة في مساعدتهم. إنهم يقدمون لنا معاونات اقتصادية وعسكرية. نحن لا نستغني عن الروس في الظروف الحاضرة. أمريكا فرضت علينا حصاراً كاملاً. ولم يعد أمامنا إلا أن نمدّ أيدينا إلى الروس».

قلت: «وماذا كان موقفهم قبل المعركة وأثناءها؟».

قال: طبعاً لا يساعدوننا كما تساعد أمريكا إسرائيل. أمريكا تقدم لإسرائيل من

دون حساب. وروسيا تقدم لنا بعد ألف حساب وحساب. أمريكا تريد أن تهزمنا إسرائيل بأي ثمن. وروسيا لا تريدنا أن ننتصر على إسرائيل. العملية عملية مصالح متوازنة. الاتحاد السوفياتي يتطلع إلى قيام جمهوريات شيوعية في الوطن العربي، ونحن نقاوم ذلك بكل قوتنا، لا نريد استبدال استعمار باستعمار. أنت تذكر أني تخاصمت مع خروتشوف حول هذا الموضوع. نحن لا نوافق على قيام نشاط شيوعي في المنطقة. وأعلنّا دائماً أن صداقتنا مع الاتحاد السوفياتي تقوم على أساس الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة وعدم التدخل».

قلت (وأنا أعود إلى السؤال مرة ثانية): «ما هو موقف الاتحاد السوفياتي قبل المعركة وبعدها؟».

قال: «أنا عارف من الأصل أن الروس لا يحاربون من أجلنا، ولا يريدون أن يصطدموا مع الأمريكان من أجلنا، وأن مصلحتهم هي بقاء إسرائيل حتّى يظل النزاع مستمراً في الشرق الأوسط، ونظل محتاجين إلى الاتحاد السوفياتي. لكن لا شكّ في أن أمريكا قد انتصرت علينا وعلى الروس في هذه الحرب. الأمريكان خدعوا الروس، وقالوا لهم أن يضغطوا علينا وأن لا نبدأ بالقتال. وحصل هذه فعلاً. السفير السوفياتي أبلغني رسالة من قادة الاتحاد السوفياتي يلحّون فيها ألا نكون البادئين بإطلاق النار، كما أن أمريكا ستضغط على إسرائيل. يوم السبت في ٣ حزيران/ يونيو مساء جاءني السفير السوفياتي وقال لي إن الاتحاد السوفياتي على يقين بأن الأزمة في طريقها إلى الهدوء، وإن إسرائيل لن تكون البادئة بالهجوم. هذا مع العلم بأنه قبل أسبوع، لما كان عندنا يوثانت، سلمني برقية وصلت إليه من الرئيس جونسون وهو في القاهرة يطلب أن يبلغني بأن أمريكا ترى أن إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية يعتبر عدواناً على إسرائيل، ومن حقها أن تدافع عن نفسها. ولكن ظهر الآن أن أمريكا لم تضغط على إسرائيل. كان هنالك تواطؤ بين أمريكا وإسرائيل على ضرب القومية العربية. أمريكا حققت سياستها وانتصرت. الأمريكان كانوا أشطر من الروس. أنا لا أريد أن أنسب سوء النية إلى الروس. ولكن الروس تركونا وحدنا في المعركة. كانت باخرة التجسس الأمريكية «ليبرتي» تساعد اليهود، وأمريكا قدمت إلى إسرائيل كُلّ المعلومات التي حصلت عليها عن طريق الأقمار الصناعية. والأسطول الروسي كان في شواطئنا لا يفعل شيئاً، ولا يقدم لنا أي خدمة، ولو مظاهرة عسكرية، وانتهت المعركة وكأن الروس غير موجودين في المنطقة. لقد كان الأسطول الروسي في شواطئنا، وكان بإمكان الرادار السوفياتي في السفن الحربية السوفياتية أن يقدم لنا معاونات قيمة، ولكنه لم يفعل. هذا مع العلم أن شمس بدران (وزير الحربية) حينما ذهب إلى موسكو في ٢٥ أيار/ مايو ليبحث مع الروس مدى المساعدات التي

يمكن أن يقدموها لنا، أخبره قادة الاتحاد السوفياتي الثلاثة، بودغورني وبريجنيف وكوسيغن، أن موسكو تؤيد القاهرة من غير تحفظ ولو أدّى ذلك إلى احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة.

قلت: «والأسلحة السوفياتية؟ ألم يكن بالإمكان أن ترسل روسيا طائرات مقاتلة أثناء حرب الأيام الستة؟».

قال: «الأسلحة السوفياتية التي كانت عندنا هي أسلحة دفاعية. ليست أسلحة هجومية، الأمريكان أعطوا إسرائيل أسلحة أحسن من السلاح الذي قدمته روسيا لنا، مع أن الروس يملكون أسلحة متفوقة.

«وحينما ضرب العدو طياراتنا ومطاراتنا في خمسة وستة حزيران/ يونيو طلبت من الاتحاد السوفياتي أن يرسل إلينا طائرات مقاتلة بدلاً من الطائرات التي فقدناها حتّى نستطيع أن نواصل المعركة، وتردد قادة السوفيات في بادئ الأمر، وبعد إلحاح وافقوا بشرط أن تمرّ الطائرات المطلوبة عن طريق يوغسلافيا. وقد اتصلت بالرئيس تيتو فوافق على ذلك، ولكن الاتحاد السوفياتي أبدى خشية أن يتعرض الأسطول الأمريكي للطائرات السوفياتية حتّى ولو كانت عن طريق يوغوسلافيا، واقترحوا أن يرسلوها إلينا عن طريق الجزائر، ووافقنا على ذلك، ويوم ٨ حزيران/ يونيو قالوا إن الأمر يحتاج إلى بضعة أسابيع. وهكذا انتهت المعركة من دون أن يمدنا الاتحاد السوفياتي بالطائرات المطلوبة».

ووضع الرئيس عبد الناصر يده على جبينه، وهو يستذكر تلك الأيام الرهيبة. وقال: «ولقد وقع حادث آخر، ولا أزال في حيرة من تفسيره.. ففي اليوم السادس من حزيران/ يونيو كانت قد وصلت إلى شواطئنا سفينة سوفياتية محملة بمدافع كنا طلبناها قبل العدوان، وبعد أن اقتربت من شواطئ الإسكندرية عادت أدراجها من دون أن تفرغ شحنتها، بحجة أن الطائرات الإسرائيلية قد تقصفها، مع أننا لو استلمنا هذه الأسلحة في وقتها لكان بإمكاننا الصمود بضعة أيام في مواقعنا الرئيسيّة في سيناء».

قلت: «والأسلحة التي تصلكم الآن؟».

قال: «نحن الآن محتاجون إلى كُلّ شيء، إلى أي شيء، لقد تحطم جيشنا وتدمر سلاحنا. نحن نبدأ من جديد. ولذلك فنحن نقبل ما تعطيه روسيا لنا، وبعد هذه المرحلة سنطالب بطيران متفوق. المعركة معركة طيران. الطيران هو الذي يقرر مصير المعركة. وسنطالب الروس أن يقدموا الينا أجود طائراتهم، خصوصاً أننا أصبحنا بعيدين الآن عن إسرائيل. قبل حرب حزيران/ يونيو كانت مطاراتنا في سيناء قريبة

من الأهداف العسكرية في إسرائيل. أما الآن فإن الوضع قد تغيّر، هذا ما نؤمله من الروس في المرحلة الحاضرة».

واستطرد الرئيس عبد الناصر قائلاً: «والإذاعة السعودية تلاحقنا أن نتخلى عن صداقتنا مع الروس. أنا مستعد أن أتخلى عن الروس، ولكن من أين نأتي بالأسلحة، حتّى الدفاعية؟ هل الملك فيصل يريد أن يعرفني على أهداف الاتحاد السوفياتي؟ نحن نعرف الاتحاد السوفياتي جيداً. نحن كنا في المعركة سنة ١٩٤٨ في فلسطين، وكانت تصلنا الأخبار عن مناقشات الأمم المتحدة.. وأنا لا أنسى أن غروميكو وزير الخارجية الروسية كان يدافع عن إسرائيل مثل أمريكا وأشد، وفي مجلس الأمن كانت روسيا تسند إسرائيل. كانت تعارض في خروج القوات الإسرائيلية من النقب. وبقي الموقف الروسي عدائياً إلى أوائل الخمسينيات. هذه الأمور وغيرها نعرفها حقّ المعرفة. أين كان فيصل لما كنا محاصرين في الفالوجة، وكان غروميكو في خطبه في الأمم المتحدة يساند إسرائيل علينا؟ أنت عارف هذه الأمور كلها».

وكان الرئيس عبد الناصر يتحدث وكأنه وجد ضالته المنشودة. كان يبحث عن شخص يحدثه عن همومه ليخرجها من صدره، حتّى يستريح ولو بعض الشيء. وكان يريد ألا يكون هذا الشخص ملكاً، ولا رئيساً.. وربما لا يريده أن يكون مصرياً.. فكنت أنا ذلك الشخص.. فلسطيني.. لاجئ.. غير مسؤول.. عاش القضية كُلّ عمره.

وأردت أن أخفف عن الرئيس عبد الناصر بعض الشيء، فأردت أن أنتقل إلى ناحية أخرى في الموضوع، لعل فيها شيئاً من العزاء والرجاء.

فقلت: «وما هو موقف الرئيس الجزائري بومدين؟ لقد لاحظت أنّه كان فاتراً بعد انتهاء اجتماع القمة الخماسية».

قال: «الرئيس الجزائري بومدين يريد منا استئناف القتال. وأنا أريد استئناف القتال، ولكن لا أستطيع ذلك قبل أن نستكمل استعداداتنا العسكرية. بومدين يريد أن نباشر الحرب الآن ولو على طريقة حرب العصابات، ونحن غير مستعدين لهذه العملية، عندنا مشاكل اقتصادية كبيرة، وعندنا أعداء في الداخل، وعندنا أمريكا تتربص بنا الدوائر.. أمريكا تريد إسقاط الحكم الوطني في البلاد العربية، ابتداء من مصر. ثُمّ إن بومدين كان يعارض أصلاً في وقف إطلاق النار. كان يريد أن نستمر في الحرب حتّى ولو دخلت إسرائيل إلى القاهرة وإلى دمشق وإلى بغداد، لأن ذلك في رأيه يجعل المعركة في الوطن العربي كُلّه».

واستطرد الرئيس عبد الناصر قائلاً: «والواقع أن هذا كان ممكناً لو أن الأمة

العربية كانت منظمة على الصعيد الشعبي، وأنا أفكّر بعد إزالة آثار العدوان أن أستقيل من رئاسة الجمهورية، وأن أكرس كُلّ وقتي للاتحاد الاشتراكي حتّى ننظم الجماهير العربية، ونكون قادرين على الاستفادة من طاقات الشعوب العربية. هذا هو جوهر الخلاف بيني وبين الأخ بومدين».

وهنا سألني الرئيس عبد الناصر: «وأنت ما هو رأيك في الموضوع؟».

قلت: «كلاكما على حقّ».

قال (مقهقهاً): «كيف، كلانا على حقّ. لا بُدَّ من أن يكون واحد على حقّ، والآخر على الباطل».

قلت: «كُلّ واحد منكم يمثل مدرسة عسكرية. أنت كنت في الجيش النظامي، وبومدين كان في جيش التحرير، في جيش العصابات. ولذلك فتفكيرك نظامي، وتفكير بومدين تفكير عصابات. أنت تريد أن تقود النضال وأنت رئيس دولة. وبومدين كان يقود النضال وهو ضابط في خنادق الشعب».

وسألني الرئيس عبد الناصر: «وصاحبك الملك فيصل، ما هو موقفه؟ وماذا تتوقع أن يكون موقفه في مؤتمر القمة».

قلت: «الملك فيصل صديقي صحيح، ولكن سابقاً. . الملك فيصل عنيد جداً، ولا استبعد أن يعتذر عن حضور مؤتمر القمة. وإذا حضر فإنه سيصرّ على حلّ مشكلة اليمن، إنه يريد أولاً «إزالة العدوان المصري» عن اليمن، قبل أن يفكر في إزالة «آثار العدوان الإسرائيلي» على البلاد العربية».

وعدت مرة ثالثة أسأل عن موقف الاتحاد السوفياتي. وماذا سيفعل الاتحاد السوفياتي من أجل إزالة آثار العدوان.

قال: «الاتحاد السوفياتي يركّز كُلّ جهوده في الوقت الحاضر على الأمم المتحدة، والرئيس بودغورني حينما كان عندنا في القاهرة في الأسبوع الماضي ركّز على العمل السياسي داخل الأمم المتحدة وخارجها. وإنهم سيواصلون الضغط على الرئيس جونسون ليضغط على إسرائيل للوصول إلى التسوية السلمية».

قلت: «وما هو رأي سيادتك في هذه المحاولة؟».

قال: «نحن نتبع الطريقين. نقوي جيشنا ونجرب طريقة الأمم المتحدة. بعد العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ نجحت تجربة الأمم المتحدة بإجلاء إسرائيل عن سيناء وقطاع غزة».

قلت: «الظروف تغيّرت. اليوم لا يوجد أيزنهاور ولا خروتشوف».

قال: «على كُلّ حال لا ضرر من التجربة، وإن كان الناس في مصر متحمسين، يريدون إخراج إسرائيل بالقوة. . البارحة كنت في حديث مع ابني خالد حول هذا الموضوع. . خالد والشباب متحمسون، إنهم لا يريدون إخراج إسرائيل عن طريق الأمم المتحدة، ولكنهم يريدون أن نغسل العار ونخرجهم بالقوة».

وطالت الجلسة، وأحسست أني أثقلت على الرئيس عبد الناصر في هذا الحديث، فنهضت أستأذن بالانصراف، وسرنا إلى الباب الخارجي والرئيس عبد الناصر يسألني: «أيه رأيك في كلام خالد؟».

قلت: «هل تريد الحقّ؟».

قال: «نعم. إيه الحقّ؟».

قلت: «أنا مع خالد ولست مع أبو خالد».

فقهقه ضاحكاً وقال: «كُلّه واحد. معي ومع خالد كُلّه واحد».

وانصرفت إلى منزلي، وإلى مكتبي لأدوّن ما دار بيني وبين الرئيس عبد الناصر من حديث، وأدوّنه في يومياتي كاملاً، فلا يسقط منه موضوع ولا معنى، ولا يسقط منه ملك أو رئيس.

لقد كان حديثاً شاملاً، وأحسب أن حكام العرب سيقرأون هذا الحديث، وهم يعجبون أو يضحكون.

والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿**أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون**﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة النجم،» الآيتان ٥٩ ـ ٦٠.

هــل جئتــم لإزالــة العــدوان..
أم لإزالــة منظمــة التحريــر؟

انهزم الملوك والرؤساء الهزيمة الكبرى في معركة الأيام الستة في حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧. وتوالت بعد ذلك الهزائم السياسية واحدة بعد الأخرى، تماماً كالمسبحة المفروطة حين تتساقط حبة بعد حبة.

وكانت أولى الهزائم السياسية أن مجلس الأمن قد قرر وقف القتال من دون أن يقرر عودة القوات الإسرائيلية إلى خطوط ما قبل القتال (٩/ ٦/ ١٩٦٧).

ولقد قضيت في الأمم المتحدة قرابة خمسة عشر عاماً من عُمري، أعطيتها كُلّ جوارحي، حتّى لم يبق عليَّ إلا أن أمدّ فراشي في أروقتها وأنام فيها، ولم أشهد في جميع القضايا التي عالجتها الأمم المتحدة سابقة واحدة قررت فيها الأمم المتحدة وقف إطلاق النار إلا وقرنته بالعودة إلى خطوط ما قبل القتال.

وهكذا، فقد جاءت حرب حزيران/ يونيو هي السابقة الوحيدة، والاستثناء الأوحد.. وقف القتال من غير عودة إلى الوراء.

وكانت الهزيمة السياسية الثانية ذلك الفشل الذريع الذي انتهت إليه الدورة الطارئة للأمم المتحدة التي انعقدت بناء على اقتراح الاتحاد السوفياتي (١٩ حزيران/ يونيو)، وكانت النتيجة أن رفضت الجمعية العامة جميع مشروعات القرارات التي عُرضت عليها بشان انسحاب القوات الإسرائيلية.. واستمرت القوات الإسرائيلية تحتل الأراضي العربية المحتلة.. ولِمَ لا. فالأمم المتحدة، من حيثُ النتيجة، لم تقل لإسرائيل: «أخرجي من الأراضي المحتلة».

وبعد هذه الهزائم السياسية على الصعيد الدولي، جاءت الهزائم السياسية على الصعيد العربي.

وإن الباحث عن الأسباب لا يعدم أن يجد سبباً، ولو هزيلاً، للهزائم السياسية

على الصعيد الدولي. ولكننا لا نستطيع أن نجد سبباً للهزائم السياسية التي منينا بها في الوطن العربي. . إلا أن الملوك والرؤساء جديرون بهذه الهزائم على الصعيدين الدولي والعربي سواء بسواء.

أما على الصعيد العربي، فقد وقفوا أمام النكبة يتثاءبون، كأنما الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل ليست أرضاً عربية، وكأنما الكرامة العربية التي أهدرت ليست بذات قيمة. وكأنما مصير الأمة التي يحكمونها ليس بذي موضوع.

وبقي كُلّ حاكم عربي في عاصمته مكتوف اليدين، معقود الساقين، ولكن مطلوق اللسانين: لسان الإذاعة، ولسان الصحافة، يخادع الجماهير العربية، ويردّ أسباب النكبة إلى مائة سبب وسبب، حتّى يحجب الحقيقة الأزلية أنه هو السبب.

وهذا هو حكم قاس، من غير شكّ، ولكنه حكم عادل ومنصف، فإن قسوة الحكم متوازية مع هوية المجرم وماهية الجريمة.

ولم يكفِ أن الملوك والرؤساء كانوا السبب الأكبر في الهزيمة، وإن تفاوتت درجات المسؤولية في أعناقهم. ولكنهم بعد أن وقعت وتمت، وبعد أن أعلنوا أنها ستكون عبرة ودرساً، لاذوا بالفرار، تماماً كما يفعل المجرمون العاديون، يقترفون الجريمة ثُمّ يفرّون.

وفرَّ الملوك والرؤساء إلى مخابئهم، إلى قصورهم، يفكّرون في طمس معالم الجريمة، بإطلاق شعار جديد يكون ملهاة للجماهير، يخدّرها ويعزّيها ويسلّيها.

ومن هنا جاء الشعار الجديد: «إزالة آثار العدوان» بعد الهزيمة. وكان تدمير إسرائيل وتحرير فلسطين هو الشعار السابق الذي أعلنه الملوك والرؤساء قبل الهزيمة، في مؤتمرات القمة الثلاثة: في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء.

وكما كان الشعار السابق عبثاً ولهواً، فقد جاء الشعار الجديد أعبث لهواً، وألهى عبثاً، وأخذت الأحداث تتكلم.

وأول هذه الأحداث أن وزراء خارجية الدول العربية لم يجتمعوا إلا في السادس عشر من حزيران/ يونيو في الكويت، أي بعد عشرة أيام من العدوان. وكان من حقّ الأمة العربية المنكوبة بإسرائيل وبالحكم العربي أن تتساءل:

ـ ماذا كان يفعل وزراء الدول العربية طيلة هذه الأيام؟

ـ ولماذا لم يجتمع وزراء خارجية الدول العربية فور العدوان؟

ولكن ما هو أهم من ذلك، فإن من حقّ الجماهير العربية أن تقذف بسؤال أكبر

في وجه الملوك والرؤساء: ماذا كنتم تفعلون أثناء العدوان؟.. ولماذا لم تجتمعوا فور العدوان؟

ومع هذا، فإن اجتماع وزراء الخارجية في الكويت قد انعقد لبضع ساعات، وركب الوزراء بعدها طائرة واحدة إلى نيويورك ليخطبوا خطباً ضجرت من أمثالها سقوف الأمم المتحدة وجدرانها، منذُ أن خطب على منبرها نوري السعيد، وفارس الخوري، وكميل شمعون، وفيصل بن عبد العزيز في عام ١٩٤٨ مهدّدين ومنذرين. وذهب كُلّ ذلك أدراج الرياح، وبقيت الرياح.

وظلّ الملوك والرؤساء يشدّون أبصار الجماهير العربية وأسماعها إلى الأمم المتحدة، كأنما إزالة آثار العدوان ستتم في نيويورك لا في الوطن العربي.

وانتهت الدورة الطارئة إلى فشل ذريع (٤ تموز/ يوليو) ولم يتحرك الملوك والرؤساء من مخادعهم، وهم مشغولون بمخادعة الأمة العربية عن بلواها، لتنسى أنهم هم بلواها، وما بلواها إلا هم.

وحصل اجتماع واحد فقط هو اجتماع القمة الخماسية (١٢ تموز/ يوليو)، ووصفه الرئيس عبد الناصر بأنه «تمّ من غير ترتيب». فقد حضره الرؤساء عبد الناصر والأتاسي وبومدين والأزهري وعارف، وتخلله ملك واحد هو الحسين بن طلال.

وكُلّ ما استطاع أن يفعله هذا الاجتماع الخماسي هو أنّه قرر الدعوة إلى اجتماع قمة أكبر، في الخرطوم، يسبقه اجتماع وزراء خارجية الدول العربية للدرس والتنسيق والتمهيد. وبدأت الاجتماعات.

اجتمع وزراء خارجية الدول العربية في الخرطوم في ١ آب/ أغسطس. واجتمع مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والبترول العرب في ١٥ آب/ أغسطس في بغداد.. ثُمّ عاد وزراء خارجية الدول العربية للاجتماع في الخرطوم في ٢٦ آب/ أغسطس، واجتمع مؤتمر الملوك والرؤساء في الخرطوم في ١٢ آب/ أغسطس.

ومعنى ذلك أن الملوك والرؤساء الذين كان يفرض عليهم الواجب الوطني، أو تفرض عليهم ضخامة الهزيمة وجسامة النكبة، أن يجتمعوا يوم العدوان أو بعد انتهاء العدوان مباشرة، لم يجتمعوا إلا بعد خمسة وثمانين يوماً من احتلال سيناء والجولان والضفة الغربية. وما أرخص الوطن العربي على ملوكه ورؤسائه.

واجتماعات وزراء الخارجية هذه، ما جدواها؟.. وماذا تستطيع أن تنسق أو تمهد؟.. هؤلاء الوزراء لا يملكون من أمرهم شيئاً، ولا يعكسون رغبات شعوبهم. هؤلاء ليسوا أعضاء في حكومات ديمقراطية مسؤولة أمام الشعب. هؤلاء موظفون

عند الملوك والرؤساء، يعزلونهم ويعيّنونهم متى شاؤوا. . والملوك والرؤساء بدورهم لا يمثلون مشيئة الشعوب، ولا يستمدون سلطتهم من رغبات الشعوب. . الملوك ورثوا السلطة عن آبائهم بالسيف والترس. . والرؤساء وصلوا إلى الحكم عن طريق الدبابة والمدفع[1]. ولست في حاجة إلى أن أذكر الاستثناءات، فإنه ضائع في الجماعة.

ومثل هذا النوع من الحكم في الوطن العربي من شأنه أن تتلاحق على يديه المصائب، وأن تكون النكبات من بعض إنجازته، ومثل هذا الحكم إذا حلت في عهده الهزائم لا يستطيع أن يجد لها حلاً، ولا منها مخرجاً. .

بل إن الحكم الأجنبي الصديق، تحقيقاً لمصالحه ومطامحه، كان أكثر جدية في الأخذ بزمام المبادرة. وها نحن نرى الدول الشيوعية تعقد في هذه الفترة اجتماعين للقمة: أحدهما في التاسع من حزيران/ يونيو في شبه جزيرة القرم، والثاني في ١١ تموز/ يوليو في بلغراد، للنظر في ما يجب عمله للحفاظ على سمعتهم ومصالحهم في الشرق الأوسط، وقد نزلت بها الشروخ والصدوع في أعقاب حرب الأيام الستة.

وكذلك، فإننا نرى المارشال تيتو، الصديق الشخصي للرئيس عبد الناصر، تحركه المصالح والمبادئ، فيعرض مشروعاً لحل أزمة الشرق الأوسط، ويحمله وزراؤه وسفراؤه إلى القارات الست. وقد وصل هذا المشروع إليّ بوصفي رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية. والمنظمة هي إحدى المؤسسات التي أثبتت وجودها في القارات الست بعد عشرين عاماً من ضياع الشخصيّة الفلسطينية.

ومشروع الرئيس تيتو، على خيره وشره، قد أشغل الرأي العام الدولي وحرك قضية الشرق الأوسط لزمن غير قصير. وراحت وكالات الأنباء تتبارى في التكهن بمحتوياته، وقد آن الأوان لمذكراتي أن تنشره كاملاً، عن مذكرة وصلتني من السفارة اليوغوسلافية في القاهرة: «سري جداً»، وختمتها بالعبارة التقليدية: «وتقبلوا تحيات السفارة اليوغوسلافية». وينصّ المشروع على ما يلي:

أولاً: انسحاب القوات الإسرائيلية تحت إشراف مراقبي الأمم المتحدة من الأراضي العربية التي تحتلها منذُ نشوب القتال في الخامس من حزيران/ يونيو الماضي.

ثانياً: يتولى مجلس الأمن أو الدول الأربع الكبرى ضمان جميع دول المنظمة وحدودها ريثما يتم وضع حلّ نهائي للقضايا المتنازع عليها، ولتحقيق هذه الغاية يمكن وضع قوات دولية على جانبي الحدود.

---

(١) يعني المؤلّف بالأنظمة التي كانت سبب النكبة، وليس الأنظمة التي قامت ردّاً على النكبة.

ثالثاً: حرية المرور لجميع السفن في مضائق تيران (خليج القبة) إلى حين صدور قرار من محكمة العدل الدولية.

رابعاً: تكون الملاحة في قناة السويس كما كانت قبل الخامس من حزيران/ يونيو.

خامساً: بعد تنفيذ هذه الإجراءات يتخذ مجلس الأمن الدولي خطوات لحل القضايا الأخرى المتنازع عليها، وفي مقدمتها مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وقضية مرور السفن الإسرائيلية في قناة السويس.

ويجري اتخاذ هذه الخطوات بمساهمة مباشرة من الفرقاء المعنيين.

والمارشال تيتو هو الذي حمل مشروعه بنفسه إلى القاهرة، فقد وصل إليها بعد شهر واحد من وقف إطلاق النار على رأس وفد يوغسلافي كبير (١٠/ ٨/ ١٩٦٧). وقد مهّدت المصادر اليوغوسلافية في بلغراد لهذه الزيارة، فأعلنت «أن يوغوسلافيا لا يمكن أن تؤيد على الإطلاق أي عمل سياسي لحل أزمة الشرق الأوسط إلا إذا كان هذا الحلّ مقبولاً لدى الدول العربية». فكان ذلك إيذاناً بأن يوغوسلافيا قد أعدت مشروعاً لحل أزمة الشرق الأوسط.

وكان هذا هو الواقع فعلاً، فقد عرض المارشال تيتو على صديقه الرئيس عبد الناصر بنود المشروع. واجتمعت بالمارشال تيتو في السفارة اليوغوسلافية، وسمع الجواب من الرئيس عبد الناصر ومني.

أجاب الرئيس عبد الناصر بأن المشروع جدير بالدرس، وأنه يحسن بالرئيس تيتو أن يعرضه على سوريا والعراق، فإن قبلاه فهو مستعد لقبوله. وإلا فلا بُدَّ من البحث عن طريق آخر.

وأجبت بأن الشعب الفلسطيني ليس فريقاً في الأمم المتحدة ولا يسعه قبول هذا المشروع، لأنه يترك قضية فلسطين في مجموعها من غير حلّ، ويجعل الأمر بين يَدي مجلس الأمن. ويكفي أن مجلس الأمن فيه الولايات المتحدة.

وبحسب التقاليد الدبلوماسية، فقد كذبت المصادر اليوغوسلافية أن الرئيس تيتو يحمل مشروعاً، وأذاعت وكالة الأنباء اليوغوسلافية رسالة من القاهرة بأن «ما نشرته الصحافة عن «مشروع السلام» اليوغوسلافي ما هو إلا استنتاج وتنبؤ غير صحيحين».

ونتيجة إجابة الرئيس عبد الناصر، فقد سافر الرئيس تيتو إلى دمشق (١٣ آب/ أغسطس) وبقي فيها يومين، اجتمع خلالهما بالرئيس السوري د. نور الدين الأتاسي وإخوانه. . ولم توافق سوريا على مشروع المارشال تيتو، وطالبت بإدخال

تعديلات أساسية عليه حتّى أصبح مشروعاً بعثياً لا يوغوسلافياً.

وصدر بيان صحافي على إثر انتهاء المباحثات السورية اليوغوسلافية يغطي الرفض بعبارات ناعمة، تقول: «إن المباحثات تعتبر إسهاماً جديداً في تعزيز العلاقات بين البلدين الصديقين لتعزيز الجهود المشتركة لإزالة آثار العدوان الإسرائيلي على البلدان العربية، وإن المباحثات جرت في جو ودّي، وتم خلالها تبادل وجهات النظر في الأزمة القائمة في الشرق الأوسط وفي الوضع العالمي وفي تطوير العلاقات بين البلدين». بيان كُلّه مقدمات من غير نتائج.

وغادر المارشال تيتو دمشق إلى بغداد إكمالاً لمهمته، وقد بقي فيها يوماً واحداً، سمع فيها من الرئيس عبد الرحمن عارف ما سمعه في دمشق، ولكن بلهجة أكثر اعتدالاً. . ولم يصدر بيان صحافي ولا بلاغ مشترك، وعاد إلى القاهرة، حيثُ توجه منها إلى الإسكندرية مع الرئيس عبد الناصر لاستكمال المباحثات في جو أكثر هدوءاً وصفاء.

ولم تسفر مباحثات الإسكندرية عن قبول مباشر لمشروع الرئيس تيتو. . ولكن تمّ الاتفاق بين الرئيسين اليوغوسلافي والعربي على أن تستمر المساعي السياسية لتأييد وجهة النظر العربية، وأن يظلا على اتصال في ما بينهما، وصدر بيان مشترك يؤكّد «أنّه لا يمكن الوصول إلى حلّ لهذه الأزمة إلا باحترام الحقوق والمصالح العادلة للشعوب العربية. . وضرورة مساعدة الدول العربية بما يمكّنها من تعويض ما سببته الحرب من خسائر، وبدعم طاقاتها الاقتصادية والدفاعية من أجل المقاومة الفعالة لأية محاولة للعدوان». وكانت هذه العبارة الأخيرة موجهة إلى الاتحاد السوفياتي.

وأعلن الرئيس تيتو في مؤتمره الصحافي «أن هناك تفاهماً بيننا وبين الدول العربية على ما سوف يتخذ من إجراءات لحل هذه الأزمة حلاً سياسياً» وكانت هذه العبارة موجهة إلى الولايات المتحدة.

ويوغوسلافيا بزعامة الرئيس تيتو تحسن مخاطبة الروس والأمريكان معاً، وقد انتفعت من الفريقين معاً. وهي، بعد إسرائيل، الدولة الأولى في تلقي المعونات الأمريكية. وكانت ردود الفعل على مشروع الرئيس تيتو متباينة.

فقد تلقى الرئيس الأمريكي لندن جونسون مشروع السلام اليوغوسلافي مع رسالة من الرئيس تيتو حملها وزير خارجيته ماركو نيكزيتش. ولم يقابله الرئيس الأمريكي باكتراث. واكتفى الناطق الصحافي في البيت الأبيض بقوله: «إن هنالك عدة حكومات مهتمة في عروضها، يحدوها الأمل بإمكان تسوية أزمة الشرق الأوسط».

وتسلم الرئيس الفرنسي شارل ديغول المشروع اليوغوسلافي، وأعلنت المصادر

الفرنسية أن الجنرال ديغول موافق عليه بصورة عامة، وأن حلّ أزمة الشرق الأوسط يتطلب موافقة الدول الأربع الكبرى.

أما في لندن، فقد وقفت الحكومة البريطانية موقف الحيطة والحذر، وقد أعربت الدوائر المطلعة عن رأيها في أنّه من المحتمل أن ينال المشروع اليوغوسلافي عطف العواصم الدولية الكبرى.

ولم تتحدث موسكو عن المشروع اليوغوسلافي، لأن الرئيس تيتو قد أعده أصلاً بالتفاهم مع الاتحاد السوفياتي.

وفي نيودلهي، أعلنت أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند موافقتها على المشروع، وأثنت على الرئيس تيتو لجهوده في تسوية أزمة الشرق الأوسط.

وفي روالبندي، استقبل الرئيس الباكستاني المشير محمّد أيوب خان السفير اليوغوسلافي الذي سلمه مشروع الرئيس تيتو، ولم تعلق المصادر الباكستانية على المشروع، تاركة للدول العربية أن تتخذ الموقف الذي تراه مناسباً.

وإني لأذكر بهذه المناسبة أن السفير الباكستاني في القاهرة قد زارني ليتعرف على الموقف العربي إزاء مشروع الرئيس تيتو، فإن باكستان كما قال: «تقبل ما تقبلون وترفض ما ترفضون».

قلت له: «إن القاهرة ودمشق وبغداد قد رفضت المشروع، ولكنها لم تعارض أن يستمرّ الرئيس تيتو في بذل جهوده السياسية لحل أزمة الشرق الأوسط على أسس أخرى».

وقال السفير الباكستاني: «ولكن الأستاذ حسنين هيكل في مقالته الأسبوعية الأخيرة (٢٩/ ٩/ ١٩٦٧) قد أعلن موافقته على مشروع الرئيس تيتو بقوله: «إن مقترحات المارشال تيتو تشكل إطاراً معقولاً لمحاولة الحلّ السياسي»».

قلت: «الأستاذ محمّد حسنين هيكل صحافي قدير من غير شكّ، وهو يعبّر عن رأيه الشخصي، ولا يمثل رأي القاهرة، ولا رأي العواصم العربية الأخرى».

قال: «الذي أعلمه أن الأستاذ هيكل على صلة وثيقة بالرئيس عبد الناصر».

قلت: «الرئيس عبد الناصر على صلة وثيقة بكل مواطن. والأستاذ هيكل أحد المواطنين».

وأحسب أن السفير الباكستاني قد انصرف من مكتبي وهو غير مقتنع بهذا التكذيب ولا بهذا التفسير. ولكن ما العمل؟

ولقد أسهبت بعض الشيء في تفاصيل المشروع اليوغوسلافي، لأعود وأؤكد أنّه حينما كان الرئيس تيتو يقوم بنفسه وبوزرائه وبسفرائه ليطوف على مائة وعشرين دولة يعرض عليهم في عواصمهم «مشروع السلام»، كان حكام العرب يجوبون في الآفاق في منازلهم، لا يدرون ما يصنعون.

وأخيراً، اجتمع موظفو الحكام العرب الذين يسمون عادة في الصحف بوزراء الخارجية العرب، وهكذا انعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول العربية في الخرطوم في اليوم الأول من شهر آب/ أغسطس ١٩٦٧، والحمد لله، ولا يحمد على مكروه سواه.

وانعقد المؤتمر في الصالة الرئيسيّة في القصر الجمهوري في الخرطوم وسط المظاهر المعتادة من الحفاوة والتكريم، وعلى مشهد من الصحافيين ومراسلي وكالات الأنباء، من الذين عندهم بقية أمل في الحكم العربي.

وافتتح محمّد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان المؤتمر في جلسة علنية بخطاب دعا فيه إلى وحدة الصف لإزالة آثار العدوان، وختمه بقوله: «في الوقت الذي امتزج فيه الدم العربي بأرض الكفاح والقتال لا يقبل التاريخ منا أبداً أن نختلف على موائد السياسة والتخطيط، فلقد قالت شعوبنا كلمتها وبقي علينا أن نستلهم مشاعرها وأن نسلك دربها، درب النضال». وصفق الوزراء لهذه الكلمة الطيبة. والتصفيق في الاجتماعات العربية هو الاستجابة الوحيدة لأي خطاب سواء كان حسناً أو عفناً.

وبدأت جلسات المؤتمر بعد ذلك مقفلة. ومعنى كلمة «مقفلة» ألا تُعطى أخبار الاجتماعات إلى الصحف بصورة علنية ورسمية. ولكن لا مانع من أن يلتقي الوزراء بالصحافيين في حجراتهم ليقول لهم كُلّ وزير: «أنت تعلم أننا التزمنا عدم إذاعة شيء. ولكن المصلحة تفرض أن يعلم الرأي العام العربي بعض الشيء. إن وفدنا قد قدم مقترحات مهمة، وهذه صورة عنها. ولكن مع الأسف، ماذا نعمل؟ معظم الوفود الأخرى لم توافق على مقترحاتنا. ومع هذا فسنظل نناضل لإنجاح مقترحاتنا. على كُلّ حال، نحن نثق بك. وانشر ما تجده متفقاً مع المصلحة العامة. وسنظل على اتصال. وسأطلعك على ما يجدّ. ولا بُدَّ من أن نلتقي بعد كُلّ جلسة».

وكذلك يتصرف الوزراء الآخرون مع الصحافيين الآخرين، إلا من عصم ربك.

ولم يكن تفسيري لتعبير «الجلسة المقفلة» تجنياً على الوزراء العرب. فقد عقدت الجلسة المقفلة واستمرت خمس ساعات للبحث في جدول الأعمال وترتيب بنوده، وتجويد ألفاظه، حتّى تمّ الاتفاق عليه، وتم الاتفاق على أن يظل سرياً لا يعلن في الصحف.

وإذا بالصحف العربية والأجنبية تنشره في اليوم التالي لتعلن: أن وزراء خارجية الدول العربية قد اتفقوا على أن يكون جدول الأعمال مؤلفاً من البنود الخمسة التالية:

وها أنا أنشرها عن الصحف، لأنها مطابقة لأوراقي ومتفقة مع الواقع:

أولاً: بحث النتائج التي أسفرت عنها مناقشات الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورة انعقادها غير العادي لبحث أزمة الشرق الأوسط.

ثانياً: تضافر جهود الدول العربية لإزالة آثار العدوان.

ثالثاً: استمرار وقف ضخّ البترول العربي إلى الدول التي ساندت العدوان.

رابعاً: تصفية القواعد العسكرية في الأراضي العربية.

خامساً: وضع خطة عربية شاملة بعيدة المدى سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لدعم التضامن العربي وتحقيق المبادئ السابقة.

والواقع أن وزراء جدول الأعمال كانوا مجموعة من الطوائف العربية تنم عن «شخصية» كُلّ وفد من الوفود العربية.

ومن هذه الطوائف أن المنجي سليم رئيس الوفد التونسي قد اقترح أن يكون البند الأول على جدول الأعمال دراسة أسباب النكسة، وهو يريد من وراء هذا الاقتراح أن يثبت أن الرئيس بورقيبة كان على صواب في الدعوة إلى التعايش مع إسرائيل، وأن الحرب فكرة خاطئة، وأن الواقعية هي السياسة الرشيدة، وأن البورقيبية هي قمة العقل والحكمة.

واقترح إبراهيم ماخوس استخدام البترول كسلاح فعال في المعركة، وتصفية القواعد العسكرية الأجنبية. وتساءل الوفدان المغربي والليبي عن معنى موضوع تصفية القواعد العسكرية الأجنبية، ومن المقصود بهذا الاقتراح؟ وكادت جدران القاعة تقول: «إن القواعد الأجنبية عندكم في بلادكم».

واقترح وفد السودان تسوية قضية اليمن باعتبارها إحدى العقبات في طريق التضامن العربي، فقد أصبح السودان برنادوت قضية اليمن.

وتساءل الوفد الجزائري ما إذا كان هدف المؤتمر هو استمرار النضال واستئناف القتال أم الاستسلام؟.. ولم يُجَبْ الوفد الجزائري عن سؤاله، والجواب بين شفتيه.

وحرص محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة على ألا يدخل في خلاف مع أحد، أو أن يؤيد هذا الوفد على ذاك، وأن القاهرة لا تريد أن تحرج أحداً، وكُلّ ما تؤكد عليه أن تقدم كُلّ حكومة ما تستطيع من المساهمة من غير إحراج

ولا استدراج. أما بالنسبة إلى قضية اليمن، فإن لدى الجمهورية العربية المتحدة مشروعاً محدداً على أساس المصالح الوطنية بين جميع الفرقاء المعنيين.

واقترح إسماعيل خير الله وزير خارجية العراق بحث الوسائل الناجعة لجعل الاقتصاد العربي في خدمة القضية العربية وإزالة آثار العدوان.

واقترح الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية الكويت تنقية الجو العربي من الشوائب دعماً للتضامن العربي.

واقترح د. جورج حكيم وزير خارجية لبنان وضع خطة سياسية تكتيكية لمعالجة القضية في الأمم المتحدة، والقيام بحملة اتصالات واسعة مع الدول الصديقة.

ولم يقترح عمر السقاف وزير الدولة السعودي للشؤون الخارجية شيئاً، لأن الوفد السعودي يتكلم وراء الكواليس، إلا في الجلسات التي تدوّن فيها محاضر عن الاجتماعات.

وتقدمت باسم الشعب الفلسطيني بطائفة من المقترحات السياسية والإعلامية والعسكرية لتكون أساساً لخطة عربية شاملة لإزالة آثار العدوان اللاحق والسابق.

ولم أكد انتهي من سرد مقترحات المنظمة، طالباً توزيعها، وكانت هي المقترحات الوحيدة المكتوبة، حتّى تململ الوفد التونسي في مقاعده وتكلم المنجي سليم كلاماً بين التصريح والتلميح.

وقال: «اعتقد أننا نحن اتفقنا في اجتماعات وزراء الخارجية في نيويورك على أن تكون هذه الاجتماعات قاصرة على وزراء خارجية الدول العربية دون سواهم».

وكنت أنا المقصود بهذا الاقتراح. فأنا الوحيد الذي لم أكن وزير خارجية، وبدا واضحاً من كلام المندوب التونسي أن هذا الموضوع كان محل بحث بين الوفود العربية في نيويورك، وأنه كان هناك شبه اتفاق بين بعض الوفود العربية على عدم حضوري هذا الاجتماع.

وبدت علامات الموافقة الصامتة على وجوه الوفود السعودية والأردنية والليبية[٢] والمغربية، وبدرجات متفاوتة.

وطلبت الكلام وقلت: «إن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذي هو أنا بلحمي ودمي ليس فضولياً في هذا الاجتماع. إن الشعب الفلسطيني هو فريق أصيل

(٢) طبعاً قبل ثورة الفاتح من أيلول/ سبتمبر.

في هذا الاجتماع. وما دمت رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية فإن حضوري معكم هو حقّ لا منحة. ولو أني تخلفت عن هذا الاجتماع لوجب عليكم أن توجهوا اليّ الدعوة. إن اجتماعكم هذا هو من أجل البحث في إزالة آثار العدوان. وقد وقع العدوان على الشعب الفلسطيني منذُ عام ١٩١٧، حين صدر وعد بلفور الشهير، واستمرّ هذا العدوان حتّى عام ١٩٦٧، وشمل فلسطين بأسرها. وتوسعت رقعة العدوان في هذا العام حتّى شملت أراضي الدول العربية، ولهذا فأنا وأنتم يجمعنا العدوان الواحد. ومع هذا، فإذا كان هناك من مصلحة وطنية في عدم حضوري هذا الاجتماع، فإني أحب أن أعرفها. أما إذا كانت هناك أمور شخصية فإني أتجاهلها ولا أبالي بها.

فقال منجي سليم: «لا نريد أن ندخل في التفاصيل، ولا أن نبحث عن الماضي وعن أسباب الكارثة. كُلّ ما أريد أن أقوله إن اجتماعاتنا العربية بعد النكبة يجب أن تكون بين أشخاص مسؤولين وعلى درجة كافية من المسؤولية، وهذا لا يتوفر إلا في الوزراء باعتبارهم الممثلين الرسميين للحكومات العربية، وذلك حتّى نخرج بقرارات سديدة ومسؤولة.

قلت: «هذا كلام غريب جداً، وإن كنت لا أستغربه من مندوب تونس. ولا أعتقد أن هذا الكلام يمثل مشاعر الشعب التونسي الذي كان لي شرف الدفاع عن قضيته لعدة سنوات في الأمم المتحدة. ومن كان لا يرضيه حضوري في هذا الاجتماع فإنه يستطيع أن يخرج ولا يشارك فيه».

وهنا تدخّل رئيس الجلسة محمّد أحمد محجوب، وقال: «أنا أعلم أن هذا الموضوع قد بحث في ما بيننا حينما كنا في الدورة الطارئة للأمم المتحدة. ولم يتخذ بشأن هذا الموضع أي قرار، وأن الحكومة السودانية باعتبارها الدولة المضيفة قد وجهت الدعوة إلى رئيس المنظمة، لأن الشعب الفلسطيني منذُ أن تأسست الجامعة العربية عام ١٩٤٥ وهو عضو طبيعي في الاجتماعات العربية. وعلى كُلّ حال، فإن الأمر مطروح للبحث الآن، ولكن أرجو أن يكون بمنتهى الهدوء والموضوعية».

وعاد المنجي سليم إلى الكلام وقال: «أنا لا أبحث موضوع المنظمة ولا حقّ تمثيل الشعب الفلسطيني في الاجتماعات العربية. ولكن النقطة التي أحصر حديثي فيها هي أن هذا الاجتماع مخصص لوزراء خارجية الدول العربية، والسيد الشقيري ليس وزير خارجية».

وقلت: «أنا لست وزير خارجية. وإذا استقلت فلسطين سوف يأتي إليكم وزير خارجية فلسطيني، تماماً كما جرى لتونس. لقد وصلت تونس إلى الاستقلال وأصبح لها وزير خارجية، ومن أجل هذا فإن السيد المنجي سليم هو معنا. وأنا لست مفتوناً

بهذه الاجتماعات. إن خبرتي الطويلة أن هذه الاجتماعات لا جدوى فيها، وإنما أنا أحضر كواجب. وعلى كُلّ حال، فإن الشعب الفلسطيني هو الذي يختار من يمثله، وليس لتونس ولا لغير تونس أن تتدخل في هذا الموضوع. .».

ثُمّ ألقيت بقفازي أمام الوزراء، وقلت: «إن الأمر لا يحتمل الجدال. وأنا لا أرضى أن توجه هذه الإهانة إلى الشعب الفلسطيني. وإذا كانت إسرائيل قد احتلت وطني بكامله، فليس معنى هذا أنها احتلت عقلنا وكرامتنا. وأنا الآن أطرح هذا الموضوع عليكم متسائلاً: هل تريدون بقائي معكم، أم تريدون خروجي؟ وإنه يهمني أن تتعرف الأمة العربية على موقفكم. أريد منكم قراراً الآن».

وتدخّل رئيس الجلسة محجوب، وقال: «إن البحث يدور بصورة أخوية. ولا داعي هناك لأخذ قرار، إنما هي وجهة نظر أبداها الوفد التونسي. وإني أشعر أن أحداً من الحاضرين لا يريد استبعاد منظمة التحرير من هذا الاجتماع. ويمكننا أن نعتبر الموضوع منتهياً».

ولكن المنجي سليم لم يعتبر الموضوع منتهياً. فقد عاد إليه مرة أخرى ولكن بصورة أخرى، وقال: «إذاً، أنا أقترح تأجيل الاجتماع، وأن ينعقد الاجتماع المقبل في منزل الرئيس، وأن يكون الحضور قاصراً عل الوزراء».

وقلت: «إذا كان السيد المنجي لا يمل من الباطل، فأنا لن أمل من الحقّ. وأنا لا أمانع من تأجيل الاجتماع إذا كانت هذه هي رغبتكم، ولا مانع من عقد الاجتماع في بيت الرئيس. وسأحضر الاجتماع لأن بيت الرئيس في هذه الحالة هو مكان الاجتماع، وليس ملكاً للرئيس. هذا إذا كان الاجتماع مخصصاً لبحث آثار العدوان».

فقال الرئيس بلهجة سودانية: «ونحن مجتمعون من أجل ماذا؟ أحب أن أسأل الوزراء، نحن مجتمعون من أجل ماذا؟».

فقلت: «إذا كنتم ستجتمعون في منزل الرئيس من أجل الأمور الخاصة بالدول العربية، مثل تجارة القطن والأرز والفجل، فأنا لا مكان لي معكم ولا داعي لحضوري. وإذا كان اجتماعكم هو من أجل إزالة آثار العدوان، فإن العدوان واقع على بلدنا وشعبنا، ولا بُدَّ من حضوري ومشاركتي. ومن كان لا يعجبه ذلك، فإنه يستطيع أن يعود إلى عاصمته».

ثُمّ واصلت حديثي متسائلاً: «هل اجتمعتم لإزالة آثار العدوان أم لإزالة منظمة التحرير؟ إن الرغبة في التخلص من رئيس منظمة التحرير ليست سراً. هنالك وثائق في ملفات الجامعة العربية تثبت أن الملك فيصل والرئيس بورقيبة والملك حسين

يريدون «خلع الشقيري» من رئاسة المنظمة، ولم يستطيعوا ذلك قبل الهزيمة. ولعلهم يشعرون الآن أن الفرصة قد لاحت بعد الهزيمة»[٣].

قلت هذا الكلام. ونظر المنجي إلى رفاق الطريق والهدف: السعودية والأردن وليبيا والمغرب، فلم ينجده أحد.

وتدخل الرئيس للمرة الأخيرة لينقذ الموقف، وقال: «أنا اعتبر الموضوع منتهياً، ونحن لا نستطيع أن نتخذ قراراً حول هذا الموضوع ولا أن نبحثه. وقد فاتني أن أقول لكم من الأول إن الموضوع خارج عن اختصاصنا كوزراء. إن الملوك والرؤساء في القمة الثانية في الإسكندرية قد قرروا اعتماد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني، وإن الملوك والرؤساء هم الذين يملكون تغيير هذا القرار. وإذا كان الوفد التونسي أو غيره يريد أن يتابع الموضوع، فمن الممكن بحثه في مؤتمر القمة المقبل».

ثُمّ أعلن الرئيس أن الاتفاق قد تمّ على جدول الأعمال. ويحسن بنا أن نعطي الفرصة لدراسته. ولذلك نقرر تأجيل الاجتماع إلى الغد.. والتأجيل لا للدرس، ولكن لتهدئة الجو.. ودعماً للتضامن العربي.

ولكن هذا الحلّ لم يرضِ المنجي سليم، فكان لا بُدَّ له من أن يقدم دليلاً محسوساً على أنّه نفذ تعليمات الرئيس بورقيبة، فأصدر بياناً بعد انتهاء الجلسة وزعه على الصحافيين العرب والأجانب قال فيه: «إن رأي الحكومة التونسية كان ولا يزال أن لا مبرّر لحضور السيد الشقيري بعد أن اتضح أنّه لا يقف عند حدود المسؤولية التي تقتضيها الظروف».

وطلب إليّ الصحافيون أن أعقّب على هذا البيان، فقلت: «لي تعقيب واحد.. في هذا اليوم.. أصدرت المحكمة العسكرية التونسية الخاصة أحكاماً تصل إلى عشرين عاماً على أربعة وخمسين تونسياً بتهمة الاشتراك في التظاهرات التي عمّت تونس في حزيران/ يونيو الماضي، وهاجم فيها المتظاهرون المنشآت الأمريكية والبريطانية واليهودية.. هذه هي تونس الدولة، لا تونس الشعب التي يتكلم بلسانها المنجي سليم، وزير العدل في الحكومة التونسية.. وليحيَ العدل.

وتوالت الاجتماعات ثلاثة أيام تخللتها ليلة سامرة ساهرة على النيل. وقد تردّدت طويلاً أن أقول كلمة واحدة عن تلك الليلة الحمراء، على باخرة نيلية، حفلت بالشراب والغناء، فإن التصرفات الشخصيّة من شراب وعربدة ملك أصحابها. ولكني تساءلت

(٣) أحمد الشقيري، **على طريق الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٢). وهو متضمن في هذه المجموعة.

ومعي نفر من أمثالي الغرباء عن تلك الليلة الحمراء: «هل هذا الفرح والمرح، هذا الابتهاج والانشراح، احتفال بتحرير فلسطين؟ أما من دقيقة واحدة، على الأقل، للتأمل؟ للتأمل في ما صارت إليه الأمور في الجولان وسيناء وبيت المقدس؟».

وتذكرت، ما أشقى الذين يتذكرون. تذكرت المجاهد نور الدين زنكي، يسأله جلساؤه لِمَ هو مطرق دائماً؟ وكان ذلك أيام الحملة الصليبية على مصر. فقال: «كيف لي أن أبتسم والصليبيون يضربون بلادنا في مصر؟».

وكائناً ما كان الأمر، فقد غاصت تلك الليلة الحمراء في اليوم الثاني في تيار الخلافات والمناقشات بين الوزراء، وكانت مشكلة اليمن، وموضوع البترول العربي على رأس المناقشات.

وكان محمّد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان هو فارس مشكلة اليمن، فقد سبقت له وساطات كثيرة بين الرياض والقاهرة لتسوية المشكلة، ولكنها انتهت إلى فشل كامل. وكان السبب، باختصار، الملك فيصل، ذلك أن الرئيس عبد الناصر قد تنازل وتنازل، وذهب بنفسه إلى السعودية، وقابل الملك فيصل، لعل هذه المبادرة النابعة من التقاليد العربية تجعل الملك فيصل يوافق على حلّ وسط.

ولكن الملك لم تهزه هذه البادرة العربية، ولم يَر في مجيء الرئيس عبد الناصر إليه إلا مجيء المنكسر المعتذر.. وبقي على إصراره وعناده، كالحزب الوطني في مصر، حاشا لله من التشبيه «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء».

وكان هذا هو مطلب فيصل، لا مفاوضة إلا بعد الجلاء، إنّه يريد جلاء آخر جندي مصري عن اليمن، كما جلا آخر جندي بريطاني عن مصر.

وعرض الرئيس السوداني الموضوع من جديد.. وقال: «إن حلّ هذه المشكلة أصبح الآن أوجب وألزم. الشعوب العربية في الخارج تطالب باستئناف القتال. وكيف نستأنف القتال وهذه المشكلة قائمة؟ يجب إزالتها لنعبئ الطاقات المصرية ـ السعودية مع الطاقات العربية الأخرى للمعركة».

ورفع الرئيس السوداني ملفاً ضخماً بين يديه يحتوي البرقيات والعرائض التي وردت من الوطن العربي، وقال: «كُلّ هذه العرائض تطالب باستئناف القتال. لقد وردت على المؤتمر من كُلّ أنحاء الوطن العربي.. فكيف نقاتل وهذه المشكلة قائمة؟».

وطلب محمود رياض الكلام، فشرح مراحل المشكلة.. وتكلم كلاماً موضوعياً هادئاً، وأعرب عن استعداد الجمهورية العربية المتحدة للوصول إلى تسوية ترضي جميع الأطراف، واقترح العودة إلى اتفاقية جدة وتنفيذها بروح أخوية صادقة.

ولم يتحدث عمر السقاف وزير الدولة السعودية للشؤون الخارجية. وأراد عدد من الأعضاء استدراجه إلى الكلام، ولكنه بقي معتصماً بالصمت. وتحدث الرئيس السوداني لينقذ الموقف، فقال: «أظن أن الأخ السقاف ليست لديه تعليمات بهذا الموضوع، ولا داعي لأن يحرج بعضنا بعضاً». وبقي السقاف صامتاً. ومسكين من يمثل السعودية، إذا لم يكن مستعداً للإقالة أو الاستقالة.

وطال الأخذ والردّ في هذا الموضوع. وتكلم مندوبو تونس والمغرب وليبيا والأردن، وكانت أحاديثهم تتجه إلى أن الموضوع بين يدي «جلالة الملك فيصل المعظم»، وليس للمؤتمر أن يبحث هذا الموضوع. لأن وزراء الخارجية لا يبحثون أي موضوع يتعلق مباشرة برؤساء الدول. وحيا الله البروتوكول!

وحاول عدد من الوفود أن يحملوا السقاف على أن يتصل بالملك فيصل ليعرب له عن رغبة المؤتمر في أن يبادر إلى تسوية مشكلة اليمن على أساس اتفاق جدة. . ولكن السقاف اعتذر عن ذلك قائلاً: «ليس عندي تعليمات في الموضوع، وهو ليس من اختصاصي». وقطعت جهينة قول كُلّ خطيب. .

وتدخّل الرئيس السوداني ليقفل باب البحث في الموضوع وأعلن أن السودان هو الذي تولى أمر الوساطة في الموضوع، وأنه سيواصل مساعيه. فأقفل الموضوع وأقفلت الجلسة.

وخرجنا. ولكن الجلسة عادت وانعقدت خارج الجلسة. وراء الكواليس بحسب العادة، فإن القضايا العربية تُحلَّ في المعابر والردهات، لا في قاعة الاجتماعات.

وطلب الرئيس السوداني من السقاف أن يبرق إلى الملك فيصل بما دار في الجلسة، فاعتذر إليه السقاف مكرراً: «ما عندي تعليمات»، على نسق «ماكو أوامر» التي كان يرددها ضباط الجيش العراقي في أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

وعلى هذا، فقد أرسل الرئيس السوداني برقية إلى الملك فيصل عن طريق سفارته في جدة، وجاء جواب الملك فيصل في اليوم التالي، من غير إبطاء، فقد كان الجواب حاضراً في ذهن الملك فيصل لأنه ناضج عنده منذُ أن نشبت الثورة في اليمن.

وقال الملك فيصل في جوابه: «نحن لسنا طرفاً في النزاع، والشعب اليمني هو الذي يقرر مصيره بعد جلاء القوات غير اليمنية عن اليمن» ومعنى ذلك جلاء القوات المصرية أولاً، وبعد ذلك تتكلم.

وكان هذا الجواب هو الجواب الذي كان يكرره الملك فيصل على مدى ثلاثة أعوام، كلما ناشده أي عربي، أو أنشده أي شاعر، حتّى لو كان الشاعر هو محمّد

أحمد محجوب رئيس وزراء السودان. ويومها قلت للشاعر الناثر محجوب ما قاله العرب: «ما أرانا نقول إلا معاداً».

وعدنا إلى بحث الموضوع في الجلسة التالية. فلم يكن أمام وزراء الخارجية إلا أن يصدروا توصية غير مكتوبة، وهو أن يستمرّ الرئيس السوداني في مساعيه الحميدة، وأن يترك الموضوع إلى مؤتمر القمة. . لعل الملوك والرؤساء يجدون للأمر مخرجاً.

وانتقلنا بعد ذلك إلى بحث الموضوع الخطير: استخدام البترول في المعركة.

وهبَّ إبراهيم ماخوس وزير الخارجية السورية يتكلم عن أمريكا وبريطانيا ودورهما في مساندة العدوان الإسرائيلي، وأن الجماهير العربية تطالب بوقف البترول عنهما.

وأعلن إسماعيل خير الله وزير خارجية العراق أن لدى العراق مشروعاً اقتصادياً متكاملاً لاستخدام الطاقات الاقتصادية العربية، ومنها البترول، للعمل على إزالة آثار العدوان، ويتلخص المشروع في «وقف ضخّ البترول لمدّة ثلاثة أشهر ابتداء من أول شهر أيلول/ سبتمبر القادم، وسحب الأرصدة العربية واحتياطيات النقد المودعة أو المستثمرة في بنوك دول العدوان، وتأميم جميع المصالح الاحتكارية الأجنبية، وإنشاء صندوق عربي للإنماء، واتحاد للمدفوعات، وتحقيق التكامل الاقتصادي بين الدول العربية».

وتحدثت بدوري عن فتح الجبهة الاقتصادية في المعركة إلى أن تستكمل الدول العربية استعداداتها العسكرية لاستئناف القتال، وذكرت أن الشيخ عبد الله الطريقي خبير البترول العربي قد وافق على أن ينضم إلى وفد منظمة التحرير الفلسطينية، وأنه حاضر معنا ليشرح الجوانب الاقتصادية والفنية المتعلقة باستخدام البترول كسلاح في خدمة القضية العربية.

وخلال حديثي عن قضية البترول كان عمر السقاف يغادر مقعده ويهمس كلاماً في أذن الرئيس السوداني كنت أفهمه بالفراسة لا بالسماع. فالسعوديون لهم مهارة عجيبة في الهمس والوشوشة منذُ حروبهم مع الهاشميين وآل رشيد. وليس هذا الكلام مزاحاً ولا مداعبة.

وقد صحّت فراستي، فبعد أن انتهت الجلسة جاءني رئيس الوزراء السوداني ليقول: «هل تريد أن تنسف المؤتمر؟ المؤتمر معقود من أجل فلسطين، ويجب على فلسطين أن تهيئ كُلّ فرصة لنجاح المؤتمر».

قلت: «خير إن شاء الله. نحن ما جئنا لننسف المؤتمر، وإن كنا مستعدين أن

ننسف كُلّ من يريد أن ينسف المؤتمر. وما هو الموضوع»؟

قال: «الوفد السعودي عازم على الانسحاب، إذا كان الشيخ عبد الله الطريقي سيتحدث في المؤتمر».

قلت: «لماذا الانسحاب؟».

قال: «الطريقي سعودي الجنسية. وهو مغضوب عليه من الملك فيصل. وإن ضمه إلى الوفد الفلسطيني هو تحد واضح للملك فيصل، وخصوصاً أن قضية البترول حساسة جداً عند الملك فيصل».

قلت: «أنا ظننت أن المؤتمر سيشكرني لأني جئتهم بخبير عربي في شؤون البترول، وليس بين وفودكم خبير بترولي واحد. وهل يمكن أن ينفضّ هذا الاجتماع من دون بحث قضية البترول؟».

قال: «عندي حلّ للموضوع».

قلت: «ما هو؟».

قال: «هنالك اتجاه عند عدد من الإخوان أن نحيل قضية البترول بكاملها إلى مؤتمر لوزراء البترول العرب. وفي هذه الحالة يمكن المنظمة أن ترسل أي خبير بترولي تختارونه ليعرض رأيه باسمكم أمام ذلك المؤتمر».

قلت: «سأفكر في الموضوع».

قال غاضباً: «تفكر إيه؟. أنتم عاوزين عنب وإلا تقاتلوا الناطور؟».

قلت: «سأفكر في الموضوع. كُلّ خوفي، وأنا أعرف الاجتماعات العربية السابقة، أن نخرج من هذا المؤتمر لا عنب ولا ناطور».

وعدنا إلى الاجتماع. ورأيت الحلّ الوسط بنفسي، فقد كان الشيخ عبد الله الطريقي قد أعد دراسة وافية عن الموضوع، فقدمتها في بداية الجلسة، وقلت: «هذا هو رأي المنظمة، وهو رأي علمي يستند إلى الأرقام والوقائع».

وانبرى المنجي يتحدث عن قضية البترول، وأنه موضوع خطير ولا يجوز أن يتخذ فيه أي قرار ارتجالاً، وأنه يتصل باقتصاد الدول البترولية نفسها، وهي وحدها التي تقرر أمره.

ثُمّ دخل المنجي بالتفاصيل، وهو ينظر في الأوراق التي في ملفه، كما يفعل المحامي الذي يترافع عن قضية تقاضى عليها أجراً، فأورد دخل السعودية من

البترول، وكذلك الكويت، وليبيا، كُلّ ذلك بالبرميل يومياً، وبالدولار سنوياً، تماماً كما لو كانت آبار البترول كلها في تونس.

والواقع أن المنجي سليم، إن لم يكن قد تقاضى الأجر المؤجل، بحسب لغة المحامين، كان ينتظره، كما كان يتوقع، فقد كانت تونس ترشح المنجي سليم لأن يكون أميناً عاماً للجامعة العربية، وكانت السعودية والأردن وليبيا تؤيد هذا الترشيح، فقد آن الأوان، وقد حلت الهزيمة، أن يتولى شؤون الجامعة العربية رجل غير مصري. كان ذلك هو منطقهم.

وتكلم الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الكويتي، فأعرب عن استعداد الكويت للموافقة على أي قرار يتخذ بالإجماع بشأن البترول. والإجماع صيغة ذكية للرفض، لأن الإجماع غير ميسور بوجود السعودية وليبيا، وهما تقفان بعناد ضدّ المساس بالبترول من قريب أو من بعيد، حتّى لا تلوّث أيدي اللامسين.

ولكن الوزير الكويتي أورد نقطة جديرة بالدرس، وهي أن الكويت تعتمد في استخراج ماء الشرب والإضاءة على ضخّ البترول، وطالب بإيجاد حلّ لهذه المشكلة.

ورفعت الكوفية عن أذن الشيخ صباح وهمست في أذنه: «وكيف عاش الكويت آلاف السنين قبل البترول؟».

أما وزيرا ليبيا والسعودية، فلم يتكلما في الموضوع، ولكنهما كانا «يطيّبان» مرافعة المنجي سليم بالحواجب وفرقعة الأصابع.

وتكلم إسماعيل خير الله وزير خارجية العراق، فعارض المنجي سليم في أرقامه ووقائعه، وأيّد مقترحاته التي تدعو إلى وقف ضخّ البترول لمدّة ثلاثة أشهر على الأقل.

وصاح الوزير السوري إبراهيم ماخوس مطالباً بالمبادرة إلى إصدار قرارات حاسمة بالنسبة إلى البترول، حتّى قبل أن يجتمع الملوك والرؤساء.

ووقف المنجي سليم ليقول: «إذا أنتم قررتم قطع البترول، فنحن لا نتحمل المسؤولية، ولا نستطيع أن نشارك في هذه الاجتماعات».

وسأله ماخوس: «وما هي المسؤولية؟».

قال المنجي سليم: «نحن نؤمن إيماناً جازماً بأنكم إذا تعرضتم للبترول، فإن أمريكا ستضطر إلى احتلال مناطق البترول بقوة السلاح».

وساد الاجتماع جو من التوتر وأصبح الوزراء يناقش بعضهم بعضاً، من غير نظام. وتدخل الرئيس السوداني، وقال: «يا إخوان، هذا موضوع له جوانب سياسية

من اختصاصنا، ولكن له جوانب اقتصادية وفنية ومالية كلها من اختصاص وزراء ليسوا معنا، وهم الوزراء العرب المختصون بشؤون المال والاقتصاد والبترول، ولذلك فإني أقترح أن نرجئ بحث الجوانب السياسية لهذا الموضوع، وأن نقرر دعوة الوزراء العرب المختصين إلى اجتماع قريب لبحث الموضوع من كُلّ جوانبه، وتقديم تقرير بأبحاثهم وتوصياتهم».

ودار نقاش طويل حول هذا الاقتراح، وانتهى المؤتمر بعده إلى الموافقة عليه، وتقرر أن يجتمع وزراء المال والاقتصاد والبترول العرب في بغداد في ١٥ آب/ أغسطس، وأن يجتمع وزراء الخارجية في ٢٦ آب/ أغسطس لدراسة توصيات مؤتمر بغداد، ليكون كُلّ شيء جاهزاً أمام مؤتمر القمة الذي تقرر عقده في ٢٩ آب/ أغسطس.

وهكذا انتهى مؤتمر وزراء الخارجية العرب في الخامس من الشهر (آب/ أغسطس) بعد أن أصدر توصيات إنشائية في مقدمتها الحفاظ على التضامن العربي، وهو الموضوع القديم الذي نشأ مع نشوء الدول العربية.

ذلك ما دوّنته في يومياتي عن مؤتمر وزراء خارجية الدول العربية استذكر أيامه وأشخاصه وأحداثه، لأجد أنّه لم يكن أكثر من تلك الليلة النيلية، ونحن نلهو بالمأساة ونزهو بالعار، ونشرب نخب الشهداء. وليس لأحد أن يشمئز من هذه التعابير الصارخة الجارحة، ذلك أن يومياتي قد سجلت أموراً رهيبة عن العدو، كان يفكر فيها ويخطط لها وينفذها، حين كان وزراؤنا في عبثهم يعبثون.

أجل، سجلت يومياتي أموراً رهيبة، وهذه بعضها، أوردها موجزة، بتواريخها ثُمّ بتعليقاتي العابرة عليها كما دوّنتها.

ـ ليفي أشكول، رئيس الوزراء الإسرائيلي، تكلم في هيئة الهستدروت التنفيذية، فأكد على ضرورة الهجرة.. الهجرة.. الهجرة.. وأصرّ على أنّه «يجب أن يبلغ تعداد إسرائيل خمسة ملايين نسمة في نهاية هذا القرن» (١١/ ٧/ ١٩٦٧). وكان اليهود في بداية القرن ثلاثين ألفاً على أكثر تقدير.

ـ أرسل أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل مذكرة إلى الأمم المتحدة يعلن فيها أن إسرائيل ترفض الانصياع لقرار مجلس الأمن الخاص بالقدس، ولا تعتبر أنها «ضمت» القدس إليها، ولكنها «وحّدت» شطري القدس لتكون عاصمة لإسرائيل (١١/ ٧/ ١٩٦٧). وقال الملوك المسلمون وأمراؤهم، وهم يسمعون هذا الكلام عن وطن الإسراء والمعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين: «سمعنا وأطعنا».

ـ قالت جريدة **الجيروسالم بوست** الإسرائيلية التي تصدر في القدس: «إن قرار

مجلس الأمن الذي صدر بشأن القدس لا يهمنا من قريب أو بعيد» (١٦/ ٧/ ١٩٦٧). ولماذا تهتم إسرائيل بمجلس الأمن، وهو لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً؟.

ـ عرض في سينما «رون» في القدس الفيلم المعروف «ستة أيام للنصر»، واشتبك الشباب العرب مع الشباب اليهودي في معركة، وسقط عدد من الجرحى (٩/ ٨/ ١٩٦٧)، وقلت: «ما أسعد الأمة بشبابها وأشقاها بحكامها».

ـ خطب الجنرال ديان في مهرجان شعبي، فقال: «إذا كنتم شعب التوراة، فإنكم تملكون أرض التوراة من النيل إلى الفرات» (٩/ ٨/ ١٩٦٧)، وقلت: «فليسمع حكام العرب من النيل إلى الفرات».

ـ ولمناسبة عيد الحداد اليهودي على ضياع القدس الذي يحتفلون به في كُلّ عام، أعلن مجلس الحاخامية اليهودي الأعلى في إسرائيل «أن طقوس الحداد التي يمارسها اليهود في كُلّ عام يجب أن تستمر، وأن لا يحدث أي تغيير فيها، رغماً عن أن القدس جميعها في أيد يهودية اليوم، لأن المعبد وقدس الأقداس لا يزال ركاماً ولا تزال قطاعات مهمة من الشعب اليهودي تعيش في بلاد مختلفة في المهجر» (١٠/ ٨/ ١٩٦٧)، وقلت: هلا يسمع بعضنا الذين يسخرون بالقيم الروحية والذكريات التاريخية.

ـ عقد أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل مؤتمراً صحافياً حضره ما يقرب من مائة صحافي من المراسلين الأجانب قال فيه: «إن خريطة الشرق الأوسط التي كانت موجودة قبل ٥ حزيران/ يونيو قد دمرت إلى غير رجعة» (١٤/ ٨/ ١٩٦٧)، وقلت: «وهل يسمع من في القبور؟».

وغير هذا، وغير هذا، مما دوّنته يومياتي. ولكن نبذة واحدة وردت في يومياتي لم أستطع أن أجد عليها تعليقاً. فقد كانت مفجعة موجعة، لجمت قلمي وأوراقي. كانت النبذة نقلاً عن تعليق إذاعة إسرائيل باللغة العربية تستعرض فيه انتصاراتها الثلاثة في الأعوام ١٩٤٨، و١٩٥٦، و١٩٦٧. وختمته بالآية القرآنية المعروفة: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله**﴾[٤]، وهي بذلك تستخدم القرآن على شعب القرآن.

وتضرّعت إلى الله: ﴿**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**﴾[٥] صدق الله العظيم.

---

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ٢٤٩.

(٥) المصدر نفسه، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٥.

هل نحن سعاة بريد.. عند الملوك والرؤساء؟

مؤتمر القمة العربي الرابع، بملوكه ورؤسائه ووزرائه، كان مؤتمر الأيام الستة، كحرب الأيام الستة، هزيمة أخرى للأمة العربية.

وكانت الهزيمة هذه المرة، لا في سيناء والجولان والضفة الغربية، ولكن في قلب عاصمة عربية، في الخرطوم حاضرة جمهورية السودان.

ففي الأيام الثلاثة الأولى اجتمع الوزراء والسفراء، وفي الأيام الثلاثة التالية اجتمع الملوك والرؤساء. وكانت نتيجة الاجتماعات وحصيلة القرارات هزيمة قومية صادعة، لا تزال الأمة العربية تعيش آثارها، كما تعيش آثار العدوان الإسرائيلي الجاثم على الأرض العربية.

ولقد شهدت مؤتمرات القمة الثلاثة في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء، وهالني ما كان فيها من تناقضات ومشاحنات!

ووقعت النكبة الكبرى في حرب الأيام الستة، واندفع الملوك والرؤساء في حملة كبرى للنقد الذاتي، يشرحون ظروف النكبة ويردّونها إلى أسبابها، ويتعاهدون على الانتفاع من أخطائها والاستفادة من دروسها.

وجاء مؤتمر الخرطوم كاليوم الموعود.. ومعه السؤال الكبير الأوحد: هل استفاد الملوك والرؤساء من دروس النكبة؟ ومضت ستة أيام في اجتماعات ومباحثات، ومآدب ومجاملات، لتثبت من جديد أن الملوك والرؤساء، كالعهد بهم، لم يتعظوا ولم يعتبروا. وقد تجلى ذلك في أمور.

من هذه الأمور أن الملوك والرؤساء ما جاؤوا إلى مؤتمر القمة في الخرطوم بخطّة شاملة مدروسة تتناول الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية.

وباستثناء الرئيس عبد الناصر الذي كان يحمل معه ملفاً سياسياً مدروساً، والرئيس العراقي عبد الرحمن عارف الذي كان يحمل مشروعاً اقتصادياً متكاملاً، فإن

الملوك والرؤساء لم يكونوا يحملون إلا حقائبهم، وليس فيها غير ملابسهم الخارجية قبل الداخلية.

ولم يكن هذا الاجتماع على عجل. فقد سبقته مشاورات، ورسل، ورسالات، امتدت ثمانين يوماً بلياليها.

وكانت الأمة العربية الماجدة، وكُلّ ذنبها أنها صابرة على حكامها، تحسن الظن بلقاء الملوك والرؤساء في الخرطوم، وتعلق الأمل على مؤتمرهم، وترجو الخير على يديهم.

وجاءت مذكراتي، ومعها هذه الأعوام الستة من التجارب والمعاناة. . لتثبت أن مؤتمر الخرطوم كان أكبر هزيمة سياسية حلّت بالأمة العربية منذُ أن كان للأمة العربية ملوك ورؤساء.

ففي هذا المؤتمر كانت اللاخطة هي الخطة.

وانتصرت اللاوحدة على الوحدة.

وتغلب بترول العرب على العرب.

وارتفعت راية الحلول السلمية بديلاً من مسيرة النضال.

وبرز شعار الصمود، فكان صموداً على أرض الذل والهوان.

وليس هذا الكلام حماسياً عاطفياً. فلم أعد ابن العشرين أو الثلاثين. . وأنا الآن أكتب ما أكتب، وقد تجاوزت الستين.

بل إن هذا الكلام ليس وراءه بغض لهذا الملك، أو كراهية لذلك الرئيس، فقد مات البعض وخلع البعض الآخر، وأنا سائر مع الباقين لنلقى وجه الله. . وفي غمرة هذا الإحساس، لا يكتب المرء إلا منصفاً وعادلاً.

وبهذا الإحساس وحده، فإني أكتب عن مؤتمر القمة في الخرطوم. من بدايته إلى نهايته، وكانت منظمة التحرير هي البداية، ذلك أن الدعوات قد أرسلت إلى الملوك والرؤساء. . ولم ترسل إلى رئيس واحد هو رئيس منظمة التحرير.

وطال انتظاري الدعوة. وحكومة السودان في حرج كبير. . فقد توالت علينا الأنباء بأن هذا الملك لا يحضر. . وأن ذلك الرئيس لا يحضر. . وأن وجود الشقيري هو السبب.

وكان قد سبق للملك حسين والرئيس بورقيبة والملك فيصل قبل حرب الأيام

الستة، أن أعلنوا أنهم لا يرون «السيد أحمد الشقيري جديراً بتمثيل الكيان الفلسطيني»[1]، ووقعت حكومة السودان وهي الدولة المضيفة في حرج وحيرة. إنها حريصة على حضور جميع الملوك والرؤساء، وهي كذلك لا تستطيع أن تقرر «وحدها» استبعاد رئيس منظمة التحرير.

ولقد كنت زاهداً، في الواقع، أن أحضر مؤتمرات القمة بعد الذي عانيته من الملوك والرؤساء في السنوات الثلاث الماضيات. . ولكني رأيت كذلك أنّه لا يصحّ من أجل القضية الفلسطينية شعباً ووطناً أن أرضى بهذه السابقة وتغيب منظمة التحرير عن الساحة.

وخطرت لي إحدى خواطر الشباب. فنفذتها على الفور. . دعوت شفيق الحوت مدير مكتب المنظمة في بيروت، وقلت له: «يا أخ شفيق. . أنت لك صداقات طيبة في السودان. . المنظمة لم تصلها دعوة لحضور مؤتمر القمة. . أرجو أن تسافر إلى الخرطوم وأن تكلم رئيس الحكومة وزملاءه بالحسنى، فإن لم تجد تجاوباً فأبرق إليّ. . وستجدني في اليوم نفسه في مطار الخرطوم، ومن المطار إلى الجامع الكبير، لأعلن للشعب السوداني أني سأكون ضيف الشعب، في بيت الله، في الجامع الكبير، وأن الملوك والرؤساء ومعهم حكومة السودان يريدون استبعاد منظمة التحرير عن الحضور».

وهكذا كان، فقد سافر شقيق الحوت. ومضت ثمانٍ وأربعون ساعة، فجاءت البرقية من الحكومة السودانية بدعوة رئيس منظمة التحرير لحضور مؤتمر القمة. . وكنت في المساء نفسه في الخرطوم، ومحمّد أحمد محجوب في استقبالي في المطار، وبادرني معاتباً، وهو يقول:

ـ «تنزل في الجامع لماذا؟ وبيتك موجود. تنزل عندي سواء وافق الملوك والرؤساء على حضورك أو لم يوافقوا».

قلت: «إن رغبتي في أن أذهب إلى الجامع لأستعين بالشعب على الملوك والرؤساء».

قال: «والله يا أخي، أنت ما تعرف حماسة الشعب السوداني. إذا علموا بالأمر فسيهاجمون المؤتمر بالعصي، يكسرون رؤوسنا».

قلت: «وهذا هو المطلوب».

---

(١) أحمد الشقيري، **على طريق الهزيمة مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٢). وهو متضمن في هذه المجموعة.

وذهبت إلى الفندق وتركت محجوب في المطار، وهو معتمر بعمامة سودانية، ومسربل بجلبابه الأبيض الفضفاض، ينتظر بقية الوافدين من دنيا العرب: الوزراء والسفراء.

وذهبت في اليوم الثاني لحضور اجتماع وزراء الخارجية، وهو الاجتماع الذي يُعدّ جدول الأعمال للملوك والرؤساء ومعه التوصيات والدراسات.

وبدأ رئيس الاجتماع محمّد أحمد محجوب، وهو يرتدي بدلة أنيقة، وكان أجمل في الليلة الماضية بعمامته وجلبابه، يستحث الوزراء على المبادرة إلى العمل حتّى يكون كُلّ شيء جاهزاً وفي موعده قبل أن ننشغل باستقبال الملوك والرؤساء.

وافتتح إسماعيل خير الله وزير الخارجية العراقي المناقشة وطرح مشروعه «التكامل الاقتصادي» كما شرحه في الاجتماع السابق في أول الشهر آب/ أغسطس، وقال: «لقد انعقد في بغداد اجتماع وزراء المال والاقتصاد والبترول العرب في ١٠ آب/ أغسطس واشترك فيه مندوبون عن البحرين وقطر وأبو ظبي. وإن توصيات هذا المؤتمر هي بين أيدينا الآن، وأنا أرجو أن نناقشها ونقرّها ونرفعها إلى الملوك والرؤساء.

وكان الرئيس العراقي الفريق عارف قد افتتح مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والبترول العرب بكلمة قال فيها: «إن شركات النفط تربح الملايين لتحيلها إلى أسلحة قاتلة تهديها إلى عدوتنا إسرائيل. وإذا كنا نرغب في أن نعيش بعزة وكرامة، أصبح لزاماً علينا أن نعيد النظر في واقع وطننا ونحمي ثروتنا من الاحتكار»، ودعا الوزراء العرب إلى إقرار المشروع العراقي: «كسلاح اقتصادي ضدّ إسرائيل وضدّ الدول التي تساند إسرائيل».

وأخذ الوزير العراقي خير الله يتلو توصيات مؤتمر بغداد من عبارة «سري وخاص» إلى عبارة «المرفقات»، وإني أوجزها كما يلي:

أولاً: يوصي المؤتمر بوقف ضخّ البترول كلياً، وإلى أجل غير محدود حتّى تزول آثار العدوان، ذلك أن وقف الضخّ سلاح اقتصادي فعال، على ألا يكون محدداً بمدة أو جزئياً.

ثانياً: يوصي المؤتمر بأن يتم سحب الأرصدة العربية بالاسترليني والدولار، وتخفيض الاستثمارات العربية في منطقتي الدولار والإسترليني، وأن يتم نقل الأرصدة الذهبية العربية المودعة في كُلّ من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى خارجها، وأن توجه الاستثمارات الحكومية إلى الأسواق العربية.

ثالثاً: إنشاء مستجمع للاحتياطيات النقدية.

رابعاً: إنشاء صندوق عربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، كما يوصي المؤتمر بإنشاء صندوق لدعم الدول العربية المتضررة بالعدوان الإسرائيلي، وإنشاء اتحاد للمدفوعات العربي تنضم إليه جميع الدول العربية.

خامساً: يوصي المؤتمر بإقامة مجموعة اقتصادية عربية مشتركة، ترمي إلى تحقيق التكامل الاقتصادي والاكتفاء الذاتي والوحدة الاقتصادية العربية.

وقد أرفق بالتوصيات تقارير تفصيلية مدروسة عن شؤون البترول والأمور المالية والاقتصادية العربية.

ولا بُدّ منَ أن أنوّه، مع التوكيد والتشديد، أن هذا المؤتمر الذي انعقد في بغداد كان أكبر مؤتمر اختصاصي شهدته الأمة العربية في تاريخها المعاصر. فقد احتشدت فيه النخبة الممتازة من خبراء الوطن العربي وكفاءاته الدراسية في مختلف المواضيع البترولية والمالية والاقتصادية، وقد استمرّ المؤتمر منعقداً لمدّة أسبوع كامل، وتفرعت عنه لجان متخصصة تولت دراسة القضايا المعروضة عليها. وبلغت الدراسات والتوصيات والمشروعات عدة ملفات احتوت كنوز العقل العربي الدارس المدقق.

أقول هذا ليتأكد المواطن العربي أن توصيات مؤتمر بغداد لم تكن مرتجلة ولا عاطفية، ولكنها كانت حصيلة دراسة العلماء، وبقيت المهمة على الوزراء.

ولكن الوزراء الذين اجتمعوا هذا اليوم في الخرطوم ليمهدوا للملوك والرؤساء أعمالهم قد وقفوا مبهوتين أمام هذه التوصيات لا يدرون ما يصنعون بها.

وانبرى الوزير التونسي المنجي سليم يفنّد توصيات المؤتمر، وأنها غير علمية، وتحتاج إلى درس طويل، ولا بُدَّ من إحالتها إلى خبراء.

وسانده الوزير الليبي د. أحمد البشتي مطالباً بمزيد من الدراسة والتعمق في البحث.

وصاح الوزير السوري د. ماخوس بأن الموضوع قد قتل بحثاً واستنفد كُلّ أنواع الدراسة. وتدخل محمّد أحمد محجوب ليعيد الاجتماع إلى الهدوء والنظام وقال:

«أنتم في اجتماعكم السابق بحثتم موضوع البترول، ولم تستطيعوا الاتفاق على قرار، ثُمّ أحلتم الموضوع إلى مؤتمر يضم وزراء المال والاقتصاد والبترول باعتبارهم من أهل الخبرة، حتّى يقولوا كلمتهم. وها قد جاء تقرير المؤتمر، لم يبق عليكم إلا أن تحددوا موقفكم من تقرير مؤتمر بغداد بالموافقة أو الرفض أو التعديل».

فعاد المنجي سليم إلى الكلام وقال: «إن هذا الموضوع خطير وكبير، ولا

يمكن أن ننظر فيه بمثل هذه السهولة ولا بمثل هذه السرعة».

واستأذنت بالكلام، فقلت: «لدي ملف كامل عن الموضوع من بدايته إلى نهايته. وأنا مستعد أن أضع أمام الوزراء عرضاً كاملاً ييسّر علينا سبل العمل. . وأنا لا أريد أن أعود إلى موضوع البترول منذُ اجتماعات بلودان في عام ١٩٤٦ حينما صدرت القرارات السرية الشهيرة باستخدام البترول كسلاح فعال في قضية فلسطين لردع الولايات المتحدة عن تأييدها لمشروع إقامة الدولة اليهودية. وكذلك فإني لا أريد أن أستعرض القرارات الكثيرة التي صدرت بشأن البترول على مدى عشرين عاماً، منذُ إنشاء الجامعة العربية. ولكني أريد أن أقتصر على المرحلة الراهنة التي نحن فيها الآن».

واستطردت بعد ذلك إلى القول: «في أوائل حزيران/ يونيو من هذا العام وضح تماماً أن الموقف بيننا وبين إسرائيل يؤذن بالانفجار، وبخاصة بعد إغلاق خليج العقبة وسحب قوات الطوارئ الدولية، وتداعى وزراء النفط في الدول العربية فعقدوا اجتماعاً طارئاً في بغداد، وكان ذلك في الرابع من حزيران/ يونيو، واتخذوا بالإجماع قرارين تاريخيين مهمين: **أولهما** قطع النفط العربي ومنع وصوله بطريق مباشر أو غير مباشر إلى الدول التي تعتدي أو تشترك في الاعتداء على سيادة دولة عربية أو على أراضيها أو مياهها الإقليمية، وقد فسرّ المؤتمر أن العدوان الذي يؤدي إلى قطع النفط بأنه الاعتداء المسلح المباشر أو مدّ العون العسكري إلى العدو بأية صورة كانت، أو محاولة إمرار السفن التجارية عبر الخليج العقبة تحت حماية عسكرية أياً كان نوعها. والقرار **الثاني** الذي وافق عليه المؤتمر ينصّ على أن دخول أية دولة في عدوان مسلح مباشر أو غير مباشر ضدّ الدول العربية يخضع أموال شركاتها وأموال رعاياها الموجودة في أراضي الدول العربية لقوانين الحرب، بما في ذلك أموال شركات النفط».

واستأنفت حديثي بعد ذلك قائلاً: «لقد كان هذا القرار الإجماعي قبل العدوان الإسرائيلي بيوم واحد. ووضعت الحكومات العربية أمام الامتحان. وبدأت المعركة وانتهت وجاء الأوان لاستخدام البترول كما قرر وزراء البترول أنفسهم.

وارتفعت الأصوات من الأمة العربية تطالب بتنفيذ القرارات البترولية.

وكان أول صوت ارتفع في الوطن العربي من اتحاد عمال البترول العرب، فقد وجه نداء إلى كُلّ الدول العربية بمنع تصدير البترول إلى الدول المعتدية وطرد رعاياها من البلاد العربية. وكان ذلك يوم العدوان (٥/ ٦/ ١٩٦٧).

وقد أشرت إلى موقف اتحاد عمال البترول بالذات، لأنهم أول من يتأثر بتوقف المؤسسات البترولية، وما يؤول إليه ذلك بالنسبة إلى أرزاقهم.

وقاطعني الوزير التونسي قائلاً: «نحن لا شأن لنا بالعمال، نريد أن تتحدث عن موقف الدول العربية».

قلت: «سأتحدث عن موقف الجميع، الحكومات والشعوب.. وسأضع أمام مؤتمركم الصورة كاملة. وإن الصورة طويلة بعض الشيء ولا أعتذر عن ذلك، فإن النفط هو السلاح الباقي للأمة العربية في الظروف الراهنة، بعد أن تحطمت الأسلحة العسكرية».

ورحت أسرد الوقائع المتصلة بالنفط في الوطن العربي، مع الأحداث والتواريخ، منذُ أواخر شهر أيار/ مايو، شهر الأسرار والأخبار.. فكانت كما يلي:

ـ في الكويت، أدلى الشيخ صباح الاحمد الصباح وزير خارجية الكويت قبل سفره إلى القاهرة حاملاً رسالة من أمير الكويت إلى الرئيس عبد الناصر بحديث قال فيه: «إننا لا نبخل بالدم في هذه المعركة، فكيف بالبترول؟ وإن هذا الموضوع أصبح ثانوياً بالنسبة إلى ما هو حاصل الآن. وكان هذا الحديث جواباً عن سؤال صحافي حول إمكانية استخدام البترول في المعركة المحتملة الوقوع (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وفي لندن، أعلن الملك فيصل في مؤتمر صحافي، وكان في زيارة لبريطانيا «أن أي عربي يتردد في خوض هذه المعركة غير جدير بحمل اسم عربي». وفي اليوم نفسه نفى دبلوماسيون سعوديون النبأ القائل إن الملك فيصل هدد بقطع النفط عن الدول الغربية إذا ما ساعدت إسرائيل في الحرب ضدّ العرب (٢٣/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وفي الكويت، عقد مجلس الأمة اجتماعاً لمناقشة تطورات الأزمة في الشرق الأوسط، وطالب أعضاء المجلس بتأميم حصة الولايات المتحدة في بترول الكويت ووقف البترول عن الدول الاستعمارية واتخاذ إجراءات ضدّ أي دولة تقف إلى جانب إسرائيل. وألقى الشيخ جابر الأحمد رئيس الحكومة بياناً أمام المجلس أعلن فيه أن الحكومة كلّفت وزير خارجيتها إبلاغ ممثلي الدول الكبرى أن اشتراك أية دولة في العدوان على البلاد العربية سيعرض مصالحها في الكويت إلى الخطر (٢٧/ ٥/ ١٩٦٧).

ـ وفي ليبيا، أعلن خليفة موسى وزير شؤون النفط لوكالة الأنباء الليبية الرسمية أن حكومته ستتخذ جميع الإجراءات لمنع تدفق النفط الليبي إلى أية دولة تشترك في العدوان الصهيوني (٢/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي بغداد، أعلنت الحكومة العراقية وقف ضخّ النفط «بالنظر للموقف الخطير في موقف كُلّ من الولايات المتحدة وبريطانيا وقيامهما بمدّ العون العسكري للعدو». وقرر الاتحاد العام لنقابات العمال في العراق مقاطعة جميع البواخر وناقلات

النفط . . وكان هذان القراران في اليوم الثاني من العدوان (٦/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي الكويت، اجتمع مجلس الوزراء وقرر وقف تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا (٦/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي الجزائر، أصدرت الحكومة قراراً بوقف تصدير البترول إلى بريطانيا والولايات المتحدة (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي بغداد، رفضت السلطات العراقية تحميل ناقلة بريطانية وأنذرتها بوجوب مغادرة المياه الإقليمية العراقية، فقامت بتنفيذ الأوامر فوراً. وكانت الناقلة البريطانية وحمولتها ٤١ ألف طن قد وصلت إلى ميناء البصرة في اليوم الأول من العدوان (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي السعودية، عرض الشيخ أحمد زكي اليمانيّ وزير البترول السعودي على مجلس الوزراء السعودي القرارات التي أصدرها مؤتمر وزراء البترول الذي عقد في بغداد، وصرح «بأن مجلس الوزراء قد وافق على قرارات مؤتمر بغداد وأصدر أمراً بمنع وصول البترول السعودي إلى الدول التي تشارك إسرائيل وتساعدها عسكرياً في عدوانها على الأمة العربية، وأنه قد تمّ إبلاغ ممثل شركة أرامكو تلفونياً بمحتوى القرار لتنفيذه، وكذلك أبلغت جميع الشركات البترولية العاملة في السعودية. ومنذُ صباح هذا اليوم توقف ضخّ بترولنا إلى الدول التي تقف في صف الوليدة الممسوخة إسرائيل». (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي نيويورك، أعلن ناطق بلسان شركة أرامكو البترولية أن الشركة أغلقت منشآت إنتاج النفط والمصافي التابعة لها في المملكة العربية السعودية بسبب وقوع تظاهرات مناوئة للأمريكيين هناك، وأن عدة مئات من السعوديين بينهم عدد من موظفي الشركة اشتركوا في التظاهرات، وأن منازل حوالى ١٣٥٠ أمريكياً يعملون في المنشآت قد دمرت، ولكن لم تلحق إضرار بمنشآت النفط (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي طرابلس، قررت الحكومة الليبية «وقف ضخّ البترول ومنع تصديره من الموانئ الليبية، وذلك التزاماً من ليبياً بالدور الذي تفرضه طبيعة المرحلة التي تمرّ بها الأمة العربية ضدّ العدوان الصهيوني وتضامناً مع الدول العربية المنتجة للبترول»، إلى آخر ما جاء في البيان الرسمي (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي البحرين، أصدر الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين أمراً بوقف جميع عمليات شحن ناقلات البترول، كما أمر بإغلاق خطّ الأنابيب الذي ينقل النفط الخام من السعودية إلى البحرين (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي بيروت، أصدرت القيادة العليا للجيش اللبناني أمراً «بمنع تحميل أو تزويد أي سفينة من أي نوع كان بالبترول اعتباراً من الآن وإلى إشعار آخر» (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي واشنطن، أعربت الدوائر الرسمية عن قلقها البالغ بسبب توقف النفط العربي، وقد أكد المسؤولون الأمريكيون أن قطع النفط سيضعف إلى حدّ بعيد نشاط الولايات المتحدة الحربي في فييتنام، كما أنّه قد يؤدي إلى مزيد من الاضطراب الاقتصادي الداخلي، وأنه من المعروف أن كمية كبيرة من منتوجات النفط المصفى التي تؤمن الطاقة للعمليات الحربية الأمريكية في فييتنام تأتي من مصافي الخليج العربي مضافاً إلى ذلك أن أوروبا الغربية تستورد ستين في المائة من نفطها من الشرق الأوسط (٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي الجزائر، أصدرت الحكومة أمراً بإقفال مكاتب ثلاث شركات بترولية تملكها هولندا وبريطانيا وفرنسا وسويسرا، وختمت مكاتبها بالشمع الأحمر (١٠/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي إمارة أبو ظبي، أمر الحاكم الشيخ زايد بن سلطان شركات النفط العاملة في أبو ظبي عدم تحميل ناقلات النفط المتوجهة إلى بريطانيا والولايات المتحدة.

ـ وفي الرياض، أصدرت الحكومة السعودية أمراً بالموافقة على استئناف شحن النفط من رأس تنورة، ولكن ليس إلى الولايات المتحدة وبريطانيا (١٢/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وأعلن مسؤول في شركة أرامكو أن عملياتها في المملكة العربية السعودية عادت إلى حالتها الطبيعية، وأن مصافي البترول في رأس تنورة والخليج العربية عادت إلى العمل وأخذت تزوّد ناقلات النفط كالعادة، وأن الحظر العربي المفروض على إرسال النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا ما زال ساري المفعول (١٣/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي الرياض، أعلن الشيخ أحمد زكي اليماني وزير البترول السعودي أن حظر إرسال شحنات النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا ما زال مستمراً، وأن خطّ التابلاين لا يزال مغلقاً، حرصاً على دقة تطبيق قرار مجلس الوزراء القاضي بحظر تدفق البترول السعودي إلى الدول التي تساعد دويلة العصابات الصهيونية، وأن وقف ضخّ الزيت تماماً بدأ منذُ اللحظة التي صدر فيها القرار. ثُمّ وضعت الترتيبات التي تضمن عدم تسرب أي شحنة إلى أي دولة تقرر منع البترول السعودي عنها. . وفي ضوء ذلك، فقد أصدرت حكومة صاحب الجلالة أمراً لشركة أرامكو يسمح باستئناف ضخّ الزيت ابتداء من منتصف ليلة الثلاثاء، بعد اتخاذ الترتيبات اللازمة، ومنها أن توقع الشركة والمشتري وقائد الناقلة على تعهد بعدم وصول الزيت السعودي

إلى أراضي الدول التي قررت حكومة صاحب الجلالة منعه عنها، وقد عيّنت وزارة البترول والثروة المعدنية مراقباً من كبار موظفيها للإشراف على تطبيق الترتيبات المذكورة. ويجري هذا التدبير بالتعاون الكامل مع شركة أرامكو (١٣/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي الكويت، أعلن الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الكويتي، عقب اجتماع وزراء الخارجية العرب الذي عقد في الكويت، أن الدول العربية المنتجة للنفط ثابتة على قرارها بقطع النفط عن الدول التي ساعدت إسرائيل في عدوانها على الدول العربية (١٧/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي الجزائر، ألقى الرئيس الجزائري بومدين خطاباً في اجتماع شعبي ضم عشرة آلاف شخص، دعا فيه الحكومات والشعوب العربية إلى وقف شحن النفط إلى أعدائها لمدّة سنة (١٩/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي الجزائر، هاجم الراديو القرار الذي اتخذته السعودية بالسماح لشركة أرامكو بضخ النفط، ووصف القرار بأنه خيانة، وأن من شأنه أن يشجع الاستعماريين ليضغطوا على دول عربية أخرى لتحذو حذو السعودية (٢٢/ ٩/ ١٩٦٧).

ـ وفي الكويت، أعلن الشيخ جابر الأحمد رئيس حكومة الكويت في حديث نقلته إذاعة الكويت أن بلاده ستتقيد بأي قرار يتخذه مؤتمر قمة عربي بشأن النفط، وأن الكويت قد أوقفت شحن النفط إلى الدول التي ساندت العدوان الإسرائيلي الغادر (٢٨/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي السعودية، نقلت إذاعة مكة تصريحاً للشيخ أحمد زكي اليماني وزير البترول السعودي قال فيه إن خسارة بلاده نتيجة لوقف ضخّ النفط خلال الأربعة وعشرين يوماً الماضية تزيد على مائة وستة ملايين ريال سعودي، وأن الخسارة من الآن وصاعداً لن تقل عن مليون ونصف مليون ريال يومياً (٢٩/ ٦/ ١٩٦٧).

ـ وفي طرابلس أبرقت وكالة اليونايتد برس للأنباء تقول إنّه يبدو أن حسين مأزق رئيس حكومة ليبيا[٢]، استقال أول أمس بسبب خلاف نشب حول ما إذا كان يجب على ليبيا أن تستأنف ضخّ النفط إلى دول الغرب أم لا، وأضافت الوكالة تقول إن حكومة مأزق كانت تتعرض لضغط شديد جداً من الوطنيين الذين يريدون استمرار المقاطعة مهما كان الثمن، بينما أعلن بعض المسؤولين في حكومة مأزق عن

(٢) قبل الثورة.

قلقهم لأن ليبيا تخسر يومياً مليون ونصف المليون من الدولارات منذُ بدء وقف تصدير البترول الليبي.

ـ وفي بغداد، استجابت الحكومة العراقية لطلب إسبانيا بأن تبيعها النفط بسبب موقفها المشرف من العدوان الأخير على البلاد العربية (١/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي السعودية، طالبت جريدتا **الندوة** و**البلاد** باستئناف ضخّ النفط بحجة أن إيقاف الضخّ يضرّ بمصالح العرب الاقتصادية، وأن بالإمكان الاستفادة من عائدات النفط في تمويل الجيوش العربية المقاتلة (٢/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي الجزائر، عقّبت إذاعة الجزائر على تصريح وزير النفط السعودي وما قاله بأن قطع النفط العربي يضرّ بالاقتصاد العربي، فهاجمت المملكة العربية السعودية، ووصفتها بأنها طعنت الدول العربية من الخلف، وأن التحلل من حظر النفط إلى بريطانيا وأمريكا يعني خيانة الكفاح (٣١/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي ليبيا، أعلن الاتحاد العام للنقابات الليبية الإضراب الشامل احتجاجاً على سياسة الحكومة الجديدة التي يرأسها عبد القادر البدري، بعد أن أعلنت استئناف ضخّ النفط وتصديره إلى بعض الدول الغربية. وقد دعا عمال نقابة النفط إلى الإضراب لمدّة ثلاثة أيام، مطالبين بعدم استثناء ألمانيا من إمدادها بالنفط، بالإضافة إلى أمريكا وبريطانيا (٤/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي السعودية، دعت جريدة **عكاظ** التي تصدر في جدة إلى إعادة تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا، بعد أن أعلن الملك حسين أنّه أصبح متأكداً من عدم اشتراك الولايات المتحدة وبريطانيا في العدوان الإسرائيلي الأخير على البلاد العربية (٤/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي بغداد، دعا مدير شركة النفط الوطنية إلى تأميم الممتلكات النفطية الخاصة بالولايات المتحدة وبريطانيا في العراق (٥/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي طرابلس، أصدر عمال النفط في ليبيا بياناً قالوا فيه: «إن إعادة ضخّ النفط الليبي ستوفر أرباحاً طائلة لشركات النفط بسبب رخص النفط الليبي، وكأن ليبيا بإعادتها الضخّ تقدم لشركات دول العدوان جائزة كبرى قدرها ٤٥٠ مليون جنيه إضافية مكافأة لها على العدوان» (٦/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي أبو ظبي، أعلن الحاكم الشيخ زايد بن سلطان أنّه لا يعتزم كسر الحظر الذي فرضه العرب على شحن النفط إلى الولايات المتحدة وبريطانيا (٦/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي جدة، قالت الإذاعة السعودية إن الحكومة ترى أن أساس حظر تصدير

النفط إلى بريطانيا وأمريكا لم يعد قائماً، وأن هذا الحظر يهدّد مستقبل الأقطار العربية (٧/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي ليبيا، استأنفت الحكومة ضخّ النفط الليبي إلى فرنسا وإيطاليا وتركيا وإسبانياً واليونان، وأنهى عمال النفط إضرابهم واعتقل عدد من زعمائهم (٧/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي القاهرة، أذاع صوت العرب تعليقاً هاجم فيه سياسة المملكة العربية السعودية الداعية إلى إعادة ضخّ النفط إلى كُلّ من أمريكا وبريطانيا (٨/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي بغداد، ندّدت الهيئات والمنظمات العراقية بقرار الحكومة السعودية استئناف ضخّ النفط إلى بريطانيا والولايات المتحدة، وبموقف ليبيا من دول العدوان (١٠/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي طرابلس، نفى ناطق باسم وزارة النفط ما يشاع من أن ليبيا تصدر النفط إلى بريطانيا وأمريكا، وأكد أنها لا تصدره إلا إلى خمس دول هي إسبانيا وتركيا واليونان وفرنسا وإيطاليا (١٠/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي السعودية، دعت إذاعة مكة إلى إعادة النظر في قرار تصدير النفط العربي إلى أمريكا وبريطانيا، على اعتبار أن الدول العربية المنتجة للنفط بحاجة إلى عائداته لدعم اقتصادها، لمدّ جبهات القتال ومسيرة النضال بما تحتاج من أموال (١١/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي بيروت، صرح الشيخ أحمد زكي اليماني وزير النفط السعودي أثناء زيارته إلى العاصمة اللبنانية أن حكومته لا تنوي استئناف ضخّ النفط إلى أمريكا وبريطانيا (١٢/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي الكويت، أعلن الشيخ أحمد زكي اليمانيّ وزير النفط السعودي أثناء زيارته أن العرب يتكبدون خسائر طائلة نتيجة قطعهم النفط عن بريطانيا وأمريكا (١٣/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي الخرطوم، أذاع الرئيس السوداني إسماعيل الأزهري كلمة في الراديو شدّد فيها على أهمية سلاح النفط في المعركة (١٩/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي بغداد، طلبت الحكومة العراقية من اليابان أن تقدم تأكيدات قاطعة بأن النفط العراقي الذي يصدر إليها لن يصل بشكل مباشر أو غير مباشر إلى بريطانيا وأمريكا (٢٢/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي بون، أعلنت مصادر رسمية في ألمانيا الغربية أن الحظر الذي تفرضه ليبيا

والعراق على تصدير النفط إلى ألمانيا الغربية يحرمها من ٤٠ في المائة مما تستورده من النفط (٢٢/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي الكويت، صرحت مصادر رسمية أن قطع النفط الكويتي عن أمريكا وبريطانيا يكلف البلاد ما قيمته مائة وخمسة وأربعون مليون دولار سنوياً (٢٣/ ٧/ ١٩٦٧).

ـ وفي بغداد، أعلن إسماعيل خير الله وزير الخارجية العراقي أن الحكومة العراقية لا تزال ملتزمة كلياً بالقرارات التي اتخذها مؤتمر البترول العربي حول قطع النفط عن البلدان التي أيّدت وتؤيد إسرائيل (١١/ ٨/ ١٩٦٧).

ـ وفي بيروت، نقلت وكالة يونايتد برس للأنباء أن كمية من النفط العربي تصل إلى بريطانيا بواسطة طرف ثالث، ولم تذكر الوكالة اسم الطرف الثالث، كما لم تكشف النقاب عن كمية النفط التي تصل إلى بريطانيا بهذه الطريقة (١٤/ ٨/ ١٩٦٧).

ـ وفي لندن، نشرت جريدة **الغارديان** البريطانية تحقيقاً ذكرت فيه أن المشروع العراقي المتعلق بالبترول قوبل بالفتور من قبل السعودية وليبيا وتونس والمغرب (١٧/ ٨/ ١٩٦٧).

ـ ومن جدة، قالت الإذاعة السعودية إن وقف ضخّ النفط سيضرّ باقتصاد بعض الدول العربية، وبالتالي بالمجهود الحربي العربي، وحذرت من أن المقاطعة الاقتصادية العربية لبعض الدول الكبرى لن يكسب العرب إلا غضب تلك الدول، وأنه ليست هنالك دواع حقيقية لهذه المقاطعة».

فرغت من هذا السرد الطويل لموضوع النفط العربي ومواقف الحكومات العربية، وكان وزراء الخارجية يدوّنون في مفكراتهم كُلّ ما يتعلق بحكوماتهم، وكأنهم يستعدون للردّ والإيضاح.

ورأى رئيس المجلس أن موضوع النفط إذا فتح على مصراعيه، فسيأخذ وقت المؤتمر بكامله، وهو لم ينجز شيئاً بعد، فاقترح إحالة الموضوع بكامله مع توصيات مؤتمر وزراء المال والبترول والاقتصاد العرب على مؤتمر الملوك والرؤساء، «وهم يتصرفون في الأمر».

وعارض وزيرا الجزائر والعراق بوتفليقة وخير الله، وأصرا على بحث الموضوع، وأنه لا يستغرق وقتاً لأن الجوانب الفنية والاقتصادية قد استنفدت، ولم يبق إلا بحثه من الناحية السياسية.

وتدخل الوزير التونسي المنجي سليم، وطلب أن يترك الموضوع للملوك

والرؤساء لأنهم أقدر على معالجته، وقد يجدون صيغة مقبولة من الجميع، وأيّده الوزير المغربي د. أحمد العراقي بقوله: «إن وقف البترول العربي هو سرطان قاتل بالنسبة إلى الدول العربية نفسها».

ولم يتكلم الوزيران السعودي والليبي، فقد تكلمت عنهما الوقائع التي سردتها. وانتظرا أن يرمى الأمر على عتبات مؤتمر القمة ويخلصا من الكلام، أو التصويت.

والواقع، إني طلبت التصويت، وقلت لرئيس الجلسة: «نحب أن نعرف في هذه الجلسة من الذين يوافقون على توصيات مؤتمر بغداد، ومن الذين يعارضون؟».

وسأل رئيس الجلسة: «وما هي الفائدة التي تبتغيها من التصويت؟؟».

قلت: «أريد أن يعرف العالم العربي ماذا يقول المسؤولون العرب في الداخل، وماذا يقولون في الخارج. إن موضوع البترول قد مضى عليه أكثر من ربع قرن، وهو يترنّح بين العلن والخفاء. وقد اجتمع أكبر حشد من الكفاءات العربية في بغداد قبل أسبوع، وأقرّوا بالإجماع ضرورة استخدام البترول كسلاح فعّال في خدمة القضية العربية. لقد قال الاقتصاد والعلم كلمتهما، ولم يبق على السياسة إلا أن تقول كلمتها. وإذا كان الاقتصاد يقول: نعم، فلم يبق على السياسة إلا أن تقول: نعم. هذا إذا كنا جادين مخلصين». وخشي الرئيس محجوب أن يتطور الموضوع إلى نقاش حاد، فاقترح وقف المناقشة لتستأنف في الجلسة المقبلة.

ودارت الأحاديث وراء الكواليس بين الوزراء والسفراء، وتدخل الوسطاء من الخبراء بحجة «أن الملوك والرؤساء سيتوافدون غداً أو بعد غد، ومن الخير أن يترك الموضوع بين أيديهم، فإنهم أقدر على معالجته، وأنه ينبغي اقتصار الجلسة التالية على إعداد جدول الأعمال، ولا داعي لأن ينقسم مؤتمر وزراء الخارجية على نفسه».

وجاءني الرئيس السوداني ليقول: «يا أخي، «مرافعتك» مسجلة في المحاضر، وستحال المحاضر كلها إلى الملوك والرؤساء. وفي مؤتمر القمة تستطيع أن تثير هذا الموضوع من جديد. ولا داعي للتصويت، وليكن اجتماعنا اليوم مساء.. وأنا سأكون مشغولاً باستقبال الملوك والرؤساء مع الرئيس الأزهري».

وهكذا كان، فقد اجتمعنا في المساء وطرح الرئيس محجوب اقتراحه بإحالة موضوع النفط إلى الملوك والرؤساء، وتمت الموافقة بالصمت.

وقلت: «هنالك قضايا أخرى غير النفط، وعلى أهميته فليس النفط كُلّ شيء. إن لدى المنظمة ورقة عمل تريد أن تطرحها وتناقشها، ونحن نطمع في أن يوافق عليها مؤتمركم ويحيلها إلى الملوك والرؤساء».

وقال الرئيس السوداني: «تفضل واقرأها علينا».

وبدأت اقرأ:

ـ تقترح المنظمة على الصعيد الفلسطيني ما يلي:

١ ـ وضع خطة تفصيلية لإعداد وتنظيم ومساندة المقاومة الشعبية المسلحة في داخل فلسطين المحتلة.

٢ ـ إصدار بيان باسم ملوك ورؤساء الدول العربية يلتزمون بموجبه نيابة عن حكوماتهم وشعوبهم بتعبئة جميع طاقات الأمة العربية وإمكاناتها لتحرير فلسطين وتأييد شعب فلسطين في كفاحه لاسترداد وطنه، ويعرف هذا البيان باسم «عهد بيت المقدس».

٣ ـ الاستمرار في دعم منظمة التحرير الفلسطينية وتمكينها من تحمّل مسؤولياتها القومية في تعبئة الشعب الفلسطيني ليقوم بدوره الطليعي في تحرير وطنه وتقرير مصيره.

٤ ـ تعزيز جيش التحرر الفلسطيني بحيث تكون للمنظمة سلطة كاملة عليه من حيثُ تشكيله وتدريبه وتسليحه وجميع شؤونه الإدارية، على أن يكون الواجب العسكري مرتبطاً بالخطة العربية الموحدة.

٥ ـ إنشاء معسكرات لتدريب أبناء فلسطين في الدول العربية بالتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية.

٦ ـ إصدار التشريعات والأوامر اللازمة من الدول العربية كُلّ بحسب نظمها الدستورية لتمكين منظمة التحرير الفلسطينية من استيفاء ضريبة التحرير من أبناء فلسطين حيثما وجدوا.

٧ ـ الوفاء بجميع الالتزامات المالية المترتبة لمنظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني، بموجب قرارات مؤتمر القمة، والاستمرار في أدائها في مواعيدها المقررة.

ـ وعلى الصعيد العربي، تقترح المنظمة ما يلي:

١ ـ إنشاء «الدولة العربية المتحدة» من الدول الراغبة في الاتحاد، لها سيادة كاملة في الشؤون السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية. والمشروع مرفق بهذه الاقتراحات[٣].

(٣) أحمد الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠). وهو متضمن في هذه المجموعة.

٢ ـ تعزيز الجامعة العربية لتدعيم العلاقات في ما بين الدول العربية، ومنها الدولة العربية المتحدة المقترح إنشاؤها.

٣ ـ وضع سياسة بترولية عربية تكون ناحيتها الإيجابية الانتفاع بهذه الثروة لخير الأمة العربية، وناحيتها الرادعة معاقبة الدول الأجنبية التي تتصدى لإلحاق الأذى بالقضية العربية وقضية فلسطين.

٤ ـ سحب الأرصدة العربية من المصارف الأجنبية وإنشاء بنك مركزي.

٥ ـ إنشاء صندوق قومي للتعمير والتحرير تؤمن له موارد ثابتة تجبى بموجب تشريعات قانونية

٦ ـ إنشاء جهاز إعلامي عربي موحّد في إطار الجامعة العربية يكون له استقلال ذاتي، ويؤمن له مورد ضخم وكفايات عربية وأجنبية ممتازة.

٧ ـ بالإضافة إلى التعزيز العسكري الذي تقوم به الدول العربية بوضع نظام خاص لوزارات التربية العربية يتم بموجبه تدريب عسكري صارم وتوعية قومية عميقة للطلاب والشباب في الوطن العربي.

٨ ـ إنشاء لجان شعبية في الوطن العربي لمعاونة الحكومات العربية في تنفيذ جميع المسؤوليات القومية.

ـ وعلى الصعيد الدولي، تقترح المنظمة ما يلي:

١ ـ قطع العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية مع الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية والدول الأخرى التي قامت بدور بارز في مقاومة الموقف العربي في الدورة الطارئة للأمم المتحدة، وكذلك اتخاذ الإجراءات اللازمة لتأميم جميع مؤسساتها في الدول العربية.

٢ ـ تعزيز العلاقات السياسية مع الدول الصديقة، وتحويل العلاقات الاقتصادية والثقافية العربية إلى تلك الدول. . وبصورة خاصة تدعيم الروابط مع الدول الإسلامية.

٣ ـ إصدار بيان تؤكد فيه الدول العربية بأن علاقاتها مع الدول الأجنبية تقوم على أساس موقفها من قضية فلسطين وإرسال البيان إلى السكرتير العام للأمم المتحدة ليوزع على الدول الأعضاء كوثيقة رسمية.

٤ ـ الاعتراف بألمانيا الشرقية.

٥ ـ إدراج بند على جدول الأمم المتحدة في دورة أيلول/ سبتمبر المقبلة باقتراح نقل مقر الأمم المتحدة من نيويورك إلى باريس.

وقال الرئيس السوداني: «هذه اقتراحات نافعة، سنقوم بطبعها وتوزيعها على الوفود، ونضعها في الملف الذي سنقدمه إلى الملوك والرؤساء مع جدول الأعمال».

قلت: «قبل إحالتها إلى الملوك والرؤساء يجب أن يناقشها الوزراء، ويقرروا بشأنها ما يرونه قبولاً أو رفضاً، أو تعديلاً أو إضافة. فهل نحن هنا سعاة بريد لدى الملوك والرؤساء؟».

قال الوزير التونسي المنجي سليم: «هذا مؤتمر حكومات والاقتراحات يجب أن تأتي من قبل الحكومات».

قلت: «منظمة التحرير ليست حكومة، ولكنها في هذه الاجتماعات لها الحقوق نفسها التي للحكومات.. وإذا كان الوزير التونسي يريد أن يبحث هذا الموضوع، فنحن حاضرون».

وتدخل محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة وقال: «لا داعي لخوض هذا الموضوع مرة ثانية.. المنظمة من حقها أن تقدم ما تشاء من المقترحات. وورقة العمل التي قدمها رئيس المنظمة تحتوي آراء مفيدة.. ومن الحكمة أن نحيلها إلى لجنة فرعية لدراستها وتقديم التوصيات بشأنها.

وأيد الاقتراح كُلّ من الوزير الكويتي الشيخ صباح الاحمد، والوزير العراقي إسماعيل خير الله.

وتكلم الوزير الليبي د. البشتي، وسانده الوزير المغربي د. أحمد العراقي ما خلاصته أن هذه الاقتراحات جديدة وليس عندهما تعليمات بشأنها ولا يستطيعان أن يتخذا بشأنها أي موقف. وشاركهما الوزير السعودي عمر السقاف بكلمة واحدة: «ما عندي تعليمات». وكانت هي الكلمة الوحيدة التي تفوّه بها في المؤتمر في داخل الاجتماعات.

وبحسب الوزير اليمني أن الفرصة لاحت له، فقال: «وقضية اليمن، أما عندكم تعليمات بشأنها؟».. وكان هذا الكلام موجهاً إلى الوزير السعودي السقاف. ولكن لم يجب السقف ولا السقاف!

وتعطل جهاز التكييف في قاعة الاجتماعات، وأصبح الجو الطبيعي ثقيلاً كالجو السياسي، وبدا واضحاً أن الوزراء يريدون أن يكونوا سعاة بريد لدى الملوك والرؤساء يحملون إليهم الملفات من غير توصيات.

والواقع أن الذي تعطل لم يكن جهاز «التكييف»، ولكن الذي تعطل هو إرادة النضال، والعناد في الحقّ، والتصميم على التضحية.

ومن غير أن أقارن، فإن المقارنة تفجعني، ففي الأيام التي كان فيها الوزراء العرب يخطبون في القاهرة أو بغداد، أو الخرطوم، كان العناد الإسرائيلي مشفوعاً بالتصميم والإرادة يتجلى في الاجتماعات الشعبية التي كانت تنعقد في إسرائيل.

وفي أحد هذه الاجتماعات خطب الجنرال ييغال آلون وزير العمل الإسرائيلي، فقال: «يجب أن يكون نهر الأردن حدّ إسرائيل الشرقي، وأن الوجود الإسرائيلي الدائم في الضفة الغربية سيضمن سلامة إسرائيل، وأن الجولان جزء من إسرائيل القديمة، ولا يقل انتماؤها إلى إسرائيل عن نابلس والخليل. ألم يحكمها يفتاح أحد أجدادنا العظام؟» (١٥/ ٨/ ١٩٦٧).

بل إن مؤتمرات القمة برمتها لم تعد تخيف إسرائيل، ولم تعد تثير اهتمامها إلا بصورة عادية، وهذه وكالة الصحافة الفرنسية قد نشرت تعليقاً عشية انعقاد مؤتمر القمة تقول فيه: «إن إسرائيل لم تعد تشعر بمخاوف عند الإعلان عن اجتماع عربي على مستوى القمة» (٢٩/ ٨/ ١٩٦٧).

ومع هذا، فقد مضينا نعدّ جدول الأعمال للملوك والرؤساء بعد أن تعطل جهاز «التكييف».

أجل، لقد أعددنا جدول الأعمال وما أعددنا أنفسنا للنضال بالعناد والتصميم، كما يفعل عدونا.

ولهذا فقد كان جدول الأعمال يصدق فيه قوله تعالى: ﴿**أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف**﴾[٤] صدق الله العظيم.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة إبراهيم،» الآية ١٨.

مؤتمر الخرطوم.. يحتضر في يوم ميلاده

في فجر الثلاثاء، التاسع والعشرين من شهر آب/ أغسطس، في السنة الأولى من النكبة الكبرى، نهضت من فراشي لأرى السماء غير السماء، والأرض غير الأرض، والخرطوم غير الخرطوم.

فركت عينيّ، وأنا أنظر من الشرفة، لاستيقن ما أرى، وما كذّب البصر ما رأى. . لقد أبصرت بالأشجار فإذا هي بيضاء بأغصانها وجذوعها، وأعمدة الكهرباء بيضاء بسواريها ومصابيحها، والشوارع بيضاء بأرصفتها، وأسطحة المنازل بشرفاتها بيضاء. وظننت لأول وهلة أن سحابة بيضاء من الثلج قد هبطت على المدينة، فجعلت من الخرطوم إحدى مدن القطب الشمالي المتجمد.

ولكني سرعان ما تبيّنت الأمر على حقيقته بأذنيّ لا بعينيّ. فقد كان هذا «البياض» يتكلم ويصيح، يأكل ويشرب ويتنفس ويدخّن. تبيّنت أن هذا هو شعب السودان، افترش الأرض، وتسلق الأشجار، واحتشد في الشوارع، وملأ الأسطحة والشرفات. . والجميع بالملابس البيضاء والعمائم البيضاء، وكأنما هبط على الخرطوم رداء من السماء، ناصع البياض، تزيده الشمس الساطعة تألقاً وسناء.

وكان هذا الحشد الأبيض الأكبر هو لاستقبال الملوك والرؤساء الوافدين على مؤتمر القمة، وكان من العجب الأعجب أن تحشد هذه الخلائق في ذلك اليوم اللاهب لتستقبل الملوك والرؤساء استقبال الفاتحين المنتصرين، ولما يمسحوا بعد، عفار الهزيمة، وغبار النكبة، عن وجوههم.

وتلك كانت مفارقة عجيبة حقاً للذين لا يعرفون هذا الشعب، وعناده في حقه وصبره على آماله. ولكن الشعب أراد أن يستقبل آماله المرجوة وقد فقدها، وأطماحه التي يصبو إليها وقد خسرها.

وهكذا، فقد خرج الشعب لا ليستقبل الهزيمة والمهزومين بالأمس، وإنما ليستقبل النصر والمنتصرين بالغد. ومن هنا كان هذا الطوفان من البشر يغمر الخرطوم

على سعتها وامتدادها، من المطار إلى الحارات. وليس هذا مبالغة في الوصف، ولكنه في الحقيقة عبارة وجيزة.

وخرجت مع الوزراء والسفراء إلى المطار لنستقبل الملوك والرؤساء، كُلّ وزير ليستقبل ملكه أو رئيسه. وأما أنا، فلم يكن لي ملك ولا رئيس ولا وطن قائم ولا شعب مجتمع. وكان يكفيني أن أكون واحداً من المواطنين جئت لاستقبل الأمل والرجاء في صدر الغيب البعيد أو القريب لا أدري.

وبدأ القادمون الكبار يتوافدون: الرئيس اللبناني شارل حلو، الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، الملك الأردني حسين بن طلال، الرئيس اليمني المشير عبد الله السلال، أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد الصباح، الأمير حسن الرضا ولي عهد المملكة الليبية في العهد الساقط، الباهي الأدغم ممثلاً للرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، عبد العزيز بوتفليقة ممثلاً للرئيس الجزائري هواري بومدين، د. بن هيمة ممثلاً لملك المغرب الحسن الثاني.

وجرت مراسم الاستقبال المعتاد للجميع بكل حفاوة وانسابت سيارات الوفود بين الجماهير المحتشدة إلى فندق السودان في فيض زاخر من الحماسة البالغة والهتافات المدوّية.

ولم يبق إلا قدوم الرئيس عبد الناصر والملك فيصل. وأخذ الشعب ينتظر ورجال الدولة وموظفو المراسم يروحون ويغدون ويتشاورون، ثُمّ ينظرون إلى السماء، إلى الأفق البعيد بحثاً عن طائرة قادمة من القاهرة أو الرياض.

وهبطت أولاً طائرة الرئيس عبد الناصر، فاشتد زحام الجماهير من حول أرض المطار، والناس يودّون أن يخطفوا الرئيس ليحملوه على الأكتاف إلى الخرطوم، غير مبالين بالبروتوكول وتقاليده، والشعب في السودان على الفطرة العربية.

وخفّ الجميع إلى استقبال الرئيس عبد الناصر يتقدمهم رئيس مجلس السيادة إسماعيل الأزهري، ورئيس الحكومة محمّد أحمد محجوب، والوزراء العرب، وتعالت الهتافات الداوية تردّدها الجموع حتّى خفتت مراسم الاستقبال الرسمي ومعها العشرون طلقة وطلقة التي تطلقها مدافع الاستقبال لا مدافع الميدان.

واقترح الرئيس الأزهري أن ينتظر الرئيس عبد الناصر في المطار بعض الوقت، فقد أصبحت طائرة الملك فيصل وشيكة الوصول، وبهذا يكون من المناسب أن يركب الرئيس عبد الناصر والملك فيصل في سيارة واحدة ومعهما الرئيس الأزهري، ليكون الموكب واحداً أمام الجماهير.

وأعرب الرئيس عبد الناصر عن رأيه في أن تكون مراسم الاستقبال كالمعتاد، لكُلّ ملك أو رئيس على حدة، إذ لم ينشرح الرئيس عبد الناصر لرأي الرئيس الأزهري، فلم يلتق بالملك فيصل بعد القطيعة الطويلة بينهما، فضلاً عن أن الحسابات ما صفيت بينهما، ولا يزال مصير مؤتمر القمة يكتنفه الظلام.

ومشى الرئيس عبد الناصر إلى صالة المطار ليلقي كلمة إلى الشعب السوداني. وكانت إذاعة الخرطومن ومعها إذاعة القاهرة، جاهزة للاستقبال لتسمع الأمة العربية من الخرطوم على المحيط، ومن الخرطوم إلى الخليج.

ولم تقتصر خطبة الرئيس عبد الناصر على الشكر والتحية، بل تعرض لمؤتمر القمة وما يدور حوله، فقال: «إذا كانت الاجتماعات التمهيدية التي كان من عملها الإعداد لهذا الاجتماع على مستوى القمة العربي لم تحقق ما كنا نرجوه منها، فإن ذلك أيضاً لا يثنينا عن التمسك بالمحاولة إلى آخرها. ونحن قد جئنا إلى هذه المحاولة ونحن نعلم أن إخواناً أعزاء علينا يرون مقدماً بعدم جدواها، ولكنا آثرنا مهما كانت الاعتبارات أن نجيء، وإننا لنتمنى من كُلّ قلوبنا أن يتحقق ما يتصوره البعض، حتّى من إخواننا، بعيد المنال».

وكانت هذه العبارات موجهة إلى سوريا والجزائر اللتين اعتذرتا عن حضور المؤتمر «لعدم جداوه» كما أعلنت إذاعات دمشق والجزائر.

وبينما كان الرئيس عبد الناصر يتحدث إلى جماهير الأمة العربية، توقفت إذاعة السودان وانتقل الميكروفون إلى المطار لينقل نبأ وصول طائرة الملك فيصل، وظلّ شعب السودان يواصل الاستماع إلى إذاعة صوت العرب، ولم يخلُ الموقف من شيء من الارتباك.

وخرج الرئيس عبد الناصر ومعه الرئيس محمّد أحمد محجوب وسط الطوفان البشري، والجماهير تهتف ملء الحناجر، والنساء تزغرد، والطلاب والشباب يتسابقون على الموكب، تتصبب جباههم بالعرق، وتتشقق أشداقهم، وهم يصيحون: «ناصر.. ناصر.. شعب واحد. جيش واحد. القتال. القتال. الثأر».

واستمرت هذه الهتافات تواكب الرئيس عبد الناصر حتّى أوصلته إلى فندق السودان. وبقي الرئيس إسماعيل الأزهري في المطار ليستقبل الملك فيصل، وتمت مراسم الحفاوة، وخرج الملك فيصل ومعه الرئيس الأزهري في سيارة الرئاسة في موكب فخيم عظيم، تحفّ بهما الجماهير.

وكانت الجماهير تهتف، ولكن بشعارات أخرى لها معناها ومغزاها، والجماهير

العربية ذكية واعية، تحسن صياغة الشعارات، كما تجيد القصائد الشعبية.

كان هتاف الجماهير: «عدو عبد الناصر عدو الله». وعلى طول الطريق، من المطار إلى الفندق، كانت الجماهير تقترب من سيارة الملك فيصل لتصيح في أذنيه: «عدو عبد الناصر عدو الله». وكان الملك فيصل، يلقي بكوفيته على رأسه ووجهه، من حين إلى حين، لا اتقاء للحر، فهو أليف الحرّ في الجزيرة العربية، ولكن اتقاء لهذا الهتاف ومعناه ومغزاه الأشد لهباً من حرّ الخرطوم والرياض معاً.

وعلى طول الطريق كذلك كانت الرايات أشدّ إحراجاً من الهتافات. . فقد كانت الرايات مكتوباً عليها: «أوقفوا البترول عن دول العدوان» وما إلى ذلك من العبارات البترولية.

وصل الملك فيصل إلى فندق السودان وهو يبدي سروره من استقبال السودان الرسمي، ويكظم غيظه من «استقبال» السودان الشعبي.

وبهذا تكامل وصول الملوك والرؤساء، وقد تخلّف عن القافلة ملكان وثلاثة رؤساء.

تخلف الملك المخلوع إدريس السنوسي لأسباب صحية، كما ذكر ولي عهده حسن الرضا، وتذكرت الملك الكامل، وقد حمل نفسه على محفة عبر الصحاري والقفار ليصل إلى ميدان القتال في دمياط ويشرف على معركة المسلمين بنفسه ضدّ الصليبيين، غير مبالٍ بالمرض الذي هدّه وأنهك جسده. وما أعظم الفارق بين الملوك المجاهدين، والملوك المتقاعدين المتثاقلين.

وتخلّف الحسن الثاني ملك المغرب، وهو هو الذي اقترح عقد مؤتمر قمة في الرباط في عشية العدوان الإسرائيلي، وهو يريد المؤتمر أصلاً أن ينعقد في عاصمته حتّى ينسى الشعب همومه من الحكم. وها هو اليوم يتقاعس عن المجيء إلى الخرطوم وهو في ريعان شبابه، وقد كرّس لسانه بعد الهزيمة ليقول على الدوام: «كان يجب على الرئيس عبد الناصر أن يبدأ بالهجوم، ولو كنا مكانه لكنت البادئ بالهجوم». وها هو لا يبدأ بالسفر، فضلاً عن الهجوم.

وتخلف الرئيس السوري د. نور الدين الأتاسي لأن القيادة القومية قررت مقاطعة مؤتمر القمة، وأوفدت د. إبراهيم ماخوس إلى الخرطوم ليجتمع بالملوك والرؤساء في حجراتهم، لا في قاعة الاجتماعات. فكان موقفاً ينم عن المراهقة السياسية، بالإضافة إلى التفاهة القومية. واكتفى البعث السوري بأن يصيح من دمشق، عن طريق جريدة **الثورة** «بأن مؤتمر القمة هو المنبر الأخير لدعاة تصفية قضية

فلسطين». وكان الأجدر أن يتخذوا من هذا المنبر مسيرة جديدة أصيلة تحول دون تصفية القضية الفلسطينية.

وتخلّف الرئيس التونسي بورقيبة، وكان في تمام الصحة وكمال العافية، كما يقول إخواننا التونسيون، واختار أن يخاطب مؤتمر القمة من تونس، فخطب في اجتماع شعبي كبير دعا فيه العرب إلى أن «يعترفوا بوجود إسرائيل، وأن يمتنعوا عن التهديد بمسحها من خارطة العالم، وطالب الدول العربية بأن تنهي حالة العداء مع إسرائيل»، وأضاف أن العرب يتعرضون الآن للهزيمة والاحتلال لأن أحدهم (عبد الناصر) توقع أن يأتي المعتدي من الشرق فجاء من الغرب (٢٦/ ٨/ ١٩٦٧)، ونسي الرئيس بورقيبة خطابه الشهير في يوم الخامس من حزيران/ يونيو الذي قال فيه: «الآن جاءت ساعة الحرب».

وتخلّف الرئيس الجزائري هواري بومدين، وفي اليوم الأول لعمل مؤتمر القمة خطب في مؤتمر شعبي كبير في الجزائر، فقال: «نحن نرفض أي حلّ سياسي لأزمة الشرق الأوسط لأن هذا الحلّ يشكل في الواقع اعترافاً بإسرائيل وتصفية نهائية للقضية الفلسطينية، وأن متابعة النضال هو الوسيلة الوحيدة لاسترداد الأرض العربية المحتلة وتحرير فلسطين. وإذا جرى استفتاء في العالم العربي حول النقطتين التاليتين: متابعة النضال أو الإقرار بالأمر الواقع، فأنا متأكد من أن ٩٩ بالمائة من الشعب العربي سيختار متابعة النضال. ولا يحقّ لأية حكومة عربية أن تعمل على تصفية القضية الفلسطينية لأن هذه تتعلق بمصير شعب بأسره، وأن الطريق مفتوحة لكم من يريد أن يذهب إلى تل أبيب، ولكن فليذهب وحده ولا يطلب من الحكومات العربية الأخرى أن يلحقوا به للتفاوض مع إسرائيل والاعتراف بالأمر الواقع والهزيمة. ويجب أن نقوم بالتصفية الشاملة للمصالح الإمبريالية في العالم العربي»، إلى آخر هذا الخطاب الرائع الذي كنت أتمنى أن يلقيه الرئيس الجزائري في مؤتمر القمة، في الخرطوم، لعله يوجهه وجهة أخرى.

ونحن لو حذفنا ثلاثة من المتخلفين، وهم الملك الحسن الثاني، والرئيس بورقيبة، والملك إدريس، فلا مناص من الأسف على تخلّف الرئيس بومدين والأتاسي، فقد كان حضورهما مدعاة لدفع المؤتمر خطوة واحدة إلى الأمام أو خطوة أقل إلى الوراء، بل لأمكن رفع المؤتمر من الهوة التي وقع فيها، وسميت ظلماً بمرحلة الصمود. وجاءت الأحداث لتثبت أن الصمود تحقق، ولكن على الهوان!

وهكذا انعقد مؤتمر القمة بما يقرب من نصف رؤسائه. ومع هذا، فإن مؤتمر القمة لم يصل إلى نصف القمة، بل إنه هوى إلى الحضيض.

وفي مساء يوم الثلاثاء (٢٩/ ٨/ ١٩٦٧) خرجت من الفندق إلى قاعة الجمعية التأسيسية، وتعاقب مجيء الملوك والرؤساء والوفود لشهود الجلسة الافتتاحية العلنية.

وألقى الرئيس السوداني إسماعيل الأزهري خطاباً حذر فيه من «التنابذ والتناحر لئلا يهدر الحقّ العربي والكرامة العربية، مؤكّداً أن مسؤولية اتخاذ قرارات بناءة تقع على عاتقنا ولن تغفر لنا شعوبنا إخفاقنا، وعلينا واجب ملحّ يقضي باتخاذ جميع التدابير الاقتصادية والعسكرية والسياسية لإزالة آثار العدوان، وأن واجبنا الأول أن نخرج من هذا المؤتمر بوحدة بناءة وخلاقة».

وانتهت الجلسة العلنية، وخرج الصحافيون والمصورون، وانعقدت الجلسة مقفلة، وباتت كُلّ ذرة في القاعة تتساءل: «هل سيحقق المؤتمر الأمل المرجو في اتخاذ «التدابير الاقتصادية والعسكرية والسياسية لإزالة آثار العدوان؟»، كما أشار الرئيس الأزهري في خطابه.. أم أن هذا الكلام سيكون شأنه شأن رايات القماش التي نصبت بالمئات في ميادين العاصمة وهي تطالب الملوك والرؤساء بما يلي: «قاطعوا دول العدوان».. و«نريد استئناف القتال» و«البترول سلاح المعركة»، وما إلى ذلك من الشعارات.. حبر على قماش يتماوج في الهواء؟؟

وبدأت الجلسة المقفلة أعمالها بالشؤون التنظيمية. ولم يكن جو الاجتماع مسترخياً. فالحاضرون لم ينفتح بعضهم على بعض، ولم تهيأ لهم لقاءات سابقة ليتفاهموا على القضايا الحساسة، والرئيس عبد الناصر والملك فيصل لم يلتقيا منذُ مؤتمر القمة في الدار البيضاء، ووقعت بينهما قطيعة حادة: المشير السلال يحاول عبثاً أن ينزع ابتسامة أو نظرة من الملك فيصل، والملك حسين يراقب تحركات وفد منظمة التحرير، والوفد التونسي يستشعر الغربة في هذا الاجتماع بعد أن استبعدت تونس عن الاجتماعات العربية بسبب مواقف رئيسها الحبيب بورقيبة، والرئيس اللبناني شارل حلو يدير وجهه المكتنز إلى الجميع ليعرض دور لبنان التقليدي في المساعي الحميدة، والوزير الجزائري عبد العزيز بوتفليقة يطبق عينيه ويفرك جبينه وهو يتذكر في ذهنه الخطوط العريضة للسياسة الجزائرية، والرئيس العراقي عبد الرحمن عارف وأمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد يتبادلان النظرات بحثاً عن مخرج لقضية النفط لا يكون فيه ضرر ولا ضرار. والوفدان الملكيان الليبي والمغربي يتهامسان لتنسيق مواقع الأقدام.

كان هذا هو الجو النفسي للمؤتمر: قلوب مغلقة في الجلسة المقفلة. ولاحت الفرصة للرئيس الأزهري أن يفتح القلوب، ومعها الأفواه. فوقف وقال: «إن عملنا الأول هو انتخاب رئيس للمؤتمر، وأنا أرشح نفسي للرئاسة، وأظن أنكم لن تجدوا خيراً مني لرياسة المؤتمر».

وانفتحت الأفواه، وضحك الجميع، ولم يكن الأمر في حاجة إلى موافقة، فالتقاليد تقضي أن تكون الرئاسة للدولة المضيفة. وجلس الرئيس الأزهري في كرسي الرئاسة: ثقيل الجسم، خفيف الروح.

وتقدم رئيس وزراء السودان أحمد محمّد محجوب، بوصفه رئيساً لمؤتمر وزراء الخارجية، ولخص أعمال المؤتمر، وتوصيات مؤتمر وزراء الاقتصاد والمال والبترول العرب، ثُمّ تلا جدول الأعمال الذي اقترحه وزراء الخارجية، وهو:

أولاً: بحث النتائج التي ترتبت عن العدوان الإسرائيلي على الدول العربية، ودراسة وسائل إزالة آثار العدوان:

أ) على المستوى العسكري.

ب) على المستوى الاقتصادي (توصيات مؤتمر بغداد).

ج) على المستوى السياسي.

ثانياً: تضافر الجهود لإزالة آثار العدوان ودراسة نقاط الضعف لتلافيها في المستقبل.

ثالثاً: تصفية القواعد العسكرية الأجنبية في الدول العربية.

رابعاً: وضع خطة عربية شاملة بعيدة المدى ومتكاملة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لدعم التضامن العربي وتحقيق الأهداف العربية.

ومن غير بحث أو كلام أو تصويت، أقرّ الملوك والرؤساء، بالصمت، جدول الأعمال. وقد أوردته بالنصّ الكامل ليرى المواطن العربي في النهاية ما الذي بحث في هذا الجدول، وما الذي تمّ عليه الاتفاق، وأخيراً، ماذا كان حظه من التنفيذ.

وأقول «التنفيذ»، لا بعد المؤتمر مباشرة فحسب، ولكن حتّى بعد السنوات الست التي انقضت على ذلك المؤتمر.

وبعد إقرار جدول الأعمال، افتتح الرئيس الأزهري باب المناقشة. وسأل:

ـ «من يريد أن يتكلم؟».

فلم يتكلم أحد.

وعاد الرئيس وسأل: «هل من اقتراح؟».

ولم يتكلم أحد.

ولم يجد الرئيس أمامه إلا أن يعلن تأجيل الجلسة إلى صباح اليوم التالي. وخرجنا

نحمل معنا جدول الأعمال إلى الفندق، كُلّ وفد إلى جناحه المخصص له، وأنا إلى غرفتي، لأن شعب فلسطين مقصوص الجناح في الهواء، فلماذا يكون له جناح على الأرض.. أو في الفندق؟

وبدأت الاجتماعات في الأجنحة، الملوك والرؤساء يتزاورون، وأنا أطوف عليهم، أقدم لكُلّ واحد منهم ملفاً كاملاً عن الجوانب السياسية للقضية الفلسطينية، والأمور العسكرية لجيش التحرير الفلسطيني، والوضع المالي لمنظمة التحرير، ومع هذا كُلّه ورقة العمل التي قدمتها إلى مؤتمر وزراء الخارجية العرب في مطلع هذا الشهر، ومشروع الدولة العربية المتحدة.

وكانت إجراءات الأمن المشددة لا تسمح لأحد بدخول الفندق، ولذا فقد كانت تلفونات الفندق مشغولة باستمرار. مشغولة مع الصحافيين، فقد كانوا يطلبون الوزراء والسفراء على التلفون، ويستدرجونهم إلى أحاديث صحافية، من غير نصب ولا تعب.

وقضينا شطراً من الليل في حديقة الفندق ننعم بالنسيم الناعم هروباً من الهواء المكيَّف. وما إن انتصف الليل حتّى خرج الرئيس عبد الناصر بسيارته، وخرج بعده الملك فيصل بسيارته، وتقدمتهما سيارات الحرس. وكان لا بُدَّ لهذه الحركة «المكشوفة» من أن تثير حركة الصحافيين، فلحقوا بالموكب إلى أن وصل.. ووصلوا.

وكان المكان منزل رئيس الوزراء محمّد أحمد محجوب. ووصل الرئيس عبد الناصر. وبعد دقائق وصل الملك فيصل. وأقفلت الأبواب ولم يدرِ أحد ماذا جرى.

وطال انتظارنا لنعلم ماذا تمّ في هذا الاجتماع. وانصرفت إلى غرفتي، وعدد من الوزراء والسفراء يلحّون عليَّ بالبقاء لنعرف ماذا تمّ في هذا اللقاء. ولكن نهضت، وأنا أقول لهم: «رحم الله العرب ما تركوا شيئاً إلا وقالوه. قالوا: عند الصباح يحمد القوم السرى». وفي اجتماع الصباح ستعرفون نتيجة اجتماع الليل!

وكان الأمر كذلك. فعند الصباح بدأت ترشح الأخبار بين الوفود في الفندق. وكُلّ ما قالته الأخبار ساعتئذ هو أن الرئيس عبد الناصر والملك فيصل عقدا اجتماعاً في منزل الرئيس السوداني، وأن الاجتماع استمرّ حتّى الفجر.. وأن الرئيس السوداني حضر لبضع دقائق في بداية الاجتماع، ثُمّ تركهما وحدهما ليتكاشفا، وأنهما خرجا من المنزل وأيديهما متشابكة، ووجهاهما ينمّان على التوافق والرضا.

وبدأ الوزراء يحاولون التكهن بما جرى في هذا الاجتماع. فقد قال الوفد المصري إن رئيسهم ملتزم الصمت ولا يعرفون شيئاً. ولم يكن الوفد السعودي في حاجة إلى أن يؤكّد أن الملك فيصل قد التزم الصمت.. فالملك فيصل لا يكلم أحداً

إلا حينما يريد، ولا يتكلم إلا بمقدار، والملك فيصل، كما قال الشاعر: «لا يتكلم إلا حين يبتسم»، وقلّ أن يبتسم، والصمت عنده من بترول، لا من ذهب، ومهما تدفق البترول فإن لسان الملك فيصل لا يتدفق.

وقلت للوزراء: لا تجهدوا أنفسكم في التكهن. جلسة العمل الأولى ستكون بعد قليل، وستعلمون من خلال الحوار ما تمّ بين عبد الناصر وفيصل، اليوم، أو غداً على الأكثر.

وبدأت جلسة العمل الأولى. ووقع الاختيار على أن يكون الاجتماع في صالة الفندق لا في قاعة المجلس التأسيسي «ضمانة للسرية»، كأنما السرية يمكن ضمانها في الاجتماعات العربية.

واستهل الرئيس الأزهري الجلسة بقراءة البرقيات والرسائل، وكان من أبرزها برقية بعث بها الرئيسان نيقولاي بودغورني وألكسي كوسيغن باسم الاتحاد السوفياتي، وجَّها فيه التحيّة إلى مؤتمر القمة وأكدا فيه «أن البلاد العربية تستحوذ على عطف جميع الشعوب المحبة للسلام، لأن النضال العربي ضدّ العدوان الإسرائيلي الذي وقع على الأراضي العربية هو نضال ضدّ كُلّ السياسة العدوانية الإمبريالية التي تشنّ حرباً من حروب قطاع الطرق في فييتنام، وتنظم الاستفزازات ضدّ كوبا، وترسل جماعات التخريب من المرتزقة إلى الكونغو، وتدسّ المؤامرات ضدّ البلاد والشعوب الأخرى في أفريقياً وآسيا وأمريكا اللاتينية». وبهذا حشرت القضية العربية مع القضايا الدولية الأخرى التي تثير اهتمام الاتحاد السوفياتي في القارات الست.

ومن الرسائل، مذكرة قدمها اتحاد نقابات العمال في السودان، تدعو الملوك والرؤساء العرب «إلى الاستيلاء على المؤسسات الأجنبية، وتأميم البنوك والشركات البريطانية والأمريكية والألمانية الغربية، وتصفية القواعد الأجنبية العسكرية في الوطن العربي، وإيقاف ضخّ النفط عن الدول التي ساهمت في العدوان على الأمة العربية، وسحب كُلّ الأرصدة العربية من البنوك الأجنبية، واعتراف جميع الدول العربية بجمهورية اليمن». وقد لخصت هذه المذكرة لأنها تماثل الآلاف من البرقيات والرسائل والمذكرات التي وردت على المؤتمر من أرجاء الوطن العربي كافة.

ثُمّ تلا د. محمّد بن هيمة رئيس وزراء المغرب خطاباً للملك الحسن الثاني، حمله من أقصى المغرب، وكان أجود ما فيه إنشاؤه الأجود الأمجد، من دون أن يذكر سبب تخلفه عن المؤتمر.

وطلب الملك حسين الكلمة، فألقى خطاباً حسن الصياغة بديع العبارة. وهكذا أجاد الحسن والحسين.

وجاء دور جدول الأعمال، فتلا الرئيس الأزهري البند الأول وعرضه للمناقشة، فلم يتكلم أحد. وعرض البند الثاني، فلم يتكلم أحد، ثُمّ الثالث، والرابع، فلم يتكلم أحد.

لقد كانت الجلسة مزدحمة مكتظة، فقد حضرها الملوك والرؤساء والوزراء والسفراء، ووراءهم الخبراء، وحولهم الموظفون من الدرجات العادية. فكيف يمكن أن تكون الجلسة سرية، بل كيف يمكن الملوك والرؤساء أن يتحدثوا بالصراحة، ولو بالقدر القليل؟

وأدار الرئيس السوداني رأسه الضخم بين منكبيه العريضين، وهو يبحث عن مخرج. فصاح محمّد أحمد محجوب، رئيس الوزراء: أنا أقترح تأجيل الجلسة لنشرب المرطبات. وكذلك كان، فقد انفضت الجلسة، وتنفست القاعة الصعداء.

وجرى الحديث بين الحلقات. واتفقت الكلمة على أن ينعقد الاجتماع «مصغَّراً»، فلا يحضره إلا الملوك والرؤساء، ومع كُلّ منهم واحد فقط من أعضاء وفده.

وعدنا إلى صالة الاجتماع. واتجهت الأنظار إلى الرئيس عبد الناصر، فالجميع ينتظرون منه أن يبدأ المناقشة، فإن مصر هي قطب الرحى بالقضية العربية، وهي التي وقعت عليها أكبر ويلات الحرب أرضاً وشعباً.، وعبد الناصر يعرف خوافي الأمور قبل الهزيمة وبعدها.

وفتح الرئيس عبد الناصر ملفه أمامه، ينظر فيه حيناً ويتحدث حيناً. وامتد حديثه قرابة ساعتين، وتحدث بعده الملوك والرؤساء، كما تحدثت باسم شعب فلسطين. وها أنا أعود إلى محاضر منظمة التحرير لأنشر ما قاله الملوك والرؤساء، ويقيني أن العثور على محاضر الملوك والرؤساء في «أرشيف» الحكومات العربية يكاد يكون معجزة. . هذا إذا أمكن العثور عليها كاملة وسليمة.

وأرهف الملوك والرؤساء أسماعهم، وتحدث الرئيس عبد الناصر قائلاً:

«نحن الآن نواجه أوضاعاً خطيرة، ونخوض معركة مقدسة تتطلب منا جميعاً موقفاً موحداً. وعلى الرغم من أن جدول الأعمال يشير في نقطته الأولى إلى الناحية العسكرية، إلا أنني أجد من الضروري أن أمهّد لذلك سياسياً. والحقيقة أن الأمرين مترابطان معاً ولا يمكن الفصل بينهما.

«لقد وقع الخلاف بيننا وبين الأمريكان قبل العدوان بسنتين، وذلك عندما طلبت أمريكا منا إيقاف الأبحاث الذرية مع حقّ التفتيش على ذلك. كما طلبت منا إيقاف إنتاج الصواريخ مع حقّ التفتيش كذلك. أما الطلب الأمريكي الثالث فكان

إيقاف سباق التسلح وضرورة التوازن بيننا وبين إسرائيل. وقد قدم هذه الطلبات مبعوث الرئيس الأمريكي واسمه «ماكلويد».

«وقد كان رداً على هذه الطلبات الرفض الكامل. وقلنا إننا نقبل بعدم انتشار الأبحاث الذرية عن طريق إشراف دولي على أن تقبل إسرائيل الشيء نفسه.

«ثُمّ وصلتنا رسالة أخرى من أمريكا تعترف فيها بأنها ستسلح إسرائيل، وأنها لا تقبل بأي اختلال في ميزان التسلح، وهددتنا بأننا إذا شهّرنا بها فستعطي إسرائيل مزيداً من السلاح، ورفضنا هذا التهديد.

«إذاً هذا هو سرّ الخلاف بيننا وبين أمريكا.

«ثُمّ أخذت العلاقات بالتدهور بعد أن اكتشفنا صفقة الأسلحة السرية الألمانية، وعندما أعلنا ذلك ساءت العلاقات أكثر فأكثر. وقد حاولت ألمانيا الغربية إغراءنا بالمساعدات مقابل السكوت، ولكننا لم نقبل».

«فسرّ الخلاف بيننا وبين أمريكا، كما يتضح من هذا الكلام، سببه قضية العرب، قضية فلسطين، وكان باستطاعتنا أن نسكت عما يجري في إسرائيل وعن حقوق شعب فلسطين لتمشي الأمور، ولكننا لا نقبل.

«وانقطعت المساعدات الأمريكية نتيجة رفضنا لطلباتهم، وكان تبرير أمريكا لذلك أننا نستعمل مساعداتها في تطوير سلاحنا، ولذلك قال الأمريكان إنهم لا يستطيعون الاستمرار في مساعداتهم لنا، وقيمة مساعداتهم تقدر بـ ٦٠ مليون جنيه مصري، كانوا يأخذونها منا وينفقونها في مصر. وقد سبق قطع المساعدات أن وصل إلى القاهرة ممثل آخر لجونسون وتكلم عن المساعدات والطلبات، ثُمّ تقرر قطعها، فقبلنا نحن بذلك لأننا نريد أن نبقى مستقلين، ولأننا نرفض أن نبيع مبادئنا. وبعد ذلك بدأ تسليح إسرائيل، وعملنا نحن من جهتنا لشراء المزيد من السلاح.

«بعد ذلك، نصل إلى أيار/ مايو الماضي والقصة هنا معروفة، فحشدنا قواتنا للردّ على أي هجوم على سوريا أو أي بلد عربي. وهنا أيضاً كان باستطاعتنا أن نسكت وأن نقول «نحنا مالناش دعوة بحد»، ولكننا أخذنا مسؤوليتنا، وبغض النظر عما يجري فإننا لن نتردد عن السير مرة أخرى على الطريق نفسه، لأننا نعتبر أنفسنا جزءاً من الأمة العربية والوطن العربي، لأننا نؤمن أن العدو إذا بدأ بأي دولة عربية، فلن ينتهي عندها.

«وكان من الطبيعي، بعد الحشد، أن ننهي وضع قوات الطوارئ الدولية، وخصوصاً أن إخواننا العرب في إذاعاتهم وصحفهم لم يتوقفوا عن هذا الطلب. وهذا ـ

في نظرنا ـ معناه العودة بالأوضاع إلى ما قبل عام ١٩٥٦. ثُمّ تطورت الأمور، ووصلتنا رسالة جونسون لضبط النفس وطلبه في أن يرسل نائبه، ورديت عليه بأنني مستعد من طرفنا لإرسال زكرياً محيي الدين. كذلك وصلتنا رسائل أخرى من جونسون يقول فيها إن أي عمل عسكري ضدّ إسرائيل ستكون له نتائج خطيرة، وأعلنوا تمسكهم بقرارات كينيدي لضبط الحدود في الشرق الأوسط.

«ودفعنا قواتنا إلى سيناء، ثُمّ بدأت المعارك يوم خمسة حزيران/ يونيو بهجوم إسرائيلي، وكانت المفاجأة بضرب قواتنا الجوية. وقد أثر هذا الضرب على قواتنا في سيناء، ولم يصبح بقدرتنا بعد الضربة الأولى أن نردّ على الهجوم الإسرائيلي.

«ولم نكن قد أعلنّا عن التواطؤ الأمريكي إلا بعد أن اتصل بي الملك حسين الساعة الخامسة من صباح ٦ حزيران/ يونيو وقال لي إن الهجوم جاي من البحر، وإن أجهزة الرادار قد سجلت ذلك. وقلت للملك حسين إنني مستعد لإصدار بيان في هذا الصدد. . وطلّعنا البيان.

«وكان واضحاً أن تقديرنا لقوات إسرائيل كان مخطئاً. كان عندهم متطوعون، وكذلك دباباتهم كانت أكثر مما تصورنا.

«وصمدت قواتنا يوم ٥ و٦ و٧ حزيران/ يونيو للهجوم من دون غطاء جوي، وكان لنا في سيناء حوالى ٨٠٠ دبابة، و١٨ لواء، وألف مدفع. كان عندنا أسلحة ثمنها ألف مليون جنيه. وقد قضى العدو على ٨٠ بالمئة من قواتنا المسلحة، وده اللي خلانا نقبل بوقف إطلاق النار، لأن الـ ٢٠ بالمئة الباقية يدوب تدافع عن غرب القنال.

«لقد انهزمنا في المعركة، ولن نكون أول ولا آخر من يهزم، والمهم هو كيف نحول الهزيمة إلى درس؟

«من ٨ حزيران/ يونيو حتّى اليوم أعدنا تسليح جزء من قواتنا المسلحة، وبنقول أنو حنا عوضنا ٥٠ بالمئة من اللي خسرناه. ولكننا لم نعوض من قتلوا، وعددهم ١٥٠٠ ضابط و١٠,٠٠٠ عسكري، بالإضافة إلى الأسرى وعددهم ٥٠٠ ضابط و٥٠٠٠ عسكري، وهناك ٤٠ طياراً مفقوداً.

«والسؤال الآن: هل نستطيع النهار ده أن نهاجم إسرائيل؟

«الجواب: لا. ولا أستطيع أن أكابر، نحن لا نستطيع الهجوم اليوم ولفترة غير قصيرة. ولكننا نستطيع الدفاع ضدّ أي هجوم يحاول عبور القنال. نحن الآن نعمل على استكمال قواتنا. نشتري أسلحة بالعملات الصعبة. وهدفنا أن نعيد بناء جيشنا في أقصر وقت ممكن. وطبعاً إذا أردنا أن نستعيد أراضينا بالحرب، فلن نبدأ بالحرب ولا

يصحّ أن نبدأها إلا بعد أن نكون على ثقة بأننا نستطيع أن ننتصر، وإلا نضع أنفسنا في نكسة أشدّ. إذاً فالعمل العسكري لا بُدَّ من أن ينتظر بناء قواتنا المسلحة، وبعد الاستفادة من النكسة ودراسة أساليب إسرائيل، وبعد حشد قواتنا السياسية والاقتصادية. نحن خسرنا حوالى ١٦٠ مليون جنيه، مية وخمسة ملايين من القنال، وعشرين مليوناً بترول سيناء، و٤٠ مليوناً من السياحة.

«والعملية العسكرية والاقتصادية والسياسية مرتبط بعضها ببعض.

«وعندما نتكلم سياسياً ونحن في مركز الضعف نصل إلى الاستسلام. ولكن إذا تكلمنا من مركز القوة، فمعنى ذلك أننا نستطيع أن ندافع عن حقوقنا وحقوق شعب فلسطين. وهذا لا يتم إلا إذا كان عندنا قوات مسلحة. ووضعنا الآن تصلّح، وهو يتصلح كُلّ يوم. وكلما تصلح وضعنا العسكري يصبح . . ووضعنا السياسي . . أحسن.

«اقتصادياً خسرنا أكثر من ثلث مدخولنا من العملة الصعبة. وإذا جاء يوم لا أستطيع فيه شراء القمح، فمعنى ذلك أننا على طريق الاستسلام، أما إذا كان هناك وضع اقتصادي يخلينا نصبر، فمعنى ذلك أننا نقاوم أكثر، وساعتئذ يصبح العمل السياسي مش استسلام.

«ده ملخص لموقفنا نحن، ولكن إذا سمحتم فعاوز أقول حاجة بالتفصيل.

«من الملاحظ أن هناك ضغطاً أمريكياً لحل سياسي، وكلنا نعرف هذا الضغط. وكلنا نعرف أنو قضية فلسطين مش بتاعت واحد فينا. دي قضيتنا كلنا، ولازم قبل ما نطلع من هنا نقرر موقفنا بالنسبة إلى قضية فلسطين وشعب فلسطين. هل سنسلّم أم سنناضل؟

«حصل الضغط علينا من أجل قبول الحلّ السياسي الذي عرض في الأمم المتحدة ويتخلص بـ:

أولاً: إنهاء حالة الحرب بيننا وبين إسرائيل.

ثانياً: الانسحاب إلى مواقع خمسة حزيران/ يونيو.

«هذا معناه أن نسلم بقضية فلسطين مقابل خروجهم من سيناء. فهل أقبل أنا بذلك؟ هذا موضوع كبير جداً، لأنه لا يختص بمصر، ولكن بالأمة العربية كلها، كما يختص بأطماع إسرائيل التوسعية، ومصير الإنسان العربي وضياعه.

«وأنا بقول يقعدوا في سيناء حتّى نعدّ أنفسنا. ولكننا لن نسلّم.

«ثُمّ تطورت المشروعات لغاية المشروع السوفياتي ـ الأمريكي الأخير وملخصه:

١ ـ الجمعية العامة للأمم المتحدة تعرب عن أن السلام والحلول النهائية لهذه المشكلة ممكن تحقيقها في ضوء مبادئ الميثاق.

٢ ـ تقرّر بناء على ذلك دعم المكاسب الإقليمية، وتطالب من دون تأخير الانسحاب من الأراضي (لاحظوا «من دون تأخير» وما قالوش «فوراً»).

٣ ـ تؤكد بالمثل أن تقرّ دول المنطقة كافة الحقوق القومية لكُلّ دولة في المنطقة، وأن تكَفّ كُلّ دولة عن المطالبات.

٤ ـ تطلب من مجلس الأمن أن يعمل مستخدماً قوات الأمم المتحدة للوصول إلى حلّ عادل ومناسب للأطراف كافة، ووضع حدّ لمشكلة اللاجئين وضمان حرية الملاحة.

«وقد رفضنا هذا، وقد تصدّت أمريكا لأي قرار آخر، بالرفض.

«ولم يحدث حتّى الآن أي اتصال بيننا وبين أمريكا، ولكن أبلغنا عن مشاريعهم عن طريق يوغوسلافيا والهند».

«الرئيس الأمريكي بعث برسالتين إلى تيتو في هذا الموضوع: **الأولى** عامة وتتلخص بالتمسك بالنقاط الخمس التي أعلنها الرئيس الأمريكي بعد العدوان. و**الثانية** رسالة تفصيلية تشرح وجهة نظر أمريكا بضرورة اعتراف الدول العربية بإسرائيل وإنهاء حالة الحرب معها، وذكر جونسون أن هذه الخطوة لا تعني اعتراف العرب قانونياً بإسرائيل ولا تستتبع التمثيل الدبلوماسي معها، ولكنها تستتبع مرور السفن الإسرائيلية في خليج العقبة وقنال السويس. وتضمّن الخطاب الأمريكي برنامجاً لتحقيق السلام على الوجه التالي:

١ ـ قبول جميع الدول العربية بالقرار الأمريكي.

٢ ـ أن يُقرّ المشروع في مجلس الأمن ويصبح أساساً لتحقيق تسوية عامة تعالج العناصر الأخرى للقضية:

أ) مأساة اللاجئين.

ب) حماية الحقوق الدولية في القدس.

ج) انسحاب القوات الإسرائيلية إلى حدود آمنة يتفق عليها.

«وبعدين قال جونسون برسالته إنّه من الضروري أن تتحمل الدول المعنية علاج مشاكلها بصورة واقعية. ومن الممكن أن يعدّ يوثانت وسيطاً للاتصال مع الأطراف المعنية (أي كما حدث سنة ١٩٤٩ في لجنة التوفيق الدولية). وطلب جونسون أيضاً احترام وقف إطلاق النار كي تتوفر ظروف السلام لانسحاب كامل. وأخيراً قال

جونسون إن المهم أن تتضمن الاتفاقية اتفاقاً على تخفيض التسليح.

«وأخيراً في مقابلة بين راسك وسفير الهند، تكلم الاثنان حول الموضوع. فأكد راسك الموقف نفسه في رسالة جونسون، ولكنه أضاف عدم موافقة إسرائيل على انسحاب إسرائيل إلى حدود ٥ حزيران/ يونيو. وقال بوضع غزة تحت السيطرة الدولية والاحتفاظ بالقدس، وأن تكون سيناء ومرتفعات سوريا خالية من السلاح. وقال راسك إن نفوذ أمريكا على إسرائيل محدود جداً، ولم ترتبط أمريكا بهذه الطلبات، لا نيابة عن نفسها ولا نيابة عن إسرائيل، بأي التزام بشأن انسحاب إسرائيل إلى المواقع القديمة.

«وقال الهنود: إن موقف أمريكا كما يلي:

نقطة البدء في أي تسوية هو إقرار العرب بحقّ إسرائيل في الوجود الدائم الآمن، ثُمّ حرية الملاحة في القنال والعقبة، والرضوخ لإسرائيل للحصول على مطالب إقليمية. وبعد ذلك تعود إسرائيل إلى حدود يتفق عليها، ثُمّ تحدثوا عن حلّ إنساني لمشكلة اللاجئين.

«هذا ما حصل في الأمم المتحدة، وما وصلنا عن موقف أمريكا سواء عن طريق تيتو أو الهند.

«ولا بُدّ لي من تعليق مختصر.

«إن معنى هذا تسليم بالمطالب الإسرائيلية كافة، وهذا في رأيي مستحيل، وسنبحث في هذا. والتسليم سهل: نرفع أيدينا وخلاص. وعندئذ يكون راح مستقبلنا ومصيرنا وكرامتنا وشرفنا. ولا يجوز ذلك لأننا خسرنا معركة عسكرية. وإذا ما كناش حنسلّم لازم نجهّز أنفسنا للعمل السياسي ووضعه في مركز القوة، وذلك عن طريق استكمال بناء قواتنا العسكرية، وهذا بحاجة إلى وقت، وثانياً أن نستعد اقتصادياً كي نصمد ولا نسلّم.

«الموضوع هو قدرتنا في الاستمرار على المعركة. وهذا يستدعي قيامكم بواجبكم. أنا خسران ١٥٠ مليون جنيه، فما هي مساهمتكم للأردن علشان ما يطلبش مساعدات من أمريكا؟

«ليس الموضوع وقف ضخّ ولا سحب أرصدة، إنما المساعدة.

«أما الاقتراح اليوغوسلافي، فقد تقدم تيتو بمقترحات سياسية من شأنها أن تشكل برنامجاً للعمل السياسي تعمل الدول الصديقة على تحقيقه.

١) تنسحب القوات الإسرائيلية إلى مواقع ٥ حزيران/ يونيو على أن يتم ذلك تحت إشراف الأمم المتحدة، وأن تتمركز بعد ذلك قوات دولية عند الجانبين.

٢) يعطي مجلس الأمن أو الدول الأربع الكبرى ضماناً للموقف في الوقت الذي يستمرّ فيه العمل لإيجاد حلّ سلمي.

٣) تستأنف الملاحة في السويس كما كانت في السابق. أما في العقبة فسينتظر قرار محكمة العدل الدولية.

٤) ثُمّ يجري العمل السياسي من أجل حلّ لقضية فلسطين.

«نحن في مصر هزمنا في المعركة العسكرية، وتعرضنا لضغط اقتصادي، إلا أننا لم نهزم شعبياً، وعندنا من الإمكانيات ما يكفينا لبناء أنفسنا. الهزيمة جرحتنا ولكن لم تقتلنا. وهذا الجرح يلتئم كُلّ يوم. وسيأتي يوم يزول فيه هذا الجرح. وهذا يعطيني أملاً في المستقبل، أملاً في ألا نسلّم لهذه الشروط الأمريكية حيثُ كُلّ مطالب إسرائيل مفروضة وكُلّ مطالب العرب مهملة.

«نستطيع أن نناضل على ثلاث جبهات: العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، وأمامنا طريقان:

١) عمل عربي موحّد والسبيل هو هذا المؤتمر.

٢) إذا لم نصل إلى حلّ، فسيخرج كُلّ واحد منا وكُلّ واحد يعمل اللي عاوز يعمله وعفا الله على الأمة ومستقبلها، وهذا ما لا نرجوه».

وفرغ الرئيس عبد الناصر من حديثه، والوفود يحاولون أن يتلمسوا ماذا يقترح الرئيس عبد الناصر. لقد كان عرضه الموقف كاملاً وشاملاً، ولكن بقي السؤال: وماذا بعد ذلك؟ ما هي الخطة لمعالجة الموقف؟

وتناول الكلام الملك حسين. وظن الحاضرون أنّه سيقدم الجواب، ولكنه تحدث مستعرضاً ظروف المعركة. وأراد أن يفعل كما فعل الرئيس عبد الناصر، فتحدث عن خسائر الأردن، فقال: «إن الجيش الأردني تكبّد خسائر فادحة بالأرواح والسلاح والعتاد، وقدرها كما يلي: ١٩٧ دبابة، و٢٩٦٠ آلية مختلفة، و٢١,٠٠٠ مدفع رشاش، و٦٠٩٤ شهيداً، والخسارة المجملة تقدر مالياً بـ ٧٠ مليون دينار». ثُمّ قال الملك حسين إن العجز في ميزانية الدولة لهذا العام يقدر بـ ٥٠ مليون دينار.

وأضاف الملك قوله: «إن إسرائيل تحاول إنشاء حكومة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، ولذلك علينا أن نبادر إلى إجراء اتصالات دولية واسعة عاجلة لتضغط على إسرائيل حتّى تسحب قواتها إلى حدود الخامس من حزيران/ يونيو. وباستطاعتنا أن نقوم بذلك. يجب علينا اتباع الطريق السياسي فهو أجدى. ويجب علينا أن نتجنب الوسائل الماضية. لا بُدَّ لنا من وسائل جديدة يقبلها الرأي العام

الدولي. ونحن موافقون على كُلّ كلمة قالها الرئيس عبد الناصر».

وتكلم الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف كلمة موجزة، فدعا إلى ضرورة وحدة العمل العربي المشترك في سبيل الجهاد واسترداد فلسطين وإزالة آثار العدوان.

وفي جلسة بعد الظهر كان أول المتكلمين د. محمّد بن هيمة رئيس وزراء المغرب، فقال: إنه يشارك الملك حسين والرئيس عبد الناصر تحليلهما وعرضهما الموقف، وإنه يمكن تلخيص الأمر كما يلي:

١) إن الوضع العربي الراهن لا ينصح بأي عمل عسكري.

٢) إنه لا يقبل ـ كذلك ـ بأي حلّ يقوم على الاستسلام.

٣) إن أي حلّ سياسي يجب أن ينطلق من وضع قوي حتّى لا تملى على العرب الشروط المخلّة بالكرامة.

ثُمّ تكلم الرئيس اللبناني شارل حلو، فأعلن تأييده لما ورد في كلام د. بن هيمة، ودعا إلى ضرورة توحيد الكلمة لإزالة آثار العدوان، وإلى إحياء مقررات القمة الماضية، وخصوصاً القيادة العربية الموحدة، وميثاق التضامن العربي، ثُمّ أعرب عن استعداد لبنان للقيام بواجبه على رغم ضآلة إمكانياته.

وتلا ذلك كلمة ولي العهد الليبي، فقال بعد مقدمة تمهيدية بضرورة:

١) حشد الطاقات العربية وبذل الجهود في المجالات كافة لإزالة آثار العدوان.

٢) تنقية الجو العربي من الشوائب.

٣) الالتزام بميثاق التضامن العربي وإحلال التفاهم.

٤) وضع الأسس لتعاون مثمر بعيد المدى.

ودعا الرئيس اليمني المشير عبد الله السلال إلى تناسي الخلافات، ولو لفترة، ثُمّ أعلن استعداده للنضال كجندي في معركة إزالة آثار العدوان.

وأعطيت الكلمة بعد ذلك لمندوب تونس الباهي الأدغم، فقال:

«أريد أولاً أن أؤكد أننا نتفق جميعاً في الغاية، وهي استرجاع الحقّ العربي السليب وتحرير الوطن الذي وقع عليه العدوان حديثاً. وجميعنا مستعدون لتقديم ما نتعهد به لمواجهة النكسة واسترجاع حقوقنا، وسنتحمل في سبيل ذلك كُلّ ما يمليه علينا الواجب.

«ولكن بالنسبة إلى الوسائل الموصلة لهذه الغاية فقد نختلف، ويكون هنالك

تباين في وجهات النظر على رغم أن الاجتهاد ينبثق عن حسن نية وإخلاص. المهم أن هذه الخلافات حول الوسائل لا تتناول الجوهر.

«وفي رأينا، ومن تجربتنا الخاصة، أن هنالك حلولاً منقوصة يمكن القبول بها، واستعمالها كمنطق لخلق أجواء جديدة لتضييق الخناق على الاستعمار تمهيداً للحلول الكاملة».

بعد ذلك تكلم أمير الكويت الشيخ صباح السالم، وأعرب عن استعداد الكويت للمساهمة في أي واجب، وأن الكويت حكومة وشعباً مستعدة للقيام بمسؤولياتها القومية وحشد كُلّ طاقاتها.

وتطلع الحاضرون إلى الملك فيصل ليقول ولو كلمة موجزة. ولكنه لم يتكلم.

وجاء دوري للكلام. وكنت قد أعددت كلمة مكتوبة، تخيّرت عباراتها ومعانيها، وقد قصدت، خلافاً لعادتي أن أقرأ كلمة مكتوبة وأن ألتزم بألفاظها حتّى لا يظن أحد أن العاطفة تتكلم. وإني أورد هنا نصّ الكلمة بكاملها لسبب واحد.

هذا السبب هو أن هذه الكلمة تعيد إلى المواطن العربي صورة حية عن مؤتمر الخرطوم وأجوائه، وملامحه، واتجاهاته. إنها تعيد «بناء» مؤتمر الخرطوم نابضاً متحركاً، ليثبت من جديد أن مؤتمر الخرطوم كان أكبر هزيمة سياسية صنعها العرب لأنفسهم في تاريخهم الحديث.

وهذه هي الكلمة في نصها الكامل:

«يواجه مؤتمر القمة العربي بوصفه أعلى أداة للعمل العربي المشترك مرحلة خطيرة حاسمة ستقرر مستقبل العلاقات الرسمية إلى زمن بعيد، كما ستعكس آثارها على القضية الأساسية التي انعقد المؤتمر من أجلها، ألا وهي إزالة العدوان الاستعماري الإسرائيلي الذي وقع على الوطن العربي.

«ولقد تابعت منظمة التحرير الفلسطينية المداولات التي جرت في مؤتمر وزراء الخارجية العرب في كُلّ من الكويت ونيويورك والخرطوم، كما درست الأبحاث والتوصيات التي توصّل إليها مؤتمر وزراء الاقتصاد والمال والنفط العربي في بغداد.

«وبعيداً عن روح التشاؤم، يبدو واضحاً لمنظمة التحرير أنّه إلى هذه اللحظة، فإن مؤتمر القمة يسير إلى نهاية غير مجدية، إذا لم يبادر الملوك والرؤساء إلى التوصل إلى قرارات إيجابية ترتفع إلى مستوى آمال الأمة العربية ومطالبها، وتخرج الوطن العربي من المحنة القاسية التي ألّمت به.

«ومهما يكن تقييم ما تمَّ وضعه حتّى الآن من توصيات ودراسات فإنه مما لاريب فيه أن الاتجاه الغالب يمكن تلخيصه في ما يلي:

١) استبعاد استئناف القتال في وقت قريب.

٢) عدم الموافقة على قطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول التي ساندت العدوان.

٣) التخلي عن وقف ضخّ البترول جزئياً أو كلياً، لزمن محدود أو غير محدود.

٤) عدم الموافقة على سحب الأرصدة العربية من منطقتَيْ الاسترليني والدولار.

«وإذا كان هذا ما سينتهي إليه الأمر، فإن مؤتمر القمة يكون قد اقتصر غاية جهده على المساعي السياسية المجردة من كُلّ دعم وقوة، تاركاً لمعركة الكلام وحدها في الأمم المتحدة وغيرها أن تخرج العدو من الأراضي العربية.

«ومثل هذه النتيجة التي يتوجب على مؤتمر القمة أن يتجنبها، لا تعكس إرادة الأمة العربية، فضلاً عن أنها ستؤدي إلى بقاء العدوان أو الاستسلام للمعتدين وترك الأعباء كلها على كاهل الدول المعتدى عليها، تتحملها كُلّ بمفردها وقدر طاقاتها ومواردها.

«غير أن الحقيقة الصارخة الأكيدة هي أن هذا الاتجاه على الصعيد الرسمي لا يمثل إطلاقاً مشيئة الشعوب العربية ولا تصميمها على احتمال كُلّ تضحية تقدم عليها حكوماتها، بالغة ما بلغت.

«هذا فضلاً عن أن هنالك رأياً عربياً رسمياً تعززه الدراسات العلمية يؤكّد أن وقف ضخّ البترول كلياً ولأجل غير محدود، مع سحب الأرصدة، وقطع العلاقات بالدول المعادية، كُلّ ذلك سيؤدي حتماً إلى إزالة آثار العدوان.

«على أنّه إذا كانت الإجراءات المقترحة حتّى الآن غير مقبولة، كما يبدو الاتجاه الغالب، أصبح من الواجب أن نجيب عن السؤال الكبير، إذاً ما هي الخطة البديلة لإزالة آثار العدوان؟

«وطبيعي أن تكون هذه الخطة مترابطة في جوانبها العسكرية والاقتصادية والسياسية لتؤدي إلى إزالة العدوان، وإذا لم توضع هذه الخطة المتكاملة، فإن النتيجة الحتمية هي استمرار العدوان قائماً على الأرض العربية وفلسطين، ويكون مؤتمر القمة قد تخلّف عن تحقيق الغاية التي اجتمع من أجلها.

«أما بالنسبة إلى القضية الفلسطينية على الصعيد العربي في الظروف الحاضرة، فإن منظمة التحرير ترى من واجبها أن تلفت النظر إلى عدد من الأمور المهمة ذات

الصلة الوثيقة بمصير القضية الفلسطينية، وتتلخص هذه الأمور في ما يلي:

أولاً: إن سياسة إسرائيل ومشروعاتها التي تقوم بها في قطاع غزة والضفة الغربية تستهدف الإدماج أو الاحتلال الطويل المدى.

ثانياً: تعمل إسرائيل بمختلف وسائل العنف واللطف على إظهار الشعب الفلسطيني في هاتين المنطقتين بمظهر الرضاء بالأمر الواقع، أو عدم مقاومته، أو الاستسلام له.

ثالثاً: تسعى إسرائيل بكل جهدها، بديلاً من الانسحاب غير المشروط، إلى تقديم حلول متعددة، تبدأ من إقامة حكم ذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة، إلى إنشاء جمهورية فلسطينية ترتبط بحسن الجوار مع إسرائيل.

«وإن المنظمة الفلسطينية رغماً عن إيمانها بصلابة الشعب الفلسطيني وصموده أمام المؤامرة الاستعمارية الصهيونية في الخمسين عاماً الماضية، ورغماً عن أنها ترفض جميع هذه الحلول جملة وتفصيلاً، لما ستؤدي إليه من تصفية القضية الفلسطينية، فإنها تحذّر من الخطر الذي يحدق بالشعب الفلسطيني وقضيته في المرحلة الحاضرة.

«ومما يضاعف هذا الخطر أن الخطة الإسرائيلية لا تقابلها خطة عربية تستهدف إحباطها.

«إن الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة يتصدى الآن بشجاعة وبطولة للخطة الإسرائيلية، وهو أعزل من أسباب المقاومة والصمود، وكُلّ ما يلقاه على الصعيد العربي من الدعم والتأييد هو الإذاعات العربية تنشر أخبار بطولاته وبسالته.

«وتلحّ منظمة التحرير الفلسطينية ألا ينتهي مؤتمر القمة من دون أن يضع خطة عربية عاجلة تفسد على إسرائيل خططها، ودعم المقاومة الشعبية في فلسطين المحتلة، وأن منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة لأن تقوم بدور فعال في تنفيذ الخطة العربية، بما يتيسر لديها من رجال وسلاح.

«هذا وتؤكد المنظمة من جديد بالنسبة إلى جوهر القضية الفلسطينية المبادئ التالية:

أولاً: لا صلح ولا تعايش مع إسرائيل.

ثانياً: رفض المفاوضات مع إسرائيل، وعدم الاعتراف بالاحتلال السابق.

ثالثاً: عدم الموافقة على أية تسوية فيها مسّ بالقضية الفلسطينية، وما يؤدي إلى تصفيتها.

رابعاً: عدم التنازل عن قطاع غزة والضفة الغربية ومنطقة الحمّة مع التأكيد باهتمام خاص على عروبة القدس.

خامساً: في نطاق الاتصالات الدولية في هيئة الأمم المتحدة وخارجها لا تنفرد أية دولة عربية في قبول أية حلول لقضية فلسطين.

سادساً: التركيز الدائم المستمر على الصعيدين العربي والدولي، على أن قضية فلسطين، وإن تكن قضية عربية مصيرية، إلا أن شعب فلسطين هو صاحب الحقّ الأول في وطنه، وهو الذي يقرّر مصيره.

«ويبقى على منظمة التحرير الفلسطينية أن تنبّه إلى مصير منظمة التحرير الفلسطينية.

«إن منظمة التحرير هي إنجاز كبير يتجلى في قيامها كيان الشعب الفلسطيني وشخصيته الوطنية، وإن بقاءها واستمرارها في الاضطلاع بمسؤولياتها القومية ألزم واجب في هذه المحنة القاسية من أي وقت مضى.

«ولقد استطاعت منظمة التحرير، على رغم المصاعب الكثيرة المتراكمة في طريقها أن تجمع حولها جميع فئات الشعب الفلسطيني، فأصبحت تمثله كما تمثل أية حكومة عربية شعبها المتجمع على أرضها، المقيم تحت سلطاتها.

«وبالإضافة إلى نشاطاتها السياسية والإعلامية، فقد استطاعت منظمة التحرير أن تبني جيش التحرير الفلسطيني بناء نضالياً جعله يقاتل ببسالة وشجاعة في قطاع غزة والجبهة السورية والجبهة الأردنية.

«إن منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني يقفان الآن وجهاً لوجه أمام المصير، وإن بقاء المنظمة ضرورة قومية، فلسطينية وعربية، في المقام الأول.

«وإنها لكارثة قومية، فلسطينية وعربية، أن تصفى المنظمة، وأن يسرح جيش التحرير، ويأبى شعب فلسطين ومعه الأمة العربية أن تصل المنظمة وجيشها إلى هذا المصير، وسيظل شعب فلسطين يقتطع من لحمه، ويستنزف من دَمه ليبقي ما أمكن أن يبقي من منظمة التحرير وجيش التحرير.

«ولهذا، فإن منظمة التحرير الفلسطينية تقترح على مؤتمر القمة إصدار القرارات التالية:

١) الوفاء بجميع الالتزامات المالية المترتبة لمنظمة التحرير وجيش التحرير بموجب قرارات مؤتمرات القمة، والاستمرار في أدائها في مواعيدها المقررة.

٢) تمكين منظمة التحرير الفلسطينية من تحمّل مسؤولياتها القومية في تنظيم الشعب الفلسطيني، وتهيئته ليقوم بدوره الطليعي في تحرير وطنه وتقرير مصيره.

٣) تعزيز جيش التحرير الفلسطيني بحيث تكون للمنظمة سلطة كاملة عليه من حيثُ تشكيله وتدريبه وتسليحه وجميع شؤونه الإدارية، على أن واجبه العسكري يظل مرتبطاً بالخطة العربية الموحدة.

٤) إنشاء معسكرات لتدريب أبناء فلسطين في الدول العربية بالتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية.

٥) إصدار التعليمات أو الأوامر اللازمة في الدول العربية، كُلّ بحسب نظمها الدستورية، لتمكين منظمة التحرير الفلسطينية من استيفاء ضريبة التحرير من أبناء فلسطين حيثما وجدوا».

ولقد كانت كلمتي بمثابة إنذار واستنكار للمصير الذي سينتهي إليه مؤتمر القمة، إذا ظلّ على حاله من التراخي والاستسلام. وكان الملوك والرؤساء يستمعون إليّ وهم يعجبون لهذا الكلام الذي يدلّ على أن صاحبه قد أراد أن يحسم أمره مع الملوك والرؤساء.

والواقع أني قررت منذُ تلك اللحظة أن أحسم الأمر بيني وبين الملوك والرؤساء في مؤتمراتهم. وها أنا الآن معهم في مؤتمر الخرطوم، أراهم يريدون أن يسيروا بأضعف الإيمان وأبخس الأثمان، وهم يملكون أكثر من هذا، ويقدرون على أكثر من هذا.

وانتهت الجلسة بانتهاء كلمتي، وأعلن الأزهري التأجيل لصباح اليوم التالي، ومؤتمر القمة يترنّح بين الحياة والموت، وكأنه في تلك العشية يحتضر في يوم ميلاده. وخرجنا من قاعة الجلسة، وأنا أدعو إلى الله أن يستمع الملوك والرؤساء إلى نداء شعوبهم المنكوبة بهم. ولكن أنى لهم أن يبصروا الطريق، أو أن يسمعوا الحقّ.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿**ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها**﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الآعراف،» الآية ١٧٩.

مؤتمر الخرطوم.. يدفن في الخرطوم

قال: «نتعشى الليلة مع بعض، ونتكلم».

وقلت: «حاضر».

كان الداعي إلى العشاء، هو الرئيس عبد الناصر، ونحن نخرج من قاعة الاجتماعات في فندق السودان، بعد أن ألقيت كلمتي أمام الملوك والرؤساء وأنذرت فيها بسوء العاقبة إذا بقي مؤتمر القمة في واد، والجماهير العربية في واد.

وصعدت إلى جناح الرئيس عبد الناصر في الوقت المحدّد، فوجدت عنده وزراءه د. محمود فوزي، ومحمود رياض، ود. حسن صبري الخولي. وأحسب أنهم كانوا في جلسة عمل يتشاورون، وقال الرئيس: «أنا داعي الأخ أحمد على عشاء ودردشة».

فكانت إشارة لطيفة للانصراف. وانصرفوا.

وتناولنا العشاء معاً. وأنا لا أدري ما إذا أكلت. لقد كانت أطباق الطعام توضع وترفع من غير إحساس بالزمن، ولا شعور بهذا الذي نأكله، حلواً كان أو مالحاً. وقد كان القول المأثور: عند البطون تضيع العقول، ولكن في تلك الجلسة كان الحال على العكس: عند العقول تضيع البطون!

والواقع أن العقول كانت في شغل شاغل عن كُلّ شيء. وبادرني الرئيس عبد الناصر بالسؤال عن كلمتي التي ألقيتها أمام الملوك والرؤساء، وحدّدت فيها الموقف العربي وما يكتنفه من ظروف وملابسات، وعن الأسباب التي حملتني على هذا «الموقف الناشف»

وأجبت الرئيس عبد الناصر في حديث طويل عما عانيته من الدول العربية، منذُ أن بدأت في إنشاء الكيان الفلسطيني، وعن التخلف في الوفاء بالالتزامات المالية، والمضايقات التي يجدها الفلسطينيون على يد الدول العربية بالنسبة إلى إقامتهم

وسفرهم وعملهم. ثُمّ استعرضت خلافاتي مع الملك حسين، والرئيس بورقيبة، والملك فيصل، بسبب القضية الفلسطينية، وانتقلت بعد ذلك إلى ما آلت إليه الأوضاع بعد سقوط الضفة الغربية وقطاع غزة، واستمرار الدول العربية في مواقفها السلبية، وأن الأمر قد بلغ مرحلة خطيرة لم يعد يجوز الصبر عليها، فإما مسيرة صحيحة، ووفاء بالالتزامات وتنفيذ القرارات، وإما مكاشفة الأمة العربية بالحقيقة، وانتهاج مسيرة نضالية قويمة، يسير فيها من يسير، ويتخلف من يتخلف. ولا بُدَّ للشعوب من أن تكون في قلب هذه المسيرة.

وقال الرئيس عبد الناصر: «ونحنا، مالكش شكوى منا؟».

قلت: «لا يخلو الأمر.. ولكن ما لنا وما للشكاوي الآن. نريد أن نعالج الموقف الحاضر»..

قال: «أنا عاوز أعرف.. إيه شكواك منا؟».

قلت: «مصر حملت تبعات جسيمة من أجل قضية فلسطين، ودفعت تضحيات غالية، وكان يجب ألا تقع في أمور صغيرة».

قال: «زي أيه؟».

قلت: «لقد حزَّ في نفسي أن تدفع المنظمة مبلغ ٢٥٠ ألف جنيه استرليني من أجل إذاعة منظمة التحرير، عن طريق الاستئجار من إذاعة صوت العرب».

قال: «وغيره؟».

قلت: «أسلحة جيش التحرير الفلسطيني في غزة تعاقدنا عليها مع الفريق محمّد فوزي بمواصفات معينة، ودفعنا الثمن بكامله، ولم نستلم الأسلحة، لا بأوقاتها المحددة، ولا بمواصفاتها المتفق عليها. وعلى كُلّ حال، فكُلّ مشاكلي مع القاهرة ثانوية ولا يصحّ أن أشغلكم بها الآن».

قال: «والله يا أخ أحمد، أنا ما أعرف بهذه الأمور. وطبعاً الناس كلهم يعتبرونني مسؤولاً عن كُلّ خطأ في مصر».

وانتقلنا بعد ذلك إلى الموضوع: مؤتمر القمة، وكررت للرئيس عبد الناصر ما قلته في كلمتي أمام الملوك والرؤساء، وأنه إذا لم يتخذ المؤتمر قرارات نافذة بشأن البترول، وما لم تبادر الدول العربية المتماثلة في نظمها إلى إقامة اتحاد فدرالي، فإن الاحتلال الإسرائيلي سيظل جاثماً على الأرض العربية.

وراح الرئيس عبد الناصر يقلّب أوراقه في الملف الذي أمامه، وأنعم النظر في

المشروع الذي قدمته إلى المؤتمر، مشروع الدولة العربية المتحدة، ثُمّ رفع رأسه ومضى في حديث طويل[1].

وعاد الرئيس عبد الناصر بذاكرته إلى موضوع الوحدة والانفصال مع سوريا، وإلى مواقف الدول العربية واحدة واحدة. وإلى علاقات مصر مع الاتحاد السوفياتي، وإلى عداء الولايات المتحدة لقضية الثورة العربية، وإلى ظروف الحرب الأخيرة، وإلى مضاعفات الهزيمة. ثُمّ لخّص الموقف على الوجه التالي، قائلاً:

أولاً: أنا موافق على مشروع الدولة العربية المتحدة، ولكن من يوافق غيري؟ تفضل أقنع الآخرين وأنا حاضر.

ثانياً: أنا مؤمن أن البترول سلاح فعال في يد الأمة العربية، ولكن الدول العربية المنتجة للبترول لا تريد أن تمشي. يا دوب ناخذ منهم مساعدة مالية لتدعم اقتصادنا.

ثالثاً: أعداؤنا الأمريكان يشدّدون علينا الخناق ويحرضون إسرائيل علينا. وأصدقاؤنا في الاتحاد السوفياتي مش عاوزين يمشوا إلا في الحلّ السلمي. وأنا أشك في أن الحلّ السلمي يمكن أن يوصلنا إلى نتيجة.

رابعاً: في مصر، الأمور ليست على ما يرام. أنا كُلّ ساعة، وأنا هنا في الخرطوم، أتلقى أخبار عن أحوالنا الداخلية. المشير عامر، والضباط وغيره وغيره.. ألف مشكلة ومشكلة.

خامساً: وبصراحة سياستي في هذا المؤتمر أن نخرج بالممكن.

وتلقفت كلمة «الممكن»، وقلت: «إن هذه الكلمة تقديرية ونسبية.. إن «الممكن» عند الدول العربية كثير وكثير جداً. ولا يصحّ أن نرضى بالقليل».

قال: «وما هو الممكن في نظرك؟».

قلت: «أنا أعتقد أن موضوع البترول هو أخطر سلاح بقي بيد الأمة العربية، فإذا سقط هذا السلاح سقطت القضية العربية إلى زمن بعيد. البترول العربي متوقف الآن عن بريطانيا وأمريكا. ولم توقفه الدول المنتجة إلا بسبب الضغط الشعبي. والضغط الشعبي لا يزال حتّى الآن قوياً، بل إن من الممكن تصعيده. ونحن الآن على

---

(١) أحمد الشقيري: **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء** (بيروت: دار العودة، ١٩٧٠)، وهو متضمن في هذه المجموعة، **ومشروع الدولة العربية المتحدة**، سلسلة أبحاث فلسطينية؛ ٥ (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٧) في مؤتمر الخرطوم.

أبواب الخريف، ويعقبه الشتاء، وإن أوروبا لا تستطيع أن تأكل وتشرب وتنام وتعمل وتقرأ وتكتب إلا بالبترول. وكُلّ ما هو مطلوب أن يتوقف البترول ستة أشهر. وحينئذ ستهبّ أوروبا كلها، ومعها أمريكا لتعمل على إجلاء إسرائيل عن الأرض العربية. وهذا هو معنى المشروع العراقي بوقف ضخّ البترول لمدّة محددة».

قال: «يا أخ أحمد. أنا قرأت ملف البترول كُلّه، مرتين، ثلاث مرات، أنا موافق على كُلّ الكلام الذي تقوله. ولكن السعودية غير موافقة، وستتبعها ليبيا ثُمّ الكويت، وسيبقى العراق وحده. لا بُدَّ لنا من رأي آخر».

قلت: «الرأي الآخر هو تأميم البترول. إن الشركات الاحتكارية تجني أرباحاً ضخمة. هذه الأرباح وحدها كافية لتمويل صندوق عربي للتحرير والتنمية. والدول العربية المنتجة للبترول لا تدفع شيئاً من عائداتها، أرباح الشركات الأجنبية تدخل في الصندوق العربي. وفي رأيي أن هذا الاقتراح يأتي في المقام الثاني بعد وقف الضخّ».

قال: «وهل تظن أن الدول العربية مستعدة للموافقة على هذا الاقتراح؟ لقد جربت كُلّ الطرق مع الدول العربية».

قلت: «أنا مؤمن أن الضغط الشعبي كفيل بحمل الدول البترولية على الرضوخ أو التأميم. لقد رأيت الجماهير كيف استقبلوك في مطار الخرطوم، وكيف كانوا يصيحون: «وحدة.. وحدة..». وأنا لا أطلب إليك أن تترك الدول العربية، نحن في هذه المرحلة ليست لنا مصلحة في مهاجمة الدول العربية. ولكن يجب ألا نقطع الحبل مع الشعوب العربية. يجب أن تظل الجماهير العربية هي التي تطالب وتحاسب وتراقب. وإذا سكت صوت الجماهير فإن بعض الحكومات العربية، وخصوصاً السعودية وليبيا، ستدير ظهرها للقضية العربية».

واستمرّ الحديث بيني وبين الرئيس عبد الناصر في هذا الإطار؛ هو يؤكّد الحاجة إلى الحكومات العربية في هذه المرحلة، وأنا أشدّد على دور الشعب: حبل مع الحكومات، وحبل مع الجماهير بصورة متوازنة متوازية.

وخرجت من جناح الرئيس عبد الناصر إلى غرفتي. ولم تبق إلا بضع ساعات للنوم، ليستأنف مؤتمر القمة عمله في جلسته الثالثة.

ولم تبدأ الجلسة إلا قريباً من الظهر. فقد تأخر الملوك والرؤساء في النوم، لأنهم تأخروا في السهر وفي السمر، والويل للخليّ من الشجيّ!

ويبدو أن الملك حسين كان مشحوناً محقوناً، فلم تعجبه الكلمة التي ألقيتها بالأمس. ولم تعجبه بصورة خاصة اقتراحاتي بشأن مقاومة الاحتلال الإسرائيلي من

داخل الضفة الغربية. فلم يكد الرئيس الأزهري يفتح الجلسة حتّى طلب الملك حسين الكلام.

وتحدث عن «خطورة العمل الفدائي الذي تشجعه سوريا، وأعلن عن معارضته هذا العمل لأنه سيزيد في خطورة الوضع وانهياره»، وطلب موافقة على هذا الرأي، إلا أن أحداً لم يعلق على ذلك سلباً أو إيجاباً.

ثُمّ تكلم محمّد أحمد محجوب ورأى أن يصاغ قرار ما حول ضرورة تدعيم الجيوش العربية وتقويتها وضرورة التنسيق في ما بينها في المستقبل.

وتحدث الرئيس جمال عبد الناصر فقال:

«العمل العسكري له بداية توصل إلى نهاية. والبداية هي إعادة بناء قواتنا المسلحة حتّى نكون في موقف الدفاع، ثُمّ تتطور إلى موقف الهجوم. وقد بدأنا إعادة بناء قوتنا، وعندنا الآن قدرة على الدفاع. وفي رأيي أننا من دون ذلك لا نستطيع الوصول إلى أي حلّ سياسي مشرّف. والوصول إلى مرحلة الهجوم تحتاج إلى وقت غير قصير، ولذلك لا بُدَّ من دعم اقتصادي يمكننا من الصمود. والعمل العسكري مرتبط بالدعم الاقتصادي، ومن الممكن بهذا الدعم أن نقبل بالوضع القائم حتّى نستطيع إزالته بالقوة».

وقال الرئيس عبد الرحمن عارف:

«إن ما قاله الرئيس عبد الناصر صحيح، وهذا بالطبع يحتاج إلى وقت، وقد نتعرض في هذه الفترة لهجوم أو اشتباك، ولا بُدَّ من وجود قيادة عسكرية واحدة أو تنسيق في بداية الأمر.

واستطرد الرئيس جمال عبد الناصر، وقال:

«عندنا القيادة العربية الموحدة».

وتدخل الرئيس محمّد أحمد محجوب وقال:

«هذا صحيح، وقد طلب إليّ الفريق علي علي عامر أن أسأل مؤتمركم عن مصير هذه القيادة. وأنا أرى ضرورة إحيائها».

فأجاب الرئيس جمال عبد الناصر، وقال:

«يجب معرفة رأي إخواننا السوريين».

واشترك الملك حسين، وقال:

«هذا مهم، ولا بُدَّ من معرفة رأي إخواننا لأن تجربتنا في المعركة الماضية كانت مؤلمة».

وعاد الرئيس محمّد أحمد محجوب إلى الكلام، فقال:

«لقد وعد السوريون بتنفيذ أي قرار إيجابي».

وأيده الرئيس عبد الناصر قائلاً:

«هذا صحيح، وقد قال لي إبراهيم ماخوس هذا الكلام».

وتدخل الرئيس شارل حلو، وقال:

«أنا لا اعتقد أن هناك أي دولة عربية تشذ عن هذا الموضوع».

وأوضح الوزير الجزائري عبد العزيز بوتفليقة موقف الجزائر، فقال:

«القيادة الموحدة خلقت في ظروف معينة تغيرت موضوعياً اليوم، وأعتقد أن تغيّر الظروف يفرض خلق شيء جديد».

وإلى هنا، فقد كان الملك فيصل يستمع ولا يتكلم، ورأى أن البحث يتناول عدة مواضيع، وتكاد تُطرح على المؤتمر لاتخاذ قرارات بشأنها، وبخاصة موضوع القيادة العربية الموحدة. ومعروف أن الملك فيصل كان قبل عام قد توقف عن دفع التزاماته للقيادة العربية الموحدة، فطلب الكلمة، وكانت المرة الأولى التي رأى فيها حاجة إلى الكلام.

وتحدث الملك فيصل من غير مقدمة، فنطق عبارة واحدة، فقال: «قبل الحديث في هذه المواضيع يجب أن نعرف ماذا ستقررون بشأن القضايا الاقتصادية حتّى نعرف في ضوء ذلك ما نستطيع أن نقدم. نريد أن نعرف الموقف بالنسبة إلى توصيات مؤتمر بغداد بشأن البترول».

لقد كان واضحاً أن الملك فيصل يريد أن يطرح قضية ضخّ البترول أولاً، وهل الاتجاه نحو وقفه أو استئنافه.

وأخذ الرئيس عبد الناصر المبادرة، وقال: «أنا أرى أن نستأنف ضخّ البترول إلى جميع الدول، حتّى لأمريكا وبريطانيا، والدول المنتجة للبترول تعاون الدول المعتدى عليها».

وقبل أن يتكلم أحد، كأنما كان الأمر صفقة عاجلة، قال الملك فيصل: «الجمهورية العربية المتحدة والأردن بحاجة إلى دعم اقتصادي، ونحن من جانبنا حاضرون في حالة استئناف الضخّ».

كان الطلب والعرض بين الرئيس عبد الناصر والملك فيصل يجري سريعاً، بحيث لم يتحمل من الوقت إلا ما تقتضيه الكلمات من زمن.

ودهش الحاضرون لهذه السرعة في الاتفاق، كيف تمّ بين الرجلين، من غير حوار ولا مقدمات، وبعد أن كان بينهما من القطيعة.

وأراد الوزير الجزائري عبد العزيز بوتفليقة أن يحفظ حصة «الغائب» ما دامت الصفقة قد تمت بهذه السرعة، فقال: «إن غياب سوريا عن المؤتمر لا يجوز أن يحرمها من حقها في الدعم، وإننا ملزمون أخلاقياً بذلك».

فردّ عليه الملك فيصل بكلام يتعذر على سوريا أن تقبله، فقال: «نحن نعرف أن الجمهورية العربية المتحدة والأردن تعرضتا ودفعتا ثمن العدوان، أما سوريا فلا نعلم عنها شيئاً. وكلنا لسنا ضدّ مساعدة أي فريق، وإذا كان لأحد من طلب فليتقدم به.. قد يكون من الممكن عن طريق اتفاقيات ثنائية». وهذا الكلام هو رفض بصيغة القبول.

وفي سرعة خارقة، لم أر أن قراراً آخر قد حظي بمثلها في الاجتماعات العربية التي اشتركت بها على مدى ربع قرن من الزمان. وضعت صيغة القرار، وكان أول قرار اتخذه مؤتمر القمة، بالنصّ التالي:

«قرر المؤتمر استئناف ضخّ البترول، باعتباره طاقة عربية إيجابية يمكن تسخيرها في خدمة الأهداف العربية، وفي الإسهام في تمكين الدول العربية التي تعرضت للعدوان وفقدت نتيجة لذلك موارد اقتصادية، من الصمود لإزالة آثار العدوان».

ولم توضع هذه الصيغة من قبل مؤتمر القمة. فقد كانت جاهزة، قرأها محمّد أحمد محجوب من أوراقه.. وسكت الحاضرون وتمت الموافقة. وكان أول قرار أصدره الملوك والرؤساء من غير بحث ولا مناقشة، منذُ أن انعقد مؤتمر الملوك والأمراء في زهراء أنشاص عام ١٩٤٦ إلى يومنا هذا.

وفي لهجة من العتاب الهادئ، التفت الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف إلى الرئيس جمال عبد الناصر وقال: «ونحن نسحب المشروع العراقي بوقف ضخّ البترول، وسنقول للشعب العراقي: هذا ما يريده مؤتمر القمة».

وكان السبب في هذا العتاب أن المشروع العراقي قد وضع في القاهرة بالتوافق بين المسؤولين العراقيين والمصريين.. وها قد تبخر وراء الكواليس في الخرطوم، والوفد العراقي لا يعلم شيئاً.

ثُمّ جاء البحث التفصيلي، بعد ذلك، عن مقدار العون الاقتصادي الذي يجب أن يُقدم إلى الجمهورية العربية المتحدة. وكما جرى في صياغة القرار، جرى كذلك في تحديد المبلغ ونسبته. وهنا كان الكلام للشريف حسين الهندي وزير مالية السودان، فقرأ في ورقة أمامه ما يلي: «نقترح أن تدفع السعودية مبلغ خمسين مليون

جنيه، والكويت مبلغ ٥٥ مليون جنيه، وليبيا مبلغ ٣٠ مليون جنيه، ويكون مجموعها ١٣٥ مليون جنيه، يعطى منها ٩٥ مليون جنيهه للجمهورية العربية المتحدة و٤٠ مليون جنيه للأردن».

وطالب الوزير الليبي د. أحمد البشتي مهلة للحصول على موافقة الحكومة الليبية. ولكن الملك فيصل أشار إليه بالموافقة، فإن استئناف ضخّ البترول، وصدور قرار إجماعي من الملوك والرؤساء بإباحته وإسالته، يساوي هذا المبلغ أضعافاً مضاعفة.

وهكذا انفرج الملك فيصل عن ابتسامة عريضة، وانتصر بترول العرب على العرب، وانتقل المؤتمر بعد ذلك إلى بحث الجوانب السياسية. وليبحث من يشاء. فالسياسة كلام، وليتكلم من يشاء.

وطلب الملك حسين الكلام، فامتدح قرار العون الاقتصادي وإيجابيته والسماح باستئناف ضخّ النفط، وأسهب طويلاً في ضرورة إعادة النظر في الأساليب الماضية التي اتبعها العرب في نشاطهم السياسي، ووصفها بالسلبية، وألحَّ على ضرورة مخاطبة الرأي العام الدولي بلغة جديدة، وعلى أساس صريح من الواقعية. وطلب الملك حسين في نهاية حديثه «لمناسبة زياراته المقبلة للاتحاد السوفياتي والدول الإسلامية وأوروبا وأمريكا، أن يزّوده المؤتمر بالخطوط الرئيسيّة للسياسة الجديدة بشأن الحلّ الذي ينبغي قبوله للقضية الفلسطينية».

وكان لهذا الكلام معنى واحد، لا سواه، هو أن الملك حسين يريد تفويضاً من مؤتمر القمة لبحث القضية الفلسطينية في الخارج. ويريد أن يعرف حدود هذا التفويض.

وهنا كان لا بُدَّ لي من أن أتكلم.. ولم أتكلم هذه المرة من ورقة مكتوبة. ولكني استوحيت كلامي من إيماني وتجاربي.. وأولاً وأخيراً، من مسؤوليتي التاريخية أمام الشعب الفلسطيني، تلك المسؤولية التي ستلاحقني إلى قبري. فليست قضية فلسطين مشكلة سياسية يغتفر فيها الخطأ، ولكنها قضية شعب وأمة، وقضية حاضر ومستقبل، وقضية بقاء وفناء.

واستخرت الله، وقلت:

«إن الموضوع المطروح له أهمية كبرى، ولا أحسب أن وقتاً، مهما طال في بحثه، يعتبر ضائعاً، لأننا منذُ سنين لم نطرح هذا السؤال الكبير حول قضية فلسطين طرحاً عميقاً كما هو اليوم. إني أريد أن أتكلم بصراحة وموضوعية، بعيداً عن العاطفة التي نُتهم بها دائماً. هذه قضية مصيرية في مرحلة حاسمة تتطلب منا تفكيراً مسؤولاً وجدياً.

«إن قضية فلسطين هي قضية العرب جميعاً، وهي قضية مصيرية بتطورها الأخير، وخصوصاً في سنواتها الأخيرة. ولكن رغماً عن هذا التوكيد أرجو أن يظل في ذهننا أن هذه القضية تخصّ شعبها، شعب فلسطين. وكونها عربية لا ينفي حقّ شعب فلسطين بأنه صاحب الكلمة الأولى في تقرير مصيره، تماماً كما قررتم مصائر شعوبكم.

«وإننا نحن ـ شعب فلسطين ـ لسنا عضواً في الأمم المتحدة، وكائناً ما تكون أوضاعنا، فإن شعبنا المشتت المجزأ هو واحد في آماله وتطلعاته. أكثره لاجئ وأكثره أسير، ولكن هذا لا ينفي وحدته الوطنية، وتشرده لا ينفي حقه الطبيعي في تقرير مصيره. نحن ننظر إلى القضية على المدى الطويل، وإذا كان لكُلّ شعب أن يحلّ مشاكله في ضوء آلامه الطارئة لانتهت القضايا القومية ولما بقي لها من معنى ولا وجود.

«قلت إننا لسنا في الأمم المتحدة، ولم نوقّع اتفاقية الهدنة، ونحن لسنا ملزمين بقرارات مجلس الأمن، ولذلك فإن كُلّ الاعتبارات الدولية لا تشملنا ولسنا ملتزمين بها.

«ولنأخذ على سبيل المثال مشروع الرئيس تيتو الذي اقترحه لحل القضية.

أولاً، إن مشروع تيتو ليس بمشروع، بل نقاط عرفنا كيف تبدأ، ولكن من يعرف كيف تنتهي؟ وكلنا نعرف كيف تصاغ النقاط في الأمم المتحدة، حيثُ الكلمة تقدم وتؤخر، ولربما الفاصلة في بعض الأحيان لها مدلولها ومفهومها.

«لذلك فإن منظمة التحرير لا ترى أمامها مشروعاً كاملاً تقول أمامه «نعم» أو «لا». أما عندما نرى المشروع متكاملاً، فعندئذ تقول المنظمة كلمتها.

«وبالأمس نحن حدّدنا موقفنا أمام مجلسكم الموقر في مذكرة مكتوبة، وقد طبعناها ووزعناها عليكم، حتّى تكون معروفة أمامكم بكل دقة ووضوح. وأقول بكل تأكيد إنني أتحدث بغاية الموضوعية، فهنالك خمسون سنة من المصائب والويلات وراء هذه القضية.

«لقد قيل في هذا الاجتماع إن سياستنا الماضية في الرفض كانت خطأ فادحاً. وأنا أقول لكم إن الرفض ليس هو الخطأ، ولكن ضعفنا هو الخطأ.

«فنحن نلتزم بستة مبادئ واضحة في مذكرتنا، وأقول بكل أخوة إن كوننا لاجئين لا يحرمنا من حقنا في تقرير مصيرنا. . ونحن لا نقبل أن نكون تحت وصاية أو تبعية لأية دولة.

«إن الحلّ السياسي شيء، وكيفية مخاطبة العالم شيء آخر. فبالنسبة إلى المخاطبة نستطيع البحث في هذا الموضوع إعلامياً، وأنا أعلم قيمة الإعلام، فقد سبق لأجهزة العدو أن زوّرت عليَّ تصريحاً حول رمي اليهود في البحر، كما زوّرت إسرائيل تصريحاتكم، ويبدو أننا مع الأسف أصبحنا ضحايا وفريسة الدعاية الإسرائيلية.

«أعود إلى القول إنّه يتوجب علينا وضع أسلوب علمي لشرح قضيتنا، على رغم أنني أشعر بأنه أصبحت فينا عقدة نقص بالنسبة إلى دعايتنا. ولقد وقع الإسرائيليون في أخطاء قاتلة في دعايتهم. فشعارهم «من النيل إلى الفرات» هل يدلّ على علمية في الدعاية. وهناك وايزمن الذي قال: «إننا نريد أن نخلق فلسطين يهودية كما هي إنكلترا إنكليزية». هل هذا علمي أيضاً؟ وأبا إيبان مؤخراً، ألم يقل إنه لو صوتت ١٢١ دولة ضدّ العدوان، فلن ينصاع، ولن ينسحب من الأراضي العربية؟ هل هذه لغة علمية؟ طبعاً لا. ولكن أبا إيبان يمسك بزمام المبادرة ويتكلم من مركز القوة. ثُمّ القدس، ألم يصدر فيها قراران من الأمم المتحدة ورفضهما أبا إيبان؟ هل هذه مناهج علمية، وقد تصرف اليهود بالقدس تصرفات كلها تحدٍّ واستفزاز للمقدسات الإسلامية والمسيحية.

«إذاً ليس من داع للمبالغة في موضوع الإعلام. ولا مانع من استبدال لهجتنا، لكن من دون أي مساس بالجوهر. من دون استبدال الأسس الرئيسيّة في القضية.

«وإني أقول لكم بصراحة إن سيناء هي مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة تتحملها أمام الشعب المصري والأمة العربية، وكذلك فإن الجولان مسؤولية الجمهورية العربية السورية تتحملها أمام الشعب السوري والأمة العربية. ومن أراد أن يتنازل، فليتنازل والتاريخ بالمرصاد.

«أما الأرض الفلسطينية من النهر إلى البحر، فإنها ليست لأي ملك ولا رئيس، ولا يستطيع أحد أن يتنازل عن شبر واحد منها. . كُلّ ملك أو رئيس يملك فيها حقّ الدفاع، لا حقّ التنازل. فلسطين هي ملك الشعب الفلسطيني، وهو الذي يقرر مصيرها. ولقد كان لي شرف الدفاع عن قضايا الجزائر وتونس وليبيا والمغرب في الأمم المتحدة. وهذه الأقطار بحمد الله أصبحت مستقلة وممثلة بوفودها بينكم. وجميع هذه الشعوب قررت مصيرها بنفسها. ومن حقّ شعب فلسطين أن يقرّر مصيره».

وهنا سألني رئيس وزراء السودان: «إذاً كيف تتصور أن نبحث عن حلّ للقضية الفلسطينية؟».

وأجبت: «القضية الفلسطينية هي قضية عربية، من غير شكّ، وأعتقد أن كُلّ عربي، سواء كان مواطناً أو ملكاً، له ملء الحقّ أن يدافع عنها، ولكن لا أن يتنازل

عنها . . وابحثوا عن الحلول كما تشاؤون، ولكن قبول الحلول يجب أن يتم في اجتماع للملوك والرؤساء ومعهم منظمة التحرير، وأن يتم قبوله بالإجماع».

وتدخل الوزير التونسي، وقال: «نحن نوافق على مشروع الرئيس تيتو، لأنه سوف يفرض من قبل مجلس الأمن، ونحن لا يُطلب منا سوى السكوت».

قلت: «وهل نسكت عن الوطن؟!».

وتدخل الرئيس الأزهري ليبدي تحفظ السودان، فقال: «أريد أن أعطي نفسي الحقّ بكلمة موجزة، وهي أننا في السودان لا نرى مع إسرائيل من منطق سوى منطق المقاومة، وأنه لا يمكننا بحال أن نقبل بالصلح أو ما يؤدي إليه».

وأعاد الملك حسين كلامه في شرح وتفصيل عن ضرورة البحث عن حلّ جديد. وفي ختام كلامه وضع السؤال التالي: «أرجوكم أن تحدّدوا لي مسؤولياتي، ما هو الحلّ الذي يجب أن نقبله؟ أريدكم أن تقولوا لي ماذا أقول في موسكو، والعالم الإسلامي عندما أبدأ زيارتي بعد أيام؟».

وقلت: «في ما يتعلق بالشعب الفلسطيني. إن الموقف واضح. إن منظمة التحرير هي وحدها التي تمثل الشعب الفلسطيني وتتحدث بلسانه، ولا يملك أحد غير الشعب الفلسطيني، ملكاً كان أو رئيساً، أن يوافق على أي حلّ للقضية الفلسطينية».

وتوتر جو الجلسة في هذا الحوار بيني وبين الملك حسين.

وتدخل الرئيس عبد الناصر في الحديث، فقال:

«حتّى نتكلم عن الحلّ السياسي لا بُدَّ من أن نضع في حسابنا:

١ ـ العمل العسكري.

٢ ـ الوضع الاقتصادي.

«وأعتقد أن القرار الذي اتخذ المتعلق بالصمود الاقتصادي يساعدنا على الصمود السياسي. ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن هناك اتفاقاً بين أمريكا وروسيا على أسس الحلّ السياسي للقضية، وهذا الاتفاق موجود في المشروع السوفياتي ـ الأمريكي. والأمريكان أثروا في وجهة نظرهم. وطلبنا من السوفيات توضيح وجهة نظرهم، ولكن لم يصلنا منهم تفسير، وكان جوابهم أننا نوافق على ما توافقون عليه، وهم على استعداد لاستعمال «الفيتو» والمشروع يتضمن:

١ ـ إنهاء حالة الحرب.

٢ ـ الانسحاب، ثُمّ يلي ذلك قضية الملاحة والقضايا الفرعية.

«وقد رفضنا هذا. واليوم أمريكا تحاول الضغط علينا للقبول بوضعنا. النهار ده ما نقدرش نقول إنو هناك حاجات حنقرر وننفذ ما نريد ونرفض ما نريد، لأن هذا لا ينسجم مع يقظة العدو. ويجب أن نفهم أنّه علينا إما أن نقبل أو نرفض. العدو له هدف هو حلّ قضية فلسطين وإنهاء هذه المشكلة.

«إذا تكلمنا عن العمل السياسي يجب أن يكون مفهوماً لدينا أننا نأخذ ونعطي. وإذا تصورنا أننا حناخذ وبس، فنحن مخطئون.

«لذلك علينا أن نقرر ماذا نحن مستعدين أن نعطي، واليوم يختلف الوضع عن سنة ١٩٥٦. النهار ده الوضع مختلف اختلاف كلي. أمريكا وروسيا متفقتان على حقّ إسرائيل في البقاء والحياة، والاثنتان اتفقتا على إنهاء حالة الحرب، وبذلك فالعمل السياسي أصبح صعب وبحاجة إلى نضال عنيف. اليوم موقفنا حيقوى بعد القرارات الاقتصادية، ونستطيع أن نصمد».

«والمشكلة عندنا في مصر تختلف عن الأردن، أنا سينا متهمنيش، والقنال كان يمكن يؤثر، لكن التعويض حلّ المشكلة. أما قطاع غزة، فهم يقاومون وقد أعدموا امبارح ناس فيها. إذاً نحنا نستطيع أن نقاوم وأن نرفض أي حاجة مش عاجبانا لغاية منكون قادرين على الهجوم.

«ولكن ما يقلقني هو الضفة الغربية. والسؤال اللي واجب نسأله: هل الزمن في صالحنا أم ضدنا هناك؟ أنا في رأيي أن الزمن ضدنا. والناس أحوالها صعبة. وقد اتحدت الأحزاب المتطرفة في إسرائيل وهذا يجعلنا نتوقع سياسة إسرائيلية متطرفة. أنا أقول إنّه لازم نستعيد الضفة الغربية والقدس، وإلا إذا تركنا هذا الموضوع فلن تعود الضفة الغربية ولا القدس.

«عسكرياً نحن لا نستطيع ذلك. إذاً ليس هناك من سبيل أمامنا إلا العمل السياسي من أجل استرجاع الضفة الغربية. وأنا لما جالي الملك حسين في القاهرة، والواحد كان شاعر بالمشكلة في الضفة الغربية، قلت له الكلام ده. والسبب الثاني أن اليهود لهم أطماع أساسية في الضفة الغربية على أساس إنها من فلسطين. أما سيناء، فأطماعهم فيها ثانوية. ولو وضعنا أنفسنا موضع اليهود فليش يرجعوها؟ أنا أقول هذا الكلام للخروج بنتيجة أنّه لا بُدَّ من العمل السياسي وبسرعة. وأنا قلت للملك حسين ما يقطعش علاقاته بأمريكا، وقلت له أن يلجأ إلى كُلّ الوسائل لاستعادة الضفة الغربية شرط عدم التفاوض وعدم الصلح.

«وفي رأيي كُلّ يوم يمرّ على احتلال الضفة الغربية يزيد في تمكين الاحتلال. وأقول إن هناك هدفاً عاجلاً هو تحرير الضفة الغربية على رغم أننا غير قادرين على

ذلك بالقوة العسكرية، ولا بُدَّ من العمل السياسي. ولذلك قلت للملك حسين إن أي شيء من دون الصلح مع إسرائيل لازم يعمل من أجل استرداد الضفة الغربية. وأي تطرف في هذا الموضوع بيضرّ الأمة العربية، وقد تتحول الضفة الغربية كما تحولت الأراضي التي احتلت من زمان.

«وفي رأيي أن يتفق حسين مع الأمريكان على استرجاع الضفة الغربية بأي شكل. بعد كده، موقفنا نحن كدول عربية في الحلّ السياسي والنضال السياسي مختلف عن الملك حسين.

«نحن علاقاتنا سيئة مع الولايات المتحدة، وباستطاعة دول عربية أخرى أن تلعب دوراً في هذا السبيل، وأقترح أن يعمل الملك فيصل اتصالاً مع أمريكا يشرح قضيتنا وموقفنا. أما نحن فسنتصل بروسيا».

وتحدث الملك فيصل، فقال:

«يجب أن يكون موقفنا موحّداً. أنا نصحت جونسون بأن على أمريكا أن تشجب العدوان وتأمر إسرائيل بالانسحاب. وما زلنا نسعى، وقد قلت للإنكليز الكلام نفسه. وكان هذا هو حديثي مع ديغول.

وتناولت الكلام، وقلت:

«أنا أتحدث في هذا الموضوع بعد استماعي إلى كُلّ ما قيل. وأرجو أن أقول لآخر مرة، مستكملاً وجهة نظر المنظمة في الموضوع المعروض الآن. وأرجو ألا يحمل كلامي على محمل التطرف. الآلام التي يتعرض لها شعبنا والأخطار التي تتعرض لها الضفة الغربية تملأ أفكارنا وتفزعنا. أنا لا أخالف في هذا.

«المبادئ الستة التي وضعناها في المذكرة وضعت بعد تفكير جلي ودراسة هادئة. وما أردنا أن تكون هذه المبادئ إلا مكتوبة وبشكل دقيق إلا لأن المنظمة تشعر شعوراً أميناً صادقاً بأن هذه المبادئ هي التي نسترشد بها في حلّ مرحلي أو نهائي.

«نحن متفقون كذلك على انسحاب العدو من الضفة الغربية. هذا لا خلاف عليه. وكذلك نقر بذل الجهد السياسي ممن لهم علاقات بالدول الغربية، وهؤلاء مشكورون على كُلّ ما يبذلون للوصول إلى غايتنا المرجوة للانسحاب من الضفة الغربية وبأسرع ما يمكن. وكذلك إخواننا ممن لهم علاقات مع الشرق والعالم الثالث. لا مانع لدينا بالنسبة إلى الاتصال السياسي من أجل بذل مثل هذه الاتصالات بهدف عودة الضفة الغربية. إنما السؤال الذي أمامنا: ما هو الثمن؟ كلنا نعرف إسرائيل، وأقول بتواضع بأن لي خبرة بما تريد إسرائيل بالمعاناة والممارسة. موقف المنظمة ليس

وراءه العناد، وإنما تقدير مدروس وراءه ممارسة ومعاناة. ولقد قيل إنّه يجب أن نأخذ ونعطي.

«والسؤال ما هو الثمن الذي علينا أن ندفعه لعودة الضفة الغربية؟ فإذا كان الثمن أكبر وأشد خطراً، فنكون قد قبلنا ما لا يجوز قبوله.

«وماذا تريد أمريكا التي اقترحتم أن يتصل بها الملك حسين والملك فيصل، وأمريكا مصممة على النقاط الخمس التي أعلنها جونسون وأهمها تصفية قضية فلسطين؟ فهل نحن مستعدون لموافقة الولايات المتحدة على التصفية النهائية؟ فأمريكا لا تريد عودة اللاجئين، بل تريد وضع حدود ثابتة لإسرائيل. أمريكا لا تقبل، ومعها إسرائيل، إلا الوصول إلى تسوية نهائية للقضية، وهل تظنون أن الضفة الغربية ستعود سلماً؟ . . وكذلك فإن المشروع اليوغوسلافي ينتهي إلى سلم دائم، وإلى تصفية للقضية الفلسطينية. ويطالبنا الوفد التونسي أن نسكت. نحن لا نسكت على الوطن».

وتحدث الرئيس عبد الناصر، وقال:

«أنا بختلف مع الأستاذ الشقيري حول تعبير «التسوية النهائية». التسوية النهائية تعني الجلوس مع إسرائيل ووضع اتفاق نهائي. وأنا لا أوافق على اتفاق نهائي.

«كان عندنا مصيبة، فصار عندنا مصيبتان، وأنا بقول مستعد أنا ادفع ثمن مقابل استعادة الضفة الغربية.

«وأختلف مع الشقيري بأن مشروع تيتو يوصل إلى تسوية».

وتناولت الكلام، وقلت:

«أنا أفهم كلام الرئيس عبد الناصر ولا أخاف منه، لكني لا أستطيع أن أفهم كلام الملك حسين. ولا أظن أحداً يمكنه أن يزاودني على الخوف على الضفة الغربية وأهلها، فهي مسقط رأسي وأهلها أهلي. وأظن أننا نبالغ كثيراً في نتائج الجهد السياسي. إذا أردتم أن ينجح الجهد السياسي، فعليكم أولاً أن تقيموا دولة الاتحاد كما أوضحتها في المشروع الذي قدمته لكم[٢]، وعليكم أن تنشئوا قيادة عسكرية تشمل الدول المحيطة بإسرائيل على الأقل. وإذا كنتم تظنون أن الأمم المتحدة ستعيد إلينا الضفة الغربية في خلال مدة وجيزة كما جرى أيام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، فنحن نجري وراء السراب. نحن لا نستطيع أن نعيد الضفة الغربية عن طريق الأمم المتحدة، لا بأشهر ولا بأعوام ولا بقرون. وإن نصائح الملك فيصل

(٢) الشقيري، **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء**.

للرئيس الأمريكي لا تعيد الضفة الغربية. بالكلام والسياسة لا تعود الضفة الغربية».

وتحدث الوزير الجزائري بوتفليقة، وقال:

«إني أشعر بالرغبة في الحديث، ولكن لا أجد ما أقوله، حتّى بعد ما استمعنا إليه من تفاصيل قيّمة تتعلق بالوضع في الضفة الغربية. إن موقف بلدي معروف. إن القاعدة الوحيدة التي طرحت علينا هي المشروع اليوغوسلافي، وقد نراه مناسباً وقد لا نراه مناسباً.

«وقد كان من الممكن أن يصل إلينا هذا المشروع عبر الأمم المتحدة أو الصحافة بدلاً من الزيارة التاريخية لتيتو. أقول هذا، وما بودي أن أتهرب من المسؤوليات ولا أن أتملص منها، وبودّي أن أقول إن في مشروع تيتو حاجة في نفس يعقوب يلتقي عليها الشرق والغرب. ظاهر جداً أن موسكو وواشنطن بالنسبة اليهم إسرائيل نقطة «توتر» تعرقل مسيرة التعايش السلمي، ولذلك يجب العمل لدفع الدول العربية للاعتراف بها.

«الملاحظة الثانية هي أن تقديم بلغراد لهذا المشروع لنا بهذا الشكل يستهدف أن يتوقعوا على الأقل صمتنا. الصمت رضاء. ومن الممكن أن نرضى بشرط عدم المساس بالجوهر وبالقضية الفلسطينية التي نقول إنها تهمّ بالدرجة الأولى الشعب الفلسطيني. نحن كأمة لنا دور، ولكنها تهم بالدرجة الأولى الشعب الفلسطيني.

«الملاحظة الثالثة هي أن هناك دولاً في المنطقة وقع عليها ضغط شديد وقوي، وهي تشعر بهذا الضغط أكثر من الجزائر. ويكون من اللامسؤولية أن الإنسان البعيد ٤٠٠٠ كيلومتر يعطي النصائح حتّى لو كانت في محلها.

«ولكني أقول إذا كان هذا الوجه الصحيح، فهنالك وجه ثانٍ هو تحمّل المسؤولية لأننا نريدها جماعية لا إقليمية. فنقول إن تفكيرنا الآن مضغوط. كنت أتمنى أن يكون ما ندرسه الليلة مخططاً عربياً لا يوغوسلافياً ولا روسياً.

«والواضح هو الحديث عن حماية الدول الكبيرة لحدودنا، وهذا منطق غريب بالنسبة إلى الأمريكان التي أمامها الصين و٧٠٠ مليون إنسان ولا تريد أن تعترف بها، بينما نحن حياتنا أصبحت مرتبطة بالاعتراف بإسرائيل.

إن تخوفنا على الضفة الغربية كبير، وسمعت أن الدول العربية لا تستطيع استرداد الضفة بالمقاومة. لذلك لجأتم إلى الحل السياسي، إذ يوجد أخذ وعطاء. ولا أعرف إذا كان انفراد الملك حسين يعطيه قوة، اللهم إلا إذا كانت عنده حلول.

«الحلّ إذا فيه أخذ وعطاء يكون سابقة خطيرة، والحل للمشاكل الأخرى قد

يأخذ سنوات طويلة، وهي سابقة قد تجعلنا في حكاية أخذ وعطاء كذلك بالنسبة إلى سيناء والمرتفعات السورية. لذلك نحن الآن في حيرة.

«الهدف نحن متفقون عليه، والاجتهاد صادق من جميع الأطراف، ولكن لزاماً عليّ أن اعترف أن هنالك خلافاً بيننا في الأسلوب، وكنت أؤثر ألا نبحث الموضوع قبل استكماله في عقولنا».

وتحدث د. محمّد بن هيمة وأيّد مشروع الرئيس تيتو، وأعرب عن اتفاقه مع الملك حسين في خطواته للمساومة.

وتكلم الملك حسين وقال: «أريد أن توضحوا لي مسؤولياتي وصلاحياتي. سمعنا من الأخ الشقيري عن المبادئ الستة. وأعود إلى مؤتمر القمة الأول وإنشاء المنظمة وتكليف الأخ أحمد، واليوم نسأل كي نستوضح عن هذه المبادئ الستة، ومن وضعها ومن كتبها؟ مرة أخرى أشعر الآن بصراع: هل أنا مسؤول عن الضفة الغربية والقدس، ولا أقبل أن استأذن من أحد في ما أعمل أو لا أعمل؟».

ووجهت حديثي إلى الملك حسين، وقلت:

«أكرر مرة أخرى أن شعب فلسطين هو صاحب الحقّ، وما من ملك وما من رئيس يملك الحقّ في حلّ قضية فلسطين، وإذا كان المؤتمر سيقتصر على الجهد السياسي من غير التزام بالمبادئ التي ذكرتها، فأنا سأنسحب من الاجتماع».

وتوتر الجو. وأحسّ الرئيس الأزهري أن أزمة تخيم على الاجتماع، فبادر إلى تأجيل الجلسة لتستأنف في اليوم التالي.

وفي الليل، جاءني الوزير العراقي إسماعيل خير الله، والشريف الهندي وزير مالية السودان، ليبحثا معي الموقف، وطال الحديث. وقلت لهما:

«اللاآت الأربع في مذكرتنا: لا صلح، لا مفاوضة، لا تعايش، ولا انفراد بأي حلّ للقضية الفلسطينية، هل أنتم موافقون عليها؟».

قالا: «نعم.. ويجب أن يوافق عليها مؤتمر القمة بالإجماع».

قلت: «سأحضر الاجتماع غداً. وإذا لم يوافق المؤتمر، فسأنسحب».

قال: «ونحن ننسحب معك».

واستؤنفت الجلسة الرابعة في صباح اليوم التالي، وكانت الجلسة الأخيرة.

وبدأ الوزير الليبي د. البشتي، وتكلم كلاماً واضحاً

(وكان ولي عهد ليبيا قد تغيّب عن هذه الجلسة) قال فيه:

«أعرب عن تقديري لتحليلات الرئيس عبد الناصر والملك حسين، هذه التحليلات الصريحة والواقعية التي تتمتع بشجاعة أدبية، كما أودّ أن أعرب عن تقديري للمساهمات التي تفضل بها أصحاب الجلالة والفخامة، إذ من الواضح للجميع أن المقصود هو الانسحاب وأنه لا بُدَّ من دفع الثمن.

«إسرائيل تريد ثمناً، والعالم يطالب ثمناً أقل من هذا. وينبغي أن نصل إلى التفصيلات، ولنسأل عن استعدادنا للثمن الذي سندفعه، وذلك حتّى نقلب الوضع الدولي ضدّ إسرائيل.

«الثمن التي تطلبه دول العالم هو:

١ ـ إنهاء حالة الحرب.

٢ ـ حرية المرور في المياه الدولية.

«هاتان هما النقطتان اللتان يريدهما الرأي العام الدولي. وإذا قبلنا بهما سننال تأييد الكثير من الدول.

«نقطة أخرى أريد أن أقولها وهي أن الرئيس عبد الناصر أيّد المشروع اليوغسلافي، واقترح أن نضع مشروعاً متكاملاً نواجه به الرأي العام. فهل نعتمد المشروع اليوغوسلافي كنقطة أساس، أم نضع مخططاً جديداً؟

«ليبيا ستؤيد أي حلّ سياسي ترتضيه الدول العربية المتضررة. وسنحاول شرح وجهة النظر مع الدول الغربية بحسب توجيهات المجلس الموقّر».

وتدخل الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، فقال:

«لديّ بعض النقاط التي اعتقد أن اتخاذها يعطي الفوز للأمة العربية. إن قدومنا إلى هنا هو للخروج بأشياء عملية. وأعتقد أن أول عمل قمنا به هو أننا أعطينا الإسناد للدول المواجهة لإسرائيل.

«طبعاً هذا العمل غير كافٍ لأنه يجعلهم يبنون وجودهم على قوتهم الحالية، من دون أي تفوق، أي في حالة دفاع. وهذا لن يوصلنا إلى أي نتيجة ويبقينا تحت رحمة الغير.

«فعليه هناك دول عربية أخرى بإمكانها أن تهيئ قوة مناسبة في بلدها تكون جاهزة وحاضرة للانتقال إلى الجبهة في الوقت اللازم. والقوة التي أتخيّلها كما يلي:

١ ـ غرب القنال، لو فرضنا ليبيا ـ هل بإمكانها تجهيز كتيبة دبابات ولواء مشاة مع سرب طائرات مقاتلة؟ هل تستطيع ليبيا تجهيز هذا؟

٢ ـ تونس ـ تجهز الكمية نفسها. هل بإمكانها ذلك؟

٣ ـ وكذلك الجزائر ـ لواءي مشاة، وسربي طائرات.

٤ ـ المغرب ـ مثل تونس وليبيا ـ أي كتيبة دبابات، ولوء مشاة، وسرب طائرات.

٥ ـ السودان ـ لواء مشاة.

«من هذه جميعاً نحصل على لواءين مدرعين، و٦ ألوية مشاة، و٦ أسراب طائرات، وتكون قوة احتياط للجمهورية العربية المتحدة.

«عندئذ يكون ممكناً أن نتعرض بالهجوم خلال سنتين.

«ثُمّ نأتي إلى الجانب الآخر: شرق القنال.

١ ـ السعودية ـ كتيبتا دبابات ـ لواء مشاة ـ سربا طائرات.

٢ ـ الكويت ـ كتيبة دبابات، و٣ أسراب طائرات.

٣ ـ العراق ـ ٣ أسراب طائرات، و٣ ألوية، و٣ كتائب.

«هذا بالإضافة إلى ما هو متيسر في سوريا ولبنان والأردن. . وإذا عملنا بهذا يكون بقدرتنا أن نواجه المشكلة الحالية.

«وبالنسبة إلى العمل السياسي، يحتم الموقف علينا جميعاً أن نعمل لأن نطرق كُلّ باب لتحقيق أهدافنا، على شرط ألا يمس ذلك كرامة العرب أو ما يسمى بتمييع أو تضييع قضية فلسطين. وفي رأيي هذه حلول واقعية يمكننا خلال سنتين من أن نكون في موقف الهجوم لا الدفاع فقط».

وتكلم الرئيس عبد الناصر، وقال:

«من الواضح أن كلام الرئيس عارف يقوّينا جداً حتّى في العمل السياسي، لأن العمل السياسي يتأثر بمواقع الضعف والقوة. بالتدعيم الاقتصادي نكون في مركز أقوى جداً. ويكون معروفاً للدول التي تدعم إسرائيل أنّه إن لم نصل إلى هدفنا بالسياسة، فنصل إليه بالقوة.

«العمل العسكري يستدعي قيادة عربية موحدة. نحن نقول إنه لا بُدّ من المسيرة في طريق النضال السياسي، ولكن يجب أن نستعد لمواجهة النتائج. فكلام الأخ عبد الرحمن يتوقف على إمكانيات كُلّ دولة. لكن إذا أردنا أن نكون أقوياء لازم يكون باين إننا اقتصادياً سنصمد، وعسكرياً نتهيأ للمعركة».

وقال الرئيس الأزهري: «لقد انتهينا من أبحاثنا، ويحسن أن نتجه إلى وضع القرارات».

وقلت: «أنا أذكّر السيد الرئيس بجدول الأعمال. نحن لم ننته من بحث الجدول بكامله».

قال: «وماذا بقي؟».

قلت: «البند الأول يتضمن إزالة آثار العدوان على المستوى العسكري»، والبند الرابع يتضمن: وضع خطة عربية شاملة بعيدة المدى ومتكاملة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لدعم التضامن العربي وتحقيق الأهداف العربية.

وأضفت قائلاً: «إن الرئيس العراقي قد تناول الجانب العسكري ولا أرى أنكم قد توصلتم إلى نتيجة. ولا يصحّ أن ينتهي هذا المؤتمر قبل أن يضع خطة شاملة. ويبدو لي أن حصيلة هذا المؤتمر كُلّه حتّى الآن هي الدعم الاقتصادي لمصر والأردن. وهذا واجب، ولكنه جزء يسير من الموضوع الكبير».

فقال الرئيس الأزهري: «الإخوان عندهم مسؤوليات كثيرة تنتظرهم في بلادهم، وهم يريدون العودة».

قلت: «القضية هي المسؤولية الكبرى. فهل يرسو المؤتمر على تقديم مبلغ ١٣٥ مليون جنيه وانتهى؟ وهذا المبلغ بالنسبة إلى المعركة ﴿**لا يسمن ولا يغني من جوع**﴾[٣] صدق الله العظيم.

فتدخل الرئيس محمّد أحمد محجوب، وقال: «أنا عندي اقتراح بشأن الجوانب السياسية أقرأه عليكم. وهو: «اتفق الملوك والرؤساء على توحيد جهودهم في العمل السياسي على الصعيد الدولي الدبلوماسي لإزالة آثار العدوان وتأمين انسحاب القوات الإسرائيلية المعتدية من الأراضي العربية المحتلة بعد عدوان ٥ حزيران/ يونيو في نطاق المبادئ الأساسية التي تلتزم بها الدول العربية، وهي عدم الصلح مع إسرائيل والاعتراف بها، وعدم التفاوض معها والتمسك بحقّ الشعب الفلسطيني»».

فقفز الملك حسين على قدميه، وقال: «أنا اقترح شطب عدم الصلح لأن هذه العبارة ستضعف موقفنا في الأمم المتحدة».

وقلت: «وأنا أصرّ على بقاء عبارة «عدم الصلح»، وأن يضاف إليها «عدم الانفراد بقبول أية تسوية للقضية الفلسطينية».

---

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة الغاشية،» الآية ٧.

واختل النظام في الجلسة، فراح الملك حسين يتكلم بعصبية ويتحدث عن الخسائر التي حلّت بالجيش الأردني.

ونهضت من مكاني، ومعي أوراقي، وقلت: «أنا لست ملكاً لأحرص على البقاء في الملك، ولست رئيساً لأحرص على البقاء رئيس جمهورية. أنا واحد من شعب فقد كُلّ شيء، ولم يعد لنا ما نخسره، لأننا خسرنا كُلّ شيء. ولكن بقي لنا عقلنا، وكرامتنا وآمالنا. إن الاتجاه العام في هذا المؤتمر لا يشجعني على المشاركة فيه، ولا أستطيع أن أساهم في هذه القرارات. ولذلك فإني أعلن انسحابي من المؤتمر».

وخرجت من الاجتماع. وتركت الملوك والرؤساء يتهيأون لحضور الجلسة الختامية في القاعة التأسيسية وسط مظاهر الحفاوة وتحت أنوار المصورين.

وتُلي البيان المشترك الذي أصدره الملوك والرؤساء معلناً «أن اجتماعاتهم سادها الشعور المشترك بعظيم المسؤولية التاريخية، وقرروا أن إزالة آثار العدوان هي مسؤولية مشتركة بين جميع الدول العربية، وعبّروا عن عزمهم الأكيد على ضرورة مواصلة العمل العربي الموحد من أجل صيانة الحقّ المقدس لشعب فلسطين في وطنه».

وقد مرّ على هذا البيان المشترك ستة أعوام، ولم ير المواطن العربي دليلاً واحداً على العمل العربي الموحد».

وبهذا أصبح البيان المشترك هو الكذب المشترك، كذب اشترك فيه الملوك والرؤساء. ﴿**والله يشهد إنهم لكاذبون**﴾[٤] صدق الله العظيم.

(٤) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ١٠٧.

الصفعـــة الأولـــى.. للملـوك والرؤســاء

إعلان:

«يعقد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية مؤتمراً صحافياً مباشرة بعد انتهاء الجلسة الختامية لمؤتمر القمة العربي في الخرطوم».

كان هذا هو الإعلان الذي ظهر بصورة بارزة في فندق غراند أوتيل في الخرطوم. ولم يكد ينتهي مؤتمر القمة من جلسته الختامية حتّى تقاطر الصحافيون العرب والأجانب إلى الفندق ليستمعوا إلى ما سيقوله رئيس منظمة التحرير في مؤتمره الصحافي.

وفي بداية المؤتمر قرأت بياناً موجزاً أعلنت فيه أن منظمة التحرير الفلسطينية قد انسحبت من مؤتمر القمة «لأنها لا تستطيع أن تشارك في تحمّل مسؤولية الاتجاه العام الذي سار عليه الملوك والرؤساء في معالجتهم موضوع إزالة آثار العدوان. . ذلك أن اجتماعهم لم يضع خطة عربية شاملة، عسكرية واقتصادية وسياسية، لمعالجة الموقف، ولم يلتفت إلى توصيات مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والبترول العرب، مكتفياً بتقديم معونات اقتصادية للدول التي وقع عليها العدوان، والتركيز على الجهود السياسية، بالإضافة إلى رفض بعض المطالب الأساسية لمنظمة التحرير الفلسطيني في ما يتعلق بحل القضية الفلسطينية».

واستغرق المؤتمر الصحافي قرابة ساعتين، والصحافيون الأجانب، بصورة خاصة، يحاورون ويسألون، وأنا أجيبهم كما أريد لا كما يريدون.

وفي نهاية المؤتمر قلت لهم مازحاً: «لا تنسوا أن تذكروا أني انسحبت من مؤتمر الخرطوم لسبب مهم جداً».

قالوا: «ما هو هذا السبب المهم؟».

قلت: «لقد طلبت من الملوك والرؤساء أن يوافقوا على إلقاء اليهود في البحر، ولكنهم رفضوا!».

وانصرف الصحافيون وممثلو وكالات الأنباء إلى الآلات الكاتبة ليكتبوا برقياتهم ورسائلهم إلى صحفهم، وهم يتندرون على موضوع إلقاء اليهود في البحر.

وانصرفت أنا بدوري إلى شرفة الفندق استنشق الهواء العليل، وأنا أحسّ أنني ملكت حريتي وخلعت عن عنقي ثلاثة عشر حبلاً كانت تشدني إلى ثلاثة عشر ملكاً ورئيساً، كُلّ منهم يريد النضال الفلسطيني أن يكون على مزاجه وهواه.

وأقبل عليَّ عدد من الوزراء والسفراء، وكانوا قد انتهوا لتوّهم من الاجتماع الختامي لمؤتمر القمة، فجلسنا معاً، وكان أكثرهم وداً لي وزراء تونس والسعودية والمغرب والأردن.. وراحوا يراجعون الحساب الختامي لما انتهى إليه مؤتمر الخرطوم.

وقالوا: «لقد كشفت مناقشات المؤتمر أن الأخ الشقيري ليس عميلاً لعبد الناصر. والله يا أخي نحن ظلمناك، لا تؤاخذنا».

قلت: «وكيف ذلك؟».

قالوا: «الرئيس عبد الناصر قالها أكثر من مرة أثناء المناقشات. أنا أختلف مع الشقيري».

وأحسست أنهم يريدون التعريض بالرئيس عبد الناصر، وقلت: «الرئيس عبد الناصر شخصية ضخمة، وإنه ليشرفني أن يقول إنه يختلف معي. هذه هي صالة النضال. اختلاف في الاجتهاد القومي، وبخاصة في الأيام السوداء».

قالوا: «الحقيقة، إننا كنا مستغربين أنك كنت تبدي آراء مخالفة للرئيس عبد الناصر. وفي كثير من الأمور كان رأيك هو الأصوب. ولماذا لا تعلن ذلك في مؤتمر صحافي؟».

قلت: «وأنتم، لماذا لم تخالفوا الرئيس عبد الناصر في هذه الآراء، ما دمتم ترونها على صواب؟».

ثُمّ تناول الحديث جوانب أخرى عن مؤتمر القمة، تزيد المرء يقيناً أن الحكم العربي لا يحمل من الأمة العربية إلا اسمها.

وغادرت الخرطوم في اليوم الثاني إلى القاهرة لأقرأ في صحف الصباح أضخم العناوين عن قرارات مؤتمر القمة ونجاحه العظيم الفخيم. وتعليقات الملوك والرؤساء، بما يوحي للمواطن العربي أنها لبضعة أسابيع، أو بضعة أشهر على الأكثر، وستجلو القوات الإسرائيلية عن الأراضي العربية، ويعود الأمر إلى ما كان، وكأن شيئاً ما كان. وفي زاوية مطمورة مغمورة، رأيت في الصحف خبراً يقول بأن

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية قد انسحب من الاجتماع. ولم تذكر الأسباب.

وكانت الصحف في تلك الأيام تحت الرقابة. ولم يكن ينشر فيها إلا التمجيد بمؤتمر الخرطوم، وأنه سيدحر إسرائيل، وسيخرج الزير من البير. . والواقع أن هذه الرقابة لم تكن حماية للعمل الوطني أن تتسرب أخباره إلى العدو، ولكنها كانت حماية للحكم العربي من السقوط. وذلك أن هذه النكبة العربية الكبرى كانت كافية لإسقاط الحكم العربي بأسره، بملكياته وجمهورياته، لو كان المجتمع العربي يعيش في ظلّ الحريات العامة.

وحتى لبنان، واحة الحرية في الوطن العربي، كانت صحفه مدعاة للتفكير، فقد كانت عناوين الصحف مقطعة، تماماً مثل تسلية الكلمات المتقاطعة. فتقرأ العنوان: «لا خلافات بين الخرطوم بشأن. . العسكري»، أو عنواناً ثانياً يقول: «المؤتمر. . مقاطعة. . الأمريكية والبريطانية»، أو عنواناً ثالثاً يقول: «الأرصدة العربية. . المصارف الأجنبية».

وكانت بعض الصحف في بيروت تترك «عموداً» أبيض بكامله، في الصفحة الأولى لتعرب للقارئ العربي عن سخطها على الرقابة. وهو نوع من الاحتجاج الصارخ الصامت لا تملكه الصحف العربية في العواصم العربية الأخرى.

وقد وقعت إذاعة منظمة التحرير في القاهرة تحت الرقابة. . وكنا إلى ذلك الوقت أحراراً في ما نذيع. وأصبحت برامجنا تخضع لمراجعة اثنين من رجال المراقبة، يقرآن ما تذيعه المنظمة قبل إذاعته، للتأكد من أنه ليس فيه تعريض بالحكومات العربية، أو قرارات مؤتمر الخرطوم.

وحتى «النقد الذاتي» الذي كفله ميثاق التضامن العربي أصبح حراماً في الإذاعات والصحف العربية، وهرب المواطن العربي إلى إذاعات إسرائيل ولندن وواشنطن ليسمع الأخبار، محتملاً إزعاج التشويش. فالتشويش أهون من التجهيل.

ولذلك، فقد ظلّ موضوع انسحابي من مؤتمر القمة، بأسبابه وظروفه، بعيداً عن انتباه المواطن العربي، ولم تستطع إذاعة المنظمة أن تخاطب الشعب الفلسطيني والجماهير العربية، لتشرح ما انتهى إليه مؤتمر القمة من نتيجة هزيلة، على حين كانت وسائل الإعلام العربية تتحدث عن إنجازات المؤتمر العظمى، وأن المستقبل القريب كفيل بالكشف عنها.

ومن ذلك أن الإذاعات العربية كانت تتحدث عن قرارات الملوك والرؤساء بفرح وحبور، كأنما تمّ تحرير بيت المقدس. فقد أذاع راديو جدة أن الحكومة السعودية

قررت استئناف ضخّ البترول إلى جميع الدول بناء على قرارات مؤتمر القمة، وأنه فور وصول ناقلات البترول الغربية إلى مرافئ الخليج فإنها ستشحن بالبترول بأسرع ما يمكن، وأن الوضع كُلّه سيعود إلى ما كان عليه قبل الخامس من حزيران/ يونيو (٢/ ٩/ ١٩٦٧). وكانت هذه البشرى في اليوم الثاني من انتهاء المؤتمر.

والواقع أن إذاعة جدة كانت تتطلع إلى مؤتمر القمة في الخرطوم، وقبل شهر من انعقاده لكي يقرر أن المشكلة الأساسية هي «احتلال مصر لليمن» لا احتلال إسرائيل لبيت المقدس. فقد أذاعت تعليقاً مطولاً دعت فيه إلى إنهاء الاحتلال المصري لليمن، وضرورة «جلاء القوات المصرية عن أرض اليمن لتمكين الشعب اليمني من تقرير مصيره بنفسه بحرية كاملة» (٢٧/ ٨/ ١٩٦٧).

أما الملك حسين، فإنه لم يكتف بالدعاية لمؤتمر القمة وإن قراره بشأن البترول صحيح، فقد أدلى بتصريح لوكالة الأنباء الأردنية شجب فيه العمل الفدائي لأنه «يعطي العدو حجة ليقوم بمزيد من البطش والإرهاب في الضفة الغربية» (٤/ ٩/ ١٩٦٧).

إلى جانب أجهزة الإعلام العربية، انطلقت الأوساط الغربية، رسمية وغير رسمية، تقود حملة كبرى، تظهر فيها ابتهاجها للنتائج الباهرة التي توصل إليها الملوك والرؤساء.

ومن ذلك أن جريدة **الغارديان** البريطانية قد أكدت أن استئناف ضخّ النفط «سينفي احتمال اللجوء إلى التقنين في بريطانيا، وأنه سيؤدي إلى استغناء بريطانيا عن نفط فنزويلا الذي يكلفنا ثمناً غالياً» (٢/ ٦/ ١٩٦٧).

وعبّرت جريدة **الصنداي تايمس** عن تقديرها البالغ «للواقعية البناءة التي انتصرت في المؤتمر». . وعلقت جريدة **النيويورك تايمز** بقولها: «إن مؤتمر القمة في الخرطوم يمثل أكثر مؤتمرات القمة واقعية، وقد وصل الأمر بالقادة العرب إلى اتخاذ خطوة متواضعة نحو السلام في الشرق الأوسط، فقد اقترح العرب للمرة الأولى حلاً سياسياً لنزاعهم مع إسرائيل، وإنه من غير الواقعي أن نتوقع من العرب مرونة أكثر من التي أبدوها» (٣/ ٩/ ١٩٦٧).

وذهبت مجلة **نيوزويك** الأمريكية إلى أبعد من ذلك، فقد نشرت مقالة مسهبة عرضت فيها الموقف العربي بالنسبة إلى أزمة الشرق الأوسط في ضوء نتائج مؤتمر الخرطوم، فذكرت أن الموقف العربي في مؤتمر الخرطوم «كان متميزاً بالاعتدال والدعوة إلى الوفاق بين العرب والواقعية حيال إسرائيل، وأن مقررات المؤتمر ستكون بادرة لمواجهة الحقيقة التي يجب في النهاية أن ترغم العرب على العدول عن المواقف التي كانوا يتمسكون بها» (١١/ ٩/ ١٩٦٧).

وليس لنا أن نلوم المجلة الأمريكية في ما ذهبت إليه، فإن اللوم كُلّ اللوم يقع على الملوك والرؤساء الذين أعطوا الرأي العام الدولي ذلك الانطباع بتصريحاتهم وقراراتهم.

ولكن الفرحة الكبرى التي جاءت في أعقاب مؤتمر القمة تجلت عند شركات البترول، فقد كان قرار مؤتمر الخرطوم باستئناف ضخّ البترول بمثابة عرس بهيج لدى ملوك البترول في العالم، فقد علق ناطق بلسان شركة البترول البريطانية بقوله: «إن هذا القرار خطوة كبرى في الاتجاه الصحيح». . وأعلن متحدث باسم شركة شل، بقوله: «إننا نرحّب بهذا القرار أجمل ترحيب». وأعلنت مصادر صناعة النفط الأمريكية «أن هذه الخطة العربية ظاهرة حسنة». وفي ألمانيا الغربية أعلنت المصادر المسؤولة عن «ترحيبها وسرورها بالقرار العربي باستئناف ضخّ البترول. . فإن ذلك سيؤدي إلى تحسن واردات ألمانيا من البترول بعد أن ارتفعت أسعاره بنسبة ١٠ في المائة نتيجة المقاطعة العربية» (١/ ٩/ ١٩٦٧).

ونقلت وكالة رويتر للأنباء عن مسؤولين في وزارة الداخلية الأمريكية قولهم: «إن أزمة البترول التي نجمت عن الحرب في الشرق الأوسط قد انحدرت عن ذروتها» (٦/ ٩/ ١٩٦٧).

وكانت هذه الأفراح والليالي الملاح التي صنعها الملوك والرؤساء العرب للشركات البترولية الاحتكارية العالمية، تماماً في اليوم الذي صدر فيه قرار استئناف ضخّ البترول. .»وانضخَّ» معه المصير العربي والكرامة العربية.

ولم يكن الصعيد الرسمي أقل ابتهاجاً من الصعيد الصحافي بمؤتمر القمة «والنتائج الإيجابية» التي توصل إليها، فقد أعلن وزير الخارجية الأمريكية دين راسك في مؤتمر صحافي، أنّه «لمس اعتدالاً في مؤتمر القمة، وأنه يعتقد بوجه عام أن ثمة دلائل مشجعة».

ولكن هذا «الاعتدال» العربي لم يقابله اعتدال أمريكي، فقد واصل الوزير الأمريكي حديثه قائلاً: «إن موقف الولايات المتحدة لا يزال كما أعلنه الرئيس الأمريكي لندن جونسون في حزيران/ يونيو الماضي على أساس النقاط الخمس المعروفة، وإن الذين يعيشون في المنطقة يتحملون، قبل أي كان، مسؤولية العثور على حلّ المشاكل» (٨/ ٩/ ١٩٦٧). ومعنى هذا الكلام أن الأمر منوط بالنيابة بما توافق عليه إسرائيل. ومعنى ذلك أيضاً أن إيجابية مؤتمر القمة لم تثمر شيئاً.

كان ذلك موقف الخارجية الأمريكية، أما البيت الأبيض، والدبلوماسيون الأمريكيون يحاولون دوماً أن يُميِّزوا بينهما، فقد وضّح في تصريح أدلى به والت

روستو مستشار الرئيس الأمريكي إلى وكالة يونايتد برس (٩/ ٩/ ١٩٦٧) أعلن فيه: «أن الولايات المتحدة مرتاحة لروح الاعتدال المتزايدة، وللتفكير العلمي الذي يتزايد في الشرق الأوسط بصدد حلّ النزاع العربي الإسرائيلي». ولم يكن هذا الموقف أكثر من شهادة حسن سلوك للدولة العربية، تستحق عليه التقدير والثناء، وفي ذلك كفاية، فإنه باقة أزهار لا سلة ثمار.

كان ذلك هو ردّ الفعل الذي تركه مؤتمر الخرطوم عند الدوائر الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة. أما بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي، فقد كان موقفه معروفاً حتّى قبل انعقاد مؤتمر القمة، فقد نشرت جريدة **برافدا** الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي مقالة مطولة ذكرت فيها أن «ثمة ميلاً كبيراً معيناً نحو الشوفينية الوطنية يسود العالم العربي. فهناك زعماء عرب لا علاقة لهم بالحكومات العربية قد ألحقوا أذى بالشعوب العربية بخطبهم غير المدروسة، وأن وجهة النظر الرسمية العربية لا علاقة لها بالنداءات الهستيرية التي يطلقها الصائحون ويدعون فيها إلى القضاء على إسرائيل. إن مشكلة الشرق الأوسط ليست ناجمة عن صراع قومي بين العرب واليهود، فإن السبب الحقيقي هو العدوان الإسرائيلي» (٣/ ٨/ ١٩٦٧).

ولم تكتف جريدة **برافدا** بأنها تريد أن تعلم القمة العربية ماهية الصراع مع إسرائيل، وأن ترى في تحرير فلسطين عملاً هستيرياً، ولكنها راحت في مقالة أخرى تدل قادة العرب على الطريق لإزالة آثار العدوان، فقد نشرت مقالة أخرى بعد ذلك بثلاثة أيام قالت فيها: «إن الوسائل السياسية يجب أن تصبح أهم سلاح لإخراج القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة، وإن أزمة الشرق الأوسط قد زادت نفوذ الطبقات الكادحة في البلدان العربية» (٦/ ٨/ ١٩٦٧). وقد تساءلت وأنا أقرأ هذه المقالة الغريبة: هل نحن الآن بصدد «نفوذ» الطبقات الكادحة أم بصدد «وطن الطبقات الكادحة؟».

كان موقف السياسة السوفياتية قبل انعقاد مؤتمر القمة توكيداً على الطريق السياسي. وتعزز هذا الموقف بعد المؤتمر، فقد قالت جريدة **برافدا** إن «مؤتمر الخرطوم لقي ترحيباً حاراً في الرأي العام التقدمي ومن أصدقاء الشعوب العربية الذين يؤيدونها في حقوقها الشرعية ومصالحها الحيوية». كما أعلنت جريدة **إزفستيا** ضخّ البترول إلى الدول الغربية، وأن مقررات المؤتمر «ذات طابع إيجابي» (٤/ ٩/ ١٩٦٧). وبذلك لقيت الشركات الإمبريالية العالمية الاحتكارية تأييداً لطيفاً من الدول الاشتراكية اللينينية الماركسية.

وكائنة ما كانت ردود الفعل الأجنبية، فقد شاءت الأقدار ألا يكون الوقت

بعيداً لاختبار مؤتمر القمة، «وامتحان» سياسته الإيجابية ومساعيه السلمية. ولم يمض شهران إلا وقد ظهرت نتائج الامتحان، وإن كانت النتائج يعرفها الراسخون في العلم من غير اختبار وامتحان.

وما إن غادر الملوك والرؤساء الخرطوم إلى عواصمهم حتّى بدأوا حملة واسعة عن طريق وزارات الخارجية والسفارات العربية في أرجاء العالم تركز على ضرورة حلّ أزمة الشرق الأوسط بالطرق السلمية، وأن الدول العربية منفتحة على حلّ واقعي معقول.

وبدأت الحملة العربية تمهد الطريق أمام الحلّ السلمي، وتغري الدول الغربية بالعمل على إنجازه، ومن هذه الاغراءات مقالة لمحمّد حسنين هيكل رئيس تحرير **الأهرام**، بعد أسبوع واحد من مؤتمر الخرطوم، نشره في جريدة **الصندي تايمس** البريطانية جاء فيه: «أنّه يرى أن الوقت قد حان لإجراء حوار حقيقي بين بريطانيا والجمهورية العربية المتحدة، وأنه يجب أن نعترف أن لبريطانيا مصالح مشروعة في الشرق الأوسط»

(١٠/ ٩/ ١٩٦٧). وقد كانت بريطانيا قبل أسبوع واحد فقط إحدى دول العدوان، وأصبح لها بعد قمة الخرطوم «مصالح مشروعة في الشرق الأوسط».

وفي نطاق هذه الحملة نشرت جريدة **الأهرام**، باعتزاز وتفاخر، خبراً يقول: «إن فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك السعودية قام أخيراً باتصال مع لندن جونسون الرئيس الأمريكي بناء على تكليف من مؤتمر القمة العربي في الخرطوم، وذلك لشرح وجهة النظر العربية في أزمة الشرق الأوسط» (١٤/ ٩/ ١٩٦٧). وقد فات **الأهرام** والملك فيصل معاً أن وجهة النظر العربية معروفة لدى البيت الأبيض منذُ الاجتماعات التاريخية التي جرت بين الملك عبد العزيز آل سعود والرئيس الأمريكي روزفلت في أواسط الأربعينيات[1]، وأن المطلوب من الملك فيصل في هذه المرحلة أن يخاطب الولايات المتحدة عن طريق مصالحها في المملكة العربية السعودية، ولا طريق سواه.

أما الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، وهو صاحب الآراء الفريدة بشأن القضية الفلسطينية، فقد عالج الحلّ السلمي من زاوية أدعى إلى التسلية. فقد قال في مقابلة أجرتها معه الإذاعة الفرنسية بشأن أزمة الشرق الأوسط: «إن على الدول العربية قبول

(١) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قرار الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧، وإن إسرائيل سترفض هذا الاقتراح، وحينئذ إذا أردنا أن نخوض الحرب فسنخوضها ومعنا قرار الأمم المتحدة، بينما تكون إسرائيل ضدّ قرار الأمم المتحدة» (١٥/ ٩/ ١٩٦٧). ونحمد الله أن الرئيس بورقيبة لم يتبع مثل هذه الخطة بالنسبة إلى الكفاح التونسي، فقد خاض الشعب التونسي معارك باسلة ضدّ الاحتلال الفرنسي ولم يكن معه قرار من الأمم المتحدة. وكُلّ ما كان معه هو إيمانه المطلق بالحرية، وتعلقه الرفيع بالتراب التونسي.

وانطلق الملك حسين في جولته المرتقبة، الجولة التي قال عنها في مؤتمر القمة في الخرطوم بأنها ستكون تحت راية الاعتدال والإيجابية المعقولة، وباسم الملوك والرؤساء، وعزم على السفر إلى موسكو.

ومهَّد الملك حسين لسفره بحديث لهيئة التلفزيون البريطانية قال فيه: «إن تشجيع أعمال التخريب (الأعمال الفدائية) لم يكن من سياستنا أبداً، سواء في الماضي أو الحاضر، وإن على الدول العظمى التزامات أدبية بوجوب تحقيق تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط، وإنه وجد أكثرية من زعماء العرب تؤيد انتهاج خطّ الاعتدال» (٢/ ١٠/ ١٩٦٧). والملك حسين لم يكن في حاجة إلى هذا الحديث، فما إن وصل إلى موسكو حتّى استقبله نيقولاي بودغورني، وأكد له على مأدبة العشاء التي أقيمت على شرفه «أن الاتحاد السوفياتي يقف إلى جانب العرب ضدّ العدوان الإسرائيلي وضرورة الوصول إلى تسوية سلمية لأزمة الشرق الأوسط».

ولم يكن المجال متاحاً بصورة كاملة أمام الملك حسين أن يتحدث طويلاً في موسكو فإن حملاته على الاتحاد السوفياتي لم تكن بعيدة العهد، والاتحاد السوفياتي نفسه قد انفتح حديثاً على الملوك، وليس عهده بعيداً بالحملة على الملك حسين بأنه رجعي وعميل للاستعمار البريطاني سابقاً، والأمريكي لاحقاً.

ولكن مجال الملك حسين كان في الولايات المتحدة، فما إن وصل إلى نيويورك حتّى تلقفته أجهزة الإعلام الأمريكية. فأعلن في أول مقابلة تلفزيونية «أنّه سيعرض على المسؤولين الأمريكيين موقفاً عربياً معقولاً، وأن العرب مستعدون للاعتراف بإسرائيل وبحق إسرائيل في استعمال قناة السويس ومضائق تيران إذا ما حصلوا على شروط مناسبة. . وأنه يعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر سيمنح إسرائيل الحقّ في استخدام قناة السويس ومضائق تيران في خليج العقبة إذا ما تحققت لذلك الظروف المناسبة» (١٥/ ١١/ ١٩٦٧)، وإنها لنكبة أن يتحدث الملك حسين باسم الرئيس عبد الناصر.

وفي اليوم الثاني وصل الملك حسين إلى واشنطن واجتمع بوزير الخارجية الأمريكي دين راسك اجتماعاً مطولاً صرح على أثره أن الدول العربية مستعدة للقيام

بتنازلات مهمة في سبيل الوصول إلى حلّ عادل ودائم لأزمة الشرق الأوسط، وأن العرب على استعداد لإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل والاعتراف بحقها في العيش بسلام وأمن، والسماح لها بالمرور في قناة السويس وخليج العقبة، وأن الموقف العربي منطقي للغاية، وأنه على اتصال مع الرئيس جمال عبد الناصر، وأن وجهتي النظر الأردنية والمصرية متقاربتان تماماً، وأن الصياغة التي توضع بها قضية الاعتراف بإسرائيل صياغة خاطئة، فإن على العالم أن يسأل إسرائيل: «هل تعترف بحقّ العرب في الوجود؟» (١٦/ ١١/ ١٩٦٧). واهتزت الخرطوم إلى منابع النيل، والملك حسين يتحدث ويطالب باسم مؤتمر الخرطوم أن تعترف إسرائيل بحقّ العرب في الحياة.

وفي نادي الصحافة في واشنطن ألقى الملك حسين خطاباً أعلن فيه أن هناك دلائل مشجعة للعثور على طريقة لإنهاء المأزق العربي ـ الإسرائيلي، وأن العرب يتبنون اتجاهاً جديداً إيجابياً نحو سلام دائم في الشرق الأوسط، وأن العرب متلهفون إلى بذل أقصى الجهود في سبيل الوصول إلى تسوية عادلة ودائمة، وأنه لا يتكلم باسم الأردن وحده وإنما باسم الأمة العربية، وأن اتهام العرب لأمريكا وبريطانيا بمساعدة إسرائيل خلال الحرب كان خطأ يؤسف له، وأنه في حالة نشوب الحرب مرة أخرى فلن يضع الجيش الأردني تحت إمرة ضابط مصري، وأنه دخل الحرب رغماً عن إرادته» (٧/ ١١/ ١٩٦٧)، والأمة العربية تسمع هذا الكلام وهي تنادي: «وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا».

واستقبل الرئيس الأمريكي لندن جونسون الملك حسين. وطبيعي أنّه سمع من الملك الأردني حديثاً أدنى بكثير من أحاديثه العلنية، ومع هذا فقد صرح الناطق بلسان البيت الأبيض «أن الملك حسين موجود للبحث في العناصر الأساسية لموقفنا وموقفه وكيفية تحقيق سلام في الشرق الأوسط، وأنه لن يصدر بيان رسمي من البيت الأبيض عن زيارة الملك للولايات المتحدة» (٩/ ١١/ ١٩٦٧).

وطار الملك حسين بعد ذلك إلى باريس ومنها إلى لندن، وقال فيها ما قال في الولايات المتحدة. وعاد إلى عمّان بعد رحلة استمرّت ستة أسابيع عرض خلالها الخطّ «الإيجابي المعقول»، لنرى ماذا أثمرت جهوده وجهود غيره من قادة العرب الذين وضعوا منهج الحلّ السلمي في مؤتمر الخرطوم.

وكان ميدان التجربة الرئيسي في الأمم المتحدة. فقد انعقدت الدورة العادية التي تعلقت عليها كُلّ آمال الملوك والرؤساء في الخرطوم.

ومن المفجع حقاً أن يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة كان أرحم بالقضية العربية من قادة العرب أنفسهم، فقد تضمن تقريره الذي قدمه إلى الجمعية العامة

بشأن الشرق الأوسط ستة مبادئ أساسية، من ضمنها: عدم قبول احتلال دولة بالقوة العسكرية أراضي دولة أخرى، وأن للاجئين الفلسطينيين العرب حقاً طبيعياً في أن يكونوا في وطنهم، وأن يكون لهم مستقبلهم، وأن الأمم المتحدة لا تستطيع أن تتساهل بمبدأ عدم الاعتراف بالمكاسب الناتجة من احتلال الأراضي، ثُمّ أشار في تقريره إلى أن حوالى ٣٥٠ ألف شخص هربوا خلال الحرب وبعدها (حتّى أول أيلول/ سبتمبر) من المناطق التي تحتلها إسرائيل، وأن القنطرة قد بقي من سكانها حوالى ٢٠٠ شخص، وكان عددهم يتراوح بين عشرين إلى ثلاثين ألفاً. ولم يكن للجهد العربي فضل في النواحي الإيجابية لهذا التقرير، ولكنه كان جهداً شخصياً ليوثانت الذي تعرّف على القضية الفلسطينية منذُ كان مندوباً دائماً لبلاده في الأمم المتحدة.

ولكن الخطب في الجمعية العامة كانت في اتجاه آخر، ولم تبال بمؤتمر الخرطوم ولا بالسياسة «الإيجابية العاقلة الواقعية» التي أعلنها للعالم الملك حسين وغيره من قادة العرب.

وبدأت ترد على مكتب المنظمة محاضر الجمعية العامة، ومنها خطب الوفود. وبدأت أقرأ. ولم يكن غريباً ما قرأت. ولعله بدا غريباً للملوك والرؤساء إذا كانوا قد قرأوا. فقد جاء البرهان تلو البرهان: إن «واقعية» مؤتمر الخرطوم لم تأت بأية نتيجة، ولن تأتي.

فهذا رئيس الوفد الأمريكي غولدبرغ يعلن من منبر الأمم المتحدة أنّه «يجب نبذ حالة الحرب بين العرب وإسرائيل، وأن سحب القوات المسلحة يجب أن يكون في إطار السلام، وأن مشكلة اللاجئين يجب الاهتمام بها من قبل جميع دول المنطقة، وأنه يجب ضمان حرية الملاحة في الممرات الدولية، وأن.. وأن..» إلى آخر العبارات الإسرائيلية العبرية، مكتوبة باللغة الأمريكية.

وهذا جنس كراغ رئيس حكومة الدانمارك ووزير خارجيتها، يسير في فلك الحلول الأمريكية مع التركيز على أن أطراف النزاع يجب أن يصلوا إلى اتفاق لحل مشاكلهم بأنفسهم.

وتحدث وزير خارجية السويد في الاتجاه نفسه مشدداً على حقّ كُلّ دولة في المنطقة بأن تعيش بأمن وسلام.

وخطب وزير خارجية اليابان داعياً إلى مفاوضات بين الدول العربية والحكومة الإسرائيلية عن طريق وساطة من قبل فريق ثالث.

وألقى أندريه غروميكو كلمة مسهبة كرر فيها مطالبه التي قدمها إلى الجمعية العامة في دورتها الطارئة قبل شهرين، وأنه يجب فرض عقوبات على إسرائيل إذا تخلفت عن تنفيذ القرارات الخاصة بالقدس.

وخطب الوزير الإسرائيلي أبا إيبان، فأعلن رفض إسرائيل القاطع للعودة إلى الوضع الذي كان في ٥ حزيران/ يونيو، وأن التاريخ يدعو إلى السير إلى الأمام لا إلى الخلف، وأن إسرائيل تصرّ على التفاوض من أجل عقد معاهدات تحلّ محل وقف إطلاق النار، وأن الوزير السوفياتي غروميكو قد عرض البضاعة نفسها التي عرضها في الدورة الطارئة، ورفضتها الجمعية العامة.

وتحدث وزير الخارجية البريطانية جورج براون معرباً عن أسفه لأنّه انقضت ثلاثة أشهر على الحرب العربية ـ الإسرائيلية من دون أن تجد الأمم المتحدة حلاً، وأنه لا يمكن التوصل إلى حلّ دائم لمشكلة الشرق الأوسط إلا من خلال الأمم المتحدة.

ودعا الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت إلى وليمة عشاء وزراء الدول العظمى الأربع: الأمريكي دين راسك، والبريطاني جورج براون، والفرنسي كوف دي مورفيل، والسوفياتي أندريه غروميكو، وبحثوا على مائدة الطعام قضية الشرق الأوسط، وشبعوا طعاماً وكلاماً على غير جدوى.

وخطب بول مارتن وزير خارجية كندا، وأكد أن انسحاب القوات الإسرائيلية يجب أن يقرن بحل المسائل السياسية الأخرى، وإنهاء حالة الحرب، والاعتراف بحقّ إسرائيل في الوجود والأمن، والمرور البريء في قناة السويس وخليج العقبة، وحل مشكلة اللاجئين بالتوطين أو التعويض.

وألقى وزير خارجية فرنسا كوف دي مورفيل خطاباً أعلن فيه أنّه رغماً عن أن مؤتمر الخرطوم قد أقرّ الحلّ السياسي، فإن الأمم المتحدة يجب أن تقوم بدور أساسي في الوصول إلى تسوية سلمية للنزاع العربي ـ الإسرائيلي.

وهكذا تكلم ما يزيد على مائة وزير خارجية باسم حكوماتهم يعربون عن وجهة نظر بلادهم في ما يتعلق بمشكلة الشرق الأوسط، وهم ما بين مؤيد للموقف العربي، ومؤيد لإسرائيل، أو متذبذب بيننا وبين إسرائيل، يخطب معنا، ثُمّ يصوت مع إسرائيل، أو يستنكف عن التصويت، أو يكون في كافتيريا الأمم المتحدة حين تتم عملية التصويت. فإن جلسته على كأس من الشراب مع إحدى الغانيات اللعوبات أجدى من الشرق الأوسط وما فيه من مقدسات.

ولم تتخلف الوفود العربية في تلك الدورة عن عرض البضاعة العربية الجديدة

التي صنعها مؤتمر الخرطوم «بالإيجابية والمعقولية والواقعية»، فقد كانت خطب وزراء الخارجية العرب تشدد على السياسة العربية الجديدة، والأمثال كثيرة.

فالوزير اللبناني د. جورج حكيم أدلى بتصريح لدى وصوله إلى نيويورك لحضور اجتماعات الأمم المتحدة قال فيه: «إن الدول العربية اختارت طريق الاعتدال، وأعطت الأفضلية للعمل السياسي، وإن أمام الأمم المتحدة فرصة أفضل لحل مشكلة الشرق الأوسط».

وأعلن الوزير التونسي الحبيب بورقيبة الابن: «أن أي حلّ لأزمة الشرق الأوسط يجب أن يأخذ بعين الاعتبار وقائع العصر، وأن تونس تفهم القلق الذي يساور البعض لإقناعهم بعدم العودة إلى خطوط ما قبل الخامس من حزيران/ يونيو». وكان خطاب الوزير الولد أهون شراً من حديث الرئيس الوالد الحبيب بورقيبة الذي أدلى به إلى مجلة **شترن** الألمانية، وأعلن فيه أنّه «مستعد للتوسط بين العرب وإسرائيل»، كأنه ليس فريقاً في هذه القضية.

وتكلم الوزراء العرب الآخرون حول هذه المعاني، وعباراتهم تنمّ عن الواقعية والإيجابية والتسوية السلمية.

وانتهت خطب الخطباء، ودبلوماسية الوزراء، وجاء دور تقديم مشروعات القرارات، فإن كُلّ قضية لا بُدَّ من أن تنتهي إلى قرار يصدر عن الأمم المتحدة يكون بمثابة حكم تنطق به المنظمة الدولية، حكم ولكنه على الورق، ومن شاء رضي، ومن شاء رفض. فهذه هي الأمم المتحدة!

ومشروع القرار الوحيد الذي عرض على الجمعية العامة كان المشروع البرازيلي، ونصّ على تسوية أزمة الشرق الوسط وفق المبادئ التي أعلنتها الولايات المتحدة.

ورأى الوزراء العرب بأم أعينهم ووالد أسماعهم أن الجمعية العامة لن تفعل لهم شيئاً، وأن الآمال التي يسير بها ملوكهم ورؤساؤهم في مؤتمر الخرطوم إنما هي سراب، وها قد مضت ثلاثة أسابيع من الجدال والحوار في ٢١/ ٩/ ١٩٦٧ على غير طائل، فوجد أهل «الفتوى» في الأمم المتحدة حلاً يستر وجه الدول العربية، فأعلن رئيس الجمعية العامة «أنّه بعد مشاورات ومداولات بين مختلف الوفود اتفق الرأي على تأجيل اجتماعات الجمعية العامة إلى أجل غير مسمى».

وهكذا سجل تاريخ الأمم المتحدة الصفعة الأولى للملوك والرؤساء العرب. وانصرفت الجهود بعد ذلك إلى مجلس الأمن، لعله يجد لنا من أمرنا مخرجاً. ومجلس الأمن هو الهيئة التنفيذية للأمم المتحدة، كما ينصّ الميثاق على الأوراق.

وبدأت قصة جديدة في مجلس الأمن، أشبه ما تكون بالدراما، ذات فصول، وأبطال، ومسرح، ودهاليز وراء الكواليس.

وأنا أناشد المواطن العربي أن يصبر معي بعض الوقت حتّى نتابع مجلس الأمن في إجراءاته إلى النهاية، فقد أصدر القرار المشؤوم رقم (٢٤٢) تحت وطأة المساومات والمؤامرات، وفرضت أجهزة الإعلام العربي ستاراً من التعتيم على مداولات مجلس الأمن، ولم تنشر منها إلا ما خدع الجماهير العربية. وها هي المحاضر أمامي.

تشاور أعضاء مجلس الأمن في ما بينهم للاتفاق على إرسال وسيط دولي إلى الشرق الأوسط. ولكن إسرائيل أصرّت على إجراء مفاوضات مباشرة بينها وبين الدول العربية. وقد تقدمت الدانمرك بمسودة قرار تقترح فيه «سحب القوات إسرائيلية إلى حدود آمنة». ولكن إسرائيل أصرّت على أن تكون العبارة «حدود آمنة ومتفق عليها» (٢٦/ ١٠/ ١٩٦٧). وواضح أن العبارة في مجموعها تعني أن إسرائيل تنسحب إلى حدود آمنة ومتفق عليها، والاتفاق بالضرورة هو بين إسرائيل والدول العربية. وهذا هو مربط الفرس، كما يقول العامة، أو بيت القصيد كما يقول المثقفون.

وتقدم الوفد الهندي بمشروع معتدل أقرب ما يكون إلى وجهة النظر العربية، وتألفت لجنة من الأعضاء العشرة غير الدائمين في مجلس الأمن للتوفيق بين المشروعين الدانماركي والهندي، ولكن الضغوط التي قام بها الوفد الأمريكي حالت دون نجاح هذه المحاولة (٢٨/ ١٠/ ١٩٦٧).

وتقدمت بعض الدول الأفريقية والآسيوية واللاتينية بمسودة قرار، كما تقدمت كندا والدانمارك بمسودة قرار آخر. وتألفت لجنة ثلاثية من مندوبي الهند والأرجنتين والدانمارك للتوفيق بين المشروعين الجديدين، ولكن المحاولة باءت بالفشل لأن أمريكا واصلت ضغوطها المعروفة (٢/ ١١/ ١٩٦٧).

ولم يكن أمام رئيس مجلس الأمن، ممثل مالي، إلا أن يعلن أنّه «نتيجة فشل جميع المحاولات التي بذلت من قبل الأعضاء العشرة، واللجنة الثلاثية، أصبح لا بُدّ من أن تقوم الدول الأربع الكبرى بمسؤولياتها، وعليها أن تتشاور في ما بينها وتصل إلى اتفاق» (١٣/ ١١/ ١٩٦٧).

وعقد مجلس الأمن جلسة مستعجلة بناء على طلب من وفد الجمهورية العربية المتحدة، لتحريك القضية، وتقدمت الهند ومالي ونيجيريا بمشروع قرار يتفق إلى حدّ بعيد مع وجهة النظر العربية، فتقدّم الوفد الأمريكي بمشروع قرار مضاد يؤيد وجهة النظر الإسرائيلية، ولم يستطع المجلس أن يصل إلى نتيجة (٧/ ١١/ ١٩٦٧).

وعقد مجلس الأمن جلسة مستعجلة أخرى بناء على طلب وفد الجمهورية العربية

المتحدة، واستمرت طيلة الليل إلى الصباح، وألحّ محمود رياض وزير خارجية جمهورية العربية المتحدة على المجلس أن يتخذ قراراً بعد أن مضت «خمسة أشهر على الاحتلال الإسرائيلي». وأيده في طلبه مندوبو الهند ونيجيريا والاتحاد السوفياتي. وتحدث بعدهم المندوبون الآخرون، كُلّ منهم يعالج القضية من زاويته، كأنما أصبح الوطن العربي سلعة «بايظه» يسومها كُلّ مفلس (٩/ ١١/ ١٩٦٧).

واستأنف مجس الأمن اجتماعاته في الأسبوع التالي، واستمع إلى الوزير الإسرائيلي وهو يعلن «أن إسرائيل لا تتعاون مع أي وسيط دولي يعينه المجلس إلا إذا كانت صلاحياته تتفق مع سياساتنا وموقفنا من المفاوضات المباشرة مع العرب، وأن إسرائيل ستتحفظ على وقف إطلاق النار إلى أن تحل محلّه معاهدات صلح». ورد عليه الوزير الأردني عبد المنعم الرفاعي مكرراً الموقف العربي بالانسحاب من غير قيد أو شرط، وتكلم بعد ذلك مندوبا بلغاريا والهند، ولم ينته المجلس إلى شيء، وتأجل الاجتماع يومين آخرين (١٣/ ١١/ ١٩٦٧).

وانعقد مجلس الأمن في الموعد المحدد، وفي بداية الجلسة طلب مندوب البرازيل رفع اسمه من قائمة المتكلمين، وكان من المتوقع أن يتكلم ليقدم مسودة قرار تشترك فيه البرازيل والأرجنتين، وأعلنا عدولهما عن تقديم مشروعهما بناء على تعليمات من حكومتيهما. وقد عرف في ما بعد أن البرازيل والأجنتين قد اتخذتا هذا الموقف بعد أن تلقتا رسالة من رئيس إسرائيل زالمان شازار. وتكلم في الجلسة أديب الداوودي رئيس الوفد السوري مكرراً الموقف العربي بصورة انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة، واشترك في المناقشة مندوبو أمريكا وروسيا وكندا، وطلب الوفد البريطاني تأجيل الجلسة ٤٨ ساعة لمزيد من المشاورات الجانبية. وتأجلت الجلسة.

وأستأنف المجلس اجتماعه في المساء، وظلّ منعقداً طوال الليل. وتقدم اللورد كارادون بمشروع قرار وصفة «بأنه محاولة عادلة ومخلصة لحل النزاع». وتلا مشروع القرار بنصه الكامل. وتحدث محمود رياض وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة مكرراً الموقف العربي أو رفضه. وتكلم بعده الوفد الكندي، فطلب تأجيل الاجتماع يوماً واحداً، فكان ذلك (١٦/ ١١/ ١٩٦٧).

واجتمع مجلس الأمن ليلة أخرى، في الموعد المحدد، فطلب رئيس وفد بلغاريا تأجيل الجلسة يومين آخرين لمزيد من المشاورات والدراسات، فوافق المجلس (١٧/ ٦/ ١٩٦٧).

واجتمع مجلس الأمن ليلة أخرى، في الموعد المحدد، وخطب الوفد الأمريكي مؤيداً «المشروع البريطاني» ووصفه بأنه يفتح عهداً جديداً في الشرق الأوسط، وأعلن

للمجلس أن الولايات المتحدة ستمارس نفوذها الدبلوماسي والسياسي لتأييد المشروع البريطاني لتحقيق تسوية عادلة ومتوازنة. وطلب رئيس وفد بلغاريا تأجيل الجلسة يومين آخرين، فوافق المجلس على ذلك (٢٠/ ١١/ ١٩٦٧).

وجاءت الليلة الحالكة الحاسمة، فعقد مجلس الأمن جلسته، وكانت الأخيرة، فأعلنت وفود الهند ومالي ونيجيريا سحب مشروعها المشترك، كما أعلن الوفد الأمريكي سحب مشروعه، وذلك لإتاحة الفرص أمام المشروع البريطاني. وطرح المشروع البريطاني للتصويت، فتمت الموافقة عليه بالإجماع (٢٢/ ١١/ ١٩٦٧).

وكرر الوفدان المصري والأردني مواقفهما السابقة ولم يقبلا ولم يرفضا. وكذلك فعل الوفد الإسرائيلي.

وتلحّ عليّ مذكراتي، ولأسباب سأذكرها، أن أضع أمام المواطن العربي النصّ الكامل للقرار البريطاني الذي أصبح قرار مجلس الأمن ويحمل رقم (٢٤٢) تاريخ ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧.

وهذا هو القرار:

«إن مجلس الأمن

ـ إذ يعبر عن قلقه المستمر للموقف الخطير في الشرق الأوسط.

ـ ويؤكد عدم شرعية الاستيلاء على أراض عن طريق الحرب، والحاجة إلى سلام عادل ودائم تستطيع أن تعيش فيه كُلّ دولة في المنطقة.

ويؤكد أيضاً أن جميع الدول الأعضاء عندما قبلت ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالتصرف وفقاً للمادة الثانية منه.

١ ـ يؤكّد أن تطبيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط، وهذا يقتضي تطبيق المبدأين التاليين:

أ ـ انسحاب القوات الإسرائيلية من أراض احتلتها في النزاع الأخير.

ب ـ أن تنهي كُلّ دولة حالة الحرب، وأن تحترم وتقر الاستقلال والسيادة الإقليمية والاستقلال السياسي لكُلّ دولة في المنطقة وحقها في أن تعيش في سلام في نطاق حدود مأمونة ومعترف بها متحررة من أعمال القوة أو التهديد بها.

٢ ـ ويؤكد أيضاً الحاجة إلى:

أ ـ ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب ـ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج ـ ضمان حدود كُلّ دولة في المنطقة واستقلالها السياسي عن طريق إجراءات من بينها إنشاء مناطق منزوعة السلاح.

٣ ـ يطلب من السكرتير العام أن يعينّ ممثلاً خاصاً إلى الشرق الأوسط لإقامة اتصالات مع الدول المعنية بهدف المساعدة في الجهود للوصول إلى تسوية سلمية ومقبولة على أساس النصوص والمبادئ الواردة في القرار.

٤ ـ يطلب من السكرتير العام أن يبلغ المجلس بمدى تقدم جهود المبعوث الخاص في أقرب وقت ممكن».

هذا هو القرار الشهير الذي أصدره مجلس الأمن، وكنت في ليلة إصداره أتابع الإذاعة الأمريكية وهي تنقل نصّ القرار باللغة الإنكليزية، ثُمّ تعيد إذاعته من حين إلى حين، والخوف ينشب مخالبه في نفسي، والذين يعرفون هم الذين يخافون.

وكتمت مخاوفي حتّى الصباح إلى أن صدرت صحف القاهرة. وأقبلت على صحيفة **إجيبشن غازيت** التي تصدر بالإنكليزية لأقرأ قرار مجلس الأمن، فتحققت مخاوفي.

رأيت أن قرار مجلس الأمن قد أعطى ـ هنا أتحدث بمنتهى الدقة والتحديد ـ قد أعطى إسرائيل أكثر مما تريد، وأعطانا أقل ما نريد.

لقد أعطى لإسرائيل ما يأتي:

١ ـ إنهاء حالة الحرب.

٢ ـ وأن نعترف لها بحدود آمنة متفق عليها.

٣ ـ وأن نلتزم بحقّ إسرائيل في أن تتحرر من أعمال القوة أو التهديد بها.

٤ ـ وأن نضمن حرية الملاحة لإسرائيل في قناة السويس وخليج العقبة.

وهذه هي كلها المطالب الأساسية التي تؤكد عليها إسرائيل، وأية واحدة منها هي تصفية كاملة للقضية الفلسطينية، وطناً وشعباً، وتصفية كاملة للصراع العربي ـ الإسرائيلي برمته.

وحتى كفاح الشعب الفلسطيني لن يكون له مجال في الوطن العربي، بل إنه ليس لأية إذاعة عربية أن تصف إسرائيل بأنها «العدو». هذا هو قرار مجلس الأمن.

وكُلّ ما أعطاه قرار مجلس الأمن للأمة العربية، أمران:

الأول: الانسحاب. ولكن لا من «الأراضي» ولكن من «أراضٍ»، يضاف إلى ذلك أنّه انسحاب إلى حدود آمنة متفق عليها.

الثاني: تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين. وهذه عبارة يعرف رعاة الإبل في الصحراء أنها لا تعني شيئاً. وقد ثبت ذلك في العشرين سنة الماضية من حياة الأمم المتحدة.

وموضوع «الأراضي» أو «أراض» له حكاية لا بُدَّ من أن نقف عندها بعض الشيء، لأن أجهزة الإعلام العربي قد حجبتها عن الأمة العربية، بل وهذا هو الأنكى، أن الصحافة العربية، وهي صحافة الدولة في معظم الأقطار العربية، قد نشرت القرار البريطاني بما يوحي بأن مجلس الأمن قد طلب إلى إسرائيل «الانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة»، مع أن كلمة «جميع» و«أل» التعريف غير واردة أصلاً في القرار البريطاني.

وخلاصة الحكاية أن اللورد كارادون حين قدم مشروعه إلى مجلس الأمن قد حرص على أن تكون كلمة «أراضٍ» من غير «أل» التعريف. وقد ظن أصحاب النيات الطيبة أن الأمر لا يعدو أن يكوِّن خطأ مطبعياً، فليس من المعقول أن يجنح الوفد البريطاني إلى هذا الخطأ الصغير بحروفه، الكبير بمعناه.

وكان أن اتصلت الوفود العربية باللورد المندوب البريطاني وطلبوا إليه أن يضع كلمة «The» (أل) التعريف قبل كلمة «أراضي» حتّى يكون الانسحاب شاملاً لجميع الأراضي العربية المحتلة. ولكن المندوب البريطاني رفض الاقتراح العربي، وضنت بريطانيا على الأمة العربية بـ «أل» التعريف!

وأثير الموضوع مرة أخرى في مجلس الأمن، وبطريقة أخرى، فقد طلب مندوب الهند أن يسجل المندوب البريطاني في محضر الجلسة أن مشروعه يعني الانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة. ولكن المندوب البريطاني تجاهل الطلب الهندي واكتفى بالقول إن مشروعه متكامل، ويجب أن يفسر في مجموعه، لا فقرة فقرة.

ومن الأسرار الأخرى أن عبارة «حدود آمنة ومعترف بها» هي صياغة إسرائيلية اقترحها وزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبان، وكان كما أراد.

وعبارة «معترف بها» تفرض على الدول العربية أن تعترف بحدود إسرائيل، ومنذُ أن نشأت الأمم المتحدة لم تفرض على أية دولة أن تعترف بدولة أخرى، أو تعترف بحدودها. كما أنها لم تضع لها حدوداً، وأن تكون هذه الحدود آمنة. وطبعاً، فإن إسرائيل هي التي تقرر أين هي الحدود الآمنة، وعلى الدول العربية أن توافق

وتعترف . . فإن لم يتم الاتفاق والاعتراف فستظل الأرض العربية تحت الاحتلال.

هذا هو قرار مجلس الأمن، ومن لم يعرف ذلك، فليقرأ وليتعلم.

وكان آخر الأسرار أن المشروع البريطاني كانت تجري صياغته وراء الكواليس، وقد وافق على كلماته، وعباراته، وفواصله، ومقاطعه، كُلّ من الاتحاد السوفياتي وأمريكا وفرنسا وبريطانيا وإسرائيل.

ولم تكن الوفود العربية تطلع على الصياغة. فالاتحاد السوفياتي كان يمثلها، وفي ذلك كفاية. فهو الوكيل وهو الأصيل!

كانت هذه «الأسرار» غائبة عن أبصار الأمة العربية وآذانها، فلم تقرأها ولم تسمعها، لأن الأجهزة العربية لم تحجبها فحسب، ولكنها كانت تحمل الطبل والمزمار، والصنوج والدفوف، في عرس كبير احتفالاً بقرار مجلس الأمن.

والذين يعرفون السياسة البريطانية الماكرة البارعة يستذكرون الصياغات البريطانية بشأن القضية الفلسطينية على مدى خمسين عاماً، وكيف كانت تدسّ السم بالكلمة، وتغلف النكبات بالعبارات، ثُمّ تنشر البخور بين السطور.

وهذا وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧، ألم يخترع عبارة «الوطن القومي اليهودي» مشروطاً بالحقوق المدنية «للجماعات غير اليهودية في فلسطين»؟

وهذا صك الانتداب على فلسطين لعام ١٩٢٢، ألم يبتدع عبارة حقّ الشعب اليهودي في فلسطين مقيداً بحقوق الطوائف غير اليهودية؟

وهذا الكتاب الأبيض لعام ١٩٢٢، ألم يصنع عبارة «دولة يهودية في فلسطين» مستبعداً جعل فلسطين دولة يهودية؟!

وهذا الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ الذي نصّ على «إقامة دولة فلسطينية لا عربية ولا يهودية، أليس مرهوناً بموافقة «الطائفة اليهودية»؟

ولكن قادة العرب اختاروا طريق التجاهل والتجهيل، فلم يعبأوا بالصياغة الماكرة التي قدمها الوفد البريطاني إلى مجلس الأمن، واعتبروها نصراً سياسياً، ولتكون في ما بعد مطلباً قومياً.

وفي الوقت الذي فشلت فيه سياسة مؤتمر الخرطوم في الجمعية العامة للأمم المتحدة، ثُمّ بعد ذلك في مجلس الأمن، كانت إسرائيل تواصل خطتها النظرية والعملية لتؤكد العدوان وتوطيد التوسع. والوقائع والدلائل كثيرة وكثيرة.

ومن ذلك أنّه حينما كانت الأمم المتحدة تعدّ العدة لانعقاد جمعيتها العمومية،

كان الوزير الإسرائيلي يلقي خطاباً في نادي الصحافة في واشنطن يقول فيه: «إن هدفنا هو إنشاء إسرائيل جديدة في الشرق الأوسط» (٢٢/ ٩/ ١٩٦٧)، فكان ذلك أول جواب لمؤتمر الخرطوم.

وفي إسرائيل نفسها، وفي اليوم نفسه، نشرت الصحف الإسرائيلية بياناً وقّعه ستون زعيماً إسرائيلياً يمثلون مختلف الاتجاهات السياسية، وطالبوا فيه الحكومة الإسرائيلية بالاحتفاظ بـ «إسرائيل الكبرى بكاملها».

وعشية انعقاد الدورة العادية للأمم المتحدة، حين كان موضوع انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية تجري مناقشته على منبر الجمعية العامة، قامت إسرائيل بتدشين ثلاث مستعمرات: **الأولى** على مقربة من بانياس في المرتفعات السورية، و**الثانية** تدعى «غوش عصيون» بين الخليل والقدس، و**الثالثة** تدعى «هاعرافا» في سهل أريحا (٢٤/ ٩/ ١٩٦٧).

وصادف في اليوم نفسه الذكرى السبعون للمؤتمر الصهيوني الأول (عام ١٨٩٧)، فخطب الجنرال إسحاق رابين رئيس أركان الجيش الإسرائيلي وقال: «إن هدف إسرائيل أن يصبح عدد اليهود خمسة ملايين، وحينئذ لن يستطيع شيء إيذاءها ولا التشكيك في وجودها. وجواباً عن هذا التحدي الضخم فقد أجاب اسعد جمعة رئيس الوزراء الأردني بحديث لوكالة الأنباء الأردنية الرسمية قال فيه: «إن الأردن أعلن في كُلّ موقف في الماضي والحاضر، وبشكل قاطع، أنّه لا يشجع أية نشاطات فدائية في الأجزاء المحتلة، ولا يستسيغ أية نشاطات استفزازية فيها» (٢٦/ ٩/ ١٩٦٧).

ويوم كانت المناقشة على أشدها في الأمم المتحدة، والوفود يخطبون حول انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية، بشروط أو من دون شروط، صرح الجنرال موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلي لمجلة **الجيش الإسرائيلي**: «بأن الحدود الحالية مع الدول العربية، باستثناء لبنان، هي حدود مثالية، فإذا عبرت إسرائيل قناة السويس فإنها تشرف على القاهرة، وإن عبرت نهر الأردن فإنها تكون في مداخل عمّان، وإن اجتازت القنيطرة فإنها تطل على دمشق، وإنه إذا وقعت حرب أخرى فمن الممكن لإسرائيل أن تدخل العواصم العربية من الحدود الحالية لإقرار حلّ نهائي». (١/ ١٠/ ١٩٦٧).

وحين اتجه تفكير الأمم المتحدة إلى إحالة قضية الشرق الأوسط من الجمعية العامة إلى مجلس الأمن، أعلنت إسرائيل أنها أنشأت مستعمرة جديدة، عسكرية زراعية، على الساحل الشمالي المحتل من سيناء، قرب سبخة البردويل، وعلى بعد ٧٠ كيلومتراً غربي السويس، كما أعلنت أنها أطلقت اسم موشى شاريت (رئيس

وزراء إسرائيل السابق) على المزرعة التعاونية التي أقامها الإسرائيليون قرب بانياس في الأراضي السورية المحتلة (٤/ ١٠/ ١٩٦٧).

وتناول الحوار في الأمم المتحدة موضوع القدس، ورفعت الوفود العربية والإسلامية عقيرتها تطالب بإلزام إسرائيل بعدم تغيير الأوضاع في بيت المقدس تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الأخير، فكان الجواب في إسرائيل أن استولت السلطات الإسرائيلية على الزاوية الفخرية التي تجاور الحرم الشريف في القدس وتطل على حائط المبكى، وحولتها إلى مدرسة لتعليم الديانة اليهودية (١٠/ ١١/ ١٩٦٧)، وهذه الزاوية تابعة لآل أبي السعود في القدس، وهي مقر مفتي الشوافعة في فلسطين.

وفي محاولة ساخرة بالأمم المتحدة وقراراتها، أقام أحد المحامين اليهود دعوة أمام المحكمة الإسرائيلية العليا على مفتي القدس الشيخ سعد الدين العلمي يطالب فيها بإعادة الأرض التي كان هيكل سليمان يقوم عليها قديماً، والتي يقوم عليها الآن مسجد الصخرة والمسجد الأقصى، كما يطالب باستبدال الحرس المسلمين بجنود يهود. قضية ساخرة تحمل في ثناياها كثيراً من الجد والتصميم.

وبعد أن صدر قرار مجلس الأمن عرفت إسرائيل مواضع أقدامها وتبيّنت مكانها في جميع فقراته، وتعاقبت تصريحات المسؤولين الإسرائيليين وهم يخفون ابتهاجهم في عبارات متحفظة.

ففي اليوم الذي أعلن فيه مجلس الأمن قراره، أصدر إسرائيل غاليلي وزير الأنباء الإسرائيلي بياناً في تل ابيب قال فيه: «إن القرار يرتكز بشكل رئيسي على مبدأ الاتفاق المشترك بين إسرائيل والدول العربية، وإنه يؤيد موقف إسرائيل في المحافظة على خطوط وقف إطلاق النار الحالية حتّى تستبدل بها حدود آمنة متفق عليها، وإن إسرائيل بالنسبة إلى القدس لا تنوي التخلي عن أي جزء منها، وإنها لن تقسّم مرة أخرى» (٢٣/ ١١/ ١٩٦٧).

وفي حديث صحافي للوزير الإسرائيلي أبا إيبان، قال: «إن إسرائيل ستكون مجنونة إذا انسحبت من الأراضي المحتلة قبل إيجاد تسوية سلمية دائمة، وإن إسرائيل ترحب بقدوم د. غونار يارنغ ممثلاً للأمين العام للأمم المتحدة لبحث التسوية السمية في إطار قرار مجلس الأمن» (٢٤/ ١١/ ١٩٦٧).

وفي اليوم نفسه، وصل إلى لندن الجنرال إسحاق رابين رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي للاشتراك في احتفالات الذكرى الخمسين لإنشاء الفيلق اليهودي، وصرح للصحافيين في المطار بقوله: «إن إسرائيل ترحب بقرار مجلس الأمن بشأن إرسال مبعوث دولي إلى الشرق الأوسط للوصول إلى تسوية سلمية».

وبعد أن عاد الوزير الإسرائيلي أبا إيبان من اجتماعات مجلس الأمن إلى تل أبيب علق على قرار مجلس الأمن بقوله: «إنه يربط بين انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة وإحلال السلام وإقامة حدود آمنة ومتفق عليها، وإن فشل جميع مشروعات القرارات التي طالبت بانسحاب إسرائيل من دون ربط ذلك بموضوع السلام الدائم والحدود المتفق عليها يعتبر انتصاراً لإسرائيل» (٢٦/ ١١/ ١٩٦٧).

وكانت إسرائيل على حقّ في هذا العناد المتشدد، فقد رأت أن الموقف الأمريكي ومعه الموقف السوفياتي يشجعان على العناد والتشدد.

بالنسبة إلى الموقف الأمريكي، فإن الولايات المتحدة كان تعزيزها السياسي لإسرائيل في الأمم المتحدة، والتعزيز العسكري في ساحة المعركة. ففي الوقت الذي كانت المداولات تدور في مجلس الأمن حول أزمة الشرق الأوسط قررت واشنطن استئناف شحن الأسلحة إلى إسرائيل، ومن بينها ستون طائرة من طراز سكاي هوك. هذا بالإضافة إلى العون الاقتصادي والفني والمالي الذي لا ينقطع (٣/ ١١/ ١٩٦٧).

أما بصدد الاتحاد السوفياتي، فقد شُغلت وكالة نوفوستي للأنباء السوفياتية بنشر مقالة مطولة عن أسباب الهزيمة العربية في حرب الأيام الستة، فقالت: «إن الأعمال التجسسية الإسرائيلية قد أدت بصورة كبيرة إلى نجاح العلميات الإسرائيلية. فإن دوائر الاستخبارات الإسرائيلية جمعت معلومات دقيقة عن عدد رجال القوات المسلحة المصرية وأماكن وجود جميع نقاط قيادة الأفواج والفرق والألوية والمطارات المصرية.

«وعرفوا ذبذبات جميع أجهزة الراديو التابعة لوحدات الجيش المصري، ونجحوا بسرق شفرتها وحل رموزها. وإن إسرائيل قد أذاعت، على تلك الذبذبات، أوامر كاذبة ضللت وحدات الجيش المصري، مما أدّى إلى الارتباك والفوضى في صفوفه، وغير ذلك مما مكن القوات الإسرائيلية من إنزال ضربة مفاجئة بالمطارات المصرية». وختمت نوفوستي مقالتها، فقالت: «إن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وضعت تحت تصرف إسرائيل كُلّ معلوماتها عن الشرق الأوسط، فكان ذلك عاملاً بارزاً في انتصار إسرائيل».

ولقد كانت هذه المقالة السوفياتية غنية بالمعلومات، ولكنها لم تكشف النقاب عن السؤال الكبير: لماذا لم يقدم الاتحاد السوفياتي إلى الجمهورية العربية المتحدة كُلّ المعلومات التي يملكها عن إسرائيل، وهو يملك معلومات خطيرة وأسراراً ذات أهمية قصوى في المعركة؟

وإذا كان موقف الاتحاد السوفياتي كما عبّرت عنه وكالة نوفوستي بصدد أسباب الهزيمة العربية، فإن الموقف بالنسبة إلى قرار مجلس الأمن يثير الكثير من الأسئلة. فإن

الاتحاد السوفياتي أعرف الدول بهزال مجلس الأمن، وأعرفها بعناد إسرائيل، وأعرفها بمساندة أمريكا لإسرائيل، وهذه جريدة **إزفستيا** تقول يوم صدور قرار مجلس الأمن: «إن القرار ينصّ على انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية، وهذا ما جعل الاتحاد السوفياتي يصوّت إلى جانب هذا القرار» (٢٣/ ١١/ ١٩٦٧).

وتابعت جريدة **برافدا** السوفياتية المنطق نفسه، فقد قالت: «إن قبول قرار مجلس الأمن سيكون خطوة على طريق حلّ مشاكل الشرق الأوسط» (٢٤/ ١١/ ١٩٦٧).

ولكن ما لنا وللولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. ليس لنا أن نندّد بأعدائنا، وألا نعتب على أصدقائنا. والتنديد والعتاب يجب أن يكونا علينا، على ملوكنا ورؤسائنا، على مؤتمر الخرطوم الذي لم يستمع إلى نصخ الناصحين.

ولقد كنت في مؤتمر الخرطوم واحداً من أولئك الناصحين.

لقد قلت للملوك والرؤساء: «إنّه لا جدوى من الأمم المتحدة».

لقد قلت لهم: «إن الأمم المتحدة لن تعيد إليكم شبراً واحداً من الأرض العربية المحتلة».

لقد قلت لهم: «إن طريق الحلّ السلمي غير موجود ولا جدوى من السير في طريق مسدود».

قلت لهم هذا وأكثر من هذا، وقاله غيري. ولكنهم أرادوا أن يجربوا، أرادوا أن يتعلموا الجغرافيا بالرحيل في الأرض كما فعل الرحالة القدامى، بدلاً من أن يقرأوا ويتعلموا، ويتعظوا ويعتبروا.

وانسحبت من مؤتمر الخرطوم، حين لم يسمعوا ويعوا، وأنا أردد قول الله تعالى: ﴿**تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الحشر،» الآية ١٤.

عـــن عبـــد النـــاصـــر

في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، وفي السنة الأولى من النكبة، أصدر مجلس الأمن قراره الشهير رقم (٢٤٢).

وفي صباح الثالث والعشرين أعلنت أني سأعقد مؤتمراً صحافياً في المساء، في مقر منظمة التحرير في حيّ الدقي في القاهرة، لأحدد موقف الشعب الفلسطيني من ذلك القرار.

وعند الظهر، في اليوم نفسه، اتصل بي محمّد فائق وزير الإعلام في الجمهورية العربية المتحدة، تلفونياً.

قال: «سيادتك ستعقد مؤتمر صحافياً هذا المساء، أليس كذلك؟».

قلت: «نعم».

قال: «الإذاعة والتلفزيون ستكون تحت تصرف سيادتك. ممكن أعرف ما هو الموضوع الذي ستتناوله في المؤتمر الصحافي؟».

قلت: «سأحدّد موقفنا من قرار مجلس الأمن الذي صدر الليلة الماضية».

قال: «هل يمكن أن أرجوك أن تؤجل المؤتمر الصحافي إلى الغد؟».

قلت: «وما هو السبب؟».

قال: «سيادة الرئيس سيخطب اليوم في مجلس الأمة، وطبيعي أنّه سيتكلم عن القرار. ويكون من المناسب التنسيق بين ما يقوله الرئيس وما ستقوله المنظمة».

قلت: «ما دام التأجيل ليوم واحد، فأنا لا أرى مانعاً. وربما يكون مفيداً من ناحية إعلامية حتّى لا يضيع مؤتمرنا في يوم خطاب الرئيس».

قال: «أشكرك، ونحن سنعطي التعليمات لتغطية المؤتمر الصحافي بكامله. وهل يمكن أن أعرف الموقف الذي ستعلنونه عن قرار مجلس الأمن، ولو بكلمة واحدة»؟.

قلت: «بكلمة واحدة. موقفنا هو الرفض».

وانتهت المكالمة التليفونية، وأصدرنا بياناً بتأجيل المؤتمر إلى اليوم الثاني. وفي المساء ذهبت إلى مجلس الأمة، وجلست في الشرفة، أنتظر قدوم الرئيس، وأنتظر خطابه.

كانت القاعة غاصة بالأعضاء، والدبلوماسيين والصحافيين والمصورين، فإن العالم العربي، ومعه الدولي، كان يريد أن يستمع إلى ما سيقوله الرئيس عبد الناصر عن حاضر النكبة ومستقبل المعركة، وبالتحديد ما سيقوله عن قرار مجلس الأمن الذي صدر بالأمس، بعد ستة أشهر من الحوار والجدال في أروقة الأمم المتحدة، ودهاليزها العليا والسفلى.

وكان خطاب عبد الناصر، كعادته، شاملاً جامعاً، فقد تناول جوانب متعددة، الداخلية والعربية والدولية، كما تناول الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية، مع نظرة إلى الماضي والحاضر والمستقبل.

وكان طبيعياً أن يكون الخطاب بهذا الشمول، فقد كان المواطن العربي في مصر وفي الوطن العربي كُلّه يتساءل ويتساءل، ويكاد أن ينام وعلى وسادته مائة سؤال وسؤال.

كانت الجماهير العربية، آنذاك، تئن تحت وطأة الهزيمة العسكرية، ولا تعرف أسبابها وأصحابها. فأجهزة الإعلام العربية الرسمية قد جعلت من قادة العرب آلهة النصر والتحرير قبل النكبة، وألبستهم رداء من الحصانة والعصمة بعد النكبة، كالقمصان الفولاذية التي يلبسها العظماء وقاية من الرصاص والقنابل.

وكانت الجماهير العربية، آنذاك، تعيش في حمّى الحرب. . فقد وعدتهم أجهزة الإعلام العربية الرسمية بالنصر القريب، بضعة أسابيع أو بضعة أشهر وتنهال الأسلحة السوفياتية على الدول العربية، وتبدأ المعركة. ويكون النصر.

وكانت المناوشات العسكرية قائمة دائماً بين القوات العربية والإسرائيلية، حتّى أصبحت خطوط وقف إطلاق النار خطوط إطلاق النار.

وبين عشية وضحاها، تصاعدت المشاعر العربية إلى القمة، ثُمّ عادت وهبطت إلى القاع.

تصاعدت يوم قذفت قوارب الطوربيد المصرية المدمرة الإسرائيلية «إيلات»،

فدمرتها وهوت بمن فيها إلى قاع البحر. ثُمّ عادت المشاعر العربية وهبطت يوم سلطت المدفعية الإسرائيلية قذائفها على المصانع المصرية في مدن القنال، فأحرقتها وأنزلت بالصناعة المصرية خسائر فادحة. وحملت السلطات المصرية على تهجير السكان في منطقة القنال، وبلغوا نصف مليون جرى توزيعهم في مدن الدلتا وقراها.

وفي مصر بصورة خاصة انسابت حملة تشكيك كبرى في صفوف الجماهير، تشكيك بالدولة، بالجيش، بالنظام، وتشكيك حتّى في التظاهرات الكبرى يومَيْ ٩ و١٠ حزيران/ يونيو التي ناشدت الرئيس عبد الناصر العدول عن استقالته.

كانت هذه هي الصورة العامة حين وقف الرئيس عبد الناصر في مجلس الأمة (٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر) يخاطب الشعب المصري، والأمة العربية جمعاء.

وأشار في مطلع كلامه إلى القلق الذي يساور الناس، والتمزق الذي أصاب الشباب والطلاب بعد الهزيمة، مستشهداً بالهزائم التي وقعت لبريطانيا وفرنسا وأمريكا وروسيا في الحرب العالمية الثانية، وكيف أن النتيجة لم تكن نصراً لقوات ألمانيا النازية واليابان، وهي التي حققت انتصارات باهرة في أوائل الحرب، وإنما كان النصر في النهاية للذين فوجئوا والذين تراجعوا. . والذين حلت بهم الهزيمة في المراحل الأولى من القتال. وكان الرئيس عبد الناصر يريد أن يشدّ من عزائم الجماهير، وأن يردّ على المشككين والمتسائلين.

وانتقل الرئيس عبد الناصر بعد ذلك إلى تقييم حالة الصفر التي وصلت إليها الجمهورية العربية المتحدة عسكرياً نتيجة حرب الأيام الستة. فكشف عن الحقيقة عارية. . وباللهجة المصرية العامية، فقال: «بدي أقول لكم يوم ٩ و١٠ يوم الناس خرجت في الشوارع بالآلاف أو بالملايين مكنش عندنا دفاع عن الضفة الغربية لقنال السويس. كان العدو موجود في الضفة الشرقية للسويس. وكان الطريق ما بين السويس والقاهرة مفيش فيه ولا عسكري. كان الطريق إلى القاهرة مفتوح من دون أدنى مقاومة، نتيجة الشلل الكامل اللي حصل في قواتنا. . الحقائق المادية تقول بأننا خسرنا ما يقرب من ثمانين في الماية من معداتنا الحربية في معارك الأيام الستة. كما أن قواتنا كانت بتأثير الصدمة مبعثرة وشبه تائهة، وكان معنى ذلك أننا غير قادرين لا على الهجوم ولا على الدفاع. . نحن فقدنا عشرة آلاف جندي، وألف وخمسماية ضابط، غير الأسرى خمسة آلاف جندي أسير و٥٠٠ ضابط أسرى».

وقد تفرست في وجوه أعضاء مجلس الأمة، وهم يستمعون إلى هذه الحقائق المروّعة التي أضاف إليها الرئيس عبد الناصر قوله: «بعد يوم ٨ حزيران/ يونيو كنا مكشوفين أمام العدو، جبهة القتال مكشوفة، والمدن أيضاً مكشوفة، مكنش عندنا خطّ دفاع غرب القناة». وكان كثيرون من الحاضرين يستمعون في ذهول وهم لا يكادون يصدقون أن مصر قد فقدت قوتها العسكرية إلى هذا الوضع الرهيب.

والواقع أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يسرد الوقائع للمعرفة فحسب، ولكنه كان كمن يترافع أمام الشعب المصري والأمة العربية مرافعة الدفاع، الدفاع في وجه التشكيك والاتهام.

ورفع الرئيس عبد الناصر صوته ورأسه ويديه، كما يفعل المحامي وهو يترافع، وقال: «أنا شفت عدد من الشباب متمزق. مش قادر. مش قادر يحتمل الصورة. إن إسرائيل موجودة، وإزاي تقدمت للضفة الشرقية للقناة. هناك قلق عند الجماهير نتيجة لما حدث. وإزاي حنخلص من إسرائيل».

وفي سياق هذا الدفاع، راح الرئيس عبد الناصر يتحدث عن الأوضاع الداخلية التي كانت تسود البلاد قبل النكسة، وأشار إلى نشوء مراكز القوة في الجيش، وقيام دولة المخابرات. وكما يفعل المحامي، انتقل الرئيس عبد الناصر إلى نقطة أخرى في الدفاع، وصاح بأعلى صوته قائلاً: «طبعاً، وأنا بتكلم النهار ده هذا الكلام حيتساءل ناس.. وممكن أنتم تتساءلوا وتقولوا: طيب يا جمال عبد الناصر إزاي سبت الأوضاع بهذا الشكل في النكسة؟».

ولقد كان الرئيس عبد الناصر صادقاً في طرح هذا السؤال الجريء، في طرح هذا الاتهام. عبد الناصر يوجه الاتهام إلى عبد الناصر.. فلقد كانت القاهرة تطرح هذا السؤال همساً، في المقاهي والنوادي والبيوت والجامعات والمساجد. فلم يكن أحد يجرؤ على طرح هذا السؤال لا في مجلس الأمة ولا خارج مجلس الأمة، إلا جريء واحد، طرحه في مجلس الأمة وهو الرئيس عبد الناصر نفسه.

وجل مجلس الأمة لهذا السؤال الجريء وألقى بسمعه، وهو لا يملك إلا حرية السماع، فأجاب الرئيس قائلاً: «فيه ناس في البلد متصورة أن جمال عبد الناصر لما يقول شيء لازم ينفذ هذا الشيء بالحال، الناس ما تعرفش إيه المداخل وإيه اللي بيجري في الكواليس».

ومضى الرئيس عبد الناصر في شرح موضوع مراكز القوة في مصر والجهود

التي بذلت لتصحيح مساوئها . . ولم يقف طويلاً عند هذه النقطة، ذلك أن مجلس الأمة بنشوئه وتكوينه ليس فيه من يحاسب أو يراقب أو يطالب، وأن الذي يتولى عنهم شرف الحساب، هو رئيس الدولة، يحاسب نفسه بنفسه.

وبعد أن استعرض الرئيس عبد الناصر كثيراً من الأمور الداخلية انتقل إلى الكلام عن العمل العربي، ومرة ثانية وقف الرئيس عبد الناصر يترافع عن الرئيس عبد الناصر، وكان موضوع المرافعة مؤتمر الخرطوم وقرار مجلس الأمن.

والرئيس عبد الناصر كان واحداً من الحكام القلائل في العالم الذين يحرصون كُلّ صباح على قراءة التقارير، من المخابرات، من المباحث، من السفارات. وكان الرئيس عبد الناصر يقرأ أول ما يقرأ تقرير «ما يقوله الناس».

وكان ما يقوله الناس في تلك الفترة أن مؤتمر الخرطوم كان فاشلاً، وأن الملك فيصل هو الذي خرج منه منتصراً، وأن الرئيس اليمني المشير عبد الله السلال كان واحداً من ضحايا المؤتمر، لم يكد يخرج من الخرطوم حتّى أعلن «خلعه» وهو مسافر خارج البلاد، بعيداً عن صنعاء (٥/ ١١/ ١٩٦٧)، وأن «خلعه» كان جزءاً من الاتفاق بين الملك فيصل والرئيس عبد الناصر . . كان ذلك ما يقوله الناس في القاهرة. صدقاً أو كذباً.

وكان ما يقوله الناس أيضاً أن قرار مجلس الأمن فيه إذلال كبير لمصر، لأنه يسمح لإسرائيل بالملاحة في خليج العقبة بعد إغلاقه، وفي قناة السويس بعد أن منعت منها منذُ قامت. و . . و . . ، مما كان يجري على ألسنة الناس في نكات وقفشات، أشدّ إيلاماً من الكلام الصارم الجاد.

وتناول الرئيس عبد الناصر هذين الموضوعين مبتدئاً بمؤتمر الخرطوم، فقال: «في الخرطوم استطعنا بالاتفاق مع الملك فيصل أن نتفق على موضوع اليمن، وكان هدفنا في هذا أن إحنا نحقق المبادئ ولم تكن تعنينا الأشخاص (والإشارة إلى الانقلاب على المشير عبد الله السلال). إحنا ذهبنا إلى اليمن لكي ننصر المبادئ لا لننصر الأشخاص. الآن هناك فيه جمهورية في صنعاء من دون قوات مصرية في صنعاء».

ثُمّ انتقل الرئيس عبد الناصر بعد ذلك إلى معالجة الموقف السياسي في مجلس الأمن. ووضح تماماً أنّه كان يتابع المناقشات الدولية بكل دقة واهتمام، وراح يتكلم بشيء من التفصيل، فاستعرض مختلف المشروعات التي عرضت على مجلس

الأمن: الآسيوي، والأفريقي، والدانمركي، والأمريكي، والسوفياتي، وأخيراً البريطاني.

واتجه أعضاء مجلس الأمة، ومعهم الصحافيون، ومع هؤلاء جميعاً نحن الجالسين في شرفة الزوار، لنسمع ماذا سيقول الرئيس عبد الناصر بشأن القرار البريطاني.. هل يعلن قبوله ويفجع الأمة العربية في أعزّ ما لها وأقدس أهدافها، أم يرفضه ويدمغ الدبلوماسية العربية بالتهمة القديمة، أنها ترفض على الدوام، ثُمّ تعود إلى القبول، وتنشده وتلهث وراءه؟

كان الموقف دقيقاً وحرجاً. وأكبّ الرئيس عبد الناصر بعينيه على أوراقه، لا يرفعهما، حتّى يقرأ كُلّ كلمة أمامه، فلا تفوته كلمة في مكانها، فقال: «مع أن التفسيرات التي أعطيت للقرار البريطاني تحقق بعض الوضوح، فإن القرار البريطاني يبقى في رأينا غير كاف. وماذا نفعل بقرار مجلس الأمن؟ في ما يتعلق بنا نحن ندرسه وتتشاور بشأنه مع أصدقائنا، وهناك نقطتان محددتان بالنسبة الينا ليستا موضع جدال، ولا يمكن أن نقبل فيهما أي أخذ وعطاء: و**الأولى** هي الانسحاب الكامل من كُلّ الأراضي العربية، من كُلّ شبر من الأراضي العربية التي جرى احتلالها في معارك حزيران/ يونيو سواء في الجمهورية العربية المتحدة، أو المملكة الأردنية الهاشمية، أو الجمهورية العربية السورية. والنقطة **الثانية** أننا لن نسمح لإسرائيل مهما كان الثمن، ومهما كانت التكاليف، أن تمرّ في قناة السويس. إن المرور في قناة السويس جزء لا يتجزأ من قضية فلسطين الأصلية، وهو ليس جزءاً من قضية إزالة آثار العدوان. وبعد هاتين النقطتين، فنحن على التزام بالخطوط الأربعة التي حدّدها مؤتمر القمة العربي في الخرطوم: لا اعتراف بإسرائيل، لا صلح معها، ولا مفاوضة، ولا تصرف بالقضية الفلسطينية، لأنها ملك شعب فلسطين».

وصفّق أعضاء مجلس الأمة طويلاً لهذا الموقف، فقد فهموه رفضاً لقرار مجلس الأمن، وكانوا على حقّ، فقد كبّله الرئيس عبد الناصر بمائة شرط وشرط، وكُلّ واحد منها يكفي لرفضه.

وتوكيداً لهذا المعنى، فإن الرئيس عبد الناصر عاد إلى مخاطبة الأمة العربية في موقع النضال، فقال: «إن كُلّ الصياغات قابلة للانصهار أمام حرارة النيران، وإن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة».

وفي سياق الحديث عن النضال، والاستعداد للمعركة، رمى الرئيس عبد الناصر جمرة من جمراته على حزب البعث في سوريا، فقال: «ولكننا لسنا على استعداد

لأن نتلقى دروساً من الذين يتحدثون عن الحرب الفورية وهم لم يحاربوا وهم لا ينوون أن يحاربوا». وصفق مجلس الأمة لهذه الإشارة البارعة، كما صفق الزوار في شرفاتهم، وكانوا آخر من توقف عن التصفيق.

وفي ختام خطابه، تناول الرئيس عبد الناصر مسألتين مهمتين، وكان مقرراً للزمن أن يُلقي بهما في زوايا النسيان:

المسألة **الأولى** تحدث عنها بقوله: «نحن نعتقد أن تطورات الحوادث الآن تقتضي التفكير في عقد اجتماع عربي على مستوى القمة، وأن تكون قضية إزالة آثار العدوان النقطة الأولى في جدول أعمال المؤتمر المقترح». وقد تلكأ حكام العرب وتثاقلوا، فلم ينعقد هذا الاجتماع إلا بعد عام ونصف، في الرباط، وانسحب منه الرئيس عبد الناصر. ومرت بعد ذلك أعوام وأعوام لم ينعقد بعدها اجتماع القمة لأن الملك فيصل أعلن أن القمة يجب أن تسبقها دراسات وافية، ولم تكفِ هذه الأعوام الستة لإعداد الدراسات.

والمسألة **الثانية** تحدث عنها الرئيس عبد الناصر بقوله: «نحن نعتقد أن نظاماً عربياً جديداً يمكن أن يولد، ليعطي العالم العربي دفعة كبيرة في عصر التجمعات الاقتصادية في هذا العصر. إن الدول العربية لا تستطيع أن تحقق أهداف نموها بالسرعة الواجبة، وكُلّ منها على انفراد، وفي عزلة عن الباقين».

وكان من السهل أن يتفرس المرء على وجوه أعضاء مجلس الأمة عدم المبالاة لهذين الاقتراحين، لا لأنهما غير جديرين بالاهتمام، بل لأنهم على يقين أن الحكم العربي في مجموعه ليس على مستوى المسؤولية، بل إنه لا بُدَّ من زواله لتزول آثار العدوان.

ومن أجل ذلك، فقد كان خير ما في خطاب الرئيس في ذلك اليوم قوله: «إن النكسات عوارض طارئة في حياة الشعوب، لكن الشعوب دائماً أقوى من النكسات.. وإن هذه الأمة العربية، وشعبنا بين شعوبها، قادرة، وهي أقوى من كُلّ العوارض الطارئة، ولها النصر عزيزاً حاسماً أكيداً بإذن الله وعونه. وفقكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

انتهى الرئيس عبد الناصر من خطابه وانفض اجتماعه من مجلس الأمة، وخرجنا إلى ساحة المجلس في انتظار سياراتنا، وكان الأعضاء والوزراء وقادة الجيش تطفح وجوههم بشراً وهم يثنون على الرئيس لخطابه الجامع، وأنه رفض قرار

مجلس الأمن بعبارات حازمة من دون أن يستخدم كلمة «لا».

وأجمعت وكالات الأنباء أن خطاب الرئيس عبد الناصر قد وضع النقاط على الحروف، وأنه لم يقبل قرار مجلس الأمن، ولكنه ترك الباب مفتوحاً أمام تسوية «سياسية شريفة وعادلة».

ولكن الاتحاد السوفياتي لم يكن مستريحاً إلى كثير من النواحي القوية في خطاب الرئيس عبد الناصر، فقد خرج السفير السوفياتي من شرفة الدبلوماسيين، وليست على وجهة بوادر الانشراح والارتياح. وقد انعكس ذلك بصورة واضحة في اليوم التالي، فقد نشرت جريدة **إزفستيا** السوفياتية، تلخيصاً عادياً لخطاب الرئيس عبد الناصر مبرزة الجوانب اللينة في الخطاب، وحذفت عبارة: «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة»، وهي العبارة التي صفقت لها الأمة العربية بأسرها واعتبرتها قمة الخطاب، والعلامة الأكيدة على طريق النضال.

وأعلن الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت تعيين د. غونار يارنغ مبعوثاً دولياً خاصاً يقوم بالسعي لإيجاد تسوية سلمية في الشرق الأوسط طبقاً لقرار مجلس الأمن. وبعث يوثانت بمذكرات إلى حكومات الأردن ولبنان وسوريا والجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل يعرب فيها عن «أمله الحار وثقته في أن يلقى يارنغ التعاون التام وجميع التسهيلات اللازمة لتنفيذ المهمة البالغة الأهمية الموكولة إليه تنفيذاً فعالاً».

وتطلعت الجماهير العربية إلى الدول العربية لتتعرف على رأيها بالنسبة إلى قرار مجلس الأمن، فكان كالعهد به موقفاً ممزقاً تائهاً.

وفي سوريا، أعلن ناطق رسمي رفض قرار مجلس الأمن «أنه تكريس دولي خطير لمبدأ حلّ المسائل بالقوة المسلحة.. ومساومة مكشوفة على القضية الفلسطينية» (٢٣/ ١١/ ١٩٦٧). وهذا الكلام صادق لو كان يرافقه عمل صادق.

وفي الجزائر، أعلنت وكالة الصحافة الجزائرية «أن قرار مجلس الأمن أبعد ما يكون عن الإسهام بطريقة بناءة وفعالة في حلّ أزمة الشرق الأوسط، وأن الجزائر كانت ولا تزال تدعو باستمرار إلى الكفاح المسلح ضدّ إسرائيل، وأن البحث عن حلّ سياسي سيؤدي حتماً إلى الاعتراف بإسرائيل» (٢٣/ ١١/ ١٩٦٧).

وفي الأردن، أعلن بهجت التلهوني رئيس وزراء الأردن «أن موقف الأردن ينسجم ويتفق مع موقف الدول العربية الشقيقة» (٢٣/ ١١/ ١٩٦٧).

أما بقية الدول العربية العشر، فقد انضمت إلى أهل الكهف، سكتوا كما سكتوا، إلا الملك الحسن الثاني، فقد بعث برسائل إلى ملوك ورؤساء الدول العربية (٢٤/ ١١/ ١٩٦٧) يوافق فيها على عقد مؤتمر القمة، ويقترح عقده في المغرب، وتلك إحدى هوايات الملك الحسن الثاني، استضافة مؤتمرات القمة في الرباط، لينسي الشعب المغربي مصائبه الكثيرة، ولو لبضعة أيام قليلة.

وحان موعد المؤتمر الصحافي الذي دعوت إليه وازدحم بالصحافيين الأجانب قبل العرب، وألقيت بياناً مكتوباً أعلنت فيه: «رفض منظمة التحرير الممثلة للشعب الفلسطيني قرار مجلس الأمن جملة وتفصيلاً»، وأوردت الأسباب القومية والسياسية والقانونية والدولية التي تفرض رفض قرار مجلس الأمن كما شرحتها في الفصل السابق. وانفتح باب النقاش، والسؤال والجواب، كالمطر المنهمر. فقد كنا وإياهم على استعداد كامل. هم صحافيون بارعون، وأنا عشت القضية كُلّ عُمري.

سألوا: «لقد أجّلت مؤتمرك الصحافي من الأمس إلى اليوم، فهل هذا بناء على اتفاق بينك وبين الرئيس عبد الناصر؟».

قلت: «التأجيل كان لمصلحة إعلامية. لا أريد أن يكون خطابه ومؤتمري الصحافي في يوم واحد».

سألوا: «هل أنت موافق على كُلّ ما قاله الرئيس عبد الناصر في خطابه بالنسبة إلى قرار مجلس الأمن؟».

قلت: «أنا أتفق معه في الموضوع لا في الأسلوب. أعتقد أن موقفه هو رفض قرار مجلس الأمن، وكنت أفضّل أن يكون رفضاً واضحاً وقاطعاً، فليست للأمم المتحدة قيمة تستحق معها غير هذا الأسلوب».

سألوا: «وهل قرار مجلس الأمن يتفق مع قرارات مؤتمر الخرطوم؟».

قلت: «أبداً، قرار مجلس الأمن يصفي القضية الفلسطينية، واللاآت الأربع في قرارات الخرطوم تتعارض معارضة أساسية مع قرار مجلس الأمن، وأنتم تذكرون أن اللاآت الأربع هي صياغة منظمة التحرير الفلسطينية.

سألوا: «وهل إذا قبل الرئيس عبد الناصر قرار مجلس الأمن يكون قد خالف اللاآت الأربع التي وافق عليها مؤتمر الخرطوم؟».

قلت: «نعم، وبكل تأكيد. ولكني أعتقد أن الرئيس عبد الناصر يرفض قرار مجلس الأمن، حتّى من دون مؤتمر الخرطوم».

سألوا: «وكيف توفقون بين موقفكم وموقف الرئيس عبد الناصر في حالة قبوله قرار مجلس الأمن؟».

قلت: «هذه مسألة داخلية ليس للصحافة علاقة فيها».

سألوا: «وهل نقول على لسانك إنه إذا وافق عبد الناصر على قرار مجلس الأمن يكون قد خالف مؤتمر القمة؟».

قلت: «نعم، وبكل تأكيد. وبكل تأكيد سيظل الرئيس عبد الناصر يرفض قرار مجلس الأمن».

سألوا: «وفي هذه الحالة، ألا يقع انشقاق بينكم وبين الرئيس عبد الناصر؟».

قلت: «قد يقع بيننا اختلاف في الاجتهاد، ولكن أرجو ألا يقع بيننا انشقاق».

سألوا: «لقد اقترح الرئيس عبد الناصر عقد مؤتمر عربي خامس، فهل ستحضرونه بعد أن انسحبتم من مؤتمر الخرطوم؟».

قلت: «سأعرض على المنظمة اقتراحاً بألا نحضر اجتماعات عربية رسمية بعد اليوم. نحن لا نعتقد بجدواها. وسنقيم علاقات ثنائية مع الحكومات العربية واحدة، واحدة».

سألوا: «يقال إن الملك فيصل والملك حسين والرئيس بورقيبة قد ألحوا على الرئيس عبد الناصر إزاحتك من رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية؟».

قلت: «هذه مسألة تتعلق بي وبالشعب الفلسطيني، ولا شأن للملوك والرؤساء في من يتولى رئاسة منظمة التحرير».

سألوا: «وهل توافق على إجراء تسوية سلمية؟».

قلت: «تسوية سلمية لتحرير فلسطين؟. نحن موافقون عليها».

سألوا: «وهل صحيح أنك أدليت بتصريح صحافي في عمّان قبل حرب حزيران/ يونيو دعوت فيه إلى إلقاء اليهود في البحر؟».

قلت: «هذا غير صحيح إطلاقاً. أجهزة الإعلام الصهيونية هي التي زوّرت هذا الكلام على لساني».

قالوا: «ولماذا لم تكذبه؟».

قلت: «إسالوا أنفسكم. لقد كذبته في حينه، كذبته في مؤتمرات صحافية كثيرة، فلم تنشره صحفكم. الإذاعة الفرنسية وحدها هي التي نشرت التكذيب».

ولم تكن شكواي من الصحافة الأجنبية كبيرة بذاتها، ففي اليوم الثاني بلوت المشكلة نفسها مع صحافة القاهرة، ذلك أن صحف **الأهرام** و**الأخبار** و**الجمهورية** لم تنشر عن المؤتمر الصحافي إلا سطراً أو سطرين: «عقد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية مؤتمراً صحافياً حدد موقفه من قرار مجلس الأمن». وانتهى.

وقد غاظني هذا الموقف كثيراً، وخصوصاً بعد الوعد الذي قطعه محمّد فائق وزير الإعلام المصري، واتصلت به.

وسألت: «لقد كنت أتوقع، كما وعدت سيادتك أن تنشر الصحف والإذاعة وقائع مؤتمرنا الصحافي على أوسع نطاق ممكن، فما الذي جرى؟».

قال: «والله، زحمة المواد هي السبب. ردود الفعل على خطاب الرئيس أشغلت الصحف والإذاعة. غداً إن شاء الله سأصدر التعليمات لنشر المؤتمر الصحافي بالكامل».

قلت: «أرجو على الأقل اهتمامك في موضوع إلقاء اليهود في البحر لأنه لا يزال يشغل الرأي العام الدولي».

قال: «وأنا مهتم بهذا الموضوع بالذات. لا يكون لك فكر، غداً ستقرأ كُلّ شيء».

وإذا قرأت كُلّ شيء.. ولكني ما قرأت أي شيء، لا عن قرار مجلس الأمن، ولا عن موضوع إلقاء اليهود في البحر، مع أن صحافة القاهرة في ذلك اليوم كانت مكتظة بأخبار كرة القدم بين النادي الأهلي والزمالك.

ولم أجد أمامي إلا بيروت، فلم تكن صحافة القاهرة تملك إلا حرية واحدة، حرية الرقابة على الحرية. فطلبت إلى أحد موظفي مكتب المنظمة في القاهرة أن يطير إلى بيروت، ومعه محاضر المؤتمر الصحافي ليذيعها من هناك، وكذلك كان، فقد أذيعت ونشرت من بيروت.

أما حكاية «إلقاء اليهود في البحر»، فقد أشارت إليها صحف بيروت، وامتنعت عن نشرها وكالات الأنباء الأجنبية، وهي حكاية أشبه بحكاية إبريق الزيت عند العوام. وللعوام أقاصيص مملوءة بالحكمة البالغة، والتسلية والعزاء.

وفي الصفحات التالية سأقص حكايتي مع الصهيونية العالمية، بشأن إلقاء اليهود في البحر. ﴿**إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار**﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ١٣.

إلقـــاء اليهـــود في البحر..
وإلقاء العرب في الصحراء

إلقاء اليهود في البحر . . شعار صنعه اليهود. وصنعوا معه كلاماً آخر، أن العرب قد صنعوه.

وهو شعار قديم لعل عمره أربعون عاماً أو يزيد، ولكنه يتجدد مع الزمان، في المناسبات العامة والمواسم السياسية.

وخلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن نزل هذا الشعار في كتب شتى، ولاكته ألسنة كثيرة، ورددته إذاعات وتصريحات، وخاض فيه صحافيون، ووزراء، ورؤساء، وشق طريقة إلى منابر الأمم المتحدة ومحاضرها.

وقد استهدف هذا الشعار التشهير بالشعب الفلسطيني، أول الأمر، ثُمّ استهدف الأمة العربية بأسرها، بعد أن تطور النزاع اليهودي ـ الفلسطيني إلى صراع إسرائيلي ـ عربي.

وهكذا أصبح لهذا الشعار تاريخ، له بداية، وما أظن أنّه ستكون له نهاية، إلا بزوال إسرائيل الدولة، وانتهاء الصهيونية كعقيدة وحركة وتنظيم. ويومئذ سيستريح العالم الدولي من هذا الشعار وأصحاب الشعار.

وقد استهدف هذا الشعار، التشهير بأشخاص غير قليلين في الأمة العربية، ولكني أحسب أن الشقيري قد أصابه أعظم «طوفان» من هذا التشهير . . وظلت هذه الحملة تلاحقه حتّى بعد أن تخلى عن النشاط السياسي العام، وانصرف إلى كتابة المذكرات.

والواقع أن إسرائيل ما فتئت تُذكر العالم في كُلّ مناسبة أن «الشقيري» قد صرح بأنه كان يريد إلقاء اليهود في البحر. وكثيراً ما كنت أستمع لإذاعة إسرائيل وهي

تتحدث عن ذكرى «الاستقلال» وقيام دولة إسرائيل، وتحشر اسم «الشقيري» بأنه كان يريد أن يلقي اليهود في البحر.

ولست أعظم قادة العرب قدراً واقتداراً حتّى تجعلني إسرائيل أعظم أهدافها، ولكن الموضوع كُلّه له قصة طويلة، أرى من واجبي أن أضعها أمام المواطن العربي، لا دفاعاً عن نفسي ولا دفاعاً عن غيري ممن شملهم هذا الشعار، ولكن الأمر يكشف عن حقيقة العدو وخططه ووسائله. ومن هنا أصبح موضوع إلقاء اليهود في البحر قضية عامة يجب أن تحلل وتدرس، على اعتبار أنها جزء من معركتنا الكبرى مع إسرائيل والصهيونية والاستعمار العالمي.

وقد يظن المواطن العربي أن «الشقيري» هو أول من نسب إليه شعار إلقاء اليهود في البحر. ولكن من «الإنصاف» أن نستعرض مسيرة هذا الشعار من بداية الرحلة لنتعرف على «أشخاص» الهدف واحداً بعد واحد.

كان الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين أول شخص قذف عليه اليهود في فلسطين شعار إلقاء اليهود في البحر. . وكان ذلك في أوائل الثلاثينيات. ولذلك قصة هي جزء من النضال الفلسطيني.

في صيف عام ١٩٢٩ اعتدى اليهود على حرمات حائط البراق الشريف (المبكى)، وهو الجدار الغربي للحرم القدسي، وثارت ثائرة المسلمين، ووقع هياج كبير في فلسطين، وحدثت اشتباكات بين العرب واليهود سقط نتيجتها عدد من القتلى والجرحى.

وتألفت لجنة دولية للتحقيق في دعاوى اليهود بالنسبة إلى «حقوقهم» في حائط المبكى. واحتشد في بيت المقدس عدد وافر من قادة العرب والمسلمين للدفاع عن هذا الأثر الإسلامي، بينهم محمّد علي علوبة والشيخ التفتنازي وأحمد زكي باشا من مصر، ومزاحم الباجه جي من العراق، وانضمّ إليهم عدد من محامي فلسطين يتقدمهم عوني عبد الهادي، وكنت محامياً تحت التمرين في مكتبه. ومن هنا بدأت صلتي بالموضوع من أوله.

وبعد مرافعات طويلة من الجانبين الإسلامي واليهودي حكمت اللجنة الدولية بملكية المسلمين لحائط البراق، وأن حقّ اليهود لا يتعدى الزيارة والعبادة بهدوء. وكان للحاج أمين الحسيني بوصفه رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى جهود كبيرة في تعبئة الشعور الديني في فلسطين وسائر أرجاء العالم الإسلامي.

ثُمّ تألفت بعد ذلك لجنة تحقيق بريطانية (لجنة شو) للبحث في الجوانب السياسية

في النزاع العربي ـ اليهودي. واستمعت اللجنة إلى إفادات قادة الفلسطينيين وزعماء الوكالة اليهودية في فلسطين. وقدم الحاج أمين الحسيني بياناً مستفيضاً عن القضية الفلسطينية، وناقشه أعضاء اللجنة، ومحامو اليهود مناقشة تفصيلية على طريقة المرافعات القضائية، بالسؤال والجواب.

وقد لخص الحاج أمين الحسيني مطالب الشعب الفلسطيني بإقامة دولة عربية في فلسطين، وبدأت مناقشة الحاج أمين الحسيني كما يلي:

سؤال: «وما هو موقع الطائفة اليهودية في هذه الدولة العربية؟».

جواب: «نحن مستعدون لأن نضع في دستور الدولة الضمانات الكافية لحماية حقوق الأقليات».

سؤال: «والهجرة اليهودية، ما موقفكم منها؟».

جواب: «نحن نعارض الهجرة اليهودية، نعتبرها غير مشروعة. ولا حقّ لدولة الانتداب أن توافق على هجرة اليهود إلى فلسطين. نحن أصحاب البلاد الشرعيين. كُلّ هجرة أجنبية يجب أن تكون بموافقة أصحاب البلاد، كما هو الحال في جميع بلاد الدنيا».

سؤال: «وهل تعتبرون يهود فلسطين سكاناً غير شرعيين؟».

جواب: «عند الاحتلال البريطاني في عام ١٩١٨ كان عدد اليهود في فلسطين ستين ألفاً. هؤلاء هم مواطنون فلسطينيون، لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

سؤال: «والآخرون، ويتجاوزون الآن مائتي ألف؟».

جواب: «هؤلاء ليسوا مواطنين شرعيين. لقد دخلوا البلاد بغير حقّ، من غير إرادة الشعب الفلسطيني».

سؤال: «وماذا تفعلون بهم. ما هو مصيرهم؟».

جواب: «يعودون إلى بلادهم، إلى أوطانهم الأولى. فلسطين ليست وطنهم. إنها وطن الشعب الفلسطيني، المسلمين والمسيحيين، واليهود الفلسطينيين».

وسأل محامي الوكالة اليهودية: «وهل تريد يا سماحة المفتي إلقاء اليهود في البحر؟».

فأجاب الحاج أمين الحسيني: «نحن لا نريد إلقاء اليهود في البحر. بلادنا لنا، واليهود المهاجرون يعودون إلى بلادهم».

وانتهت الجلسة. وبدأت الحملة الكبرى على الحاج أمين الحسيني. وأعلن زعماء الوكالة اليهودية أن الحاج أمين الحسيني يريد إلقاء اليهود في البحر. وانطلقت وكالات الأنباء تنقل إلى صحف العالم هذا النبأ الخطير والشرّ المستطير.

وبعد «لجنة شو» جاءت إلى فلسطين لجان بريطانية متعددة، وأمام كُلّ لجنة كان اليهود يكرّرون أن عرب فلسطين يريدون أن يلقوا باليهود في البحر، وأن زعيمهم الحاج أمين الحسيني قد أعلن ذلك في يوم كذا، في شهر كذا، من عام كذا، إلى آخر حبل الكذب والتزوير.

وتوالت الأحداث، وانتقلت قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧، وقضى الأمر بإنشاء «دولة إسرائيل» وتشريد الشعب الفلسطيني، وإلحاق الضفة الغربية بالمملكة الأردنية الهاشمية. وانتهى الوجود الرسمي الكياني للشعب الفلسطيني.

ولما وقعت حرب فلسطين في عام ١٩٤٨، انطلقت الدعاية الصهيونية مرة أخرى تشهّر بالدول العربية وتتهمها بأنها تستهدف إلقاء اليهود في البحر. وفي كتاب **أيتها القدس** ذكر المؤلفان كولنز ولابيير[١] أن «وزارة الخارجية المصرية كانت تنادي بإلقاء اليهود في البحر، وأن الجيش السوري قد أعلن عهده بإلقاء اليهود في البحر».

وانتهت حرب فلسطين، ووقعت فترة فراغ في القضية الفلسطينية على الصعيد الشعبي ابتداء من عام ١٩٤٨ حتّى عام ١٩٦٤. فالهيئة العربية العليا التي كان يرأسها الحاج أمين الحسيني فقدت وجودها في صفوف الشعب، وحكومة عموم فلسطين التي كان يرأسها أحمد حلمي باشا عبد الباقي وئدت يوم مولدها، وأصبح الشعب الفلسطيني من غير قيادة: تجمعات فلسطينية مشتتة في الوطن العربي تتطلع بشوق إلى قيام «كيان لفلسطين» يمثل إرادة الشعب الفلسطيني، ويقود نضاله لتحرير وطنه.

كان يمكن لهذا «الفراغ» أن يستمرّ زمناً طويلاً لولا المصادفة.

وكانت هذه المصادفة أن انعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة في الأسبوع الأول من عام ١٩٦٤، وقرر الملوك والرؤساء إنشاء الكيان الفلسطيني. تمّ ذلك كما شرحت بالتفصيل في مذكراتي السابقة.

وكان مجرد عودة «الشخصيّة الفلسطينية» إلى ميدان النشاط العام مفاجأة لإسرائيل. وازداد قلقها، ومعها الولايات المتحدة، من أن الشعب المهاجر اللاجئ

---

(١) انظر: Larry Collins and Dominique Lapierre, *O Jerusalem*, p. 393.

الذي ظن فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية أنّه سيفنى بفناء أجياله الكبيرة، وتنتهي بانتهائهم القضية الفلسطينية. إن هذا الشعب قد عادت إليه حياته وهويته، وأصبح له في خلال عامين منظمة تحرير، لها جيش، وصندوق قومي، ومكاتب، ومركز أبحاث، وإذاعة، وصحيفة، وعلاقات دولية. وكُلّ ذلك من العدم، من الصفر.

ومن هنا بدأ العداء الضاري لمنظمة التحرير، من جانب إسرائيل ومن الولايات المتحدة. وقد ظهر ذلك في تصريحات زعماء إسرائيل، وفي تصريحات دين راسك وزير خارجية الولايات المتحدة.

وبدأت ملامح التشهير تظهر في إذاعات إسرائيل وصحفها، ومعها وسائل الإعلام الصهيونية. . وبدأ الكلام عن منظمة الشقيري، جيش الشقيري، إذاعة الشقيري. كُلّ ذلك تمهيداً للتشهير «الشخصي» بالشقيري. وقد غاب عنها أن الشقيري ليس هو القضية الفلسطينية، وأن كُلّ فلسطيني هو الشقيري وأحسن.

وكان الأمر الذي قام به «الشقيري» في نظر إسرائيل خطيراً وخطيراً جداً. كانت أحلام إسرائيل ومخططاتها تفترض أن الشعب الفلسطيني قد انتهى، وانتهت معه قضية الوطن، وكفاحه النضالي، وأن الشعب الفلسطيني أصبح مجموعات من اللاجئين، تشرّدوا في الآفاق، وابتلعتهم ضرورات الحياة اليومية تحت كُلّ سماء وكوكب. أما الأرض فقد تقرر مصيرها، إسرائيل في الغرب، والمملكة الأردنية الهاشمية في الشرق: ﴿**واستوت على الجوديّ**﴾[٢] صدق الله العظيم، ولم يبق إلا بعض الوقت، ويتم الصلح بين العرب وإسرائيل. هذا كان تصور إسرائيل وعلى أساسه كانت الخطة.

وخاب ظن إسرائيل، فإن قضية فلسطين أكبر من الشقيري ومن حكام العرب أجمعين، بل إنها أكبر من الشعب الفلسطيني بكل بسالاته وبطولاته، إنها قضية الأمة العربية بكل طاقاتها وقدراتها، وبكل أجيالها، إذا كان مقدراً لهذه القضية أن تعيش مع الأجيال.

وتلاحقت الأحداث العربية، فانعقدت مؤتمرات القمة العربية الثلاثة، في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء. وتوتر الموقف ربيع عام ١٩٦٧، وأعلن الرئيس عبد الناصر سحب قوات الطوارئ الدولية وأغلق خليج العقبة. وفي غمرة الموجة العارمة التي سادت الوطن العربي جاء الملك حسين إلى القاهرة، والتقى مع الرئيس

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة هود،» الآية ٤٤.

عبد الناصر، وتم توقيع اتفاقية الدفاع المشترك. وسافرت مع الملك حسين إلى عمّان وهو يقودني بطائرته، وأنا أحاول أن أقوده على درب النضال بكل صفاء وإخلاص.

وأترك بقية القصة، وقد شرحتها في الفصول السابقة، لأنتقل إلى مؤتمر صحافي عقدته في اليوم الثاني من حزيران/ يونيو في عمّان، قبل الحرب بثلاثة أيام. وقد كانت هذه المناسبة فرصة جديدة لإسرائيل لإطلاق شعار إلقاء اليهود في البحر من جديد.

كان المؤتمر الصحافي غاصاً بالمراسلين الأجانب، بالإضافة إلى الصحافيين العرب، وقد شرحت فيه الموقف العربي بالنسبة إلى القضية الفلسطينية، والمؤامرات الدولية التي أدت في النهاية إلى تشريد الشعب الفلسطيني. وأنا أقول أنقل الآن عن محضر المؤتمر الصحافي ما يتصل بالموضوع الذي نحن بصدده.

س ـ «هل تعتقدون أن التوتر الحاضر سيؤدي إلى حرب بين الدول العربية وإسرائيل؟».

ج ـ «يبدو لي أن الحرب واقعة لا محالة، وأنه أصبح لا مفرّ منها».

س ـ «وهل ستشترك منظمة التحرير الفلسطينية في هذه الحرب؟».

ج ـ «لقد وضع جيش التحرير الفلسطيني تحت إمرة الدول العربية ليحارب إلى جانبها، بل إنه سيكون في الصفوف الأمامية في هذه المعركة».

س ـ «وما هو هدفكم إذا ربحتم الحرب؟».

ج ـ «إن هدفنا هو تحرير وطننا من الاحتلال الإسرائيلي، شأننا في ذلك شأن جميع الحركات التحريرية في العالم، نناضل من أجل حريتنا الوطنية وسيادتنا القومية».

س ـ «وما هو مصير الإسرائيليين؟ هل تلقونهم في البحر؟».

ج ـ «لا نريد إلقاء اليهود في البحر، هذه تهمة قديمة، أول ما زيفتها الصهيونية على القيادة الفلسطينية عام ١٩٢٩، أثناء الثورة التي نشبت لمناسبة أحداث حائط البراق. أما مصير الإسرائيليين، فهو موضوع تقرره الأمم المتحدة باعتباره مشكلة دولية».

س ـ «هل تفضّل لنا هذا الرأي؟».

ج ـ «لقد سبق لي في عام ١٩٥٧ أن تقدمت باقتراح إلى الأمم المتحدة دعوت فيه إلى إنشاء وكالة تعرف «بوكالة العودة» تعمل على تسهيل إعادة الإسرائيليين إلى مواطنهم الأولى. وإنني أضيف الآن أن الدول العربية بوصفها أعضاء الأمم المتحدة

مستعدة لأن تساهم بنصيبها في ميزانية هذه الوكالة لتسهيل عودة الإسرائيليين إلى أوطانهم السابقة».

س ـ «وهل معنى ذلك أنكم تريدون طرد اليهود من فلسطين؟».

ج: «ليس هذا صحيحاً، نحن ضدّ إسرائيل الدولة، ولسنا ضدّ اليهود بهذه الصفة. نحن نقاوم الصهيونية وجميع الصهيونيين سواء كانوا في فلسطين أو خارجها. إن اليهود الفلسطينيين يستطيعون البقاء في فلسطين، وكذلك اليهود الذين جاؤوا من البلاد العربية. وليس لنا عليهم إلا شرط واحد، وهو ألا يكون لهم ولاء للصهيونية ولإسرائيل الدولة».

س ـ «واليهود باقون؟».

ج ـ «يعودون كما جاؤوا، لقد جاؤوا بالبحر، وبالبحر يعودون، ونحن مستعدون لأن نساهم مع الأمم المتحدة في تسهيل عودتهم إلى أوطانهم الأولى».

ويقودني ما ورد في هذا المؤتمر الصحافي إلى أن أعود إلى الماضي قليلاً. فإنه في الموضوع نفسه.

كان ذلك في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٧. ويومها ألقيت في الأمم المتحدة خطاباً مطولاً تناولت فيه قضية فلسطين من جميع جوانبها. وعرضت في جملة ما عرضت اقتراحاً بأن تنشئ الأمم المتحدة هيئة تسمى «وكالة العودة» تكون مهمتها عودة الفلسطينيين إلى فلسطين، وعودة الإسرائيليين إلى أوطانهم الأولى، وقلت، بعد أن شرحت اختصاص هذه الوكالة الدولية، ما يلي بالنصّ: «وهكذا فإنه يتضح بأننا لا نريد إلقاء اليهود في البحر. ونحن نتمنى لهم حياة أسعد وأفضل في مواطنهم السابقة حيثُ يستطيعون أن يستقروا تحت أشراف الأمم المتحدة. واليهود، المواطنون الشرعيون في فلسطين الذين يبقون في البلاد يستطيعون أن يشاركوا مع مواطنيهم المسلمين والمسيحيين في حياة جديدة من المودة والاستقرار، يطورون مستقبلهم السياسي وفق أفضل المنظمات الدستورية الديمقراطية. من غير دولة يستطيع اليهود أن يزدهروا حيثما كانوا. وفي ما يتعلق بالعالم العربي، فإن خير ما أستطيع أن أقوله هو ما أعلنه أحد قادة الثورة الفرنسية في المجلس الوطني الفرنسي: «نحن لا نعطي شيئاً لليهود كشعب، ولليهود كأفراد، فإننا نعطي كُلّ شيء». هذا ما نقوله اليوم وغداً.

وهذا الخطاب مسجل في محاضر الأمم المتحدة في الدورة الثانية عشرة. وقد طبع في كراس خاص في نيويورك، والمقطع الذي أشرت إليه منشور في الصفحة الثانية عشرة، لمن أراد أن يراجع.

وعلى هذا، فإن الذي أعلنته في المؤتمر الصحافي في عمّان في حزيران/ يونيو ١٩٦٧ أعلنته قبل عشر سنوات (١٩٥٧) على منبر الأمم المتحدة، مع التوكيد «بأننا لا نريد إلقاء اليهود في لبحر».

وكان من سخرية القدر أن الذي أكد هذا التوكيد قد زوّرت عليه إسرائيل والصهيونية العالمية وأنصارها أنّه قال «إننا نريد إلقاء اليهود في البحر».

وفي طرفة عين انطلقت وكالات الأنباء العالمية تنقل الخبر الرهيب: «الشقيري يعلن من عمّان أن العرب يحاربون لإلقاء اليهود في البحر». واستمرت هذه الحملة بكل شراستها وضراوتها، ودخلت حرب الأيام الستة ودخلت معها هذه الحملة، على هامش الانتصارات في الجولان وسيناء، وفي قطاع غزة.

وفي القطاع بالذات، حيثُ تكبد الجيش الإسرائيلي خسائر فادحة في غزة وخان يونس ورفح أمام بطولة شعبنا وجيشنا، راح المراسلون الحربيون يكتبون إلى صحفهم عن تدمير «جيش الشقيري» مع هواية أخرى، وهي إطلاق الرصاص على الجدران التي كانت تحتوي «صور الشقيري».

وانتهت الحرب، ولكن الحملة على الشقيري بدأت من جديد. فقد صنعت إسرائيل أفلاماً تسجيلية «وثائقية» عرضتها في كُلّ أرجاء العالم، وفي كُلّ لغات البشر. وقد عرضت في هذه الأفلام أحداث الحرب، وغنائم الحرب، وأسرى الحرب. وكانت في هذه الأفلام صورتي بالملابس العسكرية، أخطب في قطاع غزة، وفي القاهرة، وفي بيت المقدس، والمذيع الإسرائيلي يقول: «هذا هو الشقيري.. الذي أعلن أنّه يريد إلقاء اليهود في البحر».

وكانت هذه الأفلام مأخوذة عن صور حقيقية لي، وأنا أخطب في الاجتماعات العامة، وكانت المناسبة فيها حقيقية، ولكن ما لم يكن حقيقياً الكلام الذي نسبوه إليّ. وأنّى للمواطن العادي أن يسأل نفسه وهو يرى هذه الأفلام، ماذا كنت أقول، وماذا كنت لا أقول؟

وقد انتشرت هذه الأفلام في كُلّ أرجاء العالم، وشهدها الملايين، وأعادتها إلى ذاكرتهم بربرية تيمورلنك، وجنكيز خان، وهولاكو، واجتمعت كلها في هذا الشخص المتعطش إلى الدماء الذي اسمه «الشقيري».

وقد عرض هذا الفيلم عدة مرات في بيت المقدس بعد الاحتلال، وقد شهده الشباب العربي، وفي كُلّ مرة كانوا يشتبكون مع الشباب اليهود استنكاراً للتزوير والبهتان.

وتجاوزني الحقد الإسرائيلي إلى شبابنا الذين اعتقلوا في سجون إسرائيل، فلم يتركوا أحداً من الفلسطينيين المناضلين إلا وصاحوا في وجهه: «أنت تريد إلقاء اليهود في البحر».

وفي كتاب **مذكرات أسير** الذي وضعه المناضل الفلسطيني أسعد عبد الرحمن عن اعتقاله في إسرائيل، طرائف يجدها القارئ[٣]. ومن هذه الطرائف:

قال المحقق الإسرائيلي: «لقد جئت لتلقينا في البحر، أليس كذلك؟».

الجواب: «نحن لا نريد إلقاءكم في البحر. إن لنا حقوقاً نطالب بها».

سؤال: «وماذا تقول بتصريحات أحمد الشقيري التي أعلن فيها أنّه يريد أن يلقي اليهود في البحر».

جواب: «قلت إننا لا نريد أن نلقي اليهود في البحر. نحن نطالب بحقوقنا في بلادنا».

وتابع الأسير الفلسطيني حديثه قائلاً:

«وجاءني المحقق، في الصباح، وهو يصيح مبتهجاً: «لقد مات الشقيري. مات الشقيري». ولكننا علمنا في ما بعد أن أحمد الشقيري لم يمت ولكن حلّ محلّه يحيى حمودة في رئاسة المنظمة».

ثُمّ انتقل الحقد الإسرائيلي من شخصي إلى بيتي، فقد جعلوا بيتي في فلسطين مركزاً سياحياً يأخذون إليه السائحين، بعد زيارتهم للأماكن التاريخية، ليقولوا لهم: هذا منزل «الشقيري» الذي كان يريد أن يلقينا في البحر.

وصادف أن صحافياً لبنانياً قد اعتقلته السلطات الإسرائيلية على الحدود صيف عام ١٩٧٠ واحتجزته في إسرائيل لمدّة أسبوعين للتحقيق معه، وقبل الإفراج عنه أخذته في رحلة سياحية، وإلى منزلي، حيثُ قال له الشرطي: «هذا بيت الشقيري الذي يريد أن يلقي بنا إلى البحر».

وفي كانون الأول/ ديسمبر من هذا العام (١٩٧٢)، نقلت وكالة اليونايتد برس نبأ يقول أن السلطات الإسرائيلية قد جعلت منزل الشقيري معبداً يهودياً. والحمد لله ولا يحمد على مكروه سواه.

---

(٣) Asa'd Abdel Rahman, *Memoirs of a Prisoner*, Palestine Monographs; 51 (Beirut: Palestine Liberation Organization, Research Center, 1969), pp. 26, 51, 62, 84, 86 and 135-136.

والواقع أني حمدت الله قبل هذا الخبر بزمان، فقد انزاح شعار إلقاء اليهود في البحر عن أكتافي، وألقي على أكتاف الرئيس عبد الناصر والرئيس د. نور الدين الأتاسي، ففي ندوة تلفزيونية (٣/ ٧/ ١٩٧٠) أعلن الرئيس الأمريكي نيكسون أن مصر وسوريا دولتان معتديتان، وأن الرئيس عبد الناصر والأتاسي يريدان إلقاء اليهود في البحر.

هذا مع العلم أن الرئيس نيكسون، قبل ولايته، كان قد جاء زائراً إلى القاهرة، فاحتفى به الرئيس عبد الناصر حفاوة بالغة، فاستضافه في الأقصر وأسوان وفي غيرهما من الأماكن السياحية، ووضع تحت تصرفه طائرة خاصة. وكُلّ هذه الضيافة والحفاوة من أجل أن يصبح صديقاً للعرب، فكانت النتيجة أن الرئيس الأمريكي اكتشف أن الرئيس عبد الناصر يريد أن يلقي اليهود في البحر.

ثُمّ ألقي هذا الشعار على أكتاف الرئيس أنور السادات، فقد أعلنته غولدا مائير في اجتماع شعبي أقيم في تل أبيب، فأشادت «بالنضج السياسي الذي يتحلى به الملك حسين، وأن الرئيس السادات يصرّ على انسحاب إسرائيل إلى حدود حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وإعادة حقوق الشعب الفلسطيني، وذلك يعني رمي اليهود في البحر»، إلى آخر ما نقلته وكالة أنباء رويتر (١٤/ ١٠/ ١٩٧٢).

هذا هو عرض موجز لحكاية شعار إلقاء اليهود في البحر، وقد اخترعه اليهود في عام ١٩٢٩، ولا يزالون يرفعونه من حين إلى حين.. وهو أشبه بشعار اللاسامية الذي صنعوه في أوروبا ليشهروه في وجه من ينتقد تصرفاتهم ويعيب عليهم سلوكهم.

كان الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول آخر من شَهَروا في وجهه هذا الشعار. فقد عقد الجنرال ديغول مؤتمراً صحافياً حدد فيه موقف فرنسا من أزمة الشرق الأوسط، وتناول موضوع نشوء الوطن القومي في فلسطين وقيام إسرائيل، وألقى نظرة تاريخية على أخطاء السياسة الصهيونية، وما أدت إليه من اضطرابات وأزمات (٢٢/ ١١/ ١٩٣٧).

ولم يمض يوم واحد على بيانات الرئيس ديغول، حتّى تحركت الأجهزة الصهيونية في العالم كُلّه تشهّر بالجنرال ديغول وتتهمه باللاسامية.

فهذه وكالة الصحافة الفرنسية تقول: «إن المؤتمر الصحافي الذي عقده الجنرال ديغول أثار ردود فعل عنيفة في الأوساط السياسية الإسرائيلية» (٢٧/ ١١/ ١٩٦٧).

والصحف الفرنسية تطاولت على الرئيس ديغول وهاجمته هجوماً عنيفاً، فقد

كتب مري أحد المعلقين المشهورين في جريدة **لوموند** الفرنسية مقالة قال فيها إن ما ذكره ديغول عن إسرائيل واليهود «تفوح منه رائحة اللاسامية». وفي اللهجة نفسها ندّدت جريدة **الفيغارو** بالجنرال ديغول، وهي المعروفة بولائها لسياسته.

وشنّت الصحف الإسرائيلية حملة شعواء على الجنرال ديغول، ومنها: **معاريف، لمرحاف، يديعوت أحرنوت، عال همشمار، دافار**، وكلها أدانته باللاسامية (٢٧/ ١١/ ١٩٦٧).

وبلغت الحملة ذروتها حينما أصدر جاكوب كابلان كبير حاخامي اليهود في فرنسا بياناً ردّ فيه على الجنرال ديغول قال في ختامه: «إنه يستنكر أقوال الجنرال ديغول بإدانة إسرائيل كدولة معتدية، وأن الشعب اليهودي نزَّاع إلى السيطرة. ثُمّ أعلن كبير الحاخامين «أن اليهود الفرنسيين يعلنون تضامنهم مع إسرائيل ويدعمون جهودها» (٢٩/ ١١/ ١٩٦٧).

وعلقت جريدة **هيرالد تريبيون** الأمريكية على تصريحات الجنرال ديغول، فقالت: «إن ملاحظاته اللاسامية مذهلة بسبب الذعر الذي أحدثته في صفوف يهود فرنسا، والذي أعرب عنه حاخام فرنسا الأكبر. وستكون قوى الديمقراطية والشرف الفرنسية التي تعارض اللاسامية أمام امتحان بالغ الصعوبة، وأن موقف ديغول لا يعكس لا الشرف ولا العظمة على فرنسا». (٤/ ١٢/ ١٩٦٧).

وهكذا رفعت إسرائيل الشعارين المعروفين: إلقاء اليهود في البحر، واللاسامية. الشعار **الأول** في العالم العربي، و**الثاني** في أوروبا. ولكن. .

ولكن أحداً لم يفطن إلى أن الصهيونية قد صنعت شعاراً رهيباً طبقته عبر السنين، ذلك هو شعار إلقاء العرب في الصحراء.

وليس هذا الكلام دعابة ولا مبالغة. فإن المراجع الصهيونية كثيرة وكثيرة. وكلها تقول بالعبارة والكلمة إن على العرب أن يعودوا إلى الصحراء. . هنالك وطنهم. ولا أريد أن أزيد. فإن ذلك يستغرق كتاباً بكامله.

ويكفي أن نتذكر، والمأساة لا تحتاج إلى تذكير، مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الذي دقوا أوتادها في عام ١٩٤٨، وراحت الخيام تزداد كُلّ عام حتّى أصبحت مجموعة اللاجئين والنازحين مليوناً ونصف مليون، يعيشون حياةً، الموت معها أكرم وأشرف.

ولست أعتذر عن الإشارة المتواصلة إلى اسمي في هذا الفصل، فإني شخص عابر تحت هذا الشعار، شعار إلقاء اليهود في البحر. وسيمر تحته غيري من الذين دفعتهم الأقدار إلى المسؤولية القيادية في قضية فلسطين.

وكُلّ قصدي أن يزداد المواطن العربي معرفة بالعدو وأساليبه، ودعاياته، وأن يعلم كذلك أن دعاياته قد اخترقت عقول بعض العرب، فراح يصدّق التزوير الإسرائيلي، ولا يتردد أن يحكي «بحكمة ورجاحة وعقلانية» قائلاً: «يا أخي هذه نتيجة خطبنا بأننا نريد أن نلقي اليهود في البحر!».

تلك هي قصة الصهيونية: اخترعت شعار إلقاء اليهود في البحر، زوراً وبهتاناً، وألقت بالعرب في الصحراء فعلاً وعملاً.

وليس غريباً على إسرائيل أن تستخدم البحر في دعاياتها، فإن لها فيه أحداثاً وأحداثاً.

ويقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده**﴾[٤].

﴿**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون**﴾[٥].

﴿**فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر**..﴾[٦] صدق الله العظيم.

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة يونس،» الآية ٩٠.

(٥) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٥٠.

(٦) المصدر نفسه، «سورة الشعراء،» الآية ٦٣.

استقالـــة أم إقـالـــة؟

هذا هو الفصل الأخير في مذكراتي، أكرسه للحديث عن استقالتي أو إقالتي من رئاسة منظمة التحرير. وسأحرص في ما أكتب على الإيجاز والتجاوز.

أما الإيجاز، فلأني أريد أن يكون شخصي، كمًّا وحجماً، بقدر ما يتصل بالقضية العربية، وأنا واحد من الذين ساهموا في ميدانها بقدر متواضع.

والتجاوز، فإنه مفروض عليَّ لا من طبع الصفح والتسامح في نفسي فحسب، بل إنه، أولاً وآخراً، نابع من تجربتي الطويلة مع الأصدقاء والزملاء، ومن قراءاتي الطويلة في كتب السير والتراجم، وكيف تقوم العلاقات بين الرجال اتصالاً وانفصالاً، وخيانة ووفاء وغدراً وصفاء. وأصبحت هذه المعاني في نفسي أمراً واقعاً أو متوقعاً.

ولعلي أبدأ هذا الفصل بما انتهى إليه مؤتمر الخرطوم، فإني أعتبر أن مؤتمر الخرطوم بالقرارات التي اتخذها، وبالقرارات التي ما اتخذها سيفرض عليَّ الاستقالة عاجلاً أو آجلاً.

وقد انسحبت من مؤتمر الخرطوم لا لأزايد على الملوك والرؤساء، فالذي يزايد على أمثال هؤلاء الرجال يجب أن يكون واحداً منهم، أو طامعاً في أن يصبح واحداً مثلهم. وأنا كفلسطيني لاجئ، لا أمل لي في أن أكون ملكاً أو رئيساً. فلم يصل الحال في الوطن العربي إلى أن يصبح الإنسان العربي رئيساً أو ملكاً في غير «دولته». وكان الحال في القرون الوسطى أن الإنسان العربي يكون ملكاً أو وزيراً أو قاضياً في غير القطر الذي نشأ فيه. وصلاح الدين الأيوبي التكريتي العراقي، سلطان مصر والشام، ومحرر بيت المقدس، واحد من أروع الشواهد، وأرفع الأمثال. .

ولهذا، فإن انسحابي من مؤتمر الخرطوم لم تكن له أسباب شخصية إطلاقاً. فقد كانت حوافزه عامة وأساسية، قد تبدو خاطئة في يومها، وأثبتت الأيام صوابها، وأعوذ بالله من الغرور.

وهذه الأسباب العامة الأساسية قد شرحت في الفصول السابقة، وهي التي دفعتني إلى الانسحاب من الساحة الرسمية إلى ساحة أخرى بدأت أبحث عنها في أعماق نفسي.

وكانت هذه الساحة التي تخيلتها هي مزيج من الساحة الرسمية والشعبية: تعاون مع الدول العربية التي يمكن التعاون معها، ونضال على الصعيد الشعبي.

وهذا ما قصدت إليه فعلاً حين أعلنت في المؤتمر الصحافي الذي عقدته في الخرطوم بعد انسحابي من اجتماع القمة من أن «المنظمة ستعيد تنظيم مؤسساتها لتكون قادرة على مواصلة الكفاح، ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي، متلاحمة مع جميع القوى المناضلة في الوطن العربي» (١/ ٩/ ١٩٦٧).

وكان لا بُدَّ لنا من طريق جديد، بل لا بُدَّ من تغيير الطريق، والهدف لا يتغير. وقمت في حملة شورى هادئة، فالتقيت بعدد وافر من الإخوة الفلسطينيين والعرب، وبدا لي جلياً أن طريقنا بعد الهزيمة يجب أن يختلف عن طريقنا قبل الهزيمة.

قبل الهزيمة وضعت مؤتمرات القمة الخطة الواضحة لتحرير فلسطين، فأنشأت القيادة العربية الموحدة لإعداد خطط الدفاع، ومن ثمّ تطويرها لتكون قادرة على الهجوم. وكانت منظمة التحرير بجيشها وشعبها جزءاً لا يتجزأ من الخطة.

ولقد وقعت في ذلك العهد أخطاء ومخالفات، ولكن خطة التحرير بقيت قائمة في الفكر والتخطيط، وإن لم تستكمل كُلّ وسائل التنفيذ.

وكنت أقدّر أن الزمن سيجسد معالم الطريق، وسيسقط المتقاعدون والمتقاعسون، ليبقى في الميدان أولئك الذين يستطيعون أن يقاتلوا معاً وأن ينتصروا معاً.

ولكن، هنا الفاجعة، ولكن هذا التصور لمستقبل التحرير قد انقصف قبل أن تتفتّح أكمامه، كما تنقصف براعم الزهور تحت وطأة الصقيع.

ولقد وقعت المعركة في حزيران/ يونيو قبل موعدها بأعوام. فقد وقعت في عام ١٩٦٧، وكان أحسن عام لإسرائيل وأسوأ عام للأمة العربية.

وما أسهل الكلمة الحكيمة بعد الهزيمة، ولكن كان الأمر واضحاً من غير حاجة إلى عقل كبير. فقد كان حكام العرب يعرفون الحقيقة الأساسية، أن أوضاع الأمة العربية السياسية والعسكرية والاقتصادية في عام ١٩٦٧ لا تصلح لا للدفاع ولا للهجوم، ولكنها تصلح للهزيمة، نعم الهزيمة.

ولست أقول هذا الكلام اليوم، بل إني أكدته أمام خمسين إنساناً من قادة الشعب الفلسطيني في فندق الامباسادور في بيت المقدس قبل المعركة بثلاثة أيام، وما لقيت واحداً منهم بعد ذلك إلا ويذكرني بذلك الحديث الخائف.

غير أن الحكم العربي المعاصر المتميز باللامبالاة، واللامسؤولية، واللاعقلانية، قد استدرجه مكر الأصدقاء وغدر الأعداء إلى معركة في غير ميدانها وفي غير زمانها. فكانت الهزيمة الساحقة الصاعقة.

ولم يكن نصر إسرائيل معجزة فريدة، ولكن هزيمة العرب نفسها لم يكن من سبيل إلى تجنبها إلا بمعجزة خارقة.

وكانت المعادلة بسيطة أمام الذين يعقلون، وكانت أطراف المعادلة كما يلي:

أولاً: دول عربية متشاحنة، مبددة الطاقات، موزعة الأهواء.

ثانياً: أمة عربية واحدة تحكمها ثلاث عشرة حكومة، لا تستمد سلطاتها من الشعب، في مناخ بعيد عن الحريات الأساسية والديمقراطية الحقيقية[1].

ثالثاً: جيوش عربية عصفت بها الانقلابات والصراعات، لتكون حارسة «للنظام»، لا حامية للوطن.

رابعاً: مواجهة إسرائيل، تساندها الولايات المتحدة من غير قيد ولا شرط.

خامساً: صداقة مع الاتحاد السوفياتي ضمن القيود والحدود.

وإن معادلة هذه أطرافها لا بُدّ من أن تكون نتيجتها الحتمية هزيمة للعرب ونصراً لإسرائيل. هذا بكل بساطة.

ولو أن البنود الثلاثة الأولى من المعادلة، وهي البنود العربية، كانت على غير ما كانت عليه، لجاءت النتيجة الحسابية نصراً للعرب وهزيمة لإسرائيل.

ومن أجل ذلك خرجت من مؤتمر الخرطوم لأبحث عن الطريق الجديد..

وكان طبيعياً أن أبدأ بالجانب الفلسطيني. وكانت منظمة التحرير هي السؤال الأول.

لقد أنشئت منظمة التحرير في ظروف اختلفت: المنظمة أنشئت للتحرير، ولم يعد التحرير جزءاً من خطة مؤتمر الخرطوم، ولو على مراحل، ولو على المدى البعيد.

---

(١) باستثناء دولة أو دولتين.

لقد اقتصر مؤتمر الخرطوم، فكره وتخطيطه، على إزالة آثار العدوان، وبالطريق السياسي، بطريق الأمم المتحدة، وبالتحديد عن طريق الدول العظمى.

ولم أكن مؤمناً بهذا الطريق لا بعقلي ولا بخبرتي.

وصدر قرار مجلس الأمن، وأعلنت رفضه للأسباب التي شرحتها. وراح الحكم العربي، بعد أن رفضه يوماً وليلة، يطالب بتنفيذه، ويبرّر ذلك بأنه أسلوب تكتيكي يقصد منه عزل إسرائيل، وكشف مخططاتها، ووضعها في موقع الرافض، كأنما هذا الذكاء التكتيكي لا تملك إسرائيل منه شيئاً، أو كأن ردود الفعل الدولية ستعيد للأمة العربية شبراً واحداً من أرضها، وذرة واحدة من كرامتها.

ليست إسرائيل غبيّة إلى هذا الحدّ، لكن كان الحكم العربي هو الغبي في البداية، ووقع في الخيبة في النهاية.

وانتقل الحكم العربي من التكتيك إلى الاستراتيجية، فأصبح قرار مجلس الأمن مطلباً قومياً، وراح يخدع الجماهير العربية، ويوحي إليها بأن قرار مجلس الأمن نصّ على أمرين أساسيين:

الأول: الانسحاب من جميع الأراضي العربية.

و**الثاني**: المحافظة على حقوق الشعب الفلسطيني.

والأمر الأول كذب، والأمر الثاني زور، فإن قرار مجلس الأمن لا يتضمن الأول ولا الثاني، كما يزعمه الحكم العربي.

والمصيبة الكبرى أن الحكم العربي مسيطر على أجهزة الإعلام العربية، فلا مجال لأن تسمع الأمة العربية غير الكذب والزور.

ولهذا، كان لا بُدَّ من أن يعاد النظر في الكيان الفلسطيني بعد أن اختلفت عليه الظروف، وخطرت لي خواطر، وبدأت بتنفيذها.

خطر لي **أولاً** أن مقاومة الاحتلال الإسرائيلي يجب أن تبنى داخل الضفة الغربية وقطاع غزة. وإذا كان رئيس الأركان السوري قد اعتقل ضباطنا الثمانية عشر ومنعهم من دخول الضفة الغربية، كما شرحت، فلا بُدَّ من المحاولة ثانية وثالثة. ولا بُدَّ من أن «نُهرِّب» جيش التحرير الفلسطيني إلى داخل البلاد.

وخطر لي **ثانياً** أن أجمع قادة المنظمات الفدائية، وكانت في بدايات أعمالها، في طائرة واحدة إلى العراق، لنجتمع في أحد أجنحة وزارة الدفاع لمدّة أسبوع ولا نخرج إلا متفقين. وقد وافق اللواء شاكر محمود شكري وزير الدفاع العراقي

على أن يضع تحت تصرفنا طائرة عسكرية عراقية، ووزارة الدفاع العراقية.

وخطر لي **ثالثاً** أن الكيان الفلسطيني يجب أن يعاد بناؤه على هيئة طابقين: **واحد**، فوق الأرض، وهو منظمة التحرير، للشؤون السياسية والتنظيمية والمالية والإعلامية، والطابق **الثاني** تحت الأرض يختص بشؤون الثورة الفلسطينية المسلحة تحت قيادة مجلس الثورة. ويكون بين الطابقين سلّم يصل بينهما، بعيد عن الإعلان.

وخطر لي **رابعاً** أن أستقيل من رئاسة منظمة التحرير، ففي الشعب الفلسطيني كفاءات سياسية كثيرة، لأكون مستشاراً لمجلس قيادة الثورة الفلسطينية، لأُعرف، ولا يُعرف مجلس قيادة الثورة.

وبدأت اتصالاتي بعدد من الفلسطينيين أبحث معهم هذه الخواطر وسبل تنفيذها.

وكان واضحاً منذُ البداية أن ميلاد الكيان الفلسطيني الجديد لا يقصد منه أن يكون قوى ضاغطة على إسرائيل حتّى تنفذ قرار مجلس الأمن.

لقد كنت أريد قيام مجلس الثورة ليعبئ الشعب الفلسطيني، ومعه الجماهير العربية في معركة التحرير. إنها معركة طويلة حقاً، ولكن طول الزمن لا يحمل على التنازل عن الهدف.

وشعار «ثورة حتّى النصر» كان هو الهدف، فلا يمكن أن تكون الثورة فريقاً في التسوية، ولا طرفاً في التصفية. وقضية فلسطين هي القضية الوحيدة في العالم التي لا تقبل التسويات المرحلية، فليست الحدود في هذه القضية هي المشكلة. المشكلة هي وجود إسرائيل الدولة. والمشكلة هي الوطن، هل هو لنا أو لإسرائيل؟

وفي إطار استشاراتي العربية، كان يقول لي بعض المسؤولين العرب: «نحن الآن معنيون بإجلاء إسرائيل عن سيناء والضفة الغربية والجولان، أما الأرض الفلسطينية الباقية فقد مضى على احتلالها عشرون سنة».

وكنت أقول: «وهب أن الاحتلال استمرّ في الجولان وسيناء عشرين سنة أخرى، فهل نتركها ونتخلى عنها؟».

ولا أجد جواباً، ولكني أسمع مرة ثانية كلاماً آخر: «وهل من مانع من العودة إلى حدود حزيران/ يونيو بالجهود السلمية؟».

وكنت أقول: «لا مانع أبداً. ولنفرض أن إسرائيل وافقت، وهي فرضية غير

قائمة، فهل «تعطيكم» إسرائيل أرضكم هذه قبل أن توقّعوا وثيقة تتنازلون بموجبها عن الأرض المحتلة سابقاً، وإنهاء حالة الحرب. و. . و. .؟».

ولم أكن أجد جواباً.

وفي تلك الحقبة، بدأ د. يارنغ مبعوث الأمم المتحدة رحلته إلى الشرق الأوسط لتطبيق قرار مجلس الأمن. وكانت أول مذكرة تلقاها حول الموضوع، مذكرة أرسلتها منظمة التحرير الفلسطينية، ترفض قرار مجلس الأمن رفضاً قاطعاً باسم الشعب الفلسطيني وباسم الجماهير العربية.

وألقت أجهزة الإعلام العربية الرسمية ستاراً من التعتيم على هذه المذكرة، كأنما نزلت غارة معادية على الأرض العربية، ولم تنشر إلا في صحف بيروت.

وحفظ الله بيروت للعرب أجمعين.

وأقول للعرب أجمعين، فإن جميع المضطهدين العرب، المعذبين بأوطانهم وحكامهم، لاجئون إلى بيروت. والملك فيصل نفسه قد اعترف بهذه الحقيقة، ففي صيف عام ١٩٧١ حين كان في زيارة رسمية للبنان، أثنى على لبنان «بأنه ملجأ المضطهدين»، ولم يقل مَن الذين يجعلون الناس «مضطهدين».

وكائناً ما كان الأمر، فقد عرف في أوساط المنظمة أن هناك نية في التغيير والتبديل، وهنا لا أخوض في التفصيل. فوجّه إليّ سبعة من أعضاء اللجنة التنفيذية مذكرة يقولون فيها إنه «حرصاً على الكيان الفلسطيني، وتحقيقاً للوحدة الوطنية، ووحدة النضال المسلح، وتمكيناً للمنظمة من التصدي لإحباط المحاولات والإجراءات المترتبة على قرار مجلس الأمن الذي يستهدف تصفية القضية الفلسطينية، نعلن أنّه لا بُدَّ من تنحيتكم من رئاسة اللجنة التنفيذية للمنظمة إذا ما أريد لها البقاء. ونطلب إليكم التنحي فوراً عن رئاسة المنظمة لنتمكن بالتعاون مع ذوي الرأي من إخواننا أبناء فلسطين من الوصول إلى قيام قيادة جماعية واعية للمنظمة تعمل على مستوى الأحداث».

وليس لي تعليق على هذه المذكرة، فإن الأعضاء السبعة الذين قدموها مواطنون مخلصون أضاعت الكارثة صوابهم، وتقديرهم وحسابهم، فكتبوا ما كتبوا، من غير تدبر عميق بالعواقب.

ولا أريد أن أدخل الآن في مناقشة هذا الطلب، ومشروعيته، ذلك أن ميثاق المنظمة قد خوّلني الحقّ في اختيار زملائي في اللجنة التنفيذية، وأني أملك إعفاءهم من هذه الزمالة واختيار غيرهم بدلاً منهم. وكان هذا الحلّ وارداً أمامي.

وقد وصلتني هذه المذكرة في الرابع عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٧، وقدمت استقالتي في الرابع والعشرين من الشهر. ولم يكن ذلك استجابة للإخوة السبعة، فأنا أعلم أن الشعب الفلسطيني في مجموعه لا يريد استقالتي، فضلاً عن إقالتي.

ولكن قراري بالاستقالة كان مبنياً على عوامل أخرى كانت وراءها أوضاع عربية ودولية.

ولا أريد أن أتحدث طويلاً عن الأوضاع الدولية، فإن الذين يعملون في قضية فلسطين لا بُدّ وبالضرورة الحتمية من أن يقعوا في صراع مع مختلف القوى الدولية، ذلك أن تحرير فلسطين وإزالة إسرائيل الدولة لا يتفق مع مخططات ومصالح عدد من الدول العظمى والوسطى والصغرى، وكان من الطبيعي لمن يتصدى لإسرائيل أن يتصدى لهذه القوى الدولية.

أما الوضع العربي، فقد وقعت معه في أزمة تجسدت في ما يلي:

أولاً: إن انسحابي من مؤتمر الخرطوم كان في نظر الملوك والرؤساء «عملاً غير لائق».

ثانياً: إن الملك حسين والملك فيصل والرئيس بورقيبة قد أعلنوا عدم «انشراحهم» للتعاون مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في مناسبات متعددة.

ثالثاً: إن رئيس منظمة التحرير قد أصبح شخصاً بغيضاً لدى الرأي العام الدولي بسبب «تصريحاته» عن إلقاء اليهود في البحر.

رابعاً: إن استعادة سيناء والجولان والضفة الغربية أمر ميسور في مدة قصيرة، عن طريق المساعي السياسية والدبلوماسية. ولكن رئيس المنظمة، بتصريحاته واتصالاته، يشكل إحدى العقبات أمام تحقيق هذه الغاية.

خامساً: إن مؤتمر الخرطوم لا يُنتظر أن ينعقد في موعده المقترح، لأن الخارجية التونسية قد بعثت بمذكرة تقول فيها إن الرئيس الحبيب بورقيبة لا يجلس مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وقد تعززت هذه الرغبة بتأييد الأردن والسعودية. ولم تكن هذه العوامل الخمسة كافية وحدها لحملي على الاستقالة، فالحكام العرب متنافرون في ما بينهم، ولا يستطيع أحد أن يقيل هذا أو ذاك، فضلاً عن أني كنت في الواقع أكثر تمثيلاً للشعب الفلسطيني من عدد كبير من حكام العرب بالنسبة إلى شعوبهم.

ولكني قررت الاستقالة بعد أن رأيت على مدى عشرة أيام ظاهرة لا أريد أن أخوض في تفسيرها أو تبريرها.

هذه الظاهرة كانت في الواقع تظاهرة. فقد أخذت صحف القاهرة على نفسها بقيادة جريدة **الأهرام** إبراز مذكرة الإخوة السبعة والتعليق عليها، ونشر صور أصحابها، وتصريحاتهم ومطالبتهم باستقالة رئيس المنظمة.

وعلى مدى أيام كانت الصفحات الأولى في جريدة **الأهرام** مكرّسة بالعناوين البارزة، وهي تتحدث عن أزمة المنظمة «واستقالة الشقيري» حتّى أصبح القتال في فييتنام، والصراعات الدولية، والخلافات العربية، أموراً تأتي في المقام الثاني من الاهتمام.

وقرأت كُلّ هذا. وفهمت ما يجب أن أفهم. وقدمت استقالتي لا إلى الإخوة السبعة، ولا إلى الملوك والرؤساء الثلاثة عشر، ولكن إلى الشعب الفلسطيني. . وكان نصّ الاستقالة موجزاً كما يأتي:

«أقدم استقالتي إلى الشعب الفلسطيني، الشعب الأسير الشريد، المهاجر الطريد، وأقدم استقالتي كذلك إلى الفدائيين الأبطال الذي يخوضون في هذه الأيام غمرات النضال على أرض الوطن الحبيب، وأبتهل إلى الله العلي القدير أن يحفظ شعب فلسطين ويحفظ قضيته، وأن يصون نضاله ويصون منظمته، وعهدي لمن يأتي بعدي أن أكون له سنداً وعضداً أضع بين يديه كُلّ تجربتي وطاقتي، كطاعة الجندي بين يدي القائد، فتلك سيرة سيدنا خالد، قاتل قائداً وقاتل جندياً، والحمد له أولاً وآخراً».

وقد قامت مسيرات وتظاهرات تعترض على استقالتي، ووصلتني عرائض وبرقيات تطالبني بالبقاء في موقع المسؤولية. ولكني آثرت أن أستقيل لأفسح المجال لغيري، فقد يكون على صواب، وأكون على خطأ.

وتلقيت من منظمة التحرير، ومنهم الإخوة السبعة، كتاباً بقبول استقالتي تعرب فيه المنظمة عن «تقديرها الكبير للجهود التي بذلتموها منذُ قيام منظمة التحرير الفلسطينية. وهي تقدر تمام التقدير ما تحملتم في سبيل قيام المنظمة من أعباء وأديتم لها من خدمات». (٢٥/ ١٢/ ١٩٦٧).

ومنذُ ذلك اليوم، وأنا استقبل العديد من أبناء فلسطين، ومنهم الإخوة السبعة وهم يناشدونني العودة إلى المسؤولية القيادية، وكنت أعتذر على الدوام، وأنا أقول لهم في ختام حديثي: «ليست مشكلتي مع الشعب الفلسطيني ولا مع الجماهير العربية. . إن مشكلتي مع الملوك والرؤساء؛ أنا لا يمكنني العمل معهم، ولا يمكن العمل من دونهم، وهذه هي المشكلة. وها قد مضت ستة أعوام على استقالتي والأرض العربية تحت الاحتلال الإسرائيلي، والحلول السلمية تقف أمام طريق

مسدودة، والملوك والرؤساء لا يُجمعون على رأي واحد، والشقيري الذي اختاروه كبش الفداء التزم بيته، واستراح وأراح».

وإذا كنت قد «عُزلت» عن المسؤولية القيادية، فإن مسؤوليتي كمواطن لم تعزل، ولا يملك أحد أن يعزلني عنها.

وإذا كانت قد انتهت قيادتي، فإن مواطنتي قد ابتدأت.

وقد بدأت مواطنتي بكتابة مذكراتي، وها أنا أفرغ من الجزء السادس منها، لتكون في مجموعها سجلاً لأعظم أحداث وقعت للأمة العربية بعد الحملات الصليبية وغزوات التتار في القرون الوسطى.

ولن تنتهي مواطنتي بنهاية مذكراتي. فالمواطنة تنتهي بانتهاء الحياة.

إن تجاربي الدولية والعربية هي ملك أمتي العربية بأجيالها الصاعدة والوافدة، وسأضعها بين يدي الإنسان العربي. وإن اجمل الأيام في أخريات العمر للإنسان الحيّ أن يقرأ، وأن يكتب.. وها أنا أدعو الله:

أن يحفظ عقلي لأفهم.

وأن يصون بصري لأقرأ.

وأن يشدّ يدي لأكتب.

ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾[٢] صدق الله العظيم.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة النحل،» الآية ٧٨.

في معسكرات جيش التحرير الفلسطيني في سيناء

في ٥ حزيران تحول بيتي في كيفون إلى ثكنة للفدائيين . . ويبدو هنا المقدم محمد الشاعر يعطي توجيهاته إلى فصيل من الفدائيين المستجدين

في بيت الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

مع الفريق أول علي علي عامر

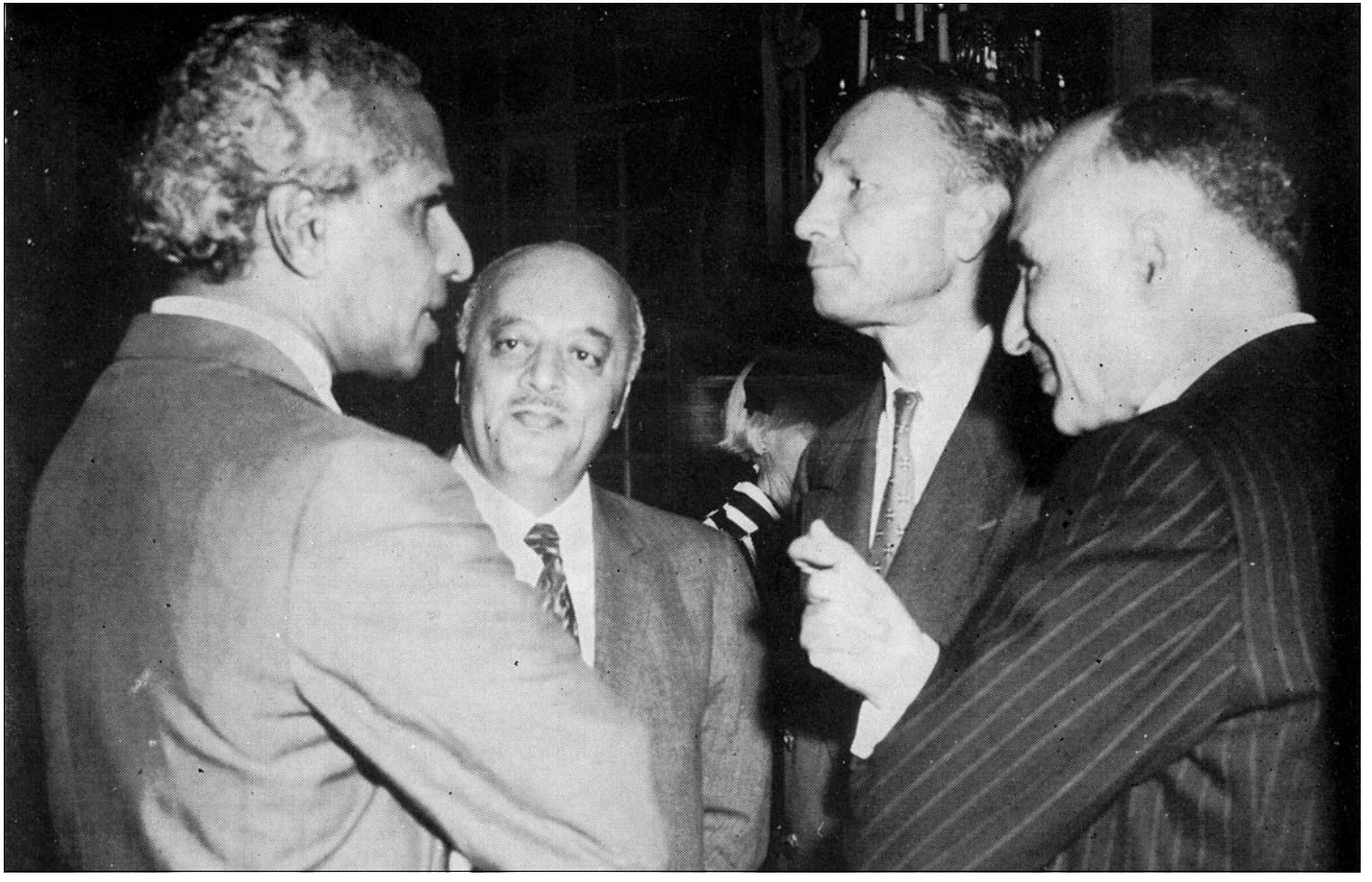

مع كريشنامينون الزعيم الهندي ومحمود فوزي نائب رئيس جمهورية مصر العربية

مع يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة

فدائيات من جيش التحرير الفلسطيني

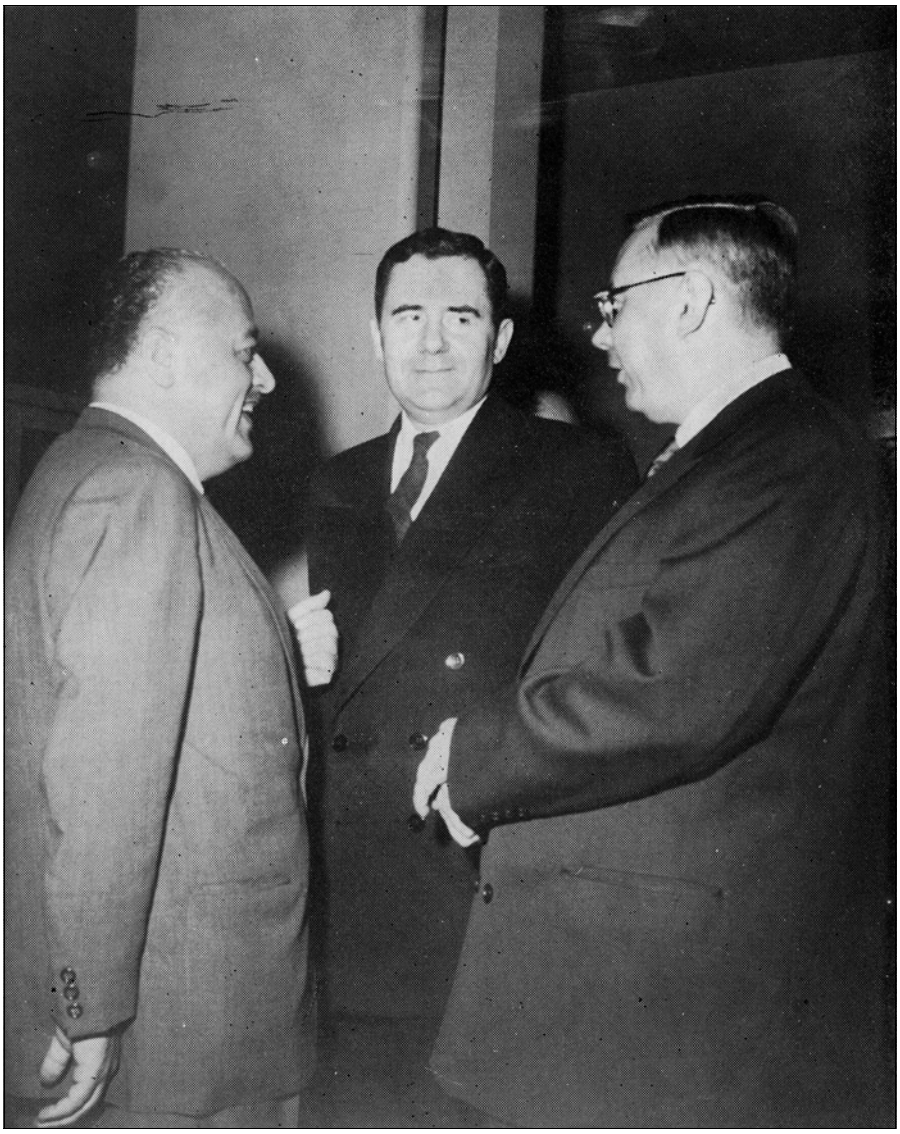

مع جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتي